بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى :

تاريخ الإسلام منذ فجر الإسلام إلى اليوم

(إطـــار البحث)

ظهر الإسلام بعد إنهيار الحضارة الرومانية التي أوشكت على الانحلال عام ٤٤٠م فما كادت كلمته ترن في الآفاق حتى أخذ مكان القيادة في العالم كله خلال مائة عام ، فقد نشأ في الجزيرة العربية ولكنه لم يلبث بعد اثنى عشر عاما من الهجرة أن وسع نفوذه إلى العراق وفارس إلى الشام ومصر وأفريقيا حتى بلغ الأندلس عام ٩٣٠هـ ٧١١ م ثم بلغ السند وماوراء الهند وأشرف على أوربا وأوغل في فرنسا وجنوبي إيطاليا حتى أوقفه اتساع الدائرة التي امتدت من دمشق إلى بواتية عابرة هذه الألوف من الأميال في معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ — ٧٤١ م) . وقد امتدت هذه الدولة من حدود الصين إلى حدود فرنسا في أقل من مائة عام وبلغت من السعة الضخمة في هذا المدى القصير من عمر الزمن ، الواسع في الامتداد الجغرافي على غير نحو مسبوق في الحضارات والامبراطوريات كالدولة الرومانية وغيرها . ولاشك أن القيم والمبادىء التي يحملها الإسلام تفسير هذا التوسع والتطور ، لم يكد يبدأ القرن الثاني الهجرى حتى كان الغرب قد بدأ الصراع مع القوة الجديدة محاولا إيقاف مدها في معركة بلاط الشهداء .

هذه المعركة التي قادها كارل مارتل والتي عدها بعض المؤرخين الغربيين تجميداً لنمو الإسلام واتساعه . ولقد اعترف الكثير من المؤرخين المنصفين بأن معركة بواتيه (بلاط الشهداء) كانت شراً على أوربا ، وأنها أوقفت الحضارة الجديدة الإسلامية عن النمو والامتداد سبعة أو ثمانية قرون . هكذا نظرت أوربا إلى الإسلام ، وقد وصمت هذه النظرة من بعد فحسبت أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا كانت كلها تابعة للدولة الرومانية ، وأن الإسلام قد انتزعها من الغرب وأن من حق الغرب أن يستعيد هذه الأرض ويرد الإسلام إلى الجزيرة العربية . وفي خلال قرن ونصف قرن توالت الحملات الصليبية (ثمان حمــلات من ٤٨٩ هـ إلى ١٩٠٦م إلى ٦٤٤هـ — ١٢٥٣م) لم تتوقف ، وجاءت حملة لويس بعد هذا التاريخ بعشرين عاما على تونس وهي ما يطلق عليها المؤرخون الحملة

الصليبية الثامنة ، وكانت هذه هى قمة الضغط على الإسلام ومحاولة تمزيقه والقضاء عليه . وقد مضت أوربا عن طريق بيزنطة لا تتوقف عن مهاجمة حدود عالم الإسلام تترقب الفرصة بعد الفرصة للتوغل والسيطرة على هذا المدخل الحيوى ، وظلت القوة الاسلامية تردها وتديل منها حتى هزمت بيزنطة فى معركة ملاذ كرد ، وأحس الغرب بأنها لم تعد قادرة على تحقيق مطامعها ، هناك قذف الغرب عالم الاسلام بالحملات الصليبية المتوالية وأقام المملكة اللاتينية فى قلب عالم الاسلام . وظلت تمتد حتى برز صلاح الدين فانتصر فى حطين عام ٥٨٣ — ١١٨٧م واسترد بيت المقدس . وكانت حملة التتار التى اجتاحت « عالم الاسلام » منذ عام ٦١٦هـ ١٢٤٩م فاستطاعت أن تستولى على بغداد ٦٥٦ — ١٢٥٨م وأن تتوالى توسعاتها حتى ردها المسلمون فى عين جالوت ٦٥٩ — ١٢٦٠م . وكانت معركة تصفية الأندلس من العرب والاسلام قد بلغت دورتها عام ٨٩٨هـ ١٦٠٩م باتفاق فرديناند وايزابيلا، واستطاعت فى خلال مائة وعشرين عاما أن تجلى المسلمين نهائياً عن الأندلس وأوربا فتم ذلك عام ١٠١٨هـ — ١٦٠٩م غير أن حملات الغزو على عالم الاسلام لم تتوقف إلا بقدر ما أتيح لأوربا استعادة الأندلس ومن ثم انطلقت البرتغال وأسبانيا إلى تطويق عالم الاسلام فى حركة ضخمة سيطرت على سواحل أفريقيا وحولت مجرى التجارة الأوربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى محاولة لفرض الحصار الاقتصادى على العالم الاسلامى وأضعافه اقتصاديا ، وقد وصلت عملية التطويق إلى الهند وتجاوزتها إلى الملايو ومهدت « لعصر الاستعمار » الذى بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر بالحملة الفرنسية على العالم العربى كمقدمة للسيطرة على العالم الاسلامى كله وقد بلغت ذروتها فى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ . وهكذا تبدو صورة العالم الاسلامى فى معركة مستمرة بينه وبين القوى المعادية له ، المندفعة إلى السيطرة عليه فى عمليات غزو متصلة ، خرج منها الاسلام ظافراً منتصراً لم يتوقف خلال هذا التاريخ عن الامتداد والاتساع بقوته الذاتية ، فإذا كان قد انحسر نفوذه عن أوربا من ناحية المغرب والأندلس ، فإنه امتد إلى قلب أوربا من ناحية الشرق عندما سيطر العثمانيون على القسطنطينية ٨٥٨هـ ١٤٥٢م ومدوا نفوذهم حتى بلغ أسوار فينا ١٠٩٥هـ ١٦٨٣ فى قلب أوربا ويمكن القول بأن ما بلغه العالم الاسلامى فى فترة الحكم العثمانى من ضعف إنما جاء نتيجة عدة عوامل أبرزها « دورة التاريخ » ذات الحكم الذى لا مرد له ، نتيجة التوسع الجغرافى من ناحية والامتداد الزمنى من ناحية ، غير أن العامل الحاسم فى حركات الجزر إنما ترجع بقدر أكبر من الأهمية إلى العوامل الخارجة إلى العمليات الخارجة وهى عمليات الغزو التى جرت على فترات متوالية خلال هذا التاريخ الطويل ، وأبرزها عملية الغزو الاستعمارى الحديث التى بدأ عام ١٧٩٨ — ١٢١٣م . وإذا كان النفوذ الغربى الذى سيطر على العالم الاسلامى وامتد حتى اليوم خلال القرنين ١٣ و ١٤

المحربين قد حقق بعض النتائج فى مجال الاستعمار ، فإن الاسلام — الذى سقطت دولته فى براثن الاحتلال الفرنسى البريطـــانى الأسبانى الايطـــالى — لم يوقف أمرين : (الأول) الفـكر الاسلامى الذى ظل حياً متحركا قوياً ممتداً ، والذى تعمق خلال هذين القرنين الأخيرين وتوسع وكشف عن نفسه غطاء الجمود والتخلف والتقليد وبدت معالمه أشد وضوحاً وأكثر إشراقا مما كانت فى فترة الضعف التى سيطرت على العالم الاسلامى . (الثانى) توسع الاسلام نفسه بالانتشار فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، بالرغم من سيطرة الهيئات التبشيرية المختلفة المسنودة بالحـكومات والاحتلال ، فقد استطاع الاسلام أن يحقق عن طريق التوسع الذاتى انتصارا ساحقاً يمـكن أن يوصف بأنه أضاف للإسلام أكثر من خمسمائة مليون مسلم .

والظاهرة الواضحة أن تاريخ الاسلام لم يتوقف فى أى مرحلة من مراحله عن تقديم بناة الدول وقادة الفـكر ، وكان جريا على ناموس الحياة يمر بمراحل القوة ، ثم يمر بمراحل الضعف ، ثم يعود مرة أخرى إلى القوة من خلال الدول المتجددة ، والبناة الذين يقومون على هذه الدول ، ومن خلال الفـكر الاسلامى العربى المتجدد وقادته ، الذين لم يتوقفوا يوماً عن إتاحة الفرصة للنمو الانسانى والحضارى ، وفتح الطريق لالتقاء الاسلام بالحياة والحضارة ، كاشفاً عن قدرة الاسلام على الالتقاء الدائم ، والحركة المتصلة فى العلاقة بين مجتمعه وبين مختلف الحضارات والثقافات والمجتمعات مع القدرة على الأخذ والعطاء ومع المحافظة الدائمة على مقوماته الأساسية . ويمـكن النظر إلى تاريخ الاسلام كوحدة تامة منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وتتمثل صورته شاملة كاملة فى مجاليه الواسعين . (١) مجال بناء الحضارة . (٢) مجال بناء الفـكر ولا يمـكن — حين إلقاء النظر نحو أحدهما دون الآخر — أن تـكون الصورة واضحة أو تـكون النظرة صحيحة ، فقد كان بناء الحضارة وتطور الفـكر يجريان فى خط واحد فى مواجهة تحديات واضحة ، هى تحديات الجمود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية فى آن واحد . فمن خلال الجماعة الاسلامية الأولى التى كونها الرسول : محمد ﷺ أمكن تعميق مفهوم الاسلام الذى حملته هذه الجماعة ومضت تشق به وجه هذا الـكوكب شرقا وغربا منطلقة من قلب الجزيرة — ذلك المنطلق الذى قام موجات بشرية متعددة من قبل — حتى بلغت حدود الصين وحدود فرنسا . وإلى الذين يعجبون من قدرة الاسلام — التى توصف بأنها خارقة — على التوسع فى خلال هذه الفترة القصيرة ذلك المدى ، أن يذكروا أثر عملية البناء التى أجراها (محمد) الرسول بتعاليم (القرآن) لهذه الجماعة الصغيرة من أتباعه حين سيطر مفهوم جديد للحياة ، يحمل طابع التوحيد لله والايمان بدعوته والاندفاع فى صدق لنشرها فى آفاق الأرض ، وبذل النفس والتضحية

بالروح فى سبيل هذه الرسالة ، وهذا التحول النفسى فى جماعة المسلمين الأولى التى كانت من العرب أساساً ، هو المصدر الحقيقى لذلك التوسع السريع الشامل ، وقد كان دور العرب فى هذا العمل ضخما وشاملا ، وحين توقف التوسع على هذه الجبهة من أفريقيا وأسيا بما أطلق عليه (عالم الاسلام) كانت المرحلة التالية هى أخطر مرحلة : مرحلة الانصهار الاجتماعى والفكرى بين الأمم والقبائل والشعوب والأجناس ولا ننسى أن نذكر أن مفهوم الإسلام وأيدلوجيته قد استكملت مفهومها قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وأنه لم تجر إضافة أى شىء جديد إلى « مقومات الاسلام بعد ذلك ، وأن الخطوط العامة والأسس الأولى كانت قد رسمت فعلا خلال حياة الرسول ومن خلال النص القرآنى الثابت على النحو الذى يكفل للانسانية صورة رسالة إنسانية عالمية خالدة تمتد مع التاريخ والبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فى ضوء هذه المفاهيم وبعيداً عن النظرة التقليدية يمكن تقسيم تاريخ الإسلام إلى عصور ست (الأول) عصر بناء الجماعة الإسلامية التى بناها الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً فى مكة والمدينة التى قام بها مجتمع موحد فى الجزيرة العربية كلها ، وإلى هذه الجماعة تعزى تلك القوة التى وصفت بأنها معجزة فى سبيل إذاعة الإسلام فى أطراف الأرض . (الثانى) توسع الاسلام وامتداده ، وهى تمثل للمرحلة التى بدأت بعد اختيار الرسول الرفيق الأعلى ، حتى تم للاسلام امتداد عالمه من حدود الصين إلى أطراف فرنسا وهى مرحلة تمتد إلى عام ١١٤ تقريباً من الناحية التاريخية وإن كانت امتدادات الاسلام لم تتوقف إلا بعد فترة طويلة . (الثالث) مرحلة بناء الفكر الإسلامى فى مواجهة محاولات تحريفه ، وبناء الحضارة الإسلامية وهى مرحلة مزدوجة النمو فى مجال الثقافة والمدنية معا وفيها ظهر بناة الدول وقادة الفكر ، ويمكن أن توصف تاريخياً بأنها تمتد من بدء حركة التدوين إلى الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ م ٤٨٩ هـ . (الرابع) مرحلة أزمة الإسلام والغزو الخارجى : حين واجه عالم الإسلام غزوات الصليبيين والتتار ومؤامرات الباطنية (الحشاشون) وفى هذه المرحلة قامت المملكة اللاتينية فى قلب العالم الإسلامى ثم تقلصت ، وانتهت غزوات المغول ، وفيها توسع الاسلام بالكاملة ، وحيث أسقط الخلافة فى بغداد ، ويتقلص النفوذ الإسلامى فى الأندلس ، يقتحم الإسلام آفاقا جديدة فى جنوب شرق آسيا وقلب أفريقيا وتمتد هذه المرحلة تاريخيا إلى قيام الدولة العثمانية ٦٩٦ — ١٣٠٠ واندماج القوة العربية معها فى عام ٩٢٧ هـ ١٥١٧ . (خامسا) ظهور مرحلة الوحدات الثلاث فى عالم الإسلام : (١) الدولة العثمانية فى منطقة آسيا الصغرى والعالم العربى (٢) الدولة الصفوية فى فارس (٣) دولة المغول فى الهند وتمتد هذه المرحلة تاريخيا حتى عام ١٢٤٦ هـ — ١٨٣٠ م وهو

تاريخ الاحتلال الفرنسى للجزائر بعد أكثر من ثلاثين عاماً من وصول الحملة الفرنسية إلى مصر والشرق . (سادساً) مرحلة اليقظة العربية الإسلامية . وتبدأ هذه المرحلة بالدعوة إلى التوحيد فى قلب الجزيرة العربية ، وحيث تجرى مرحلة الاحتلال الغربى لعالم الإسلام ، وهى مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام تتمثل فى نهضة الفكر والحضارة التى تحمل لواءها الأمة العربية مرة أخرى . وقد سار تاريخ الإسلام فى خطوط متساوية متسارعة : * خط التوسع والامتداد ، ونمو الفكر الإسلامى وتطوره . * خط المقاومة لمحاولات هذا الفكر الإسلامى ومقاومة الهجوم الخارجى . * قيام بناء الدول وقادة الفكر فى كل المراحل التاريخية وفى كل أجزاء عالم الإسلام . * بناء الحضارة وتطورها فى مجالاتها المختلفة ، وتطور المجتمع * أثر الإسلام فى العالم الخارجى من توسع عقدى ونمو فكرى .

(١)

« الإسلام والتاريخ »

التقى الإسلام والتاريخ منذ بزغ نوره ، وظل هذا اللقاء ممتداً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، متصلا مؤثرا بعيد المدى والأثر ، فما من حدث من أحداث العالم والإنسانية إلا والإسلام متصل به ومؤثر فيها ومتفاعل به . تلك حقيقة فى حاجة إلى بيان فكيف بدأ التقاء الاسلام بحركة التاريخ ؟ منذ بدأ الانسان يتصل بالحياة ويترك بصماته على أحجارها ويعرف الكتابة والنار فقد بدأ عصر التاريخ . وتكاد تجمع التحقيقات العلمية على أن ذلك كان قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة . هنالك سارت الحضارة والأديان فى موكب واحد ، لترسم للبشرية طريقها إلى حياة أفضل . وقد التقى التاريخ فى مسيرته الطويلة بأديان وحضارات وقادة فى محاولة بناء الكيان الانسانى وترقية البشرية وتحقيق رسالة الكائن الأسمى . وفى خلال هذه المسيرة التقى التاريخ بقمم عالية وأحداث ضخمة ما تزال علامات كبرى فى تاريخ الانسانية . ولقد كان الاسلام واحدا من أكبر هذه القمم ، ولكن مزيته أنه جاء بعد أن مرت البشرية بحضارات وأديان ومواقف أتاحت لها أن تنصقل وتسمو وترتفع عن خشونتها وبداوتها لتمضى فى طريق الارتقاء .

ومن خلال حلقات الحضارة الفرعونية وحضارة حمورابى والحضارة الفينيقية والحضارة الفارسية والحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية . ومن خلال الديانات العبرية والزرادشتية والهندوكية والبوذية والكنفوشيوسيه والمسيحية التقى التاريخ بالاسلام . كانت هذه المدنيات

علامات على الطريق إلى الحضارة والنور والعرفان ونمو العقل والفكر ، وكانت الأديان علامات على الطريق إلى ضياء القلب وصفاء النفس حتى جاء الاسلام جامعاً فى مزيج دقيق لطريقى « العقل والقلب » معاً فى تناسق يمكن أن يطلق عليه (رسالة حياة) . ولقد كانت البشرية فى خلال تطورها ومراحل نموها المتصل الطويل ، تلتقى من خلال موكب التاريخ بالحضارات والأديان ، وبالأنبياء والرسل والهداة على مراحل ، وكانت الأديان مصادر للحضارات ، وكانت رسالات السماء ودعوات المصلحين كلها تهدى البشرية إلى الطريق ، ولكنها كانت « جزئية » تقوم فى قطر أو أمة أو شعب وتختص به ، وقد يقوم أكثر من هادفى فى وقت واحد ، فى قطرين متجاورين . كانت كل رسالات السماء ودعوات المصلحين إذ ذاك ، دعوات مرحلية وجزئية وزمنية ترتبط بالانسانية فى مسارها الطويل ، ليظل مشعل ضيائها موقدا ، فهى تمده بالزيت بين حين وحين ، ولما كانت الانسانية لا تزال لم تبلغ رشدها ، فقد توالت الدعوات والرسالات فكلما طال بها الزمن وانحرفت عن مسيرتها جاءت دعوة أخرى لتصحح المفاهيم وتردها إلى الدعوة الأصلية : دعوة التوحيد والايمان بالله وحده ، وإحلال « الانسان » مكانه فى الأرض بوصفه سيد هذا الكون تحت ظل الله . ولقد كانت اليهودية قبل ألف ومائتى عام من ميلاد المسيح رسالة السماء ، رسالة إلى أمة العبرانيين فلما انحرفت وغلبت عليها المادية جاءت المسيحية تصحيحاً لها وتكميلا ، جاءت لنفس الأمة والشعب فى خلال فترة اليهودية والمسيحية ، كانت هناك البوذية والكنفوشيوسيه والزرادشتيه ولها مجتمعاتها وأممها ونموها ولكن هذه الأديان البشرية كلها قد خلت من روحها ودخلت إليها انحرافات وزيوف كثيرة ، وفقدت سلطانها وأثرها فى البشرية ، وتحولت إلى وثنية وتحلل ، اضطربت معها المجتمعات أما الحضارات السائدة إذ ذاك ، حضارة الفرس فى الشرق وحضارة الروم فى الغرب فقد شاخت كلتاهما بعد ذلك الصراع العنيف والمعارك الدامية والاضطراب البالغ الذى استأثر بمصادر النماء والقوة والحركة فيهما . ومن هنا سقطت روما فى القرن الخامس وبقيت بيزنطة تعانى شيخوخة وعجزا ، ولعل المؤرخ الكبير جيبون صاحب كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية هو أصدق من يرسم صورة بيزنطة فى هذه الفترة : يقول : فى أواخر القرن السادس وصلت الدولة الرومانية فى ترديها وهبوطها آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة ، كانت أمم العالم فى حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولا . ويقول درابر : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق ، وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات . بطر الرومان

معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتارا وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر يحتف بها خدام فى ملابس جميلة خلابة ، وعادات رومية حسناء ، ويزيد من نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شىء يستحق العبادة فهو « القوة » . أما الفرس فقد كان الأكاسرة ملوك فارس يدعون أن دما الهيا يجرى فى عروقهم ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة فوق القانون وفوق البشر وقد استحوذت على الناس فى الامبراطورية الرومانية — حياة الترف والبذخ ، وكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسين ألف جواد . وكانت عبادة فارس : النار والشمس ، أما المجوسية فقد اضطربت واشتبكت فرقها فى صراع متواصل ، وفى نفس الوقت الذى بدأ فيه انحلال السلطة الفارسية وقع الصراع بين الفرق المسيحية حول طبيعة المسيح ، وبلغ الجدل قمته والخلاف غايته « وأصيبت البوذية بالانحطاط وابتلعتها البرهمية فتحولت إلى « وثنية » تحمل معها الأصنام أينما سارت تبنى الهيا كل وتنصب التماثيل . وانتقلت الأديان من بساطتها ويسرها إلى التعقيد والجدل وسيطرت عليها الفلسفات والوثنيات المفرقة ، وانقلبت المشاحنات المذهبية إلى فتن ومذابح ، ومع صراع الأديان كان صراع الامبراطوريتان الكبريان : « فارس وبيزنطة » ، وقد اشتبكتا فى صراع مستمر دائم كل منهما تطمع فى السيطرة على العالم وقيادته ، وبالجملة فقد كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح « من أخطر أدوار التاريخ بلا خلاف حيث ساد الانحلال والفوضى وسوء النظام وعسف الحكام » حيث بلغت الوثنية أوجها، وسيطر نظام الطبقات الجائر ، وبلغ ظلم الحكام والأباطرة والأكاسرة غايته ، وانحط مركز المرأة ، وسيطر الربا على معاملات الاقتصاد ، وسيطرت الإباحة على حياة المجتمع ، وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها ، وغلب الخمر ، والانحراف الجنسى ، والطمع وشهوة المال ، وأصبح الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، ووأد الناس الأولاد وقتلوهم . وبدأ عالم متداعى قد شارف النهاية ، وكانت الأحداث كلها تتمثل فى تطلع كبير ، التطلع إلى رسالة جديدة ودعوة جديدة ترد البشرية إلى الحق ، إلى التوحيد ، إلى عقيدة سمحة بعيدة عن تعقيدات الفلسفة ، وظلام الوثنية ، وزاد هذا التطلع اصطراع الفرق فى مختلف الأديان ، حتى فقد الناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات ، وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول . هكذا وصلت البشرية فى أكبر مظهر من مظاهرها : الحضارات والأديان إلى أبعد مهاوى الاضطراب والضعف ، مما ينذر بسقوط

كثير من النظم والعقائد ، التى فشلت فى هداية الإنسانية إلى الحق ، وكان لابد من دعوة يتمثل فيها الرشد الإنسانى ، من خلال مرحلة جديدة تتيح تقبل رسالة عالمية إنسانية شاملة ، بعد أن انطوت مرحلة الدعوات والرسالات والنبوات المحدودة والجزئية والإقليمية والزمنية ، رسالة جديدة تعيد صياغة الفكر الإنسانى والحضارة وفق مفهوم التوحيد وتحمل فى أعماقها طابع الشمول والتكامل ومن هنا كان التقاء التاريخ بالإسلام التقاءاً حاسماً ومؤثراً وبعيد المدى وكانت بؤرة اللقاء هى : « الجزيرة العربية » بوصفها منطقة عذراء بعيدة عن تأثرات الحضاريين الفارسية والرومانية فضلا عن « أن العرب بوصفهم جماعة » لم يخضعوا كثيراً للأديان والحضارات السابقة ، ولذلك كان ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية كدعوة عالمية ورسالة إنسانية هو أول علامات الظفر والقوة التى حققتها هذه الدعوة ، إذ لم تكن منطقة ظهوره غارقة فى تبعية فكرية للوثنية أو المسيحيه أو اليهودية ، ولم تكن متحضرة قد عقدتها الحضارة وأصابتها بالانحلال ، ولم تكن تطويها عقيدة واضحة أو نزعة سالفة عميقة الأثر ، وكانت إلى ذلك فقيرة وغير مسرفة فى الثراء ، وبذلك كله أصبحت قادرة على أن تحمل لواء دعوة جديدة دون عناء من تبعات المعتقد أو الحضارة .

فإذا ألقينا نظره على « الجزيرة العربية » وجدناها قبائل متصارعة ، ضعيفة ، تعيش على هامش الحياة تتطلع إلى الفرس والروم على أنهما مظهر القوة القادرة والثراء البالغ والترف الواسع ، وهى من دون ذلك معزولة ضعيفة ، لا تقوى إلا على التجارة فى أطراف الجزيرة ، رحلة الشتاء والصيف ، غارقة فى الوثنية مضطربة بين الربا والبغاء ، والتفكك والصراع القبلى ، وإن كانت قريش على قدر من الثقافة والبلاغة تقول الشعر ، وتقيم أسواق الجدل وحلبات السجال ، ولم تخل من طوائف من الموحدين زهدوا فى الوثنية ، وأحرار ضاقوا بظلم الطغاة والأثرياء يترقبون ساعة الخلاص . كانت الجزيرة العربية « بؤرة الرسالة » كانت تعيش بعيدة عن الأحداث وتحركات الدولتين المتصارعتين ، إلا ما تتأثر به أطرافها ، مبقية على وثنيتها ، لا تبلغ من صراع الاديان ما يدفعها إلى أن يتخلص من سلطانها ، فالكعبة فى مكة قاعدة الوثنية ، ولكل قبيلة صنم تعبده ، اللات لثقيف ، ومناة للخزرج ، والعزى لكنانة ، وأساف ونائلة لأهل الصفا والمروة ، وسواع لبنى هزيل ، ويغوث لبنى مزجح ، ويعوق لهمدان ، ويسر الذى الكلاع ، ومن الكعبة ثلاثمائة صنم . و « مكة » بعد مقر النفوذ الوثنى الضخم يحج إليها الناس من كل مكان ، ثم هى مقر التجارة مع العالم كله شمالا إلى الشام وجنوباً إلى اليمن ، ومن هنا فهى متأثرة بأحداث الصراع السياسى والعقائدى ، يجرى فيها الجدل حول المجوسية والمسيحية واليهودية ، ويصطرع الخلاف حول أفق الغد ، الذى تترقبه البشرية ،

وقد نبت فيها قبل البعثة رأى عام مثقف ، حمل لواء الخصومة للوثنية ودعى إلى شجب عبادة الأصنام قوامه ورقة بن نوفل أعلم أهل عصره ، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو ابن نفيل ، ولكن قريشاً كانت تصر على وثنيتها باعتبارها مصدر النفوذ والسلطان ، فهم سدنة البيت ، ولهم امتيازات الكهنة وفى حسبانهم أن الوثنية هى مظهر الزعامة والسياسة للجزيرة كلها ، غير أن الأحداث لم تلبث أن هزت مجتمع مكة والجزيرة كلها ، حين زحف أبرهة من اليمن على مكة لحاصر الكعبة ، ثم انصرف عنها منهزماً ، وقد ترك آثاراً بعيدة المدى ، كانت إرهاصة العصر والجزيرة وعلامة على ما وقع بعدها باربعين عاماً ، وفى نفس العام ٥٧٠ م عام الفيل ولد « محمد بن عبد الله » الذى اختاره الحق لحمل لواء هذه الرسالة التى غيرت مجرى التاريخ .

برزت دعوة الاسلام فى إبان الحاجة إليها ، حاجة الضرورة والتطور ، لتعيد إلى البشرية الثقة فى الانسانية وتفتح من جديد آفاق الحرية والعدل والكرامة ، رسالة جديدة فى صياغتها ، قديمة فى مصادرها وجذورها ، من خلال قيادة محمد بن عبد الله ومنهج « القرآن » تستهدف دفع البشرية خطوات إلى الأمام فى طريق الانسانية . ومن خلال الصورة التى كانت تحياها البشرية فى القرن السادس الميلادى ، التقى التاريخ فى مسيرته بالاسلام ومنذ بزغ فجر الاسلام إلى اليوم وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطور الانسانية غير منفصل عن العالم فى مسيره ومصيره . نعم . منذ ظهر الاسلام إلى اليوم فى خلال أربعة عشر قرناً مازال مؤثراً فى مجرى التاريخ لم يتوقف أثره فى كل أحداث العالم والانسانية منذ ظهوره إلى اليوم . فالاسلام هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من ربقة الظلم والاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى فى كل الأمم والشعوب التى اتصلت به . ولقد كان لبزوغه فى محيط الأمة العربية دلالة واضحة ، هى اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم بعث « محمد » من أهلها ونزل القرآن بلغتها ، فكانت الجماعة الإسلامية الأولى التى صاغها الاسلام فى الجزيرة العربية ، هى القوة الدافعة التى حملت هذه الرسالة وسارت بها إلى الآفاق لتحقق بها حركة التاريخ نحو التوحيد والأخاء والرحمة وبناء حضارة جديدة وفق مضمون إنسانى عالمى يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(٢)

« بناء الجماعه الإسلاميه »

قال جعفر بن أبي طالب : « كنا قوم نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، القوى منا يؤدى الضعيف ، لا نعبأ بحق ذوى القربى أو الجار ، إلى أن بعث الله إلينا رسولا من بيننا نعرف عراقة منبته ونثق باخلاقه وأمانته ، أمرنا بالصدق فى القول ، وتأدية الأمانات إلى أهلها ، ومراعاة حقوق ذوى القربى والجار ، واجتناب المحرمات واراقة الدماء ، كما أمرنا بعبادة الله وحده » .

يمكن أن توصف المرحلة التاريخية التى تبدأ من بعث الرسول إلى اختياره الرفيق الأعلى بمرحلة (بناء الجماعة الاسلامية) ففى خلال ثلاث وعشرين عاماً أمكن بناء مجتمع جديد ، بدأت فى مكة فى قلب الجزيرة العربية ، وفى دار الأرقم بن الأرقم بمكة ، ثم امتد فى مرحلتين : مرحلة مكة (ثلاثة عشر عاماً (ومرحلة المدينة (عشرة أعوام) تتوسطهما «الهجرة» وهما مرحلتان متكاملتان لا انفصال بينهما تكمل الثانية الأولى ، وتمد امتداداً ونموا ونتيجة لها . يمكن أن يطلق على الأولى ، مرحلة بناء الفرد المسلم والأخرى مرحلة بناء الجماعة الإسلامية ممثلة فى الأمة العربية التى تقيم فى الجزيرة العربية وكلتا المرحلتين تسيران فى تدرج واضح من الدعوة السرية فى مكة إلى إنذار العشيرة الأقربين ، ثم إعلان الدعوه وإحتمال الأذى ، والتعذيب ، والهجرة إلى الحبشة ، والمقاطعة فى الشعاب ، ثم بدأت دعوة الرسول للوافدين فى موسم الحج ، وظهور عصبية مؤمنة فى يثرب استطاعت أن تبرز بعد ثلاث مواسم فى قوة ، تبايع الرسول بالحماية والنصرة له وللدعوة ، إذا هاجر إليهم ، ثم تكون الهجرة تأمينا للدعوة ، وفى يثرب « المدينة » يبدأ الرسول فى اتمام رسالته فى ثلاث جوانب (١) بناء المجتمع الجديد (٢) تأمين الدعوة بالسرايا والغزوات (٣) تشكيل « أيدلوجية الاسلام » : فكراً وشريعة ودينا ومجتمعاً .

وفى مكة تبدو الأحداث خلال ثلاثة عشر عاماً كشريط متتابع دقيق لمحاولة رائدة فى غزو فكرة جديدة مليئة بالإيجابية والسمو والتقدمية لمجتمع راكد مغلق ، فيه — شأن كل هذه المجتمعات — عنف المقاومة للجديد ، وصلابة العداء لكل ما يغيره عن أوضاعه ، بيد أن هذه الخصومة وهذه المقاومة إنما تتمثل فى الطبقة التى تسود المجتمع وتحكمه وتسيطر عليه ، والتى تجد فى الدعوة الجديدة إنهياراً لسلطانها وزوالا لنفوذها وتراثها . أما الطبقات الفقيرة المطحونة المغبونة ، فقد وجدت فى

الدعوة الجديدة : ضياء ونوراً ، فسارع هؤلاء الفقراء والأذلاء إلى جناح الرجل الذى حمل لواء كلمة التوحيد ، وانضموا إليه ، ولم يكن هذا الرجل قادراً — إذ ذاك — على أن يحمى نفسه فضلا عن أن يحمى أعوانه والمنضويين تحت لواء الإسلام . ومن هنا بدأت عملية تعذيب واضطهاد طويلة إمتدت خلال هذه الفترة أو أغلبها فى أكثر من صورة ، فى صورة تعذيب للموالى حتى كان يعتقهم الموسرون من المسلمين ، وفى تحالف قريش على مقاطعة بنى هاشم فأقاموا ثلاث سنين محصورين فى شعاب مكة لا يبتاعون ولا يباع لها ولا يعاملون معاملة اقتصاد أو اجتماع .

وفى دار الأرقم وفى الشعاب كان الرسول يعلم أصحابه الصبر ويعدهم للدعوة ويمكن فى أعماق نفوسهم لإيمان عميق يستطيع أن يندفع بعد قليل فى الأرض ، وفى مرتين أتاح الرسول لأصحابه التحرر من هذا المجتمع الظالم ، كانت الأولى بالهجرة إلى الحبشة حيث هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وللمرة الثانية بالهجرة إلى يثرب وكانت هجرة شاملة بعد أن تحقق بها قيام جماعة اسلامية صغيرة حملت لواء الحماية والاستعداد لاستقبال المسلمين . وكان إسلام حمزة وخالد من أهم نقط الارتكاز فى بناء هذه الجماعة ، وكانت إصابة الرسول بوفاة زوجه خديجة وعمه أبو طالب فى عام واحد من الوقائع البعيدة الأثر فى مسار الدعوة ، غير أن الأعوام الثلاثة عشر فى مجموعها قد استطاعت أن تنقل الدعوة من مرحلة السرية إلى دعوة العشيرة إلى إعلان الدعوة الشاملة ، وأن تحملها من مرحلة إلى مرحلة ، تنمو ويزداد أنصارها ، وكانت قريش تنظر إلى الدعوة أول الأمر ساخرة ، فلما بدأ عودها يورق ، وجذرها يثبت تآمرت للقضاء عليها ، واشتد الأذى على من فى مكة من المسلمين وكان الرسول — وهو صاحب دعوة عالمية إنسانية — وقد أخذ يعرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة لزيارة فى موسم الحج ، ومن هنا بدأ ضياء خافت من قبل يثرب ، ثم توسع خلال عامين بزيادة « الأنصار » الذين دعوا النبى من تلقاء أنفسهم ، دعوة أكيدة ملحة ، إلى الهجرة إليهم وعقدوا معه بيعة تعاهدوا فيها بنصرته وحمايته وحماية أتباع الإسلام بما يحمون به أهلهم وعشيرتهم ، هنالك أذن النبى لأصحابه فى الهجرة ، فتجهزوا فى خفاء وستر ، وتسللوا ، وكان بين أولهم وآخرهم أكثر من عام ، مضوا خلاله يترافدون بالمال والظهر ، ويترافقون ، هنالك اشتد الخطر على قريش حين أفاتت هؤلاء ، فأزمعوا قتل حامل اللواء وصاحب الدعوة ، وتآمروا للقضاء عليه فى مؤامرة جماعية يضيع بها دمه بين القبائل ، واستطاع الرسول فى يقظة القائد وعمق البصيرة وحماية الله أن يفلت من المؤامرة وأن يشق طريقه إلى يثرب ، حتى بلغها ، حيث أقام الجماعة الإسلامية . ولم يكن هذا آخر العهد بقريش

ولكنه كان فى الحق أول العهد بمقاومة خصومتها وعدوانها وتآمرها للركز لتقويض دعائم الجماعة الجديدة بالتآمر مع القبائل المجاورة فى الجزيرة خارج يثرب وبالتآمر مع اليهود داخل يثرب ذاتها .

كان بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » هو مقر الدعوة الإسلامية الأول ، حيث اجتمع النبي بمن آمنوا به من شباب خلال ست سنوات وهى فترة الدعوة السرية حتى أسلم عمر بن الخطاب وقد أتاحت هذه الفترة فرصة تكوين هذه الجماعة التى لم تلبث أن انداحت فى الأرض بعد أقل من خمسة عشر عاما حاملة لواء الإسلام إلى كل مكان ، فكانت دار الأرقم بذلك المدرسة الإسلامية الأولى ، التى جمعت القادة والعلماء وبناة الدول من بعد ، وقد علمهم النبى فى هذه الفترة : دروس الصبر والإيمان والثبات والإيثار ، فقد بناهم بالقرآن أمة وسطا ، فأقاموا مجتمعا صغيرا بعد أن انفصلوا عن أهليهم ، ولم يكن لأغلبهم مورد أو مال ، فكان الرسول يضم الغنى إلى الفقير ، ويرسل أحدهم هنا أو هناك يعلم القرآن ، ومن ثم شهد نظام « المؤاخاة » أول صورة له فى هذا المجتمع ، ثم تحول إلى نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فى مجتمع المدينة ، فقد خلط الجميع بين طعامهم وشرابهم وملابسهم وأدواتهم ، فلما جهر النبي بالدعوة بعد أن انضم إليها حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب خرجوا إلى الكعبة فصلوا بها وفرضوا على مجتمع الوثنية صورة جديدة شابة : هذه المجموعة الشابة المؤمنة التى انطوت تحت لواء الإسلام حين دعاها « محمد رسول الله » تمثل أبرز صحابة النبي الذين اشتركوا من بعد الهجرة والغزوات والفتوح ، وقد برز فى هذا الرعيل . على بن أبى طالب ، الزبير ابن العوام ، السائب بن عثمان بن مظعون ، طلحة بن عبيد الله ، الأرقم بن أبى الأرقم ، عبد الله بن مسعود ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبى وقاص ، عبد الله بن مظعون ، مسعود بن ربيعة ، جعفر بن أبى طالب ، صهيب الرومى ، قدامة بن مظعون ، زيد بن حارثة ، عثمان بن عفان ، عامر بن أبى وقاص ، السائب بن مظعون ، طليب بن عمير ، خباب بن الأرث ، عامر بن فهيرة ، مصعب بن عمير ، المقداد بن الأسود ، عبد الله بن جحش ، عمر بن الخطاب ، أبو عبيدة بن الجراح ، عتبة بن عزوان ، أبو حذيفة ابن عتبة ، بلال بن رباح ، عمر بن سعيد ، خالد بن سعيد ، عياش بن أبى ربيعة ، عامر بن ربيعة ، نعيم بن عبد الله ، عثمان مظعون ، أبو مسلمة بن عبد الأسد ، عبد الله بن عوف ، عمار بن ياسر ، أبو بكر الصديق ، حمزة بن عبد المطلب ، عبيدة بن الحارث ، أبو ذر

كما أسلمت سند بدء الإسلام : خديجة بنت خويلد ، أم أيمن ، أسماء بنت أبى بكر ، فاطمة بنت الخطاب ، أسماء بنت عميس ، أم سلمة بنت حذيفة ، أسماء بنت سلامة ، أمينة بنت خلف ، فاطمة

بنت صوان ، ليلى بنت أبي حيثمه . وقد جمع الإسلام في مجتمعه الأول : بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي ، فتمثل بذلك رمز الطابع الإنساني في دعوة الإسلام ، وبدأت نقطة الامتداد من الجزيرة العربية إلى العالم كله من خلال مختلف الأجناس والشعوب . وقد كان هذا الجيل مقدمة لجيل ثان تكون من خلال سنوات استهلال الدعوة والهجرة وما بعد الهجرة ، وقد ربى هذا الجيل في أحضان هذا الرعيل وظل ينظر إليه نظرة الإعجاب بالسبق ، وكانت المشاركة في « بدر » رمزاً للمدرسة الأولى لبذل النفس والإستشهاد فأعطى أهل بدر درجة مميزة في تاريخ الإسلام . ومن أبرز شباب الجيل الثاني الحسن بن علي والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن العباس وعائشة .

الجماعة الإسلامية في مكة

* * *

مرت الدعوة الإسلامية في مكة خلال (١٣ عاما) بعشرة مواقف حاسمه :

١ — عندما هبط الوحي على محمد في غار حراء في سن الأربعين بالقرآن (٦١٠)م

كان ذلك نقطة البدء في مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الانسانية من أزهر هذ المراحل وألصقها أثرا ببناء الحضارة الانسانية ، وإعطاء البشريه عالمية انسانية قوامها : التوحيد والمساواة ،

وكان محمد بن عبدالله « النبي » الذي حمل هذه الرسالة ، إنسانا ممتازا ، وقد هيأته عوامل كثيرة لكي يكون أقدر الناس على حمل هذه الأمانة ، أبرز هذه العوامل أنه لم يكن منتميا إلى دين سابق أو إلى عبادة الأوثان ، وكان في تقدير الجماعة التي أختير لتبليغ الاسلام إليها غاية في الأمانة والشرف ، ملتمسا ذلك من مكانة أسرته وقبيلته ومن سلوكه الشخصي والاجتماعي ، وكان إلى ذلك تاجرا عرف الرحلة ، ومعاملة الناس ، واتسعت آفاق فكره وحياته . وقد مرت الدعوة في ثلاث سنوات : [الدعوة السرية ، وإعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، ثم الجهر بالدعوة للناس جميعا] ، وقد واجه هذه المراحل بأصرار وثبات ، وصادف من البيئة جمودا ومعارضة تمثلت في ردود فعل مختلف ، أقلها تعذيب اتباعه ، ثم محاولة قتله بوصفه صاحب الاواء فاذا سقط انتهت دعوته .

وكان جهر محمد بالدعوة إعلانا واضحاً بالمعارضة لكل مفاهيم قريش وقضاء على السيادة القبلية وهى أبرز مفاهيم العالم فى ذلك الوقت ، كانت دعوته تحمل بذور أمرين خطيرين يمثلان المقاومة والشجب للمفاهيم التقليدية التى يفرضها سلطان الرؤساء ونفوذ الطبقات الحاكمة . (١) عبادة الله وحده لاشريك له ، ونبذ عبادة الأوثان ، وفى هذا مقاومة للوثنية وللدعوات المنحرفة باسم بعض الأديان وقضاء على نفوذ سدنة الكعبة (٢) المساواة بين الناس جميعا ، لا أبيض ولا أسود ، ولا فقير ولا غنى ، وفى هذا هدم لنظام الطبقات التى تفرض للسادة نفوذاً وسلطانا وتجعل ممن دونهم عبيداً وخدما لاحق لهم فى شىء ما . وقد تابع النبي فى دعوته : العبيد والضعفاء لأنهم وجدوا فى صيحته وسيلة إلى تحررهم وقد واجه الرسول والذين أتبعوه من المستضعفين والفقراء حملة متصلة من الاضطهاد ، لم تزدهم إلا صلابة وثباتا على ما آمنوا به واحتمل العبيد الأذى فى سبيل ماوهبهم الاسلام من حرية وقاوموا إلى أبعد حد ، واستطاع المسلمون بعد قليل أن يجتمعوا فى دار الارقم ابن أبى الأرقم بحسبانها أول جامعة لتكوين الفرد المسلم وبنائه عقليا وروحيا ، وعذب بلال وخباب ابن الإرث ومات ياسر وهو يعذب وطعنت زوجته ، وتعرض لإيذاء قريش أبو بكر وعثمان والزبير وأبو عبيدة . ولم يكن أمام المسلمين إلا الصبر والانتظار حتى يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم . فلما ازداد الأذى بالمسلمين أذن الرسول بالهجرة إلى الحبشة فكانت هجرة الحبشة علامة على مفهوم الدعوة الإسلامية فى الحركة ، وفى رفض الجمود على موقف الذل ، وترك البيئة التى لاتحقق الأمن لأفرادها ، ولا النمو للدعوة وكانت تجربة لها أهميتها فى سير الدعوة ، فقد كشفت عن جوهر الاسلام فى آفاق جديدة وفتحت الطريق لهجرة أكبر من بعد ، لقد ضمت الهجرة إلى الحبشة عثمان بن عفان والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر ابن أبى طالب وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين (ابن هشام وابن القيم فى زاد الميعاد) وحاولت قريش أن تسترد المسلمين فكان ذلك مجالا لحوار واسع مع النجاشى حول مفاهيم الإسلام ، كشف عن جوانب جديدة للصورة أكدت نبوة النبي ، وصدق ما جاء به وكان إسلام عمر رأس مرحلة جديدة ، فقد أتاح للمسلمين الخروج من « الاختباء » فى دار الأرقم إلى « جهارة » الدعوة والصلاة فى الكعبة ، وكان عمر بعد حمزة علامة على التطور الطبيعى للدعوة التى استطاعت أن تكسب من محيط جديدة غير محيط الضعفاء ، وأن توسع نطاقها وآفاقها . وحاولت قريش الضغط على الرسول وأغرائه بالعروض وفى هذه المناسبة قال كلمة الحرية الخالدة « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ماتركته » ولما لم يجدى الأغراء بالمناصب والمال والجاه

بدأت حملة الهجوم والإيذاء والتهديد،هنالك كان لابد أن تضغط قريش بقوة ، فتفرض المقاطعة على المسلمين ، هنالك تحالفت قريش على مقاطعة بن هاشم فأقاموا ثلاث سنوات محصورين فى الشعاب لايبيعون ولا يتباعون ، فقد وقعت بذلك قريش « وثيقة » التزمت بها مكة كلها ، وكانت تلك قمة الاضطهاد ، كجزء من خطة الضغط السياسى من جانب قريش ، وكانت مقاومة المسلمين حلقة من تجربة التكوين النفسى أو الروحى والاجتماعى الذى أعده الاسلام للمؤمنين به ، وهى المرحلة التاليه للاضطهاد الفردى ، تتمثل فى الاضطهاد الجماعى ، غير أن صمود المسلمين — والرسول على رأسهم قدوة ومعلما ــ كشف عن فشل هذه المحاولة ، وجمع للمسلمين قلوبا جديدة ، وفتح الباب مرة أخرى أمام المسلمين لمرحلة جديدة وكان حدث نقض الصحيفة إنفتاح للطريق أمام الدعوة الإسلامية إلى نصر جديد ثم بلغت ذروة المساءة والاضطهاد عام ٦٢٠ . وكلاهما كان سنداً قويا لمحمد أضف إلى ذلك ما لقى من أهل الطائف إذ دعاهم إلى الإسلام فردوه رداً غير جميل ، هنالك فتح الله لمحمد الطريق إلى نهج جديد عريض هو عرض دعوته على القبائل فى موسم الحج ،ولم يكن هذا الطريق يسيراً ، فقد سار وراءه عمه عبد العزى ابن عبد المطلب (أبو لهب ــ أينما سار يرد الناس عنه ، ويكذبه ويحرض الناس عليه أينما ذهب ، وكان لذلك رد فعل عكسى ، هو اتجاه الناس إليه ومحاولة استكشاف كلمته . وصمد محمد لهذا النهج ، وزاد عليه أن زار بعض قبائل العرب فأتى « كندة » فى منازلها وكلبا وبنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة ، وردوه جميعا رداً غير جميل . وكان حادث الاسراء بالرسول امتحانا جديداً لأصحابه وخصومه على السواء وكانت هذا المحن والأحداث كلها غربلة لابد منها للتابعين للاسلام والموالين لمحمد حتى يستصفى جماعته على تلك النماذج التى عرفت من بعد فالبطولة والنبل والتصميم . وكان ثبات محمد على دعوته رغم كل مالقيه ، هو مصدر النصر ، ذلك النصر الذى تمثل فى إيمان جماعات أهل يثرب بدعوة الاسلام ونصرة رسوله فى مراحل ثلاث ، فقد قدم فى السنة الحادية عشرة للبعثة نفر من الخزرج يريدون الحج فاستقبلهم النبي ودعاهم إلى الله فأمنوا وعادوا ، فاذاعوا ذلك بين قومهم ، وتنافس الأوس والخزرج فى الاستباق إلى الإسلام ، وفى السنة التالية تمت بيعة العقبة الأولى وكانت فى اثنى عشر رجلا ومعهم أمرأة « عفراء بنت عبيد » قدموا إلى رسول الله واجتمعوا به عند العقبة « وعاهدوه : ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصينك فى مكروه » وأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الصلاة ، وقد هز مصعب يثرب وجمع إليه رؤساءها فاستمع الناس إليه وانضووا تحت لواء الدعوة الجديدة ، وفى السنة الثالثة

عشرة للبعثة تمت البيعة الثانية وكانت فى ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين قدموا من يثرب ودعوا رسول الله إلى الهجرة وبايعوه زعيما ونبيا ، وعاهدوه أن ينصرونه ويحمونه ويحاربون لأجله الابيض والأحمر من الناس ، قال العباس لوفد بيعة العقبة الكبرى : أن محمدا منا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده ، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم فاذا كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إلية ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما حملتم فى ذلك ، وإن كنتم أنتم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه . قال الوفد : « تكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت من العهود والمواثيق » ، قال الرسول : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم » فبايعوه على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال فى كل حال .

(٢)

الجماعة الاسلامية فى المدينة

لم تكن « الهجرة » إلا مرحلة طبيعية من مراحل تطوير الدعوة فى سبيلها إلى غايتها ، كانت مرحلة مكة فى أعوامها الثلاثة عشر تمهيداً طبيعياً للكلمة ، وإعداداً لمعتنقيها ، وهزا لمجتمع مكة حتى يلتقى بالاسلام بعد الهجرة بسنوات ، وحتى يكون ذلك مقدمة لوحدة الجزيرة العربية كلها خلال الأعوام الثلاثة والعشرين . فتصبح « الجماعة الاسلامية الأولى » هذه التى كونها الرسول ، هى قائدة التوسع الاسلامى إلى الآفاق ، وحاملة لواء الحضارة والفكر إلى الفرس والترك والبربر . وقد كانت الهجرة تطبيقا حقيقيا لمفهوم الاسلام ، وهو : الحركة ، وتغيير الوطن إذا استعصى على الفكرة انطلاقها إلى غايتها أو أصاب صاحبها الاضطهاد ، لقد كان لقاء الرسول للوافدين إلى مكة فى مواسم الحج من مختلف الأقطار ، وعرض الاسلام عليهم ، هو منطلق الاسلام إلى الانسانية كلها ، وهو اتجاه الرسول بالاسلام إلى وطن جديد أكثر تقبلا لفكرته ، حتى إذا وجد تجاوبا وقبولا من أهل يثرب ، سارع فدعا أتباعه إلى الهجرة إليها ، تخليصا لهؤلاء المؤمنين الضعفاء الفقراء من اضطهاد أهل مكة ، فلما قامت الجماعة الاسلامية فى المدينة ، كانت نموذجا للمجتمع الاسلامى الأمثل ، من حيث بقاء الكيان الداخلى على مستوى الترابط المكانى بالمسجد والترابط الفكرى بالقرآن والاجتماعى بالاخاء . ثم التعاقد مع أهل الوطن بوثيقة مكتوبة تقوم على أساس المشاركة فى العمل الاجتماعى والوطنى ، وبقى بعد هذا — لاستكمال إطار الجماعة — حماية هذا المجتمع من الغزو الخارجى ، وكانت

قريش التى حاربت الدعوة وحالت بينها وبين أن تقوم فى مجتمع مكة ، ثم حاولت القضاء على صاحب الدعوة بعد إذنه لأصحابه بالهجرة ، قد توعدت هذه الدعوة بالقضاء عليها فى مجتمعها الجديد ، فكان لا بد للجماعة الإسلامية أن تدافع عن نفسها ، وأن تديل من خصومها ومن ثروتها لقاء ما صادرت من ثرواتهم . وقد تمت بيعة أهل يثرب للمسلمين ، على مراحل ثلاث فى سنوات ثلاث ، وتمت البيعة الكبرى حين تقدم اليثربيون للرسول داعين إياه وقومه إلى إرتضاء بيئتهم مكانا لدعوته ، وقد اشترك فيها النساء مع الرجال ، وكان تعهدهم فيها واضحاً ، أنهم يحمون النبى والمسلمين مما يحمون منه أهلهم وأبناءهم ، وكانت دعوة الإسلام خلال ذلك قد انتشرت فى المدينة واتسع نطاقها ، ومن هنا قامت الجماعة الإسلامية على دعائم وطيدة ، وقد جرى نماء الجماعة الإسلامية فى المدينة من نقطة « الهجرة » منطلقا حتى تمت بوحدة الجزيرة العربية كلها للاسلام وإذعانها بالولاء له . كقوة موحدة ضاربة ، استكملت عوامل القوة النفسية القادرة على العمل من أجل إذاعة الإسلام ، تحمل إيمانا لأحد له بصدق الدعوة ، وتحمل بيعة كاملة تقدم أرواحها مستشهدة فى سبيل النصر والتوسع .

ولا شك كانت مرحلة « بناء الجماعة الإسلامية التى بدأت من خلال مجتمع مكة المضطرب التى اهتزت قواعده ، حين انفصل عنه هؤلاء الذين والوا الدعوة الجديدة ، وقد استمر نمو هذه الفئة القليلة المستضعفة فى مجال الاضطهاد ، وبين عوامل الانتصار حتى تمت الهجرة التى كانت تعبيرا صلبا جهيراً على قدرة الدعوة على الحركة ، لاستنقاذ نفسها من الاضطهاد والفناء ، وإتاحة الفرصة للمستضعفين فى جو مؤمن قادر على حمايتهم ، وكنقطة بدء لبناء مجتمع جديد فى أرض أشد خصوبة وأوفر قدرة على استقبال الدعوة ونموها فى يثرب .

وكان بناء المسجد ، هو الخلية الاولى للبناء الإجتماعى الأسرة والجماعة ، بوصفه أداة صهر المؤمنين بالإسلام فى وحدة فكرية واحدة ، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة . فالمسجد هو مكان الندوة العامة ، ومجال المشاورة ، ومقر عقد الألوية للجيوش وإرسال البعوث . فلم يكن المسجد معبداً أو مقراً للصلاة وحدها ، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملا فى مختلف جوانب الدين والسياسة والإجتماع . ثم قام فى الوقت نفسه تنظيم الحياة الإجتماعية والإقتصادية للمسلمين الذين يتمثلون فى المهاجرين القادمين من مكة ، والأنصار « الأوس والخزرج » وقد تم ذلك على مرحلتين : « المرحلة الأولى » هى دعم الوحدة بين الأنصار وإصلاح مابينهم والقضاء على خلافاتهم ، وإذابة العوامل القديمة والتقليدية فى بوتقة الوحدة ممثلة فى كلمة « الانصار » ثم اجراء عملية صهر كبرى بين الجماعة الجديدة (الأنصار) بوصفها المستقبلة للمهاجرين على أرضها ،

عملية صهر كبرى بين هذه الجماعة الجديدة (الأنصار) بوصفها المستقبلة للمهاجرين على أرضها ، وبين (المهاجرين) وقد أقام النبي نظام الإخاء أو المواخاة حين عقد رابطة أخوة قوامها رجلان أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، وقد بدأت هذه الرابطة على نحو إيجابي يتمثل فى تحقيق المعيشة والعمل لهما معاً ، وكان المهاجرون الذين تركوا أموالهم فى مكة لا يملكون شيئاً ، فاقتسم الأنصار أموالهم معهم على نحو آواخر ، وكان تصرف الأنصار فى هذا الموقف مثلا عالياً من المروءة والكرم والإيثار ، فلم يلبث المهاجرون أن شاركوا فى التجارة وعملوا فى مزارع الأنصار على نظام المؤاجرة ، أو المزارعة ، ولم تلبث أن إنتظمت حياتهم الاقتصادية ، كما انتظمت حياتهم الاجتماعية بإقامة أسر جديدة ، والإصهار إلى الأنصار ، وقد حققت هذه الخطوة « انصهار الجماعة الإسلامية » فى وحدة شاملة على أساس رباط العقيدة بعد أن كانت الروابط تقوم على أساس المفهوم القبلى .

ثم يلبث الرسول أن عقد مع مختلف الأطراف فى المدينة عقداً ، هو أشبه بدستور دولة ، وقد دخل فى هذه « الصحيفة » — كما أطلق عليها المؤرخون — مختلف القبائل والبطون والعشائر ، حيث أقر الدستور لكل من الأطراف الثلاثة : شخصيتهم ودورهم فى بناء وممارسة الحياة فى المجتمع الجديد ، وقد أبرز هذا العقد « أمة الإسلام » لأول مرة أمة واحدة ، يجمعها رباط التعاون والتضامن والتكافل ، كما رسم الروابط بين المسلمين وبين اليهود فى نظام الجماعة اليثربية ككل . وكان فى مجموعه صورة تطبيقية لمفهوم الإسلام فى إقرار نظام سياسى واجتماعى يشترك فيه المسلمون وغيرهم على سنة المساواة والتعاون ومراعاة حقوق الجوار . ويعد هذا العقد أول نظام مكتوب قامت على أساسه دولة منذ أول تكوينها ، كما يمثل تطوراً كبيراً فى مفاهيم الاجتماع والسياسة ، فهذه جماعة تقوم لأول مرة فى الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم ، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج فى جماعة الانصهار ، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون فى جماعة المسلمين ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاركونهم الحياة فى المدينة ، إلى أمد ، ولأول مرة بحكم القانون ، حيث ترد الأمور إلى الدولة ويرجع بالرأى الأخير إلى رئيسها ، وبذلك بدء قيام مجتمع جديد على مفاهيم جديدة ، بعيداً عن القيم القبلية ، ومن خلال تغيير شامل وتحول سريع يطوى صفحة اجتماعية طابعها القبلية ، ويفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية تنمو خلالها العلاقات الإنسانية وترتفع فوق مفاهيم الثأر والعصبية والفردية والقبلية . وكان من أهم ما شغل الرسول فى مرحلة فى «بناء الجماعة الإسلامية» هو تأمين أمرين هامين . (١) أمر الجماعة وأمر الدعوة الإسلامية وفتح الطريق الآمن لتوسعها ولإعطاء الراغبين فى اعتناقها الإحساس بالأمن والحماية

(٣) وخلق جو الهيبة التي يرهب خصومها فيحجمون عن الإئتمار بها أو الانقضاض عليها . وقد فرض « الجهاد » لتأمين الدعوة الإسلامية ، وحماية حدود المجتمع الجديد ومواجهة من يقف فى سبيله أو سبيلها . وأعطى إنطلاقة كبرى ، هى أن على معتنق الإسلام والمؤمنين به رسالة متجددة على الزمن ، أن يجاهدوا فى سبيل كلمة الله وإذاعتها فى الآفاق ، وكان هذا العمل مقدمة للخطوة التالية مباشرة وهى : توحيد الأمة العربية فى كيان نفسى وفكرى واجتماعى واحد ،غير أن«الجهاد»لم يفرض إلا بعد مرحلة طويلة من الإعداد النفسى والاجتماعى له بوصفه دفاعا عن النفس ، وتأمينا للدعوة الإسلامية ، وأنه ليس هدفا مسبقاً للدعوة ، بل هو آخر المراحل حين يقف خصوم الإسلام فى وجهه يحولون دون انتشاره ، أو حين يحاولون الانتقاض على بنائه وجماعته . وقد أمضى المسلمون مرحلة « الإعداد والدعوة » فى مكة فى احتمال عجيب للأذى ، دون أن يسمح لهم الرد بالمثل ، ثم كانت « الهجرة » محاولة جريئة لتحرير الدعوة من عوامل القضاء عليها ، واستنقاذها بالحركة ، وبنــاء الجماعة فى مكان أكثر قبولا لها وأكثر أمنا ، استعداداً لدور جديد من أدوارها ، فى سبيل بناء وحدة « أمة العرب » : وحدة اجتماعية وجغرافية تمثل القوة الأولى التى ستتحرك إلى آفاق الأرض تحمل أمانة الدعوة . غير أن انتقال الدعوة إلى « يثرب » لم يوقف خصومه قريش لها ، بل زادها رغبة فى تقويض دعائمها ، هنالك كان لابد من الدفاع عن النفس . وتأمين الدعوة الإسلامية ، فأذن للذين يقاتلهم خصومهم ظلماً أن يواجهوا الموقف على مستواه فى تقدير دقيق ، وهو ليس إذنا مفتوحا بغير قيود : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونــكم ولا تعتدوا » . ومن هنا كان نظام « السرايا » الذى هو أشبه بدوريات « أمن وحماية » لمجتمع المدينة وحدودها الخارجية فضلا عن تدريب المسلمين وإعدادهم على المقاومة المسلحة ، وذلك بعد أن تم إعدادهم فكريا وتربوياً وبناء شخصيتهم الاجتماعية الصلبة فى مجتمع مكة ، وقد جرى ذلك مع تقدير محسوب للدور الذى سيلقى على هذه الطلائع بعد عام الدعوة للاندفاع فى آفاق الأرض من أجل أذاعة الدعوة وتحطيم العوائق التى تقف أمام نشرها . وقد كانت فريضة الجهاد موجهة أساساً للدفاع لا للهجوم ، وفى مفهوم الإسلام كله لم يكن هــدف الإسلام الهجوم ، ولا هو من أساليبه ، وغاياته ، فالإسلام أساساً : « عقيدة فـكر » لا يتحقق قبولها إلا بالاقتناع العقلى والتقبل النفسى ، وقد حرص الإسلام على أن يترك أصحاب العقائد فى حرية مع عقائدهم ، بل ومع حمايتها ، وكل وثائق الرؤساء فى الحرب والحـكم والقادة تحمل فى تضاعيفها تأكيد هذا المفهوم فى وضوح تام . وكان الرسول شديد الإيمان بأن الإسلام بوصفه توحيد الله وعدالة اجتماعية سيجد من قلوب الطبقات المختلفة تقبلا وإيمانا ، وأن المقاومة لن تصدر إلا من الآخذين

بيدهم زمام السلطة والنفوذ والمستغلين والطغاة ، هؤلاء الذين يخشون من ضوء الاسـلام على مراكزهم وثرواتهم ، والذين ، يتشبثون بالقيم القديمة البالية على نفوذهم ، أما القوى الشعبية الغالبة التى تعيش حياة الظلم والفقر والاستعباد ، فانها سوف تنضوى تحت لواء الاسلام بوصفه رسالة التوحيد والعدل الاجتماعى وأنها ستنتقض ولأنها لحكامها الظالمين المستبدين ، ومن هنا فليس الاسلام فى حاجة إلى قتال لنشر كلمته ، ولكنه فى حاجة إلى أن يجد الوسيلة لابلاغ هذه الكلمة إلى الناس وحملها إليهم أيا كانوا ومن هنا كانت فريضة الجهاد لاتعنى غير الدفاع عن النفس ، وإزالة العوائق من طريق انتشار الاسـلام ، مع قدر كبير من التسامح والعدل والمساواة ويبدو مضمون هذا التفسير واضحاً فى آى القرآن نفسه التى فرضت الجهاد « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد فرض الجهاد فى السنة الثانية من الهجرة بعد أن أتيحت الفرصة للجماعة الاسلامية أن ترسى قواعد مجتمعها ، وتعلن نظامها ، وفق مفهوم الإسلام ، وقد كان يعنى أمرين أساسيين : (١) حماية مجتمع الاسلام بوصفه دولة لها حدودها ، ولها هيبتها ضد أى أعتداء خارجى ، (٢) فتح الطريق أمام كلمة الإسلام لتشق طريقها إلى العالم كله بوصفه رسالة عالمية وإنسانية شاملة ولم تبدأ خطة الدفاع عن الدعوة ومجتمعها إلا بعد أن حدد « القرآن » خطة الجهاد « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدو » والاذن هنا مشروط بالدفاع وعدم الاعتداء ، وقد بدأت قريش عدوانها حين تخطت بقوافلها حدود الدولة الإسلامية ، فى محاولة للاستهانة بها ، والانقضاض عليها ، فكان لابد للمسلمين أن يخرجوا لمواجهة الأمر ، أما بالإستيلاء على القافلة نفسها بوصفها جزءاً من أموالهم التى صادرتها قريش عند هجرتهم إلى يثرب ، أو مواجهة الموقف مواجهة دفاع ومنذ استقر المسلمون فى يثرب بدأ تكوين المجتمع الاسلامى ، وتنظيم علاقاته الداخلية بين المهاجرين والأنصار وفيما بينهم وبين اليهود المقيمين فى المدينة ، وبدأت إجراءات الأمن فى حماية يثرب من غارات خصوم المسلمين — وفى مقدمتهم قريش — عليها . وتركزت أهم التنظيمات الداخلية على التنظيم الاقتصادى والتنظيم الاجتماعى . وقد تم إعداد نظام اقتصادى قوامه العمل والكسب والملكية الفردية ، وشرعت الزكاة للتقريب بين الطبقات وضمانا لحق الفقير والشيخ والعاجز والمريض ، والغى الربا ، فقد أحل الاسلام البيع وحرم الربا . وكانت الزكاة إحدى أركان الإسلام الخمسة : تعطى الفقير الحق فى

مال الفئ ، فهى ليست صدقة أو منحة ، ولكنها حق أكيد قائم تقوم الدولة عليه وتنفقه فى وجوهه . ويتمثل فى مقدار معين يدفع فى وقت محدد ، ويرتبط بمحاصيل الزرع والثمار والذهب وعروض من التجارة . وقد انتظم بناء مجتمع المدينة على مراحل ، ونزل التشريع على دفعات ، وامتد على سنوات ، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وأمور البيع والاجارة والربا والقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث . وكان تدرج التشريع فى إلغاء الربا والخمر والزنا وغيره يعطى صورة الانتقال على مراحل ، حتى لايصاب المجتمع باضطراب أو نكسة من جراء الانتقال الفورى ، أو الطفرة ، كما نظم الاسلام المجتمع أمور المرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل وأمور الزواج والطلاق . بما يحقق حماية الأسرة ودعمها ، وصلات الزوجين والأبناء على نحو غاية فى الكمال والدقة ، بما يحقق سلامة الأسرة والمجتمع . وبما يضمن نمو المجتمع الإسلامى على دعائم ثابتة وكان قضاء الاسلام على : الزنا ووأد البنات وتقييده تعدد الزوجات ، نقلة واسعة عن مجتمع ماقبل الإسلام ، وقد تحقق المرأة المسلمة بهذا النظام حقوقها الكاملة فى حرية البيع والتصرف فى المال والاجارة والميراث وضمن لها حقها فى الزواج والطلاق والحضانة على نحو لم يكن معروفا لا فى الجزيرة العربية وحدها ، ولا فى العالم كله فى هذه الفترة . وكان ذلك دفعا لها لتكون عضوا حيا عاملا فى المجتمع الاسلامى مما أهلها لأن تخطو خطوات واسعة فى مجال العلم والحرب وبناء الأسرة وأن تبرز شخصيتها فى تاريخ الاسلام وتلمع ، وكان الرسول حريصا على أن يعقد للنساء اجتماعا وأن يوجههن ويفتح لهن الطريق ، وكانت زوجات الرسول المثل المتقدم فى هذا المجال ، وقد استطاعت عائشة وحفصة أن يكونا من رواة أحاديث الرسول ، وتحقق من بعد للكثيرات المشاركة فى ذلك .

كان للمرأة المسلمة دورها الواضح فى الجماعة الاسلامية ، هذا الدور الذى تتميز فيه المرأة عن حياة ما قبل الاسلام ، كان أساس هذا الدور هو موقف الاسلام الواضح ، الذى ترتب عليه دورها فى المجتمع ، وتمثل ذلك فى شمول الخطاب القرآنى للمرأة والرجل ، والتسوية فى الحقوق والتبعات بين الرجل والمرأة ، وإقرار القرآن لأهلية المرأة ، « أهلية حقيقية » للإرث والهبة والوصية والدين والتملك والتعاقد ، والكسب ، دون أن يكون ذلك منوطا بموافقة الرجل أو إذنه ، والتسوية فى التكاليف العامة بين المرأة والرجل من زكاة وحج وصوم وصلاة ، وكما أعطى الاسلام المرأة حريتها كاملة فى أمور الزواج والطلاق والبيع وحق الإرث . وكرم المرأة بنتا وزوجة وأما ، وكرم الأم وساوى بين المرأة الرجل ، وأكد الرفق بالبنات وتعليمهن والعناية بالأسرة فى نصوص صريحة فى القرآن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ، « لايحل لكم أن ترثوا

النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ماأتيتموهن » . وفى تعاليم الرسول : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، استوصوا بالنساء خيرا فانهن عوان لكم ، الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، نعم الولد البنات ، وأباح الاسلام تعدد الزوجات ولم يفرضه ووضع له من الضمانات مايذهب الظلم وينفى الضرر . ثانيا : شاركت المرأة فى غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : أم عطية . أم عمارة . نسيبة بنت كعب المازنية ، صفية بنت عبد المطلب ، ومنهم من غزت مع النبي سبع غزوات (أم عطية) وكن يخلفن الرجال فى رحالهم ويصنعن الطعام ويداوين الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى كأم عمارة أول مبايعة للنبي فيها ، وقد شهدن مختلف الغزوات ، وكان لهن دور ضخم . ثالثا : فى مجال العلم والفصاحة والبلاغة وقد نافسن الرجال فى العلم بالاسلام ، حافظات للقرآن روايات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وشاركن فى كل مجال ودخلن المساجد ، وشهدن حلق العلم والصلاة جماعة ، وخضن المعارك ، والقين الخطب والأشعار وكان الرسول يعد لهن فى مجالسه وفى الصلاة أماكن خاصة ، واشتهر نفر من النساء غير قليل بالحديث والفقه ، حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن عائشة وأم سلمة ، وغيرهما من الصحابيات ، بل أننا نرى بعض الأحاديث تروى مسلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجال ، وروت عائشة عن النبى ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . وجاء فى الاصابة أن عائشة أم المؤمنين كانت تجيد القراءة ، وأن حفصة كانت تحسن الكتابة ، علمتها أياها « الشفاء » بنت عبد الله بن شمس القرشية وكان لابد لمجتمع المدينة أن تبرز فيه ظاهرة الغزو والحرب والقتال . فقد كان ذلك ضروريا لبناء الجماعة الإسلامية فى المدينة أن تؤمن من الخارج ، ولما كانت قريش قد أحست بفداحة الخطر الذى تحقق من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وقيام مجتمع جديد شاب بها ، من شأنه أن ينشر الاسلام فى أنحاء الجزيرة ، وأن يعود قويا زاحفا إلى مكة من بعد ، لما كانت قريش قد أحست بذلك إحساساً قوياً فإنها قد أخذت تتآمر للقضاء على هذه الجماعة ، لذلك كان لابد للمسلمين من إحساس دائم باليقظة والحركة ، والحراسة ، حتى لا تؤخذ الجماعة على غره ، ومن هنا كانت السرايا ، وكان الاستعداد الدائم لمواجهة أى موقف من مواقف الغزو ، وقد تمثل هذا حين زحفت قريش بعد استنقاذ قافلتها إلى ماء بدر قريباً من المدينة ، وكان لابد وقد أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يهاجمهم ، أن يصطدموا مع قريش ، وأن ينتصروا مع قلة العدد والعدد ، وكان ذلك بدأ صدام مسلح وعدوآن متصل شنته قريش خلال أعوام متصلة ، فى غزوة أحد بعد عام واحد من بدر ، وفى مؤامرة ضخمة حشدت لها كل قبائل العرب واليهود وخصوم الإسلام

جميعاً فى غزوة الخندق . غير أن الهزيمة التى منيت بها « الأحزاب » قد دفعت مجتمع الإسلام إلى القوة وأضافت إليه انتصارات ومكاسب جديدة ، فقد ذاع الإسلام فى الجزيرة ، ورجحت كفة « الجماعة الإسلامية » بانضمام قبائل جديدة إليها ، وكان لابد أن يتجه المسلمون إلى الكعبة : البيت الحرام فى مكة ، وقد استوى مجتمعهم ، معتمرين ، فقد كان الحج فريضة من فرائض الإسلام ، وقد ساقوا أمامهم الهدى علامة السلم لا الحرب ، والحج لا القتال ، واستطاعت قريش أن ترى قوة الإسلام والتى أصبحت وشيكة أن تدخل مكة ، فلم تلبث أن عقدت مع النبي « صلح الحديبية » الذى كان أول علامات « نصر الله والفتح » وعاد الرسول والمسلمون ليرجعوا فى العام القادم يؤدون عمرة القضاء . وفى خلال ذلك أخذ النبي والمسلمون يوسدون المجتمع ويقاومون مؤامرات اليهود بحصارهم فى خيبر ، وإجلائهم ، بعد أن تواصلت محاولاتهم للقضاء على الجماعة الإسلامية ، وكان عقد الحديبية وعمرة القضاء مقدمة لأكبر نصر فى تاريخ الجماعة وهو « فتح مكة » . وحقق المسلمون فى هذه المرحلة أعظم توسع سلمى لهم بتضاعف عدد المنضوين تحت لواء الإسلام . وحقق فتح مكة انتصار الدعوة الإسلامية وتركزها ، وفقد أصبحت « مكة » مصدر الدعوة الأولى ، وقد دانت للإسلام ، وتطهرت الكعبة من الوثنية وتقدم دعاة الإسلام الذين أوفدهم النبي إلى القبائل ناشرين لواء الإسلام ، وحاولت حنين أن تغزو مكة فبادرها الرسول فى اثنى عشر ألفاً ، ثم كانت الطائف هى الخطوة الثانية فى تركيز الإسلام فى الجزيرة العربية . والتفت الرسول إلى مشارف الجزيرة حيث « الروم » تريد أن تنقض على الجماعة الإسلامية فبادرها فى ثلاث جولات متصلة ، إحداهامعركة مؤتة ، ثم كانت غزوة العسرة الشاقة التى زحف على رأسها الرسول فى ثلاثين ألف من المسلمين إلى تبوك ، ولم يقع قتال ، وكان بعث أسامة قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى علامة على تأمين الشمال وتأكيد الحرص على خطر انقضاض الروم منه . وفى خلال هذه السنوات العشر فى المدينة تحقق للإسلام أن ينشر ظله على الجزيرة جميعاً فانضوت تحت لواء الإسلام .

ثم أتم الرسول الحلقة ، بأفراد الحج للمسلمين فلا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . وبذلك قام مجتمع الإسلام الأول ، منتظما الجزيرة العربية ، وقد أتم الله الرسالة ، وأكملها ، وتم نزول القرآن ، وكان الرسول قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الإسلام إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية وأرسل رسله يحملون الرسائل إلى عواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلماً إياهم ومبلغاً ، وقد استقبلها بعضهم بالقبول وبعضهم بالتحفظ ، والبعض الآخر بالنقمة ، وكان ذلك كله تمهيداً لحركة الإسلام المتصلة ، ومرحلته التالية فى التوسع والانتشار وتكوين الجماعة الإسلامية الكبرى ،

وقدمت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها مبايعة وأطرافها مبايعة الرسول بالإسلام ، وأذن رسول الله فى القبائل بالحج الأكبر فاجتمع مائة الف مسلم من شبه الجزيرة فى ركب الرسول ، وفى عرفات أعلن رسول الله أمر الله بتمام الرسالة: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فكان ذلك إيذاناً باكتمال المرحلة الأولى من بناء الاسلام ، ولم يلبث رسول الله أن اختار الرفيق الأعلى وكانت كلمته الأخيرة « انفذوا بعث أسامة » . وباختيار الرسول الرفيق الأعلى كانت « رسالة الاسلام » فى أيدلوجيتها الكاملة قد تمت واستكملت ، ولم تدخل عليها أى إضافات أخرى من بعد ، وقد دار الفكر الاسلامى بمختلف مفاهيمه وحركاته وتطوراته من بعد ، وحتى اليوم فى إطار مفهوم الاسلام — كما رسمه القرآن وقام عليه الرسول — سنة وتطبيقا ولم يخرج عنه ، وإنما كان الفكر الاسلامى تفسيراً وتحليلا وتوسيعاً لآفاق الالتقاء بين الاسلام والحيـــاة .

(٤)

« تكامل مفهوم الإسلام »

كانت فترة « الثلاثة وعشرين عاما » منذ بزوغ فجر الاسلام إلى اختيار الرسول الرفيق الأعلى هى فترة بناء « مفهوم الاسلام » وتكوين « القاعدة » التى اندفع منها إلى العالم كله ، وبناء النماذج القادرة من القادة المحاربين وبناة الدول وقادة الفكر . وقد اكتملت مقومات الاسلام ومفاهيمه فى حياة النبي من حيث هو دين ومدنية ومجتمع . وتم وضع الخطوط العامة لها ، هذه الخطوط التى لم يدخل عليها بعد إلى إن يرث الله الأرض ومن عليها أى إضافة جديدة ، فكان كل ماجاء من بعد تفسيراً لها وتوسيعاً لآفاقها ، وتحليلا لدقائقها ، مستمداً من جوهرها القابل للحركة والتطور وعلى النحو الذى أتاحته فى صميم مقوماتها من سعة وحيوية ومرونة ، جعلتها قادرة أبداً على مسايرة الحياة والانسان والحضارة على اختلاف البيئات والأزمنة . فقد استطاعت أن تمتزج بالثقافات والحضارات المختلفة وتصهرها فى بوتقتها وتحولها إلى طابعها ، وتتقبل من أساليب الفكر الانسانى ما يزيدها قوة على البقاء والحياة والتجدد دون أن يفقدها أصالتها ، وقد ظل الاسلام إطاراً ثابتاً للثقافة والحكم والاجتماع والحضارة ، تتحرك صوره وفق مجريات الزمن وتطورات الأحداث ، دون أن تخرج عن طابعه الأصيل ومقوماته الأساسية .

و « الاسلام » بمفهومه الأصيل هو دعوة التوحيد مع التكامل والوسيطة بين جوانب السياسة والاجتماع والحضارة والاقتصاد والثقافة ، تلتقي هذه الجوانب من خلال الاسلام وتنصهر ، قوامها العقل والقلب ، والدين والعلم ، وللمادة والروح ، والدنيا والآخرة ، ومن خلال الاسلام لا تبدو هذه الجوانب متصارعة ، ولا يتمثل فى لقائها ثنائية بل تنتظم فى امتزاج وتكامل ، وقد أعطى الاسلام للحياة فى المجتمع الجديد رسالة ، أسمى من الصراع القبلى ، وهدفا أكبر من المطامع الذاتية . أما القرآن فهو : « الوثيقة الاسلامية الخالدة » التى لم يصبها تحريف أو يعتورها نقص بوصفها للمنهج الكامل ، لمقومات الاسلام والفكر العربى ، ومفاهيمه ، والأرضية الكاملة له ، والمنطلق ، وقوام جذوره الأساسية .

« ومحمد بن عبد الله » هو رسول الله بالاسلام إلى الانسانية كافة ، وهو التطبيق العملى البشرى لمفهوم القرآن للانسان ، والدافع للفهم الانسانيه إلى التفاعل مع الحياة ، وقد عاشت سيرته نموذجاً حياً لتطبيق « أخلاق القرآن » وظلت سنته مصدراً حيا لتقديم النموذج الانسانى الكامل بوصفها تفسيراً للقرآن وتطبيقاً له . وقد كانت حياة النبي نموذجا كاملا رفيعاً للانسان فى أسمى صوره ومفاهيمه وتصرفاته ، فقد وصفت ذلك السيدة عائشة بدقة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

٢ — ولقد كانت الجماعة الاسلامية الأولى محاولة لتطبيق « مفهوم الاسلام » فى بناء المجتمع والحضارة لتظل صورة مثلى أمام التاريخ كله ، تمده بالقوة والنموذج والمثل العملى كلما افتقر الناس إلى فهم مضمون الاسلام فى مجالى الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، فى خلال هذه الثلاثة وعشرين عاما اختصرت صورة كاملة لتحول أمة من النقيض إلى النقيض عن طريق مفهوم الاسلام ، كان القرآن فيها هو الدستور وكانت السنة هى المذكرة التفسيرية ، وتطبيق القرآن على النموذج الأول « محمد » حامل لواء الدعوة .

وقد مرت هذه المرحلة من حياة الجماعة الانسانية الأولى بمرحلتين (١) مرحلة الدعوة . (٢) مرحلة بناء الجماعة التى حملت لواء الدعوة وانطلقت بها إلى أطراف الأرض ، كانت المرحلة الأولى فى مكة منبع الدعوة فى محاولة التحدى الكبير لاخراج مجتمع من أوضاعه القائمة الموروثة إلى أوضاع جديدة أكثر تقدما وإيجابية وإخاء ووحدة . ولقد قاوم المجتمع القديم بكل قوته فى سبيل المحافظة على قديمه ، وصادم بكل وسائله وأدواته الدعوة والداعى بكل ما استطاع أن يصل إليه من أسلحة . إلا بضعة نفر من الفقراء والضعفاء تبعوا الداعى وآمنوا بدعوته ووهبوا أنفسهم للدفاع عنها

ثم كانت « الهجرة » نتيجة لظهور مجموعة من المؤمنين بالدعوة فى يثرب سعوا (ثلاث سنوات متوالية فى أعداد متزايدة إلى مكة موسم الحج ليلتقوا بالداعى، ثم عاهدوه على أن ينصروه إن هاجر إليهم، وأن يحفظوه مما يحفظون به أبناءهم وذويهم ، فكانت الهجرة إلى المدينة هى « حركة الاستجابة » لتحدى مكة خلال ثلاث عشر عاماً ، ومن ثم بدأ مجتمع الدعوة الجديدة يتكون ويمارس حياته ووفق أنظمة الدولة ، ويمضى ليقر هذا النظام فى الداخل ويبث الدعوة إلى أطراف الجزيرة العربية كلها ، فكانت بذلك هى الطاقة المشعة ، والأمة الحاملة لدعوة الاسلام إلى العالم كله والجماعة الأولى التى تلقت الأمانة واستطاعت بما قدمه لها الاسلام من قيم ومفاهيم أن تغير نفسها وتتحول إلى أمة موحدة ، وتسعى لتنشر الاسلام فى الأرض .

هذه هى أمانة « الأمة » ممثلة فى الجماعة العربية الاسلامية الأولى التى تكونت فى خلال عشر سنوات فى مجتمع المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من صراع مع القوى المسيطرة المتحكمة . وفى خلال هذه السنوات العشر استطاعت الجماعة الاسلامية التى قامت فى المدينة أن تسيطر على مجتمع مكة وأن تذيبه فى الاسلام ، وأن تصهره فى بوتقة الدعوة الجديدة ، وتشده معها فى كفاحها ونضالها من أجل إعلاء كلمة الاسلام فى الأرض . ومن هنا كان مفهوم الاسلام نفسه هو الحكم والقياس ، فهو الذى استطاع أن يبنى هذا المجتمع ، وأن يكون هذه النماذج القادرة من أبطال القادة وبناة الدعوة والمفكرين ، ووفق مفاهيمه صيغت هذه العقليات والنفوس التى أصبحت به خلقا آخر . فكانت لها هذه القدرة المعجزة التى أدهشت الباحثين خلال أيام التاريخ الاسلامى كله من استطاعتها تحقيق بناء التوسع خلال مائة عام . ومن هنا تبدو أيضاً صلابة المقاييس التى لا تخطىء فى الحكم على الأحداث فيما بعد ، فكلما قربت الأحداث من مفاهيم الاسلام كانت مندفعة فى الطريق الصحيح ، وكلما انحرفت من هذه المفاهيم الأولى كانت الهزات والأزمات والهزائم .

إنه مقياس لم يخطىء خلال أربعة عشر قرناً كاملة ، الارتباط بمقومات الاسلام ومفاهيمه هى الصحة والسلامة والنصر والقوة على البقاء والحركة ، والانحراف عنها هو الخطأ والهزيمة والضعف والعجز عن الحركة والبناء . وفى كل نهضة نهض بها « بناة الدول » فى عالم الاسلام يبدو هذا المعنى واضحا ، وكلما إنهارت دولة أو حركة كان مصدر الانهيار هو الانحراف عن معنى الاسلام بدعوته إلى الاخوة والقوة واليقظة .

٣ — كان المجتمع الاسلامى الذى كونه الرسول خلال عشر سنوات فى المدينة وثمرة دعوته

خلال ثلاثة عشرة سنة فى مكة هو بؤرة الدعوة الاسلامية كلها ، وفيه انصهر ذلك الفريق من صحابة الرسول الذى أطلق عليه اسم « الصحابة » وكان تكوينه وانصهاره فى مجالات احتمال الأذى والصبر على التعذيب والايمان بالرأى والاصرار عليه فى مكة ، والكر والفر والقتال والاشتراك فى السرايا والغزوات والبعوث فى المدينة ، إيمانا بالاسلام وبيعة الروح لله فى سبيل نصر الاسلام ونشره والدفاع عنه والشهادة فى سبيله وكانت حياة الرسول هى النموذج الأعلى لذلك الايمان، باحتمال الأذى والنضال فى سبيل ومقاومة خصوم الاسلام ، فقد كان هو المثل الذى لا يرقى إليه مثل فى هذا المجال ، يتقدم أعوانه فى القتال حتى لا يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ويصرف الأمور فى حكمة واتزان ، وهو صاحب الكلمة المشرقة والنفس المتسامية على الحقد والهوى والمطامع . ومن حوله هذا الرعيل الأول قد صهره الاسلام «فحوله إلى قوة جارفة بالحقيقة التى لا تجادل : « احرص على الموت توهب لك الحياة » وبالفكرة العليا التى تستغرق هذه النفوس ، وهى إذاعة الاسلام فى العالمين ، والتضحية بمتاع الدنيا والمال والنفس فى سبيل هذه الغاية ، وكل عجب يوجه إلى انتشار الاسلام فى أقل من مائة عام من الصين إلى الأندلس ، يجب أن يرد تفسيره إلى عملية التكوين والبناء والتربية التى قام بها محمد رسول الله لهذه الجماعة المسلمة فى مجتمعى مكة والمدينة .

٤ — إنما أقبل على دعوة محمد فى أول الأمر الفقراء والمستضعفين والعبيد ، أولئك الذين كانوا يحسون الضعف والمهانة ، وكانوا يترقبون فى ظل الاسلام عزة وكرامة ، هم المستضعفون والفقراء والعبيد فى كل مكان ، هؤلاء الذين ترقبوا دعاة الاسلام حين أقبلوا عليهم فانضموا تحت لوائهم طامعين فى التخلص من الطغيان والذل والحرمان . وهؤلاء الضعفاء الذين التفوا حول « محمد » هم الذين حملوا من بعد رايات الاسلام إلى كل مكان . بعد أن صهرتهم الأحداث من تعذيب واضطهاد ومساءة ، خلال سنوات مكة القاسية ، وخلال سنوات المدينة المليئة بحركات الدفاع عن المجتمع الجديد من سرايا وقتال وبعوث .

٥ — كان على الجماعة الإسلامية فى يثرب أن تنظم نفسها على مفهوم الاسلام : دينا ودولة ، ومجتمعا وحضارة ، ولتكون نموذجاً تطبيقياً ، وأن تنشر الدعوة إلى الاسلام فى شبه الجزيرة كلها حتى تصبح فى نهاية عهد النبي «أمة موحدة» وجماعة كاملة ، وأن تكون متأهبة للكفاح والاندفاع فى الأرض لنشر الإسلام وإذاعته وإقامة مجتمعه الكبير . وقد استطاعت فعلا هذه السنوات العشر أن تديل من خصوم الإسلام فى الجزيرة ، وأن تحقق انتصارات متعددة : أبرزها دخول الرسول مكة

فاتحاً واستسلامها له ، ثم استسلام القبائل المتعددة التي دخلت في الاسلام واعتنقته ، وكان على الرسول ﷺ أن يتم دعوته بأن يبعث إلى الملوك والأباطرة والأمراء في شتى الأنحاء من حوله داعياً إياهم جميعاً الاسلام كعلامة على الطريق الذي سيسلكه الاسلام من بعد وكان أبرز قوتين تجاوران الجزيرة العربية هي : فارس الروم .

٦ — ولذلك كان إرسال الرسل إلى مختلف الشعوب والأمم بالدعوة إلى الإسلام علامة على « عالمية الرسالة » وبحسبانها ليست للعرب وحدهم ، ودلالة على الطريق الذي يسلكه الإسلام بعد في اندفاعه إلى العالم كله . وقد فهم المسلمون في الجماعة الاسلامية الأولى تلك الصفة الانسانية وذلك الطابع العالمي لرسالة الاسلام . وهذا هو ما عبر عنه الفقهاء بمعنى « عموم الرسالة » باعتبار أن الاسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين ، وقد حمل القرآن آيات كثيرة تثبت عالمية الاسلام . وقد أرسل الرسول الكتب إلى الملوك والأمراء في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) إلى هرقل قيصر الروم ، كسرى فارس ، وحاكم اليمن ، وحاكم مصر ، ونجاشي الحبشة . ولقد كان مقتنعاً منذ اليوم الأول لرسالته بمفهوم عالمية الرسالة وإنسانيتها معاً ، وأن تركيز دعوته في الجزيرة العربية وتحويلها إلى مجتمع واحد ، وأمة واحدة ، إنما كان يهدف إلى تكوين القوة التي تستطيع أن تحمل لواء هذا الدين وتندفع به خارج الجزيرة العربية إلى العالم كافة ، وكان ذلك يتمثل في قوله أن بلالا هو أول ثمار الحبشة ، وصهيباً هو أول ثمار الروم وأن سلمان أول ثمار الفرس ٧ — ومنذ تكونت الجماعة الإسلامية واكتمل بناؤها ثم اكتمل بناء الاسلام في حياة النبي . بدأت في التاريخ صورة جديدة ، ذات طابع جديد . وبرز مفهوم جديد للحياة من خلال « رسالة » ، وجماعة تقوم على « فكرة » قد قهرت خلافاتها العصبية والقبلية ، وتجمعت لتشق في التاريخ خطاً جديداً ، منذ ذلك الوقت بدأ تأثير الاسلام في التاريخ ، حين مضى يدك صرح الامبراطوريتين العظيمين : فارس والروم ويديل منهما ويقيم بنــاءه الجديد الضخم على امتداد عريض متصل من الصين إلى الأندلس في مائة عام ، فيصهر الفرس والبربر والترك ويصوغ المصريين والمغاربة والهند والسوريين في بوتقة واحدة ويقف لمواجهة الصراع مع أوربا والدولة الرومانية الشرقية « بيزنطة » وريثة الدولة الرومانية في روما ، بإحساس أن أرض الاسلام كانت تحت سلطان الروم الشام ومصر والمغرب ثم سيطرة الاسلام على الأندلس وهي جزء من أرض الغرب ثم محاولات السيطرة على أطراف فرنسا وروما . ٨ — أن « قوة بنــاء الشخصية » : الذي أعطاه الاسلام في هذه المرحلة للذين التفوا حول محمد ، والنموذج الذي تمثلوه في

الرسول ، هذه القدوة الرائعة هى التى أمدت هذا الرعيل الأول بتلك الصلابة التى صارت من بعد مضرب المثل ، فى الايمان بالله ، وفى الشوق للشهادة من أجله ، وفى الاندفاع لنشر الاسلام بالحق فى أقطار الأرض من خلال نفوس تستعلى على متاع الدنيا وتطمع فى أن تذود عن هذه الرسالة حتى تستحصد وتقوى ، هذا هو التفسير الذى يعطى مفهوم معجزة التوسع الذى حققه الاسلام فى خلال فترة قصيرة على نحو أعجز الباحثين وأدهشهم . إن قوة بناء الشخصية إنما يتمثل من خلال الحياة المضطربة التى عاشتها تلك القلة فى مجتمع مكة فى اضطهاد لم يتوقف . ٩ — أعطى الاسلام بمجتمعه الصغير الأول ذلك النموذج الذى عاش مدى العصور فى نفوس المسلمين وعقولهم مثلا يحتذى وصورة شامخة من صور المثل الأعلى للمجتمع الانسانى السليم المتكامل الذى يقوم على الأخاء والحب والتسامح والتكافل . ليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعيـــة ، ولـكنه تطبيق أمين لمفهوم الاسلام ومضمونه وأيدلوجيته ، وما تزال صورة هذا المجتمع الاسلامى الأول باتساقها وصلابتها وسلامتهـا فى فهم مضمون الاسلام ومنهجه تعطى علامة القوة فى تطبيق الاسلام ، فمن هذه الجماعة الاسلامية أنطلقت « الدعوة الاسلامية » إلى العالم كله ، فبلغت الصين شرقا والأندلس غربا وليس صحيحاً ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجماعة لا تلائم طبيعة العمران ، أو أنها توقفت على رجال يندر اجتماعهم فى عصر . ١٠ — كان مجتمع مكة غير متقبل لقيام مجتمع جديد فى داخلة أو على أطرافه متحرراً من الزعامة القبلية ، أو قاضياً على الصراع القبلى ، أو مجتمعاً تحت لواء محمد ، هذه الألوية القبلية التى كانت تتـكون من خلال العصبية الخاصة والسلطان والمال . أما « مجتمع المدنية » على النحو الذى كان عليه فقد كان متقبلا لقيام هذه الجماعة ، بعد أن ذابت القوتان القويتان فيه — وهما الأوس والخزرج — فى جماعة المسلمين ، ودانت بالولاء لصاحب رسالة الاسلام . ومن هنا نمـا مجتمع جديد له مفهوم جديد قوامه الايمان برسالته والدفاع عنها وأذاعتها فى الناس . ومن هنا كان لابد للجماعة الاسلامية من تنظيم سياسى واجتماعى واقتصادى يحفظ قوام الجماعة ويرد عنها خصومها ، ويدفعها فى تماسك وقوة للاندفاع برآيه الاسلام إلى آفاق الأرض . وقد توسعت هذه الجماعة من بعد ، ولـكنها ذابت فى المحيط الواسع الـكبير ولم تـكن صورة الدولة ، أو الحـكومة التى قامت ، إلا تطبيقاً لنظام حـكم يتحرك فى إطار الاسلام . ومن هنا كانت سنة الاسلام ورحابته ومرونته فى فرض نظام معين يلتزم به المسلمون ، وكان الالتزام الوحيد أن يكون الاسلام هو إطار الدولة والجماعة والفـكر مع قدرة كل منهما على الحركة والتجاوب مع تطور الزمن وتغير البيئة . ١١ — ولم يكن مجتمع المدينة كما تحاول أن تصوره مختلف كتب

السيرة ، بجتمع حرب وغزوات وقتال . فلو أننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجموعة بضعة شهور في خلال عشر سنوات . ومن هنا فان المجتمع الإسلامي في المدينة قد قام فعلا وبنى خلالها على دعامتين واضحتين : نظام مجتمع ونظام دولة ، كما بنى تشريعاً وقانوناً ، ثم كانت الحرب إحدى وسائله للحفاظ على بقائه ومدافعة خصومه ، ثم كانت المهمة الكبرى التي أولاها رسول الإسلام إهتمامه البالغ ، وهو نشر الدعوة إلى آفاق الجزيرة العربية . ثم ابلاغها إلى ملوك العالم القريب منه في رسائل ودعوات خلال السنوات الأخيرة من حياته ، وفي خلال هذه السنوات العشر الخصبة تشكل منهج الفكر ونظام المجتمع وتشريعه ، وسارت الدعوة إلى غايتها في التبليغ وكانت الغزوات لدفع العدوان جزءاً من هذا العمل الكبير ، ولكنها لم تكن هي كل شيء كما تحاول أن تصورها كتب التاريخ التي بين أيدينا . ١٢ — كانت مدرسة الأرقم في مكة بالإضافة إلى مدرسة مصعب بن عمير بالمدينة قد كونت تلك الطليعة التي ظلت خلال سنوات المدينة تخرج في بعوث متوالية تحمل كتب النبي إلى شيوخ القبائل العربية ، وتزامل الوفود المتوالية التي كانت تتقدم معلنة إسلامها إلى المدينة ، وفي كلا الحالتين كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام لأولئك أو تعلمها لهؤلاء . وقد لقى بعض هؤلاء الدعاة ، الأعنات والتعذيب والشهادة ، وقد أرسلت بعثة من أربعين معلماً إلى قبيلة بني عامر فقتلوا غدراً ولم ينج إلا ثلاثة منهم ، كما لقيت هذه القبائل من محمد رسول الله تفهماً عميقاً لمشاكلهم وقضاياهم ومنازعاتهم ، ساعدت على الصلح بينهم وكانت حكمة النبي وسماحته وحسن معاملته عاملا هاما في تجمع القلوب حوله . ١٣ — قبل أن يلحق محمد رسول بالرفيق الأعلى كانت القبائل المائة التي تعيش في الجزيرة العربية قد انصهرت في الجماعة الإسلامية ، تجمعها « وحدة فكر » قوامها الإسلام « وقيم أساسية » تستمدها من القرآن و « زعامة واحدة » هي زعامة محمد ، وقد ارتقت فوق عوامل التناحر والصراع ، وبدأ لها اتجاه واضح ، وهدف محدد ، ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي واضح المعالم ، لتندفع بعد ذلك إلى مجال التوسع والنمو والتمدد في خطين واسعين : أحدهما اتجه شرقاً إلى الفرس والثاني اتجه شمالا إلى الروم .

(٥)
« بنـاء الإســـلام »

« لم يكن المسلمون يحملون الناس على دينهم بالقوة ولم يكن من عملهم الحرب والقتال إلا إذا حيل بينهم وبين تبليغ الإسلام تحقيقاً لعموم الرسالة فإذ قوتلوا قاتلوا وازالوا القوة المناهضة فإذا قبلوا الصلح جنحوا لها وقد ضمن الإسلام لأهل الكتاب حرية كاملة فى عباداتهم وشئونهم كلها . لم تقم دعوة الإسلام على القسر بل قامت على الإقناع الذين كان يتولاه دعاة متفرقون ومن أبرز الظواهر أن كتائب قليلة العدد ضعيفة المدد غلبت أقوى الجيوش عتاداً وجنودا » .

* * *

كان « بناء الجماعة الإسلامية » فى الجزيرة العربية إلى أن اختار الرسول ، الرفيق الأعلى هو نقطة الانطلاق لبناء الإسلام : أمة ودولة وحضارة . وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضر اتجاهاً طبيعياً ، فبعد أن تكونت الجماعة الإسلامية فى قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب ، ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها للدعوة الجديدة ، كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى الآفاق . وقد عرف الإسلام بظواهر ثابتة استمرت خلال تاريخه كله وأبرزها « القدرة على الحركة » تبدو واضحة فى نشأة الدعوة ، فالدعوة التى ظهرت فى مكة لم تتوقف ، حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وعقولها ، فلما واجهتها المعارضة والتحدى والاضطهاد تحركت حركات متوالية ، تحركت بالهجرة إلى الحبشة وبالدعوة خارج مكة فى الطائف ثم تحركت بالهجرة نحو يثرب ، وفى يثرب بدأت « مرحلة جديدة » لقد انتقلت إلى أرض أكثر قابلية وأكثر يسراً ورخاءاً ، ثم عادت إلى مكة ظافرة ، ثم استطاعت أن تؤلف الجزيرة العربية فى « وحدة فكر » وفى « مجتمع موحد » ، ثم كانت حركاتها فى أواخر سنوات النبي إلى الشمال ، نحو الحضر ، نحو عنق الزجاجة ، نحو الفوهة التى خرجت منها الهجرات المختلفة ، وكان يدفعها إلى ذلك عاملين هامين . الأول : نشر الدعوة الإسلامية وإذاعتها والجهاد فى سبيل تحقيق رسالتها . الثانى : المبادءة بالحركة واليقظة وإبراز الهيبة الرادعة للخصوم المتربصين على الأطراف والذين يحاولون الانقضاض عليها . وقد أشارت تحركات الرسول فى خيبر ، ومؤته ، وبعث أسامة الذى لحق الرسول بالرفيق ورآيته منصوبة أمام المسجد ، والذى كان آخر ما أوصى به « أنفذوا بعث أسامة » والذى أنفذه أبو بكر فى أول أعمال ولايته ؛ كانت كل هذه الارهاصات توحى بالخط الذى يسلكه الاســـلام ، وهو خط طبيعى ، فإن دعوة « عالمية الرسالة » لابد أن تنطلق إلى الآفاق ، لأن من أقوى دعائمها الجهاد فى سبيل الله لنشرها

وقد بدأ الرسول هذه الخطوة بأن أرسل رسائله إلى الملوك والأمراء، داعياً إياهم إلى الإسلام، لذلك كان طبيعيا أن يتجه الإسلام إلى مجاله الحيوى وأن ينفذ من الجزيرة إلى دولتى الفرس والروم المتاخمين لجزيرة العربية .

وكانت دولتى فارس والروم قد أحستا فى السنوات الأخيره من حياة الرسول بخطر الدعوة الاسلامية ، فقد ألفت مجتمع الجزيرة العربية ، وقد تجمع فى وحدة فسكر قوامها التوحيد والاخاء والعدل الاجتماعى ، وبلغتها رسائل النبي بدعوتها إلى الاسلام ، فكان لا بد أن تفكر طويلا فى أمر على الجماعة الوليدة ، ومدى الخطر الذى يترتب على وجودها ونموها . ومن ثم بدأت تتآمر حتى كان بعث أسامة . فكان لابد أن يندفع الاسلام لمواجهة هذا الموقف . وكان التحاق النبي بالرفيق الأعلى علامة الطريق على الخطر وعلى خط مسيرة الاسلام نفسه . ومن هنا لم تكن حروب المسلمين مع فارس والروم حروب غزو بل حروب دفاع ووقاية . ولم يكن من الطبيعى أن ترى دعوة الاسلام الشابة العالمية هذا الخطر يتربص بها على أبواب الجزيرة ثم تتقاعس عنه . ثم زاد هذا الخطر قوة حين واجه الإسلام بعد انتقال الرسول للرفيق الأعلى انتقاضا شاملا فى شبه الجزيرة .

فارتد كثير من العرب ، وثبتت قريش والطائف ، وواجه المسلمون الموقف على عزمة أبى بكر خليفة رسول الله ، الذى أصر على مقاومة المرتدين وكان موقف أبو بكر حاسماً ، وهو من المواقف الخالدة فى تاريخ الإسلام كله وفى تاريخه هو بوصفه أول حاكم بعد النبي ، فقد أصر على مقاومة من منعوا الزكاة ، وقال « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، والله لاجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى » ورفض رأى بعض الصحابة الذين قالوا : نقبل منهم الاسلام ، وقال عبدالله بن مسعود : والله لقد قمنا بعد رسول الله مقاما كدنا نهلك فيه لولا أبى بكر ، أجمعنا أن لا نقاتل على ابنه لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لابى بكر على قتالهم ، ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ماراه أبو بكر ، وقال عمر : والله لقد رجح إيمان هذه الأمة فى قتال أهل الردة ، ووالله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق » . .

وكان أبو بكر قد تقلد سيفه وأزمع أن يخرج وحده لقتال المرتدين ، من هنا فقد حقق قتال أهل أهل الردة « وحدة الجزيرة العربية » . ذلك الدور الذى لعبه الفرس فى حروب الرده : فقد تآمر الفرس وتآمر الروم مع بقايا اليهود فى شمال الحجاز ، بل لقد جدد انتقاض الجزيرة العربية « حركة الرده » — جدد الأمل عند الفرس والروم — على محاولة القضاء على الإسلام ، هنالك قدمت الفرس

والروم لخصوم الاسلام عوامل الإغراء للانتقاض ، وكانت فى هذه المرة بعض المساعدات العسكرية كما آوت للمتمردين ، لذلك فما كاد المسلمون يعيدون وحدة الجزيرة حتى قرروا الزحف نحو الشمال لمواجهة العدوين الكبير المتربصين بالاسلام .

ثم كان إنفاذ بعث أسامة من علامات التماسك والقوة ، فقد رفض أبو بكر تأخير جيش أسامة ، وكان قد جهزه النبي وأمره أن يسير إلى الموضع الذى استشهد فيه أبوه « زيد حارثة » وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارف الشام ، وقد أوصى النبي قبل اختياره الرفيق الأعلى : « انفذوا بعث أسامة » . وكان أول أعمال أبى بكر هو انفاذ هذا الجيش ، وقد عارض الصحابة حين سمعوا أخبار الردة وانتقاض العرب فقال : لو ظننت أن السباع تخطفنى ، لأنفذت جيش أسامة الذى جهزه رسول الله ، فلم يلبث أن بث الجنود فى بلاد قضاعة وأغار وقتل وغنم ورجع لأربعين يوماً . وقالت العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه . والحق أن اختيار المسلمين لأبى بكر خليفة النبي ، كان عملا بعيد المدى فى تطور الدعوة الإسلامية واجتيازها الجزيرة العربية ودعم قواعدها فى خلال الفترة القليلة التى أمضاها واليا لأمر المسلمين خلال عامين استطاع أن يحقق ثلاث مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام . (١) بيعة السقيفة وجمع كلمة المسلمين على ولاية الأمر . (٢) مواجهة خطر « الرده » بالحسم . (٣) دفع الإسلام إلى آفاق الانطلاقة الكبرى . وقد سار الإسلام بعد أن خرج من الجزيرة العربية فى مرحلتين متتابعتين ، هما مرحلة «الإبعاد والأعماق» . كانت مرحلة الإبعاد تعنى التوسع والامتداد الجغرافى ، حيث حمل العرب رسالة الإسلام من الجزيرة العربية فانطلقوا بها إلى آفاق الأرض فأقاموا بناء الدولة الإسلامية فى ثلاث موجات : الموجة الأولى (١) من ١٢ — ٢٢هـ إلى العراق ودمشق وفارس ومصر والقدس وطرابلس الغرب . الموجة الثانية (٢) من ٤٠ — ٥٠ هـ فى شمال أفريقيا . الموجة الثالثة (٣) ٨٣ — ٩٣ هـ إلى الأندلس غربا والسند شرقا . ولم تلبث المنطقة كلها من حدود الصين إلى حدود فرنسا أن رفعت راية الإسلام ، ولكن حركة الإسلام لم تتوقف منذ اقتحمت قارة أوربا من الأندلس حينما كانت تلح على نفس القارة من الشرق بحصار القسطنطينية . ومن هنا بدأ الصدام بعالم الفرنجة والغرب والمسيحية ، وهو صدام لم يتوقف حتى اليوم ، وكان على الإسلام أن يواجه هذا الخطر من طرفين أساسيين : خطر البيزنطيين على حدود الشام وخطر الفرنجة على حدود الأندلس (أسبانيا) واستولى عليها ٩٣هـ — ٧١١م . منذ ذلك اليوم بدأت معركة ذات صراع وهول بين عالم الإسلام وعالم الغرب ، وبين الإسلام نفسه كرسالة ونظام وفكر وبين الغرب وفكره

وحضارته التي قامت أساساً على المنهج التجريبي الذي ابتدعته من حضارة الإسلام ، وقد وصل الصدام إلى مداه في معركة بلاط الشهداء ١١٤ — ٧٣٢ غير أن ذلك لم يوقف التوسع الإسلامي في فرنسا وإيطاليا وسواحل أوربا . أما حركة « الأعماق » فتتمثل في بناء المجتمع الإسلامي بالانصهار والفكر الإسلامي بالتبلور وهي مرحلة تالية لمرحلة بناء الإسلام وتوسعاته .

(٦)

« حركة التوسع »

في الموجة الأولى من حركة التوسع ، تقدمت القوات الحربية الاسلامية إلى حدود الشام والعراق ، في مواجهة نفوذ الدولة الرومانية وإلى حدود العراق لمقاومة نفوذ الدولة الفارسية . فقد وجه أبو بكر إلى الشام : أبو عبيدة إلى حمص ، ويزيد ابن أبي سفيان إلى دمشق وعمرو بن العاص إلى فلسطين وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن ، وقد بدأت حركة التقدم في أرض العراق ، على يد المثنى بن حارثة الشيباني ، فلما بلغت مرحلة دقيقة أنجده الخليفة بـ « خالد بن الوليد » فتقدم إلى الحيرة فالأنبار فعين التمر ، وأهم مواقعها ذات السلاسل .

وبينما كان خالد في تقدمه في قلب العراق ، دعي إلى إنجاد قوات الشام وارتد جيش المثنى إلى أطراف الجزيرة العربية . وأعطيت حركة التوسع في الشام بذلك مداها ، وكان اهتمام المسلمين بغزو الروم هو بالدرجة الأولى ، لتخليص شعب الشام وفلسطين من احتلال الروم . وقد واجه الروم قوات المسلمين بزحوف ضخمة ، اضطرتها إلى توحيد قواتها ، واتجه خالد من العراق لمساندتها ، إذ قطع المفازة بين العراق والشام في رحلة أسطورية ، ثم جمع القادة الخمسة على خطة موحدة . وواجه المسلمون الروم في معارك (اجنادين) في ٣٠ ألف مسلم في مواجهة مائة ألف ، وفي معركة (دمشق) دخل المسلمون المدينة من ناحيتين ، دخل خالد من الباب الشرقي قسراً ، وأبو عبيدة من باب الجابية سلما (١٤ هـ) وعزل عمر بن الخطاب خالد من الرئاسة بعد معركة (اجنادين) وتلقى خالد عزله راضياً ، وعمل جنديا تحت قيادة أبي عبيدة ، وقال عمر : أني لم أعزله عن ريبه ولكن الناس عظموه فخشيت أن يفتتنوا به ، وكان هذا الموقف من عمر غاية في تحرير الفكر الاسلامي من عبادة الفرد ، وكانت استجابة خالد بتقبل عزله عن ميدان الحرب كلية ، مثلا عالياً لعمق مفهوم الاسلام في نفسه ، وسلامة شخصيته ، وقد وصف تصرف عمر فوق ما صوره هو ، بأنه براعة سياسية ، فقد كان أبو عبيدة في

تقديره أقدر من المسالمة . وفى معركة « اليرموك » كان المسلمون فى ٢٤ ألفا بقيادة أبى عبيدة ، والرومان فى مائتى ألف بقيادة جبلة بن الايهم آخر ملوك الغساسنة ، وقد انتصر المسلمون فى كل هذه المعارك بالرغم من تفاوت العدد والعدد ، وتوالت الانتصارات حين استولى أبو عبيدة وخالد على حمص وحماه وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستولى عمر بن العاص وشرحبيل على عكا وحيفا ويافا وغزه ، ودافع الروم عن بيت المقدس دفاعا شديداً ، فلما اشتد حصار المسلمين له ، طلبوا الصلح على أن يتم ذلك على يد الخليفة نفسه ، ليكتب معهم عهداً وقد قدم عمر بن الخطاب فى رحلة ذات طابع عجيب وكتب بنفسه كتاب الأمان : ثم استسلمت مصر لقوات الاسلام ، وقد سارع المصريون إليه خروجا من ظلم الرومان ، بعد أن جرت المعارك فى أكثر من موقع ، وهزم جيش الرومان ، وتم الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس (٢١ هـ) على دفع الجزية وحرية العبادة ورحيل حامية الروم ولذلك قد رحب السوريون والمصريون بالمسلمين وهم عرب من بنى جنسهم ، تخلصاً من الغاصبين .

وفى فارس استأنف المسلمون الزحف على فارس ، وكان معركة القادسية (١٦ هـ) بقيادة سعد بن أبى وقاص والمسلمون فى عشرة آلاف ، فى مواجهة قائد الفرس : رستم ذا الحاجب فى مائة وعشرين ألف مقاتل ، ونصر أبو محجن الثقفى قوات المسلمين فقد انتزع نفسه من القيد ، وركب البلقاء فرس سعد . وفى معركة المدائن على ضفتى نهر دجلة انتصر المسلمون على قلة عددهم ، وسقطت العاصمة (١٦ هـ) وفى معركة جلولاء التى أعد يزد جزد عظيم الفرس فيها آخر محاولاته وكانت من أعنف معارك فارس ، وصفها البلاذرى فقال : أن المتحاربين إستعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا السيوف حتى انثنت ، وثبت المسلمون وكتب لهم النصر ، وفى معركة نها وند (١٩ هـ) تم النصر النهائى فأطلق عليها (فتح الفتوح) وكان الفرس فى مائة ألف بقيادة الفيرزان والمسلمون « بقيادة النعمان بن مقرن المزنى الذى ولاه عمر بعد عزل خالد ، وسقط النعمان فى مطلع المعركة وخلفه خذيفه بن اليمان على القيادة ، ثم استولى المسلمون على الأهواز ، وقم ، وكاشان .

من هذا العرض السريع تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس ، وقد كللت كلها بالنصر ، وكان المسلمون فيها غاية فى الكفاية والجدية والبطولة والقدرة على الاستشهاد والانتصار بالعدد القليل وكانت نتيجة هذه المرحلة أن دانت امبراطوريتان كبيرتان ، وساد حكم الاسلام العراق وفارس ، والشام والقدس ومصر .

غير أن هذا النصر لم يكن ليستقر أو يستمر دون حراسة ويقظة دائمة ، فقد كانت عوامل الانقضاض تحاول أن يجتاحه أو تنقص من أطرافه ، ومضى أصحاب السلطان المنهار فى استئناف

محاولات جديدة لاسترداد نفوذهم، أما الروم فقد هاجموا الاسكندرية بجيش كثيف، أما خراسان فقد انتفضت فى محاولة انقلاب، وقد رد المسلمون الحركتين وأبادوها، وكانت معركة ذات الصوارى (٣١ هـ) اشتركت فيها قوات إسلامية فى أسطول مكون من مائتى سفينة، فى مواجهة ثمانمائة سفينة رومانية بقيادة قسطنطين امبراطور الروم وكان النصر للمسلمين ثم اتصل التوسع الاسلامى مرة أخرى فى خلال عهد عثمان، وكان أبرز ما اتسمت به هذه المرحلة: بناء الأسطول الاسلامى وتولى معاوية بن أبى سفيان أمره، وفى خلالها انضم إلى الكيان الاسلامى برقة وطرابلس وجزء من بلاد النوبة وبلاد أرمنية، وأجزاء من بلاط طبرستان جنوبى قزوين وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ماوراء النهر، فاستولى المسلمون على بلخ وهراه وكابول وغزنة من بلاد الترك. وعن طريق البحرية الاسلامية دخلت (قبرص) فى إطار الدولة الإسلامية وقد قام معاوية بغزوها بحراً (٢٨) ثم قد توقفت هذه الاندفاعة ثمة لتعود مرة أخرى فى أوائل حكم معاوية الذى أولى اهتمامه النافذة الشمالية بينه وبين الروم، فقد كانت هذه الثغرة من أخطر ما واجه المسلمون فى تاريخهم كله، وقد أولى معاوية هذا الميدان اهتمامه فى موالاة حصار القسطنطينية سبع سنوات متوالية وغزو بعض جزر البحر الأبيض (الموجة الثانية) وتجددت موجة التوسع مرة أخرى فى عهد عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك فى امتداد جناحي الإسلام، «إحداهما» استكملت الامتداد الغربى فيما يلى برقة حتى الأندلس ثم بلغت قلب فرنسا. والأخرى استكملت الامتداد الشرقى فيما يلى فارس وما وراء النهر وانقسمت إلى قسمين: (إحدهما) سار إلى الشمال تجاه ماوراء النهر، (والثانى) مضى إلى الجنوب حيث بلغ السند واخترق الهند وبلغ حدود الصين ففى خلال حكم الوليد ابن عبد الملك (٩٣ هـ) اتجه التوسع إلى الأندلس وأطراف فرنسا من ناحية وإلى السند وحدود الصين من ناحية أخرى. ثم تناهى إلى مرحلة من أعمال الولايات خلال حكم الأغالبة لتونس، وإذا كان فى الامكان أن يقال أن القرن الأول كان عام التوسع فى ظل القوات المتدفعة خلال هذا الأفق الواسع من حدود الصين إلى حدود فرنسا، فإن هناك أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل: (الأول): أن مرحلة التوسع الثانية (٤٠ — ٩٣) فى خلال حكم الأمويين لم تكن فى عمق المرحلة الأولى، فقد كانت أقل درجة فى الكفاءة ولذلك فان أغلب الأرض التى كسبتها لم تثبت طويلا كما ثبتت الأرض التى كسبتها الجولة الأولى (الثانى): أن الاسلام بعد القرن الأول لم يكن فى حاجة إلى أن يجرى فى ظل الحركات العسكرية، بل بدأ خطوات جديدة مستقلة، واستطاع أن يفتح آفاقا جديدة بقوته

الذاتية . ومعنى هذا أن قيام « عالم الاسلام » على النحو الذى قام به خلال القرن الأول وعلى هذا النحو الرائع العجيب ، وما حققه من نتائج ضخمة فى نقل سكان البلاد إليه بالدعوة وعلى أساس جوهر مفاهيمه : « التوحيد — العدل الاجتماعى — المساواة » كان ذلك كافيا لأن يدفعه دفعا ذاتياً ليحقق توسعات جديدة فى أرض لم يكن للاسلام عليها دولة أو كيان سياسى . (ثالثاً) كانت الجولة الثانية للتوسع الإسلامى أقل درجة من ناحية الاعتصام بمفاهيم الاسلام وقيمة الأسس التى رسمها « نبي » الاسلام وحرص صحابته وخلفاؤه على الاستمساك بها (رابعا) كان منهج التوسع الإسلامى فى عهد الأمويين أقل درجة من ناحية العمل على نشر الإسلام والدعوة إليه ، وكانت « القدوة » التى تمثل رأس القيادة الاسلامية أقل درجة على إعطاء المثل الأعلى للاسلام مما كانت أيام الراشدين ، فقد كانت بساطة الخلفاء الراشدين عاملا عجيباً فى كسب غير المسلمين فى الأقطار التى تولاها الاسلام ، منها فى عهد الأمويين ، غير أننا نؤمن بأن التطور الذى بلغته القيادة السياسية كان تطوراً طبيعياً ثم دخل الاسلام فى الجولة الثانية : « الأندلس والهند » ولكنه لم يتعمق نفوس المسلمين وكان من أسباب ضعفه حرص الولاة على ايراد الخزينة العامة حتى جاء عمر بن عبد العزيز فحطم هذا القيد وألغى الأوضاع التى كانت تفرض على المسلمين ما كان خليقا أن يرفع عنهم من ضرائب بعد إسلامهم ، فقد أوقف عمر بن عبد العزيز الجزية عمن دخل الاسلام منهم فدخل الناس فى الاسلام أفواجا ، ودعا ملوك السند فقبلوا بدعوته وتبعتهم شعوبهم ، كما دخل الاسلام كثير من أهالى مصر والشام وفارس وهو القائل لواليه الذى أعترض على إلغاء الجزية لأنها تنقص مال الخزانة « قبح الله رأيك ، ارفع الجزية عمن أسلم ، فان الله بعث محمد هاديا ولم يبعثه جابيا ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه » وفى هذه المرحلة ظهر من أسماء الفاتحين : طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير (الأندلس والمغرب) وقتيبة بن مسلم (ماراء النهر إلى حدود الصين) ومحمد أبو القاسم الثقفى (السند) ويزيد بن المهلب (جرجان وَطبرستان) ومعاوية ابن أبى سفيان (حصار القسطنطينة) وعقبة بن نافع (فتح أفريقيا إلى المحيط) وقد شمل التوسع العسكرى الميادين الثلاثة : (١) الحرب ضد الدولة الرومانية (بيزنطة) ومحاصرة القسطنطينة (٢) شمال أفريقيا ، وقد أمتد حتى المحيط ثم عبر مضيق جبل طارق وأمتد إلى أسبانيا (الأندلس) . (٣) شرق آسيا : سار إلى (١) الشمال تجاه ماوراء النهر (٢) وإلى الجنوب فشمل السند . وقد كان قادة المعارك نماذج نادرة فى البطولة والايمان . « قتيبة بن مسلم » غزا ماوراء النهر وأغار على الصغد وفتح مدائن خوارزم صلحاً وغزا سمرقند وسار إلى حدود الصين (٩٦هـ) فأرسل ملكها وفداً له

يقول : ارجع ، فقد عرفت حرص من أرسلك وقلة أصحابه.قال قتيبة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيلة فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً على الدنيا من خاف الدنيا وغراك ، إما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأ كرمها القتل فلسنا نكرها ولا نخافه » و « يزيد بن المهلب » غزا جرجان وطبرستان بجيش مكون من مائة ألف ، أما « محمد ابن القاسم الثقفى » فقد حمل لواء الحرب وهو فى سن السابعة عشر وجمع بين البطولة والشجاعة وسداد الفكر . ومما تجدر الاشارة إليه أن ما أورده كثير من المؤرخين من خلاف بين طارق بن زياد وموسى بن نصير لاتؤكده المصادر الأمينه ، وكل ماروى فى هذا سنده ضعف ومن وضع وضاع العصر العباسى ،فقد كل أخدهما الآخر، أرسل موسى طارق فلما تحقق النصر ودانت أرض الأندلس عبر من منطقة أخرى ليكمل التوسع ، وليحكم الخطة ، فلما التقيا سار آمنا إلى الشمال حتى وصلا جبال البرانس . وفى الجولة الثانية للتوسع الاسلامى أنشأ الأمويون الأسطول البحرى ، وقد غزا معاوية فى البحر واستعمل على اسطوله عبدان بن قيس كما أغرى معاوية « عقبة بن عامر » فوجهه إلى رودس ، وركب معاوية البحر الى قبرص فافتتحها وكان معه ألف وسبعمائة سفينة للسلاح والأموال وأجرى معاوية محاولته لفتح القسطنطينية وكانت صور وعكا وطرابلس موانى متخصصة لصناعة السفن .

تفسير لنجاح التوسع الإسلامى

ان أبرز مايرتكز عليه مفهوم الرسالة فى الاسلام هو تبليغها واذاعتها ونشرها فى الآفاق ، ذلك هو هدف الاسلام الأكبر والغاية المنوطة بكل من يعتنق الاسلام والأمانة التى يحملها كل مسلم ، فالاسلام ليس دين عبادة ، ولكنه دين ورسالة ،قد وكل الى معتنقها أن يذيعها فى أنحاء الأرض ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، سجل ذلك القرآن حين وصف الاسلام بالعالمية ، وحين بعث محمد للعالمين نذيراً وكافة للناس ورسول الله إلى الناس جميعاً . وقد سجل الرسول ذلك فى عديد من أحاديثه : « إنى بعثت رحمة للناس كافة » ومن هنا كانت دعوته الى ملوك العرب وأمرائها بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة ، ثم رسائله إلى الملوك قبل فتح مكة فقد بعث إلى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى الاسلام ، إلى هرقل امبراطور الروم وإلى كسرى فارس (هوبرويز بن هرمز) ونجاشى الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، وقد صدرت هذه الرسائل عن يقين ثابت وحماس متقد على حد تعبير (توماس ارنولد) وتدل دلالة

واضحة على (عموم الرسالة) التى تكررت فى القرآن ، وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة . وليس فى طبيعة الإسلام ، ولا فى خطط الرسول فى دعوته ، ولا فى أحوال الأمم عند مبعث الرسول أمراً لا يؤكد « عموم الرسالة » . وقد صدقت الأحداث ذلك من بعد وأيديه وقد أمر القرآن بالدعوة إلى الله بالاقناع ونهى عن الإكراه . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

وقد كان الإسلام منذ بدأ ظهوره « دين دعوة » ، وكان مفهوم « عالمية الإسلام » واضحاً فى النماذج التى اعتنقت الدعوة الاسلامية فى المدينة ، بلال أول ثمار الحبشة وصهيب أول ثمار الروم وسلمان أول ثمار الفرس ، هكذا كان يطلق عليهم ، ومن ذلك ما ذكره الرسول عن بلاد كثيرة تفتح على المسلمين ، وما أوصى به لقبط مصر ، وما أشار إلى من سيعطى أساور كسرى . ويعنى هذا كله أن عالمية عالمية الاسلام ، وعموم رسالته كانت أمراً مقطوعا به ، وأن المسلمين كانوا فى جماعة الاسلام التى كونها محمد فى المدينة يفهمون منطلق الاسلام ، هذا المنطلق الذى بدأ فعلا يبعث أسامة التى أعده الرسول وأمر بإنفاذه وكان اتجاهه إلى عنق الجزيرة العربية ، إلى الشمال . وعلى ضوء هذا المفهوم نستطيع أن ننظر إلى حركة التوسع التى قام بها الاسلام والتى حققت قيام دولة ممتدة من حدود الصين إلى حدود فرنسا. فقد كانت هذه الحركة تحقيقا لمفهوم عموم رسالة الاسلام ودفعا للقوة الحاجزة دون انتشاره والقضاء عليها ، مما يطلق عليه عبارة (الفتح) إذا جاز لنا أن نستعمل لفظ « الفتح » فإنما يتم ذلك بمفهوم واحد هو إزالة القوة التى تقف أمام أمانة « عموم الرسالة » التى حملها المسلمون عن الرسول ، وكانت فى تقديرهم : مهمة حياتهم ، يهبون لها أرواحهم ، ويستشهدون من أجلها . فالفتح هو كسر الحواجز المادية التى يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة فى الأقطار التى ينفذ إليها الاسلام ، رغبة فى تحقيق اللقاء بين الاسلام وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها ، الغارقة فى : (١) الظلم الاجتماعى . (٢) الوثنية ، ولذلك فقد استقبلت هذه الشعوب الاسلام بغبطة كبيرة وتقدير لاحد له ، لأنه أتاح لها التحرر من مظالم الاستبداد ، وحفظ لها حقها فى ديانتها وطقوسها القديمة دون أن يفرض عليها عقيدته ، وسمح لها أن تتأكد بمزيد من الحياد كيف يحقق الاسلام : العدل والمساواة ، هنالك اندفعت تحت لواء الاسلام بإرادتها الحرة ، وباقتناعها العقلى والروحى الكامل .

وفى كل خطوة من خطوات الصدام المسلح كان الاسلام متمديا عليه أو محالا بينه وبين إذاعة

كلمته، ونشر دعوته، وقد انتفضت الجزيرة العربية بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى وقطعت روابطها، كان معنى الانتقاض، إنفراط عقد الوحدة التى كانت موضع هيبة الامبراطوريتين الفارسية والرومانية وقيد نظرهم فى حركة الاسلام، لذلك كان لابد من صدام مسلح يعيد وحدة الجماعة الاسلامية، غير أن انتقاض أهل الرده شجع الفرس والروم على العمل والقضاء على الدعوة الناشئة، وسارعت الفرس والروم فقدمت للمنتقضين مساعدتها وآوت المتمردين، ولذلك فقد كان طبيعيا أن يتجه المسلمون إلى مواجهة الفرس والروم، بعد القضاء على الرده، فى موقعة فاصلة، يزيلون بها هذا الخطر الذى يقف أمام نمو الإسلام وانتشاره. والذى كان يتربص به ويستعد لضربه ضربة قاتلة، ومن ثم اتجهت القوات المسلمة إلى أطراف الإمبراطوريتين فى وقت واحد، وفى معركة زمنية واحدة، وكان ذلك من علامات القوة بالرغم من أنها تخالف العرف العسكرى والحربى الذى يرى أن لا يشترك المحارب فى معركتين معاً فى وقت واحد غير أن ذلك أرهب العدوين وأدال منهما.

وتوالت الانتصارات، حاسمة، متتابعة فى كلا المعسكرين وبرزت بطولات رائعة، ظهر قادة أبطال، وأعطت هذه العمليات الحربية صورة رائعة لتطبيق مفهوم الإسلام وانصهاره فى نماذج حية رباها محمد وكونها خلال كفاح طويل، وبرزت صورة من التضحية والاستشهاد والبطولة غير عادية.

ولقد لفت التوسع الإسلامى نظر الباحثين فذهبوا فى تحليله مذاهب شتى، يقول لوثروب ستوارت: كلما زدنا إستقصاء باحثين عن سر تقدم الإسلام زادنا ذلك العجب العجاب بهرا، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت تسير فى سبيلها سيرا بطيئا متلافيه كل صعب حتى أن قيض الله لكل دين ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ فى تأييده، والذب عنه حتى رسخت أركانه ومنعت جوانبه. فبطل النصرانية: «قسطنطين»، وبطل البوزية: «أسوكا» وكل منهم ملك جبار أيد دينه الذى انتحله بما استطاع من القوة والآيد، إنما ليس الأمر كذلك فى الإسلام، الإسلام الذى نشأ فى بلاد صحراوية يموت فيها كل شىء، حيث القبائل الرحالة التى لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة فى التاريخ فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته من جهات الأرض مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر، ولا أزر مشدود، وعلى شدة المكاره فقد نصر الإسلام نصراً مبينا عميقا إذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة فى البرانس حتى هملايا وفى صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا» وعندنا أن العامل الأول فى نجاح التوسع الإسلامى لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثروة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب، ولم يكن

مصدر النصر الوحيد هو ضعف هــذه الدول ولـكن العامل الأول فى الحقيقة إنما هو عمق مفهوم الإسلام وسلامته وقربه من الفطرة الانسانية ومطابقته للواقع هذا المفهوم هو بناء حضارة جديدة فى إطار التوحيد : كانت القوة الدافعة هى إيمان هذه الجماعة إيمانا لا يتزعزع بالاستشهاد فى سبيل دفـع لواء الإسلام إلى كل أرض . أما السلطان والثروة فقد كان الإسلام فى أعمق مفاهيمه جامعا بين الدنيا والآخرة ، وللمـادة والروح لا يفرق بينهما ولا يفصلهما ولم تـكن الوسائل الحربية التى اتخذهاالمسلمون هى وحدها سبب النصر فقد كان هناك دوما فارق بعيد فى العدد والعدد بين المسلمين وخصوم الإسلام، وإنما كان مصدر النصر الحقيقى هو ذلك الايمان بالقاعدة الذهبية : « أحرص على الموت توهب لك الحياة » ولقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية التقليدية التى تقول . على المحارب أن يركز قواته فى ميدان واحد ، ودفعوا قواتهم فى ميدانين واسعين فى وقت واحد ، ومهما يكن من العوامل التى يوردها المؤرخون تفسيراً لهذا النصر الرائع ، فان العامل الأول والأعظم ، هو ذلك الإيمان العميق بالله والثقة فى نصره وطلب الموت فى سبيل إذاعة الإسلام وإبلاغه للعالمين ، والتضحية بالروح والتماس الشهادة ، هذا هو العامل الأول والأعظم من بين العوامل المتعددة . لقد كانت الامبراطورية الرومانية قد شاخت ، وبلغت المدى فى الضعف والتحلل ، وكان الأباطرة الرومان قساة مستبدون ، وكانت حياة الترف والانحلال بادية ، وكان الخاضعون للروم يعيشون فى ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين فلم يكونوا يدينون بشىء من الولاء لهذا الحـكم ، وكانت مصر مزرعة قمح لروما ، أما الفرس فقد كانت الحروب مع الرومان قد أنهـكتها وكان جنودهم يحاربون من غير حافز روحى ، حتى اضطر القائد الفارسى فى أحد المواقع أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وذلك فى موقعة ذات السلاسل . لقد ذهب البعض إلى عرض مفهوم « الجهاد » فى الإسلام عرضا غير منصف ، محاولا أن يجعله عملا حربيا هجوميا عدوانيا ، بينما لم يكن الجهاد جهاد حرب أو قتال عدوان ، بل كان عملا بناء للشخصية الانسانية أساساً وللمجتمع والدفاع عن الاسلام ونشر لوائه ، فهو دعوة خالصة وسيلتها الحـكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى ، فاذا فرض العدو المعركة ووقف فى طريق الدعوة كانت الحرب ، وهى فى مفهومها تقوم على أساس غاية فى الرحمة والعدل . والحق أن موجة التوسع الإسلامى كانت حركة عدل ورحمة ، فقد صادفت أقطاراً غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد والفقر والذل ، فـكانت دعوة الاسلام بمفهومها « دعوة التوحيد والعدل والمساواة » علما على تحرير الرقيق والعبيد والضعفاء وتخليصهم من سلطان الأباطرة . فبقوة مفهوم الحرية والعدل كانت تشق طريقها بعزيمة وتجد فى كل مكان تحل فيه قبولا ، لأنها كانت تزيل السلطة المستبدة الطاغية وتحل محلها سلطة جديدة قوامها العدل ، لا ترغم للناس

على دينها ولـكنها تؤمن للناس حياتهم وحرية أديانهم . فقد كان المسلمون يصلون إلى الأقطار فيقيمون فيها نظامهم فيتقبلم الناس بالرضا ، لأنهم كانوا يحررونهم من الظلم ولا يفرضون عليهم الاسلام ، ويؤمنونهم على أموالهم وأملاكهم ويدعون لهم حرية دينهم . بل لقد تركوا الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها بينما كان الأكاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض وللعاملين فيها وكان المسلمون يتركون لغير المسلمين أن يحـكموا قانونهم المدنى فى شؤونهم ، وإلى جوار ذلك كان دعاة المسلمين والفقهاء يتحدثون عن الاسلام ومبادئه وقيمه . ومن هنا أخذ الاسلام ينتشر ببطء ، وأخذت الجماعات المختلفة تتخلص من أديانها وتعتنقه ، وتتخلص من لغاتها وتعتنق اللغة العربية أيضا ، حتى رجال الـكنيسة فى القرن الرابع الهجرى وضعوا كتاباتهم باللغة العربية . وقد سجل سلوك عمر بن الخطاب فى مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذى كان يعامل به العرب الأمم الداخلة تحت لواء الإسلام ، فـلم يرد عمر أن يدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من أصحابه وطلب إلى البطرك سفرونيوس أن يرافقه فى زيارته لجميع الأماكن المقدسة ، وقد أعطى الأمان لسكان المدينة وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين فى بيعهم ؛ وكذلك فعل عمرو بن العاص ، فقد منح المصريين حرية دينية تامة وعدلا مطلقاً ومساواة كاملة وإحتراما كبيراً لأموالهم وتبديلا للضرائب الجائرة التى فرضها قياصرة الروم . وهـكذا وجد الفرس والمصريون والسوريون فى الاسلام منقذاً من الظلم والطغيان والاستغلال ، حين ضمن لهم حرية الأديان ، وترك الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كانت يدفعونه للأكاسرة والقياصرة ، كما أمن غير المسلمين على أموالهم وأهليهم ، وقد نفذ النظام الاسلامى على المسلمين وترك لغيرهم الفصل فى شؤنهم وفق القانون الذى كان مصدراً لقضائهم . ولقد تابعت حركات الفتح أعمال الدعوة والتعريف بالاسلام ، فقد أثبت الفقهاء والدعاة فى كل مكان يتحدثون عن مبادىء الاسلام وقيمه ، وكانت صورة الرسول كنموذج وقدوة وما التمسه أصحابه وتابعوه ، من شمائل وخلق ، من العوامل الأساسية لفهم الاسلام ، وقبوله ، مما دعا الـكثيرين إلى إعتناقه ، وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام إذ أصبحت لغة الجماعة وقوام الأنظمة السياسية والاجتماعية ، وفى الحق لم تـكن أعـمال التوسع مجـرد أعمال عسكرية تهدف إلى السيطرة أو تحقيق المجد الشخصى أو توسيع رقعة الأرض ، بل كانت أساساً تحمل دعوة الاسلام إلى كل مكان ، ولم تـكن الشخصيات التى برزت فى هذا المجال شخصيات طامحة إلى السلطة أو راغبة فى الظفر الذاتى أو المادى ، بل لقد استهدفت حركة التوسع الاسلامية نشر الاسلام أولا ، وإزالة القوى الحاكمة الظالمة المسيطرة ذات النفوذ والمصلحة الخاصة ، لاتاحة الفرصة لأهالى الأقطار المختلفة تحقيق قيام حكومات شعبية أهلية .

ولقد كانت كل نتائج الحروب والمعارك مفضية إلى هذه الحقيقة ، فقد كان الهدف الدنيوى فى الدرجة الثانية وكان هدف تضحية الروح والاستشهاد فى سبيل الغاية هو أبرز الدوافع ، إذ أن البسالة الفائقة والتضحية بالنفس لا تكون مصدراً للمطامع الدنيوية بذاتها ، ولقد كانت مختلف المواقف تشهد بأن المسلمين كانوا الصف الأقل عدداً بينما كان عدوهم يمثل ضعف عددهم أو إضعافه ، ومع ذلك كان مرجع النصر الذى يكسبونه دائماً ، إلى قوة أخرى ، غير القوى المادية وحدها . ومع هذا العامل القوى فإن المسلمين لم يتخلفوا عن الامتياز والتفنن ، والابتكار والبراعة فى فنون الحرب والقتال واصطناع أحدث الوسائل ، وأذكى الخطط ، وما تزال المعاهد العسكرية العالمية تدرس خططهم الاستراتيجية .

(٧)

الإسلام والحرب

لم تكن مواقع التوسع مجرد أعمال عسكرية تستهدف زيادة رقعة الأرض الاسلامية وإنما كانت تتمثل فى القضاء على المقاومة التى تحول دون إندفاع دعوة الاسلام إلى مداها بعد أن تكافأت الجماعة الاسلامية التى صنعها محمد فى الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاما إبلاغ الاسلام إلى العالمين . وظلت الحرب فى مفهوم الاسلام حرب دفاع لا حرب هجوم ، ورداً للعدوان وذوداً عن الحمى ، وكانت القوة فى الاسلام إرهابا أكثر منها تدميراً « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وقد صاغ الاسلام لفكرة الحرب مفهوما يختلف عن مفهومها العدوانى ، فصانها من قتال الأطفال والشيوخ والعباد ، من أى دين ، وارتفع بها عن التدمير والابادة ولم يجعل مفهوم انتشار الاسلام مرتبطا بالحرب ، بل جعله منوطا بالاقتناع والتقبل النفسى ، وكان أهم ما أدخله الاسلام من تطوير لنظرية الحرب هو السمو بها ووضع مبادىء تقود المحاربين إلى النصر بالاعداد للمعركة إعداداً سليما يضمن كسبها .

واتسمت مواقع التوسع الاسلامى بالبسالة الفائقة والتضحية بالنفس ، كان المجاهد حين يقاتل يطمح فى إحدى الحسنيين ، على النحو الذى علمه الرسول للجماعة الانسانية : النصر أو الشهادة ، ولم تكن مطامع الغزو المادية منكوره ، غير أنها لم تكن أبدا الهدف الأول كما تحاول كتابات بعض الغربيين أن تصورها . وإذا اعتبرنا أن المسلمين فى هذا المرحلة قد اعتنقوا عقيدة نشر الاسلام والسير بلوائه إلى أقصى مدى يستطيعون بلوغه فى الأرض ، فإن هذا الايمان العميق قد فتق أذهان

وعقول هذه النخبة الممتازة إلى فنون من الحرب وابتكار أدوات للقتال وأساليب الدفاع. وقد رسم الرسول قاعدة الغزو فى كلمات حاسمة دقيقة ظلت دستور الاسلام فى الحرب :

« أغزو باسم الله ، فى سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ، ولا منعزلا بصومعة ، لا تغرقوا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تهدموا بناء ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكله ، سوف تمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا له . أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا » . وقد حقق الرسول ﷺ بوصفه القائد الأول لجيش الاسلام مبادىء عسكرية ونظريات حربية جديدة طبقها فى موقعة بدر ، ثم جاء قادة المسلمين فأضافوا إليها ، وأهم هذه القواعد : (١) تقسيم مواجهة الهجوم . (٢) القضاء على القوة الرئيسية للعـــدو . (٣) تخصيص قوة حارسة تحمى مؤخرة الجيش . (٤) السيطرة على ممر فى جبل لمنع العدو من المرور فيه . (٥) دراسة شخصيات قادة العـــدو . (٦) الاستعداد لمواجهة طباع وعادات وأساليب الحرب لكل قائد منهم . (٧) تطبيق مبدأ الوقاية . (٨) ومبدأ المبادأة . كما اتخذ الرسول : خطـة اختيار الموقع الملائم لجنده ، كان يخرج للقاء عدوه ، وكان يعاود الخروج ولو كان متعبـا ، كما فعل بعد معركة أحد ، وكان يفرض الحصار وفقا لخطة حربية ، والسيطرة على المـاء ، وحفر الخندق . وكان مع هذا لا يكل نفسه إلى القوة العددية ولا يكتفى بها بل يلجأ إلى الله ، وكان يؤمن بخطر الحرب فى نتائجها بما تختلف عن بدائتها فيقول : «لا تتمنو لقاء العدو فإذا لقيتم العدو فأثبتوا » . وكان حريصا على تعرف قوة العدو بوسيلة أو بأخرى فقد يسأل عن الجزور التى تعود ذبحها كل يوم ثم يستنتج منها عدد جيش أعدائه ، ولا يضطرب فى الأزمة أو القارعة بل يثبت فى صمود ، وفى موقفين غاية فى الخطر ثبت الرسول ولم يضطرب ، أولها عند الفشل فى أحد ، فقد ثبت بقوة ، كما ثبت بقوة فى حنين بعد أن فارقه أكثر أنصاره . ولم تذهله المعركة عن واجباته كقائد لقومه ، وهو لا يمتنع عن تغيير مكان المعركة إذا وجد فى رأى أعوانه صوابا ، ولا يستهين برأى أحد من رجاله ، ففى بدر غير الموقع وفى الخندق غير الخطة . وكان من أسلحته القضاء على اقتصاديات العدو ومحاصرته وذلك بالتعرض لقوافل قريش ، وكان لا يتعرض للآمنين الوادعين الذين لم يشتركوا فى الحرب ، ولا يغير على قوم لم يخاصموه أو يعادوه فإذا عرف بعزمة قوم على مهاجمته سارعهم بالهجوم ، وإذا بلغه أن قوما يحملون عليه أو يهاجمون دعوته أرسل إليهم من يناصحهم ويدعوهم إلى الاسلام فإذا رفضوا حاربهم ، وكان فى خط النار أقرب ما يكون إلى إلى العدو ، قال أصحابه « كنا إذا حمى وطيس الحرب وحميت الحدق نتقى به فلا يكون

أحد أقرب إلى العدو منه » . وقد تطورت خطط الحرب بعد ذلك وتوسع نطاقها وتعددت أساليبها ولكنها لم تخرج عن المثل الأعلى للاسلام ، فلا يتأخر المسلمون عن إداء الصلاة فى مواعيدها، ولا يهاجموا غير المحاربين ، ولما صادفتهم مواقف جديدة استحدثوا لها مايواجهها ، لما واجهتهم الفيلة ضربوا خراطيمها ، ولما واجههم النهر خاضوه بالفرسان .

(٢) ابتكر القعقاع بن عمرو فناً عسكرياً جديداً ، فقد وصل قادماً إلى معركة القادسية من العراق فى نجدة من الجنود فى اليوم التالى فلما رأى قلة عدد المسلمين ، قسم جنوده ، وكانوا يعدون ألف فارس أقساماً صغيرة كل قسم عشرة وأميرهم ، ثم أمرهم أن يتواتروا إقبالا على المعركة عشرة بعد عشرة ، وأن يبدأوا الهجوم عند وصولهم فيزيدوا فى قوة المسلمين ويظن الفرس أن الامدادات متتابعة فيساعد ذلك على خذلانهم . (٣) كانوا يسيرون إلى الحرب يرتلون الآيات القرآنية ويكبرون عند الهجوم ويستعملون الطبول ، يقول عبد الله بن الزبير : « بتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى القرآن كدوى النحل وبات أولئك فى خمورهم وملاعبهم » . (٤) كانت النساء يصحبن المقاتلين وتخصص لهن أماكن وراء الجيش ، وكن يعملن مع الرجال فى أثناء المعركة ، ويقمن بتحريض الرجال على الصبر والاستبسال ، وينقلن الماء ، ويشتغلن بتمريض المرضى ومواساة الجرحى، وقد وقفت النساء المسلمات خلف الجيش فى معركة اليرموك وبأيديهن العمد والحجارة يضربن بها من يحاول الهرب .

(٥) برز طابع الاستقامة الخلقية فى معاملة أهالى المدن المفتوحة ، فلا فساد ولا خمور، أما الجندى فلا يقيم فى الجيش أكثر من أربعة أشهر ثم يسمح له بزيارة أهله ، وكان عمر قد سأل ابنته عما يمكن أن تنتظر المرأة غيبة الرجل ، فقالت أربع شهور . (٦) عرف خالد ببراعته فى خططه الحربية ، وفى « مؤتة » استطاع الارتداد بثلاثة آلاف مقاتل لما ظهر رجحان الروم عليهم ، وفى معارك الردة كان يتقدم لمبارزة قائد المعركة فيقتله ويتفرق أصحابه ، وفى معارك العراق أخذ بالمفاجئة ، وفى موقعة ذات السلاسل فرق جيشه (١٠ آلاف مقاتل) إلى ثلاث فرق وواعدهم (الحفير) ، وفى معركة الولجة حارب أعداءه فى ثلث جيشه ، وأرسل الثلثين كمينا له على أن يأتوا العدو من خلفه، وبدأت المعركة والعدو لا يظن إلا أن خالدا فى هذه القوة القليلة وأنه ظاهر عليه حتما ، وخالد يماكر عدوه ويخاتله ، حتى ظهر كمين خالد من خلف العدو فأصبح محاصراً من خلف ومن أمام .

وكان خالد يتحرك دائما على تعبئة ، وفى معركة (أليس) واجه خصومه وهم يتهيئون لطعامهم ، فلما رأى عددهم وقوتهم ، تعجلهم بالسيف فشتت شملهم ، وفى (الانبار) وجد القوم قد خندقوا

واعتصموا فى حصونهم فاقتحم الخندق بجثث الابل الضعيفة نحرها ورماها فى الخندق ركاما وأمر جيشه بالعبور على هذا الجسر ، وكان من أساليبه القدرة على نقل جيش عدوه بعيداً عن مراكزه ، فقد عسكر فى (الحفير) فلما تحرك هرمز قائد الجيش غادر المكان إلى (كاظمه) فكبد عدوه السير مسافة طويلة وواجههم وقد أضناهم التعب وكان الإنتقال فى الرمال والمفاوز أمراً سهلا على العرب مهلكا للفرس . ولم يلبث أن هاجم هرمز وقتله وبدد جيشه . وكانت أبرز مفاهيم خالد الحربية . (١) معرفة مواطن الضعف فى عدوه (٢) سرعة الحركة (٣) العزيمة والجرأة ، وفى اليرموك كان فى أربعين ألفاً وكان الفرس فى مائة ألف فقسم جيشه إلى كراديس ، كل كردوس ألف فارس ليوهم الروم أن العرب مثلهم عدداً .

(٧) ومن القواعد التى سنها عمر بن الخطاب . أن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية داعى الجهاد فى كل لحظة دفاعا عن دينه وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطاء معينا . وقد حدد قادة الحرب المسلمين خطوات العمل الحربى على خمس مراحل : (١) الاستيلاء على المراكز ، ذات الخطورة العسكرية (٢) استدبار الجند عين الشمس أو الريح . (٣) كتمان أخبار الجيش فى حله وترحاله . (٤) وضع الأسلاك الشائكة حول الجيش . (٥) إقامة الكمين « حركة التطويق » .

وأهم من هذا كله الحرص على الموت : احرص على الموت توهب لك الحياة .

× عن البلاذرى أن النعمان بن مقرن قال لرجاله فى معركة نهاوند : أنى هاز لوائى ثلاث هزات فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها ، أما الهزة الثانية فلينظر الرجل بعدها إلى سيفه وليتهيأ وليصلح من شأنه ، أما الثالثة فاذا كانت فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد .

× عند اقتحام دمشق بعد معركة اليرموك سبح المسلمون عبر الخندق الذى يحيط بها وكان مليئاً بالماء ، وعلى ظهورهم القرب ، ثم رموا بالحبال والأنشوطة فعلقت بالأسوار فتسلقوها وفتحوا الأبواب .

وكان القادة يجعلون من أنفسهم القدوة فى كل آن ، فيدعون أشجع الشجعان إلى المبارزة قبيل كل معركة ، فإذا قضوا عليهم حلت الهزيمة بالخصوم . كان فن الحرب أول الأمر جديداً على المسلمين . وكانت أبرز مقومات غزوهم :

الايمان والشجاعة والاقدام ، غير أنهم لم يلبثوا أن درسوا أنظمة الحرب فأنشأوا كتائب منظمـة .

كانو يرتقبون الاشتباك قبل صلاة الظهر ، ويحافظون على التوازن الحربى حتى المساء ، ليعودوا إلى المعركة بكتائب جديدة ، واتخذ خالد طريقة إخراج الجيش إلى مكان بعيد وإعادته فى الصباح فرقة وراء فرقة ليفت فى عضد العدو ، وليزيد أصحابه قوة برفع روحهم المعنوية بامداد جديدة ، ولم تمثل الغنائم إلا دوراً ثانويا فى مفهوم المسلمين المحاربين ، وعنى الاسلام بتأمين أسر المحاربين ففرض عمر بن الخطاب راتباً لأرملة الجندى وذلك لأول مرة فى تاريخ العالم . وفى مجمل الصورة تبدو ظاهرة انتصار العدد القليل من المسلمين على العدد الأكبر من خصومهم « قضية » عاودها بالبحث كثير من المؤرخين ومجمل القول فيها أن مقاتلة المسلمين كانوا من طراز خاص ، لقد أعطاهم الايمان بالله مع تضحية النفس فى سبيل نصر الاسلام قوة على الاندفاع فى الحرب دون خوف الموت ، ومع إكبار لهذا المعنى كانت نفوسهم تحمل الازدراء لحطام الدنيا ولا تحرص عليه . وحرص قادة المسلمون على تأمين القوى المحاربة ، وكانت صيحة الخلفاء والولاة : لا تقدموا بالمسلمين على مواقع شديدة الأهوال ، كما حقق الاسلام للداخلين فيه مشاركة على قدم المساواة فى معاركه وغنائمه وقياداته ، فكان أهل الوحدات الاسلامية دائماً غالبية المحاربين وإليهم ينسب النصر والظفر ، وفى مختلف توسعات الاسلام فيما وراء النهر والهند والمغرب والأندلس كان أهل البلاد من فرس وترك وبربر هم أهم القوى المحاربة ، ولم يكن الطمع فى الغنائم هو الدافع الأول إلى انضمام هؤلاء كما يصور بعض المؤرخين ، وإنما كان الاسلام فى مفهومه متكاملا جامعا بين نصر الاسلام وخير الدنيا يملأ نفوس هؤلا المحاربين يقول فون كريمر : كان العرب المسلمون فى حروبهم مثال الخلق الكريم ، فحرم الرسول عليهم قتل الرهبان والنساء والأطفال والمكفوفين كما حرم عليهم تدمير المزارع وقطع الأشجار ، وقد اتبع المسلمون فى حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية ، فلم ينتهكوا الحرمات ، ولا أفسدوا الزرع ، وبينما كان الروم يقدمونهم بالسهام المسمومة ، فإنهم لم يبادلو أعداءهم جرما بجرم ، وكان نهب القرى واشتعال النار عادة درجت عليها الجيوش الرومانية فى تقدمها وتراجعها ، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى فلم يحاولوا من هذا شيئا » . ولاشك كان الحرب المسلمين فى جهتين فى وقت واحد وانتصارهم فيهما — وهو مما لم يقع كثيرا فى التاريخ — أثر كبير فى تقدير المؤرخين والباحثين ، يقول ابن موتيروز فى كتابة (الحرب على مر العصور) . لقد كان من القواعد العسكرية المقررة المتفق عليها

ألا يحارب قائد فى جبهتين ، وإذا كان لا بد من حرب خصمين فليقدم أحدها على الاخر ، ولكن العرب لم تأخذ بهذه القاعدة ففى الوقت الذى كانوا يحاربون الفرس، أرسلوا جيشا إلى سورية لمحاربة الروم ، وظفر العرب فى الحربين وقضوا على جيوش الدولتين ، وهذا من عجائب الدنيا .

استراتيجية الحرب والمعارك

لا شك كان الأسلوب الذى اختطه المسلمون فى المعارك والغزوات والحروب أسلوبا إنسانيا بارعا ، فقد كان قوامه وسداه ولحمته « مفهوم الإسلام » نفسه ، فى السلم والحرب ، هذا المفهوم الذى يستهدف نشر الإسلام والدعوة إليه بالاقناع والحكمة والموعظة الحسنة ، فلا يلجأ المسلمون إلى القتال إلا لدفع العدوان أو إزالة أصحاب النفوذ الذين يحولون دون انتشار الإسلام وامتداد دعوته .

ومن هنا كانت معاركهم فى الأغلب : « معارك دفاع » وهم لم يبدأوها إلا بعد أن استنفذوا كل وسائل التبليغ ومحاولات السلام ، فإذا اضطروا هزموا ، فكانوا قوة عجيبة فى كسب المعارك . إيمانا بالله وثقة بالعقيدة التى يعتنقونها ، وإخلاصا يفتق العقول والقلوب لأساليب التغلب على العدو ، وما زالت معارك المسلمين وحروبهم ومواقعهم ، تدرس فى الجامعات العسكرية فى العالم كله ، كأرقى مثال لنظم الحرب ، البريئة من الغدر والانتقام والابادة ، وقد كشفت هذه المواقع عن أعلام أبطال ، هم قادة المعارك الذين حملوا رايات الإسلام إلى الصين وإلى الأندلس ، كان للعرب : الأمة التى أنزل عليها القرآن واختيرت لحمل لواء الإسلام — المكان الأول فى هذه المراحل ، متمثلة فى القوى البدوية الشابة الصامدة ، المنبثقة من قلب الجزيرة العربية ، تدفع معها كل مسلم من كل جنس ولون إلى مواقعها ومعاركها .

ومع ذلك فلم يكن لهذه القوة ولهذه المعارك والحروب صلة بانتشار الاسلام أو دعوته ، فقد كان هدفها تخليص الأقطار والبلاد من حكامها الذين وقفوا أمام الاسلام، يردونه ويقاومونه ، أما البلاد التى قبل قادتها وحكامها « الإسلام » فلم تقع بها حروب أو معارك ، وفى كلا الحالتين لم يفرض الاسلام نفسه « دينا » على غير الذين ارتضوه واعتنقوه عن إقتناع ، وإنما سمح لكل الأديان والطوائف أن تباشر عبادتها فى حرية ، وقد شهد بهذه الحقيقة المؤكدة كثير من المنصفين . فهذا روتش فى كتابة (تاريخ شارلكان) يقول : إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين التسامح وغيرة التبشير . فلما حملوا السلاح لنشر مذهب نبيهم أباحوا للذين لم يريدوا اعتناق هذا المذهب أن يبقوا متمسكين بدينهم .

ويقول ميشود فى كتابة « تاريخ الحروب الصليبية » : منع (محمد) قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة ، ولما استولى (عمر) على بيت المقدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذه المدينة (يعنى القدس) ذبحوا المسلمين بلا رحمة ولا هوادة . ويقول جوستاف لوبون فى كتابة (حضارة العرب) : لم تكن القوة عاملا في انتشار الإسلام قطعا ، فقد ترك المغلوبون أحراراً فى المحافظة على دينهم وإذا حدث أن اعتنقت الشعوب دين دينهم ، فذلك لأن الفاتحين الجدد بدأو أكثر عدلا نحوها مما كان عليه سادتها السابقون ، ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان البساطة البالغة مما لم تعرفه الشعوب حتى ذلك الحين ، ولم يفرض القرآن بالقوة بل بالاقتناع ، والإقناع وحده هو الذى كان يمكن أن يجلب إلى اعتناقه الأمم التى قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول »

وقد كان اتجاه التوسع الإسلامى واضحاً فى الطريق إلى الشمال ، هذا الطريق الذى كان مصدر الخطر على فوهة الجزيرة العربية ، وكان يهدف إلى توسيع عالم الإسلام بإزالة سلطان الامبراطورية الرومانية عن الشام ، وقد بدأت أعمال التوسع فى العراق والشام فى وقت معاً ، على نحو عد من مبتكرات الاستراتيجيه الإسلامية ، وكان مصدر النصر ، بعد أن أوقع الهزيمة فى قلوب قادة الامبراطوريتين ، وقد رجح الخليفة أبو بكر أمر الشام فأرسل إلى خالد بن الوليد أن يترك موقعة فى العراق إلى الشام : « إمض مخففاً فى أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك فى الطريق حتى تأتى الشام وتلقى أبو عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيم فأنت أمير الجماعة » فلم يلبث خالد أن استجاب فترك القيادة للمثنى بن حارثه ومعه نصف الجيش. وساربالنصف الآخر إلى الشام ، وهنا تبرز عبقرية خالد ، ولماحيته ، فقد اختار طريقاً قصيراً شاقاً ، ليصل فى أقصر وقت ، وليتفادى القلاع الرومية فى طريق وادى سرحان ، فسار من دومة الجندل (الجوف) إلى قراقر ، واقتحم بوابة سوريا فى صحراء مجدبة خمسة أيام وأمامه دليلة رافع بن عمير ، ولم يلبث أن وصل إلى أطراف دمشق فى ثمانية عشر يوما . وقد تحقق مفهوم الإسلام فى الحرب على هذا النحو : (١) فى مختلف المواقع العسكرية الكبرى التى وقعت بين المسلمين من ناحية والروم أو الفرس من ناحية أخرى كانت القوة الإسلامية أقل بكثير من القوة المضادة . فى اليرموك كان جيش الروم ١٤٠ ألفا وجيش المسلمين فى ٤٠ ألفا . (٢) فى موقعة فتح دمشق كانت براعة المسلمين تتمثل فى اليقظة ، وترقب الأحداث ، فقد سهر خالد يرقب تحركات العدو حتى شاهد غفلة من الحراس الذين غادروا أماكنهم لحضور فرح مولود جديد فانتهز الفرصة ، وتسلق السور بواسطة سلالم من الحبال ، ومعه القعقاع بن عمر ومذعور ابن عدى فقتلوا الحراس ، ونصبوا سلالم أخرى من الحبال ، رقى بواسطتها

أركانه إلى السور ، ثم انحدروا إلى الداخـــل ، حتى فاجأوا حراس الأبواب فقتلوهم ، وفتحوا الأبواب ، وراحوا يكبرون ، واقتحم المسلمون الأبواب . (٣) عندما تولى عمر الخلافة عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولاها أبو عبيدة ، هنا تبدو صورة من أروع صور مفهوم الإسلام في إنـكار الذات ، جاء البريد بعزل خالد ومعركة اليرموك على أشدها ، فاحتفظ أبو عبيدة بالرسالة فلم يعلنها لخالد ، تاركا إياه على قيادة الجيش ، وهو جندى معه حتى علم خالد بالأمر من غيره ، وخالد لا يضيق بالعزل ، بل يتقبله ويمضى بعد جنديا فى الجيش تحت أمرة أبو عبيدة ، فيحقق انتصارات جديدة . (٤) اشتركت النساء فى القتال وتضميد الجراح وتقـديم الماء . (٥) سلمت مدينة القدس صلحا بعد حصار شديد ، اشترط أهلها إن يسلموها إلى الخليفة عمر ابن الخطاب ، وقدم عمر بن الخطاب من المدينة إلى الجابية ، وذهب إلى بيت المقدس ، ولم يصطحب معه غير خادم ، ولم يأخذ معه من الزاد غير قربة ماء وجراب شعير وتمر ، فلما دعاه البطريرك ليصلى رفض أن يصلى فى الـكنيسة ، وخشى أن يتخذ المسلمون من صلاته حجة لانتزاع الـكنيسة عن أصحابها . (٦) ظهر طاعون عمواس فأباد عشرين ألفا من الجنود ، فأرسل الخليفة عمر إلى أبى عبيدة قائد المسلمين يستدعيه فى حيلة بارعة لينقذه من الوباء ، غير أن أبا عبيدة رفض عرض الخليفة . قال : أنك يا أمير المؤمنين تريد أن استبقى ما ليس باقيا . (٧) لم تـكن القيادة العسكرية يوما وقفا على العرب وحدهم، بل عقدت ألوية الجيوش إلى قادة من المسلمين : أحباشا وفرسا وعجما وبربرا . (٨) استقبل الأهالى المسلمين فى كل مكان بلا مقاومة . (٩) احترم المسلمون شروط الهدنة والصلح . (١٠) الجماعة الإسلامية الأولى التى كونها محمد فى المدينة ومكة هى التى حملت لواء نشر الاسلام وعلى يديها تحقق التوسع ، وهى التى واجهت سيوف الروم وفارس .

(٨)

« مرحلة الانصهار والبلوره »

(١١٤ - ٤٨٩ هـ)

« كـان لابد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة ، فقد دخلت خلال سنوات قليلة ، فى عالم الاسلام ، شعوب وعناصر وأمم وأجناس متعددة ، دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها لم يفرض عليها الاسلام دائما ترك لها حرية الاعتقاد ، وفى هذه الفترة تم عملين كبيرين (١) تبلور

الفكر الاسلامى بامتصاص الثقافات والفلسفات على قاعدته الأساسية . (٢) انصهار عناصر عالم الاسلام فى المجتمع اسلامى متكامل » .

تعد مرحلة الانصهار والبلورة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الاسلام . لقد بدأت هذه المرحلة فى نفس اللحظات التى تمت فيها مرحلة التوسع الأولى فى عهد الخليفة الثانى (عمر) عندما سيطرت القيادة السياسية للاسلام فى المدينة على فارس والعراق والشام ومصر ، وإزالت امبراطورية الفرس وضمت على ما كان تحت نفوذ الدولة الرومانية من أرض الشام ومصر ثم أفريقيا من بعد ، فى هذه اللحظات بدأت « مرحلة الانصهار والتبلور » لهذه العناصر المختلفة التى ضمها الاسلام تحت قيادته السياسية وقبل أن يجمعها تحت لوائه كفكر وعقيدة . وكانت الدولة الفارسية المنهارة هى أدق وأخطر هذه العناصر ، وأقواها أثرا ، بحكم أنها أكثر حضارة ، وأكثر اعتزازا بقوميتها ، وبحكم أنها كانت ترى العرب — قادة الحركة الجديدة — من قبل ، أقل من الفرس درجات فى مجال الحضارة والسلطان السياسى والعسكرى . ثم اتسمت مرحلة الانصهار والبلورة من بعد ، عندما توقفت حركة التوسع فى أواخر حكم عثمان ، وبدأ أثرها الواضح فى حركة الشد والجذب حول نظام الحكم إذ ذاك واستمرت سنوات من حكم « عثمان » وخلال حكم « على » حتى انتهت إلى مرحلة جديدة : هى مرحلة الملك العضود بولاية معاوية لشئون القيادة السياسية .

غير أن هذا الانتقال من الخلافة إلى الملك العضود لم يكن هو النهاية ، فإن عملية الانصهار والتبلور كان لابد أن تكون طويلة المدى ، ولقد زادها النظام الجديد حركة وحيوية خلال فترة حكم الدولة الأموية (٤٠ — ١٣٢ ه) كله . لقد تكونت منذ أواخر عهد عثمان معارضة قوية تمثلت فى فرق مختلفة ، لانريد أن تلتزم فى عرضها مناهج المؤرخين السابقين ، بل نرى أنها تتمثل فى دعاة المثل الأعلى ودعاة العاطفة ، وفئة المؤامرة على الاسلام ، وقد تداخلت العناصر الثلاث تداخلا عجيبا ، حتى لم يكن فى قدرة الكثير من الباحثين الفصل بينها ، بل أن احدها قد حاول أن ينتفع بقوة الآخر ، فى سبيل تحقيق هدفه ، ثم ظهر من بعد دعاة العدل والمساواة . وقد استطاعت « المعارضة » أن تنتفع بالتحول الخطير الذى شمل المجتمع الاسلامى كله ، نتيجة لتوجهه بالعناصر المختلفة ، واتجاهه إلى تغيير أسلوب الحكم ، ومكانه ، وتداخل الثقافات الفارسية واليونانية والرومانية والفرعونية ، وامتزاج القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة فى هذا المجتمع الواسع المتضخم ، هنالك كانت تلك الأزمة الخطيرة التى ظهرت فى ظل الخليفة الثالث (عثمان)

وكان لها مقدماتها فى حكم (عمر) كان أبو زر من دعاة العدل الاجتماعى والخوارج من دعاة المثل الأعلى ، وأنصار آل البيت من دعاة العاطفة ، وعبد الله بن سبأ من قادة المؤامرة ، يتحركون جميعاً وربما تلاقوا وربما اتخذ قادة المؤامرة من منهج قادة العاطفة ستاراً ، وربما حاول دعاة العدل الاجتماعى أن يحسنوا الظن بالمتآمرين ، فاضطربت الحياة السياسية اضطرابا أوقع ذلك الصراع بين أهل الأمصار والخليفة الثالث ، وأوقع الخلاف بين المسلمين والخليفة الرابع ، وانتهى ذلك كله على النحو الذى حقق قيام الملك العضود ، بديلا للخلافة فى دمشق بقيادة معاوية ،هنالك بدأت مرحلة جديدة من هذا الصراع استمرت ، خلال حكم الدولة الأموية . كانت الدولة الأموية بقيادة معاوية هى الحل الذى ارتضاه الواقعيون لضمان « وحدة المسلمين » واستمرار سلامة المجتمع الاسلامى ، فقد نقلت النظام السياسى من الخلافة إلى الملك ، ومن قلب الصحراء إلى قلب المدينة ، ولكن هل حققت مطالب دعاة المثل الأعلى ، وطلاب العدل ، ودعاة العاطفة ، لقد ظل هؤلاء جميعاً فى صف خصومها فى صف المعارضة ، واستمرت فئة المعارضة على الاسلام ممن زحزح الاسلام نفوذهم الشخصى ، وسلطانهم السياسى ، لقد استمرت هذه الفئة الموتورة حربا عليه ، غير أن غالبية للمسلمين كانوا قد والوا النظام السياسى القائم فى دمشق واعتصموا به ، هؤلاء هم (دعاة الواقع) الذين كانت لهم حججهم فى قبول هذا النظام ودعمه حرصاً على بقاء الاسلام نفسه ودفعا له إلى الأمام . غير أن المعارضة كانت تأخذ على حكم الأمويين مغالاته فى تأكيد السيادة العربية الخالصة وتميزها عن المسلمين من غير العرب مما خلق مشكلة طلاب العدل (الموالى) ، وما استتبع استمرار هذا النظام من محاولات متوالية لانتقاض دعاة العاطفة (الشيعة) الذين آمنو بحق آل البيت فى تولى الحكم ويتمثل أبرز خصوم الأمويين من دعاة المثل الأعلى (الخوارج) الذين كانوا يرون أن من حق المسلمين اختيار حاكمهم ، وقد استغلت « المؤامرة على الاسلام » كل هذه الفرق الساخطة ، وكل قوى المعارضة ، غير أن الدولة الأموية بوصفها القيادة السياسية الإسلام قد حققت للإسلام كثيراً إذ وسعت نطاق عالم الاسلام وأضافت اليه وعمقت آفاق الحضارة فيه .وإن كانت الدولة الأموية لم تلبث أن سارعت دعاة العاطفة ، وبلغ ذلك قمته بمقتل « الحسين » ، هنالك تجمعت مختلف القوى على النظام الأموى ، فاستطاعت أن تسقطه .

والحق أن سقوط النظام الأموى كان تطوراً طبيعياً للمجتمع الاسلامى فقد حقق كسر القيود التى كانت تحول دون اشتراك العناصر المختلفة فى المجتمع الاسلامى على قدم المساواة بلا تفرقة وفق مفهوم الاسلام ودون سيطرة العرب على سائر المسلمين أو استعلائهم ، وإذا كان النظام

العباسى قد كسر هذا القيد ، وأرضى دعاة المساواة فإنه لم يحقق آمال دعاة المثل الأعلى (الخوارج) ولا طلاب العدل الاجتماعى ولا طلاب العاطفة وفى هذه الفترة كانت هذه الفرق المتعارضة تتصارع حول سلطان الدولة ، فقد واصل دعاة المثل الأعلى حربهم وكذلك واصل طلاب العدل الاجتماعى دعوتهم كما واصل دعاة العاطفة حملتهم ، وأفسحت عوامل الصراع الطريق لدعاة المؤامرة على الإسلام والشعوبيين جميعاً . فى هذه المرحلة ظهرت حركات حملت لواء العـــدل الاجتماعى كالزنج والقرامطة ، وحركات حملت لواء العاطفة حاولت أن تنتصر لآل البيت الذين خاصمهم العباسيون الحكام بنى عمومتهم بأقصى مما خاصمهم به الأمويون ، وفى هذه المرحلة نهض الفكر الإسلامى وتعمق ووسع آفاقه فى مواجهة « المؤامرة على الإسلام » ، وظهر دعاة للدفاع عنه تحت أسماء كثيرة ، تحت أسماء المعتزلة ، والأشعرية والفقهاء ، والمحدثين ، وأهل السنة . وفى هذه المراحل مضت حركات ثلاث فى خط واحد ، هى :

[(١) نمو الحضارة (٢) انصهار المجتمع (٣) بلورة الفكر] . وقطعت فى ذلك الطريق خطوات واسعة ، فى عالم الإسلام كله ، فى المشرق والمغرب والأندلس ، وساعد على ذلك ودفعه — إلى الأمام دفعات قوية — بروز السلطات الاستقلالية فى كل قطر ووطن ، وظهور القوى القومية الخالصة فى مواطنها يحمل لواء الحكم فيها « بنـــاة الدول » الذى كانوا فى الأغلب قادة مبرزون يجمعون — فى الأغلب — بين الفقه والحكم ، فقربوا العلماء وشجعوا الشعراء ووطدوا الحضارة وأقاموا العمارة وفى خلال ذلك اتسع نطاق التجارة وبلغ الثراء مبلغه بعالم الإسلام وامتد بين الأندلس والصين فى طريق ممهد أمين يستطيع أن يتحرك فيه المسافر دون أن يصـــده شىء . وقد استطاع المجتمع الإسلامى أن يترابط ويتبلور وتنصهر فيه كل القوى وأن تجمعها روابط مفهوم الإسلام وتعلو على روابط الجنس والدم والقوميات الإقليمية ، غير أن هذا الانقسام السياسى تحت خلافات ثلاث ، وفى ظل دول استقلالية ، وغلبة عناصر الخلاف بين هذه القيادات السياسية الرئيسية ، ثم غلبه الترف ، وضعف القوى العسكرية ، وتراخيها كل ، هـــذا أغرى القوى المتراصة خارج عالم الإسلام به ، فأخذت تتأهب للانقضاض عليه وغزوه . هذا الغزو الذى بدأ أول أمره هينا فى جبهتين : جبهة الحدود البيزنطية وجبهة حدود الأندلس ، فى محاولة الغرب الصامدة لرد قوة الإسلام عن أوربا والأدلة منها وتحرير شبه جزيرة أيبريا من الإسلام أيضاً ، وحصر الاسلام فى أفريقيا وآسيا ، تلك كانت خطة الغرب قامت عليها الدولة الرومانية الشرقية فى شرق أوربا ودولة الفرنجة فى غرب أوربا ، فقد ظلتا تترقبان فرص الضعف للانقضاض على حدود عالم الاسلام من ناحيتيه ، حتى أتيح

لها من بعد أن يصلا إلى هدفهما بالحروب الصليبية التى غزت عالم المشرق ، بينما كانت الحروب الصليبية فى المغرب والأندلس لا تتوقف . والحق ، أن مرحلة الانصهار والبلورة قد استطاعت — بعد توقف حركة التوسع وحتى أوائل الغزو الخارجى . أن تصل إلى مداها فى (١١٤ — ٤٨٩هـ) فى مجالات نمو الحضارة وانصهار المجتمع وبلورة الفكر ، بالرغم مما واجه هذه الحركات من صراع المعارضة والفرق المختلفة ، ما كان فيها داعيا إلى تحرير السلطة والسياسة العليا من عوامل النقص والاضطراب ، وما كان منها متآمراً على الاسلام نفسه ، راغبا فى القضاء على دولته أو تشويه مقومات فكره . هذه نظرية مجملة لهذه المرحلة نفصلها فيما بعد : كان لابد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة منذ بدأت حركات التوسع الاسلامى وخلالها وبعدها .

فقد دخلت فى سنوات قليلة ، فى عالم الاسلام ، شعوب وعناصر وأمم وأجناس ، متعددة . دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها ، لم يفرض عليها الاسلام وإنما ترك لها حرية الاعتقاد ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه دعاة الاسلام يعرفون به . هنالك بدأت حركة ذات موجات عدة : (١) تحول من هذه الأديان القديمة إلى الاسلام . (٢) مقاومة ممن سقط نفوذهم السياسى أو الاجتماعى من الفرس وغيرهم . (٣) تآمر من اليهود الذين انتزع سلطانهم ونفوذهم ومن سدنة الأديان المختلفة الذين أحسوا بخطر الاسلام على نفوذ معابدهم ونفوذهم الشخصى . ومن هنا كان لابد أن تتواتر الدعوات والحركات وتتصارع وتتعارك فى عنف . وقد استغلت هذه الحركات خلافات المسلمين حول الحكم ، واتخذ بعضها من جانب (آل البيت) ستاراً لهم ليث دعوتهم وإبراز شعار براق خادع هو موالاة آل على وأولاده وإدعاء التشيع .

(٩)

(حركة البلورة)

تتمثل فى هذه المرحلة عدة ظواهر : قوامها . (١) محاولة « التبلور » فى فكر إسلامى عربى موحد . (٢) محاولة الانصهار فى مجتمع إسلامى متكامل .

وأبرز معالم هذه الفترة الالتقاء بين العرب والفرس والبربر والترك بوصفها العناصر التى جمعها الإسلام وحدة فكرية وعالم الاسلام جغرافيا فى وحدة سياسية ، وقد برزت فى هذه الفترة أربع ظواهر : (الأول) قيام عدد منوع من الدول المستقلة فى مختلف أقطار « عالم الإسلام » عبدالرحمن الداخل والدولة الأموية فى الأندلس (١٣٩) الأغالبة فى تونس : إبراهيم ابن الاغلب (١٤٢) ادريس ابن عبد الله : الادراسة فى مراكش (١٧٣) طاهر ابن الحسين فى خراسان (٢٠٤) أحمد بن طولون فى مصر (٢٥٥) يعقوب بن الليث فى فارس (٢٥٨) الدولة الفاطمية : عبد الله بن المهدى (٢٩٨) سيف الدول فى حلب(٢٣٣) السلاجقة (٣٤٥) البويهيون(٣٣٤) بنو عباد(أشبيلية) ٤١٤)طغرلبك فى خرسان (٤٢٩) دول المرابطين ٤٥٤(مراكش) .

ولقد تمثلت فى هذه الدول حركات نشاط سياسى واجتماعى ، لا حد لها فى تحريك الأمم وبناء الحضارة ، فاستطاعت أن تجدد شباب عالم الإسلام ، وقدقامت هذه الدول فى مواجهة تحديات الحضار والسياسة .

(الثانى) حركة التدوين والتقنين والترجمة والتأليف ، وهى حركة مترابطة ، وقد كانت هذه الحركة فى مجموعها تمثل : الدفاع عن الاسلام ، ومقاومة خصومه ، ومواجهة تحديات الأديان والعقائد والمذاهب القديمة ، والوافد من ثقافات الفرس والروم والهند والفراعنة والاغريق والرومان . وقد كان موقف الاسلام من هذه الثقافات متمثلا فى أصالته وسماحته وانفتاحه على الحضارات والثقافات، فقد استصفى الفكر الاسلامى عصارات من هذه الثقافات ، وفق مفهومه وعلى قاعدته وداخل إطاره القائم على مفهوم التوحيد والنبوة وسيادة الانسان على السكون تحت حكم الله ، ورد ما سوى ذلك عارضه ونقده .

(الثالث) : مقاومة حركات الانقضاض من الداخل : وأبرز الحركات : حركة البرامكة (١٨٨) حركة بابك (٢٢٣) حركة القرامطة (٢٧٧) .

(الرابع) : مقاومة حركات الانقضاض من الخارج . وأبرزها مقاومة المسلمين للبيزنطيين (٣٣٣)وسقوط طليطلة فى الأندلس كاول محاولة للفرنجة للقضاء على الاسلام (٤٧٧) والحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (٤٨٩)ه .

[كبريات الأحداث فى مرحلة الانصهار والبلورة من ١١٤—٤٨٩ ه] : فى أواخر القرن الأول الهجرى (٩٣ه) بلغ التوسع الإسلامى غاية مداه فى أرض السند شرقاً والأندلس غربا ، هنالك كان قد آن الوقت لمرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام : يمكن أن يطلق عليها مرحلة « الانصهار والبلورة » أو مرحلة بناء الفكر والحضارة . هذه المرحلة تستمر من خلال السنوات الثلاثين الأخيرة تقريباً للدولة الأموية التى كانت تمثل سلطان الدولة الإسلامية الموحدة ، ومن خلال الدولة العباسية التى لم تلبث أن شاركتها دول كثيرة فى حكم (عالم الإسلام) . ولعل هذا هو أكبر تطور فى تاريخ الإسلام السياسى ، وهو تطور طبيعى ، بعد مرحلتى المدينة والكوفة ، ومرحلة دمشق ، فقد انتهى « طابع » من ولاية أمور المسلمين تمثل فى (أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) وبدأ نظام جديد فى دمشق امتد (٤٠ — ١٣٢ه) أكثر من تسعين عاما ، كان له طابعه الواضح ، طابع الملك العضود ، بوراثة السلطة وعهود ولاة العهود ، وقد تمثل فى هذه المرحلة طابع الحكم العربى الخالص ، وفى خلالها توسع عالم الإسلام إلى أقصى مداه الذى بلغه ووقف عنده ، حدود الصين مشرقاً ، والأندلس من شرق أوربا ، ولما كان هذا الحكم عربياً خالصاً ، فقد استهدف الكثير من النقد والتآمر ، وكان من الطبيعى أن يتطور من ناحيتين : « الأولى » أن تشارك فيه كل الأجناس وأبناء الأوطان التى انضوت تحت راية الإسلام كالفرس والترك والمصريين والبربر « الثانى » وأن يضعف نفوذ السلطة الجامعة فى (بغداد) ويبرز من كل قطر قادة يستقلون بالأمر ، ويبايعون الخلافة بالولاء أو ينفصلون عنها ، وقد أعطت هذه المرحلة تطبيق هذين الأمرين كأوسع ما يكون التطبيق ، وأضاف ذلك لعالم الإسلام مزيداً من التقدم الحضارى ، وأن أصابه بكثير من التمزق والضعف . غير أن الذى يلفت النظر حقا ، هو ذلك التفجر الحى للطاقات الخلاقة فى كل أجزاء عالم الإسلام بحيث لم تتوقف موجات النهضة أو التجدد ، وقد أبرزت هذه المرحلة وما تلاها من مراحل ، عديداً من بناة الدول النوابغ الذين جمعوا بين الثقافة الإسلامية والقوة الحربية ، أو بين القدرة على الحكم ، والبراعة السياسية واستطاعت كل القوى التى ترى أنها خليقة بأن تسود سياسياً والتى تحمل فلسفة ما أو مذهباً ما من مذاهب السياسة أو الاجتماع أن تحرز انتصاراً ، بأن تلى الحكم فى منطقة ما ، فالفرس ، والترك ، والمصريون ، والتونسيون ، والمغاربة ، والبربر ، والفاطميون ، والشيعة ، والمعتزلة جميعاً استطاعوا

أن ينفذوا إلى مجال الحكم والسياسة . ولم تعد سلطة الولاية العامة قاصرة على العرب وحدهم ، ما عدا الخلافة التى ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد ٦٥٦هـ وكانت الصورة على هذا النحو :

كبرى الأحداث (١١٤ — ٤٨٩هـ)

٣٨٨هـ محمود الغزنوى (السند) ٩٩٨م — ٤١٤هـ بنو عباد (اشبيلية) : ١٠٢٣م

٤٢٩ طغرلبك (خراسان) : ١٠٣٧ — ٤٥٤ دولة الرابطين (مراكش) : ١٠٦٢

٤٥٦ نظام الملك : ١٠٦٣ — ٤٧٨ سقوط طليطلة : ١٠٨٥

٤٥٤ دولة المرابطين (مراكش) : ١٠٦٢ — ٤٦٤ معركة ملاز كرد : ١٠٧١

٤٧٩ يوسف بن تاشفين يهزم الفرنجة فى الزلاقة : ١٠٨٦

٤٨٩ الحملة الصليبية الأولى : ١٠٩٦ — ١١٤هـ بلاط الشهداء : ٧٤١م

١٣٣ الدولة العباسية : ٧٥٠م —

١٣٩ عبد الرحمن الداخل : الدولة الأموية فى الأندلس : ٧٥٥م

١٤٢ الأغالبة فى تونس (ابراهيم عبد الأغلب) — ١٧٠ هارون الرشيد (بغداد)

١٧٣ ادريس بن عبد الله (مراكش) — ١٩٨ المأمون : ٨١٣

٢٠٤ طاهر بن الحسين (خراسان) ٨١٩ — ٢٣٣هـ المتوكل والسنة : ٧٤٧

٢٥٥ أحمد بن طولون (مصر) : ٨٦٨ — ٢٥٨ يعقوب بن الليث (فارس) : ٨٧١

٢٩٨ الدولة الفاطمية (عبيد الله بن المهدى : ٩١٠

٣٠٠ عبد الرحمن الناصر (الأندلس) : ٩١٢

٣٢٣ سيف الدولة وحروبة ضد البويهيون : ٩٤٤

٣٤٥هـ السلاجقة : ٩٥٦ — ٣٣٤هـ البويهيون فى بغداد : ٩٤٥م

* * *

وقد جمعت هذه المرحلة بين ظاهرتين مترابطتين : حركات بناء الدول ، وقيام الحكمات المستقلة فى كل أجزاء عالم الإسلام ، وظهور قادة الفكر فى مختلف جوانب السياسة والاجتماع والثقافة والعلوم . ولقد كانت دعوات المفكرين أحيانا بمثابة رد على تحديات السياسة ، أو تجديدا لجوانب أصابها الجمود ، أو تصحيحا لقضايا اضطربت مفاهيمها أو تجافت مع مفهوم الاسلام .

ومما يلفت النظر أن هذه الدول التى قامت ، خلال تلك الفترة ، لم تستطع البقاء والصمود فترات طويلة ، فكانت تقوم برجل أو رجلين أو ثلاثة لتهوى ، لتقوم مكانها دولة أخرى برجال آخرين ، ولكن الظاهرة الواضحة أن « بناة الدول » كانوا قادرين دائما فى عهد إزدهار دولهم على البناء والنهضة ، والعمل ، وكانوا حفيين بالعلماء والأدباء والفقهاء ، وكان طابع الاسلام وإطاره واضحا متمثلا .

لم يكن هذه المرحلة هى مرحلة تراخ وترف فحسب ، إذ انتهى المسلمون من أعمال الفتح والتوسع ومن هنا بدأ عهد الكلام والصراع الفكرى كما يقول بعض كتاب الغرب ، ولكن الحقيقة أن الاسلام الذى توسع فى الآفاق على هذا النحو فى مرحلة (الإبعاد) كان لا بد أن يمر بمرحلة تالية فى طريق نموه هى مرحلة (الأعماق) ، وهى مرحلة طبيعية لا شك فيها ، فقد التقى الإسلام الذى أقام « دولة » بتراث ضخم وقضايا ومعضلات فى مجال الفكر والقانون والاجتماع كان عليه أن يواجهها وفق مفهومه ، ومن هنا بدأت تظهر أبرز معالمه ومقوماته وهى الاصالة المتجددة القادرة على إيجاد حلول لقضايا جديدة ليس لها سابقة فى القرآن والحديث والانفتاح بالقدرة على تقبل الثقافات والحضارات وإمتصاص التراث العقلى السابق على وجوده وتمثله وإذابته فى كيانه كقوة جديدة دافعة إلى الحياة ، وقد واجهته فى هذين المجالين أعظم تجربة ، فقد استطاع قادة الفكر أن يجددوا ويتنصوا فى تجربة ضخمة من تراث اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعنة على نحو من القدرة والعمق والحرية ، فأخذوا مازادهم قوة ورفضوا مالا حاجة لهم به أو ما يختلف مع جوهر فكرهم : ثم صاغوا هذا التراث مرة أخرى صياغة جديدة فى إطار قيم « الإسلام ومقوماته » ، واتخذوا منه سلاحا ماضيا فى مقاومة خصوم الإسلام .

(١٠)

أزمة الحضارة

إن مقتل عمر بن الخطاب الخليفة العادل بخنجر أبى لؤلؤة ، كان علامة على ذلك التحول الخطير والأزمة العميقة التى إنفجرت بعد أكثر من عشرة أعوام من حكم عثمان . هذا الموقف الذى اتصل بعثمان وأدى إلى مقتله ، واتصل بعلى وأدى إلى مقتله ، وأقام هذه المرحلة الدقيقة العجيبة منذ أواخر حكم عثمان وطوال حكم على ، إلى أن ولى معاوية سلطة الحكم الاسلامى العامة ، لا شك أن هذه الأزمة بالغة الدقة فهى ذات أطراف عديدة ، أطرافها بين عثمان وأهل الأمصار ، وبين عثمان وأهله ، وبين على والصحابة وبين على وأنصاره ، وبين على ومعاوية .

وهى تتلخص فى ثورة أهل الأمصار على عثمان ثم قتله ثم ولاية على وخلافه مع الصحابة والاصطدام بهم ثم خلافه مع الذين خرجوا عليه ، ثم موقفه مع معاوية ، وانحسام الموقف بخروج ثلاثة لقتل على ومعاوية وعمرو ، وقتل على ونجاة معاوية وعمرو . وقد حدثت هذه الأزمة كلها فى خلال خمس سنوات أو تزيد قليلا ، ولكن مقتل عمر ابن الخطاب بخنجر أبى لؤلؤة قبل ذلك بخمسة عشر عاما ، يكاد يكون علامة على الموقف الجديد الخطير الذى بدأت تواجهه سلطة الحكم الاسلامى العامة فى المدينة بعد اتساع نطاق الدولة الاسلامية وإسقاطها امبراطوريتى فارس والروم ، فقد اتسع عالم الاسلام بدخول عناصر جديدة مختلفة إليه ، كانت ذات حضارات وأديان ، وقد تجرد كثير من قادتها من النفوذ والسلطان ، وفى مقدمة ذلك المجوس واليهود الذين عقدوا العزم على التآمر بالاسلام ومحاولة القضاء عليه . وقد أدى التحقيق فى مقتل عمر بن الخطاب بخنجر أبى لؤلؤة المجوسى الفارسى إلى أنه جاء نتيجة خطة دبرها (الهرمزان) الذى كان يقيم فى المدينة بعد أن سقط نفوذه فى فارس ، فتجمع ومن تآمر معه على الانتقام فى شخص عمر بن الخطاب الذى ساند التوسع الاسلامى ودعمه واستطاعت الدولة الاسلامية فى ظل حكمه أن تقوم .

ويعطينا حادث مقتل عمر بن الخطاب على ماعرف به من رفعة العدل ، علامة على ذلك التحول الذى بدأ يفرض أوضاعا جديدة هى أوضاع الحضارة ، وصراع الثقافات والمدنيات ، وتلاقى الأديان والمذاهب ، ومحاولات خصوم الاسلام كدين ، وخصومه كدولة ، فى العمل عن طريق الدس والتآمر بعد أن سقطت أسلحة الحرب والقتال .

وقد امتد هذا التحول فى عهد عثمان ووجد طريقاً أشد فسحة واندفاعا ، إزاء خليفة ليس له سطوة عمر ولا قوته الشابة ، فقد كان عمر قويا على نفسه وعلى أهله ، عادلا شديد العدل ، يقظا متنبها إلى تطورات الأمور ، حتى لا تبغته ، وقد عاش عمر أيام التوسع وعاش عثمان أواخرها ، إذ امتد التوسع فى عهده وبلغ غايته فى المغرب والمشرق ، غير أن السنوات الطويلة فى خلافات الرجال الثلاثة التى مضت (وهى أكثر من ربع قرن) قد أحدثت تطوراً فى الفكر والحياة وأضافت معضلات جديدة ، وفتحت أبواب قضايا متعددة من السياسة والفكر والمجتمع نفسه وقل التوازن بين مقر الحكم فى الجزيرة العربية وبين حواضر الدولة الواسعة التى انصرف إليها الصحابة فأقاموا بها وملكوا وبدأت عملية تطوية ضخمة تريد أن تذيب المجتمع الاسلامى كله فى بوتقة واحدة . هذا المجتمع الذى بدأ فى الجزيرة والصحراء صغيرا ، ثم اتسع نطاقه وشمل العرب والروم والفرس والترك والبربر والفراعنة والهنود . كانت فترة حكم عثمان هى أدق مراحل النمو والتحول من مجتمع بسيط صحراوى

إلى مجتمع دقيق مركب ، وكان هذا التطور قويا عاصفا من العسير مقاومته أو الوقوف في وجهه أو ضبطه على النحو الذى كان يضبط به حكم الجماعة الإسلامية في المدينة ولما يتجاوز الاسلام الجزيرة العربية . ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذى لاحد له ، وكانت تلك المواقف المفاجئة المتوالية التى عجز القادة عن مواجهتها وإيجاد حلول سريعة لها مما دفعها إلى التفاقم والتضخم.

فاذا أضفنا إلى ذلك ، أن هذا التطور لم يكن طبيعيا يجرى فى تيار واضح محدد ، إلى غايته المرسومة ، وأن هناك قوى معينه كانت تفرض عليه إتجاها معينا ، وأن هذه القوى من المجوس واليهود قد سمت مخططا دقيقا لتمزيق جبهة الإسلام وإيجاد صدام ضخم ، وأن هذا المخطط قد حمل لوائه « عبد الله بن سبأ » وسار به سيرا دقيقا ، واستغل كل الأحداث ، واختلق مواقف بارعة ماكرة رمى بها إلى ضرب الوحدة الإسلامية وتمزيق الجماعة الاسلامية ، إذا ذكرنا هذا كله عرفنا أى إلى حد كانت هذه الأزمة الداخلية الكبرى . لقد كان عمر يمسك الصحابة فى المدينة ولا يسمح لهم بمبارحتها إلى الأمصار ، حتى ضاقوا بذلك أشد الضيق وتمنوا نهايته ، فاذا سمح لهم عثمان من بعده ، تحول موضع الثقل الذى كانت تمثله «المدينة» بصفوة أهل الرأى فيها ، كما ظهر جيل جديد غير جيل النبوة، الذى أخذ ينقرض ، ومن هنا بدأ التحول واسعا فى نظام الحكم وعناصر المجتمع ، واستتبع مواجهة شاملة بما يتلاءم مع التغيير الشامل والعناصر الجديدة وإفساح نطاق البحث وإشتراك الأجناس المختلفة فى الحكم والسياسة ومختلف شؤون الإجتماع والاقتصاد بما يوائم مرحلة التحول والتطور والانتقال بما يبرز فيها من مشكلات وقضايا ومعضلات .

ومن هنا كان لابد للتيار الجديد أن يمضى فى الطريق الذى رسمه له المتآمرون على الاسلام، مالم يكن هناك ما يحول دون رده ، أو تعديله ، ومن هنا وقعت تلك الأحداث المتوالية المتصلة التى لم تتوقف إلا بأمرين خطيرين ، هما إمتداد للتحول ونتيجة له : (١) نقل مقر السلطة الحاكمة الرئيسية من الجزيرة العربية إلى (دمشق) حيث الحضارة والمدنية (٢) تحول الخلافة إلى الملك المعضود بمراسيمه ومناهجه وأساليبه ممثلة فى (معاوية) الذى نهج نهجا عصريا حديثا يتمثل فيه أسلوب الحاكم الناجح القادر على تركيز سلطته فى وجه أنصاره وخصومه على السواء . ولكن هذا المنهج الذى كان يرسم نظاما ناجحا للحكم متخلصا من قيود كثيرة والذى نجح نجاحا مؤقتا ، لم يكن هو الأسلوب الذى يتمثل مفهوم الاسلام كاملا وأن نحرك فى إطاره ، فلم تلبث بعد ذلك أن ظهرت معضلة المعضلات فى تاريخ الاسلام كله.

تلك هى قضية « العرب وغير العرب من المسلمين » مما يطلقون عليها قضية الموالى أو قضية الصراع بين الفرس (الموالى) والعرب . وما أثير حول ذلك من نتائج لسياسة الأمويين فى مواجهة « بنى هاشم » وأهل البيت والعرب من غير قريش وغير العرب من الأجناس الأخرى ، وما بلغ من التفرقة بين العرب وغير العرب . مما كان عاملا فى تمزق الوحدة الاسلامية .

ويمكن إطلاق اسم معركة الحضارة على الموقف الذى نبت منذ تولى عثمان الحكم ، ثم تولاه «على» حتى معاوية . وأن أى محاولة لتصوير عثمان بارتفاع السن أو موالاة بنى أمية،أو بالتماس مؤامرة عبد الله بن سبأ ، إنما هى عوامل إضافية للخطر الأكبر : خطر التحول من البداوة إلى الحضارة ، أن الأمر كله كان أوسع من ذلك ، وبنظرة فوقية واسعة يمكن أن ترى المجتمع الإسلامى وقد اتسعت آفاقه فبلغ مدى بعيدا ، ودخلته عناصر متعددة ، من أمم وديانات وأجناس وشعوب، وترى كيف يحاول المجتمع أن ينصهر فى بوتقة واحدة ، بوتقة إطارها الإسلام ، وقوامها حكومة ودولة ونظام جديد، مغاير تمام المغايرة للنظام القديمة وسلطات الحكم الفارسية والرومانية ، وبمفاهيم جديدة ، حيث تتجمع القوى القديمة الفاقدة لسطانها فى مؤامرات للانتقاض ، وفى محاولة للقضاء على القوة الجديدة ، وفيما تذهب « ايدلوجيا الاسلام » فى توطيد دعائمها ، والدولة الإسلامية فى بناء قواعدها ، والمجتمع الجديد فى محاولة الامتزاج والتداخل ، كان هذا الصراع لابد أن يطفو على السطح فى صورة هزة ضخمة طويلة المدى ، ترى أن تحقق تغييراً شاملا قوامه : (١) الانتقال من الخلافة إلى الملك : (٢) الانتقال من الصحراء الى المدينة : (٣) بناء نظام سياسى واجتماعى جديد ، إطاره مفهوم الإسلام ، وتتمثل فى كيانه مفاهيم عديدة من حضارات الروم والفرس والفراعنة والبربر ، تحاول أن تنصهر كلها فى حضاره جديدة « عربية أسلامية» ووفق لغة جديده هى « اللغة العربية » وفى نطاق دولة مدنية ، فكأنما التاريخ كان يجرى ويتحرك بقوة إلىدولة أموية عاصمتها فى دمشق كمرحله أولى لبناء يستمر (من عام ٤٠ إلى عام ١٣٢) أكثر من تسعين عاما . كان عهد أبى بكر وعمر هو عهد بناء الدولة الكبرى ، وفتح الطريق أمام الاسلام فى إنطلاقته الجبارة ،وقد تحقق فى ظل «حكم عمر» أكبر قدر من هذا النمو والتوسع الجرىء القوى . وفى ظل حكم عثمان تم توسع فى طرف الجناحين (الهند) و (المغرب) .

(عصر عثمان)

إنتهى عصر عمر بعد « عشر سنوات » من حكم عادل دقيق يمثل ذلك العصر العجيب ، وتلك المرحلة الدقيقة فى تاريخ الإسلام كله ، المرحلة التى تم فيها قيام « دولة الاسلام الكبرى » على أنقاض الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية فى فارس والعراق والشام ومصر . وبدأ ذلك التطور الخطير فى بناء الأمة الاسلامية : إجتماعيا وسياسيا واقتصاديا . وجاء عصر عثمان خلال خمسة عشر عاما مختلفا كل الاختلاف مع عصر عمر وشخصيته ، فهو امتداد له ، ولكنه امتداد مغاير بحكم الزمن نفسه وبحكم شخصية الخليفة وتصرفاته ، زادت رقعة عالم الاسلام خلالها وامتدت ، وبدأت عوامل التعقد والتغير بصورة أوضح ، فقد التقت عناصر المجتمع الجديد ، فى أقطار متعددة ، تحت سلطات دولة «المدينة» فى قلب الصحراء على بساطتها وحيث خرج الصحابة الى الأمصار فأقاموا فيها ، وحيث ازاداد الثراء وتدفق المال ، وبدأت معضلات جديدة تبعا لذلك التطور الأجتماعى والاقتصادى والفكرى . ولم تكن آثار التغيير بسيطة ، بل كانت متعددة ومعقدة ، وكانت فى حاجة إلى مواجهة تقدير شامل للموقف ، كان التطور أكبر من طاقة القيادة السياسية فى المدينة ، وفى هذه المرحلة برزت ظاهرتين خطيرتين (١) ظاهرة سمحة كريمة ، يتمثل فيها أول صوت لدعاة العدل الاجتماعى ، تتمثل فى « أبى ذر » ، (٢) وفى نفس الوقت ظهرت دعوة معارضة عنيفة ماكرة ، هى دعوة « عبد الله بن سبأ » تتكأُ على اسم آل البيت فى الحكم والخلافة ؛ وكان دهاء ابن سبأ عميقا ، فقد حاول أن يفيد من دعوة أبى ذر ، فإذا لاحظنا أن خطرين كانا يحيطان بالموقف كله ، هما خطر اليهود وخطر أصحاب السلطان المنتزع من الفرس ، عرفنا إلى أى مدى أمكن للموقف أن يضطرب ؛ وكيف أمكن لهذه القوى التى تريد أن تديل من الاسلام نفسه ، أن تتحرك وأن تفيد من هذه الخصومة العنيفة التى تمثلت من قبل فى مقتل عمر ، حين أخذت المؤامرة طريقها هادفة إلى مصارعة القيادة السياسية الحاكمة فى المدينة ، فى ضوء هذا كله يمكن النظر إلى حركة عبد الله بن سبأ ، فما قصد خصوم الاسلام ومن تابعهم من دعاة الشعوبية والتغريب إلى التقليل من شأن ابن سبأ ودوره بل وإنكار وجوده ، فإن الاجماع منعقد على أن حركة للتآمر على الاسلام ممثلة فى أصحاب النفوذ من الفرس أو المتآمرين مع اليهود ، قد وجدت فرصتها فى ظل حركة التحول الفكرى والتوسع الحضارى التى برزت فى عهد عثمان بعد توسع آفاق الجماعة الأسلامية وانبساط نفوذها . ولاشك كان اليهود والمجوس : أشد خصوم الاسلام حملة عليه . فقد أطفأ الاسلام نار المجوسية بعد ألفى عام وإلى الأبد ، ودخلت فارس فى عالم الاسلام وقام المسجد الأقصى على انقاض الهيكل ، فكانت الحملة على

أبى بكر وعمر ، وعثمان وأبو عبيده وخالد وسعد ، ولما كان خصوم الاسلام هؤلاء لا يستطيعون أن يحاربوا فى جبهة مكشوفه ، فلابد من أن يدّعو اعتناقهم الاسلام وأن يوزعوا أنفسهم بين صفوف المسلمين يثيرون الشبهات والأحقاد ، وكان شعارهم الذى وجدوه وسيلة مغرية لاقتحام قلوب المسلمين هو « آل البيت » . وكان عبد الله بن سبأ على رأس هذه المؤامرة « يهوديا » إدعى الاسلام ووالى عليا ، ونقل إلى الاسلام مفاهيم اليهودية والمجوسية حين قال بتألية على ، وقد أنكره « على » ونفاه وأبعده ، ولكنه مضى يبث دعوته فى تدرج ودهاء واستجاب له بعض الناس ، وتكونت له حركة ودعاة ، وفهم أعوانه أغراضه فساروا فى الأقطار يحملون مفاهيمه ، وقد أتاحت له فرصة الخلاف إعداد نفر من الدعاة ، انبثوا فى الفسطاط والكوفه والبصرة ، عملوا على التأثير فى أبناء الزعماء وقادة القبائل . فاستجاب لهم الضعفاء والكارهون . من هذه النقطة بدأ ذلك الخط الذى اتسع من بعد وحمل لواء المؤامرة على الاسلام واستغل مختلف الأحداث ، وكان مؤثرا فى المواقف المختلفة ، وكان لهذه الحركة أثرها فى موقف الثورة على عثمان ، وفى تأليب الناس عليه ، وفى تزوير قصة الخطاب التى أبلغ الخلاف بين وفود الأمصار وعثمان غايته ، هذا الخطاب التى كتبه باسم عثمان وأعطاه لأحد رجاله ، ثم رصد له من صادره منه ، فأجج الموقف ربه اندلعت نار الثورة وفقد ثبت أن الخطابات التى نسبت إلى عثمان واستند إليها خصومه فى أمر قتــله كانت مزوره . دعا ابن سبأ إلى الطعن فى تصرفات الحكام فالتفت حوله العامة ، وقد أستطاع أن يعمل فى البصرة وفى الكوفه وفى الشام وفى مصر ، وكانت كلمته هى الطعن فى عثمان وولاته ، والدعوة لخلافة على بوصفة وصى الرسول . ولقد استطاع ابن سبأ أن ينفذ إلى الشيخ الزاهد (أبى ذر) وأن يستغل دعوته البريئة ، وينشر آراءه فى مجالسه ويغريه بالحكومة ويحرضه على الأغنياء ، وكان يعلن فى كل مصر وقطر : « هذا على وصى الله فانهضوا فى هذا الأمر وحركوه وابدأو بالطعن على أمرائكم » ، وقد وجد فى مصر مرتعا خصيبا . وكان ابن سبأ من يهود اليمن ، ادعى الاسلام وقرأ كثيرا من التوراه وخلط تعاليمها بالقرآن ، وأدخل إلى مذهبه مفاهيم الفرس القديمة المتمثلة فى خطط المجوسية ، فلما اشتد ساعد دعائه فى هذه الأقطار وغاذلك التيار بالخصومة على عثمان ، وجه الثوار الى المدينة من كل قطر وذهب هو من خلفهم يدبر لهم الخطط ومن ثم استطاعت حركه ابن سبأ أن تزعزع السلطة السياسية الاسلامية . ولاشك أن كان هناك أرتباطا واتصالا بين موقف الهرمزان وأبى لؤلؤة ، ومن ورائهما أسمـــاء كثيره أرتفعت أعلامها . عبد الله بن يسار ، وأبو بكر الكروسى ورشيد الهجرى ، ومحمد بن أبى زينب وضيفان الطاق وجهم بين صفوان وهشام بن الحكم وأبو سالم الجواليق ، والأحوص أحمد بن اسحق القمى

وكثيرون ، هؤلاء كانوا من أولياء المجوسية الحاقدين على الإسلام ، كانوا يأخذون على الاسلام أنه أخضع الدولة الفارسية للاسلام وأطفأ نار المجوسية وأقام المسجد الأقصى على أنقاض الهيكل ، وكان الهدف هو التخلص من زعماء الاسلام وأئمته ، فانخرطوا بدعوة إعتناق الاسلام لتنفيذ المؤامرة ، ولم يجدوا فكرة يتسترون بها ويحاربون في ظلها ، إلا فكرة آل البيت التي تجد من جماهير الناس عطفا وتهز مشاعرهم وأحاسيسهم ، وقاد الحركة جميعها « عبد الله بن سبأ » ، الذي كان يقول في يهوديته : أن يوشع بن نون هو وصى موسى ، فلما أسلم قال أن على بن أبي طالب هو وصى محمد ، وهناك إجماع على أنه أول من أشهر القول بإمامة على وأظهر البراءة من أعدائه ، ولقد عارض الإمام على كرم الله وجهه قولة ابن سبأ ولعنه ، وطارده ونفاه ، وأنكر دعوته في مختلف خطبه على منبر الكوفة وفي قوله « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر وعمر » وقد روى ذلك عنه من ثمانين وجها ورواه البخارى .

وقد بلغ من دهاء ابن السوداء ، أن كان يبث دعوته في كل مكان على وجه مختلف زيادة في التآمر على صحابة رسول الله ، فكان يبث في جماعة الفسطاط الدعوة لعلى . وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة ، وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير ، وهو الذى زور الكتاب على عثمان إلى عامله بمصر ، بدليل أن عامله كان يتراءى لهم متعمداً ثم يتظاهر بأنه يكتم عنهم ليثير ريبتهم . وفي اعتقادى أن هذا هو مصدر الأزمة العنيفة التي واجهها النظام الاسلامى في هذه الفترة ، هذه الأزمة التي أودت بعثمان ثم بعلى ، والتي قسمت المسلمين وأرقعت بهم ذلك الصراع الرهيب حتى استشهد الإمام على .

أما ما نسب إلى عثمان من أمور تتعلق باسرافه في تقريب أهله ، أو إعطائهم وإعطاء سائليه فتلك أمور لا تؤدى إلى مثل هذه المؤامرة الضخمة ولا تدفعها على هذا النحو الخطير البالغ الأحكام من حيث التآمر والتنفيذ ، ولا شك قد مهدت لذلك عوامل التحول التي واجهها المجتمع الإسلامى في مجال التبلور والانصهار .

فقد كان عصر عثمان عصرا جديداً تفتحت فيه آفاق الثراء وتدفقت فيه الأموال وإن ماحدث من تحول هو تحـــول طبيعى بدأت بوادره في أواخر عهد عمر ، وإذا كان لكل عصر من عصور الخلفاء الراشدين طابع ولون يستمد من العصر ومن مقومات شخصية الخليفة نفسه ، فإن عمر كان مظهر الزهد بينما كان عثمان مظهر الثراء والعطاء ، ولقـــد أعطى عثمان من ماله وأنفق ، ولم يعط أهله فقط بل أعطى الجميع ، وقد كشف عن مفهوم الإسلام وسماحته بالنسبة للحضارة والتخلص من البداوة .

الامام على

وقد استطاع ابن سبأ أن يذيع نظرية دخيله على مفهوم الاسلام هى نظرية الحق الالهى والوصاية حين قال : (إن لكل نبي وصيا ، وأن علياً خاتم الأوصياء ، كما أن محمداً خاتم الأنبياء) وهى نظرية فارسية أصلا ، ومعناها أن عليا هو صاحب الحق الأول فى الخلافة ، وقد تصدى « على » الجموع الزاحفة على المدينة وكشف لهم عن خطأ ما ذهبوا إليه ومخالفته لجوهر الاسلام وما يؤدى اليه من إضعاف لوحدة المسلمين ، وواجه عثمان الثائرين بما أقنعهم بسلامة موقفه ، حتى أنهم قفلوا راجعين وأحس أن ابن سبأ أنه أوشك على الهزيمة ، وأن الهدف الذى يعمل له سنوات قد فشل ، هنالك إهتدى إلى الحيلة ، فاختلق قصة الخطاب وروى أن الثائرين رأوا رجلا يمشى على بعد منهم ، وأنه حاول أن يختفى عنهم أو يخفى شيئاً فى ثيابه ، فشكوا فى أمره فلحقوا به وقبضوا على وفتشوه فوجدوا معه خطابا عليه خاتم عثمان وفى الخطاب أمر إلى وآلى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ، هنالك جاشت الفتنة مرة أخرى وعاد الثوار إلى المدينة ، وقد أقسم عثمان أنه لم يكتب وثبت من بعد أن هذا الخطاب زوره عبد الله بن سبأ ، ولكن عثمان قتل وهرعت الجماهير إلى «على» تبايعه بالخلافة : وقال «على» : أن هذا الأمر ليس لكم ولكنه لأهل بدر . وبدأت سنوات «على» الخمسة فى الحكم عصيبة مضطربة . كان « على » إمتداداً لحكم أبى وعمر ، بيد أنه كان بينه وبين ذلك خمسة عشر عاما وأحداثا وتطورات ، ولم تكن مفاهيمه المثالية وفلسفته الأصيلة قادرة على أن تمضى فى الطريق .. إذ كانت مفاهيم المجتمع الاسلامى قد تطورت وتبلورت فى صورة أخرى خف فيها طابع الإيمان الخالص فبدا «على» وكأنه غريب عن مجتمعه وكان « معاوية » أكثر قدره على العمل منه ، ومر «على» بذلك المضطرب فى معارك ثلاث : مع الصحابة وعائشة ومع شيعته والخارجين عليه ومع معاوية كان ينتصر فى كل موقف بالحق ، ولكن التحول النفسى والاجتماعى كان يكشف عن أنه غريب عن أساليب السياسة ، كان يعمل فى ظل « المثل العليا للإسلام » وكان التطور يفرض غير مايريد فلم تكن نهايته إلا تمثلا لانطواء منهج قد بعد عنه عصره ، وأسلوب قد مضى زمنه وكان معاوية إعلانا لتطور جديد فى الخلافة والحكم والملك . كانت قضية مفهوم السلطة السياسية العليا فى الإسلام هى أولى المعضلات التى واجهت المجتمع الإسلامى ، فكانت مصدراً لظهور «حركة المعارضة» التى تمثلت فى أكثر من فرقة أو حزب : أبرزها دعاة المثل الأعلى (الخوارج) ودعاة العاطفة (آل البيت) ذلك أن الإسلام لم يرسم فى مجال الحكم والقيادة نظاما محدداً ، تقديراً لتطور الأمم

وتحول العصور . ولكنه وضع « مقومات أساسية » هى : الشورى وحق اختيار الشعوب لحكامها ، دون أن يكون هذا الحاكم من جنس معين ، أو دم معين ، وأن ينصب هذا الحاكم ما ارتضاه الناس ولو كان عبداً احبشيا . لذلك لم ينص الرسول نصا صريحا على من يخلفه ، وكان إختيار أبى بكر إختياراً طبيعيا قريباً إلى منطق الأمور وتطور الأحداث ، فهو صاحب رسول الله وأول المؤمنين به ، وأكبر الصحابة خبرة ، وذكاء ، وقد كانت مواقفه فى خلال عامى ولايته غاية فى الجسم والقوة ، فقد واجه « الرده » بمفهوم تابع به مقومات الإسلام ووحدة المجتمع الاسلامى ، كما دافع المؤامرة على الإسلام ووسع نطاق عالم الإسلام ، وكان اختياره لعمر من بعده مرضيا عنه من جلة الصحابة وللمسلمين وكان امتداداً طبيعيا .

وجرى اختيار عثمان وفقا لخطة دقيقة ، ثم اختار المسلمون علياً . وحين عقد أبو بكر لعمر ، لم يكن مستبدا برأيه ، بل استشار الصحابة فيه فأثنوا عليه وأقروا رأيه فى استخلافه ، وهو لم يرغم جماعة المسلمين على قبوله ، وبذلك كان اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة انتخابا حرا شوريا ، غير أن توسع « المجتمع الإسلامى » فى ظل عمر ، وانفتاح الجزيرة العربية على عالمى الامبراطورية الرومانية والفارسية الخاضعين لعالم الاسلامى ، قد خلق معضلة سياسية واجتماعية واقتصادية ضخمة ، امتدت أواخر حكم عثمان وخلال حكم على ، وانتهت بتحول فى نظام الحكم وفى مكان سلطة الحكم جميعا وأصبح « معاوية » رأس التنظيم السياسى فى الدولة الإسلامية ، بعد خلافة الراشدين يمثل مرحلة جديدة من النظام والحكم أقرب إلى نظام الملك العضود منها إلى نظام الخلافة الجمهورى ، ومن هنا بدأ « نظام حكم » مستقر فى وضع وراثى ، يتمثل فى ولاية العهد . وقد التمس المؤرخون والباحثون فى تاريخ الإسلام لمعاوية عذرا فى هذا فى هذا الإجراء ، ومنهم من عده تطورا طبيعيا للأمور ، فقد كانت الأحداث المتوالية التى قضت بمقتل الخلفاء الثلاثة (عمر وعثمان وعلى) تتطلب إجراءات جديدة حاسمة ليس لها طابع بساطة نظام الحكم فى المدينة ، مع تعقد الأمور ، واتساع الدولة ، وتعدد العناصر ، فهو فى نظرهم اتجاه ضرورى فرضته الظروف والأحداث التى واجهها المجتمع الاسلامى إذ ذاك .

ولاشك كان أبرز تحول فى منهج السياسة الاسلامية العليا هو إقرار الحكم فى أسرة بالتوارث ، ولاشك فى رأينا كان لهذه الظاهرة دوافعها وضروراتها ، وكان لها أخطارها ومضارها وآثارها العكسية . لقد بدأ الاسلام جمهوريا شوريا ، يتيح الفرصة لاختيار الخليفة وانتخابه ثم تحول إلى نظام

ولاية العهد، ووراثة الملك تحت ضغط ظروف معينة كانت تواجه (معاوية) أول من سن هذه السنة، فقد جاء معاوية عقب صراع عنيف، انشقت فيه فرق وخلافات، وتعرضت فيه الدولة الاسلامية للخطر الشديد، فضلا عن أن نظام الدولة كان قد تحول تحولا واسعا من الخلافة، إلى الملك العضود، هنالك رأى معاوية ورأى من معه أن يأخذ بنظام ولاية العهد إبقاء على فترة استقرار أطول، ثم توالى هذا النظام من بعد ولم يعد هناك مجال لتغييره. وقد حقق هذا النظام باستقراره نتائج كثيرة فى مجال النمو الحضارى والاجتماعى والاقتصادى، غير أن هناك عاملا هاما ظهر فيما بعد، هو قيام الأنظمة الاستقلالية، والحكومات التى يستقل امراؤها بقطر أو بآخر، حين يبرز فيها واحدا من «بناة الدول» فيسيطر على الحكم ويعلن الولاء للخليفة، بل أن (بغداد) نفسها عاصمة الخلافة قد تعرضت من بعد لذلك، حين ظهر نظام السلطنة، وحيث قام بالحكم «سلطان» نيابة عن الخليفة نفسه، وقد كان لهذا النظام الإستقلالى نتائجه الهامة والضخمة فى نمو الحضارة وبناء الدول، فقد كان كل حاكم من هؤلاء الحكام حريصا على أن يعمل ماوسعه العمل فى سبيل إنهاض الأمة التى وليها، وتقريب العلماء وتشجيع المفكرين، وإن لم يطل عمر هذه الدول أو تستمر كثيرا، فقد كانت تنطوى صفحتها أحيانا بانتهاء بانيها، فهى ما تكاد تدخل فى نظام وراثة الملك، حتى تدخل فى مرحلة الضعف، ثم تتلاشى لتقوم غيرها مكانها، وأحيانا كان الذين يلون الحاكم الأول أكثر منه قوة ونهضة، وربما زادوا عما قدمه سابقهم، ولكن هذه الدول كلها ظلت تبرز وتتألق وتختفى وتحل محلها دول أخرى، فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى منذ توقفت حركة التوسع، وفى ظل الدولة العباسية، وما بعدها فى العصر العثمانى، ومن حق أن ظهور الدول الاستقلالية كان أمراً طبيعياً لابد منه، لاتساع نطاق الدول الام وتباعد الأقطار عن مقر السلطة وأنه كانت له آثاره من بعد من تمزق الوحدة الاسلامية، غير أنه لم يكن ممكنا أن تظل الوحدة المتمثلة فى إطار الدولة قائمة طوال القرون أدى على أساس سليم يقظ من مفهوم الاسلام، لاتبرز فيه مشكلات الصراع بين عناصر المسلمين ولا تستفحل: لقد حقق قيام الدول المستقلة المتعددة إلى نتائج إيجابية فى شأن الحضارة وفى منح العناصر الاسلامية المختلفة الحق فى الحكم.

ولكنه أضعف مركزية الدولة والوحدة الاسلامية الشاملة وبذلك مهد للغزو الخارجى وضرب مركز القيادة وفيه: زحف الصليبيون على الشام والتتار على العراق والفرنجة على الأندلس والمغرب. ويرى بعض الباحثين أن نظام الحكم الذى بدأه معاوية (نظام الملك) كان تطوراً طبيعياً من النظام

القبلى ، وأنه لم يكن من اليسير قيام نظام جمهورى إنتخابى لهذه المساحات الواسعة من دولة الاسلام ، وأن نظام الشيعة إنما كان يتمثل فى الملكية فى آل البيت وأن كل الدعوات كانت تحمل لواء حصر الحكم فى بيت وسلاله (ما عدا الخوارج بالطبع) .

حركة المعارضه

يمكن أن يطلق على الفرق والدعوات التى وقفت فى وجه الدولة الاسلامية التى كانت تمثل القيادة السياسية العالم الاسلامى (الخلافة الراشدة ، الدول الأموية ، الدول العباسية وما رافقها من دولة الأمويين فى الأندلس والدولة الفاطمية فى مصر وغيرها) هذه الدعوات والحركات — فيما عدا حركة المؤامرة على الإسلام ومؤامرات طلاب الحكم — كانت تتصل بمفهوم من مفاهيم الاسلام ، العدل الاجتماعى لنظام الحكم ممثلا فى حركة (أبى زر) ، للمساواة ممثلة فى حركة الموالى ، للمثل الأعلى لنظام الحكم ممثلا فى حركة الخوارج ، غير أن الحركات كلها لم تلبث أن أنحرفت عن مفهومها ، حين حاولت فرض مفهومها بالقوة ، عن طريق حركات الانقلاب أو الانتقاض على الدولة ، أو الانضواء تحت لواء خصوم الاسلام وللتآمرين عليه ، لقد أسرف هؤلاء جميعا فى مقاومة الدولة القائمة ونسوا أنها تمثل الكيان السياسى الأكبر للاسلام وأن الانتقاض عليها من شأنه أن يغرى بالإسلام خصومة من خارج نطاق عالم الاسلام ، وهو ما وقع بالفعل بعد أن اتصلت هذه الحركات وانصهر بعضها فى حركة المؤامرة الضخمة على الاسلام التى تمثلت فى القرامطة ، والاسماعيلية ، والباطنية وغيرها . وكان أخطر ما بلغته هذه الحركات هى إصطناع مبدأ الاغتيال واستحلال قتل مخالفيهم من المسلمين ويجب أن نفرق هنا بين حركات المعارضة للحكم وبين حركات المؤامرة على الاسلام ، وبين فرق الشيعة والمعتزلة والخوارج وهى فرق مجتهده بما تراه من حق ، وبين فرق المؤامرة على الاسلام التى التمست لها ستاراً من الشيعة الغالية .

ويمكن أن يقال أن صراعا قد برز بين الحضارة (الحكم والسياسة والمجتمع) وبين المثل الأعلى الإسلام وأن هذا الصراع تمثل فى طلاب العدل والمساواة) أبو ذر والخوارج .

وأن هناك صراعا بين طلاب الحكم بحق الروابط التى تتصل بآل البيت وبين من يرون لأنفسهم حق الولاية ، وهناك فريق دعاة النقد الاجتماعى وكشف عيوب الحكام والمجتمع (حسن البصرى) وهناك قول يكاد يصل إلى الاجماع هو أن حركة دعاة المساواة (الموالى) كانت رد فعل لغلو الدولة الأموية فى تمثل السيادة العربية ، مما أدى إلى قيام صراع بينها وبين المسلمين من غير العرب ممن

أطلق عليهم الموالى ، هؤلاء الذين كان مفهوم الإسلام وفق أصوله — يعطيهم حق المساواة مع غيرهم. ويرجع المؤرخون ذلك إلى أن طابع الدولة الأموية كان عربيا غاليا فى العروبة ، حتى أنهم فرقوا بين العرب ومن دخل الإسلام من العناصر الأخرى ، وكان أغلب هؤلاء الموالى فرسا ، وقد كان لطلاب الملك من الفرس قضية ارتبطت بمقتل عمر ابن الخطاب ، مصدرها حق الطبقة التى كان بيدها النفوذ والسلطان ، فضلا عن طابع النظرة الفارسية القديمة إلى العرب بوصفهم أصحاب حضارة والعرب أصحاب بداوة ، وقد توالت الأزمة التى عاشت أيام عثمان وعلى وكان موقف بعض الفرس فيها يحمل طابع الحقد على العرب لأنهم سيطروا على دولتهم ، وفى رأى الفرس أن الإسلام هو الذى أعطى العرب هذا الامتياز ، ومن هنا بدأت حملتهم على الاسلام نفسه وقد صاحب هذا الاتجاه موقف الأمويين من الموالى فارتبط به على نحو من الأنحاء .

والحق أن موقف الإسلام من الموالى كان واضحا صريحاً ، وأن مخالفة هذا المفهوم كان مصدر « الأزمة » التى وقعت بين العرب والموالى والذى أودى بالدولة الأموية ، فقد كان للموالى دورهم فى زعزعة بنائها فى سبيل قيام نظام يحقق لهم المساواة ، ولقد كان مفهوم الإسلام أن يحكم المسلمون عربا وغير عرب ، وأن لا يقتصر السلطان على العرب وحدهم ، وهذا ما حققه تطور الأمور فى العصر العباسى . والموالى هم خليط من المسلمين الذين كانوا موالى لمن أعتقوهم ، أو أهل الأمصار الذين أسلموا وانضموا إلى العرب وتحالفوا معهم فأصبحوا موالى بالحلف ، وقد كانوا يمثلون الأيدى العاملة فى الدولة ، ومما يذكر لهم أنهم كانوا أداة الجيوش ومادتها ، وأنهم قاموا بدور ضخم فى توسيع عالم الإسلام وأنهم صدقوا الله اسلامهم وقدموا أرواحهم خالصة فى حركة الجهاد المقدس وفى المعارك المتوالية التى استمرت ردحا طويلا خلال حكم الدولة الأموية ، كما أتيح لهم أن يسيطروا على الحياة الاقتصادية ، غير أن الأوضاع التى فرضها الاستعلاء بالسيادة العربية تركت فى أنفسهم كثيراً من الجروح والندوب ، فأحسوا بفوارق مختلفة لا يقرها مفهوم الإسلام نفسه ، هذا المفهوم الذى سوى بين العرب وغير العرب تحت لواء الإسلام الذى فرض للقيادة السياسية الحاكمة أن تحقق هذه المساواة ، وفى حكم عمر بن الخطاب بدا هذا المفهوم واضحا وهو يوضع موضع التحقيق .

وقد كان من نتائج هذا ، قيام ثورات مختلفة متعددة للموالى على الحكم الأموى ، وقد أدى ذلك إلى انضواء طائفة من المجتمع الإسلامى إلى خصومه وإلى حركات التآمر على الإسلام ، كما انضموا إلى الخوارج ، والشيعة ، وإلى كل منتقض على الدولة ، حتى تجمعت الشيعة والخوارج والموالى على هدم

الدولة الأموية ، ولاشك كان سقوط الحكم الأموى ، وقيام الحكم العباسى إنتصاراً للموالى ، فقد حقق لهم العمل على قدم المساواة مع العناصر الإسلامية الأخرى ، ولقد إعد المؤرخون موقف الأمويين من الموالى واستعلائهم بالسيادة العربية ، من أكبر الأسباب التى أدت إلى سقوط دولتهم ، غير أن أخطر النتائج التى أدت إليها حركة الموالى الــــحق فى ذلك التحــدى الذى فرض اتصال بالموالى بالفرس الناقمين على العرب ، إنما كان ظهور موجة الشعوبية العاصفة المنحرفة التى بدأت أول أمرها تنادى بمساواة العرب والموالى التى تطورت فى العصر العباسى فصارت تنادى بأن الفرس أرفع درجة من العرب ، ومن الحق أن يقال أن شعور الاضطهاد الذى أحس به الموالى كان عاملا هاملا هاما من العوامل التى دفعتهم إلى المشاركة فى حركات التآمر على الإسلام نفسه رغبة منهم فى إسقاط الدولة الأمــوية .

دعاة المثل الأعلى (الخوارج)

وكان « دعاة المثل الأعلى » أبرز من حملوا لواء المعارضة للسلطة السياسية ، كان الخوارج يمثلون مفهوم الخلافة الحق ، الخلافة الديمقراطية التى لا تتقيد بقريش ولا بآل البيت ، وقد صاغوا من المثل الأعلى الإسلامى « نظرية » دافعوا عنها ، وبلغوا فى حماسة الدفاع عنها حد العنف وسفك الدماء ، وهم فى نظريتهم لا يقبلون مفهوم الواقع المتطور ، ولا الواقع الجارى ، ولا النظرة العميقة لمفهوم الأحداث وتطور الأمم ، ولو لم ترتبط فلسفة الخوارج بالانتقاض على الدولة والمقاومة الدموية ، لظلت تمثل جانب المثالية فى الإسلام فى مواجهة الدولة التى كانت فى الأغلب نظاماً سياسياً يدور فى إطار الإسلام ولا يطابق مفهومه تمام المطابقة . كانت أيدلوجية دعاة المثل الأعلى أن تـكون الخلافة شورى بين المسلمين ، لا يقبلون مبدأ الوراثة ، ولا حق قريش فى الخلافة ، وقد حدد الخوارج موقفهم فى قضية الخلافة فقالوا : أن الإمامة قد تـكون فى غير قريش ، ويجب ألا ينظر فى اختيار الإمام إلا لتوافر الـكفاية والعدل واجتناب الجور ، فـكل من ألس فيه المسلمون هذه الخلال فلهم أن يولوه الإمامة ، ومن خرج عليها وجب اعتباره عاصياً ، وأن غير الإمام السيرة وعدل عن الحق وجب عزله ، أو قتله كما أنه يجوز أن يكون الإمام عبداً وحراً ، قرشياً أو غيره .

وقــد ظل الخوارج أشد الفرق الإسلامية معارضة لقيام الأسر والحكم الموروث وأشدها مقاومة للملك الجائر ، ولم يقف أمرهم عند وضع النظريات بل ذهبوا فى تطبيقها أبعد مدى وعرف لهم أبطال وأدب ومواقف متعددة ، وتاريخ طويل إمتد خلال حكم الأمويين والعباسيين فقد شهروا

الحرب على الدولتين ، ولبثوا يقاومونهما زهاء قرنين وكانوا مثلا عاليا فى الجرأة والمخاطرة ، غير أن أبرز ما يؤخذ عليهم اسرافهم فى سفك الدماء ومغالاتهم فى قتل الأطفال والشيوخ والنساء .

دعاة العاطفة (آل البيت)

يمثل مفهوم آل البيت : « العلويون ، الشيعة » الاتجاه المرتبط بالرسول ﷺ وآل البيت وهى دعوة العاطفة العميقة التى ملأت نفوس المسلمين بحب رسول الله وآل بيته فى ظل مفهوم القرآن « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » . وكان حقا لهذه الدعوة أن تقضى فى مجال رد الفعل لما واجهت من تحدى ، هذا التحدى الذى تمثل فى امتناع النبي ﷺ وخليفتيه أبى بكر وعمر عن إعطاء سلطات سياسية أو قيادات حربية لأحد من آل البيت (آل على وآل العباس) ويتصل بهذا ما أورده المسعودى من حوار دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس جاء فيه قول عمر : إنى رأيت رسول الله استعمل الناس وتركـكم ، فقال عبد الله : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه ، قال عمر : والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتـكم منه » ومما يروى فى هذا من أن عليا والعباس قد التقيا فى مرض النبي ، قال العباس لعلى : أنت بعد ثلاث عبد العصا وأن رسول الله ﷺ سيتوفى فى مرضه هذا ، وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله فاسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا علمناه ، وإن كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا ، فقال على : لئن سألناها رسول الله فمنعنا إياها لا يعطينا الناس أبداً » ويتصل بهذا ما كان من أمر اجتماع السقيفة حيث دار الحوار بين الأنصار والمهاجرين حول أمر الاستخلاف بعد النبي : واتفق على أن يكون المهاجرون هم الأمراء والأنصار هم الوزراء ، وبايع عمر بن الخطاب وأبو عبيدة لأبى بكر . ثم ما كان من أمر على وتردده فى البيعة ما يقرب من ستة شهور وما وقع للسيدة فاطمة بنت النبي حين قصدت خليفة رسول الله أبا بكر تسأله فى أرض لرسول الله فى فدك وما أجابها به أبو بكر حين قال : أن معاشر الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقه . من هذه الصور يتمثل الاتجاه التى كون موقف دعاة العاطفة الذين أحسوا بآل البيت وهم مبعدون بعد رسول عن مكان الحكم ، وإن لم يبعدوا عن مكان الصدارة ، فقد كان على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس هم أبرز قادة الفـكر الإسلامى فى هذه الفترة . وفقهاء المسلمين : حتى كان يقال « قضية ولا أبا حسن لها » . قد إمتدت هذه الصورة واتسع نطاقها حين اختير عثمان بعد أبى بكر وعمر ، وكان على فى

مقدمة المرشحين ، وما روى فى شأن ذلك من آراء . وروايات لا حد لها ، من أبرزها ما قيل من أن الصحابة كانوا قد ضاقوا بنظام حكم عمر ، وخشوا عليا أن يكون استمراراً لهذا الحكم ، وتطلعوا فى عثمان طابعاً أقل شدة وأكثر انطلاقا نظراً لارتفاع سنه، واختلاف طبيعته ومفاهيمه عن « عمر » الشديد الحازم .

فلما جاء دوره بعد عثمان كان المجتمع الإسلامى قد بلغ غاية من الاضطراب ، وقد علت فيه صيحات وتدافعت قضايا ، وتفرق الصحابة فى الأمصار ، ووقع الخلاف بين جماعة المسلمين ، ثم وقع الخلاف بين على وشيعته ، ثم وقع الخلاف بين على ومعاوية ، ثم كانت نهايته تلك الازمة الأليمة ، وما كان من تنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ثم كان خروج الحسين ومقتله بيد ولاة الأمويين الذين كانوا قد جعلوا السلطة الإسلامية العليا توارثا فى بينهم ، هنالك وفى خلال هذه الظروف تكونت جماعة « دعاة العاطفة لآل البيت » قوية عنيفة ، تناهض نظام الدولة القائم ، وتحاول أن تديل منه بالثورات والانتقاضات ، حتى بلغت من بعد مبلغها « حركة ذات فلسفة ومفاهيم » تطبعها بطابعها .

وقد حاول خصوم المسلمين والمتآمرين عليه أن يندسوا فى رحاب هذه الدعوة وأن يحملوا لواءها حتى دق الفارق — فى فترة من الفترات — بين دعاة العاطفة المحبين لآل البيت وبين المتآمرين على الإسلام ، هؤلاء الذين كانوا دائماً يحملون لواء آل البيت ويدعون باسم آل على أو أبناء فاطمة . وقد واجه دعاة العاطفة خصومة الأمويين ، حتى إذا شاركوا فى محاولة القضاء عليهم ، كان أبناء عمهم (العباسيون) الذين ولوا الحكم أشد عنفا فى معاملتهم والخصومة معهم ، ولكنهم استطاعوا من بعد أن يقيموا الدول : فى فارس (البويهية) وفى المغرب (الدولة الفاطمية) التى امتدت من تونس إلى الشام والحجاز واستمرت ٢٦٠ عاما . ولقد أقام آل البيت « الشيعة » : أتباع على وبنيه ، مذهبهم على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ويختار القائم بها بل هى متصلة فى آل البيت وأبناء على ، وقد اعتمدوا فى فكرهم ومفاهيمهم على أحاديث للرسول صحت عندهم تعطى فلسفتهم جذورها الأساسية ، وقد ظلت فكرة آل البيت هدفا يلتمسه كل من يطلب الانتقاض على الرئاسة السياسية القائمة يلتمسها وسيلة لاستهواء الناقمين والبسطاء والساخطين .

دعاة النقد الاجتماعى

انتقلت القيادة الإسلامية من المدينة إلى دمشق من البادية إلى الحاضرة ، كان الاتجاه إلى الشمال وإلى مواطن الحضارات تطوراً طبيعيا لمقر القيادة الإسلامية ، كما كان التحول من جمهورية الراشدين إلى نظام الملك تطوراً طبيعيا لنظام الحكم ، وكان قيام دولة عربية خالصة السيادة والسلطان تطوراً طبيعيا بعد أزمة الخلافة ، كان هذا كله انتقالا طبيعيا فى مجتمع متعدد الأجناس والعناصر فى مرحلة تفاعلها وتبلورها وانصهارها ، فى محاولة صياغة فكرها من جديد فى إطار الاسلام ، لم يكن من الطبيعى أو المعقول أن يتحقق المثل الأعلى الإسلامى فى هذه المرحلة الباكرة ، ولذلك فقد كان النظام السياسى محاولة لتمثل مفهوم الإسلام وأن لم تبلغها أو تحققها ، لقد كان الإسلام أيدلوجية إنسانية شاملة للناس كافة فى كل عصر ومصر ، وصلاحيتها مستمرة ، وقدرتها على الالتقاء بالحضارات والأمم والأجناس والأقطار مفتوحة طيعه ، ولقد كان من شأن النظام السياسى الإسلامى أن يحاول مجتهدا أن يقترب من هذه الأيدلوجية وأن يتطاول إلى تطبيقها ، غير أنه لم يستطع ذلك على نحو يرضى الفقهاء والمفكرين والأئمة ، فقد طفق دعاة النقد الاجتماعى وطلاب المثل الأعلى لايكفون عن التوجيه والنصح . كان طابع الملك يحمل فى طياته الاحتجاب عن الشعب بالإضافة إلى نمو الحضارة وظهور نظم القصور وطوابع الترف والثراء ، مع وجود الطبقات الكادحة الفقيرة . مما حمل الفقهاء ودعاة النقد الاجتماعى على مواجهة الخلفاء والأمراء ، ويمكن أن يقال أن « أباذر » من دعاة النقد الاجتماعى غير أن أبرز مثل لذلك هو الحسن البصرى ولم تكن دعوة الحسن معارضة للقيادة السياسية ولكنها كانت نقداً اجتماعيا يتصل بمحاولة تصحيح مفاهيم المجتمع نفسه فى ظل موجة الترف والنفاق والانحلال التى أخذت تجتاحه فى أواسط العصر الأموى ، وكانت علامة على نزعة الزهد التى كانت رد فعل للترف ومحاولة من بعض المثاليين لاعتزال المجتمع . وقد كان العلماء والأئمة والمفكرون على طول التاريخ الإسلامى قادرون على رد المسلمين إلى المفهوم الصحيح للاسلام ومقاومة الانحرف الفكرى والاجتماعى ، هؤلاء الدعاة والمجاهدون ونقاد المجتمع الذين عارضوا دائما الانحراف ، ومنعوا العامة أن يجرفها الترف أو النفاق أو الانحراف ، وقد كانوا عاملا سياسيا فى بناء الإسلام والحفاظ على أيدلوجيته من أن يضاف إليها ما يغير مضمونها أو يحول طابعها . فقد بذلوا جهدا ضخما فى المحافظة على خصائص الأمة ، واتصال حياتها الروحية والخلقية .

ولقد ظل تيار الاصلاح الإجتماعي قادراً على مواجهة خطر المادية الجارفة والانحطاط الخلقي والروحي ، وإذا كان قد عرف الحسن البصري ومدرسته : سعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والشعبي، فقد حفل تاريخ الاسلام بهؤلاء الدعاة في كل عصر ومكان في عالم الاسلام وكان منهم كثيرون يؤمنون بالعمل الخالص البريء من الدعاية والشهرة . والظاهرة الواضحة أن هؤلاء جميعا كانوا من دعاة المساواة (للموالي) وقد عملوا وفق منهج واضح ، قوامه : الحث على الايمان والعمل الصالح والتحذير من غرور النفس ومهاجمة الترف ، وكان الحسن البصري وصفوه من هؤلاء الدعاة يصدعون بالحق في شجاعة أمام رجال الحكم ، لايخشون في الله لومة لائم ، وقد اتسق مفهوم هؤلاء القادة السياسيين مع نقاد المجتمع فأولوهم تقديرا ، وسارع كثيرون منهم إلى هؤلاء الناقدين يطلبون نصحهم ، وكان محمد ابن سيرين والحسن البصري والشعبي في نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني في مقدمة العاملين ومما يروى في ذلك أن عمر بن هبيرة الفزاري ولي العراق ، في أيام يزيد بن عبد الملك ، فدعا الحسن البصري ، وصاحبيه ، قال الحسن ياابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ، أن الله يمنعك من يزيد ويزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك الله أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة : أن الله قد جعل هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده فلا تتركن دين الله وعباده لسلطان الله فإنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق » . وفي هذه الفترة واجه تاريخ الاسلام حدثا من أبلغ أحداثه ذلك هو تولي « عمر بن عبد العزيز » الخلافة خلال عامين ونصف بين سنوات حكم الأمويين ، كانت غريبة غاية الغرابة ، أراد عمر خلالها أن يعود بالناس إلى « منهج عمر بن الخطاب » وكان ذلك عسيراً عليه كل العسر ، وكان سببا في القضاء عليه ، حقا ، لقد استطاع أن ينشيء للمجتمع قيما حديدة تقترب من « المثل الأعلى للاسلام » ولكن المجتمع الذي استجاب للتحول السريع العميق ، لم يكن قادراً على حماية الخليفة الذي جمع بين صفة القائد السياسي والداعية الإسلامي . كان مخطط عمر بن عبد العزيز مغايرا للخط الذي قطعته الحضارة ، كان محاولة لتقريب النظام السياسي من مفهوم الاسلام ومقوماته ، غير أن ذلك لم يكن يسيرا بالقدر الكافي في فترة حكمه القصير ، وربما استطاع أن يصل إلى شيء من التحول لو طال به العمر — ذلك أن للحضارة موج دافع لا يتوقف ، ولحركة التطور مراحل لا تتراجع ، ولم يكن من اليسير تغيير خطها بعد اندفاعة خلال جيلين أو ثلاثة إلا بجهد زمني واسع لم يتح له ، غير أن عمر بن عبد العزيز ترك صفحة مضيئة مشرقة مازالت حتى الآن تهز المؤرخين والباحثين ، وترك آثاراً هامه فقد حمل لواء الدعوة الاسلام على نحو رائع أدخل أعداداً ضخمة من أهل عالم الإسلام نفسة ، فقد رفع الضرائب

عن الداخلين فى الإسلام ، وأعلن أن الله لم يبعث محمد جابيا بل بعثه داعيا ، كما أرسل الولاة الممتازين إلى المغرب والأندلس على النحو الذى حقق تعميق الإسلام واتساع نطاقه ، وأجرى الحوار المفتوح مع طلاب العدل والمساواة حتى أوقفهم وأنهى صراعهم مع الإسلام وعمقه وكان دورة ليس فى توسيع الإسلام بل فى تعميقه ، وليس فى بناء الدولة بقدر ما كان فى بناء الفكرة والعقيدة وقد دعمه فعلا بالمثل والقدوه ، فقد كان هو نموذجا عاليا ومثلا رائعا ، صحح كل مواقف الخطأ ، فى تصرفات الخلفاء ، وحفظ مال المسلمين عن الانفاق فى الترف واعطيات الشعراء ، وجمع إليه العلماء والخاصاء ، ونقل الناس من وضع إلى وضع فالناس على دين ملوكهم ، وخفف أبهة الملك ، وألغى المظاهر الفخمة ، والمواكب وقد اقترب من أيدلوجيا الإسلام تطبيقا للشريعة الاسلامية ، وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام فلما بلغتهم سيرته ومذهبه أسلموا وتسموا بأسماء العرب ، كما كتب إلى ملوك ماوراء النهر فأسلم بعضهم ، ولما أقر البربر أمروا إليه إسماعيل بن أبى المهاجر غلب الإسلام على المغرب ولعل منهج النقد الاجتماعى كان ثمرة لحكم عمر بن عبد العزيز القصير وكان فى مقدمة تلاميذه الحسن البصرى وقد انتقد الحسن البصرى النفاق فى الطبقات الممتازة من الأمة ، وانتقد أدواء المجتمع ، ووصف العلاج ، وحقق نتائج عامة واجتمع حوله نفر كثيرون ، حيث جمع بين التوجية والتربية العملية والنقد البناء وقد توارث علمه خلفاء بعد وفاته ١١٠ ﻫ ومضى هذا الخط لم يتوقف ، هادفا إلى المحافظة على مفهوم الإسلام وروح هذه الأمة وصلتها بالله والمحافظة على منابع الحياه الإسلامية الأساسية (القرآن الحديث) ومن خلال هذا الاتجاه ظهر تيار الزهد واعتزال المجتمع كرد فعل على تيار الترف والنفاق والامعان فى اللذات الحسية ، وقد ظهر من بعد فى العصر العباسى : الأوذراعى وسفيان الثورى وصالح بن عبد الجليل وابن السماك ، وكان لهؤلاء مواقف وكلمات غاية فى القوة بل أن بعض العلماء من أصحاب المثل الأعلى قد أعرضوا عن فرض آرائهم ومذاهبهم بسلطان الحكم ، كما فعل مالك حين اعتذر للمنصور عن نشر موطئه فى العالمين دون كتب الحديث والفقه ، وقد وكان لمالك مواقفه فى معارضة النفوذ السياسى .

الواقعيون

يشمثل الواقعيون المسلمون فى تلك الجموع العامة التى أولت القيادة السياسية للاسلام ثقتها ورأت فى الحفاظ على وحدة الجماعة ضرورة والتجمع حول القيادة أهمية كبرى فى بقاء الإسلام نفسه ونموه واستمراره ، وقبلوا بالولاء لنظام الدولة بوصفه قوة قائدة دافعة إلى العمل والحركة والتوسع ، ولقد كان

هؤلاء الواقعيون هم الأغلبية الغالبة أو الساحقة المسلمين ، هؤلاء الذين مثلوا التطور ونتائجه ، والتقدم وآثاره ، وهم الذين شهدوا تلك الأزمة الضخمة التي أودت بمستقبل الخلفاء الثلاثة وما أصاب المجتمع الإسلامي خلال عشرين عاما كاملة بعد وفاة عمر إلى عام الجماعة : عام البيعة لمعاوية واستقرار الإسلام تحت قيادته السياسية : دولة أموية عربية مقرها « دمشق » .

هؤلاء الواقعيون هم الكثرة الكاثرة من المسلمين ، يرون أن القيادة العربية ضرورة في هذه المرحلة لبقاء الإسلام واستمراره ونموه ، ولنشر اللغة العربية وسيطرتها على اللسان ، وحلولها محل اللغات القديمة . لقد قبلوا بالولاء لحاكم من صحابة الرسول وبيت من بيوت الإسلام ، واستطاعت الدولة الأموية أن تبني بناءاً ضخماً في كل مجال ، بنت في مجال التوسع الإسلامي وسارت في سنة الجهاد المقدس مدفوعة إلى إضافة أرض جديدة إلى رقعة عالم الإسلام ، وبنت الأسطول الإسلامي وواجهت بيزنطة ودفعت قواتها إلى محاصرة القسطنطينية مرات .

وتواصلت توسعات الإسلام إلى حدود الصين ، وفي عهدها أضيف السند والهند وما وراء النهر إلى رقعة الإسلام واستكمل ولا المغرب للاسلام وعبر المسلمون بحر الزقاق إلى شبه جزيرة أيبريا وأوغلوا في أوربا . وقدمت الأموية للاسلام طائفة من بناة الدول من أمثال : معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك . وقدمت قادة في مجال الحرب من أبرزهم : موسى بن نصير وعبد الرحمن الداخل ومحمد أبو القاسم الثقفي ، : وبنى الأمويون الحضارة ووسعوا مجال التجارة . ونشروا الإسلام بعد أن أخضعوا هذه الأرض الواسعة .

وبعد فليس شك أن الدولة الأموية كانت تواجه تحديات خطيرة ، جعلتها حريصة في نظر الواقعيين جميعاً ، وهم جماهير المسلمين ، إلى حياة استقرار ، فضلا عن ضرورة سيطرة العنصر العربي في هذه الفترة الأولى من حياة الإسلام ، فقد كان العرب هم حملة لواء الرسالة ، نزل فيهم القرآن وظهر منهم وبينهم رسول الله ، واصطفوا لحمل أمانة الإسلام وإذاعتها في العالم كله ، وهم الذين اعتنقوا عقيدة الدعوة إلى الاسلام ونشره ومقاومة كل قوة تقف في طريقه ، ولذلك فقد كان طابع الدولة الأولى التي تكونت بعد جمهورية الإسلام الراشدة ، دولة عربية ، التمست من مفهوم الإسلام ما استطاعت أن تحققه كنظام للحكم . وقد كان أبرز ما اتسمت به هي قدرتها على السير برسالة الإسلام وتوسيع آفاقه وتثبيت دعائمه ، ونشر الإسلام في الأمم التي دخلت تحت لوائه . وقد كان لها دور إيجابي ضخم غير منكور في دعم هذا اللواء ، هذا فضلا عن أن مرونة معاوية وبراعته

السياسة وقدرته على فهم ماحوله من حضارات الأمم ونظمها والاستجابة لها ومسايرتها . بحيث تبدو الدولة فى موضع الهيبة . كان ضرورياً إذ ذاك ، وكان بعيد الأثر فى عملية الانصهار والبلورة ، هذا بالاضافة إلى انتقال حاضرة الدولة الاسلامية إلى دمشق حيث الخصب والنماء ، وقريباً من مواقع الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الأسطول البحرى والحركة السريعة فى أفق عالم الاسلام الممتد ، كل هذا كان من دوافع القوة والتثبيت للعالم الاسلام .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تعليل سقوط الأمويين بأنهم كانوا أشد تعصباً للعرب واعتماداً عليهم دون سواهم ، وصبغ الدولة الأموية بالصبغة العربية حتى أطلق عليها اسم الدولة الأموية ، وأنها عربت الأقطار المختلفة ، بربر أفريقيا وأقباط مصر وأهـل فارس والعـراق كما استطاعت أن تحقق صهر مدنيات الأمم الداخلة تحت لواء عالم الإسـلام فى بوتقة العروبة . وليس فى هذا كله ما يعيب إلا أن يبلغ الأمر مبلغه من التعصب للعرب بمـا ينقص حق العناصر الأخرى من المسلمين وخاصة الموالى وقد ذهب خصوم الأمويين إلى اتهامهم بالعصبية القبلية، وهى العصبية لبنى أمية، فوق عصبيتهم للعرب على غيرهم من المسلمين ، وقد تجـــدد فى ظلهم الخلاف القديم بين الأمويين والعباسيين ، وبلغوا فى ذلك إلى الفخر على العربية بوصفهم أهل قريش ، فضلا عن أنهم ناصروا القيسيين حيناً واليمنيين حيناً آخر .

ولاشك أن التعصب القبلى يناهض مفهوم الإسلام نفسه الذى دعا إلى محو نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء حيث لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، ولست أتصور قيام دولة فى ظل مفهوم الإسلام إلا على النحو الذى قامت على الدولة الأموية بعد مرحلة التمهيد التى تمثلت فى امتداد العصر النبوى وقيام جمهورية الراشدين التى كانت تحتاج إلى جهود ضخمة لتتسع لنظام يصهر جميع العناصر الإسلامية فيه ، والذى قصرت عنه بيئة المدينة ! وتدافع التوسع وتمام السيطرة على أغلب أراضى الأمبراطورية الفارسية والرومانية وانضـواتها لسيطرة حكومة المدينة ، على هذا النحو السريع قبل أن تتشرب نفوس المنضوين مفهوم الاسلام أو ترتضيه معتقداً لها ، ومن هنا كانت الازمة التى حولت جمهورية الراشدين فى خلال عشرين عاماً إلى نظام عربى الطابع والصيغة قائماً على نفوذ إحدى قوتى قريش الـكبيرتين ، وهى بالقصد ليست القوة التى تحمل إسم النبي صاحب الرسالة ، وإنما هى القوة المناهضة لها والتى أبطأت فى اعتناق الإسلام ولـكنها القوة التى قدمت عديداً من القادة والولاة والنوابغ فى خلال أيام النبي وحكومات الخلفاء الراشدين الاربعة مما أهلها للصدارة وبلور طابع القيادة السياسية على هذ النحو .

ولا شك كان انتصار الأمويين انتصاراً للطابع العربى ،الذى امتد إلى النزعة القبليـة ، والذى بلغ درجة السيادة العربية ، مباعداً عن مفهوم الإسلام فى إسقاط أفضلية عنصر على عنصر ، وكان لهذا ضرورته من ناحية فى ظل التحدى الذى واجهه من خلال مؤامرة القضاء عليه ممثلة فى عناصر الفرس والموالى والمجوس ، ومن هنا كان رد الفعل فى حمـاية القيـادة السياسية من غير العرب عملا مرحلياً حمـاية للدولة من الاضطراب ، غـير أن تراخى الزمن ، وانتشار الترف وعدم تحقق المثل الأعلى الإسلامى فى المجال الاجتماعى كاملا وقد أضعف هـذا النظام وأبعده عن فاعليته الإيجابية وفتح الطريق لنظام سياسى آخر يتطور من داخله بتغيير موضع القيادة فيه فيسلمها إلى البيت الآخر من قريش ، ويحـل بعض الأزمات ، وأن بقى نظام الحـكم ممتداً فى أسرة واحدة ، ونظام واحد هو نظام ولاية العهد ، وهو الطابع الذى استمر النظام السياسى فى الإسلام على أساسه فيا بعد طويلا . لقد كان هناك قوتان للمجتمع الاسلامى : قوة المثل الأعلى وقوة التطبيق . كانت قوة المثل الأعلى والمعايير الخلقيـــة تتطلع إلى أن يقترب النظام السياسى أكثر وأكثر من مفهوم الاسلام وكانت قوة التطبيق تحاول أن تدور فى إطار الاسلام على قدر ما تمـكنها ظروف الوراثيات القبلية والعنصرية ، وتطور المجتمع ، والحضارة ، وقد ظلت «أيدلوجيا الاسلام» ولا تزال منهجا سمحا مرنا قابلا للأخذ منه وقادراً على مواجهة تغيرات البيئات وتطورات الأزمنة، وقد ظل يتمثل فى صورة عليا لما تصل إليها قوة التطبيق بعد وإن دارت فى فلـكها مجتهدة ، ومن هنا كان دور المجتهدين من الفقهاء والأئمة والعلماء ، الذين كانوا يوائمون دائما بين الواقع وبين أيدلوجيا الاسلام ، بين المثـل الأعلى وبين التطبيق ، وكان من رأى الواقعيين دائما الحرص على مبدأ وحـــدة الجماعة وسلامتها بقبول التوفيقات والتسويات التى تسمح بالتوازن بين القوتين .

ومن هنا كان دور الفقهاء والمجددين دافعـاً المجتمع الإسلامى إلى الاقتراب أكثر من مفهوم الإسلام وتمثله ، تدرجا نحو الـكمال ، ومن هنا ظلت مقومات الإسلام هدفاً متمثلا للحكام والعلماء والمجتمع على السواء ، سعيا وراء العدل والمساواة . ولقـد كانت كل مواقف التاريخ الإسلامى تتسم بالنصر والنجاح والقوة كلما اقتربت من مفاهيم الإسلام ومقوماته وتتسم بالضعف والهزيمة كلما بعدت عن هذه المفاهيم ، وكل معضلات تاريخ الاسلامى وأزماته إنما صدرت عن تخلف عن تلك المقومات البسيطة اليسيرة التى رسمتهـا أيدلوجيا الاسلام وحاول الرسول أن يطبقها فى المجتمع الاسلامى القائد الرائد ، ولطالما استطاعت التجربة التاريخية أن تحقق بالتحول والتطور « مفهوم الاسلام » جريا على سنن السـكون فى التعبير والاتجاه نحو الـكمال .

ولقد تفاعلت مفاهيم الاسلام وأيدلوجيته مع المجتمع الاسلامى فى درجاته المختلفة ومراحله المتصلة وقواه المتعددة ، ومع اختلافات الناس والبيئات والعناصر ، واستطاع بآفاقه الواسعة أن يحقق نتائج مرنة على توالى القرون ، لم يصطدم بالحضارة ولا بالتطور ولم تتوقف ولم تجمد ، وقد مضت كلها ضمن إطار الاسلام الواسع . فقد كانت أيدلوجيات الاسلام ومضامينه الأساسية ، نظاما شاملا للحياة كلها على أسس التوحيد والعدل الاجتماعى والمساواة والاخاء ، وهو منطوق فسيح سمح ، متقبل لعادات الأمم وأذواقها وتقاليدها وفلسفاتها ما دامت تصاغ فى إطاره وتتحرك وفق هذه الأسس ، ولم يكن الاسلام دينا إلا من ناحية إعطاء دفعة الضمير والخلق ، أما فى مجال الثقافة والمجتمع والاقتصاد والسياسة فقد كان تنظيما ربانيا إنسانيا كاملا للمجتمع ، متقبلا للتطور ، متمثلا للعصور والأمم ومتميز عن المختلفة قادرا على الحركة والحياة . مهيئا لتقبل أبعد تطوراتها حالا لا كثر معضلاتها خطرا ، أكثر مذاهبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية عطاءا . وقادرا على صهرها فى بوتقته وتشكيلها فى إطاره : توحيدا وعدالة اجتماعية ومساواة وبناء ضمير وخلق .

ومن هنا تبدو جميع دعوات العدل الاجتماعى والعقل والمساواة والمثل الأعلى والعاطفة والواقعية كلها تراث اسلامى مستمد من صميم الاسلام ومفاهيمه ما دامت لها جذور من القرآن والسنة ، وليس هذا الخلاف بين دعاة هذه الدعوات ، إلا خلافا بين وجهات نظر تتعدد حول الفرعيات والقضايا وتتفق أساسا حول القيم العليا للإسلام وتدور كلها حول النظام السياسى والاجتماعى للمجتمع ولا عيب ان تتعدى وجهات النظر وتختلف مادامت فى نطاق الفروع ، وما دام ذلك كله يجرى فى إطار الاسلام نفسه وليس خارجا عنه ، وهو علامة صحة وليس علاقة مرض ، إذ تستهدف هذه الحركات جميعا أن تصل إلى الحق والعدل ، وأن تصهر أفكارها وتبلور فى مفاهيمها وهو عمل ضرورى أساسا لمجتمع تكون من عناصر مختلفة وثقافات وفلسفات وتقاليد ومقومات متعددة ، ومن هنا فإن كل هذه الدعوات ، إنما تمثل مراحل الفكر والحضارة الاسلامية يتسع لها أفق المؤرخ والباحث — والحياة الانسانية ولا شك تتطور وتتحرك فى موجات متعددة ، من القوة والضعف ، والانحراف والاعتدال ، التجزئة والتكامل .
ولقد كان تاريخ الاسلام يتمثل هذه الحركات والموجات وكانت تبرز فيه دوما القوى القادرة على تصحيح الطريق ورد الدعوات إذا خرجت عن مفهوم التكامل والشمول والوسطية ، ولقد كانت كل حركات الفكر الاسلامى وكل موجات المجتمع الاسلامى ، علامات قوة وقد مضت حركات التغيير وظهور بناة الدول وقادة الفكر مستمرة دائما لا تتوقف ، كل حركة منها ، تحقق خطوة إيجابية نحو التقدم والبناء وهى فى ذاتها دفاع عن حق مضيع ، أو تصحيح لحقيقة توشك أن تفقد مفهومها فى طريقها إلى تحقيق حتمية الاسلام بوصفه رسالة عالمية وإنسانية .

إن كل هذه الحركات والدعوات تلتمس من الاسلام بسبب ، وتتصل به بنسب وهي الآن حصيلة فكرية وثقافية وتاريخية لا سبيل إلى الرضا عن بعضها ، ومعاداة بعضها الأخرى ، ولكننا نراها اليوم عصارة فكر حي متجدد ، وحين نفصل عنها ما ارتبطت به من عوامل السياسة ، ودوافع الصراع ونستصفيها تكشف عن مدى حرية الاسلام وسعة أفقه التي كانت قادرة على تعطى انطلاقة الفكر والرأى ، غير أن هذه القطاعات تمثل قطاعات الاسلام الجزئية ، وحين تلتقى تمثل شمول الاسلام وتكامله .

(١١)

النظام السياسى

إستمر النظام السياسى الاسلامى الذى تمثله (الدولة الأموية) مرحلة بلغت ٩٢ عاما تقريبا بين عام ٤٠ — وعام ١٣٢ ھ عندما سقطت لتقوم مقامها (الدولة العباسية) وكان مقر السلطة السياسية العليا (الخلافة) دمشق ، وهى سلطة شاملة ضمت تحت لوائها أقطار الدولة متمثلة فى بلاد ما وراء النهر والسند والهند حتى حدود الصين ، والشام بأجزائه والجزيرة العربية ومصر والمغرب كله (شمال أفريقيا) والأندلس فى جزيرة ايبريا . كان هذا النظام المتمثل فى حكم عربى خالص ، قد أمضى دورة كاملة من دورات الدول بين الأبعاد الأربعة : نشوء ونمو ونضوج واكتهال ، استطاعت أن تحقق فيه رسوخ دولة الإسلام وامتداد نفوذه ، وتحول غالب المستطلمين بظلة إلى الاسلام واستقرار اللغة العربية وقيامها محل اللغات الإقليمية ، وانتشار كلمة الإسلام إلى أبعد مدى مستطاع ، وقيام حضارة ضخمة واسعة الآفاق بعناصرها المختلفة من فكر وعمارة وتجارة واقتصاد وبروز عدد كبير من الأعلام والقادة وبناء الدول . وإذا كان « العرب » هم الذين حملوا اء الاسلام وشقوا به الطريق إلى هذه المنطقة الواسعة من حدود الصين فى آسيا إلى حدود إيطاليا وفرنسا فى أوربا عبر شمال أفريقيا فقد تعددت العناصر القوية التى شاركت العرب فى حمل لواء التوسع ، وفى بناء الحضارة وفى الثقافة والفكر ، وفى مختلف جوانب الفكر ، هذه العناصر التى كانت تتأهب بدخولها الاسلام لتحمل لواء القيادة والسيادة فى أفكارها وأمصارها : وأكبر هذه العناصر وأكثرها نفوذاهم: الفرس والترك والبربر . لقد كان الفرس هم أقرب هؤلاء العناصر إلى العرب وأكثرهم تأثرا بالفتح وتأثيرا فى هذه المرحلة ، وكان لهم دور ضخم فى الأحداث التى بدأت بها مرحلة التبلور والانصهار ، وكان لإصرارهم وتصميمهم على المحافظة على كيانهم الخاص داخل نطاق الاسلام وإحساسهم بماضيهم وحضارتهم

وسبقهم للعرب فى مجال المدنية ثم سيطرة العرب عليهم بنفوذ الاسلام ونفوذ الحكم أثره فى الصراع والمقاومة وبروز روح التآمر على الاسلام بالاشتراك مع العناصر الأخرى كالفرس واليهود وقدامى المجوس وبقايا المذاهب الهدامة فى بروز تيار قوى هو تيار (الشعوبية) . أما الترك فإن دورهم لم يكن قد بدأ بعد وهو دور ضخم بعيد المدى ينتظم تاريخ الاسلام كله من بعد ، هذا فى الشرق والشرق الأقصى ، أما فى الغرب فقد كان البربر أقوى القوى التى قاومت الاسلام وصارعت حكوماته العربية الخالصة ، ثم كان لهم — كما كان للترك والمماليك أبعد الأثر فى نصرة الإسلام وحمل لوائه والدفاع عنه فى مرحلة الغزو الخارجى ، هذه المرحلة التى تلى مرحلة التبلور والانصهار. وكان تقوض الدولة الأموية بعد تسعين عاما عن حكمها اتجاها طبيعيا ، بحكم أنها لم تتح لنفسها فرصة البقاء بتوسيع قاعدة عملها السياسى على النحو الذى فعلته الدولة العباسية فى أمرين هامين : الأول : أنها لم تصبغ نفسها بصبغة عربية لها طابع السيادة والعصبية بل سمحت للعناصر المختلفة أن تجرى فى الفلك السياسى وأتاحت لها حق المساواة والحرية ، الثانية : ظاهرة ظهور الدول الاستقلالية الذى جاء نتيجة لهذا فى عصر الدولة السياسية مما يمكن القول معه أن الدولة العباسية ليست إلا إحدى نظم المرحلة التى تلت الدولة الأموية فى خلال المرحلة من ١٣٢ هـ إلى عام ٦٩٩ بظهور الدولة العثمانية كبرى الدول الكبرى الموحدة لأغلب أجزاء عالم الإسلام . وعندنا أن انغلاق الدولة الأموية على السيادة العربية كان ضرورة ، ولكنه بلغ فى بعض مراحله درجة عالية من الخطر ، وما كان من طبائع الأمور ونواميس الحياة أن يستمر ويبقى نظام مغلق ، ومن هنا فقد استطاعت القوى الاسلامية غير العربية أن تتجمع للانقضاض على هذا النظام السياسى والقضاء عليه جريا على سنة الحياة فى ضرورة مشاركة هذه العناصر من ناحية واتجاها مع مفهوم الاسلام الذى يرفض سيطرة الطبقة أو العنصر ، ولو كان هذا العنصر هو العنصر العربى الذى نزل فيه الاسلام وكان له دورة الخالد فى بناء دولة الاسلام وتوسيع آفاقه . وفى كل دولة فى تاريخ الاسلام عناصر بقائها وعوامل انهيارها ، فهى كلما اقتربت من مفهوم الاسلام وحاولت تحقيق أيدلوجيته فى العدل الاجتماعى والمساواة استطاعت إطالة بقائها . وعندنا أن برز عوامل انتهاء الحكم الأموى ، هو بلوغه أبعد قدر مستطاع من تحقيق الهدف الذى قام من أجله ، فقد ثبتت قواعد النظام الإسلامى ولم يعد هناك ما يخشى منه ، لم تعد المؤامرات الداخلية قادرة على انتزاع الاسلام أو القضاء على دولته ، لقد تمكنت جذوره فى الأرض ، وقامت حضارته ، وأصبح ايدلوجية إجتماعية عقلية روحية لهذه الجماعة التى ارتضته واعتنقته ومضى وقت طويل بلغ أكثر من قرن وربع قرن على بزوعه ، وتوالت الأجيال بعد الأجيال التى ولدت فى افقه وعصره . ومن هنا حققت الدولة الأموية

أبرز أهدافها ، وهى حماية الاسلام من الأزمة الضخمة التى واجهها فى منتصف حكم عثمان والتى تآمرت فيها قوى مختلفة من اليهود والفرس والمجوس وغيرهم على اجتثاث الاسلام من جذوره ، والعودة إلى الديانات القديمة ونفوذ أسر الأباطره ، وكذلك أمّنت المداخل الشمالية فى مواجهه دولة بيزنطية التى انتزع الاسلام ما كانت تسيطر عليه فى الشام وشمال أفريقيا بعد أن أحست هيبة الدولة الاسلامية وقاعدتها الضخمة ، وبعد أن استقر حكم الاسلام فى جزء من أوربا ، وقامت دولته متصلة بالمغرب الاسلامى .

وكان هذا الهدف قد تحقق ، هذا الهدف الذى بلغ القائمون عليه أبعدحد فى تأكيده وتركيزه وبقى عليه اتاحة الفرص للعناصر الاسلامية غير العربية ومن أبرزها العناصر الجماهيرية التى تشكل القاعدة الكبرى وهى طائفة الموالى ، هؤلاء الذين دخلوا الإسلام إيمانا بقيمه ومفاهيمه وأيدلوجيته فى العدل الاجتماعى والمساواة الذين لم يجدوا من عدل الدولة الاسلامية تطبيقا كاملا ، ومع ذلك فإن هذا لم يردهم عن الإسلام ، بل دعاهم إلى ملاقاة خصوم الدولة القائمة لاسقاطها ، رغبة فى قيام نظام جديد يفسح لمختلف العناصر حرية المشاركة على قدم المساواه فى العمل الاجتماعى والسياسى وإذا ذكرت هذه القطاعات الضخمة من المجتمع الاسلامى ذكر أفضل عناصره ، وأقواها ، وأعمقها إيمانا ، وأبعدها أثراً فى هذا البناء الذى قام وتضخم ، فقد كانو هم القوة العسكرية الضاربة التى شاركت وجاهدت واستشهدت فى سبيل الاسلام ، من مختلف العناصر من الفرس والبربر والترك ، وغيرهم من العناصر ، الذين كانوا هم القوة الحقيقية للمجتمع الاسلامى فبالإضافة إلى دورهم الضخم وتكون الجيوش الاسلامية فى غالبيتها منهم ، فقد كانوا عماد الحركة الاقتصادية والعمالية والاجتماعية فى مختلف أجزاء عالم الاسلام ، وبهم رجحت كفة القوة المناوئة للنظام الأموى ، وهى التى أضافت إلى طلاب الحكم والمتآمرين على الحكومة الأموية قوة شعبية ضخمة فى الأطراف البعيدة حيث كانت تجرى حركة الانتقاض التى شاركت فيها عناصر آل البيت (العلوية العباسية معا) وعناصر الخوارج ، وعناصر الموالى ، وعناصر الناقمين من خصوم الاسلام يهودا وفرسا ومجوسا إلخ وقد كان أبرز ما حملته بيانات الحركة العباسية التى أطلقت على نفسها (الرضا من آل محمد) إلى جوار استقطاب العناصر الشعبية المختلفة حول إسم آل البيت ، كان أبرز ما حملته دعوتها هى إتاحة الفرصة للعناصر الاسلامية المختلفة للمشاركة فى النظام السياسى الحاكم ، وأسقاط هذه العزلة القاسية التى فرضتها (السيادة العربية) للمتمثلة فى الحكم الأموى بأقصى صورها . لم تغير الدولة العباسية العمود الفقرى للنظام الإسلامى الحاكم ، بل أبقته على ما كان عليه ، حكما قائما وفى أسرة و نظام توارث للعرش ، بقى هذا على ماهو عليه ولكن الذى تغير أن طابع

الحكم لم يعد عربيا بل أصبح فارسيا سمح للعناصر الشعبية وأبرزها للموالى أن تشارك فيه وأن تجد حريتها وانطلاقتها . وهنا تحول الموقف تحولا عكسيا بالنسبة للعرب فقد أخذوا يذوبون فى الكيان الإسلامى وظهر فى هذه المرحلة أدب له طابع إسلامى أكثر انفتاحا على الأدب الفارسى القديم .

غير أن هذا الاتجاه الذى غلب فيه طابع الفرس على الطابع العربى باسم إعطاء الموالى فرص الحرية والمساواة قد تحول قليلا إلى أن أصبح حملة ضارية على العرب ومن هنا برزت الحركة الشعوبية التى استطاعت تنمية هذا الاتجاه وتوسيع أفقه كجزء من جزء مخطط للمؤامرة على الاسلام نفسه . وقد كان طبيعيا أن يتحول الحكم من البيت الأموى إلى البيت العباسى فإن ذلك فى ذاته امتداد للنفوذ السياسى السائد من خلال الصراع بين أمية وهاشم ، ولقد كانت صيحة المقاومة للأمويين تركز دائما على المطالبة بعودة الحكم إلى بيت الرسول ، وهنا كان العلويون والعباسيون خصوما للدولة الأموية ، وهم المتصدرون للحكم فى الدولة الجديدة فأيهم يحرز قصب السبق .

ومرة أخرى تتغلب إرادة التطور ، بما تحمل فى طياتها من واقعية ، ومرونة ، وانفتاح على الآفاق الجديدة ، وفى مقدمتها الأفق الفارسى ، وأفق العناصر المختلفة التى تجد فى العباسيين الواجهة الأصلح ، كانت دعوة العلويين تحمل كلمة آل البيت ، وهى بالغة الأثر فى جمع الناس حولها ، غير أن دعاة العباسيين استطاعوا أن يتقدموا خطوة أبعد مدى دلت على ذكاء وسعة أفق وهى أنهم وضعوا برنامجاً سياسياً واجتماعيا أبرزوا فيه اهتمامهم بالإصلاح الإجتماعى والسياسى للطوائف المضطهدة فى ظل الأمويين ، ولا شك قد كان لسنة التحول أثرها الواضح فى سيطرة النفوذ الفارسى ونفوذ الموالى والعناصر المختلفة اجتماعيا وثقافيا ، وكان لابد أن يتم ذلك بالسيطرة السياسية. ولا شك كان أبرز عوامل القضاء على الحكم الأموى ، هو بلوغها مرحلة الضعف التى لابد أن تصيب أى بناء سياسى بعد جيلين أو ثلاثة أو عدة عقود من السنين ، وبذلك يمكن القول بأن قيام الدولة العباسية .

كان تطوراً طبيعيا وفق نواميس الحياة نفسها ومن خلال إطار الإسلام نفسه ، وخطوة واسعة فى مجال النظام الإسلامى إنتقلت من مفهوم غلبة عنصر ولو كان هو العنصر الرئيسى فى بناء الدولة الإسلامية — على العناصر الأخرى ، وبذلك وضع مفهوم الإسلام فى أنه (لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أسود) موضع التنفيذ. ولا شك كان لكسر هذا القيد ، ولفتح الطريق أمام المساواة أثره البعيد فى نمو الحضارة توسيع آفاق البناء الاجتماعى والاقتصادى والثقافى ، فقد كان للمسلمين من غير العرب دور ضخم لأحد لضخامته فى مجال الثقافة والفكر والحضارة ، قام هذا الدور ليس

باسم أجناس لها تركيب بيولوجى أوعقلى خاص بل بوصفهم عناصر انصهرت بثقافاتها فى إطار الإسلام وجرى نموها العقلى والثقافى من خلال ايدلوجية الإسلام الفكرية وبيئة الدولة العباسية .

الدولة العباسية

تعد الدولة العباسية تطوراً طبيعياً، ومرحلة متصلة بالمرحلة السابقة لها فى النظام السياسى الإسلامى، وغير صحيح ما ذهب إليه البعض من أنها نظام مستقل ، فالمجتمع الإسلامى ما زال مستمراً مطرد التطور والحركة ، لم يغير منه سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية إلا (١) انتقال مقر الدولة من الشام إلى العراق (٢) تحول القياده السياسية العليا من الأمويين إلى العباسيين ، وان استتبع ذلك تغييرا فى بعض مناهج الحكم ، أو فى تحقيق العدل لبعض قطاعات المجتمع. غير أن نظام الحكم نفسه ظل نظاماً ملكياً وراثيا ، قائما على ولاية العهد ، فى أسرة من الأسر ، ولم يتحقق بها أى تعديل فى نظام الشورى مما يقرب للسلمين من أيدلوجية الإسلام فى الشورى . وقد كان خصوم الدولة الأموية وأنصار اسقاطها هم : الشيعة والخوارج والموالى ، أما الشيعة فإن التغيير لم يحقق لها شيئاً ، وقد ظل العلويون فى ظل حكم أبناء عمومتهم يقاسون نفس الاضطهاد والأبعاد عن مراكز القيادة كما كانوا فى عهد الأمويين بل وأشد ، أما الخوارج فإن المثل الأعلى الذى تطلعوا عليه فإنه لم يتحقق .

غير أن التغيير الأكبر الذى تحقق هو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب ، فقد قامت بنفوذ الفرس ، ومن هنا فقد انصهرت القطاعات العربية فى الحكم ولم يعد لها صفة قيادية وكل ما تحقق هو أن العناصر الإسلاميه قد سيطرت وأن السيادة العربية فى المجتمع الإسلامى قد تراجعت وكما أن الدولة الأموية لم تحقق للمسلمين المثل الأعلى الذين كانوا يتطلعون إليه ، هذا المثل الأعلى المتمثل فى العدل الاجتماعى والمساواة فإن الدولة العباسية أيضاً لم تحقق هذا المثل ، ومن ثم فقد واجهت انتفاضات متعددة عليها .

توقفت فى خلال حكم العباسيين التوسع الاسلامى واستقرت الدولة الإسلامية فى حدودها التى بلغتها فى أواخر الدولة الأموية ، وكان أبرز معالم هذه المرحلة الرخاء والترف وبلوغ الحضارة الاسلامية قمة عالية ، وتوسع نطاق الفكر الإسلامى نماء وترجمة وانصهاراً ووضوحا لايدلوجيته فى مجال الفقه والفلسفة والعلوم ويمكن القول بأن مرحلة الحكم الأموى كانت مرحلة التوسع الاسلامى (الابعاد) وأن مرحلة حكم العباسيين كانت مرحلة البناء الحضارى الثقافى (الأعماق) غير أنه لا انفصال بين

مرحلتين من الحكم فى مجتمع ضخم واسع يضطرم بأسباب القوة والحياة فى مجالات الحضارة والثقافة والاقتصاد ، وإنما يمكن أن يقال أنه تطور طبيعى ، غير المجتمع خلاله خلافة وجلدة ، وأن كل البذور التى ألقيت فى التربة خلال فترة حكم الأمويين قدمت وآتت ثمارها فى العصر العباسى حتى كان الرشيد يقول للسحابة المارة : أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » وقد بلغت إيرادات الدولة العباسية فى عهده (٧٠ مليون و١٥٠ ألف دينار) (مقدمة ابن خلدون) وقد زادت فى عصر المأمون عن ذلك كثيراً . غير أنه لم يكن هناك فارق كبير فى أبهة الحكم أو الترف أو الاستقراطية التى كان يعيشها الحكام ، فان انتقال الحكم من البيت الأموى إلى البيت العباسى لم تتغير من مظاهرها ولم يقترب بها نحو مفهوم الاسلام ، بل على العكس من ذلك ربما ازدادت عمقا واتساعا . كما أن المجتمع نفسه لم يتحول عن طريقه الذى كان قد حفره وسار فيه من حيث الامعان فى الحياة الحضرية بكل مافيها من إنحلال وفساد وذندقة ومجون وإلحاد وانحرافات فى الأخلاق والعادات ، وقد رسم الجاحظ للترف فى العصر العباسى صورة دقيقة فى كتابه الحيوان (ج ٧ ص ٩١ ج ٥ ص ١١٥) وقصة عرس المأمون العباسى على بوران بنت الحسن بن سهل بالغة الحد فى الترف (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٩) لم يكن هذا الترف متفقا ولا مقبولا فى مفهوم الاسلام ولا ايدلوجيته ، بينما كانت الطبقات الوسطى والفقيرة تعانى الأذلال والفقر والمسغبة ، ومن هنا برزت فى ظـــل حكم العباسيين كامتداد لحكم الأمويين حركات مناهضة تحمل لواء العدل الاجتماعى وربما كانت تسير وراءه ، مدفوعه بخصومة التآمر على الاسلام ، ولكنها وجدت فعلا من مناقص المجتمع وعيوبه ما يدفعها إلى اتخاذه سلاحا تشهره فى وجه الحكومة العباسية . ولم يكن المجتمع العباسى يجرى كله فى مجارى الترف والانحلال ، ولكن كان كالمجتمع الأموى جماع عناصر القوة والضعف معاً ، يضم بيئات الزندقة والترف والانحلال ويضم بيئات العلم والزهادة وحلقات العلماء والفقهاء والمساجد والجامعات والمعاهد ، غير أن هذا الاغراق فى الترف قد خلق رد فعل يتمثل فى تيار جديد توسع من بعد وعمق هو تيار الصوفية الزاهدة المنعزلة عن المجتمع ، النابذة له هذا ، إلى جوار تيار النقد الاجتماعى الذى اتسع نطاقه فى خلال الحكم العباسى وبرز كثير من أعلامه الذين واجهوا الخلفاء وعارضوا الانحراف فقد كان لهؤلاء العلماء والزهاد مواقف مجيدة أمام الخلفاء وفى مواجهة موجة الترف العارمة ، تحمل طابع النصيحة البارة المخلصة ، البعيدة عن عنصر التآمر ، وظهرت فى نفس الوقت قوى جديدة تقاوم الحكم العباسى وتنتقض عليه ، عاد الخوارج مرة أخرى إلى موقف المعارضة المسلحة ، وكذلك ذهب دعاة العاطفة من آل البيت إلى موقفهم فى مقاومة الحكم العباسى لقد أزدهرت الحياة السياسية

والاجتماعية فى المرحلة الأولى للدولة العباسية ، حيث ظهر أعلام من بناة الدول فى مقدمتهم المنصور بانى بغداد والرشيد والمأمون والمعتصم ، يقول الثعالبي أن لبنى العباس فاتحة وواسطة وخاتمه فالفاتحة المنصورة والواسطة المـامون والخاتمة المعتضد ، والحق أن الدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ إلى أول حملة صليبية على العالم الاسلامى عام ٤٩٨ هـ تمثل مرحلة متكاملة هى مرحلة قيام البناء الحضارى والفكرى الأساسى فى مجال الانصهار والتبلور وهى مرحلة تتمثل فى ثلاث قطاعات متشابكة :

(١) الانصهار فى مجال المجتمع . (٢) التبلور فى مجال الفكر .

(٣) نمو المؤامرة على الإسلام وانتقالها إلى مرحلة التنفيذ : فى هذه المرحلة انفتح الطريق أمام الفرس الذين كانوا يحملون على الدولة الأموية لأنها تسيطر بنفوذ عربى وتستأثر بسيادة عربية خالصة ، فقد كان الفرس هم القوة الأولى والأساسية التى أعانت على قيام الدولة العباسية التى يمكن أن توصف بأنها « واجهة عربية وبناء من الفرس والموالى » كان لهذا أثره الايجابى وأثره السلبي ، الأثر الايجابى هو سهولة الانصهار فى المجتمع والبلورة وامتزاج العقليات والثقافات وتبلورها فى إطار الاسلام ، وأثرها السلبى فى : (١) معركة هدم الأمة العربية بوصفها سياج الاسلام ومادته وما جرى من معارك عنيفة ذهب فيها الفرس إلى تجريد العرب من كل مقومات الأمم ، وكذلك ذهب العرب إلى الدفاع عن كيانهم ومقاومة الفرس بنفس السلاح (٢) معركة مفهوم الاسلام نفسه ، وهى تتمثل فى الحملة على مفاهيمه بإدخال مفاهيم وثنية وفارسية ومجوسية كمحاولة للقضاء على القيم العليا للاسلام والقضاء عليها كوسيلة للقضاء على السلطة السياسية الاسلامية هاتان المعركتان يمكن أن يطلق عليهما اسم « الشعوبية » وقد استتبع ذلك على الصعيد السياسى ، تلك المحاولات التى جرت لنقل النفوذ السياسى من القيادة العباسية العربية إلى القيادة الفارسية ، وظهر ذلك فى حركتين كبيرتين بعد حركة « أبى مسلم الخراسانى » : هى حركة : البرامكة فى أيام الرشيد ، وحركة الفرس فى الصراع بين الأمين والمأمون . فقد اتجه الفرس بعد سقوط نفوذ أبى مسلم الخراسانى وشيعته بوصفه مؤسس دولة العباسيين ، إلى أساليب أكثر مرونه ودقة ، حتى أحصى على « جعفر بن برمك » قوله : أننا سنحول الدولة إلى الفرس بأسلوب غير أسلوب الخراسانى ، وقد وصل البرامكة فى ذلك غاية الدهاء عملوا لهذا المنهج سنوات طويلة ، غير إن القوى العربية اليقظة استطاعت استثارة الرشيد حتى قضى على نفوذهم بضربة واحدة ، غير أن هذا الصراع تجدد مرة أخرى على نحو أشد عمقا بعد وفاة الرشيد من خلال الصراع بين الأمين (وأمة عربية) والمأمون (وأمة فارسية) وانتصار المأمون ، واتجاهه إلى خراسان ، ومحاولة توليه ولى عهده (على الرضا) أمام الشيعة الموالين للفرس ، هذا الخلاف والحرب بين الأمين والمأمون . هى صورة أخرى من صور المؤامرة على الاسلام والخلاف بين عنصرى

العرب والفرس غير أن هذا الصراع لم يتوقف عند المجال السياسى ، بين مفاهيم الفرق المختلفة ، وكان لظهور الدعوات الفلسفية والباطنية والمفاهيم المستترة الخفية التى تحاول أن تتخذ لها واجهة من الدعوات لآل البيت ، كانت ترسم مخططا واسعا لصراع فكرى واجتماعى وسياسى ضخم تمثل بعد فى حركات سياسية ضخمة ، وهى ثورة الزنج ، وثورة القرامطة وثورة الباطنية وهى ثورات اتشحت بأثواب العدل الاجتماعى والدعوة لآل البيت ، وحاولت أن تقضى على السلطة السياسية العليا الممثلة فى الدولة العباسية وكان هذا الصراع كله مقدمة لضعف عام ، كشف القيادة الاسلامية أمام خصومها فى منطقة الخطر الحساسة (الحدود البيزنطية الاسلامية) حيث يكمن الخطر المتحفز دائماً للانقضاض على عالم الاسلام باسم أوربا والغرب والدولة الرومانية التى لم تنس أن الاسلام قص جناحيها وأزال نفوذها فى الشام وشمال أفريقيا .

(الدول الاستقلالية)

لعل من أبرز ما تتسم به المرحلة التى تلت نهاية الدولة الأموية وخلال البناء السياسى العباسى ظهور دول كثيرة ونظم سياسية ذات طابع قيادى باسم الخلافة فى مصر والأندلس . ظهرت ثلاث دول كبرى : السلجوقية فى فارس والعراق ، الأموية فى قرطبة ، والفاطمية فى مصر والمغرب ، كما ظهر نفوذ آخر غير نفوذ الخليفة فى مقر السلطة السياسية العليا هو نظام السلطنة وأمير الأمراء ظهرت دول استقلالية فى فارس : الزيدية والصفارية والسامانية والبويهية . وفى مصر : الطولونية ، الأخشيدية ، الفاطمية ، الأموية . وفى أفريقيا : الأغالبة ، الأدريسية ، الفاطمية ، المرابطون ، الموحدون ، الخ وفى الأندلس : الدول الأموية ، ملوك الطوائف ، دولة المرابطين ودولة الموحدين

وقد استقلت بعض هذه الدول عن الرئاسة السياسية فى بغداد ، وظل بعضها الآخر على علاقة ولاء للخلافة مع الاستقلال الذاتى لها ، كان لهذا التطور أثره فإن أفريقية الشمالية وكانت تمثل الجناح الأيسر من عالم الاسلام ، قد برزت فى هذه المرحلة ذات كيان سياسى واضح ، وهى التى تحملت أكبر مسئولية فى مواجهة أوربا والغرب باعتبارها القوة الخلفية وراء دولة الأندلس التى كانت شوكة فى جنب أوربا طوال فترة بقائها ، وظلت عمليات التآمر عليها لاسقاطها خلال القرون الثمانية التى عاشتها فى شبه جزيرة ايبريا . ولعل هذا التطور الذى حدث فى خلال الفترة التى تلت الدولة الأموية يسمح لنا بأن نقول أن هذه المرحلة هى مرحلة الدول الاستقلالية : هذه الدول التى كان لها أبعد الأثر فى توسيع نطاق الحضارة والثقافة .

(١٢)

المؤامرة على الإسلام

لم تكن المؤامرة على الإسلام أمراً مستغربا ، بل على العكس من ذلك كان أمراً طبيعياً ، فإن أى قوة جديدة من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وتفرض كيانها ، فإنما تقيم هذا الفعل على أرض الواقع ، مؤثرة فى الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالإزالة أو بالتحويل ، ولم يكن فى الإمكان أن يقوم هذا الفعل فى فراغ ، ولذلك فقد كان لابد له من رد فعل .

ومن هنا كان للإسلام رد فعل بعيد المدى فى البيئات المختلفة ، التى سيطر عليها والأديان التى واجهها ، والقوى الحاكمة التى أزالها ، لقد قاوم الوثنية والمجوسية وأزال امبراطورية الفرس ، وأجلى الامبراطورية الرومانية عن مناطق استعمارها فى الشام ومصر وأفريقيا . ومن هنا كانت مقاومة الإسلام بالحرب هى العمل الأول الذى واجهه بحركة التوسع البارعة التى أقامت عالم الإسلام فى أقل من نصف قرن ، غير أن الخطر بعد توقف أعمال التوسع كان يتمثل فى مقاومة ذات واجهتين . ١ — مقاومة خارجية تتمثل فى أوربا والغرب وتتمثل فى دائرتين . (ا) مقاومة الفرنجة فى الأندلس ومن حولها . (ب) مقاومة البيزنطيين فى حدود عالم الإسلام من الشمال ، وهى مقاومة لم تتوقف طوال القرون الأربعة عشر وإلى اليوم . ٢ — مقاومة داخلية وتتمثل فى القوى التى سقط نفوذها السياسى والدينى من الفرس والمجوس واليهود وقد بدأت هذه القوى عملها منذ قيام الدولة الإسلامية فى عهد (عمر) وتمثلت أولى صور هذه المؤامرة فى مقتل الخليفة الثانى بخنجر أبى لؤلؤة المجوسى الفارسى . وفى الأزمة العنيفة التى تحركت فى أواخر حكم عثمان وامتدت خلال خلافة على وهى أزمة ذات طابع دقيق ، حتى ليمكن القول بأنها قد أحدثت فى الإسلام منذ ذلك الوقت صدعا لما يلتئم . فقد تحركت القوى المختلفة تناضل من أجل مفهوم النظام السياسى للدولة الاسلامية . ولم تتوقف منذ ذلك الوقت حركة الانتقاض : على الدولة الاسلامية أو التآمر على الاسلام ، وقد تداخلت هذه الحركات ، بين طلاب الحكم وطلاب العدل وبين حركات استهدفت فعلا القضاء على الاسلام نفسه .

الفرس والعرب

ويمكن القول بأن المعركة بين نفوذ العرب ونفوذ الفرس كانت أبرز معالم هذا الصراع وكانت مشاعر الأقوام الفارسية شديد الحساسية بالنسبة لسيطرة العرب ، وخضوع بلادهم للسيادة العربية ، وقد قام هذا الاحساس على أساس الخلافات القديمة بينهما ، وفي ظل الشعور الذى كان يغمر الفرس بأنهم أصحاب حضارة وسلطان ولغة وتقاليد ، ومن هنا كان عملهم الدائب لنصرة العباسيين وتأييد دعوتهم للقضاء على الأمويين .

ولاشك كان مفهوم الاسلام لا يسمح بقيام أى نوع من أنواع الاستعلاء بين العناصر التى جمعها الاسلام تحت لوائه ، ولذلك فقد كان قيام الدولة العباسية تطوراً طبيعياً إزاء موقف الدولة الأموية المجافى لمفهوم الاسلام فى المساواة بين العرب والفرس ، غير أن قيام الدولة العباسية لم يحقق أثره فى نفوس طلاب الحكم الطامحين والمغامرين من الفرس الراغبين فى إعادة السيادة الفارسية ، ومن هنا كانت المحاولات المتوالية للقضاء على الرئاسة العربية العباسية للدولة بمؤامرات المتوالية أبرزها : مؤامرة البرامكة ومؤامرة ولاية عهد المأمون . كما تمثل هذا الصراع فى الحلة العنيفة التى شنها الفرس على العرب واتهامهم بكل نقيصه والانتقال فى مجال الحملة من العرب إلى الاسلام نفسه كمحاولة للقضاء على الاسلام « فكرة ودولة » . ومن هنا كانت مؤامرات : الزنج ، القرامطة ، الباطنية ، وهى مؤامرات تسترت باسم آل البيت كذبا ، وكان طابعها فارسيا ، والواقع أنه لا يجوز إطلاق القول فى نسبة هذه الحركات إلى الشيعة ولا إلى الفرس ، بدليل أن المدافعين عن الاسلام من الفرس كانوا بحيث لا يحصيهم العد ، مدافعين عن الاسلام واللغة العربية . وتاريخ العرب . ومقومات الفكر الاسلامى . كذلك لا يمكن أن تنسب هذه الفرق — التى تحمل شعار آل البيت والتى انحرفت فى مفهومها — إلى الشيعة ، فقد كان الفرس قوة من قوى الاسلام وما تزال بعيدة الأثر فيه ، لا تختلف مع السنة فى أى من أصول الاسلام وإن اختلفت فى بعض الفروع والمسائل وقضايا الحكم والشريعة ، فلابد من التحرز فى نسبة مثل هذه الحركات إلى الشيعة أو الفرس بعامة .

وقد كانت أغلب هذه الحركات تحمل طابع الدعوة إلى « العدل الاجتماعى » كالزنج والقرامطة ، ولكنها كانت فى الأغلب دعوات متآمرة فى أهدافها مهما حملت من شعارات فقد دادها خصوم الاسلام من مجوس ويهود وأصحاب النفوذ القديم من الفرس ، ولكنها كانت تستغل جوانب من النقص كانت فى حقيقتها مجافية لمفهوم الاسلام ولو طبق مفهوم الاسلام فى العدل الاجتماعى

والمساواه بين العرب وغير العرب لضعف اتجاه الخارجين على الاسلام ولما وجدت مثل هذه الشعارات مكانا أو تقبلا ، ولو خلت القيادات السياسية من طابع التعصب والانحراف والاستئثار بالنفوذ والثراء لأوليائها ، وكانت أكثر قدرة على الاستجابة لصيحات التحرر وطلاب العدل الاجتماعى لما استطاعت مثل هذه الحركات أن تجد من يستمع إليها أو أن ينضوى تحت لوائها. غير أن أغلب هذه الحركات كانت تستهدف أساساً إسقاط الاسلام بإسقاط دولته ، وكانت تعلن العودة إلى الوثنية والمجوسيه والثنوية والزردشية والمانوية وعبادة النار ومن هذه حركة بابك والأفشين وكان بابك الخرمى ، قد راسل ملك بيزنطة وأغراه يغزو بلاد الاسلام فسار هذا الملك وأوقع بالمسلمين ، وقد نقلت عن الأفشين أمور تكيد للإسلام وتجهد فى هدم الدولة ، فقد كتب إلى مازيار ملك أشروسنة يقول . أن هذا الدين يعنى الاسلام أن إتفقنا أنا وأنتم محونا أثره ونعود إلى دين آبائنا العجم (يقصد المجوسية) . وقد قاوم المعتصم هاتين الحركتين مقاومة شديدة وأنفق فى عام واحد — عام ٢٢١ — ألف ألف دينار . والخرمية حركة فارسية حاولت أن تعتصم ببرامج اقتصادية لتخفى هدفها الاساسى وهو التخلص من حكم العباسيين ومن الاسلام وإرجاع مجد فارس والدين المجوسى بشكل ما. وجاءت ثورة الزنج ٢٥٦ هـ واستمرت حتى ٢٧٠ هـ . ثم اندلعت ثورة القرامطة ٢٧٧ هـ التى كانت مرحلة تالية لثورة الزنج فقد انتشرت الدعوتان فى محيط الفلاحين،هذه القوى التى كانت تعيش فى جنوب العراق وبادية الشام وتمثلت هاتين الثورتين مقاومة النظام الاجتماعى والاقتصادى القائم فى ظل الدولة العباسية، كما كشفت عن قسوة الحياة التى كانت تحياها هـــذه الطبقات من العاملين فى أراضى الاقطاعيين .

غير أن هاتين الثورتين لم تصدرا عن منهاج اسلامى أساسى يتيح لهما صفة البقاء ، وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية فى العنف والتدمير ، إذ قام الداعون إليها بفظائع لاحدلها ، فقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادعوا الانتساب إلى الشيعة واستهدفوا القضاء على الدولة . وقد دمرت ثورة الزنج كثيرا من المدن الهامة كالبصره والأبله ، غير أن هاتين الحركتين لا تخليان القيادة السياسية للدولة الاسلامية من مسئوليتها إزاء استخدام هذا العدد الضخم من العبيد فى مزارع الاقطاعيين بأجور تافهة . وقد جلبوا من شرق أفريقيا وحشد الألوف منهم فى أوضاع سيئة ، بما يخالف مبادىء الاسلام . أما « القرامطة » فقد بعدت حركتهم عن مفاهيم الاسلام بعداً شديدا ، بل حاولت أن تتهم الاسلام بأنه مصدر استعباد الجماهير ، ولم يكن ذلك فى الواقع هو مفهوم الاسلام ، ولم يكن تطبيقه هو مصدر الظلم ، بل على العكس من ذلك ، كان التخلف عن أيدلوجيا الاسلام التى قامت على العدل الاجتماعى والمساواة ، هو مصدر قيام مثل هذه الثورات . وقد صاغ القرامطة دعوتهم فى

مفاهيم المجوسية والثنوية والوثنية فادعو أن الجنة هى الدنيا ونعيمها، واعتمد حمدان قرمط فى دعوته على مفاهيم حركة مزدك المجوسية التى قامت فى العصر الساسانى، كما استغل القرامطة تكتل أهل الحرف ووجهوه لهدم الدولة العباسية والقضاء عليها فأوقدوا فيها نار التذمر. وحملت «الحركة الباطنية» نفس مفاهيم الحركة البابكية الخرمية، مستهدفة القضاء على حكم العباسيين وعلى الاسلام وإرجاع مجد فارس القديم والمجوسية، ووجدت أرضا خصبة فى الطبقات العاملة والفقيرة فى سواد العراق من الأنباط والفرس والسريان ولذلك وجهت خصومتها إلى «الدين» واعتبرته مصدر الشقاء، ومن هنا جاربت مفهوم الدين اصلا واحلت بدلا منه مفهوم الفلسفة، ولما كان أهل المناطق التى وجهوا إليها دعوتهم تؤمن بالاسلام ومن الصعب حملها على خلعه، فقد اتجهوا إلى طريقة التأويل أو علم الباطن، وكان الباطنية «قادرين» على تعديل وسائلهم بما يناسب الوسط مع الاحتفاظ بالأساس والهدف الذى يرمون إليه وهو القضاء على الاسلام معا، ودولة الاسلام، وكانت الحركة القرمطية أحدى حركاتهم وقد اتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنضم إليها باعتناق مذهبها، وذلك بدعوى أن من يموت فى سبيل غايتها ينتقل إلى الجنة فكانوا يخدرون الشباب بالحشيشة ثم ينقلوهم إلى حدائقهم الجميلة فإذا استيقظوا وجدوا أنفسم فى ذلك الفردوس المصنوع، وقد خدعوا كثيرا من الشباب بهذه الوسيلة وازداد نفوذ الحشاشين قوة وخاصة فى فارس والعراق، ومن أكبر معاقلهم فى «قلعة الموت» قرب بحر الخزر، وقد أنهى المغول سلطانهم الذى ظل يهدد الدولة العباسية أكثر من قرن ونصف قرن. وهكذا مرت حركة التآمر على الاسلام باسم الاسماعيلية والباطنية والحشاشية، بصور وأشكال متعددة، وكان أبرز وسائلها إذاعة السخط على الدولة العباسية بالدعوة إلى حق العلويين «الشرعى» فى الحكم، بينما كانت تهدف أساساً إلى القضاء الاسلام نفسه وذلك بمزج مبادىء الأديان والفلسفة، واستغلالها، لخلق روح التذمر الاجتماعى مستغلة فى ذلك الطوائف والعناصر غير العربية.

وينسب الدور الأكبر فى تنظيم الحركة الإسماعلية ووضع مبادئها إلى عبد الله ابن ميمون القداح وقد اتبع أتباعه وأولاده أثره فى توسيع نطاق الحركة. ويؤكد مؤرخو الغرب أمثال دى ساسى وديخوج بوجه خاص وجود دافع سياسى لدى عبد الله ابن ميمون القداح هو رغبته فى القضاء على سلطان العرب وعلى الاسلام الذى جلب إليهم تلك السلطة وإرجاع مجد فارس القديم مرة أخرى. ويؤكد الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه العصور العباسية المتأخرة القول: بأن القداح أراد أن يقوض الاسلام فأشعل الشعور الشيعى عند الجماهير، وكون المذهب القرمطى المؤدى إلى الالحاد

واستغل اسم إسماعيل بن جعفر (الصادق) فى إثارة حركة وشعبية قوية تنقل الملك إلى أحد أحفاده باسم « المهدى » .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة ، (فى العراق والبحرين خلال القرن الرابع) والحشاشين والباطنية فى (سورية وإيران خلال القرن الخامس والسادس) كانت لهم دعوة فى كل زمان مقالة جديدة بكل لسان (الشهرستانى) وأهم مبادئهم مبدأ (الباطن) الذى كان من أبرع الأساليب وأدهاها وأقدرها على التأثير بين جماعات مختلفة المذاهب والأديان ، فهم يقولون بأن لكل ظاهر باطنا ولكل تنزيل تأويلا ، وأن الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب . وقد تأولوا آيات القرآن وسنن النبي ، وقالوا أن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف وأن جميع ما استعبد الله به العباد فى الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة وتحتها معان هى بطونها وعليها العمل وفيها النجاة (ابن الجوزى) ويرى الباحثون والمؤرخون أن غايتهم الأساسية سياسية عامة ، وأن تطبيق التأويل كان خير وسيلة لاستخدام الكتب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم فى جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة (الدكتور الدورى) والأثر الفارسى القديم ظاهر فى تضاعيف هذه الدعوة ومفاهيم الثنويه والمجوسية واضحة فى جوهرها ، مما يؤكد أن هدفها كان ضد الإسلام أساسا وأنها كانت حلقة من المؤامرة على كيان الإسلام ودعوته .

وقد أكد البغدادي : أن الذين وضعوا أساس الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم وقال « لا تجد على ظهر الأرض مجوسيا ألا وهو مواد لهم (أى للباطنية) منتظر لظهورهم على الديار . وقد قاومت السنة هذه الحركة مقاومة ضخمة ، وواجهت مفاهيمها وردت عليها ونقضت شبهاتها وأكد المؤرخون أنها حركة معادية الإسلام ناشئة من دين أجنبي بحسبانها حركة فارسية إيرانية ضد العرب وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالراوندية والخرمية والبابكية وامتداد لها . وقال الدكتور الدورى : أنها تمثل نمو مبادىء المزدكية التى تطورت بظهور الإسلام واكتسبت ثوبا إسلامياً . وقال ابن الجوزى (أحد كبار المؤرخين المسلمين) أو المزدكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية « حركة واحدة » . والمعروف أن فكرة التأويل مانوية وفكرة الحلول والرجعة والتناسخ من آراء الغلاة ، والثنوية من تعاليم مزدك ، الداعى إلى استباحة الأموال والأعراض . وتمد حركة اخوان الصفا على نفس الخط ، وهى محاولة للتآمر على القيادة السياسية والإسلامية عن طريق نشر مفاهيم فلسفية تجمع بين مفاهيم المزدكية والبابكية .

ويروى مؤرخو السنة أن الباطنية كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان وخاصة عن الإسلام ليتركوا لهم الخيار فى اتباع أى مذهب وخاصة المذاهب الفلسفية والمجوسية ، وترك مراسم العبادة الإسلامية (أى رفض الظاهر) . ويقول الدكتور الدورى : أن الدعوة الباطنية (الاسماعيلية) كانت تهدف قبل كل شىء إلى احداث ثورة اجتماعية ولما كان الإسلام هو أساس النظام القائم فقد حاولت هذه الدعوة بطريقة التأويل والتنشىء توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان فى جو من التعاون لتقويض المجتمع وإقامة آخر .

وقد هاجم الإمام الغزالى « الدعوة الباطنية » وما جرى على يديها من ترويع وإرهاب وسفك دماء . وبينما كان السلاجقة يكافحون الباطنية بوصفها خطراً سياسياً كان الغزالى يكافحها من حيث أنها انحراف عن مفهوم الاسلام ومقوماته . فكشف فى كتابه « فضائح الباطنية » عن بدعهم وضلالتهم وفنون فكرهم ووجوه استدراجهم الناس . وقد اعتبر الغزالى : الباطنية ، والقرامطة ، والقرمطية ، والخرمية : والاسماعيلية ، والسبعية والبابكية كلها فرقا خارجة عن مفهوم الإسلام . وعلل سبب تلقيبهم بالباطنية بأنهم يدعون أن للقرآن « باطنا » وقال أن هدفهم الأكبر هو ابطال الشرائع وهم المنسوبون إلى حمدان قرمط ، وبابك الخرمى . وقد استطاع خط الدفاع عن الإسلام الكشف عن نوايا هذه الدعوة ، فى مواجهة تواطؤ المجوس والمزدكية والثنوية الملحدة والاحدة الفلاسفة على هدم عقائد الإسلام ، فى نفوس معتنقية ، على أن يتخذوا هذه الدعوة فى إطار من السرية مستغلين فى ذلك الركون إلى طائفة يثق بها المسلمون وهم آل البيت ، ولما لم يكن من الممكن إعلان هذه الدعوة إلا بوسيلة خادعة لجماهير الناس ، اتخذ الباطنية منهجا سريا مكونا من تسع درجات ، وقد تجمع فى فى نطاق هذه الدعوات الموتورون الذين ملأ الحقد نفوسهم من أبناء الأكاسرة والدهاقين ، والروافض والملاحدة والثنويه ومن استولت عليهم الشهوات ودفعتهم — هذه المطامع المتباينة إلى التجمع تحت لواء الحركة الباطنية التى قامت على تأويل معانى الشريعة .

(١٣)

حركة الدفاع عن الإسلام

(١)

أبرز ما تتسم به مرحلة « البلورة والانصهار » أنها كانت المرحلة التى جاءت بعد « بناء عالم الاسلام وتوسعاته » فعندما توقفت حركات التوسع بدأت مرحلة الترسيب وحضانة القيم الجديدة ، ذلك أن الاسلام قد أزال القوى الحاكمة التى وقفت فى طريق دعوته وأتاح للشعوب التى إنضوت تحت لوائه نظاما جديدا قوامه : « التوحيد — العدل — المساواة » جاءت بديلا من الأوضاع الظالمة القاسية المضطربة التى كانت تعيش فيها الأقطار والأمصار ، غير أن الاسلام لم يفرض نفسه على هذه الشعوب كعقيدة ، بل ترك لها حرية تقبله عن إقتناع أو البقاء على عقائدهم ، ومن ثم نشأت بعد توقف حركات التوسع محاورات ضخمة ومجادلات واسعة فى كل أقطار الاسلام ، فقد أتاح الاسلام لأهل الأديان الأخرى من مجوسية ومسيحية ويهودية الدفاع عن معتقداتهم ، وكان المسلمون يردون على هذه المناظرات ويدخلون فى مساجلات مع أصحابها على أساس فلسفى جدلى ، ومن هنا كانت الفلسفات سلاحا أخذ به أصحاب الأديان الأخرى ولم يكن ثمة سبيل إلى تجاهل هذا السلاح للدفاع به عن الاسلام إذ كان لابد للمسلمين أن يكونوا على مستوى السجال والجدل ومن هنا ظهرت طائفة « المعتزلة » .

وكان لابد للمسلمين من علماء وفقهاء بعد أن هدأت « حركة التوسع » ، من الدعوة إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ـ فكانت القوى التى تستمع اليهم تتعرض إلى ذكر الحجج والبراهين التى تعرفها عن الأديان الأخرى (المجوسية واليهودية والمسيحية) وكان كل من هذه الأديان قد تسلح من قبل بالمنطق السريانى والفلسفة اليونانية يستخدمها فى الجدل ، وإذا كان عصر الأمويين هو العصر الذى تكاملت فيه حركات التوسع حتى وصلت من السند وبخارى وسمرقند إلى كاشغر على حدود الصين ، ووصلت من الأندلس إلى حدود فرنسا ، فقد كان عصر العباسيين هو العصر الذى ترسبت فيه قيم الإسلام ومفاهيمه فى هذه الجماعة الضخمة التى تنوعت أديانها وتنوعت لغاتها وتنوعت أجناسها ، فبدأت تنصهر فى بوتقة واحدة ، هى « بوتقة الاسلام » حيث أخذت ثقافتها وفلسفاتها

وعاداتها وقوانينها ونظم مجتمعها تتبلور فى « إطار الإسلام » وتخضع لمفاهيمه وقيمه الأساسية ، وكان الاسلام بسماحته وسعة أفقه ومرونته قادراً على تقبل خير مافى هـذه الثقافات والفلسفات والقوانين وعادات المجتمع ونظمه وصهرها فى مفاهيمه وفق الخطوط العامة لأيدلوجيته ، ورد كل ما يتعاوض مع هذه المقومات وقد كان للنظام السياسى للدولة العباسية ، والصبغة الهاشمية المتصلة بآل النبي أثرها فى تحقيق قـدر كبير من النجاح فى سبيل اعتناق أغلبيـات ساحقة من عناصر المجتمع الاسلامى للإسلام عن اقتناع ، فقد وجد كثير من النـاس فى الاسلام وبساطته وسماحتـه مادفعهم إلى اعتناقه تحرراً من العقائد التى أصابتها الوثنية والفلسفة اليونانية بالتعقيد وما احتواها من اضطراب .

وسعى فى هذا السبيل المحدثون بمناهجهم السمحة القريبة إلى القلوب ، والمعتزلة (المتـكلمون) بأساليبهم الذهنية المقنعة للعقول ، فوجد الإسلام طريقان متصلان بالقلوب والعقول ، هذان الطريقان معاً ـ يمثلان مفهوم الاسلام الذى يقوم على التكامل والشمول والوسطية ، ويخاطب العقول والقلوب جميعا . وقد استعان المحدثون بالقرآن والسيرة والحديث النبوى والمغازى يعرضون تاريخاً مليئا بالعزة والسماحة والبطولة والإيمان والعدل والمساواة ، واستعان المعتزلة بالجدل والمناظرة والمنطق ونظروا فى كتب الديانات الأخرى من مجوس ونصارى ، والمذاهب من مجبرة ورافضة ومانوية وقد نجحت هذه الحركة نجاحا بالغ النظير فقد تحول كثيرون من أديانهم إلى الاسلام ، وأسلم على أيدى المعتزلة كثيرون ، حتى قيل أنه أسلم على يد أبى الهذيل العلاف وحده وهو رأس المعتزلة أكثر من ثلاث آلاف رجل ، كما أسـلم على أيدى المحدثين كثيرون ممن يرونهم القدوة والخلق والمثل الأعلى ، وقـد أسـلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من النصارى والمجوس واليهود ، كما كان لدعاة الوعظ والتصوف أثرهم البعيد المدى ، أمثال أبى قاسم الجنيد ، وأبى الفرج ابن الجوزى .

وكان الخلفاء العباسيين فى هذا المجال دور واضح ، فقد نشط كثير منهم للدعوة إلى الاسلام ، وكان المأمون يـكتب إلى عماله على خراسان فى دعوة من لم يكن على الاسلام من أهل (ماوراء النهر) يستميلهم بالرغبة ، فإذا وردوا بابه شرفهم وأنعم عليهم بالاعطيات والأرزاق ، وصار المعتصم لله على نفس الخطة ، فغلب الإسلام على أهل ماوراء النهر من السند والأشروسنة وأهل الشاش ، بل لقد كان المأمون يدعو إليه من يرتد ممن أسلموا ، فيناقشهم ويحاورهم ، حتى يقنعهم ، ولم يـكره

أحد من خلفاء العباسيين أحداً ولم تكن الجزية تؤخذ إلا من القادرين ، وكانت مرفوعة عن المسكين ، والأعمى ، ومن لاحرفة له ، ومرفوعة كذلك عن الرهبان فى الديارات والشيخ الكبير ولم تكن تزيد عن ٤٨ درهما للغنى و٢٤ درهما للوسط و١٢ درهما للعمال والصناع فى العام (الخراج لأبى يوسف) ومن هنا لم تكن هذه الجزية اليسيرة بدافعة أصحابها إلى ترك أديانهم إلا عن إيمان واقتناع وتفضيل .

(٢)

المعتزلة والدفاع عن الإسلام

أتصور حركة التآمر على الاسلام وقد أتيحت لها الفرصة لأن تبرز فى خلال حكم العباسيين من خلال قضية الموالى والصراع بين العرب والفرس . لقد برز ذلك التيار فى صور متعددة من خلال مراحل متوالية . لقد كان للترجمة وانتشار الفلاسفة وتعدد النظريات الفارسية والمجوسية واليونانية القديمة بما تحمل من وثنية وثنائية ، داعيا إلى ظهور المعتزلة كمدافعين عن الإسلام بنفس الأسلحة ، فقد برز فريق من الذين دخلوا الاسلام مستهدفين بث أفكارهم وفلسفاتهم ، كوسيلة لهدم الاسلام ، كان أخطر هؤلاء ممن أدال الإسلام نفوذهم : الفرس واليهود ، ولم تلبث أن ظهرت شعارات وكلمات منحرفة عن مفهوم الاسلام ، كانت هذه المعانى قد عرفت فى محيط الإسلام منذ حمل عبد الله بن سبأ لواء الدعوة إلى بث مضامين المجوسية فى الاسلام عن طريق الوصاية والرجعة وغيرها . وقد انتشرت هذه المفاهيم وأثارت الفتن ، حين زعم « ابن السوداء » أن عليا إله وأن الجزء الالهى يحل فى الأئمة ، وقد جاهده الامام على ونفاه إلى ساباط المدائن ، وحرق بعض أتباعه ، ومن أتباع ابن سبأ ظهرت فرق الغلاة « السبيئة » وبدأ ذلك الخط الدقيق من المؤامرة على الاسلام ، هذا الخط الذى اتسع من بعد ، حين توسع فى استخدام أفكار الفلسفات والأديان القديمة ولم يلبث مثقفو المسلمين أن اصطنعوا نفس السلاح ، وظهر « المعتزلة » كأقوى قوة فكرية فى هذا المجال ، فكان لهم فضل الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية ، وفى مقدمتهم واصل ابن عطاء ، والنظام ، وأبو الهذيل العلاف ، والجاحظ والجبائى .

وقد كان عمل المعتزلة فى هذه الفترة من صميم الدفاع عن الاسلام ، بإعطاء العقل مكانة فى مفهوم الاسلام ، غير أن المعتزلة تطورت من وغالت فى مكانة العقل وبعدت بذلك عن مفهوم الشمول والتكامل والوسطية فى الاسلام ، هذا المفهوم الذى يمزج بين العقل والقلب ، فانحرفت عن مفهوم

الإسلام الشامل الجامع ، وبلغ ذلك غاية الاضطراب حين تدخلت الدولة ففرضت مفاهيم المعتزلة على الناس ، غير أن خط الدفاع عن الإسلام لم يلبث أن تطور حين ظهر رجلان من أبرز رجاله هما : الأشعري والماتريدى . أما الجاحظ فقد كان عليما بأساليب الكلام وطرق الجدل مع الإلمام بالديانات والمذاهب الكلامية والمنطق ، فقد رد الجاحظ على المشبهة والنصارى واليهود ودحض شبهاتهم هذا فضلا عن دوره فى مواجهة الشعوبية والرد على دعاتها . وقد قاوم المعتزلة البدع والخرافات التى أخذت تدخل على مفاهيم الإسلام وتسيطر على عقول العامة واستأصلوها ، إيمانا منهم بخطرها فى الزحف على أصول الإسلام ومقوماته الأساسية ، وفى مجال العقائد الفلسفية المثارة ، استطاع المعتزلة أن يواجهوا جدل أهل الأديان الأخرى وأهل الفلسفات بنفس أسلحتهم ، وكان لهذه الحركة أثرها فى إحاطة الإسلام بدرع قوى فى مواجهة خصومه . وكان المعتزلة أول من أدخلوا الفلسفة فى الإسلام محاولين التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأطلق على مناهجهم التى استعملوها « علم الكلام » أو فلسفة الدين أو علم التوحيد ، وقد ظل أهل السنة بعيدين عن هذا المجال ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى الذى كان من أنصار المعتزلة ، ولم يلبث أن خرج عليهم حين انحرفوا عن الهدف الأول وقاومهم بنفس أسلحتهم ونصر مذهب السنة واصطنع أساليب « علم التوحيد » فى مناصرة أهل الحديث فى البحث والمناظرة والاستدلال .

ولقد كان لهذا الخطر الذى امتد من المعتزلة كمدافعين عن الإسلام بأسلحة الفلسفة فى وجه خصومها، ثم تطورها على يد الأشعرى والماتريدى إلى الدفاع عن السنة والحديث ، كان لهذا العمل أثره الذى لا حد له فى ازدهار الإسلام وعلومه ، كما مهد لظهور المذاهب الفقهية . وكان أبو الهذيل العلاف أول متكلم إسلامى تأثر بالفلسفة ، وهو من أوائل من ناقشوا أصحاب الملل الأخرى من المجوس واليهود والمسيحيين ، وكانت البصرة موطن أبى الهذيل فى هذه الفترة تموج بتيارات مختلفة تحاول أن ترد الإسلام وكتابه عن المكانة التى بلغها وتدافع عن دياناتها ومذاهبها وفلسفاتها وتواجه هذا الدين الجديد بسلاح الجدل ، وكان الاسلام من قبل بسيطا سمحا ، وكانت الديانات القديمة قد تفلسفت وتأثرت بالفلسفة اليونانية بالذات التى انتشرت فى الشرق منذ فتح الاسكندر ، وكان الفرس — هم القطاع الثانى من الاسلام بعد العرب فى هذه الفترة — قد عرفوا الفلسفة اليونانية ، وكان اليهود والنصارى والمجوس قد تأثروا بها جميعا واتخذوا سلاحا للمحافظة على دياناتهم ، ومن هنا كان اتجاه المسلمون إلى الأخذ بسلاح الفلسفة اتجاه ضرورة لا معدى عنه ، وقد أدار « أبو الهذيل العلاف » مجالس المناظرة التى كان يعقدها المأمون مع أهل الديانات الأخرى ، وعرف بقوة عدله ،

وفصاحته ، فقد قرأ بدقة مختلف هذه الديانات وتبحر فى الأدب العربى وحفظ كثيراً من الشعر العربى ، وكان أبو الهذيل مقتدراً على توجيه الجدل والرد على كل الشبهات والانتصار فى النهاية ، وذلك لمحض قدرته على تعمق آراء الفرق المخالفة للإسلام وعلمه بالشبه التى تثار حول القرآن والاسلام والخام مثيريها . وكان ذلك الجدل الحر المنطلق هو أروع ما عرف فى سماحة دين ، يسمح فى مجال حكمه وفى ظل دولته بالجدل ويتيح لأصحاب الأديان والمذاهب المختلفة حرية الدفاع عن معتقداتهم ، ومن قبل أظلهم بظله دون أن يفرض على هذه الطوائف الانتقال إليه قسراً ، بل سمح لهم بأن يقيموا شعائرهم فى حرية ، ومن هنا وفى ظل الحرية المتاحة ، بقى كثير من أصحاب الأديان الأخرى على عقائدهم القديمة مخلصين لها .

ثم كان لهم من بعد أن يطمعوا فى تحويل المسلمين إليها ، وكان من المسموح به أن يتحدث حبر عن يهوديته وقسيس عن مسيحيته ، وكان أبو الهذيل يناقش هؤلاء ويجادلهم ، وبلغ من أمر هذه الحرية أن ألف « يحيى الدمشقى » كتابا يعلم فيه المسيحى الدفاع عن دينه وعمله عن طريق السؤال والجواب ، فيقول : إذا قال لك المسلم كذا فقل له كذا ، وكانت هذه الفترة — بعد أن توقفت أعمال التوسع — مرحلة انصهار واسعة وبلورة ضخمة للفكر والمجتمع الواسع الضخم ، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية وانتشارها أثرها فى خلق هذا الجو الجديد ، وكثيراً ما كانت هناك محاولات لاتخاذ هذه الفلسفات والمواقف وسيلة للتآمر على الاسلام ولقد كان المعتزلة فى مرحلة من مراحل حياتهم الفكرية « دعاة الدفاع عن الاسلام » وحملة لواء الذود عنه ، غير أنهم مع ثقافتهم الواسعة وبراعتهم لم يتعمقوا الاسلام ، ة ووقفوا منه عند حدود الجانب العقلى وأسرفوا فى تقديره ، وكانت تلك نقطة الضعف : الاسراف فى تمجيد العقل والايمان الذى لا حد له باقتداره » فقد رأوا أن العقل البشرى قد منح من اليقظة والسعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى :

هنا برزت ظاهرة التجزئة فى مواجهة قانون التكامل فى مفهوم الاسلام ، هذا القانون الذى يقف فى وجه كل فكرة متقدمة إذا بلغت درجة الانحراف ، لقد بلغ المعتزلة درجة الانحراف حين أغفلوا تماما جانب القلب ، والاسلام بوصفه أيدلوجية يقوم على الشمول والتكامل والوسطية ، وعلى القلب والعقل معا ، فإن الايمان بالعقل وحده وإعلائه إنما يمثل انحرافا بالاسلام عن مفهومه الذى لا يجعل الاعلاء لشىء سوى الله وحده ، ولقد أخذ على المعتزلة كثير من المؤرخين والباحثين أنهم حاولوا إخضاع العقائد الاسلامية للعقل وحده ، وكان هذا اتجاها خطراً على مفهوم الاسلام

المتكامل ، وأنهم أفرطوا فى قياس الغائب على الشاهد ، وأن سيرهم وراء السلطان العقلى قد جعلهم قد جعلهم ينقلوا الاسلام إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ويحولوه إلى نهج فلسفى ، وليس الدين (أقصد الاسلام) كالمسائل الرياضية ولا النظريات الهندسية ، وإنما يجمع — دوما — بين العقل والقلب والعلم والروح . وجملة القول أن نظام المعتزلة نظام جيد التفكير ضعيف الروح ، غالى فى تقدير العقل وقصر فى قيمة العاطفة (ضحى الاسلام : أحمد أمين) . ولا شك كان الاعتزال هو الجناح الثانى للتصوف والزهد ، وكان كلاهما يستمد من مقومات الاسلام ، ولذلك كان لا سبيل أن يسرف أحدهما فيستأثر بمفهوم الاسلام دون الآخر . ولقد بلغ أمر الاعتزال غايته فى الاسراف والانحراف حين فرض نفوذا سياسيا فى عهد المأمون ، وضع الناس موضع الامتحان بخلق القرآن ، وأثار أزمة سياسية وفكرية بعيدة المدى تصدى للوقوف على رأس معارضتها الامام أحمد بن حنبل بوصفه أبرز رجال الحديث والفقه . إذ قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله لا نقول عنه أنه مخلوق أو غير مخلوق . غير أن السياسة لم تلبث أن غيرت موقفها وجاء على رأس القيادة السياسية رجل أبعد المعتزلة وقرب أهل السنة ، وكان ذلك كله مقدمة لتحول خطير فى صفوف المعتزلة ومفاهيمها وهو ظهور « الحسن الأشعرى » وكانت موجة الاعتزال قد سيطرت واستخدمت فى إثارة الشبهات فى وجه السنة ، والعقائد ، وبدأ بعض دعاتها يعبثون بتفسير القرآن ، واستعلى اتجاه تقديس العقل وتحكيمه فى كل شىء ، وبدا أن (الايمان) يتعرض لصراع مع العقليات ، هنالك برزت « شخصية الأشعرى » كقوة دافعة جديدة لتصحيح مفاهيم الاسلام والقضاء على الانحرافات التى أنتجها تحول المعتزلة . وكان الأشعرى من المعتزلة أصلا ، ولكنه آمن بالسنة ، وكانت السنة قد بلغت درجة التقليد والجمود بينما بلغت المعتزلة درجة الانحراف ، هنالك كانت صيحة الأشعرى يقظة جديدة تمزج الاعتزال فى السنة بوصفهما رمز لمفهوم الاسلام الذى يتسم « بالشمول والتكامل والوسطية » فقد أعاد صياغة الفكر الاسلامى على النحو الذى يعطى السنة أسلحــة الاعتزال لتجددها وتدافع بها عن جوهرها ، وتنشىء للفكر الاسلامى أفقا جديداً يقضى على الجمود والانحراف معا .

٣ — بلورة الفكر

أما وقد اتسع المجتمع الاسلامي وأخذت العناصر المختلفة تنصهر فيه : عرب وترك وفرس وبربر، كما أخذت الثقافات والفلسفات والأديان تتبلور فيه ، فقد كان من الضروري أن يبرز تحد خطير في مواجهة مفهوم الاسلام ، ذلك هو موقف الفكر الاسلامي من القانون الروماني والفلسفة اليونانية ، ومن الحكمة الفارسية ، ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ، ومن أهداف الوثنية والمجوسية والمانوية ، فمن خلال الانصهار والتبلور جرت حركة التزاوج في مجالي الأجناس والأفكار وعملية التوليد : الاجتماعي والعقلي ، فكان ضروريا في خلال هذا البحر الخضم الذي يقذف بالثقافات والعادات والفلسفات والأديان ، أن يبرز الفكر الاسلامي واضح الحدود والمعالم ، كاشفاً عن خطوطه العامة ومقوماته الأساسية ، لتكون الإطار الذي تلتقي فيه هذه الثقافات جميعها وتنصهر ، وقد زاد هذا التحدي قوة : توسع حركة الترجمة من الفارسية واليونانية ، هذا التحدي هو الذي فرض تدوين السنة والفقه ، وتحقيق الحديث وتقنين الفقه ، وتنسيق مصادر التشريع الاسلامي .

وهناك حقيقة هامة هي أن « أيدلوجيا الاسلام » قد تمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن مقومات الفكر العربي الاسلامي قد تمت قبل الترجمة من اليونانية والفارسية . وقد أثمرت هذه الحركة الضخمة عملين كبيرين : (١) تحقيق الحديث والسنة على النحو الذي قام به البخاري ومسلم ومالك والترمذي وأبو داود السجستاني والنسائي وابن ماجه . (٢) تقنين الفقه على النحو الذي قام به مالك والشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل .

ومن هنا تكونت صورة واضحة لمفهوم الاسلام ومقوماته ، محققة دقيقة ، استوعبت ميراث الفكر الاسلامي منذ بدأ الرسول محمد ﷺ دعوته وما تابعها من أحكام وأحاديث وقضايا واجهها الخلفاء الراشدون وصحابة الرسول ، وما اتصل بذلك كله من أمور تتعلق بتنظيم المجتمع الاسلامي في مجال المعاملات بين المسلمين وبعضهم البعض وبين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، وقد كان خلق هذا الاطار وتكوينه ضرورة خطيرة بعيدة الأثر في هذه المرحلة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار والقضايا النابعة من فلسفات اليونان والهند والفرس ، ومن مفاهيم الديانات والمذاهب المختلفة .

كان هذا العمل الفكري الذي يطلق عليه حركة « التدوين في الاسلام » عاملا هاماً في مواجهة

ذلك السيل المتدفق من ثقافات الشعوب والأديان التى انطوت تحت لواء المجتمع الاسلامى ، فقد حدد موقفه منها ورسم لها المقومات الأساسية والقيم العليا للاسلام متمثلة فى (التوحيد ، العدل الاجتماعى والإخاء الانسانى كما أبان عن أبرز مضامين الاسلام ومقوماته وهى: «الشمول والتكامل والوسطية » بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كما كشف عن طابع الاسلام الأساسى: دنيا ومدنية، وأبرز مرونة الاسلام وقدرته على الحركة وتفتحه على الثقافات والحضارات ، ودعائمه الأساسية فى التجدد والاجتهاد والتطور على النحو الذى يجعله قادراً على الحياة والاستمرار مع تطور الأزمان والحضارات ، فى مختلف البيئات والاقطار ، فقد جعل الاسلام « الاجتهاد والاستنباط » فى مقدمة أسسه العامة حرصاً منه على مواجهة التطور ، ولم يمنع — فى حدود هذه المفاهيم والأسس — من الاقتباس من مختلف النظم الرومية والفارسية والثقافات اليونانية والهندية « تنظيمات لا نظماً » ، مادامت لا تمس هذه القيم ولا تخرج عن هذا الاطار .

وهكذا كشف الاسلام فى مرحلة التبلور والانصهار على قدرته الفائقة فى تذويب الثقافات المختلفة وصهر الفلسفات والمذاهب ، وبلورة المفاهيم بحكم أنها أساساً مفاهيم إنسانية عامة تستهدف خير البشرية ، وبذلك أبان عن طابعه العالمى الانسانى الشامل بوصفه « الحتمية التاريخية » التى تتطلع الانسانية إلى بلوغها مهما وقفت العقبات فى طريقها على مسار البشرية الطويل ، ومن هنا كشف الاسلام عن دوره الايجابى فى لقاء التاريخ ، ومن هنا تفتت الأسس التى استطاعت أن تلقى الضوء الكاشف على محاولات تحويل الاسلام عن مجراه ، أو تجزئة مفهومة ، أو عاقته عن طريقة ، أو انتقاص شموله وتكامله . على النحو الذى بدا فى حركات التآمر على الاسلام التى توالت فى هذه المرحلة .

وقد كشف الفقهاء والعلماء والمحدثون فى هذه المرحلة عن قدرتهم الفائقة ، على إنماء الفكر الإسلامى وتوسيع أفاقه بما جعله قادراً على الاستجابة للحضارة والتطور ، وذلك باستنباط المسائل وحل القضايا ووضع الإجابات السمحة للمعضلات ، واستخراج النتائج والفتاوى فى كل ما يتعلق بتنظيم التجارة وشئون المجتمع ، وقد أحصى لأبى حنيفة أنه اجاب عن ٦٠ ألف مسألة منها ٤٥ ألفا فى المعاملات (مناقب أبى حنيفة للمكى) وأورد مالك فى المدونة (٣٦ ألف مسألة) وجمعت مسائل أحمد بن حنبل فى أربعين مجلدا (الجامع لعلوم الإمام أحمد : أبو بكر الخلال) وقد سارت هذه المدارس كلها فى طريق واحد ، تتوالى على نحو متكامل وتقوم على أربعة قضايا هامة :

(١) الاجتهاد باعطاء المجتمع الحلول الفقهية لمختلف معضلاته .(٢) تصحيح المفاهيم إذا اضطرب الطريق أو خرج عن مفهوم التكامل والوسطية . (٣) الدفاع عن الاسلام والرد على الشبهات الموجهة إليه .(٤) النقد الاجتماعى للمجتمع ، ومناصحة الولاء .

ولقد ظل عمل مفكرى الاسلام طوال هذه العصور ، هو « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » وتشكيله على النحو الذى تكشف عن قدرته الفائقة فى الاستمرار متفاعلا عن التطور فى البيئات المختلفة على توالى العصور ، متقدما نحو تحقيق الحرية والعدالة والأخوة والمساواة بين بنى البشر فى ضوء التوحيد ، ولقد كان لذلك العمل بعده إلهام بالنسبة لحركة الترجمة التى أعطاها الفكر الإسلامى تقديره وثقته ، حتى اشترط الخلفاء على البيزنطيين فى عقود المهادنة والصلح ، تقديم المخطوطات اليونانية ، وقد نقلت هذه المترجمات فلسفات ونظريات لم يقبلها الفكر الاسلامى على علاتها بل قبل منها ورد منها فى نطاق مفهومه ، وفى إطار مقوماته الأساسية واستطاع أن ينتفع بالمنطق كسلاح للدفاع عن الإسلام فى مواجهة استعمال أصحاب الأديان الأخرى له .

وقد تبلور هذا العمل عن صياغة كاملة لأيدلوجيا الاسلام : السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد قامت هذه الأيدلوجيا على القرآن ، والحديث ، أما القرآن — الوثيقة الخالدة التى خلت من التحريف على مر العصور — فهى المصدر الأول ، أما الحديث فقد حوى ذخيرة ضخمة بالأحكام والمواقف والأقضية ، التى واجهت المسلمين كمجتمع خلال ثلاثة وعشرين عاما فى حياة الرسول ، هذا الحديث كان فى حاجة إلى مراجعة وتنقيح ، ونفى المكذوب منه ، وقد حمل لواء هذه المهمة أعلام أبرار ، عاشوا حياتهم كلها له ، وقد اعتمدت أساساً على الصحف التى كتبت فى حياة الرسول وحفظت لدى أوائل المسلمين ، وقد كانت هذه الجوامع والمسانيد والسنن هى الأساس للتجميع وقد قطع المحدثون وفى مقدمتهم « البخارى » أعمارهم فى السفر من أقصى العالم الاسلامى إلى أقصاه طلبا لتحقيق الحديث من أقصى المغرب إلى خراسان .

غير أن إطار الاسلام للثقافة الجديدة قد ظل واضح الأثر فى حركات النقل والترجمة والاقتباس فإن المسلمين مع كونهم ترجموا الفلسفة والعلوم والثقافات ، فانهم لم يترجموا أى تشريع أو قانون أو نظام . وفى مجال الفلسفة فان الفلاسفة المسلمين أخضعوا مانقلوا إلى مفهوم الاسلام فى التوحيد والنبوة . وقد ظل دعاة الاسلام وعلمائه وفقهائه ، قادرين دائماً على المحافظة على مفهوم الاسلام

وأيدلوجيته ، ويجب هنا التفريق بين مبادىء الاسلام وتعاليمه وبين التطبيق الذى رسمه التاريخ للقيادات السياسية الإسلامية المختلفة ، فقد ظل الفكر الاسلامى قائما حياً يدفع عن كيانه عوامل الانحراف والتجزئة والاضطراب ، ويدافع عن التطبيق ، وظلت الجماعة الاسلاميه قوية حية سليمة ، فان المسلمين لم يعودوا سيرتهم الأولى قبل الاسلام ، ولم يتراجعوا عن الاسلام بعد إذ أسلموا ، وظلت طبقات العلماء والزهاد والمجاهدون والدعاة والطبقات الشعبية تمثل مفهوم الاسلام ، لم تنحرف إلا بعض الطبقات الحاكمة والمترفة . ومع ذلك فقد ظلت الشريعة الاسلامية نظاما مطبقا فى مختلف العصور حتى أوقفها الاحتلال الغربى ، غير أن نظام الاسلام فى بعض المراحل قد أسىء تطبيقه ، ولكن هذا لايعنى أنه قد أبعد نهائياً عن مجال التطبيق .

وقد مرت مرحلة الصراع بين المذاهب والأديان والأنظمة والفلسفات وتبلورت فى صورة « فكر إسلامى عربى » له مقوماته المستمدة من الاسلام وله قدرته على التطور والحركة ، وقد عولجت على أساسه مشكلات الجماعة الاسلامية ، وقد استطاع الاسلام أن يواجه المقتبسات من الثقافات الهيلينية والفارسية وأن يصهرها فى بوتقته بحيث أصبحت فكراً عربياً خالصاً . واستطاع « الفكر الاسلامى » أن يحقق نتائج هامة :

(١) القدرة على استمرار أيدلوجيا الاسلام ، وفكره وفقهه فى مختلف الأزمنة والبيئات مع استطاعته المرنة على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة وذلك لحيويته وقدرته على الحركة وإيجابيته وتقدميته . (٢) مواجهة الصراع الفكرى والرد على المؤامرات الموجهة للإسلام . (٣) استمرار انتشار الاسلام وتوسعه وتمدده ، وتحول العناصر المختلفة فى المجتمع إلى الاسلام وفتح الاسلام لآفاق جديدة . (٤) نقد المجتمع الاسلامى ومقاومة الانحرافات من ترف وإباحة ومناصحة الحكام والولاة . (٥) تصحيح المفاهيم ، ومقاومة الانحرافات الفكرية التى تحاول تجزئة الاسلام وإقصائه من مفهوم التكامل والوسطية . (٦) إعادة صياغة الاسلام بالتجديد ورد الانحراف بكشف القيم الأساسية ودفع الاسلام فى مجراه إلى الامام مع العمل على إزالة مايحول بينه وبين الحركة ، كالتجميد أو التوقيف أو التجزئة .

(٤)

انصهار المجتمع الإسلامى

فى هذه المرحلة تمت عملية إنصهار المجتمع الاسلامى ، وقد واجهت عملية الانصهار خطوات بالغة الدقة ، فقد كانت الجماعات المختلفة فى العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، تحمل عناصر مختلفة وديانات مختلفة ، وقد تداولت عليها حضارات ومدنيات متعددة .

ولم يكن العرب حين قاموا بحركة التوسع قد عزلوا أنفسهم عن أهل هذه الأقطار ، بل أنهم إنصهروا فيها بالتزاوج والتوليد ، وكانت أبرز القضايا الاجتماعية هى : الرقيق ، أو الأسرى ، أو الموالى ، كما تعددت أسماؤها ، وكان بروز هذه القضية طبيعيا نتيجة لحركة التوسع وما يتصل بها من رق وولاء ، غير أن هذه الجماعات قد أخذت تنصهر بسرعة بعد أن دخلت بيوت العرب عناصر فارسية ورومانية وفارسية ومصرية وبربرية ، نتيجة الزواج أو التسرى ، فلما جاء الجيل الثانى لعصر التوسع حمل معه دماء مختلطة ، وقد أتاح الاسلام لعملية الانصهار أفاقا من السعة والسماحة حققت الاختلاط والامتزاج والمشاركة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فلم يكن العرب بوصفهم أصحاب حركة التوسع مستعمرين انعزلوا عن هذه الشعوب ، بل إنهم اقداندمجوا فى الأقطار منذ اليوم الأول ، مما عجل بعمله « الانصهار » ، فضلا عن أن الاسلام لم يكن يفرق بين العناصر المختلفة . كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية ، و انتظمت كل عمليات البلورة والانصهار مختلف مرافق الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ولم تمض إلا فترة قليلة خلال نظام الأمويين الذى قام على السيادة العربية حتى انصهرت القوى العربية مع العناصر الأخرى ، وفى حكم العباسيين الذى أصبح طابعه إسلاميا شاملا تعمق الانصهار وأتيحت الفرص لكل العناصر أن تقيم دولا حكومات . غير أن هذا « الانصهار الاجتماعى » قد حفظ أمرين أساسيين له : اللغة العربية والاسلام ، قد انسحبت هذه العناصر من أديانها أولا بأول كما انسحبت من لغاتها ، إذ أصبحت اللغة العربية هى لغة العلم والسياسة ، ولقدكان طابع الاسلام واضح البروز فى هذا المجتمع الجديد الذى امتزجت فيه العناصر المختلفة ، فقد ظهرت حركات النقد الاجتماعى ، ومناصحه الولاه والزهد كرد فعل على الانحرافات التى اضطرب بها المجتمع ، وفى مواجهة حركة اللهو والانحراف . وقد حملت بعض هذه الفرق لواء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

وفى مقدمتها حركتى خالد الدريوس وسهل بن سلامة الأنصارى وهم من دعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله . يقول الطبرى أنه تبعهما خلق كثير ، وقال ابن خلدون : أن الذى دعا إلى هذه الحركة هو توافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم .

ثم كانت حركة الزهــد التى قادها : عبد الله بن المبارك ، شعبان ابن عيينه ، سفيان الثورى ، الفضل بن عباد هى رد الفعل على انحراف المجمع ، وقد رفض هؤلاء عطاء الأمراء . وعندما ظهرت حركة الزندقة (الشك والإلحاد) قاومها العلماء ، والخلفاء ، يقول المسعودى أن المهدى أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين عن الدين ، ولما انتشر من كتب مانى وابن ديصان دمرقيون ، ومما ترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ويحى ابن زياد ومطيع بن إياس فى تأييد المذاهب المانوية والديصانية . كما أمر المهــدى رجال الكلام والمعتزلة بالبحث والكتابة فى الرد على الملحدين ، وقد قاموا فى ذلك بحركة واسعة دحضوا فيها شبه الملحدين . وقد اقتفى الخليفة الهادى (١٦٩هـ) نفس الطريق الذى سلكه المهدى ، فقاوم أصحاب مانى التى وصفت بأنها « فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة » كما تعقب الرشيد الزنادقة (١٧٠هـ) كما واجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم الإسلام ، من أمثال عبد الكريم ابن أبى العوجاء الذى وضع أربعة آلاف حديث مكذوب ، وحماد الراوية ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد ، وابن المقفع وقد كان دعاة الزهد ونقد المجتمع ، يواجهون هذه الحركات ويصححون المفاهيم ، ويدحضون دعاوى المضللين ، ويجدون تقديراً بالغاً لما اتسموا به من ورع وتقوى ، وعزوف عن أصحاب الجاة والسلطان . وكان سفيان الثورى مع صلاحه وورعه يعيش من تجارته ويرفض عطاء الولاة ، وكان المعتزلة فى مقدمة من تصدوا للرد على الزنادقة ، وفى مقدمتهم واصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف ، وبشر ابن المعتمد ، وابراهيم ابن النظام وهكذا واجه الإسلام كل ما جرى حوله من مؤامرات لتحريفه أو تأويله وبقى قادراً على الاحتفاظ بنقاء روحه وطابعه وسلامة شخصيته ومعالمه . كما قاوم البدع والأفكار والأعجمية والوثنية كما انتصر بالمادية والترف والإلحاد والزندقة والفلسفات حتى شك الناس فى قدرة الاسلام على مقاومة هذه الحملات ، ولكن الاسلام لم يستسلم ولم ينهزم ، وقام خلال مختلف مراحله رجال أعلام ودعاة أبرار فضحوا المتآمرين ، ورفعوا التحريف عن الاسلام ، وكشفوا عن جوهره الأصيل ، وقاوموا البدع والخرافات ودافعوا عن السنة دفاعا حاراً ، وحاربوا الوثنية والترف وجهروا بالحق فى وجه الولاة والأمراء ، وبذلك انتصر الاسلام فى هذه المعركة الضخمة خلال مرحلة التبلور الفكرى والانصهار الاجتماعى وصهر التراث

الانسانى كله فى بوتقته ، دون أن يخرج عن أصوله ومفاهيمه وأسسه . ومضت قوى الدفاع عن الاسلام وتحريره من الزيوف وتنقيته من التقاليد والبدع ، والتحريف ، وإعادة عرضه فى صورته الصادقة بما يوائم تطور المجتمعات وتحول العصور ، وظل تاريخ الاصلاح والتجديد متصلا لم يتوقف ولم ينقطع ، فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدد ، يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الاسلام الحق ، ويفتح نوافذ جديدة أمام اتصال الاسلام بالحياة ، وقدرته على الأخذ والعطاء ، وما من مجدد وعالم أو مصلح إلا وقد أضاف إضافة مهما كانت صغيرة فقد كانت ضرورة فى عصرها وجديدة ، وبذلك بنى المصلحون لبنات فى هذا البناء الضخم كشفا لجوهر خصائص الاسلام وتجديداً لاتصاله بالحيـــاة وفتحا لطريق الاسلام إلى غايته فى حتمية التاريخ : نظاما للإنسانية كلها .

(١٤)

دور الإسلام فى العلم

منذ كشف الاسلام عن مفهومه فى تقـدير العلم والعقل ، انفتح الطريق أمام المسلمين إلى آفاق البحث . فقد كشف القرآن عن منهج جديد هو « منهج البحث العلمى » والجدل العلمى ، والمطالبة بالبرهان والدعوة إلى إمعان النظر والفـكر كما حمل على المقلدين الذين يعطلون عقولهم ، وأعطى الاسلام العقل قـدرة ، ودعا إلى النظرة فى الـكون وجعل العقل أساسا للتحكيم والتفـكير فى الطبيعة ولفت النظر إلى السماء ، والأرض ، والجبال وخلق الانسان والنبات ، ودعا القرآن إلى إيقاظ العقل ورفع من شأن العلم والعلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وكانت نظرة الرسول إلى العقل نظرة واضحة وهو عنده أصل الاسلام وأساسه ومناط التـكليف ، وأن لا دين لمن لا عقل له : فالعقل أصل دينه ، وبه يتفاضل الناس ، وقال : العقل نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل ، وفضل الاسلام العالم على العابد ، خذ الحـكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمـــة .

وفى نطاق هذه المفاهيم كانت انطلاقة للمسلمين والعرب إلى مجال الفـكر والحضارة فأصبح للعلم مقامه الإسمى فى الفكر العربى الإسلامى ، وقام منهج هذا الفكر جامعا بين العقل والوجدان ، محاكة ومحاجة وتقريراً ، فلا تعارض بين العقـل والنقـــل ، وقـــد أخضعوا الأدب والفـكر للبرهان ،

وعالجوا القضايا على أساس المنطق والدليل دون أن يخل ذلك بمفهوم التكامل والشمول فى الإسلام « مادة وروح » معاً .

وقد فتح لهم هذا « الإيمان بالعقل » الذى أمدهم به الإسلام أبواب البحث العلمى والتجربة حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات العصور الوسطى، ومن ثم أبرز الاسلام تفوقاً ملحوظاً فى مجال الحضارة وساهم بدور فعال فى مختلف عناصر العلوم والفنون : الطب والصيدلة ، الكيمياء والنبات والزراعة ، الرياضيات والفلك والجغرافيا ، التجارة والصناعة ، العمارة والبحرية ، الإدارة والموسيقى والفروسية واستمد المسلمون قاعدة البحث العلمى من مفهوم القرآن أساساً ، وقد بدأ اتجاه العقل الإسلامى إلى هذا المجال مبكراً ، قبل عصر الترجمة وتجلى ذلك أولا فى مجال الفقه والتشريع والقانون ثم امتد إلى مجال العلوم ، وكان يزيد بن معاوية فى مقدمة من تناولوا هذه العلوم ، ثم كان للترجمات التى تمت فى خلال خلافة المنصور والرشيد والمأمون ثمرتها فى بروز العقلية الاسلامية فى مجال العلوم حيث استطاع مجموعة من العباقرة المسلمين الانتفاع بما وصل إليه اليونان فى هذا المجال والإضافة إليه والتوسع فيه على نحو حقق نتائج بعيدة المدى .

وقد امتد هذا القطاع منذ القرن الثالث الهجرى إلى القرن العاشر ، لم يتوقف ، ولم تحل دونه الأحداث التى اضطرب لها عالم الإسلام : فى مرحلة « الغزو الخارجى » ، وقد انتظم البحث العلمى . عالم الاسلام كله ولم تقتصر وحدة من وحداته على العمل وحدها ، فمن حران والقاهرة ودمشق وبوزجان وخوارزم وطوس وبغداد والرى وقرطبة وبخارى والبصرة ظهر ذلك العدد الكبير من العلماء الذين عملوا فى مجال الجبر ، والتفاضل والتكامل ، والفلك والطب والرياضيات والبصريات والجراحة . ومنهم من جمع بين الطب والفلسفة (الرازى) ومن جمع بين الفلسفة والنجوم والفلك والحساب والهندسة والطب والطبيعيات والموسيقى (الكندى) ومنهم واضع علم الجبر (الخوارزمى) ومن تساوى مكانه فى الكيمياء بمكان أرسطو فى المنطق (جابر بن حيان) .

فى هذه المرحلة برز جابر بن حيان ومحمد بن موسى الخوارزمى والكندى وثابت بن قرة والبتانى وأبو بكر الرازى والفارابى والبوزجانى وابن يونس وابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وأبو القاسم الزهراوى . وقد حقق هؤلاء العلماء فى مجال العلم بأنواعه إضافات جديده ، تسلمها من جاء بعدهم ، وكانت بيئة المشرق فى هذه المرحلة ذات أثر واضح ، ثم أصبحت بيئة الأندلس من بعد أكثر قوة

واهتماما ، ومنها تحولت نهضة العلوم إلى الغرب فان كل جزء من أجزاء الأندلس كان يسقط فى أيدى الفرنجة إنما كان يصبح بدراساته وتجاربه التى حققتها الحضارة الإسلامية خلال القرون المتوالية جزءا من أوربا ، لقد تسلم المسلمون والعرب من الفكر : اليونانى والهندى مبادىء هذه العلوم، ثم تعمقوها وقدموا عليها تصحيحات هادفة وإضافات مهمة . وليس صحيحاً ما ردده خصوم الإسلام من أن العرب لم يكونوا إلا نقلة ، تقول دكتورة سجريد هونكه : « حين أخذ العرب هذه الأشياء فانهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب ، إلا فإن الإغريق هم وسطاء أيضاً ، أن لكل عبقرية طابعها الخاص ، وطريقها الخاص ، وإن مآثر العرب الخالدة لتقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة عن الإغريق ، وأن العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخالقون الطبيعيون « للاستقصاء العلمى » فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو الطريقة الإستقرائية : الطريقة العلمية الأساسية ، وأن الفكر الغربى لم يستيقظ من ذلك الخدر الذى أثقل عليه طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكى يطير ، إلا بعدما استمسك المنجزات العربية فى الميادين التقنية والصحية والإدارية ، بعد ماتبنى هذه المنجزات على المستوى الحضارى » .

وشهدت أبحاث المسلمين فى مجال العلم أنهم كانوا لا يضعون قاعدة إلا بعد تجربة واسعة تبلغ عشرات المشاهدات وقد قدم المسلمون فى مجال العلوم كشوفا جلى : (١) فى مجال الفلك وحركات النجوم ، شيدو « مراقب » فى مختلف العواصم وبلغوا الغاية فى استقصاء السماء وتوصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها فى تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم ، بصورة متزايدة الدقة . (٢) وفى مجال الرياضيات بلغوا الغاية فى حل المسائل بواسطة الحساب وهم أول من استخدموا الفاصلة للاشارة إلى الكسور ، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستينى وقسموا الدائرة إلى ١٦ درجة ووضعوا الحساب التفاضلى الذى أسسه ابن سينا وقد قادت الفارابى نظرياته فى الفنون الموسيقية قريبا من اللوغاريتم ، ونظريته فى المقادير المتناهية فى الصغر مع نظرية ابن سينا ألهمت العلماء الأوربيين :

× ابن سينا : اكتشف الطبيعة المعدية لمرض السل ، وصف مرض الإلتهاب فى الغشاء الصدرى وكثيراً من أمراض الأعصاب وهو أول من كشف مرض الأنكلستوما وعلامات الإصابة والقابلية لمرض السل . + الرازى : كشف عن مرض الجدرى والحصبة ، عرف الطبيبوا كتشف أن مركز الإبصار هو قاع العين ونادى بأن الكيمياء يجب أن تستغل فى خدمة الطب وعرف كثير

من الأطباء المسلمين فائدة الكي، وأعراض السرطان الذى يصيب المعدة ، ووضعوا الجرعات المضادة في حالات التسمم ، وهو أول من وصف استخراج الماء من العين .

× ابن الهيثم : أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه الأجسام إلى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف بل العكس ووضع نظرية الظل وكان سباقا إلى استخدام الغرفة المظلمة فى تجاربه × جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء × الخوارزمى ما زال اسمه يطلق على الأعداد وهو علم الجبر × البيرونى : حدد الكثافة النوعية لكثير من المعادن والأحجار الكريمة × الزهراوى أعظم الجراحين وفى كتابه « التصريف لمن يعجز عن التأليف » وصف دقيق للعمليات الجراحية ، أو من لجأ إلى استئصال حصاة المثانة من النساء عن طريق المهبل ونجح فى شق القصبة الهوائية كما أجرى عملية تفتيت الحصاة من المثانة . وفى مجال الطب إكتشف علماء المسلمين : التطعيم ضد الجدرى (الرازى وابن سينا) ، وابن النفيس الذى اكتشف دورة الدم الصغرى قبل وليم هارفى بأربعمائة عام ، وقد اشتغل بالطب عدد كبير من المسلمين بلغ فى عصر واحد فى عاصمة واحدة ، « بغداد » : فى عهد الخليفة المقتدر بالله ما يقرب من تسعمائة طبيب . والجرجانى كشف عن تضخم الغدة الدرقية وبهاء الدولة عرف السعال الديكى ، ومهر المسلمون فى الجراحة وخاصة فى أمراض العين ، وكانوا أول من طبق طريقة التخدير العام فى العمليات الجراحية ، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة الكمادات الحارة ، وكان الأطباء المسلمون أول من استخدم المرقد (المخدر) فى إجـــراء العمليات ووضعوا علاج اليرقان والهواء الأصفر ، وأول من كتبوا فى الجذام ووسائل انتقال المرض وكان لهم دورهم فى الصيدلة يقول جورج سارطون: إن التشريح كان فى أوربا ممنوعا البتة ، فإذا جئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا فى المغرب ،وأعظم تقدم على حققه المسلمون كان فى علم البصريات وفى مقدمتها أبحاث الكندى وابن الهيثم والخازن ، فقد عارض الكندى كل كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الشىء المرئى فقرر أن شكل الجسم المرئى هو الذى ينفذ إلى العين مراراً من خلال العين ماراً خلال الفتحة الشفافة (العدسة) وفى دراسات انكسار الأشعة وانعكاساتها وانقلاب الصورة المعكوسة. (٣) وفى الكيمياء لمع نجم العلماء المسلمين ، وما تزال كثير من المصطلحات الكيميائية الأوربية تحمل الاسم العربى ، كالقلويات والأنبيق ، والقصدير ، والتنور ، والزرنيخ ،والدانق والخميرة والزئبق . (٤) وفى الطبيعيات درس المسلمون علم مركز الأثقال وخواص السوائل ، (عبد القادر الطبرى) والخازن له بحث فى الضغط الجوى ، وللمسلمين أبحاث فى الجاذبية سبقوا بها نيوتن . (٥) وفى الرياضيات كانت أوربا تجهل

استعمال الأرقام : (٦) وفى الجغرافية : ياقوت والمقدسى وابن الفقيه وابن حوقل والمسعودى والبيرونى وابن بطوطه وابن جبير وابن خردزابة والادريسى ، ومن الخرائط التى رسمها العلماء المسلمون كون « كولمبس » فكرته عن الكرة الأرضية وكان اعتقاد الأوربيين أن الأرض مسطحة ، فنبذ الجغرافيون المسلمون هذا الاعتقاد وأكدوا كروية الأرض ، وقد ذخرت البحار والمحيطات بأساطيل المسلمين وما تزال مصطلحات الفلك عربية : [القلفطة ، أمير البحار ، دار الصناعة ، الطرف ، كرسى الجوزاء ، الكف ، الأرنب ، والعرقوب ، سعد السعود] والفزارى هو من أول من اصطنع الاصطرلاب . وهم أول من اخترعوا الكتابة البارزة للمكفوفين : (زين العابدين الآمدى) ، والحوالة المالية عرفها العالم الاسلامى قبل أوربا ، وكذلك الورق والطباعة ، والقطن أهداه المسلمون إلى أوربا . (٧) والمسلمون لهم دورهم فى الموسيقى ، وقد عرفت أوربا آلات الموسيقى التى جلبها المسلمون : العود والصفاره والرباب والصنوج والنفير ، ويقول الدكتور فرانتز روزينتال : أعظم نشاط فكرى قام به العرب والمسلمون يبدو لنا جليا فى حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة لاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين ، حين يلاحظون ويفحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد ، ولذلك فان أسلوبهم فى البحث أكبر ما يكون تأثيرا عندما يكون الأمر فى نطاق الرؤية والوصف . ويقول فرانتز روزينتال : أن الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع فى أى بحث ، أما البحث الذى لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدى به ولا النتائج التى تسفر عنه فيحرم فى الإسلام ، وحاجة هذا العلم أن يعرف الانسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدرة ، لم تؤثر التأثير السىء فى النشاط الفكرى الاسلامى طيلة قرون عشرة ، لقد كان المؤرخون المسلمون ، كما كان العلماء يعتمدون على الوثائق المدونة ولم يكن للمعارف التى تعتمد الذاكرة شأن فى تآليفهم . ولم يكف المؤلفون المسلمون عن ذكر « الجذاذات » التى كانوا يدونون عليها الملاحظات أو ينسخوا منها المقتبسات ، وقد عنى علماء الحديث والفقه وعرفوا فى الدرجة الأولى بالأمانة والدقة فى ذكر المصادر المأخوذ عنها ، لأن الأسانيد فى نظرهم من مادة البحث ، وكل عمل آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين « الحديث والفقه » ، تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع فى درسهما ومعالجتهما ، ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقدرون أهل العلم من غير دينهم ويحترمون الثقات منهم إيما احترام ، وقد ألف العلماء المسلمون كتبا لدحض آراء معينة ، وكثيرا ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضرورة ذلك ، عندما يجابهون المشاكل التاريخية التى يبحثونها ، ويعتقد الطبرى أن الظن أو الحدس لا يصلح أن يكون حكما فى إثبات الحقائق وإن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة

المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا . وأوصى رشيد الدين أبن أبى أصيبعه ، المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا فى كل خبر نظراً عاريا عن محبة أو بغضه وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه .

وقد كانت الغاية المثلى للتربية عند المسلمين أن يقرب الانسان من الكمال ما أمكنه الاقتراب فى كل ناحية من نواحى العلم فى سن مبكرة جداً ، فإن ابن سينا يباهى بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال ، ويقول الأزدى فى كتابه تاريخ الممالك الاسلامية : أن الزمن لا يقف بل أن صفته الدائمة التغيير ، ولم تكن فكرة التطور الفكرى المستمد من جيل إلى آخر فكرة غريبة كليا عن التفكير الإسلامى ، وكان الرازى يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة ، وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجى بعين الاعتبار فى مجال الطب والكيمياء لم تكن فكرة التطور والنمو التدريجى غريبة على العلماء المسلمين ، وقد اعتبروا بلوغ الكمال بمعنى أن المتأخر يتم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التى يتصف بها التطور والنمو من جيل إلى جيل » .

(١٥)

« إنتشار الإسلام »

كانت عدالة النظام الإسلامى فى مختلف وحدات عالم الإسلام بعد أن تمت حركة التوسع ، عاملا هاماً فى إنتشار الإسلام نفسه وانتقال الناس إليه . فإن تخليص الإسلام للجماعات المختلفة من الجور والظلم كخطوة أولى ، ثم ما حققه من حرية لجماعاتها ودياناتها كتطبيق على الإسلام نفسه ، وفى حدود ما أذاعته تعاليمه وما رسمه عمر بن الخطاب وغيره من الولاة فى العقود التى عقدوها كعقد بيت المقدس وغيره ، كل هذا أسرع بالجماعات المختلفة إلى الاسلام بعد أمد قصير ، وزاد فى ذلك ما عرف عن بساطة الإسلام وبعده عن التعقيد وصدق توماس أرنولد حين قال : إن القوة لم تكن عاملا حاسماً فى تحويل الناس إلى الإسلام ، وقد تولت جماعات من العلماء والفقهاء فى مختلف الوحدات الجديدة إذاعة مبادىء الإسلام وشرحها ، وكان الخلفاء يرسلون إلى كل قطر من يفقه الناس فى دينهم ويحفظهم القرآن . وكانت « الجزية » التى يدفعها غير المسلمين — وهى بمثابة ضريبة الدفاع التى تفرض على غير المسلمين فى مقابل الدفاع عنهم مع إعفائهم من الاشتراك فى القتال — هذه الجزية كانت ترفع فور إسلام صاحبها ، وقد رد المسلمون « الجزية » لأهل حمص عندما تحولوا عنها ولم يستطيعوا أن يحموا أهلها . وقد كانت مغريات « الأخوة » بين المسلمين كافة عاملا هاما فى اندفاع الناس إلى الإسلام ، وقد شهد لحرية الإرادة فى أسلام المجموعات المختلفة كثير من الباحثين المنصفين ، يقول توماس أرنولد :

لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ، أو عن اضطهاد منظم قصد به إستئصال الدين المسيحى ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لا كتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الاسلام من أسبانيا ، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهبا يعاقب عليه معتنقوه فى فرنسا ، وأن مجرد بقاء الكنائس الشرقية فى آسيا حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم » والمعروف أن المسيحين فى بداية دخول العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الاسلام فى جموع هائلة . واتسمت الفترة التى تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ — ١٠١) بتعميق ضخم لدعوة الاسلام وتحول واسع النطاق إلى الاسلام ونقل مجال الدعوة الاسلامية من التوسع الجغرافى إلى التعمق العقائدى ، فقد أرسل عشرات الرسائل يدعو الرؤساء والأمراء فى مختلف وحدات عالم الاسلام إليه ، وكانت شخصيته عاملا هاما فى هذه الحركة فإن الصورة التى رسمتها حياة عمر بن عبد العزيز فى سماحته وتفقهه واستعلائه على مظالم الحكام ، وعدالته المقطوعة النظير ، كانت هى أساسا مصدر ما تحقق من نجاح بعيد المدى فى هذا السبيل حتى دخلت ألوف مؤلفة من الناس إلى الاسلام عن طريق الولاة النادرين الذين اختارهم ، وكانوا من تلاميذه فكرا وعلى نهجه عملا .

كما أنه ألغى القرار الذى كان قد وضع قبلا ، فأعفى من يدخل فى الإسلام من دفع ضريبة الرأس ، ورفع ضريبة الأراضى ، واستبدلها بضريبة أخف هى ضريبة العشر ، وكانت هذه الأساليب كما يقول أرنولد : « وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحا تاما فى الاتجاه الذى كان يريد أن آثارها يحققه صاحب العقلية التى أشربت الورع والتدين فبادرت جموع هائلة إلى الدخول فى زمرة المسلمين » يضاف إلى هذا ما قام به ولاة المسلمين من عمل متصل فى الرد على الشبهات التى تثيرها أصحاب الأديان الأخرى وخصوم الإسلام ، والمأمون (١٩٨ — ٢١٨) مثل بارز فى هذا المجال فقد كان شديد الحماسة للجهود التى تبذل فى نشر الإسلام ، وقد أرسل إلى كثير من الأمراء ممن كانوا يقيمون فى أقصى أجزاء عالم الاسلام كبلاد ما وراء النهر وفى غانة يدعوهم إلى الاسلام (البلاذرى) ومنذ أن توقف التوسع الاسلامى إلى أن بدأ الغزو الخارجى لعالم الاسلام بالحملات الصليبية كانت عمليات البلورة والانصهار الفكرى والاجتماعى تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد وعقلية متقاربة . وكانت الأجناس العربية والفارسية والتركية والبربرية تتلاقى وتنصهر فى بوتقة عالم الاسلام بحدوده الجغرافية لتكون « أمة واحدة ذات عقلية واحدة » . وكانت الفلسفات والمذاهب

والنظريات والعلوم والآداب والفنون الهندية والفارسية والرومانية واليونانية والمسيحية واليهودية تحاول أن تنصهر فى بوتقة الفكر الاسلامى بمقوماته الأساسية لتكون فكر أمة واحدة . غير أن ذلك العمل كان على ضرورته خطيرا ودقيقـا ، وكان مليئا بالتحديات ومؤامرات خصوم الاسلام ، ومن هنا بدأ ذلك الصراع الضخم بين الفقهاء والفلاسفة والصوفية ، فى معركة كبرى ذات نحل وفرق ، مختلفة متعارضة ، كان قوامها سياسى فى الأغلب ، غير أنها لم تلبث بعد أجيال متعددة أن تبلورت عن قيام « أسس كاملة » للفكر الاسلامى دعامتها القرآن نفسه ، وقوامها «جوهر الاسلام » كما دعا إليه محمد رسول الله ، أساسه « التوحيد والنبوة والقرآن » ، على قواعد الاسلام الأصلية ، ولم يبق الخلاف قائما إلا فى الفرعيات والقضايا والمسائل التى لابد من الخلاف فيها نتيجة إختلاف الأجناس والأوطان والظروف : وكانت أكبر قضية خلافية هى قضية العقل والروح : هذه التى أقامت معسكرى السنة والشيعة من ناحية ، وطبعت الفكر الإسلامى بطابع فلسفى معتزلى من ناحية وطابع صوفى روحى من ناحية أخرى . والواقع أن الإسلام فى جوهره ليس إلا امتزاجاً دقيقاً وواعياً بين العقليات والروحانيات فلا يمكن الفصل بينهما ولا يرجح أحدهما عن الآخر ، وكل ادعاء بأن جانبا بمفرده يمثل مفهوم الإسلام هو ادعاء مردود .

وقد كان رجحان العقليين فى مرحلة من مراحل تاريخ الإسلام مدعاة للاضطراب ، كما كان رجحان الروحيين فى مرحلة أخرى . ومن هنا كانت حتمية الاستمرار فى الإسلام قادرة على تصحيح المفاهيم ورد كل انحراف ينشأ بين حين وحين ، بقيام داعية مصلح يعيد صياغة مفهوم الإسلام على أساس جوهره القائم على التكامل والشمول والوسطية .

وفى خلال « مرحلة التبلور » والانصهار ظهرت دعوات المعتزلة والفقهاء والفلاسفة ثم برزت الصوفية التى تحمل طابع الزهد أول الأمر ، وكانت رد فعل للترف والانحراف الذى أصيب به المجتمع الإسلامى فى تطوره ثم تطورت الدعوة الصوفية فى القرن الثالث من زهادة ملتزمة لقواعد الإسلام متمسكة بالفقر ومحاسبة النفس والتوكل على الله ، إلى فلسفة نظرية قوامها دعوة إلى وحدة الوجود والحلول والاتحاد وبذلك انحرفت عن مضمونها الإسلامى الأصيل ، حين تأثرت بالفلسفات القديمة وبالنظريات الباطنية والمنحرفة التى كانت بعض دعوة خصوم الاسلام فى سبيل إخراجه عن مفاهيمه الأصلية . وقد إتصلت بأصحاب الدعوة إلى الصوفية الفلسفية ، شبهات التـآمر على الإسلام فإن كلا من الحلاج والسهروردى قد اتهم بموالاة حركة من حركات الانتقاض على الإسلام .

وقد قدم التصوف الإسلامى فى تياره الأول « الزهـــد » روحاً جديدة إلى الفكر الإسـلامى تخفف من جفاف الطابع العقلى الذى سيطر على دعوات الفلسفة والاعتزال والفقه ، غير أنه لم يلبث أن دخل فى متاهات فلسفية أذهبت عنه إصالته وسماحته وبساطته المستمدة من « جوهر الإسلام » حين أخذ يبحث فى قضايا المعرفة والأحوال والمواجد والأذواق ، غير أن الإمام الغزالى فى نهاية هذه المرحلة قد استطاع أن يقضى على هذا التمزق الذى أصاب الفكر الإسـلامى بانقسامه إلى فقه وتصوف ، فأعاد صياغة الفكر الإسلامى من جديد فامتزج التصوف والفقـــه وعادت إلى الإسلام وحدته ، وكان هذا مقدمة للوحدة الإسلامية التى استطاعت من بعد أن تواجه الغزو الصليبى ، غير أن التصوف كان قد تحول إلى مرحلة جديدة ، قوامها تـكوين الفرق الصوفية ، هذه الفرق التى توسعت فى مرحلة الغزو الخارجى من بعد .

والحق إنه إذا كان « التصوف » الذى بدأ باسم الزهد إنمـا جاء بمثابة رد فعل على الإسراف فى الترف الذى وقع فيه الأمراء والولاة والحاكمين ، فإنه قد انحرف حين تحول إلى دعوة واسعة عن مفهوم الإسلام فى التحرر من الفقر ، هـــذا التحرر الذى يتم بتحويل الطبقات الشعبية إلى اليسر بإحقاق العدل الاجتماعى والزكاة ، وليس باقرار الفقر وفلسفة الرضى به والدعوة إليه ، فقـد ظهر فى ظل الدعوة الصوفية مفهوم التوا كل والاستسلام وقبول الذل والفقر ، ممـا يخالف مفهوم الاسـلام نفسه ، وإن كان قد قام فى خلال تلك الفترات من دعا إلى الاصـلاح ومناصحة الولاة وتحرير مفهوم الاسلام من انحراف التصوف كدعوة جزئية تتسم بطابع الروحية ولا تمثل شمول الاسلام وتـكامله ووسطيته التى تجمع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والعمل للدنيا والآخرة معاً . وقد خرجت الصوفية بذلك عن بساطة الاسلام وفطرته وعباداته البسيطة ومظهره السمح حين تحولت إلى رموز ومعميات وانفصمت به عروة فلسفة الاسلام التى تجمع بين حصول المعرفة عن طريق القلب والعقل معا . أبرز ما يتمثل فى هذه المرحلة بعد أن بلغت « موجة التوسع والامتداد الاسلامى غايتها هو أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توقفها أو تصدها ، وبدا أن الموجة قد بلغت غاية امتدادها الزمنى خلال أكثر من مائة عام من ناحية وغاية امتدادها الجغرافى إلى قلب أوربا . من ناحية أخرى فى خلال هذا التوسع كانت معركة أخرى على وشك أن تدور ، معركة من طرفين أحدهما فى الداخل والآخر فى الخارج ، وكلاهما مجمع على دحر الاسلام وتقليص ظله والقضاء عليه . وقد تنبه المسلمون لهذين الخطرين ، أما أحد الخطرين فـكان قريبا ملاصقا يتحرك فى قلب عالم الاسلام ويتمثل فى عملين : (١) عمل حركى ، يحمل طابع التآمر السياسى على نظام الدولة ويتمثل ذلك

فى حركات البابكية القرامطة والباطنية وغيرها . (٢) عمل فكرى ، يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الاسلام ومفاهيمه ، وقد كانت أغلب هـــذه الحركات تجمع بين التآمر السياسى والتشكيك الفكرى وتستهدف ذلك القضاء على الاسلام بالقضاء على دولته ، والقضاء على مفاهيمه . ولقد امتدت هذه المعركة طوال تاريخ الاسلام وامتدت المقاومة ورد الفعل لهـذا التحدى ، فى ظل جبهة من العلماء والمفكرين والدعاة يمكن أن يطلق عليهم اسم « المصلحون المجددون » تحمل لواء العمل لمواجهة هذه الحملات التى هى أشد عنف عنفا من الحملات العسكرية والحربية وقد استمرت هذه الجبهة قوية ممتدة على طول التاريخ كله لم تتوقف ، تواجه هذه الانحرافات والشبهات وتكشف محاولات الخصوم فى القضاء على المفهوم الأساسى والقيم الأصلية الاسلام . وقد استطاعت هـذه الجبهة أن تحقق كثيراً من النصر ، وأن تقضى على عوامل تجزئة مفهوم الاسلام أو تحريفه أو تشويهه وقد برز هذا العمل واضحا خلال هذه المرحلة ، فى مجال ترجمة التراث : اليونانى والفارسى والهندى وتداخل المفاهيم الوثنية والاسرائيليات والشبهات إلى مضمون الاسلام . ولقد كانت هذه المعركة خلال تلك المرحلة من أبرز المعالم التاريخية لهذه الفترة التى تتمثل فيها قوى : (١) قطاع الترجمة والنقل من الفكر اليونانى والفارسى والهندى . (٢) قطاع الزهد والنقد الاجتماعى وشجب المجتمع . (٣) قطاع العلماء العاملين فى مجال تقييم الفقه والسنة . (٤) قطاع المدافعين عن الاسلام فى مجال العقيـــدة .

(١٦)

« مرحلة الغزو الخارجى »

(٤٩٣ — ٨٩٨ هـ)

« إذا كانت مرحلة (التبلور والانصهار) هى نتاج طبيعى لمرحلة بناء الاسلام وتوسعاته فإن مرحلة الغزو الخارجى هى الرد الفصل الطبيعى لصراع الغرب مع عالم الاسلام الذى بلغ قمة أبعاده بالتوسع وأعماقه بالانصهار فكان لابد من مهاجمته من كلا طرفيه ، عن طريق المشرق على ساحل الشام وعلى حدود المغرب على أطراف الأندلس ، ثم كان إن بلغت (الأزمة الاسلامية) قمتها بالجائحة المغولية التتارية الملتقية مع الصليبيين على هدف موحد هو تطويق الاسلام وخنقه غير أن الاسلام بوصفه حتميـة التاريخ كان قادراً على المقاومة والدفاع عن نفسه حين انبعثت من أحشائه

القوى الثلاث البدوية الشابة : [السلاجقة والمماليك والبربر] التى سحقت الغزو ثم كانت قدرته البعيدة الأثر فى إذابة التتار والمغول فى بوتقته وفرض حضارته على وفكره الغرب » .

* من تاريخ الاسلام فى مراحل متداخلة فإن الجماعة الاسلامية التى انصهرت فى الجزيرة العربية خلال ثلاث وعشرين عاما لم تلبث أن حققت اندفاعة ضخمة باهرة أقامت عالم الاسلام من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا فى أقل من مائة عام ، هنالك ازدهرت مرحلة الانصهار والبلورة التى كانت قد بدأت فعلا بعد قيام « التوسع » باتصال العرب بالفرس والترك والتتر وتضام الوحدات الاسلامية .

غير أن الصراع الداخلى ، فى عالم الاسلام ، والانحراف عن مقومات الاسلام بالتفكك والصراع والتخلف فى مجال القوة والوحدة والعدل الاجتماعى قد هيأ الفرصة لضربات متوالية من الغزو الخارجى ، جاءت من الغرب أولا « الحروب الصليبية » ثم جاءت من الشرق «غزوات التتار» واستمرت قرنين كاملين ، لم يستطع المسلمون خلالها مواصلة التوسع لأنهم تخلفوا عن مقومات الاسلام وكانت الغنائم مصدراً من مصادر الهزيمة ، ولم يستطع المسلمون مواصلة التبلور والانصهار فى مجتمع واحد فكر موحد ، كان الخلاف والخصومة والصراع بين الأمراء والملوك المسلمين المتجاورين ، وكان الخلاف بين عناصر المسلمين أنفسهم ، عربا وفرنسا وبربراً ، كانت هذه كلها جميعها نفس مصادر الهزيمة التى عدها الاسلام من عوامل الانهيار والتخلف وفى ضدها تكمن عوامل النصر والقوة ، والحق أنه حين ضعف مركز السلطة والوحدة السياسية ، تمكن الفرنجة من تسديد الضربة ، ولقد حذرت « أيدلوجيا الاسلام » من هذا الضعف والتمزق ونوهت باهمية إنضمام الصفوف وتلاحم القوى ، كما دعا الاسلام إلى القوة الحربية واليقظة فى الثغور لمواجهة العدو ، وكان الفرنجة — من نافذة بيزنطية التى ظلت مركز الصراع بين الاسلام والغرب خمسة قرون كاملة — أشد من المسلمين يقظة لأخبار دار الاسلام بينما قصر المسلمون فى الاحاطة بتحركات الفرنجة ، وهو نقص وصفة الاسلام بالغفلة حين أشار إلى ضرورة اليقظة فى ترصد أخبار العدو . ومن هنا تعد «حركة الغزو الخارجى » لعالم الاسلام من أبرز صفحات تاريخ الاسلام فقد واجه الاسلام غزوا مزدوجا من خارجه : عن طريق حملات التتار والمغول الوثنية القادمة من المشرق زاحفة على « كاشغر » وعن طريق حملات الفرنجة والغرب والأوربيين على عالم الاسلام من طرفيه : حدود بيزنطية وحدود الأندلس ، أما هجمات القوى العسكرية المغولية فقد توالت وامتدت خلال قرن من الزمان وكان أبرز موجاتها ثلاث حملات كبرى هى حملات جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك ، غير أن الاسلام

استطاع أن يغزو من داخله هذه القوة ويحولهـا من الوثنية إلى التوحيد . أما القوة التي حاربت الاسلام بعنف واصرار وشراسة فهي القوى التي أطلقت عليها : اسم القوى الغربية الفرنجية الأوربية هذه القوى التي أحست منذ اليوم لظهور الاسـلام ، أنه قد سيطر على مناطق كانت داخلة تحت نفوذها كالشام ومصر وأفريقية . ثم كانت اندفاعة الإسلام إلى أوربا من خلال معارك القسطنطينية في آسيا الصغرى ومعارك شبه جزيرة إيبريا في أسبانيا مصدراً لقيام فـكرة استعمارية صليبية في عالم الغرب وأوربا تهدف إلى سحق تيار الاسلام والحيلولة بينه وبين النفاذ إلى قلب أوربا . وقد استمرت هذه الحركة وازدادت على الأيام قوة وعنفاً وتشكلت في صور مختلفة ، ومضت تضعف وتقوى ، وتتقدم وتتراجع حسبما ترى الظروف أمامها .

وقد أثبت التاريخ أن حركات الانقضاض على الإسلام من بيزنطة ومن أسبانيا استمر متصلا طوآل القرون ، وفق خطة لم تمت أبداوما أظن أنها ماتت حتى اليوم ، أو ستموت غدا ، ذلك الصراع الذى أطلق عليه : الصراع بين الشرق والغرب أو الاسلام والمسيحية ، أو ما نطلق عليه نحن : « الصراع بين عالم الاسلام والغرب » وإذا كانت هذه الفـكرة قد بدأت منذ بدأ الاسلام يمـد نفوذه الثقافى والسياسى إلى مناطق كانت تابعة بالاستعمار والإخضاع إلى الدولة الرومانية ، ثم حيث مد الاسلام نفوذه إلى الأندلس وإلى القسطنطينية ، فان هذه الفـكرة لم يلبث أن أخذت طابع الغلو لتسيطر على مقدرات الفـكر الغربى وتـكون هدفاً أساسيا ضخما ، لم يكن فى ذاته جديداً ، فقد كان بين الغرب والشرق قديمـاً . وكان فى آخر مراحله يتمثل فى فتح الاسكندر الأكبر للشرق ، وبه رجحت كفة الغرب وسيطرته ، ولـكن الصراع القديم قد أخذ طابعا جديداً أشد عنفاً وشماماً حينما بزغ الإسلام فأحال هذه المنطقة إلى طابع جديد من حيوية التوحيد والعدل والمساواة ، هذه القيم التى أيقظت المنطقة وأهلها فأحست بكيانها الانسانى ، قادرة على أن تباشر مفهوم السيادة ، وأن تقف موقف الند للغرب وأن تواجهه بالمقاومة الصامدة لعدوانه وغزوه ، لقد طبع هذا الموقف عالم الغرب من خـلال مفاهيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة بطابع التحـدى الذى أطلق عليه « الحروب الصليبية » والتى اشتعلت فعلا واستمرت مشتعلة طوال هذه القرون لا تتوقف ، منذ بلغ الإسـلام القسطنطينية والأندلس ، حتى جاء اللورد اللنبي على رأس قوات الغرب الغازية إلى القـدس ١٩١٨ فقال كلمتـه التى عبرت عن ضمير الغرب وفـكره إزاء الاسلام وعالمه حين قال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

كانت فكرة الغزو الغربي لعالم الاسلام كامنة حية ، متحركة لا تتوقف، تمثلت في تلك الجولات المستمرة بين بيزنطة من ناحية وأطراف الاسلام عالم (الموصل وحلب والشام) وفي الصراع بين الأندلس ودولة قشتاله والفرنجة من ورائها. ثم لم تلبث أن وجدت أمامها فترة ضعف في ظل موجة السلاجقة التي تخافتت ، فكانت تلك الحملات الصليبية المتواصلة خلال قرنين كاملين في غارات لا تتوقف على جميع سواحل عالم الاسلام في الشام ومصر والمغرب جميعا .

ثم لم تتوقف هذه القوة من بعد وإن ضعفت وخضعت ، وقد استطاعت أن تجلى الاسلام والعرب عن الأندلس من بعد ، وأن تنتصر في هذا القطاع في مواجهة هزيمتها إزاء الضربة القاصمة التي أوقعتها القوة الاسلامية الشابة : « العثمانية » بها بالاستيلاء على القسطنطينية بعد محاولات متصلة لم تتوقف من جانب عالم الاسلام . وهكذا يمكن أن يطلق على هذه المرحلة التي تعد من أدق مراحل تاريخ الاسلام : « مرحلة الأزمة الكبرى » فقد كان توقيتها طبيعيا بالنسبة لرسالة عمت الدنيا في فترة قليلة من الوقت ، فكان لا بد أن تمتحن حتى تكشف عما إذا كانت جديرة بالبقاء والخلود شأنها في هذا الامتحان شأن كثير من الدعوات والرسالات التي سبقتها وعاصرتها ، وقد كشفت هذه الأزمة عن جوانب القوة وجوانب الضعف في المجتمع الاسلامي وأتاحت الفرصة للمسلمين لمواجهة أنفسهم وتجميع قواهم . ولم يكن هناك مصدر للضعف إلا ذلك التناقض بين قيم الاسلام وبين أعمال المسلمين ، أو بين الأيدلوجيا والتطبيق ، فإن عوامل الانقضاض لم تقع من كل جانب من خصوم الاسلام إلا بتقدير محسوب بضعف عالم الإسلام أو اضطرابه أو جوده أو تصوره عن حماية نفسه أساساً .

وإذا كانت « أزمة الاسلام » أساساً هي الغزو الخارجي والانقضاض عليه ، وكان أبرزها في هذه الفترة : غارات الصليبيين والتتار ، فإن المصدر الحقيقي لذلك هو ضعف الجبهة الداخلية وتفككها ، وتاريخ الصراع بين الاسلام وخصومه يكشف عن حقيقة واقعة ، مازالت مستمرة ، وقائمة قوام هذه الحقيقة : أمران : « الوحدة » وهي عمل معنوي و « القوة » وهي عمل مادي فطالما كانت الوحدة والقوة استطاع عالم الاسلام أن يوجه خصومه وأن يرهب المتربصين به .

والحق أنه كان لا بد أن يمر الاسلام من أزمة ضخمة تستمر فترة طويلة يمكن أن توصف بأنها نصف قرن من الزمان ، امتدت فيها المعارك من الأطراف الثلاثة : من حدود عالم الاسلام في المشرق الأقصى عن طريق التتار ، ومن حدودها الشمالية من حدود دولة البيزنطيين عن طريق الصليبيين ،

وعن حدودها الغربية عن طريق فرنسا وأسبانيا فى عمليات الانتقاض واسترداد الأندلس . لقد بدأت عمليات غزو عالم الإسلام فى أواخر القرن الخامس غير أن هذه العمليات لم يبدأها خصوم الاسلام إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الجبهة الداخلية ، وانقسام الوحدة ، وتراخى القوة ، وهى مرحلة بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

ويمكن القول أن حمله القوى الخارجية على عالم الاسلام إنما جاءت كرد فعل لفترة المد الطويل خلال خمسة قرون ، وكانت الأطراف التى امتد إليها الاسلام هى مصدر الانقضاض : من طرفين : الأول : آسيا الصغرى (الدولة البيزنطية) . الثانية : غرب أوربا (فرنسا وأسبانيا) . ومنذ بدأت أعمال التوسع الإسلامى حول القسطنطينية من ناحية ، وحول الأندلس من ناحية أخرى لم يتوقف الاشتباك ، فهل يمكن القول بأن اقتحام الاسلام أوربا خارجا من آسيا وأفريقيا كان هو المصدر الأساسى لهذه المعركة التى يمكن أن يقال أنها امتدت منذ عام ١١٤ هـ حتى الآن ولم تتوقف خلال ألف وثلاثمائة عام . غير أنه لو لم يقتحم الاسلام أوربا ، هل كانت أوربا تتوقف عن مهاجمته فى أفريقيا . أن نظرة إلى تحركات الدولة البيزنطية مترقبة فترات الضعف لتنقض على حدود عالم الاسلام كذلك موقف الفرنجة من المسلمين على حدود الأندلس ، تكشف عن أن الموقف بين المسلمين وأوربا كان سجالا منذ هذه الفترة الباكرة فى تاريخ الاسلام ، فقد ظلت أوربا تحمل فى أعماق أعماقها عصراً بعد عصر « طابع إلا دالة من الاسلام وإخراجه من أوربا » .

ولذلك فإنه لم يكد يصل التوسع الاسلامى إلى مداه ، حتى كانت القوة الخارجية تعمل على الانقضاض عليه وسنة الإنتقاص منه وتلك سنة طبيعية ، لا محيد عنها فى تاريخ البشرية وفى نواميس الكون ، ومن هنا كانت دعوة الاسلام لأنصاره فى اعداد القوة دائما ، وحماية الثغور والرباط بها واليقظة دوما « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » وطالما نفذ المسلمون هذا القانون الطبيعى من قوانين البقاء ، كانوا فى مأمن من عدوهم ، وما تراخوا عنه حتى واجهوا حملات الانقضاض والعدوان على أرضهم .

ولقد شهدت مناطق الشام وحلب تاريخاً طويلا فى المقاومة والغزو ، وكان لها دوراً بارزاً من أدوار البطولة حمل لوائه سيف الدولة الحمدانى فى فترة من أدق فترات المقاومة .

ولإلقاء أضواء واسعة على هذه المرحله نقول :

نما عالم الإسلام واستكمل توسعه عام ٩٣ هـ تقريبا حين بلغ السند وما وراء النهر شرقا وبلغ الأندلس غربا، تم هذا التوسع خلال ثمانين عاما (١٢—٩٣ هـ). ثم توقف فى الجبهة الشرقية واستمر فى الجبهة الغربية على شواطىء أوربا فى حملات متصلة مستمرة حمل لواءها الأغالبة فى تونس وجروا بها شوطا طويلا (١٤٢ — ١٨٤ هـ) ولم يلبث «عالم الإسلام» أن دخل مرحلة التبلور والانصهار وهى مرحلة دقيقة غاية الدقة، كانت مصدر صراع فكرى لا حد له، غير أن أبرز ماتتسم به هذه المرحلة التى تمت فيها الحضارة هى «روح الترف» التى انحرفت بالمجتمع الإسلامى عن مفاهيم الإسلام فى وسطيته وتكامله، والتى تخلت عن طابع الوحدة والقوة واليقظة. كانت الحلقة الأولى فى مرحلة التبلور والانصهار فى المشرق والمغرب تسير فى خط واحد تقريبا: العباسيون فى المشرق والأمويون فى الأندلس، وقد حققت هذه الفترة نتائج ضخمة فى مجال انصهار الفكر الإسلامى، وبرز فيها عدد كبير من بناة الدول والحضارة ثم تراخى طابع القوة بتغلب روح الترف ثم بدأت روح الضعف تسرى فى عالم الاسلام كله ومع ذلك فإن «الدفاع عن أرض الإسلام» لم يتوقف، كانت دولة الأغالبة خلال أربعين عاما تواجه الفرنجة وتديل منهم وتسيطر على شواطىء البحر الأبيض وتصل إلى سواحل إيطاليا وإلى قريبا من العاصمة «روما». وقد تمكن المسلمون من السيطرة على جزيرة صقلية (٢١٢هـ) وفى جبهة الدولة البيزنطية كانت مقاومة سيف الدولة مثلا عاليا من أمثلة الكفاح ضد الغزو الخارجى ٢٣٣هـ أما فى الأندلس فقد توالت حملات المقاومة التى قادها عبد الرحمن الناصر (٣٦٦هـ) الذى غزا خمسين غزوة انتصر فيها جميعا. وفى الشرق استطاع محمود الغزنوى أن يوسع عالم الإسلام وأن يحقق انتصارات رائعة (٣٨٨هـ) غير أن تمزق الدولة العباسية فى بغداد، وسقوط الدولة الأموية فى قرطبه، قد أدى إلى تنمر الغرب إلى مدافعة عالم الإسلام والانقضاض عليه، هنالك انبعثت قوتين جديدتين من أعماق الصحراء بدويتين خشنتين عنيفتين تتمثلان فى الأتراك السلاجقة فى الشرق والبربر فى المغرب ثم شلت قوة المماليك فى مصر والشام.

هاتان هما القوتان الجديدتان اللتان سيطرتا على عالم الإسلام، بعد أن ضعفت القوى المتحضرة التى تخلفت عن مفهوم الإسلام، كانت قوة السلاجقة فى المشرق (٤٢٩هـ) وقوة المرابطين فى المغرب (٤٥٤م) بمثابة دم جديد وعلامة قوة، فقد كانت القوى المتربصة بالإسلام من حدود الدولة البيزنطية (آسيا) ودولة الفرنج (أوربا) قد تحفزت من جديد لتنقض، فكانت قوة السلاجقة قادرة على الردع

الذى ظهر من بعد فى موقعة ملازكرد بقيادة عماد الدين زنكى (٤٦٤هـ) ومعركة الزلاقة التى قادها يوسف بن تاشفين فى الأندلس (٧٤٩) بعد أن سقطت طليطلة فى أيديهم (٤٧٨هـ) : وقد أخر ظهور هذه القوى انقضاض الغرب على عالم الإسلام ، ففى سنوات متقاربة هاجم الفرنجة المهدية (المغرب) بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب (٣٠ ألف مقاتل) عام ٤٧٦هـ ثم زحفت الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩ فاستولت على بيت المقدس ٤٩٣هـ غير أن الصورة الشاملة لمقدمات الغزو الخارجى لا تتم باستعراض شامل للصراع بين الروم والمسلمين على حدود الدولة البيزنطية .

(١٧)

« أزمة الاسلام »

عاش الاسلام بعد مرحلة التوسع والامتداد مرحلة الانصهار والتبلور. كانت المرحلة الأولى موجة من موجات التوسع بلغت فى قرن من الزمان حدود الصين من الشرق وحدود فرنسا من الغرب . ثم كانت مرحلة جديدة انبثقت من أعماق هذه المرحلة ، هى تبلور هذه الجماعة وانصهارها ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، من خلال العناصر التى تكون منها عالم الاسلام : « العرب والفرس والترك والبربر » غير أن مرحلة الانصهار كانت تضطرم بالصراع السياسى والفكرى ، يتمثل هذا الصراع السياسى والفكرى ، يتمثل هذا الصراع فى قيام الدول وسقوطها ، وبروز القادة من بناة الدول ، وظهور عديد من الدولة المستقلة المرتبطة بالخلافة أو المنفصلة عنها ، فضلا عن ظهور خلافات وحكومات منفصلة فى ظل هذ هذا الانصهار والتبلور فى إطار الاسلام ، فكريا واجتماعيا وسياسيا ، برزت مؤامرات داخلية متعددة من خصوم الاسلام ، تهدف إلى القضاء على كيان الدولة أو مفهوم الاسلام نفسه، حدث هذا التخلخل والاضطراب والانقسام وصراع الحكام والقادة ، فى نفس الوقت الذى كان الفكر الاسلامى يجرى نحو الانصهار والتبلور والتوحد . كان هذا مقدمة لتحد خطير هو الغزو الخارجى لعالم الاسلام فى مواجهة الإستجابة لقيمة أساسية من مقومات الاسلام وهى « الوحدة » وعامل خطير هو « القوة » فإذا تمزقت الوحدة بين أطراف عالم الإسلام ووقع الصراع بين الأجزاء ، ثم ضعفت القوة الرادعة ورباط الخيل الذى يرهب العدو . إذا ما تراخى هذا كله ، كان ذلك مقدمة لتجمع خصوم الاسلام للانقضاض عليه ، كانت صورة عالم الإسلام تتمثل فى أزمة واضحة شاملة ، فقد تراخت نظم الدولة الإسلامية ، وتمزقت الوحدة ، وغلب الترف ، وضعفت الحماية على

الثغور ، وبان الخلاف بين الدول المتعددة ، وحكم نظام يعيش فى إطار الاسلام ولكنه لا يلتزم مقوماته . ومفاهيمه ، هنالك ، كان لابد أن يواجه عالم الاسلام أزمة كبرى ، ومحنة عاصفة ، تقطع من حياته مرحلة لا تقل عن (٤٩٣ — ٨٩٨هـ) أربعة قرون وهى مرحلة عصبية عنيفة تداخلت فيها الأحداث على نحو عاصف ، وانتهت باسترداد العرب الأندلس ، وسيطرة عالم الإسلام على القسطنطينيه . وقد اشتبك فيها المسلمون من خلال معارك طويلة بالصليبيين فى حملات متعددة على مختلف الجبهات ، من حدود الدولة البيزانطية إلى فرنسا ، عبر سوريا وبيت المقدس ومصر وتونس والمغرب والأندلس ، كما اشتبك المسلمون فى حملات متعددة بالتتار الذين تآمروا مع الصليبيين لإقتلاع عالم الاسلام ومحوه . وكانت الأحداث متوالية دراكا . والحق أن الصراع بين عالم الاسلام والغرب لم يبدأ يوم جاءت (الحملة الصليبية الأولى — ٤٩٣ هـ) وإنما كان قد بدأ قبل ذلك بأربعمائة عام ، يوم إندفعت توسعات الاسلام لتنفذ إلى أوربا من القسطنطينية مرة ومن الأندلس مرة أخرى ، وكانت أعوام ٩٢ — ٩٨ هـ حاسمة فى هذا الموقف ، فقد كانت « اندفاعة الاسلام » قد إنطلقت من الشام إلى هضاب آسيا الصغرى حتى بلغت مياه البسفور وحاصرت القسطنطينيه كنقطة إنطلاق الاسلام (٣٣هـ) إلى أوربا ، ثم عادت مرة أخرى إلى ذلك عام ٤٤ هـ ثم عادت مرة ثالثة عام ٩٦ هـ ورابعة ٩٨ هـ وفى هذه المراحل الأخيرة جاز المسلمون أسبانيا واقتحموا غرب أوربا — إذ استعصت عليهم القسطنطينة — حتى بلغوا قلب فرنسا ونهر اللوار ، وكان لاقتحام الاسلام أوربا من غربها ووقوفه على حدود الدولة الرومانية الشرقية فى سبيل اقتحامها من المشرق ، عاملا من عوامل الصراع بينه وبين الغرب لم يتوقف منذ ذلك اليوم وإلى اليوم .

كانت غاية التوسع الأولى والكبرى هى تبليغ أوربا دعوة الاسلام ، وكان الخليفة الثالث عثمان قد تصور ما يمكن أن يصل إليه الاسلام حين يتصل بين أسبانيا والقسطنطينية مخترقا قلب أوربا ، وكان موسى بن نصير يتطلع إلى أن يصل دمشق عن طريق القسطنطينة . غير أن أوربا قد استطاعت أن تواجه هذا التيار الجديد وأن تصمد فى سبيل صده ودفعه ، وأن تقاوم فى ذلك غاية المقاومة . كان الصراع يجرى فى ميدانين فى وقت واحد : ميدان الدولة الرومانية (بيزنطة) حيث كانت عمليات الغزو والادالة بين شمال الشام وحدود بيزنطة لا تتوقف ، خلال أربعة قرون ونصف القرن ، كان عالم الاسلام يقظا لا يتردد فى رد عدوان بيزنطة الذى كان يترقب أى لحظة ضعف ليهجم ويحاول أن يستقطع من أطراف عالم الاسلام ، وكان الميدان الثانى هو ميدان الأندلس ، فإن دولة

الإسلام التى قامت فيه لم تتمكن من أن تلتقط أنفاسها دون صراع أو مؤامرة ، أو حركة انقضاض على أطرافها ، وقد امتد ذلك طويلا ، منتهزا فترات الضعف ليحاول الإدالة منها .

وقد امتدت حركة المقاومة لأطراف عالم الإسلام من القسطنطينية والأندلس ، حتى بلغت مرحلة دقيقة ، عندما بدأت قوة جديدة من قوى الإسلام تبرز هى قوة « السلاجقة » فى المشرق ثم تلتها قوة « الموحدين » فى المغرب والأندلس ، وهنا بدأت أوربا تصارع القوتين وكانت الحروب الصليبية بحملاتها التسع قد بدأت نتيجة لتوسعات السلاجقة . أما فى الميدان الشرقى ، ميدان الدولة البيزنطية فقد كانت عين المسلمين على ذلك الخط الفاصل بينهم وبين الروم ، وقد حرص المسلمون على حماية هذه الثغور . وكانت البحرية الإسلامية التى بناها معاوية فى خلال خلافة عثمان وما بعدها قوة ردع ومهابة ، وقد وقع الصدام فى هذا الجانب طويلا وحاصر المسلمون القسطنطينية مرات خلال أكثر من ستين عاماً ، حيث اضطردت حملات الشواتى والصوائف . لاتنى ولا تتوقف .

ثم كان ذلك التربص من أطراف عالم الغرب ممتدا ، لا يفتر ، ومستمرا لا يتوقف ، يترقب فترات الضعف ومراحل الغفلة لينقض ثم لا يلبث أن يدافع المسلمون عن هذه الحدود مرات فى مواقع حاسمة ، ويتوغل هارون الرشيد فى أرض الروم ، وينهض المعتصم لرد العدوان ، ثم يظل هذا الصراع قائما حتى نرى سيف الدولة الحمدانى فى ثلاثينات القرن الثالث الهجرى بمواقفه المشهورة فى الرد على عدوان الروم .

غير أن هذه المناطق ظلت بعد ذلك عرضه لهجمات الدولة البيزنطية طويلا . فقد كانت أوربا ترى فى هذه الجبهة قوة مدافعة عنها تحول بينها وبين سيطرة عالم الإسلام أو توسعه فى أوربا . حتى لحقت الشيخوخة الدولة البيزنطية ونالها الضعف إزاء موجات الاسلام المتلاحقة ، التى لا تفتر عن موالاة الدفاع عن الثغور ، وكانت السلاجقة قوة جديد من قوى الدفاع قد اجتاحت بيزنطة وأدالت منها وكشفت عن ضعفها وعجزها عن حماية أوربا ، هنالك كانت فكرة الحملات الصليبية بمثابة بديل عن قوة بيزنطة المنهارة .

هذا فى الشرق ، أما الطرف الثانى من عالم العرب فالاسلام كان قد عبر « بحر الزقاق » وسيطر على أسبانيا ومنها نفذ إلى فرنسا حتى بلغ نهر اللوار ، حيث تجمعت أوربا لتقف أمام زحفه فى موقعة « بلاط الشهداء » ، هذه المعركة التى انسحب منها الاسلام مستنفذا قواه ليعاود الكرة فى إقتحام أوربا من ثغور إيطاليا .

وقد يقف المؤرخون طويلا عند معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ — ٧٤١ م) ويقولون إنها نهاية التوسع الإسلامى فى أوربا ، بينما تشهد وقائع التاريخ بأن حوادث التوسع لم تتوقف فى غرب أوربا عند هذا الموقف . بل امتدت حتى عام ٢٩٨ هـ ، وأن دولة الأغالبة فى تونس قامت فى ذلك المجال بدور ضخم ، إلى أن شغل المسلمون عن أعمال المقاومة والتوسع ، وتراخت قبضتهم خلال قيام الدولة الفاطمية واتجاهها نحو الشرق ، هنالك أخذت حركة « الاسترداد الغربية » تتأهب لجولة حاسمة فى مواجهة « التوسع الاسلامى » ، فيما أطلق عليه من بعد « الحروب الصليبية » هذه الحركة التى بدأت من دور الفرنج أولا عبر الأندلس والمغرب العربى ، ثم كانت صيحة البابا أوربان الثانى للاتجاه إلى الشرق مرحلة تالية لها ، وقد امتدت الحركتان معاً للأدالة من عالم الإسلام عن طريق الأندلس وعن طريق الحملات الصليبية على الشام ومصر . أما معركة بلاط الشهداء فقد هلل لها المؤرخون الغربيون بوصفها عمل حاسم فى سبيل استنقاذ أوربا من التوسع الإسلامى ، وكانت تلك وجهة نظر ضيقة محدودة فى تقدير موج المدنية الزاحف فى ركب الإسلام، ذلك أن عمل كارل مارتل إنما كان فى حقيقته تعويقا للحضارة الإنسانية نفسها وأنه أخر تقدمها فى قلب أوربا ثمان قرون ، وقد شهد بذلك كثير من المؤرخين فى مقدمتهم العلامة كاردفارير الذى دعا أوربا إلى تصحيح تاريخها الرسمى : فقال ليس ما أكتبه فصلا من التاريخ الرسمى بل هو التاريخ الحقيقى الذى يتمله المرء بنفسه ، مما يجتازه من بحار أو نقطة من فياف وآفاق .

فإذا أضفنا إلى هذا شهادة هنرى دى شامبيون ، عرفنا إلى أى مدى صور بالخطأ والتعصب موقف الإسلام .

أما المسلمون ففى الحق أنهم لم يتوقفوا عند موقعة بلاط الشهداء عن أن يصلوا إلى باب أوربا حتى بلغوا روما (قال كاود فارير : فى هذا اليوم (٨ شعبان ١١٤ — أكتوبر ٧٣٢) تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء ، ويكفى المرأ أن يطوف فى حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التى لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواطف السحر والخيال (أشبيلية ، غرناطة ، قرطبة ، طليطلة) ليشاهد الألم الغريب آخذاً منه ، ماعساها تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمرانى السلمى المتسامح — لأن الإسلام فى مجموعة كل هذا — لخلصها من الأهاويل التى لا أسماء لها ، وكان من ذلك نتج خراب غاليا القديمة التى استعبدها أولا لصوص أو سترانا ، حدث هذا فى حين كان العالم الإسلامى من نهر الوادى الكبير فى أوربا إلى نهر السند فى قلب آسيا يزدهر كل الازدهار فى ظل الإسلام تحت أقدام أربع دول (الأيوبية، العباسية ، السلجوقية ، العثمانية) .

وقد ظلت مقاومة الغرب لعالم الإسلام من القسطنطينية ومن الأندلس ممتـــدة لا تتوقف ، ومستمرة لا تنقطع ، واستطاع السلاجقة أن يردوا عدوان بيزنطة فى موقعة حاسمة هى موقعة ملازكرد (٤٦٣هـ) التى كشفت عن الضعف الذى بلغته الدولة الرومانية الشرقية ، مما حمل الغرب على التفـكير فى عمل آخر يقاوم به توسع عالم الإسلام ، بعد أن ظلت هذه الدولة تقاوم عالم الإسلام خمسة قرون ، وقد تمثل العمل الجديد فى تلك الحملات التى تحركت خلال قرنين كاملين على القدس والشام ومصر ، أما الأندلس فقد ظلت تواجه حملات انقضاض متصلة من داخلها ومن خارجها . حيث ظل الفرنجة من خارج الأندلس والقوط من داخلها فى محاولات مستمرة للإنقضاض عليها ، ومحاصرتها ، لايقاف التوسع الإسلامى وإجلاء العرب والمسلمين إلى أفريقيا ، وتحرير أوربا من الإسلام فى هـدف موحد محدد » وقد زاد هذا الضغط بعد موجات استنقاذ الأندلس التى قام بها المرابطون ثم الموحدون « ٤٤٥هـ — ٦٧٤هـ » (١٠٥٣ — ١٢٧٥م) وفيما كانت الحملات الصليبية تتوالى على المشرق وتقيم المملـكة اللاتينية فى القدس لم يتوقف عالم الاسلام عن المقاومة فى جهة الشام ومصر لهـذه الحملات وفى جبهة الأندلس والمغرب ، لحـلات الغزو والانقضاض المتوالية وقد أبرز عالم الاسلام أبطالا حملوا لواء الدفاع والمقاومة : من أمثـال نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس فى المشرق ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على فى المغرب .

مواقف الدفاع

غير أن هذا خطراً ثالثاً لم يلبث أن واجـه عالم الاسلام بقوة فى خلال معركته مع الصليبيين فى القدس ومع الفرنجة فى الأندلس ، ذلك هو الاعصار « التترى المغولى » ممثلا فى غزو جنـكيز خان وهولاكو وتيمورلنك على التوالى خلال فترة (١٩١ عاما) [من ٦١٦ — ٨٠٧هـ] . (بدأ الغزو المغولى للعالم الاسلامى عام ٦١٦ بقيادة جنـكيز خان وهاجم هولاكو بغـــداد ٦٥٦ وتوفى تيمورلنك عام ٨٠٨ بعد حملة سوريا عام ٨٠٤هـ) .ولا يمكن أن ينظر فى أمر هذا الغزو ، منفصلا بغير ارتباط وتدبير واتفاق بالغزو الاوربى ، ومن ثم أصبح عالم الاسلام بل الاسلام نفسه فى امتحان خطير وكان لمصر دورها الحاسم فى مواجهة الصليبيين والتتار فى هـذه المرحلة ، وكان لدولة المماليك الدور الحاسم فى القضاء على القوتين بعد معارك صلاح الدين التى تقدمتها . لقـد توقفت الحروب الصليبية فى جبهة المشرق وانتهت بفشل هذه المحاولات ، ولـكنها لم تنته بالنسبة لجبهـة المغرب والأندلس ، فقد اتجهت ناسمة هذه الحملات إلى تونس لتشارك فى الادالة من الدولة العربية الاسلامية القائمة على

أرض أوربا ، والتى دخلت مرحلة دقيقة من مراحل المقاومة حتى صفيت . ولكنها لم تصف إلا بعد أقامت موجة جديدة من موجات القوة الاسلامية ممثلة فى الأتراك العثمانيين .

هذه القوة التى استطاعت أن تسيطر على القسطنطينية فى نفس الوقت الذى زالت فيه الأندلس وبدأ عالم الغرب يواجه توسعاً جديداً داخل أوربا من فوق الأرض التى قاومت الاسلام (أرض الدولة البيزنطية) خلال ثمانية قرون وفى هذه الفترة استطاع الاسلام أن يكسب قوة جديدة ، فقد تحول التتار والمغول إلى الاسلام فأعادوا بناء هذه المنطقة التى كانوا قد أزالوا منها علامات الحضارة فى نهضة جديدة ، بل أنه وفى نفس الذى كان التتار يلحون على بغداد بالغزو لتسقط فى أيديهم كإحدى منارات عالم الاسلام يشق طريقا جديدا إلى جنوب شرق آسيا دون معارك أو قتال ليفتح فتحا جديدا من فتوحه وتوسعاته الذاتية فى عالم جاوه وسومطره .

(١٨)

« الروم وعالم الاسلام »

ظلت الروم (الدولة الرومانية الشرقية) أو دولة بيزنطة المتاخمة لحدود عالم الاسلام من الشمال، هى الثغرة الخطرة ذات الأهمية الكبرى على حدود عالم الغرب ، فقد كان الغرب منذ ظهور الاسلام وامتداده إلى الشام وأفريقيا يهدد باستعادة ما كان تحت يد الرومان ، لذلك وقف المسلمون إزاء هذا الخطر فى أهبة دائمة ومواجهة مستمرة ، وقاموا بمحاولات ضخمة لتطويق بيزنطة وغزو القسطنطينية والاستيلاء عليها ، جرى ذلك إبان حكم الخليفة الثالث : « عثمان » ثم استأنفه معاوية بنظام الشواتى والصوائف . ثم كانت محاولته الكبرى فى الاستيلاء على القسطنطينية بعد بناء الأسطول الإسلامى والأول الذى بلغ (١٧٠٠ سفينة) .زود بالسلاح واستطاع أن يسيطر على جزيرة رودس (٥٣هـ) واقريطش (كريت) ٥٤هـ ، ثم غزا صقلية وأرواد ، وفتح قبرص ، ومضى من بعد لمعركة حصار القسطنطينية التى استعصت وقاومت خلال سبع سنوات كاملة (٥٤ — ٦١) فلما توقفت هذه الحملات ، أخذ الروم فى مهاجمة ثغور عالم الإسلام فاستولوا على بعضها واقتحموا ساحل سوريا ، ثم تمكن (عبد الملك بن مروان) من استعادة ثغور الإسلام وأخضع أرمينية ، ونظم سلسلة من الشواتى والصوائف ودعم الحصون بالحراسة والذخائر .

ولم يلبث عام ٨٤ هـ أن غزا الروم وفتح حصن للمصيصة ، ثم اتجه الوليد بن عبد الملك من بعده

إلى ميدان آسيا الصغرى واستولى على حصون مرعش وعموريه وأنطاكية ، وأجرى سليمان بن عبد الملك من بعد محاولة حربية أخرى للإستيلاء على القسطنطينية التي قاومت الحصار الثاني — الذي ظل مضروبا عليها — حتى رفعه (عمر بن عبد العزيز) وقد برز في مجال هذه المعارك أبطال مجاهدون في مقدمتهم جناده بن أبي أمين قائد الأسطول الإسلامي الأول ، ويزيد بن معاوية ، وأبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عبد الملك .
وكانت هذه المحاولة مقدمة لمعارك متصلة استمرت خمسة قرون حتى استطاع السلطان محمد الفاتح أن يستولى على القسطنطينية (١٤٥١م —٨٥٧هـ) وفي خلال هذه الفترة ظلت الدولة الرومانية تواصل انتفاضها على الأرض الاسلام منتهزة فترات الضعف والخلاف الداخلي ، وقد واصل المسلمون مقاومتها وردها الادالة منها في مواقف متوالية شارك فيها الرشيد والمأمون والمعتصم وكان أبرز أدوار المقاومة الدور الذي قام به سيف الدولة الحمداني ثم الدولة الحمدانية وقد استطاع هارون الرشيد أن يرغم الروم (١٨١ هـ) على دفع جزية بلغت ٣٠٠ ألف دينار سنويا ، وذلك بعد انتصاره في حركات غزو الروم المستمرة لأراضي عالم الاسلام ، وقد استمر دفع هذه الجزيه سنوات متوالية ، ثم كان غزو المعتصم لعموريه (٢٢٣هـ) حيث حقق النصر على الروم بجيش قوامه خمسة عشر ألف فارس في مواجهة جيش الروم البالغ (مائتي ألف) : (النجوم الزاهرة) ثم استطاع السلاجقة توجيه ضربه ضخمة لبيزنطة في في موقعة « ملازكرد » كانت مقدمة لنقل مجال المعركة بين عالم الاسلام والغرب من الدولة الرومانية — المستضعفة التي حمت أوربا خلال خمسمائة سنة من توسع الاسلام — إلى اندفاعة الحملات الصليبية من قلب أوربا إلى عالم الاسلام خلال مائتي عام . ولقد لفت هذا الصراع أنظار الباحثين حتى قال « سيد أمير على » : لعله لا يوجد على وجه الأرض مكان نشبت على أديمه معارك مروعة كهذه التي نشبت في الأرض الواقعة بين الشام والأناضول ، فقد ظلت تعزيرات الجيوش على الحدود قائمة ومستمرة ، وكانت حاميات حمص وطرسوس وأذنه والمصيصه أهم هذه الحاميات ، غير أنه بالرغم من توالى الصدام بين الروم والمسلمين ، فإن ذلك لم يمنع من قيام معاملات تجارية ، وفترات سلام تبادل فيها المسلمون والروم العلاقات الثقافية والاقتصادية ، وكان التبادل الثقافي من أهم المبادلات في هذه الفترة ، فقد جعل الخلفاء المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة بديلا للمبالغ المعروضة ، وفي أوقات السلم كانت بيزنطه — تستقبل السفراء العرب من بغداد والقاهرة ، كما كانت بغداد تستقبل سفراء الروم ، وكان الخليفة يستقبلهم رسميا في أبهة شرقية بالغة ومن خلال عروض عسكرية — وكانت مقاومة سيف الدولة الحمداني ودولته (٢٩٣ — ٣٨٠) للروم بالغة الأثر في الإسلام فقد قامت الدولة الحمدانية بالجزيرة على حدود الروم إذ أجج سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة والمرابطة في سبيل حماية الثغور

فكانت ثغور ملطيه والحدث ومرعش والمارونية والكنيسة وعين زربه والمصيصه وأذنه وخرسوس معاقل صامدة المقاومة إذ كانت مواقف سيف الدوله كلها موقف دفاع ، إزاء هجمات الروم المتوالية ، يقول ماركفارت : أن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية ، فالروم فى ذلك الوقت كانوا يتبرون على أرض المسلمين ، وكان سيف الدولة يقف من غزواتهم موقف الدفاع فى حالات كثيرة . غير أن المرحلة التى تلت الدولة الحمدانية لم تكن بنفس القدوة على المقاومة مما جرأ الدولة البيزانطية على مزيد من التوسع والاعتداء على حدود عالم الإسلام ، ولم يواجه هذا العدوان من المسلمين إلا مقاومة ضعيفة فاستطاعت أن تدفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب وأن تسيطر على أرميليه وأن تفرض الجزية على الأمراء المسلمين فى شمال الجزيرة وشمال الشام وقد كان هذا كله مقدمة لمشروع غربى ضخم لغزو الشرق الإسلامى ، بالاشتراك مع الدولة البيزنطية لم يؤخره إلا ظهور قوة إسلامية جديدة هى « قوة السلاجقة » هذه القوة التى جددت شباب الاسلام وحلت محل القوة العباسية المنهاره . وقد إستطاعت القوة السلجوقية الشابه أن تواجه الغزوات البيزنطية فى صمود وأصالة وسار قادتها (طغرلبك ، ألب أرسلان ، ملك شاة) لرد عدوان الأراضى البيزنطية وحققوا انتصارات هامة ، كان أكبرها فى موقعة (ملاذ كرد) التى أسر فيها الإمبراطور رومانوس ، الذى كان قد خرج على رأس جيش ضخم من الروم والصقالبة والفرنج وفى أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على قوى الإسلام ، واتجه إلى « ملاذكرد » وهى بلدة حصينة على فروع نهر مرادسو ، فضرب حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة (ألب أرسلان) فى عدد لا يتجاوز ربع قوة عددهم ، وتقول الرواية أن قائد المسلمين إختار الإشتباك مع الروم يوم الجمعة فصلى بجنده ظهرا ، ولبس البياض وتحنط ، استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا فى براعة وجلد وبسالة ، فلما رأى رومانوس ما لحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ، ليتأهب للقتال فى اليوم التالى ، غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك ، فضغطوا بقوة ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة ، تدافع منها الفرسان المسلمون واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاماً قاتلة ، ثم إنقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه وأسر رومانوس وتمت هزيمة الروم (٤٦٣ هـ) ونقل القيصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الذى عاتبه على رفضه طلب الهدنة الذى تقدم به المسلمون .

وسأل ألب أرسلان الأمبراطور : ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر . وقال رومانس : أنه كان

يقتل السلطان ويمثل به . قال أرسلان : ولكنى عزمت على العفو عنك والفداء . فافتدى الإمبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقه وشيعه فرسخاً . وأرسل معه جنداً يحفظونه ومعه راية مكتوب عليها « لا إله إلا الله » . (البداية والنهاية) . وقد علق على هذه المعركة المؤرخ ريتشارد بنوهول فقال : لقد كان الغزو الإسلامى بقيادة ألب أرسلان فى نطاق لم تشهد الإمبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، وقد منى الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الإمبراطور البيزنطى أسيراً ، ومن ثم كانت واقعة (ملاز كرد) من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الشرق والغرب ، إذ كانت ضربة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فكانت عاملا حاسماً فى اندلاع الحروب الصليبية ، ولو أن ألب أرسلان سار فى طريقه — بعد هذه المعركة — إلى البوسفور لما وجد شيئا من المقاومة ولقوض أركان الأمبراطورية البيزنطية » .

ومنذ معركة (ملاز كرد) استوطن السلاجقة ، هضاب آسيا الصغرى ، وأصبحت فى حوذة المسلمين ، ثم استولوا على (نيقة) ٤٧٧ هـ وبقى سلطانهم فى هذه البلاد أكثر من قرنين حتى قضى عليه المغول ٦٥٥ هـ قبل سقوط بغــداد بعام واحد ، وتوفى السلطان ألب أرسلان بعد معركة « ملاز كرد » بعامين ، وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة لأراضى الدولة الرومانية الشرقية حتى طوق السلاجقة آسيا الصغرى من الجنوب وبسطوا سلطانهم عليها ، وكان لملاز كرد أعمق وقع فى أوربا ، فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الاسلامى ينذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية ، والاندفاع إلى أوربا ، هنالك تعالت الصيحات وجرى إعداد مخطط الغزوات الصليبية ، التى امتدت بجناحيها إلى المشرق وإلى المغرب ، غير أنه لم يمض على (ملاذ كرد) أكثر من خمسة عشر عاماً حتى استطاعت القوى الإسلامية فى المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق الفرنجــة الغازية فى « موقعة الزلاقة » ٤٧٩هـ . هكذا كان هذا الموقف الخطير فيما بين المشرق والمغرب ، وفى طرفى عالم الاسلام بمحاذاة الدولة الرومانية الشرقية الضعيفة المنهارة ، وبمحاذاة فرنسا على حدود الأندلس ، دافعا لمخطط الحروب الصليبية التى اندلعت فى أواخر القرن الخامس واستمرت خلال القرنين السادس والسابع ، وانتهت بهزيمة ساحقة لها فى المشرق ، وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الاسلام فى الغرب .

غير أن الحروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة قوية شابة عالم الاسلام هى موجة الوحدة الاسلامية العثمانية ، التى استطاعت أن تتوغل فى أوربا وتسيطر على أقدارها خلال خمسة قرون كاملة ، كرد فعل للحروب الصليبية والتى استولت على « القسطنطينية » وأقامت فى آسيا

الصغرى إمبراطورية ضخمة امتدت ستة قرون (١٣٠٠ — ١٩١٧م) (٦٩٩ — ١٣٣٦هـ) . وإذا كان لنا أن نستعرض النتائج التاريخية والثقافية والاجتماعية لهذه الفترة التى سبقت الحروب الصليبية ، قلنا أن الاسلام كان بعيد الأثر فى النفاذ إلى قلب الدولة البيزنطية والتأثير فى مفاهيم الغرب الفكرية مما كان له أثره فى حملة رجال الكنيسة على الصور والأيقونات المقدسة . كما كانت هذه المرحلة بعيدة الأثر فى الأدب العربى الاسلامى حين رسمت صورة البطولة الاسلامية فى المرابطة والدفاع عن الثغور ، وبرز اسم المحارب العربى المسلم « عبد الله البطال » الذى نسجت حول حياته قصص أسطورية حاولت أن ترسمه ، وقد وهب قوة خارقة فوق مستوى البشر وكان قد استشهد فى معركة أكرونيون فى آسيا الصغرى . كما كان لهذه المعارك آثارها فى انتقال كلمات كثيرة من العربية إلى اليونانية وبالعكس .

(١٩)

الحروب الصليبية فى المشرق

« الحروب الصليبية » : كانت هى انطلاقة أوربا الدينية والاقتصادية فى مواجهة عالم الإسلام ، وتوسعاته ، وقد بدأت منذ اليوم الأول لبلوغ الإسلام أطراف أوربا ، ثم ازدادت عمقاً واتساعا مع توالى الزمن ، فلم يكد يصاب تماسك الدولة الإسلامية بالضعف وينالها التجزؤ والانقسام حتى توالت هذه الحملات من طرفى عالم الإسلام اندفاعا، فلم تلبث أسبانيا والمغرب وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا والشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والبحرين المتوسط والأحمر أن أصبحت جميعها ميادين معركة ضارية قوامها الحملة على الاسلام والعمل على سحقه والادالة منه . أن الظاهرة الواضحة الدلالة لهذا المعنى هو أن الغزو من قبل أوربا والغرب كان عنيفا مليئا بروح التعصب والانتقام، بينما كان التوسع الاسلامى فى عالم الغرب أو الدفاع عن عدوان الغرب ومقاومة غزوه كان رحيما عادلا .
وقد أجمع المؤرخون على أن الحروب الصليبية لم تبدأ يوم بدأت ٤٩٢هـ — ١٠٩٩م بل أنها تعود إلى الوراء سنوات طويلة ، وتعتبر امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع عالم الاسلام ، وترتبط بالصراع الذى دار بين المسلمين والفرنجة فى أسبانيا وحدود فرنسا ، وأنها لم تنته يوم انتهت بسقوط عكا ٦٩٠هـ — ١٢٩١م ولكنها امتدت بعد ذلك حتى استعادت الأندلس وأخرجت المسلمين من أوربا وشملت — ليس منطقة الساحل الشامى وحده من القسطنطينية إلى القدس ومصر — بل ساحل البحر الأبيض المتوسط جميعا .

الحروب الصليبية

٤٩٢هـ (١٠٩٩م) الحملة الأولى : بيت المقدس

٥٤٢ (١١٤٧) الحملة الثانية : ساحل الشام

٥٨٤ (١١٨٨) الحملة الثالثة : ساحل الشام

٥٩٩ (١٢٠٣) الحملة الرابعة : القسطنطينية

٥٩٩ (١٢٠٤) (عصابات ناهية)

٦١٣ (١٢١٧) الحملة الخامسة : عكا

٦١٥ (١٢١٨) الحملة السادسة : دمياط (مصر)

٦١٦ (١٢١٩) استيلاء الصليبيين على دمياط .

٦١٨ (١٢٢١) انسحاب الصليبيين من مصر

٦٢٥ (١٢٣٨) الحملة السادسة استعادة بيت المقدس (فردريك الثانى)

٦٣٩ (١٢٤٤) الملك الصالح أيوب يسترجع بيت المقدس

٦٤٧ (١٢٤٩) الحملة الصليبية السابعة : (دمياط)

٦٤٨ (١٢٥٠) هزيمة الحملة الصليبية السابعة (المنصورة)

٦٤٨ (١٢٥٠) مقتل توارن شاه وتولى المماليك حكم مصر

٦٨٨ (١٢٨٩) الحملة الصليبية الثامنة: تونس

٩٦٠ (١٢٩١) سقطت عكا فى أيدى المسلمين (الأشرف خليل)

× الحملات الأولى والثانية والثالثة والخامسه : اتجهت إلى الشام :

× السادسه والسابعه : اتجهت إلى مصر — والثامنه اتجهت إلى شمال أفريقيا (تونس)

× أهم الحملات : الأولى والرابعه والخامسه .

× كانت الحملات الثانيه والثالثه والسادسه والسابعه والثامنه تحت زعامه ملوك أوربا .

× منذ بدأت الحملة الصليبيه الأولى إلى الشام ١٩٩٨ لم يتوقف ورود جموع صليبيه جديدة ، متصلة ، على هيئة حجاج إلى بيت المقدس ، وقد بلغت هذه الجموع فى مجموعها ، أضعاف الأرقام التى عرفت عن الحملات الصليبيه .

× اتصل مجرى هذه الحملات خلال قرنين كاملين ، ومر بثلاث مراحل . (أولها) دور ظفر الأفرنج (٤٩٢ هـ — ١٠٩٨ — ٥٣٩ هـ — ١١٤٤) . (ثانيا) بدأ رد الفعل الإسلامي بحركات مقاومة وصلت إلى استعادة الرها (٥٣٩) بقيادة نور الدين ، ثم بلغت قمتها بانتصارات صلاح الدين في « حطين » واستعادته بيت المقدس . (ثالثاً) محاولات لمقاومة التمزق والنهاية في مواجهة حملات المماليك (الظاهر بيبرس وقلاوون والناصر) انتهت ٦٨٩ هـ — ١٨٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بلاد الاسلام .

× كانت جيوش الصليبيين مؤلفـــة من نورمانيين وايطاليين وبريطانيين وفرنسيين والمـانيين ونرويجيين وسويسريين ، ولم تـكن لهذه الحـملات الصليبية قيمة توسعية هامة أكثر ممـا حققته .

× الحملة الصليبية الأولى (١٥ يوليو ١٠٩٩) ٤٩٢ هـ حققت الاستيلاء على بيت المقدس . أما باقي الحملات فقد كانت موالاة للبقاء ومحاولات للاستمرار .

× إستطاع الفرنجة بإحتلال بيت المقدس إقامة عدة ممالك : هي (١) إمارة الرها (٩٤٢ — ٥٣٩ هـ) . (٢) أما إمارة طرابلس (٤٩٦ — ٦٨٨) : (٣) إمارة أنطاكية حتى ٦٦٧ هـ . (٤) إمارة بيت المقدس . إمارة الرها فقد استمرت من ٤٩٢ — ٥٣٩ حتى إزالها عماد الدين زنكي ، أما مملـكة بيت المقدس فقد أزالها صلاح الدين . والمعروف أن حركة المقاومة الإسـلامية بدأت منذ اللحظة الأولى تغير على قواعد العدو ، ثم تطورت إلى قوة هجوم حمـــل لواءها عماد الدين زنـكي الذي استطاع أن يستعيد (الرها) كبرى معاقل المملـكة اللاتينية (٥٣٩ — ١١٤٤) .

وقد اهتز الغرب لسقوط الرها اهتزازاً ضخما فكان ذلك دافعاً للحملة الصليبية الثانية ٥٤٢ — ١١٤٧

× لم تتوقف حركة اتحاد أجزاء العالم الإسـلامي المتاخم لمجال الغزو الغربي أما منطقة الشام وفلسطين ومصر فقد إتحدت في ظل نور الدين محمود الذي هزم جيش إنطاكية واستولى على تل باشر آخر بقايا إمارة الرها . كان لإنتصارات نور الدين محمود أثرها في تحرك الحملة الصليبية الثالثة التي فشلت أمام دمشق :

× توسعت خطوات المقاومة وبلغت قمتها في أعمال صلاح الدين حتى استطاعت في معركة حطين

أن تسترد بيت المقدس (٥٨٣ — ١١٨٧) هنالك أخـذت الحملات الصليبية تتوالى على مصر بوصفها المركز الأقوى التى يقود حركة المقاومة حيث اتجهت الحملات الصليبية الخامسة إلى دمياط (١٢١٨) والسابعة (١٣٤٩) إلى شاطىء مصر فى محاولة لويس للاستيلاء على دمياط ثم هزيمته فى المنصورة وفارسكور (١٢٥٠) .

× كانت الحملة السادسة قد استطاعت بعد وفاة صلاح الدين أن تستعيد بيت المقدس (٦٢٥ ـ١٢٢٨) غير أنه ولم تمض على هزيمة لويس فى المنصورة إلا سنوات قليلة حتى استولى المغول على بغداد واسقطوا الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم العباسى (٦٥٦ — ١٢٥٨) ثم اجتاحـوا حلب واستولوا على دمشق ، وأتيح لمصر كرة أخرى أن ترد المغول فى عين جالوت (٦٥٩هـ—١٢٦٠) وكانت قوة المماليك قد سيطرت منذ سنوات قليلة على السلطة فى مصر بذلك استطاعت أن ترد الحملة الصليبية (٦٤٨هـ ١٢٥٠) والحملة المغولية (٦٥٦ هـ — ١٢٦٠) فى خلال عشر سنوات ، هنالك بدأت هذه القوة الجديدة (المماليك) تسيطر على مقدرات عالم الاسلام وتحمل لواء المقاومة خلفا لنور الدين وصلاح الدين ، وممثلة فى قطز والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر ، وفى هذه المرحلة حقق المماليك ثلاث أمور هامة .

(١) تصفية الممالك اللاتينية والصليبية وانهاء ممـلكة بيت المقدس .(٢) تصفية قلاع الباطنية فى الشام والقضاء عليها . (٣) الحفاظ على الشام ومصر من غزو المغول :وقد أمتد هذا النفوذواستمر حتى برزت موجة جديدة من موجات المقاومة الاسلامية البدوية هى قوة العثمانيين التى سيطرت بعـد ستة قرون كاملة .

(٢)

وصلت الحملة الصليبية فى الأولى إلى القدس عام ٤٨٩ هـ وسقطت آخر معاقل المملـكة اللاتينية فى القدس عام ٦٩٠هـ : وتوالت خلال هذه الفترة ثمان حملات صليبية (منها أربع حملات على المقدس وحملتان على مصر وحملة على تونس) . ومن خلال الحروب الصليبية كانت حمـلات التتار التى انتهت بسقوط الخلافة فى (بغداد — ٦٥٦ هـ) وقد بدأت مقاومة عالم الإسلام للغزو منذ وطئت قوى الفـرنجة القدس ، ولم تتوقف خلال قرنين كاملين ، برز خلالها عدد من الأبطال والقادة والمجاهدين واستشهد عدد لا حد له من المحاربين . وواجه المسلمون والعرب هذا التحدى برد فعل متصل .

برز « نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، والملك الصالح نجم الدين ، والظاهر بيبرس وقلاوون وخليل » . على فترات فى الشام ومصر خلال هذه الفترة ، حتى صفيت هذه المواقع ، وقضى على هذه الحملات ، وانتهت بالفشل ، وكتب المسلمون والعرب المقاومون صفحات غاية فى الإشراق والقوة والحيوية ، كشفت عن البطولة فى المقاومة ومواجهة أساليب الصليبيين البالغة العنف فى العدوان بأساليب كريمة ، قد اندفع الفرنجة فى حملتهم يسفكون الدماء على نحو غاية فى البشاعة ، فلما استمسك المسلمون بالأمر لم يردوا هذا الفعل بمثله ، ولم يوغلوا فى الانتقام . وقد ضرب « نور الدين محمود » مثلا عاليا فى تطبيق خلق الاسلام وطابعه ، وكان صلاح الدين الأيوبى نموذجا رائعا فى البطولة والسماحة معا ، وكانا معا فى إطار الجهاد والمقاومة : أشبه بالشيخين أول الاسلام ، وتتمثل فى الظاهر بيبرس ، وقلاوون وخليل وجميعهم من المماليك موجه أخرى من موجات القوى المنبثقة من أحشاء الاسلام ، تضاف إلى موجات السلاجقة والبربر ، ولهم جميعا دورهم فى هذه المرحلة فى مقاومة الغزو الخارجى ، وقد كان لأبطال المماليك بعد دور بطلى السلاجقة (نور الدين وصلاح الدين) أثر ضخم فى إنهاء المملكة الصليبية اللاتينية ، والقضاء على التتار .

وكانت « حطين » معركة فاصلة ، فى سبيل استرجاع بيت المقدس ، وكان هزيمة لويس فى المنصورة حاسمة فى فشل الحملات وعودتها خاسرة . غير أن ذلك لم يكن هو النهاية بالنسبة لموقف أوربا من مقاومة توسع الإسلام والعمل على دفع موجة نفوذه ، فإن فشل هذه الحملات قد أغرى قوى الفرنجة بالضغط على أسبانيا وتكتيل القوى الأوربية فى سبيل تصفية الإسلام والعرب من شبه جزيرة أيبريا وفقاً لخطة مؤداها : « تحرير أوربا من شرقيها وغربيها من دفعة الإسلام » ومن ثم فقد تعمقت فى هذه المرحلة خطط اقتلاع الإسلام من أسبانيا والقضاء على الدولة العربية بها .

ويمكن القول أن أبرز عوامل الحملات الصليبية هى العمل على استعادة الأرض التى فى يد العرب وإعادة السيطرة على عالم الإسلام ، أو على الأقل إيقاف توسع الإسلام والحلولة بينه وبين السيطرة على أوربا ، وقد كان ذلك مفهوما عاش واستمر وتطور فى أعماق النفس الأوربية قرونا متصلة ، منذ وصل المسلمون إلى أسوار القسطنطينية وسيطروا على الأندلس وبلغوا نهر اللوآر ومابعده حتى باتوا قريبا من روما .

ومن هنا فقد كانت الدولة البيزنطية هى حامية أوربا دون توسع الإسلام ، فلما عجزت عن القيام بدورها التاريخى ، كان على الغرب أن يترقب فرصة وقوع جزر إسلامى جديد لتحقيق هذا الهدف

باسم استرداد بيت المقدس . وكانت محاولة الاسترداد ممتدة على طول البحر الأبيض المتوسط من القسطنطينية إلى الأندلس ، وعلى الشام ومصر والمغرب بالذات . ولاشك كان العامل الدينى ممتزجا بالعاملين الاقتصادى والاجتماعى ، دون تفرقة أو تغليب لأحد منهم عن الآخر ، فهى حركة أوربية مناهضة لسيطرة الإسلام تحمل الطابع الدينى فى أشـــد مراحل عنفه وتعصبه لمقاومة نفوذ العرب المسلمين الذى تزايد فى هذه المرحلة . ثم هى حملة من مجتمع أقل حضارة ومدنية وثقافة على مجتمع حضارة وثروة ، وقد واجه الفرنجة حضارة أرقى من حضارتهم فأفادوا منها ، بينما ترك الأوربيون آثاراً بعيدة المدى لصور الجشع والتعصب والحرب والتدمير ، ما زالت تتمثل حتى اليوم ، بالرغم من محاولة الغرب رسم صورة أقل عنفا فى حملته الثانية (الاستعمار الحديث) التى فصلتها عن الأولى ثمانية قرون هى عمر القوة العثمانية .

ولاشك أن حركة إعادة نفوذ الغرب فى المناطق التى كانت تحتلها الدولة الرومانيـــة فى شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط والتى لم تسكن فى الحقيقـة جزءاً من عالم الغرب نفسه وإن فرضت عليها السيطرة الاستعمارية ، وهى التى أصبحت بعـد جزءاً من عالم الإسلام . هذه الحركة كانت قد تقدمت خلال مائة عام ونيف قبل الحملة الصليبية الأولى نتيجة لموجة الضعف التى كانت تمر بالمسلمين إذ ذاك بعد مرحلة تضخم وترف ، فكانت بعيدة الأثر فى اضعاف الوحدة السياسية والقوة العسكرية مما أدى إلى القصور عن الحماية واليقظة فى الثغور والمناطق المكشوفة للغزو . ومن أهم المواقع فى هذه الفترة : استرداد الغرب لصقلية الاسلامية ، وإزالة الفرنجة لكثير من أجزاء الدولة الاسلامية فى الأندلس بتفريق الأمراء المسلمين والايقاع بينهم وتمزيق إماراتهم وتضام أمراء الفرنجة ودمج ممالكهم فى سبيل مواجهة البقاء الاسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا . وقد كانت الحركة الصليبية فى المشرق ذات مخطط واضح فهى قد اندفعت فى خط ممتد من القسطنطينية إلى غزه ، ووجهت حملاتها إلى شواطىء الشام ومصر وأقامت دولة ذات أربع إمارات على الساحل الشامى خلال مائتى عام . ثم وسعت نفوذها بالسيطرة على العقبة ، وبذلك أقامت فاصلا يحول دون إلتقاء عالم الاسلام فى أفريقيا وآسيا ، واستطاعت فعلا أن تستنزف — خلال مائتى عام — جميع القوى البشرية والمادية فى هذه المنطقة حيث كانت الشام ومصر هى المسئوله عن مواجهة هذه القـــوة المعتدية ، وقد توقفت خلال هذه الفترة أعمال البناء والحضارة كما اتسم «الفكر الاسلامى العربى» بطابع المقاومة والتحدى ورد الفعل ، وقـــد برز ذلك فى اتجاه فـكر الغزالى وابن تيميه وأصحاب الموسوعات. فمن الناحيه الاقتصادية تناقصت الثروة ، وضعفت الأيدى العاملة نتيجه لأعمـال الحرب التى استنفذت الموارد

الاقتصادية والقوى البشرية . غير أن هذه الحملات كانت معبراً للحضارة والثقافة إلى أوربا ، إذ كانت بعيدة المدى فى خلق جسر واسع عريض خلال قرنين كاملين لنقل الحضارة الاسلامية العربية إلى أوربا ، فقد نشأت على الأثر حركة واسعة فى ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية وكان أبرز مركزى هذه الترجمة : جزيرة صقليه والأندلس .

كما استطاعت « أيدلوجيا الاسلام » أن تتمثل فى كثير من الحركات الثقافية والاجتماعية التى عرفتها أوربا بعد ذلك ، فالأوربيون وإن لم يأخذوا الاسلام ، وقاوموا عاله بعنف وشراسة ، فإنهم أخذوا « منهجه التجريبى » فى العلم ومقوماته فى الفكر والاجتماع والفروسية ، فقد كان الاسلام وفكره وثقافته ومفاهيمه بعيد المدى فى حركات الاصلاح الدينى ، قوى الأثر فى الحركة العقلية وعلى الحضارة وعلى كل جوانب النهضة التى بدأها الغرب بعد ، وبذا يمكن القول بأن الاسلام أعطى وتفاعل مع كل القوى التى اصطدمت به أو حاولت غزوه ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للتتار . ومن هنا يمكن القول أيضا بأن الغزو الخارجى لعالم الإسلام كان هو العامل الأكبر فى دخوله « مرحلة الضعف » هذا الضعف الذى تمثل فى تخلف المسلمين عن أيدلوجية الإسلام عن الحركة والعمل ، بينما كانت تتوالى الوجات القوى البشرية القادرة على الدخول فيه وحمل لوائه .

هذه القوى التى تتمثل فى السلاجقة والتتار والبربر والعثمانيين وهى قوى بشرية هائلة دخلت الاسلام وآمنت به وسيطرت على عالمه عسكرياً وسياسيا ، ولكنها ظلت دون القدرة الكاملة على تطبيق أيدلوجيته على نحو يكفل لها الاستمرار ، أو إقامة مجتمع العدل والحرية لجماهير المسلمين .

لعل أبرز ما يلفت النظر هو الاستجابة السريعة بالتحدى ورد الفعل على الحملات الصليبية إلى المشرق « فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش فى العراق لمنازلة الغزاة المعتدين ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للذود عنها ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه فى مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية وطاقاتها المادية لطرد الصليبيين من دمشق ، ولا يكاد أرناط حاكم الكرك الصليبي يخرج فى البحر الأحمر لتهديد الحجاز حتى تشيد السفن فى مصر وتحمل على ظهور الجمال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين . ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا قد نزل على رأس جيوشه فى تونس حتى تتخذ

الاجراءات السريعة لدفع هذه الغارة ، وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاما بين أجزاء الوطن العربي.

كانت الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وكانت رداً على توسع الاسلام بعد سيطرة الغرب لأكثر من ألف عام على أغلب المناطق التى قام فيها الاسلام والتى كانت قد أضيفت إلى الغرب بعد حركة الاسكندر الذى استطاع أن يسيطر على هذه المنطقة ، وأن يوحدها تحت سلطة الغرب ونفوذه ، ولكن هذه الحملات كشفت عن مفهوم جديد ، هو أن هذه المنطقة بعد ظهور الاسلام لم يعد من السهولة ضمها إلى عالم الغرب وفكره . لقد جاءت الحروب الصليبية بعد خمس قرون من ظهور الاسلام فى محاولة لاستعادة هذه المناطق التى لم يعد من السهل إعادتها إلى الغرب . لأن مفهوما فكريا جديداً قد سيطر فى هذه المنطقة وتعمق وأصبح يمثل قوة جديدة تستطيع أن تواجه عالم الغرب ، فقد برزت حضارة وعقلية جديدتين ، وظهر أسلوب حياة مباين بحيث يمكن القول أن الحروب الصليبية هى صراع بين حضارتين وعقليتين وأسلوبين فى الحياة وأنه بعد مائتى عام ، اتضح للغرب عجزه عن تكرار محاولة الاسكندر الأكبر ، ذلك أن الاسلام قد أقام أيدلوجيا جديدة عميقة الجذور ، وأن الغرب نفسه قد جاء فى أفواج همجية مشردة ، ليواجه عالما من الحضارة المدنية يستطيع أن يعطى ، فى مجال القيم الخلقية والفكرية والحضارية .

وبعد : فإن عالم الاسلام لم يواجه هذه القوى — بعد أن سيطر عليها وأحاطها بنفوذه ثم إجلاها. لم يواجه هذه القوى بمثل ماواجهته عندما غزت أرضه فأسرفت فى القتل والعدوان . بل كان بها عادلا رحيما ، وقد بدأ يتمثل صلاح الدين الأيوبى وهو فى موقف القوى المنتصر قائما فى ضوء مفهوم الاسلام وأيدلوجيته ، كريما رحيما عادلا ، يتمثل مفهوم الاسلام : (العفو عند المقدرة) مما كان له أثره فى تحول مفهوم أهل الغرب عن الاسلام وأهله بالنسبة لما كانوا يعتقدونه بالظن فيه ، لقد كانت المقارنة قادرة على الكشف عن مفهومين وعقليتين . لا يمكن أن يلتقيا ولكن يمكن أن يقتبس كل منهما من الآخر

(٣)
معاملة المسلمين ومعاملة الفرنجة

حاول مؤرخو الغرب وتابعهم بعض المؤرخين العرب أن يبرروا الحملات الصليبية على « عالم الاسلام » ، بأنها إنما كانت مجرد حملات لاسترداد بيت المقدس وأنها إنما تحركت لتحرير الطريق إلى قبر السيد المسيح ، وحمايته من مظالم السلاجقة الذين اضطهدوا الحجاج المسيحيين ، وأن بطرس الناسك قد زار القدس وعاد يهيج الخواطر ويثيرها على سوء المعاملة . والحق ، أن هـذه إحدى افتراءات التاريخ الكبرى التي عاشت طويلا دون أن نجد من يحققها أو يدفعها ، فليس هناك أى دليل أو أى وثيقة تثبت مثل هذه الاتهامات ، وكل ما عرف فى هذا المجال هو أمر الضريبة المقررة على الحجاج والتى زعموا أنها فاحشة ، أما الاعتداء على حجاج القبر المقدس فلم تتأكد بدليل واحد أو شاهد منصف ، وإذا وجدت حوادث فردية فهى مما لا تخلو منه مملكة . ومن المؤرخين المنصفين الذين عاشو تلك الفترة وزاروا الشام : « برنارى فيس » الذى كتب فى مذكراته يقول أن السلام ساد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أنى لو كنت مسافرا ونفق بعيرى أو حمارى الذى ينقل أمتعتى وتركتها كلها دون حارس ولا رقيب وسرت إلى أقرب مدينة لأجاب لى بعيراً أو حماراً آخر لوجدت عند عودتى أنها باقية على ما هى عليه » وقال العلامة متزو : « كانت تلك الفظائع المنسوبة إلى المسلمين ممزوجة بكثير من الأقاوية « التوابل » لتوافق روح ذلك العصر الذى كان أشد توحشا من عصرنا هـذا ، وكان النصارى يأخذون قصص تلك الفظائع على علاتها » وتجمع المصادر على أن المسلمين لم يعاملوا الفرنجة بالمثل ، بالرغم من مظاهر العنف البالغة والانتقاض والنكث بالعهود والتآمر التى نفذها الأوربيون وكرروها فى أكثر من موقف

كان المسلمون فى جميع أدوار الحروب الصليبية يتصرفون فى حدود مفهوم الاسلام وأيدلوجيته رفقاً وعدلا فى دار الحرب والسلم ، ويسجل المؤرخون أن الصليبيين فى الحملة الأولى سفكوا دماء المسلمين حتى فى المسجد الأقصى بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه دماء المسلمين الذين قتلوا (كتاب التاريخ العام لافيس ورامبو) فإذا نظرنا إلى أعمال الصليبيين تركنا للعلامة ميشو فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية أن يصور أعمالهم قال « إنهم قتلوا فى معركة النعمان وحدها جميع من كان من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمختفين فى السراديب وأهلكوا صبرا (دون قتال) مايزيد على مائة ألف إنسان .

وقال ميشو : لقد تعصب الصليبيون فى القدس التعصب الأعمى التى لم يبق لها نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض إلى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين وقد دام الذبح فى المسلمين أسبوعا حتى قتل منهم على ما اتفق فى رواية مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة » . كما أحرقوا دار الحكمة فى طرابلس وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر الاسلامى ، فإذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس واستعادتها منهم عام ٥٨٣هـ وكان بها ألف من الفرنجة والصليبيين (منهم ٦٠ ألف راجل وفارس) غير النساء والأطفال لوجدنا تصرفاً يختلف كل الاختلاف ، لقد حفظ صلاح الدين الأيوبى حياة هؤلاء جميعاً واستوصى بهم وسمح لهم أن يخرجوا بكل ما يملكون من ذهب وفضة ، واكتفى بأن فرض على كل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة وعلى كل طفل دينارين وتحمل عمن عجز منهم ، فأعفا كثيرين من هذه الفـدية .

وأدى الملك العادل أخو صلاح الدين الفدية عن ألف منهم ، وعومل النساء معاملة غاية فى السماحة واللطف ، وأغضى عن كل ما حملوا معهم من غنائم . وأباح للبطريرك الأكبر أن يخرج آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع التى غنمها الصليبيون فى هجومهم الأول . ورفض صلاح الدين ما ذهب إليه مستشاروه من أن البطريرك سيتقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية ، وقال : « لا أغدر به » ، كما خالف ما أشار به بعض الفقهاء الذين قالوا بمعاملة الفرنجة بمثل ما عامل به أجدادهم جمهور المسلمين يوم فتحهم للقدس .

بل لقد ذهب صلاح الدين إلى أبعد من ذلك فانه لما عقد الصلح بينه وبين الفرنجة ، دخل خلق كبير من الافرنج إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة ، لقد التزم صلاح الدين منهج الإسلام ومفاهيمه وحاول أن يكون مثلا واقعيا للقيم الإسلامية وكان لهذا أبعد الأثر فى تصحيح مفاهيم الغربيين إزاء ما ألقى إليهم من شبهة عن قسوة المسلمين وظلمهم . حتى عاد كثيرون منهم بعد انتهاء الحروب الصليبية يتحدثون عن الإسلام وعن صلاح الدين بانصاف . وقد تحدث بعض المؤرخين عن خلق صلاح الدين فقال « أيوركا » المؤرخ : « لقد أظهر الجند المسلمون الذين رافقوا المطرودين من الفرنجة شفقة مؤثرة ، ولاسيما على الأطفال والنساء ، ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين ، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعاية الجمهوريات

الإيطالية ليعيدوا هؤلاء البائسين من الصليبيين . وقال منرو : كان صلاح الدين محبوبا فى الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ولسلوكه سلوكا آخر غير سلوك الصليبيين آثار دهشتهم وعجبهم ، وكان كما هى العادة عند المسلمين شديد التسامح مشهوراً بتأدبه » ولكن هل كان فى ذلك عبرة أو رد بالجميل ، الواقع أن العكس هو الذى كان ، فإن الصليبيين لم يلبثوا أن أظهروا الغدر بعد قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، إذ سارع ريتشاردقلب الأسد مستبطئاً وعداً لصلاح الدين بإرسال بعض الأمانات ، ولم يلبث أن أخذ ملك الانجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل فى عكا بمرأى من جند صلاح الدين وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ورغبة فى الانتفاع بمرائرهم ليتخذونها دواء يستشفون به (تاريخ الأمير حيدر) . وسجل المؤرخون الغربيون كيف أسر المسلمون كثيراً من الفرنجة الذين ظلوا أمداً طويلا فى أسرهم فكانوا يعاملونهم معاملة طيبة ، ويمنحوهم وافراً من الحرية . (تاريخ الحروب الصليبية لمنرو) وقد أشار هذا المؤرخ إلى أن الفرنجة قد اكتشفوا حقيقة هامة وخطيرة هى أن « اتهام للمسلمين بالجبن قد زال من أذهان الصليبيين لما التحموا معهم فى القتال » .

المقاومه

(أولا) وحدت الحروب الصليبية جبهة المسلمين وأزالت خلافاتهم فأضحوا عرباً وتركاناً وأكرادمتجمعين على مقاومة الغزوالغربى ، كما تلاقت الدول : الفاطمية والأتابكية، والأيوبية ،للمماليك . (ثانياً) عنى المسلمون بفنون الحرب ، وبرعوا فى ابتكار أنواع جديدة منها وكانت مواقفهم واختراعاتهم الجريئة موضع إعجاب الفرنجة حين قاتلوا بالإبراج والمنجنيقات والدبابات والسكباشى والدوالب والطب والسرايات وطم الخنادق ونصب السلالم والزحوف فى الليل والنهار . (ثالثاً) كانوا يتعاورون المعارك والمواقف ساعات من الليل والنهار فيعملون فى سبيل أرزاقهم أوقاتا ويخصصون للجهاد ساعات وأياما . (رابعا) أبرزت الحروب الصليبية أعلاما فى مجال السياسة والحرب : نور الدين وصلاح الدين والكامل والظاهر وقلاوون والأشرف وعشرات من الزعماء والقواد . (خامسا) اختلف أسلوب مقاومة الحملات الصليبية فى الشرق وتطور ، كان منهج نور الدين مختلفا عن منهج صلاح الدين ، وكان منهجاهما معا يختلف عن منهج الظاهر بيبرس وقلاوون . وقد ظلت مقاومة نور الدين قائمة ومستمرة فى الغارات على حصون الصليبيين ، وقد استطاع أن يفض أكثرها ففتح أكثر من

خمسين حصنا ، وكسر الصليبيين فى حارم وكانت عدتهم ٣٠ ألفا من الروم والأرمن والفرنج ، أما صلاح الدين فقد أوقع بهم فى معارك فاصلة وقد أعطى صلاح الدين الغربيين صورة باهرة للتطبيق الإسلامى للحرب والقتال والصلح أما الظاهر بيبرس فقد اضطر إلى اصطناع أسلوب أكثر عنفا من صلاح الدين وكان لمؤامرات الصليبيين أبعد الأثر فى هذا الإتجـاه . (سادسا) ظل الشعب صامداً ومتحملا آلام الضيق الاقتصادى نتيجة استنزاف الموارد فى معارك المقاومة ، ولـكنه ظل يقظا لأى موقف مهادن . فقد استنـكر المسلمون صنع الملك الـكامل ابن أخى صلاح الدين عندما وقع مع الأمبراطور فردريك معاهدة بازالة الصفة العسكرية عن القدس والتنازل عنها للصليبيين . (سابعا) قاوم المسلمون كل محاولة لتثبيط الهمم ، فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على أبيها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله لما أيقنت أنه استوهى الافرنج ليسلم إليهم الملك . ولما وقع أحـد ملوك الصليبيين أسيراً فى قبضة نور الدين باعه نفسه بمال عظيم أنفقه فى الجهاد . وافتدى أحد ملوكهم نفسه بمبلغ كبير فأخذه وبنى به مستشفى عظيما . (ثامنا) حاول (ارناط صاحب الـكرك) من ملوك الصليبيين فتح الحجاز ، فأنشأ لذلك أسطولا فى بحر الدوم (الأحمر) وسار فى البحر فحاصر حصن « ايله » ، واتجه نحو عيذاب لاضطهاد المسلمين فى تلك الأرجاء ، وأهان اسم النبى بكلمات رويت عنه ، فحلف صلاح الدين أن يقتله بيده إذا ظفر به ، وقد حقق صلاح الدين وعده بعد موقعة حطين . (تاسعا) فى خلال الحروب الصليبية وفى معمعتها ، برز « الخطر المغولى » : كانت الحروب الصليبية تشغل الشام ومصر.

أما الخطر المغولى فقد اجتاح عالم الإسلام من حدوده الشرقية حتى وصل بغداد ، وحلب ودمشق فـكانت (حملة هولاكو) (٦٥٦هـ — ١٢٥٨) بعد الحملة الصليبية السابعة (حملة لويس على مصر) (٦٤٦هـ — ١٢٤٨) بعشر سنوات وقد اجتاحت عاصمة الخلافة (بغداد) فأسقطتها ، واستطاع المماليك الذين كانوا قد حكموا مصر قبل ذلك بسنوات قليلة (٦٥٢هـ) ، أن يردوا عدوان التتار على حدود مصر فى موقعة فاصلة هى « عين جالوت » ، انهزم فيها التتار بعد جولة ضخمـــة من النصر اكتسحوا خلالها عالم الإسلام . (عاشرا) أثبت انهيـار مملـكة بيت المقدس فى موقعة (حطين) ٤ يوليو ١١٨٧ — أن الصليبيين بعد تسعين عاما لم يتمكنوا من توطيد أقدامهم فى البيئة العربية الإسلامية وجاءت الأحداث المتوالية مؤكدة أن الأيدلوجية الغربية لا تستطيع أن تسيطر على عالم الإسلام أو تذيبه أو تقضى على مقوماته المستمدة من الإسلام ، ولم تـكن الفترة التى امتد خلالها كيان مملـكة الفرنجة فى الساحل الشامى بالرغم من الامدادات المتوالية والحملات المستمرة إلا فترة مضطربة

عقيمة ، انتهت بالقضاء على هذا الكيان وهزمته هزيمة منكرة ومزقته وتمزيقا ، لقد توقفت الحملات الصليبية على الساحل الشامى بعد الحملة الثالثة واتجهت الرابعة إلى مهاجمة الأمبراطورية الشرقية والحملة الخامسة والسابعة اتجهت إلى مصر .

(٢٠)

غزو الفرنجه للمغرب

وفى مقابل الحروب الصليبية على المشرق كانت هناك الحروب الصليبية المغربية على المغرب الإسلامى وبينهما أوثق الروابط حيث كانت أوربا تمد جناح الغزو إلى القسطنطينية والمشرق ، من ناحية ، وتمد جناحه الآخر إلى الأندلس والمغرب . بلغ التوسع الإسلامى أفريقيا ، ثم عبر الأندلس سنة ٩٢ هـ على يد القائدين طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فلم تلبث أسبانيا أن أصبحت ولاية إسلامية ودخلت عالم الإسلام ، ثم شق التوسع طريقه إلى ماوراء جبال البرنيه فأوغل المسلمون فى ولايات فرنسا الجنوبية ، وسيطروا على سهول الرون وتقدموا فى قلب فرنسا خلال عشرين عاماً حتى توقفوا ثمة فى معركة تولوك (تولوشة) ١٠٢ هـ ٧٢١ م واستشهد قائدهم السمح بن مالك فارتدوا إلى أسبانيا، ثم كانت موجة جديدة قادها (عبد الرحمن الغافقى) ١١٣ هـ فمضى إلى الشمال مخترقاً أراجون ونافار حتى بلغ نهر الدون فهزم الفرنسيين وطاردهم حتى بوردو ، ثم استولى على ليون ،وبلغ قريباً من باريس نحو مائة ميل ، واتجه إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هـذه المنطقة فسيطر على نصف فرنسا الجنوبى ، وقد امتد خط التوسع كما يقول إدوار جيبون — مدى ألف ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى أيقوسيا ، فليس الرين بأمنع النيل والفرات ، فلو حدث كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى جامعة أكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة .

ثم كان اللقاء بين المسلمين والفرنجة فى معركة بلاط الشهداء (تورو بواتيه) ١١٤ هـ هذا اللقاء الذى يقف عنده المؤرخون الأجانب على أنه حاسم ، وأنه قضى على التوسع الإسلامى فى أوربا بينما ظل المسلمون يتوسعون فى أوربا من بعد ذلك إلى تاريخ بعيد .

لم يتوقف التوسع الإسلامى فى أوربا بعد معركة بلاط الشهداء وإن كان قد انتظر ثمة ، ثم عاود من بعد حركته وكانت دولة بنى الأغلب فى تونس هذه المرة ، هى التى حملت لواء التوسع بعد توقف دولة

المغرب فلم يلبث عبد الله بن الحبحاب والى أفريقيا أن بعث حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة الفهرى عام ١٣٣ — أى بعد معركة بلاط الشهداء بتسع سنوات — إلى حدود إيطاليا .

ثم جهز زيادة الله الأكبر أسطولا عام ٢٠٧ بإمارة محمد عبيد الله التميمى لمنازلة سردانية ثم أعاد عليها الكرة ٢١٢ هـ بقيادة أسد بن الفرات ثم توالت محاولات التوسع فى إيطاليا ٢٢٤ هـ ثم سيطر المسلمون على جزيرة أقريطش بعد موقعة هائلة مع أسطول بيزنطة (٢٤٠ — ٢٥٠) واقتحم القائد خفاجة جنوة عام ٢٥١ هـ وتقدم إلى جبال الألب وسيرت بيزنطة أسطولا ضخما لمحاربة المسلمين فى شطوط أوربا الجنوبية ومنعهم من التقدم فى فرنسا فواقعهم خفاجة على شواطىء جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظمى واستولى الأسطول الأغلبى على جزيرة مالطة .

وتقدم الحسن بن رباح إلى مرسيليا وفتح البروفنس ، فاستنجدت فرنسا بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفاً من ١٤٠ مركبا فلقيه الأسطول الإسلامى فى عرض بحر الروم ودارت معركة ضخمة ، وتوغلت القوات الإسلامية فى فرنسا بقيادة خفاجة ن سفيان واستمرت من ٢٦٦ إلى ٢٧٢ هـ فملكت بعض شواطىء الرون واحتلت كولونيا كما جهزت أفريقية أسطولا عظيما عام ٢٧٥ هـ لتعقب أسطول البيزنطيين ، فشل حركتهم عن التقدم ، وتمكنت سيادة المسلمين فى إيطاليا وجانبا من فرنسا .

يقول العلامة عبد العزيز الثعالبى الذى نقلنا عنه هذا العرض : لقد استمر نجم الإسلام صاعداً فى أوربا بعد هذه الواقعة العظيمة والأمراء الأغالبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين فى ولايتهم الأوربية مراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحيط كل سعى فى الانتكاس إلى أن قامت الدولة العبيدية (الفاطمية) هنالك توقف التوسع الإسلامى (أواخر القرن الثالث) ومعنى هذا أن المسلمين ظلوا من عام ١١٤ إلى ٢٩٨ تقريباً وهم يوسعون عالم الاسلام فى فرنسا وإيطاليا ، وقد اقتحم المسلمون بعض ولايات إيطاليا الجنوبية واشتبكوا فى معارك بحرية فى مياه أوستيا (ثغر روما) وهددوا مدينة روما بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يدفع لهم جزية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الفضة .

غير أن الموقف لم يلبث أن تحول بانتقال المعز لدين الله إلى المشرق ، وشعر الغرب بسريان الضعف والانحلال فى القوة الاسلامية ، فأخذوا يتواثبون فى كل مكان وما زالوا يؤلبون عليهم

حتى ٣٧٢ هـ حين قاد الملك روجار النورماندى جموعاً كثيفة لمناجزة المسلمين فى فرنسا ودارت معارك ردت الفرنجة على الأعقاب ، وقد استنفر (روجر) الأمم الأوربية لمحاربة عالم الاسلام فى أوربا وأفريقيا . ثم نزل الرومانديون من شمال فرنسا إلى جنوبها وشرعوا يتعقبون القوى الاسلامية ويناجزونها فى إيطاليا حتى أزالوا المسلمين من جنوب أوربا ، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى مهاجمة أفريقيا ففى عام ٤٧٦ هـ هاجموا ثغر « المهدية » وهو دار المملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ثلاثمائة مركب بها ٣٥ ألف مقاتل فخرقوا وخربوا وعاود المسلمون الكرة عام ٥١٦ هـ فأغرى على بن يوسف بن تاشفين صاحب العدوتين أسطوله شطوط أوربا الجنوبية بقيادة (أبى عبد الله ميمون) وأعاد النورمانديون الكرة على المهدية ٥١٧ هـ فغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ثم عادوا عام ٥٤٣ هـ فاحتلوا المهدية ، وجعلها الصليبيون قاعدة لحركاتهم البحرية فى شمال أفريقيا إلى أن أجلاهم عبد المؤمن بن على سنة ٥٥٥ هـ .

وقد جاء هذا الصراع بين الإسلام والغرب ، على حدود إيطاليا وفرنسا وأسبانيا (مدخل أوربا الغربى) مكملا للصراع بين الاسلام والدولة البيزنطية (مدخل أوربا الجنوبى) لم ينفصل هذا فى شطريه ولم يتوقف ، وكان آناً يتسع ويعمق فى إحدى الجناحين ، ثم يتخفف ليواصل اشتداده فى الجناح الآخر .

ولم يلبث الإسلام أن دعم وجوده فى الأندلس ، ولكنه كان وجوداً محفوفا بالخطر ، الذى كان يجتاحه من أطرافه ، فلم تلبث أن قامت الدولة الأموية راسخة البنيان استمرت (٢٧٥ عاما) ثم اعتورها الضعف والترف والتمزق ، ولم تلبث أن تحولت إلى ممالك صغيرة استطاع نفوذ الفرنجة المتربص أن يجتاحها وينتقص منها ويغرى بعض أمرائها بالبعض الآخر ، وكان المسلمون قد تركوا إبان وصولهم إلى الأندلس جيبا به مجموعة من الفرنجة اعتصمت بالجبال وظلت تكبر وتنمو حتى أصبحت قوة كبيرة وخطراً مهدداً ، ولم تلبث الأندلس أن تعرضت للغزو الصليبي الذى كان ينتقصها من أطرافها ، لولا موجتين متواليتين ، إحداهما المرابطين ، والأخرى الموحدين ، هاتان الموجتان اللتان قادهما يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على ، قد أجلتا تمزق الأندلس فترة من الوقت ، وكانت قوة البربر التى ظهرت على مسرح الأحداث فى المغرب إحدى القوى الإسلامية الثلاث البدوية الخشنة التى نصرت الاسلام فى إبان أزمته ، وهى ثالثة : السلاجقة والمماليك .

ولقد ظل الغرب يقاوم بقاء المسلمين فى أوربا ، ويعمل على إجلائهم من مواقعهم ، وكانت

دورة الاسلام قد تراخت فلم تحقق تطلعها إلى بلوغ القسطنطينية من الأندلس ، وتحول الموقف سريعا من مرحلة التوسع إلى مرحلة الدفاع والمقاومة، وهى مرحلة طويلة مريرة ، واجه فيها المغرب والأندلس صراعا إمتد من عام ٩٣ إلى ٨٩٨هـ — وهو عام إسترداد الغرب — للأندلس ولم يتوقف . وقد ترابط الغزو الصليبي على الأندلس من ناحية وعلى عالم الاسلام فى المشرق من ناحية أخرى وازداد ضغطا وقوة بعد فشل الحروب الصليبيـة فى المشرق وارتدادها منهزمة ، وكانت أوربا تتقاسم المعركتين وتؤلب عليهما فى كلا الميدانيين : ميدان الشرق فى الشام ومصر وميدان الغرب فى الأندلس والمغرب ، ولقد بلغت الأندلس مكانا عاليا فى مجال العلم والحضارة وازدهرت قرطبة ونافست بغداد ودمشق والقاهرة بينما كانت أوربا على مرمى حجر منها تعيش فى ظلمات البداوة والتفرق .

تقبلت أسبانيا عبور المسلمين إليهم تقبل المنقذ فقد التمست فيه التخلص من الظلم والاستبداد كما تقبلت دولتا فارس والروم « الاسلام » محرراً لها وقد توالت حركة التوسع فى الأندلس ممثلة فى فرقة طريف الاستطلاعية ثم عبرت قوة طارق ثم عبر بعد موسى ابن نصير نفسه وكان للبربر الدور الأعظم فى هذه المعارك ثم عبر جبال البرانس من بعد « الحر بن عبد الرحمن الثقفى (٧١٧م — ٩٩هـ) فاستولى على ستمبانيا ، ثم إحتل أربونة ، التى جعلها المسلمون من بعد حصناً منيعا ومستودعا المؤن والذخائر ، ثم كانت موقعة بلاط الشهـداء عام ١١٤هـ بعد عشرين عاما من التوسع ، فانسحب المسلمون بعد هزيمة اليوم الأول واستشهاد عبد الرحمن الغافقى . وتوقف التوسع فى هـذا الجناح ليبدأ فى جناح آخر ، وبطابع آخر فقد استأنفته قوى المسلمين فى جناح تونس ، وإن لم يكن بنفس الدرجة ولا القوة .

ويمكن أن ينظر إلى هذه الموجة التى بدأت عام ٩٢ وتوقفت ٣١٤ هـ على أنها موجة طبيعية قد بلغت مداها ، كان قوامها البربر والعرب معاً ، وقد استنفدت قوتها ، بعد أن بعدت عن جبل طارق نقطة بدأها نحو ألف ميل ، فصلا عن الخلاف الذى دب بين البربر والعرب وفضلا عن مأساة الغنائم .

فكان بلوغ الزحف موقع « بلاط الشهداء » فى الحق ، هو أقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة ، ومن هنا بدأت المرحلة التـالية : مرحلة التبلور والانصهار وبناء الحضارة التى ازدهرت فى ظل الدولة الأموية الأندلسية خلال « ١٣٩ — ٤١٤ » قرنين ونصف ويزيد غـير أن الظاهرة الواضحة فى الأندلس أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين والفرنجة حتى فى أزهر العصور .

وأن بناة الدول أمثال عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والمنصور أبو عامر كانوا مجاهدين بالدرجة الأولى وكانوا يوالون تأمين حدودهم من غاوات الفرنجة الذين كانوا يتربصون الدوائر بهذه المملكة العربية الإسلامية التي نجمت في قلب عالم أوربا النائم المتعصب ، المبيت النية للقضاء عليها، ومع ذلك فقد نمت في مرحلة التبلور والحضارة وأينعت ثمارها وكتبت صفحة باهرة ، فقد فاقت حضارتها حضارة المشرق .. وحملت لواء العلم والفلسفة واضطرت أوربا أن تتصل بها وأن تأخذ عنها ثم أن تمتص هذه الحضارة وتحيلها إلى كيانها وتبدأ بها النهضة الحديثة فقد كان « المنهج التجريبي » هو أعظم ما قدمت الأندلس المسلمة العربية إلى الحضارة الأوربية الوليدة ، وكانت مؤامرة سحق الأندلس وإخراج المسلمين والعرب من أسبانيا والقضاء على الإسلام واللغة العربية في أوربا والتخلص من آخر عربي ومسلم في أوربا بالإخراج أو القتل أو التنصير هو رد الفعل أو رد الجميل .

ومن عجب أن تكون قرطبة عاصمة الأندلس هي زهرة أوربا كلها وفيها يقيم نصف مليون من السكان وكان بها سبعمائة مسجد وثلاثمائة من الحمامات العمومية وبها شقت شوارع طولها أميال كانت دائما مضاءة بقناديل حيث لا يوجد في ذلك الوقت قنديل واحد عمومي في لندن إلا بعد سبعمائة سنة ، أما باريس فظلت قرونا بعد ذلك ، لا يأمن من يتخطى عتبة داره في يوم ماطر من الخوض في لجة من الوحل .

(١٩)

الغزو المغولي التتري

يمثل الغزو المغولي (التتار) موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام واستمرت تجتاحه بعنف على دفعات متوالية خلال أكثر من قرنين ونصف قرن . × جنكيز خان : امبراطورية المغول (٦٠٠هـ) . × هولاكو في بغداد (٦٥٦هـ) . × تيمورلنك في خراسان وما وراء النهر ٧٧١ — فتوحاته ٧٨٣ في بغداد (٧٩٥هـ) . حملة تيمورلنك على سوريا ٨٠٤ — وحمله تيمورلنك على الدولة العثمانية . وقد اقترنت غزوات التتار لعالم الإسلام بغزوات الصليبيين وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي كماشة قوامها الصليبيين والتتار الذين كانوا على صله بالقوى الأوربية التي تدعم الحملات الصليبية ، كما حاولت القضاء على الدولة العثمانية كقوة شابة من قوى الإسلام ، وكان المغول والتتار في كلا الموقفين من غزو بغداد

لإسقاط الخلافة ودحر القيادة السياسية الإسلامية ٦٥٦هـ بقيادة هولاكو و ٧٩٥هـ بقيادة تيمورلنك ثم غزو آسيا الصغرى لإسقاط الدولة العثمانية الشابة التي تمثل قيادة الإسلام الجديدة — لا شك كان هذا مرتبطا إرتباطا أكيدا بخطط الفرنجة والغزو الغربي . غير أن الاسلام شأنه دائما مع كل القوى المواجهة له ، كان دائما قادرا على التأثير فيها ، فقد استطاع بقوته العقلية والروحية الفاعلة أن يحول التتار إلى الاسلام . فلم يكد ينقضى على ظهور التتار أكثر من ثمانين عاما حتى أعلن الامبراطور (تاجدار أوغل) الذى تولى السلطة عام (٦٨١هـ — ١٢٨٢م) اعتناق الاسلام وأطلق على نفسه السلطان أحمد ، ووزع منشورا بذلك على المقاطعات التي يكون فيها امبراطوريته (عربستان . عجمستان . هندستان . تركستان) . وكان نص منشوره التي بعث به إلى والى بغداد يقول : « لقد جلست على عرش أجدادى فخذوا علما أننا معشر المغول مسلمون وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين .

ستظل محترمة مقدسة ، وقد أمرت أن ترد إلى العراق جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكا لهم ، واغتصبها عمال ووكلاء أجدادى وابلغت نائبي لديكم أن يمشى فى جميع أحكامه على مقتضى تعاليم الشرع الاسلامى لأن محمد ﷺ بشرنا بالقرآن الكريم أن الدين الاسلامى هدانا لهذا والسلام سيظل قائما وسائدا إلى يوم القيامة ، ونأمل الاعتقاد بذلك فالحمد لله الواحد الأبدى الذى عليكم : (امضاء) الخان الأعظم ملك ملوك آسيا (تاجدار أوغلى) .

وسار (غازان) ابنه فى نفس الطريق ، فما أن تولى الملك حتى هاجم بلاد مغولى الصين ، التى كانت تتمسك بالشامانية والبوذية والكنفوشوسية وحملهم على اعتناق الاسلام ، فأصبح المغول بأجمعهم والتابعون لهم يدينون بالاسلام . وقد كان هذا التطور سببا رئيسيا فى إقبال الأهالى على اعتناق الاسلام ومن تمركز الاسلام فى بلاد المغول ، ثم أمر « السلطان جاردوان» بهدم المعابد الوثنية وإقامة المساجد الاسلامية مكانها .

ومازال حادث سيطرة الاسلام على هؤلاء الفاتحين القساة الذين كانوا كالاعصار الماحق للحضارة الاسلامية ، مازال يعد من أحداث تحولات التاريخ الخطيرة التى تحتاج إلى مزيد من من الدراسة والبحث . فقد كان حادث إسقاط الخلافة العباسية فى بغداد من الحوادث الفاصلة المعدودة فى تاريخ الاسلام كله . والتى هزت عالم الاسلام هزة عنيفة حتى قال ابن الأثير فى تاريخه سنة ٦١٧هـ :

« لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحالة استعظاما لأمرها ، كارها لذكرها فانا أقدم إليه رجلا وأوخر أخرى ، فمن ذا الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين . ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى » . وقد صور توماس ارنولد قوة الإسلام فى التحدى ورد الفعل حين استطاع بعد ربع قرن من إسقاط التتار لبغداد منار الخلافة الإسلامية ، أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام . « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قُلَلِ الجبال واكتسحت فى طريقها المراكز الإسلامية وأتت على ما كان لها مدنية وثقافة ، ... ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى واطلال مجده الخالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحون المتبربرون ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى هذا المضمار . وقد واجه المغول صراعا حاميا بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كانت الشعوب التى اختلطوا بها على أثر فتوحاتهم تضم أهل الديانات الثلاث ، وقد تنافس دعاه هذه الديانات فى كسب الفاتحين إلى أديانهم .

ولما فتح جنكيز خان البلاد التى تسكنها قبيلة الكرائيب المسيحة تزوج كما تزوج ابنه كوبلاى منها ، أما ابنه الثانى اخياى فإنه لم يعتنق المسيحية . وكان لهذه المصاهرة أثرها فى تطلع قوى الأفرنج إلى مساعدة المغـــول فى حروبها ضد المسلمين فقد تمكن هيتون ملك أرمنيا المسيحى من اقناع ما نجوخان (٦٤٦ — ٦٥٥) وحمله على إرسال تلك الحملة التى فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ — ٦٦٣) . غير أن الخطة التى كانت تقوم بها حملات التبشير وقوى الفرنجة لكسب المغول فكان للصراع بينها أثراً سيئا فى نفوس التتر . ومن ثم استطاعت البوذية واستطاع الإسلام أن يحتلا مراكز متقدمة فى بلاد المغول . وظل الصراع قائما حتى حسمه « بركه خان » رئيس القبيلة الذهبية ٦٥٤هـ ١٢٥٦م وكان أول من أسلم من المغول وكان بركه خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته وكان جيشه مسلما ، وقد دخل بركه خان من بعد فى حلف مع الظاهر بيبرس ، وكان من نتيجة ذلك أن وفد كثير من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر حيث اتخذوا الإسلام دينا لهم (المقريزى) . وكان من أبرز آثار انتشار الإسلام بين المغول بعد إن ردهم الظاهر بيبرس عن سوريا ان عمدوا إلى توطيد أقدامهم فى فارس والعراق ، وانصرفوا إلى التعمير وإقامة الحضارة ، وإصلاح المناطق التى كانوا قد خربوها ، والحق أن المغول بعد هذه الحملات العاصفة على عالم الإسلام والتصاقهم بالمجتمع الإسلامى

قد وجدوا أنفسهم خاضعين للاسلام ، دين ضحاياهم وثقافتهم ، ويمكن القول أن أثر الغزو المغولى فى ضراوته لا يقل عن أثر الحروب الصليبية ، بل إنه كان من الوجهة النفسية أسوأ أثراً حيث أسقط مركز القيادة السياسية الاسلامية التى كان دوماً موضع الإكبار والإجلال ، وكان الغزو المغولى قد بلغ من العنف مبلغاً لا حد له ، وامتدت رقعته امتداداً شمل آسيا كلها وبلغ أطراف أوربا ، غير أن المغول لم يلبثوا بعد أن انصهروا فى عالم الإسلام واعتنقوا ديانته ، أن أقاموا دولة كبرى امتدت من الصين إلى بغداد بينما أقام الصليبيون فى الشريط الساحلى للبحر الأبيض تجاه الشام .

وقد نقلت غزوات التتار مقر الحضارة الإسلامية إلى مصر التى لم يمسها هذا الغزو وانكسر لأول مرة على حدودها ، والذى استطاع إبراز قوة حربية فتية ظلت تحمى عالم الاسلام أكثر من قرنين هى قوة المماليك ، الذين انضووا تحت لواء الإسلام وحملوا راياته ودافعوا عنه ، وكانوا إحدى القوى الثلاث التى ابتعثها الإسلام من أعماقه للدفاع عنه : السلاجقة الاتراك « والبربر المتونيين ، والمماليك البحرية » .

التتار وسقوط بغداد

زحف هولاكو على بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية فدمرها وقتل الخليفة المعتصم وجلة العلماء والفقهاء ، ووضع السيف فى بغداد أربعين يوماً حتى زاد عدد القتلى عن ٨٠٠ ألف (عدا الأطفال ومن هلكوا فى السراديب والقنى والآبار) ، وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلد ملأ بها خزانة كبيرة نقلها إلى عاصمته من بغداد والشام والجزيرة .

وقد أشار ابن تيمية فى مؤلفاته إلى أن من قتلهم هولاكو فى هذه المعارك من المسلمين : بضعة عشر ألف إنسان وقال إن الاسلام لم ير ملحمة مثل هذه الملحمة . وقد عجزت السلطات الحاكمة فى بغداد عن الوقوف فى وجه الغزو المغولى الأول عام ٦٥٦ نتيجة لعوامل كثيرة توالى بها الضعف عاما بعد عام ، أبرزها التفكك الذى أصاب دولة الخلافة وسيطرة القوى المحتلة الغازية عليها : ومن بغداد اتجه المغول نحو الشام فى غزو مندفع كالأعصار .

بدأ غزو التتار الشام بعد إسقاط بغداد ١٢٥٩ (٦٥٧ هـ) فتدفقت قواتهم على الجزيرة واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة ، ثم اتجهت القوات صوب حلب فاستولت عليها عنوة ، ثم استولى هولاكو على دمشق ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) ووصلوا إلى غزة ثم جاء دور مصر

واستطاع قطز وبيبرس التصدى للخطر وإيقافه لأول مرة منذ زحف المغول من أواسط آسيا ، فقد هزموا هذه القوة التى لم تستطع أى قوة فى الشرق الأوسط والأدنى الصمود لها ، وانتصر المصريون على التتار ، فى موقعة « عين جالوت » وقتل « كتبغا » قائدهم الخطير وأظهر المماليك شجاعة كبيرة فقد اهتز السلطان قطز عندما إضطربت صفوف المسلمين ورمى خوذته من فوق رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه » وحمل بنفسه على العدو ، وقضى على العدو قضاءاً تاماً . وتعد معركة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة فى التاريخ لما ترتب عليها من نتائج خطيرة ، فلو انتصر التتار فى هذه الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها ما فعلوا بالعراق ولأ قاموا واستقروا فى الشام ، ومن هنا لم ينقذ انتصار المماليك مصر وحدها بل أنقذ الشام أيضاً (سعد الدين عاشور : المماليك) .

ويجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين فى سبيل القضاء على قوة الإسلام : فقد كانت زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » مسيحية نسطورية ، وكان ذات نفوذ مسموعة الكلمة ، وقد كان للقوى الصليبية فى مملكة هولاكو نفوذ بارز ، ومن هنا استطاعت هذه القوى — وفق خطة مرسومة مع القوى الأوربية — أن تحرض التتار وتستغل قوتهم فى القضاء على عالم الإسلام ، وقد تحالف الأرمن (مملكة أرمينية الصغرى) مع التتار واشترك الطرفان فى وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام ، واستطاعت أوربا أن تقيم صلات مع تتار فارس بلغت درجة عالية ، فاستطاعت أن تحقق بهذا الغزو التترى لمناطق الشام والجزيرة وأطراف آسيا الصغرى لنتائج هامة ، إذ هى المناطق التى تتاخم المملكة اللاتينية على الساحل الشامى فالقضاء عليها وضربها لاشك يؤدى إلى إضعافها وعجزها عن مقاومة الصليبيين ، وقد كشف التاريخ عن أن ضربات التتار كانت تزداد عنفا كلما استولوا على مدينة من مدن الشام الاسلامية مثل حلب ودمشق ، فقد كانوا « يسرفون فى اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم بقدر ما أسرفوا فى تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها » .

والمعروف أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحيتين ، على المذهب النسطورى ، الأمر الذى جعل هولاكو يعطف على المسيحية بقدر ماقسا على المسلمين ، وقد وجدت قيادة القوى الصليبية فى الشرق الأدنى وفى الغرب فرصة فى إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فاتصلوا بهم واستثاروهم ضد المسلمين ، وفى المراجع الصليبية المعاصرة مايثبت أن ملك أرمنيا الصغرى المسيحى اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمه المسيحيون : أما المعركة الأخرى :

التى آزر فيها التتار النفوذ الغربى الأوربى الصليبى فهى الحملة التى شنها تيمور لنك على الدولة العثمانية الناشئة .

وكانت هزيمة التتار فى « عين جالوت » هى رد الفعل الحاسم بعد عامين على تدمير بغداد ، بعد سنوات طويلة من الاندفاع المغولى والانتصار التترى دون أن تقف فى وجههم قوة يحسب حسابها وكانت قوة الدفاع عن الإسلام إذ ذاك قد تركزت فى وحدة مصر والشام لمواجهة الغزو الصليبى ، غير أن غزو المغول وحملاتهم المتوالية لم تتوقف بعد ذلك على الشام ، فلم يلبثوا أن عادوا إليها فى حملة أخرى (٦٧٠ هـ) فانتصر عليهم الظاهر بيبرس ، ثم عاودوا الهجوم على الشام بقيادة غازان وكانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فأدال منهم السلطان الناصر محمد قلاوون ودارت المعركة فى حمص وحماة وكانت قوة التتار تمثل خمسة أمثال القوة الإسلامية ، ثم تجددت المعارك مرة أخرى (٧٠٢ هـ) وخرج الناصر من مصر على رأس جيش كبير لملاقاة التتار بالشام ودات المعركة عند برج الصفر بالقرب من حمص وانتصرت القوة الإسلامية العربية .

ثم تجدد خطر التتار مرة أخرى بزعامة « تيمور لنك » الذى اجتاح وسط آسيا وزحف بجموع جرارة على بغداد ، وحاصر البصرة ، وقد خرج السلطان برقوق فى جيش كبير إلى الشام ٧٩٩ هـ وبلغ دمشق وقصد منها إلى حلب وعبر الفرات ليلقى تيمورلنك على ضفته الشرقية ، وقد استطاعت القوة الإسلامية أن تديل من جموع التتار وأن تغنم منهم ، كما أغار تيمور لنك مرة أخرى على حلب وحمص وبعلبك ودمشق وخرج السلطان المصرى فرح لمحاربتهم فالتقى بهم عند دمشق . وهكذا توالت حركات الغزو المغولى وحملت مصر لواء المقاومة واستطاعت فى مختلف المعارك التى نشبت أن تديل من القوات الغازية وتردها .

تحول التتار (المغول) تحولا بطيئا نحو الإسلام بعد حملات عاصفة ضارية لا حد لضراوتها فى القتل والتحريض . وكانت قوتهم قد ظهرت عام ٦٠٠ هـ بعد أن تداعت قوة الإسلام وصعفت ومزقت الحملات الصليبية كيانها وشغلت مناطق الشام ومصر بالمقاومة التى لا تتوقف . وقد امتدت مملكة جنكيزخان : من بحر الصين إلى البحر الأسود ، فاستولى على ماوراء النهر ، وخوارزم ، وخراسان ، وهراه ، وقندهاروملتان ، وأتى على حضارة الاسلام خلال ستة قرون فى غزنه ونيسابور وشيراز وبخارى وسمرقند وطوس وقزوين وأصفهان ومراغه . وانتهت هذه الموجة بالسيطرة على هذه المناطق حتى جاءت الموجة التالية بعد أكثر من نصف قرن بقيادة « هولاكو » الذى وسع دائرة

الغزو قدما إلى بغداد والشام وتوقف عند حـــدود مصر ، غير أن هؤلاء الذين ضربوا الحضارة العربية الإسلامية فى عنف لم يلبثوا أن خضعوا لنفوذ الإسلام واستسلموا لمدينة العرب وأخذتهم الدهشة من عجائبها إلى حد تحولو إلى حام لهذه المدنية (جوستاف لوبون) ولم يلبث المغول أن اعتنقوا الإسلام ، وقد استعان هولا كو بنصير الدين الطوسى فى بناء المراصد وإنشاء المـكاتب فابتنى مرصداً فى مراغة ، وأقام إلى جانبه مكتبة فسيحـة الأرجاء وأخذ يجتمع بالعلماء والفلاسفة ، وخطا كوبلاى خان خطوة أخرى فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى نقـــل إليها المؤلفات من بغداد والقاهرة ، فانتشر الإسلام عاجلا بين شعبها وأمرائها ، فتعالت المآذن فى تركستان وروسيا وتوسع ذلك وازداد فى عهد « غازان » . أما تيمورلنك فقد كان مسلما تغلب على امبراطورية المغول ، وقد ساق غزوة عاصفة على عالم الإسلام كله وبغداد والشام ولـكنه كان أقل عنفا فقد نهى عن التعرض لدور العلم وبيوت الدين ، وفى عصر تيمورلنك برزت نهضة علميه وصدرت مؤلفات متعددة لعلماء عربا وفرسا وفى مقدمة هؤلاء الفيروزبادى مؤلف القاموس الـكبير وأشار سديو إلى أن بغـــداد كانت ما تزال منارة العالم الإسلامى (٧٥٠هـ) .

وتمثل غارات التتار (المغول) « سنة » الـكون « وحركة » التاريخ التى لا تتخلف ، فإذا انحدرت الحضارة وغلب الترف ووقع التفـكك وتراخت الأيدى عن المقاومة والحفاظ على الثغور وضعفت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فـكرها وقيمها الأساسية ، كان لابد أن يسقط هذا الملك فى يد قوة جديدة بدويه شابة .

ولاشك تقع مسئولية انتصار قوى التتار الغازية على المسلمين الذين ضعفوا وتخلوا عن العوامل الثلاث للسيادة : « القوة والوحدة والإيمان » غير أن التتار لم ينتصروا على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد مقاومة صلبة على حدود الشام ومصر ردتهم عن هـذه المنطقة طويلا . ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم فى بوتقته فأقاموا دولا كبرى تحت رايتـه كان أبرزها الدولتان الخوارزمية فى منطقة ما وراء النهر والمغولية فى الهند . قال أرنولد : لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإســلام فى هذه المعركة وتهزم البوزية والنصرانية ويستأثر وحـده بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم . والفضل لهؤلاء الدعاة المخلصين الذين حرصوا على ارشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم وأسلوب دعوتهم ورقة مواعظهم وتجردهم من الأنانية والـكبرياء ، فقد أسلم سلطان كاشغر (تغلق تيمورخان) عام ٧٤٨هـ ، ١٣٤٧م على يد الشيخ جمـال الدين الذى جاء من بخـارى . فقد أوثق مع جماعة من الغرباء وحملوا إليه : قال لهم تيمورخان : كيف دخلتم فى حماى من غير إذن !

قالوا : نحن غرباء ولم نشعر إننا نمشى فى أرض ممنوعة ، قال : حتى الكلاب أفضل منكم . قال الشيخ جمال الدين : صدق الملك لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لكنا أذل من الكلاب .

وتحير الملك ، ومضى للصيد ، وبقيت كلمة الشيخ تشغل فكره ، فلما عاد من الصيد أمر بعرضهم وخلا بالشيخ وقال : فسر لى ما قلت وأخبرنى ماذا تعنى بالدين الحق . وفسر الشيخ الإسلام فى حماسة وقوة تفسيراً رق له قلب السلطان وصور الكفر تصويرا فزع له السلطان ، ورأى السلطان أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أن يدخل قومه فى الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولى الملك وجلس على أريكة الحكم زاره ، وكانت المملكة الخيتائية قد توزعت على أمارات متعددة ، واستطاع تغلق تيمور خان أن يجمعهما ويكون منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ جمال الدين إلى بلاده ومرض مرضاً شديدا ، ولما حضرته الوفاة دعا ولده « رشيد الدين » وقال له : أن تغلق تيمور سيكون فى يوم من الأيام ملكا عظيما فإذا سمعت ذلك فعليك أن تزوره وتقرئه منى السلام وتذكره بما كان قد وعدنى به من اعتناق الإسلام . فلما بويع تغلق تيمور بالملك وجلس على الأريكة مكان أبيه ، توجه الشيخ رشيد إلى المعسكر لينفذ وصية أبيه ولكنه لم يخلص إلى الملك فاحتال ، وبدأ يوما يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان فى الصباح الباكر فطار نوم السلطان وغضب وطلب رشيد الدين وحضر الشيخ وبلغ السلطان تحية والده ، وكان السلطان على ما ذكر به فنطق بالشهادتين وأسلم ونشر الإسلام فى رعيته وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التى كانت تحت سيطرة أولاد خبتاى بن جنكيزخان » ا . هـ .

سقوط قلاع الباطنيه

ظلت قلاع الباطنية فى قلب عالم الاســـلام أكثر من قرنين تثير الحرب على عالم الاسلام كواحدة من أبرز الحركات الهدامة ، التى كان لها أبعد الأثر فى مقاومة الاسلام والقضاء على قوى المقاومة التى تكونت لمقاومة الحركة الصليبية . وإذا كانت غارات المغول على العالم الاسلامى هى أقسى ماص من حملات العنف فى تاريخ الاسلام حتى قال ابن الأثير : إنه « لم ينل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن ، هذا العدو الكافر (التتر) قد وطئوا بلادنا وراء النهر وملكوها وخربوها والعدو الآخر (الفرنج) قد ظهر فى بلادهم إلى أقصى الروم بين الغرب والشمال » . وإذا كان المغول قد أوقفوا الحياة الفكرية والثقافية نحوا من قرن كامل فى المناطق التى اجتاحوها إلا أنهم قد خلصوا عالم الاسلام من قوة ضارية خطيرة هى قوة « الباطنية »

لقد تمكنوا من القضاء على القلاع والمعاقل الباطنية ، ذلك أن التتار قد عادوا إلى تعمير الأرض التي خربوها بعد أن صهرهم الاسلام في بوتقته ، فاعتنقه زعماء قبائلهم . يقول المؤرخ منيورسكي : لقد كان الحشاشون (الباطنية) أعدى أعداء أهل السنة ، وكانوا كثيرا ما يبثون الألغام ويدبرون المكائد للقضاء على المذهب السني بشكل منظم ، ولقد هيأ المغول بالقضاء عليهم سبيلا لوحدة الاسلام وكان هذا من أهم العوامل الرئيسية في انتصار الاسلام وبقائه بالرغم مما أصابه على يد التتار من عسف وإرهاق . ولم يكن الحشاشون مهما أوتو من بأس وقوة ليؤثروا في بقاء الاسلام في الأمصار الأخرى ، برغم أن دعايتهم كانت واسعة النطاق » . ذلك أن هولاكو قد دهم قلعة « ألموت » الحصينة وقضى على دولتهم قبل أن يدخل بغداد بعامين ، بدأ هولاكو بمهاجمة الباطنية (الاسماعيلية) واستولى على قلعتين من قلاعهم في قهستان وهاطون وخواف ، وكان قد استصحب معه ألف بيت من صناع المنجنيقات وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب فاستطاع هدم قلاعهم الضخمة وفي مقدمتها قلعة « ألموت » ، في الشمال الغربي من قزوين بوصفهما قاعدة لحصين قلعة أخرى في هذه المنطقة ، وقلعة ألموت ، هذه القلعة الرهيبة ذات التاريخ المظلم في مقاومة الاسـلام ، تقع على ستة فراسخ من قزوين وقد استولى عليها الحسن الصباح عام ٤٤٦هـ وظلت خلال مائة وسبعين عاما حصنا مخوفا يتحصن بها أتباع مذهبه حتى قضى عليها هولاكو ٦٥٣هـ .

(٢١)

« القوى التي جددت شباب الإسلام »

(السلاجقة ، البربر ، المماليك)

وكانت حركة الإسلام بين عاملين: عامل دعوة العناصر التي يضمها عالم الإسلام إلى الإسلام ، نفسه ، وذلك بالحوار المفتوح بين الأديان والمذاهب المختلفة ، وقد بلغ الإسلام في ذلك غاية السماحة ، إذا أذن لكل صاحب دين أن يناضل عن دينه حتى يتبين الحق .

٢ — عامل الانتشار الذاتي التلقائي في المناطق التي لم تسيطر عليها دولة الإسلام .

غير أن حركة الاسلام لم تلبث أن دخلت مرحلة جديدة هي مرحلة المقاومة والغزو الخارجي . ولم يصل هذه الغزو الخارجي إلى ذروته إلا بعد أن تفككت القوى الداخلية وانسحب عالم الاسلام

من مفهوم الاسلام نفسه فى مجالين من أكبر مجالى ايدلوجيته : (١) الوحدة ، وقد ساد التمزق (٢) القوة ، وقد بدأ الضعف: هنالك تحركت القوى الغربية التى كانت قد تمت وتوحدت وتسلحت إلى غزو عالم الاسلام من ناحيتين : من طريق الدولة البيزانطية التى ظلت توالى الانقضاض على عالم الاسلام خلال خمسة قرون ، ثم تحولت إلى مجال لمرور الحملات الصليبية خلال قرنين أخرين ، ومن ناحية الأندلس كانت قوات الفرنجة والاسبان تحاول أن تقضى على دولة الأندلس وتسيطر على أطراف المغرب . وهى معركة دارت طويلا واستمرت تاريخ الاسلام كله فى القرون الثمانية التى قضاها فى الأندلس . والحق أنه لم تكن حركة الاسلام لتتوقف ، وهى تحاول أن تغزو القسطنطينية من ناحية الشرق وأن تصل إلى قلب أوربا عن طريق فرنسا ونهـــر اللوار وأن تصل إلى قريب من روما ، تكن لتتوقف إلا لتتراجع ، فهى بين المد والانحسار ، وهى ظاهرة واضحة طوال تاريخ الاسلام فمن حيث انطوى تاريخ الاسلام فى أوربا على الاطراف فى بيزنطة وحروب فرنسا وحدود إيطاليا بدأت حركة الغزو المضادة لاجلاء عن أوربا كلها ، بل إن هذا الاجلاء لم يتوقف من بعد : ولم يكتف بإخراج الاسلام والعرب من أوربا ، بل أمتد فى عملية انتقام واستعمار قامت به القوى التى كانت فى نطاق دولة الاسلام كالبرتغال والاسبان الذين نهضوا لتطويق عالم الاسلام ، وتقدموا لا كتشاف رأس الرجاء الصالح والذهاب إلى تمبكتو ، فقد واجه الفرنج تحدى الاسلام بتحدى أشد منه فى القرن الثامن الميلادى على حد تعبير « توينبى » فقد استثار هجوما مضاداً من جانبهم استمر عدة قرون ولم يقتصر ذلك الهجوم على دفع أتباع الاسلام بعيداً عن شبه الجزيرة العربية ولكنه تجاوز كذلك هذه الأصيل حاملا الاسبان والبرتغال عبر البحار إلى قارات العالم بأسرها . وهكذا بدأ واضحا أن أبرز معالم المد فى تاريخ الاسلام : القوة والوحدة وافتقادها هو أبرز معالم الجزر : والوهن والضعف . فكلما تفرق عالم الاسلام وتجزأ ووقع الخلاف بين قادته وأوليائه كلما تعرض للغزو الخارجى ، وكلما تماسك وحدة وقوة كلما توقفت حملات خصومه عليه . فقد نشأ عالم الاسلام أساساً من خلال التوسع فى أرض كانت تسيطر عليها الامبراطورية الرومانية ثم لم يلبث أن بلغ أطراف أوربا ، وأوغل فيها بحصار القسطنطينية وبالنفاذ إلى أسبانيا وأطراف فرنسا وإيطاليا . ومن هنا قامت بينه وبين الغرب معركة مستمرة الأوار لم تتوقف ، وظلت محاولات الانقضاض على أطراف عالم الاسلام عن طريق دولة بيزنطة فى آسيا الصغرى مستمرة لم تتوقف ثم أسلمت هذه الحركة الدائبة نفسها إلى القوات الصليبية الذى تكونت بديلا للقوة البيزنطية المغيرة .

٣ — كانت قوة العرب المنبعثة من الجزيرة العربية والتى حملت لواء الاسلام قوة بدوية

تتميز بالخشونة والقوة والصلابة — وقد أمدتها روح الإسلام بمفهوم الجهاد فى سبيل الله وإذاعة الإسلام — تتطلع إلى أحد أمرين : الشهادة أو النصر . فلما ضعفت القوة العربية البدوية ، وانصهرت فى مجال الحضارة ودخلت فى صراع المذاهب والفرق ، بعد أن توقف التوسع الاسلامى . بدأت عوامل الضعف تجتاح المجتمع الاسلامى وتمزقه وبينه عوامل الصراع ، ثم تولدت من ذلك عوامل الضعف والانهيار نتيجة غلبة الترف والانحلال . هنالك ضعف جبهة المقاومة عن عالم الاسلام مما أغرى القوى المتربصة من أطراف عالم الاسلام : أسبانيا وبيزنطه بالإيغال الغزو ومحاولة السيطرة والتوسع. وتجمعت أوربا الغربية لتضرب عالم الاسلام من كلا جناحيه ، اعتماداً على ضعف القوى العربية والفارسية المسيطرة ، هنالك برزت قوى جديدة من أعماق عالم الاسلام أو أحشائه ، من البداوة ، ظهرت قوة البدو وبرزت بعد أن ضعفت قـــوة الحضر الفارسية العربية وظهرت القوة البدوية فى أجزاء العالم الاسلامى الثلاث : السلاجقة (وأتباعهم الاتابكة والكرد) فى العراق وفارس وآسيا الصغرى ، و « البربر » فى المغرب (الموحدون) ، والماليك فى مصر والشام كانت خشونة هذه القوات الثلاث بعد إسلامهم قوة ضخمة للإسلام ، ردت عن الاسلام عادية القوى الثلاث التى انتقضت على عالم الاسلام : الصليبيون فى الشام ، الفرنجة فى المغرب والأندلس ، التتار القادمون من شرق سمرقند يجتاحون عالم الاسلام .

٣ — كان موعد هذه القوى الثلاث التى برزت مطابقا للحاجة إليها ، ومطابقا لنمو هذه القوى التى دخلت فى الاسلام بعد أن اتسع نطاقه فى ما وراء النهر ، وفى المغرب الأقصى وقد ظلت هذه القوى تتفاعل وتتكون ، حتى أتيح لها أن تشكل ظاهرة الانتعاش الاسلامى منذ القرن الخامس إلى القرن السابع بالقوى الشابة القادمة من خارج نطاق المدينة ، القوى البدوية التى كانت أشبه ما تكون حماسة وفتوة وبطولة ، بالقوى العربية البدوية التى خرجت من الجزيرة فى القرن الأول ، وإن كانت أقل درجة من حيث عمق إيمانها بالاسلام وتمسكها بمقوماته ومناهجه فى شؤون الحرب والقتـــال . بل إن التتار المغول الذين اكتسحوا عالم الاسلام من بعد فى ثلاث حمـــلات ضخمة : هولاكو ، جنكيزخان ، تيمورلنك ، قد صهرهم الاسلام وأصبحوا من حماته . برزت هذه القوى التى دانت بالاسلام وحملت لواء الدفاع عنه حين تراخت قوى المسلمين من العرب والفرس الذين أدى الصراع فيما بينهم إلى التمزق والضعف والذوبان فى الترف والرخاوة ، بل إن بعض هذه القوى لم تقف عند حماية الاسلام والرد على عدوان العرب له ، بل استطاع أن يحقق مهمة أخرى هى توسيع دائرة عالم الاسلام بالدعوة والقدوة ، فقد حمل البربر الاسلام إلى قلب أفريقيا ، وكان ذلك قد جرى بوسائل

منها القوى الصوفية التي تشكلت في أفريقيا . وقد كان ذلك مقدمة لموجة أخرى من موجات انتعاش الاسلام هي « موجة الوحدة العثمانية » التي استطاعت أن تسيطر على أغلب عالم الاسلام ست قرون كاملة . وإن تقيم دولتها في أرض إمبراطورية بيزنطية التي كانت خطرا متلاحقا على الاسلام ستة قرون كاملة ، وأن تسيطر على القسطنطينية وتضمها بعد أن حاصرها المسلمون وانفضوا عنها . بل بلغوه إلى أبعد من ذلك إذ اقتحموا أوربا وسيطروا عليها حتى بلغوا أسوار فينا أكثر من ثلاثمائة عام .

(٢٢)

موجة السلاجقة

وصل الإسلام إلى أرض الأتراك بعد أن تخطى ما وراء النهر ودخلت الشعوب التركية فيه منذ بلغها عن طريق قتيبة بن مسلم ثم محمود الغزنوى من بعده ، في الإسلام ، ومن ثم أصبحوا على موعد مع التاريخ العالمي لكى يلعبوا دوراً هاماً في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العالم كله ، بدأ ذلك منذ استقدمهم المعتصم وبنى لهم مدينة (سامراً) ثم كانت جولتهم الأولى في نصر الاسلام هي « موجة السلاجقة » .

وكان دورهم هذا بعيد الأثر في تغيير مجرى الاسلام وفي التأثير البالغ فيه حيث حملوا ومن بعدهم خلفائهم لواء السنة ولواء الدفاع عن الاسلام في مواجهة قوى الصليبيين . وكانوا بذلك مقدمة لدور أكثر قوة وضخامة ، هو دور الأتراك العثمانيين الذين دحروا الدولة الرومانية الشرقية وأقاموا مكانها امبراطورية عظيمة استطاعت أن تنتزع القسطنطينية وأن تعبر إلى أوربا فترفع أعلام الاسلام عليها ستة قرون . استمرت موجة السلاجقة بامتداداتها من الأتابكة والأكراد (زنكى وأيوب) (٤٥٠ — ٦٤٧) خلال قرنين كاملين وكانت قوة من القوى الاسلامية الشابة المجددة التي حلت محل القوة السياسية الحاكمة في بغداد عندما دخلت الدول العباسية في مرحلة الضعف : وقد أظهرت هذه القوة عددا كبيرا من رجالها بناة الدول والمحاربين من أمثال : طغرلبك ، الب أرسلان . ملك شاه ، والوزير نظام الملك ثم أظهرت عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي . وقد سيطرت موجة السلاجقة على المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي : فارس والعراق والشام وأحرزت تقدما ضخماً في مجالى الحضارة والقوة العسكرية وكانت قوة ناصرة ومؤيده للمفهوم الاسلامي الجامعى (مفهوم السنة) وكان وجودها نهاية لعوامل الصراع العنيف التي استمرت طوال القرن الثاني والثالث بين الفرق

والمذاهب والنحل فى صراعهـا السياسى والدينى الطويل الذى كان يتمثل فى صورة صراع بين الفرس والعرب ، ويهـدف إلى القضاء على القوة السياسية المسيطرة فى بغـداد وإزالتها من مـكان القيادة مع العمل على تمزيق مفهوم الاسلام نفسه والقوة العربية بوصفهـا حاملة لواء الاسلام إلى العالم كله

وقد استطاعت موجة السلاجقة أن تحقق ازدهاراً ماديا وأدبيا ، وإن تنصر الاسلام فى مفهومه الوسط والجامع ، وأن تواجه الغزو الخارجى المتمثل فى الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود عالم الاسلام والتى كانت توالى العدوان على هذه المناطق وقد جرى « بناة الدول » وقادة السلاجقة على سنن الخلفاء فى مناصرة الآداب والفنون فاحتضنوا عدداً كبيراً من الأعلام أمثال : عمر الخيام والنظامى والسعدى وجلال الدين الرومى . وأحيا السلاجقة الروح الاسلامية بعد أن خمدت طويلا ، فمنذ عام ٤٢٩ إلى عام ٧٠٠ هـ تجددت مفاهيم الاسلام فى بناء القوة العسكرية وتوحيد عالم الإسلام مرة أخرى والتئامه فى وحدة سلجوقية وقد عاود الاسلام قوته مرة أخرى وتجمع فى بوتقة السنة، وطارد السلاجقة ومن بعدهم نور الدين وصلاح الدين خصوم الاسلام وأصحاب دعوات الشعوبية والزنادقة ، وظلوا يعاملون اليهود والمسيحين وأهل الذمة معاملة إسلامية مجددة بلغ من تسامحها أن طالبت جماعات مسيحية بيزنطية الحـكام السلاجقة تخليصها من حكامها ، وأصبحت دمشق وحلب والموصل وبغداد واصفهان والرى وهراه ونيسابور ومرو حواضر زاهرة ، فقد أظهر الب أرسلان تقديراً للفن والثقافة وبرز عهد من النهضة العلمية والابتكار فى مجال الأدب والفن والفلك والموسيقى والشعر والعمارة وفى عهد الملك شاه (٤٦٥ — ٤٨٥) برز الوزير نظام الملك . وقد جدد السلاجقة شباب دولة الإسلام وأمدوها بدم جديد ، وكانو محاربين أشداء ، بدواً ذوى بأس فى القتال . أقوياء الأجسام ، بعد أن ضعف العرب والفرس ، وقد أعادوا للخلافة العباسية نفوذها الروحى وسلطتها السياسية وخلصوا العالم من الخلافات والمصارعات ولا شك كان ظهور السلاجقه مؤذنا بقوة دفاعية جـديدة تواجه محاولات الانتقاض على عالم الاسلام من خارجه ، واستطاع السلاجقة وخلفاؤهم قهر خصوم الاسلام طوال مرحلة طويلة ، فى معاركها مع بيزنطه وانتصارها فى موقعة حاسمة هى ملاز كرد ، وفى مواقف عماد الدين زنكى ونور الدين محمود (٥٤١) وصلاح الدين (٥٦٧) فى مواجهة الحملات الصليبية . وهم القوة الأولى فى هذه المرحلة التى نصرت الاسلام وابعتهم قوة المماليك، وهكذا استطاع السلاجقة أعلاء « كلمة الاسلام » داخل عالمه ، وهزمو خصوم الاسلام والمنقضين عليه وأوجدوا مرحلة من مراحل يقظة المثل العليا الاسلامية تمثلت بصورة رائعة فى نور الدين وصلاح الدين : ولقـد

حققت سلاجقة إيران والعراق دوراً هاماً على مسرح الأحداث ، وسيطرت فترة قرنين من الزمان ومهدت حملات السلاجقة فى آسيا الصغرى السبيل أمام الأتراك العثمانيين فيما بعد للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية ، وقد كان هدف السلاجقة توحيد الرقعة الكبيرة من عالم الاسلام الممتدة من بلاد ماوراء النهر شرق البحر الأبيض ، فى ظل لواء السنه والالتقاء حول علم الجهاد المقدس لنشر راية الاسلام والدفاع عنه .

وقد كان دور السلاجقة فى مواجهة الروم حاسماوضخما فقد كان للوقف على حدود الدولةالرومانية البيزنطية ضعيفا بعد موقعة عمورية ٢٢٣ هـ حيث لم تقم الخلافة العباسية طوال هذه الفترة بهجوم يذكر ، مما جرأ الروم على الانقضاض على العالم الإسلامى فكانت موجة السلاجقة عاملا هاماً فى مواجهة القوة الرومانية ومن وراءها من قوى تترقب فترات الضعف ، وقد اجتاز السلاجقة الثغور والعواصم وانتزعوا من الروم أرض الأناضول وحولوها إسلامية وسيطرت قوى جديدة على المنطقة. غير أن الخلاف بين السلاجقة لم يلبث أن أضعفهم ، فانتهزت أوربا الفرصة لتحل محل الدولةالرومانية البيزنطية التى قاومت عالم الإسلام خمسة قرون كاملة ، ولتتقدم باسم استعادة بيت المقدس فى إدعاء بأن الحجاج المسيحيين قد وجدوا بعض الغبن أو الاضطهاد ، وفى غيبة من القوة العسكرية والوحدة استطاع الفرنجة إحتلال بيت المقدس ٤٩٢ هـ . وكان ذلك عاملا من عوامل التحدى الضخمة التى واجهت عالم الإسلام والتى برزت برد فعل ضخم فى النهضة التى حمل لواءها آل زنكى خلفاءالسلاجقة، وفى مقدمتهم عماد الدين زنكى الذى استطاع أن يوجد دولة قوية ضمت دولة الجزيرة العربية وأعالى الفرات وحمص وحلب وبعلبك ومعرة النعمان ، ومضى يكيل الضربات للصليبيين ، وكانت أكبرها استيلاؤه على إمارة الرها (٥٣٩) وإزالة نفوذ الصليبيين فيها مما هز القوى الغربية ودفعها إلى إرسال حملة صليبية جديدة بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ، وقد فشلت هذه الحملة التى هاجمت دمشق ثم ارتدت منهزمة . ثم كانت محاولة مملكة بيت المقدس الصليبية بالاستيلاء على مصر ، وبروز نور الدين محمود ، حيث هزمت هذه الجولة وخلصت مصر لقوة نور الدين محمود الذى حمل لواء الدفاع عن العالم الإسلامى فى مواجهة الغزو الصليبى ، غير أن خلافه مع إخوته ، أتاح الفرصة لجلوسين أمير الرها فى استرجاعها ، هنالك توجه نور الدين من حلب فى عشرة آلاف فانتزعها منه (٤٥١) هـ . ومضى نور الدين يديل من إمارات الصليبيين ففتح عدداً من الحصون والمعاقل ، واستطاع التغلب على صاحب أنطاكية (ريموند) ٥٤٤ هـ كما تغلب على الحصون والقلاع التى كان يسيطر عليها جلوسين والواقعة شمالى حلب . ولم يكن نور الدين الذى حمل لواء الوحدة فى مواجهة الغزو،واصطنع الأسلوب

الإسلامى فى المعاملة إلا مقدمة لحركة ضخمة استطاع أن يحمل لواءها « صلاح الدين » وأن يمضى بها معمقاً خطة « نور الدين » ومتجاوزاً إياها إلى أبعد مدى . فقد استطاع صلاح الدين هزيمة الصليبيين فى « حطين ٥٨٣ هـ » واسترجاع بيت المقدس (يوم الجمعة ٢٧ رجب) وقت صلاة الجمعة ، حيث أقيمت صلاة الجمعة ثامن يوم الفتح لأول مرة فى بيت المقدس بعد واحد وتسعين عاماً . إذا كانت مقاومة الحملات الصليبية تتمثل فى أقوى صورها فى موقف عماد الدين زنكى وأسامة بن منقذ ونور الدين محمود وصلاح الدين والظاهر بيبرس على الترتيب ، يحمل الراية منهم بطلا بعد بطل ، فإن لهذه المقاومة تاريخ سابق منذ وطىء العدو أرض الإسلام فما أن استقرت الحملة الصليبية فى بيت القدس حتى تحركت المنطقة المتاخمة لها فى مناهضة سريعة إختفت فيها الخلافات الشخصية بين الأمراء، فلم يلبث عدد من الأمراء المسلمين فى شمال العراق أن التحموا وحملوا علم الجهاد . ولعل سيطرة الرها إحدى امارات الصليبيين ١٠٩٨ على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل هو الذى حرك جيرانها للثورة عليها فلم يلبث (مودود أتابك الموصل ٥٠٤ هـ ١١١٠ م) أن أعلن الجهاد وخرج بجيش كبير وزحف على أطراف الرها وتقدم صوب طرابلس . ولم تنجح هذه المحاولة ، ولكنها فتحت الطريق لمحاولات أخرى . ومعنى هذا أنه لم يمر غير عام واحد بعد احتلال الصليبيين الأرض الإسلامية حتى بدأت المقاومة ،وزاد ذلك انتفاضه القوى الإسلامية وتجمعها ، وأخذت روح الجهاد المقدس تملأ النفوس ، وتهز المشاعر ، وتحركت جماعة كبيرة من أعيان حلب وتجارها وفقهائها إلى بغداد يستنهضون الهمم ، وانتهزوا فرصة صلاة الجمعة للمناداة بالجهاد ، واستثارة المشاعر ولم تلبث أن تجمعت القوى الإسلامية بقيادة مورود (٥٠٥ — ١١١١ م) فاتجه إلى الرها حيث حاصر المسلمون فى تل باشر ، ودبت اليقظة وبدأت تتمركز فى أرض الشام،وبدت علامات الوحدة بين الأمراء المسلمين . وظهر (ايلغازى) وحمل الراية بعد مودود وقاوم الصليبيين فى حلب ١١١٩ حين هاجموها،واستولى على حصن قطون غربى معرة النعمان . واتسع نطاق حركة التجمع والمقاومة ، وظهر بلك بن أرتق ٥١٦ — ١١٢١ وكانت وجهته الرها أيضاً . ثم ظهر البرسقى : أتابك الموصل ٥١٨ ونجح البرسقى وحاول أن يتخذ من حلب مقر تجمع يربط بها الموصل ، ثم سقط البرسقى كما سقطت الشخصيات الثلاث التى سبقته بغزو الجماعات الباطنية التى كانت تقاوم الوحدة الإسلامية . غير أن شخصية كبيرة لم تلبث أن ظهرت هى شخصية (عماد الدين زنكى) الذى تولى أتابكية الموصل ٥٢١ هـ ١١٢٧ م وكان من أبرع القادة العسكريين فلم يلبث أن أمن حدود ولايته واتجه إلى حلب ودمشق وزحف على حمص وحماه ، واستطاع تكوين جبهة إسلامية تضم الأمارات والبلدان المتاخمة للامارات الصليبية . وكانت خطته دفع الخطر البيزنطى من الشمال ومقاومة الفرنجة من الغرب والجنوب .

ثم إتجه عماد الدين زنكى نحو الرها ٥٣٩ ﻫ التى قاومت طويلا ، حتى استنفذت كل وسائل التسليم السلمى ، هنالك نصب عليها آلات الحرب وضربها بالمجانيق وافتضها بعد حصار عنيف ، وكانت هذه هى أولى معارك الانقضاض الإسلامى على المملكة اللاتينية ، وكان النصر فيها قوياً للمسلمين رفع من روحهم المعنوية وزادهم قوة وحماسة كما دفع الأمراء المسلمين إلى التآزر والوحدة . لقد كان سقوط الرها ضربة كبرى فى مواجهة القوة الصليبية ، وكان مقدمة للخطوات إلى حققها نور الدين وصلاح الدين .

« نور الدين »

حققت هذه الخطوات لنور الدين أقامة وحدة تكتل القوى الاسلامية فى وجه الخطر الصليبين على نحو أعطى حركة المقاومة قوة وحيوية . وكان لشخصية « نور الدين » أثرها البعيد المدى فى هذه الحركة . فقد تمثلت فيه صورة القائد المسلم ،وأعادت سعد بن أبى وقاص وعمر بن عبد العزيز ، بل لقد حاول كثير من المؤرخين أن يضعوا إسمه مع أسماء أبو بكر وعمر .

والحق أن نجاح نور الدين كان إلى حد ما نتيجة للخطوات التى سبقته ، كما أن كان أثره بعيد المدى فى خطوات صلاح الدين ، فهو حلقة مسبوقة وسابقة ومرتبطة ، غير أن أثره الواضح العميق وتألق شخصيته فى معركة المقاومة للحملة الصليبية ، وبروزه فى صورة القديسين والشهداء إنما يرجع إلى إنكاره للذات ، فقد جمعت شخصيته بين البسالة والزهد ، والإيمان والقوة فكانت بذلك بعيدة المدى فى تحقيق وحدة المسلمين وكان أبرز ما إتسمت به حركته هو أنه أعطى السياسة قوة الأخلاق فاقترب من مفاهيم الإســلام ومقوماته إلى حد لم يسبقه إليه الكثير فى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وقد كان إقترابه من مفاهيم الاسلام فى محاولته لدعم الوحدة الإسلامية لمواجهة الخطار الصليبي هو أقوى العوامل التى حققت له النصر ، حتى ليمكن القول بحق أن نور الدين قد التمس ثلاث قوى من قوى الاسلام فى سبيل عمله هى : (القوة ، الوحدة ، الايمان) .

ولقد جرت محاولات لتصوير نور الدين فى صورة زعماء الصوفية فى عصره ، غير أن الحقيقة كانت غير ذلك تماما ، وأن « نور الدين » كان أعمق فهما للاسـلام وأنه كان يجمع بين السياسة والخلاق معاً ، السياسة بكياستها ومرونتها ودهائها دون أن يجرفه ذلك إلى الغدر أو الحقد أو الانتقام وقد أعطاه ذلك ثقة من كانوا حوله ، أو اتصلوا به ، وقد أغناه هذا الوضوح عن كثير من مناورات

السياسة وأ كاذيبها وأتاح له سرعة تحقيق هذه الوحدة ومكن له استمرارها، ودعم الضربات المتوالية التى وجهها إلى العدو .

وقد استطاع نور الدين خلال مدة حكمه (٥٤١ — ٥٦٩) أن يحقق أمرين هامين : أولاهما توحيد القوى الاسلامية مما أسماه المؤرخون «الجبهة الإسلامية المتحدة» والادالة من الأمارات الصليبية وقد شملت سوريا الشرقية وقسما من سووريا الغربية والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر وبعض البلاد المغرب وجانبا من اليمن ، وكما حصن قلاع الشام وبنى الأسوار حول مدنها ومضى مداوما للجهاد يقود معارك المقاومة بنفسه ، لا يتوقف عن مهاجمة الأمارات الصليبية التى تكونت فى نهاية القرن الخامس الهجرى فى أربع وحدات : مملكة بيت القدس ، أمارات أنطاكية ، طرابلس الشام ، الرها وقد استطاع أن يوقف زحف الصليبيين من الشام ، وقد وصف المؤرخون مواقفه من الصليبيين بأنها نقطة التحول فى تاريخ تلك الحروب وأن نور الدين قد أعد الأساس للعمل الذى حققه من بعد صلاح الدين وكان أبرز ما حققه فى سبيل النجاح خطة المقاومة هو استيلاء على دمشق ٥٤٩ هـ — ١١٦٨ م) بعد أن تبين أن حملات الصليبيين قد اتجهت إليها أخيراً بوصفها مصدر المقاومة . أما استيلاؤه على دمشق والقاهرة فقد قضى نهائيا على مطامع الصليبيين فى التوسع فضلا عن أنه وضع الامارات الصليبية بين فكى الكماشة الإسلامية التى ظلت تضغط بقوة حتى استخلصت هذه الأجزاء واستردتها .

وقد عمل نور الدين على تخليص نصارى العرب من ظلم الصليبيين ، وأعطى مقاومة الصليبيين طابع الغزو والاعتداء وبذلك وحد « العرب مسلمين ونصارى » فى جبهة المقاومة ، وأعطى معاركه طابع الاسلام : لم يمس كنيسة ولم يؤذ أحداً من أبناء الأديان الأخرى ، وكرم الرهبان والقسيسين ، وعارض منهج الصليبيين فى اعتدائهم على المسلمين ، وكان لخلقه الواضح فى عمله السياسى يلقى المهابة فى قلوب خصومه ، وقد أقام للمجتمع الاسلامى مقومات حديثة ، فقد أسقط المكوس واقطع عرب البادية إقطاعات حتى لا يتعرضوا للحجاج ، وقد كان من أهم ما أولاه نور الدين بالغ الاهتمام بناء القاعدة الفكرية للمقاومة عن طريق نشر الثقافة الاسلامية الموحدة البعيدة عن الخلافات بوصفها جوهر المقاومة وتأريث الجهاد فى النفوس ، فبنى مدارس كثيرة ، وبنى أول دار للحديث وبنى الخانات على الطريق ، وكان أعدل ملوك زمانه ، عارف بالفقه ، يجلس إلى العلماء كل أسبوع ويسمح لمن يشاء أن يحضر مجلسه ، وقد كان لهذا التكوين الثقافى بالاضافة إلى ما طبع عليه من إيمانه وخلقه من ميزة لعصره كله وأجيال المسلمين فكانوا يتطلعون إلى دعوته للنفير العام ، وتنثال الجموع من

بمختلف الأقطار واثقة بالنصر بقيادته . وفى الوقت الذى لم تسكن الإمدادات الصليبية تتوقف من أوربا وصقلية عاما واحدا ، كانت قوات المسلمين والعرب تتدفق على معسكرات الجهاد المقدس ، وتلتئم فى معارك المقاومة . وقد تميز نور الدين عن أفراد أسرته من السلاجقة والأتابكة تميزا كبيرا فهؤلاء الذين سبقوه قد نصروا الإسلام وأعزوه كملوك وأمراء .

أما نور الدين فقد أعزه كمجاهد عسكرى وقائد سياسى وعابد زاهد فقد « امتلأت نفسه بالإسلام وتمثل روحه على نحو لا نكاد نجد له شبيها إلا عند الأوائل من أعلام صدر الاسلام » .

ولم يكن إيمان تعصب وتشدد بل إيمان سمح بسيط تساوت أمامه المذاهب الإسلامية فلم يفرق بينها ، وكانت سماحته فى معاملة المسيحيين واضحة ، وكان يحارب الصليبيين بوصفهم أجانب اعتدوا على بلاده ومقدسات أمته ، ويفضل فصلا واضحاً بين هذا المعنى وبين أنهم نصارى ، ولذلك كان حفياً برجال الدين مكرما لهم لا يدخلهم فى حساب مقاومته ، وقد انضم إلى صفوفه نصارى العرب فى معركة المقاومة بناء على هذا الفهم الدقيق وكان الصليبيون يقدرون عمق إيمانه بالإسلام فى مقاومتهم ، ووسائله فيقولون : « أن ابن القيم (أى نور الدين) له مع الله سر فإنه ما ينتصر علينا بكثرة جنده وعسكره ، وإنما يظهر علينا بالدعاء وصلاة الليل » . والحق أن نور الدين كان يرى فى بناء الإيمان عن طريق الثقافة الإسلامية عاملا موحداً للأمة ، ودافعاً إلى الجهاد ، ومن هنا كانت انطلاقته الضخمة فى بناء المدارس والمساجد والزوايا وإعداد برامج الدراسة فيها كوسيلة فعالة وأساس جذرى المقاومة . وكانت مؤاخاته لجنده ، والتحاقه بهم ومداومة المشورة معهم والتقدم أمامهم فى المعارك ، من أبرز العوامل التى أكسبته النصر ، وقد كسب تقدير الصليبيين تعصبا ، أمثال وليام الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس فقد اعترف بفضل نور الدين وعدله . إذا كان اسم صلاح الدين قد لمع كثيرا فى مجال العدل والسماحة فإن نور الدين هو الذى بنى هذه القاعدة وترك لصلاح الدين صورة رائعة للمثل الأعلى الإسلامى فى مواقف المقاومة والحرب .

صلاح الدين

إذا كان « عماد الدين زنكى » قد استطاع أن يستعيدها « الرها » أولى الإمارات الصليبية ، فقد حقق « نور الدين محمود » الوحدة الفكرية والروحية فى المنطقة كسلاح المقاومة الصليبية ، وبذلك استطاع صلاح الدين أن يحقق أضخم نصر فى معارك المقاومة فى موقعة حطين الذى مكنه من استرجاع بيت المقدس . فما كاد صلاح الدين يوحد مملكته ويؤمن مواقعه حتى بدأ معاركه مع

الصليبيين عشر سنوات كاملة ، وتحقق على يديه أضخم ضربة مع معركة حطين (٥٨٣هـ – ١١٨٧م) والاستيلاء على بيت المقدس ، مما حصر الصليبيين فى منطقة ساحلية ضيقة انتقلت إليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة (عكا) عاصمة لها .

وكان موقف صلاح الدين فى استعادة بيت المقدس مشرفا كريما ، تجرى فيه على مفهوم الإسلام فلم يزدهيه النصر بحيث يدفعه إلى الانتقام ، وقد سمح صلاح الدين للصليبيين بافتداء أنفسهم مقابل مقدار زهيد من المال (١٠ دنانير للرجل ، ٥ للمرأة ، ٢ للطفل) وأوسع لهم فى أجل هذا الفداء زمنا زمنا بلغ أربعين يوما ، وخرج الصليبيون تحت حماية القوات ، ولم يدخل بيت المقدس إلا بعد أن أجلى الصليبيين عنها .

وقد أدعى الأب لا منس بأن محاسنة صلاح الدين للصليبيين كانت عجزا وخوفا فلم يعاملهم بأيام حروب القسوة والعذاب ، وخير ما يدحض هذه الشبهة ما كتبه ول ديورانت فى هذا المجال . وهناك شبه إجماع على أن صلاح الدين لم يكن قائدا بارعا أو محاربا أو شجاعاً أو حاكماً عادلا بقدر ما كان « إنساناً » ممثلا الأخلاق والقيم الاسلامية ، فإن هذا المفهوم وحده هو الذى جمع حوله جميع العناصر والقوى التى كانت تهدف إلى توحيد الاسلام فى وجه الغزاة ، يقول هاملتون جب « إنه لم يستعمل فى تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيتين فى غالب الأحيان وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوى عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتمائاً اسميا على حد سواء ، كان غاية فى البساطة فذا فى النزاهة ، ولقد أحير أعداءه من الأدنين والأبعدين ، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم ، وأن يقوم بالألاعيب والمناورات السياسيه مثلما يفعلون ، وكان هو نفسه طيب السريرة ولذلك لم يكن يتوقع أبدا أن يفهم فكر الآخرين ، وقلما فهمه وذلك ضعف استغله فيه أحيانا أقرباؤه ، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يصطدمون بصخرة مستقرة من إخلاصا لمثله العليا اخلاصا لم يكن لأحد من الناس أو لشىء من الأشياء أن يزعزعه من مكانه » . والحق أن صلاح الدين مضى فى خطة نور الدين ، خطة الإيمان بأن قيام الإمارات الصليبية إنما جاء ناتجا عن تخلف مفهوم الإسلام نفسه وانحراف عن القيم الأساسية له وفصل بين السياسة والأخلاق ، وكان المفهوم الذى بدأه نور الدين وبلغ به صلاح الدين الغاية ، مما حقق له النصر ، هو الإيمان بضرورة إعادة الكيان الإسلامى فى ظل دولة موحدة ، وفق مفهوم الاسلام نفسه وعلى مستوى القيم والأخلاق التى سار عليها محمد ابن عبد الله وصحبه الاولون . وقد

أورد فى بعض رسائله مقاصده الثلاث من حركة : الجهاد فى سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله والتجمع حول قيادة سياسية قوامها الخليفة العباسى . وتكشف رسائله عن كثير من مفاهيمه الأساسية أهمها : « إنه لن يسمح بتداول الحرب بين أمراء المسلمين بدلا من اتحادهم معا فى الجهاد » . يقول جب : « كان يعرف أن المشكلة التى يواجهها لم تكن سياسية فحسب بل هى إلى حد كبير أخلاقية نفسية وأنه إذا عالجها على المستوى السياسى والعسكرى سيعجز عن حلها ، وأدرك أنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة ، فعليه أن يدعم الولاء السياسى بحوافز وروادع أخلاقية ونفسية » ، ومن أجل أن يصل إلى غايته كان عليه أن يقوى أعماله والقدوة التى يخلقها بإيجاد تيار خلقى ونفسى يسنده موفقة ويكون قويا بحيث يتعذر مقاومته فكان لذلك فى حاجة إلى خلفاء وبخاصة فقهاء المدارس قادة الرأى العام يومئذ » . وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن السر فى نجاح أعمال صلاح الدين العسكرية وظفره فى معركة حطين واستعادته بيت المقدس ، إنما يرجع إلى قابلية هذه العوامل لا إلى الأعمال العسكرية .

(٢٣)

موجة البربر

يمثل « البربر » إحدى القوى البدوية الشابة التى اعتنقت الإسلام وجددت شبابه ، وهى القوة الكبرى فى شمال أفريقيا والتى يدين لها نمو الاسلام وانتشاره فى أفريقيا كلها بالأثر البين الواضح خلال عمر الاسلام كله ومنذ دخوله أفريقيا . وقد برزت هذه الموجة تحت أسماء كثيرة أهمها : المرابطون والموحدون والمرينيون ، هذه القوى ذات الفاعلية الضخمة فى تاريخ نمو الاسلام والدفاع عنه ، فقد شارك البربر منذ المراحل الأولى فى عمليات التوسع ، وكانوا هم فاتحو الأندلس أصلا ، وهم القوة الإسلامية الأولى التى عبرت إلى بحر الزقاق ، فأسست « الأندلس » أول دولة للإسلام فى أوربا ، وكانت قوى البربر التى تدفقت إلى الأندلس من بعد ذات أثر كبير فى عمليات التوسع والاستقرار والدفاع طوال فترة القرون الثمانية وقد ساهمت قوى البربر المسلمة بالاشتراك مع القوى العربية ، فى مختلف أعمال التوسع التى امتدت فى قلب أوربا ، وكان دورهم أبرز فى حركات التوسع فى قلب أفريقيا .

وقد ظل البربر ينظرون إلى التوسع الاسلامى على أنه سيطرة من نوع جديد فقاوموا الفاتحين

أمثال أبو المهاجر بن دينار ، وعقبة بن نافع الفهرى ، وحسان بن ثابت ، وزهير بن قيس حتى جاء موسى بن نصير واستطاع بشخصيته الرائعة أن يكسب البربر إلى صف الاسلام ، فقد كان داعية إلى الإسلام أكبر منه قائدا محارباً ، حيث استطاع أن يكسب قلوب البربر بالاسلام وأن ينشر الإسلام نفسه ، ويدعو اليه بينهم ويكشف لهم عن جوهره ، وأن يقف منهم موقف الأخاء لا موقف الرئاسة فقرب إليه البربر وأشركهم فى إدارة بلادهم ، فتحقق لهم بالإسلام قوة جديدة ، حين لم يفقدوا سلطانهم ونفوذهم فى بلادهم ، وكانت ذكانة موسى بن نصير هى التى هدته أن يكون إسلام البربر اقتناعا وحبا ، فوسع آفاق الثقافة الإسلامية وأنشأ المساجد .

هنالك تأكد البربر أن الاسلام ليس نظام استعمار شبيه بسابقه ، أو أنه سلطة مفروضة أو أن اعتناقه أمراً ملزماً لمن لا يقتنع به ، من هنا كان إقبال البربر على الاسلام وتأييدهم موسى بن نصير، على النحو الذى تحقق فى خروجه إلى الأندلس فى الغزوات الثلاث بقيادة طريف بن مالك ثم طارق بن زياد ثم بقيادته ، وقد كان البربر هم العنصر الأكبر والأغلب من قواته فى فتح الأندلس ، وقد اشتركت صنهاجة الملثمين فى قوات التوسع . وقد تم التحالف بين العرب والبربر بعد اسلامهم ، وأدى ذلك إلى دخول قبائل متعددة فى الاسلام وبعد صنهاجه دخلت لتونه ، وامتدت سياسة موسى ابن نصير من بعده حتى كان عصر عمر بن عبد العزيز الذى أولى نشر الإسلام اهتماما كبيرا ، وغلبه على نظم الاقتصاد والضرائب ، وكان رسوله إلى افريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر الذى ولى أمر أفريقيا وكان مثلا عاليًا من أمثلة دعاة المسلمين وقادتهم مما أدى إلى نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأقصى ، حتى لم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم (المؤرخ ابن عبد الحكم) وكان عمر بن عبد العزيز قد أمده بصفوة من أعلام التابعين انبثوا فى البلاد يحضون الناس ويبصرونهم بمقاصد الاسلام . ويرى المؤرخون أن إسلام الملثمين فى القرن الثالث الهجرى كان ذا أثر بالغ فى تاريخ قبائل البربر ، فقد تمخض عن تحالف قوى ضم قبائل الملثمين جميعا بزعامة لمتونه ، بفضل زعامة الزعيم الليمتونى (تيولوتان بن تيكلان) الذى أسلم وحسن إسلامه وأكسبه دينه الجديد القوة التى مكنته من إتمام هذه الوحدة .

غير أن قوى البربر قاومت محاولات حكام العرب إلى السيطرة مثل حبيب بن عبيدة مما أدى إلى ثورتها على نظام الحكم العربى ، وقيام جبهة من المقاومة حملت لواء الدعوة إلى أن الإمامة ليست للعرب وحدهم بل هى للمسلمين جميعا على السواء ، والمعروف أن البربر والمغاربة كانوا يعتزون

بالإسلام كقوة من قوى الحرية ، ولذلك ضاقوا بمحاولة السيطرة عليهم وثاروا على النفوذ المفروض، وكانت هذه المواقف نهاية لسلطان العرب ومعبراً لحكم المغاربة لبلادهم . ومع هذا فقد ظل البربر أولياء للإسلام صادقى الإيمان به ، فقد اندفعوا فى سبيل إذاعته ونشره والاستشهاد فى سبيله ، مما دفعهم إلى إبلاغ الإسلام لديار الزنوج فى غانا حتى تحررت من الوثنية بزعامة زعيم صنهاجة اللمتونى. كما قضى الإسلام ووحدته الفكرية على الخلاف بين قبائل صنهاجة وزناته وكان العداء بينهما عنيفاً متصلا ، تقليدا لامتداده بين البرانس والتبر ، وقد آثر البربر مذهب مالك واتخذوه مصدراً لمفهوم الإسلام على النحو الذى آمنوا به ، مستمدين منه مفهومهم فى الحرية مؤكدين به إيمانهم بالنزعة بالاستقلالية ، كمصدر من مصادر القوة فى مقاومة كل نفوذ أجنبى يحاول أن يفرض عليهم، فقد اتسم مذهب مالك بمقاومة نفوذ الحكام المستبدين ، وظلت مفاهيمه مرتبطة فى أنفسهم بإعلاء كلمة الحق والاستشهاد فى سبيل العقيدة ، وأنه لا ولاية لظالم أو متسلط ، وقد تطورت هذه المفاهيم إلى إيمان له طابع الجهاد فى سبيل نشر الإسلام والزهادة فى المطامع الدنيوية ، هذا الإيمان الذى كان مضمون الدعوة التى حملها المرابطين ثم الموحدين وفى القرن الخامس كانت « موجة البربر » هى أقوى موجات الإسلام فى أفريقيا والأندلس ممثلة فى قبائلها زناته وصنهاجة وكتامه والمصامدة، التبر والطوارق والملثمين والبرانس وطوائفها التى واجهها الإسلام عندما بلغ أرض أفريقيا والمغرب ، وهى قوى بشرية ممتدة من طرابلس إلى السوس الأقصى ، وقد كان لهذه القبائل شأن أى شأن فى تاريخ المغرب والاسلام تفوقاً فى الروح الحربية ، وشجاعة (زناته) تتمثل فى رجالها الفرسان الذين لعبوا دوراً هاماً فى تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبى عامر حين استقدم إلى الأندلس أعداداً ضخمة قامت بدورها فى مقاومة الغزو الخارجى على الأندلس .

وقد كان لقبائل الملثمين نواة الدولة المرابطية أبلغ الأثر فى نشر الإسلام فى ربوع أفريقيا والسلطان المغربى فقد مضت بعد إسلامها قرونا طويلة تجاهد قبائل السودان حتى أدخلتها فى نطاق عالم الإسلام ، وقد أمد الإسلام هذه القبائل بالوحدة والالتقاء بعد أن كانت تتصارع فأعطاها اتحادها قوة دفعتها فى أقاصى الصحراء ، ناشرة لواء الإسلام ، وقد بلغت سعة دولة المرابطين من منحنى النيجر فى الجنوب حتى للبحر الأبيض فى الشمال ثم جاوزته إلى الأندلس ، وقامت (صنهاجه) بنشر الإسلام بين قبائل السودان ، ميممة شطر الجنوب حتى بلغت منحنى النيجر ، وقد تم توحيد هذه القبائل تحت لواء « عبد الله بن ياسين » . وقد أعدت هذه المفاهيم البربر إلى التطلع لزعامة تجمع قواهم وتدفعها فى سبيل نشر الإسلام حين توحدت بزعامة « عبد الله بن ياسين » ، باسم « الرباط فى سبيل الله»

بمعنى الإقامة فى الثغور حيث ترابط خيل للقاتلة تحمى الحدود ، وترد المعتدين وتجاهد فى سبيل الله وقد واجه للرابطون القوى المغيرة على السواحل الإسلامية التى ظلت تتعرض لغارات الأسطول البيزنطى ، من قواعده فى صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا ، وأقاموا فى المدن الساحلية وتحصنوا بها ، ووفد عليهم عدد كثير من المقاتلة الذين آمنوا بأن الرباط فى سبيل الله ضريبة يفرضها الإسلام للدفاع عن ثغورة وسواحله ، وقد انتشرت أعمال الرباط من بعد على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسى ومن ثم تراجعت الأساطيل البيزنطية أزاء هذه القوة الجديدة ، وظلت هذه القوة المرابطة تحرير المسلمين وتتخذ من الرباط عبادة فإذا دهم الغزاة أرض المسلمين تنادوا إلى المرابطين الذين يتدافعون لرد العدوان ويصمدون فى وجه الغزاة . ثم تبلورت قيادة المرابطين فى زعامة يوسف بن تاشفين (٤٥٤ هـ) الذى امتد نفوذه من المحيط الأطلسى إلى الجزائر والمغرب الأسط وأنشأ « مراكش » . ولم يتردد المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين من العبور إلى الأندلس نجدة للمسلمين الذين تمزقت دولتهم بعد جهاد طويل ومقاومة ضخمة لعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر ، فلما ذوت الدولة الأموية وتقسمت بين إمارات الطوائف طمع الأسبانيون والفرنجة فى الأندلس وأخذوا يغيرون على أطرافها حتى زلزلت دولة الإسلام فى أوربا هنالك ، عبر يوسف إلى الأندلس فى قوات ضخمة من ، واشتبك مع الأسبانيين والفرنجة فى معركة حاسمة هى معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ هـ) وقد توحدت قوى الأسبانين تحت راية الأذفونس السادس لمواجهة القوة الإسلامية الجديدة ، وفى هذه الموقعة الحاسمة أظهر المسلمون شجاعة وقوة ونصروا الله حقاً ، فحققوا الظفر الذى رد خصومهم واستخلص لهم سرقسطه وطرطوشة وبلنسيه وقد كادت أن تلتهمها القوى الغربية ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغوب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة مرة أخرى بعد عام واحد المدن الإسلامية ، اضطره إلى العبور إلى الأندلس مرة أخرى حيث قضى على ملوك الطوائف ، واستولى على غرناطة ومالقة وقرطبة وأشبلية ، واستطاع أن يؤخر سقوط الأندلس فى أيدى الأسبانيين والفرنجة فترة أخرى . ولم يلبث أن ضعف المرابطون وعاد الأوربيون والفرنجة للأدالة من مملكة الأندلس ، فاستولى الأذفونس ملك أرغونة على طليطلة ثم سرقسطه ٥١٣ هـ ومضى يحاصر غرناطة ومالقة ، هنالك كانت الموجة البربرية الثانية «الموحدون» قد استحصدت واستطاعت أن تعبر إلى الأندلس بقيادة « عبد المؤمن بن على » حيث واجه الموحدون الخطر الغربى الذى تدفق على سواحل أفريقية ٥١٧ فى حملات النورمان الذين استولوا على سواحل طرابلس المغرب والجزائر

وانتهت بوصول الأسطول النورمانى إلى المهدية وقد انبعثت دعوة الموحدين فى مستهل القرن الخامس الهجرى بقيادة محمد بن تومرت وكان من أعظم أنصاره عبد المؤمن بن على ، وقد خلف الموحدون المرابطين واستطاعوا أن ينصروا الإسلام فى جولة جديده وموجة تالية . حيث طردوا النورمان من السواحل الأفريقية ٥٥١ هـ وعبروا إلى الأندلس وضموا إليهم مدائن الأندلس ، التى أصبحت جميعها عام ٥٦٧ هـ تحت سيادة الموحدين .

ثم كان للموحدين معركة حاسمة مع الأسبان الفرنجة إنتصروا فيها انصاراً ساحقاً ، وأخضعوا المنتقضين على الأندلس ، هى معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ غير أن هذه القوة الإسلامية الفتية البدوية قد أصابها ما أصاب مختلف القوى من لقاء الحضـارة والترف ، فلم تلبث أن اضطربت وتمزقت ، وبينما كانت القوى الأسبانية والأفرنجية تتـكتل وتستعيد قوتها لتثأر من هزيمتها فى الزلاقة والأرك كانت القوات الإسلامية قد ضعفت حتى عجزت أن تلتقى بالقوى الإسلامية المجـاهدة فى المشرق ، حين أرسل صلاح الدين إلى أبى يوسف المنصور ٥٨٠ هو ويدعوه إلى عقد الخناصر لمقاومة الحملات الصليبية فى معركة موحدة للعالم الإسلامى كله ، وفى موقعة العقاب استطاع الأسبانيون والفرنجة الأدالة من المسلمين ، بعد أن توحدت القوى الغربية وتدفقت سيول الصليبيين من مختلف أنحاء أوربا حتى بلغت مائة ألف ، بينما لم تـكن قوات الموحـدين متحدة أو متحمسة ، فلم تلبث أن اضطربت أمام جحافل الفرنجة سنة ٦٠٩ هـ التى حققت نصراً كان مقدمة لاسترجاع الأندلس .

وما تزال موجات القوى الشابة تبرز وتجدد الاسلام ، تبرز قوية شابة خشنة بدوية ثم تنالها يد الحضارة والترف فتضعف ، لتحل موجات أخرى بديلا لها ، لم يتوقف عالم الاسلام من إمداد الاسلام بهذه القوى فى مجال الدعوة إلا الإسلام أو الفـكر أو بناة الدول والأبطال وما تزال ، هذه القوى تتوالى وما تزال أسماء أبطالها تلمع مرحلة بعد مرحلة .

وكلها تحاول أن تستمد القدوة من المسلم الأول (ﷺ) ومن تجربته ومفهومه وتصرفه فى بناء عالم الإسلام وفى الحرب والسلم وفى الدعوة إلى الاسـلام والدفاع عنه وللبربر (المرابطين ومن بعدهم الموحدين) ، دور فى تاريخ الاسلام إيجابى رائع ، فقد نشروا الاسلام فى ربوع السودان الغربى وثبتوا الثقافة الاسلامية بين الشعوب الأفريقية و نشروا اللغة العربية ، وشاركوا فى معركة الدفاع عن الاسلام وتثبيت دولته فى الأندلس ، وقد سجل تاريخ الجهاد أسماء أبطال وقادة وفرسان ، وقرن اسم يوسف بن تاشقين وعبد المؤمن بن على بأسماء نورالدين محمود وصلاح الدين ، وكان لدولة المرابطين والموحدين

قوة جاهدت وفى البر والبحر وصمدت للفرنجة وقاومتهم وأدالت منهم . وقد كان للمغاربة المسلمين فى ظل الدولتين دور ضخم فى بناء القوى البحرية والأساطيل ، نافس قوى للسلمين فى المشرق ، وذلك بعد ضعفت القوى البحرية الاسلامية التى أنشأ موسى بن نصير مؤسس البحرية الاسلامية فى غرب البحر المتوسط ، فقد عادت دور الصناعة على طول الساحل الأفريقى من برقة إلى طنجة مرة أخرى قلاعاً ضخمة عامرة ، تصمد للمغيرين وتدفع الخطر الفرنجى ، ومن خلالها استطاع المسلمون تنظيم غارات متصلة بين الجزر والقواعد البحرية كما أغار مسلمو المشرق على قبرص وردودس ، وكان فضل يوسف بن تاشفين فى أحياء البحرية الاسلامية سنة ٥١٧ هـ كبيرا . ويمكن القول فى إيجاز :

(١) قاوم البربر توسعات الاسلام ونفوذه حين دخل المغرب واستمروا فى هذه المقاومة طويلا بحسبانه نفوذا غريبا ، كما قاوموا من قبل نفود الدولة الرومانية الذى امتد ألف عام ، فلما تحققت عدالة الاسلام وسماحته وأتاحته الفرصة لأهل كل وطن فى حكم وطنه أقبل البربر على الاسلام فى اندفاعة قوية فاعتنقوه وجاهدوا فى سبيله نشره جهادا مشرفا وأصبحوا أكثر أنصاره إيمانابه ودفاعا عنه . (٢) البربر هم فاتحوا أسبانيا أصلا ، وهم القوة الاسلامية التى عبرت إلى بحر الزقاق فأسست « الأندلس » أول دولة للإسلام فى أوربا ، فلما تم الفتح تدفقت جماعات كبرى من البربر إليها فانصهرت فى مجتمعها مع العرب شركائهم فى التوسع ومع القوط أصحاب البلاد الأصلية . (٣) ساهمت قوى البربر بالاشتراك مع القوى العربية فى مختلف أعمال التوسع التى إمتدت فى أسبانيا واستمرت طويلا ، والتى وصلت فى ظل قيادة عبد الرحمن الغافقى إلى مدينة (صانص) التى لا تبعد عن باريس أكثر من مائة كيلو ، ومن ثم أصبحت ضفاف أنهار الرون والصاوون واللوار تحت نفوذها . (٤) قاد المرابطون والموحدون والمرنيون أضخم معركة مقاومة مع الفرنجة والأسبانيين هى إحدى شق معركة الغزو الصليبى ، وذلك بعد إن ضعفت القوى العربية المسيطرة فى الأندلس بفعل الترف والتمزق . وكان للمغرب أضخم دور فى حماية الأندلس من القوى الغربية المتجمعة للقضاء عليها . (٥) كان للبربر أقوى القوى الاسلامية الشابة فى المغرب فى مواجهة أزمة الاسلام فى القرن الخامس ومن بعده ، حين بدأ الغرب تنفيذ مؤامرة الغزو الصليبي بجناحه المشرق والمغرب . وكانت أبرز دولهم دولتى المرابطين والموحدين التى امتدت (بضعة قرون) وقد أدى البربر مهمتين خطيرتين . (الأولى) نشر الاسلام فى أفريقيا وتوسيع آفاقه إلى أبعد حد ممكن . (الثانى) الدفاع عنه فى مواجهة الغزو الخارجى للأسبان والفرنجة فى الأندلس فقد عبر الموحدون إلى الأندلس فى خلال قرن واحد ثلاث مرات ثم غير بعد ذلك المرنيون . وقد ظهرت قوتا البربر متواليتين : المرابطين والموحدين ،

أما المرابطون فقد ظهرت قوتهم فى وقتها إوبانها ، حين اندلعت نيران الحروب الصليبية بالمشرق الاسلامى ، وحين ضعفت الدولة الأموية فى الأندلس ، وتوقفت غزوات عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر الذى غزا الفرنجة خمسين غزوة ، فلما تقسمت الدولة الأموية إلى إمارات الطوائف فى نفس الوقت الذى توحدت فيه أرجونة وقشتالة مملكتى الفرنجة فى مملكة واحدة استأسدت وأخذت تديل من أرض الأندلس ، بينما تقسم المسلمون وتصارعوا ، مما مكن الاذفونس ملك أرغونة من الاستيلاء على سرقسطة ثانى معقل إسلامى (٥١٢ هـ) بعد طليطلة ، ومضى فى محاصرة غرناطة وتهديدها.وبلوغ مالقه ، هنالك كان لابد لحركة التاريخ الاسلامى أن تعطى قوة جديدة فى مواجهة الغزو العنيف،موازنة للموقف، وإنقاذا للاسلام من الانحدار كما كانت قوة السلاجقة وخلفائهم فى المشرق والمماليك من بعدهم هى عنصر الموازنة ورد الفعل والتحدى أزاء الحملات الصليبية كذلك كان المرابطون والموحدون فى المغرب .

(٢٤)

موجة المماليك

حقق « المماليك » عملا ضخما فى مجال المقاومة الاسلامية ، فاستطاعوا أن يردوا الهجوم المغولى والغزو التترى الذى تعرض له (عالم الاسلام) من سمرقنـد إلى حلب فى موقعة (عين جالوت) : بقيادة قطز وبيبرس بعد سقوط بغداد بعامين، وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية التترية فى زحفها الطويل خلال أربعين عاما وتوقف اندفاعها نحو البحر المتوسط ومصر .

ثم استطاع الظاهر بيبرس أن يحقق انتصارات أخرى على معسكرات الصليبيين وحصون التتار وقلاع الباطنية ، وأتم تصفية هذه القوى الغازية . قلاوون وصلاح الدين خليل ، وكان المماليك بحق: قوة من أكبر قوى الإسلام ذات الفاعلية فى مجال الجهاد ودفع العدوان الذى تعرض له عالم الإسلام خلال القرنين السادس والسابع ، وقد عاشت دولتا المماليك (البحرية والجراكسة) ٢٧٠ عاما تولى الحكم فيها خمسون سلطانا ، وإذا كان (الغزو الصليبى) على عالم الإسلام قد أبرز القوى الإسلامية المتمثلة فى السلاجقة وخلفائهم (عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين) فان (الغزو التترى) قدأبرز للمماليك (قطز وبيبرس وقلاوون والناصر) كذلك أبرز غزو الفرنجة والأسبان قوى البربر

(المرابطون والموحدون) : يوسف بن تشفين وعبد المؤمن بن على ، وقد كان اجتياح المغول لبغداد حدثا طبيعيا ونهاية محتومة إذا ما نظرنا إلى تطور القوى فى العالم إذ ذاك، مع ضعف القيادة السياسية الإسلامية فى مقر الخلافة فى بغداد ، حتى ليمكن أن يقال أن العبارات التى وجهها جنكيز خان وتيمورلنك إلى أمراء المسلمين إنما تمثل الواقع المحتوم فى هذه الفترة حين وصفاهم بأنهم « ملوك وحكام ظلمة قد أشبعوا أنفسهم وأجاعوا أممهم وأنهم غفلوا عن مفهوم الإسلام فى عدالته ووحدته وفى المساواة والحق ، ولذلك فان الله قد سلط التتار عليهم لينتقموا منهم ، وإنهم آية الله على هذه القيادات الظالمة » ، هذه العبارات التى أوردها التتار فى رسائلهم إلى أمراء الإسلام إنما تمثل مفهوم التطور وحركة التاريخ فما من قوه تضعف إلا ولقوة أخرى مجددة أن تسيطر عليها ، أن تحل محلها، وأن الدول تمر بمراحل من القوة والضعف ، فاذا شاخت كان لابد لها أن تنهار ، وكذلك كانت الدول الممثلة للاسلام من سمرقند إلى بغداد فى هذه الفترة (٦١٦ — ٦٥٦ هـ) بين سيطرة جنكيز خان وهولا كو قد أصابتها الفرقة والضعف والغفلة واستسلمت إلى الترف والانحلال وانطوت على نفسها فكان لابد أن تطيح بها قوة جديدة شابة حتى يستيقظ المسلمون من غفلتهم . وقد جاءت موجة المغول الأولى ٦١٣ هـ — ١٢١٦ م بقيادة جنكيزخان فى جيش قوامه ستين ألفا ، إجتاح هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم وتدفق ما بين الصين والادرياتيك . ثم كانت موجة المغول الثانية (٦٥٦ — ١٢٥٨ م) بقيادة هولا كو فاجتاح عالم الإسلام حتى بلغ بغداد فدمرها ، واسقط الدولة العباسية وقتل الخليفة المعتصم ، وبلغ الشام واستولى على حلب . وكانت معركة « عين جالوت » هى الرد الحاسم من القوة الإسلامية الجديدة التى برزت فى مصر ، وهى « قوة المماليك » التى حملت لواء الدفاع عن الإسلام غير أن التتار لم يلبثوا بعد نصف قرن من حكم هولا كو أن طواهم الإسلام فاعترف بركة خان سابع الخانات وزعيم القبيلة المذهبية بالإسلام دينا لدولته ٦٥٤ — ١٢٦٥ م وكان بركة خان معاصرا لركن الدولة الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، ومن ثم قامت محالفة بين الرجلين على مقاومة بقايا الصليبيين والتتار الوثنيين ، وكان لهذه المحالفة أثر بعيد المدى فى إنتصار الإسلام والأدلة من خصومه ، وفى ظل محالفة بيبرس لبركة خان استطاع أن يكبد المغول خسائر فادحة وأن يوقف زحفهم نحو الشام ومصر والأجزاء القريبة من عالم الإسلام ولم يلبث أوزبك خان أن انضم إلى الأميرين وعرف بتحمسه للاسلام والدعوة إليه ، وكان أول من جد فى نشر الإسلام فى جميع أنحاء روسيا .

(٢)

إذا كانت قوة السلاجقة وخلفائهم ممثلة فى عماد الدين زنكى ونور الدين وصلاح الدين قد واجهت المرحلة الدقيقة من معركة الحملات الصليبية ، فان المماليك قد واجهو معركة التتار ومعركة تصفية الإمارات الصليبية . وقد كان المماليك قوة إسلامية شابة بدوية ، من الصعب أن تتكون وتنمو وتبلغ ما بلغته من عز وقوة فى غير ظل الإسلام على حد تعبير (فيليب حتى) فقد كان المماليك مجموعة من أرقاء مختلف الأجناس والعناصر رفعهم الإسلام وأمدهم بمفهومه فى الحرية والقوة فدافعوا عنه ونصروه .

سيطر المماليك على مقدرات السياسة فى الشام ومصر طوال قرنين وثلاثة أرباع القرن ، فى أدق مراحل التاريخ الإسلامى وفى أدق مناطق الخطر ، وأتيح لهم أن يحققوا نصرين كبيرين للاسلام : (الأول) إجلاء بقايا الصليبيين والباطنية وإقامة سد منيع فى وجه جيوش التتار دون غزو هذه المنطقة أو بلوغ امتدادها فى البحر الأبيض وأوربا ، وكان ذلك من أدق المواقف التى يقدرها التاريخ العالمى قدرها حين يكون السؤال : هو : ماذا يكون ميزان القوى وحركة التاريخ لو لم يكن للمماليك فى هذه المنطقة وماذا يكون مستقبل آسيا الغربية ومصر ، فى التعرض لموجات التتار التى ساقوها على بغداد وسوريا وحلب . ولقد كان دور « الظاهر بيبرس » فى هذه المرحلة بالغ القوة والأثر ، فى معارك عين جالوت واستخلاص الإمارات التى سيطر عليها الصليبيين ، واحدة بعد واحدة ، والحملات العنيفة التى جرهها عليهم حتى تزعزع مركز بقائهم فى ساحل الشام مما عجل باجلائهم من بعد . وكانت لبيبرس ، حركته العالمية الضخمة فى معاهداته مع ملوك المغول وملوك أوربا واتفاقاته مع زعيم خانات المغول فى وادى الفولجا ، وما حقق من دفع امتداد الإسلام فى قبائل المغول ، بحيث كسب الإسلام قوتهم العسكرية للوقوف فى صفه والدفاع عنه .

وكان لبيبرس تاريخ قديم قبل معركة « عين جالوت » فهو الذى هزم لويس التاسع فى معركة المنصورة ٦٤٨ — ١٢٥٠ وقد أتيح له بعد سيطرته على مقدرات الحكم أن يبنى جيشاً وأسطولا قويين ، وقد كللت مختلف اشتباكاته مع الصليبيين بالظفر والنصر ، ومن أجل هذا يعده المؤرخون ثالث العلمين : هارون الرشيد وصلاح الدين وقد عرف بجولاته الرائعة وتنقلاته من حصن إلى حصن ومن ميدان إلى ميدان حول المملكة اللاتينية الممتدة من شمال سوريا إلى حدود مصر ، وداخلها ، وقد كانت هذه المنطقة مجال جهاد المماليك العنيف المتصل ضد الصليبيين ، فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم حتى انتزعوا منهم آخر معاقلهم واستخلصوا آخر حصونهم ، كما استأصلوا شأفة الباطنية والحشاشين .

وكان قلاوون وابنه الملك الأشرف من أبرز المجاهدين فى سبيل الدفاع عن الأسلام ورد خصومه وإليهم انتهت آخر إقلاع الصليبيين ، وفى عهد الأشرف سقطت عكا فى أيدى المسلمين ٦٩٠ — ١٢٩١ . وكان لاستعادة عكا صدى بعيدا فى المجتمع الإسلامى ، فقد كان ذلك علامة على انتهاء آخر حلقات الغزو الصليبي فى المشرق الإسلامى ، وقد وصلت سلطة المماليك أقصى أتساع لها خلال القرن التاسع الهجرى (ق ١٥ م) حين استطاعت أن تسيطر على قبرص وتحاول ضم رودس للاجهاز على ما بعد الحملات الصليبية من محاولات الحصار على عالم الاسلام كما بسطت نفوذها على الشام ومصر وعالى الفرات وأطراف آسيا الصغرى الشرقية .

ولا شك كانت هذه الفترة ، مرحلة من أقوى مراحل « استعادة الثقة » فى عالم الاسلام فقد نشط المسلمون إلى عمليات المقاومه وبرعوا فى أعمال القتال بالمنجنيقات والكبوش وهدم الأسوار والأبراج ، وفى هذه المرحلة كان الأدب العربى سلاحا قويا فى مواجهة هذه الحملات وفى شحذ الهمم ، وتعبئة القوى الروحية والعسكرية ، وكان الزحف الصليبي والزحف التترى من بعده دافعا قويا للمسلمين إلى الوحدة والمقاومة، وكان التتار مع الصليبيين على اتفاقات سرية وارتباطات حددت مواعيد الغزو التترى ، وذلك لوضع العالم الاسلامى بين فكى الكماشة : التتار من الشرق والصليبيين من الغرب ولكن الاسلام استطاع أن يثبت للصليبيين والمغول ، واستطاع بيبرس وخلفائه ، أن يضربوا الصليبيين ، ويمنعوهم من التحالف مع التتار ، حتي خرج الصليبيون مقهورين ، وامتص الاسلام المغول وصهرهم فى بوتقته ، واعتنقوا الاسلام وكونوا دولا إسلامية كبرى ، أشهرها دولة المغول فى الهند التى أسسها للملك بابر . وإذا كان القرن السابع (١٣م) قد شهد تصفية الأمارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائيا من فلسطين وساحل الشام فإن القرن الثامن الهجرى (١٤ م) قد شهد رد الفعل لهذه النتيجة فى المعسكر الصليبي حيث قامت أوربا بالدعوة إلى مقاطعة عالم الاسلام وتحريم الاتجار مع المماليك مهددة تجار الأفرنج بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة .

غير أن المماليك كانوا من البراعة والحنكة السياسية بحيث استطاعوا تحطيم هذا الحصار ، وتمكنوا من عقد عدة معاهدات مع الدول الأوربية ، كما أحسنوا معاملة التجار الفرنجة ، ومن ثم أخذ الغربيون فى إعداد حملة لمهاجمة مصر عسكريا ، وقد تم ذلك بالحملة على الأسكندرية التى قام بها بطرس الأول ملك قبرص (٧٦٧ هـ — ١٣٦٥ م) غير أنه اضطر إلى الانسحاب بعد بضعة أيام — ويمثل القرن الثامن الميلادى (١٤ م) مرحله جديدة فى تاريخ الاسلام ذلك هو ظهور الدولة العثمانية

الفتية التى استطاعت من بعد أن تجمع أغلب أجزاء العالم الإسلامى وفى مقدمتها العالم العربى تحت جناحها ، وأن بقى المماليك يسيطرون على الشام ومصر خلال القرن التاسع الهجرى (١٥ م) حيث واجهوا غارات القراصنة الفرنجة بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاسبارية فى رودس على السواحل والثغور المصرية والشامية ، مما أنتهى إلى إذكاء روح الجهاد من جديد فى صد الفرنجة ، حيث قام المماليك بغزوات انتقامية ضد رودس وغيرها من جزر البحر الأبيض بالاستيلاء على قبرص فى عهد (برسباى) .

(٢٥)

انتشار الاسلام فى مرحلة الغزو الخارجى

تكشف « حركة التاريخ الإسلامى » عن ظاهرة بعيدة المدى على طوال مراحله هى : قدرة الإسلام على كسب النصر فى مجال النكسة ، وتوسيع نطاقه حين تحاول القوى الأجنبية الانتقاص منه ، وامتداد ظلاله إلى شعوب جديدة حين تنكسر قواه وتلحقه الهزيمة أو الضعف فى إحدى مراكزه المتقدمة . وفى مرحلة الغزو الخارجى واجه عالم الإسلام هجوم ثلاث قوى :

(١) هجوم الصليبيين فى حملاتها المتوالية التى لم تتوقف ومعارك المسلمين معها . (٢) هجوم الفرنجة والأسبانيين على الأندلس وشواطىء المغرب . (٣) هجوم التتار والمغول فى زحوفهم الضخمة وانتصارات المسلمين عليها .

ولقد كان وقع سقوط بغداد فى قبضة الغزو المغولى بالغ الأثر فى المجتمع الإسلامى كله ، فقد زلزل النفوس وأصابها بالاضطراب والتشاؤم وأضفى على المسلمين روحا من اليأس الهائل ، فقد خيل للناس من ضخامه وقع الحدث وعمق الضربة أن الإسلام قد انتهى ، حتى أن مؤرخا كبيراً هو ابن الأثير ظل معرضاً عن ذكر الحادثة بضع عشر سنة ، بل لقد كان وقع سقوط بغداد أكثر دوياً ، وأخطر أثراً فى النفوس من الحملات الصليبية ، ذلك أنها كانت تمثل ضربة رئيسية موجهة إلى مركز القيادة السياسية لعالم الاسلام وقاعدة الاسلام بالرغم مما منيت به هذه القاعدة من الضعف وما بلغته من الانكماش والتضاؤل فى نفوذها الحقيقى .

غير أن النظرة الأوسع تكشف عن حقيقة عجيبة ، هو أنه فى نفس العام ٦٥٦ ﻫ الذى سقطت فيه بغداد مركز القيادة السياسية الاسلامية فى يد المغول ، فى نفس هذا العام غزا الاسلام واحدة

من أضخم قبائل التتار هى قبيلة بركة خان وفتح طريقه بالسيطرة على عقول وقلوب هذه القوة العاتية التى كانت قد هزت العالم كله وزلزلت قواعده منذ أربعين عاماً قبل فتح بغداد ، وكانت موضع تطلعا الغرب الطامع فى أن يضمها إلى دينه وثقافته ليجعل منها أحد فكى الكماشة فى الأطباق على عالم الإسلام ، غير أن ذلك لم يتحقق فقد « كان دعاة الإسلام » البسطاء أقدر على كسب إيلخانات المغول من حملات التبشير الغربية ، ويرى توماس أرنولد أنه ليس فى تاريخ العالم نظير لتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام حيث كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة .

وكانت زوج جنكيز خان من قبيلة مسيحية ، ومن ثم تطلعت السلطتان المسيحيتان فى الشرق والغرب لمساعدة التتار فى حربهما الصليبية مع المسلمين ، ويؤكد توماس أرنولد أن هينون ملك أرمنية المسيحى هو العامل الرئيسى فى إقناع مايخوخان (٤٤٦ هـ - ١٢٤٧ م) بإرسال تلك الحملة التى دمرت بغداد بقيادة هولاكو ٦٥٦ هـ — (١٢٥٨م) الذى حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ على أن تظهر عطفاً شديداً على المسيحيين ، وقد ظن الغربيون أن المغول قد تحمسوا للمسيحية وانتصروا لها فأرسل القديس لويس سفيراً من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر المسيحية غير أن ظهور الاختلافات بين المسيحية من اللاتين والأغريق والنسطوريين والأرمن وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلا فى إحراز نجاح أكبر » هذه عبارة توماس أرنولد فى الخطة التى دبرها الغرب مع المغول والتى تحطمت حين دخل بركة خان وقبيلته فى الإسلام ثم تحالف مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك وكان بركة خان (١٢٥٦ — ١٣٦٧) أول من أسلم من أمراء المغول وكان رئيساً للقبيلة الذهبية فى الروسيا ، غير أن تحالف هولاكو مع القوات المسيحية فى الشرق كملك أرمنية والصليبيين ، ربما قد حجب الأمل فى انتشار الإسلام بين المغول قليلا ، وكان ابن هولاكو (أباقا خان) قد تزوج من ابنة إمبراطور القسطنطينية ، وكان يرسل السفراء إلى القديس لويس ملك فرنسا وشارل ملك صقلية وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين . غير أن ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذى كان يرجوه ملوك أوربا ، فإن أخوه تكودار ٦٧١ هـ - ١٢١٢م الذى اعتلى العرش من بعده كان قد اعتنق الإسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين فلما تولى السلطة رغب فى تحويل كافة التيار إلى الإسلام وأرسل نبأ إسلامه إلى سلطان المماليك فى مصر « قلاوون » قال فى رسالته : « لقد ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، فى إيراد كل أمر وإصداره تقديماً لناموس الشرع المحمدى على مقتضى قانون العدل الأحمدى إجلالا وتعظيما ، إن

الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، عفا الله عما سلف ومقدمنا بإصلاح أمور المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وأمر بتنظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها وإنا أطلقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم » توقيع « تكودار أحمد » . وتوالى الأيلخانات المسلمين حتى كان أعظمهم شأناً « غازان » ٩٦٥ هـ ١٢٩٥ م سابع الأيلخانات الذى جعل الإسلام دين الدولة الرسمى فى فارس . وتوالى إسلام أمراء التتار وملوكهم : أسلم طرماشيرين ملك جمطاى ٧٢٧ هـ — ١٣٢٦ م وتغلق تيمو خان ملك كاشغر ٨٤٨ هـ ١٣٤٧ م على يد الشيخ جمال الدين وعندما تولى تغلق تيمور السلطة استقبل أمراء دولته وكان أولهم الأمير تولك : وقال له الخان: ألا تدخل الإسلام ، عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال: قد دخلت فى الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال الدين فى كاشغر ، وأصبحت مسلماً منذ ذلك الحين ولكنى لم أصرح بذلك خوفاً منك ، وعرض الإسلام على سائر الأمراء فتقبلوه جميعاً إلا واحداً وفى هذا اليوم قص ١٦٠ ألف رجل شعورهم ودخلوا فى الإسلام . ولما تولى أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية (٣١٧ هـ) ١٣١٣ م — ١٣٤٠ م السلطة عمل على تحويل كثير من الأهليين إليه ، وقد وضع خطة لنشر الإسلام فى كافة أرجاء بلاد الروسيا . وبالرغم من تحمسه لنشر الإسلام وتفانيه ، كان كثير من التسامح نحو رعاياه المسيحيين وقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء .

وفى هذا يقول تومارس أرنولد : إنه بالرغم من كل المصاعب أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى سلموها الخسف وجعلوها فى مواطىء أقدامهم . ولابد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي ﷺ قد انتشروا فى طول إمبراطورية المغول وعرضها مجاهدين فى طىء الخفاء لجذب غير المسلمين إلى حضارة الإسلام » . كما حقق الإسلام توسعاً ذاتياً فى هذه المرحلة فى قلب الصليبيين أنفسهم فإن روح الإسلام وعدالته التى لمسها الغربيون عن قرب ، وما أدهشهم من شمائل نور الدين وصلاح الدين قد شدهم إلى الإسلام ، وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالإسلام إلى تغير مفهومهم عن المسلمين ودينهم ، وبدا رأيهم أقرب إلى الإنصاف بل لقد انجذب كثيرون منهم إلى حظيرة الاسلام ، ويقول توماس أرنولد : يظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً حتى أن نفراً من الفرسان المسلمين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا المسيحية وهجروا قومهم وانضموا للمسلمين ، حتى أن صيغة القسم التى عرضها على القديس لويس

أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء مافرض عليه من الفدية ١٢٥٠ م كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الاسلام (جونفيل) ويتصل بهذا أن المسلمين حين استعادوا سلطانهم على بيت المقدس بسطوا على المسلمين روح التسامح التى كانت من قبل ، ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالى هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيون ، ويظهر أن أهالى فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس فى أيدى المسلمين نهائيا ١٢٤٤ م رحبوا بالقادة الجدد واطمأنوا اليهم ورضوا بحكمهم . وقد دفع هذا الشعور كثيراً من مسيحى آسيا الصغرى إلى الترحيب بمقدم السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده ولكن بسبب روح الاضطهاد التى ظهرت بها الكنيسة الافريقية (توماس أرنولد) .

وقد انتشر الاسلام ذاتيا فى آفاق أخرى ، هى المغرب وشمال أفريقيا وكان لتقبل البربر له أبعد الأثر فى انتشاره فى آفاق أفريقيا ، ويرى المؤرخون أن ظهور المرابطين كان بعيد الأثر فى انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمه جذبت عدداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج فى الامة الاسلامية (الدكتور حسن محمود) وقد ظهر فى مستهل القرن الخامس «عبد الله بن ياسين» المعلم التقى الذى اكتشفه يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، وكان مقدمة للنهضة الضخمة التى قادها من بعد يوسف بن تاشفين ، فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام فى مختلف أنحاء قطاعات أفريقيا التى تعرف بالسودان ، وقد بنى رباطا فى جزيرة نهر السنغال حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم ألف شخص ، ثم دفعهم إلى قبائلهم وعشائرهم ، ثم زاول الدعوة فى القبائل المجاورة ، واستطاعت حركة عبد الله بن يس أن تحقق توسعا فى قلب أفريقيا حيث أسلمت قبائل كبيرة من البربر الوثنية ثم كانت حركة الموحدين امتداداً لحركة المرابطين من حيث جذبت إلى الاسلام قبائل أخرى كانت بعيدة عن الاسلام وقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين أن يكسب الكثير للاسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية وشرح قواعد الاسلام وأمر بالآذان بها .

(٢٦)

الفكر والثقافة فى مرحلة الغزو الخارجى

هل مهدت مرحلة التبلور والانصهار لمرحلة الغزو الخارجى : الواقع أن مرحلة التبلور والانصهار تميزت باندفاعات قوية نابعة من مفاهيم الاسلام . فقد استطاع الاسلام أن يحقق انتصارات ضخمة فى خلال مرحلة « التبلور والانصهار » مستقلا عن الدولة الاسلامية . ذلك أن حرية الحوار الفكرى بين دعاته وبين دعاة الأديان الأخرى والمذاهب والملل المختلفة قد كشفت جوهره ، فاستطاعت بساطته وشموله وتكامله أن تنفذ إلى أعمق النفس الانسانية المتطلعة إلى قوة دافعة إيجابية تعين على البناء والتقدم والانشاء . وقد أعطى الاسلام معتنقيه هذه القوة وأنشأ نهضة ضخمة فى مجال العلوم والفكر والبناء والحضارة فهو بقيمه الإنسانية من التوحيد والعدل والمساواة وسماحته فى الانفتاح على الثقافات والحضارات قد استطاع أن يستوعب حصيلة ضخمة من عصارة تجارب الأمم ونهضاتها مكنته إلى الاندفاع إلى الأمام ، كما استطاعت مفاهيمه التى تتسم بالشمول والتكامل والوسيطة أن تصهر العناصر المختلفة فى بوتقة « وحدة فكر » بقيت واضحة الخطوة فى مجال البقاء حيث ظلت قوى الشعوبية والزندقة والإلحاد والاباحة تواصل محاولاتها فى إزاحة الاسلام عن مفهومه ، أو التألب عليه بالمؤامرة على دولته .

وظلت دولة الاسلام تشق طريقها على الذى تحقق لها ، دائرة فى فلك الاسلام ، لم تصل بعد إلى تحقيق المثل الأعلى الذى رسمه ، ولكنها مضت تبنى الحضارة فى الشام ثم فى العراق وفارس ، وأصبحت القيادة السياسية فى بغداد فى العصر العباسى ، وقد أفسحت الطريق إلى الدول الاستقلالية حيث ظهر بناة الدول وقادة الأفكار المختلفة وحيث استطاعت كل القوى والملل والمذاهب والعناصر أن تقيم دولا وحكومات لا فرق فى ذلك بين الشيعة والسنة ، وبين القرامطة والزنج ، غير أن الصراع بين هــــذه القوى بدافع الخلاف بين العرب والفرس أساساً وبين محاولة الفرس فى الاستقلال عن النفوذ العربى ، وبين حركات التآمر والانقضاض التى حاولت أن تحمل شعارات العلويين أو آل البيت كوسيلة لإغراء الشعوب ، هــذه المعركة الضارية فى مجال الفكر وفى مجال الحركات السياسية قد أضعفت الوحدة السياسية الاسلامية بين أجزاء « عالم الاسلام » على النحو

الذى مكن القوى الخارجية من التأهب لغزو من الأندلس فى حدود المغرب والدولة البيزنطية فى فى حدود الشام هنالك دخل العالم الاسلامى فى مرحلة جديدة : هى مرحلة «أزمة الإسلام» كما نسميها وهى مرحلة الغزو الصليبى المزدوج على الشام والأندلس والغزو التترى الذى ارتبط بالغزو الصليبي فى خطط منسقة كمحاولة ثلاثية للقضاء على عالم الاسلام . وقد استمرت هذه المرحلة : مرحلة الغزو الخارجى فترة قرنين كاملين هما (القرن السادس والسابع) وفى هذه المرة ظهرت القوى الثلاث الشابه البدوية المحاربة ذات الفروسية والصرامة والتى كانت فى مستوى الأحداث وهى قوى (١) السلاجقة وحلفائهم وتابعيهم الأتابكة والأيوبين (٢) المماليك (٣) البربر «المرابطين والموحدين» وبعد فماذا كان شأن الفكر الاسلامى فى هذه المرحلة :

كان الفكر الاسلامى فى مرحلة الانصهار والبلورة قد مر بعدة مراحل :

(١) المعتزلة : لسان الدفاع عن الاسلام فى مواجهة الفلسفات القديمة . (٢) تحقيق الحديث والسنة وتكوين مدارس الفقه فى مواجهة حملات الشعوبية . (٣) أعادة صياغة مفهوم الاسلام بالعودة إلى مفهوم «القرآن» بوصفه حجر الأساس الفكر الاسلامى جامعا بين العقل والقلب فى مواجهة انحرافات (١) الاعتزال (الأشعرى) (٢) الباطنية (الغزالى) وفى أواخر القرن الخامس وأوائل مرحلة الغزو الخارجى استشرت الدعوة الباطنية (١) كقوة فكرية يهدف إلى القضاء على مفهوم الاسلام فى بساطته وشموله وتكامله ووسطيته (٢) وحركة سياسية تهدف إلى اسقاط الدولة الاسلامية.

كانت الفكرة الباطنيــة خلاصة الفلسفات المجوسية واليونانية الوثنية مصاغة فى قالب ظاهرة إسلامية ، تدعو إلى اسقاط التكليف فى العبادات وتعطيل ظاهرة الشريعة ونسخه وذلك عن طريق تأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلا لايقوم على اللغة والقياس والمنطق مع إنكار الغيبيات وانكار عقيدة ختم النبوة . وقد صور دعاة الباطنية هدفهم فى عبارة واضحة بعث بها عبد الله بن الحسن القيروانى إلى الحسن بن سعيد الجبائى زعيم القرامطة على النحو «أدع الناس بأن تتقرب اليهم بما يميلون إليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فمن آنست منهم رشداً فاكشف له الغطاء فإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا» . والواقع أن دعاة الباطنية وفى مقدمتهم (عبد الله بن ميمون القداح) قد بحثوا عن أنصارهم بين الوثنين وطلاب الفلسفة اليونانية على حد تعبير دوزى — ولم يكن ابن ميمون يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة وإليهم وحدهم أستطاع أن يفضى بسره وخفى عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان ليست إلا ضلالا وسخرية وأن باقى البشر

(وكان يطلق عليهم الحمر) ليسو أهلا لفهم هذه المبادىء ، وقد ظلت الباطنية تنشر دعوتها باسم الدعوة إلى آل البيت ، حتى أصبحت مؤسسة ضخمة تنقض على الحكومات وتقتل الأعلام من الوزراء والقادة أمثال الملك الطوسي والوزير نظام الملك وكان لها دورها الخطير فى معركة الاسلام مع الصليبيين ، فان معظم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي ترصدتهم الباطنية بالقتل أو تعرضوا لمحاولات الاغتيال كما تعرض صلاح الدين . ويتصل بالباطنية جماعة إخوان الصفا ودعوتهم خليط من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ومزيج من الاسلام والالهيات اليونانية مستهدفة خلق دين آخر ، وكانت دعوتهم هى « أن الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة (التوحيدى : الامتاع والمؤانسة) والمعروف أن أصحاب حركة (إخوان الصفا) قد كتموا أسماءهم ، وهنا موضع التساؤل فيما لو كانوا مخلصين أو غير منحرفين عن فهم الاسلام ومقوماته . ومن أهم معالم دعوتهم إنكار البعث بالاجساد (ج ٤ ص ٦١ . رسائل إخوان الصفا) ويفسرون الآخرة والجنة والنار على نحو مغاير لما يفهمه ويعتنقه المسلمون ، وبالجملة فان فلسفة إخوان الصفا هى مزيج من فلسفات اليونانية الوثنية ، والمزدكية الفارسية ، والمانوية ، والوثنية ، والكهانة والتنجيم والسحر ، ويرى العلامة أبو الحسن الندوى أن هذه الدعوة كانت تهدف إلى إعداد النصوص والنقول لحركة انتقاض جديدة ، وذلك بتجميع علم ماكر يراد به عمل سياسى لهدم دولة الاسلام والاسلام نفسه .

الغزالى : وإعادة صياغه الإسلام

هذه هى الصورة التى كانت تتحرك قبل الغزو الخارجى لعالم الاسلام ، بالاضافة إلى التمزق السياسى والخلاف الضخم بين العناصر والقوى الاسلامية ومن هنا كان لابد للاسلام أن يواجه هذا الصراع باعادة صياغة مفهوم الاسلام على نحو يسلك الجماعة الاسلامية فى وحدة فكرية وسطية متكاملة . أما من الناحية الفكرية فقد كان « الغزالى » هو حامل لواء « إعادة صياغة مفهوم الإسلام » بالإتجاه نحو القرآن نفسه كمصدر أساسى وإعطاء الاسلام تكامله وشموله بالجمع بين العقل والقلب فى مواجهة انحرافات الباطنية والفلسفات القديمة : وفى نفس الوقت كانت القوة السلجوقية البدوية الشابة المحاربة فى المجال السياسى عنواناً لسيطرة وحدة الجماعة ، فهم حملة علم السنة ، وأصحاب اللواء المرفوع فى وجه الغزو الخارجى ، وقد استطاع الغزالى أن يعيد صياغة مفاهيم الاسلام صياغة

جديدة ، بعد أن أوغل فى دراسة الفرق وتعمق حجج الفلاسفة والباطنية (٤٥٠ — ٥٠٥) كان جوهر الإسلام قد إختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستصفى الغزالى الاسلام من جديد وأزال عن وجهه ذلك الغشاء الذى حجب صفاءه ، وصارع القوى التى كانت فى يوم من أيام الإسلام أسلحة قوة ثم تحولت مع الزمن ومع انفصالها عن شمول الإسلام وتكامله ووسطيته لتصبح وكأنها مفهوم الاسلام نفسه ، صارع قوى المتكلمين والباطنية والفلاسفة وواجه انحرافاتها وردها جميعا فى صياغة جديدة ، وصبها جميعاً من جديد فى « بوتقة الاسلام » ليبرز الإسلام بمفهومه الأسنى ، وقد استصفى عناصر القوة والحيوية التى تتمثل فى هذه الأفكار والدعوات وإعادها إلى منابعها من الاسلام وأقام من جوهرها بناء فكر الاسلام فى شموله .

فليس الاسلام فلسفة وحدها ولا فقها وحده ولا زهدا وحده ولا كلاما وحده ، ولكنه هو الأصل الأصيل التى تلتقى فيه هذه المفاهيم على قدر لتكون شمول الاسلام وتكامله ووسطيته. وقد دعا الغزالى إلى اتخاذ القرآن نفسه أساساً لمنهج الفكر الاسلامى كاشفاً عن أن علم الكلام كان سلاحاً من أسلحة الاسلام لفترة من الفترات غلبت فيها الفلسفات القديمة فكان دفاع عن الاسلام — عن نفسه — بنفس أسلحة خصومه . وإنمـا يمثل الكلام أمراً جزئياً فيما يتعلق بالدفاع عن شكوك خصوم الاسلام وهو ليس دعوة شاملة ، للطباع السليمة والعقول المستقيمة « أما القرآن » فهو الغذاء الصالح والماء السائغ لكل إنسان ، ليس فيه مافى الكلام من ضرر أو خطر أو جزئية مجـال الدفاع عن الاسلام والرد على خصومه فضـلا عما تعطى آراء المتكلمين من صورة الجدل مما يعجز عنه العامى وربمـا يكون سبباً لظهور العناد فى قلبه ، والأنفع هو الكلام الجارى كما يشتمل عليه القرآن » .

« وأولية القرآن أنه مثل الغـذاء ينتفع به كل إنسان ، أما أولية للمتكلمين فهى مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون بل إن أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوى » . أما الفلسفة عنـده فهى « مجموع أفكار وقياسات وتخمينات » والغزالى لم يتهم الفلسفة بالتفكير أو يهاجمها بالهجاء ، ولكنه قال « أن أغلب قضاياها برهانية ولا يخدم الإسلام انكارها ، وقال أن الإسلام لا ينصر بانكار هذه العلوم وليس فى الشرع تعرض لها بالنفى والإثبات ولا فى هذه العلوم تعرض للعـلوم الدينية ، وقال إن بعض علوم الفلسفة لها فائدتها وخاصة علوم (الرياضة والطبيعة) أما الإلهيات ففيها أكثر أخطائهم ، وقال إنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على

على ما شرطوه من المنطق ، ويرجع ذلك إلى أن الإلهيات ليست كالعلوم الأخرى (الرياضة والمنطق) وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادىء ، ولذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وقال أن خطر الفلسفة على أذهان الناشئة هو أن يجدوا أصحابها مع رزانة عقولهم وغزارة علمهم منكرين للشرائع والنحل جاحدين لتفاصيل الأديان والملل ، ولم يهاجم الغزالى علوم الفلسفة التى لا تصادم الشريعة وناقش مسائلهم فى الإلهيات وما بعد الطبيعة وبين ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم فى ثلاث مسائل : (١) قدم العالم (٢) قولهم بأن الله لا يحيط علما بالجزئيات الحادثة من الأشخاص وا ظارهم . (٣) بعث الأجساد وحشرها ، وقال إن هذه المسائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه ، وعلى هذا النحو بدأ القرن السادس وقد أقبلت الحملة الصليبية الأولى . وبدأت حركة مقاومة ضخمة فى منطقة الشام وساحل فلسطين ولم يلبث أن برز عمـــاد الدين زنـكى يحمل لواء الوحدة الإسلامية السنية وخلفه نور الدين محمود صاحب دعوة « إعادة بنـاء الأخلاقية الإسلامية » كقوة أساسية لحركة المقاومة » . ثم صلاح الدين الذى أقام بخلقه الاسلام نموذجاً جديداً للمثل الأعلى الاســـلامى . وقد كان لازمة الاسلام أثرها فى أمرين : (١) وحدة الجماعة الاسلامية : وحدة سياسية وفـكرية وبروز دعاة ومصلحون من أمثال « عبد القادر الجيلانى » (بروز دعوة الزهد والتصوف وتجمع كتائب المرابطين فى الثغور ثم تحولهم إلى جماعات تعيش فى الخوانق والزوايا . (٣) ظهور أدب جديد هو أدب المقاومة للصليبيين (الشرق) والفرنجة (الغرب) والتتار . وقد كان لحـملات الصليبيين المستمرة أثرها فى بروز دعاة السنة من السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة وال زنـكى والأيوبيين والمماليك أثره فى التقاء الفـكر الاسلامى على وحدة تتمثل فى مفهوم السنة والجماعة حيث انصهرت مختلف الفرق الفلسفية والـكلامية والمتصوفة والفقهية من جديد فى لقاء روحى وفـكرى بين أجزاء العالم الاسلامى ومفاهيمه الفـكرية وفى مقاومة الغزو الصليبي والتترى والفرنجى خـلال قرنين كاملين ، وكما انتشرت حلقات الوعظ وحلقات الصوفية وانتشرت المدارس السنية التى أنشأها السلاجقة وفى مقدمتها المستنصرية والنظامية وبدأت التربية الأسلامية تشق طريقاً جديداً قوامه « وحدة الجماعة السنية » فى التقاء المذاهب الاسلامية ، كما برزت حركة الاخاء والفتوة الاسلامية ، غير أن دور الغزالى فى إسقاط الـكلام والفلسفة الالهية اليونانية قد أنعش التصوف خلال القرن السادس كله حين بلغ التصوف مبلغه من الانحراف الذى بلغته الفلسفة والـكلام من قبل ، عندئذ كان الاسلام فى حاجة إلى شخصية ضخمة « تعيد صياغة مفاهيم الاسلام » فى مواجهة محاولة الجزئية الصوفيـة بمفهومها الجبرى حيث حاولت أن تتمثل مفهوماً كاملا للإسلام ، ففى نحو قرن من الزمان انقلب التصوف إلى حركة فلسفية مضطربة

جمعت إليها انحرافات الفلسفات القديمة وقالت بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وبعدت عن بساطة الاسلام فى شموله وتكامله ووسطيته . ويتمثل ذلك فى أقوال الحلاج والسهروردى وابن عربى ، كما تحولت حركة الرباط فى الثغور إلى حركة الدراويش المنسحبة من المجتمع والعمل والحركة والحياة إلا الاعتكاف فى الخوانق ، ومن هنا أصبح التصوف انحرافاً إلى نزعة فلسفية فكراً وإلى جمود وعزلة وسلبية من الناحية العملية ، ودخل إلى التصوف القول بإسقاط التكاليف وبذلك بعد عن مذهب السنة وقواعد الشرع ورح الاسلام فى طبيعته الايجابية القائمة على محاربة النفس والتوكل على الله والجهاد . غير أن الحركة الصوفية من ناحية أخرى قد استطاعت أن توسع قاعدة الاسلام وأن تنشر التوحيد . فى مختلف أجزاء أفريقيا وآسيا . ثم لم تلبث خلال هذه المرحلة أن تقاربت السنة من الصوفية ، كما تقاربت الصوفية من مفاهيم الشيعة ، وحاولت أن تلتقى فى وحدة فكر فى حظيرة الاسلام . وإذا كان « الكلام » هو محاولة إيقاف الاسلام فى فلك العقل فإن « الصوفية » هى إيقاف الاسلام فى فلك القلب ، وكلاهما شطرى الاسلام ولا يستطيع مفهوم منهما أن يستقل بالاسلام ، والاسلام فى شموله وتكامله ووسطيته يلتقى بهما منصهرين فيه والاسلام دين العقل والقلب معاً .

(٢)

الحركة الموسوعية الكبرى

كان هجوم الصليبيين والفرنجة والتتار من خارج عالم الاسلام عليه فى ثلاث اتجاهات متلاقية يربطها خط واحد هو القضاء على الاسلام « دولة وفكرة » وهى حملة « عاتية » يمكن أن توصف بأنها « أزمة الاسلام الكبرى » ، كان يمكن أن تقضى على أى حضارة يحمل لوائها فكرة ودولة ، غير الاسلام ، فقد استطاع الاسلام أن يخرج أحشائه من البدو المقاتلين الأشداء فى ثلاث قوى : هى السلاجقة والمماليك والبربر فى مواجهة القوى الثلاث ، كانت هذه القوى عاملة على « إعادة وحدة الجماعة » فى مفهوم الوسط (السنة) والدفاع عن أرض الاسلام ، غير أن الاسلام لم يتوقف فى هذه المرحلة عند « الدفاع » بل استطاع أن يفتح فتحا سلميا فى آفاق جديدة فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا ويشق طريقا مجدداً فيغزوا قلوبا جديدة ببساطته وسماحته وشموله ووسطيته ، فيضيف عناصر جديدة فى الوقت الذى كانت قلاع الباطنية تسقط ، والمغول البرابرة يدخلون فى الاسلام أفواجا .

وفى هذه المرحلة برزت « حركة فكرية وثقافية » بعيدة المدى ، لم تشهدها المرحلة السابقة من حيث عمقها واتساعها وشمولها ، ذلك أن الغزو الخارجى قد هز نفوس الأعلام والمفكرين هزاً عنيفاً وكانت عمليات القضاء على التراث الاسلامى على النحو الذى حدث فى بغداد حين فقدت مئات الألوف من مجلدات الكتب. أو ما حرق منها فى ساحات حلب أو دمشق أو نقل إلى مناطق بعيدة بقصد القضاء على قوتها كفكر ، لقد هال الباحثون المسلمون الأعلام هذا الموقف ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل تأليف الموسوعات الضخمة ، تضم إليها الوان الفنون والثقافات التى كانت موزعة على كتب مختلفة وقد نشطت من جديد دون تقدير كبير للصياغة الفنية ، وكان ذلك حماية لها من الضياع ، وإعادة لاحيائها من جديد ووضعها فى أيدى الباحثين .

ونظرة إلى مؤلفات الغزالى أو ابن تيمية أو ابن القيم نجد أنها محاولة تقديم عصارات شاملة سريعة للفكر الاسلامى كله ، حتى لقد قيل فى وصف كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ، أنه يكفى بديلا إذا فقد التراث الاسلامى كله ، ومهما كان فى هذا القول من المبالغة فإنه محاولة لتصوير مدى هذا التحدى الذى واجهه الغزالى فى سنواته الأخيرة بعد قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق واستيلائها على بيت المقدس ، وفى مواجهة ذلك الاحساس المضطرم بالخطر على الفكر الاسلامى مما كان ثمرته تأليف عمل ضخم كإحياء علوم الدين . قد اتسمت مرحلة الغزو بظاهرة عجيبة فى مجال الفكر هى وجود إنتاج ضخم فى مختلف مجالات الثقافة : فقه ونحو ولغة وعروض وحديث وتفسير وبلاغة وأدب وتاريخ وجغرافيا ومنطق وفلسفة وسياسة ورياضة وفلك وتنجيم ، فقد كانت هذه المرحلة فى الواقع ثمرة المرحلة السابقة التى توسعت فيها دور العلم والمساجد والمعاهد والمؤسسات العلمية المختلفة فى عواصم الحواضر الاسلامية ، وكانت منطقة الشام ومصر أغنى هذه المناطق حيث لم تحل الحروب الصليبية ولا الغزوات التترية ولا غزوات الفرنجة لأطراف الأندلس والمغرب من استمرار حركة الفكر والثقافة والأدب ، وطعمتها بتحد جديد وأضفت عليها لون المقاومة والمحافظة على التراث وظلت الجامعات الكبرى : الأزهر فى مصر والقرويين فى فارس والزيتونة فى تونس والأعظم بالقيروان والأموى بدمشق والنجف وكربلاء وسامرا ، ظلت قادرة على أن تحتضن هذه الثقافة وأن تحميها . وعندما سقطت بغداد تحت سنابك المغول ، ظلت القاهرة ودمشق وحلب وحواضر المغرب جميعها حافظة للثقافة منمية لها . ولعل هذا العمل هو أقوى رد على الشبهات التى كانت تتردد من آن الحياة العقلية قد واجهت فى مرحلة الغزو الخارجى مرحلة انحطاط ، فضلا عن أن الخلفاء وبناة الدول فى مصر ما قبل الغزو (٤٩٢ هـ إلى ٦٩٩ هـ) — وهو فترة أول الحملات الصليبية إلى أوائل

عصر الوحدة العثمانية - هؤلاء القادة لم يترددوا فى تكريم النوابغ والعلماء واستقدموا إلى دواتهم عدداً كبيراً من أعلامهم أمثال البيرونى وابن سينا وابن الهيثم .

غير أن هذا العصر يتسم بظاهرة أشد عمقاً : هو أن « الجدل الفكرى الإسلامى » قد انتهى حيث تقاربت مفاهيم الكلام والسنة والتصوف وأهل البيت، وبدأت تلتقى فى وحدة فكر إسلامى له وسطيته وتكامله ذلك أن حكام هذا العصر كانوا علماء وأئمة وعلى قدر كبير من الثقافة وكان من حولهم دوماً نخبة ممتازة من أعلام المثقفين . فقد كان نور الدين محمود يتابع سياسة السلاجقة فى بناء المدارس واستقدام العلماء وكذلك شجع صلاح الدين العلماء وقربهم ، وكانت مجالسهم حافلة بأهل العلم والفضل ، حيث تطرح مذكرات واسعة ومحاورات مفتوحة حول مختلف جوانب العلوم ، وكان صلاح الدين يتكلف السعى إلى العلماء الذين لا يغشون مجالس الأمراء والسلاطين ، كما بنى الكامل دار الحديث فى القاهرة وناظر العلماء ، وفى كل ليلة كان يجلس إلى المفكرين ويعقد المباريات بين العلماء فى حفظ الجامع الكبير وغيره من كتب الحديث ويجزىء عليها . كذلك كان كاف الظاهر بيبرس بالعلماء والنوابغ ، وحبه لمحاورات التاريخ الفقه ، وعلى هذه السنة كان قلاوون الذى أنشأ المدارس الكبرى وطارح الأدباء . وكانت حلقات العلم، زاخرة فى مختلف الجوامع الكبرى والزوايا ، وفى القاهرة كان جامع عمرو والأزهر والطولونى وجامع الحاكم والمشهد الحسينى وكذلك كانت جوامع دمشق وحلب ودار الحكمة فى طرابلس كلها تشتغل بالعلم .

وقد رحبت القاهرة ودمشق وحفلت بالعلماء من مختلف أجزاء العالم الإسلامى واستقبلت القاهرة عدداً من علماء الأندلس وفدوا إليها مهاجرين خلال حملات الفرنجة . وساهمت الأميرات المسلمات : روح الملك الأشرف وأختا صلاح الدين فى إقامة المدارس ، وقامت مدارس للمذاهب الفقهية المختلفة: المالكية والحنابلة والشافعية والحنفية ومدارس للحديث ومدارس للقرآن ومدارس للطب . وكانت هناك خزائن الكتب المتعددة . وقد تعددت آثار الباحثين خلال هذه الفترة فى مجالات الحديث والفقه والقراءات والتعبير وأصول الدين والنحو والعروض والقوافى واللغة والبلاغة والنقد الأدبى والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلوم الرياضة والكيميا والفلك والموسيقى والطب والسياسة واللغات الأجنبية وبرز أعلام متعددون فى مقدمتهم : الشاطبى ، السخاوى ، القرطبى ، محى الدين النووى . ويجمع الباحثون المثقفون على أن الحياة الفكرية فى مرحلة الغزو الخارجى قد نشطت نشاطاً كبيراً وأن ظاهرة « الموسوعات » علامة صادقة على حركة التحدى ورد الفعل فى مواجهة الغزو الخارجى : الصليبى والتترى فى القضاء على الثقافة الإسلامية . وقد ظهرت فى هذه المرحلة موسوعات : نهاية

الارب : للنويرى . صبح الأعشى : للقلقشندى ، ووضع كثير من معجمات اللغة والتاريخ ومطولات السير والأخبار ، وقد ظلت اللغة العربية هى لغة العلم والسياسة ، وقد أصطنعها السلاجقة والمماليك والبربر بوصفها لغة القرآن الكريم وكان للفاطميين والأمويين من قبل دور واضح فى رعاية الآداب والعلوم والفنون فى مصر والشام بعد أن تحولت الحركة الأدبية والعلمية إليها بعد سقوط بغداد .

(٣)
الفكر الإسلامى يقاوم تحديات الغزو

بمراجعة مرحلة الغزو الخارجى (من وصول الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ إلى نهاية الحملات الصليبية ٦٩٠ ﻫ) نستطيع أن نسجل ظاهرة بعيدة الأثر فى حركة التاريخ الإسلامى ، هذه الظاهرة أن مقاومة حملات الفرنجة فى المغرب والصليبيين فى المشرق والتتار فى خلال هذه المرحلة وهى حملات متوالية لم تتوقف ، بل كانت دائماً فى اضطراد وتدفق ، هذه المقاومة لم توقف العمل فى مجال الثقافة والفكر الإسلامى ، بل يمكن القول بأن ثمار مرحلة الانصهار والبلورة قد تحققت فى هذه المرحلة ، يظهر ذلك بوضوح فى مراجعة سريعة للاعلام الذين ظهروا فى هذه الفترة ، وهم من المع شخصيات الفكر الإسلامى فى مختلف فنونه . الفقه والفلسفة والعلوم والدعوة والتصوف والحكم . الغزالى وعبد القادر الجيلانى وفخر الدين الرازى ومحمد بن تومرت وابن رشد ويوسف بن عبد المؤمن وأبو فرج الجوزى وعز الدين عبد السلام ونصر الدين الطوسى وتقى الدين ابن تيمية ومحى الدين النووى ، وابن دقيق العيد ، ومحى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى . وقد اتسم مجال عملهم الفكرى شأن الفكر الإسلامى فى مختلف تطوراته ومراحله ، اتسم بمقاومة الغزو الخارجى ، وتوجيه مفاهيم الإسلام إلى العمل فى هذا المجال ، وأبرز ما توصف به آثار هؤلاء العلماء وكتاباتهم أنها كانت تهدف إلى القضاء على الدعوات والنزعات والمذاهب المنحرفة التى كانت من عوامل التخذيل ، ومن الأدوات التى ستغلها الغزاة لتفرقة جماعة المسلمين أو بث روح التراخى والترف والهزيمة ، وكانت هذه الآثار من ناحية أخرى تحاول أن تصوغ إيدلوجية الإسلام على نحو جديد ، جامع موحد شامل ، يمزج بين الدعوات المتفرقة ويردها إلى أصلها ويقرب بين دعاتها فى وحدة ، حتى لا تكون هذه الفرقة بين الصوفية والمتكلمين ، أو بين الفقهاء والفلاسفة عاملا من عوامل التمزق فى كيان المجتمع الإسلامى ، وكان هناك أيضاً الإحساس بالخطر من تدمير مقومات الفكر الإسلامى . ومن هنا كانت خطورة ذلك العمل الذى وصف بالتصنيف والموسوعات ، وقد لعب العلماء والفقهاء والمسلمين دوراً كبيراً فى مجال المقاومة للغزو الصليبى والتترى ، كان إيمانهم بأن مقاومة هذا

الغزو يتطلب تحرير الاسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتحرير القيادة السياسية والعسكرية من الظلم والطغيان . ومن هنا كانت مواقف ابن تيمية والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد فى مواجهة الأمراء . كانوا يوصون السلاطين بالعدالة فى جميع الضرائب والمكوس ، ويطلبون إليهم أن يقدموا ماالديهم ولدى مماليكهم أولا من حياصات الذهب والحلى ، فاذا انفقوا هذا فى الجهاد أفتى لهم الفقهاء بأخذ مزيد من مال الرعية وقد عرفوا جميعاً عن المناصب المرموقة واستعلوا على عطايا السلاطين وحين استجاب مثل ابن دقيق العيد تلميذ العز بن عبد السلام إلى قبول منصب قاضى القضاة اشترط بأن لا يرد حكمة وأذاع منشوراً عاما يدعو الجميع إلى التزام نصوص الشرع وأطراح ما يؤثر فى تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات وشدد النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام . ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصح بل شاركوا بسيوفهم فى الجهاد ، شارك ابن تيمية فى مقاتلة التتار . واشترك العز بن عبد السلام فى مدافعة الصليبيين فى غزو دمياط ، وأشعلوا الحماسة فى الصدور ، وكان ابن تيمية يوقد الحماسة فى الصفوف المقاتلة ، ويقود الفقهاء فى ميدان التدريب الحربى على أعمال الفروسية والجهاد . وكان « ابن تيمية » يرى أن مهاجمة الجمود والتقليد الفكرى وتحرير الإسلام من الشبهات والبدع عاملا من عوامل النصر فى معركة الغزو الخارجى ، هاجم أصحاب الدعوات المنحرفة عن مفهوم الإسلام وفى شموله وتكامله ، وهاجم أنصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول : وناصر عقيدة التوحيد ونازل خصومه بالرأى والحجة وعقد مجالس المناظرة ، واحتمل فى سبيل ذلك مؤامرات خصومه وتقبل السجن والاضطهاد فى تصميم وإيمان ودعا إلى إحياء روح الجهاد فى المسلمين وفتح باب الاجتهاد فى الفروع وإصلاح التصوف . وكتب الإمام النووى إلى الظاهر بيبرس يوجهه فى أمور المسلمين وهاجم المبتدعة والباطنية . وقد قام العز بن عبد السلام بدور ضخم فى الإصلاح الاجتماعى حيث أنكر بيع الخمور واصطفاف الجند وتقبيلهم الأرض بين يدى السلطان ورابط فى مواجهة الحملة الصليبية السابعة للمسلمين فى المنصورة يحمسهم ويحثهم على مقاتلة الصليبيين . وقد عنى قادة المسلمين : نور الدين محمود وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، بفتح مدارس الحديث كما حرصوا على وحدة العلماء والمسلمين ، فقد أجرى صلاح الدين حسما للخلافات بين العلماء من أجل استئصال الخطر الصليبي ، وكان العلماء موضع شورى القادة ، كان الملك العادل أخى صلاح الدين يستشير الشيخ عبد الرحيم البيسانى (القاضى الفاضل) فى شؤون الجند والأسطول ونقل المؤن إلى ميادين القتال ، كما قدم مصر والشام خلال مرحلة تصفية الأندلس عدد كبير من العلماء حيث لم يتوقف البحث العلمى الصرف ، فقد وصل إليها عالم النبات : أبو العباس

بن الرومية من المغرب ٦١٣هـ والطبيب مهذب الدين عبد الرحيم الداخوار الطبيب والأديب وألف بها مقالة عن الأغذية واشتغل بعلم الفلك واقتنى الآلات الفلكية وكانت لديه ست عشر رسالة فى فى الاسطرلاب . وكان بها : العلامة الكمال شديد بن القاسم مدير البيمارستان الناصرى وأخوه رشيد الدين أبو خليفة من علماء الرياضيات والموسيقى والطب والأدب . كما اجتذبت القاهرة العالم الرياضى علم الدين قيصر تلميذ كمال الدين موسى بن يونس ، والنباتى البارع صفاء الدين عمر (ابن البيطار) الذى عرف بسياحاته وأسفاره لدراسة خواص النبات فى اليونان وآسيا الصغرى ، كما شيد السلطان الكامل دار الحديث الكاملية وشجع على التأليف فى التاريخ والسياسة . وألف فى «فن الدبلوماسية» تاج الدين بن حمويه كتابه عن السياسية الملوكية وألف على ابن يوسف كثيراً من كتب التاريخ . وممن لمعوا فى هذه المرحلة جمال الدين الحاجب فى النحو والصرف وزكى الدين عبد العظيم فى الحديث والطبيب أبو سعيد بن أبى سليمان الذى ألف عيون الطب والعشاب ابن البيطار مؤلف الجامع فى الأدوية . ومن أبرز ملامح هذه المرحلة أدب المقاومة المتمثل فى شعر الشعراء والخطب الحماسية والكتابة عن الجهاد والفروسية وتفسير آيات الجهاد وأحاديثه وإعادة كتابة مواقف البطولة فى التاريخ الإسلامى ، فقد أشاد الشعراء بالأبطال والمحاربين وكان الشعر من أعظم الأسلحة فى معركة الصليبيين . كما لعب الفقهاء فى الأندلس دوراً هاما فى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الغربى ولاسيما بعد سقوط طليطلة ، ومن أوائل الداعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصرة الإسلام وتوحيد الصفوف (الدكتور حسن محمود) .

(٤)

الفكر لا الادب هو أداة المقاومة

حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يصفوا الفترة من ٦٥٦هـ بعد سقوط بغداد إلى ١٢١٣هـ — ١٧٩٨م وهو تاريخ قدوم نابليون إلى الشرق بأنها فترة انحطاط . والحق أن هذه القرون الستة لا يمكن أن تدرس على أنها مرحلة واحدة ، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد . فضلا عن أن علامات اليقظة فى عالم الإسلام سبقت قدوم نابليون بوقت طويل وقد انبعثت من الأعماق ولم تكن بفعل مؤثر خارجى . وأعتقد أن هذا الحكم بما قصد القائلون به قطاعا معينا هو « الأدب العربى » ثم انسحب على الفكر الإسلامى كله . ذلك أن الدلائل المؤكدة تثبت أن الفكر الإسلامى قد واجه

مرحلة ضخمة من مراحـــل التحدى خلال فترة الغزو الخارجى وأنه استجاب استجابة واضحة فكان على مستوى المعركة ، وقد استمر هذا الفكر قوياً إلى مرحلة « عصر الوحدة الاسلامية العثمانية » وأن فترة ضعفه لم تزد عن مائة عام قبل ظهور دعوة التوحيد على لسان الإمام محمد بن عبد الوهاب .

والواقع أيضا أن الأدب ليس هو الفـكر العربى الإسلامى فى هذه المرحلة ولـكنه قطاع واحد منه ،ولم يكن سقوط بغداد فى الحق هو أول مرحلة الغزو ولـكنه وسطها ، إذ بدأت هذه المرحـلة بالغزو الصليبي وليس سقوط بغداد إلا حادثاً جزئياً ، ربما أحدث أثره فى الآداب نتيجة للهزة العاطفية التى أصابت المسلمين بعد سقط مقر القيادة السياسية الاسلامية ، أما أثره الفـكرى فلم يكن عميق الغور إذ أن مراكز الثقافة لم تلبث أن انتقلت إلى الشام ومصر والمغرب . ويمـكن القول بأن « عصر الغزو والمقاومة » كان امتداداً طبيعياً « لعصر التبلور والانصهار » لعالم الإسلام فـكراً ومجتمعاً ، بل أن ثمرات الفـكر الاسلامى والعلوم والفلسفات كلها قد تفتحت فى عصر المقاومة ، ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف ، ولا نقول انحطاطاً ، قد جاء نتيجة مالوحظ من توقف حملات الصراع بين المذاهب والدعوات التى اتسم بها « عصر التبلور والانصهار» ، بيد أن هذا التوقف فى معارك السجال إنما هو ظاهرة طبيعية لهذه المرحلة وليس علامة جمود فإن المذاهب التى نشأت نتيجة اختلاف مفاليم المعتزلة والسنة ودعاة الـكلام والفـلاسفة والتصوف كانت قد تقاربت بعد أن زال الصراع السياسى الذى كان يحمل لواءها ويستخدمها ، وبعد أن دخلت إلى الاسـلام موجات ضخمة من السلاجقة والبربر والمماليك وعناصر مختلفة من الأجناس والأمم وبعد أن غلبت الثقافة السنية التى حمل لواءها الأتراك فى عناصرهم المختلفة : سلاجقة وأتابكة وأيوبيين وعثمانيين من بعد وكانوا بالاضافة إلى المماليك والبربر (المرابطون والموحدون) جميعاً من أنصار الثقافة السنية ، بينما كانت الثقافة التى تحمل طابع أهل البيت وهى أساساً لا تختلف مع مذهب السنة والجماعة إلا فى الفروع قد إنحسرت فى منطقة فارس وما بعدها وتمثلت فى الفرس والتتار . ومن أبرز ما تتسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجى للعالم الاسلامى (الصليبيون فى المشرق والفرنجـــة فى المغرب) هو غلبة طابع التصوف على الجماعات الاسـلامية وتغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع الاسلامى وتأثيرها على مفاهيم الثقافة السنية والربط بينها وبين مفاهيم الثقافة الشيعية فى الالتقاء على حب النبي وآل البيت مما قرب هذه المرحلة بين أهل الفقه وأهل التصوف وبين السنة والشيعة جميعاً . وقد كان لسمة التصوف الظاهرة الواضحة فى هذه المرحلة أثرها البعيد المدى فى معركة المقاومة للغزو الأجنبي فقد كانت من

عوامل القوة الدافعة لجموعات ضخمة من الشباب بالفتوة والمرابطة فى سبيل الله والانصراف إلى الجهاد والمقاومة والاعتصام بالثغور ، والأنضواء تحت لواء القـــوات الاسلأميه المتدفقة بقيادة عماد الدين زنكى ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على وغيرهم من زعماء مقاومة الغزو الخارجى لعالم الإسلام . وفى هذه المرحلة كانت المعاهد الاسلامية القائمة فى أنحاء العالم الاسلامى هى العامل الأكبر الذى حافظ على اللغـة العربية والفـكر الإسلامى ، الأزهر فى مصر ، والقرويين فى فارس ، والزيتونة بتونس ، والأعظم بالقيروان والأموى بدمشق ، ومعاهد النجف وكربلاء وسامرا ، وكلها استطاعت أن تحتضن الفـكر الاسلامى واللغة العربية فى هذه المرحلة الدقيقة وتذود عنها عادية الغزو ، وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والـكتاتيب ، وإلى الجامعات قائمة بدورها التاريخى خلال فترة اجتياح المغول والصليبيين والفرنجة لعالم الاسلام . وكان دور المرأة فى مجال العلم خلال هذه الفترة مضطرد النماء فقد ظهرت أسماء لها شهرتها فى هذه المرحلة من المسلمات المتفقهات ، كن يعلمن ويتحدثن فى مجالس القاهرة ودمشق كما رافق حكم المماليك فى مصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالهـا المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية فضلا عن التآليف والأبحاث الدينية واللغوية وظلت اللغة العربية هى لغة العلم والسياسة .

وكـان للأزهر دوره الضخم فى هذه المرحلة ، فقد أطلق صلاح الدين الأيوبى ٥٦٧ — ١١٧١م للأزهر رسالته فى مجال الثقافة الإسلامية السنية ، ومنذ عصر صلاح الدين أصبح الأزهر جامعة الفكر الاسلامى ومعهداً للاسلام واللغة العربية ، فلما جاء الظاهر بيبرس جدد شباب الأزهر ، حيث عادت صلاة الجمعة . وكانت للازهر فى مرحلة الغزو والمقاومة مدارس فرعية متخصصة تمده بالطلاب . وكانت إقامة هذه المدارس قد بدأت فى عصر الدولة الأيوبية ، وقد أقامها نور الدين محمود فى الشام (دمشق وحلب) وفى مصر قامت مدارس مختلفه لدراسة الفقه الشافعى والمالـكى والحنفى والحنبلى ، وفى المدرسة الناصرية تولى شأن الدراسه ابن خلدون . وقصد الأزهر علماء كثيرون من مختلف أنحاء عالم الاسلام ، فى هذه الفترة منهم عبد اللطيف البغدادى (٥٨٩) وقد تولى التدريس بضعة أعوام فيه ، وكان موسى بن ميمون يلقى فيه دروساً فى الرياضة والفلك والطب ، وكان شرف الدين بن الفارض يعقد به حلقاته الصوفية والروحية ، وكذلك شهاب الدين السهروردى ، وشمس الدين بن خلكان صاحب وفيات الأعيان . وكان الأزهر فى هذه المرحلة يضم أعداداً ضخمة ، وكان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب ، تدرس فيه سائر العلوم الدينية واللغوية ، ويقوم على تثقيف العدد الـكبير من الطلاب

عدد كبير من الأساتذة يقصدونه من كل بقاع عالم الإسلام ويقطن فى أورقته منهم عدد كبير ، بلغ فى أواخر القرن الثامن الهجرى سبعمائة وخمسين طالباً (المقريزى) .

ومن علماء الأزهر فى القرن الثامن الهجرى : شمس الدين الأصبهانى (أمام الدنيا فى المقومات) وشرف الدين الزواوى المالكى وكان بمصر من الأندلس العلامة : محمد بن يوسف ابن جنان النفرى والعلامة الحافظ بن حجر العسقلانى وتقى الدين المقريزى تلميذ ابن خلدون ،والحق أن الأزهر منذ الغزو المغولى والقضاء على الحضارة الأندلسية أصبح أكبر معهد فى عالم الاسلام كله ، وميزته أنه يتوسط هذا العالم وأنه قريب من الحجاز وله صبغته العربية المحضة (د . فولرز) ، والواقع أن هذه فترة ناضلت فيها الثقافة الإسلامية وأن ضعف الأدب ، كانت عوامل اليقظة والقوة واضحة فى مجال التاريخ والقصة والنصوص وفى تأليف الموسوعات وكان ذلك تحدياً للضعف السياسى ، وكان مجال العلم التجريبي والفلسفة قد اتسع أفقه فى الأندلس ، بينما عرفت الشام ومصر بالتقدم فى مجال الفقه والنصوص . ولعل من أهم الظواهر فى هذه المرحلة « ظهور الثقافة العربية » ، مقام الأدب العربى الذى لم يكن فى كل هذه المراحل ممثلا للفكر الإسلامى ، وقد كان طابع التكامل والوسطية التى اتسمت به الأبحاث فى هذه الفترة أكثر إصالة من ذلك التمزق الذى حفلت به الفترات الماضية حين كان الأدباء والشعراء يذهبون إلى أبعد مدى فى خدمة الأمراء وإذلال النظم لهم ، وقولهم غير الحق ، وإسرافهم فى المدح والهجاء ، والمجون والإباحة والحريات على نحو بلغ انحرافة عن مفهوم الإسلام حداً كبيراً . أما « الثقافة العربية » فى مرحلة الغزو الخارجى فقد كانت تحررت من خلافات المذاهب ومعاركها ، كما تحررت من أهواء الشعراء والنظامين الواقفين على أعتاب الأمراء ، ومن ثم كان العلماء وهم القادة فى هذه الحالة أشد الناس عزوفاً عن عطايا الحكام أو قبول مناصبهم ، تحرراً لفكرهم واستعلاء على قبول الظلم أو كتمان كلمة الحق ، وكان للثقافة الإسلامية فى هذه المرحلة أثرها الواضح فى التخلص من المحسنات البلاغية ومع جمع الفنون المختلفة والمزج بينها ، وكان التأليف الموسوعى الجامعى المنوع فى هذه المرحلة يهدف إلى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة ، وكان ذلك فى واقعه إنما يمثل أكبر رد فعل للغزو الصليبي والفرنجى والمغولى وما دمر من مكتبات وآثار وقضى على معاهد وجامعات ، فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة ، استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الإسلامى وحفظها وتنسيقها فى موسوعات ما تزال حتى الآن من الأعمال التى قامت عليها النهضة الحديثة فى مجال التراجم والفقه واللغة . أما توقف الاجتهاد وغلبة النقل والتقليد فيرجع ذلك إلى طابع العصر نفسه ، فإن عصور

المقاومة والجهاد لا تتيح فرصة العمل العقلي المنظم الذى يحقق الابداع والاجتهاد ابداعاً واجتهاداً يتصل بعصور البناء ونمو الحضارات وازدهار السلام كما يقوم فى كنف الوحدات النامية المزدهرة ومن خلال تطور الحياة الاجتماعية ونموها بالتفاعل والتعامل .

أما فى عصر المقاومة فمن الحق أن ينصرف الفكر الإسلامى كله إلى شحذ أسلحة المواجهة والجهاد وإعادة صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الغزو المتصل مقوماته الأساسية . وآية ذلك أن النشاط العقلى للمسلمين لم يتوقف وإن ضعف فيه الابتكار الذى هو ثمرة حياة الدعة والسلام ، وبرزت ظاهرة تأليف الموسوعات التى تعد من أعمال مراحل التحدى والمقاومة ، ويمكن القول بأن هذه الفترة ليست فترة موت ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر فى مجال حياطة وحماية وتجديد الفكر الإسلامى وتنسيقه على نحو جديد . وقد تنوعت الثقافة فى هذه المرحلة : بين أبحاث التاريخ والجغرافيا والأدب والكلام واللغة والعروض والحديث والتفسير والفلك والموسيقى والسياسة والفلسفة والرياضة (أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى مصر والشام فى عصر الحروب الصليبية) ويرجع ذلك إلى انتشار دور العلم فى أرجاء مصر والشام وخزائن الكتب ، وقد وصف حكام هذا العصر بأنهم كانوا مثقفين ثقافة ممتازة وقد أحاطوا أنفسهم بطبقة ممتازة من المثقفين ، وآية ذلك مجالس نور الدين محمود صلاح الدين الحافلة بأهل العلم ، فضلا عن بناء المدارس .

وقد مضى المماليك فى نفس طريق الأيوبيين ، فكان الظاهر بيبرس يقرب النابغين فى كل علم وفن ، ويقول أن سماع التاريخ أعظم من التجارب وكذلك فعل قلاوون ، وظلت المساجد خلال هذه الفترة بحلقات العلم وكذلك الزوايا والمدارس .

وأبرزت هذه المرحلة عديداً من الأعلام :

مرحلة الغزو	القزوينى : (٦٠٥ ـ ٦٨٢)	ابن منظور : (٦٣٠ ـ ٧١١)
	ابن نباته : (٦٨٦ ـ ٧٦٨)	ابن قيم الجوزية : (٦٩١ ـ ٨٥١)
مرحلة الوحدة العربية الإسلامية	ابن بطوطة : (٧٠٣ ـ ٧٧٩)	القلقشندى : (٧٥٦ ـ ٨٢١)
	المقريزى : (٧٦٦ ـ ٨٤٥)	لسان الدين الخطيب : (٧٣٣ ـ ٨٠٨)
	ابن خلدون : (٧٣٢ ـ ٨٠٨)	

(٢٧)
مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية

« بعد أن أدت القوى الثلاث البدوية الشابة : « السلاجقة والمماليك والبربر » دورها في مواجهة قوى الغزو الصليبي والفرنجة والتتار لم يلبث أن انبثقت مرحلة الغزو الخارجي ومقاومة عالم الإسلام له عن : مرحلة قوة ووحدة ، أما القوة العسكرية الضخمة فقد تمثلت في ظهور (الدولة العثمانية) التي استطاعت أن تقيم وحدة عربية عثمانية فتضم إلى الأناضول وآسيا الصغرى والبلقان أكبر قوة في الإسلام هي « الأمة العربية من الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب » .

أما الوحدة فقد تمثلت في قيام ثلاث دول كبرى في عالم الإسلام: الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس والدولة المغولية في الهند ، وكانت الدولة العثمانية ضامة إليها (الأمة العربية) هي كبرى الوحدات جغرافياً ، وقد حملت هذه الدول الثلاث لواء الاسلام وامتد بها الزمن حتى واجهت مرحلة الاستعمار الغربي التي جاءت في أعقاب اليقظة العربية الاسلامية » .

مر الاسلام خلال قرنين كاملين (من الحملة الصليبية الأولى إلى القدس حتى ظهور الدولة العثمانية) ، بأدق مرحلة في تاريخه كله ، مرحلة الأزمة الكبرى ، في محاولة ضخمة من القوى الخارجية على عالمه للقضاء عليه واكتساحه ، وقد تدفقت عمليات الغزو من أطرافه الثلاث : من الشمال عن طريق بيزنطة بالحملات الصليبية ومن الشرق : بالغزو التترى المغولي ومن المغرب : عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والأسبان ، وكان الغرب وأوربا هو الذي يقذف الاسلام بالقوى الغازية من القلب إلى الجناحين عن طريق آسيا الصغرى وعن طريق حدود فرنسا التي ألبت التتار المغول وتآمر معهم على ضرب جناح المشرق ، غير أن عالم الاسلام لم يقف صامتاً إزاء هذا الغزو ، بل واجهه بالمقاومة والوحدة والقتال واستطاع أن يدبل من القوى الصليبية الضاربة وأن يمزقها وأن يردها على أدبارها مهزومة وأن يصهر القوى التترية المغولية في بوتقته فيحولها إلى الاسلام فتصبح قوة ضخمة من قواه الفاعلة . أما في المغرب فقد قاومت الأندلس ولم تستسلم ... هنالك كان لابد لتاريخ الاسلام أن يستقبل موجة جديدة من موجات القوة ، وقد تمثلت هذه القوة في الدولة العثمانية الجديدة الشابة التي حملت رايات الاسلام من جديد بعد أن ضعف السلاجقة والمماليك والبربر ، وأدوا دورهم في المقاومة .

كان هدف حملات الغزو هو : « القضاء على الاسلام » وقد ألحت هذه الحملات خلال قرنين كاملين على عالم الإسلام وردت منهزمة مدحورة ، ونجا الإسلام، غير أنه كان ضعيفا منهكا بالجراح وكان عرضة لحملات جديدة، قد بدأت فعلا بالحصار الاقتصادى الذى ضربته أوربا على البحر الأبيض مع اندفاع القوى الأسبانية والبرتغالية فى محاولة صليبية جديدة ، هى تطويق عالم الإسلام من خارجه والسيطرة على نفس الثغور والموانى المغربية التى قاومتها ودحرتها ، هنالك استطاع الاسلام أن يبرز قوة جديدة من قواه المذخورة ، هى قوة الاتراك العثمانيين الذين اندفعوا من أطراف آسيا ، هاربين من وجه الغزو التترى ، والذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ودخلوا فى حظيرته كقوة جديدة شابة بدوية عسكرية ، هذه القوة الجديدة التى استطاعت أن تقوم بدور كبير عجزت عنه قوى السلاجقة والمماليك والبربر ، وهى القوات الثلاث الشابة البدوية المحاربة التى سبقتها والتى واجهت مرحلة الغزو التترى الصليبي الفرنجى ومن ثم بدأ « عصر الوحدة الإسلامية العثمانية » ٦٩٩ (١٣٩٩م) واستمرت هذه الوحدة قوية قادرة أربعة قرون ونصف القرن ، ثم ضعفت من بعد ، ولكنها ظلت تسيطر سياسيا حتى مزقها الغزو الاستعمارى الغربى عام ١٢٣٧ — ١٩١٨ أى أنها عاشت مسيطرة مؤثرة أكثر من (٦٤٨ عاما) ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة : مرحلة قوى الوحدة الثلاث ، فقد قامت فيه الدول الكبرى الثلاث : (العثمانية) التى ضمت العالم العربى وتركيا وأجزاء من أوربا ، و (الصفوية) فى فارس و (المغولية) فى الهند ومن قلب هذه الموجة برزت الموجة الجديدة : « موجة اليقظة العربية » كقوة ذات فعالية فى تجديد الإسلام ونموه ، ويمكن القول بأن عصر الوحدة الاسلامية العثمانية قد أمضى القرن الثامن والتاسع والعاشر فى مكان القوة والصدارة . وهو دور التوسع والتوغل فى أوربا ، هذه المرحلة التى كانت فى حد ذاتها رد فعل الحروب الصليبية ، التى ظلت تسيطر على الشاطىء الشامى خلال قرنين ، حيث استطاعت الدولة العثمانية الإسلامية أن تسيطر على قلب أوربا وأن ترفع رايات الإسلام فيها على البلقان والصرب وتصل إلى أسوار فينا ثلاث مرات ، وفى القرن الحادى عشر (١٠٠١ — ١١٠٠) بدأت الدولة العثمانية تنتقل إلى مكان الدفاع بدلا من الهجوم ، وأخذت تفقد نفوذها حثيثاً وترفع يدها عن هذه الأجزاء التى سيطرت عليها فى أوربا ، فى هذه المرحلة بالذات كانت أجزاء كثيرة من العالم العربى قد بدأت تستقل حيث أخذت قيادات جديدة عربية تسيطر ، غير أن البعث العربى الاسلامى كقوة روحية وفكرية قد بدأت فعلا فى منتصف القرن الثانى عشر ، وحوالى ١١٥٣ — ١٧٤٠ بظهور دعوة التوحيد كقوة سياسية وروحية عربية ، تنبعث من قلب الجزيرة العربية ، مجددة دعوة ابن تيمية ، وداعية فى نفس

الوقت إلى ابتعاث القوة العربية كقوة جديدة شابة تلعب دورها على مسرح الأحداث فى عالم الاسلام . فى هذه المرحلة (٧٠٠ — ١١٥٣) ه (١٣٩٩ — ١٧٤٠) م سقطت الأندلس فى أيدى الفرنجة والأسبانيين وارتفع عنها لواء الاسلام الذى عاد إلى حدود إفريقية ، حين أصرت أوربا على أن تتحرر من الاسلام والمسلمين والعرب جميعا ومن ثم أجلت هذه العناصر ، وحررت أوربا تحريراً كاملا من حكم الاسلام وأهله غير أنها لم تكن قادرة على أن تحرر أوربا من أثر الإسلام الفكرى والعلمى والثقافى إذا كانت قد استوعبت حضارة الاسلام والعرب وتراثها وعلومها وفلسفاتها ، واعتصرت هذه القوة الفكرية الحية وترجمتها إلى لغاتها ومضت بها فى قوة فطورتها وامدتها بالقوة والحياة فى مجال الكشف والرحلة والملاحة والصناعة والعلوم ، وإذا كانت أوربا قد بلغت غاية التعصب حين أخذت فكر الاسلام وعلومه وفلسفاته ، ثم عاملت أهله بأقسى صنوف الاضطهاد والعنت ، فان الإسلام بسماحته قد استطاع حين أقام فى أرض أوربا بالأندلس ثمانمائة عام أن يعطى الإنسانية علومه وحرياته ورسالته الحية التى لا تموت ، أبلغها إلى أرض الأندلس واقرها فى جامعاتها ومكاتبها وأوقد لهيبها فى نفوس علمائها ، حتى استطاعت أن توقد جذوة اليقظة والضياء فى قلب أوربا ، ليمضى مشعل الانسانية مرفوعا حين تخلف المسلمون والعرب عن حمل لوائه . وإذا كان الاسلام قد طوى امتداده فى أوربا عند الأندلس من الغرب ، فانه قد استطاع أن يحقق نصراً بالغ الأثر والقوة ، هو إمتداده إلى أوربا من خلال البلقان من الشرق ثم وضع يده على « القسطنطينية » عاصمة الدولة البيزنطية وتحقق له فى هذه المرحلة إسلام القبيلة الذهبية فى روسيا والبا كستان ، فضلا عن توسع الاسلام بقوته الذاتية فى أفريقيا الوسطى ، حيث دخلت الصومال فى الاسلام وظل التوسع سائراً ، وظلت الدولة العثمانية تزداد باسم الاسلام قوة ونفوذا فى مجال الحضارة والتوسع ، وهى تتسم أساساً بالسمة العسكرية ، حيث قضت أعوامها فى ميدان الجهاد مؤمنة به كأساس من أسس الاسلام ، وكانت هذه المرحلة هى مرحلة النصر ، هذا النصر الذى تجمعت أوربا فى وجهه ، وعقدت الخناصر على هزيمته وعجزت عن ذلك ، كما عجز عنه تيمور لنك الذى هاجم أنقرة فى القرن التاسع ، وهدم قصر الأمبراطورية فى الأناضول ، غير أن العثمانيين مالبثوا بعد قليل أن أفاقوا ، وقد أعادوا كيانهم قويا ، وحققوا بعد قليل أعظم نصر هز أوربا كلها وهو السيطرة على القسطنطينية ، ومن خلال الصراع بين الاسلام ممثلا فى الدولة العثمانية من ناحية والغرب من ناحية أخرى ، كانت طلائع الاستعمار التى تحمل لواء تطويق عالم الاسلام مندفعة من أسبانيا والبرتغال فى طريقها حيث استطاع فاسكودى جاما كشف طريق رأس الرجاء الصالح — ١٤٩٨ وإقامة محطات

على طول الساحل الشرقى لأفريقيا كمرحلة من خطة الضغط الاقتصادى على عالم الاسلام وحرمانه من من قوافل التجارة التى كانت تمر فى أعماقه . وتنفيذاً لخطة الدوران حول أفريقيا دون المرور بأرض الاسلام لفرض العزلة على العالم الاسلامى نمت القوة الاسلامية العثمانية الجديدة بين القرن السابع والقرن العاشر (٧٠٠ — ١١٥٣) فقد اندفع العثمانيون بعد أن استولوا على آسيا الصغرى وأزالوا الدولة الرومانية الشرقية إلى شبه جزيرة البلقان ، الصرب ، بلغاريا ، اليونان ، البوسنة ، الهرسك ، أزوف ، القرم ، المجر ، ترانسلفانيا سيطروا على هذه الأجزاء من أوربا فى الفترة ما بين ١٣٩٩ — ٨٠٢هـ ، ١٥٤٧ — ٩٥٤ هـ .

وحين دخل العالم العربى فى قلب هذه الوحدة الإسلامية العثمانية ، امتدت الدولة العثمانية من الدانوب إلى الخليج الفارسى إلى المغرب الأقصى وقد قامت فى هذه المنطقة وحدة سياسية إسلامية الطابع ، على أنقاض التفكك الذى واجهه عالم الإسلام بعد ضعف قوى المماليك التى استنفدت فى الصليبيين والتتار . وفى ظل هذه الوحدة بدأت مرحلة استقرار فى عالم الإسلام ، فقد كان قيام هذه الوحدة انقاذا لهذه الوحدات من عالم الإسلام [من آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق] من سيطرة قوات المغول ، أو الحملات الصليبية التى كانت توشك على التحرك قبل ظهور القوة العثمانية الإسلامية كما أوقفت هذه الوحدة النفوذ البرتغالى من التوغل فى البحر الأبيض المتوسط وبذلك استنقذت أدق مناطق عالم الإسلام وأشدها حساسية من الخطر الأوربى . ولاشك أن الوحدات العربية قد وجدت فى « لواء الإسلام » الذى رفعته الدولة العثمانية قوة جديدة تحميها وترد عنها الغزوات الغربية ، وكان النظام الذى وضعه العثمانيون لحكم هذه الوحدات نظاماً مرنا ، فقد أقروا النظم القديمة وتركوا لكل وحدة : الحرية فى تصريف أمورها ، مع ربطها بحزام السياسة العامة والدفاع والضرائب ، وإن كان هذا النظام الذى كان مقبولا فى فترة القوة قد أصبح عاملا من عوامل الخطر فى فترة الضعف ، ويمكن القول أن القوة العثمانية الجديدة كانت موجة جديدة من موجات الإسلام أمدته بقوة جديدة ، ردت عنه الغز الخارجى وأقامت « وحدة » استمرت قوية أربعة قرون ونصف قرن ، فقد خلف العثمانيون العرب والفرس والسلاجقة والأتابكة والأمويون والبربر فى رفع راية الإسلام واستطاعوا أن يمتازوا عن القوى الإسلامية التى سبقتهم بأنهم لم يقفوا فى صفوف الدفاع والمقاومة بل أعادوا عصر التوسع الإسلامى الأول بأن اندفعوا فى قلب أوربا وحققوا انتصارات وضموا أجزاء كبيرة منها إلى عالم الإسلام ، وإن كانوا قد عجزوا أن يصهروا أهل هذه الأجزاء أو أن ينشروا فيهم دعوة الإسلام . وأن كانت أوربا قد استطاعت أن تصد الإسلام كقوة أساسية عنها من ناحية الأندلس

وفرنسا حتى نهر اللوار ، ومن ناحية البلقان حتى أسوار فينا فإنها لم تستطع أن تصد الإسلام كفكر وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا أن يواجهوا الغرب بالقوة العسكرية منتصرين ثلاثة قرون أخرى فإن هذا كان رد فعل للحملات الصليبية على المشرق وحملات الفرنجة على الأندلس . وكان فى نفس الوقت مصدر تلك الخصومة العنيفة التى ظلت أوربا والتاريخ الغربى يحملها للدولة العثمانية والوحدة الإسلامية ممثلة فى هذه الفترة ، لقد استطاعت القوة العثمانية الاسلامية أن تخاف الموجات الاسلامية السابقة على سيادة البحر الأبيض واستطاعت أن تحيل البحر الأسود بحيرة إسلامية . كما بسطت سيادتها على البحر الأحمر وخليج فارس وأثر انتصار أسطولها على أساطيل الدول الأوربية المتحدة والبابا ، وقد عاشت القوة الاسلامية العثمانية خلال القرون الستة بين صراع القوة والغلبة والنصر ثم فى صراع الدفاع والمقاومة. وكانت مرحلة من مراحل الاسلام استعاد فيها قوته ورفع راياته فى قلب أوربا وأكد وحدة شعوبه . وكانت فكرة الجهاد من أبرز العوامل التى دفعت العثمانيين إلى اكتساح الامبراطورية البيزنطية والتوسع فى ممالك أوربا . وإذا كان العثمانيون لم ينشروا دعوة الاسلام على نحو تربوى وعلمى كما فعل المسلمون من قبل ، فإن الاسلام قد اتصل بأوربا وأثر فى أسلوب الفكر والحياة والحضارة ، وأثر فى جذور الفكر الأوربى نفسه ، كما ترك العثمانيون فى قلب الأوربيين هيبة الإسلام وتقديراً له ، حين استطاعت قوتهم أن ترد قوى أوربا المتجمعة مرة ومرة ومرات وفى هذه المرحلة لم يكن العثمانيون متعصبين ، ولكنهم كانوا يعاملون العناصر المختلفة على أساس أحكام الاسلام وقد ظل شيخ الاسلام مرجعا للسلطة فى الأمور الشرعية والمدنية على السواء ، ولاشك كان طابع العثمانيين طابعا حربيا عسكريا ، وبذلك غلبت على حياتهم صورة الحرب والقتال والغزو ، مما قلل من فترات الاستقرار وبناء الحضارة . ولقد أعان على هذه الوحدة الاسلامية تحت لواء العثمانيين ، أن الفكر الاسلامى قد دخل فى مرحلة غلب فيه الطابع الصوفى وصبغ بلونه السنة والفقه والفكر جميعا ، وكان هذا الطابع هو أحد عوامل أسلمت عالم الاسلام إلى مرحلة الضعف التى قصرت فيها عن مقاومة الغزو الغربى من بعده .

(٢)

كانت مرحلة الغزو الخارجى لعالم الاسلامى مرحلة شاقة ، واجهها المسلمون بكل قواهم ، وصمدوا لها وقدموا زهرة شبابهم فى مجال الجهاد المقدس باسم الدفاع عن راية الاسلام وحماية أرض الاسلام ، وقد امتدت هذه المرحلة إلى قرنين كاملين وانتهت وقد استنفدت كل القوى الحية الشابة ، وخلفت المعركة وراثها عالما مفككا مضطربا ، من مختلف النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وقد

انطوت القوات القوات الثلاث : السلاجقة وتوابعهم (الأتابكة والأيوبيون) والمماليك ، والبربر : (المرابطون والموحدون) بعد أن بلغت قمة قواتها وأدت دورها ، وضعفت وتحللت بالحضارة والترف ، ووقف عالم الإسلام والحملات الصليبية تصفى موقفها من ساحل الشام يترقب قوة جديدة شابة بدوية لها طابع الفروسية والحرب تحت لواء الاسلام تحقق له وحدة تضم أجزائها المتناثرة المضطربة وتدفعه فى مجال الحياة دفعة قوية . ولم يكن الغرب بعد أن فرض على بقايا قواته الغازية أن تنسحب من المشرق ، قد جعل ذلك آخر جولاته بالنسبة للصراع التقليدى الدائر المستمر بين عالم الغرب وعالم الاسلام ، بل بدأ مرحلة جديدة قوامها الضغط على المسلمين فى أسبانيا لتصفية دولتهم وإخراج آخر مسلم وعربى من أوربا ، وبدأ فى نفس الوقت مرحلة جديدة من مراحل الزحف لتطويق عالم الاسلام . وكانت جبهة المغرب الاسلامى قد ضعف بعد أن انهارت قوى المرابطين والموحدين والمزنيين وحيث كانت جبهة المشرق لا تزال صامدة بالمماليك البحرية وسلاجقة قونية ، لذلك كان ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية جديدة شابة بدوية مقاتلة ، تطورا تاريخيا طبيعيا على النحو الذى تطور إليه تاريخ الاسلام فى مراحله المختلفة . وكظاهرة اعتيادية موافقة لناموس حركة التاريخ الاسلامى وعلى طريق حتميته إلى غايته الكبرى . وأبرز ما تمثله هذه الظاهرة أنها حققت مظهرين أساسيين من مظاهر القيم الأساسية للإسلام هما : الوحدة والقوة وإن لم تحقق المظهر الثالث ، وهو (العدل) وهو مظهر افتقدناه طويلا على طول حركة التاريخ الاسلامى ، وتتسم القوة الاسلامية الجديدة بطابع التكامل من حيث أنها لم تكن كالقوى الثلاث التى ظهرت فى مرحلة الغزو الخارجى قوى قادرة على المقاومة والدفاع ورد العدوان فحسب ، ولكنها كانت قادرة أيضا بالاضافة إلى ذلك على التوسع ودفع قواها فى قلب أوربا ، كتعويض عادل للإسلام على مرحلة انتقاض القوة الغربية لأرضه من خلال جداره الشمالى ، وكرد على محاولة إخراجه من أوربا الغربية . وعلى يد القوة الاسلامية العثمانية عرفت أوربا — بعد تصفية المملكة اللاتينية الصليبية فى ساحل الشام لسبعين عاما — قوة إسلامية جديدة لم تقتصر على إيقاف توسعها فى أرض الاسلام ، بل زحفت إلى أوربا وظلت تهددها بالغزو حتى حاصرت أسوار فينا ، وكان دور العثمانيين طبيعيا بحكم أنه دور قوة اسلاميه استطاعت أن تنمو بعد أن ضعفت القوى الاسلامية التى توالت : العرب والفرس والبربر والسلاجقة ، ولقد كانت القوة العثمانية أشد حماسة للاسلام واندفاعا فى سبيل نشره .

وكان أبرز ما تتسم به هذه القوة هو الطابع الحربى العسكرى المتطلع إلى توحيد عالم الاسلام

وتوسيع نطاقه بإضافة أرض جديدة وإبلاغه إلى القارة المستعصية عليه ، القارة التى قاومته منذ وطأ أرض الأندلس ويجمع المؤرخون على أن دور العثمانيين فى بناء الاسلام هو دور طبيعى وأنه « بينما كانت الجذوه الإسلامية تضعف فى نفوس قيادات الإسلام بتأثير الحضارة ، كانت تلك الشعلة تضطرم فى أفئدة الترك وتدفعهم إلى أداء دور العرب فى صدر الإسلام والمبادرة إلى تمثله . ويقول ليون كاهن : أن دخول الإسلام لديار الترك قلب حال العالم ، فبعد أن كان الأتراك أعداء المسلمين وحلفاء صادقين لأوربة ، انقلبوا عقب اسلامهم إلى خصوم لها ألداء ، وقد كرسو كل قوتهم لخدمة الإسلام ، وأنهم دخلوا إلى الإسلام بعد فترة وبعسر شديد » والواقع أن الأتراك أقبلوا على الاسلام بعد خصومة طويلة له ، فلما اعتنقوه — شأنهم فى ذلك شأن البربر — انقلبوا إلى حماة له شديدى التمسك به . ولما برزوا فى ميادين الجهاد ، وظهرت بوادر انتصاراتهم فى حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية التى وقفت أمام موجة الاسلام المندفعة إلى أوربا سبعمائة عام ، هناك علق المسلمون عليهم الآمال واتجهوا بقلوبهم إليهم ، ووجدوا فيهم المنقذ والحامى ، وكان هذا هو مصدر النجاح السريع الذى حققه العثمانيون فى حركة توحيد عالم الإسلام حيث لم تقف فى وجههم إلا قوة الفرس التى أقامت دولة ضخمة هى الدولة الصفوية التى حملت لواء الثقافة الشيعية واتخذتها شعاراً لها فى نطاق الاسلام السمح المتقبل للثقافات المختلفة . وكان ظهور القوة العثمانية الموحدة لعالم الاسلام قد برزت بتوقيت متفق مع نواميس حركة التاريخ الاسلامى فى طريقه إلى حتميته ، فى خلال معركة الأندلس بين المسلمين والعرب من ناحية وبين القوى الأسبانية والفرنجة التى كانت قد أعدت خطة لإجلاء الاسلام عن أوربا . وقد استبسلت القوى العثمانية واجتازت البسفور إلى الضفة الغربية ثم أتيح لها أن تدخل القسطنطينية ٨٤٧ هـ — ١٤٥٣ م فقضت على الدولة البيزنطية ومضت فى طريقها حتى حاصرت أسوار فينا ثلاث مرات وكان فتح القسطنطينية من الأحداث الضخمة القليلة فى تاريخ العالم كله ، وفى تقدير أوربا والغرب ، فقد أتاح للقوة الإسلامية العثمانية أن تزحف إلى رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر . وبذلك قلبت القوة الاسلامية العثمانية ميزان القوى ، بعد أن كان عالم الاسلام فى موقف الدفاع وعالم الغرب فى موقف الهجوم ، أصبح العكس فقد وقفت أوربا منذ ذلك التاريخ إلى ثلاثة قرون متصلة موقف الدفاع فى وجه الهجوم العثمانى .

وعندما احتل العثمانيون القسطنطينية (٨٥٧ هـ) كان ذلك قمة الموقف بالنسبة للغرب فقد بدأت حركة إجلاء المسلمين عن الأندلس ولم يمض أكثر من أربعين عاما (٨٩٨هـ) حتى سقطت

الأندلس وأنطوت صفحة الإسلام بها ، وبالرغم من تجمع القوى الغربية وتوحدها فى وجه الزحف الاسلامى ، فان القوة العثمانية الاسلامية ظلت قادرة على كسب النصر ، غير أن أوربا لم تقف موقف المقاومة فى وجه القوة الإسلامية العثمانية ، بل عمدت إلى فتح جبهة أخرى عن طريق أسبانيا والبرتغال فى الكشف الجغرافى لتطويق عالم الاسلام ، والاتجاه نحو أفريقيا الأستوائية والهند وأندونيسيا ، ومنذ ضعفت مقاومة الأندلس كانت فكرة الغزو الأسبانى البرتغالى لعالم الإسلام قد خطت أولى خطواتها ، فلم تمض الاسنوات قليلة حتى بدأ (فاسكودى جاما) طوافه حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند (٩٠٤هـ — ١٤٩٨) وذلك لاستقطاب مراكز جديدة تحقق إحكام الحصار الاقتصادى لعالم الاسلام بصرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبيض وموانيه الاسلامية ولقد كانت أسبانيا والبرتغال أولى دول الكشف الجغرافى بمعنى الاستعمار كرد فعل على السيطرة الاسلاميه على الأندلس ، وكقوة دفعتها أوروبا لغزو عالم الاسلام الذى ظل يسيطر على أسبانيا ثمانمائة عام وكمواصلة لمخطط متصل لم يتوقف بالقضاء على الاسلام والعرب فى الأندلس ، بل بالزحف على أرض الإسلام نفسه والسيطرة عليها ، وقد بدأت فعلا فى ذلك الوقت حركة التطويق ، غير أن نمو الدولة العثمانية وصمودها أخر ذلك أكثر من ثلاثة قرون .

(٣) سجل عام ٦٥٦ هـ اجتياح التتار لبغداد واسقاط الخلافة كما سجل (عام ٦٩٠هـ - ١٢٩١م) تصفية الامارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائياً من ساحل الشام وبيت المقدس ، وسجل عام ٦٩٩ ظهور أول خيط فى بناء الدولة العثمانية التى أصبحت من بعد قوة أسلامية ضخمة استمرت تحكم ستة قرون حتى صفاها الاستعمار الغربى بالقضاء على آخر الأجزاء العربية التابعة لها (١٣١٦ هـ — ١٩١٨ م) .

فى ظل هذا المواقف الحاسمة الثلاث التى سجلها القرن السابع الهجرى قبيل نهايته شهدت هذه الفترة رد فعل شديد ، فى عالم الغرب ، يتمثل فيما قامت به أوربا والبابوية من الدعوة إلى تحريم الاتجار مع دولة المماليك بقصد حرمانها من الموارد الاقتصادية الرئيسية لها ، وقد تمخض اتجاه الحصار الاقتصادى عن حملة ملك قبرص لاحتلال الأسكندرية ٧٦٧ هـ - ١٣٦٥ م ثم انسحاب الحملة ، وقد تطور الاتجاه خلال القرن التاسع الهجرى إلى مشروعات تخريب للموانى المصرية لشل الحركة التجارية ، وإنتشار الفرسان على السواحل المصرية والشامية للتربص بسفن التجارة الإسلامية ، وقد واجه المماليك ذلك بغزوات انتقامية على أوكار القراصنة وردوس . هذه هى الحملات الصليبية الجديدة التى كانت تتمثل فى مواجهة عالم الاسلام قبيل بروز قوة الدولة العثمانية وتوحيدها العالم

الاسلامى تحت جناحها (ماعدا فارس والهند) لذلك فإننا حين نقول أن عالم الإسلام لم يلبث أن أندمج فى الوحدة الاسلامية العثمانية بمحض إرادته وأن عملية السيطرة العثمانية على العالم العربى لم تكن فتحا بالمعنى الذى تصوره الكتابات الغربية التى تحمل الحقد على الدولة العثمانيه القادرة التى هاجمت عالم الغرب وأوقفت تقدمه وغزوه لعالم الاسلام . فقد كان عالم الإسلام فى الساحل الأفريقى كله من الشام إلى المغرب يواجه غزوا جديداً فى نفس الوقت الذى برزت فيه القوة العثمانية داعية إلى الوحدة الإسلامية الكبرى ، ولذلك فإن التقاء القوى العربية التركية إذ ذاك كان رداً على التحدى الغربى المتمثل فى جولة جديدة لغزو عالم الإسلام ، ومن هنا فان اندفاعات العثمانيين للسيطرة على أوربا كانت تواجه من عالم الاسلام كله بالاعجاب والتقدير والتأييد وأن حركة الجهاد المقدس التى حملت الدولة العثمانية لواءها فى دفع رايات الإسلام إلى أبعد مدى فى قلب أوربا أدت إلى إذكاء روح الوحدة والتضامن بين المسلمين فى الشام ومصر والمغرب . بدأت الدولة العثمانية ٦٩٩هـ — ١٣٠٠م وانتهت ١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م وقد مرت فى طورين كبيرين : الطور الأول : « طور القوة » والثانى : « طور الضعف » كان طور القوة مرتبطاً بمفهوم الاسلام أو دائراً فى إطاره من حيث الوحدة والقوة فلما تخلف العثمانيون عن هذا المفهوم وحل الصراع والضعف العسكرى تحولوا من مركز الهجوم والتوسع إلى الدفاع والانتقاض ويرى الكثيرون أن مرحلة الضعف تبدأ بهزيمتهم عند أسوار فينا ١٠٩٥ هـ — ١٦٨٣ م أو ١١٠٩ — ١٦٩٧ . وهى نفس الأعوام التى بدأت فيها أرهاصات اليقظة العربية التى وضحت فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (القرن الثامن عشر الميلادى) وهى المرحلة التى تمثل حركة الانتقاض حتى انتهت فى أواخر الحرب العالمية الأولى (١٣٣٩هـ — ١٩١٨م) ويهمنا هنا أن نركز على : مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية وأن نعنى بالمرحلة الأولى : مرحلة القوة والتوسع فقد أمتدت توسعات العثمانيين فى ثلاث اتجاهات : (١) أوربا (٢) العالم العربى (٣) فارس وقد تحقق لها النصر فى الميدان الأوربى وظل شغلها الشاغل حتى مرحلة الضعف ، وقد بدأت الدولة العثمانية فعبرت مضيق الدردنيل إلى غاليبولى وشرعت فى اكتساح الأقاليم الأوربية التابعة لدولة (الروميلى) الشرقية ، ومنها بدأ توسعهم فى جزيرة البلقان ، وكان انتصارهم فى موقعة أنقرة قد مد نفوذهم إلى نهر الطونة . ثم والى السلاطين غزو أوربا حتى استطاع محمد الثانى أن يحقق أكبر نصر فى تاريخ الاسلام بالسيطرة على القسطنطينية وبسقوطها فى يد عالم الاسلام انتهت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وامتد التوسع إلى بلاد القريم ، وجزائر الأرخبيل وخفق العلم الاسلامى العثمانى على قلعة (أوترانتو) فى إيطاليا نفسها . ومضى التوسع إلى بلغراد حتى أصبحت بلاد المجر فى يد

العثمانيين وبدأ حصار فينا ١٥٣٩ ومضت الانتصارات الباهرة متعاقبة ، حيث اكتسحت أساطيل القوة الأسلامية العثمانية شطوط البحر المتوسط (بحر الروم) وجزائره إلى سواحل أسبانيا ونشر رجالها أمثال بربروسة ودراغوت وبيالة » الهيبة على سواحل أوربا وشمال أفريقيا واستطاعوا طرد الاسبان من بلاد الجزائر .

وقهر العثمانيون الأسطول البابوى ، وامتدت راياتهم إلى بودابست على نهر الطونة ، غير أن هذا التوسع الذى ظل ممتدا ومستمرا حتى ١٥٧١ م بدون هزيمة أو توقف ، بدأ يصاب بضربات وهزائم منذ موقعة ليبانتو البحرية ، وليس معنى هذا أن انتصارات العثمانين قد توقفت ولكنها أصبحت تتأرجح بين النصر فى مراقع والهزيمة فى مواقع أخرى ، فقد أضاف العثمانيون إلى نفوذهم اقريطش وجزائرى أخرى غير أنهم ارتدو عن فينا ١٦٨٣ م ، وتحطمت قواهم فى موقعة (موهكس) فضاعت بلاد المجر من أيديهم ١٦٨٦ م .

٢ — أما المشرق فقد تضامت الوحدات العربية فى الشام ومصر وكردستان وديار بكر وبلاد العرب ومكة والمدينة . ثم توالى إلى انضمام أجزاء المغرب العربى : تونس والجزائر والمغرب إلى الدولة العثمانية . ٣ — أما بالنسبة لفارس فقد توالت حملات العثمانيين عليها دون أن تحقق نصرا واستطاعت فارس أن تحتفظ بسلطانها وأن تقيم دولة عظمى هى « الدولة الصفوية » أما الهند الأسلامية فقد نجت من حملات العثمانين وأقامت « دولة المغول الكبرى » التى ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطانى للهند ، وقد بهر العثمانيون العالم بالقوة الحربية وبالبطولة العسكرية التى عرفت لسلاطينهم : عثمان ، وارخان ، مراد الثانى ، بايزيد ، محمد الخامس ، سليم الأول ، سليمان ، وهم السلاطين الذين شهدوا مرحلة التوسع والانتصار وقد تمثلت قوتهم العسكرية فى التنظيم الرائع الذى أقامه أورخان للجيش والذى أطلق عليه « الانكشارية » وهو نظام عسكرى اسلامى له طابع الجهاد الاسلامى ممتزجاً بالزهادة الاسلامية : هذه القوة التى استطاعت أن تحقق هذه الانتصارات والتى حين تلقت الضربة الجائحة التى وجهها إليه المغول لم تسقط نهائيا ، بل استطاعت أن تسارع إلى تنظيم صفوفها من جديد ، وكان تيمور لنك قد ظهر فى جنوب آسيا ، واسترعى انتباه الغرب الذى خشى أن يجتاح أوربا ، ومن هنا اتجه المخطط الغربى إلى توجيه قواه لضرب الدولة العثمانية خصم أوربا والغرب ، فإذا قضى عليها أزال نفوذها وإذا قضت عليه خلصت أوربا منه . ولقد جرت بين تيمور وعالم الغرب مفاوضات واسعة فى محاولة استغلال قوته العسكرية ضد الاسلام والانتفاع بها من ناحية تجنب خطرها وتحطيم القوى الاسلامية ، وكانت « جنوه » قد تبادلت مع تيمور المراسلات والشعراء . وحرضته

على تحطيم الدولة العثمانية ، كما أرسل ملك قشتاله (أسبانيا) الشعراء إلى تيمور وبتحريض من أحد الرهبان الدومنيكان الذى كان صديقا لتيمور ومن دعاة المسيحية هناك .

وقد جرت أوربا على فى ذلك على نفس الخطط الذى نفذته مع هولاكو حين حرضته على تخريب بغداد خدمة للملكة الصليبية القائمة فى قلب العالم الإسلامى إذ ذاك ، وكخطة تحالف بين التتار والصليبيين لدحر عالم الاسلام ، وتشهد معظم كتب التاريخ أن المراسلات دامت بين الغرب (فرنسا والبابا) وبين خلفاء هولاكو ، فلما تألق تيمور ، كان الخطر العثمانى قد أحدق بأوربا الشرقية وطوق القسطنطنية ، ومن هنا حرصت أوربا فى أن تحرضه على قتال العثمانيين . يؤيد ذلك الكتاب الذى حمله إليه وقتئذ الراهب « فرنسيسفوس » من ملك فرنسا شارل السادس ، ذلك الكتاب الذى كتب تيمور الرد عليه بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك أسبانيا إذ ذاك يهنىء تيمور فى إجهازه على آل عثمان ، وقد كانت مصادمة التتار والعثمانيين ٨٠٤هـ ـ ١٤٠٢م من الضربات القاتلة التى تلقتها الدولة العثمانية بصمود عجيب ، واستطاعت بعد قليل أن ترتفع بعد جراحها وأن تعيد تكوين جيشها ، وإن تقلت القوة الاسلامية النامية من الموت ، وأن تعود مرة أخرى أشد قدرة على التوسع وأن تستطيع بعد قليل أن تحقق أكبر نصر لها وهو « فتح القسطنطينية » . وقد نجح العثمانيون فى بناء هذه القوة العسكرية « الانكشارية » حين أقاموها على أساس نظام الاسلام فى التربية العسكرية وفق مفهوم الاسلام ، فصارت ولا مثيل لها فى القوة والاقدام ، وقد استمر نظامها مثلا عاليا فى الكفاية ثلاثة قرون ثم تغير مع ضعف الدولة .

(٤)

كان العثمانيون قد ورثوا السلاجقة فى الأناضول ، وقامت حركتهم على مفهوم الجهاد المقدس ورفع راية الاسلام والدفاع عنها ودفعها إلى الأمام ، وهو نفس المفهوم الذى تبناه [السلاجقة والأتابك والأيوبيون والموحدون والمماليك] استمداداً من مفهوم الاسلام نفسه ، وعلى نفس الخط الذى سار فيه المسلمون فى حركة بناء الاسلام وتوسيع عالمه . وكان هذا الأساس السياسى هو الذى دفع القوة الاسلامية العثمانية إلى العمل فى عدة ميادين : الأول : « القضاء على الدولة البيزنطية » التى وقفت أمام توسع الأسلام إلى أوربا عن طريق القسطنطينية ستمائة عام . الثانى : « التوسع فى أوربا » وقد استطاعت أن تبلغ فيه بعد فتح القسطنطينية رومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد المجر وأن تحاصر أسوار فينا ثلاث مرات .

الثالث : « إقامة وحدة إسلامية » ضمت العالم العربى كله من العراق إلى المغرب إلى الحجاز والسودان . بالاضافة إلى الأناضول حيث قامت الدولة العثمانية . ولم يتخلف عن هذه الوحدة غير الدولة: الصفوية فى فارس ، والمغوليه فى الهند وقد رحب العرب بالوحدة الاسلامية العثمانية ، بعد أن ضعفت قوى المماليك والبربر وأصبحوا هدفا لحملات صليبية جديدة ، وقد وجدوا فى العثمانين منتعشا جديداً للأسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الاسلام عالية خفاقة ، وأعادت ذكرى الأبطال الأوائل ، فى سبيل إعزاز الاسلام ونشره كما رحب العرب فى مصر والشام بالوحدة الاسلامية العثمانية ، بعد أن نقموا على دولة المماليك إهمالها شأنهم فى المرحلة الأخيرة فحاربوا فى صفوفهم . والواقع أنه لم يكن فى هذه المرحلة خلاف جذرى بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الاسلامى هو أساس الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الاسلامية الكبرى ، والحق أن العثمانيين قد قاموا فى المرحلة الأولى بتمثل مفهوم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا من خلال إطاره. ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء فى العدل و التسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء والأتقياء وإنشاء الجوامع والمدارس وكان عثمان مثلا على ذلك فقد أطعم الفقراء بيديه وأكرم العلماء والأتقياء وظلت مفاهيم القرآن بوصفه الكتاب الكريم ، أساس السنة والتشريع الاسلامى هو طابع الحكم والحضارة والفكر فضلا عن احترام الترك للعرب وتقديرهم للغة العربية ، وإعلائهم للطابع العربى الشامل الذى هو طابع الاسلام نفسه . لغة وتقاليداً وقيماً ، وكانت جامعة الاسلام بطبيعتها تمتص الكثير من خلافات العناصر والأمم والأخطار على النحو الذى حققه الإسلام فى تاريخه كله وبالنسبة للفرس والترك والبربر كانت وحدة الثقافة وتقاربها فى ظل مفهوم « السنة » والوسائط التى جمعت بين السنة والتصوف وكادت تمزج بينهما عاملا أساسيا فى الالتقاء السياسى والاجتماعى ، كما حرص الحكام الأتراك على تقدير العرب ، وتأكيد معنى الرابطة الاسلامية « وقد توطد ذلك بطول المدة فعاش أهل البلاد فى جو الفكرة الاسلامية » وذلك خلال مرحلة القوة التى نؤرخها . وقد حرص العثمانيون بوصفهم أصحاب القيادة السياسية للوحدة الاسلامية على متابعة الخط الذى سارت فيه الخلافة الأموية والعباسية ، وفق التقاليد والمخططات التى رسمها الخلفاء وفى نطاق دراسات فقهاء السنة . ومهما قيل فى أمر تنازل آخر الخلفاء العباس للعثمانيين عن الخلافة ، وهو أمر شكلى محض ، فإن نظام الخلافة قد أصبح ضرورة سياسية لامحيص عنها بالنسبة للعثمانيين ، كما كان ضروريا من قبل للماليك بحسبان أنه يعطى القوة الروحية المرتبطة فى نظام الإسلام بالقوة السياسيه ، وقد قام منصب «شيخ الإسلام»

فى الدولة العثمانية كرمز على تطبيق الشريعة الإسلامية . وكان نظاما مقدوراً من الخلفاء الذين لم يكونوا يتصرفون فى أمر من الأمور الدينية أو المدنية إلا بعد صدور فتوى للمرجع الأكبر للشريعة الاسلامية ، وكان المفكرون المسلمون والفقهاء قد صاغوا نظام الخلافة وفق حاجة المسلمين وتطور التاريخ الإسلامى ، وفى نطاق مفهوم أساسى للاجتهاد فى الاسلام هو المحافظة على وحدة المسلمين ، وحماية عالم الاسلام من التفكك . وبذلك حلت السلطنة محل الخلافة فى مختلف أعمالها والتزاماتها ، وقد صاغ هذه النظرية العلامة (الدوانى) ووصل ابن خلدون إلى نفس النتيجة . وكانت عند كلا العالمين تطبيقا لنظرية الغزالى التى كانت ترمى إلى توحيد المجتمع السنى تحت لواء إمام أو خليفة أو سلطان ، أو حاكم يقود الناس إلى الكمال ويحقق لهم نظاما صالحا .

(٥)

وقد حرصت القيادة السياسية الاسلامية فى هذه الفترة على رعاية الأديان المختلفة وأوليائها على النحو الذى رسمه مفهوم الاسلام ، وقامت العلاقة بين الدولة والعناصر غير المسلمة على تسامح كامل وإن لم تتعدى تساكن المسلمين وغيرهم وتزاوجهم ، وقد أعطت الدولة الحرية الدينية التامة لكل العناصر وخولتهم حقوقهم من ناحية العبادة والتعليم ، وإن ظلت هذه العناصر على عداء للوحدة الاسلامية العثمانية ، بالرغم من هذا التسامح الذى كان فيا بعد عاملا من عوامل التجمع للتآمر ضد الدولة وعنصر من عناصر هدمها . وقد سجل ذلك كثير من المؤرخين المنصفين، ومن بينهم المؤرخين لا فيس ورامبو (من مؤرخى فرنسا) قالا : أن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد دينى ، وكانت حكومة الأتراك لا تعارض أحداً فى دينه وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية » بل إن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك فرأى أن هذه الحرية الدينية كانت من بعد مصدر ضعف الدولة العثمانية ، يقول دجوفارا : أن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية الثابتين للأمم المسيحية التى كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القومية ، وتتماسك وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية » .

وقد أشار العلامة جميل بيهم فى كتابه « فلسفة التاريخ العثمانى » إلى أنه لما استتب الأمر لآل عثمان عادوا إلى سياسة الخلفاء الراشدين فى الفقه والحكم ، وكان يخيرون الخصم بين الاسلام والجزية

والحرب ، وأن السلطان محمد الخامس قلد « بطويق الروم » الرئاسة على قومه وثبته فيها ، وأن هـذا العدل لم يكن قاصراً على الذين يرضون بدفع الجزية طوعاً ، وإنما كانت شاملة للأمصار المفتوحة قسراً وأن محمد الخامس حين دخل القسطنطينية (٢٩ مارس ١٤٥٣) أعلن حرية الدين لغير المسلمين والاحتفاظ بأملاكهم وأموالهم ، وقال العلامة بيهم معلقاً : أنه جرى فى ذلك مجرى عمـــر بن الخطاب فى معاملة البطريرك (صفرينوس) فى بيت المقدس ، وفى أيا صوفيا احتفظ الروم بكنائسهم كافة وبحرية دينهم واستقلالهم . وكانو ينعمون بالسيادة والحرية ويتركون لأهل البلاد أمرها بما فيه استقلالها السياسى ، وعندما اعترض على محمد الفاتح لعدم تخييره رعيته من النصارى بين الاسلام والقتل ، قال : كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الاسلام زيادة على حضرة الشارع (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) وكذلك فعل أورخان فى البلاد التى ضمها فقد حافظ على سلامة أهلها وخـيرهم بين البقاء والهجرة ولهم أموالهم كافة .

وكان العثمانيون قد مدوا سلطانهم باسم الاسلام إلى قلب أوربا ، وحقق ذلك دخول عدد كبير فى الاسلام ولا سيما فى آسيا الصغرى ، وأن سياسة العثمانيين إزاء هذه العناصر كانت من العوامل المشجعة لهم على دخول الاسلام ، بالرغم من هذا فإن الدولة العثمانية قد قصرت تقصيراً لا حد له فى الدعوة الاسلامية بين العناصر التى ضمتها الدولة خلال ستمائة عام ، وأنها لو فعلت لتركت فى أوربا قوة اسلامية فاعلة . إذ فقد درج آل عثمان على التمسك بالشريعة الاسلامية منذ اليوم الأول ، وكرموا مفكريها وفقهائها ، وقد سجل هذا منصفى كتاب الغرب يقول « دوش » سواء السلم أو الحرب أو النظام سياسى أم قانون عسكرى كانت تركيا تلجأ إلى شيخ الاسلام طالبة فتواه ، ويقول جونين وفوتحيفر صاحب كتاب تاريخ العالم :

كان كل شىء فى المملـكة تحت نفوذ مفتى الاسلام لأنه نائب السلطان المطلق فى الأمور الشرعية والمدنية سواء » . وقد أشار كثير من المؤرخين إلى مدى عمق تأثير الاسلام فى نظام الأمبراطورية العثمانية من حيث مفعوله بواسطة قيام سياسة الدولة على أحكامه ، ومن حيث مفعوله فى أخلاق السلاطين .

(٢٨)

القوى الإسلامية الثلاث

قامت فى هذه المرحلة ثلاث وحدات إسلامية : (١) الأمبراطورية العثمانية وتضم بلاد الأناضول والعالم العربى . (٢) الدولة الصفوية فى فارس . (٣) الدولة المغولية فى الهند . وقد حاولت « الدولة العثمانية » السيطرة على فارس وضمها إلى نطاق الوحدة الإسلامية العثمانية غير أنها فشلت، واستطاعت فارس فى ظل « الدولة الصفوية » أن تقاوم العثمانيين وأن تقيم دولة قومية على أساس من الثقافة الشيعية الإسلامية ، بينما كانت الدولة العثمانية تنصر الثقافة السنية ، وقد كانت حوافز الثقافة الإسلامية العربية تحت سلطانها ومن بينها المدن المقدسة الثلاث : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما « الدولة المغولية » فى الهند فقد ظلت بعيدة عن صراع العثمانيين والفرس . ويمكن القول بأن الحركة الصوفية كانت هى بذرة الدولتين العثمانية والصفوية . وأن هذين الدولتين هما من ثمرة الثقافة الصوفية الإسلامية وتجمعاتها ، وأن هذه التجمعات ذات الطابع الصوفى كان تحمل طابع الجهاد لنشر الإسلام ، كان لها أثرها من قبل فى بناء دولتى المرابطين والموحدين فى المغرب ، وقد كانت هذه الحركات قد بدأت دعوة الإسلام ثم تحولت إلى دولة وقوة سياسية وعسكرية ، وكانت « فارس » قد سقطت تحت نفوذ المغول ثم استطاعت أن تتحرر من هذا النفوذ فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وهنا ظهرت دعوة صفى الدين أحد شيوخ أردبيل ، حاملا لواء الدعوة إلى الثقافة الشيعية فلقيت دعوته قبولا ، وتجمعت مع القبائل ، وقد اتصل صفى الدين باوزون حسن شيخ قبيلة ألاق فيون لو ، إتصالا انتهى بامتزاج الدعوة الشيعية بالقوة العسكرية ، وقد ترك صفى الدين أساساً قويا مكن إبنه « الشاه إسماعيل » من إقامة دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والموصل وامتدت من باكو شمالا إلى ششتر جنوبا ، ثم بلغت نهضة الدولة الصفوية الفارسية الإسلامية أوجها فى عهد عباس الأكبر (٩٨٥ — ١٠٣٨ هـ ١٥٨٧ — ١٦٢٩ م) وفى هذه المرحلة استطاع الصفويون الانتصار على العثمانيين ، يقول (بركلمان) أن نهضة فارس قد مكنتها من استرداد شخصيتها مستقلة عن العالم الإسلامى ، وأصبح لها جيشاً قوياً منظما بالأساليب الأوروبية فى القرن الحادى عشر .

وقد وسع الشاه عباس الأكبر امبراطوريته حتى شملت فارس كلها ، وقد قام بدور واضح فى المقاومة الإسلامية للنفوذ الغربى حين حارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وكذلك قامت الدولة المغولية فى شبه القارة الهندية فى القرن العاشر الهجرى فوصلت بالحكم الإسلامى فى هذه البلاد إلى أرقى صوره ، وبلغ نفوذ الإسلام أوسع مداه ، وذاعت الوحدة الإسلامية إلى أقصى درجات الذيوع واستطاعت — بنشر الإسلام فى ربوع الهند — أن تحول ملايين عدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى الإسلام ، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم ، وقد عاصرت المغولية الصفوية فى فارس والعثمانية فى آسيا الصغرى والعالم العربى ويمثل قادة الدولة المغولية خلفاء التتر والمغول بعد أن صهرتهم بوتقة الإسلام وتحولوا إليه ، وتحولوا من دعاة هدمه إلى دعاة نصره وإذاعته والدفاع عنه . وقد عرفت الدولة المغولية الإسلامية برعاية العلم والعلماء رعاية صادقة وأقامت منشئات الثقافة والمدنية ، وازدهرت على أيديهم الحضارة الاسلامية فى الهند وخراسان وفى كثير من المدائن التى ضربها أجدادهم من قبل (بارتولد : : تاريخ الحضارة) وقد كان ولاة الدولة المغولية يمثلون الإسلام فى معاملاتهم مع غير المسلمين ، فقد أطلقوا حرية العبادة لأهل البلاد من الهندوك وفتحوا لهم أبواب المناصب ، ماكان له أثره الواضح البعيد المدى فى إعتناق عدد كبير منهم للإسلام بوصفة رسالة المساواة بين معتنقيه ، فدخلوا فيه أفواجا ، كما كان لهم دورهم فى رعاية الثقافة الهندية وتطويرها ، وقد بدأ للإسلام أثر واضح فيها حيث نشأ مزيج إسلامى هندى بلغ بالحضارة الإسلامية أرقى صورها ، وكان للإسلام أثره الواضح فى مفكرى الهندوكية ومصلحيهم الذين نادوا بمذاهب جديدة خففت من قيود نظام الطبقات وأنكرت عبادة الأوثان ودعت إلى عبادة الإله الواحد (نامديو كبير ونانك) وقد أقام الدولة المغوليه الإسلامية ظهير الدين محمد بابر حفيد تيمورلنك وجنكيز خان فى أول الربع الثانى من القرن العاشر الهجرى كما ٩٢٥ هـ وظلت تحكم البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزع الاستعمار البريطانى نفوذها . وكان من أبرز مظاهر الالتقاء بين الثقافة الهندية والاسلام وأدابهما ظهور « اللغة الأردية » أوسع لغات شبه القارة الهندية والتى أخذت أغلب ألفاظها من اللغة العربية ، ومزجتها بالألفاظ الفارسية والهندية الأصلية . وكانت الأردية لسان الزعماء المسلمين . وقد أشار الندوى إلى أن أثر الإسلام فى الهند كان بالغا ، فانه فضلا عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعا لم يلبث أن دفع طائفة من المصلحين الهنادكة إلى الدعوة لأفكاره فى التوحيد وإنكار نظام الطبقات وزواج الأطفال .

(٢٩)

الإسلام والأندلس

يمكن تعريف تاريخ الاسلام فى أسبانيا فى ثمان حلقات : * عصر الولاة : ٩٢ — ١٣٨هـ . *العصر الاموى ١٣٨ — ٤٢٢ . * نظام الطوائف ٤٢٢ — ٤٨٤ . * عصر الموحدين ٤٨٤ — ٦٤٠ * الحروب الصليبية بالأندلس ٦٢٥ — ٨٩٨ . وسقوط غرناطة * عصر العرب الأخير : مرحله الاضطهاد والتنصير (٨٩٩ — ١٠١٧هـ) . * ترحيل المسلمين نهائياً عن الأندلس (١٠١٨هـ) .

(١)

المقاومة والمعارك مع الفرنجة

خلال عصر الدولة الأموية بالأندلس

حين سيطر المسلمون على الأندلس،غفلوا عن منطقة جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة، هى منطقة « قنطرية » على مقربة من حدود فرنسا ، وكانت جبلية وعرة ، استهان بها المسلمون ، واعتز بها الفرنجة وآزروها ، حتى قامت بها حكومة فى (استوربارس (التى استهدفت إعادة أسبانيا إلى الغرب وذلك بمواصلة الحملات المتوالية على الدولة الاسلامية العربية ، ولم تلبث هذه القوة إن استعادت ليون (١٠٠هـ) بينما المسلمون يجتازون جبال البرانس إلى فرنسا ، ثم استفحل شأن الأستوريين وأمدهم الافرنج بالعتاد والامدادات حتى استطاعوا أن يسيطروا على جليقية وقشتاله واستغلوا تنازع العرب ، فلما انحلت الدولة الأموية إلى الولايات » قام عليها ملوك الطوائف ازداد شعورهم بالقوة فقامت دول : نواره ، ليون ، قشتاله ، قطلونيه ، أرغون ، البرتغال ، وإحتاطت هذه الدول بالأندلس العربية الاسلامية على هيئة هلال وقد هددت هذه الحركة الدولة الاسلامية فبدأت معركة المقاومة والادالة، واستمرت فترات طويلة، بل أنها لم تتوقف فى الأغلب،قد أمضى عبدالرحمن الناصر سنوات حكمه فى الغزو والمقاومة ، وواصل أبو عامر المنصور حركة المقاومة والادالة من الفرنجة فنى خلال فترة حكم (٢٧ عاما) فانتصر عليهم فى خمسين موقعة وقضى حياته شهيداً .

وقد استمر هشام بن الحكم الثانى (٣٦٥ — ٤٠١ ﻫ حكمه على تعبئة خلال اثنين وعشرين عاما فى مواجهـة ممالك ليون ونواره وقشتاله وقطلونية : غير أن الفرنجـة أستطاعوا أن يجتاحوا ثلث الأندلس حين أنهارت الدولـة الأموية ، وقامت الأمارات الأربع لملوك الطوائف : بنو زيرى (غرناطة) بنو عامر (بلنسيه) وبنو عبـاد (اشبيليه) بنو هور (سرقسطة) وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازعا شديداً واستعان كل منهم بالأسبان الفرنجة على خصومه ، وبرزت للفرنجـة مملـكة كانت نواة حركة استرداد الأندلس . هى « قشتالة » : ٣٥٠ ﻫ ٩٦١ م ثم تلاقت مع دولة ليون فى اتحاد عام ٤٢٩ ﻫ ، فانتظمتا تمثلان مملـكة ضخمة ، لم تلبث أن حملت لواء المقاومة والأدالة من المسلمين إلى أن تولى الفونس السادس ملك قشتالة فاقتحم طليطلة ٤٧٨ م واتخذها قاعدة للدولة وبدأ تهديد عنيف لأمراء المسلمين،دفع المعتمد بن عباد إلى مناداة (المرابطين) فى مراكش ، وكان يوسف بن تاشفين ٤٥٣ — ٥٠٠ ﻫ قد جاء على رأس موجة جديدة جددت شباب الاسلام هى موجة البربر فى أفريقيا فسيطر على المغرب الأقصى والأوسط وبنى مدينـة مراكش ، وقد استجاب للنداء فعبر إلى الأندلس وهزم الفرنجة فى موقعة حاسمـة هى « الزلاقة » ثم لما عاود الفرنجة الهجوم على مواقع المسلمين فى الأندلس من بعد، عبر مرة أخرى عام ٣٥٧ ﻫ واندمجت دولة المغرب والأندلس فى وحدة بقيادته لمقاومة غزو الفرنجـة المتدارك . ثم لم يلبث (الموحدون) وهم موجة اخرى من البربر أن حلت محل الموحدين ، وكان لهم دور ضخم فى مقاومة الزحف الفرنجة على مملـكة الأندلس ، فقد ألقو الرعب فى أوربا فتنادت للتجمع ، لمقاومة الموحدين وللقضاء على الأندلس المسلمة العربية ، وكان أبرز قادتهم يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ — ٥٨٠) ويعقوب المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥) . وقد استطاع المنصور أن يقتحم طليطلة عاصمة ألفونس التاسع ملك قشتالة ، وأن يعيدها إلى الإسلام ، وكانت الحروب الصليبية إلى الشرق قد آذنت بالفشل ، ومن هنا ركزت أوربا همها على تحرير القارة من الإسلام والعرب والمسلمين ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية فى الأندلس ، عنيفة عاصفة ، وحملت لواء الدعوة إلى إخراج « المراقطة » أى المسلمين من أوربا ، وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلابة وإصرار ، وواصلوا الاشتباك مع الفرنجة فى معارك فأدالوا منهم ، غير أن المرتف كان فى صف القوى المتجمعة على أرضها والتى ازدادت استقراراً وقدرة على مقاومة إمارات بدأ عليها الضعف والتمزق والخلاف ، حتى انهزم المسلمون فى موقعة العقاب (طولوز) عام ٦٠٩ ﻫ — ١٢١٢ م ولم يلبث بنو مرين (١٦٧٤ ﻫ) وهم موجة من موجات البربر — الذين نصروا الإسلام — إن سيطروا على المغرب وجازوا إلى الأندلس

واشتبكوا مع الفرنجة فى معارك عدة غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض ، وبين أمراء الأندلس والذين عبروا إليهم من المغرب ، واعتمد — بنو الأحمر آخر أمراء المسلمين فى الأندلس على خصومهم فى الانتصار على أشقائهم وجيرانهم ، ولم يلبث الفرنجة أن استولوا على هذه الامارات واحدة بعد أخرى (قرطبة ٦٤٥ مرسيه ٦٩٥ هـ) ثم جاءت أقسى مراحل القضاء على العرب والإسلام فى الأندلس ، وفى أوربا ، عندما تضامت مملكتا فرديناند وإيزابيسلا ٨٨٤ هـ حيث لم تلبث غرناطة بعدها بضعة عشر عاما حتى أسلمت آخر أنفاسها وانطوت صفحة الاسلام والعروبة فى أسبانيا .

وهذا إجمال له تفصيل : فمنذ ضعفت قوى « الموحدين » أخذت قوى الأسبان والفرنجة فى إثارة الاضطرابات ، وكانت مملكتى قشتاله وأرغونه تحملان لواء المؤامرة وتؤلبان على مملكة الاسلام المنقسم إذ ذاك إلى ولايات تتصارع ، وأخذت « حركة الاسترجاع » التى بدأت منذ عصر ملوك الطوائف تقوى ، وزادها قوة اضمحلال الموحدين،الذين كانوا بمثابة الموجة التالية بعد المرابطين فى إنقاذ الأندلس من الخطر المحتوم ، ولم تلبث إمارة بلنسيه ٦٣٦ هـ أن سقطت فى أيديهم واتجه أهلها من المسلمين إلى غرناطة جنوب الأندلس ، واستسلمت عاصمة بنى أمية « قرطبة » عام ٦٢٣هـ ١٢٣٦ م واتجهت قوى الغزاة إلى أشبيله ، وتوحد ملوك أسبانيا ضد المسلمين وأبدى المسلمون بسالة لاحد لها فى كل مختلف عمليات الاسترجاع فلم ينصرفوا عن موقع إلا بعد أن استنفذوا كل مايملكون من قوى بشرية وحربية ولم يسلم المسلمون موقعاً واحداً إلى الأسبانيين بدون قتال وقد حاصرت الجيوش الأسبانية مدينة أشبيله وامتد الحصار ثمانية عشر شهراً ، أبدى فيها المسلمون ضروبا من الصبر والشجاعة دون مدد أو مساعدة فلم تستسلم قواتهم ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ الا بعد أن استنفذت كل قواها ولم تبق إلا مملكة غرناطة تحت إمارة بنى الاحمر ، وهى رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقى لشبه جزيرة ايبريا محصورة بين الوادى الكبير والبحر الابيض ، وقد تجمع المسلمون فيها بعد أن انتزعت منهم إماراتهم ، واستمرت قائمة قرابين ونصف قرن (٦٣٥ — ٨٩٧) ولم تلبث ممالك أسبانيا الثلاثة أن اتحدت على مواجهة « مملكة غرناطة » وعبر سلطان بنى مرين إلى الأندلس بجيوش عظيمة عام ٧٧١ هـ اشتبكت فى معركة (طريف) مع الفرنجة وانتهت بهزيمتها ، ولم تلبث غرناطة أن واجهت الخطر الاسبانى بمفردها ، وعمل الاسبانيون على إثارة الخلافات والفتن والدسائس بين بنى الاحمر ، ولم تلبث مملكة قشتاله أن استولت على جبل طارق ٨٦٨ هـ ١٤٦٢ م بعد أن توقفت النجدات الواردة من المغرب الاقصى وبلغ الخلاف الداخلى أوجه فى غرناطة حيث

اقتسمها الأخوين ، فأصبحتا مملكتين : غرناطة ومالقة ، وقع ذلك فى نفس الوقت الذى إتحدت فيه قشتاله وأرغونه ٨٨٤ هـ ١٤٧٩ م ، ثم توالت الخلافات والمؤامرات وتوالى الصراع بين الأسرة الحاكمة ، وبين زوجات السلطان وأبناؤه ، حتى سيطر الأسبان على مالقة . وقد حوصرت أسبانيا حصاراً عنيفاً وثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر ، ولما علم حكام الأسبان أن سلطان العثمانيون وسلطان المماليك بمصر عزما على نجـــدة الأندلس بادروا إلى احتلال الموانىء الأندلسية وأهمها مالقة حتى يحولوا دون وصول أى مدد إلى الأندلس . ولما طلب حكام أسبانيا إلى غرناطة التسليم ، عمدوا إلى آخر مافى استطاعتهم من قدرة على المقاومة ، ووجد الأسبانيون مقاومة جبارة ، هى مقاومة الفناء من المسلمين المحصورين فى دائرة ضيقة ، وكان الأسبانيون قد أحكموا الحصار على الغرناطيين وصمد المسلمون وصبروا على طول الحصار ، وكان موسى بن أبى الغسان أبرز من حمل لواء المقاومة وقد امتنع عن الخضوع والاستسلام ولم يمت شهيداً إلا بعد قتل مئات القشتاليين ، وصبر المسلمون على طول الحصار ونفاذ الزخيرة وتفشى الجوع والمرض ، ولم تستسلم غرناطة فى ٨٩٧ (٣ ربيع الأول) ١٤٩٢ م إلا بعد أن أعذرت إلى الله بالمقاومة . وتقدم فرديناند وايزابيلا إلى غرناطة ودخلتها الجيوش الأسبانية فى مظهر رهيب وبذلك أنقرض آخر مظاهر الاسلام والعروبة من الأندلس (٩٢ — ٧٩٧) بعد ثمانية قرون .

لقد سقطت الأندلس بعد أن تخلت عنها الدول الاسلامية القوية ، كالعثمانيين والمماليك ، وكان حكام الأسبان قد أحكموا الحصار البحرى عليها حتى لا تتسرب إليها أى معونة أو مدد من عالم الاســلام وتعهد الأسبانيون فى « وثيقة تسليم » غرناطة باحـترام أمر المسلمين فى دينهم وأملاكهم وحريتهم والسماح بالهجرة لمن أراد الخروج منهم إلى ديار الاسلام ، غير أن الأسبان لم يصدقوا فى عهدهم ولم يلبثوا أن اضطهدوا المسلمين رجاء تصفيتهم والتخلص منهم نهائياً . واستطاع الـكردينال كيمناس أن يحمل حكام أسبانيا على نقض شروط الأمان التى منحت للمسلمين ، وبدأت دعوة جائحة إلى تنصير المسلمين ، وفى عام ٩٠٥ هـ — ١٤٩٩ م — صدر قانون تنصير المسلمين جبراً وتحريم إقامة شعائرهم الدينية واغلاق المساجد ، وأحرق الـكردينال كيمناس كتب التراث الاسلامى فى غرناطه فاشتملت النار فى مئات الألوف منها . وزادت الحملة عنفاً على المسلمين . ففى ٩٠٧ هـ — ١٥٠١ م منع المسلمون من البقاء فى أسبانيا ، وثار المسلمون فى جبال البشرات فقاومهم الأسبان فى وصدر قانون بإكراه للمسلمين (للموريسكو) على ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزى الأسبانى ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات والتكلم بالعربية (٩٥٦ — ١٥٥٥ م) وحولت المساجد إلى كنائس

واندلعت الثورة مرة أخرى فى جبال البشرات ٩٨٦ هـ — ١٥٦٨ م بقيادة محمد بن أمية ، الذى استطاع أن يضم إليه مختلف قوى البشرات ، وقاوم المسلمون مقاومة فذة وهم يعلمون أن أمر القضاء عليهم وسحقهم لا شك أنه يسير على القوى الأسبانية ، ولكنهم لم يتخلفوا عن المقاومة ، واستشهد ابن أمية وتولى بعده (عبد الله) .

وثار المسلمون فى بلنسية وانتقضوا ، ولكن القوى الإسبانية استطاعت أن تقمع ثورتهم ، وفى عام ١٠١٧ هـ وضعت نهاية المسلمين (الموريسكو) فى أسبانيا حيث تقرر نفيهم وإجلاؤهم نهائياً وحشدت لهم السفن فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والأستانة ، وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب العربى وتونس — ويقرر الطاهر بن عاشور أن عدد المخرجين بلغ (٣٠٠ ألف) ويردد قول بعض المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون ، سافر منهم إلى فاس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس (١٣٠ ألفاً) . ومات منهم فى الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب ، وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف « فاشترطت عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا فردوا من حيث آتوا ، فاحتاروا فى أمرهم وقصدوا المرامى الفرانسية للسفر فمات منهم كثير فى فرنسا ونجا قليل . وقد تسلط أعراب البوادى على كثير ممن خرجوا إلى فاس وتلمسان فى الطرقات ونهبوهم ولم يسلم من ذلك إلا الذين خرجوا إلى تونس » .

ولا شك تكشف هذه الصفحة المؤلمة عن الصمود الذى عرف به المسلمون فى إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد ، ذلك أن المسلمين لم يسلموا فى أى جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما فى مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد ، كما تكشف عن أقسى صور الظلم والغدر التى واجهتهم . ولكن هل توقف المسلمون المخرجون من الأندلس وهل انتهى أمرهم ، « الحق أن لا » ، فإن هؤلاء المخرجين عاشوا وعاش أبناؤهم من بعدهم فى مقاومة متصلة للفرنجة ، فقد عمدوا إلى الانتقام من الفرنجة الذين حاولوا السيطرة على موانى الغرب العربى ومراسيه .

ذلك أن الأسبان والبرتغال حين طردوا المسلمين من الأندلس ، لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد ، بل كانت خطتهم إقتحام سواحل المغرب والانتقام من المسلمين الذين ظاهروا الأندلس ، فى مخطط طويل لتطويق العالم الاسلامى والسيطرة عليه . ومن هنا بدأ الأسبان والبرتغال فى اقتحام السواحل الأفريقية كمرحلة مجددة من مراحل الحروب الصليبية التى شنها عالم الغرب على

الاسلام ، لقد فشل الصليبيون بالمشرق ، وسيظر العثمانيون على القسطنطينية وأخذوا يهددون أوربا الغربية والوسطى ، كان كل هذا بالإضافة إلى السيادة البحرية فى مشرق حوض البحر الابيض مما دفع الغرب إلى التركيز على مغرب حوض البحر الأبيض ، فاندفع الأسبان والبرتغال يغزون شواطىء المغرب والقارة الأفريقية ، وكان هنرى الملاح قد أعد خطة مع ملك البرتغال للاتصال بملك الحبشة المسيحى للتعاقد والتحالف ضد المسلمين .

وفى هذا المجال كان عمل المهاجرين الأندلسيين بأسلافهم الذين قاوموا غارات السفن الأسبانية ضد السواحل المغربية ، والانتقام من الأسبانيين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وقد حملت هذه الغارات طابع الجهاد ، وشارك فيها سكان السواحل الأفريقية ، وقد بدأت على هيئة إغارات متصلة على السفن الأسبانية كانوا يعودون منها بالغنائم والأسرى ، ومن ثم تكونت هذه القوة للرابطة فى الثغور التى تحمل لواء الجهاد والانتقام من الأسبان وتكون تحت قيادة هؤلاء المجاهدين أسطول جديد ، وبرزت أسماء عروج وخير الدين واستطاع خير الدين أن ينقذ ٧٠٠ ألف مسلم أندلسى وقطعت هذه الحركة على البرتغال والأسبان محاولة الاستقرار بسواحل المغرب العربى واحتلالها ، واستطاع الإخوان عروج وخير الدين (٨٩٩ — ٩٣٢) الاستيلاء على السواحل الجزائرية واستخلاصها من الأسبان :
وإذا كان سقوط الأندلس فى أيدى الفرنجة بعد ثمانمائة عام من إسلامها وعروبتها قد هز الشعراء والأدباء وبعض المؤرخين ، فإن النظرة العلمية وفق نواميس التطور وحركات المد والجزر فى التاريخ كانت تكشف جميعها عن قلق واضح فى هذا الجزء من عالم الإسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الإسلامى قد توقف عندها ، فإن أوربا المسيحية بكل مفاهيمها وقيمها وطبيعتها قد ظلت طوال هذه القرون الثمانيه تقاوم ولا تستسلم أبداً لغزو الإسلام لها سواء من القسطنطينية أو من الأندلس ، وأنها طاولت بقاء هذه الدولة بالمؤامرات والفتن والمقاومة ولم تهدأ حتى ضعف المسلمون وتمزقوا ، وانقسموا على أنفسهم : وإذا كانت الأندلس مرت بكل ما تمر به كل الدول من علامات التكون والقوة والضعف والانهيار بالرغم مما حملت فى أعماقها من حضارة باهرة زاهرة ، فإنها كانت فى الواقع أشبه بالمحاصرة أو المعزولة من عالم الإسلام بحكم وقوعها فى أوربا وكان العدو أقرب إليها من أهلها فى المغرب ، وكأنما كانت مملكة إسلاميــــة منفصلة ، لها طابع واضح يجرى فى إطار طابع الإسلام ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوربية والجوار والعقلية والتحديات المختلفة . ولكن الأندلس كانت من ناحية أخرى هى أذكى ثمرات الحضارة العربية الإسلامية التى تكونت وتجمعت فى قلب أوربا إيذاناً بالدور الذى سيقوم به الغرب فى تلقف هذه الحضارة وتنميتها ، وإذا كانت الحروب الصليبية

واتصال الغرب بالشرق قد قرب مرحلة النقل والترجمة وتبقى القيمة الحضارية العربية الإسلامية ، فإن قوة التاريخ فى تحركه وتطوره ، قد نقلت مركز الثقل فى الحضارة الإسلامية إلى قلب أوربا نفسها ممثلا فى « قرطبة » بوصفها البيئة المعدة والمتبيناه لحمل أمانة الحضارة فى هذه المرحلة بحسبان أن النمو والتطور الحضارى لن يتوقف إذا ضعفت أمة عن حمل أمانته وتنميته . ولقد استطاعت أوربا فعلا أن ترفض الاسلام وأن تجلى العرب عن أرضها ومن مداخلها الشرقية والغربية ولكنها عجزت عن أن ترفض « فكر الاسلام ، وعقلية العرب » وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون ، وإن صاغت ذلك على نحو أو آخر محاولة أن تغضى إغضاء الناكر للجميل بالدور الاسلامى فى الحضارة هذا وقد كانت عوامل سقوط الأندلس هى نفسها امتـــداداً لعوامل توقف الاسلام عن التوسع فى أوربا ، نتيجة ضعف روح الجهاد والايمان بالعمل فى سبيل نشر الاسلام وتبليغه وحمله إلى آفاق العالم على النحو الذى فعل الرواد الأولون ، بالاضافة إلى طابع الترف والدعة والحضارة والاستقرار ، ثم غلبه عنصر التمزق والخلاف والقصور عن القوة واليقظة ، بينما أحرز العـــدو كل القوة الايجابية للحضارة الاسلامية وفكرها فاتحد وتسلح وآمن بحقه فى استعادة أرضه ونشر دينه . ويمكن القول إجمالا أنه لولا الموجتين البربريتين اللتين جازتا إلى الأندلس فأمدته الواحدة بعد الأخرى بقوة البقاء لانقضى أجل دولة الأندلس قبل ذلك بكثير . ولقد كانت هذه القوى التى أعادت شباب الاسلام قوى بدوية لم تتحضر .

(٣٠)

الثقافة فى عصر الوحدة الإسلامية العثمانية

ينتظم عالم الاسلام فى هذا المرحلة : ثلاث وحدات سياسية هى : (١) الدولة العثمانية التى قامت على إنقاض الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وقد إنضم إليها العالم العربى من العراق إلى المغرب الأقصى . (٢) الدولة الصفوية فى فارس . (٣) الدولة المغولية فى الهند . غير أن هذا التغيير السياسى الذى بدأ منذ أوائل القرن الثامن واستقر فى القرن العاشر تقريباً ، لم يغير كثيراً أو قليلاً فى مجرى الثقافة الاسلامية التى كانت تمضى كنهر قد عمق مجراه واتصلت روافده بين أقصى عالم الاسلام وأقصاه . قائماً على الاسلام أساساً كاطار فكرى عام بمقوماته الأساسية من التوحيد والعـــدل والأخاء . وكانت مرحلة الغزو الخارجى التى سبقت هذه المرحلة قد أضاف إلى هذه الثقافة تطوراً جديداً وخلقت فنونا جديدة من الأدب والفكر، فقدهزت أعمال الغزو نفوس المفكرين وأظهرت

فنونا جديدة من فكر المقاومة والجهاد والتحدى حين تدافعت من فى حدود أرض الاسلام من الشرق والشمال والغرب قوى الغزو الثلاث: (التتار والصليبيين والفرنجة) فقد تدافعت فى سرعة وقوة إلى التجمع والتوحد بين أجزاء عالم الاسلام تحت قيادات جديدة بدوية شابة ظهرت فى أوانها ، وحملت لواء « الجهاد » فى سبيل الدفاع عن الاسلام ورفع رايته ودحر خصومه ، وكان لهذا أثره فى مختلف جوانب الفكر والأدب والثقافة معاً . وقد برز فى هذه المرحلة طابع التقاء فكرى بين كبرى الحركتين الثقافيتين الاسلاميين ، وهما السنة والشيعة ، وإذا كان الالقاء والتقارب بينهما قدتم فى حركة « التصوف » فإن أعمال العدوان الضخمة المتصلة خلال القرنين السادس والسابع قد دفعت المسلمين فى طريقين هما : طريق الجهاد والرباط لمقاومة العدو ، وطريق الزهد والارتفاع على ماديات الحياة ومطامعها فى ظل الجائحات التى فتكت بالإعداد الضخمة من المسلمين فى هجمات التتار المتوالية ، والحملات الصليبية المتصلة ، غير أن أبرز ما تتمثل به هذه المرحلة . هو إتساع نفوذ اللغتين الفارسية والتركية إلى جوار اللغة العربية ، فقد برزت ثقافة إسلامية لها طابع فارسى منذ القرن الثالث الهجرى ، غير أنها لم تلبث أن توسعت وتعمقت وحملت مضامين قومية وصوفية ، ثم كانت نهضة الأدب التركى المستمد من الأدب الفارسى أساساً والسائر فى نفس خطه الصوفى ، والمتميز بطابعه القومى فيما بعد ، وقد بدأ طابع الثقافة الشيعية يغلب على فارس منذ قيام الدولة الصفوية ، ويبدع فيها فكراً جديداً يتمثل فى مفهوم الدعوة الشيعية وفقهها وتاريخها وبطولاتها .كما أتسمت الثقافة التركية — التى أحيت اللسان التركى وبدأت تكتب به — بطابع السنة ، المشوب بروح التصوف الفارسى ، ويرى بارتولد أن الترك لم يتخلوا عن لسانهم ومع ذلك فان تأثير المدنية العربية الايرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية فى أى مكان أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافية وحتى القرن (١٣٥٧م) كانت اللغة العربية لغة رسمية فى آسيا الصغرى ، وهى أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب ، والنقوش الموجودة بالأناضول كانت تكتب حتى القرن ١٣ م باللغة العربية . وقد ظلت العربية لغة القضاء فى بلاد الترك حتى كاشغر إلى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى .

ولا شك قد لعب الاسلام دوراً هاماً فى تكوين الثقافة التركية ، التى كانت فى الأساس جزءاً من الثقافة الإسلامية مطبوعة بطابع السنة بالاضافة إلى التقاليد ، والعادات واللغة العربية ، واصطناع الحروف العربية فى كتاباتهم . بالرغم من اتخاذ الدولة العثمانية « التركية » لغة ، فانها لم تحاول أن تفرض لغتها على البلاد العربية حيث ظلت اللغة العربية سائدة ، وظل الاسلام بوصفه ثقافة عربية يفرض طابعه على بلاد الأناضول والبلقان . بل أن اللغة التركية تأثرت باللغة العربية القرآنية حتى

وصفت بأن نصفها عربى ، وظهر أثر ذلك فى أسماء الأسر والأفراد وغدت طوابع التقاليد الإسلامية العربية واضحة الأثر فى المجتمع العثمانى وفى أنظمة البيوت ، بل أن المثقفين والكتاب العثمانيين احتفظوا باللغة العربية أساساً ، بعد أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية ، وألفوا بها كثيراً من الكتب وظل القرآن العربى والحديث العربى يتلى ويروى بأداته وحروفه العربية (عزة دووزه) وهناك شبه إجماع بين الباحثين على أن العنصر التركى لم يستطع أن يصبغ العرب والعالم الإسلامى بصبغته بل ، هو أن الذى تحول إلى الصبغة الغالبة : صبغة العربية والسلطان العربى الأدبى بحكم أنه طابع الإسلام أساساً . وقد ورث العثمانيون النظام الإسلامى الاجتماعى والسياسى المستمد من الشريعة الإسلامية ، وطبقوه وجعلوا من المفتى (شيخ الإسلام) وعدد من المفتى والفقهاء ومشايخ الطرق وخطباء المساجد هيئة تتولى الناحيتين القضائية والتعليمية فى أنحاء الدولة ، وكان هذا هو مصدر محافظة العثمانيين على الثروة الفكرية والثقافة الإسلامية التى تتمثل فى الفقه والتوحيد والشريعة والتصوف والفلسفة .

ويصور العلامة حيدر بامات أثر الإسلام فى الأدب التركى فيقول : يبدو عند الكلام عن الآداب التركية أنه من المتعذر تجريدها من المؤثرات العربية ، فما لا جدال فيه أن هذه المؤثرات قامت بعملها خلال الأدب الفارسى على الخصوص ، وأن الأدب الفارسى لم يبلغ أوج كماله إلا بمباشرة الفاتحين العرب ، وبفضل المثل الدينى الأعلى الذى كان العرب حملة لوائه. ويقول فون هامر برجستال : عرف الترك الذين لم يكن عندهم مثل ما عند العرب والفرس من عبقرية شعرية فطرية أن يجمعوا ذخائر ثقافة هاتين الأمتين فبدوا تجاه العرب والفرس من هذه الناحية وغيرها كما بدا الرومان تجاه اليونان وقد ردد الشعراء العثمانيون صدى الشعر الفارسى والعربى » . وقد ظلت اللغة العربية هى اللغة الدينية والعلمية التى تكتب بها الوثائق الدولية وتتم بها المراسلات . أما اللغة الفارسية فهى لغة البلاط ، أما اللغة التركية فكانت لا تستعمل فى غير الاتصال بالشعب . وقد أجمع المؤرخون على اهتمام العثمانيون بالعلوم والآداب العربية الاسلامية وولوع سلاطينهم بها ، وأن السلطان محمد الفاتح فضلا عن أنه أسس جامعتين عظيمين : (وكان خلفاء العثمانيين أسسوا مساجد فاخرة) فإنه عنى بالكتب وأنشأ لها الخزائن وأبقى على نفائسها وأمر بأن يكتب على أبواب المكتبات قول النبى ﷺ : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد أولى اهتماما لكتب اليونان فأمر بنقلها إلى التركية .

كما برع العثمانيون فى التاريخ ، فلم يكونوا رواة فحسب ، بل محللين ، وقد قدموا فى مجاله بحوثاً مستفيضة (مادة وتحليلا) ومن أهم مؤرخيهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ . وكان أوائل السلاطين إلى ذلك أدباء وشعراء ناصروا الادب وأهله، وقدموا للعلماء والأدباء كثيراً من الهدايا والمكافآت

الجزيلة التي أعانت على تقدم العلوم والفنون ، وكان منهم شعراء لهم دواوين مطبوعة ، وقد برز في عصور الدولة العثمانية الأولى مفكرون وعلماء كثيرون ، نقول هذا ونتحفظ في أن العثمانيين لم يتأثروا خطى العرب إلا في أمور الشريعة والفقه وعلوم الدين ولم يظهروا ميلا إلى العربية وخدمتها على النحو الذي أظهره الفرس . وقد حظي في عصور السلاطين أعلام كثيرون بالتكريم للعلم فقد تشبهوا بالخلفاء والسلاطين والملوك السابقين في تقدير العلماء وبناء المدارس ، وقد اتخذ أورخان ابن عثمان من العلماء أهل شوراه وعهد إليهم إدارة المدارس التي فتحها. ومن العلماء اللامعين في حاشيته عربشاه السوري ، أما الفاتح فكان يتكلم خمس لغات وكان ملما بالعلوم والرياضة ، وقد أحيا في القسطنطينية ما وصف بعصرها الذهبي بما أنشأ من المدارس ودار الفنون وكان السلطان سليم الأول شاعراً وله آثار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وقد نقل إلى بلاده المؤلفات العربية واستقدم العلماء والأدباء ، أما السلطان سليمان القانوني فقد كان عالما بالفقه والقانون وهو الذي وضع قوانين الدولة .

الحركة الصوفية

كان للتصوف دوه الحاسم في كلا المرحلتين : مرحلة الغزو الخارجي ، ومرحلة الوحدات الثلاث: (العثمانية ، الصفوفيه ، المغولية) ومنذ القرن السادس (١٢ م) صارت للصوفية منظمة اجتماعية ، احتضنت عدداً ضخما من أفراد المجتمع ، وكانت في مصادرها الأولى تتمثل في مجموعة المرابطين في في الثغور ، والمتطوعين للجهاد وقتال العدو المغير على السواحل ، والعاملين على نشر الإسلام في الأطراف البعيدة ، غير أن حركة التصوف لم تلبث أن ركدت وتحولت من ناحية إلى جماعات من الدراويش المقيمين في الخانقاه والتكايا ، وغزا فكرها خليط من التصورات الفلسفية الهندية والمجوسية والبوذية واليونانية القديمة في مسائل الحلول ووحدة الوجود فانحرفت عن مفهوم الزهادة الإسلامي السمح ، ومن هنا كانت معارضة ابن تيمية لها وحملته عليها ، واعتباره الحجيج الأضرحة والتماس العون من قبور الأولياء « وثنية » تخرج عن مفهوم الإسلام البسيط السمح الذي يفتح الطريق بين الإنسان وربه دون وساطة أو شفاعة . غير أن دعوة ابن تيمية إلى التوحيد الخالص (٧٢٩ هـ) ومحاربة مختلف الفرق كالصوفية والفلاسفة والمتكلمين إنما كانت تهدف إلى تصحيح مفهوم الإسلام في شموله وتكامله ووسطيته ، هذه الدعوة لم تحل دون امتداد التصوف وانسحابه طوال العصر العثماني حتى تجددت الدعوة إلى التوحيد الخالص في أبان يقظة الأمة العربية كقوة جديدة من قوى البعث الإسلامي ، وكموجة جديدة هي عنوان على « مرحلة اليقظة العربية الإسلامية » بعد أن ضعفت « الوحدة الإسلامية العثمانية » عن حمل لواء الإسلام كقوة متطورة دافعة لتاريخ الاسلام إلى

حتميته . وكان جلال الدين الرومى قد ظهر فى الأناضول (توفى ٦٨٨م) وعرف بأنه أعظم شعراء الصوفية وله كتاب « المثنوى » بالفارسية وهى منظومة صوفية فى نحو ٣٠ ألف بيت . قال المؤرخون أنها موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقا إلى شاطىء البحر الأبيض غربا وأنها مرجع لكل من أراد إلماماً بقصائد الصوفية . وقد كان للمثنوى أبعد الأثر فى الشعر التركى . وقد نشر جلال الرومى طريقة الصوفية فى الأناضول قبيل ظهور الدولة العثمانية فانتشرت طريقته المعروفة بالمولوية . وفى أوائل العصر العثمانى ظهرت « الطريقة النقشبندية » وعمت أنحاء الدولة العثمانية ثم توسعت الطرق الصوفية من بعد : (أوروخان — الطريقة السعدية) . وقد تأثر الأدب العثمانى بالتصوف تأثراً كبيراً . ويرى حيدر بامات أن التصوف كان من العوامل التى ساعدت على نشوء الأدب التركى وأن هذه المبادىء الصوفية جاءت من آسيا الوسطى ، وقد كانت الأناضول مستعدة استعداداً خاصاً — بعد أن اجتاحتها الغارات المغولية الأولى — لتقبل مواعظ الدراويش الذين أدخلوا إلى الأناضول أشعار أحمد يسرى التركية فانتشر نفوذ هذا التصوف الخراسانى فى جميع آسيا الوسطى وفى أزربيجان حتى سهل الفولجا وكان متصوفة الأناضول يكتبون باللغة الفارسية فيعانون نفوذ التصوف العربى الفارسى الذى ظل جلال الدين الرومى عنوانه الأعلى . وقد تأثر العثمانيون بالتصوف والسنة معا ، ويرى الباحثون أن أشده الترك واندفاعهم إلى العمل تحت راية الإسلام والجهاد كان نتيجة مفهومهم لعقيدة السنة والتصوف ممتزجين ، وأن هذا يختلف عن مفهوم الفرس الذى يتسم بطابع الاجتهاد والعقلانية والفلسفة ، وقد كان عبد القادر الجيلانى (٥٦١ هـ) أكبر دعاة الصوفية الذين حملوا لواء الدعوة إلى إخضاع الطريقة للشريعة والتمسك بالكتاب والسنة ، فقد عارض بقوة دعوى القائلين بانفصال الشريعة عن الحقيقة ودعوى أن الوصول إلى الحقيقة يسقط الفرائض والتكاليف الشرعية والفلسفة ، وقد وكان ذلك التصحيح لمفهوم الإسلام سببا فى دخول عدد كبير من غير المسلمين فى الإسلام وتصحيح عقائد عدد هائل من المسلمين غير أن التصوف الإسلامى لم يلبث أن انحرف مرة أخرى بتأثير تراث التصوف الفارسى القديم من الاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

(٢)

يتسم هذا العصر فى مجال الفكر والثقافة بمظاهر هامة : الأولى : نمو البحث العلمى الإسلامى فى مجال الفلك والعلوم الطبيعية ، فقد هاجر إلى المشرق كثير من علماء المغرب والأندلس الذين كانت جامعاتهم وأبحاثهم العلمية قد التهمها الغرب حين أضاف مدنهم الحافلة بمعامل الأبحاث

والدراسات إلى نفوذه ، كما حدث في طليطلة وبالنسبة وقرطبة ، وقد اتسمت مرحلة الغزو الخارجي بالتحاق كثير من علماء الأندلس والمغرب بحواضر مصر والشام وفى هذه المرحلة استمر هذا التدفق . الثانية : كما ظهر فى مرحلة الغزو والمقاومة (٤٩٨—٦٩٨) مجموعة من أعلام الفكر الإسلامى فى مجال العلوم الطبيعية لا تقل قدراً عن مرحلة التبلور والانصهار (١٣٢ — ٤٩٨) أمثال القزوينى وابن منظور وابن طفيل وابن رشد ، فإن مرحلة الوحدة الاسلامية (٦٩٩ — ١١٥٣) قد حفلت بأعلام لهم دور كبير فى بناء الفكر الاسلامى وتطويره ، لعل من أبرزهم ابن تيمية ٧٢٨ وابن القيم ٧٥١ وابن خلدون ٨٠٨ ، وابن نباتة ٧٦٨ وابن بطوطة ٧٧٩ والقلقشندى ٨٢١ والمقريزى ٨٤٥ والشاطبي والبلقيني ، والسيوطى ، وقد اتصل تطور العلم فى مجال الطب والطبيعيات فقد كان من ألمع أطباء هذه الحقبة: ابن النفيس :مكتشف الدورة الدموية. الثالثة: ظلت معاهد وجامعات الفكر الاسلامى تقوم بدورها: الزيتونة والاموى ومدارس النجف والازهر ، ومن خلال هذه المعاهد انبعثت اليقظة مرة أخرى ، وظلت هذه الجامعات منارات للثقافة العربية الاسلامية ومرجعاً الدولة العثمانية فى شؤون الفقه واللغة العربيـــة ، وفى الازهر تعلم أكابر العلماء العثمانيين : شمس الدين الفنارى ، ويعقوب بن إدريس ، ومحى الدين الـكافيه جى والمولى أحمد بن إسماعيل الـكورانى وعديد من أعلام الثقافة الاسلامية من الاتراك ، وكان للأزهر إلى ذلك هيبته واحترامه . وفى هذه المعاقل تحصنت اللغـــة العربية والتراث الاسلامى وغالبت لغة العثمانيين ، وفى خلال القرن التاسع الهجرى حفل الازهر بأعلام فى مقدمتهم : ابن حجر العسقلانى ٨٥٢ القلقشندى ٨٢١ المقريزى ٨٤٥ ابن تغرى بردى ٨٧٤ بدر الدين العينى ٨٥٥ سراج الدين البلقينى ٨٦٨ وشمس الدين السخاوى ٩٠٢ وجلال الدين السيوطى ٩١١ وفى خلال القرنين العاشر والحادى عشر أبرز الازهر عدداً من العلماء أمثـــال : ابن الحق السنباطى والشيشينى والمناوى والصفدى والشوبرى والشبراملى والزرقانى والبرماوى وحسن الجبرتى (والد الجبرتى) والشرنلالى (راجع : الـكواكب السائرة فى أعلام المائة العاشرة) . وظل الازهر كـذلك مقصداً أكابر العلماء الوافدين إلى مصر من أنحاء عالم الاسلام وممن قدم إليه خلال القرن الحادى عشر علامة المغرب : شهاب الدين المقرى ١٠٢٧ وتوفى بها ، وكتب المقرى فى مصر : نفح الطيب وإزهار الرياحين . وظلت حلقات الازهر خلال هذه المرحلة غاصة بالعلماء والطلاب ، وبلغ طلابه فى هذه الفترة نحو ألف طالب ، وفى فاتحة القرن الثانى عشر وفد على القاهرة عبد الغنى النابلسى وكتب يقول : دخلنا الجامع الازهر المعمور بالعلماء والصلحاء وقراءة القرآن ودرس العلم ليلا ونهاراً ، كما قدم إلى مصر فى هذه الفترة مرتضى الزبيدى شارح القاموس والعلامة المغربى

أبو عبد الله المربى . رابعاً : بدأت فى هذه المرحلة إرهاصات اليقظة فالوزير العثمانى أحمد باكور والى مصر ١١٦٢ هـ ١٧٤٨ م كان من هواة العلوم الرياضية ، وقد قابل علماء الأزهر وفى مقدمتهم عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر وسألهم عن العلوم الرياضية فاعتذروا بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً ، ونعى الوزير هذا النقص من علماء مصر ، وقد نال الشيخ حسن الجبرتى والد الجبرتى المؤرخ حظوه عند الوزير لبراعته في العلوم الهندسه والرياضيه ، وقام الوزير بتصميم عدة مزاول لبيان الوقت وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر وقد ظلت قائمة به إلى عصر الجبرتى .

خامساً : دارت فى هذه المرحلة مساجلات فكرية ضخمة : فقد أثارت أراء ابن حجر والقلقشندى والمقريزى ، فى صحن الأزهر مناقشات ، وقدم ابن خلدون نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول . وتلقاها عنه تلميذه المقريزى الذى تأثر بها فى موسوعة [إغاثة الأمة لكشف الغمة] ودارت بين البقاعى والسيوطى ، وبين البقاعى والسخاوى وبين السيوطى والسخاوى معارك أدبية وفكرية فى اللغة والأدب ، وجرى فى صحن الأزهر مراجعات تحفل بها موسوعة السخاوى : [الضوء اللامع فى أعيان القرن الرابع] وكان موقف العثمانيين من الثقافة بوجه عام موقف يتسق مع طابعهم العسكرى الحربى فقد كان الحكام الأول قريبون من اللغة العربية والثقافة الإسلامية ثم توسع نطاق الثقافة التركية القائمة على اللغتين الفارسية والتركية وضعف أمر الثقافة العربية الإسلامية ، ويمكن القول بأن ثقافات ثلاث شملت عالم الإسلام مرتبطة باللغات الثلاث الكبرى :

— الثقافة الفارسية الإسلامية فى فارس والهند . — الثقافة التركية الإسلامية فى آسيا الصغرى — الثقافة العربية الإسلامية فى الوحدات العربية . هذه هى الظاهرة الأولى : أما الظاهرة الثانية فهى سيطرة الأدب الصوفى فى العالم الإسلامى كله ، ولقد كان للثقافتين الفارسية والتركية أثرها فى توسيع نطاق هذا الأدب العاطفى وتأثر الأدب العربى به نتيجة لاتصال مضمونة بالاسلام نفسه . ومن ثم ضعفت فى هذه المرحلة وتقلصت الدراسات العقلية فى مجال الفقه والفلسفة والتوحيد . ويمكن أن يقال : أن العالم الإسلامى قد انحاز إلى الطوابع الروحية والوجدانية التى تتمثل فى الصوفية المغرقة فى الجبرية والإستسلام ، وقد كان لهذه الظاهرة المنحرفة عن وسطية الإسلام أثرها البعيد المدى لمدة قرون من بعد :

الظاهرة الأولى : تقوم الثقافة التركية الإسلامية على عناصر ثلاث : (١) الثقافة الفارسية وقد ظلت هى لغة البلاط العثمانى . (٢) والثقافة العربية وهى ثقافة الفقه والشريعة والدين والعلوم . وكانت العربية فى أول الأمر لغة الدولة فى مراسلاتها ، ثم تكونت من العنصرين معاً : « الثقافة

التركية » التي كتبت باللغة التركية وكانت في أول الأمر لا تستعمل في غير المجالات الشعبية ، فقد تأثر الترك بآثار الثقافتين الفارسية والعربية . أما الثقافة الفارسية فقد غلب عليها الشعر الصوفي ، أما الثقافة العربية فقد غلب عليها الفكر الإسلامي لعلومه ودراساته المختلفة . ولما كانت اللغتان الفارسية والتركية متقاربتان ، فقد غلب طابع الثقافة الفارسية المتمثل في اللغة التركية واصبحت لغة الدولة والثقافة معا ، ولما كانت الثقافة التركية فارسية الطابع وليست عربية ، فقد برز دور الأزهر والزيتونة والنجف والقرويين في حماية اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية : وتبدو هنا ملاحظات هامه :

(١) إن جذور الثقافتين الفارسية والتركية قائمة أصلا على « المثل الإسلامي الأعلى » . (٢) إن غلب التشيع على الفرس وغلب السنه على الترك لم يعصمهما من التأثر بالتصوف ، الذي ساد الثقافات الإسلامية الثلاث بدرجات متفاوتة ، ومع ذلك فقد ظلت الثقافة العربية محتفظة بطابعها ومقوماتها الأساسية القائمة على تزكيه النفس والتوحيد معاً ، على المزج بين الفقه والتصوف . وإن غلب طابع التصوف على الفقهاء . ويرجع ذلك إلى جامعي الأزهر والزيتونة الذين حفظا : الفكر الإسلامي واللغة العربية في وقت معا . الظاهرة الثانية : ارتباط ظاهرة اتساع الحركة الصوفية بالحروب الصليبية والغارات المغولية ففي خلال القرنين — خلال معركة الغزو الخارجي والمقاومة — وتمثل التصوف في الجهاد والمقاومة ، فقد كان عمق الايمان بالإسلام هو الدافع الأكبر لتحرر المجموعات الضخمة من المسلمين من مطامع الحياة واندماجها في القوى العاملة للحرب والمقاومة والقتال ، وكان ذلك يفرض على هؤلاء المجاهدين نظما اجتماعية قوامها المرابطة في الثغور والاكتفاء بالقليل من الزاد والالتجاء إلى الله فلم يكن الزهد أو التصوف في هذه المرحلة إلا سلاحاً ضخماً من أسلحة المعركة ، التي عزف عنها الطامعون في الحياة ، الغارقون في ترفها ومتعها ، بينما أقبل عليها رغبة في الدفاع عن أرض الإسلام وكيان المسلمين ، أولئك الذين كانت نفوسهم قد ارتبطت بمنابعه صيحة الدعاة والمرشدين وصغرت في عيونهم رغبات الحياة ومطامعها ، وقد شملت هذه الظاهرة عالم أفق عالم الإسلام كله ، ففي المغرب وعلى سواحله كانت عمليات الغزو التي يشنها الفرنجة لا تتوقف ، وفي المشرق كانت حملات الصليبيين وإمداداتهم لا تتوقف ، وغزوات التتار الجامحة المندفعة كانت تباغت عالم الاسلام ،عواصمه ، ومن ثم عاش المسلمون في مختلف هذه المناطق حياة ذات طابع غريب ، هو طابع المقاومة ياط ، وهو طابع عاشت عليه أجيال متوالية ، لم تتردد عن أن تهب نفسها للمعركة ، دون أن تولي اهتمامها لأمر من أمور الدنيا ، فلما توقفت الحروب الصليبية وغـزوات التتار ، كانت تلك

الظاهرة التى استمرت حوالى مائتى سنة قد تركت آثارها فى المجتمع والفكر ، وخلفت آثاراً بعيدة المدى قوامها ذلك الطابع الجبرى من التسليم والرضا بالظلم ونشأ ذلك التصور البعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام وهو : تقبل ذلك كله والاستسلام له بوصفه قدراً من عند الله لا يرد ، وكان هذا هو البعيد المدى الذى أنتجه الانفصال عن مفهوم الإسلام فى الجهاد وفى الحياة وفى الزهد جميعا ، ولقد كان هذا المفهوم الجبرى دخيلا على الإسلام وليس مستمداً من مقوماته أو مفاهيمه الأساسية ، وإنما جاء من فلسفات ومذاهب قديمة عاشت طويلا فى تلك البيئات ولما تنصهر انصهاراً كاملا فى الفكر الإسلامى ، ثم استطاع الغزو الأجنبي أن يثيرها ويجددها ليجعلها عاملا من عوامل التثبيط والاستسلام والاذعان لنفوذه وسلطانه . ثم استغلها بعض الحكام والأمراء والولاه فى خلال « مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانيه » التى كان « التصوف » الجبرى طابعها الاغلب ، وإن كان الامر لم يخل مطلقا من قيام دعاة يفهمون الاسلام فهما سليما يدعون إلى التحرر والتصوف ويدعون إلى ارتباطه بالشريعة وإلى تخليصه من النزعات الفارسية والهندية واليونانية القديمة التى أضافت إليه نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وإذا كان « التصوف » قد كان بعيد الأثر فى مرحلتى الغزو الخارجى ومرحلة الوحدة العربية الاسلامية وما بعدها فى نشر الاسلام وتوسيع آفاقه ذاتيـــا وكسب أرض جديدة للتوحيد ، فإنه قد أضعف الجانب العقلى فى الاسلام ، وأصاب المجتمع الاسلامى بعوامل الركود والضعف والاستسلام والقدرية باسم « الجبرية » التى لم تسلم منها المفاهيم الصوفية جميعا فى هذه المرحلة ، وكان من آثار الموجة الصوفية العاتية اتساع نطاق الزوايا والتكايا ، وكثرة الداعين إلى رفض الدنيا ، ومن قلب الدولة العثمانية التى كانت تقود المعارك وتقاتل وتحارب ، ظهرت هذه الدعوة وتعمقت وكان لها أثرها البعيد فى مرحلة الضعف والتخلف ويرى كثير من الباحثين أن « المفاهيم الصوفية » قد تأثرت كثيراً بالفلسفات اليونانية والمجوسية الفارسية القديمة . ولم يلبث رجال الصوفية أن سيطرو على المقدرات السياسية فى الدولة العثمانية وازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية عندما بالغ الحكام فى الخضوع لهم ، وكان موقف العلماء بالنسبة لذلك يتمثل فى محاولات إصلاح الصوفية وردها عن انحرافها والانكار عليها ومن الذين أنكروا على الصوفية محمد صفى الدين الحنفى وكلهم تابعوا تقى الدين بن تيمية وابن حجر العسقلانى ، كما شكا العلماء من انتشار الجهل، ويمكن القول بأن الصوفية كانوا يمثلون معسكرين منفصلين : الصوفية المجاهدون الذين عزفوا عن السلطان وهاموا فى الارض يدعون إلى الله والذين أسلم على أيديهم كثير من الامراء والحكام، والصوفية التقليديون الذين اتصلوا بالولاة فاتخذ منهم الاخيرون وسيلة لتثبيت ملكهم . ولم يكن الانحراف فى مفهوم الصوفية إلا جزءاً من الانحراف الذى أثارته الباطنية والشعوبيه وخصوم

الإسلام وأصحاب دعوات الهدم والتدمير ، وكانت كل جهود هذه الدعوات تهدف إلى الانحراف بالاسلام عن مفاهيمه الأصيلة ، الاستغناء بالجزء عن الكل ، بينما يتمثل الاسلام فى مفهومه الحقيقى . فى خاصية الشمول والتكامل والوسطية ، قلبا وعقلا ، فقها وتصوفا ، روحا ومادة ، كان أبرز العوامل الهدامة فى دعوة بعض الصوفية « طابع الجبرية والاستسلام للمقادير وغلبة النزعات الوجدانية والروحية » واعتباره الوسيلة الوحيدة لفهم الإسلام وكذلك فى رفع مقام الولى إلى مقام النبي أو مافوقه وقد حمل الشعرانى (٩٧٣ ﻫ) على المتصوفة فى عصره — وهو من أئمة الصوفية — فقد رأى أن معظم دجالون ، يحتالون على أموال الناس ، وحذر المجتمع من حيلهم ودجلهم وأورد صوراً وقصصاً تمثل فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا ووقوفهم بابواب الحكام ، غير أن كثيراً من أعلام الصوفية ، كأبى الحسن الأشعرى ، والشعرانى ، وأحمد البدوى قد حملوا السلاح فى معارك مقاومة الغزو الخارجى ولا شك كان التصوف رد فعل خطير فى مواجهة التحلل والانحراف والترف الذى غمر المجتمع الاسلامى فى هذه المرحلة ، وفى مواجهة طغيان الحكام والولاة والامراء .

(٣١)

اليقظة العربية الاسلامية

« جرى تاريخ الإسلام على سنة الانبعاث من الداخل وأقر فى مختلف مراحل حركته الطاقات قانوناً ثابتاً لا يتحول ، هو تفجر الطاقات الجديدة من قلب الطاقات القديمة وبناء الخلايا الشابة بمجرد عجز الخلايا العاملة عن الحركة . وقد أتاح الإسلام بقيمة القادرة على الحياة والحركة والنماء لتاريخ الاسلام : هذه الخاصية من النماء والتحول موجة بعد موجة من خلال دورة كاملة ، ومن هنا فقد كان ضعف الدولة العثمانية الأسلامية عن حمل أمانة الإسلام ، إيذاناً ببروز قوة جديدة تحمل هذه الأمانة ، هذه القوة هى الأمة العربية التى انبعثت من أعماقها الدعوة الإسلامية الأولى فحملتها إلى آفاق العالم وكانت لغتها هى لغة القرآن ، فالقوة العربية تعود مرة أخرى بعد أن تخلت طويلا عن مكان القيادة — إلى حمل أمانة الإسلام من جديد تدعو إلى تحريره من التقليد والجبرية وترد إليه روح الاجتهاد والتجدد وتحمل لواءه . »

فى أواخر القرن السابع الهجرى ، كانت الحركة الصليبية فى المشرق قد بلغت غاية الضعف فلم

تلبث أن طوت أعلامها وأنسحبت من عالم الإسلام مهزومة بعد قرنين كاملين من الصراع . هنالك كانت موجة جديدة من موجات الإسلام تتأهب لتأخذ مكانها على مسرح الأحداث وتلعب دورها التاريخي كحلقة متتابعة متصلة من حلقات تاريخ الإسلام . وقد بدأت هذه القوة بالفعل تأخذ مكانها في آسيا الصغرى منذ (٦٩٩ هـ ١٣٠٠ م) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوربا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الإسلامية العثمانية (٩١٥ هـ ١٥١٧ م) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوربا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الإسلامية العثمانية (٩١٥ هـ ١٥١٧ م) في نفس الوقت الذي كانت الدولة الصفوية في فارس والمغولية في الهند تغطي عالم الاسلام في مجال البناء السياسي .

وكانت « الوحدة الاسلاميه العثمانية » هي أقوى الوحدات الاسلامية الثلاث وأوسعها نطاقاً فقد شملت العالم العربي كله بالاضافة إلى الدولة العثمانية وإلى امتدادها في أوربا وقد امتدت هذه الوحدة قوية مهيبة ضخمة خلال أربعة قرون كاملة ، غير أنها لم تلبث أن واجهت نقطة التنازل والضعف في القرن الحادي عشر فخلاله وخلال القرن الثاني عشر كانت الوحدة الاسلامية العثمانية تتحول من معارك الهجوم إلى معارك الدفاع ، وكانت أوربا التي واجهت التوسع الاسلامي العثماني خلال القرون الأربعة قد أخذت تتقدم علميا في مجال الحرب والصناعة ، حين توقفت الدولة العثمانية عن تطوير صناعتها الحربية وأساليبها في مجال المقاومة والدفاع ، ومن ثم بدأت هزائم الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي بدأت هذه الوحدة تتزعزع ، وأخذت عوامل الضعف والاضطراب تؤثر في كيان المجتمع ، وتوسع شقة الخلاف بين العناصر والقوى والأحداث ، وحين أخذت الصوفية تجرف الفكر الإسلامي وتنحرف به ، وتسيطر عليه وكأنها وحدها مفهوم الإسلام ، بينما إنطوت تحت سيطرتها وضعفت مفاهيم الإسلام الأساسية من التوحيد والعدل والحرية والقوة واليقظة والرباط الحربي ، وحين بلغت الصوفية سيطرتها على المجتمع ووسمته بطابع التواكل والضعف والاستسلام الحقيقي : الجامع بين العقل والقلب والعلم والروح ، والدنيا والآخرة ، وإختفى طابعه الإيجابي التقدمي : طابع الشمول والتكامل والوسطية .

فإذا ما بلغت مفاهيم الأسلام هذا الانحراف ، كان لا بد أن تبرز قوة جديدة لتعيد صياغة مفهوم الإسلام من جديد ، وتصحح المفاهيم ، وتكشف عن جوهره الذي اختفى تحت تضاعيف الانحرافات المسيطرة . شأنها في ذلك شأن الأسلام في مختلف مراحله ، وطوال تاريخه .

ومن هنا كانت « موجة اليقظة الاسلامية العربية » ، منبعثة من القوة الأصلية الأولى التى بلغت مفهوم الإسلام عن النبي أول مرة فى جزيرة العرب ، وحملته إلى العالم كله وظلت تحمل لواءه فى مجالى الفكر والسياسة خلال قرون متصلة ، تلك القوة هى « الأمة العربية » . فقد بدأت من قلب الأمة العربية أول دعوة إلى تحرير الاسلام من الزيوف والبدع والاضافات المنحرفة التى عاصرت هذه المرحلة الطويلة ، وكانت عاملا من عوامل الضعف والتخلف ، وامتد أثره من بعد ، حين انهارت الوحدة العثمانية الاسلامية وضعفت قيادتها ممثلة فى الدولة العثمانية ، وكان الغرب قد أعد مخططه فى السيطرة على مختلف وحـــدات الدولة العثمانية بعد انتزاعها منها ، وبذلك وعن طريق هذا الانحراف فى مفهوم الإسلام ، أنهارت الدولة العثمانية ككل . وسيطر الاستعمار على هذه الوحدات العربية .

غير أن صوت « الدعوة إلى تحرير الإسلام » من الانحرافات قد كان عاملا أساسيا فى اليقظة الاسلامية الجديدة التى كانت قيادتها مرة أخرى للأمة العربية ، التى بدأ كيانها يبرز كقوة منفصله عن الدولة العثمانية ، بعد أن مرت حركة المقـــاومة بمرحلة طويلة من العمل تحت لواء « الجامعة الاسلامية » : هذه الجامعة التى كانت تمثل مواجهة الكيان العربى العثمانى موحداً لحركة الاستعمار ، ثم كان لا بد من انتقال إلى مرحلة جديدة من المقاومة باسم الوحدة العربية وحدها ، بعد أن وقع الصراع بين العثمانيين والعرب حين حمل قادة العثمانيين لواء الدعوة إلى الجامعة الطورانية أو القومية التركية . وفى نفس الوقت الذى كان دور الترك بالنسبة لقيادة عالم الإسلام ينتهى ، كان دور العرب يتألق ويقوى ، فقد حملت الأمة العربية مرة أخرى لواء هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى كقوة قيادية موجهة ، حملت لواء اليقظة ، هذه اليقظة التى انبعثت من تصحيح مفهوم الإسلام « التوحيد » بينما كان انهيار القوة العثمانية يقظة للاستعمار الذى حل محلها فى كل مكان، بدأت حركة اليقظة الإسلامية ، وقد أطلق عليها حركة الاصلاح الإسلامى ، من قلب الإمة العربية وتمثلت فى دعوات متناثرة فى إجراء العالم الإسلامى فى وقت واحد ومتوالية من بعد على فترات . بدأت الحركة الأولى والكبرى والأم (عام ١١٥٣هـ — ١٧٤٠ م) فى منتصف القرن الثانى عشر ومازالت مستمرة إلى اليوم خلال أكثر من قرنين كاملين (أو ما يقرب من ٢٢٧ سنة) وكانت الأمه العربيه هى « بؤرة الحركه » وإن كان قد امتد أثرها إلى الهند وأندونيسيا وأفريقيا .

وقد صحح العرب مفاهيم الاسلام فى دقة ، وكان أبرز ماركزوا عليه ، شجب المفهوم القائل بأن الصوفية وحدها هى الإسلام أو أن القلب وحده هو طريق المعرفة ، وكانت دعوة اليقظة العربية

الجديدة تقول بأن العقل والقلب هما مصدر المعرفة وأن الإسلام فى تكامله وشموله ووسيطته يجمعهما ويمزج بينهما وبذلك التقى الغزالى وابن تيمية فى نفوس هؤلاء الدعاة والتقى التصوف والاعتزال وقامت « السنة » من جديد وفق هذا المفهوم تفسر اتصال الاسلام بالحياة والحضارة وتكشف عن جوهره وحيويته وقدرته على الحركة والعمل فى كل عصر وبيئة . وحين بدأت الوحدة العربية استلهمت قاعدتها الأساسية من وحدة الفكر العربى الاسلامى الذى يتمثل فيه فكر مختلف العناصر التى تعيش فى العالم العربى ، هذه الوحدة التى كانت تحمل مفهوما واضحا هو أنه إذ ذل العرب ذل الاسلام وأن يقظة الاسلام لابد أن تنبعث أساساً من الأمة العربية التى تأهلت لحل لواء الإسلام منذ أربعة عشر قرنا والتى تحمل لواء اللغة العربية : لغة القرآن .وكما كشفت هذه المرحلة عن جوهر الإسلام قويا إيجابيا قادراً على الحياة فقد كشفت عن اصالة العالم الاسلامى فى مواجهة الغزو الاستعمارى الحديث فى مرحلة عنيفة ممتدة حاول فيها الغرب السيطرة على هذه الوحدات المختلفه ، بدأت هذه الحركة بتطويق العالم الاسلامى من خلال حملات الكشف والملاحة ، التى بدأها البرتغاليون والأسبانيون كرد فعل انتقامى لشوآطىء المغرب وأفريقيا ، وكحركة تطويق لعالم الاسلام ، اتصلت بسقوط الأندلس ، اتصال معركة الحروب الصليبية فى المشرق بمعركة الحروب الصليبية بالمغرب . وقد واجه العالم الاسلامى الاستعمار الغربى : هولندة فى أندونيسيا وانجلترا فى الهند وفرنسا وانجلترا فى العالم العربى فى معركة مقاومة مستمرة ، كما واجه المسلمون معركة تصفية خطيرة فى التركستان وما وراء النهر من الروس .كما صمدوا أمام مواجهة ضخمة فى الهند والصين ، وكان أخطر ما واجه الاسلام سيطرة الصهيونية العالمية على فلسطين .

(٢)

بدأت علامات اليقظة العربية الإسلامية فى إوائل القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) كان العلماء فى الأزهر أول ضوء فى هذه اليقظة، فقد أخذ العلماء يواجهون الأمراء والحكام ويجبهونهم بالمظالم ، ويأخذون عليهم المواثيق ، هذه الظاهرة تعطى أول دلاله على « أصالة » مفهوم الإسلام فى مواجهة معضلات المجتمع ، فقد كشف العلماء فى هذه الفترة عن إيجابية الإسلام فى مواجهة الأمراء المستبدين ، وكانت آراء « ابن تيمية » فى تحرير مفهوم الاسلام ، والدعوة إلى التوحيد ، وما أفاض العلماء فى الكشف عن نصوص الشريعة ، من حق الأفراد ، وواجبات الحكام ، ومن هنا بدأ « علماء الإسلام » يأخذون مكان الصدارة بعد أن ظلت هذه الصدارة فترة طويلة « للصوفية » .

الذين كانوا موضع تقدير الحكام وتقدير الاستعمار من بعد لمفاهيمهم المنحرفة التى تفرض على الناس التسليم بالواقع ، وقبول الجبرية فى سلطة الحاكم ويسجل الجبرتى أن عام ١١١٤ هـ — ١٧٠٢ م شهد موقفاً باكراً من هذه المواقف عندما أصيب أهل الأسواق ، نتيجة لظلم الأمراء ، فالتجئوا إلى الجامع الأزهر « وشكوا أمرهم إلى العلماء وألزموهم بالركوب معهم إلى الديوان » وقد بلغ ذلك الأمر من القوة غايته حين ألزم العلماء الأمراء بالتوقيع على ميثاق (١٢١٠ — ١٧٩٥ م) الذى يعد وثيقة محددة لمفهوم الإسلام فى إلزام الحكام بمنع فرض أى ضريبة على الأهالى إلا بعد استشارتهم ويروى الجبرتى أنه عندما حكمت المحكمة على أحد الأمراء بالإذعان ، فرفض ، هنالك هب العلماء لنصرة الحق ، أرسل الأمراء له وحملوه على الأذعان ، ولم يترك العلماء الأمير بغير حق مسجل فكتب لهم صلح رسمى به شروط على الأمراء وتعهد من الحكام بالتزام مايقضى به القانون ومن هذه النقطة ، نقطة تجدد نفوذ العلماء وارتفاع صوتهم ، بدأ عامل جديد مضاد لعامل الجبرية الذى فرضه الصوفية والذى كان يعطى للحكام حق إذلال الرعية والسيطرة عليها باسم الاسلام، لقد وقف العلماء مع الشعب فى نضاله ضد الأمراء الطغاة كمقدمة للحد من استبداد الولاة وهكذا كان العلماء فى هذه المرحلة على رأس الثورات الشعبية التى قام بها الشعب على الأمراء الظالمين، وكان مراد وابراهيم طاغيتين متجبرين حيث كانت مجموعات الشعب تقصد إلى الأزهر فيتقدمهم العلماء، وفى مقدمة من شاركوا فى ذلك أعلام أجلاء هم الدرديرى ، والعروسى ، والشرقاوى ، وكان لعمر مكرم دور كبير من بعد ، قال الجبرتى عن الشيخ الدرديرى : فركب بنفسه وتبعه جماعة من العامة حتى التقى بالأمير فكلمه ، ووبخه وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم ماتخافون الله ، كما التجأ الناس إلى الشيخ العروسى بعد وفاة الدردير يلتمسون عنده الحماية من الظلم .

وقد عزل الوالى وولى غيره ، قال الجبرتى ، ونزل الوالى الجديد من الديوان إلى الأزهر وقابل المشايخ واسترضاهم ، كما التجأ الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوى لمخاطبة مراد وابراهيم ، فلما كلمهم ولم يجد أثراً لمسعاه ، دعا إلى الثورة ، فاجتمع له أهل القاهرة وأهل الأطراف ، هنالك « التزم الأمراء بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح » وكان القاضى حاضراً ، فكتب صحيفة بذلك ، وفى خلال الحملة الفرنسية كان موقف عمر مكرم والعلماء مشرفا ، وقد بلغ عمر مكرم القمة فى ذلك حين خاطب خورشيد الحاكم التركى الذى رفض أن يستجيب لرغبة الشعب بعزله ، قال عمر مكرم : « أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، وأن للشعوب طبقاً لما جرى به المسلمون قديما ولما تقضى به أحكام الشريعة

الإسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وضاروا بالظلم ، لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة ، فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أنى لا أكتفى بذكر ماجرت عليه عادة البلاد من قديم ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزلة وخلعه وقد صدر « عمر مكرم » فى هذا عن فهم مفهوم عميق الاسلام والشريعة الإسلامية ، — ولم يصدر كما ردد بعض المؤرخين عن فهم لآراء الفرنسيين — والواقع أن علماء المسلمين كانوا دائماً ينصحون الحاكم ويواجهونه إذا سار فى الرعية سيرة الظلم ، وكان عمر مكرم امتداداً لمفهوم العلماء الذين سبقوه منذ أوائل القرن الثانى عشر ، ودلالة على أن الإسلام قد أخذ يكشف عنه تلك القشرة التى حجبت جوهرة خلال استشراء مفهوم الجبرية الصوفية . والحق أن صوت الإمام محمد عبد الوهاب كان قد ارتفع منذ (١١٥٣ — ١٧٤٠ م) بالدعوة إلى التوحيد ومواجهة الاستبداد السياسى وظلم السلاطين والملوك ، ولم تكن دعوته إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح المفاهيم وإعادتها إلى نقائها إلا تحرراً من الخضوع لغير الله ، وقد كانت تنطوى فى أعماقها على مفهوم سياسى واسع يرمى إلى مقاومة الظلم ونفوذ الأمراء المستبدين . وقدت سايرت ذلك فى نفس الفترة حركات سياسية ، يمكن أن توصف بأنها حركات إقليمية تدعو إلى تحرر بعض الوحدات واستقلالها عن الدولة العثمانية ، مثال ذلك حركات :

على بك الكبير فى مصر ، الأمير فخر الدين المعنى فى لبنان ، وظاهر العمر فى سوريا ، وداود باشا فى العراق. ولاشك يمثل القرن الثانى عشر مرحلة دقيقة فى حياة الإسلام وتاريخ العالم الإسلامى والأمة العربية والدولة العثمانية ، هى فى جوهرها رد فعل واضح للتحدى الخطير الذى واجهه الإسلام نتيجة لضعف الدولة العثمانية وغلبة عوامل التفكك فى عالم الإسلام ، ومن أبرز مظاهر هذا التحول الجديد مايتصل بالمواقف التى حاولها نادر شاه فى إيران ، والسلطان محمود فى الدولة العثمانية من أجل مواجهة حالة الضعف والتفكك .

وكان نادر شاه الذى ولى عرش إيران ١٧٢١ م قد تنبه إلى أن ضعف المسلمين يرجع فى جوهره إلى الانقسام بين السنة والشيعة ، وأن الاختلافات المذهبية هى العامل الاول لهذا التمزق الذى مكن الاستعمار الأوربى من فرض نفوذه ، ومن هنا حاول تأكيد الالتقاء بين إيران الشيعية والدولة العثمانية السلبية فى محاولة لتوحيد السنة والشيعة على أسس مستمدة من جوهر الإسلام وفى نفس

الوقت اتجه السلطان محمود فى تركيا يحمل لواء هذه الدعوة، وكان من أهم ماقام به فى هذا السبيل : القضاء على قوة الانكشارية ، تلك القوة العسكرية التى ظلت تركيا تعتمد عليها جيلا بعد جيل ،وقد أصابها فى هذه المرحلة الانحلال والتمزق والضعف نتيجة لتسرب مذاهب تحمل اسم التصوف وتنحرف به عن مفهوم الإسلام . وكان قد تكشف بوضوح مدى الخطر الذى أصاب الروح المعنوية للانكشارية بعد أن انحرفت عن مفاهيم الاسلام الأساسية مما أدى إلى فرار ٥٠ ألف جندى فى وجه خمسة آلاف جندى فى البلقان ، وقد عمد السلطان محمود فى مواجهة الزحف الغربى على عالم الاسلام إلى إجراء إصلاحات مدنية وسياسية وإدارية مستهدفا استعادة هيبة الدولة العثمانية لتظل صامدة كسد قوى فى وجه النفوذ الأوربى ، غير أن هذه الإصلاحات لم تكن جذرية ولم تنفذ وفق مفهوم الإسلام ، الذى يجمع إلى القوة التكامل بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، والتى تهدف أول ماتهدف إلى تحقيق العدل الاجتماعى والحكومة الشورية ، وتوحيد العناصر ، وقد كانت القوة والرباط والجهاد واليقظة فى مواجهة العدو ، والوصول إلى مثل قوته ودرجة كفايته الحربية والعسكرية أمراً سياسياً ، ومن أولى مفاهيم الاسلام فى مواجهة العدو ، وهو مالم يتيسر على وجه حقيقى للسلطان محمود مما مهد للنهاية المحتومة للدولة العثمانية .

(٣٢)

تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار

اقتصر العثمانيون على العناية بالقوة العسكرية والجرى وراء التوسع دون تركيزه واستقطابه وبلورته . واستغرقت الدولة العثمانية تاريخها كله بين التوسع والمقاومة ، ثم تطورت أوربا بسرعة وتوقفت العثمانية وتجمدت وكان التطور فى أساليب الحرب وفنونها وآلاتها هو العامل الأول الذى رجح كفة أوربا حين ضعف لدى العثمانيين مفهوم الاسلام بعد أن ضعف تطبيقه غير أنه لاسبيل إلى إنكار دور العثمانيين الحاسم حين أعادوا وحدة الاسلام ورفعوا رايته ستة قرون كاملة، فقد واجهوا أوروبا التى كانت تتحفز للسيطرة على عالم الإسلام فاستطاعوا صدها وتجميدها على الأقل من طريق البحر الأبيض ، ومن هنا تبدو حقيقة لاسبيل إلى إنكارها ، وهو أن العثمانيين لاينالون من المؤرخ الأوربى أى أنصاف بل على العكس يواجهون حقداً وخصومة تحول دون كلمة الحق ويمكن القول أنه فى القرن الثانى الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) مال الميزان ، بالدولة العثمانية وارتفع بقوة جديدة ، هى القوة العربية حاملة لواء اليقظة للفكر الإسلامى العربى .

كان الانبعاث أساسا مستمداً من مفهومين هما : التوحيد ومقاومة الاستبداد فى صورة الحاكم المستبد والنفوذ الأجنبى معاً . وكان ذلك رداً على تحدى خطير تمثل فى المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية وعالم الإسلام كله فى هذه الفترة ، وهو غلبه طابع « الجبرية والتواكل » ، الذى تغلغل فى مختلف قطاعات المجتمع والفكر . وهو ما أسلم تركيا العثمانية إلى مرحلة الانحدار ، وأورث الغرب الغلبة والسيطرة على العالم الإسلامى كله ، فلم يكن الجزر العثمانى إلا مـــداً عالياً للاستعمار ، انتهى باسقاط المنطقة كلها فى يد « قوة غربية » تحاول أن تستعيد نفوذها القديم على الأمة العربية والوحدات الإسلامية وفق أسلوب جديد ، وقد تمثل هذا المعنى فى عبارة اللورد اللنبى قائد الجيوش البريطانية حين دخل القدس عام ١٩١٨ بعد مرور ٨٣٢ عاما على خروج الصليبيين عام ١٠٩٥ حين قال « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومعنى هذا أن كل حركات الغزو بجناحيه فى المشرق والمغرب طوال تلك هذه الفترة إنما كانت تستهدف تحقيق إسقاط العالم الإسلامى كله فى قبضة الغرب .

كانت سمة الوحدة العثمانية الغالبة هى : « القوة والحرب » مختلفة فى ذلك عن طابع الموجات الاسلامية المتوالية التى تقدمتها ، والتى كانت تمزج بين بناء القوة وبناء الحضارة . كانت « القوة » سمة الحرب تبدو بارزة فى سنوات التكوين الأولى للدولة ، ثم تكون سمة « الحضارة » هى الغالبة من بعد . أما فى خلال خمسة قرون من النفوذ العثمانى فقد كانت القوة والحروب هى الصورة الممتدة المتصلة ، لا تفسح للحضارة أو البلورة الفكرية أو لانصهار العناصر أى مجال ، مما قلل كثيراً من طابع الحضارة الذى يتمثل فيه الاستقرار والبناء الاجتماعى والامتزاج بين العناصر المختلفة . ومن هنا تعذرت عملية الانصهار والبلورة ، فى مجال المجتمع ، كما غلب طابع الفكر الصوفى المهوم ، مما أضعف من قوة الجوانب العقلية عالم الفكر الاسلامى وكان لذلك أثره فى المجتمع والبناء السياسى وكيان الدولة نفسها . وكانت أقسى عمليات التدهور والاضطراب هى أن العثمانيين ضرفوا عن مجال مجدهم ومظهر دولتهم : « القوة والحرب » فقد غفلوا عن عوامل التطور والنمو والتغيير فى هذا المجال بالذات فسبقهم الغرب فيه ، فكانت هزائمهم المتوالية فى حروبهم مع أوربا ، ومن هنا بدأ التدهور والضعف من قلب مصدر القوة . توقفت الدولة العثمانية إذن ، وخمد عالم الاسلام كله فى الوقت الذى تقدمت فيه أوربا واقتحمت مجالات الكشف والملاحة والعلم حين اتصلت بعلوم المسلمين ، فكأنما أخذت أوربا مفهوم الاسلام حين غفلت عنه القوة الاسلامية الكبرى فتألقت أوربا وسادت وضعفت القوة العثمانية وتدهورت ونستطيع أن اقف طويلا عند مرحلة التدهور ، ويجمع المؤرخون على أن هذه المرحلة بدأت بهزيمة الدولة العثمانية عند أسوار فينا عام ١٦٨٣ حين فشل

الحصار للمرة الثانية ، ومن هذه النقطة بدأ الصراع بين الغرب وعالم الاسلام يتحول لصالح الغربيين والواقع أن هذه العلامة على التدهور لم تكن هى نهاية المعارك بين الغرب والعثمانيين ، بل كانت علامة على الضعف الذى أصاب معسكر المسلمين فى مواجهة التصاعد فى القوى الغربية ، فقد توالت من بعد ذلك الهزائم وخاصة فى الحرب الروسية التركية ١٧٦٨ — ١٧٧٤ . ويرى بعض المؤرخين أن علامات التدهور بدأت قبل ذلك ، حين تجمعت أساطيل الدول المتحدة لمواجهة الأسطول العثمانى فى موقعة (الليبانت) عام ١٥٧١ . غير أنه لابد من ربط الموقف المتصل بالواجهة العثمانية الاسلامية بالخطوات الواسعة التى خطاها الغرب منذ أزال الأندلس وأعاد أسبانيا إلى عالم الغرب وصفاها من القوى الاسلامية والعربية ، وسيطر على جامعاتها ومعاملها وتراثها وحضارتها ، وبدأ فى نقلها إلى لغاته ، وما تبع ذلك فى خط واحد من حركات الكشف والسيطرة على البحار ، حين اندفعت البرتغال وأسبانيا فى حركة رد فعل عنيف للانتقام والإدالة من أطراف عالم الاسلام ومن شواطىء المغرب وأفريقيا بالذات ، وهو ماوصفه المؤرخون وفى مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة « تطويق عالم الأسلام » هذه الخطة التى بدأها العالم الغربى بتطويق البلاد الاسلامية بدلا من مقابلتها وجها لوجه ، كما فعل خلال الحروب الصليبية ، يقول : وفى طوافهم حول أفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطىء العربية للهند سابقين ببضع سنوات إلى هناك (المغول) آخر موجة من موجات الاسلام التوسعية . هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر ، وعندما حقق الأسبانيون ربط المحيطين الأطلسى والهادى مروراً « بمكسيكو » قامت فى الفلبين حواجز جديدة أسيوية هذه المرة ، بين المسيحية العربيه والاسلام اللذين حتى ذلك التاريخ لم يتجاوروا إلا فى الطرف الثانى من العالم فى وادى الدانوب وغربى المتوسط ، وهكذا فى نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب أن يطوق البلاد الاسلامية ، ولكنه لم يخاطر فى شد الحبل إلا فى القرن التاسع عشر فيما بعد ، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد هزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم ، هذه الثقة المتينة قضى عليها شيئاً فشيئاً على أثر الفشل المتوالى الذى منيت به الأمبراطورية العثمانية وباقى الدول الاسلامية وقد كبدهم اياه خصم مجهز بأسلحة غربية تملك التكنيك والعلم اللذين تقوم عليها الحرب الحديثة » .

ولا شك كانت حركة الكشف والملاحة عاملا هاما فى إضعاف الوحدة الاسلامية العثمانية وتحطيمها من الخارج ، وقد امتزجت بها حركة موازية لإضعاف هذه الوحدة من الداخل وتمزيقها ، تمثل هذه الحركة خطة الأضعاف من الداخل فيما حاولت دول الغرب فرضه على الدولة العثمانية من

الامتيازات مستغلة فترة الضعف ومتخذة من حماية المسيحيين فى داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها ، وكان هذا النفوذ فى أكبر خطره وأهم أمره داخل العالم الاسلامى متمثلا فى إتاحة للفرصة للارساليات التبشيرية التى بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الاسلامى والعربى بوجه خاص ، وكانت هذه الأمتيازات من عوامل التمزق وإثارة الفتن من بعد ، وقد كانت مؤامرة ١٨٦٠ بين الموارنة فى لبنان من نتائج هذه السياسة . عاشت أوربا خلال فترة المد العثمانى لأوربا (١٢٠٠ — ١٦٨٣ م) مرحلة خصومه وانتقاض ، لم تتوقف فيها المعارك ولم تتحول العلاقة بين الدولة العثمانية والوحدات التى سيطرت عليها من أوربا إلى رابطة سياسية أو اندماج ، حيث لم تقم الدولة العثمانية بصهر هذه العناصر ، وإقامة نظام اجتماعى لما يؤهلها للدخول فى عالم الاسلام ، كان طابع العلاقة هو طابع السيطرة العسكرية لا الترابط العقلى أو الروحى ، أو الحضارى ، ومن هنا عاشت أوربا فى احساس بالخطر العثمانى المباغت ، وقامت علاقة خصومة وعداوة حملت طابع الصراع بين المسيحية والاسلام حتى أطلق على العثمانيين اسم الاسلام وحمل الاسلام تبعة تصرفاتهم وسياستهم ومفاهيمهم . وإذا كان التوسع العثمانى الاسلامى فى أوربا ، يمثل فى نظر بعض المفكرين « رد فعل » للحروب الصليبية فى فترة بلغت ضعف زمنها ، فإنه قد أعاد تأجيج نار الخلاف والخصومة مما دفع الغرب إلى رد الفعل فى عنف لا حد له بمجرد أن ضعفت الدولة العثمانية ،فقد ساد أوربا اتجاه عاصف يحمل طابع الخصومة والانتقام وقص أجنحة الاسلام عن أن يستطيع فى غده أن يمتلك القوة المادية أو الوحدة أو الايمان وهى العوامل التى تمكنه من مواجهة الغرب أو الانتصار عليه أو التحرر من نفوذه .

وكان مخطط الغرب قد أعد منهجا سياسيا وعسكريا وثقافيا يحاول أن يقضى على القوة المادية لعالم الاسلام وتمزيق وحدته حتى يحال فى حسم شديد دون استئناف مقدرته فى مجال الصناعة والتكنيك وللقضاء على مقومات فكره التى تعطيه القدرة على المقاومة وتدفعه إلى الوحدة، وذلك بالعمل على إثارة الشبهات من حول تاريخه ولغته ودينه ومفاهيمه ، وتسليط نزعة مادية وإباحية « تبشيريه » على شبابه وأجياله الجديدة حتى يحال بينها وبين العوامل الايجابية القادرة على مقاومته وهزيمته ، وذلك بالقضاء على قواه الروحية والجسدية بالتحلل والترف والتمزق ، وكانت هذه الحرب موجهة أساسا إلى مفاهيم الاسلام باعتبارها أبرز عوامل القوة فى بناء عالم الاسلام السياسى والاجتماعى وقد كانت حملة الغرب على الدولة العثمانية عنيفة . ومستمرة ، تمثلت فى عشرات المؤامرات والتكتلات بين القوى المختلفة لتمزيق تركيا وتقسيمها ، وقد امتدت هذه المشروعات طوال فترتى القوة والضعف ، واتخذت أول الأمر سبيل مقاتلة المسلمين بالتجارة بالطواف حول رأس الرجاء

الصالح فى محاولة لفرض الحصار الاقتصادى حول عالم الاسلام ، حتى إذا بدأت العثمانية تضعف ، كانت الخطة هى تحرير أجزائها الأوروبية والسيطرة على أجزائها العربية . واتصل بهذا الخطط إنشاء قناة السوئس فى مصر قلب العالم العربى ، كوسيلة لربط العالم الاسلامى بالعالم الغربى والسيطرة على مقدراته ، يقول دجوفارا الوزير الرومانى فى كتابه : مائة مشروع لتقسيم تركيا :

Cent Projets de partage de lo Tarquie مدة ستة قرون متتابعة ، كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية ، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يبشرون برامج تقسيم هذه السلطة ، مما يناهز مائة برنامج ، كانت المصالح الاقتصادية تفرق بين الملوك فإذا جاء الوقت الذى يتكلمون فيه عن تركيا (الرجل المريض) اتفقوا . أن السلطة العثمانية لم تسقط دفعة واحدة ولكنها تساقطت قطعة بعد قطعة ، فى مدة الأعصر الطوال التى كانت أوربا تناصبها العداء ، فما السبب ، ؟ الأسباب كثيرة ، منها السبب الذى نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى فى العالم (١) سعة الممالك المفتوحة تلك الخارقة للعادة (٢) اختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها فى بوتقة واحدة وصعوبة اعطائها كلها فكرة قومية متحدة (٣) فساد الادارة وارتخاء النظم (٤) ضعف القوة العسكرية (٥) اختلاف الأديان بين سكان السلطنة .

وقد كانت السلطة العثمانية عسكرية محضة مستندة على شرع سماوى ، وكان التسامح هو الذنب المعظم عند الأتراك : فقد أعطت الدولة العثمانية المسيحيين حريتهم الدينية التامة وخولتهم الحرية المدرسية ، هذه الحرية التى كفلت نموهم وترقيتهم ، وقد كانت النصرانية عروة دينية وثيقة كفلت للامم البلقانيه جامعة تتأهب للمقاومة » أقول ، ومن هنا فقد حرص الأوربيون على هدم هذه الجامعة فى عالم الاسلام حين استولوا على بلاده . قال دجوفاراً : لقد كانت عداوة الأوربيين المسلمين برغم تسامح المسلمين فى الدين والحرية الدينيه ، قال المؤرخان لافيس ورامبو (من مؤرخى فرنسا) أن محمداً فاتح القسطنطينيه كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعداً عن كل اضطهاد دينى ، كانت حكومه الترك لاتعارض أحداً فى دينه وكان الأتراك لايمحون امتيازات الكنيسه الأرثوذكسيه ثم ركز دجوفوراً على هذا المعنى حين قال : إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانيه هو مشربها فى إعطاء الحرية المذهبيه والمدرسيه التامتين للأمم المسيحيه التى كانت خاضعه لها ، لأن هذه الأمم بواسطه هاتين الحريتين كانت تبث دعايتها القوميه ، وتتماسك وتنهض وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطه العثمانيه » ومن خطط تمزيق تركيا : ماقدمه الرهبان ومستشارو الملوك من مشروعات يجعلون التجارة فيها أساساً للسيطرة ، ومعاودة العمل على استعادة بيت المقدس

والسيطرة على العالم الإسلامى ، فى استئناف مخططات الحروب الصليبية ، ويرى دجوفارا أن هذه المشروعات بدأت فى أواخر القرن السادس عشر بعد موقعه ليبانت البحرية وكانت الخطة هى جمع كلمة أوربا على وقف تقدم الإسلام فى قلب أوربا ، وعمل البابا ما كسيان على دعوة الملوك والأمراء على مقاومة سلطان الدولة العثمانية مجتمعين تحت زعامة البابا . وتم التحالف فى ٢٥ مايو ١٥٧١ على إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التى سيطر عليها الأتراك . ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس ، وفى موقعة ليبانت فقد المسلمون ٣٠ ألف مقاتل و ١٣٠ سفينة و١٠ آلاف أسير ، ووصفت بأنها علامة الإنحدار الأكيد للقوة الإسلامية العثمانية. منذ ذلك الوقت بدأت أوربا تستعيد أجزاءها البلقانية الخاضعة للدولة العثمانية واستمرت عملية الاسترداد حتى عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللنبي فى بيت المقدس ليعلن أن الحروب الصليبية قد انتهت ، وقد نشأت فى ظل هذه الحركة أجيال من أوربا ، تحمل فى عقولها ونفوسها طابع الحقد والكراهية للإسلام متمثلا فى خصومتهم للدولة العثمانية ، وتحمل طابع الانتقام من تركيا وتقسيم أملاكها والسيطرة عليها وكانت فى مجموعها تهدف إلى محو تركيا والإسلام بأسره ، يقول فندال : فى هذه المرحلة لم يكن رجل سياسة إلا وعنده برنامج تقسيم السلطنة العثمانية ، وقد استمر ذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين قدم تاليران (أكتوبر ١٨٠٥) مشروعاً بتقسيم السلطنة العثمانية وقد درس نابليون مع الروس هذا المشروع . وكان يرى أن يستولى على فلسطين .

(٣) إذا كان ضعف القوة العسكرية هو العامل الأكبر فى تدهور الوحدة الإسلامية العثمانية فإن عامل الإنفصال عن جوهر الإسلام ومفهوم فكره ومقوماته الأساسية كان لا شك بعيد الأثر ، فقد سقطت الدول وانهارت النظم فى وحدات الإسلام خــلال تاريخه الطويل نتيجة هذا الانفصال أو الانحراف عن مفهوم الإسلام . كانت سلبية الصوفية واستعلاء الدراويش وسيطرتهم ، عاملا هاماً وأساسياً فى حركة الجزر المندفعة فى قوة ، ذلك لأن الفلسفة التى غرستها فى أعماق القلوب العقول كانت سلبية جبرية تدفع إلى الزهادة والانقطاع والانصراف عن العمل والبناء ، وقوامها ترغيب الجماهير فى الفقر والمسكنة ، وبذلك قضت على أبرز مفاهيم الإسلام وهو الإيجابية والعمل والحركة ويصور العلامة بهجت الأثرى كيف كان سلطان طوائف المتصوفين فى العهود الأخير خاصة، أقوى سلطانا على عقول الجماهير وكيف كان مسلكهم يجرى على هدى الطبقات الحاكمة فى حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتعسفهم ، فوطدت للمظالم والاستبداد ، ووقفت فى وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلت طاقة الأمة وقعدت بقواها عن السعى . ولا شك كانت هذه المرحلة مصدر

تأخر الإسلام وانحطاط مجتمعه . بينما كانت الحركة الصوفية فى خلال الحروب الصليبية وبعدها علامة قوة وتجمع ، وكانت فى قلب أفريقيا وشمال شرق آسيا عاملا هاماً من عوامل توسيع رقعة الإسلام . وكانت نظام « الفتوة الصوفية » قد تحولت فى الدولة العثمانية إلى قوة ذات تأثير ، وفى مقدمتها الولاية النقشبندية ، وكذلك كان نظام « الأخية » وهو ما يسمى بنظام الأخوة ، عاملا فعالا فى خلق جو اجتماعى بعيد الأثر فى نجدة الغرباء ، وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظلمة ، والاحتفاء بالغرباء من الناس غير أن هذه الحركات التى كانت علامات قوة ، لم تلبث أن تراخت مع الزمن فأصبحت من عوامل الضعف .

(٣) ومن علامات الضعف تمزق الثقافة الإسلامية ، فقد كانت قوة المسلمين فى وحدة الثقافة ، وقد بدا ذلك على نحو باهر فى مرحلة الغزو الخارجى والمقاومة، غير أن الثقافة الإسلامية قد تقاسمتها: اللغتين الفارسية والتركية اللتين ظهرتا إلى جوار اللغة العربية ، وكان المسلمون قد صاغوا ثقافة موحدة ،وانتفعوا بعصارة الثقافات اليونانية والهندية والفارسية والرومانية التى انصهرت فى بوتقة الإسلام وتبلورت فى إطاره القائم على التوحيد والنبوة والإخاء والحرية والعدل . ولم يكن الخلاف فى الفرعيات إلا محاولات مرنة لتوسيع مجال المعاملات فى نطاق الاجتهاد الذى هو أحد طوابع الفكر الاسلامى الذى يتسم بالوسيطة والشمول والتكامل . وقد كتب الفارسى والتركى والهندى بالعربية ، ومن ثم كان هذا من عوامل تقارب المسلمين والتقائهم ، وحماية للفكر الاسلامى من غلبة عناصر الفلسفات القديمة وتعقيداتها التى تخرج الاسلام عن بساطته ومرونته وقدرته على الحركة والتطور مع الزمن . فلما توزعت الثقافة الاسلامية فى اللغات الفارسية والتركية والعربية ، غلبت طوابع جديدة عليها ، كان أبرزها الطابع الصوفى الشاعرى الذى ظهر فى الأدب الفارسى ثم سيطر على الأدب التركى ثم بدأ بالالقاء بينهما والامتزاج ، مخالفا لمقومات الفكر الاسلامى العربى اللغة ، مباعداً عن جوهر الإسلام ومقوماته ، ومن هنا غلب ذلك الطابع السلبي الذى اتسم به الأدب العثمانى فى مرحلة الضعف . وهو ما تنبه له مجددون ومصلحون من بعد أمثال نامق كمال ، ومحمد عاكف وحاولوا تغييره بوصفه عاملا من عوامل الضعف والتخلف . والحق أن كل محاولات الإصلاح العثمانى التى جرت فى مجال السياسة أو الفكر لم تحقق نجاحاً ما ، لأنها أجرت محاولاتها على السطح ولم تتعمق عوامل الضعف ، ولم تحاول التغيير الجذرى الذى يجب أن يعتبر أساساً من مفاهيم الاسلام .

(٤) ضمت الدولة العثمانية — فى قطاعها الأوربى — عناصر وشعوباً مختلفة : اليونان والبلقان

والمجر والجرمان والصلاف والعرب والرومانيين والألبان والأرناءوط . وفي قطاعها الاسلامي العربي كانت تنظيم التتاروالعرب والأكراد والتركمان والأرمن والموارنة والكلدان والفرس والعثمانيون والبربر . وبعض هذه الأجناس والشعوب تدين بالمسيحية وبعضها يدين بالاسلام وقدعاشت شعوب أوربا خلال هذه القرون الخمسة أو الستة وهي تعتبر آل عثمان غرباء عنهم للاختلاف في الجنسية والدين واللغة ، وآفة العثمانيين أنهم عجزوا عن تذويب هذه الشعوب في جسم الدولة الكبرى ، فظلت هذه الأمم محافظة على قومياتها . ومن هنا كانت حركة انتفاضها بمجرد ضعف الدولة العثمانية وتراجعها تراجعا سريعا عاصفا . وقد أعانها على ذلك أنها نهضت وتجمد العثمانيون .

٦ — أغضى العثمانيون عن عملية تصفية الغرب للدولة العربية في الأندلس ، وكان في استطاعتهم الاتجاه إلى أسبانيا وتحرير المسلمين فيها ، وقد طال أمر تصفية المسلمين والعرب في أسبانيا زمنا خلال فترة تألق العثمانيين ، بل أن بعض الأندلسيين الفارين قد التقوا بقادة الدولة العثمانية وشرحوا لهم ما حل بالمسلمين والعرب من نكبات ، غير أن العثمانيين لم يتخذوا أى مبادرة في هذا الشأن ، ولما علم قادة أسبانيا أمر اتصال مسلمي الأندلس بالعثمانيين سارعوا إلى ترحيل المسلمين إلى خارج البلاد وقد بلغوا في تقدير المؤرخين ٦٠٠ ألف ، وان استطاع خير الدين بربروس أن يؤازر الأندلسيين بفرض سلطانه على البحر المتوسط ، غير أن ذلك كان في مجال الثأر بعد أن تمت تصفية الأندلس ، ولا جرم قد شن بعض الغارات الموفقة على الأسبان في الثغور وعلى قوافلهم البحرية الذاهبة إلى الشرق . وقد أشار المؤرخ الألماني ليوبولد زنكي إلى موقف آل عثمان فقال « لو هاجم العثمانيون أسبانيا لما تجرأت البندقية على مساعدتها وهي تكاد تكون في قبضة العثمانيين لاتصال الحدود بينهما ، وقد كان تعرض السلطان للبندقية في فتح قبرص ، مما حرض فيليب الثاني ملك أسبانيا الخائف من خطر تركيا عليه ضم أسطوله إلى أسطول (البندقية) وأسطول البابا فكانت موقعة (ليبانته) التي أضاعت سيادة تركيا البحرية ، فلما أمنت أسبانيا عقب موقعة ليبانته من آخر نصير يرجى للمسلمين أقدمت على إجلاء من لم يرض بالتنصر منهم » .

(٣٣)

حركات اليقظة والتجديد

* استيقظت روح الاسلام فى كل رقعة من رقاع عالم الاسلام فهب أتباع محمد من مراكش إلا الصين ومن تركستان حتى الكونغو هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها ، قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، ثم الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى . « لو تروب »

* * *

ظل الاسلام قادراً عن طول تاريخه - كظاهرة عضوية لا تتخلف - قادراً على الانبعاث من داخله ، حين تنحرف مفاهيمه ، أو يتخلف عالم الاسلام عن مفهوم الاسلام ، وكانت مقومات الاسلام الأساسية قادرة على أن تجدد المجتمع الاسلامى وتقوم نظمه فى مرحلة إنحدار الدولة العثمانية قد صدرت عن تجمد مفهوم الاسلام والانحراف عن مضمونه الأساسى بوصفه شاملا متكاملا وسطيا ما.

أهوى بالوحدة الاسلامية العثمانية ، غير أن اليقظة العربية للقضاء على غلبة مفهوم الجبرية الصوفية لم تتح لها الفرصة الكافية لتحقيق البعث ، كانت قوى الغرب التى ارتدت مهزومة فى الحروب الصليبية خلال قرنين والتى واجهت « المد الاسلامى » خلال خمسة قرون فى قلب أوربا قد عاودت عملية الغزو من جديد وفق أساليب مستحدثة لا تعتمد على الغزو الجائح المضطرب ، بل على منهج علمى قوامه التنظيم الحربى ، والكشف ، والتجارة ، ومحاصرة الموانىء ، وعمليات التطويق الاقتصادى العسكرى .

ومن هنا سارت حركة اليقظة والتجديد الإسلامى مع حركة الاستعمار والنفوذ الغربى ، وكانت هذه اليقظة تمثل قدرة الأمة العربية على حمل لواء مسيرة الإسلام وبعثة وفق مفاهيمه الأساسية واندفاعة كقوة مقاومة ضخمة إزاء النفوذ الاستعمارى الذى كان مندفعاً للسيطرة على عالم الإسلام واتخاذ أماكن الدولة العثمانية وتمزيق أواصر وحدة عالم الإسلام ووحدة الأمة العربية كسلاح أساسى فى القضاء على مضامين الفكر الإسلامى التى كانت قادرة على إمداد أهله بالقوة على المقاومة والبناء والحركة . ومن هنا كانت حركة التجديد واليقظه الإسلامية تعمل فى عدة مجالات فى وقت واحد . مجال : تجديد الإسلام نفسه وإزالة عوامل الضعف والجمود . ومجال : مقاومة نفوذ الاحتلال بالحرب وحركات المقاومة . ومجال : بناء حركات إصلاحيه فى مصر والهند والمغرب والسودان وصحراء ليبيا .

ومجال: العمل الوطني الخالص في نطاق التنظيمات السياسية الحديثة. ومجال: الوحدة العربية بنفس مضمون الوحدة الإسلامية وهو التصدي للنفوذ الاستعماري وتوسيع جبهة المقاومة وفاعليتها ضده.

في كل هذه القطاعات وفي كل ماظهر فوق أرض عالم الإسلام منذ بدأت حركة الغزو الاستعماري الحديث كانت في أعماقها موجة من موجات اليقظة العربية الإسلامية مهما حمل اسمها أو مظهرها من معاني أو مسميات جديدة عصرية، فقد تحولت هذه الحركات وتطورت من الطوابع الإسلامية الصرفة إلى الطوابع الوطنية والقومية، ثم إلى الطوابع الديمقراطية والاشتراكية ولم تكن في مجموعها إلا أسلحة لها طابع العصر، وروح التطور، ولكنها ظلت في أعماق أعماقها علامات طريق طويل يمكن أن يطلق عليه اسم «اليقظة العربية الإسلامية».

وفي هذا يقول العلامة ولفرد كابتول سميث: إن الحركة القومية هي حركة مقاومة الاستعمار الحديث، ولم تكن حركات القومية مطابقة الإسلام فحسب، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام، فنضال الأندنيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين، وكفاح السوريين ومسلمي الغرب للتخلص من الفرنسيين، كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر، بل أن طرد الأتراك لليونانيين ١٩٢٢ والإيرانيين للقضاء على منطقة نفوذ الروس والانجليز كانا خطوات نحو إحياء الاسلام، فكل المسلمون مسلمون إجتماعياً وسياسياً، والصفة الاسلامية غالبة على كل الحركات الوطنية حتى في الحالات التي يكون القادة فيها قد تأثروا بالغرب تصبح هذه الحركات إسلامية بالنسبة للجماهير والاتباع، وبالجملة فإن الاسلام في العصر الحاضر قد احتضن كل النزعات والحركات القومية».

وعندنا أن الغزو الاستعماري الجديد كان هو التحدي الكبير الذي لون حركات اليقظة والبعث الاسلامية وأعطاها طابع التحدي ورد الفعل والمقاومة للنفوذ الغربي الذي لم يكن تسلطاً سياسياً أو عسكريا فحسب، ولكنه كان سيطرة كاملة المقدرات والقيم في مجال الفكر والمجتمع والاقتصاد والسياسة ومن هنا فقد كانت مواجهته للفكر الاسلامي بفكر آخر من أكبر تحديات حركة التمدن الاسلامي.

(٢)

بدأت اليقظة العربية الاسلامية كقوة حية بدبلة للقوة العثمانية الاسلامية التي ضعفت وأصابها التحلل في منتصف القرن الثاني عشر ١١٥٣ هـ – ١٧٤٠ م جريا على ناموس حتمية التجدد وتصحيح المفاهيم، وهي الظاهرة التي لم تتخلف خلال تاريخ الاسلام كله، سواء بالدعوة الفكرية على يد المصلحين أم بالحركة السياسية على يد القادة وبناة الدول، وقد برزت ظاهرة التجدد هذه المرة في قلب الأمة العربية ومن محورين في وقت واحد: محور « قاهرة الأزهر » ومحور جزيرة العرب حيث انبعث الاسلام أول مرة.

أما في القاهرة فكانت تحمل طابع التحرر من ظلم الأمراء والولاة، وهو من أبرز مفاهيم الاسلام وكان ذلك على أيدي العلماء الذين برزوا لأول مرة كقوة قائدة بعد أن كان النفوذ الاجتماعي كله في يد زعماء الصوفية، وفي الجزيرة كانت الدعوة تحمل طابع التحرر من الجبرية الصوفية بإبراز مفهوم الاسلام الأصيل: التوحيد. وفي خلال ستين عاماً منذ ظهرت دعوة التوحيد بقيادة الامام محمد بن عبد الوهاب في نجد حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر كانت القاهرة تموج بحركة العلماء في مقاومة نفوذ الأمراء باسم مفهوم الاسلام، وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانت اليقظة الاسلامية التي قادتها الأمة العربية سنة ١٢١٣ هـ — ١٧٩٨ م قد اتخذت تعمق وعيها في المجالين: تحرير العقيدة بالتوحيد وتحرير الأمة بالحرية، ولم يكن مفهوم التوحيد في الاسلام إلا خلعاً للعبودية والذلة لمن سوى الله وحده.

ومن هنا كانت الدعوة إلى التوحيد نفسه سلاحا أساسياً لمقاومة الاستبداد، ثم امتد المعنى واتسع بمقاومة النفوذ الأجنبي والاستعمار، وكان هذا المفهوم قد نضج خلال ستين عاماً حتى بدأ أثره واضحاً في مقاومة أول غزو استعماري مباشر، بعد مرحلة الكشف والاستعمار المبطن بالتجارة في شواطىء أفريقيا والجزيرة العربية والهند وأرخبيل الملايو وهي مرحلة (١٦٠٠ هـ — ١٧٩٨ م).

وكان وصول الحملة الفرنسية إلى مصر إيذانا ببدأ مرحلة الغزو العسكري السافر لعالم الاسلام والتركيز بنوع خاص على « الأمة العربية » بحسبانها القوة الجديدة التي تحمل لواء اليقظة في سبيل مقاومة (١) جبرية الصوفية التي كانت طابع المرحلة السابقة من الاستسلام للظلم (٢) مقاومة استبداد الأمراء ونفوذ الغرب المتزايد وباسم مفاهيم الاسلام الأصيلة التي حملها العلماء، كانت مقاومة مصر

للحملة الفرنسية ١٧٧٩ ، والحملة الانجليزية بعدها ١٨٠٧ وللوالى العثمانى خورشيد ، ثم لمظالم محمد على من بعد ، وكان عمر مكرم رمزاً على هذه المرحلة كلها ومعه عديد من العلماء .

(٢) ثم تطورت حركة اليقظة الأسلامية وتألقت فى طوابع مختلفة ، كان أبرزها حركة السنوسى فى طرابلس ثم حركة المهدى فى السودان وهما حركتان مستمدتان أساساً من مفهوم الاسلام، وتعتبران استمراراً لحركة التوحيد . وقد كانت الحركة السنوسية بمثابة رد فعل للنفوذ الاستعمارى بعد احتلال فرنسا للجزائر وهو أول استعمار مركز على الأرض العربية، وقد واجه المسلمون ذلك بعملين متوازيين: (١) العمل العسكرى الحربى بقيادة الإمير عبد القادر وقد استمرت أعمال المقاومة سبعة عشر عاماً . (٢) العمل التربوى الاسلامى بقيادة الامام محمد على السنوسى للقيام بحركة إسلامية شاملة لمواجهة الاستعمار الغربى المتحضر للانقضاض على العالم العربى . ثم كانت حركة محمد احمد المهدى (١٢٨٧ — ١٨٧٠) حركة سياسية تحريرية للتخلص من النفوذ المسيطر وقد قضى عليها الاستعمار البريطانى بعد احتلال مصر .

(٣) ثم انبثقت من قلب هذه الحركة موجة أخرى هى حركة « الجامعة الإسلامية التى قادها جمال الدين (١٢٨٨ هـ — ٨٧١ م) والتى تبناها بعد ذلك السلطان عبد الحميد واصطدمت فى آخر أيامها بحركتى الجامعة الطورانية التركية والوحدة العربية . (٤) ومن خلال حركات اليقظة ظهرت ثورة الهند (١٨٥٧) وثورة فارس (١٨٩٥) وثورة مصر بقيادة عرابى ١٨٨٢ . (٥) حركة الاصلاح الدستورى والاجتماعى ويتمثل فى دعوة خير الدين التونسى ١٢٧٨ — ١٨٦٠ م وحركة مدحت فى الدعوة للدستور التركى ١٢٨٤ — ١٨٦٨ . وحركة اسماعيل للويلحى فى الدعوة الدستور المصرى ١٢٩٧ — ١٨٧٩ .

ولم تلبث حركة اليقظة العربية الاسلامية أن تبلورت فى منهج علمى فكرى ثقافى فى حركتين متجاورتين : حركة محمد عبده وحركة عبد الرحمن الكواكبى ، وقد توسعت حركة محمد عبده إلى آفاق المغرب كله وتبلورت فى الحركة السلفية التى قاومت النفوذ الاستعمارى الفرنسى ، وهكذا حفل القرن الثالث عشر الهجرى بحلقات متتابعة وموجات متوالية من عوامل اليقظة فى مختلف ميادين المقاومة والتجديد والاصلاح . فإذا أضفنا إلى هذا حركة تطوير الفكر بالترجمة والتأليف التى قادها رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وحسن العطار وحسن الطويل لعرفنا إلى أى مدى أمكن تعميق حركة اليقظة . وأبرز ما اتسمت به هذه المرحلة :

(١) حركات مقاومة الاستعمار مقاومة عسكرية فى الجزائر (الأمير عبد القادر)، وفى مصر (عرابى) وفى السودان (التعايشى) وفى القوقاز (شامل) وثورة المسلمين فى الهند. (٢) حركة فكرية تحولت إلى دولة فى نجد (١٤٧٠ — ١٨٩٣). (٣) حركة سياسيه فى مصر أقامت إمبراطورية عربية (مصر والشام والحجاز).

وقد استطاع النفوذ الأجنبي المندفع فى حركة الغزو الاستعمارى الإدالة من هذه الحركات وفرض نفوذه العسكرى والسياسى، غير أن الملاحظ بوضوح أن المسلمين والعرب لم يسلموا إلا بعد قتال مرير وبعد أن استنفذوا كل وسائل المقاومة، وإذا كانت حركة المقاومة العسكرية توقفت، فإن حركة اليقظة العربية الاسلامية وهى فى أحد شقيها حركة مقاومة بالكامة لم تيأس، حتى بعد سقوط الوحدات المختلفة لعالم الاسلام فى قبضة نفوذ الاحتلال، فقد تعمقت حركة جديدة من المقاومة عن طريق الفكر وتصحيح مفاهيم الاسلام والكشف عن جوهره، ومحاربة النفوذ الاستعمارى من خلال القيم الأساسية للاسلام والفكر الاسلامى العربى.

(٣)

وإن مفهوم حركات اليقظة والتجديد فى تاريخ الاسلام كله تتمثل فى هذه القاعدة «إن الاسلام مهدد دائماً بالاضمحلال، لما يتطرق إلى أسسه من بدع تغطى وجهه الحقيقى، وتحجب مفهومه الأساسى وأهدافه وقيمه العليا. وأنه لا بد من تطهير مجرى الاسلام أولا بأول والحيلولة دون انحرافه عن مفاهيمه الأساسية وعن جوهره المتمثل فى: «الشمول والتكامل والوسطية» ووفق هذا المفهوم بدأت حركة التوحيد وتابعتها حركات تصحيح المفاهيم والمقاومة والجامعة الاسلامية والوحدة العربية.

١ — قاد حركة التوحيد: الإمام محمد بن عبد الوهاب وكانت أبرز أهدافه.

(١) صياغة شعار الاسلام فى كلمة التوحيد دون سواها (٢) تنقية الاسلام من البدع والأردان التى علقت به (٣) التحرر والاستقلال ورفع يد الاستغلال والظلم عن ديار العرب (٤) إيجاد وحدة سياسية اسلامية. ويقدر الباحثون أن «دعوة التوحيد» كانت رد الفعل الطبيعى لإنحراف حركة الصوفية عن مفهوم الاسلام، وأنها كانت محاولة لتصحيح الجوهر بعد أن غلبت الصوفية فى فترة الانحدار والضعف مفهوم «الجبرية» والاستسلام للظلم والاستبداد. وليس شك أن الحركة الصوفية استطاعت أن تحقق فى مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية نتائج ضخمة فى كسب مجموعات كبيرة من

الوثنيين وتحويلهم إلى الاسلام . حيث إستطاعت أن تمد الاسلام الفكرى لا السياسى إلى أجزاء واسعة فى شمال وغرب ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، غير أن هذه الجماعات الاسلامية الجديدة كانت مفاهيمها قاصرة على المفهوم الروحى الخالص وهو شطر الإسلام وليس الاسلام كله .

وقد كان أعمق ما أبرزته دعوة التوحيد أمران هامان هما جماع مفهوم الانبعاث فى الإســلام (أولا) باب الاجتهاد مفتوح وأن لكل مسلم الحق فى أن يجتهد لفهم دينه . (ثانياً) ضرورة القيام بفريضة الجهاد .

وقد ركز الإمام محمد بن عبد الوهاب على اعتبار أن الكتاب والسنة هما دستور الإسلام الوحيد ونادى باتخاذ أسلوب الفطرة فى فهم الإسلام بعيداً عن تعقيدات المتكلمين والفلاسفة والصوفية . ويرى بعض المؤرخين أن « دعوة » التوحيد التى أطلق عليها «الوهابية» والتى تحولت إلى «حركة» حين اتصلت بأمير سعود ، لو تحقق لها أن تحيط دعوتها بأسلوب من البراعة السياسية ، والمرونة ، لاستطاعت أن تكسب القلوب إليها ، وعندنا أن طابع هذه الدعوة مستمد من بيئتها وتكوين دعاتها النفسى والاجتماعى ، وأنها فى مواجهة مد عنيف من الجبرية والضعف والاستسلام الذى فرضته الصوفية ، قد اقتضت — شأن كل الحركات والدعوات التى تقوم فى مواجهة تحد كبير — أن تصل نفس المدى من التطرف فى الجانب الآخر ، وهذا سر ما وصفت به من طابع عسكرى أو تشدد ، أو عدم المرونه فى قبول وجهة النظر الأخرى ، أو المساومة ، أو ماجرت إليه من تصليف المسلمين بحيث اعتبرت عدداً كبيراً منهم ممن تجب محاربتهم ، ويتصل بهذا ما دعاها إلى القصور عن طابع العصرية فى الحرب والتسليح أو ميدان الصناعة أو غيرها ، وعندنا أن أهميتها لم تكن فى مجال « الحركة » وإقامة الدولة بقدر ما كان فى بعث النفس العربية وإيقاظ العقل الإسلامى وإعادة النظر فى مفهوم الإسلام ، وتحريره من الجزئيات والانحرافات والبدع وتصفية العقيدة وتطهير الفكر الإسلامى من الانحرافات والأوهام وذلك هو أثرها البالغ العميق فى كل حركات اليقظة والتجديد والإصلاح الإسلامى التى تلتها . وبالجملة فإن دعوة التوحيد (الوهابية) كانت ثورة على الاستبداد والضعف والانحلال الذى آل إليه عالم الإسلام ، وأول مواجهة عربية حقيقية لحمل لواء الدعوة الإسلامية بعد ضعف الدولة العثمانية عنها وقد استمدت مفهومها من نفس الأسس التى أقام عليها (ابن تيميه ٧٢٨هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزيه دعوتهما قبل أربعة قرون، وكانت دعوة ابن تيميه قد ضعفت ولكنها لم تتوقف، فقد ظل العلماء يعتنقونها ، ويتوالى ظهورها ، جيلا بعد جيل ومن السابقين لمحمد بن عبد الوهاب : عثمان النجدى سنة ١٠٩٦ فى نجد وإسماعيل الصنعانى فى صنعاء (وهو مؤلف كتاب تطهير الاعتقاد)

وقد ترك محمد ابن عبد الوهاب بحق أثراً فى يقظة الإسلام أكبر مما كان يتطلع إليه ابن تيميه . وقد دخلت الحركة الوهابية فعلا فى صراع مع الشيعة والمتصوفة وصل إلى القتال المسلح على حدود العراق.

الحركة الصوفية

ظلت الحركة الصوفية منذ القرن الثامن الهجرى توسع آفاق الإسلام وكانت حركة ابن تيمية ومن بعده ابن القيم فى تصحيح مفاهيمها ، متصلة مستمرة فى عديد من تلاميذهما ، وإن ظلت خافتة الصدى إزاء استغلال الأمراء والولاة للحركة الصوفية بوصفها وسيلة الى تأصيل التوا كل والتسليم والقبول بجبرية الظلم ، وقد بلغ أمر الصوفية قمته فى الانحراف عن مفاهيم الإسلام حين انضم الفقهاء والعلماء إلى المنظمات الصوفية وانصهروا فيها ، غير أنه منذ منتصف القرن الثانى عشر الهجرى بدأت يقظة العلماء والفقهاء ، وقد اشتد تأثير مفهوم ابن تيمية لجوهر الإسلام سيطرة على نفوسهم ، وأخذت كتابات ابن تيمية تحيا من جديد على أقلام بعض أتباعه حتى كانت صيحة محمد بن عبد الوهاب أقوى هذه الصيحات ، ويرى « جب » أن الحركة الصوفية قد أكسبت الإسلام حيوية كبيرة ، غير أن غلبة مفاهيم الأدب الفارسى والأدب التركى المستمد منه والقائمة على طوابع صوفية مغرقة فى الانحراف نحو الحلول ووحدة الوجود ، قد أبعد مفهوم الصوفية عن شمول الإسلام وقصره على جانب القلب وحده ، ومن ثم كان لا بد كرد فعل لا يتخلف فى تاريخ الإسلام ، أن تبرز حركة لتصحيح المفاهيم والكشف عن جوهر الاسلام وحقيقته وفق أسسه الأولى ، ممثلة فى حركة التوحيد التى حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب ، وأهمية هذه الحركة ليس فى تأسيس دولة بقدر أهميتها فى خلق نقطة تحول جديدة عن محور الروحية الصوفية الذى ركز المسلمون عليه أكثر من خمسة قرون إلى مفهوم الاسلام الأساسى : متكاملا شاملا جامعا بين العقل والقلب ، مهاجما أشد الهجوم مفهوم « الجبرية » الذى لا يعترف الاسلام به ولا يقره ، والذى كان مصدراً من مصادر الضعف الذى عرض عالم الاسلام لأزمته المتمثلة فى تدمير الغرب للوحدة الاسلامية العثمانية . وتطويق عالم الاسلام كله وتمزيقه بالاحتلال والسيطرة . ومن هنا كانت أهمية « حركة التوحيد » فى أنها تمثل طلائع اليقظة العربية الاسلامية قبل وصول الحملة الفرنسية من ناحية ، وإيقاظ عالم الاسلام لمواجهة الغزو الغربى ، وقد كان أثرها واضحا فى حركات : شريعة الله وسيد أحمد ضد سلطة المغول والسيخ والبريطانيين وحركة أحمد خان (الهند) والسنوسية (طرابلس الغرب) والمهدية بالسودان وحركة جمال الدين فى الهند وفارس ومصر ، وحركة محمد عبده وصحيفة المنار ورشيد رضا . كما امتد نفوذ حركة

التوحيد (محمد بن عبد الوهاب) إلى قلب الأقطار البعيدة مثل نيجيريا وسومطره وكان لها دورها في تأريث الحركات الثورية . وكان اتجاه الحركات الاسلامية كلها واضحا في مواجهة النفوذ الغربي ومقاومته وفي نفس الوقت ، وفي ضوء مفهوم التوحيد المجدد ظهرت حركات ذات طابع صوفي ، كانت بعيدة الأثر في نشر الاسلام وتربية الشخصية الاسلامية وبنائها كشخصية مثقفة ومحاربة في نفس الوقت ، وكانت الحركة السنوسية تمثل هذا المفهوم على خير وجه كما تمثله الحركة المهدية. وكان لنشاط الطرق التيجانية والقادرية والمرغنية الصوفية في مجال التبشير بالاسلام أبعد الأثر ، فقد قامت بدور كبير خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر في كل من الجزائر ومراكش ، وفي صحراء أفريقيا الغربية ، وقامت في الهند حركات مماثلة تحت قيادة الفرق الصوفية . غير أن بعض هذه الفرق الصوفية قد انحرفت من بعد مرة أخرى ، في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي حاول استغلالها فكانت الحركة السلفية المغربية حركة مقاومة لها .

السنوسية (١١٤٧ هـ — ١٨٣٤ م)

تمثل « السنوسية » الحلقة الوسطى بين دعوة التوحيد وبين الجامعة الاسلا[illegible] ، وتجمع في نفس الوقت بين الدعوة والحركة ، وتربط بين التوحيد والتصوف وقد انبعثت السنوسية كرد فعل لاحتلال فرنسا للجزائر وكان محمد بن علي السنوسي جزائري الأصل ، فدفعته الصدمة المذهلة إلى الطواف بالعالم الاسلامي بحثا وراء محاولة جماعية إسلامية للمقاومة ، ثم استقر رأيه على العمل في الصحراء على دعامتين أساسيين . (أولا) بناء أجيال من شباب المسلمين بالتربية الاسلامية والعسكرية في نفس الوقت . (ثانيا) نشر الاسلام في مجاهل أفريقيا . وقد رسمت السنوسية مفهومها على أساس أن تحرير عالم الاسلام سياسيا من الغزو الغربي يجب أن يسبقه « إنعاش روحي ومعنوي عميق للمسلمين » توطئة لتحقيق وحدة الشعوب الاسلامية وقد قامت على أصول ثلاثة : الدين والاجتماع والسياسة . قد انتشرت السنوسية في السودان الغربي وأواسط أفريقيا ، وقد كان الامام السنوسي مجتهداً مزج بين المذاهب (الأربعة) السنية المعروفة ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنن والمذاهب وأجملها في مذهب واحد . وقد بلغ عدد الزوايا السنوسية ١١٩٧ هـ — ١٨٨٤ م مائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان وطريق مصر وطريق واداي وشبه الجزيرة العربية والجريدة بتونس ومراكش ، وتوسع نفوذ السنوسية في أفريقيا الغربية ولما ولي محمد المهدي بعد وفاة والده ١٨٩٥ عمق الدعوة ، ودعم نفوذها ، فعلم السنوسيين استعمال الأسلحه التي كانت تهرب من ميناء

طبرق ، ومن هنا بدأ نفوذ السنوسيين يزعج الاستعمار الأوربى ، ويهدد نفوذه فى قلب أفريقيا ؛ واتسع نطاق الحركه سياسيا فبلغ من الحدود المصريه شرقا إلى شواطىء الأطلنطى غربا من خلال ليبيا وبرقة وطرابلس وفزان وصحراء الجزائر ومنطقه تشاد وكان للسنوسيين من بعد دور ضخم فى مقاومه الاحتلال الايطالى سنة ١٩١١.

الجامعة الإسلامية

ظهرت الجامعه الاسلاميه كمرحلة متقدمه لدعوة التوحيد ، ولمعت كمحاوله سياسيه للتجمع لمواجهة الغزو الاستعمارى ومقاومته كوحدة ، وكان مفهوم جمال الدين الأفغانى للجامعة الإسلامية مفهوما تقدميا قائماً على استخلاص أكبر قدر من الحضارة لمواجهة الاستعمار بنفس أسلحته ، والإقبال على العلوم الأوربية وأساليب الحكم العصرية ، وتطهير الإسلام من الشوائب ، وتضامن المسلمين وتوحيد كلمتهم والتضييق على استبداد الأمراء بالحكم الدستورى والشورى واستكمال أسباب القوة المادية ونبذ الخلافات الجنسية والمذهبية ، وقد كانت دعوة جمال الدين الأفغانى أقوى موجة من موجات مفهوم اليقظة العربية الإسلامية ، وكان إيمان جمال الدين بأن الأمة العربية هى التى تستطيع أن تحمل لواء اليقظة هو مادفعه إلى أن يترك الأفغان والهند وفارس وأن يختار مصر لبث دعوته ، وقد تابعه مجموعة ضخمة من المفكرين الذين برزوا أوائل القرن الرابع عشر : محمد عبده ورشيد رضا ومصطفى الغلايينى وشكيب أرسلان .

وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يدمج دعوة جمال الدين بعد أن تحررت الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية وانفصلت عنها ، وحين التقى جمال الدين والسلطان عبد الحميد تبين مدى الفرق بين الفكرة التى يحملها الأفغانى فى سبيل غاية محدودة ، والفكرة التى يحملها السلطان فى سبيل دعم الدولة العثمانيةفقد واجهه جمال الدين بمشروع يرمى إلى إنشاء خديويات على غرار خديوية مصر تصبح مستقلة ذاتيا وتابعة للسلطنه ، فاذا تحقق ذلك أمكن أن تتم خطوة تلقائية تالية لذلك ، بأن تنتظم إيران وأفغانستان والهند تحت لواء السلطةويصبح الأسلام قوة منيعة يرهب الغرب جانبها وتستطيع أن تواجة الزحف الاستعمارى . ويتحقق قيام جامعة إسلامية لا تضم تركيا والعالم العربى وحده بل تضم العالم الإسلامى كله .

ولا بد لنجاح المشروع من استعراب الأتراك وجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية « لواستعرب الأتراك لترأسوا ذلك الملك وعدلوا فى أهله » غير أن السلطان عبـــد الحميد لم يكن حين دعا إلى مشروعه ليستهدف مثل هذا العمل وذلك فقد انطوى مشروع جمال الدين .

وقد صور جمال الدين مفهومه لإيقاظ الإسلام فى عبارات واضحة صريحة حين قال : « العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم والإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، أن الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية متلجلجة فى قلوبهم حتى اليوم كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت تنتحل الدول النصرانية إعذاراً لها فى كسرها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالهـــا وإكرامها بقولها أن الممالك الإسلامية هذه إنما هى من الانحطاط والتدلى بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شئون نفسها ، وفوق جميع هذا فهى النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية وتتذرع بألوف الذرائع من نواحى أخرى حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون فى بلادهم وديارهم فى سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامى يجب أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من القضاء المقبل وللوصول إلى هذه الغاية الكبيرة إنما يجب عليه اكتناه تقدم الغرب والوقوف على مقدرته وقدراته » . وبالجملة فإن جمال الدين كان يرى أن ضعف المجتمع الإسلامى هو علة تأخره ، ومن أجل هذا طاف بالبلاد الإسلامية (الهند ، إيران ، أفغان ، مصر ، تركيا) يلهب حماس المسلمين ويذكرهم بأمجاد الماضى ، ويدعو إلى أمرين : مقاومة النفوذ الأجنبي والقدرة على كسب علوم الغرب وثقافته .

وكان طابع المقاومة للجبرية واضحا فى كلماته حين دعا إلى أن يغير المسلمون ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم وذلك بالعمل وشجب الجمود . وتمثل حركة محمد عبده إمتداداً طبيعيا للعمل السياسى الذى قام به مع جمال الدين الأفغانى ومنطلقاته منه إلى مفهوم جديد ، ربما جاء نتيجة لأن أهداف جمال الدين الأفغانى لم تتحقق ، وربما لطبيعة تكوين محمد عبده ، ذلك هو تبلور إيمانه فى حقيقة واحدة ، هى أن التربية والعلم هى المجال الوحيد لليقظة ولمقاومة الاستعمار . وقام مفهوم الكواكبي لليقظة الإسلامية على أساس أن العرب هم القوة الوحيدة لجمع الكلمة وأن يقظة الإسلام انبعثت أساسا من الأمة العربية ، فقد أكدت كتابات الكواكبي مفهوم قدرة الأمة العربية على حمل لواء يقظة الإسلام ، وإذا كان جمال الدين قد هاجر إلى مصر بوصفها قلب الأمة العربية والعالم الإسلامى كله فى هذه الفترة ، وإذا كان جمال الدين يدعو إلى تجميع المسلمين فى وجه الغزو الأجنبي أساساً فتكون قادرة على أن تحمل

لواء المقاومة والتجمع ورفع راية الإسلام والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه . وقد هاجم الكواكبي التصوف الزائف الذى حمله بعض دعاة الجبرية، ممن كانوا يبثون فى الناس روح الاستسلام والاستكانة للحاكم المستبد وللغزو الغربى ، وكان يرى أن انحدار الدولة العثمانية وأزمة عالم الإسلام فى هذه المرحلة تنبعث أساساً من فرض « جبرية » ليست من الإسلام أساساً ، استطاعت أن تشل العزائم ، ولذا فقد كان إيمانه منصبا على إيقاظ مقومات الإسلام الأصيلة وهى : الحرية والقوة والوحدة والعلم ، وكان أبرز ما دعا إليه الكواكبي مقاومة الاستبداد والمستبدين. وقد حلل الكواكبي فى كتابه « أم القرى » أسباب الضعف والتأخر ، وقال إن مرجعه إلى ضعف الدولة العثمانية فى السنين سنة الأخيرة وحمل على « الأمراء المستبدين ، والعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين » ويرى الكواكبي أن موجة الاستعمار الغربى الحديث قد انصبت بأكبر قدر منذ فاتحة القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجرى) على العالم العربى .

الحركة السلفيه

ومن خلال مفاهيم الإمام محمد عبده التى تبلورت بعد الثورة العرابية وبعد عودته من المنفى (١٨٨٦ تقريبا) وبعد انفصاله عن السيد جمال الدين الأفغانى وعلى أساس الخطة التى حملت لواءها « المنار سنة ١٨٨٩ » وقادها تلميذه « رشيد رضا » تكونت مدرسة فى شمال أفريقيا ، وقد تمركزت هذه المدرسة فى المغرب الأقصى الذى لم يتح للشيخ عبده زيارته حين زار تونس والجزائر . ويرجع العلامة علال الفاسى جذور هذه الحركة إلى ابن حنبل وابن تيمية والشاطبي ، وإلى دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب التى حملت لواء « تجديد عقائد التوحيد وتخليصها من شوائب البدعه والعودة إلى الاسلام فى معينه الأول : الكتاب والسنه . ولقد قامت الحركه السلفيه فى المغرب وفى الجزائر كرد فعل لما نشأ عن انتشار الشاذليه فى بلادنا مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقيه ، إذ ترتب على ذلك ازدهار شأن طبقه من المشايخ والمرابطين ، أصبحوا يملكون زمام الأمر فى الأمة ويسيرونها فى الاتجاه الذى يرون ، ورأى الأتراك أن يستغلوها لاستمرار سلطانهم فى الجزائر ، أما فى المغرب حيث لا نفوذ للسلطان العثمانى فقد أمكن خروج هذه الدعوة ، فقد دعا السلطان مولاى سليمان العلوى إلى السلفيه الأولى ومقاومه الطرق وتشعباتها . ويرجع العلامه الفاسى تحول الانتباه إلى القوة العسكرية والعمل السياسى كنتيجة لهزيمة المسلمين أمام قوات الاستعمار فى الجزائر مما دفعهم إلى التفكير فى : « التجديد الفكرى والاجتماعى » .

فقد كتب أحد علماء المغرب كتابا أسماه كشف الغمة فى أن الحرب النظامية واجبة على هذه الأمة ، وقال : أن الأوربين تطوروا فى أساليبهم العامة بينما نحن لا زلنا نواصل الأساليب العتيقة فى جهادنا وفى تدبيرنا . وكان أول من تصدى للنشر دعوة اليقظة والإصلاح وهى ما يطلق عليها فى المغرب الدعوة السلفية : الشيخ عبد الله السنوسى ، أحد علماء القرويين الذى سافر إلى المشرق واتصل بأقطاب الدعوة وصدع بدعوته داخل الجامعة القروية ثم تتلمذ عليه «محمد بن العربى العلوى» ثم ظهر الخضر الشنقيطى وأبى شعيب الدكالى ، وقد كان للعروة الوثقى التى أصدرها الأفغانى وعبده فى باريس ، ثم للمنار أثرها البعيد المدى فى تأريث مفاهيم تحرير العقيدة وارتباط ذلك بمقاومة النفوذ الأجنبي ، وقد اتخذت الحركة السلفية فى المغرب خطوات أشد حسما وعنفاً عندما استغل الفرنسيون بعض مشايخ الطرق ، مما أدى إلى الحكم على رئيس الزاوية الكتانية بالإعدام وتنفيذه ، وصدور رسائل وكتابات عنيفة فى مهاجمة الكتانيين وغيرهم من رجال الطرق ووسعت الحركة نطاقها بمقاومة الشيوخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لأغراضهم الشخصية، واستطاعت هذه الحركة من بعد ومع الزمن أن تحل محل التصوف ممثلة قوة الإسلام وسلامة مفاهيمه .

(٤)
اليقظة فى عالم الإسلام

لم تكن حركات اليقظة التى ظهرت فى القاهرة ونجد هى أولى حركات اليقظة فى عالم الإسلام ، فقد شهدت « الهند » الإسلامية فى خلال القرن الحادى عشر دعوة أحمد عبد الأحد السرهندى الذى ظهر فى حكم « جلال الدين أكبر » .

وقاوم دعوة أكبر إلى ما ادعاه من دين جديد أطلق عليه « الدين الإلهى » وكان السرهندى من تلاميذ الطريقة النقشبندية ، وقد استطاع أن يواجه هذا الانحراف ويقاومه ، وأن يقاوم حكم إبنه وأن يبث دعوة الإسلام الصحيح فى رجال دولته وجيشه وأن يستنفرهم لخدمة الإسلام كما قاوم طائفة الصوفية الذين تأثروا بفلسفة البراهما وهاجم فكرة « وحدة الوجود والحلول والاتحاد » التى التى كانت قد تغلغلت فى التصوف والآداب ، وقضى على فكرة استقلال التصوف عن الشريعة ، وهاجم كثيراً من العقائد والأفكار والعادات التى تسربت إلى المسلمين ودعا إلى التصوف الاسلامى الخالص من منابع القرآن كما هاجم أباطيل العلماء الخاضعين للأمراء ودحض ما ابتدعوه ونسبوه إلى الإسلام ونصح للأمراء والحكام وحارب التظاهرات والبدع (توفى سنة ١٠٣٤ هـ — ١٦٢٥ م) .

وكانت حركة شاه ولى الله المتوفى (سنة ١١٧٦ هـ — ١٧٦٢ م) تمثلا لمفاهيم حركة التوحيد التى حمل لواثها محمد بن عبدالوهاب ثم ظهر أحمد عبد الرحيم الدهلوى ١١٧٦ هـ، الذى دعا إلى تصحيح مفهوم الاسلام والاتصال المباشر بالكتاب والسنة، ونشر علم الحديث وبيان أساليب الاسلام واسسه فى تنظيم الحياة والمجتمع، وأبرز آثارة كتابة « حجة الله البالغة » وقد ظهر الدهلوى بعد ذيوع دعوة التوحيد (الوهابية) وقد تأثر بها، ثم ظهر الامام أحمد بن عرفان الشهيد وبدأ دعوته ١٢٣٦ هـ وقد دعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ومحاربة البدعة، وتمكن أصحابه من إنشاء دولة فى (بشاور) طبقوا فيها نظام الاسلام وجمعوا بين العبادة والجهاد واستشهد ١٢٤٦ هـ.

وقد كان لهذه الحركات أثرها فى ثورة الهنود المسلمين على الانجليز (١٨٥٧ م — ١٢٧٤ هـ) هذه الثورة التى جالد فيها المسلمون النفوذ البريطانى، وفى أعقاب انتصار البريطانيين تحولت شركة الهند الشرقية إلى احتلال بريطانى سافر، وكان لهذا الحدث أثره البعيد المدى فى نفوس المسلمين بعد استكمال السيطرة البريطانية على الهند وتكوين الامبراطورية البريطانية، هذه السيطرة التى أبعدت المسلمين حتى هـــذه الفترة عن مكان القيادة وعزلتهم تماماً عن الحكم والتعليم، وقدمت الفئات الأخرى عليهم، مما أثار روحاً من اليأس فى نفوس المسلمين وأضفى على مستقبلهم لونا من فقدان الثقة، وقد زاد فى هذا الجو المكفهر ما عمدت إليه بريطانيا مع دفع مجموعات من المبشرين فى القرى والمدن فى حماية سلطانهم ليشنوا حملة ضخمة على الاسلام : « شريعة وعقيدة » وعلى نبي الاسلام، بالاضافة إلى الدعوة إلى المذهب الطبيعى والمادية والالحاد، وكان المجال الضخم لسحب الأرض من تحت الاسلام بالتركيز فى مجال التربية والتعليم، فقد حرص الاستعمار البريطانى على إنشاء مدارس تحمل لواء الهجوم على الاسلام والأديان والقيم الاسلامية الفكرية والتاريخية والاجتماعية، بهدف خلق أجيال جديدة من المسلمين معادية له، وقد واجهت حركة اليقظة هذا الموقف بفتح المدارس العربيه الاسلاميه والمعاهد الدينيه الاهليه، التى استطاعت أن تكافح خطر الغزو الفكرى الغربى.

واستطاع المسلمون تخريج دعاة للاسلام ومرشدين يقاومون تيار الالحاد والتعزيب العنيف، وكان فى مقدمه العاملين فى هذا الميدان مولانا محمد قاسم النانوتوى الذى أنشأ مدرسه ديوبنيه ومولانا سعادت على الذى أسس مدرسه مظاهر العلوم فى لكهنو ١٣١٢ هـ بزعامة مولانا محمد على المونكيرى واستطاعت أن تخرج علماءموفقون يجمعون بين الثقافه الاسلامية والغربيه، وقدركزوا على السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى كسلاح دفاع فى مواجهه حملات دعاة النصرانية والمبشرين وفى

مقدمة إعلام هذه المدرسة : شبلي النعماني وسليمان الندوي ومسعود الندوي الذي أصدر مجـلة الضياء العربية ١٣٥١ — ١٣٥٤ . وقد كان أبرز مفاهيم حركة اليقظة الأسلامية في الهند إن الأمة العربية هي وعاء الاسلام ولسانه وأنها القادرة على حمل رسالة العمل الاسلامي في هذه المرحلة بعد ضعف الدولة العثمانية .

وقد ظهر في هذه المرحلة السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة ، داعيا إلى التعليم العصري الذي حجبه الاستعمار الانجليزي عن المسلمين عمداً ودفع إليه غيرهم ، وكانت كلية عليكره (١٢٩٣) تطوراً لليقظة الاسلامية على نحو المصالحة مع النفوذ البريطاني ومنه أيضاً انطلقت دعوات أخرى باسم الاسلام أخذ عليها انحرافها عن شمول مفهوم الاسلام وتكامله وقد عد كثير من الباحثين حركة أحمد خان من حركات الاصلاح الإسلامية ، مغضين عن تحريفاته في تفسير القرآن ، من نفي المعجزات واعتبارها خوارق غير طبيعية ، وتقريره بأن النبوة غاية إنسانية يصل إليها المرء بالرياضة النفسية والمجاهدة مما مهد لظهور المذهب القادياني في الهند وقيام غلام أحمد بدعوته . وفي أواخر القرن الثالث الهجري ألقى الأنجليز بثقلهم في أولى محاولات التغريب وإثارة الشبهات (١٨٨٠— ١٢٩٨) بتوسيع نطاق الدعوة التي أطلقوا عليها « نيتشر » وعمت وحدات أوده وبنجاب وبنجال والسند وحيدر أباد مساجلات ضخمة في هذه المفاهيم ، وقد واجه جمال الدين هذه الحركة وألف بالفارسية كتابه المعروف الذي ترجمه الشيخ محمد عبده « الرد على الدهريين » وقال أن الدهرية نزعة ظهرت في بلاد اليونان في القرنين الثالث والرابع قبل المسيح وأن هدف هذه النزعة محو الأديان ووضع أساس الاباحة والاشتراك في الأموال .

(٣٤)

الإسلام والغرب

لم يتوقف اتصال الاسلام بأوربا منذ بزوغ فجره ، حين اتصل بعالم الغرب عن طريق الأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ثم اتصل مرة أخرى بالحروب الصليبية ، ثم اتصل عن طريق القسطنطينية والبلقان بعد أن وسع الاسلام آفاقه إلى أسوار فينا . ومن هنا فقد امتد اتصال الاسلام بأوربا سياسيا وثقافيا دون توقف . ويمكن القول بأن الضياء الذي ألقاه الأسلام إلى العالم منذ بزوغ فجره ، قد تطور واتسعت آفاقه في مجال العلوم والطب والفلك كامتداد للحضارة الإنسانية ، وكان دور الاسلام

فى هذا المجال إيجابيا وقويا ، فقد أضاف إضافات أساسية إلى حركة العلوم .وطبعها بالطابع الإنسانى وجعلها حقا مباشراً للبشرية بعد أن كان طابعها ارستقراطيا ، ولقد أعطى الإسلام للعلم إلى ذلك طابع الأخلاقية والخير والإخاء وتكريم الانسان والاستعلاء على الظلم والغدر وأعطاها تربية الضمير وحين كانت أوربا تمر بأقسى مراحل التأخر ، كان عالم الاسلام يزخر بحضارة واسعة الآفاق ، عميقة الأثر ، فى مجال العلم والحضارة والفن والعمارة وقد التقى الغرب بحضارة الاسلام فى معارك الصليبيين حين غزا الأضعف حضارة الأقوى ، فكان ذلك مقدمة لاقامة الجسور الكبرى التى نقلت الحضارة والفروسية وقيم الفكر الإسلامى إلى مجتمع حضارة الغرب وثقافته . وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضم مجتمع الأندلس بجامعاته ومعاهده العلمية وبخزائن كتبه وآثار حضارته وثقافته إلى الغرب انضماما نهائياً ، وأجلى العرب والمسلمين عنه وحرمهم من آثار علمهم ، هنالك نقلت أوربا جذور الحضارة الاسلامية والثقافة العربية إلى لغاتها ، ومنذ ذلك اليوم كانت كل خطوات النهضة ذات اتصال وثيق بالفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية ، بل كانت كل الخطوات التالية استكمالا لما أتمه المسلمون والعرب وحققوه فى مختلف ميادين العلم والفن والفلسفة والأدب والعمارة . وهكذا لايموت التقدم العقلى الانسانى بل ينتقل حين تضعف الدول وتضطرب السياسة . وتمثل فى هذا مرحلة من أدق مراحل حركة الحضارة الانسانية التى نشأت على ضفاف النيل والفرات . ثم انتقلت إلى يونان وروما ، ثم تحولت مرة أخرى إلى عالم الاسلام ، ثم تحركت مرة أخرى إلى أوربا بعد مرحلة خصبة أمتدت أكثر من ألف عام ، منذ سقوط روما فى القرن الخامس إلى أن بدأ عصر الرينسانس فى القرن الخامس عشر ، غير أن الأثر الاسلامى للحضارة والثقافة قد ظل قويا بعيد الأثر فى اليقظة الأوربية فى مختلف مجالات الحضارة والثقافة ، مهما حاولت أوربا أن تنكره أو تزيل مظاهر آثاره ، فقد ظل بارزاً فى معالم الفلسفة وفى مجال الطب والفلك والكشف البحرى لايمكن أن ينكر . بل فى مجال الفكر المسيحى نفسه وإذا كان الفكر الاسلامى قد توقف فى عالم الاسلام نتيجة لسنن التاريخ وظواهر الكون ونواميس الزمن ، فإنه قد تحرك فى أوربا من خلال النهضة ولم يستطع المؤرخون المنصفون إنكار نتائجه . وقد كان عمل ابن رشد بعيد الأثر فى الفكر الفلسفى الأوربى إلى حد يمكن أن يقال معه أنه كان نقطة تحول ، وأن مفهوم الإسلام للحرية وللكرامة الانسانيه وللمساواة ، كان بعيد الأثر من بعد فى كل كتابات الفلاسفة أمثال روسو وديدرو وفى الحركات السياسية كالثورة الفرنسية وغيرها وكانت دعوة الفكر الاسلامى إلى « تحرير العقل » بعيدة المدى فى انهيار نفوذ الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة ، بل أن حركة لوثر وكالفن

كانت أثراً من آثار الفكر الاسلامى ، ومن قبل كانت حركة إبطال عبادة الصور ورفعها من المعابد فى بيزنطة نتيجة لمفهوم الأسلام ، حتى ليصل بعض المؤرخين فى هذا المجال إلى القول بأن الصراع بين الكنيسة والحرية العقلية فى القرون الوسطى كان صراعا بين الكنيسة والفلسفة الإسلامية بأسرها ، وقد كان الرهبان الفرنسكانيون أنصاراً أقوياء للفكر الاسلامى وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن دعوة الأصلاح فى أوربا لم تبعد عن الأسلام إلا قليلا ، وذهب بعض طوائف الأصلاح فى العقائد إلى مايتفق مع عقيدة الاسلام (رسالة التوحيد) . وقد ظل العلماء فى أوربا منذ القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى يعملون على نقل العلم العربى والفكر الاسلامى ، وقدمت الثقافة الاسلامية مادة ضخمة فى مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وكما ترك ابن رشد أثره الفلسفى فقد ترك الغزالى طابعه العقلى على الباحثين الغربيين فاستغلوا براهينه فى مسائل اللاهوت ، كما أثر التصوف فى الفكر الغربى (ج مور : تاريخ الأديان) كما ترجم القرآن السادس (الثانى عشر الميلادى) وكان لابن حزم أثره البالغ المدى فى الفكر الغربى وقد بقيت أراؤه واستمر الخلاف حولها إلى ما بعد وفاته بنحو قرن وخاصة آراءه فى اليهودية والمسيحية ، وقد أشار [كتاب تراث الاسلام ج١ ص٥٤] إلى هذا المضمون حين قال « استغرق تأثير الاسلام كل مرافق الحياة فى أسبانيا فى القرن العاشر حين سقطت طليطلة وانتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوربا ذلك أن (طليطلة) كانت قد أصبحت شيئا فشيئا مركز الثقافة الاسلامية فى القرن الحادى عشر بعد أن خرب البربر قرطبة . وكان توماس الأكوينى بالغ التأثر بكتابات الغزالى وابن رشيد ، وكان للقرآن بعد أن ترجم بالغ الأثر فى صيحة لوثر بعد أن قرأ ما كتبه ابن رشد وابن سينا والفارابى عن نبي الاسلام « محمد » مما دفعه إلى أن يقول عن المسلمين : أن نشاطهم الدينى مثل يحتذى ، وكذلك حكومتهم الرشيدة ، وقوانينهم وصدق أخلاصهم ، وهم يتركون الناس يعتنقون الدين الذى يميلون إليه ولا يكرهون أحداً » ولا شك كان حادث الاصلاح البروتستانتى المسيحى من الأحداث البارزة فى تاريخ الأديان ، فقد ارتبطت بأصول الاسلام وعلوم الاسلام ، وقد أشار أمين الخولى فى رسالته [صلة الاسلام باصلاح المسيحية] إلى أن التأثير الاسلامى كان فى أوربا قويا واضحا وبخاصة فى البيئة الجرمانية » ومن هنا كان أثر الاسلام الواضح فى تحرير العقل الأوربى ، وفى مقدمة هذا الأثر : إلغاء وساطة الكنيسة بين الله والناس ، والثورة على الأصنام والصور وتحطيمها .

(٢)

فى تقدير كثير من الباحثين أن الحضارة الاسلاميـــة انتقلت إلى أوربا عن مصادر مختلفة، غير أن الجزء الأكبر قد انتقل عن طريق « الأندلس » ويقدر بأربعة أخماس هذه الحضارة، فقد كانت موطن استقرار للحضارة والثقافة الاسلامية، وتزاوج واختلاط بين المسلمين والعرب من ناحية وبين الأوربيين من ناحية أخرى خلال ثمانية قرون، والواقع أن الحضارة الاسلامية والفكر العربى الاسلامى لم ينتقل من عالم الاسلام إلى أوربا، ولـكن الأرض التى كانت تحملها الحضارة هى التى نقلت وذلك باسترداد الفرنجة والأسبانيين وحدات المملكة الاسلامية « الأندلس » جزءاً بعد جزء خلال فترة لا تقل عن ثلاثة قرون، ولعل أبرز مانقلت الحضارة إلى أوربا « المساواة »، كان القانون الاسلامى يطبق على الجميع، يقف الفقير والغنى أمام القاضى. ومن هنا كانت هذه أبرز الأفكار الاسلامية الأساسية التى قامت عليها حركة النهضة وفلسفة الثورةالفكرية التى كان لها أكبر الأثر فى أوربا. ومن أعظم مانقلته النهضة عن طريق الأندلس « الفلسفة الاسلامية » بطابعها المختلف كل الاختلاف عن الفلسفة اليونانية أو الهندية أو غيرها وأهم ما تمثله الفلسفة الاسلامية: المقارنة والتوفيق بين الايمان والعقل وبين العلم والدين. فقد كان أبلغ ما وصل إليه مفكرو الاسلام وفلاسفته استمداداً من مفاهيم الاسلام بفسه، التقريب بين مجرى الايمان والعقل وبين الدين والعمل والتأليف بين أجزائها بعد أن كانت الفلسفات السابقة تفصل بينهما، وقد بلغت الحضارة الاسلامية فى الأندلس مبلغا عاليا وضخما بالمقارنة بينها وبين أوربا، فقد كانت قرطبة وعدد سكانها نصف مليون نسمة بها ثلثمائة حمام وسبعون داراً للكتب وفيها من الطرق المرصوفة المضاءة ليلا ما يبلغ فى جملته أميالا كثيرة، فى نفس الوقت الذى كانت لندن وباريس فى حالة تأخر شديد، وفى قرطبة أنشئت الجامعة الاسلامية الكبرى التى استقدم لها عبد الرحمن الثالث العلماء من المشرق، وأنشأ بها ست وعشرون مدرسة مجانية ونقل بها مئات المؤلفات من الشرق، غير أن الفرنجة لم يلبثوا أن انتزعوا مملكة طليلة الاسلامية من المسلمين عام (٤٧٨ هـ — ١٠٨٥م) ومن ذلك بدأ ريموند رئيس الأساقفة ترجمة الفلسفة والعلوم العربية، وظلت هذه الحركة مزدهرة فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاما وقد اتسعت حركة الترجمة فى القرن السابع الهجرى (١٣ م) وعن طريق هذه المؤلفات العربية الاسلامية المترجمة تجمعت مصادر الفكر الغربى الحديث مستخلصة عصارة الفكر الاسلامى والمعارف والثقافة العربية وقد درس فى معاهد الاسلام فى طليطلة كثير من أعلام

الفكر الغربى وعن طريق حقلية تمت حركة مماثلة ، وقد شملت هذه الحركة العمارة البحرية والفلك والتنجيم والرياضيات والطب والزراعة والتجارة والصناعة والفلسفة والادارة والموسيقى والألعاب والفروسية . وهكذا انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوربا عن طريق بالرمو (صقلية) طليطلة (الأندلس) بالترجمة ، وانتقل إلى اللغات الأوربية بواسطة هذه الترجمات وأمثالها عديد من المصطلحات والألفاظ العربية الصغيرة ، ومختلف آثار ابن رشد و الفارابى والخوارزمى ، وابن سينا والرازى وما تزال مصطلحات الفلك حتى اليوم عربية ، وكان للمسلمين دورهم الطليعى فى مجال البصريات والرياضيات والفلك والموسيقى والطب .

(٣٥)

الغرب والإسلام

ذلك كان دور الإسلام فى أوربا فماذا كان دور أوربا فى الإسلام ، الحق أنه كان دوراً مليئاً بالعقوق والكراهية والتعصب ، فإن الغرب لم يلبث أن استيقظ على فكر الإسلام وحضارته حتى استأنف الغارة على عالم الإسلام وبدأ مرحلة جديدة من مراحل الغزو ، أشد عنفا من الحروب الصليبية ، وكان البرتغاليون والأسبانيون أبعد الناس تأثراً بالفكر والثقافة العربية الإسلامية والمحررون لذلك التراث الضخم ، هم حملة لواء حملة العقاب لعالم الإسلام ولشواطىء المغرب أولا ، وأصحاب فكرة « تطويق عالم الاسلام » بالالتفاف حوله . وقد غفل الكتاب والباحثون والمؤرخون طويلا فى آثارهم ومؤلفاتهم التى عرضت لحركة الكشوف الجغرافية حول شواطىء العالم الاسلامى أو فى قلب أفريقيا من بعد ، غفلوا عن أنها حركة استعمارية وليست علمية ، وأنها كانت تخفى وراءها مطامع الحروب الصليبية القديمة ، وأنها كانت تستهدف السيطرة على عالم الاسلام ، مورداً للخامات ومصدراً للإنتاج ، ولا يمكن تفسير أعمال هنرى الملاح أو مركوبولو ، وكولمبس إلا فى ضوء مرحلة جديدة من مراحل استرداد عالم الاسلام نفسه بحسبانه فى تقديرهم كان ملكا للأمبراطورية الرومانية ، وأن تصفية الاسلام والعروبة من أوربا بالقضاء على دولة الأندلس ، كان فى نظر الغرب يستتبع السيطرة على المغرب ومصر والشام بوصفها كانت تحت نفوذ عالم الغرب قبل الاسلام ، وهو مفهوم استعمارى متعصب ، بعيد عن الفهم النزيه لتطور التاريخ وحركته ، يقول جورج كيرك « لقد كان هدف هنرى الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الاسلام حربياً وتجارياً وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدى المسلمين والاتصال فى جنوبى

الصحراء يحون نجاشي الحبشة للتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب ، ومن هنا بدأت في أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وخلال القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والاسبانيون ، في الاستيلاء على موانى شاطىء أفريقيا (مراكش والجزائر) : سبته وطنجة ومليلة والمرسى الكبير ، ثم اتصلت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بقصد محاصرة الأساطيل العربية في البحر الأحمر والخليج الفارسى » .

وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧ واستطاع القونسو البوكرك إقامة دولة في الشرق واستولى على مدينة هرمز ثم سيطر البرتغاليون على الخليج الفارسى خلال القرن السادس عشر ، وأبحر فاسكو دى جاما إلى موزنبيق ، وفي عام ١٥٠٥ خرج البرتغال أسطول تعداده ٢٠ سفينة (١٥٠٠ محارب) فاحتلوا سفالة وكلوه وممباسا ، وبلغوا مسقط وهرمز عام ١٥٠٩ ، وفي عام ١٥١٩ احتلوا السواحل الأفريقية وانتزعوها من أيدى العرب .

غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمع فيه فقد أوقفتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التي استطاعت أن تقضى عليها ، فقد ظهر العثمانيون في مياه الخليج ١٥٨٥ وقابلهم أهل الساحل بحماس شديد ولا سيما أهل ممباسا ، كما دخلت دولة المماليك مع البرتغال في حروب بحرية ، ثم خلف الفرنسيون والهولنديون والانجليز ، البرتغال وأسبانيا وخطوا خطوات واسعة كان أبرزها استيلاء هولندا على أرخبيل الملايو وفرنسا وانجلترا على أفريقيا واستأثرت انجلترا بالهند ، كما ناهض الانجليز البرتغاليين وأرسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام ١٦١٦ واستقبل الشاه عباس أول بعثة تجارية انجليزية . وقد استطاع العثمانيون انقاذ العالم العربى من الغزو البرتغالى الاسبانى الذى استهدف خنق التجارة العربية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الأسلامى للاغارة عليه وضربه ، هناك سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ماعدا مراكش ، واستطاعوا مواجهة الأسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحله وأذالوا منهم وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تقضى على على النفوذ البرتغالى الاسبانى وأن تحفظ شاطىء البحر الأبيض المتوسط للعروبة والاسلام ، غير أن الاستعمار لم يلبث أن استأنف حركته باسم بريطانيا وفرنسا وهولندا للسيطرة على البحار الإسلامية منذ ١٦٨٣ .

واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا وشمال المحيط الهندى في مطلع القرن الثامن عشر (الثانى عشر الهجرى) فأرهب ذلك الأوربيين وأزعج انجلترا وهولندا ، واستطاع

أحمد بن سعيد عام ١٧٤٠ أن يقف في وجههم في عمان ، هنالك فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة .

وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام ١٠٠٠ إلى إلى ١٢٥٠ هـ وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي فأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة البحار العظمى الثلاث ، وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والأفريقية ، ولقد كان الأسطول العماني مؤلفا من ثلاثمائة قطعة من بارجة وفرقاطة ونسافة وحراقه ، قبل أساطيل المماليك والدولة العثمانية ، ولم يصبر الانجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا فعملوا في مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها وضرب الأسطول البريطاني معقلها بالقنابل (ك . حياة الشرق) .

وقد بدأت حملات هولندا إلى جزر الهند الشرقية عام ١٥٩٩ واستطاعت أن تركز نفسها من بعد ، أما شركة الهند الشرقية الانجليزية فقد بدأت عام ١٦١٢ وفي حوالي عام ١٧٨٠ تركز الاستعمار الهولندي في أرخبيل الملايو وتركز الاستعمار البريطاني في الهند . ولا شك كان هدف الاستعمار الغربي أساساً هو القضاء على الإسلام كقوة للوحدة والمقاومة وكخطوة تقف أمام توسع النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي في السيطرة على المنطقة .

يقول الدكتور حسين مؤنس : أن أوربا لم تكف عن التفكير في الإسلام والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوني ، وفي القرنين ١٢ و ١٤ (السابع والثامن الهجري) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الإسلام بين دولتين مسيحيتين . ثم كيف اتصلت الأسباب بينها وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الإسلامية في مصر ، ثم كيف بدأت تتجه إلى الغرب للوصول إلى الهند والوصول إلى بلاد الإسلام ، ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الابد ، بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره ، نعم ، تلاشى ذلك الحلم الخادع الذي كان يرسم لاصحابه في الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحية تحصران الإسلام بينهما فلا تصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن اسبانيا وفي جانب من شرق البحر الابيض : ذلك أن خانات فارس دخلوا الإسلام ١٣١٦ م

وأسلم أهل وسط آسيا فى منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجرى) . وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتى ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصينيين فى وجه التجارة الأجنبية فـكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعاً بعيداً فى رقعة الإسلام الذى أدرك شأواً بعيداً من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولـكن أملا جديداً تراءى للغرب الذى لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً فى أكبر إنقلاب عرفه التاريخ ، وتساءل الأوربيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر ، لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم ، واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضى المقدسة » هكذا كان مفهوم الغرب للغزو الجديد والمرحلة الجديدة للحروب الصليبية ، التى أطلق عليها اسم « الاستعمار الحديث » . وقد كان احتلال بريطانيا للهند وهولندا الجاوة وأرخبيل الملايو هو الخط الأول لتطويق عالم الإسلام ، وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدعوا فـكرة استعمار عالم الإسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٢ .

وأسس الهولنديون عام ١٦٠٠ م الشركة الشرقية وأسسوا شركة الهند الغربية عام ١٦٢١ م فامتلـكوا غينيا وسورينام وركاب وسيلان عام ١٦٥٣ وجزائر ملقة وفى ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارمة (أهل حضرموت) قد هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام إلى جزائر الهند الشرقية ونشروا فيها الإسلام . وبعد أن تمت حركة التطويق تحولت شركتى هولندا وانجلترا إلى استعمار صريح . لم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الإسلام : « الامبراطورية العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من ١٦٨٤ إلى ١٨١٨م خلال مائة وأربعة وثلاثون عاماً وتنافست فى ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت فى نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة وفى مقدمتها القضاء على القوة الشابة فى مصر التى قادها محمد على وإبراهيم . واستطاعت بالضغط أن تفرض فى الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية ، وفى الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمتها روسيا (حين عبرت القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسيا) وبريطانيا وفرنسا ، وتتمثل فى هذه الحركة الضخمة « أزمة الاسلام الـكبرى » المـكملة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتى لم تتوقف أكثر من ثلاث قرون تضاءلت — ولا نقول توقفت — فى أواخر القرن الثانى عشر (السادس الهجرى) ثم استأنفت عملها من جديد فى منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) . وقد تمثل ذلك فى عدة خطوات : (١) تطويق العالم الاسلامى .

(٢) السيطرة على الهند وأرخبيل الملايو . (٣) تمزيق الدولة العثمانية من الداخل. (٤) اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية . (٥) تنازع السيطرة على فارس. وكان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه إليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر . يقول الدكتور مصطفى الحفناوى : إنه فى سنة ١٤٩٨ م حدث تحول خطير فى التاريخ الانسانى ، ذلك أن الملاحين البرتغاليين (فاسكو دى جاما) استطاع أن يصل إلى الهند طوافا حول رأس الرجاء الصالح واستعان فى ذلك بجماعة من الملاحين العرب أبرزهم (أحمد بن ماجد) . وكانت قد رفعت إلى ملك فرنسا عام ١٢٤٩ (٦٤٧ هـ) وثيقة تطالب بشق قناة برزخ السويس تكون ملكا للعالم الغربى كجزء من خطة الحروب الصليبية ، ثم توالت المشروعات التى تستهدف إنشاء طريق فى برزخ السويس ، وفى ١٥ مارس ١٩٧٢ رفع الفيلسوف ليبنتز إلى لويس الرابع عشر مذكرة قال فيها « أريد أن أتحدث فى مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة فيها على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، أنكم حين تغزون مصر ستقضون على الأمبراطورية التركية القضاء المبرم ، إذا غزوتم مصر ستنظرون بعين الارتياح والرضا لهجومكم على المسلمين الخ» ثم كان مشروع المركيز دى سنبلاوى بشق قناة فى برزخ السويس تصل النيل بالبحر الأحمر، وقد كادت الدبلوماسية الفرنسية أن تظفر بموافقة السلطان العثمانى ، غير أن الحركة القومية المصرية التى قادها العلماء وقفت دون المشروع سداً منيعاً . وفى نفس الوقت توسعت حركة النفوذ الاستعمارى فى قلب الدولة العثمانية عن طريق الارساليات والكليات الدراسية التبشيرية ، وعن طريق خلق طليعة مثقفة من غير المسلمين تحمل لواء الحملة على تركيا ويكون من نفوذها البالغ إنشاء الصحف فى مصر والمغرب وأوربا للهجوم عليها وتركيز الحملة عليها بوصفها « صورة الاسلام » بحسبان كل أخطاء الدولة العثمانية هى « أخطاء الاسلام » نفسه ، وكان هذا من التمويهات الضخمة التى اصطنعها الاستعمار كسلاح خطير فى وجه « اليقظة العربية » التى حاولت أن تحمل لواء نمو الاسلام وحيويته .

الإسلام والغرب

مرت العلاقة بين الاسلام والغرب فى ثلاث مراحل :

(الأولى) مرحلة العطاء : قدم الاسلام إلى الغرب كل حصيلته من الحضارة والعلم والثقافة فكانت مبعث النهضة الحديثة فى أوربا فى القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) .

(الثانية) مرحلة الجحود من الغرب ، فقد أنكر فضل الاسلام ، وازدرى بأثر الثقافة الاسلامية ، واستعملها سلاحا لضرب الاسلام وعالمه ، والقضاء عليه كقوة ، واستغل مختلف قوى العلم فى السيطرة والظلم مغلفاً فكره بالتعصب والاستعلاء الجنسى ومقاومة فكر الاسلام ودينه ومقوماته .

(الثالثة) مرحلة التحول : وهى مرحلة دقيقة تتمثل فى آراء عديد من الباحثين المنصفين — غير المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب المتصلين بدوائر وزارات الاستعمار والمستعمرات — هؤلاء الذين يحسون بالحاجة إلى مقومات جديدة للفكر الانسانى بعد أن بلغ الفكر الغربى غايته فى الانحياز للماديات ، فقد تكشف للعلماء والباحثين المجردين عن الغايات الاستعمارية ، أن العقل الانسانى قد كبر وتضخم بينما روح الانسان قد ضعفت ، ومن هنا كان تطلع الباحثين إلى الثقافات الانسانية ، وكان الرأى على أنه إذا كان الفكر الغربى (الأوربى) قد بلغ إلى مرحلة المادية الحالية ، فإن الفكر الشرقى مطبوع بطابع الروحية الخالصة ، بينما يتسم الاسلام وفكره بطابع الشمول والتكامل والوسيطة فى الجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة . ومن هنا برز تيار جديد فى الفكر الانسانى يحمل لواء التطلع إلى الاسلام كحل نهائى وحاسم للمعضلات البشرية وكوسيلة للقضاء على الأزمات وحل الخصومات والخلافات المتراكمة فى عالم الغرب . هذا التيار قد حقق بعض النجاح ولكنه لازال ضعيف الأثر والحركة بالنسبة للتيار الضخم الذى يتصدره الاستعمار فى سبيل إثارة الشبهات والقضاء على مقومات الاسلام وذلك فى سبيل العمل على خلق وحدة فكر عالمية قوامها الفكر الغربى — ينصهر فيها الفكر الاسلامى ويذوب ، ولقد استطاع الاسلام أن يواجه هذا المخطط وأن يتحداه ، ويديل منه ، وليس أدل على قدرة الاسلام فى مرحلة اليقظة أنه فى خلال الخمسين سنة الأخيرة من القرن الرابع عشر (هـ) قد صارع الفكر الرأسمالى والماركسى والصهيونى جميعاً ، واستطاع أن يقاوم القوى الاستعمارية الجبارة ذات السلطان والنفوذ ويواجه الأسلحة والقوى المختلفة التى حاولت أن تؤثر فى مقوماته أو تقضى عليها ،ولاشك سينتصر الاسلام

فى أزمة الفكر الأممى وسيخرج من محنة الفكر الرأسمالى (الغربى) والماركسى والصهيونى ظافراً منتصراً مؤكداً ذاته وقيمه بحسبانها أصلح القيم لعالم الإسلام والانسانية .

(٣٦)

إنتشار الاسلام

اتسمت هذه الفترة بأن جمعت بين : حركتين : (١) حركة يقظة داخلية استهدفت تجديد الإسلام وتصحيح مفاهيمه و (٢) حركة انتشار للاسلام ذاتيا خارج دائرة عالم الإسلام ، وقد عمل المسلمون على نشر الاسلام فى بلاد غربى إفريقيا وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيليبين . وصمد لهذه الحركة عدد كثير من التجار والحجاج والعلماء على اختلاف الأجناس . وكان للمبشرين السنوسيين دور ضخم ، هؤلاء الذين أخرجتهم زوايا الصحراء ، وهم يعدون بالألوف ، فقد قاموا بجولات واسعة فى غربى إفريقيا ووسطها ، وصف المؤرخون والباحثون نتائجها خلال القرن الثالث عشر (١٩ م) بأنه عجيبة من العجائب الكبرى وكتب أحد الباحثين ١٩٠٦ يقول : إن الاسلام ينفذ فى أواسط إفريقيا نفوذا خطيراً حيث الوثنية تختفى أمامه اختفاء الظلام فى فلق الصبح ، وليس ظفر الاسلام فى إفريقيا مقصوراً على الوثنية فحسب بل على الأديان الافريقية الأخرى . ولم يتوقف هذا التوسع الذاتى للاسلام عند إفريقيا وحدها بل امتد إلى بلاد التتر فى روسيا وفى الصين (قبل أن يصاب فيهما بأزمة القضاء عليه خلال القرن الرابع عشر) وقد أشار زويمر إلى أن مصدر انتشار الاسلام هو : فريضة الحج والطرق الصوفية : وليس عجيبا أنه خلال هذه المرحلة — حين كانت اليقظة العربية الاسلامية تحل محل الوحدة الاسلامية العثمانية التى آلت إلى الضعف ، والتى كانت فى نفس الوقت تواجه أعظم تحد لها ، وهو النفوذ الاستعمارى الغربى الزاحف فى غزو جديد ، نجد الاسلام يشق طريقه ذاتيا فى قلب إفريقيا وغربيها بسرعة مذهلة ، ويحقق انتصارات جديدة فى أرخبيل الملايو وشمال شرق آسيا . فقد سجل الاسلام على طول تاريخه كله هذه « الظاهرة » من التحدى ورد الفعل ، فحيث تظهر قوة تحاول أن تقضى منه ، يظهر الاسلام وهو يكسب أرضا جديدة ، وحيث تبدو علامات الضعف والانهيار فى وحدة من وحداته ، تظهر علامات البعث واليقظة فى وحدة أخرى ، فلا يسقط اللواء أبدا ، فإذا ضعفت اليد التى تحمله ، امتدت يد أخرى فابقته مرفوعا ، ظهر هــذا واضحا فى « الغزو الصليبى والغزو التترى » . كما ظهر حين بدأت القوة الاسلامية العثمانية تضعف حيث حلت

محلها يقظة عربية إسلامية عارمة . وحيث يواجه الاسلام فى هذه المرحلة غزوا غربيا جديدا ، يسيطر على مقدرات عالم الاسلام فى الهند وأرخبيل الملايو ، والعالم العربى ، يندفع إلى مناطق جديدة فى إفريقيا وجاوة .

وتبدو صورة التوسع الاسلامى فى قلب إفريقيا فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع الهجرى يرسمها كابتن تيلر فى تقريره الذى ألقاه فى مؤتمر الكنيسة الانجليزية (١٨٨٧ م) والذى نشرته جريدة التيمس ١٨٨٧/١٠/٧ يقول: إن الاسلام اليوم يمتد من مراكش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة وقد خطى بنفسه وثبت أقدامه فى الكونغو وزامبيزى وأصبحت أوغندا — أقوى البلاد السودانية وأشدها بأسا — إسلامية بأجمعها ، أما فى الهند فان التمدن الغربى الذى يهدم أركان الوثنية قائما يمهد الطريق للدين الإسلامى لا غير ، وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون ، وليس هذا بأول تقدم للاسلام يلزم بيانه ، والبحث عن سرعة انتشاره ، بل هو عدم الخلط والخبط فى أصوله وتبيانه ، الأمر الذى جعل له مكانا ثابتا فى قلوب أهله وكل من يدين به ، أجل : فقد اعتنق الاسلام أمة بحذافيرها فى إفريقيا صفقة واحدة ، ولم ترتد إلى الوثنية قط ، والاسلام أفاد التمدن أكثر من أى دين آخر ، فقد نشر راية المساواة والأخوة ، وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين من الانجليز ، هـــذه النتائج التى تنتج عن الاسلام ، فانه عند ما تدين به أمة من الأمم السودانية (الأفريقية) تختفى من بينها فى الحال عبادة الأوثان ، وتحرم أكل لحم الانسان ، وقتل الأولاد ، ووأد الأطفال ، وتصرب عن الكهانة وتأخذ أهلها بأسباب الاصلاح وحب الطهارة ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الأمور الممنوعة ولعب الميسر والازلام محرمة ، والرقص القبيح ومخالطة النساء إختلاطا دون تمييز منعدمة ، وتصبح عفة المرأة عندهم من الفضائل ، فالاسلام هو الذى يعمم النظافات ويقمع النفس عن الهوى ويحرم إراقة الدماء والقسوة بالاعتدال فى تعدد الزوجات والعدل فى الاسترقاق ، وزيادة عن ذلك فالاسلام عفيف بالكلية عن الشركات الدينية التجارية ، وفى غنى عنها بالمرة ، والتجارة الأوربية تمهل وسائل المسكرات وتسوم الشعوب خسفا ، وإذلالا ، والاسلام ينشر لواء المدنية القائلة بالاحتشام فى الملبس والنظافة والاستقامة وعزة النفس » . ويكشف الرحالة جوزف تومسون فى تقرير له نشرته التيمس ١٨٨٧/١١/١٤ جوانب أخرى من حركة إنتشار الاسلام ذاتيا فى افريقيا فيقول : إذا بلغنا غربى إفريقيا والسودان الاوسط

نجد الاسلام كجسم قوى تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتتحرك فيه عوامل الحماسة والأقدام ، كما كان فى أيامه الأولى ، فترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا ، وتقبل عليه بأقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى فيه أشعة نوره منبعثة من شوارع سيراليون ، وآخذه فى إنارة بصائر القبائل المنحطة فى وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام فى أواسط السودان وغربه ، كانت على يد جماعة سليمى الطوية منخفضى الجناح ، وفى الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجرا ذا همة وإقدام يدعى (هو إذا أوابية) كان ذاك الراعى يجهد نفسه لنشر لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الاتلانتيكى ، ونتج عن ذلك أن اشرقت شمس الإسلام فى سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت فى أواخر القرن الماضى عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم إلا رئيس يحمى زمارهم ، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قيض لهم فى بدء هذا الجيل رجلا يسمونه (فوديو) لم يمض غير زمن قليل حتى ساد الاسلام وامتد جناح سلطانه بسرعة غريبة فى بلاد شاسعة وانتشرت سلطته على القبائل المتبربرة فأصابت فوزاً عظيما . إن زعيم الإسلام فى هذه السنوات هو التاجر السودانى (الأفريقى) الذى كان يعتمد فى مهمته على تقواه ، ويستعين بها على أعماله ، وكان يتوغل فى كل قبيلة على مسافة بعيدة عن بلده ويختلط بالوثنيين المتبربرين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم فى طعام واحد ، وكان أينما حل أو سار لا يألو جهداً فى توسيع نطاق ديانته وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس ، والوعظ بها بين الناس ، وفى الحقيقة أن الفرائض والسنن التى ينص بها لا يتيسر فهمها على أخية الوثنى ولا تخرج عن قوة إدراكه ، هذا التاجر كان يقيم تارة معهم شهرا وطوراً ستة أشهر أو سنة وفى خلال هذه المدة تراه موضع التعجب والاستحسان لنظافة ملابسه ولذلك ينكب الناس الذين حوله على تقليده واتباع طريقه وليس فى ديانته شىء يشكل عليهم معرفته ، وعلى هذا انغرست بذور المدنية فى عدة قبائل همجية ونما الاسلام بينها نمواً هائلا إلى حد بلغ فيه المدى فى هذه البلاد وملأ الآفاق .

(٢)

ما زال الاسلام يشق طريقه فى قلب القارة الافريقيه بالرغم من القوى المضادة التى تحمل لواءها هيئات التبشير باعتماداتها الضخمة وبقواها السياسية والعسكرية وترجع أسباب تفوق الاسلام إلى أنه أكثر بساطة ، وأبعد عن التعقيد من الاديان الاخرى ، فهو خلو من الاسرار المذهبية أو تعذيب الضمير ، فالاعتقاد بإله واحد وبمحمد نبيا هما الشرطان الاساسيان فى الإسلام ، فضلا عن أن الاسلام

يجيز تعدد الزوجات واقتناء العبيد والجوارى وهو من هذه الناحية ملائما للنفسية الأفريقية، كما اقترن الإسلام فى أفريقيا بمقاومة الاستعمار وشجب التمييز العنصرى ، يقول نعيم قداح : أن الاستعمار فى غرب أفريقيا كان نهاية للحقبة المزدهرة التى توهجت فيها الثقافة الإسلامية فى ظل الدولة الإسلامية التى قامت فى تلك الأصقاع ، وقد التهمت نيران جيوش الاستعمار فى مدن أفريقية العربية كثيراً من المدارس والمكتبيات وأتى المستعمر على كل أثر على هذا مانطع التيار الحضارى العربى الإسلامى القادم من شمال أفريقية ومصر ، ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للافريقيين بصورة عامة ، وجد كثير منهم أن الإسلام هو الذى سيخلصهم من ظلم المستعمرين ، ولذلك تضاعف عدد معتنقيه فى مدى نصف قرن ، واقترنت الدعوة للدين الحنيف بمجهود فردى لإعادة أمجاد الثقافة العربية الإسلامية ، وقد بدأ الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا منذ ١٢٧٤ هـ ١٨٥٧ م يقضى على الإسلام واللغة العربية ، فهو لم يحاصر اللغة العربية فى شمال أفريقيا والجزائر وحدها بل حاصرها أيضا فى قلب أفريقيا ، فانقرضت المدارس الاسلامية لأنها لم تستطع الحصول على إعانات ، ولم تبق إلا الزوايا للتعليم القرآنى، وقد كان تعليم القرآن هو المنطلق الأول فى التعليم العربى هناك . وإن كان الذين تعلموا فى الأزهر قد أنشأوا عدداً من المدارس الاسلامية عندما عادوا إلى بلادهم ، غير أن المستعمرين سرقوا الكتب الاسلامية ونقلوها إلى بلادهم وأغلقوا المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين بينما توسعت مدارس التبشير والاستعمار ، على الرغم من ازدياد عدد الذين اعتنقوا الاسلام فى تلك الفترة ، وتضخم بصورة واضحة .

وفى المناطق التى احتلتها الانجليز حالوا بصورة عامه بين المسلمين والتعليم ، إذ كانوا يشترطون على المسلم أن يغير اسمه إلى اسم « لاتينى » ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ودراسة التاريخ الاستعمارى ، ووجد المسلمون أن أمامهم أحد طريقتين، أما أن يعمدوا إلى تغيير ديانتهم ليدخلوا مدارس المستعمرين ، وأما أن يحتالوا على المستعمرين فيتعلموا ثم يعودوا إلى دينهم ، بعد أن تشبعوا بآراء وتوجيهات الاستعماريين .

وقد صور توماس أرنولد إنتشار الإسلام فى أفريقيا فقال . كانت الأساليب السليمة هى الطابع الغالب على نشر الدعوة الاسلامية فى أفريقيا ، كان التاجر المسلم عربيا كان أم أفريقيا يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، حتى إذا دخل قرية وثنية سرعان مايلفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التى يبدو فيها وكأنه يخاطب كائنا خفيا وما يتحلى به هذا الرجل من سمو عقلى وخلقى كان يفرض احترامه وثقة الأهالى الوثنيين به » . ويدهش المؤرخون والباحثون من أن الاسلام قد

انتشر بصورة ضخمة فى أفريقيا فى نفس الوقت الذى وطد الاستعمار أقدامه فى قلب أفريقيا ومضى ينشر حملات التبشير والشبهات حول كل ماهو إسلامى . وبالرغم من ذلك فقد واصل الاسلام فتوحه وكان للصوفية وأبناء القارة الهندية من التجار المسلمين الذين هاجروا إلى أفريقيا دور فعال . ويرجع ذلك إلى بساطة الاسلام وسماحته ، وقدرته على ملاقاة الفطرة أو التقاليد أو العادات المحلية دون أن يصادمها ، وهو ما أطلق عليه بعض الباحثين « الاندماج » أو « الامتزاج الصحى » وقد كان لمبدأ « المساواة » بحسبانه المبدأ الأساسى فى الاســلام أثر مباشر وعملى فى ترحيب شعوب أفريقيا به والمسارعة إلى اعتناقه ، وإبرز ما يتسم به فى نظر الأفريقيين هو أن الذين يتحولون إلى الإسلام يعطون نفس الحقوق التى يتمتع بها أى عضو آخر فى المجتمع الاسلامى حتى قيادة الجيوش وتولى أعظم مناصب الحكم .

ويرجع « هوبيرديشان » : الفضل فى نشر الاسـلام بين قبائل الزنوج فى أفريقيا إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية « فقـــد وجـد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الإجتماعى ، وما يتمتعون فى ظله من يسر وأمن فى أسفارهم للتجارة » ويركز على أن إنتشار الإسلام تم بجهود الطرق « القادرية » : التى نشأت فى العراق وتوسعت فى جنوب أفريقيا والسنغال و « التجانية » فى فاس وتتميز بشدة مقاومتها للوثنيين ، وقد كـان لحركة « الأحمدية » دورها فى نشر الاسلام فى أفريقيا ، كما كان المرابطين المغاربة وأغلبهم من اتباع الطريقة القادرية والتجانية — دورهم فى نشر الإسـلام ومد نشاطه من السنغال إلى غينيا والسودان حتى سواحل العاج ومستعمرة النيجر . ويرجع ذلك فى نظر هوبيرويشان إلى : أن الاسلام دين فطرة سهل التناول لا تعقيد فيه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ويقول : لقد بدل الاسلام مظاهر البقاع التى دخلها وأشاع النظافة التى يتميز بها المسلم عن بقية الناس « لباس فضفاض » و « تحريم لحم الخنزير » ويتسم الاسلام فى أفريقيا بطابع صوفى ، وربما اختلطت به بعض العادات الوثنية التى لا تزال باقية . ولعل أبرز أثر للاسلام فى أفريقيا إختفاء أقبح الرذائل وهى أكل لحوم البشر وتقديم الانسان قربانا ووأد الأطفال أحياء ، لقد حول الاسلام العراة إلى لابسين ، والذين لم يغتسلوا قط إلى الطهارة ، وأعان على اندماج القبائل فأصبحت أمما ، وفتح باب ازدياد المعرفة والثقافة . وقد أمر الاسلام الأفريقيين بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس وقضى على الحروب الصليبية . ولعل أبرز ما أعان على انتشار الاسلام فى أفريقيا ما صوره أحد الباحثين الأجانب حين قال : أنه من السهل على الزنجى أن يصير مسلما ، فيكفيه أن ينطق شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ليندمج حينئذ

فى مجموعة اجتماعية هائلة وسلسلة من تعاضد على مسافة الآلاف الكبيرة من الكيلومترات ، وأن الزنجى المسلم سيجد عند أخيه فى الدين دائما الطعام والحصير للنوم » هذا بالإضافة إلى روحه التحريرية للفرد والجماعة وقد حاول الاسلام ضرب حركة إنتشار الاسلام بإثارة الشبهات حوله واتهامه بأنه قائم على مفهوم الغيبيات والتوا كل ، غير أن اندفاع الاسلام بهذه الصورة بالرغم من كل قوى التبشير التى تواجهه قد تكشف عما يتميز به جوهره من بساطة تعاليمه وانسجامه وطبيعة الفطرة الاسلامية المتحررة من التعقيدات ، ولا شك أن انتشار الاسلام فى هذه المرحلة من مراحل الغزو الاستعمارى يبين عن جوهر الاسلام وقدرته على التحدى ورد الفعل . وفى أرخبيل الملايو استطاع مصارعة البرتغال والهولنديين والفرنسيين والإنجليز واليابانيين .

(٣٧)

بين العرب والترك

حين أخذ نجم العثمانيين والترك فى الضعف ، تألق نجم «العرب» كقوة جديدة للاسلام وان لم تكن القوة هذه المرة فى مجال الحرب والتوسع ، أو المقاومة العسكرية ، ولكنها كانت قوة فكرية سياسية تمثل « مرحلة جديدة » من مراحل حركة تاريخ الإسلام ، ولقد كان من الضرورى على هذه القوة الجديدة أن تتحرر من سلطان الأتراك السياسى والفكرى وكان عليها فى نفس الوقت أن تواجه نفوذ الاستعمار الكاسح المندفع للسيطرة على ميراث الدولة العثمانية التى كانت تمر بمرحلة « الرجل المريض » والحق أن الخلاف بين القوة الإسلامية الجديدة المتألقة وبين القوة الاسلامية التى أدت رسالتها واستكملت دورة التاريخ كان مركزا ، فى مفهوم واحد هو مفهوم (إعادة صياغة الإسلام) صياغة مجددة فى مجال بعثه كرد فعل على عوامل الضعف والتأخر التى منى بها المسلمون نتيجة الانحراف عن تكامل مفهوم الاسلام الجامع بين العقل والقلب ، وغلبة التصوف كمفهوم روحى وجدانى له طابع الجبرية والتوا كل .

ومن هنا كانت اليقظة العربية الإسلامية تقوم على حركات متوالية ، متتابعة ، تمثل فى مجموعها تطور الفكر الاسلامى فى مجال التجديد والاصلاح والتحرر من عوامل الجمود والتخلف والضعف ، وكانت الدعوة إلى التحرر من (الجبرية الصوفية) هى فى نفس الوقت دعوة للتحرر من نفوذ الاستبداد السياسى والجمود الاجتماعى .

وفى مجال التاريخ الإسلامى بدأت « حركة اليقظة » بعلامتين كبيرتين : تقدم العلماء مرة أخرى لحمل لواء المناصحة للحكام والأمراء وقيادة الحركات المطالبة بالإصلاح والعدل الاجتماعى ، وكانت أبرز هذه الصور ، قد انبعثت من الأزهر فى القاهرة ، لمواجهة ظلم الأمراء : إبراهيم ومراد ، وفى نفس الوقت كانت الدعوة إلى « التوحيد » التى حمل محمد بن عبد الوهاب فى قلب الجزيرة العربية دعوة إلى التحرر من مفهوم العبودية السياسية والروحية والاجتماعية كافة . ومن هنا بدأ الصدام بين هذه القوة الجديدة الشابة وبين الدولة العثمانية التى كانت خاضعة لنفوذ الصوفية الجبرية ، غير أن قوة جديدة فى مجال السياسة لم تلبث أن ظهرت فى أوائل القرن التاسع عشر بقيادة محمد على فى مصر ، وكانت تحمل طابع القوة العسكرية ، وتستهدف إقامة إمبراطورية تحل محل القوة العثمانية المنهارة ، وبذا أصبح على المسرح فى ذلك الوقت قوى أربع :

* النفوذ الغربى المتمثل فى الغرب المندفع للسيطرة على العالم الإسلامى وتقسيم ميراث الوحدة الإسلامية العثمانية . * الدولة العثمانية فى مرحلة ضعفها بين مؤامرات الاستعمار ومحاولات الاصلاح . * القوة السياسية الحربية ممثلة فى مصر ومحمد على * القوة الاسلامية السياسية ممثلة فى دعوة محمد بن عبد الوهاب والأمراء السعوديين . ولما كان الاستعمار المتصارع على مناطق النفوذ ، متفقا فى القضاء على الدولة العثمانية وتمزيق ممتلكاتها وتقسيمها فيما بينه ، فقد إستطاع أن يوعز إلى الدولة العثمانية أن تضرب القوتين بعضهما ببعض ، وقد حدث ، فاستعان السلطان بقوة مصر العسكرية الحديثة فى القضاء على قوة الجزيرة العربية ، ثم استطاع الاستعمار من بعد أن يقضى على قوة مصر وبذلك انفسح أمامه الطريق مرة أخرى لتحقيق غايته فى السيطرة على العالم الإسلامى وتقسيمه إلى مناطق نفوذ له. غير أن القوة الإسلامية التى انهارت ، ظلت قوة فكرية متألقة . وكان مفهومهما هو لباب مختلف حركات الإصلاح والتجديد الاسلامى من بعد . وكان القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) مجالا خصباً لعوامل اليقظة التى بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بستين عاماً ، من هنا بدأ وجه الغرب من جديد فى أولى خطوات الغزو الاستعمارى الغربى الحديث (١٢١٦ م — ١٧٩٨ م) والتى امتدت خلال القرن الثالث عشر باحتلال : الجزائر ومصر وتونس والخليج العربى ، وذلك مقدمة للسيطرة التامة على العالم العربى قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها . وكانت الهند وأندونيسيا قد سقطتا فى قبضة النفوذ الاستعمارى فى منتصف القرن التاسع عشر وبذلك تم السيطرة على العالم الإسلامى بعد ثلاث قرون من حركة تطويقه وفى عام ١٩١٨ تمت الحلقة الأخيرة بانتهاء الحكم العثمانى على العالم العربى بعد أن سقطت وحداته تحت نفوذ الاستعمار الغربى .

(٢)

« مراحل الخلاف »

مرت العلاقة بين العرب والعثمانيين فى عدة أدوار : (الدور الأول) للرحلة التى بدأت (٩٢٣ هـ — ١٥١٧ م) وذلك باندماج العرب والعثمانيين فى وحدة إسلامية شامله ، بعد أن ضعفت القوى العربية وقوى للمالك والسلاجقة حين بدأت الوحدات العربية تتعرض للهجوم الغربى وخاصة فى مناطق البحر الأبيض المتوسط وهى المناطق التى واجهت الغزو والحصار الاقتصادى بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، وقد إمتدت هذه المرحلة حتى ظهرت محاولات الانتفاض فى وحدات عربية مختلفة على الحكم العثمانى : خاصة فى مصر (على بك الكبير) وسوريا (ظاهر العمر) لبنان (فخر الدين المعنى) ثم ظهرت حركة عربية إيدلوجية ذات طابع فكرى إسلامى هى دعوة التوحيد : التى كانت تحمل فى مضمونها لواء المقاومة والانتفاض لطابع الحكم العثمانى الذى بلغ غايته فى الضعف والجمود ، ومن هنا بدأت اليقظة الإسلامية تنبعث من قلب المنطقة العربية ، وبدأت القوة العربية تستعيد مكانتها كقوة إيجابية فى مواجهة عوامل الانهيار لتحمل لواء اليقظة والنهضة فى العالم الاسلامى كله ، وكان ذلك إيذاناً بأن الوحدة الاسلامية العثمانية ، قد وصلت إلى نهاية المد ودخلت مرحلة الجزر ، وأكملت دورتها فى مراحل التسكون والتألق والانحدار : وقد وقع هذا فى (١١٥٣ هـ — ١٧٤٠ م) فى نفس الوقت الذى بدأت فيه الدولة العثمانية تتحول من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع بالنسبة لوحداتها فى قلب أوربا والبلقان ، غير أن اليقظة العربية ظلت فترة طويلة فى مرحلة « الشرنقة » . (الدور الثانى) المرحلة التى بدأت فى أول حكم السلطان عبد الحميد ، والتى كان يقودها دعاة الحرية على المفهوم الغربى ، وفى مقدمتهم « مدحت » والتى استطاعت أن تقيم نظاماً سياسياً جديداً (١٢٩٣هـ — ١٨٧٦) قوامة الدستور ، بيد أن هذه الحركة لم تستكمل عناصر البقاء ، ولذلك فإنها سرعان ما انهارت ، ودخلت الدولة العثمانية فى دورصراع فكرى خلال مرحلة استمرت حتى عام ١٣٢٦ — ١٩٠٨ حينما استعادت الدستور العثمانى مرة أخرى . فى هذه المرحلة كان « جمال الدين الأفغانى » قد بدأ دعوته إلى الجامعة الاسلامية التى نؤرخها بوصوله إلى القاهرة عام ١٨٧١ وذلك بحسبان أن مذهبه الفلسفى كان قد تحدد بعد سنوات الكفاح التى قضاها بين فارس والهند وتركيا ، وبحسبان أن مصر — فى تقديره — قلب العالم الاسلامى وأشد مناطق الأمة العربية حساسية ويقظه ، هى أصلح موقع لاطلاق دعوته التى تمثل تطوراً لحركة اليقظة العربية الاسلامية التى

تقدمه بأكثر من سبعين عاماً ، وفى ضوء حركات التحرر والإصلاح فى الدولة العثمانية والوحدات العربية وخاصة فيما يتصل بحركة مدحت وأتباعه الاتحاديين فى قيام دستور نيابى وتقييد سلطات الولاة والامراء ، وهو ما شارك فيه من بعد عندما وضع دستور فارس ، وعندما أشار على سيد « المابين العثمانى » من قيام نظام الولايات ، وما ناقشه مع توفيق وعباس من حكم مصر .

ومن هذه الدعوة ظهرت حركة السلطان العثمانى عبد الحميد التى كانت تعمل من أجل « وحدة المسلمين » ولقد تبين من بعد صلة الاتحاديين باليهود الدونمة وبمخططات الاستعمار بينما استطاع السلطان العثمانى أن يجعل من دعوة « وحدة العالم الإسلامى » سلاحاً يواجه به النفوذ الغربى المضطرد الغزو لعالم الإسلام ، وقد جاءت حركته فى أعقاب تحرر الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية ولاشك كان للحركة أثرها ومفعولها وامتدادها بعد سقوط عبد الحميد عام ١٩٠٩ فقد ظل نصراؤها يحملون لواءها إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ثم تطورت بعد إلى منهج آخر وأسلوب جديد . غير أن الخلاف كان واضحا بين دعوة الجامعة الإسلامية التى يدعو إليها جمال الدين الذى توفى عام ١٨٩٧ وبين حركة الجامعة الاسلامية التى قادها السلطان العثمانى من ناحية وبين حركة الجامعة الطورانية التى كان قيادها فى أيدى الاتحاديين ، غير أن هذا الصراع لم يتكشف إلا بعد عام ١٩٠٩ فقد استطاع الاتحاديون أن يفرضوا نفوذهم عام ١٩٠٨ وأن يحققوا إصدار الدستور فى نفس اليوم ، هذا العام الذى يعد من الأعوام الحاسمة فى تقدير المؤرخين لحركة اليقظة ، فقد استقبل فى هذا الدستور فى مختلف أجزاء عالم الإسلام ووحداته العربية بالذات باهتمام كبير ، غير أن هذا الجو من التفاؤل لم يلبث أن تضاءل بعد إسقاط عبد الحميد ١٩٠٩ . فقد كشف الاتحاديون عن هدفهم فى إعلان الدعوة « إلى الجامعة الطورانية » وأخذوا فى تنفيذ مخطط تتريك العناصر فى الدولة العثمانية وواجهو الأمة العربية بأقسى ألوان الأضطهاد ، حين أصر العرب على الحفاظ على كيانهم القومى ولغتهم العربية ، ووقعت سوريا بالذات فى خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قادتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح الذى قاوم الوحدة العربية أعنف مقاومة .

(الدور الثالث) ومن هنا بدأ الانفصام بين الوحدة العثمانية العربية المتمثلة باسم الإسلام فى الدولة العثمانية ، كانت الحركة العربية فى أول أمرها حريصة على بقاء الوحدة العثمانية العربية ، على أساس قيام نظام لامركزى يحفظ للوحدات العربية كيانها ولغتها ، غير أن أصرار الاتحاديين

على تفريق العناصر ، والدعوة إلى الجامعة الطورانية التى تعارضت فى أسلوب الدعوة مع مفهوم الإسلام ومع مقومات الجماعة العربية ، هنالك انفصمت الوحدة ، وبرزت الدعوة إلى الوحدة العربية سافرة ، غير أن الأحداث العالمية كانت بعيدة الإثر فى تحديد موقف والعرب والترك ، حين قامت الحرب العالمية وانضم الأتراك لألمانيا وأغرت بريطانيا العرب بوعود مكتوبة على إقامة الدولة العربية بعد الحرب شريطة مساعدتهم لها ، هنالك بدأ الصدام بين العرب والترك فى الجزيرة العربيه وفلسطين وسوريا ولبنان على النحو الذى تحقق معه النصر للحلفاء (الانجليز والفرنسيين) فى الحرب العالمية ، وهزيمة ألمانيا وتركيا ، غير أن بريطانيا لم تلبث أن غدرت بالعرب وتنكرت فى عهدها لهم وتعاهدت مع فرنسا على تقسيم الشام (فلسطين وسوريا ولبنان) والعراق . وانتهت الحرب باحتلال انجلترا للعراق وفلسطين واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان مع صدور وعد بلفور بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين وفى نفس الوقت احتل (الحلفاء) العاصمة العثمانية وأجزاء من الدولة ، هنالك برزت حركة التغريب التى قادها (مصطفى كمال) ومنحت عربونا لولاها إجلاء الحلفاء واليونان عن (آسيا الصغرى) وهى القسم التركى الباقى من الدولة العثمانية بعد انتزاع الوحدات العربية منها .

(الدور الرابع) حققت الحرب العالمية الأولى للاستعمار الغربى الوصول إلى استكمال عملية الغزو التى بدأها عسكريا منذ بدأت حملة نابليون ١٨٩٨ ووقف اللورد اللنبي (القائد البريطانى) فى بيت المقدس وقال كلمته الحاسمة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل « الاقليمية الضيقة » فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى تحاول أن ترجع هذه الوحدات إلى ماضيها قبل الاسلام لتدعو إليه من جديد ، ففى مصر ظهرت الفرعونية ، وفى سوريا ولبنان ظهرت الفينيقية وفى العراق ظهرت الأشورية ، وفى المغرب ظهرت البربريه ثم بدأ تمزق عصرى وفكرى ودينى بين العناصر المختلفة ، قوامه مسيحى ومسلم ، وكردى وعربى ، وشيعى وسنى ، ومارونى ودروز ، وبدأت حركة الأقليمية الضيقة تستعلى وترتفع صيحاتها حتى يحال بين عالم الإسلام وبين التجمع فى وحده فكرية ، واتصل ذلك باللغة العربية التى جمدت ، وباندفاع اللغتين الفرنسية والانجليزية إلى السيطرة الثقافية فى العلم الإسلامى كله ، كما اتصل ذلك بالثقافات والبطولات وتاريخ وأمجاد الدول المحتلة لتصبح أجزاء أساسية فى مناهج التربية والتعليم ، وذلك لحجب الطابع الإسلامى الذى كان مسيطراً على الفكر قبل هذه المرحلة ، وبدأت الوحدات صراعا داخلياً عنيفا مع المحتلين ، أحوجها إلى مرحلة طويلة حتى عادت إلى امتلاك أسلحتها وقواها فى الوحدة والإيمان بتراثها ومقوماتها .

أما تركيا الكمالية — فقد اتجهت نحو الحضارة الغربية اتجاها قوياً وحاداً ، فألغت كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية الاسلامية ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، وكان ذلك كرد فعل للعوامل الضخمة التي أوقعت الدولة العثمانية في الاضطراب والتفكك والهزيمة في الحرب العالمية ، وكاستجابة لنتائج مرحلة ضعف طويلة استمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، ومن طبائع الأشياء أن تتحرك القوى المتغلبة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لمرحلة اندفاع أولى ، ثم تعود مرة أخرى إلى التوازن والتعادل بعد أن تمر بمرحلة الانفجار أو التنفيس ، فقد شجبت تركيا الإسلام واللغة العربية كلية وحجبت تراثها الإسلامي والعربي الثقافي كله ، وبدأت تكتب لغة تركية جديدة منفصلة عن اللغتين العربية والفارسية ، واستعملت الحروف اللاتينية ، وقاومت الطابع الديني كلية في الحياة الاجتماعية واندفعت في التحرر إلى أقصى مدى ، في الزى ، وفي البيت ، وفي المدرسة ، وربطت نفسها بعالم الغرب ثقافياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً على نحو أحدث هزة ضخمة ، ثم تابعتها إيران ، وجرت مثل ذلك محاولة في أفغانستان ، وواجهت الأمة العربية هذه التجربة مواجهة لا حد لدقتها ، فقد كانت « حركة التغريب » التي يحمل لواءها الاستعمار والتي تهدف إلى فصل المسلمين والعرب من مقومات فكرهم وكيانهم (التي هي إسلامية أصلا) بوصفها من عوامل المقاومة للغزو والاستعمار والنفوذ الأجنبي ، كانت تحاول أن تتخذ من حركة تركيا تجربة ناجحة وتدعو إلى تقليدها ، وقد أحدث ذلك هزة نفسية بالغة في مختلف مقومات الفكر العربي الإسلامي ، غير أن العرب بحسبانهم حملة لواء « حركة اليقظة » التي بدأت قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وعمقت آثارها في البيئة العربية استطاعت أن تقاوم . لقد ربطت حركة اليقظة الإسلامية العربية بين تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجمود ، وبين مقاومة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقدمت كل الأسلحة لمقاومة الشبهات الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا عجزت حركة التغريب عن ضرب الإسلام في المنطقة العربية .

(الدور الخامس) : بدأت حركة الوحدة العربية تحمل لواء مقاومة النفوذ الاستعماري ، بعد أن تمزقت جبهة الوحدة الإسلامية العثمانية التي التف حولها كثير من المفكرين العرب والمسلمين بحسبانها قوة قائمة فعلا ، تعمل على دفع الغزو الغربي ، فلما مزق الاستعمار « عالم الإسلام » ، قامت حركة الوحدة العربية كعلامة على العمل الواقعي لمواجهة الغزو وتوسيع جبهة المقاومة . وقد بدأت فكرة العروبة مرتبطة بالأساس الفكري بالاسلام ، غير أن الاستعمار الذي قاوم أي وحدة ، حاول أن يثير في أعماق هذه الدعوة الشبهات والتمزقات وذلك حين ظهر تيار يرمي إلى نقل الوحدة العربية من

مفهوم الفكر العربى الإسلامى ومن أرضيته الطبيعية إلى «مفهوم القومية الوافد» منفصلة عن أرضية الإسلام، منعزلة عن مقوماتها الأساسية : من العقائد والقيم، وكانت مؤامرة الاستعمار فى محاولة خلق صراع بين أهل الإسلام لتضرب الروابط بين العرب الوحـــــدات الإسلامية من ناحية ولتجزئة الفكر العربى الاسلامى، بإثارة خصومات سياسية وفكرية بين مختلف العناصر.

(٣)

الحرب الصليبية الجديدة

يمكن أن توصف الفترة التى بدأت بإعلان دعوة التوحيد (١١٥٣ هـ — ١٧٤٠ م) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٣٣٧ هـ — ١٩١٨ م) بأنها مرحلة متكاملة فى مجال اليقظة الاسلامية فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت فى عديد من الموجات والدعوات التى حمل لواءها : محمد بن عبد الوهاب والشوكانى، والسنوسى والمهدى والسرهندى والدهلوى، وجمال الدين ومحمد عبده والكواكبي ورشيد رضا . كما تمثلت فى ثورات متوالية على الانجليز فى الهند (١٨٥٧) وعلى الفرنسيين فى الجزائر (١٨٣٠) وعلى الانجليز فى مصر (عرابى) ١٨٨٢ وعلى الانجليز فى السودان (١٨٩٨) وعلى الروس فى القوقاز وعلى الانجليز فى فارس وتمثلت فى هذه الحركات العسكرية والسياسية والفكرية مختلف أساليب : اليقظة والمقاومة وتصحيح المفاهيم والوحدة السياسية والفكرية والاصلاح الاجتماعى. ويمكن القول بأن (اليقظة الاسلامية) قد واجهت مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الأولى لها طابعها وتحدياتها المختلفة ومن هنا ويمكن القول بأن هذه الحركة حققت نتائج بالغة الأهمية فى مقدمتها :

* بعث أمجاد العرب والمسلمين، والرد على مختلف الشبهات التى حمل لواءها المبشرين ودعاة الاستعمار والتغريب * هز عالم الاسلام، وبعث «خط جديد» قائم على تكامل الاسلام وشموله : بالربط بين العقل والقلب، ومستمد من امتزاج مفهومى الغزالى وابن تيمية للاسلام * حاولت التوفيق بين الاسلام وحاجات العصر، وأعطت الأعمال السياسية والوطنية طابع الاسلام * رسمت مفهومها فى أبسط صورة : العمل بكتاب الله وسنة رسوله مع مسايرة مقتضيات العصر، بحيث لا تقبل نظرة إلا إذا أقرها التوحيد وصادق عليها الاسلام، وفهم الاسلام على أساس أنه يعتمد على القيم ونواميس الكون وتطورات الزمن فى العادات والعبادات * غلب الطابع السياسى على حركة اليقظة فى بلاد

العرب وغلب الجانب العقلى الاجتماعى على الحركة فى الهند وجمعت المغرب بين الاتجاهين * ناضل السلفيون فى المغرب ضد رجال الطرق الموالين للاستعمار وضد الغزاة الأجانب * مزجت حركة اليقظة الاسلامية بين مقاومة الانحلال الداخلى ومقاومة السيطرة الأجنبية * تصفيه التفاسير الجزئية والخاطئة التى وضعت فى فترة الضعف * إعادة الحرية الفكرية * الدعوة إلى دراسة الكتب العلمية الغربية وإن كان مؤلفوها غير مسلمين ، أو كان فيها ما يخالف القرآن للرد عليها * الدعوة إلى استقصاء الشريعة شرحا وتطبيقا .

إذا قلنا أن مرحلة الغزو الغربى على عالم الاسلام فى العصر الحديث بدأت مرة أخرى بعد أن توقفت الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة . فانما يكون ذلك القول بمثابة نظرة جزئية ، إلى الحروب الصليبية التى إنتهت فعلا فى المشرق عام ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م ، أما بالنسبة لعالم الاسلام كله فيمكن القول بأن الحروب الصليبية لم تتوقف وإنما دخلت فى دور جديد من ثلاث مراحل :

(١) مرحلة تطويق عالم الاسلام التى بدأت بحملات البرتغال وأسبانيا بعد تحقيق هدف من أضخم أهداف الغرب وهو تخليص أوربا من سيطرة المسلمين والعرب — هذا فى نفس الوقت الذى كانت أجزاء البلقان قد وقعت تحت سيطرة المسلمين والترك منذ ٧٥٩ هـ — ١٣٥٧م أى قبل سقوط غرناطة بما يقرب من قرن ونصف قرن — وقد كانت الأندلس منطلق حملة تطويق الاسلام حوالى عام ١٦٠٠ تقريبا إلى شواطىء المغرب وشواطىء إفريقيا ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى ١٧٩٨ وقد قاومت الوحدات الاسلامية خلالها مقاومة كبرى وانتهت بقيام استعمار اقتصادى بواسطة شركتين إحداهما هولندية فى أرخبيل الملايو وبريطانية فى الهند ، ثم بدأت رحلة الاحتلال العسكرى (حملة نابليون ١٧٩٨) وانتهت هذه المرحلة ١٩١٨ (نهاية الحرب العالمية الأولى) سيطرت هولندا على أندونيسيا عام ١٨٠٠ واحتلت بريطانيا الهند ١٨٥٧ واحتلت بريطانيا الأمة العربية عام ١٨٣٠ الجزائر ، وعام ١٨٣٩ عدن ، وعام ١٨٨١ تونس وعام ١٨٨٢ مصر، وعام ١٨٩٧ السودان، وعام ١٩١١ ليبيا ، وعام ١٩١٢ المغرب ، وعام ١٩١٧ سوريا وفلسطين والعراق .

ويمكن القول أنه بانتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الاسلامى كله قد سقط فى قبضة الاستعمار الغربى ما عدا : إيران وأفغانستان وإن كان الاستعمار مهما ومع أجزاء من الجزء العربيه معاهدات ، وبذلك انتهت عمليه الغزو الاستعمارى الغربى الحديث ، الذى ظل ممتداً فى بعض أجزاء المغرب والأندلس منذ الحروب الصليبيه ولم يتوقف . وفيما بعد الحرب العالميه الأولى بدأت مرحله مازال ممتدة هى مرحله الاستعمار الفكرى (الغزو الثقافى والتغريب) والاستعمار الاقتصادى لعالم الاسلام ،

وقد تمثلت فى هذه المرحلة إستمرار عملية المقاومة فى مختلف أجزاء عالم الاسلام : هـذه المقاومة لم تتوقف ، منذ بدأت عمليات الغزو العسكرى والسياسى ، غير أنها اختلفت فى فترة ما بين الحربين عنها فى المرحلة السابقة لها ، فقد غلب عليها الطابع السياسى والدبلوماسى ، حيث استطاع الاستعمار أن يقيم حكومات موالية له ، وظلت القوى الوطنية تقاوم بالكامنة والتجمع وبالثورات .

وأبرز ما تتسم به مرحلة ما بين الحربين : « طابع الثورات » بينما كان طابع المرحلة التى سبقتها يتمثل فى « حروب المقاومة » وقد تفاوتت هذه الثورات طولا وقصراً ، وكان أ كثرها شبها بحروب المقاومة : ثورة الريف التى قادها الأمير عبد الكريم الخطابى (١٩٢٦) . وثورة عمر المختار فى ليبيا ١٩٣٠ أما أجزاء العالم العربى فقد اندلعت فيها الثورات متوالية ومتصلة لم تتوقف : مصر ١٩١٩ ، العراق ١٩٢٠ ، والسودان ١٩٢٤ ، سوريا ١٩٢٤ ، فلسطين ١٩٣٥ . أما الهند وأندونيسيا وتركيا وايران وأفغانستان فقد توالت الثورات ، والانقلابات ، بالإضافة إلى ثورة تركستان ، وفى خـــلال هذه الفترة أثيرت فى تركيا وإيران وأفغانستان محاولات تحول وتغيير قامت تحت سلطان التجديد والتغريب ، غير أن العالم العربى كان أقل تأثراً بهذه الحركات وظل أ كثر أصالة فى مفهومه الاسلامى المتصل بماضيه وقيمه ، وكانت تركيا أقوى هذه الوحدات الاسلامية جريا وراء تيار التغريب وقد اتخذها الاستعمار « نموذجاً » للتجربة التى نجا عالم الاسلام من آثارها الهادفة إلى القضاء على طابعه الاسلامى ، والتوغل فى عملية التحول والتغريب ، والانفصال عن مضمون الاســلام الفـكرى والاجتماعى والسياسى .

وتمثل مرحلة مابين الحربين ، أدق مراحل المقاومة والصراع ، ليس فى مجال المقاومة العسكرية أو السياسية تجاه الإستعمار ، بقدر ما كانت فى مجال مقاومة التغريب والتبشير والشعوبية فى مجـال هدم مقومات الفـكر الاسلامى فى نفوس المسلمين وإثارة الشبهات حول الاسلام والقرآن والنبي محمد والتاريخ والتراث واللغة العربية . وقد ركز الاستعمار فى هذه المرحلة تركيزاً ضخما على « الأمة العربية » باعتبارها بدت وكأنها الطليعة الجديدة لقيادة الأســلام ، وبوصفها قلب عالم الاسلام وأقوى القوى المدافعة عن السنة والمفاهيم الأساسية التى كانت دعوة اليقظة فى خلال أ كثر من ١٧٧ عاما قد استطاعت من خلال حركات متعددة تحمل طوابع التوحيد الاسلامية والاجتهاد وتحرير العقل إلى إقامة كيان فـكرى ضخم قادر على المقاومة لم يكن من اليسير القضاء عليه أو تدميره .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية استطاع النفوذ الاستعمارى أن يركز دعائمه الفـكرية والثقافية

فى العالم الاسلامى ، ويتخلى عن قواعده العسكرية ومن ثم بدأت بعد الحرب حركات جلاء واستقلال لمعظم وحدات العالم الاسلامى تحت ضغط القوى الوطنية التى حملت لواء المقاومة .

ومن أبرز إنتصارات الاسلام استقلال أندونيسيا وقيام دولة الباكستان الاسلامية منفصلة عن الهند ، ومن أظهر هزائمه ، وأقسى ما أظهر من حركات الاستعمار فى هذه المرحلة ، عملية زرع دولة صهيونية فى قلب الوطن العربى فى فلسطين (١٩٤٧) وقد كان رد الفعل فى مواجهة إسرائيل هو ذلك التحول السياسى والعسكرى والاجتماعى الذى شهده العالم العربى والذى تمثل فى أكبر وأخطر مواجهة لاسرائيل ، وإذا كان لنا أن نستعرض فى كلمة سريعة موقف الاسلام . قلنا إن مرحلة الحرب العالمية الأولى حققت تقسيم العالم العربى وتمزيق الدولة العثمانية بعد انضمامها لألمانيا وهزيمتها ، ثم انتقاض تركيا على الاسلام وإلغاء الخلافة ، كمقدمة لحركة غزو ضخم للغة والدين والتراث .

أما بعد الحرب الثانية فكانت أبرز الأحداث . قيام إسرائيل وبروز يقظة عربية جديدة قوامها الوحدة العربية لمواجهة الاستعمار والصهيونية معاً . ثم بروز اتجاه تقارب بين العرب وعالم الاسلام بعد فترة من الوحشة والانقسام ، هذا فضلا عن تقارب فى الفكر الاسلامى ارتقى فوق خلافات المذاهب ، وحاول الارتقاء فى مواجهة الغزو الغربى ومن خلال إيمان بالحفاظ على مقومات الاسلام كقوة مدافعة فى وجه حملة الاستعمار الغربى ويمكن أن يطلق على مرحلة ما بين الحربين طابع مرحلة الغزو الفكرى والتغريب للقضاء على المقاومة وإحلال طابع محاسنة الاستعمار والالتقاء به ، غير أن هذه الفترة قد زخرت بأعلام تابعوا دعاة اليقظة العربية الاسلامية على الطريق وبلوروا أسلحة مقاومتهم مع تطور العصر ، ومع ظهور شبهات جديدة ، ومحاولات جديدة للغزو الفكرى والتغريب . فى هذه المرحلة برزت مؤسسات عربية واسلامية ضخمة فى مختلف أنحاء عالم الاسلام اتخذت من تصحيح مفاهيم الاسلام وإجلاء جوهره سلاحا لمقاومة الاستعمار والاحتلال والتغريب ومقاومة حركات التبشير والشعوبية وكان من أبرزها :

* مؤسسة الإصلاح والتجديد فى مصر وقوامها رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وفريد وجدى وتلاميذهم . * ندوة العلماء فى لكنو وقوامها شبلى النعمان وسليمان الندوى ومؤسسات أخرى قوامها مولاى محمد على وسيد أمير على . * مؤسسة النجف وقوامها الإمام كاشف الغطاء ومحمد جواد مغنية . * إتباع دعوة التوحيد فى العراق (الألوسى) وفى سوريا (المغربى والقاسمى والبيطار)

* السلفيون فى المغرب وفى مقدمتهم الدكالى ، ومحمد العربى العلوى وتلاميذهم . * حركة التجديد فى الجزائر بقيادة عبد الحميد بن باديس وبشير الابراهيمى * حركة التجديد فى أندونيسيا :

وفى خلال هذه المرحلة لم تتوقف حركة المقاومة . فى قطاعاتها الثلاث : الاجتماعية والسياسية والفكرية ، ويمكن أن يقال أن الاستعمار قد واجه عالم الإسلام بأقصى حملات الغزو وحمامات الدم التى لم تتوقف ، وقد رد عليها عالم الإسلام بالمقاومة والثورات المتوالية ، وقدم فيها المسلمون فى مختلف الوحدات شهداءهم وأبطالهم الذين رفضوا الاستسلام ، وواجهو القوى الغاصبة، بالأجساد المتراصة وتلقوا رصاص الغزاة فى صدورهم ، ففى ثورة الهند المسلحة على الانجليز ١٨٥٧ ، وفى ثورة الجزائر ١٧٣٠ — ١٨٤٧ بقيادة الأمير عبد القادر التى استمرت سبعة عشر عاما ، وفى ثورة تركستان بقيادة شامل فى مواجهة القوى الروسية ، وثورات المسلمين فى جزائر الهند الشرقية فى مواجهة الاستعمار الهولندى وفى العالم العربى بمختلف أجزائه لم تتوقف الثورات ، بل توالت فترة بعد فترة ومرحلة بعد مرحلة ، قاوم السنوسيين فى ليبيا سنوات طويلة استمرت من ١٩١١ إلى ١٩٣٢ تقريبا ، وعرفت مصر ثورة عرابى ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ .

(٤)

حرص الاستعمار فى مرحلة التغريب والغزو الفكرى على تمزيق جبهة الإسلام بالتفرقة بين العرب والترك ، ثم بين الترك والفرس ، ثم تمزيق جبهة العرب ، ثم استغلال الحركات القومية فى شجب مفاهيم المقومات الاسلامية والعربية الجذرية والقضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة لعالم الإسلام بوحدة الفكر . ومحاوله إذابة المسلمين والعرب فى بوتقة حضارة الغرب وفكره، والسيطرة عليه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وقد سعى الاستعمار إلى ذلك بعدة وسائل اتخذ لها خططا حاسمة (أولا) تجميد اللغة العربية فى العالم الإسلامى كله ، وإيقاف ثقافتها ، ومحاولة إحياء اللغات القومية وتغليب لغة المستعمر (الفرنسية أو الإنجليزية عليها) ودفع اللغات القومية إلى طريق جديد بكتابتها بحروف لاتينية كما حدث فى تركيا وأندونسيا (ثانيا) فرض المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات بمناهجها ولغاتها والقضاء على المدارس الوطنية وإيقافها ، واعتبار لغة الاستعمار هى اللغة الأولى ، مع فرض تاريخ الغرب وإبطاله ومذاهبه وثقافاته أساساً ، وذلك للقضاء على مقومات الفكر الإسلامى وتاريخ الإسلام وإبطاله . (ثالثا) التبشير بالديانات التى تمثلها ثقافات المحتل ، وذلك عن طريق المدارس والمستشفيات والصحف والأندية والكتب والإذاعات ومختلف الوسائل

(رابعا) تغيير العقائد وانظمة الاجتماعية والقوانين ، وتجميد الشريعة الإسلامية وأحكامها وانظمتها وإحلال القوانين الأوربيه المستمدة من بيئات الغرب وأديانه وحاجاته على القيم الإسلامية والعربية الأساسية . (خامساً) فرض مظاهر الحضارة الحديثة فى الفنون والمجتمع وأدوات اللهو ، والقصص المكشوف ، والمسرحيات ذات الطوابع المنحلة ، وذلك بهدف القضاء على مقومات المجتمع وأخلاقياته وبث روح الإنحلال فى الشباب ، وتمزيق وحدة الجماعة والقضاء على كيان الأسرة (سادسا) إذاعة الدعوات التغريبية المنحرفة والمذاهب الهدامة ، وضرب الفكر الإسلامى بقضايا وأفكار وأراء تقوم على الألحاد والإباحة والتحلل بما يقضى على مقومات الإسلام والفكر الإسلامى وأخلاقياته والنيل من الدين والروحية والقيم الإنسانية والمعنوية .

(سابعا) ضرب العروبة بالإسلام ، ومحاولة دفع تيار العروبة إلى منهج منفصل من مقومات الفكر العربى الأساسية فى اللغة والتاريخ والتراث ، وذلك لتفسيخ مقومات الوحدة العربية بحسبانها عاملا هاما فى تركيز مفاهيم الفكر العربى الاسلامى وجذوره، وفى هذا يقول الأستاذ محمد على الفتيت لقد حرص الاستعمار منذ الحروب الصليبية على القضاء على البعث العربى فى أية صورة من صوره ، باعتبار أن ذلك فى رأى الغرب بالاضافة إلى أنه يشكل فى ذاته خطراً جسيما على سياسته : فإنه متى تحقق كان المقدمة التى تجر وراءها حتما وتلقائيا « البعث الاسلامى » فإن بعث القومية العربية فى نظر ساسة الغرب هى الطاقة القومية التى متى انبعثت ، كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها إلى التجمع من جديد على الصورة القوية التى لا يمكن أن تتحقق إلا فى ظل القومية العربية دون سواها من الحركات الإسلامية ولم يفرق الغرب بين القومية العربية والتجمع الاسلامى ، أو بين العروبه والاسلام ، ففى العروبة تتمثل أمام ساسة الغرب : « الاسلام » فلهذا فإن الغرب يتهيب دائما خطر التجمع الاسلامى ويراه كامنا فى العروبة حينما كانت لافى الإسلام حيثما كان » (ثامنا) إقامة قواعد عسكرية ذات طابع عنصرى تحمل فلسفة خاصة تكون عاملا أساسيا فى ضرب حركات التحرر وفى الحيلولة دون القيام الوحدة العربية التى هى عامل أساسى فى تحقيق جانب القوة للاسلام ، وقد حرصت دول الغرب مجتمعة على تعميق هذه القاعدة وإبلاغها أقصى مدى من القوة ، دون تقدير لتشريد العرب أهل المنطقة (تاسعاً) أثارة الاتهامات الباطله والشبهات المضلله حول الإسلام واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب الاسلامية ، ومحاولة بناء ادعاءات كاذبة حول هذا المعنى مستمدة من مرحله الضعف التى مر بها عالم الإسلام فى أواخر عصر الدولة العثمانية . والواقع أن الاسلام محجوب بالمسلمين ، وأن انفصال المسلمين عن مفاهيم الاسلام كان العامل الأساسى فى ضعفهم وهزيمتهم أمام الغزو الغربى .

(٥)

الاسلام والغزو الاستعماري الحديث

اتسمت مرحلة « اليقظة الإسلامية » ، بطابع الإسلام بكل مقوماته ، واستكملت ملامحها على النحو الذى استكملته المراحل المتصلة المتلاحمة ، حلقة وراء حلقة ، لا يفصل بينها شىء ، فكل منها يتمم ما قبله ، ويهىء لما بعده ، فحيث يبدو عامل الضعف فى وحدة من وحدات عالم الإسلام ، يبدو عامل اليقظة فى وحدة أخرى ، وحيث ينحرف مفهوم الإسلام ، يظهر المصلح المجدد الذى يكشف عن جوهر الإسلام فيصحح المفاهيم ، وحيث تسيطر فكرة جزئية محاولة أن تمثل الإسلام، يشرق من جديد ضوء الإسلام فى تكامله وشموله ووسطيته ، وحين يقوم الظلم أو الجور أو الانحراف والتحلل فى مجتمع يبرز الآمرون بالمعروف ، والناصحون للولاه ، والدعاة الحق، وهكذا يمطى الإسلام بنقاء جوهره وقدرته على الحركة والحياة ، قوة مجددة على الاستمرار والفاعلية والحيوية ، وإعادة تشكيل نفسه وصياغة مفاهيمه على النحو الذى يجرى مع كل زمن وفى كل عصر لا يتخلف ولا ينحرف وتتسم هذه المرحلة بسمات واضحة :

(أولا) قدرة الإسلام على مواجهة الغزو الاستعماري والكشف عن أصالة جوهره وإيجابيته بعد أن تعرف على أسباب تأخر مجتمعه وتخلفه ، وقد تبين أن التخلف لم ينتج عن الإسلام نفسه فالإسلام بفاعليته وديناميكيته الحية قادر على إعطاء القدرة الدائمة على المقاومة والقوة والحياة، إنما نتج التخلف عن انفصال المجتمع الإسلامى عنه ، بينما كانت قيم تراث الإسلام ، وحدها من أكبر مصادر النهضة التى ظهرت فى الغرب ، حيث العدو الذى ظل يستعد للسيطرة والانقضاض .

(ثانياً) أبرز الإسلام فى هذه المرحله قادة فكر وقادة عمل ، واستطاعت حركات المقاومة أن تستمد وقودها من الكلمات المضيئة التى جهر بها قادة الفكر واستمدوها من القرآن والسنة أصلا ، فقد كانت قدرة الإسلام الجوهرية تتمثل خلال الأزمات الكبرى فى التماس عوامل النصر من المنابع الأصلية : القرآن والسنة النبوية (حديثاً وسيرة) وأن تعبر عن مراحل الفكر الاسلامى كله مستمدة من « الأصول » و « الجذور » بوصفها أصدق إمداداً ، وأعمق أثراً ، وأقرب إلى العزائم ، وأبعد عن الزلل أو الرخص .

(ثالثاً) برزت فى هذه المرحلة قوى مقاومة عسكرية قادرة ، لا تقل فى إيمانها بالاسلام والدفاع عنه عن قوى السلاجقة والبربر والمماليك وقد تمثلت هـــــذه القوة فى الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر والقوقازيين بقيادة شامل ، والمصريين بقيادة عمر مكرم وأحمد عرابى ، والسودانيين بقيادة المهدى والتعايشى والهنود فى ثورة ١٨٥٧ بقيادة ابن عرفان وغيرها ، وكذلك العثمانيون والسواحليون والأزارقة فى مواجهة البرتغال والأسبان والانجليز ، وكذلك السنوسيون بقيادة السيد أحمد الشريف وبين المغاربة جملة على شاطىء المتوسط وبين الفرنجة ، كما قاوم الجاويون هولندة .

كانت هذه الحروب غير متـكافئة حيث دارت مع المسلمين والعرب وهم فى آخر مراحل الضعف ، بينما كان الغرب فى أول مراحل القوة ، واستمرت هذه الحروب طويلا ، حتى يمـكن أن يقال أنها لم تتوقف ، وفى الجزائر استمرت سبعة عشر عاماً وتوالت ، وفى كل هذه المعارك لم يكن النصر فيها للاستعمار — رغم عدم التـكافؤ العسكرى والحربى — ، نصر ميدان بل كان نصر غدر وتآمر ، وقد كتب المسلمون فى هذه المرحلة صفحة مشرفة لا تقل كفاءة عن صفحات مرحلة الغزو الخارجى التى سبقت عصر الوحدة الاسلامية العثمانية ، وبالقطع كان هذا الغزو الجديد إمتداداً لها .

وبسيطرة الاستعمار الحديث على عالم الاسلام تمزق الـكيان الموحد ، حيث سيطرت حكومات جديدة أقامها الاستعمار وبدأت بينها وبين القوى الوطنية معارك مقاومة ، وبذلك دخلت وحدات عالم الاسلام فى مرحلة جديدة هى مرحلة « المقاومة بالـكلمة » وهو الدور الوطنى الذى إزداد اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى . وقد تنوعت وسائل الاستعمار الذى أخذت صورة احتلال مسلح ، وسيطرة كاملة على المقدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع تنفيذ برنامج كامل فى مجال التربية والتعليم والثقافة والصحافة تهدف إلى قتل مصادر القوة فى المجتمع والأسرة وتمزيق القوى المعنوية وبث روح من الالحاد والاباحة والتشكيك والانحلال فى القوى الشابة ، حيث سيطرت هذه القوى المحتلة بمختلف وسائل القضاء على القوى الاقتصادية والمعنوية واستغلت الامتيازات الأجنبية لانتزاع الأراضى وتحقيق أكبر قدر من الضغط والافساد وإتاحة الفرصة للارساليات الأجنبية وبعثات التبشير ، وتمزيق الوحدة الوطنية ، وإثارة الخلافات بين المذاهب والأديان وابتعاث الدعوات العنصرية القديمة كالفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية ، والبربرية ، وغيرها وفرض قوى ضخمة للسيطرة على مجارى الفـكر بحيث يتحقق الجهد بهذه الدعوات مع إثارة الشبهات حول الاسلام ورسوله وقيمه وتاريخه وحول القرآن واللغة العربية والتراث مع ارتفاع هذه الأصوات وجهارتها عن طريق الصحف والمجلات الضخمة المسنودة بمالهم ونفوذهم ، بينما لا تستطيع أن ترقى كلمات المقاومة والرد على هذه الشبهات إلى نفس المستوى فى التعبير أو الذيوع .

ومن هنا مهد الاستعمار فى هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر عنفا وشراسة فى تدمير القيم الأساسية للاسلام بوصفه العامل الضخم الذى أعطى المسلمين القوة على مقاومة الغزو الأجنبي واستطاعت قوى الغزو الأجنبي والنفوذ الأجنبي واستطاعت قوى المبشرين والمستشرقين أن تمد حملة ضخمة بدأت سنة ١٨٣٠ (وهو نفس العام الذى احتلت فيه الجزائر) بإذاعة الشبهات التى أثارها خصوم الاسلام فى عصوره المختلفة بعد إعادة صياغتها من جديد كوسيلة للتشكيك فى قدرة الإسلام على الحياة واستغلت هذه القوى ما وجه إلى المسيحية الغربية من اتهامات فى أوائل عصر النهضة الهجوم به على الاسلام على بعد الفرق بين مواجهة الاسلام للحضارة وموقفه من العلم وموقف غيره من الأديان .

وفى الهند حيث كان المسلمون يحكمون الهند قبل الاحتلال البريطانى أبعدت بريطانيا المسلمين عن مجال الثقافة ومراكز القيادة السياسية وقدمت غيرهم وحجبتهم جيلا كاملا عن التعليم ، حتى هب قادتهم لمقاومة هذا الاتجاه بإنشاء المعاهد والجامعات ، وفى الجزائر حاولت فرنسا أن تقضى على اللغة العربية قضاء نهائيا وأن تعتبر الجزائر جزءاً من فرنسا ، وفى مصر عمد الانجليز إلى نشر اللغة الانجليزية وإضعاف اللغة العربية ، كما كانت الخطة الرئيسية للاستعمار الفرنسى والانجليزى الذى سيطر على القارة الأفريقية كلها فى هذه الفترة هو حجب اللغة العربية وتجميدها وايقافها عن النمو والانتشار ونشر لغته ، واعتبارها أساس الثقافة والتعليم ، وكما فرضت بريطانيا فى الأجزاء الإسلامية بالهند اللغة الإنجليزية ، ثم شجعت اللغة القومية « الأوردو » قضاء على اللغة العربية كذلك فعلت هولندا فى أندونيسيا حيث فرضت الحروف اللاتينية على الأندونيسية بعد أن كانت حروفها عربية .

معالم أساسية فى تاريخ الاسلام

من خلال تاريخ الإسلام تبدو حركة الإسلام فى محورين :

(١) محور الأعماق على مشارف العالم كله بالانتشار الذاتى . (٢) محور الأبعاد على مدار التاريخ من خلال النفس الإنسانية مع دورة الحضارة . وقد حقق تاريخ الإسلام من خلال المحورين عملا ضخما متصلا ، وحيث كانت هناك معالم أساسية تواتر عملها خلال مرحلة التاريخ ، كان من الضرورى متابعة تطورها للكشف عما استطاعت تحقيقه خلال أربعة عشر قرنا من عمر الإسلام .

(٣٨)

« السنة والشيعة »

هناك خلافان فى تاريخ الإسلام وقعا فى المجتمع الإسلامى :

(أولا) الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين حول مفاهيم الاسلام وهو خلاف واضح الجذور ، إذ أنه مهما تستر بصورة أو أخرى أو مذهب آخر فقد كان بطبيعه يختلف مع أصول الاسلام : « التوحيد ، النبوة ، فرضية العبادات ، والمعاملات ، والمعاد والقبلة والقرآن » . وهذا الخلاف يفرق بين الاسلام وغيره .

(ثانياً) الخلاف بين المسلمين أنفسهم : « وقد انصب ذلك على الفرعيات وهى ماسوى الأصول الثابتة للاسلام ، وقد أطلق عليه بعد اسم « المذاهب الفقهية » : التى استقرت فى خمس مذاهب : المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية والجعفرية . وهو خلاف مقبول لأنه يتصل بالمسائل الفرعية وحدها ولا يرقى إلى الأصول الثابتة . وقد قامت فى صدر الاسلام نحل ومذاهب سياسية أساساً له مذاهبها الفكرية الذى تحدد بها موقفها من القيادة السياسية التى وليت الحكم فى الاسلام بعد الخلفاء الراشدين الأربعة . وتمثلت فى الأغلب فى الدولة الأموية والدولة العباسية .

والمعروف أن القوى الثلاث الكبرى التى تصدرت للقيادة السياسية فى عصر الراشدين كانت تتمثل فى الأمويين ، والهاشميين — والهاشميون يمثلون (١) العلويين (من آل سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه) — (٢) والعباسيين (من آل العباس بن عبد المطلب) ، وقد كان العلويون هم القوة الوحيدة فى القوات الثلاث التى لم تتصدر للحكم أو التى حرص الأمويون على إبعادها مع الهاشميين جملة ، ثم حرص العباسيون على إبعادها أيضاً . ولم يكن الخلاف قائماً أول الأمر حول مفهوم أحقية أهل البيت فى القيادة السياسية بوصفهم أهل النبي ﷺ ، وإنما كان الخلاف قائماً حول تحرير مفهوم الاسلام فى الحكم بوصفه شورى يتولاها أى مسلم مؤهل لذلك ، ولو كان عبداً حبشياً وقد كان الإمام على فى مقدمة رجال القيادة السياسية التى كونها النبي ، وكانت له بطولاته ومواقفه وخلقه وفقهه ، حتى قيل « قضية وأبا حسن لها » غير أن النظام السياسى الذى وافق عملية بناء عالم الإسلام قد أحدث عدداً من التحديات الخطيرة كان فى مقدمتها مقتل الخلفاء الثلاثة : عمر ، وعثمان ، وعلى ، وفى عهد عثمان وقع الخلاف بين المسلمين اضطرتهم إلى إقرار نظام وراثى يدور فى فلك الإسلام . ولكنه

لا يمثل مفهوم الاسلام فى الشورى ، ومضى هذا النظام واستمر . وفى خلال ذلك كان تبلور المسلمين المسلمين فى مجموعتين كبيرتين . أهل السنة والشيعة ، ولم يكن الخلاف بينهما جذريا ولكنه كان فى الفروع . كانت الأصول الأساسية للاسلام قائمة شاملة لا خلاف فيها ، وإن اتسمت الشيعة بسمة هى ذلك الحب القوى لآل البيت والارتباط الروحى والفكرى بالنبى وأهله ، ومن هنا كانوا « دعاة العاطفة والحب والولاء » وكانت تلك علامة بارزة فى فكرهم جميعاً .

وقد تحقق للشيعة الصدارة فى مجال القيادة السياسية فى دول كثيرة فيما وراء النهر « الساسانية والبويهية والصفارية » ثم قامت الدولة الفاطمية الباذخة باسمهم فى المغرب ومصر ، ثم قامت فى القرن العاشر الهجرى الدولة الصفوية فى فارس ومازالت فارس تمثل الدولة الشيعية فى عالم الاسلام الحديث .

وقد كان تاريخ الإسلام حافلا بالخلافات والمساجلات الفكرية وبالصراع السياسى بين السنة والشيعة ، وقد حرص الغزو الخارجى الممتد منذ الحروب الصليبية إلى اليوم أن يغذى هذا الخلاف وأن يعمق آثاره حتى لا تلتئم وحدة عالم الاسلام ، وكانت حركة التغريب حريصة على الدس والإيقاع بين السنة والشيعة ، وتفريق كلمتهم وإذكاء الخصومة بينهم ، وقد تنبه السنة والشيعة ، جميعا لهذه المؤامرات وعملوا على تضييق شقة الخلاف ، وإلى التقارب . والحق أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يزيد عن أن يكون خلافا بين المذاهب الأربعة ويمكن القول بأنه ليس إلا خلافا بين المذاهب الأربعة والمذهب الجعفرى :

أما مصدر الشبهة التى ماتزال سلاحا فى يد التغريب والشعوبية وخصوم الغرب والإسلام جميعاً فهى مايحمل التاريخ من فرق انتسبت إدعاءا إلى الشيعة وهى « فرق الغلاة » .

ومن الحق أن يكون الباحث يقظا فى التفرقة بين الشيعة والغلاة ، هؤلاء الذين هاجمهم أئمة الشيعة أنفسهم وحذروا مما يدسونه . فالخطأ الأكبر الذى يحترز منه ، هو القول بأن « التشيع » كان مأوى إليه كل من أراد هدم الإسلام ، إذ الواقع أن الشيعة كانوا أساساً ملتقين مع أهل السنة فى الاصول ، وإن الخلاف لم يقع إلا فى المسائل الفرعية التى ليست إلا رحمة والتى هى نوع من الاجتهاد من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، وقد أكدت النصوص الصحيحة أن الشيعة بعدت عن التناسخ والحلول والتجسيم ، وأنهم قاوموا أقوال الغلاة وحتموا ألا يقبلوا حديثا إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وقد دعا الإمام على بن موسى الرضا صراحة إلى رفض مايخالف القرآن وقبول مايوافق القرآن والسنة .

فكل فرق الغلاة : كالرافضه والباطنيه وما اتصل بأفكارهم من الحاد كالقول بتحريف القرآن وكتمان بعض آياته ، ومن راجت فيهم البابيه البهائيه ، هؤلاء ليسوا من الشيعة الاصلاء الذين عرفوا بالزيدية والأثنى عشرية (الأماميه) وقد دعا جمال الدين الأفغانى كما دعا كثيرون إلى جمع كلمة المسلمين والتأليف بين فرقهم التى يجمعها الايمان بالقرآن ومحمد والتوحيد وقالوا إن السياسة كانت السبب الأول لهذا التفرق الذى البس بعد ذلك لباس الدين .

(الشيعة الأماميه أكثر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ويسمون الأثنى عشرية ، وتبلغ الإمامية سبعين مليونا من العراق وايران والهند وباكستان وروسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان وسوريا والحجاز واليمن والصين والتبت والصومال وجاوة والألبان وتركيا والبحرين والكويت) .

والحق أن الشيعى والعلوى والدرزى والاسماعيلى والسنى كلهم منضوون تحت كلمة الاسلام ، والخلاف بينهم فى الفروع لايفرقهم ، لما أتاح الإسلام من حرية المذهب الذى لايؤدى إلى تمزيق وحدة المسلمين ، وقد علم الإسلام أتباعه أن يكونوا على يقظه كاملة فى مواجهة خصوم الإسلام ، وأن لاتكون خلافاتهم المذهبية سبيلا إلى الفرقة ، ومن هنا فليس فى وسع أحد أن يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة والحق أن مذاهب الشيعة (آل البيت) الجعفرية وما تفرع منها : وأعلامها الامام جعفر الصادق وسيدنا زيد واسماعيل بن جعفر هى عصارة العقل الإسلامى فى اجتهاده وتحقيقه وهى وحدة متكاملة مع ماقدمه مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل والأوزاعى والظاهرى وغيرهم من الأعلام ومازال تمثل معركة فكرنا وفقهنا فى مواجهة التطور والحضارة .

ويجمع الباحثون المتصدرون للتقريب بين السنة والشيعة على أن : الإسلام هو إتباع القرآن . والأخذ بما صح من كلام النبي وأقواله وتقريراته وماعداه ففروع مذهبيه واجتهادات الأئمة ، وكل ما توخوه فى اجتهادهم إنما قصدوا به أن يصيبوا مقاصد الاسلام ، ومن الخطأ التعصب لإمام دون إمام . وأن المغالاة فى العصبية لإمام من الأئمة واجتهاداته هى خروج على روح الاسلام المتسامح والرافضة غير السنة والشيعه : والرفض هو ترك ما جاء به الوحى والرجوع إلى أساطير الوثنيات ، ودسائس اليهود ويشير الكثيرون إلى الدور الذى لعبه « عبد الله بن سبأ » زعيم الرافضة الذى دخل الاسلام وهو يحمل فى أعماق وراثياته إسرائيليات وأساطير كثيرة ، ظهرت فى عقيدته الجديدة ، وقد اندس الرافضه (السبئية) أتباعه بين الشيعة وبين أهل السنة وبلغت هذه الفرق الرافضة ٧٣ فرقة وهى غير الشيعة أصلا : كما أن هناك شبهة لايلتفت إليها الكثيرون فى الفرق

بين الامام « جعفر الصادق » وبين الرافضي « جعفر بن حرب » فقد اختلط الرأى على بعض الباحثين فلم يفرقوا بين الإمام الجليل ، والرافضي ، وقد فند البغدادي هذه الشبهات في كتابه « الحرب على جعفر بن حرب » متقصيا خرافاته وأباطيله ، كما تناولها أبو منصور البغدادى فى (الفرق بين الفرق) ولاشك كان سيدنا جعفر الصادق مناراً من منارات الاسلام والرافضة اسم أطلقه الامام زيد على الفرقة السبئية التى اندست بين جاله ، ومن هنا جاء الخطأ المتصل فى إلصاق الرافضى بالشيعة الوحدين المحبين لآل البيت .

وجملة القول أن الفروق المذهبية بين الجعفرية والمذاهب الأربعة السنية لاتكاد تذكر وهى تتمثل فى مسائل فرعية دعا إليها الاجتهاد فى الرأى . ومن جهة أخرى فان حب آل البيت والرسول الكريم إنما يمثل حقيقة سنية وشيعية واحدة ، وربما كان الخلاف فى الدرجة ، ويقول العلامة الشيعى « جواد مغنية » إن الشريعة لها أصول مقررة ، وأن الخلاف والجدل بين المذاهب حصل فيما يتفرع عن تلك الأصول وما يستخرج منها ، وإن فى كتب الشيعة الأمامية اجتهادات لايعرفها أهل السنة ولو أطلعوا عليها لقوت ثقتهم بالشيعة ومفكيرها وكذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة ويصور العلامة جواد مغنية موافف الشيعة من الغلاة فيقول : الغلاة هم المتظاهرون بالاسلام الذين نسبو إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب والأئمة من ذريته الألوهية والنبوة ووصفوهم بما تجاوزا فيه الحد وخرجوا عن القصد فهم ضلال كبار .

ويشير العلامة مغنية إلى أن كتابات المستشرقين كانت دائما من عوامل الوقيعة بين السنة والشيعة وآية ذلك كتاب المستشرق رونالدس « عقيدة الشيعة » والهدف منه إيقاع الفتنة بين المسلمين ، فقد دعم هذا الدس بشتى الأساليب ، وفى مقدمة ما أثاره من شبهات ما أسماه : تحريف الشيعة القرآن ، وقال مغنية : إن الإمامية دافعوا عن القول بتحريف القرآن وأنكروه ، وكل الخلاف بينهم وبين السنة فيه : إن السنة تقول أنه كلام الله والامامية تقول أنه محدث وليس بقديم ، وقال مغنية : إن الشيعة الأمامية إذا أرادوا أن يستخرجوا حكما شرعيا لمسألة تعرض لهم ، بحثوا فى نصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء باذلين الجهد ، فاذا وجدوا نصا خاصا أوجامعيا وقفوا عنده وإذا لم يجدوا لجأوا إلى العموميات والقواعد الكلية التى وردت فى نصوص الكتاب والسنة

(٢)

لقد كان « النجف الأشرف » على طول تاريخ الاسلام مركزاً هاما من مراكز الثقافة الإسلامية شارك الأزهر والزيتونة والقرويين الحفاظ على الاسلام واللغة العربية والتراث الاسلامى وللشيعة أعلام عظماء خدموا الاسلام وكانوا من كبار رجاله : أمثاله عمار بن ياسر وسلمان الفارسى والأحنف بن قيس وسعيد بن المسيب والفرزدق والكميت وابن الرومى وأبى تمام والبحترى ومهيار الديلمى وأبى هانى الأندلسى وأبو فراس الحمدانى والطغرائى والشريف الرضى ، : هم اليوم من أعلام الفكر الاسلامى والسنة والشيعة والدروز جميعاً أهل كلمة التوحيد وليس الخلاف فى أساسه خلافا فى نظرية الحكم وفى الفرعيات ، وهو دليل على عظمة « الشريعة الاسلامية » وقدرتها على الخلود والاستيعاب وهو خلاف محصور فى بعض مسائل لاصلة لها بأصول الاسلام وقواعده . وإذا كان الشيعة قد اتسموا با كبار آل البيت ، فإن أهل السنة يحبون آل البيت ويقدرون فضلهم وقد اقتربت النظرة حول حب الرسول وآل البيت بين مختلف المذاهب الإسلامية ، بين مفهوم « التوحيد » بصورته الأولى وبين « التصوف » إلى الحد الذى قرب الصلة بين السنة والشيعة قربا كبيراً .

ولا تثير الخلافات القديمة حول فضل الإمام على ودرجته فى الخلافة وحول خلاف السيدة فاطمة مع أبى بكر حول ميراث النبى فى فدك ، وهى ليست من المسائل الرئيسية التى تتصل بأصل من أصول الاسلام ، وهو خلاف طبيعى فى هذه المرحلة من حياة الاسلام ، أما الخلاف حول مسألة الرجعة أو زواج المتعة أو مسألة الامامة ، فهى اجتهادات فى الفرعيات ومثلها خلافات كثيرة بين مذاهب السنة نفسها ، وهى لا تحول دون « وحدة المسلمين » فى الأصول العامة ، والواقع أن أهل السنة والشيعة لا بد أن يلتقوا بعيداً عن الأطراف وأن يتعارفوا ، وقد تحقق جانب كبير من هذا حين ضم الأزهر دراسات المذهب الجعفرى إلى المذاهب الأربعة ، ويقول الدكتور سليمان دنيا فى مواجهة الخلاف بين السنة والشيعة .

« إن مذهب التشيع أشبه بثغر الدولة الإسلامية وهو أشد بقاع المملكة الإسلامية كلها قربا من العدو ، وهو لهذا السبب المنفذ الذى يحاول أعداء الاسلام الدخول منه إلى بلاد الاسلام لغزوها ،

فواجب حماية هذا الثغر أشد من واجبات غيرهم ممن يوجدون فى أماكن نائية عن العدو فان لم تكن حامية هذا الثغر يقظة منتبهة اقتحم العدو الثغر واقتحم قلب الدولة الاسلامية عن طريقه .

ويقول : إن أئمة الشيعة قد أعلنوا براءتهم من الغلاة ، وعن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله « إياكم والغلو فينا ، قولوا . إنا عبيد مربوبون وقولوا فى فضلنا ما شئتم ، وقوله : اللهم إنى برىء من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصارى ، اللهم أخذلهم أبدا ولا تنصر منهم أحداً . ويروى عن أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنهم أنه قال : « أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يجلس إلى غال فيستمع إلى حديثه ويصدقه . ويقول : إن أبى حدثنى عن أبيه عن جده عليهم السلام أن رسول الله قال : صنفان من أمتى لا نصيب لهما فى الاسلام : الغلاة والقدرية » .

وقال : إن أهل السنة وإن كان من رأيهم عدم القول بعصمة الأئمة ، فانهم مع هذا يحملون للأئمة حبا يجرى فى دمائهم ويتمكن من سويداء قلوبهم ، فان لهؤلاء الأئمة من الصلاح وحسن السيرة إلى جانب إنتمائهم إلى الدوحة الشريفة الطاهرة ما يجعل أهل السنة يكنون لهم كل حب وإجلال وأكبار .

(٣٩)

« العرب مادة الاسلام »

منذ بزغ الاسلام ارتبط بالأمة العربية أوثق ارتباط . وقد كان التقاء الاسلام بالأمة العربية التقاء بعيد المدى فى نمو الإسلام وتوسعاته وفى بناء الأمة العربية ذاتها فالأمة العربية هى التى حملت الاسلام إلى العالم أجمع ، وكانت اللغة العربية — لغة القرآن — هى أداة فكره وثقافته وحضارته . والاسلام هو الذى نقل العرب إلى الطور النهائى من أطوار تكوين الأمم ، إذ جعلها أمة ذات حضارة وفى نفس الوقت ذات رسالة إنسانية وعالمية . ومن هنا فإن تصور الاسلام منفصلا عن العروبة والعروبة منفصلة عن الاسلام هو تصور مبتور وناقص وغير قادر على إعطاء الحقيقة فى بناء الاسلام وفى كيان الأمة العربية ، وفى مجالين كبيرين كاللغة والتاريخ لا يمكن فصل الاسلام عن العرب فقد ظلت اللغة العربية هى قوام الثقافة الاسلامية حتى فى فترات الضعف وفى مراحل اتساع اللغتين الفارسية والتركية وظل تاريخ الاسلام هو تاريخ العرب فى بطولاته ومواقفه وتوسعاته وإثارة البعيدة المدى.

فالفكر الديني كونه اللغة العربية بالارتباط بالإسلام ، كان حصيلة مشتركة المسلمين والعرب جميعاً ، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي خالص أو فكر إسلامي صرف ، وكذلك الحضارة ويمكن القول بحق بأن الفكر : فكر عربي إسلامي والحضارة حضارة عربية إسلامية . ومكونات هذا الفكر هي : « اللغة العربية والاسلام » ، وقادة الفكر سواء كانو عرباً وغير عرب فهم مسلمون أساساً صدرت مقدراتهم الفكرية عن مضمون الاسلام ومقوماته الأساسية وبيئته ، وكان إبطال التوسع وبناة الدول كقادة الفكر ، قد استمدوا مجال بطولاتهم ومقوماتها التي بهرت الدنيا من مقومات الاسلام . وقد ورث الاسـلام ثقافات الأمم والأديان والحضارات السالفة من فارسية ورومانية ويونانية وهندية وفرعونية ، هذه الثقافة التي انصهرت في بوتقته وتشكلت من جديد على أساس مقوماته ومفاهيمه .

ولقد كان للعرب دور بناء الإسلام وتوسعاته ، هذا التوسع الذي بدأ في نظر الباحثين والمؤرخين غريباً ، ولكنه في الحق لم يكن كذلك ، فإن طابع الاسلام وإيدلوجيته ، هي التي عمقت إيمان العرب الذين رباهم محمداً ، فحملوا لواء الإسلام وآمنوا بمفهوم الاسلام « حب الموت لأجل الحياة » كانوا — أي العرب هم أصحاب القيادة السياسية خلال مرحلة طويلة ، استمرت متصلة حتى نهاية الدولة الأموية ومشاركة مع العناصر الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية وفي ظل الدولة الأموية في الأندلس ، وكان لهم دورهم في مقاومة الغزو الصليبي والتترى والفرنجي حيث شاركوا مشاركة ضخمة مع السلاجقة والمماليك والبربر ، ثم اختفوا من مسرح القيادة خلال عصر « الوحدة الاسلامية العثمانية » غير أنهم سرعان مابرزوا في مجال القيادة خـلال دور اليقظة العربية الاسلامية ففي الحق كان « العرب مادة الاسلام » طوال تاريخ كله ، وكانوا حملة ، مفهوم الاسلام البسيط الوسط البعيد عن التعصب الفلسفي والغيبية الصوفية .

ويؤكد كثير من الباحثين بأن « عروبة العرب » ظلت حية خلال تاريخ الإسلام في مختلف جماعات وادي النيل والسودان وفي مختلف الدول في أفريقيا : الحميدية ، وبني حود ، والأغلبية والفاطمية وبني مزين وبني علول والدولة السعيدية وبني شبابة والدولة الشريفية ، وفي الشام : التنوخيون والدنادشة وبنو المعظم وبنو حمدان وبنو مرداس ، وبنو المسيب ، وقد ظلت الجزيرة العربية تقذف موجاتها طوال هذه العصور ، فقد كانت كذلك قبل الإسلام ثم كانت موجة الفتح الاسلامية هجرة واسعة النطاق لقبائل عربية بأكملها إستقرت في البلاد المفتوحة ، ثم توالت الهجرات من بعد فلم تتوقف .

غير أن العرب فى كل مكان من حدود الصين إلى حدود فرنسا قد انصهروا فى الأجناس والأمم ، وقام الاسلام بأضخم عملية بلورة بين المسلمين عربا وفرساً وفرنجة وتركاً ، وهى عملية طبيعية لم يكن للعرب فضل فيها ، بل كان الاسلام — الذى لم يكن العرب مستعمروه أو فاتحوه ، بل ناشروه ،ودعاته — ، هو الذى دفعهم إلى الامتزاج بالمصاهرة والنسب والاندماج فى الأجناس والأمم امتزاجاً كان على مستوى الاجناس وعلى مستوى العقول .

فقد امتزجت ثقافات هذه الأمم المختلفة التى كانت معهم قبل الإسلام بالاسلام نفسه وانصهرت فيه ، ونمى الإسلام مالم يتفق مع روحه وطابعه ومقوماته ، وبلورها على النحو الذى أصبحت به ثقافة إسلامية خالصة ، وأن ظلت بعض آثار المذاهب والثقافات القديمة تقاوم وتجد من يغذيها من أجل مقاومة الاسلام وتمزيق وحدته ، وكذلك تبلورت التقاليد والعادات والطبائع المحلية كلها فى إطار الاسلام وتعاليم القرآن ، ولم يقف الزواج والمصاهرة عند المجتمع بل واقتحم مجال الفكر أيضاً .

٣ — وسارت اللغة العربية مع الاسلام ، فقد أخذت لغة قريش تسود غيرها من اللهجات العربية فهى التى نزل بها القرآن ومن ثم أخذت مكان الصدارة ، فى الكتابة والأدب والتخاطب وظهرت اللغة العربية على كل اللغات الاقليمية ، وأصبحت هى بالدرجة الأولى لغة الثقافة والتعامل ، ثم كان إبرازها الثقافة الإسلامية عاملا فى قيام الامتزاج الثقافى والاجتماعى الذى أزال كثيراً من الفروق العقلية والإجتماعية فى مختلف وحدات عالم الإسلام ، وعندما ضعفت اللغة العربية عن أن توحد عالم الإسلام ، وغلبت اللغات الفارسية والبربرية والتركية كان الإسلام هو الرابطة الحقيقية ، وعندما ضعفت الوحدة اللغوية زادت « وحدة الفكر » قوة واختفت الخلافات المذهبية وتقاربت المفاهيم بين السنة والشيعة والفقهاء والصوفية ، ومن هنا يمكن القول أن الإسلام كان الإطار الفكرى والعقلى للحضارة والثقافة الاسلامية .

(٢)

لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجر الاسلام إلى قيام الدولة العثمانية وفى خلال التاريخ عندما تخلى العرب عن الصدارة السياسية ظلوا أصحاب القيادة الفكرية ، فقد وجد الفكر الاسلامى فى « عالم العربية » أكبر عوامل نموه وأقوى عوامل الحفاظ على جوهره ، وقد كان الاسلام بمفاهيمه ولغته هو الذى حال دون ذوبانها حتى فى أشد فترات الضعف . وقد انبعثت يقظة عالم الإسلام فى العصر الحديث من قلب الأمة العربية وظل عالم الاسلام ينظر إليها كمركز قيادة .

وبالرغم من اندماج « الأمة العربية » فى الوحدة الاسلامية العثمانية فقد ظلت محتفظة بطابعها الاسلامى البعيد عن التعقيد الفلسفى أو الصوفى ، بينما تحول الاسلام فى مفهوم الثقافات الأخرى إلى جبرية صوفية ، ونصوص تقليدية وبالرغم من توسع الأمة التركية بوصفها لغة الدولة وامتدادها على آفاق الأمة العربية فقد ظلت اللغة العربية خلال مرحلة الوحدة العربية الاسلامية (٩٢٣ — ١٣٣٦هـ) هى السائدة ، بل إن الاسلام الذى دان به الأتراك كان عربى الطابع ، وكانت تصف كلمات لغتهم وأسماء رجالهم وأسمائهم عربية .

وبذلك كانت التقاليد التى طبقوها فى حياة البيت والمجتمع إسلامية ذات طابع عربى ، بل أن اللغتين الفارسية والتركية كانتا تكتبان بالحروف العربية ، وقد ألف بالعربيـــة كثيرون فى فارس وتركيا وظل القرآن والحديث يتلى بآدائه وحروفه العربية ، وكان لقوة حيوية اللغة العربية وامتزاجها بالإسلام أبعد الأثر فى الثبات والصمود عندما أراد الأتراك إزالتها ، بل استطاعت هى أن تطبعهم بطابعها ، وكان الإسلام هو الإطار الأكبر الذى تعلق العرب فيه بآمالهم القومية حين انهارت الخلافة الإسلامية باختفاء السلطة العثمانية . والمعروف إن مجموعات كبيرة من عناصر الترك : التتر والتركمان والشركس والكرد لم تلبث أن دمجها الإسلام فى الأمة العربية ونسيت لغاتها ومقوماتها العنصرية ، واتخذت « الثقافة العربية » أساساً لفكرها ونبغ منها شعراء وكتاب . هذا فضلا عن أن عدداً كبيراً من العلماء والمؤلفين فى مجال الفلك والرياضة والفلسفة والفقه والتفسير من غير العرب أتقنوا اللغة العربية وألفوا فيها كما كتب كثير من أعلام الترك باللغة العربية .

(٣)

الاسلام فكرة والعرب جنس

ومن هنا كان الإسلام أعم . وقد اعتنقت الإسلام أجناساً كثيرة غير العرب بوصفه إنسانى النزعة ، عالمى التركيب ، وقد كان دور العرب فيه دور الطلائع القادرة على توسيع رقعته ، وهو وإن صبغ الفكر الإسلامى بصبغته العربية نتيجة لأنها قدمت للأمم والشعوب فى وعاء اللغة العربية غير أن موجة اللغة وموجة الإسلام لم تلبسا أن انفصلتا ، فتوقفت اللغة العربية عند حدود محدودة : هى « الأمة العربية » وغلبت اللغات الأصلية على الفرس والترك والهند فلم تستعرب هذه الأمم ، وإن كتب بعضها بالحروف العربية . ولذلك فقد ظل الرباط الأساسى والأوسع والأشمل هو « الفكر

الإسلامى » المستمد من القرآن والسنة ولقد أتيح للوحدات غير العربية أن تترجم القرآن إلى لغاتها وأن تؤذن وتصلى بلغاتها ، وأن تقيم ثقافات قومية مرتبطة بلغاتها أساسها، وإن ظل الإسلام جوهرها غير إن دار الإسلام ظلت داراً واحدة لا تفصلها حدود أو سدود ، وكان أهلها ينتقلون فى رحابها دون قيد ، كما تحررت كثير من هذه الوحدات من حكم العرب لها وأقامت حكامها كما فعل البربر ، والفرس والترك : الذين سيطروا حاكين على بعض مناطق عربية ثم استطاع الأتراك أن يصلوا إلى مركز الخلافة . بل وقد كان دور غير العرب من المسلمين بعيد المدى فى مجال الفكر والثقافة : فلسفة وفقهاً وعلوماً طبيعية . بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية القبلية بدلا من مفهوم المساواة الإسلامى ، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة ، فى مختلف المناطق التى وصل إليها حملة الاسلام ، وإن كان الاسلام لايلزم أحداً باعتناقه دينا فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح فى مجال الفكر العربى الاسلامى ، جنباً إلى جنب مع المسلمين . ويمكن القول أيضاً فى هذا المجال أن « القرآن » هو الذى حفظ العربية طوال أربعة عشر قرناً من التمزق إلى لهجات محلية ، فقد مرت بعالم الاسلام فترات ضعف قاسية كادت أن تؤدى بالفصحى ، وتمزقها « لولا أن وقف القرآن سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة » وقد جرت محاولات تغريبية وشعوبية متعددة فى هذا المجال غير أن « القرآن » وقف حائلا دون تحقيق ذلك ، فقد ظلت المعاهد الاسلامية كالأزهر والزيتونة وغيرها حافظة للفصحى حتى مرت « أزمة الضعف » واستطاعت اللغة أن تنبعث من جديد فى عصر اليقظة الاسلامية العربية قادرة على مواجهة الحضارة . وبفضل « القرآن » استطاعت اللغة العربية أن تسيطر فى كل الوحدات، وأن تزيل اللغات الاقليمية حتى أن العرب النصارى إضطروا إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية وصارت صلواتهم فى كنائسهم بها . ويرى المستشرق جب : أن اللون العربى الذى التصق بالاسلام أتى من القرآن العربى . وأن القرآن كان المرجع الأخير فيما يخص اللغة العربية وقواعدها ، وأن الاتجاهات القومية العربية تؤكد على أن اللغة العربية هى حجر أساسى للوحدة العربية . غير أن اللغة العربية قد توقفت عند حد محدود ، بينما استطاع « القرآن » أن يوسع نطاقه فى فارس وتركيا والهند وأفريقيا وأرخبيل الملايو . إذ أستطاع أن الإسلام أن يشق طريقه إلى هذه المناطق فى القرون الأخيرة ، دون أن تنتشر اللغه العربيه ، وتولدت فى هذه الوحدات لغات مختلفه تفهم الاسلام والقرآن ، كما انتشر الاسلام فى آسيا الصغرى وفى بلاد البلقان دون أن تنتشر اللغه العربيه .

وكذلك لعب الاسلام دوراً هاما فى توسيع نطاق « العروبة » فإن انتشار اللغة العربية على يديه قد وسع نطاق « الأمـــة العربيه » ، وكذلك صار « الاسلام » القوة الواقية التى أكسبت « اللغة العربية » عامل المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت وصانت بذلك الأمه العربية من الانشار (ساطع الحصرى) :

ولـكن الاسـلام ولسانه العربى « القرآن » قدطبع للمسلمين جميعاً بطابع عربى وفقاً للقـاعدة الأساسية التى رسمها محمد ﷺ : « ليست العربية بأحدكم من أب وأم ، وإنما هى اللسان فمن تـكلم بالعربية فهو عربى » بمعنى أن من إتخذ « اللسان العربى » منطقاً له فهو عربى مهما اختلفت الأصول التى انحدر منها والدماء التى تجرى فى عروقه » : وقدغلبت خلال القرن الرابع عشر الهجرى «دعوة» نسبت إلى العرب كل المقومات والتراث الحضارى والفـكرى المشترك بين الاسلام والعروبة ، ودأب كثير من كتاب الغرب على العمل بخبث للفصل بين الأمة العربية وبين الاسلام كفـكر وثقافة وحضارة ، محاولين تصور حضارة عربية وثقافة عربية وتاريخ عربى منفصلا عن الإسلام كـأساس أصيل لها . وبالرغم من دور العرب الضخم فى بناء الحضارة الإسلامية فإنه من الظلم أن ينـكر دور الأجناس غير العربية التى شاركت فى التاريخ والحضارة والثقافة والتراث ، والواقع أن كل من كلمتى « عرب وإسلام » قد حلت إحداها محـــل الأخرى دون فهم دقيق ، والواقع أن التاريخ العربى لا ينفصل عن التاريخ الإسلامى، إلا فى فترات دقيقة لا تستطيع وحدها أن تمثل قائما بذاته :

والحق أنه إذا ذكرت « العرب » فى مجال الحضارة والفـكر ، ذكر ذلك الأصل الذى قامت عليه الحضارة ،وذلك الفـكر ولـكن هو «الاسلام» فالعرب أمة والإسلام فـكر وحضارة ومجتمع ودعوة إنسانية عالمية ، والعرب هم الأمة التى حملت لواء الاسلام وشقت به الطريق إلى أقصى المشرق والمغرب ولـكن الفـكر الذى حمله العرب فى الرحلة الطويلة كان « أسلامياً » فى جذوره مستمداً من مفاهيم واضحة أصيلة ، هذه المفاهيم هى التى دفعت العرب إلى النهضة والحضارة شاركتهم فى ذلك عقليات المسلمين من مختلف الأمم من غير العرب ، ولذلك فإن نسبة الحضارة والفـكر إلى العرب وحدهم ليست صحيحة تماماً إلا إذا قصد إلى أن اللغة العربية كانت وعاء هذه الثقافة .

بل إنه يمكن القول بأن اليقظة العربية الحديثة « ظاهرة اسلامية » ، فإن الاسـلام هو الذى أيقظ العرب مرة أخرى ودعاهم إلى التماس الحرية والمقاومة بسلاحه . ويرى بعض الباحثين ومنهم (الفريد كانتول سميث) إن الاسلام هو الدين الوحيد فى العالم الذى ملأ نفوس معتنقية فخراً وإعجاباً

وهم ينظرون إلى أمتهم بوصفها « الأمة » التى اختارها الله لاظهار دينه ، وهى الأمة التى يتمثلها كل من أراد أن يتخذ الاسلام دينا له ، ولسنا نحن مع الذين يرون أن قوة الاسلام تتمثل فى عصر « الجماعة الاسلامية » أو أنها تنتهى بسقوط بغداد أو دولة الأمويين فى الأندلس أو فتح العثمانيين لمصر سنة ١٥١٧ .

بل الرأى عندنا أن تاريخ الاسلام متكامل ، فى عروبته .وإسلاميته وفى قوته وضعفه ، وأن هذا الجزء من تاريخ الإسلام الذى نما بعد الحروب الصليبية إنما هو امتداد طبيعى لعنصر إسلامى قوى استطاع أن يحمل لواء الاسلام حتى عاد العرب ليحملوه من جديد ، غير أننا نذكر أن الاسلام ظل فى موجة العثمانيين أقل عمقا منه فى أيدى العرب . وفى مرحلة الغزو الغربى الحديث كان الاستعمار حريصاً على أن يقضى على هذه الموجة العربية الجديدة المتصدرة حتى تضعف عن حمل لواء الاسلام ، أو تحويلها إلى النزعات الأقليمية أو الوطنية أو القومية لصرفها عن المفهوم الأوسع ، غير أنها استطاعت أن تنتفع بكل هذه النزعات المستحدثة وصاغتها من جديد وفق مفهومها الاسلامى وقد استطاعت هذه الموجة أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ومن بين ضرباته ، وأن تحقق نصراً فى (١) مجال الحرية الوطنية والوحدة العربية (٢) مجال انتشار الاسلام (٣) مجال تصحيح مفاهيمه وقد فرض على الاسلام سلاح الضغط الاقتصادى والقوة العسكرية والشعوبية والسيطرة على التعليم والصحافة ، وخلق طبقة من المثقفين الذين اعتنقوا مبادئه واتخذوا أسلوبه فى الحياة وفكره وقيمه ، غير أن أغلب هؤلاء — ماعدا صنائعه ، قد أحسوا بأنهم خدعوا فعادوا أقوى مايكونون دفاعا عن قيم العرب والاسلام . وقد برزت فى خلال القرن الرابع عشر الهجرى (٢٠ م) حركات ايجابية كافحت فى سبيل الحرية واليقظة واستطاعت أن تواجه عوامل الغزو الفكرى والتغريب التى تمثلت فى دعوات شعوبية متعددة المظهر متحدة الهدف تخاصم العروبة والإسلام معاً وهى تسعى إلى هدفين : (١) القضاء على الشعور القومى والاعتزاز بالتاريخ الاسلامى (٢) القضاء على الاسلام باعتباره الاطار العقائدى للوحدة العربية فى مجال نشاطها وحركتها وحيويتها .

والحق أن الاسلام فى مختلف دورات التاريخ قد احتضن « الوحدة العربية » بكل قوة ونماها واتخذ منها منطلقاً له ، وقد استطاع الاسلام القيام بهذه المهمة ولايزال ، والأمة العربية أعمق وحدات الاسلام عقيدة وأقدرها على فهمه فهما صحيحاً ، والدفاع عنه والدعوة إليه . ولاشك كان لحركة « اليقظة » فى مفهومها الاسلامى القدرة على مقاومة محاولات الغزو الاستعمارى والتغريب والشعوبية جميعاً .

(٤٠)

« إنتشار الاسلام ذاتيا »

يقسم الاسلام بسمتين واضحتين: «الأولى» هى توسعات الاسلام وانتشاره عن طريق التحركات العسكرية التى كانت تحمل طابع المبادرة بالقضاء على مدبرى خطط العدوان للقضاء على الاسلام الوليد فى شبه الجزيرة وتتمثل هذه «المرحلة الأولى» فى حركة توسع إمتدت شرقا وشمالا وغربا، فاستطاعت أن تبلغ فى عصر الخلفاء حدود الهند وأفريقيا، ثم كانت موجتها الثانية فى عصر القيادة السياسية الأموية وقد بلغت إلى حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا، بعد أن اقتحم المسلمون أوربا وأقاموا دولة الأندلس العربية المسلمة ثم توالت موجات ذات طابع محلى تتمثل فى تحركات محمود ابن سبكتكين فى الهند وما جرى من محاولات للتوسع فى إيطاليا وقلب أوربا الغربية ثم كانت حركة القيادة السياسية العثمانية فى قلب أوربا من ناحية البلقان. «الثانية» توسعات الاسلام ذاتيا وهى الحركة التى اتصلت فى تاريخ الاسلام كله ولم تتصل بأعمال قادة عسكريين أو سياسيين، وإنما كانت من عمل التجار والعلماء والصوفية، وقد كسبت هذه الحركة توسعات تزيد عما حققته أعمال التوسع السياسية الأولى.

غير أن هناك حقيقة أساسية يجب أن لا تغيب عن الباحث عن حركة انتشار الاسلام هى أن الوحدات التى سيطرت عليها القيادة السياسية الاسلامية لا يمكن أن توصف بأنها أصبحت مسلمة بين عشية وضحاها، فقد كان الاسلام حريصا على ألا يفرض عقيدته على أحد من سكان الأرض الاسلامية وأن يترك لأهل هذه الوحدات الحرية المطلقة فى ممارسة أديانهم، بل وحماية مقدساتهم وإتاحة الفرصة الكاملة لهم للأمن الشامل فى مجال العقائد والمجتمع ومختلف عوامل التعامل، ومن هنا فإن «انتشار الاسلام» فى هذه الوحدات إنما تم بالاقناع وبمطلق الحرية، فقد قامت على أثر سيطرة القيادة السياسيه الاسلامية على هذه الوحدات، جماعات من العلماء والفقهاء للدعوة إلى الاسلام وشرحه والرد على ما يعرض له أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى وما يطلبون تفسيره وما يثيره خصوم الاسلام من شبهات، ومن هنا فإن تعمق الاسلام وتقبله واعتناقه لم يتم بمجرد السيطرة السياسية على هذه المنطقة الفسيحة من حدود الصين إلى حدود فرنسا وإنما تم ببطء شديد وبناء على إقتناع كامل. وقد بقيت وحدات إسلامية على طابعها السابق للاسلام فترة تتراوح

بين قرن وثلاثة قرون (الشام وفارس) ولم يتم انتصار الإسلام فى المغرب إلا فى القرن الخامس الهجرى على يد المرابطين ، ومن هنا وبالإضافة إلى حققه التجار والدعاة فى المناطق التى لم يفرض الإسلام عليها سلطانه السياسى يمكن القول بأن الإسلام قد انتشر ذاتياً . وقد استطاع الإسلام بقوته الذاتية أن يحقق فتوحا بعيدى المدى كان من أهمها : دور عمر بن عبد العزيز ، وهو دور خطير وبعيد المدى ، وهو يتمثل فى أكثر من عمـــل : (١) الكتابة إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانت سيرته نبراساً لهم فاسلموا وتسموا بأسماء العرب . (٢) ولى بلاد المغرب أحسن الولاة سيرة : اسمـاعيل بن عبد الله ابن أبى المهاجر فسار فى البربر أحسن سيرة ، وكتب عمر كتابا لهم يدعوهم إلى الإسلام فقبلوه . (٣) كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الإسلام فأسلم كثير منهم . (٤) خفف أثقال الخراج على النصارى وأوقف الجزية عمن دخل الإسلام . وقد كان لدخول الأتراك فى الاسلام فى العصر العباسى وبالأخص فى خلافة المعتصم بعد اتخاذ بعض أجنادهم أعوان له ، أثر كبير فى كسب جماعة ضخمة كان لها أبعد الأثر فى تاريخ الاسلام خلال عشرة قرون كاملة فقد استطاع الاسلام بواسطة دعاته أن يجذب إليه أولئك الفاتحين ويحملهم على اعتناقه ويرجع الفضل فى ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضـــة منافسين عظيمين هما : المسيحية والبوذية . كما اجتذب الاسلام إلى مجال اعتناقه عدداً من الصليبيين وكان هؤلاء قواداً وأمراء وقد سجل توماس أرنولد أن ستة من أمراء مملكة القدس اعتنقوا الاسلام بغير أن يضطرهم أحد ، كما أسلم عدد كبير من الأسبانيين بعد القضاء على الدولة الاسلامية فى الأندلس. وقد بدأ الاسلام توسعاته فى أفريقيا باعتناق البربر أهل المغرب الأصليين الإسلام ، وكان عقبة بن نافع قد بلغ واحة الكوار فى الجنوب ، حيث أكد له سكانها أنه لا يوجد بشر جنوب منطقتهم فلما نزحت جماعة من العرب والبربر إلى جهة بحيرة « تشاد » وفى القرن الثانى الهجرى — حيث مفترق جنوب الصحراء — نتج عن هذا الاتصال الأول عن الصحراء بين العرب والمسلمين وبين السودانيين اعتناق عدد من ملوكهم الاسلام وتأسس عدد من الممالك المزدهرة : كانم ، سنغاى ، غانا وتوالى اعتناق الملوك الأفارقة الإسلام مع المبادلات التجارية بين غانا والمغرب الأقصى على أيدى قبائل الطوارق ، ولم يلبث هؤلاء الملوك أن جلبوا عدداً من العلماء والفقهاء ليعلموا شعوبهم أصول الاسلام . وتوالى تأسيس الرباطات التى أسفرت من بعد عن ظهور (المرابطين) فى القرن السادس الهجرى بعد أن انتشر الاسلام فى قبائل صنهاجه فأسسوا مملكتهم الاسلامية الممتدة من أسبانيا إلى السنغال . دفعت دولة المرابطين الاسلامية بقوة بين رعايا امبراطورية غانا الأفريقية الوثنية الكبرى

التى امتدت رقعتها فشملت مناجم الذهب فى السنغال الأعلى ، وفى القرن السابع الهجرى (١٣م) كانت (تمبكتو) مركز الثقافة الاسلامية ، ثم صادف التوسع قوة دفع جديدة عندما تأسست دول (سوكوتو) وأخضعت أغلبية السودان الغربى لهـــا بمساعدة الأخوة الصوفية المراكشية مريدى الطريقة التيجانية . وفى السودان الأوسط على محاذاة بحيرة تشاد دخل الاسلام فى أوائل القرن الخامس الهجرى (١١م) أما السودان الشرقى المتاخم لحدود مصر الجنوبية فقد ظل على نصرانيته مدة طويلة بعد أن أصبحت مصر ولاية إسلامية فى القرن الأول بعد الهجرة وفى القرن السابع الهجرى (١٣ م) اعتنق النصارى والوثنيين من أهل الاسلام دين الاسلام عن اقتناع ، ونتيجة لنزوح قبائل عديدة من المسلمين والعرب عن مصر . وقد دعى البيت الحاكم فى السودان الشرقى « الفونج » فى القرن ١٢ — ١٨ هثم اتسع نطاق الاسلام فى أفريقية الغربية على أيدى الملوك والتجار وبواسطة الحج إلى مكة واستقدام العلماء وإدخال اللغة العربية والقرآن ، ومن أبرز الملوك فى هذا المجال : كنكان موسى أعظم ملوك مالى (١٤١٢ — ١٣٣٥) وأسيكا محمد (١٤٩٣ — ١٥٢٨) . وفى القرن الثالث عشر (١٩ م) نشط الاسلام بعد فترة ركود استمرت ثلاثة قرون وتأسست عـــدة امبراطوريات إسلامية بإفريقية الغربية من أهمها امبراطورية (عثمان دان فوديو) وامبراطورية ماسنيا وعلى رأسها الشيخ أحمد وامبراطورية الحاج عمر وقد جاهدوا جميعاً لادخال أفواج كبيرة من الوثنيين فى الاسلام ثم ظهر «ساموري» فى مالى فقاوم توغل الاستعمار الفرنسى وحارب الغزو الأجنبي ١٨٩١ — ١٨٩٦م وفى عهد الناصر ابن قلاوون (٧٤١ هـ) أسلم ملك دنقلة فانتشر الاسلام بين سكان البلاد من المسيحيين على أيدى التجار .

ودخل الاسلام الحبشة عام ٧٠٢ هـ ثم توسع فى القرن الحادى عشر حتى بلغ المسلمون ثلث سكان البلاد . ومنذ اعتنق الاسلام نصارى النوبة دخله السنغاليون والسواحليون فى زنجبـــار وقبائل الصحراء ثم ازداد انتشاره فى السودان حيث أسست ممالك إسلامية قوية . وفى القرن الحادى عشر الهجرى نهض الاسلام نهضة قوية على أيدى الدعاة ومشايخ الطرق ، وكانت الدعاة المسيحيون : الكاثوليكية والبرتستانية قد نشطت فى أفريقية أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) غير أن الاسلام اندفع بقوة ، من أبواب الزوايا الصوفية فى المغرب وبلاد فارس ومراكش واخترق بلاد الادار بجبهة السنغال وكانت زوايا اتباع الشيخ عبد القادر الجيلى فى تمبكتو وزوايا التيجانية (أحمد بن محمد التيجانى) (٧٢٨) التى اتسعت حول مجرى نهر النيجر وزوايا السنوسية (محمد بن على السنوسى) فى الجنوب وغدامس متجهة نحو بحيرة تشاد ومن أهم مراكزها وادى وبورنوا . ومن

خريجى الأزهر امتد خط آخر إلى كردفان ثم إلى أوغنده وكان لتجار المسلمين الذين كانوا يقطنون المسافات بين مصر وطرابلس ودارفور أثر كبير ، وكان أقوى نفوذ للتجار الذين يذهبون من زنزبار إلى إقليم البحيرات الكبرى ثم عبر نهر الكونغو إلى بلاد البانتو ، أو من ساحل أفريقيا الشرقى داخل البلاد إلى مدغشقر .

ارخبيل الملايو

يرجع انتشار الاسلام فى جنوب شرق آسيا إلى التجار العرب الذين وصلوا هذه البلاد فى القرن الأول للهجرة ، واستطاعوا أن يوسعوا تجارتهم حتى كانت تجارة جزيرة سيلان كلها فى أيديهم خلال القرن الثانى ، ثم راجت تجارتهم مع الصين رواجا عظيما . وكانت « كانتون » أكبر مركز لهم ، وظلت لهم السيطرة التجارية حتى القرن التاسع الهجرى حين ظهر البرتغاليون وتطلعوا إلى هذه الآفاق . وقد أسس المسلمون مستعمرات تجارية فى أكثر من موقع فى جزء أرخبيل الملايو وكانت لهم مستعمرة على ساحل سومطرة الغربى ويرجع الأثر الحقيقى فى الدعوة الإسلام فى هذا القطاع إلى الدعاة المسلمين الذين وفدوا إلى أرخبيل الملايو من جنوب الهنـــد والذين حملوا الاسلام إليها مما أرث جذوره فى جاوه وسومطره . كما كان لإصهار التجار المسلمين إلى سكان البلاد أثره البعيد فقد كونوا بذلك النواة الحقيقية للجماعة الاسلامية التى ظلت أعدادها تتزايد ، مما طبع المنطقة بطابع إسلامى واضح ، ثم امتدت الدعوة إلى الاسلام التى حملها وجاهد فى سبيلها كثير منهم إلى سومطره وسيام وبرنيو . ثم انتقل تيار الاسلام من سومطره إلى شبه جزيرة الملايو ، فأصبحت أحدى معاقل الاسلام . وفى جاوه الشرقية استطاع المسلمون القضاء على الامارة الهندوكية وامتدوا منها إلى جاوة الغربية فى القرن العاشر الهجرى ، ويمكن القول بأنه منذ منتصف القرن السابع الهجرى استطاع «ضوء الاسلام» أن يكسب جولة جديدة فى ربوع الأرخبيل الأندونيسى وشبه جزيرة الملايو وجزائر الفيلبين . وقد قاوم الاستعمار الهولندى فى مطلع القرن العاشر الهجرى حركة توسع الاسلام الذاتية ، وبذل جهوداً ضخمة لتحطيم جهود الدعاة المسلمين واستئصالها وطمس الصلات التى ربطت بين مسلمى أندونيسيا ومن قوانين صارمة وفرض ضرائب دخول فادحة على المهاجرين القادمين إلى أرخبيل الملايو من الهنـــد أو جزيرة العرب .

وقد حفظ تاريخ انتشار الاسلام فى أرخبيل الملايو أسماء كثير من المجاهدين الأعلام الذين قاموا بدور ضخم فى سبيل الدعوة إلى الاسلام وجعلوا من منازلهم معاهد ومدارس لايواء المريدين والطلاب

والقيام بتكاليف معاشهم وتعليمهم عقائد الاسلام والواجبات والمبادىء ثم بث المتخرجين فى مختلف النواحى والقرى ، لاقامة المعاهد والمصليات لتعليم القرآن والأحكام . وقد أعان على انتشار الاسلام فى أرخبيل الملايو أمران هامان : الأول : كان أغلب سكان هذه المناطق على الفطرة فوجدوا فى بساطة الاسلام وسماحته ما جعله متقبلا لديهم . الثانى : مرونة الدعاة وصدق إيمانهم وصبرهم وقدوتهم الحية . وقد استطاع الاسلام بسماحته أن يتقبل فى مرونة ويسر طابع أفراحهم وأناشيدهم وأغانيهم وأضاف إليها مفهومه ، ثم استطاع أن يحول أبطال الأساطير إلى أبطال من قادة الاسلام ، كما حول الصور المجردة إلى معانى إنسانية . ويرى بعض الباحثين أن بساطة الاسلام استطاعت أن تسيطر فى مواجهة الدعوات المتعددة التى كان ينشرها متعصبو ديانتى شيوا وشنوا ، وما كان بين البوذيين والحيثيين وبينهم من خلاف وخصومات ، وقد أتاح هذا الجو المضطرب الفرصة لنشر الاسلام بسماحته وبساطته التى تتمثل فى الايمان المطلق بالله ، والمساواة بين البشر وحرية العقل والرأى فى الحياة العملية بما ألغى حواجز اللون أو المنصب أو النسب بين الناس . وقد كان عمل التجار العرب فى مجال الدعوة إلى الاسلام بارعا ودقيقا ، فقد نالوا تقدير أهل البلاد بتعلم لغتهم وعاداتهم ، « وقد بدأوا أولا بضم النساء اللائى تزوجوا منهن إلى الاسلام كما جعلوا كل من يتصل بهن يعتنق بالاسلام ، ومن ثم أخذوا يندمجون فى عامة السكان ولم ينفصلوا عنهم بدافع الغرور أو الكبرياء وأخذوا يواصلون نشر دينهم مستخدمين فى ذلك ذكاءهم الفائق وحضارتهم العظيمة وأظهروا مقـــدرة فائقة فى تفسير الأصول والعادات المتعلقة بدينهم بحيث يتيسر أمره لمن يراد جذبهم إليه » .

(٢)

صور هاملتون جب حركة إنتشار الاسلام على أنه تم بسلسلة من القفزات السريعة « ففى مدة لا تتجاوز القرن إلا بقليل بين عامى ١٠ — ١٣٣ هـ (٦٧٢ — ٧٥٠م) استطاعت جيوش الخلافة أن توسع رقعة الحكم الاسلامى من أواسط آسيا شرقا حتى مراكش وأسبانيا فى أقصى المغرب ، وظل الاسلام محصوراً فى هذه الرقعة إلى قرابة القرنين ونصف القرن ، امتد بعدها حتى شمال غربى أفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمال الهند وكان ذلك بين عامى (٤٠٠ — ٥٠٠ هـ) حوالى ١٠٠٠ و ١١٠٠ م وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع إندفعت صوب شبه جزيرة البلقان ومنحدرات روسيا وسيبريا وباقى أرجاء الهند إلى أندونيسيا ، وهكذا أضحت خريطة

العالم الإسلامى فى مطلع القرن التاسع للهجرة (١٤٠٠ م) من الاتساع كما هى الآن باستثناء زوال الاسلام من شبه جزيرة ايبريا وصقلية ، متغلغلة فى بعض المناطق على نطاق ضيق لاسيما فى أفريقيا ، ونستطيع أن نضيف إلى عرض هاملتون جب القول بأن الإسلام قد وسع رقعته وما زال فى أرخبيل الملايو وفى وسط أفريقيا وغربها على نحو هو موضع الغرابة من الباحثين والملاقين الذين يتصوورون أنه سيتضاعف قوة فى خلال القرن الخامس عشر الهجرى . والحق أن انتشار الإسلام فى خلال موجاته المتوالية قد كشف مقدرة أشبه برد الفعل أزاء تحديات الغزو الخارجى ، حتى يكاد استمرار هذه الظاهرة وتواليها أن يكون أشبه بقانون علمى ، أو ناموس طبيعى . يقول : توماس أرنولد : عندما تضعضعت قوة الإسلام السياسية ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع ، وعندما ضربت جموع المغول بغداد (٦٥٦—١٢٥٨) وعندما طرد فرديناند ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦م فى هذين الوقتين كان الإسلام قد استوت دعائمه وتوطدت أركانه فى جزيرة سومطرة وكان يشق طريقه إلى تقدم ناجح فى جزيرة الملايو . (٢) يقدر جملة الذين أسلموا فى البلاد التى كانت تحت سلطان القيادة السياسية الإسلامية بمائة مليون بينما يبلغ الذين أسلموا بانتشار الإسلام ذاتياً أكثر من خمسمائة مليون وهم من أسلم فى الهند والصين وأرخبيل الملايو ووسط أفريقيا . (٣) شارك فى نشر الإسلام مختلف عناصر المسلمين : بربر وفرس وترك وزنوج ، وعلى مختلف مذاهبهم : سنة وشيعة ، ولم تكن المساجلات التى دات بين المسلمين حائلة دون الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيل نشره ، وقد حاول كثير من الباحثين الكشف عن السر فى انتشار الإسلام على هذا النحو من القوة وخاصة فى القرنين الأخيرين الثالث عشر والرابع عشر فى مواجهة حملات التبشير الغربية المزودة بالمال ، وأن تتم هذه القدرة فى التوسع على يد التجار والعلماء والصوفية . وليس هناك من سبب أصيل سوى أن الإسلام دين الفطرة وأن بساطته وسماحته قد نقلت قلوب هذه الجماعات البدائية البسيطة من الوثنية إلى تقبله ، فضلا عن أنه بالمقارنة مع غيره ، ليس فيه اسرار مذهبية أو تعذيب للضمير ، كما أنه من المرونة بحيث يتقبل العادات والآداب الاجتماعية والإيجابية ، ويجيز تعـــدد الزوجات واقتناء الجوارى والعبيد ، وأبلغ أثر يتركه فى نفوس معتنقيه هو المساواة والإخاء وشجب التفرقة العنصرية وإعطاء معتنقيه صفة الحرية والكرامة .

وقد اعترف هوبير ديشان مؤلف كتاب الديانات فى أفريقيا السوداء (وكان حاكما للمستعمرات الفرنسية) بأن انتشار الدعوة الإسلامية — فى غالب الظروف — على حد عبارته — لم يقم على القهر والتسلط ، بل قام على الإقناع ، لأن الذين قاموا به كانوا شيوخاً متفرقين ، لا تحوطهم قوة

أو تحميهم دولة ، وإنما كان الإخلاص هو دافعهم إلى إظهار محاسن الاسلام وسماحته ، وقد يسر انتشار الاسلام — فى تقدير المؤلف — أنه دين فطرة سهل التناول خال من التعقيد، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة ، بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين ، لذلك كان التجار المسلمون يحملون بذور الدعوة فى هدوء ويسر » .

(٤١)

مفهوم البطولة فى تاريخ الإسلام

يزخر تاريخ الاسلام بأحداث البطولة ، وهى تمتد عبر مراحله المتصلة ، دون توقف ، وهى فى صورها القريبة لا تنفصل فى مفهومها عن صورها الأولى ، وكلها تستمد وجودها من مفهوم أساسى واضح ، هو القيام بدور خلاق فى سبيل دفع الأمة الاسلامية إلى الأمام نحو الحرية والقوة والمجد ، وتتسم البطولة الاسلامية بطابع عملى إيجابى ، وحيث يكرم البطل إنما يكرم عمله أساساً ، وليس شخصه أو ذاته ، تقديراً للخطوة التى حققها ، والدور الذى قام به ، ومن هنا كان «البطل» دائماً خادماً لمجتمعه وفكرته وأمته ، يؤمن حق الايمان بأن عمله مقدور فى ميزان العمل الصالح على تعاقب الأجيال ، ومن هنا فهو لا يتطلع إلى الجزاء المادى أو المغنم والشهرة . وقد عرف تاريخ الاسلام أبطالا قاموا بأدوار على قدر عظيم من الأهمية دون أن يكشفوا عن شخصياتهم ، أو يبوحوا بأسمائهم وقد سجل التاريخ هذه المواقف تحت أسماء مجهولة ، ومن هؤلاء « صاحب النقب » هذا البطل الذى استطاع أن يفتح ثغرة فى سور دمشق ، بعد أن حاصرها المسلمون طويلا وحاولوا مرات متعددة أن يثلموا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إتمام هذا العمل ، فقد كان لا يكاد ينطلق أحدهم نحو الهدف حتى تتناشه السهام والنبال ، فترغمه على العودة مرة أخرى دون أن يصل إلى السور، غير أن هذا البطل الذى لم يعرف التاريخ اسمه ولم يكشف هو عن شخصيته ، وقد اندفع فجأة — بعد أيام طويلة ظل القائد يحرض خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور — اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشه من كل مكان دون أن يتوقف أو يرتد حتى بلغ الجدار فأحدث فيه ثقبا ثم اخترقه إلى داخل السور وكبر ، فكبر المسلمون وعبروا إليه ، فلما انتهت الموقعة ، ظن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن « صاحب النقب » سوف يتقدم إليه دون جدوى ، هنالك نادى فى الجيش أن يتقدم ، فلم يتقدم أحد ، ووعد ثم هدد ، وبينا هو جالس فى خيمته تقدم منه رجل ضامر نحيل ، فقال له : أيها القائد :

هل تريد أن تعرف صاحب النقب . قال : نعم ، قال : أنا أدلك عليه ، إذا أعطيتنى العهد أن لا تسألنى عن إسمى ، فقال القائد : محمد بن مسلمة : لك عهد الله أن لا أسألك عن إسمك ، قال : أنا هو : وانطلق خارجاً من خيمة القائد . ومعنى هذا أن « مفهوم البطولة فى الإسلام » لم يكن الإعلان والشهرة ، والتطلع إلى الحظ العاجل ، والأجر السريع ، ولكنه كان إيمانا صادقا من أعماق النفس بأن الله وحده هو الذى يجزى على العمل . ويزخر تاريخ الإسلام ببطولات كثيرة مجهولة ، قام أصحابها بالعمل ، دون أن يكشفوا عن هويتهم التماسا لرضاء الله وحده ، وانصرافا عن مطامع الظهور والإعلان والشهرة ، وكان هذا هو مفهوم « الزهادة » التى تتمثل فى إخفاء العمل وتحريره لوجه الله وإخلاصه للحق وحده . ويجمع الإسلام فى معنى البطولة قطاعات عدة : بطولة المفكر والمصلح — وبطولة القائد المحارب — وبطولة بناة الدول وخدام الحضارة . والبطل فى الإسلام خادم لقضية وهدف ، ولا يقل عمل المصلح الذى يصحح المفاهيم عن المحارب الذى يرد العدو ، ويتساوى مداد العلماء بدم الشهداء ، وفى مجال الحرب تتمثل البطولة ـ ليس فى أعمال القتل وحرق المدن ـ بل فى البراعة فى كسب المعارك بأقل تضحيات ممكنة .

والبطولة أساسا : بطولة بناء ونمو وامتداد ، تتمثل فى مجال العقل مع إضافة الجديد ، وقدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة ، والمرونة فى تحقيق التجديد والاجتهاد ، وتنكشف فى قدوة العاملين فى مجال الحضارة والبناء والتعمير ، وفى مجال المربين وبناة الأجيال ، وفى العاملين على إضافة كشوف جديدة . وتتركز البطولة الاسلامية فى العمل نفسه ، لا فى « الفرد » من حيث هو من أسرة معينة أو بلد معين .

فليست بطولة عمر بن الخطاب أو خالد ابن الوليد أو صلاح الدين مستمدة من ميراثه الفردى أو العائلى ، بل مستمدة من مفهومه وعمله . وكان مفهوم البطولة دائما هو دفع الجماعة إلى الأمام ، وتحريرها من الاستعباد وتخليصها من أسار الغزو ، وإتاحة الفرصة أمامها ، للحركة والتقدم . ولقد كان تاريخ الاسلام قائما دوما على القدرة المتجددة فى أن ينبعث البطل الذى يقود المعركة ويواجه الازمة ، وكلما تجمعت التحديات فى وجه المسلمين برز القائد الذى يحمل اللواء . ويقود الجماعة فى معركة مقاومة ، وكانت الأحداث والأزمات دائما قادرة على أن تدفع الأمة إلى الوحدة ، والتجمع والتكتل والتضحية حتى يتحقق النصر ، ولقد عرف عن تاريخ الاسلام عدداً من النكسات ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر المظفر والهزيمة الساحقة للعدو . فقد كانت الجماعة دائما قادرة على مواجهة الخطر

مهما بلغ من الشراسة والعنف بالتماسك والتجمع والتضحية . ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة جعلها دائما فى مواجهة المسلمين ، لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم ، وكل الأبطال الذين عرضهم (القرآن) أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يحنون رؤوسهم للعدوان ، ولا يخافون ، بل يقفوا دائما موقف الصمود والمقاومة مرفوعى الرؤوس، فقد كانت رسالتهم دائما هى رسالة «التقدم والبناء» ومن هنا عجزت دائما قوى العدوان ، عن أن تقتلعهم أو تنتصر عليهم . وكانت المقاومة عندهم إيمان فى أعماق النفس وسلاح فى اليد ، يعملان معا فى اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة . لقد كان البطل دوما فى مفهوم الاسلام « استجابة » لحاجة الأمة والمجتمع ، ينبعث فى وقت الأزمة ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل ، على وجه موجة من موجات التقدم . لقد كان الرسول ﷺ هو « النموذج الاسلامى الأعلى للبطل » وكانت صورته دائما وتجربته وعمله ، موضع القدوة والمثل طوال فترات التاريخ الاسلامى ، ومراحله ، وما تزال حتى اليوم موضع القدوة عن كل بطل وقائد . فهو الذى إذا اشتد البأس اتقى الناس به ، فما يكون أقرب إلى العدو منه ، وهو الذى وجده الناس عائداً من مصدر الصوت على فرس عرى عندما خرجوا يلتمسون الخبر ، وهو الذى وقف فى « حنين » كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجمة مفاجئة من العدو ، ينادى الناس « إلىّ إلىّ .. » وهو الذى كان يفرق دائما بين موقفه فى الغار ولا قوة معه ، ويلتمس نصر الله ، وموقفه فى بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة فهو وجل من أن يكله الله إلى القوة ، فهو يلتمس نصر الله مجرداً ، وهو البطل الذى لم تذهله الأحداث ، والقائد الذى لم يهزم قط ، وقد علم خلال السنوات الثلاث عشر فى مكة جيلا من القادة والمغاوير ، ورباهم على البطولة والتضحية والايمان فكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل ذلك الرعيل موضع إعجاب الأجيال المتصلة المتوالية . ومن ثم اتصلت فى تاريخ الاسلام روح البطولة والتضحية والموت من أجل الحياة ، وكانت مقاومة الظلم ، هى أبرز صفحات الكفاح فى مواجهة كل باغ وظالم ومعتد ، على أرض الاسلام ، ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة ولعل السر فى تقدير الفرنجة لصلاح الدين قربه من مفهوم النبي وأسلوبه ، بل لعل هذا كان هو مصدر النصر الذى كسبه صلاح الدين . وقد تمثلت البطولة العربية الاسلامية فى الشجاعة والمروءة والأريحية والكرامة والأباء ، مع قوة الارادة ورجاحة الرأى ، فى ميادين الحرب والعلم والحضارة على السواء . وقد جمع المسلمون بين بطولة الفكر وبطولة الحرب ، فقد كان العلماء كلهم قادة معارك ، يحملون السلاح فى مواقف الجهاد : ابن تيميه والعز بن عبد السلام ، حتى المتصوفة تركوا زواياهم واندفعوا يحملون السيوف ويقاتلون فى معارك مقاومة

المغول والصليبيين ، ويحرضون المجاهدين ويملئون قلوبهم شجاعة واندفاعا . ومن قبلهم الحسن البصرى شارك فى مواقع الغزو ، كما شارك القاضى أسد بن الفرات . وبطولة الاسلام تقوم أساسا على إنكار على الذات ووفق قيم الأخلاق والأريحية : « لا تجهز على جريح،ولا تقتل صبيا أو عجوزا أو امرأة أو تتعرض لعابد فى صومعته » . ولقد كانت بطولة العلماء فى الدعوة إلى الاستمساك بالقيم ، وإذاعتها فى الأمة ، خاصة فى فترات المحن على أنها أعظم أسلحة النصر ، فإذا استطاع المغول أو الصليبيون أن يهدموا أو يملكوا شبراً فإنهم لا يستطيعون أن يملكوا النفوس الحرة ، ولا أن يهزموا القوى المذخورة فى أعماقها ، ومن هنا كانت بطولة المؤمنين تدفع فى طريقها كل ظلم ، وتحطم كل عدوان ، وكانت قادرة دائما على رد العدو وسحق الغزو .

وقد كانت بطولة العلماء دائماً فى أن يبثوا فى نفوس الأمة أن تكون متأهبة لخطر العدو الذى يتحين الفرصة ، ويترقب لحظة الغفلة ، وبطولة بناة الدول إنما تتمثل فى بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل ، ليس عدوانا ولكن إتقاء للعدوان « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن ذلك قول الرسول : « إلا أن القوة الرمى ، إلا أن القوة الرمى ، من رمى بسهم فى سبيل الله فهو له عدل محرر » وقول عمر : « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » ولقد كانت للمعركة مع العدو، هى معركة للمسلمين جميعاً ، يشارك فيها الرجل والمرأة، والشاب ، وفيها تخرج الزوجة بغير إذن زوجها والخادم بغير إذن سيده . ومن خلال القيم التى ترسمها البطولة الإسلامية وجد المسلمون دائماً القوة على العمل ، ومن هنا كانت محاولة الغزاة والخصوم تدمير هذه المقومات أو صرف الناس عنها . ولقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والفتوة من المجد الفردى والقبلى إلى مجد الأمة والدفاع عن مبدأ ورسالة . ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططاً واضحا قوامه «الموت من أجل الحياة» فنرى عمر ابن الخطاب يرسل إلى أبى عبيدة بن الجراح يستقدمه وقد خشى عليه وباء الطاعون فنرى أبا عبيدة يرفض ويقول : دعنى يا أمير المؤمنين بين جندى ، ويخشى عمر ما عرفه الناس عن بطولة خالد والمثنى الخارقتين فيعزلها فى أوج نصرهما عن مكان القيادة فى الجيش ويقول : خشيت أن يوكل الناس إليهما وأردت أن يعلموا إن الله هو الصانع ، فلما علم بعض الناس هذا الخلاف أو غز إليه بالمشادة ، فإذا خالد يقول : أما وعمر حى فلا . . أننا نسمع ونطيع لقادتنا ، ويذهب عقبة بن نافع فاتحا حتى يصل المحيط الأطلنطى على شواطىء المغرب فيغرس حافر فرسه فيه ويقول : « والله لو أعلم أو وراء هذا البحر أرضا لذهبت فاتحا فى سبيلك » ويرى أبو محجن الثقفى ميمنة جيش للمسلمين فى معركة « القادسية » تنكسر ، وهو معتقل فى محبسه فيطلب إلى زوج سعيد

ابن أبي وقاص أن تطلقه ويعاهدها على أن يعود إن لم يستشهد ، وينظر سعد محاربا يقاتل فيزلزل كالصواعق ويدهش العدو ، ثم يعلم بعد المعركة أنه أبو محجن الذي اعتقله لأنه شرب خمراً ، فيرسل في طلبه ويقول : والله لن أضربك الحد أبداً مهما شربت الخمر ، فيقول أبو محجن : وأنا والله لن أشربها أبداً ، فقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب أني أخاف الحد ، وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا : « خاف الله » ولقد حفل تاريخنا بهذه الصور ، بطولة في خلق ، وإنكار للذات مع طلب للموت ، وجمع بين بطولة الحرب وبطولة الفكر ، على نحو صورة الجندي المجهول في رده على سؤال المقوقس « رأيت قوما :للموت أحب إليهم من الحياة ،والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » .

(٢)

بطولة الحرب

في تاريخ الإسلام تنكشف البطولة في ثلاثة أبعاد : (١) بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة: (٢) بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم . (٣) بطولة بناة الدول في مجال الحضارة . وهي بهذا تكاد تسيطر على تاريخ الإسلام كله الذي يجرى في هذه الأبعاد الثلاث ، والواقع أن الإسلام قد رسم « أيدلوجيا جديدة » لها طابعها الخالص ، تتسم بالإيمان بالله وقوامها الجهاد في سبيل كلمته وإقامة حياة الفرد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الإنشاء والحضارة،ومن ثم فإنه من خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة إلى الحياة والمال والموت والجزاء . ومن ثم برزت « البطولة » التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الإسلام في الدعوة إليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه ورد عادية خصومة عن قيمه وعن أرضه ، ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » الذي لا يتوقف عند الحرب وحدها ، والذي يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الإنساني كله ، ما دام هدف الحياة الإنسانية الأساسي هو تحقيق رسالة الإسلام ودعوته . هذا هو التغيير الخطير الذي أدخله الإسلام على مفاهيم الأمة التي بزغ فيها ضوءه ، وهي أمة مهيأة بالفطرة لتحمل رسالة عظمى كهذه الرسالة ، ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل في أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة إعداداً نفسيا وبيئيا ووراثيا لحمل رسالة معينة ، ومن خلال هذه الجماعات تبرز بطولات الأفراد التي تخطو بالعمل خطراته المتوالية ، فإن الأمة بطبيعة تكوينها وبيئتها ووراثياتها ، وهي تعيش في هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة

عن حضارة الرومان وحضارة الفرس ، والتى بعدت عن معابر الغزاة ، وحركات الغزو ومعارك القتال وتيارات الحضارة والفكر وللمذاهب والأديان ، إنما كانت معدة إعداداً خاصاً لتاقى رسالة ضخمة إنسانية عالمية ، تحمل لواءها ، بكل هذه العوامل النفسية المكونة لجماعتها وأفرادها ، وقد التقى مفهوم الإسلام بطبائع العرب فتحقق بذلك تحول خطير فى قيم العرب وفق مقاصد الإسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير فى دقة ويسر ، واستطاعت أعوام لا تزيد عن نيف وعشرين عاما هى حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثه إلى وفاته ، أن تحقق هذا التحول . فقد عرف العرب بالشهامة والكرم والقوة والعزم والمقاتلة والصبر والصمود والبذل ، وتلك كلها صفات يرتضيها الإسلام ، غير أنها قبل الإسلام كانت موجهة فى سبيل الغاية الفردية والمجد الشخصى والفخر وفى سبيل الاستطالة والاستعلاء والظلم ، فكان أن حولها الإسلام إلى مفهوم إنسانى رفيع ، وجعلها أداة فى سبيل تحقيق هدف ، ووسيلة من أجل غاية عليا قوامها الإنسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل اتجاهها ، وبالتالى عدل اتجاه النفس الإنسانية العربية وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حد لها فى سبيل إذاعة كلمة الله فى الآفاق ، وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها ، ما دامت قوة عدوانية أو أداة تسلط أو ظلم ، وفق مفهوم القرآن: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» ومن هنا ترى النماذج الخطيرة التى كانت تعد من جبابرة الجاهلية تصبح أبطالا يهز اسمها التاريخ ، ويصل أثرها إلى أبعد مدى فى أعمال عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد فى مجال بطولة الحرب وعمرو بن العاص ومعاوية ابن أبى سفيان فى بطولة بناء الدول ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود فى مجال الفكر .

وهكذا رسم الاسلام مثلا أعلى ، استبطن معالم القوة والبطولة فى الشخصيه العربية وحولها إلى هدف أعلى ، فبرزت تلك النماذج من البطولة من خلال سنوات التدريب والاعداد . فى مدرسة « الأرقم بن أبى الأرقم » التى عاش فيها المعلم الأكبر « محمد » يعد هذه النماذج ويعد من خلالها أمة كاملة لا تلبث بعد قليل أن تنساح فى الأرض فتبلغ فى سنوات قليلة لا تزيد عن عمر الدعوة فى عهد النبي إلى حدود فارس وإلى حدود أفريقيا مكتسحة الامبراطورية الفارسية ، وما تسيطر عليه الدولة الرومانية من أرض الشام وأفريقية وهذا هو سر ذلك النصر فى معارك التوسع وسر تلقى الناس فى مختلف هذه الأقطار للمسلمين ، فاتحين لهم صدورهم ، بوصفهم مخلصين من الظلم ، داعين إلى العدل والحق والحرية ، لا يفرضون دينهم ، ولكنهم يدعون إليه بالاقناع والحجة . ومن هنا نرى ذلك التحول الغريب في المفاهيم ، رجل يقدم ماله كله ورجل يقدم نصف ماله ، وابن يحارب

أباه ، ورجل يترك بنيه وأهله وماله مهاجراً ، ورجل يقسم ماله وما يملك بينه وبين مهاجر إليه ، ونرى أيضاً اختلاف الموازين المادية بحيث تكون القوة العددية هي مصدر الانتصار ، تتغير هذه «القيمة» ويصبح النصر في الأغلب للقوة العددية الأقل ، وفي مختلف معارك المسلمين والعرب خلال مائة عام كان النصر للقوة الأقل أمام القوات الضخمة التي يتضاعف عددها مرة ومرتين وعشر مرات. ويرجع السر هنا ، ليس إلى عدد الجيوش ، وضخامة القوى الحربية ، بقدر ما يرجع إلى العقيدة التي يحملها هذا الطرف أو ذاك ، كانت قوات المسلمين دوما هي الأقل — عدداً وعدة — ولكنها كانت تحمل مفهوما « معنويا » ضخما بعيد المدى في كسب المعارك وذلك هو مفهوم « البطولة » على المعنى الذي أعده بها الاسلام والقرآن ومحمد . فالمسلمون يقاتلون في سبيل غاية عليا هي تحقيق كلمة الله ونشر الاسلام والدفاع عنه ، وهم لا يطمعون في نفحة مادية بالدرجة الأولى ، وهم في أعمق أعماقهم قد خرجوا على مفهوم واضح في نفوسهم ، هو النصر أو الشهادة ، وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أكبر نصر ، فهو قد قدم روحه في سبيل القتال لأنه وطد نفسه على أن يموت ، فلابد أن ينصر الكلمة التي آمن بها أولا ، ومن هنا فإنه ينتصر ولا يموت ، تحقيقا لقانون صادق وهو « أطلب الموت توهب لك الحياة » وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين كثير ، بل قتل الكثيرون ، ولكنهم ماتوا شهداء ، مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله في سبيل إيمان أمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم . وقد عاش هذا المعنى في نفوس المسلمين طويلا ولا زال ، حيا نابضا بالحياة فهم يتمثلون في كل خطوة ، ذلك المعلم الأول والقائد الأول « محمد رسول الله » ، ما تزل صورته الواضحة الدقيقة المبثوثة في كتب السنة ، في مختلف تصرفاته ، تواجههم وتملأ قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي ، فقد كان ﷺ هو التطبيق العملي لفكرة الاسلام ومقاصده وأهدافه ، وكان تجسيداً كاملا لتعاليم الانسان الحق ، والأسوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن وقد وصفه الحق بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . هذا النموذج الرائع ، قد كون جيلا ، من القادرين على احتمال أقصى صنوف العذاب والجهاد ، والحرب ، بصبر وجلد ، منهم بلال الذي كان يخرج كل يوم إلى الهاجرة يتعذب ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، ومنهم كثيرون وجههم الرسول في السرايات والغزوات ، ووصفهم بأنهم صبر على الجوع والعطش ، ومنهم من يقاتل بسيف ورمح ، ومنهم من كان يصرع عدوه بضربة واحدة وقد تمثلت البطولة في هذه المرحلة في مواجهة « الردة » التي أصبحت الجزيرة العربية عليها بعد اختيار النبي للرفيق الأعلى وفيما عدا ثقيف وقريش ارتدت سائر العرب . وكان موقف الصديق رائعا ، فقد أصر على المقاومة ورفض الاستسلام ، وأنفذ أحد عشر جيشا في يوم واحد فاستطاع أن يستأصل الرده في معارك

متعددة أكبرها « معركة اليمامة » وسرعان ما أبرزت هذه المعركة الأساسية فى ميزان بقاء الاسلام بطولات فى مقدمتها بطولة البراء من مالك ، فقد زحف المسلمون حتى ألجئوا المرتدين إلى حديقة أطلق عليها فيما بعد « حديقة الموت » وفيها مسيلمة مدعى النبوة ، فقال البراء يا معشر المسلمين القونى عليهم فى الحديقة ، فقيل له : لا تفعل . قال والله لتطرحنى عليهم فيها ، فاحتمل حتى أشرف على الحديقة من الجدار فاقتحم مقاتليهم عند باب الحديقة حتى فتحها للمسلمين » وغير الإسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرها لدى الرجل ، فقد جاهدت المرأة فى الحرب وقاتلت ، وقدمت حليها وشعرها ، وفى معركة اليرموك قاتلت النساء فى جولة . فخرجت جويرة بنت أبى سفيان ومعها زوجها فقاتلا قتالا شديداً .

وبدأ أثر التحول فى فكر المرأة ومفاهيمها ، متمثلا فى النساء اللاتى قدمن الأبناء ثم قدمن الأبناء والأزواج ، راضين متقبلين شهادتهم بالرضا ، إيماناً بالعقيدة والهدف والغاية غير جزعين للمصير من بعد ، قالت إمرأة من النخع لبنيها الأربع الذين شهدوا القادسية : « والله أنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، انطلقوا فأشهدوا أول القتال وآخره» ويتمثل هذا التحول فى موقف الخنساء من مقتل أخيها قبل الإسلام ومقتل أبنائها بعد الإسلام ، وكيف استقبلت هذا وذاك . ويبدو هذا التحول فى مواجهة المسلمين للفيلة فى حرب الفرس ، والبحر فى فتح المدائن ، وكيف استطاعوا التغلب على كل عقبة يدفعهم إيمان جارف ، وحب للموت ، ومنهم من غزا خمسين غزوة شاتيه وصائفة كما فعل عبد الله بن قيس الحارثى . وهكذا بدت بطولة الحرب والمقاومة فى صورة من أدق صورها مستمدة قوتها من مفهوم الإسلام نفسه ، وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت ثمة فى العام ١١٤هـ بصورة عامة فإنها ظلت حية تتمثل فى حركة المقاومة التى لم تتوقف فى جبهات الحدود الإسلامية البيزنطية والحدود الأندلسية الأوربية والأسبانية ، وفى حدود العالم الإسلامى من الشرق ، فقد امتدت معارك المقاومة منجمة ، على مراحل وفترات ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير هى الإدالة من العالم الاسلامى أو الحيلولة بينه وبين التوسع ، ثم برزت ثلاث معارك ضخمة هى : الحروب الصليبية فى المشرق ، وحروب الفرنجة فى الأندلس والمغرب ، والغزو المغولى التترى ، وفى خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الاسلام فى المقاومة بصمودها وسماحتها فى الوقت نفسه ، وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى مع صور خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص ، وتلمس الآخرون أخلاق الاسلام ومفاهيمه وحاولوا أن يكونوا على مستوى الرعيل الأول حماية للزمار ومقاومة للعدو وعدلا وسماحة ، وقد كان سر نجاح خطة نور الدين وخلفة صلاح

الدين الأيوبي هو إعادة بناء « مدرسة تربية الضمير والخلق » كقوة روحية ذاتية دافعة إلى النصر ، وكانت بطولة الزهاد والصوفية المرابطين فى الثغور من أبرز وجوه المقاومة فى هذه المرحلة . وكان مفهوم الاسلام هو « السلاح الأول » فى معارك رد عدوان التتار والصليبيين معا ، وكان لجولات الظاهر بيبرس ويوسف بن تاشفين ومحمد بن تومرت والمنصور بن أبى عامر فى المشرق والمغرب أثرها فى رسم صورة البطولة الحربية فى صورة المقاومة فى هذه المرحلة ، غير أن البطولة فى مجال المقاومة تختلف عنها فى مجال التوسع ، فلاشك كان لتخلف المسلمين عن مفهوم الاسلام فى خلال القرنين والسادس والسابع عشر الهجرى من الشرق والشمال والغرب جميعاً ولو التمس المسلمون مفاهيم الاسلام وقيمه فى حياتهم لما استطاعت قوة عادية أن تغزوهم ، تلك هى مفاهيم « الوحدة والقوة والايمان » .

« بنـــاة الدول »

وفى مجال بناة الدول والحضارة نرى عشرات من نماذج عالية فى الهمة والقوة والحيوية من القادة والأمراء والحكام الذين صنعوا حياة مليئة بالعمل والبناء والتشييد ، على نحو رائع وعجيب ، وهو ما يدحض كل ما وجه إلى الاسلام من أنه يحض على الرهبانية أو الزهادة أو إنكار الدنيا وكراهيتها . ويؤكد مفهوم الاسلام فى أنه روح ومادة ، وقلب وعقل ، ودين ودنيا ، وبناء وعبادة . فهؤلاء الأبطال : فى مجال الدول معاوية والرشيد والناصر والمنصور ونظام الملك . هؤلاء يجمعون بين سمت العلماء وسمت الحكام ، فهم بارعون فى الثقافة لا يقلون فيها عن العلماء المتخصصين ، ثم هم بناة يشيدون الحضارة فى مجالات البناء المختلفة ، المساجد للعبادة والجامعات للعلم ، والقصور للسكنى ، والأبراج والقلاع للحرب ، والمراصد للفلك . ولم يقف الأمر عند هذا ، بل بنى هؤلاء الأبطال مدنا كاملة . بنى يوسف بن تاشفين (الدار البيضاء) والكامل بن أيوب (المنصورة) وعبد الله المهدى (المهدية) وجوهر القائد (القاهرة) وأحمد بن طولون (القطائع) وابراهيم بن الأغلب (العباسة) والمعتصم (سر من رأى) والسمح بن مالك الخولانى (قرطبة) والمنصور (بغداد) وعبد الرحمن الناصر (الزهراء) والمنصور بن أبى عامر (الزهراء) وأبى يوسف بن تاشفين (منارة أشبيليه) والمهدى (الرصافة) والحجاج (واسط) وسليمان ابن عبد الملك (الرملة) وعقبة بن نافع (القيروان) وسعد ابن أبى وقاص (الكوفة) وسيف الدولة (قلعة حلب) .

تكريم العلماء

وقد أضاء هؤلاء الأبطال ملكهم بالجامعات والمعاهد والمنشآت العظيمة ، وجعلوا بلاطهم محط رجال الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان تكريم العلماء مناط إيمانهم ، فالرشيد يصب الماء على يد أبي معاوية الضرير ويقول له : هل عرفت من صب الماء على يديك ، فيقول لا : يقول الرشيد: إنما فعلته إكراما للعلم . وقد أقاموا المجالس ليقدموا إليها العلماء ويناقشوهم ويساجلوهم فى مختلف فنون الفكر والثقافة . وكانت مجالس المأمون مشهورة مذكورة ، حافلة بكل مفكر ونابغة ، وليس الشعراء وحدهم الذين كانوا يجالسون نبهاء الدول ، وكذلك مجالس سيف الدولة التى كانت تجمع فى بلاطه بين الفارابى الفيلسوف وأبى فراس الحمدانى وابن نباته الفاروقى والمتنبى والسلافى ، وابن خالويه النحوى . وكان محمود الغزنوى يستضيف العتبي المؤرخ والبيرونى العالم والفردوسى صاحب الشاهنامه . أما ألب أرسلان فقد أظهر تقديراً عظيما لنواحى الثقافة والفن ، وقد رتب معاشاً كبيراً لعمر الخيام الفلكى الذى ترك فى مجاله العلمى آثاره الخالدة وإن نسب إليه الشعر وحده ولم يذكره أحد فى مجال العلم الذى كان عمله الأكبر . أما ملك شاه فقد عقد مؤتمراً من الفلكيين فى مرصده الفلكى وطلب إليهم أن ينقحوا التقويم . وكان نظام الملك وزير ملك شاه من المفكرين والباحثين .

كانت أيامه خلال ثلاثين عاماً أيام أهل العلم والبحث وقد أنشأ المدارس والجامعات وكان إلى ذلك باحثاً ومؤلفاً وله كتاب فى سياسة الدولة وقد جهد (بناة الدول) فى إنشاء الجامعات والمساجد والقصور حتى بلغوا فى ذلك الغاية ، بنى الناصر مدينة الزهراء فى أربعين عاما يتوسطها قصر الزهراء الذى يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام ، ويزينه أربعة آلاف عمود من المرمر ويضم بين جدرانه أربعمائة غرفة ومقصورة ، وقد جند لها وأوقف على عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لها من روما والقسطنطينية وأفريقيا أعمدة الرخام الملون ، وقد كانت شوارع قرطبة مضاءة بالقناديل فى حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عمومى إلى ما بعد سبعمائة سنة ، وقد كان كل إنسان فى قرطبة قادراً على أن يسافر فى الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المبانى وكان فى قرطبة وحدها مائة وسبعين جارية تعمل فى نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة . وإذا ذكرت المساجد ، ذكر مسجد قرطبة وجامع الزيتون وجامع القيروان والجامع الأموى الذى بناه الوليد بن عبد الملك واستمر بناؤه عشر سنوات وبلغت نفقاته خمسة ملايين و ٦٠٠ ألف دينار وعمل فى بنائه ١٢ ألف عامل ، قال الوليد : إذا كان أهل دمشق يفخرون بأربع : بمائهم وهوائهم وفاكهتهم

وحماماتهم فقد أحببت أن أزيدهم خامسة فى هذا المسجد وقد رصع محرابه بالجواهر وصور فوقه بالفسيفاء .

ويعد مسجد قرطبة أروع مثل للعمارة العربية ، فله تسعة عشر دوراً وتسعة عشر بابا يتسع بيت الصلاة والبهو منه لما يقرب من أربعين ألفاً ويمتد من بيت الصلاة أكثر من ستمائة عقد وله مئذنة ضخمة . وبنى المنصور بغداد وأمضى أعوامه يراقب البناء بنفسه ، وكان فى بغداد ستون ألف حمام وحيال كل حمام خمسة مساجد ، وكان فى دجلة ثلاثين ألف زورق .

(الجامعات والمدارس) : أما فى مجال المدارس والجامعات فقد بنى نظام الملك المدرسة النظامية التى تخرج منها أبو اسحق الشيرازى وأبو حامد الغزالى ، وبنى المستنصر : المدرسة المستنصرية التى بلغ ما أوقف عليها من العقارات أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً . وأسس المأمون مدرسة بغداد وسماها بيت الحكمة . وبنى « المعز لدين الله » الأزهر ودار الحكمة فى القاهرة ، وبنى عبد الرحمن الثالث فى قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية . وبنى نور الدين وصلاح الدين فى دمشق والقاهرة عشرات المدارس والمكتبات وكانت جامعة قرطبة مدرسة الفقه والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفية والفلك وفى مجال العلم بنى أول إرصاد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع ، فى جند سابور ودمشق وبغداد وجهزت تلك المراصد بآلات فيها مقياس الارتفاع والأسطراب والساعة الشمسية وفى بغداد كانت المترجين والنساخ ومجالس أبى حنيفة ودكاكين الوارقين . وكان للحكم الثانى مكتبة فى قرطبة فيها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرساً تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والاستانة وبها ٨٠ مدرسة يرد لها الطلاب من جميع أنحاء العالم درس بها البابا سلفستر الثانى ، وكان الحكم بطلا محارباً، وحاكماً قادراً . وكان إلى ذلك عالماً بالأدب والتاريخ ضليعاً فى معرفة الأنساب محباً للعلماء يستقدمهم من البلدان النائية فيداويهم العلم . أما المأمون فقد أتحف ملوك الروم بالهدايا سائلا أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو فاختار مهره التراجمة لنقلها إلى العربية ، وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة والأنساب والشعر وكان فصيحاً مفوهاً واسع العلم . ومن قبل ذلك عبد الملك بن مروان الذى نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية وضبط الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من صك الدنانير فى الإسلام وكان يحادث العلماء والشعراء وقد بلغ فى ذلك أنه ما ذكر أمامه حديث ولا شعر إلا زاد فيه . أما عمر بن عبد العزيز فقد نشر الإسلام بالدعوة إليه وبالقدرة

الصالحة وحل المشاكل ودفع الجزية ، و ناقش الخوارج وأقنعهم بالحسنى ، وهكذا يبدو كل واحد من بناة الدول وهو عالم مثقف ، يناقش العلماء ، يجمع إلى بطولته فى ميدان القتال ، حصافته فى مجال الحكم ، إلى تفوقه فى مجال تكريم العلماء وبناء المدارس والجامعات والمساجد والمعاهد والمراصد ، إلى صاحب مجلس علم ، إلى ناصر للاسلام بالاقتناع إلى مؤمن للتجارة والطرق ، فأمنا الطريق للرحالة العرب يجولون بين أطراف عالم الإسلامى دون جواز سفر ، مكرما أصحاب الأديان الأخرى ، دافعا لهم إلى كبريات المناصب . مستقبلا لشعراء الدول الأجنبية ، على نحو غاية فى الهيبة والعظمه ويذكر هذا المجال العرض الذى أقامة الخليفة المقتدر لاستقبال رسل الأمبراطور قسطنطين ، فقد مشى فى موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وسبعه آلاف راجل وسبعمائة حاجب ونحو مائه أسد .

وقد بلغت الثروة غاية الغايات فكان الرشيد يقول للسحابة المارة « أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك » وكانت موارد عبد الرحمن الناصر اثنى عشر مليون ديناراً من الذهب ، يقول ديورانت أنها كانت تفوق إيرادات حكومات البلاد اللاتينية مجتمعة . وهكذا تتمثل البطولة فى جانب « بناة الدول » بطولة الأفراد الممتازين يخرجون من قلب مجتمعهم ثم هم يغيرون المجتمع ويزيدونه قوه وحيوية .

ولا شك كانت البطولة فى ميدان البناء والحضارة والإنشاء والحكم أكبر مسئولية من بطولات الحرب والمقاومة ، فهى تتطلب الجهد الدائب المبذول فى كل لحظة على مدى الأيام والسنوات ، فى نفس الوقت الذى تحصن فيه الحدود وتؤمن الثغور ومع إثارة روح العمل الخلاق فى مجالات التجارة والصناعة والأدب والفن . وقد ظل تاريخ الإسلام دوما حافلا بهؤلاء البنائين للدول ، يتوالى ظهورهم فى وحدات عالم الإسلام ، مرحلة بعد مرحلة ، ووحدة بعد وحدة ، يحملون اللواء ويحمون الحضارة ، حتى إذا ضعفت قوة الدفع بعدهد للمنشىء الأول ، أو الثانى لكل موجة ، ظهر قائد جديد يحمل اللواء ، وكان ظهور الدولة المختلفة فى أجزاء عالم الإسلام عامل تنافس وقوة ، ولم تكن عامل ضعف ، فقد كان الأمراء يتنافسون على تكريم العلماء وبناء الجامعات والمساجد ، وكانوا يحاولون أن يكونوا على مستوى مقر القيادة السياسية فى بغداد أو دمشق أو قرطبة .

(٤٢)

« المرأة فى تاريخ الإسلام »

إن أدق وصف لموقف المرأة قبل الإسلام هو ما عبر عنه « عمر بن الخطاب » حين قال : « والله ما كنا فى الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله لهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم » . هـــذا فى قلب الجزيرة العربية ، أما فى أوربا فقد انعقد « مجمع ما كون » (٥٨٦م) ليبحث هل للمرأة إنسان وكانت قرارات المجمع تتلخص فى أن للمرأة ليست إلا خادمة للرجل . فى نفس هذا العصر قال رسول الإسلام « محمد » كلمته الخـالدة : « إنما النساء شقائق الرجال » وبذلك منح للمرأة المساواة ، وقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وبذلك كرم الأمومة ووضع ركيزة بناء الأسرة .

وأبرز ما يمثل مكانة للمرأة فى الإسلام : ١ — شمول الخطاب القرآنى للمرأة والرجل .
٢ — أعطائها الأهلية الـكاملة للارث والهبة والوصـية والدين والتملك والتعاقد والاكتساب دون أن يكون ذلك مرتبطا بموافقة الرجل وإذنه .

(٣) التسوية بين الرجل والمرأة فى التبعات والتـكاليف العامة من زكاة وحجج وجهاد وصوم وصلاة . وبذلك برزت « شخصية المرأة المسـلمة » فى المجتمع وهى ذات كيان واضـح مستقل ، له خصائصه بالنسبة للرجل فى حدود القاعدة الأساسية : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » . ومن هنا بدأت مشاركتهن فى المجتمع الإسلامى الجديد حاضرات مجالس النبى ، مشاركات فى الحرب ، ومهاجرات ، وحافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شـاعرات وخطيبات ، وقد دخلن المساجد وشهدن حلقات العلم والصـلاة الجامعة ، وكان الرسول يعـد لهن فى مجالسه وفى الصلاة أماكن خاصة .

واشتهر نفر من النساء غير قليل براوية الحديث حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن « عائشة » . « وأم سلمه » وغيرهما من الصحابيات ، بل لقد رويت بعض الأحاديث مسلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجل وروت « عائشه » وحدها عن النبى ألفين ومائتين وعشر أحاديث وشاركت للمرأة فى غزوات النبى وبرزت أسماء كثيرة : « أم عقبة » « وأم عمارة » . « نسيبة بنت كعب » : « المازنية » . « وصفية بنت عبد المطلب » ، وفيهن من غزت مع رسول الله سبع غزوات

« كأم عطية » ، وكن يخلفن الرجال فى رحالهن ، وكن يقاتلن ويصنعن الطعام ويداوين الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى ، « كأم عمارة » أول مبايعة للنبي وثانية اثنين شهدتا العقبة الكبرى ، وكان لهن فى فتوح الروم والفرس مواقف مشهودة .

قال إدوار جيبون : — إن الشجاعة التى أعربت عنها المرأة المسلمة فى موقعة اليرموك وفى غضون حصار دمشق لأعظم مما يتناوله التقدير . ووصف المؤرخون بطولات « خوله بنت الأزور » الكندى » و « الخنساء » التى استشهد أولادها الثلاثة فى موقعة واحدة فاستقبلت استشهادهن بإيمان صادق . بينما كان لها موقفها العاصف فى الجاهليه عندما مات أخوها صخر . وكما غير الإسلام مفهوم المرأة الإنسانى فى أمر الحياة والمجتمع والأسرة فقد أعطى الإسلام للمرأة حريتها الفكرية حتى استطاعت امرأة أن تواجه « عمر » وتعارضه فى المسجد علانية حين دعا إلى تحديد المهور ، وعدم زيادتها عن أربعمائة درهم ، فقامت من قالت : ما يحل لك هذا والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا » وأجاب عمر فى صراحته المعهودة : أصابت إمرأة وأخطأ عمر .

وفى أيام لدولة الأموية زاحمت المرأة المسلمة الرجل فى مجال الثقافة والعالم ، وشاركت فى مجال الفقه والحديث والأدب والبيان وأحاطت بجميع فروع العلوم وأنفذتها ، وفى هذه المرحلة قامت النساء بتربية البنات و تثقيفهن فكن يعلمن فى البيوت : القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية وأسرار اللغة العربية . وامتد دور المرأة المسلمة فى تربية البنات وتثقيفهن وفى رواية الحديث حتى بدت عوامل الاضطراب فى المجتمع الإسلامى ، هنالك اتجهت المرأة إلى التصوف وعكفت على العبادة ، وإن لم يعدم تاريخ المرأة المسلمة نماذج مختلفة على خلال العصور فى مختلف الحواضر يعقدن الحلقة فى المساجد ويحدثن فى الفقة والحديث وقد سجل « العقد الفريد » المناورات التى نسبت إلى معاوية والوافدات من أنصار على كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمارة وأم سنان بنت حشمه ورامية الحجونيه وهى تكشف عن صراحة وجرأة وكانت عمره بنت دريد بن الصمه . وعائشة بنت طلحه التيمية زوج مصعب بن الزبير ، وكلتاهما تهب هبة الملوك ، وقد أفرد ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى أعلام الصحابة) مجلداً خاصا أسماه (كتاب النساء) وهو الجزء الثامن فى ٢٩٢ صفحة من القطع الكبير ، سجل فيه أسماء وتراجم ١٩٤٥ سيدة من راويات الحديث الصحابيات ، وحوى الإصابة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوى وأعلام النساء لكحالة عدداً ضخما من البارزات فى مجال الفكر والثقافة والتصوف على طول العصور ، بين عابدة ومحدثة وأديبة وراوية ، ومن ربات الرأى والعقل والنفوذ والسلطان .

وليس في صدر الإسلام وحده بدأ شأن المرأة المسلمة عالياً ، بل في مختلف العصور ، فإذا كان « مرحلة بناء الإسلام » قد شهدت أمثال عائشة وزينب بنت جحش وأم سلمة وفاطمة وعكرشة بنت الأطرش وأم الخير بنت جريش والزرقاء بنت عدى ، وبكاره الهلالية وهند بنت زايد فقد توالت أسماء البارزات تظهر ، فظهر من بعد أصحاب الندوات آمثال عمره الجمحية ، وخرقاء وعمرة ابنه أبى وهب وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وكن جميعا يعقدن المجالس ، ويعضين إلى الحرب لابسات الحديد ، يساعدان أخوتهن وأزواجهن فى الدفاع عن المعاقل والقـــلاع ، كما عرفت المرأة بالطبابة فى صدر الاسلام بعد أن نهى الاسلام عن الـكهانة ، وإذا كان الاسلام قد نهى عن الخلوة بالنساء إلا أن ذلك لم يمنع المرأة من الخروج إلى مجالس العلم والمساجد وفى فتح العراق إشتهرت خزانة بنت خالد بن جعفر ، خاضت مع سعد ابن أبى وقاص المعارك وحضرت فتوح الحيرة .

ثم كان عصر الانصهار والتبلور (١٣٢ ـ ٤٩٠) وإلى ما قبل الغزو الخارجى حافلا بالنماذج المتعددة الشمائل . فاطمة بنت خليل الدمشقى محدثة سمع عليها العلامة السخاوى كتاب الشمائل الترمذى ، فائقة بنت عبد الله تجلس فى مجلس أمير المؤمنين المهدى ، فائدة تولت مشيخة رباط الظاهرية فى مكة . ولعبت دور المرأة دوراً ضخماً فى المجال السياسى ، كان للخيرزان فضلا فى حياة المهدى فإن معاهد التعليم كانت منسوبة إليها وكان لزبيدة زوج الرشيد دور هام ، وفضلها فى توصيل المياه العذبة بين مكة ومنى وجر للمياه إلى بيروت ما زال منذ كوراً وكان لزبيدة مائة جارية يحفظن القرآن . وأنشأت أم للمقتدر مستشفى خصصت لنفقته السنوية سبعة آلاف دينار وكانت الولاة بنت المستكفى فى القرن الخامس للهجرة تجالس الرجال وتحاورهم ولعبت « ست الملك » دوراً هاماً فى التاريخ ، فقد تولت الملك قرابة أربع سنوات ، وعرف عنها العدل والإنصاف ، وأنشأت والدة السلطان الأشرف « بركة » مدرسة مجانية ، وعمرت فاطمة بنت المحدث « المقرى » الدمشقى مدارس ومارستينات وتكايا وأوقفت لها الأوقاف ، ولشجرة الدر فى حرب الصليبيين ومقاومة الغزاة دور جسور فى الفترة التى حفلت بالغزو الصليبي والتترى وكان عالم الإسلام حافلا بنماذج من النساء العالمات ، فى مختلف وحداته : أم الواحد وأم السلام فى بغداد ، كريمة بنت محمد حاتم فى مكة ، خديجة بنت محمد فى بغداد ، وفى القرن السابع والثامن نرى عائشة بنت أحمد ابن عبد الله وفى نيسابور عائشة بنت الحسن فى أصبهان ، فاطمة البغدادية أم الفضل ، ليقة بنت أبى الفرج فى دمشق ، رقية بنت العفيف فى الحجاز ، فاطمة بنت علاء الدين (سمرقند) فاطمة بنت أحمد الرفاعى (العراق) زينب بنت الشعرى (نيسابور)

وفى القرن السابع والثامن نرى عائشة بنت أحمد بن عبد الله وفى نيسابور عائشة النيسابورية ، وفى وفى المغرب : عائشة الشريفة ، وزينب بنت اسحق النصراوية التى تزوجها يوسف بن تاشفين . وفى مصر ساره بنت الشمس البالى المصرى ، وفى دمشق شمس الملوك شهدة بنت أحمد العامرى ، وشهدة الدينورية ، ولدت فى بغداد وروى عنها (ابن الجوزى) كتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل ، وشهدة المصرية ، وشهدة بنت عمر الحلبية ، وهناك من هاجر فى طلب العلم أمثال ساره الحلبية وصفت بأنها شاعره أدبية وطبيبة ماهرة كانت تتعاطى كثيراً من الصناعات ، وكتبت الخط الجيد ، أصلها من الشام ، وفدت على تونس ثم ارتحلت إلى الأندلس ومراكش ، وراسلت الأدباء والشعراء وتأظرتهم وظهرت على بعضهم .

وإلى القرن الثالث عشر الهجرى لم ينقطع ظهور مسلمات فى مجال العلم والفقه أمثال قرة العين بنت صالح القزوينى المتوفية ١٢٣٠هـ كانت محدثة وأدبية وشاعرة وعالمة بصيرة بالكلام ، حافظة للقرآن عالمة بتفسيره وتأديه ، عارفة بأسرار التنزيل تعقد الحفلات والجمعيات وتخطب وتعظ الناس ، عرفت برقة لهجتها فاشرأبت لها الأعناق . وقد شاركت المرأة المسلمة فى العلوم وخاصة حركات الكواكب ، فقد روى أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك وسمرت عنده مع شيوخ بنى أمية فلم يذكروا شيئاً من أخبار العرب وأيامهم إلا شاركتهم فيه ، وما طلع نجم أو غار إلا ذكرت اسمه . قال لها هشام : أما الأول فلا أنكره أما النجوم فمن أين لك ، قالت تعلمتها من خالتى عائشة أم المؤمنين . وكان للمرأة فى مجال الشعر دور ، فقد ظهرت مئات من الشواعر : صمده بنت زيادة . وولاده بنت المستكفى . . وعليه بنت المهدى ودنانير وعائشة الباعونية ورابعة العدوية وأحصى المؤرخون فى الأندلس فى عصر ملوك الطوائف ستون ألفا من الشاعرات وكان أكثرهن فى غرناطة . وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن النساء المسلمات لم تخل لهن مشاركة فى العلوم ، وكانت مهنة المعلمات والطبيبات ، ومن الطبيبات الشهيرات : أخت الحفيدين زهر ، وابنتها وقد نوه باقتدارها صاحب طبقات الأطباء ولاسيما فى الأمراض النسائية وقيل كان فى الأندلس ستون ألف حافظة للقرآن الكريم ترفع كل واحدة قنديلا فوق باب بيتها بالليل تمييزاً لها عن غيرها .

أما وقع للمرأة المسلمة فى فترة الضعف فإنه لا يجب حسابه على مقاييس الإسلام ولا ينطبق على قيمه ومفاهيمه ، هذه المفاهيم التى اضطرت المرأة أن تحتجب عن المجتمعات وتعتصم بدارها ، وتعكف عن العبادة والتصوف بعد أن ساد المجتمع الإسلامى بعض عوامل الانحراف ، ومن الحق

أن لا يحاكم « الإسلام » إلى فترة الضعف فإنها لا تمثل تعاليمه وما مر بالمرأة من انخفاض لمركزها ، لم يكن إلا نتيجة التخلف عن تطبيق تعاليم الإسلام وقيمه ، كان انفصال المجتمعات عن مفاهيم الإسلام وهو ذلك الجو العاصف من توسع نطاق الاماء والجوارى على نحو لا يدانيه جو من الشبهة والشكوك والاضطراب مما دفع المرأة إلى التخلى عن مكانها فى المجتمع ، فلما أرادت تنهض قبل أوائل هذا القرن كانت « قيم الاسلام » هى الأساس الذى اعتمدت عليه فى هذه النهضة ، فرفاعة الطهطاوى قبل قاسم أمين بأكثر من ستين عاما ، اعتمد دعوته إلى تحرير المرأة ، ليس على مفاهيم الغرب وإنما على مفاهيم الاسلام أساساً فلم يكن ما رآه فى الغرب دافعا له على الاقتباس بقدر ما كان داعياً إلى إعادة النظر فى مفهوم الاسلام للمرأة والعودة إليه بعد الانفصال عنه ، وكذلك فعل « قاسم أمين » الذى ضمن كتابه نصوصا كثيرة من القرآن الكريم والسنه قيل أن الشيخ « محمد عبده » هو الذى اختارها وأضافها . والواقع أن المسلمة بعامة والعربية بخاصة لا تستمد قواعد نهضتها من فكر الغرب وإنما تستمدها من انبعاث قيمها الأساسية التى « القرآن » رسمها ودعا إليها « الاسلام » بفتح الطريق أمام المرأة على أساس من مقومات الكرامة والخلق وبناء شخصية المرأة على أساس الايمان والتربية دون أن يضطرب بها الطريق ، فليست المرأة فى مفهوم الاسلام أداة ولا متعة ، وإذا كان الغرب قد أخرجها من أجل ظروفه الاقتصادية أو الحرب فإن اليقظة العربية الاسلامية اليوم ترى أن بناء شخصيتها على مفهوم الدين والخلق عاملاً هاماً فى قدرتها على مواجهة الحياة العاملة بنجاح وعمق . إن المرأة المسلمة حين اندفعت طوال تاريخ الاسلام فى مجال العلم والعمل كانت تحمل معها قيم الاسلام نفسه ولم تتخل عنها ، وبذلك استطاعت أن ترسم صوره من أشرف الصور لدور المرأة فى الحياة الانسانية والمرأة المسلمة تستطيع أن تجد مكاناً عظيما ضخما إيجابياً فى نهضة العصر ما استمسكت بتلك القيم ، ووازنت بين حاجة بناء الأسرة وحاجة العمل نفسه ، ودورها الطبيعى الفعال فى تكوين كيان الأمة .

(٤٣)

« عوامل التأخر ودوافع التقدم »

لخص كثيرون عوامل التحلل والضعف فى عالم الإسلام فى ثمان نقاط : (١) الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذى جاء به الإسلام فى ذلك والتزهيد فى الإمارة ولفت النظر إلى هذه الناحية التى هى سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول . (٢) الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ، ولا حياة ، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء . (٣) الانغماس فى ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات ، حتى أثر عن حكام المسلمين فى كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم . (٤) انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن الكريم لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

(٥) إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهد فى فلسفات نظرية عميقة وعلوم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر فى الكون واكتناه أسرار الخلق .

(٦) الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غره ، وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة .

(٧) الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم مما يضر ولا ينفع مع النهى الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة الإسلاميه والتحذير من مغبة هذا التقليد .

ويرى كثيرون أن أبرز مرحلة الضعف هى غلبة « عقيدة الجبرية » التى نشرتها الطرق الصوفية وقد حاول الكثيرون تأول عقيدة القضاء والقدر الإسلامية وتصويرها على أنها تعبير عن « حتمية » لا مناص منها ولا يمكن التحرر من أحداثها ، ولذا فلا محل لبذل المحاولات للخروج من أيه نكبة تنزل بنا ، يضاف إلى هذا انحطاط المدارك وميلها إلى تصديق الخرافات والأباطيل وفقدان ألمعية البرهان وتحكيم العقل وغلبة مفاهيم العاطفة والغيبيات . ويرى « أتيان ديليه » أن السبب الأول فى تدهور المسلمين هو الخروج عن مبادىء المساواة التامة الشاملة التى بذل الرسول كل جهد خلال سنى حياته فى فرضها والتى كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . والسبب الثانى هو التخلى عن إحدى المميزات الأساسية الإسلام وهى التوافق التام بين العقيدة وبين ضرورات المنطق . فقد

خمدت حماسة الروح الاسلامية العلمية شيئاً فشيئاً ، مكتفية بالنتائج الباهرة التى حصل عليها المسلمون .

ويرى شكيب ارسلان أن أهم عوامل تأخر المسلمين هى :

(١) ترك المسلمين عزائم القرآن التى قام بها سلفهم . (٢) إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية. (٣) الإكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة والتلهى بالقشور عن اللباب (٤) اليأس من رحمة الله وفقدان الثقة فى النفس. (٥) استخذاء المسلمين أمام الأوربين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية . (٦) موطأة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياهم . (٧) فقد روح التضحية التى سادت بها الأمم الأوربية . (٨) عدم اقتداء المسلمين بالأوربيين فى تأليف الجمعيات والشركات . (٩) فساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة . (١٠) فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات . (١١) تفوق الأوربين فى العدد وطمعهم فى مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين . (١٢) تخييم الجهل على الأمم الإسلامية . (١٣) عدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمود على الفقهاء . (١٤) كثرة الكلام عن الأخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة . (١٥) الدعايات الاستعمارية التبشيرية .

ويلخص عبد الرحمن الكواكبى ضعف المسلمين فى عدة عوامل : (١) العقائد التى اقتحمت على الإسلام وفى مقدمتها العقيدة الجبرية . (٢) الجهل . (٣) تحول الحكومات الإسلامية من نيابية ديمقراطية إلى ملكية مطلقة . (٤) جهل أمراء المسلمين. (٥) حرمانهم من الحرية وفقدان الحرية من أسباب موت النفوس وضعف الهمم وتعطيل الشرائع وإخلال القوانين . (٦) إهمال الدين ، لأن يدعو لعدم الذل لغير الله . (٧) انحلال الرابطة الدينية ، والإسلام مبنى على أن لا ولاء فيه لغير المسلمين . (٨) تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين . (٩) الانحلال الذى أصاب السلطة القانونية لسبب فسادها أو بسبب تغلب الأهواء الشخصية عليها. (١٠) اقتصر علماء المسلمين فى بحثهم ودراساتهم على العلوم الدينية وعلى قليل من العلوم الرياضية وأهملوا ما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوها وصارت نسياً منسياً . (١١) شعور المسلمين باليأس وعدم القدرة على مبالاة أهل الغرب . (١٢) عدم وجود تربية قومية تنشىء شعباً له رأى عام لا ينقسم على نفسه ولا يتخاذل أمام عدوه . (١٣) الفقر مصدر كل شر وعيب فمنه جهلنا وفساد أخلاقنا وانقسامنا . (١٤) عدم وجود الجمعيات المختلفة من سياسية وغيرها . (١٥) تكبر الكبراء وميلهم إلى العلماء المتملقين الذين يتواضعون أمامهم ويتذللون لهم . (١٦) الدين بوضعه الحالى ، فقد نشأ الدين من أصل صحيح يسير على معتنقيه ثم طرأ عليه التأويل ودخل فيه التحريف والزيادات .

لماذا تأخر المسلمون

هذا هو السؤال الذى ألح على المفكرين والباحثين خلال الأعوام المائة الأخيرة وحاول الكثيرون الاجابة عليه كل من وجهة نظره ، ومن الزاوية التى يراها العامل الأهم من عوامل الضعف والتأخر ، والحق أن عوامل التأخر طبيعية ولا بد من وقوعها اعترافا بسنن الكون وطبيعته النواميس ، ودورة التاريخ، والأمم شأنها شأن الكائنات الحية تنشأ وتنمو وتقوى وتضعف وتذوى ثم تعود مرة أخرى إلى الحياة . وقد جاءت مرحلة الضعف فى تاريخ الاسلام بعد دورة ضخمة طويلة المدى استغرقت أكثر من عشرة قرون ، ثم لم تلبث أن انحسرت بعد قرن واحد حتى ليمكن أن يقال أن عالم الاسلام لم يمر إلا بمرحلة قصيرة قبل أن يتنبه من جديد ويأخذ فى عوامل اليقظة والقوة ، أما أنه لم يصل بعد إلى مكانه الطبيعى مرة أخرى حتى الآن فإنما يرجع ذلك إلى عوامل جديدة ضاغطة مازالت تحول بينه وبين استعادة مكانته ، هذه العوامل تتمثل فى القوى الأجنبية التى استطاعت خلال فترة الضعف أن تصنع قيوداً تغلغلت فى المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى إلى حد النخاع وبات التحرر منها أمر بالغ العسر ، ومن هنا يمكن القول أن « مرحلة اليقظة الاسلامية » لم تكن فى الحق إلا محاولة لفك هـــذه الأغلال وتحطيم هذه القيود ، ومن هنا طال الصراع بين عوامل التأخر ودوافع التقدم ، وتأخر عالم الاسلام طويلا عن الأخذ بمقدراته التى تمكنه من التماس مكانه الطبيعى .

وعندنا إن أبرز عوامل التخلف إنما جاء من الانفصال عن القيم الأساسية للاسلام ، هذه القيم التى تدعو إلى القوة والايمان والوحدة ، فحين تخلف عالم الاسلام عن هـذه القيم حل بالضعف والتفكك والتخلف عن ركب الحضارة ، واستطاعت القوة الأخرى المواجهة أن تكسب الجولة وأن تسيطر على مقدارات العلم التجريبي التى حققها الإسلام ، وأن تسير بها إلى ميادين الكشف والاختراع ، وكانت القوة العسكرية والحربية والبحرية هى العامل الأول فى انتصار الغرب على المسلمين والسيطرة على عالم الاسلام واحتلاله وتطويقه .

ولقد ظلت الحرب سجالا بين أوربا وعالم الاسلام منذ بزغ ضوء الإسلام ، وكان عالم الاسلام فى موقف المقاومة الصمود بعد مرحلة التوسع الأولى ، وقد ظلت الموجات الاسلامية البدوية المتوالية ممثلة فى السلاجقة والبربر والمماليك . ثم فى الأتراك العثمانيين تقاوم الغزو الغربى حتى ضعفت قوة العثمانيين فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) واستطاعت أوربا أن تزحف لتطوق عالم الاسلام

ثم لاتلبث فى القرن الثالث عشر (١٩ م) أن تطبق عليه فى حركة احتلال ضخمة . والحق أن عالم الإسلام فى خلال تاريخه الطويل كان يمر دوما بمثل هـــذه الأزمات : أزمات التخلف والضعف والاضطراب ، نتيجة انفصاله عن قيم الإسلام الأساسية ، ولـكنه كان لايلبث أن يعود إلى القوة والوحدة ويجدد كيانه ، وأنه كان قمينا بأن يفعل ذلك فى هذه الأزمة لولا أن القوة المواجهـة كانت قد بلغت قدراً من القوة ، واستطاعت أن تستثمر نتاج المنهج العلمى الإسلامى فى أسلحة جديدة لمواجهة الاسلام والتوسع الإسلامى بعد مرحلة الدولة العثمانية التى سيطرت على أوربا خمسة قرون . ومن هنا لم تـكن « أزمة التخلف » قضية منفصلة عن القوى الغازية الضاغطة التى كانت تحمل معها مفهوما جديداً هو : القضاء على مصادر القوة فى عالم الاسلام بحيث لايستطيع — إلى أمد ما — التمـكن من السيطرة على بقائه خيفة الزحف على أوربا مرة أخرى ، ولم تـكن عوامل القوة هـذه إلا ممثلة فى الإسلام نفسه ، ومن هنا كانت الحرب : حرب فـكر وتغريب وتبشير وشعوبية تثير عواصف الشبهات والشكوك والانتقاص من الاسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث على نحو منظم ومن خلال أجهزة قادرة مسيطرة يملـكها الاستعمار فى مقدمتها المدرسة والصحافة والـكتاب ، هذا فى اعتقادى هو العامل الأساسى فى استطالة مرحلة التخلف ،وعجز المسلمين عن استردادالقوة القادرة على أن تقيمهم مرة أخرى على طريق التقدم ، ولقد حاول الغربيون أن ينسبوا اسباب تأخر المسلمين إلى الاسلام نفسه ، وإلى مبادئه فى محاولة للقضـاء على مقوماته وتذويب عالم الاسلام فى مفهوم الفـكر الغربى القائم على جماع الوثنية والمادية ، وجرى على هذا المنهج كثيرون من أتباعهم ، وغفلوا عن أن المسلمين استطاعوا بالإسلام بناء حضارة باذخة ، وحققوا تقدماً علومـاً فى مجال العلم التجريبي والقانون والفلسفة ، وكانت هذه الحصيلة الضخمة هى حجر الأساس فى بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وأن الاسلام هو الذى أمد الفـكر الانسانى بأصول للمنهج العلمى والاتجاه نحو الـكشف بتحريضه أتباعه بالنظر اليه الـكون واكتناه أسراره ، وتحرير نفوسهم من أغلال الوثنية وإطلاقها بالتوحيد ، وبناء النهضة على أساس الايمان والخلق وصياغة مفهوم الانسان على نحو يجعله سيداً للـكون تحت حكم الله ، قد أتيحت له كل طيبات الأرض ودقائقها خالصة له .

ولاشك أن دوافع التقدم هى التحرر من عوامل التأخر .

وبعدفان هناك قضيتان كبيرتان : من أبرز قضايا تاريخ الاسلام مما عرضنا فى هذه الدراسة بالاجمال فى حاجة إلى تفصيل واسع ودراسة عميقة ، هما (أولا) علاقة الإسلام بعالم الغرب وهى علاقة بدأت منذ بزوغ فجر الاسـلام وعلى حدود الدولة البيزنطية وقد استمرت هذه العلاقة فى مد وجزر قرونا متصلة حتى

حسمها السلطان محمد الفاتح بدخول القسطنطينية ثم دخول العثمانيين أوربا واقامتهم فيها بضعة قرون ثم انحسارهم عنها ، (الثانية) علاقة الدولة العثمانية كبرى دول الاسلام فى القرون الخمسة الأخيرة مع العرب منذ انحاز العرب إلى جناح الدولة العثمانية فى الشام ومصر والمغرب عن رضا وقبول وفى مواجهة أخطار الحروب الصليبية التى أخذت تتجدد مرة أخرى بعد انتهائها .

هاتان القضيتان نتناولهما بالتفصيل فى رسالتين تاليتين فى هذا المجلد .

(٤٤)

فلسفة تاريخ الاسـلام

مقومات الاسلام الأساسية هى مصدر القوة فى حركة تاريخه وهى مصدر الضعف إذا تخلف المجتمع الاسلامى عنها . وتاريخ الاسلام منذ ظهوره إلى اليوم مؤثر فى التاريخ الانسانى متفاعل معه ، لم يتوقف أثره . وحركة الاسلام فى التاريخ هى حركة نحو الحرية والتوحيد والعدل :

وتتمثل أبرز نواميس تاريخ الاسلام وقوانينه فى قدرته على مواجهة التحدى ، والتجدد من الداخل ومرونته الفائقة فى تصحيح مفاهيمه وتجديد فكره . فهو مفتوح على الثقافات والحضارات ، قادر على الأخذ والعطاء والحركة فى مرونة وحيوية دون أن يفقد مقوماته الأصلية .

(أولا) : أتمثل فلسفة التاريخ الاسلامى فى هذا النحو : مبدأ تاريخ الاسلام «جماعة» لها منهج تستمده من « الاسلام » وقد سارت به من قلب الجزيرة العربية حتى بلغت به أطراف العالمين تندفق فى مجرى ممتد (قوامه منهج واحداث وقادة) ظل يعمق ويتسع . هذه الجماعة « كونت المجتمع الاسلامى » وبنت « الحضارة الاسلامية » وفق مقومات فكر أساسية ، قوام فكرها دعوة إنسانية للعالمين : إلى الحرية والعدل والحق والمساواة . فى طريق هذه الحركة إلى غايتها ، واجهت مرتين (أولا) معارضات قوية ، وقوى مصادمة تحول بينها وبين طريقها المرسوم . (ثانياً) : هذا المجرى يصيبه بين الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه ، وتلك سنة الحياة : قوة من بعد ضعف وضعف من بعد قوة . « ومنهج » هذه الجماعة هو منطلقها ، فإذا تخلت عنه بلغت موقف الضعف والتخلف ، وانتصر عليها معارضها ، فإذا عادت إلى مقوماتها واستمسكت بها انتصرت بعد هزيمة ، وقويت بعد ضعف ،

وصفحات التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قروناً تجرى على هذا النحو : تتدفق فى مجرى ممتد قوامه « منهج : وأحداث : وقادة » وفق ناموس واضح لا يتخلف . ولقد كانت القيم الأساسية للإسلام هى مصدر القوة واليقظة ، فإذا انحرف المجتمع عنها بدأت مرحلة الضعف والتخلف فإذا أعاد الأمة قائد أو مفكر إلى هذه القيم برزت نهضة جديدة وتجدد شباب التاريخ . (ثانيا): هذه رؤيا جديدة للاسلام من خلال التاريخ الانسانى ، يتمثل خلالها « تاريخ الاسلام » فى صورة مجرى طويل ممتد بدأ منبعه عند بحيرة واسعة هى الجزيرة العربية، ثم مد فروعه أحدها إلى المشرق حتى بلغ الصين والآخر إلى المغرب حتى بلغ الأندلس والثالث إلى الجنوب حتى بلغ قلب أفريقيا . وما زال هذا المجرى يعمق ويتسع حتى شمل القارتين « آسيا وأفريقيا » وأوغل فى أوربا من طرفيها فبلغ نهر اللوار من ناحية الغرب وأسوار فينا من ناحية الشرق ثم هو منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطور الانسانية ، غير منفصل عن العالم فى مسيره ومصيره ، تأثيراً وتأثراً .

والاسلام فى مفهومه الصحيح « منهج حياة » ، وإطار واسع لأيدلوجية شاملة متكاملة يرتبط فيها الانسان بالله وبالكون والحياة . ليس الاسلام فى حركة التاريخ هو الدولة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية أو الأمة العربية ، إلا بقدر ما يتصل ذلك بالاسلام نفسه . والاسلام يبدو من خلال تاريخه فى صورة « كائن حى » له جناحان : فكر وحضارة متجدد الخلايا ، يمر بمراحل القوة والضعف ، حركته الدائبة وخطوه المتصل الدافع إلى الأمام ، شأن الكائن الحى ، كلما تقاص طرف منه استرد قوته فى طرف آخر ، وكلما أصابت أحد أجزاءه هزيمة أتيح له الانتصار والامتداد فى الجانب الآخر أبرز ظواهره ، ظاهرة التجدد والتغيير وتصحيح المفاهيم « من خلال إطاره الجامع » يتصل ذلك فى كلا جناحيه : جناح « الفكر » يتجدد بظهور أعلام الفكر وقادة الرأى وجناح « الحضارة » يتجدد بظهور بناة الدول وصناع الأحداث: « المفكرون » يجددون الجوانب العقلية ويعيدون صياغة المناهج ، ويدحضون شبهات الانحراف « والقادة » يبنون الجبهة الداخلية ويردون القوى الخارجية وحركة التاريخ الاسلامى تجمع دوما بين الخط المستقيم والدائرة فهو من خلال الخط المستقيم يتجه نحو التقدم إلى الأمام ، ومن خلال الدائرة يتحرك ولا يقف ، وأحيانا تبدو حركة التاريخ أمامية ورائية فهى رجعة إلى الوراء قليلا من أجل التقدم إلى الأمام . لم يجمد « الاسلام » أمام حركة « التاريخ » خلال العصور أو تطور الحضارات والمدنيات ولم يتوقف عن مدها فى إيجابية وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها بل ربما سبقها خطوات .

ومن أبرز سنن التاريخ الاسلامى : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس

جوهر القيم الأساسية . فكلما ضعفت حياة « المجتمع » وانحرفت ، ظهرت « قوة شابة دافعة » تحمل اللواء وكلما تحول منهج « الفكر » واضطرب ظهر مصلح مجدد يرده إلى الجادة ، وهكذا عاش تاريخ الاسلام بين « التحدى » ورد الفعل ، تمتوره الأحداث قوة وضعفاً ، ولكنها لا تقضى عليه ، تهاجمه القوى من الخارج فتؤثر فيه حينا ولكنه لا يلبث أن يتماسك فى مواجهتها ، فينتصر عليها ويذيبها فى بوتقته . وتصارعه القوى من الداخل فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى وقادرة على إعادة صياغة الحياة . والاسلام فى التاريخ حركة أوسع من الأمة العربية أو الدولة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية ، وأعمق من الحدود التى تربطه بالسياسة أو تقصره على الحضارة والثقافة ، أو تقف به عند قيام الدول وسقوطها أو الفتوحات والحروب ، وإنما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتتشابك . فالاسلام فى الحق هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من ربقة الظلم ، وإقرار حقوق الأفراد والجماعات وتحريرها من الاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى فى كل الأمم والشعوب التى اتصلت به ، سواء من دانت له أو أصاغت فكرته ومقوماته . لقد كان ابزوغه فى محيط الأمة العربية معنى واضح الدلالة ، هو اصطفاء هذه الأمة لحمل رسالته ، ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الاسلام منذ فجر الاسلام إلى اليوم ، فمنذ بزغ الاسلام ارتبط بتاريخ العرب أوثق رباط ، لقد ظهر فى الأمة العربية أولا وفى حياة الرسول دانت الجزيرة العربية له ، فكانت البحيرة التى امتدت منها روافده وفروعه ، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التى تحركت شرقا وغربا وشمالا ، فحملته الأمة العربية إلى العالم أجمع وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته . فالفكر الذى كونته الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعا بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربى محض أو فكر اسلامى خالص وكذلك الحضارة ، بل هو فكر عربى إسلامى وحضارة عربيـــة إسلامية شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانية : فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية ، تبلورت جميعها فى إطار الاسلام وفق مفهومه ومضمونه ، شارك فى هذه المرحلة العرب وغير العرب ، شاركوا فى الحضارة والفكر والحكم . وقد رسم الاسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر لا على أساس الجنس ، ووسع دائرة الأخاء الانسانى وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية ، وجعل أساس التبريز والتفوق والتفاضل مستمداً من العمل لا من العرق ، ومن الشخصية لا من الوراثة .

٣ – تكامل مفهوم التاريخ الإسلامى

وقد التفت كثير من كتاب الغرب إلى مفهوم «تكامل» التاريخ الإسلامى واستقلالية منطقه: يقول ولفرد كانتول سميث «إن المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ» على نحو يختلف عن فهم البوذى والمسيحى والماركسى. «فالرجل الهندى لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس، والهندى مشغول أبداً بعالم الروح، عالم اللانهائية، ومن ثم فكل شىء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن، والتاريخ بالنسبة إليه شىء ساقط من الحساب، أما المسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة، أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط. (١) المثل الأعلى غير قابل للتطبيق. (٢) والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود، هذان الخطان يسيران فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن على غير اتصال. «التاريخ فى نظره هو نقط ضعف البشر وهبوطه وانحرافه». أما الماركسى فهو يؤمن بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية، ولكن لا يؤمن بهذا العالم إلا بالمذهب الماركسى وحده، وكل شىء عداه باطل، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها «أما المسلم فإنه يحس احساساً جاداً بالتاريخ. إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردى أو جماعى، وكل شعور فردى أو جماعى، بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبغى تحقيقه فى واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق. «والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض، ومن ثم فكل عمل وكل شعور، فرديا كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة، لأن الحاضر هو نتيجة الماضى، والمستقبل متوقف على الحاضر، وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلماً باعثاً من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين، وأن الغربى لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره. ويقول العلامة تريتون فى كتابه: الإسلام: عقيدته وعبادته: إذا صح فى المعقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع

رفقتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع فى هذا الشرع الجديد إلا وهو « الإسلام » .

ويقول اليان وايد غراى فى كتابه « تفسيرات التاريخ » : إن وجهة نظر المسلمين للتاريخ نظرة بنائه ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم الوحى القرآنى فإن إرادتها حينذاك تتطابق وارادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الإخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أنه لا مرد لإرادة الله . ويشاهد بوجه عام تياران يتنازعان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ المسلمين: المفهوم الحركى والمفهوم القدرى ، وكلاهما تظهر بوضوح فى تفسير تقلبات القوى الاجتماعية ، وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهنود قد قطعوا كل صلتهم بكل ما هو وفقى وفورى وقدموا تعاليم انهزامية وانعزالية،وبالنسبة للبوذية والهنود ليس التاريخ إلا وهما » . وإذا كان مفهوم المسلم لمنطلق التاريخ يختلف عن مفهوم غيره ، فإن وجهة التاريخ الإسلامى قد سارت فى طريق يختلف عن وجهة التاريخ الأوربى . من حيث حركته الخصبة السريعة فى التوسع ومن حيث أثره فى الأمم والشعوب التى اتصل بها ويصور هذا المعنى هاملتون جب فى عبارة دقيقة ، حين يقول أن التاريخ الإسلامى سار فى وجهه معاكسة للتاريخ الأوربى على نحو يثير الاستغراب ، كلاهما قام على إنقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقاً أصيلا ، فبينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، إنبثق الإسلام ابتداءً مفاجئاً فى بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد يعز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان امبراطورية فى غربى آسيا وشواطىء البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية ، وأقام نظاماً سياسياً شمل جميع المناطق المتسعة ومن ضمنها فارس ، وواجه مهمة أخرى هى إدخال هذه المناطق فى نظام ثقافى دينى مشترك قائم على مفهومه العالمى الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك أن يقاوم تأثير المفهوم العالمى السابق (المسيحية) فى غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر المتوسط ويضعفه إلى أقصى حد ممكن ، ويحطم الزرادشتية والديانات التترية فى فارس وبين النهرين وأن يقيم حاجزاً فى وجه انتشار البوذية فى أواسط آسيا .

٤ — قانون التاريخ الإسلامى مستمد من طابعه

ولقد اتسم تاريخ الإسلام بسمات جعلت له طابعه ومفهومه :

ذلك أنه لما كان الإسلام هو دين وفكر ومجتمع وحضارة ، فإن « التاريخ السياسى » فى تاريخ الإسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية وعظمة ، حيث تبدو الجوانب الضخمة الحافلة بالأمجاد فى تاريخ الإسلام الفكرى والعلمى والعقلى ، وفى مجال الدراسات العقلية والفقهية والفلسفية الاجتماعية ، وأبرز جوانب التاريخ الإسلامى تتمثل فى القادة والأعلام والمفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الإسلامى مستمدة من « القرآن » ، أولئك المصلحون والمجددون، وحملة لواء اليقظة وتصحيح المفاهيم الذين حفل بهم تاريخ الإسلام خلال مراحله وأدواره المختلفة . فى هذا المجال نجد طبقات الأطباء والحكماء والنحاة والرواة والأدباء ، وطبقات الأدباء والفلاسفة والمؤرخين الاجتماعيين وتاريخ أعيان كل عصر ، فليس تاريخ الإسلام إذن تاريخ سياسى فحسب ، وليس التاريخ السياسى إلا جناح من أجنحته ، بل وربما أقلها خصوبة وعمقها وأثرا فى حركة التاريخ ونموه وتجدده ، ولكنه تاريخ شامل قوامه تاريخ فكر متحرك فى مجالات الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتربية . ومن هنا تسقط تلك الشبهة التى يرددها دعاة التغريب من اقتصار تاريخ الإسلام على حياة الخلفاء والملوك ، بل تتناول مختلف مظاهر حياة المجتمع والحضارة ، وقد حفلت كتب الأنساب والطبقات والوفيات وموسوعات الأصفهانى والحصرى والجاحظ وأبى حيان التوحيدى بإفاضة ، بأخبار المجتمع بسائر طبقاته ومختلف قطاعاته وفى مفهومى أن التاريخ فى جوهره ليس سرد وقائع وحروب ودول تذهب، وأحداث سياسية بل هو تطور شامل متصل وحركة اجتماعية يدفعها مفهوم وعقيدة فى مختلف ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وعندنا أن دراسة تاريخ الإسلام فى هذه المرحلة من حياتنا ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها ، لفهم الأحداث وتطور المجتمع ، ولمعرفة مكاننا فى العالم الإسلامى والأمة العربية من الحضارة العصرية ، فإن نظرتنا إلى الأحداث لا تصدق إلا إذا قامت فى ظل مفهوم شامل وفى إطار تاريخ الإسلام نفسه ، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم على مفهوم مرحلة ، هى رد فعل لمرحلة سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الإسلام وإنما قامت قواعدها على المنهج التجريبي الإسلامى وعلى بناء صاغة علماء العرب والمسلمين ، فنحن حين نتصل بها اليوم لا يكون غرباء عن جذورها ، فهى ملك البشرية كلها التى صاغتها وشاركت فى تكوين جوانبها المختلفة ، لقد

قدم الفكر العربى الاسلامى لهذه الحضارة علومه وفلسفاته ومعامله وجامعاته وبنى قاعدتها العريضة فى الأندلس فهو متصل بها غير منفصل عنها حين يقتبسها اليوم .

وأبرز ظواهر تاريخ الاسلام : تكامله وشموله وترابطه، والحق أن تاريخ الاسلام ليس دوائر امنفصلة ولكنه نسيج كامل ، فالحدث السياسى لا يفهم إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، أنها خيوط واحدة تكون « نسيج التاريخ » ، كل خيط له قيمته وأثره ، للتمثل فى مدى التحامه مع سواه . والتاريخ الاسلامى تاريخ حضارة مكتملة الدائرة ، وليس تاريخ شعب أو قومية معينة ، والقوميات كلها حلقات يطبعها طابع موحد ، وهو تاريخ مضمون إنسانى قوامه الحرية والعدل والتوحيد والمساواة ، وتاريخ العرب كافة لا ينفصل عن تاريخ الإسلام كفكر كلى شامل ، هذا الشمول يضم مختلف أوجه النشاط الإنسانى : الاقتصاد والدين والعلم والفلسفة والاجتماع . ومن هنا فإن نظرة الباحث الغربى قد تقصر ولا تصل إلى أعماق هذه المفاهيم ، نتيجة تأثره بمفهومه الغربى الخالص للتاريخ، وهو غير مفهوم المسلمين والعرب للتاريخ، والباحث الغربى بعيد بفطرته ومفاهيمه عن روح الفكر الاسلامى وقيمه ومناهجه التى قامت عليها أعمدة التاريخ الإسلامى ، ومن حيث أنه يحكم فيه الخاصة مرتبط بمفاهيم قوامها تراث يونانى ورومانى مسيحى غربى ، أضيفت إليها فلسفات مادية موغلة فى الانفصال عن الروح ، بل مخاصمة الاديان والتوحيد والغيبيات مخاصمة حادة ، وهى نظرات تقوم من خلال فكر «يؤمن بتجزئة الكون والطبيعة، والفصل بين العلم والدين» أما مفهوم الفكر الدين الإسلامى الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية ، وسار عليه مسار التاريخ الإسلامى فقائم على أساس التوحيد ووحدة الكون وانسجام قوى الطبيعه واتساقها ، وهو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الإنسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الإنسان ، والعبادة والعمل فى نظام الحياة، والدنيا والآخرة فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظام الكون . « أحمد نصيف الجنابى مجلة الأقلام ١٩٦٦ » .

ومن هنا يجىء الخلاف فى النظرة ، نتيجة للخلاف الجذرى بين القيم الأساسية للفكر الغربى والفكر الإسلامى ، وهو خلاف بعيد المدى ويبدو من غير الطبيعى دراسة تاريخ الإسلام أو الحضارة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى منفصلا عن الإسلام ، بحسبان أنها جميعاً تقوم فى ظل مفاهيمه وقيمه . والتاريخ فى الحق هو حركة الزمن ، من خلال المجتمع ، ولقد كان التاريخ الإسلامى متصلا بالمجرى الرئيسى للتاريخ الإنسانى مؤثر فيه متأثر به ، وكانت تحدياته دوما هى تحديات الشعوبية

والقوى الخارجية وتحريف النص ، وتقوم التاريخ الإسلامى حول فكرة ودعوة وثقافة ، على أساس فكره لها طابعها المميز ، الذى تلتقى فيه جميع مظاهر الحضارة والمجتمع بحسبان أن « التوحيد » هو الفكرة العامة التى تحتضن جميع مظاهر الفكر الإسلامى .

« فالفكر » هو أساس التاريخ الإسلامى ، والعامل الموحد بين المسلمين ، وأساس كيان المجتمع الإسلامى الذى ما زال قائماً ومستمراً ، والذى أخذ عديداً من صور الوحدات السياسية الكبرى: كالخلافة أو الدول الكبرى أو الدول القومية ،هذه التشكيلات السياسية فى مختلف صورها ينتظمها روح واحد وفكر واحد وثقافة موحدة الجذور ، هى الرابط المشترك الأعظم بينها ، مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، وهى جميعاً تستمد أصلا من القرآن الذى يمنحها القالب الذى تتشكل فيه كل أقطارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . والإسلام هو جامع المثل العليا التى أمدت الحضارة البشرية فى خلال ألف وأربعمائة عام بصياغة جديدة مميزة للقيم تجمع بين العقل والقلب والمادة والروح والدنيا والآخرة .

٥ — البطل فى تاريخ الإسلام

وأبرز ما يتسم به تاريخ الإسلام وضوح وقائعه وملامح شخصياته وتفاصيل حياتها، وضوحا يكاد يكون كاملا مع تعدد هؤلاء القادة فى مختلف المجالات وتفاعلهم فقد كان تاريخ الإسلام دوما عملية تفاعل بين المجتمع والفرد الممتاز من بناة الدول أو قادة الفكر . وإذ كانت حركة التاريخ تتمثل فى أمور ثلاثة : «منهج وأحداث وأبطال» فإن البطل دائماً هو المحرك الأساسى للأحداث ، والقادر على تجديد المنهج إذا انحرف المجتمع عن مفهومه الأصيل ، قد طفقت القوة الشعبية الإسلامية الجامعة قادرة على تخريج القادة والمجددين والمصلحين ، وهى التى قدمت نماذج حية ، متصلة لم تتوقف ، فى مختلف المراحل ، وفى مختلف الوحدات ، والمجالات ، قادة ومفكرون ومصلحون ، كلهم يلتمسون قدوتهم من بطل الأبطال « محمد رسول الله » ﷺ ومن مفهوم « القرآن » وقد أعطت هذه القوة الزاخرة الأبطال والمجددين فى وقت الحاجة إليهم . لقد ظلت صورة الرسول محمد بنى الإنسانية وفى مختلف شمائله وتصرفاته وحركاته وأعماله ، قدوة لكل قائد ومفكر وبناه من بناة الدول فى تاريخ الإسلام كله ، لم تحجب هذه الصورة مطلقاً ، ولم يتخلف قائداً أو مفكر دون النظر إليها والتماس الخبرة ، كما ظلت صورة الرعيل الأول من الأبطال والأعلام مثلا ومصدراً وقد تمثلت البطولة فى (١) المجددين: مصححى المفاهيم . (٢) الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . (٣) علماء الرياضيات والفلك .

(٤) بناة الدول. كان البطل دائماً هو قائد اليقظة ، ، ممثلا فى بناة الدول وفى المفكرين والمصلحين وهم جميعاً يستمدون قوتهم من المجتمع نفسه ، ويكونون استجابة لوجوه الحاجة إليهم ، حين يلتمسها فى قوة جديدة شابة ، ثم يبرز البطل بعد ذلك محققا للأهداف مستمدا قوته من أمل المجتمع وحاجته ثم لا يلبث أن يمضى خطوة أوسع فيقود الجماعة إلى مرحلة جديدة أكثر قوة وإيجابية . وقد كان أبرز التحديات الداخلية التى واجهها الاسلام : « محاولة تحريف النص » أو القضاء على مقوم من مقومات الاسلام ، هذه المحاولات المنحرفة ، قد استطاع المصلحون والمجددون دوما القضاء عليها ، وإبراز مفهوم الاسلام على حقيقته والكشف عن جوهر الاسلام وإعادته إلى مكانه الحق بعيداً عن التجزئة والانحراف والجمود ، شمولا وتكاملا وتوحيداً ، فقد أعاد المصلحون الفكر الاسلامى إلى الاتصال المباشر بجوهر الاسلام بعد أن بلغوا متاهات الجدل فى ظل غزو العقائد والمذاهب المختلفة وحرروا الاسلام من شكليات الصناعة والحرفة .

والحق أن تاريخ الاسلام فى جميع مراحله — حتى فى أشد عصوره تخلفا وضعفا — لم يخل من المصلحين الأحرار الذين كانو يتوالون مرحلة بعد مرحلة ، فقد ظلت الجماعة الاسلامية قوية صلبة لم تتحطم ، وظلت تخرج القادة والمجددين والمصلحين ، وظل جوهر المجتمع الاسلامى حيا ، نعم أعطت الجماعة الاسلامية هؤلاء الأبطال والمجددين وقت الحاجة إليهم .

وقد كان تاريخ الاسلام يمثل تطلعات المجتمع الاسلامى ومصالحه ، ممثلة فى بطولة ، كان الأبطال الذين هم استجابة لمجتمعهم، يدفعون هذا المجتمع إلى الأمام خطوة ، حتى يمكن القول بأن موجات التاريخ الاسلامى كانت تمثل اندفاعات موالية لقوى ممتازة قائدة على طريق تحقيق حتمية الاسلام ، والممتازون فى تاريخ الاسلام كانوا استجابة لحاجات عصرهم ، توافوا إليه مع الضرورة التاريخية ، ثم كانوا من بعد دافعين له إلى الطريق الصحيح الذين يكون قد انحرف بالموجة السابقة لهم ، والحق أنه لا يمكن بدون القادة أن تكون الأحداث ذات فاعلية ، ولا يمكن تصور التاريخ بدون قادة ، « والتاريخ باعتباره مجموعة حوادث ناتجة عن فعاليات البشر يزودنا بنتيجة علمية هامة هى أن حوادث التاريخ ليست مستقلة عن إرادة البشر » .

كانت مهمة القائد فى تاريخ الإسلام هى دفع العجلة ، ذلك أن حركة التاريخ كانت تجرى فى مجال مفهوم الاسلام وأيدلوجيته وقيمه ، وأن قائداً مهما بلغت براعته أو ذكاؤه لم يكن يعمل إلا فى إطار الإسلام » .

والحق أن تاريخاً ما ، من تواريخ الأمم والأديان والحضارات لم يضع قادته وحكامه وملوكه على مائدة التشريح ، ولم يعرضهم للنقد إبتداء من الخلفاء الراشدين أنفسهم كتاريخ الإسلام .

(٦)
حركة التاريخ الاسلامى وغائيته

حركة التاريخ الإسلامى منذ فجره إلى اليوم ، حركة تقدمية متكاملة،تتمثل فيها القدرة على الحركة والصمود والاستمرار وتعميق المجرى ، ومقاومة كل محاولة للتوقيف أو التعويق ، ويتمثل فى تاريخه طابع القدره على الانفتاح الدائم الواعى على الحضارات والثقافات ، وهو إذا ماتوقف سياسيا بالغزو الخارجى من داخل عالم الاسلام ، شق له طريقا فى الأرض الجدباء ، وأضاف أمما جديدة تعتنقه وتؤمن به ، فهو حركة دائبة نحو التقدم والبقاء وإشاعة الروح الانسانى ، ومنذ أن ظهر الاسلام إلى اليوم وكل حدث عالمى مرتبط به على نحو من الانحاء .

وغائية التاريخ الاسلامى تتمثل أنه منهج الغد للانسانية فالاسلام دعوة إنسانية إيجابية قادرة على الحياة والتأثير فى مجرى الزمن والأحداث والحضارات ، فى نظره عالية متسقة الأفاق وهى قادرة دوما على أن تقدم للبشرية الحل الإيجابى لأزماتها وقضاياها ومشاكلها . وغائية الإسلام فى مجراه التاريخى هى الوصول إلى عموم الرسالة بحسبانه القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة الإنسانية ، والعدل والمساواة والحرية .

أبرز ظواهر تاريخ الاسلام

١ — المقاومة : أبرز مظاهر حركة التاريخ الاسلامى تتمثل فى مقاومة القضاء عليه وشجبت كل محاولات التآمر والانتقاض بالانتصار على القوى الغازية أو تذويبها فى بوتقتة . وحركة المقاومة فى تاريخ الاسلام تمثل جزءاً هاماً فى كيانه وطبيعته الأساسية ، ومنها يتمثل مفهوم الجهاد بوصفه : اليقظة والاستعداد الدائم المستمر فى مواجهة العدو ، والمثل الأعلى فى الجهاد : « الاستهانة بالموت والحرص عليه ، بحسبانه مصدراً للحياة « وإعداد القوة أساساً لإرهاب العدو لا لحربه » . وقد عاش الاسلام تاريخه كله ، حياة مقاومة مستمرة لم تتوقف ، متصلا بالأحداث والأزمات والمعضلات البشرية ، وقد قام الاسلام فى مختلف أدواره على « التحدى ورد الفعل » متجها إلى تحقيق الوحدة الإنسانية

على أساس العدل والايمان والحرية ، قادراً على إزاحة القوة المانعة من الوحدة ، أو المفهوم الصحيح ، وكانت تعقب كل عملية خارجية مرحلة يقظة وقوة وتجمع واندفاعة نحو المقاومة . ٢ — التفاعل : ومن مظاهر حركة التاريخ الاسلامى . قدرته على التفاعل المستمر فهو فى طريقه الطويل لم ينفصل عن التيار الانسانى وسار فى الخط الايجابى المتفاعل المؤثر .

٣ — تصحيح الانحراف: ومن ظواهر حركة التاريخ الإسلامى قدرته على تصحيح إذا المجرى انحرف فهو يعيش سلسلة متصلة من حركات التجديد والإصلاح وتصحيح المفاهيم . وقد كان فكر الإسلام قادراً ولا يزال أن يعدل بالمجتمع عن الطريق المنحرف إلى الطريق الصحيح ، وكلما وقفت موجة وتجمدت اندفعت موجة أخرى إلى الأمام تحمل نفس الهدف بصورة أخرى . ٤ — الاستمرار : ومن ظواهر تاريخ الإسلام القوية « الاستمرار » فلم يكن من الملفت للنظر قيام هذا المجتمع الضخم وهذه الحضارة الكبرى فى هذا الوقت القصير ، بل العبرة بقدرتها على البقاء والاستمرار والامتداد والتأصل ، ولولا هذه القوة القادرة لما استطاعت أن تصمد أمام حملات الغزو الخارجى التى استمرت تنتقض عالم الاسلام ولكانت قادرة على تمزيق هذه الجماعة لولا صلابة مضمون الاسلام الذى حفظ لها قدرتها على الاستمرار ، ولقد كان المجتمع الاسلامى قادراً بقوة فكره ووضوح مفاهيمه الأساسية على أن يرتفع على الضربات التى كان يتعرض لها كالغزوات والكوارث . واستطاع فى إبان حركات الغزو أن يتجمع ويتوحد ويدفع من أعماقه قوى جديدة قادرة على أن تكون على مستوى المعركة ، وهو فى مختلف أزماته لم تطل به فترة الوجوم والذهول ، وسرعان ما يستجمع نفسه ويتحدى الضربة ويقاوم بشدة ويتخلص من ركوده ويسترد حيويته . ٥ — الاتصال : ولم تكن الوقائع فى تاريخ الاسلام منفصلة إحداها عن الأخرى ، بل متصلة دوما ، لم يكن هناك انفصال بين الموجات المتوالية ، بل كانت كل موجة استجابة لتحدى سابق لها ، أو تحديا لمرحلة ضعف ، أو مداً لحالة جزر ، لقد كان الحادث الواقع فى تاريخ الاسلام استجابة لحادث سابق فى سلسلة متصلة من التحديات والاستجابات .
٦ — وحدة الفكر : ووحدة الفكر هى أبرز علامات حركة التاريخ . قد انتظم مختلف وحدات التاريخ الاسلامى ودوراته وموجاته فكر واحد وثقافة واحدة ، هى الرابط المشترك الأعظم بينها مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، هذا الفكر هو روح الجماعة والمحرك الأساسى والقالب الذى تتشكل فيه مختلف أفكارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولعل أبرز ما يتمثل فى الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية هو « الأصالة » فقد قاما على أسس جديدة لا صلة لها بالحضارة السريانية والفارسية أو اليونانية ، قوامها التوحيد والنبوة والمساواة والعدل .

٧ — التكامل : طوابع الشمول والتكامل والوسيطة والحركة والوحدة هى أبرز مظاهر حركة التاريخ الاسلامى فإذا بدت عملية تجزؤ قابلتها حركة تكامل ، وإذا برزت حركة تراخى قابلتها حركة يقظة . وقد ظلت عملية التجزؤ والتكامل فى الفكر والتراخى واليقظة فى المجتمع مستمرة لا تتوقف .

وحركات القوة والضعف والتراخى واليقظة حركات طبيعية ، غير أن عامل الأزمة الحقيقى كان مثل دائماً فى الغزو الخارجى ، وقد جاء دوما نتيجة فقدان الوحدة والقوة واليقظة وحراسة الثغور والحركة مع الزمن والتطور مع الحضارة وكل الأجزاء التى سقطت إنما سقطت بفعل « قوة خارجية نتيجة التخلى عن القوة العسكرية والحربية وكان الانحلال الخلقى والاجتماعى فى المجتمع عاملا قويا من من عوامل ضعف المقاومة والعجز عن الدفاع . غير أن عملية غزو خارجية الإسلام كانت تتبعها عملية رد فعل وتحدى ، حيث تبرز قوة جديدة شابة تحمل لواء اليقظة والوحدة والتجمع والاندفاع نحو المقاومة . وقد ظهر ذلك واضحا فى تاريخ الاسلام بظهور السلاجقة والأتابكة والأيوبين والمماليك والبربر والعثمانيين .

مفهوم التكامل

« التكامل من أبرز طوابع تاريخ الاسلام : وتاريخ الاسلام — شأن الاسلام نفسه — لا يُفهم إلا على أساس الشمول والتكامل . فهو وحدة متصلة الحلقات مهما تعددت جوانبه ، وهو « كل متصل » لا ينفصل أبداً مهما بدا من مظاهر التعدد والانقسام . فالتاريخ السياسى والتاريخ العسكرى ، التاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الاجتماعى ، والتاريخ الثقافى ، كل متكامل لا ينفصم أبداً مهما بدا الانفصال ظاهراً فيه ، كل جانب من هذه الجوانب يتصل بالآخر ويعتمد عليه اعتماداً تاماً ، وهى ، جميعها تشكل الاطار العام للحضارة . ولم تكن حركة التاريخ الاسلامى قاصرة على الأمة التى حملت لواءه ولا الدولة التى قامت باسمه ، ولكن ذلك التيار الضخم الحى المتحرك المتدفق الذى يبرز من وراء كل ظواهر المجتمعات والحركات والثقافات والمذاهب ، فالإسلام ليس هو الدين وحده ، ولكنه ذلك الطابع الذى يصبغ الحياة كلها فكراً وثقافة ومجتمعاً ، ويعطيها مفهوما شاملا متكاملا : قوامه الروح والمادة ، فردية والجماعية والعقل والقلب . والواقع أنه لا سبيل للنظر إلى تاريخ الاسلام إلا « كوحدة تامة » منذ بزوغ فجره إلى اليوم حيث تتمثل صورته شاملة وكاملة فى مجالين واسعين (أولا) بناء الفكر (ثانيا بناء الحضارة . وهما مجالان متكاملان لا ينفصلان ، فقد سار بناء

الحضارة وتطور الفكر فى خط واحد فى مواجهة تحديات واضحة ، هى تحديات الجمود والانحراف ومقاومة القوى الخارجية والداخلية فى آن .

وتاريخ الاسلام بمثابة الاطار الواحد الذى تتكامل عناصره وتنسق فيه الوقائع والحقائق ، بحيث لا يمكن أن ننظر فيه إلى موقف أو حدث زمنى نظرة منفصلة عن سابقتها أو مابعدها ، كما لا يمكن أن ننظر إليه نظرة إقليمية جزئية ، فهو متصل الحلقات والمراحل ، كل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها وكل مرحلة متولدة من المرحلة السابقة لها ، وليس مصدر الخطأ فى المواقف والوقائع إلا ناتج من النظرة الزمنية أو الاقليمية الجزئية .

وتبدو مظاهر التكامل فى تاريخ الاسلام فى أمرين : « كل موجة » من موجات اليقظة أظهرت قوة جديدة بدوية تولت مقاليد القيادة السياسية ، لم تتخلف قوة واحدة عن العمل ، جنساً كانت أو مذهبا : العرب ، الفرس ، السلاجقة . البربر ، كذلك السنة والشيعة . و « كل عاصمة » جاء عليها دور اليقظة والقوة : بغداد ، قرطبة ، القيروان ، دمشق ، فاس ، القاهرة ، حلب ، أصفهان ، غزنة ، الرى ، بلخ ، وكل عاصمة أخرجت علماء وقادة .

وكانت حركة التاريخ تتمثل فى ظهور القوة فى وحدة من وحدات عالم الاسلام ، فى نفس الوقت الذى تظهر فيه مرحلة الضعف فى وحدة أخرى ، ثم لا تلبث أن تضعف الوحدة القوية ويتجدد كيان الحضارة والمجتمع فى الوحدة الضعيفة . ومن أبرز مظاهر التكامل : أن تاريخ الاسلام كله حفل بالقوة والحركة وظهور الأعلام والمصلحين . ولم تكن عظمة الاسلام قاصرة على مطالعه الأولى وحدها ، بل لقد ظلت مضطردة فى تاريخه كله وفى كل مراحله ، وظل مفهوم الاسلام قادراً على الحركة طوال التاريخ وليس فقط الصف الأول ولا القادة الأول ، ولا الرعيل الأول هو وحده الذى كان يمثل مفهوم الاسلام فى المجتمع والحكم ، ولكن على مدى العصور ، كانت تظهر الشخصية ذات الطابع الاسلامى فى كل مجال ، مجال بناة الدول ، مجال الدعاة والأئمة والقادة .

ومن أبلغ مظاهر التكامل فى تاريخ الإسلام أن قوة وحدها من قوى المجتمع لا تستطيع أن تمثل عصرها ، فلا يمكن أن يقال أن الفقهاء وحدهم أو الشعراء وحدهم هم صورة العصر ، ولكن القوى المختلفة كانت جميعها تتفاعل وتتحرك : العلماء والأمراء ، والفقهاء ، والصوفية ، والشعراء . الخ .

سنن الضعف والقوة

تتمثل سنن الضعف والقوة فى تاريخ الإسلام فى الاقتراب أو الابتعاد عن قيمه الأساسية ، فلم يضعف الإسلام فى مرحلة من مراحل تاريخه إلا حين تخلف مجتمعه عن مفاهيمه وانحرف نحو مفاهيم أخرى ، أو انحرف عن تكامل مفهوم الإسلام ووسطيته ، بالانحراف عن : القوة أو الوحدة أو الإيمان .

وتبدو سنن الضعف طبيعية فى دورات التاريخ ، فكلما وقفت موجة وتجمدت وضعفت عن العمل اندفعت موجة أخرى إلى الأمام . غير أن ظاهرة الغزو الخارجى الواضحة فى تاريخ الإسلام من خلال حركات انقضاض شديدة ، فهى مغزوة أساساً إلى التخلف عن مفهوم الإسلام نفسه من حيث الغفلة عن القوة ، أو تمزق الوحدة ، أو غلبة الترف والانحلال فى المجتمع . ولكن سرعان ما كان المسلمون يستردون حريتهم عندما يلتمسون قيمهم الأساسية ، فهى القادرة دوما على إزاحة « القوة الغازية » ودحرها أو تصفيتها أو امتصاصها ، وقد استطاع الإسلام على طول تاريخه وما زال قادرا على مقاومة كل قوة حاولت القضاء عليه أو السيطرة : (الصليبيون ، التتار ، الفرنجة ، الاستعمار) وكما قاوم كل قوة تحاول تغيير مفهومه أو صهره فى مفاهيم فكر أو حضارة أخرى . ففى الداخل حمى تطور الحركة الفكرية ودفعها إلى الأمام ووصلها بالحضارة والعصر وصحح كل انحراف طرأ عليها . لقد ظل الإسلام يمد المجتمعات والحضارات فى عالم الإسلام بطابعه وظل قوة قادرة حية على الحركة والتفاعل ، وظلت قيمه خلاقة بنائه متولدة قادرة على مواجهة التحدى والتغلب عليه . أما نزاعات التاريخ الإسلامى المحلية فهذه لابد منها فى كل مجتمع حى ، أنها لم تكن تؤثر على خط السير الحضارى إلا إذا مزقت عامل الوحدة ، ولم يكن ضعف المجتمع الإسلامى ، بعد قوة ، إلا ظاهرة طبيعية لكل مجتمع ، غير أن فاعليته الاسلامية وقدرته كانت دوما قادرة على بعث الحياة فى المجتمع الإسلامى بعد هبوطه وانحداره ، بالتماس مفهوم الاسلام مستمداً من القرآن . ويتمثل فى تاريخ الإسلام فى القدرة على الاستمرار ، والقدرة على تعميق مجرى الحياة ، ومقاومة كل محاولة للتوقف .

وقد ظل جوهر المجتمع الإسلامى حيا بالرغم من مختلف وجوه الاضطراب والانحلال ، فاستطاع إخراج القادة والمصلحين والمجددين جيلا بعد جيل وموجة بعد موجة ، ومن هنا تتأكد الظاهرة التى يكشف عنها تاريخ الإسلام كله وهى : أنه لم يتخلف المسلمون عن الحضارة والقوة إلا حين تخلفوا عن التمسك بقيمهم ومفاهيمهم . وقد ظل تاريخ الاسلام حافلا باستمرار التجدد والتوسع ، فهو فى كل يوم يكسب أرضا جديدة ، وفى نفس الوقت يتجدد باقصاء عناصر الانحراف والتجزئة والزيوف عن

معدنه والكشف عن جوهره الأصيل وقيمـــه الأساسية . وقد تفوق المسلمون عندما استطاعوا « صهر » ثقافات الأمم وفلسفاتها فى قوالب فكرهم وفى إطار التوحيد وانحدر المسلمون عندما استطاعت هذه الثقافات والفلسفات أن تسيطر على قيمهم الأساسية وتضعف فاعليتها .

وقد ظلت « المقومات الأساسية » ثابتة بالرغم من قدرة الفكر الاسلامى على الحركة ولا تزال هى العوامل الأكيدة فى بناء النهضة ، فإذا انصرف عنها المسلمون انحدروا ودخلوا فى مرحلة الأزمة والغزو الخارجى . وهذه المقومات هى : التوحيد ، الوحـــدة ، النبوة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، العدل ، الحرية » . فالاسلام أساساً : دين وفكر وحضارة ومجتمع ، فى منهج قوامه : عقيدة ومعاملات وأخلاق ، فالمجتمع الاسلامى صيغ أساسا والدين جزء منه ، وقامت فيه القيم على أساس الالتقاء بين العقل والقلب ، والدنيا والآخره ، والروح والماده والجماعة والفردية فإذا تخلخل أساس من هذه الأسس حلت مرحلة التخلف ، وإذا التمست هذه المفاهيم بدأت مرحلة « اليقظة » .

تحرك التاريخ فى إطار الإسلام

كان المجتمع الاسلامى دوما يتحرك مع التاريخ ولا يتحرك ضد التاريخ لأنه لم يحقق المثل الأعلى الذى رسمه الاسلام وما زال منطلقاً إلى تحقيقه . لقد تحرك المجتمع الاسلامى فى إطار الاسلام ولكنه لم يطاول مفهوم الاسلام . فالاسلام فى ذاته مقومات أساسية كلية مرنة ، وليس خطوطاً محـــدودة مرسومة أو ثابتة ، أو بالأحرى « ثابت الاطار متطور المضمون والمفهوم » ، تتمثل الصور فى تعددها مشتقة منه ، دائره فى فلكه ، قريبة منه آنا أو بعيدة آنا آخر ، وهى بقدر اتصالها به والتماسها منه وأخذها عنه تكتسب له الحياه ، فإذا تخلفت وبعدت وتحللت بدا ضعفه وبدا اضطرابها . وقد كانت الدول والمجتمعات تتفاوت فى اصطباغها به وفى تحركها فى إطاره ، وهذا هو السر فى بقاء الاسلام مع تغير الدول .

(٧)

تاريخ الاسلام والتاريخ الانسانى

تاريخ الاسلام — لاشك — شطر من التاريخ الانسانى متصل به لا ينفصل عنه وإن كان له طابعه المتميز فى منطقه ومنطلقه ومفهومه . كما أن « تاريخ الاسلام » مادة أساسية وجزء أصيل من « تاريخ الانسانية والعالم » فهو متفاعل مع هذا التاريخ مؤثر فيه حتى ليمكن أن يقال أن تاريخ الغرب كله منذ ظهور الاسلام هو تاريخ الصراع مع الاسلام .

وهو متصل بالأمم والحضارات والثقافات مفتوح عليها ، يأخذ منها ويعطى ، ولقد ظل تاريخ الإسلام متصل بالتاريخ العالمى مؤثراً ومتأثراً وظلت النظرة إلى الإسلام من خلال العالم والنظرة إلى العالم من خلال الإسلام متصلة ، وإذا أمكن أن يقال أن هناك عالمين : عالم الإسلام وعالم الغرب ، أمكن القول بأن الصراع لم يتوقف بينهما من بزوغ الإسلام إلى اليوم ، وهو الصراع بين فكرين مختلفين أساساً ، فقد كان الشرق منذ مطالع فجره ، وهو أرض النبوات والرسالات ، والإيمان بالله ، وكان الغرب أرض الفلسفات الحرة المنطلقة ، التى تؤمن بالصراع بين البشر وبين الآلهة ، فلما غزت المسيحية أوربا ظل مفهوم الغرب قائما على أصوله الأولى لم يتغير إلا قليلا ، فهو لم يقبل المسيحية على سماحتها وبساطتها ولكنه أدخلها فى إطار من وثنية اليونان وقوانين الرومان ثم بنى بها جميعا حضارته الحديثة ، وظل على موقف الخصومة للاسلام ، يصارعه من بيزنطة ومن الأندلس ، ويغزوه بالحروب الصليبية ثم يطوق عالم الإسلام ويسيطر عليه بحركة الاستعمار الحديث ، والاسلام فى خلال هذا التاريخ كله يقاوم الغزو ويتمدد فى أرض جديدة ويعمق رسالته فى العقول والقلوب فى حركة دائبة ولم تتوقف ولم يزدها الصراع إلا قوة وصقلا . ظل تاريخ عالم الاسلام رمزاً على الصمود فى وجه الغزو الخارجى فى حملاته المتصلة التى تحاول أن توقفه عن الانتشار وترده عن الامتداد ، فهو لا يلبث أن يضعف تحت ضغط العدوان المسلح حتى يسترد قوته وأرضه ، ثم هو من الناحية الأخرى يتوسع ذاتيا ويضيف ملايين جديدة إلى معتنقيه دون حرب أو قتال . وأما تاريخ فكر الاسلام فقد ظل قادراً على التجدد ، معيداً لصياغة مقوماته وفق روح العصر ، لا يتوقف عن الحياة والحركة وقد عجزت الحملات المتوالية عن القضاء على عالم الاسلام أو إضافته إلى الحضارة الغربيه إضافة التابع.

كما عجزت حملات الغزو الفكرى أن تحطم مقوماته أو تضيف إليها ما ليس منها ، أو تؤكد الشبهات أو الشكوك المثارة ، بل على العكس من ذلك ، كان هذا التحدى عاملا هاما فى تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والتماس القيم الأساسية للاسلام مستمدة من القرآن ، قاضية على الانحرافات والاضافات والبدع والجبرية ، مما أصاب الفكر الاسلامى فى مرحلة الضعف ، نعم استطاع الاسلام أن يصحح مفاهيمه وأن يبرز نقيا وأن يكشف عن جوهره قادراً على لقاء مختلف تطورات الحضارة ودعوات الفكر على نحو من الاستقلال ووضوح الشخصية والقدرة القادرة على الهضم والاضافة والاقتباس من مختلف الثقافات والحضارة بما يزيده قوة وحيوية . وقد واجه حملات الغزو العسكرى فى الشرق ، التتار والصليبيين فى الشمال والفرنجة فى الغرب ، ثم واجه حملة الاستعمار الحديث ، ومعها حملات التغريب والتبشير والشعوبية وقد حاربت الاسلام قوى كبرى ثم زالت وانتهت بزوال

البرتغاليين والأسبان وانصهرت المغول والتتار وانحسر ظل بريطانيا وفرنسا . ويمكن القول أن فى تاريخ الإسلام اتجاهين أساسين : اتجاه الانتشار والتوسع واتجاه التطبيق وتاريخ الاسلام لا يزال يمثل تاريخ الانتشار الذاتى بعد الانتشار فى المرحلة الأولى بالتوسع . أما اتجاه التطبيق فلا يزال فى مراحله الأولى . فالمجتمع الاسلامى لم يستطع بعد أن يحقق مفهوم الاسلام كاملا فى إطاره . مفهوم الاسلام بالنسبة للأجناس والألوان هو المساواة التامة الصريحة ، غير أن الموالى لم يجدوا تطبيقا لهذا المفهوم وهذا سر ثورتهم ، وظهرت نزعة التفاضل بين الأجناس والصراع بينهم وهى مما لم يقره الاسلام . ودعا الاسلام إلى العدل الاجتماعى غير أن الطبقات الدنيا لم تجد طوال هذا التاريخ ما يحقق لها هذا العدل ، وظلت الطبقات الحاكمة بمعزل عن الشعوب ودعا الاسلام إلى الاعتدال ، غير أن الترف اجتاح الطبقات العليا مما نتج عنه رد فعل فى ظهور مؤامرات الانتقاض وحركات الزهد والانعزال عن المجتمع أقول هذا وأنظر إلى العصور : الأموية والعباسية والعثمانية وقد بدت بشائر التحول فى اليقظة العربية الاسلامية الأخيرة .

والخلاصة

(أولا) حركة تاريخ الاسلام فى مختلف مراحله تتجه نحو الحرية والعدل والتوحيد والمساواة بهدف « تحرير الانسان من ربقة الظلم والاستعباد » وتحرير فكره من القيود والتقليد والمحاولات التى تريد أن تقصه عن التوحيد والحرية والعدل (ثانياً) عاش تاريخ الاسلام نظرية التحدى ورد الفعل فى مجالين : × مجال قيام بناة الدول ودعاة التجديد وقادة الحركات الاصلاحية كلما ضعفت القوى العاملة أو انحرف مجراها . × فى مواجهة كل حركة غزو خارجية حيث تظهر قوى جديدة قادرة على رد الغزو . (ثالثاً) كانت حركة التاريخ الاسلامى حركة دائرية لولبية : (تجمع بين الخط المستقيم والدائرة) الخط المستقيم الذى يوحى بالتقدم إلى الأمام ، والدائرة التى توحى بالحركة اللولبية ومعناها حركه أماميه وحركه ورائيه راجعه إلى الوراء قليلا من أجل التقدم إلى الأمام (رابعاً) التطور حركه تقدم وتراجع ، ونهضه ونكسة . التاريخ الاسلامى كالكائن الاجتماعى له صفه أساسيه هى قدرته على نزع الأعضاء الضعيفه فى كيانه واستبدالها بأعضاء أقوى وفى دفع عوامل المرض والفناء . (خامساً) مقومات الاسلام هى عامل القوة فى تاريخه . التوحيد ، الوحدة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، الايمان ، العدل ، الحرية ، فإذا ضعفت انحدر ، فإذا عاد إلى جوهر مفاهيمه دخل مرحلة القوة . وبالجملة فإن تاريخ الاسلام :

(أولا) قاوم القــوى الداخلية المنحرفة . (ثانيا) واءم بين الفـكر الإسـلامى والتطور . (ثالثا) قاوم القوى الخارجية الغازية . (رابعا) صهر خصوم الإسلام فى بوتقته . (خامسا) كسب أرضا جديدة بعد مرحلة التوسع (سادسا) دفع الحضارة البشرية إلى الأمام خـــلال ألف عام . (سابعا) أعطى المرحلة الأوربية من الحضارة «للمنهج التجريبي» أساس العصر الحديث .

أبرز وقائع تاريخ الاسلام

هـ م

١ — ٦٢٢ الهجرة

١١ — ٦٣٢ وفاة النبي

١١ — الراشدون إلى ٤١/٦٦١ م

٤١ — الدولة الأموية إلى ١٣٢ — ٧٤٩

١٣٣ — ٧٥٠ الدولة العباسية

٢٩٧ — ٩١٠ الدولة الفاطمية

٣٤٥ — ٩٥٦ الدولة السلجوقية

٣٤١ — ٩٥٢ الفاطميون فى مصر

٤٨٣ — ١٠٩٠ دولة المرابطين

٥٤٥ — ١١٥٠ دولة الموحدين

هـ م

١١٤ — ٧٣٢ بلاط الشهداء

٤٧٨ — ١٠٨٥ سقوط طليطلة

٤٧٩ — ١٠٨٦ الزلاقـة (هزيمة الأسبان)

٤٦٤ — ١٠٧١ موقعـة ملاذ كرد

٤٩٣ — ١٠٩٩ الصليبيون فى القدس

٥١٥ — ١١٧١ هزيمة فرنسا فى دمياط

٥٤٢ — ١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية

٥٨٦ ١١٩٠ الحملة الصليبية الثالثة

٥٨٣ — ١١٨٧ حطـين (استعادة بيت المقدس)

٥٩٣ — ١١٩٦ معركة الأرك

٦٥٩ — ١٢٥٨ سقوط الخلافة فى بغداد

٦٥٩ — ١٢٦٠ عين جالوت وهزيمة المغول

هـ م

١٣٩ — ٧٥٥ عبد الرحمن الداخل

٤٥٦ — ١٠٦٣ ألب أرسلان

٥٠١ — ١١٠٧ محمـد بن تومرت

٥٤١ — ١١٤٦ نور الدين زنـكى

٥٦٢ — ١١٧١ صلاح الدين

٦٦٥ — ١٢٦٦ الظـاهر بيبرس

٨٥٥ — ١٤٥١ محمـد الفاتح

٩٠٨ — إسماعيل الصفوى

١١٥٣ — ١٧٤٠ محمـد بن عبد الوهاب

« تابع » أبرز وقائع تاريخ الإسلام

هـ	م	
٦٤٥	١٢٥٤	المماليك فى مصر
٦٩٩	١٣٠٠	الدولة العثمانية
٦٩٠	١٢٩١	نهاية الحروب الصليبية
٨٥٧	١٣٥٤	العثمانيون يحتلون القسطنطينية
٨٩٨	١٤٩٢	سقوط غرناطة ونهاية الأندلس
١٠١٨	١٦٠٩	ترحيل المسلمين من الأندلس
١٢١٣	١٧٩٨	الحملة الفرنسية
١٢٤٦	١٨٣٠	احتلال الجزائر
١٢٩٩	١٨٨١	احتلال تونس
١٣٠٠	١٨٨٢	احتلال مصر
١٣٣٠	١٩١٢	احتلال طرابلس
١٣٣٦	١٩١٨	تقسيم الدولة العثمانية
١٣٤٣	١٩٢٤	نهاية الخلافة العثمانية
١٢٢٠	١٨٠٥	محمد على
١٢٥٩	١٨٤٣	محمد بن على السنوسى
١٢٨٧	١٨٧٠	المهدى فى السودان
١٢٩٣	١٨٧٦	السلطان عبدالحميد

(الرسالة الثانية)

عالم الاسلام وعالم الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم : والمسلمون يستشرفون مرحلة جديدة من حياتهم عن طريق القوة والنهضة فإن أولى الأمور التى تحتاج إلى اهتمام عميق هو معرفة موقعهم من القوى العالمية التى اتصلت بهم منذ أول يوم وما زالت توالى اتصالها على نحو أو آخر ، وأن يجرى استعراض هذا التاريخ فى إنصاف ودون تعنت بالدليل والبرهان ، حتى لا تحول الدعوات المختلفة ولا التيارات الوافدة أن تظلل نظرتهم بأى لون أو اتجاه وليعلموا أنهم « أمة » لها طابعها وذاتيتها وكيانها الخاص أقامها الله تبـــارك وتعالى فى هذه المنطقة الحساسة من العالم وأعطاها مقادير الثروة والقوة لتحمل رسالته إلى العالمين وليظل أهلها قادرون على أن يكونوا جند الله الغالب : المجاهدون المرابطون اليقظون الواعون الذين يأخذون حذرهم دائماً ، فإذا غلبهم متسلط أو غاز إستداروا إلى منهجهم الأصيل فعرفوا أنه هو المصدر الوحيد القادر على إعطائهم النصر وأن أى منهج آخر لا يستطيع ذلك، إذن فلابد من هذه الدراسة فى هذه الفترة الدقيقة التى يمتحن فيها المسلمون بالمال والطاقة والتفوق البشرى ، ليثبتوا إزاء قيمهم وعقيدتهم تحول المقدرات المادية دون الحفاظ على وجودهم الذاتى وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامى،وأن يكونوا إلى ذلك قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقـــدم والحضارة المادية لتكون « مواداً خاماً » يصنعونها داخل إطار فكرهم وقيمهم وبذلك يصنعون الحضارة القادمة : (حضارة القرن الخامس عشر الهجرى) . الذى أوشك أن يهل هلاله والذى يتطلع إليه المسلمون كعلامة على عصر جديد تعود الكرة فيه مرة أخرى إلى أيدى العرب والمسلمين . إن أخطر ما واجه الحضارة الغربية الحديثة وأسلمها فى وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقـدم المادى هو أنها « كسرت » الإطار الدينى والأخلاقى : الذى هو الحاجز الحامى لكل نهضة من التعثر والتصدع ، ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمى ظهرها ، أو نور يضىء طريقها ، وبذلك صرعتها المادية الغالية وانحرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التى يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج ، وهى أزمة الإنسان الحديث وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه ، كل هذا الذى قاساه ويقاسيه من أهوال هو نتيجة غيبة

المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان الإنسانى وفقدان الهوية والهدف والقصور عن فهم الرسالة والأمانة والغاية والمصير للإنسان المتخلف فى هذه الأرض . فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وتراثها التكنولوجى والعلمى والميكانيكى أن تستوعبهم هذه الحضارة أو تحتويهم ، فى إطار هذا الفهم المدمر القاصر ، وعليهم أن يبدأو من نقطة التوحيد فى الفكر ومن اللغة العربية فينقلوا إليها كل معطيات العلم ، ومن الإيمان بوحدة البشرية والأخاء الانسانى والعدل والرحمة باعتبارها هى معطيات الاسلام الإنسانية وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه فيخضعون العلم للاخلاق والتقوى ، ويجعلون مقدرات البشرية للناس جميعا وليست لفئة مستعلية أو مسيطرة على أقدار العباد ، وبذلك يحققوا إرادة الله فى بناء المجتمع الانسانى الحق الذى تتطلع إليه الدنيا جميعاً بعد أن عاشت فى الظلم والاستبعاد عصراً طويلا شقيت به وليطلع المسلمون الدنيا جميعاً على أنهم يمتلكون منهاجا قادراً على إسعاد البشرية حقاً ، وردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمينها من القلق والتمرد .

(٢)

ولا ريب أن أخطر التصريحات التى صدرت فى العصر الحديث : ذلك التصريح الذى أعلنه الدكتور بيرون فى المؤتمر الدولى للعلوم التاريخية الخامس الذى عقد فى مدينة (أوسلو) عاصمة النرويج فى ١٤ آب ١٩٢٩ حين قال : إن ظهور الاسلام كان خاتمة العصور القديمة وبداية إيقاظ الانسانية فى أول عصورها المتوسطة حيث بدأت أوربا الغربية مدنية جديدة وحياة جديدة يجب معها اعتبار هذا الحادث العظيم هو بداية العصر الوسيط . فمازلنا نقصر عن فهم هذه الحقيقة ، والتركيز على هذه العلامة المميزة على مفترق طرق التاريخ ونجرى وراء متعصبي الغرب الذين يتجاهلون ظهور الاسلام كأعظم حادث تاريخى فى العالم كله . لقد تقدم الاسلام بعد ذلك شرقا وغربا حتى فتح الهند والصين وقسما كبيرا من فرنسا فى سرعة مذهلة أدهشت علماء الغرب حتى أطلقوا على هذه الحادثة التاريخية « المعجزة العربية » ثم كان « العلم » هو أعظم ما قدمته الحضارة الاسلامية إلى العالم الحديث.
وقد سجل بريفولت فى كتابه (بناء الانسانية) هذه الركيزة الثابتة فى الوجود الاسلامى العالمى حين قال :

لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الاسلامية وأن ما يدين به علمنا لعلم المسلمين ليس ما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة الاسلامية بأكثر من هذا :

إنه يدين لها بوجود نفسه ، فضلا عن ذلك فإن الغربيين لم يتنبهوا لميراثهم القديم من الحضارتين اليونانية والرومانية إلا بعد ما كشف عنه المسلمون وجلوه ونقدوه .

(٣)

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام فقد شكل لونه المميز على خريطة العالم ، عالم مستقل له طابعه المفرد ونظريته الكاملة المتجددة بالتوحيد والإيمان بالله والإلتزام الأخلاقى فى تفسير الكون والحياة للمسلمين قبلتهم الواحدة التى لم يحيدوا عنها تهوى إليها قلوبهم وعقولهم بالإيمان والفكر ، بالقلب والعقل جميعا ، ومنذ ذلك اليوم لم يكن لهم قبلة أخرى ، ومازال الكعبة البيت الحرام وستظل مركز الدائرة فى أرض الإسلام . ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والإدالة منه ثم لما عجزت عن ذلك ، حاولت احتواءه وإذابته وصهره فى بوتقة الأممية ، ولكن مازال الإسلام قادراً بتركيبة الربانى وتشكله القائم على الفطرة والحق والعدل أن يقاوم كل محاولات ضربه : سواء عن طريق الحروب الصليبية أم للغزو الاستعمارى أم الاحتلال الصهيونى أم محاولات الماركسية والمادية الوجودية والفرويدية وغيرها .

والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن يكون موضع نظرها وتقديرها دائما بحيث لا تغيب عنها ، تلك هى أننا (نحن المسلمون) نعيش فى ظل مجد قائم كبير ، فى منطقة ذاخرة بالطاقة والثروة والتفوق البشرى ، كانت ولاتزال وستظل — مصدر مطامع الغرب وتطلعاته إلى الغزو والسيطرة رغبة فى استنزاف الثروات وامتصاص الموارد ، وأن هذه المطامع جاءت فى ثوب الحروب الصليبية لاستعادة قبر السيد المسيح مرة ثم عادت فى ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربى ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد ، عاشت هذه الأمة موضع طمع الطامعين والغزاة قرونا طويلة ، ينتهزون فرصة ضعفها لينقضوا عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ، وما تزال القدس هى خط الدفاع الأول عن القبلة المقدسة : ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو فى حطين وفى عين جالوت وفى الزلاقة وفى الأرك واستجاشت أرض الاسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التى حملت اللواء واستشهدت فى سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية الدين . واليوم يواجه عالم الاسلام ثلاث قوى : الاستعمار والصهيونية والشيوعيه ، والمسلمون فى موقف الدفاع يثبتون دائما ويستمدون قوتهم من عقيدتهم التى كانت مصدر النصر لهم فى كل أزمة وموقع ،

وسوف لا تستطيع القوى الغازية أن تنتزعهم من حصنهم هــذا الحصين : وهم لا يعادون الغرب ولا يطمعون فى السيطرة والاستعلاء ولـكنهم طلاب سماحة ورحمة وخير .

يقول الفريد كانتول سميث : أن الغرب كان ولا يزال يخـاف القوة المعنوية الـكامنة فى عالم الإسلام المتجانس الذى تجمعه وحدة التوحيد الخالص، يخاف هذه القوة ويخشاها ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها والقضاء عليها وتمزيقها وبعث الخلاف والفرقة والصراع والخصومة والتناحر بين أجزائها ، ولعل حماقة الغرب فى مقاومة هذه القوة هو الذى دفعها على الالتقاء والتوحد والتجمع كتلة واحدة . ولم يستطيع الغربيون خلال هذه المدة الطويلة أن يكسبوا ود المسلمين بل حصلوا على شعور جماعى بالـكراهية، تقول وتدزاد هذه الـكراهية قوة أن الغرب استعمل عمليات التبشير والتغريب والغزو والثقافة وسيلة الإذلال إلى جوار السيطرة الاقتصادية والمادية وكان شعور القسوة والعنف والحقد والتعصب إزاء كل ما هو عربى أو إسلامى ، وتجمع الغرب كله لإخراج المسلمين من أوربا ، تضافرت القوى من ناحية الأندلس وتضافرت من ناحية البلقان ، وجاء رجالهم بعد ثمانمائة عام ليقولوا : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

(٤)

لم يتوقف الإسلام من الانتشار منذ بزوغ فجره وبلغ عدد الذين اعتنقوه اليوم ألف مليون على أقل من التقديرات منها ٩٠٠ مليون مسلم دخلوه بالاقتناع والإيمان وبقوة الإسلام الذاتية وبفضل مبادئه التى تحمل التوحيد والـكرامة ، وقد وجد الإسلام من الملونين والمستعبدين قبولا حررهم من كل عوامل الظلم والعبودية وما زال الإسلام يقتحم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن وفى مؤتمر لندن الإسلامى (مايو ١٩٧٦) أعلن أن عدد المسلمين فى أوربا يبلغ حالياً ٢٥ مليوناً و ٢٠٧ ألف نسمة تقريباً وأن عدد المسلمين بالدول الأوربية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و ٩٣٠ ألف نسمة بنسبة ١٫١٧ فى المائة من عــدد السكان أما عدد المسلمين بالدول الأوربية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليوناً و ٢٧٧ ألف نسمة أى بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان ولا يدخل فى هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفيتى. وهكذا نجد أن الاسلام الذى لفظته أوربا من الأندلس ومن البلقان يعود سلما ويصل إلى كل مكان ، ليس فى أوربا وحدها ولـكن فى الغرب كله . وفى أمريكا لا يطلع الصبح يوما إلا على مسلم جديد وقد سقطت تلك القاعدة البالية التى كانت تقول فى الغرب : إن على المسلمين أن ينتهوا من أوربا بالهجرة أو بالتنصير من ناحية الأندلس أو ناحية

البلقان . ويقول الأستاذ ابراهيم بولـكى : منذ عرفت أوربا الاسلام ناصبته العداء وعرفت أن فى وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهى مستعدة لأن تفهم الاسلام وتتقبل وجوده بعد أن عرفت أنها تعتمد فى وجودها الاقتصادى على الدول الاسلامية ، ولقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الاسلام كان شيئاً فى الماضى وانتهى ، وينتظرون بلهفة ذلك اليوم الذى سينتصر فيه الاسلام ، لقد كان الاسلام صاحب الجولة الأولى فى العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب جولة ثالثة بإذن الله ، أن من يعيش فى الغرب يستطيع أن يعيش انحطاط المجتمع الغربى وسمو المجتمع الاسلامى والمسلمون فى غرب أوربا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعى لا يقاربه نظام ويقيمون فاصلا بين الحياة فى ظل الاسلام وبين الحياة فى ظل الاسلام وبين الحياة فى ظل فوضى الغرب وتفسخه وتشير الأبحاث الاقتصادية الغربية إلى أن العرب فى طريقهم إلى حدث جديد فى حياتهم وهى الثروة والطاقة التى سوف تمكنهم من التنمية ومن مواجهة الأخطار وإمكانيات القوة والثراء » ونضيف إلى هذا أن الفكر الغربى قد انبثق عن تيار جديد يريد أن يفهم الاسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية وأن الغرب لن يجد المجتمع السليم إلا إذا اعتنق « أسلوب العيش الاسلامى » وقد ورد كثيرون هذا المعنى من بينهم « برناردشو » وغيره وهناك من أشار إلى أن الاسلام وحده هو القادر على حل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة وهناك من يرى أن الغرب حامل بالاسلام وسوف يلده قريبا .

ويكتب « مونجمرى وات » فى جريدة التيمس تحت عنوان .

« الاسلام قوة فى انتظار كلمة »

أشار فيها إلى الاسلام الذى ينطلق الآن وينتظر زعامة إسلامية عملاقة تتسلح بتعاليم الاسلام الخالصة ، فإذا قدر لهذه القيادة أن تظهر فسيصبح الاسلام أحد القوى الأساسية الكبرى فى العالم ويؤكد ما ذهب إليه مستشرق آخر هو (هاملتون جب) باحتمال ظهور الاسلام وإعادة بناء نفسه كقوه عالمية ومن قبل قال لا مارتين ، فى كتابه (تاريخ تركيا :) فى الاسلام قوه كامنة أصيلة نابعة من أن هذا الدين فهو وحده الذى استطاع أن يفى بمطالب البدن الروح معاً دون أن يعرض المسلم لأن يعيش فى عذاب الضمير الذى يعيش فيه الغربيون ، إن المسلمون بالقرآن وحده شىء يختلف عن الأديان الأخرى لأنه لا يعبد الأشخاص ولاريب أن التوحيد والتنزيه هو موضع القوه فى الاسلام المؤمن . ويقول الأستاذ بريتون فى كتابه « الاسلام » : إن الاسلام يعطى كلا من العالمين — الدنيا

والآخرة — حقهما وفى وسع المسلم العصرى أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح ولا يزال. والمسلمون يجتهدون اليوم ليثبتوا أن الانسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى أرفع تعبيراتها فى شريعة الاسلام وأحـــكامه.

(٥)

واجه المسلمون الحروب الصليبية فى الشام ومصر وحروب الفرنجة فى الأندلس والمغرب وعرفوا فى العصر الحديث الاستعمار والصهيونية والشيوعية وهى قوى جبارة تواجه الاسلام والمسلمين وقد صمدوا لكل ذلك والتمسوا من مفاهيم الاسلام وأصالته القوة على المواجهة والمرابطة فى سبيل كلمة الله وحماية هذا الكيان الذى تشكل باسم الله على الحق إلى العالمين. وسوف ينتصرون على الأخطار التى تواجههم اليوم ما استمسكوا بكتاب الله نبراساً وضياءاً وتطبيقاً فى حياتهم الاجتماعية، وسوف يخرجون من الأزمة كما يخرج الذهب من النار أشد نصاعة وضياءاً، ولعل هذه الدراسة تكشف لهم عن عامل الصمود والقوة القادرة على دحر أعدائهم وغزواتهم واقتعاد مكانهم الحق فى هذا الكوكب، هذا العامل الأصيل الوحيد هو لن يكون القرآن منطلق حياتهم وقانون مجتمعهم وإطار وجودهم كله والله من وراء القصد.

(١)

الاسلام يقتحم أوربا ن جبهتى الأندلس والبلقان

١ — الموجة الأولى على جبهة بيزنطة

كانت رسائل النبى ﷺ إلى الملوك بعد صلح الحديبية الذى عقده مع قريش علامة على دخول الدعوة الاسلامية فى مرحلتها العالمية تأكيداً لطبيعتها التى كشفت عنها منذ إعلانها: « يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ». وجهت هذه الرسائل إلى هرقل بمصر لروم وإلى المقوقس حاكم مصر وإلى الحارث الغسانى وإلى كسرى الفرس وإلى نجاشى الحبشة: حملها اليهم سفراء عن الدولة الإسلامية فى المدينة نذيراً وإبلاغا وعلامة على طريق الدعوة الاسلامية. وفى خلال السنوات الباقية من حياة الرسول وقبل التحاقه بالرفيق الأعلى تتابعت الحركة العسكرية على عنق الزجاجة: ذلك الطريق الخطير

بين الجزيرة والروم والذى كان يفزع منه العرب من قبل فى صيحتهم المشهورة: « هل جاء الروم » أنفذ النبى ثلاث حملات: الأولى عام ٦٢٩م مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى حدود الروم إنحازوا إلى قرية مؤته وقد وصفت بأنها حملة ذات طابع استطلاعى كمقدمة لهذا الوجه وقد أرسل لهم هرقل مائة ألف مقاتل فى بعض الاقوال وفى هذه المعركة قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب واستطاع خالد بن الوليد أن يعود بالجيش وفى وفى عام ٦٣٠ م خرج الرسول بنفسه إلى حدود الروم فى غزوة تبوك حيث صالح أهل حرباء وأذرح ومغنا . وصالح يوحنا ابن رؤبة صاحب أيله فى خليج العقبة وكتب له عهداً بأن أهل أيلة لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ودفع يوحنا مقابل ذلك ثلاث مئة دينار جزية يدفعها كل عام وعاد النبى إلى المدينة بعد أن أقام فى تبوك أسبوعين وفى عام ٦٣٢ م أعد النبى جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، بقيادة أسامة بن زيد الذى سقط أبوه فى معركة مؤتة وقد لحق النبى بالرفيق الأعلى وراية أسامة منصوبة أمام المسجد ، وتحرك الجيش بعد وفاة النبي نفراً ووصل إلى أيله (العقبة) وجبال الترك وسلم وغنم وعاد فى أربعين يوما ، ونهض فى السنة نفسها خالد بن سعيد إلى بلاد الروم وأوغل فى بلاد الشام حتى اقترب من دمشق وعاد إلى المدينة : كل هذا كان أرهاصا بالوجه والهدف والمنطلق .

وفى خطاب الرسول إلى هرقل قيصر الروم : قال الرسول عليه الصلاة السلام : (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك أثم الاريسيين . وقد فسرت عبارة (الاريسيون) بأنهم أتباع أريوس الذى رفض تأليه الرسول عيسى ودخل معركة حامية مع الدولة الرومانية من أجل هذا المعتقد وقد عاش الاريسيون مضطهدون وهم مصرون على عقيدتهم تيوارثونها حتى مجىء بعثة الرسول ﷺ . والدولة البيزنطية هى الدولة الأوربية الآسيوية التى اصطدمت بالفتوح الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ، كانت تسيطر على أغلب شواطىء البحر المتوسط وجزره وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتشمل أملاكها الممتدة على سواحل البحر الشمالية شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها وآسيا الصغرى ومن الشرق تتبعها سوريا وفلسطين ومن الجنوب مصر وشمال أفريقيا ومنذ ذلك الوقت نشأ مايسمى بالجبهة البيزنطية. نشأت بعد فتوح الشام وسيطرة المسلمين على الجزيرة العربية التى كانت خاضعة لدولة الروم بينما تقلص النفوذ البيزنطى إلى الشمال وانحسر عن الشام والعراق وكان أهلها قد خضعوا للروم وقاسوا الذل من نظام القيصرية ولذلك فقد رحبوا بالفتح الإسلامى الذى خلصهم من العبوديه . غير أن الروم ما كادوا يرون الدولة الأموية تنشغل ببعض الأمور حتى أخذوا فى مهاجمة الساحل السورى ، ولكن سرعان ماقطع عليهم معاوية خط الرجعة

فغزا صقلية عام ٩٦٩ وبدأت طلائع جيش المسلمين تصل إلى القسطنطينية عام ٩٧٤ لمهاجمة عاصمة الروم من البحر وتوالى الحصار فى الربيع والخريف وسمى بعد ذلك بالشواتى والصوائف ، واستمر أربع سنوات متوالية مما اضطر الروم إلى توقيع صلح مع المسلمين مدته ثلاثون عاماً ، غير أنه لم يلبث إلا قليلا حتى زحفت جيوش الروم عام ٦٨٣ عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت العرب عن مرعش ٦٨٣ ومازال الروم ينقضون العهد ، وعندما أرسل عبد الملك دنانيره الأولى ٦٩٢ وعليها الآية الكريمة : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، رفض الامبراطور قبول الدنانير وتحرك فى جيش لجب إلى الحدود الإسلامية حيث اصطدم مع جيش المسلمين ٦٩٣ وخسر الروم أرمينية وعاد المسلمون إلى الصوائف كمرة أخرى.

ولما اضطربت الأمور بعد وفاة الرشيد اهتبل البيزنطيون الفرصة حيث شجعوا طائفة الخرمية اتباع بابك الخارجين على الخلافة العباسية ، فلما جاء المأمون عمد إلى مواجهة الخطر البيزنطى ، فهاجم الجزء الشرقى من آسيا الصغرى واستولى على بعض الحصون وأثار جو عاصفا من المقاومة اضطر الامبراطور البيزنطى إلى طلب الصلح ، وتوفى المأمون (٢١٨ / ٨٣٣ م) أثناء حروبه لغزو الروم ولما آلت الخلافة إلى المعتصم بعد وفاة أخيه المأمون حاول الامبراطور البيزنطى الاتصال ببابك الخرمى لمعاونته فى ثورته على الخلافة العباسية ، وأرسل بابك يحرض الامبراطور على غزو الدوله الإسلاميه فزحف البيزنطيون إلى بلاد أرمينيه ثم أغاروا على حصن (زبطره) وخربوا المدينة تخريباً تاما ، عندئذ عول المعتصم على أن يفعل بعمورية ما فعله الرومان بزبطره . وكانت عمورية تعتبر مفتاح القسطنطينية فخرج المعتصم فى ثلاثة جيوش عبر بهم طرطوس واقتحم بهم أبواب قليقلية وكان هو على رأس جيش فى ٣٠ ألفا (عام ٨٣٧) فوصل عمورية بعد سبعة أيام ولم تلبث قواته بعد أن حاصرتها إثنى عشر يوما أن اقتحمت المدينة وأدالت منها وهى المعركة التى قال فيها أبو تمام قصيدته المشهورة . « السيف أصدق إنباء من الكتب » . كذلك جهز المعتصم أسطولا لغزو القسطنطينية فى أربعمائة سفينة .

ثم جاءت تلك المرحلة الذهبية : حينما أسس سيف الدولة مملكته فى حلب عام ٣٩٧هـ والتى دامت إلى ١٠٠٣ م فقد امتشق سيف الدولة حسام الإسلام فى وجه الروم إن أن توفى ٩٦٧ حيث تحول القتال الرئيسى بين الروم والمسلمين من جبهة أرمينية إلى خط قتال جديد امتد من قليقلية إلى ديار بكر ، وكانت الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة مجهولة على الفرات فوق سمساط . وظلت المعارك متصلة ، وكلما وجد الروم من أحوال الدولة الإسلامية ضعفا أو تفككا حاولوا اقتحام الحدود

الإسلامية والاندفاع فى أرض الشام ، بل أن بعضهم وصل إلى دمشق وطبرية حتى جاء ذلك النصر الحاسم الذى حققه المسلمون فى (ملاذ كرد) عام ١٠٧١م حيث استقر المسلمون فى أرمينيا نهائيا ، وتطلعوا إلى الرها وانطاكية . وكان أرسلان قد استولى على آنى الأرمينية عام ١٠٦٢ ودخلت جيوشه بلاد الروم من الشرق والجنوب عام ١٦٠٧ فاحتلت قليقلية وقيصرية . ومنذ [ملاذ كرد] دخل المسلمون آسيا الصغرى واستقروا فيها وكان ذلك مقدمة لفتح القسطنطينية من بعد . وكما كانت ملاذ كرد مقدمة للحروب الصليبية ، فقد كانت أوربا ترى فى الدول البيزنطية السياج الحاجز الذى يحول بين الإسلام وبين اقتحام أوربا فلما هزمت الروم فى هذه المعركة الفاصلة ، كان ذلك إيذانا بالتماس أسلوب آخر فى مقاومة الإسلام .

(٢)

الجولة الثانية على جبهة الاندلس

حاصر المسلمون أوربا من ناحية القسطنطينية وارتدوا عنها ، ولم يتوقف بعد ذلك الصراع بين أوربا وبين الدول الاسلامية على حدود الشمال ، ثم اقتحم المسلمون من أوربا من المغرب ، حيث أخذت طلائع الزحف الإسلامى تعبر مضيق جبل طارق إلى أوربا إلى شبه جزيرة ايبريا التى سرعان ما استسلمت للقوة الإسلامية التى سيطرت على أغلب أجزاء الأندلس إلا من جيوب قليلة كانت مصدر للانتقاض من بعد على الدولة الإسلامية . دخل المسلمون أوربا عام ٩٢ هجرية (٧١٠م) ومضى الفتح يوسع نطاقه حتى توقف ثمة بمعركة بلاط الشهداء ١١٤ هجرية (٧٣٢ م) ولكن لم يلبث أن امتد بصورة أو أخرى على شواطىء فرنسا وموانى إيطاليا دون أن يحقق السيطرة على أوربا . ولم تكن معركة بلاط الشهداء (تور وبواتية) التى انتصر منها كارل مارتل فى تقـــدير المؤرخين والباحثين ملى بعد إلا بمثابة تعويق للخطوة الحاسمة التى خطاها الاسلام لتحضير أوربا ومهما بدا فى فى أول الأمر من أنها عمل قومى فى مدافعة العرب الزاحفين غير أنه النظرة المنصفة قد كشفت عن أن ذلك العمل قد أوقف سعى الحضارة ، شهد بذلك : كاورد فارير ومارك سنوف وجيس بريسيه وهنرى دى شامبون وهم عن مختلف الأجناس الأوربية . يقول كاودفارير : لقد أناخت على الانسانية بعد التسعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ففى ٧٣٣م حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الانسانية فى القرون الوسطى وكان أن غمرت العالم الغربى مدة سبعة قرون أو ثمانية ، هذه هى معركة بواتية : برابرة المحاربين من الأفرنج بقيادة شارل مارتل ،

تخبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية ، قبل أن تظهر النهضة : هذه الكارثة هي النصر الماثل الذي أحرزته في بواتيه جماعات المركاس المتوحشين يقودها شارل مارتل على فرق من العرب ، في مثل هذا اليوم المشئوم تقهقرت أوربا ثمانمائة سنة ، وكان يمكن أن تصل إليه فرنسا لو أن الاسلام النشيط الحكم المازق الرحب المتسامح — إذ أن الاسلام هو هذا كله — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من قطائع لا نجد لها إسما » .

ويقول جيمس برستد : إن العصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوربا ، وإن انخذال المسلمين في أسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية . ويقول مارل ستنوف لو لم يوقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم ١١٠ هـ فإن الثقافة العالية التي امتاز بها من كان يدعوهم الصليبيون بالكفار والوثنيين إحتقاراً لهم كانت أثرت قبل الوقت في أوربا الغربية وفي المدينة الأفرنجية الرومانية .

ويقول هنري دي شامبون : لولا انتصار جيش شارل مارتن الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولو لا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت من وصمة محاكم التفتيش ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية الإنسانية ثمانية قرون » .

ولقد أقام الاسلام في أسبانيا (الأندلس) دولة باذخة ودخل الاسبانيون في دين الله أفوجا ، وامتد الاسلام من عام ٩٢ هجرية إلى سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ ، وفي خلال هذه القرون الثمانية واجه الاسلام والمسلمون حرباً لم تتوقف ثم تجمعت القوى الأوربية كلها لتعمل على تدمير هذا الكيان السامق الذي حمل لواء الحضارة والعلم إلى القارة الأوربية .

أما أن الأندلس الإسلامية هي التي قدمت إلى أوربا الحضارة والعلم فذلك أمر لم يعد مجال الاختلاف الآن . فقد صدرت عشرات الكتب الأوربية المنصفة التي قدرت هذا الفضل الذي ظل منكورا فترة طويلة ، فقد حمل المسلمون من أقصى الأرض إلى أقصاها علومهم وخبرتهم وتجربتهم فكانت جامعات الأندلس تحمل خلاصات العلم في أرقى مراحله ، ولذلك فإن مؤامرة اقتطاعها وأخراج أهلها المسلمين منها والسيطرة على هذا الميراث الضخم كان بمثابة أضخم مؤآمرة على الاسلام والمسلمين . فقد تجمعت أوربا البابوية بكل قوتها لتسحق هذا الكيان الاسلامي التي بلغ أرقى درجات المدنية والذي كان مناراً للغرب كله حيث لم تستطع عواصم فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو إيطاليا أن

تصل إلى مثل ذلك القدر من الرقى الحضارى أو العلمى حينما كانت الأندلس مؤمل العلماء والباحثين من كل أطراف أوربا .

لقد كان فتح أسبانيا مقدمة لتحضير أوربا كلها والوصول إلى دمشق عن طريق روما فالقسطنطينية وكانت فكرة موسى بن نصير أن يعبر — بعد السيطرة على الأندلس جبال البرانس — إلى فرنسا (أرض غاليا) ومنها يسير شرقا إلى فتح روما ثم إلى فتح القسطنطينية ، وظلت هذه الفكرة ماثلة فى نفوس خلفاء موسى بن نصير: السمح بن مالك الخولانى الذى غزا ولاية سبتمانية التى تطل على البحر المتوسط جنوب فرنسا ، فقد عبر جبال البرانس ونزل أرض غاليا (فرنسا) كما يحدثنا محمد عبد الله عنان منعطفا نحو الغرب حيث مجرى نهر الجارون . حتى وصل إلى (طولوشا) فحاصرها واستولى عليها ، وجاء من بعد عنبسة بن سليم الكلبي الذى سار على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون ففتح بذلك إقليم بروفانس واستمر فى السير على النهر شمالا مستوليا على ليون حتى وصل (أوتان) فى أعالى نهر الرون ثم جاء الغافقى الذى أعلن الجهاد فى سبيل الله فى الأندلس وفى أفريقيا ، فجاءه المتطوعون من كل مكان حتى تجمع لديه جيش كبير عبر به جبال البرنيه إلى أوبونه ثم إلى مجرى الجارون وواصل الزحف حتى وصل بوردو عند مصب النهر ثم اندفع شمالا فى السهل الواسع الذى يحده نهر اللوار وجنوبا نهر الجارون ، هنالك أحست أوربا أن الزحف الإسلامى كاد أن يحقق إنطلاقته الحقة ، ومن ثم تجمعت النجدات بقيادة شارل مارتل فى معركة تور وبوتيه المسماه (بلاط الشهداء) وكان المسلمون قد وصلوا إلى مسافة سبعين كيلوا مترا من باريس . قال جيبون : لو انتصر العرب فى تور وبواتيه لكان القرآن يتلى ويفسر اليوم فى اكسفورد وكمبردج . ولم يتوقف المسلمون بعد هزيمة بلاط الشهداء ١١٤ هـ الموافق ٧٣٢ م ولكنهم حاولوا مرة بعد مرة ، وعاد شارل مارتل مرة أخرى فطاردهم إلى حدود سبتمانة وانتزع منهم إقليم بروفانس ، أما سبتمانيه فقد انتزعها منهم شارلمان وبذلك لم يبق للعرب من أملاك فما رواء جبال البرانس .

وفى ذلك الوقت استولى المسلمون على سقلية عام ٨٢٧ م وجزر البليار ٩٠٢ م وقورسيقة وسردينية وأمنوا شرق البحر المتوسط وسيطروا عليه .

ومن ثم شهد البحر الأبيض نشاطاً بحريا إسلاميا فى المياه الايطالية وجنوب فرنسا حيث هاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخلوا سوبسرا ، واستولوا على أرليس ثم فتحوا افينون واقتحموا وادى نهر الرون حتى ليون وهاجموا إقليم روما ونابولى وأغاروا على نيس وفى خلال أربعين عاما

كانت بصماتهم واضحة فى مختلف هذه المناطق الساحلية وقد ظل جنوب إيطاليا بأيدى المسلمين الذين أقاموا فى أمارة بارى حتى عام ٨٨٦م . وتجول الأسطول الاسلامى من خليج نابولى إلى خليج سالرنو ، هذه الجولة على البحر المتوسط من (٦٥٢ إلى إلى ٩١٦) م يصورها ول ديورانت يقول : أدرك زعماء الاسلام بعد فتح الشام ومصر أن ليس فى مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العمائر البيزنطية ثم احتلوا قورسة وسردينة واقريطش (كريت ومالطة) وبدأ عام ٧٨٢ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية فأرسل الأغالبة أمراء القيروان الحملة تلوا الحملة وتقدموا إلى فتحها فسقطت الروم ومسينا وسرقوسة وتارمينا ، وأصبح للمسلمين السيادة على البحر المتوسط(من ٦٥٢ إلى ٩١٦) وأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة فى جنوبى شرق إيطاليا حيث شرعت أساطيل المسلمين ومعظمها من تونس وصقلية تهاجم الثغور الايطالية فى القرن التاسع الميلادى فاستولى المسلمون عام ٨٤١ على (بارى) القاعده البيزنطية الكبرى فى الجنوب الشرقى من إيطاليا ، وفى العام التالى انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا وفى عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتان من المسلمين فى استيا وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار روما وبذل العرب ٧٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على العاصمة المسيحية فى الغرب فقاتلهم الأسطول الايطالى المتحد وهزمهم، ولكن غاراتهم لم تنقطع وظلت إيطاليا الوسطى فى أيديهم جيلا من الزمان فأغاروا ٨٧٦ وهدموا واضطر البابا أن يؤدى لهم جزية سنوية ٢٥ ألف منقوص : حتى هزم العرب على نهر كرجليانو عام ٩١٦ وانتهى بذلك عصر الفتوح الاسلامية فى إيطاليا وهو العهد الذى دام مائة عام كادت فيها أن تصبح ملكا للعرب ولو أن روما سقطت فى قبضتهم لزحفوا على البندقية ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان اسلاميتان عظيمتان وبعد فقد كان مسرح الحوادث خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر الاسلام حافلا بالأحداث فإننا نجد أن الحكم الاسلامى قد استقر فى الأندلس ، بينما كانت جبهة البحر المتوسط تواجه هذا الصراع الشديد ، وقد مضى الاسلام يسيطر على أطراف الدول الرومانية وإن لم يتمكن بعد من الوصول إلى القسطنطينية حتى جاء القرن الخامس الهجرى الحافل بثلاث من أعظم الأحداث حيث بدأت الثغرة الأندلسية تتسع فتسقط قرطبة فى أيدى الفرنجة ، وحيث جاءت ملاذ كرد هادمة لآخر حصون الدول البيزنطية ومقدمة لما وقع بعد عشرين سنة من تحرك جموع بطرس الناسك إلى عالم الاسلام .

(٣)

اوربا قبل اقتحام الإسلام لها

كانت أوربا فى أول أمرها وثنية وكانت اليونان موئل الفلسفة الهيلينية قبل المسيحية بستة قرون هذه الفلسفة التى برزت فى عصور موالية وتبلورت فى رجالها الثلاث : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان هذا الفكر كله من نتاج المشرق ثم تشكل بصورة جديدة فى أرض يونان ولم يكن هذا الفكر بعيداً عن ميراث النبوة وتراث الأديان الحنيفية منذ دين ابراهيم وما عرفت بابل واليهودية وتراث المجوسية : ذلك الركام المضطرب الذى اختلط فيه وحى السماء بالفكر البشرى. وقد ورثت الدولة الرومانية هذا الفكر اليونانى الهلينى الذى هو تراث أوربا الذى ما زال ممتداً خلال الامبراطوريه الرومانية والذى جددته أوربا فى عصر النهضة وعبرت عن أنها امتداد له وما تزال تؤمن بذلك حتى اليوم ، هذا التراث الذى يقوم على الوثنية وعبادة الفرد قامت عليه الحضارة الرومانية التى عمرت أكثر من ألف عام التى سيطرت على سواحل البحر الأبيض وكانت الشام ومصر بلاد المغرب كلها تحت سلطان الرومان ، وقد ضمت الامبراطورية الرومانية جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور ترجان ٩٨ — ١١٧ بعد الميلاد فقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غربا حتى الفرات شرقا فشملت فى الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وليبريا وإيطاليا فضـــلا عن شمال أفريقيا من المحيط الأطلسى حتى طرابلس وشمل الجزء الشرقى من الامبراطورية : البلقان وآسيا الصغرى وأعالى بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقة . وقد امتد نفوذها الفكرى إلى ماوراء حدودها السياسية واستوعبت شعوبا عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونان .

وقد عاشت الامبراطورية الرومانية حتى عام ٤٧٦ بعد المسيح وقاومت المسيحية طويلا بعد ظهورها حتى اعتنقها دينا رسميا للدولة عام بزعامة ٣٢٥ قسطنطين الذى وضع حدا للاضطهاد الذى عانته المسيحية منذ عبرت إلى الدولة الرومانية . ولقـــد بدأت أوربا تدخل المسيحية بعد هذا التاريخ واستمرت حركة التنصر خلال القرون الثالث والرابع والخامس والسادس حتى ظهر الإسلام وعبر إلى الأندلس وفى الوقت الذى كانت أسبانيا تدخل فى الاسلام كانت هناك أجزاء من أوربا ما تزال تدخل فى المسيحية ، فقد بقيت أمم شرق أوربا إلى القرن العاشر حتى تنصرت . يقول توينبي : أن الأمم الأوربية تنصرت فى القرن الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك فى غفوتها طوال

عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الاسلام بمعتنقيه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الأول للهجرة فلم يكن الاسلام سبب تأخر المسلمين ولم تكن المسيحية سبب تقدم أوربا فقد كانت الأمم الأوربية مثل الاغريق والرومان من أرقى أمم الأرض قبل اعتناق المسيحية . ولقد عاشت الامبراطورية الرومانية ثلاثة عشر قرناً حتى استولى القوط الغربيون عليها عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم البيروليون الذين قوضوا أركان الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦. ولقد كان دخول المسيحية إلى أوربا بعد عبورها من المشرق مقدمة مرحلة جد خطيرة من تاريخها ، لقد اضطرت أن تنصهر فى إطار الدولة الرومانية ولم تستطيع أن تنشىء مجتمعا جديداً ، واضطرت أن تقبل من أديان الوثنية وعقائدها ما يمكنها من البقاء حتى صدق عنها قول توينبي : أنها كانت تركيبا متألفا جسورا للاهوت اليهودى والفلسفة الاغريقية .

ثم كان « الفكر الغربى » بعد دخول المسيحية ، تركيبا من الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى واللاهوت المسيحى ولكن الأمر الذى هو موضع التقدير: أن المسيحية نقلت أوربا من الوثنية ومن العبودية ومن الاستعلاء والظلم والقتل والقسوة ـ فترة من الزمن ـ إلى معرفة الله وإلى الرحمة وإلى السماحة غير أن هذا التحول لم يلبث أن تطور إلى طابع من طوابع الزهد والاعتكاف فى الصوامع والرهبانية والانصراف عن الحياة والعزلة عن الحركة على نحو فلسفى قاس يكره المرأة ويحتقرها ويرفض العمل والانصال بالناس ، وقد ظل هذا الطابع يحكم الغرب حتى عبر الاسلام إليها فألقى إلى الفكر الغربى مفاهيم المسئولية الفردية والعمل والتجريب والتحرر من الوساطة بين الله والانسان ورفض صكوك الغفران وعبادة الصور .

ولاريب أن هذا التحول من الوثنية اليونانية إلى اللاهوت المسيحى ، كان خطوة واسعة وعميقة نحو التحول الخطير الذى أحدثه الاسلام الذى قبلت أوربا فكره ونتاجه وتحفظت إزاء عقيدته هذا الأمر الذى كان بعيد الأثر فى نشوء الحضارة الغربية الحديثة التى قامت أساسا على التجريب الاسلامى ولذلك فإن رأى جيبون لم يكن يمثل النظرة المنصفة أو الصادقة .

وإنما يمثل النظرة المتعصبة ، حين يقول أن المسيحية كانت المعول الهدام لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية «للامبراطورية الرومانية» وأن اعتناق قسطنطين المسيحية قد عجل بانحطاط الامبراطورية وإن كان قد اعترف بعد بان دين قسطنطين المتنصر قد عمل على تهذيب وحشية الفاتحين . ولا ريب أن المسيحية كانت عاملا هاما فى تهذيب شعوب أوربا وكانت قاضية على قدسية

الامبراطور ، وطريقاً إلى زلزلة عرش العبودية والنظام العبودى غير أن المسيحية لم تستطع أن تحرر المجتمع الأوربى تحريراً كاملاً لأن الصورة التى انتقلت بها إلى الغرب لم تكن صادقة أو سليمة ، وإنما كانت خاضعة لتفسيرات لم تستوعب حقيقة الدين المنزل ، فضلا عن سيطرة مفاهيم الأديان الوثنية الموجودة فى البيئة الرومانية بعد تسربها إليها وقبول الدعاة لها رغبة فى كسب الجماهير الوثنية بتقديم مفهوم قريب من اعتقاداتهم ولو أن المسيحية المنزلة عبرت إلى أوربا صحيحة لكانت تمهيداً طبيعياً لاعتناق أوربا للاسلام : عقيدة ونظاماً .

يقول جيبون : أن تعاليم المسيحية (التى يرى أنها كانت عاملا على سقوط الأمبراطورية الرومانية) كانت مثبطة للهمم الاقتصادية بدعوتها إلى الكفاف أو الرزق اليومى فى أبسط أشكاله ، ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات » والحق أن هذه المفاهيم من الكفاف والرهبانية لم تكن من أصول المسيحية المنزلة فضلا عن هذا التطاحن الذى لم يكن من أصول الدين : أى دين . وهناك إجماع على أن الفضل يرجع للمسيحية فى تهذيب بربرية أوربا .

والحق أن أوربا قد عاشت صراعا شديداً بين الامبراطورية الرومانية والفكر الهلينى من جهة وبين المسيحية من جهة أخرى ويقدم لنا (ول ديورانت) هذه الصورة لهذه المرحلة :

« إن إدخال المسيحية أو على الأقل إساءة إستعمالها كان له بعض التأثير فى انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فقد نجح رجال الاكليروس فى التبشير بأنها تدعو إلى الصبر وإيثار الجبن والواقع أنها لم تشجع الفضائل التى تبعث على النشاط فى المجتمع ، ودفنت بقايا الروح الحربية فى الأديرة وإلى جانب كبير من الثروة العامة والخاصة التى اوقفت لمطالب البر والورع المموهة وكانت رواتب الجند توزع فى إسراف على جماهير من الرجال والنساء لاخير فيهم وليس فى استطاعتهم سوى أن يبشروا بمزايا الزهد والتقشف وفضائل العفة والطهارة والإيمان والحماسة والفضول ، وكذلك فإن نوازع الحقد والضغينة أشعلت نيران الخلاف اللاهوتى وشغلت الكنيسة بل الدولة بالخلافات الدينية التى كان النزاع حولها فى بعض الأحيان دموياً ودائما لا تهدأ حدته » . لا ريب أن أوربا سقطت خلال هذه الفترة فى مرحلة الزهادة والأديرة ، التى كانت بعيدة الأثر فى جمود المجتمع الغربى وفساده حتى جاء الإسلام فحرر أوربا من هذا التحدى الخطير . أما الأمبراطورية الرومانية فإنها سقطت بعامل التحلل والترف وبواعث الرخاوة والتخنث التى كانت السبب المباشر الذى أعجز أهل روما عن صد غارات القبائل الهمجية على حدود دولتهم كما يعبر عن ذلك المؤرخ جيبون حين يقول :

إن الترف والتخنث الذى تبعه ما شبب سقوط الأمبراطورية ، وذلك أن الفساد الذى نشأ فى البلاط وشاع فى المدن نفث السموم فى معسكرات الفيالق مما أوجد عدم القدرة على الثبات فى مواجهة الشدائد التى أصابت الفيالق الرومانية التى كان تفشى الترف فيها هو السبب المبـــاشر فى تدهور الأمبراطورية وسقوطها « هذا بالإضـافة إلى فقدان العدالة فى توزيع الضرائب الضيق الذى عاناه الشعب من جراء قسوة الأغنياء والمياسير » والإمراء ـ أن هذه هى علامات سقوط والأمم والحضارات ولـكن المسيحية — التى تحولت إلى دين عالمى لم يكن ذلك من خصائصه — عجزت عن إعطاء أوربا مفهوما كاملا سواء فى العقيدة أو العلم أو المعرفة لأنها كانت فى أصلها الأصيل دينا مكملا لرسالة موسى وخاصا ببنى اسرائيل ، وهى بالجانب الأخلاقى فيها — وحدة — استطاعت أن تعلم القبائل الهمجية العدالة والرحمة والصدق والعدالة على حـد قول جيبون ، ولـكنها عجزت أن تحـول دون سقوط أوربا فى هذه الزهادة والرهبانية والإقامة فى الأديرة واعتزال الحياة وقد امتدت هـذه الفترة حتى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ولم يخرج أوربا من هذه التجربة الخطيرة إلا الإسلام الذى آذن بدعوته إلى تحرير إرادة الفرد ، والدعوة إلى العمل ، والتجريب الذى كان الإسلام رائد منهجه إلى البشرية كلها .

ولقد كان سقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب عام ٤٨٦ مقدمة لسيطرة المسيحية ، التى لم تلبث أن أقامت فى روما كنيستها الـكاثولـكية الـكبرى التى حكمت أوربا حتى عصر النهضة وكانت حاملة لواء الحرب العنيفة المقدسة التى شنتها على الإسلام فى جناحيها الأول ممتدا إلى الأندلس لاجلاء الإسلام منها ، والثانى الممتد إلى الشام بالغزو الذى قادته الحروب الصليبية مدى قرنين كاملين . فقد كـانت البابوية الرومية هى التى تحمل لواء هذه المعركة الممتدة شرق البحر المتوسط وغربه .

لقد انتقلت القيادة من قصور الأباطرة السياسية إلى أروقـــة اللاتران (الـكنيسة) إذ غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية فى إيطاليا ، كما سيطرت الـكنيسة على مختلف نواحى الثقافة مما كان له أعمق الأثر فى حياة المجتمع الأوربى ، ومن ثم بدأ بدأت مرحلة (العصور الوسطى) المظلمة فى غرب أوربا وقـد حددها المؤرخون بالفترة الواقعة بين ذلك العام (٤٨٦م) وبين نهاية القرن التاسع الميلادى ومطالع القرن العاشر .

وقد أخذت المسيحية تشق طريقها فى العالم الهلينى لتقيم نظاما اجتماعياً ونفسياً مخالفا لمـا كانت عليه الحضارة الهلينية والرومانية : كانت الديانة الهلينية تؤمن بتعدد الإلهية فاذا بالمسيحية تدعو إلى

فكرة جديده قوامها التثليث والخطيئة والصلب التى ستكون بعد من أكبر التحديات فى وجه الفكر الأوربى ، يقول توينبى : أنه بالرغم من أن المسيحية قد اكسبت الهلينية سحراً طاغيا كان كفيلا بأن يأسر النفوس الهلينية ، فإنه لم يكن فى وسع المسيحية ذاتها بعد حملة تشق طريقها فى العالم لو لم تتخذ لنفسها «ثيابا هلينية» مثلما فعلت الديانات التى قصدت لمنافستها ، وهذا اعتراف من المؤرخ الكبير بأن المسيحية اعتمدت تفسيرات من خارج أصولها الأولى .

ومن الحق أن هذه الأفكار الثلاثة التى بثتها المسيحية الغربيـــة وهى [التثليث والخطيئة والصلب] كانت تحفل بها الأديان البشرية العديدة التى تملأ العالم إذ ذاك وخاصة الديانة الهندوكية والديانة الهندية التى كانت تعيش فى قلب أوربا . كانت اليهودية قد تأثرت بالديانات البشرية البابلية وغيرها كما تأثرت المسيحية بالهلينية وسيطرت عليها الفلسفة اليونانية مما تشكل بعد من خليط عجيب باسم (الأفلاطونية الحديثة) التى شارك فيها اليهود والمسيحيون متأثرين بأرسطو وأفلاطون . ولعل الأمر الوحيد الذى استطاعت المسيحية أن تحول أوربا عنه هو فكرة عبادة القيصر ، وكان الهلينيون يؤلهونه : أما المسيحية فقد أقنعت الهلينيون أنه ليس فى استطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويفلت من القصاص ولكن المسيحية لم تستطع أن تتحرر تماما من عبادة الإنسان حين أقامت قاعدة التثليث وجعلت للسيد المسيح رسول الله الإنسان جانبا الهيا يعبد .

وقد ظل طابع الفكر الهلينى مسيطراً على المسيحيـــة التى حاولت التعايش مع مجتمع الحضارة الرومانية ولذلك فإن أوربا لم تنتقل نقلة واسعة بعد أن تمسحت لأن القانون الرومانى ومفاهيم الثقافة والاجتماع الهلينية ظلت مسيطرة ، لقد صارعت المسيحية الوثنية ثلاثمائة سنة تقريبا حتى استقرت ولكنها لم تكن إلا مفهوما مغايراً للمسيحية وخليطا مضطربا ، لم يستطع أن يقضى على الوثنية أو العبودية الرومانية قضاءاً نهائيا ومن ثم لم تعد المسيحية إلا عنصراً من عناصر ثلاث ، وقد عاشت المسيحية مرحلة مضطربة قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام وعبر إلى أوربا من الشرق ومن الغرب وآثار ثائرات كثيرة فى نفس الوقت الذى كانت أوربا تمتشق الحسام لتحول بين الإسلام وبين السيطرة على الغرب كان الفكر الاسلامى يؤثر ويغير فى أعماق فكرها ومجتمعها فإنه ما كادت أمم الغرب المسيحية تستعيد طليطلة الاسلامية عام ١٠٨٥م حتى أخذت تستوعب الفكر الاسلامى وتنصهر فيه فقد بدأت ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة القشتالية ومنها إلى الانجليزية والفرنسية واستمرت زهاء قرن كامل ، وعنيت بالدرجة الأولى بمؤلفات العرب فى الطب والفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة ،

وقد قامت هذه الحركة فى طليطلة تحت إشراف الأسقف (ريمون) وجاءت وفود من روما ومنهم جيرا الكريمونى الايطالى الذى لمع اسمه فى روما ١١٤٩م ويعد الأب الحقيقى للحركة العربية فى أوربا فقد ترجم أكثر من سبعين مؤلفا عربيا وقد استمرت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية واللاتينية قائمة فى أسبانيا إلى أن سقطت غرناطه فى يد المسيحية عام ١٤٩٢ وبسقوطها طرد العرب نهائيا من أسبانيا وأرغم من بقى على التنصر وقد لقى التراث الاسلامى اضطهاداً بالغا من بعد أن حجزت كتب الطب والعلوم أضرمت النيران فى كتب المسلمين ولم يعد الغربيون يذكرون المسلمين بأى فضل أو أثر . وكان هذا التراث الاسلامى هو الذى هز أوربا من أعماقها ودك معاقل الوثنية الرومانية والرهبانية المسيحية وفتح الطريق تماما أمام ما يسمى بعصر النهضة . يقول ول ديورانت : أحدثت هذه التراجم كلها فى أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر كما أحدثت تطورات خطيرة فى النحو وفقه اللغة ووسعت نطاق المناهج الدراسية وأسهمت بنصيب فى إنشاء الجامعات . وكان عجز المترجمين أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدى المعانى التى يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذى أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية ، هذا وقد أدخل المسلمون إلى أوربا أخطر ثلاث ركائز كبرى للحضارة : (١) الجبر (٢) علامة الصفر (٣) النظام العشرى فى الحساب هذا إلى علوم الطب .

(٤)

اوربا فى الإسلام

وقفت أوربا ممثلة فى الكنيسة المسيحية موقفا صارما عنيداً وركزت تركيزاً شديداً على مقاومة وجود الاسلام وذلك بالمقاومة والعدوان عن طريق الحدود البيزنطية الاسلامية من ناحيه والوجود الاسلامى فى أسبانيا وظلت أوربا تحس بالأثر العميق الذى تركه استيلاء الاسلام على المناطق العربية التى سيطرت الدول الرومانية عليها أمداً طويلا ، ثم ظلت أوربا المسيحية تنظر بحذر إلى نمو الاسلام وتستشعر الخطر فى داخل الفكر الغربى نفسه ، يقول توينبي : «عندما كانت حضارة الغرب تنحدر إلى الهاوية فى القرن السابع المسيحى ظهرت الحضارة الاسلامية الفتية ، أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخطر الجديد وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الاسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المادة لا ينفع فى دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية » ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى قادتها البابوية ودعت إليها ملوك أوربا لمؤازرتها فى مواجهة الاسلام وصده عن أوربا ،

أولا بالقضاء على وجوده فى أسبانيا وفى نفس الوقت باقتحام حدوده من دولة بيزنطية كرة بعد أخرى، ثم بإعلان الحروب الصليبية . ولقد كانت البابوية من الناحية الرسمية هى التى تنطق بلسان الدين المسيحى وكانت للكنائس والأديرة أملاك ضخمة واسعة ، وكان عدد من الأساقفة ينحدرون من أسر النبلاء فكان يديرون أملاك الكنائس على النمط الذى يدير به أمراء الإقطاع اقطاعاتهم . كان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جامعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم ويتسلمون منه قطائعهم وكان أخطر رجال البابوية جريجوار السابع والبابا أوربان الثانى والأول دوره الخطير فى تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوربا على اختلاف أقطارها وكان لها آثارها البعيدة فى حياة أسبانيا الإسلامية ، أما الثانى فكان له الدور الأول فى إنتقال الحروب الصليبية إلى شواطىء البحر المتوسط من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وهذا الدور وحده يمثل أصدق تمثيل النفوذ السياسى للكنيسة داخل الحياة الأوروبية ذاتها . وقد كان للبابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية ١٧٠٣ م نفوذه الخطير حتى قيل : إن انتصار البابوية قد تجاوز كل تصور ، لقد بدت الكنيسة وكأنها الحاكمة بأمرها فى الدنيا . ومن قبل جريجوار السابع كانت خطة حرب الإسلام فى الأندلس قد تم إقرارها ففى عهد البابا اسكندر الثانى ١٠٦٣ إندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة من النورمانديين إلى أسبانيا وانتزعوا (حصن بربشير) من أيدى المسلمين بعد مذبحة هائلة . أما جريجوار فقد تجاوز التعضيد إلى الدعوة الصريحة يوجهها البابا نفسه إلى الأمراء يحضهم على المشاركة فى الحرب المقدسة ويعلن مقدما سيادتهم على الأراضى التى ينتزعونها من المسلمين وقد كان من ثمرة ذلك سقوط مدينة طليلة (٦ مايو ١٠٨٥) بعد حصار عامين وهو الحدث الذى كان مقدمة لتصفية الأندلس : الفردوس الإسلامى . فى القرن العاشر المسيحى والإسلام ما يزال غضا لم يكمل العقد الخامس بعد ، مدت أوربا كلتا يديها بالعدوان على الإسلام فى قرطبة بأرض الأندلس وفى الحروب الصليبية على جبهة المشرق ١٠٩٦ . وقد تناول كثير من الباحثين موقف البابوية من مجتمع الغرب الأوربى حيث يقول مؤلف تراث العصور الوسطى (كويب — جاكوب) أن البابوية بلغت أوج سلطانها فى زمن البابا أنوسنت الثالث الرومانى للعتز برومانيته العريقة ، الذى رفع شأن البابوية وسلطانها إلى أعلى عليين ، إذ فرض الكنيسة الرومانية فرضا على القسطنطينية وكنيستها الأرثوذكسية وأنزل الحرمان الدينى بانجلترا وفرنسا وبدأ أعظم الحروب الصليبية الأسبانية نجاحا ضد دولة المسلمين وعمل على إثارة ملوك أوربا لمساعدة الفونس الثامن ملك قشتالة فى حملة صليبية أووربية ضد الموحدين أصحاب أسبانيا الإسلامية ، هذه الحملة الصليبية التى انتهت بهزيمة الموحدين

فى موقعة لاس نافاس دى تولوز عام ١٢١٢ م وبذلك خضعت الملكية فى أوربا البابوية، وحيث أصدر قراراً بحرمان البارونات من رحمة الكنيسة وأخذ يعين الأباطرة ويعزلهم وفقاً لشروط ملائمة للكنيسة وقد وصفت بابوية أنوسنت الثالث بأنها ثيوقراطية استبدادية ، وذلك لاعتقاده الحرفى بأن البابوية خليفة المسيح فى الأرض وأن البابا ملك فى الأرض وأن البابا ممالك فى أمور الدين والدنيا وله السلطة المطلقة فى كل شىء ومن حقه أن يكون اختيار الأباطرة وقفا على مشيئته . كذلك فإن البابوية أعلنت حرباً بمساعدة ملك فرنسا ضد إيطاليا وأسبانيا عام ١٢٨٢ هذه الحرب حرمتها عن مواصلة الحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة وأعاقت مشروع تحالفها العسكرى مع المغول للأطباق على العالم الإسلامى من أجل تخليص الدولة الصليبية وقد كان لانشغال البابوية فى معمعة السياسة الأوربية المصارعة فى إيطاليا أثر كبير فى إنهيار الدولة الصليبية نهائياً ١٢٩١ وقال اللورد اكتون أن البابوات فى القرنين ١٣ ، ١٥ وصنعوا نظاما للاضطهاد المنظم ، هذا الاضطهاد وهو أبرز الوقائع البابوية فى العصر الوسيط وأنه لا يمكن تجاهل الشدة ووجود حجرة التعذيب والقائمة التى يشدإليها من يحرقونه . لقد اكتسبت أوربا عنفها من ميراثها الرومانى القديم الذى جاءت المسيحية لتزيله فكانت فى نشرها المسيحية كذلك عنيفة مدمرة وكانت فى صراعها بين الفرق قاسية دموية ، فقد كان الملوك يسوقون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس إلى مذاهبهم بالقوة ، وتروى فى ذلك قصص عديدة منها ما حدث فى فرنسا على يد البارون (سيمون رى مونفور) الذى توجه بأذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسية ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج روك لاستئصال الديانة المجوسيه فأغرقوا الإقليم كله فى أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس ، أين هذا من سماحة الإسلام الذى لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، ويفسر هذا الإتجاه الأوربى بعد المسيحية ما ذهب إليه القاضى عبد الجبار حين قال : ما تنصر الروم ولكن النصارى ترومو ا » إذ بدأت فى روما نصرانية لا يعرفها السيد المسيح وهى التى تولد عنها من بعد صكوك الغفران وكرسى الاعتراف، أما بالنسبةللإسلامفقد كان الموقف عنيفاً. فمنذ أن توحدتأوربا أوإنضم جزء كبير منها تحت قيادة شارلمان عام ٨٠٠ ميلادية أعدت أوربا لتكون قلعة صليبية تمنع انتشار الإسلام يقول برناردشو: لقد عمد رجال الاكليروس فى العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام فى أحلك الألوان ، والواقع أنهم يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصما للمسيح ، أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الانسانيه وأعتقد أن رجلا مثله لو تولى زعامه العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته » . والواقع أن أوربا لم تقبل مزاحمه الاسلام لها وهى التى وضعت قاعدة لم تتخلف قوامها أن على المسلمين أن ينتهوا من أوربا بالهجرة أو بالتنصير أو بالإبادة .

(٢)

كانت غلطة للمسلمين أن تركوا تلك الثغرة الواقعة فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة والتى تعرف باسم (إقليم جليقية) دون السيطرة عليها ، يقول ول ديورانت : أن العرب لم تطمع فى امتلاك هذا الإقليم لفقره وبرده فانحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين ونمت فيه بذرة الدولة الأسبانية التى ما تزال باقية حتى الآن « وقد ظلوا يترقبون الفرص لتوسيع رقعتهم فلما كانت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبينهم وبين البربر ؛ انتهز هؤلاء النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويره واحتلوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم وأصبحت مملكتها تسمى مملكة ليون ، وظل أمرها على هذا الحال وهى تتسع رويداً رويداً فى المنطقة التى خلت بنزوح البربر إلى الجنوب أو عودتهم إلى أفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب حتى إذا ما وصلوا إلى عصر ملكهم الفونسو الثالث نجد هذه الإمارة تحتـــل مدينة سموره ، وقد أصبحت حصن إمارة ليون للواجهة المسلمين عند غزوهم لبلاد النصارى وقد هاجمها المسلمون وخربوها مراراً حتى سميت (سمورة الخراب) أما من ناحية الشرق ونعنى به الممالك النصرانية التى قامت وظهر أمرها فيما يلى الثغر الأندلسى الأعلى فيما بين نهر أبرو تهراته وجبال البرانس . فقد نشأت كلها فى الجبال نظراً لاشتداد الخطر العربى من الجنوب ومن الجبال امتدت فى البسائط شمالها وجنوبها أى أن جبهتها الشمالية كانت متاخمة (لأوربا النصرانية) وجبهتها الجنوبية متاخمة (لأسبانيا الإسلامية) وهذا الاتصال بين الإمارات النصرانى جعلها أقرب إلى تيار الحضارة كما جعلها على صلة بالبابوية والعلم الكاثوليكى وقد ظلت هذه الممالك تتقدم فى أرض الأندلس » . ومنذ سقوط الخلافة الأموية وقيام عصر ملوك الطوائف استجمع نصارى الشمال قوتهم للوثوب حيث وحد الأذفونس (الفونسو السادس) تحت أمرته (استوريا — ليون ، قشتالة) وقد ظل يستولى على الحصون والقلاع واحداً أثر الآخر حتى وثب وثبة حاسمة استولى بها على طليطلة الإسلامية عام ٤٧٧هـ ١٠٨٥م . وبينما كانت البابوية تغذى هذه المؤامرة فى أسبانيا الإسلامية كانت تغذى مؤامرة أخرى على سواحل الشام ، حيث بدأ عصر الحروب الصليبية التى توالت على المشرق الإسلامى خلال قرنين كاملين . سقطت (طليطلة) عام ٤٧٨هـ واقتحم الصليبيون القدس ٤٩٣هـ وبينهما خمسة عشر عاما وكان ذلك بداية عصر من التحدى الخطير قوامه الصراع بين الاسلام وأوربا المسيحيـة على كل من الجهتين فى وقت واحد . حيث بدأت فى أسبانيا ما أطلق عليه حركة الاسترداد Reconquista التى امتدت إلى سقوط

غرناطة ٨٩٨هـ ١٤٩٢م . وكانت موازية لها فى الشرق الحروب الصليبية التى انتهت ٦٩٠هـ ١٢٩١م بالهزيمة الساحقة للغرب بينما جلى آخر مسلم عن الأندلس إلى المغرب بعد ذلك بقليل . وكان هذا مقدمة لما بعده ، فقد سيطر العثمانيون واستطاعوا أن يحتلوا القسطنطينية قبل سقوط غرناطة بقليل عام ٨٥٧هـ ١٢٥٤م وأن يزحفوا ليحموا البحر الأبيض المتوسط من المتوسط من الغزو المعاكس الذى بدأته البرتغال وأسبانيا بعد اجلاء المسلمين عن الأندلس والذى استمر ثلاثمائة عام تقريباً على جبهة (الجزائر تونس . المغرب) والذى أطلق عليه حرب الثلاثمائة عام والذى لم يلبث أن تحول إلى الاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة للاحتلال الأوربى لمصر وتونس والسودان وغيرها بعد أن كانت هولندا وبريطانيا قد سيطرتا على جزر الملايو والهند قبل ذلك وهكذا نجد أن المعركة لم تتوقف ، وأن أوربا منذ ظهور الاسلام وهى تحتشد لمقاومته فى أوربا ثم هى لا تلبث أن تندفع وراء الاسلام إلى أرضه لتطوقه وتشدد الحصار ثم تسيطر عليه مما لا تزال إثارة قائمة إلى الآن .

(٥)

اجنحة المعركة : من الاندلس إلى الشام

(على جبهة الاندلس)

بدأت المعارك على الجبهتين : جبهة الأندلس وجبهة فى الشام فى وقت واحد . أما فى جبهة الأندلس فقد سقطت طيطلة الاسلامية فى يد القوط ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) بعد ثلاثة قرون إلا قليلا . فكانت نذيراً للوجود الاسلامى كله فى الأندلس بالمؤامرة عليه ، مما دفع ملوك الطوائف إلى الاستنجاد بمسلمى المغرب حيث عبر يوسف تاشفين إلى الأندلس وهاجم الفرنجة فى معركة (الزلاقة) الحاسمة التى كبدت الفرنجة خسارة فادحة وكتبت للأندلس عمراً جديداً امتد نحو قرنين من الزمان ويقول ول ديورانت : كانت غارات المسلمين على أسبانيا عام ٧١١هـ قد دفعت من لم يغلبوا من القوط والسويفى والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحى والكات من سكان شبة الجزيرة إلى جبال الكنبتريان فى الشمال الغربى من أسبانيا وطاردهم المسلمون فى هذه الجبال ولكن قوة صغيرة هزمتهم عند (كفاذ نجا) ٧١٨هـ وأسست المملكة الأسبانية وعلى أثر هزيمة المسلمين فى (تور) امتدت الحدود من استوريا إلى جليقية ولوزيتانيا وبسكايا ثم ضمت ليون . وإلى شرق استوريا ، وفى جنوب جبال البرانس مباشرة تقع (نبره) وقد أفادتهم جبالهم منعة فى حماية استقلالهم من المسلمين والفرنجة

والأسبان . وفى الفترة ما بين ٩٩٤ / ١٠٣٥م استولى ملك (نبره) على ليون وقشتالة وأرغونة حيث قامت مملكة أرغونة التى استطاعت أن تدفع المسلمين إلى الجنوب وقد سميت قشتالة نسبة إلى قلعتها (كاستل) التى كانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضى حياتها فى التأهب للحرب ، ثم كان سقوط خلافة قرطبة ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها الفونسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك اشبيله ١٠٨٥ واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين معاملة سيئة . يقول : كان القتال بين الممالك المسيحية فى الشمال والدولة الإسلامية فى الجنوب إلى أن ظهرت مملكة قشتالة التى خلقت أسبانيا خلقا فاضطلعت بالحرب وخاصة فى القرن الثانى عشر كما اضطلعت بتوحيد أسبانيا بعد ذلك فى القرن الخامس .

هذه المملكة المسيحية الصغيرة التى لم تمت ، والتى نمت خلال فترة لا تزيد على قرنين والتى حملت لواء الغزو ضد المملكة الإسلامية الأسبانية وكان دورها فى سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الدام على الإسلام،هذا الخطر الذى أحس به ملوك الطوائف . وتقابل هذه الفترةمرحلة تركزت فيها الجهود للقضاء على الوجود الإسلامى فى الأندلس هى فترةالحملات الصليبية المتوالية على بيت المقدس وسواحل الشام ومصر . وفى العام التالى مباشرة لسقوط طليطلة (وفى ١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ) عبر يوسف تاشفين قائد المرابطين وحاكم المغرب إلى الأندلس فى جيش ضخم فنزل بأرض الجزيرة الخضراء ، قرب مدينة بطليوس فى بسيط فسيح بالزلاقة حيث اشتبك فى واحدة من أعظم المواقع الفاصلة التى جرت بين المسلمين والأسبان قتل فيها معظم جيش العدو ويقدر بمائة ألف شخص وكسرت شوكة الأسبان . وكان الأسبان قد أجمعوا أمرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأندلسية بعد أن تمزقت وحدة الحكم فيها وظهر ضعف ملوك الطوائف وكانت المعركة فى١١رجب ٤٧٩ (٢٣ أكتوبر١٠٨٦) حيث سلم الملوك على يوسف بن تاشفين باسم أمير الملوك الذى كر عائداً إلى مراكش تاركا لهم الغنائم وفى ٤٨٠هـ جاز إلى الأندلس جوازه الثانى برسم الجهاد حيث حاصر حصن لبط ملبيا نداء استنجاد أهل بلنسيه ومرسيه ولورقة وبسطه ، وترك جيشاً لحماية الثغور ومطاردة العدو ، ثم جاز الأندلس جوازه الثالث ٤٨٣هـ حيث نازل طليطلة فحاصرها والفونس بها فهتكها وقطع ثمارها وخرب ناحيتها إنتقاما لما فعله جيش الفونس بالمسلمين . وفى هذه المرة لم يأته أحد من ملوك الأندلس ، فلما شفى نفسه من طليطلة سار إلى غرناطة وكان صاحبها قد ظاهر الفونس فأخذها من يده ، وهى مالقة . ولم يلبث أن صفى ممالك الطوائف . بعد أن رد أسباب الخذلان والهزيمة إلى حياة اللهو والاستهتار التى كان يحياها ملوك الطوائف ، قال ابن خلدون : توافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير

المسلمين فساء نظرهم فيهم وافتاه الفقهاء وأهل الشورى بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم . وتابعت دول الموحدين ما بدأته دول المرابطين من الجواز إلى الأندلس وتلبية نداء المسلمين ، فقد قاد الخليفة المنصور بالله بن يعقوب بن يوسف حملة كبرى إلى الأندلس ٥٨٠هـ (١١٩٥م) وانتصر على الأسبان فى موقعة الأرك ، وأعقبها انكسار المسلمين فى موقعة العقاب ٩٠٦هـ ١٢١٢م. لم يتوقف المغرب المسلم عن مناصرة مسلمى الأندلس ومقاومة الحملة الصليبية على شاطىء البحر المتوسط فقد قام الحفصيون فى تونس بمقاومة الحملة الصليبية الثامنة التى قادها لويس التاسع الذى انهزم فى معركة المنصورة قد كلفه الأفارقة فى تونس حياته كلهـــا وقامت قوات الجزائر بدورها الحاسم فى معركة على أرض قرطاجنة ممـا أدى إلى هزيمتها ٦٦٩هـ ١٢٧٠م . وكان ذلك مقدمة لما قامت به قوات الجزائر فى مقاومة القراصنة الأوربيين الذين ما فتئوا يهاجمون السواحل الجزائرية وموانيها وقامت مدينة بجاية بدور كبير فى حركة المقاومة لرد العدوان الأوربى واقتحام مراكز القراصنة فى موانى أوربا نفسها كأسبانيا والبندقية وجنوه وصقلية . ولم يبق للمسلمين بعد هذه المعارك إلا مملـكة غرناطة التى استمرت منذ ٦٣٣هـ (١٢٣٥) إلى ٨٩٨هـ (١٤٩٢)م ، هذه الدولة الوحيدة التى بقيت قائمة ما يزيد عن القرنين ونصف القرن حتى كانت معركة السنوات العشر (٨٨٨هـ — ١٤٨٢م) إلى (٨٩٨ هـ ١٤٩٢م) التى شنها الملك الـكاثوليـكى فرناندو والملـكة إيزابيلا صاحبى عرش مملـكتى قشتالة واراجون تؤيدهما بالمـال والسلاح والرجال كل القوى المسيحية فى أوربا إطاعة لأمر البابا الذى فرض على الدول ضريبة دعاها (ضريبة الصليبية) وفى هذه المرحلة ظهرت البطولة المضحية التى استماتت فى سبيل الحفاظ على ما بقى من أرض الإسلام يقودها موسى بن الغسان الذى وقف ضد الاستسلام قائلا : أى باعث نبأ إلى اليأس فإن دم الأبطال عرب الأندلس فاتحى هذه الديار يجرى فى عروقنا وعندنا قوة وافرة وجيوشاً معودة مجربة فى الوقائع لا نرتاب فى إقدامها ولدينا عشرون ألف شاب يمـكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم » ومن الحق أن مملـكة غرناطة لم تستسلم ولـكنها قاومت بكل ما تملك ، لم يتوقف المسلمون لحظة عن البذل والتضحية فى سبيل وجودهم ولـكن سلطات الحـكم كانت قد تمزقت وغلبها الخلاف ودمرها الترف .

يقول واشنطن أرفنج : أن هذه الحرب (حرب تحطيم مملـكة غرناطة) حقبة عظيمة الشأن فى تاريخ الدهر بمـا تخللها من باهر الثبات والإصرار فإن النـكبات توالت فيها على المغاربة (أهل الأندلس) عشر سنوات دون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى وأفنت رجالهم قتلا وأسرا ، فقد قاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج ، بل عن كل صخرة كأنما هم ينتظرون الفتح ،

ولم يجدوا مكاناً يثبتوا فيه أقدامهم ولا جداراً يمكنهم رمى السهام من ورائه إلا واعتصموا به ينازعون العدو وطنهم المحبوب حتى لم يبق إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها كل مدد غير طامعة فى أى غوث يتنزل عن أسوارها ، أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها كأنما هم يترقبون معجزة . « وبنى فردنياندو مدينة كاملة تجاه مدينتهم إشعاراً لهم بأنه لن يرجع عنها أبداً ، وبدأ للشبان والمجاهدين تحت قادة موسى الثبات والموت إلى آخر رجل تحت سنابك الخيل إذ لم يبق هنالك إلا أحد أمرين: الاستسلام أو الهلاك المحقق فى معركة لإنقاذ الشرف . ولكن أهل غرناطة (٥٠٠ ألف نسمة) خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات وتشتت الشمل وفقدان المال فقرروا الاستسلام بعد مقاومة بطولية ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل اعترافها بدينهم » . اهـ .

وقالت عائشة الحرة لولدها آخر السلاطين أبو عبد الله :

« أبك مثل النساء ملكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال » .

ولم يكن سقوط غرناطة هو خاتمة المطاف ولكنه كان بدأ معركة ضخمة من أقسى معارك مقاومة الإسلام ، فقد جرى تدافع الأسبانيون على أذلال البقية الباقية من المسلمين سنوات طويلة لإخراجهم من الإسلام ثم لإخراجهم من بلادهم . ثم كانت الحملة الصليبية الأسبانية البرتغالية على على المغرب : هذه المعركة التى استمرت ثلاثمائة سنة وامتدت ما بين نهاية الأندلس وبدأ الاحتلال الفرنسى (١٤٩٢هـ — ١٨٣٠م) وقد جرى فيها تطويق العالم الإسلامى كله . يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى : أن الأسبان الذين تمكنوا من تحطيم مملكة الأندلس شامخة التى شغلت فى التاريخ ٧٨٢ سنة بقوا يتذكرون ولم ينسوا أبداً ثلاثة أمور : ١ — أن جنود الفتح الإسلامى لأسبانيا قدمت من بلاد المغرب . ٢ — عندما كانت الممالك الإسلامية الاندلسية تنهار تحت ضربات الاسبان الفتاكة وتحت عوامل الفتنة والانقسام جائتها النجدة بما يشبه الفتح الجديد من بلاد المغرب العربى وفى شخص بن تاشفين والمرابطين وفى شخص عبد المؤمن بن على والموحدين : ٣ — أن المسلمين الذين اضطرتهم الانتصارات الاسبانية إلى ترك أوطانهم أموالهم وممتلكاتهم إنما لجأو إلى بلاد المغرب العربى المختلفة يستثيرون أهلها ويبثون فى صفوفهم دعوة الجهاد المقدس ووجوب إرجاع بلاد الإسلام ، من أجل هذا كانت حملة الأسبان على بلاد المغرب .

(٢)

عندما قبل المسلمون وعود (فرنياندو ــ إيزابيلا) هل وفى هؤلاء المسلمين ؟ لقد غدروا بما عاهدوا أبو عبد الله عليه « إذ ما كاد الملك الأندلسى يغادر غرناطة حتى قلب الأسبان المسلمين ظهر المجن فأسلمت المدينة إلى حكم الرهبان حتى نصر الراهب فرناندو فى يوم واحد ثلاثة آلاف من سوقة المسلمين بدعوى أن آباءهم كانوا من النصارى . أما الكاردينال (جمينين) فقد أقنع الملك والملكة بنقض العهد وأعلن : « أن على مسلمى غرناطة ، أما اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد فخرجوا هائمين لا يحملون من متاعهم إلا النذر اليسير يلتجئون إلى جبال البشرات » التى بقيت فى أيدى المسلمين ويبحثون عن مركب ينقلهم إلى بلاد الإسلام ، حيث التقى التاريخ بالبطلين العملاقين التركيين : عروج وخير الدين على رأس عمارة القرصان التى كانت تقاتل الدول النصرانية المحاربة للإسلام فأنقذا من تلك المحنة القاتلة ما يزيد على العشرة آلاف نسمة ، وبقى المستضعفون وأجبروا على التنصر وأقفلت مساجد المسلمين « وحولت إلى كنائس » . وأعدت للمسلمين محاكم التفتيش الرهيبة « التى هى سبة فى وجه أوربا والغرب ووصمة عار فى وجه المسيحية وأصبحت مدن أسبانيا كلها محارق فظيعة تستحيل فوقها رماداً بقايا المسلمين » .وقد خلفت المحنة شعبا يبلغ زهاء المليونين أطلق عليه باسم (الموريسكيون) هم بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة وهم من أرغمتهم أسبانيا على التنصر بعد أن سقطت فى يدها [غرناطة] آخر القواعد الإسلامية بالأندلس وتحولوا ــ كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان ــ بفعل الضغط والاضطهاد من أمة مسلمة إلى طائفة نصرانية كاثوليكية أطلق عليها اسم الموريسكيين MORISCOS أى العرب المتنصرين ، وقد لبث هؤلاء يرزحون تحت النير الأسبانى المرهق زهاء مائة عام وهم يعانون أروع ما يعانيه الشهداء من حروب الاضطهاد والمذلة تطاردهم السلطات المدنية والدينية ولا سيما محاكم التفتيش الشهيرة بأقصى أنواع المطاردة وترغمهم تباعاً على ترك عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية ولغتهم وأسمائهم وثيابهم العربية ، حتى تقضى بذلك على تراثهم الدينى والحضارى وعلى أخص مقوماتهم المادية والمعنوية . وبالرغم من أنهم كانوا فى الظاهر نصارى يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية فقد كانوا فى سرائرهم مسلمين متعلقون أشد التعلق بعقيدتهم الدينية الأصلية ويزاولون شعائر دينهم من الصلاة والصوم وتلاوة القرآن خفية . وكانت أسبانيا تنظر إلى وجودهم فى أرضها بعين السخط العميق وتعتبرهم عنصراً دخيلا بغيضاً يجب التخلص منه » . وقد عمدت الحكومة الأسبانية تحت ضغط الكنيسة إلى التخلص نهائياً من المسلمين

الموريسكيين وقررت إجلاءهم من أراضيها وذلك عام ١٦٠٩ فى عهد الملك فليب الثالث حيث صدر مرسوم النفى النهائى مشيراً إلى إخفاق كل الجهود التى بذلت لتنصيرهم أو ضمان ولائهم وتقرر نفى مجموعتهم إلى بلاد البربر (المغرب) وأن يرحلوا فى خلال ثلاثة أيام مع أولادهم من المدن والقرى إلى الثغور التى تعينها لهم الحكومة ولهم أن يأخذوا من متاعهم ما يستطيعون حمله على ظهورهم وبدأ خروجهم وفقاً لهذا القرار من مختلف الثغور الأسبانية فى رجب ١٠١٨ هـ ، أكتوبر ١٦٠٩ م فى مناظر قاسية من البؤس والمهانة والجوع وقد ألقت السفن بهؤلاء المنفيين إلى ثغور المغرب المختلفة ، نزل بعضهم بتطوان وسلا والرباط ووهران وتلمسان وفاس والجزائر والثغور التونسية ويقدر عدد من غادر أسبانيا من الموريسكيين المنفيين نحو ستمائة ألف هلكت منهم جموع كثيرة من الجوع والمرض . يقول الأستاذ عنان : أن مائة عام من التنصير المغصوب والإرهاق المستمر لم تخمد جذوة الإسلام فى نفوسهم .

(٣)

ولا ريب خسرت أسبانيا خسارة كبرى باخراج المسلمين الذين لم يكونوا عرباً مهاجرين ولكنهم كانوا أسبانيين لهم جذورهم التى استمرت فى التربة ثمانية قرون فقد كان المسلمون فى أسبانيا أحذق الصناع وأمهر الفلاحين وأكبر أصحاب رءوس الأموال ولذلك كان لاضطهادهم وتقتيلهم وتشتيت شملهم أكبر الأثر فى انهيار الصناعة والزراعة ، فضلا عن انحطاط الثقافة والأخلاق والتسامح الدينى ، بعد أن غلب التعصب الشديد ، حتى أن ينابيع الفكر جفت بعد طرد المسلمين وتدهورت الصناعة . ولا ريب أن أكبر دليل على قوة العقيدة الإسلامية فى أسبانيا هو ما إبداه المسلمون من المقاومة الباسلة تجاه الموقف الذى قابلهم به الحكام النصارى . وقد بدأ هذا التعصب بعد سقوط غرناطة فى يد المسيحين منذ ١٤٩٢ م حتى صفيت الأندلس عام ١٦٠٩ م فى خلال ذلك جرت عمليات التنصير وأحرقت المساجد واضطرمت النار فى المخطوطات والكتب النفيسة .

« ولما صدر المرسوم الذى يخيرهم بين التنصير والرق ثارت ثائرتهم وقد منعوا من الهجرة خارج أسبانيا وأشتعلت حينئذ الثورة فى (فالانس) وصعد المسلمون إلى الجبال . وهاجموا القرى وبدأ القتال حامياً ، وتآمرت قوى أوربا مجتمعة على ضرب المسلمين . وكان القراصنة المسلمون يتوغلون داخل أسبانيا وينظمون هجرة المسلمين إلى أفريقيا الشمالية . والذين لم يستطيعوا المهاجرة أدوا مكرهين أقل ما يستطيعون أداءه من أمور الدين الذى فرض عليهم فإذا عادوا إلى بيوتهم أقاموا عقود زواجهم وفق سنن الشريعة الاسلامية .

واستطاع المسلمون دفع أموال باهظة فى سبيل مغادرة أسبانيا وكانوا يتوجهون نحو تركيا عبر البندقية ، أو إلى أفريقيا ، ونظمت حركة سرية لتهريب الآلاف من المسلمين على يد البحارة المغاربة وقد أجرت أسبانيا محاولات كثيرة لحجزهم لأنهم كانوا يؤدون دوراً فى ازدهار اقتصاد البلاد ولذلك فقد أصيبت غرناطة بالخراب والفنـــاء بعد ذهاب المسلمين غير أنهم قرروا عام ١٦٠٩ طرد جميع المسلمين وبدأت هجرة المسلمين الجماعية حتى شهر مارس ١٦١٠ حيث هاجر نصف مليون مسلم وتقول بعض الروايات أن عدد المخرجين من المسلمين واليهود والموريسكين ما بين سقوط غرناطة ١٤٩٢ حتى الجلاء الأخير ١٧١٤ يبلغ من ثلاثة إلى خمسة ملايين وأن الذين خرجوا فى مستهل القرن السابع عشر بلغوا مليوناً من المسلمين ، غير أن هؤلاء الذين نفوا عادوا إلى الإسلام بالرغم من مرور أكثر من قرن على تنصيرهم ولم تنطفىء جذوة الإسلام فى صدورهم من بالرغم من العسف والأرهاق الشديد والتعذيب المستمر وقد هاجروا فارين بدينهم تاركين وراءهم أموالهم وممتلكاتهم . ومنذ سقطت غرناطة ١٩٤٢ وإلى عام ١٧٩٢ وفى خلال ثلاثمائة سنة بدأت حرب جديدة اجتاحت للغرب كله وشاطىء البحر المتوسط وقد تركزت بقوة على الجزائر وكانت جولة خطيرة من جولات مقاومة الغرب للاسلام .

(٤)

ماذا كان موقف الغرب بعد سقوط الأندلس : للمرة الثانية بعد هزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ١١٤هـ ٧٣٢م تتقهقر الحضارة الإسلامية فى أوربا عام ٨٩٨هـ ١٤٩٢م بعد أن دام سلطان الإسلام أسبانيا ثمانية قرون ، ثم انحسر عنها بعد أن ترك معطيات العلم والتجريب والتراث الإسلامى كله . وكانت معاملة أوربا للمسلمين قاسية بينما كانت معاملة المسلمين للصليبيين فى الشام والقدس حين انسحابهم كريمة ورحيمة وبينما أغرق الأسبانيون مراكب المسلمين قام صلاح الدين بفرض نفوذه على مراكب أوربا لإعادة الصليبيين : يقول ناجى معروف فى كتابه عن الحضارة (بتصرف): لقد كان المسلمون نبلاء سمحاء من أهل الأديان ومع معابدهم ، فقد حافظوا على بيع النصارى وكنائس اليهود ولم يخربوها سواء فى أسبانيا والبرتغال إلى سائر جزر البحر الأبيض المتوسط وباقى البلاد النصرانية التى استولوا عليها أما الأسبان والبرتغاليون وغيرهم فقد عمدوا إلى محو آثار المسلمين فإنهم حاولوا إلا يبقوا أمام الأجيال القادمة شواهد تدل على رقى حضارة المسلمين المغلوبين وليبرروا ما قاموا به من أعمـــال وحشية فى تنصير المسلمين وقتلهم وإحراقهم أو نفيهم وليشيدوا وليفخروا بالظفر الذى أحرزته النصرانية على الإسلام . بهذه الصلة أدرك رئيس أساقفة أسبانيا الـكردينال (أكزيمنس) أن حرق

الكتب العربية سوف يمحو آثار العرب الفكرية والثقافية من أسبانيا فعمد إلى حرق ٨٢ ألف كتاب عربي في ساحة غرناطة بعد سقوطها عام ١٤٩٢ بسنين قلائل . ويعلق جوستاف لوبون على هذا فتقول : لقد هـــدم الأسبان أكثر المساجد الإسلامية العظيمة وأزالوا معالمها وحولوا كافة المؤسسات الإسلامية إلى مؤسسات مسيحية على الرغم مما تنطق به الكتابات العربية التي لا يزال بعضها في جامع طليطلة وجامع قرطبة وجامع أشبيلية وغيرها من المنشآت الإسلامية التي تتخذ اليوم كنائس عظمى فقد أرادوا بعد أن قرروا تنصير الملايين من المسلمين بالحديد والنار، ألا يرى المتنصر أثراً إسلامياً سواء أكان مسجداً أم مدرسة مما يذكره بأمجاد الاسلام ، ومن الناحية الأخرى غالوا في تصميم الكنائس وأبراجها وفي زخرفتها وحليها وملئها بالتماثيل والتصاوير لتبهر عقول هؤلاء المسلمين المتنصرين وأبنائهم وليوحو إليهم أن هذه الكنائس المسيحية خير من المساجد الإسلامية ولقد بلغ التعصب بهم والإسراع في تعميم التنصير ومحو كل أثر الإسلام درجة كبيرة بحيث أهدروا كثيراً من القوانين الصارمة تباعاً خلال قرن وربع منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢ حتى١٦١٤م) وكانت شروط تسليم غرناطة تتكون من ٦٧ شرطاً وكانت على تسامح مع كثير من العرب غير أن الأحبار لم ترق لهم الشروط فظلوا يلحون على الملكة الكاثوليكية (فرنادو إيزانيلا) طالبين إليهما السعي في سحق طائفة محمد في أسبانيا وأن يخير الذين أن يريدون البقاء في البلاد بين التنصير وبين بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب وأتبعت الكنيسة العنف والشدة في تنفيذ هذه السياسة وحرقت نصوص المعاهد نصاً نصا .

(٥)

ولقد كشفت التاريخ عن نتائج هذا العمل الخطير في كثير مما سجله الكتاب والشعراء ، يقول الشاعر الأسباني فلا سبازا : « ونحن الأندلسيين على الرغم من لباسنا الحديث وأهالنا لغة أسلافنا العرب ما نزال حفدة أولئك البدو الذين تعودوا في وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم تعود أمام خيامهم المنسوجة بشعر الإبل ، وكما أننا لو انتزعنا بعض الكلس عن جل كنائسنا وجدنا تحته لما مذهبه لإسم الله الاقدس المحفور بالحروف الكوفية . وكذلك لو خدشنا بشرتنا الأوروبيـــة الصفراء ، لبرز لنا من تحتها بشرة العرب الحمراء أن قوميتنا الاوروبية ما هي غير الغرض الظاهر » أما العربية فهي حقيقتنا الخالدة ، أن كل ثوارتنا الاوروبية القديمة والحديثة لم تكن في الغالب غير أثر للروح العربية التي تظافر من أقنا محتجة ناقمة ، لابد أن ابن الصحراء المتجرد الحر الذي تعود

الهواء المطلق تحت نور الشمس (لا فى كوة مظلمة لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراصة فى الأقفاص المظلمة) المثقل جوها بكثافة القواعد المنطقيـــة والمناهج اللغوية » . ويمضى المستشرق الأسبانى فيلا سبازا فيعبر عن وجهة نظر الجيل المعاصر كله حين يقول : لقد حجب الغرب أنوار المسيحية وبدل ما فى المسيحية من مواساة وحول فلسفتها إلى أحاج ومعميات ، أن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمعة واحدة ، ولا خلق ابتسامة واحـدة ، وليس أجدر من أمم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة العربيـــة والقائمة على إذاعتها بوضع حد نهائى لتدهور الغرب المشئوم إلى هوة التوحش الاقتصادى ، ليس فى طاقاتنا نحن الأندلسيين المعتنقين بإيمـان ثابت دين المسيحية أن نجحد دين أسلافنا فلئن كان الأول مستقراً فى ضمائرنا فإن الثانى (أى الإسلام) ما برح مستقراً فى نظرة قوميتنا المزدانة بالبدائع » تلك هى الأندلس التى أخرج منها المسلمون إخراجها المسلمون من أهلها الذين اعتنقوا الإسلام ثمانمائة عام ، وأجلى العرب عن لغتهم وجامعاتهم وعلومهم التى ورثها الغرب وعاش قرنا كاملا يترجمها إلى لغات اللاتين لتكون أرهاص النهضة وأساس الحضـارة .

(٦)

اجنحة المعركة : من الشام إلى الأندلس

(على جبهة الشام)

لم تتوقف المعركة البابوية المسيحية ضد الإسلام عند جبهة الأندلس الإسلامية وحدها داخل أوربا ، ولـكنها تابعت المؤامرة بالزحف على أرض الإسلام نفسه وذلك عندما تنادت إلى الحروب الصليبية باسم استخلاص قبر المسيح ، هذا الزحف المتصل الذى لم يتوقف خلال قرنين كاملين فى حملات ليست هى الحملات الصليبية المعروفة وحـــدها . ترجع فـكرة الحروب الصليبية إلى وقت بعيد ، أبعد كثيراً من تاريخها المعروف فقد كانت أوربا ترقب نمو الإسلام وتقدمه فى قلق شديد وتحاول بقدر ما تستطيع أن توقف هذا الزحف الذى امتد على جبهة القسطنطينية حينا ، لم يتحقق له دخول أوربا ، ثم حين اقتحم الإسلام أوربا من المضيق الذى أطلق عليه من بعد إسم فاتح أوربا « جبل طارق » وظلت الدولة البيزنطية حصن المسيحية والغرب فى جبهة الشرق فلما تهاوت هذه الجبهة لم تجد أوربا بدأ من الاندفاع إلى اقتحام عالم الإسلام من خلال هذه الثغرة . يصور الأستاذ

محمد عبد الله عنان هذه المرحلة فيقول : كانت تعاليم محمد تنذر فى فاتحة القرن الثامن بامتلاك إيطاليا وغاليا ، والوثنية بالامتداد إلى ماوراء نهر الرين ، وأخذت الجيوش تندفع ظافرة إلى الأمام تكتسح كل قوة تغالبها مؤملة على قول الشاعر الانجليزى سوزى أن تخضع أوربا النصرانية إلى صولة الإسلام حتى يصبح الغرب المقهور كالشرق يطأطأ الرأس إجلالا لمحمد ، ولكن سيل الإسلام ارتد أمام جيوش الفرنج فى سهول تور ، واعتبرت أوربا النصرانية (شارل مارتل) حاميها ومنقذها من قبضة الإسلام ومن نير القرآن المبدئى وأسبغ شارلمان على الفكرة لونا واضحاً فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على سكسونيا وبوهيميا ولو مبارديا ورد المسلمين إلى ما وراء جبال البرنية . وكانت النصرانية تقنع بالدفاع عن نفسها بادىء الأمر ، فلما تفككت عرى الدولة الإسلامية واستحالت فى القرن العاشر إلى ممالك وأمارات واضمحل شأن القبائل الوثنية فى شرق أوربا ، استطاعت النصرانية أن تتحدى الدول الإسلامية وبدأت بين النصارى والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك وقد بدأت النزعة الصليبية فى أسبانيا بعد مقاومة المسلمين لأسبانيا النصرانية تحت لواء المرابطين ثم الموحدين من بعدهم ، فقد أثار هذا الانفجار ارتياع الإمارات النصرانية وبعث إليها نزعة مضاعفة من التعصب الدينى ، وكان واحداً من العوامل التى أزكت نار الصراع المستعر بين أسبانيا النصرانية وبين المسلمين ، وهذه نفسها هى التى حولت فكرة الحروب الصليبية نحو المشرق » .

(٢)

تعد معركة ملاذكرد العامل المباشر للحروب الصليبية : يقول ديورانت فى (قصة الحضارة) أول سبب مباشر للحروب الصليبية ، هو زحف الأتراك السلاحقة وكان العامل قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى وكان السلاحقة قد ظهروا عام ٩٥٦ واعتنقوا الإسلام على مذهب السنة ونزحوا من بلاد القزعير فى التركستان وحلوا منطقة بخارى ووصل طغرل إلى أطراف خرسان ، ثم كان على أبواب بغداد عام ١٠٨٥م وأصبحت بلاد غرب آسيا عبارة عن مملكة اسلامية موحدة فى السلاحقة ، وكان ذلك فى حد ذاته نواة السيادة التركية على العالم الإسلامى فيا بعد ، هذه القوة الإسلامية الجديدة التى جددت شباب الإسلام ، واستطاعت أن تواجه التحدى البيزنطى فى صمود وأصالة وسار قادتها طغرلبك وألب أرسلان وملك شاه لرد عدوان البيزنطيين على الأراضى الإسلامية فحققوا انتصارات حاسمة كان أكبرها فى موقعة ملاذكرد ٤٦٣ هـ

الموافق ١٠٧١ التى أسر فيها الامبراطور رومانوس الذى كان قد خرج على رأس جيش ضخم من (الروم والصقالبة والفرنج) فى أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على الاسلام، واتجه إلى (ملاذ كرد) وهى بلدة حصينة على فرع نهر (مرادسو) فضرب حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة ألب أرسلان فى عدد لايتجاوز ربع قوة عددهم: وقد أختار قائد المسلمين الاشتباك مع الروم يوم الجمعة فصلى بجنده ظهراً ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدوا قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم.

وقد ثبت المسلمون وحاربوا فى براعة وجلد وبسالة، فلما رأى رومانس مالحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ليتأهب للقتال فى اليوم التالى، غير أن المسلمين حالوا بينه وبين ذلك فضغطوا بقوى ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة، فأحدثوا ثغرة تدافع منها الفرسان المسلمون، واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاماً قاتـلة: ثم انقضوا على جيش الروم من كل ناحيـة فحصدوه، وأسر رومانس، وتمت هزيمة الروم ٤٦٣ ﻫ ونقل القيصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الأمبراطور:

ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر. وقال رومانس: أنه كان يقتل السلطان ويمثل به.

قال أرسلان: ولـكنى عزمت على العفو عنك والفداء. فافتدى الامبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقة وشيعه فرسخا، وأرسل معه جنداً يحفظونه ومعه رآيه مـكتوب عليها «لا إله إلا الله» وقد علق على هذه المعركة المؤرخ ريتشارد ينوهول فقال: لقد كان الغزو الاسلامى بقيادة ألب أرسلان فى نطاق لم تشهد الامبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون، وقد منى الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم، وأخـذ المسلمون الامبراطور البزنطى أسيراً، ومن ثم كانت واقعة (ملاذ كرد) من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الشرق والغرب إذا كانت ضربة قاصمة للامبراطورية البيزنطية لم تبرأ منها فـكانت عاملا حاسما فى إندفاع الحروب الصليبية ولو أن ألب أرسلان سار فى طريقه — بعد هذه المعركة — إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ولقوض أركان الأمبراطورية البيزنطية. ومنذ معركة ملاذ كرد استوطن السلاجقة هضاب آسيا الصغرى وأصبحت فى حوذة المسلمين، ثم استولوا على (نيقة) ٤٧٧ ﻫ وبقى سلطانهم فى هذه البلاد حتى قضى عليه المغول ٦٥٥ ﻫ قبل سقوط بغداد بعام واحد وتوفى السلطان ألب أرسلان بعد معركة ملاذ كرد بعامين وخلفه ملـكشاه واستمرت غزوات السلاجقة (لأراضى الدولة الرومانية الشرقية حتى طوقوا آسيا الصغرى من الجنوب وبسطوا سلطانهم عليها.

وكان لملاذ كرد أعمق وقع فى أربا ، فقد بدأ الغرب أن سيل التوسع الأسلامى تنذر باقتحام الدولة الرومانية الشرقية والاندفاع إلى أوربا ، هناك تعالت الصيحات وجرى أعداد مخطط الحروب الصليبية التى أمتدت بجناحيها إلى المشرق والمغرب غير أنه لم يمض على (ملاذكرد) أكثر من خمسة عشر عاما حتى استطاعت القوى الاسلامية فى المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق قوى الفرنجة الغازية فى موقعة الزلاقة . كذلك فإنه لم تمض على ملاذكرد خمسة عشر عاماً حتى جاءت جموع بطرس الناسك زاحفة تقتحم عالم الاسلام وتصل إلى بيت المقدس . وكان بطرس الناسك قد زار بيت المقدس وأدهشه مارأى من ضعف بلاد الاسلام فعاد إلى الغرب ونبه أذهان البابوية إلى ضرورة انتهاز الفرصة السانحة (فإن بلاد المسلمين فى حالة يرثى لها من الضعف ولابد من الاسراع بحملات عسكرية لاستخلاص الأراضى المقدسة من أيديهم) ثم ذهب إلى فرنسا وأخذ يطوف ببلادها داعيا فى حماس شديد إلى الإسراع بحرب المسلمين وقد حمل بطرس الناسك إلى أربان الثانى من سمعان بطريق أرشليم ما سماه برسالة استغاثة . ولقد ذهب البابا أوربان الثانى إلى أبعد من ذلك فقد دعا إلى الحرب لاللفوز بمدينة واحدة فحسب ، (بل للفوز بأقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لاتخفى) . حيث قال : فسيروا نحو القبر المقدس وخلصوا الأرض المقدسة من أيدى الغاصبين وتملكوها أنتم من دونهم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا . وقد سارت هذه الجحافل إلى المشرق تحمل صيحة متعصبة . ياشعب الفرنجة : جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أبناء محزنة تعلن أن جيشاً لعينا أبعد مايكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد . بلاد المسيحيين وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق وهم يهدمون المذابح فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم » .

وما كان ذلك صحيحاً لا فى جملته ولا فى تفصيله فقد كان السلاجقة من أكرم الحكام وأكثرهم إيمانا بمفهوم الإسلام فى معاملة أهل الذمة . وقد ظل أربان عامين كاملين ينتقل فى بلاد أوربا داعيا إلى الحروب الصليبية حتى وصلت إلى أنطاكية ١٠٩٨ الحملة الصليبية الإولى ثم وصلت جموع الصليبيين (٤٩٣ هـ ١٠٩٩م) فيما أطلق عليه الحرب الصليبية الأولى .

وهكذا اكتملت الحلقة فى ضرب الاسلام فى جناحيه : جناحه فى الأندلس وجناحه داخل العالم الإسلامى عن طريق البحر المتوسط والشام وقد اقتحم الصليبيون الأسوار وقتل من المدافعين نحو ٧٠ ألف مسلم ، وبدأ إنشاء مملكة بيت المقدس الصليبية ثم أكمل الصليبيون احتلال طرابلس

عام ١١٠٩ وأنشأوا فيها الإمارة الصليبية الرابعة ثم ملك الصليبيون الساحل كله وجزءاً كبيراً من أراضى الشام وفلسطين شمالى القدس وأعالى الفرات .

(٢)

منذ اليوم الأول لوصول الصليبيين تداعت القوى وتنادت الأقطار وخرج المسلمون من كل مكان للمواجهة . يقول الدكتور حسين مؤنس فى كتابه عن الحروب الصليبية « وظهر قادة الكفاح المنظم وبدأ حرب التحرير سلسلة من الأبطال ، من شرف الدولة مودود إلى صلاح الدين وحطمت حصون المعتدين ، ولم يتقدم الصليبيون من شمال آسيا الصغرى إلى جنوب القدس إلا على أجساد الشهداء ألوفا بعد ألوف من العرب قتلوا مدافعين عن أنطاكية وطرابلس ومعرة النعمان وصور وصيدا والقدس وغيرها ، ولم يستكف المتطوعة من الاغارة على طوابير القوات الصليبية فى الطريق فخطفوا رجالها ورموهم بالسهام المصمية وبرزت جماعة الفدائيين المقاتلين الذين يسميهم مؤرخونا بالتركمان : والتركمان هم الذين علموا العرب والمسلمين فن القتال على الحفر السريعة والرمى بالسهام وراء كل صخرة أو شجرة ، وفى كل بلاد العراق والشام ظهرت جماعات المستنفرين يخطبون فى المساجد وعلى قوارع الطرق والأسواق يهيبون بالناس أن يحملوا السلاح وينفروا لتحرير البلاد ، وذهبت جماعات إلى بغداد وحاصرت قصر الخليفة العباسى وأرغمته على الظهور فعاتبوه عتابا شديداً ، وظهر رجال أفذاذ وعملوا على توحيد الصفوف وتكوين قوات عسكرية للجهاد والتحرير منهم نجم الدين أيلغازى بن ارتق صاحب ماردين ونور الدين بلك وآق سنقر البرسقى ، وكان عماد الدين زنكى عام ٥٣١ هو أول من تمت على يده أول خطوة حاسمة من خطوات التحرير وهى القضاء على أمارة الرها الصليبية فى أعالى البحار ٥٢٩ وتوفى عماد الدين ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م وخلفه نور الدين محمود » ابنه الذى أمضى ٢٢ سنة فى الميدان حطم فيها قوات الصليبيين محطيا وقضى على الحملة الصليبية الثانية ووحد الشام والموصل فى جبهة النضال ، وقضى على الفاطميين فى مصر وضم مواردها إلى معسكر الجهاد وتوفى نور الدين شوال ٥٦٩ هـ ١١١٤ م وجاء صلاح الدين الذى حقق نصر (حطين) ربيع الثانى ٥٨٣ — يوليو ١١٨٧ واستعاد بيت المقدس وقضى نهائيا على مملكة بيت المقدس وقد هز استعادة المسلمين بيت المقدس الغرب كله فتوالت الحملات ولم تتوقف .

ليست هناك حملات صليبية تسع كما يقولون ولكن هناك تدفق مستمر متفاوت الحجوم ولما عجزت الحملات أن تحقق شيئاً . استدارت إلى مصدر للمقاومة الحقيقى ، يقول جرن بول رو (بينما

كانت الحملات الصليبية الثلاث التى استهدفت القدس قد تبددت قواها على الشاطىء الفلسطينى ، تغير الاتجاه فقرر البابا أنوسنت ١١٩٨ أن ركائز القوة الإسلامية ليست فى فلسطين بل فى مصر وكان صلاح الدين قد استولى على الحكم خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر (السادس الهجرى) وأسس سلطة قوية ، وعزم البابا على أن يوجه الضربة إلى صلاح الدين ، غير أن الحملة الصليبية الرابعة انحرفت عن هدفها واستأثرت بالقسطنطينية وتبنت الفكرة الحملة الصليبية الخامسة التى حاصرت دمياط ، ودخلتها ١٢١٧ ، لقد ذهب المسيحيون إلى مصر للقضاء على القوة الإسلامية وكان على لويس التاسع ألا يعتمد على نفسه فلما فشل فى مصر وأسره المصريون حاول أن يضرب الإسلام فى مكان أقرب إلى أوربا وهكذا رأس آخر حملة معدودة من الحملات الصليبية » . نعم : على شواطىء مصر انكسرت الحملتان الصليبيتان الخامسة والسادسة ٦١٥هـ ١٢١٨م — ٦٤٧هـ ١٢٤٩م .

تقدم الصليبيون فى الأولى حتى استولوا على دمياط ، وتجمعت قوات المجاهدين من شتى نواحى مصر فى شرق الدلتا وفى مقدمتهم اتباع الطريقة الشاذلية وكان رجال أبى الحسن الشاذلى يقاتلون فى سبيل الله فى نواحى المغرب الأوسط وعندما انتشرت الطريقة فى مصر أصبح رجالها من المصريين من رجال الجهاد ، هؤلاء هم الذين قطعوا جسور النيل ليغرقوا قوات الصليبيين وأمام طوفان الماء بدأ الصليبيون يتراجعون نحو الشمال حيث كان المجاهدون هناك فى انتظارهم فتخطفوهم من كل جانب .

أما فى الحملة السابعة التى قادها لويس التاسع فإن « الذى قضى على الصليبيين هو ثبات المجاهدين فى شمال شرق الدلتا ، لقد تولى المعركة بعد ذلك بيبرس البندقدارى ، رئيس المماليك ، ومماليك الصالح أيوب ، الذين قادوا الهجوم المنظم بعد أن كان المتطوعون المصريون قد انهكوا قوى العدو انهاكا تاماً ، وعندما فتح المصريون جسور النيل مرة أخرى تقرر بصورة نهائية مصير الحملة الصليبية السابعة ، فاضطر الأعداء إلى التسليم ووقع لويس التاسع فى الأسر ، وتشجع بيبرس بهذا النصر ، وكان همه بعد أصبح سلطانا هو القضاء على بقايا الصليبيين فى الشام وفى يده سقطت إمارة أنطاكية (٦٦٦ هـ ١٢٦٨م) أما سيف الدين قلاوون فقد استولى على طرابلس فى نفس السنة وسقطت عكا فى يد الأشرف خليل ابن قلاوون (٧١٩هـ ١٢٩١م) وبسقوط عكا تمت تصفية العدوان الصليبى .

(٤)

هذه المعركة الضخمة بين الشاطئين : الشرق والغرب ، بين أوربا المسيحية وبلاد الاسلام حيث تدفقت الملايين فى حقد وغضب وطمع إلى بلاد المسلمين كيف عادت وقد رأت أن سماحة المسلمين وحضارتهم وثباتهم وإيمانهم وكيف كان أثر ذلك فى الغرب كله ، وكيف اهتزت له الكنيسة

فقاومته وقضت على كل من يتحدث بخير عن الإسلام ، هذه الجولة الضخمة أنها من أكبر مواقع الصراع الذى شنته أوربا المسيحية خلال قرنين كاملين لم يتوقف ، بل توالى يوماً بعد يوم ، كان هذا الشاطىء الإسلامى هو مرمى بصر هذه القوات ، التى لم تكف حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية يقول جان بول ريو فى كتابه الإسلام فى الغرب : لقد اعتدنا أن نتحدث عن ثمانى حملات صليبية الأولى بدأت منها ١٠٩٦م والأخيرة انتهت عام ١٢٧٠ غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوبا كثيراً مع الواقع ويمكننا أن نزيد هذا العدد إذا أخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التى وجهت إلى الشرق ، وما أن أنشئت مملكة لاتينية فى القدس حتى بات من الضرورى الدفاع عنها وبالتالى إرسال النجدات المتتالية لحمايتها . وقد لوحظ سريعاً بأنه حتى يكون الاحتلال مسيطراً فإنه يجب القضاء نهائياً على القوى الإسلامية . « أنها محاولة بقـــاء الدولة اللاتينية الصغيرة فى الشرق بمثابة رأس جسر للعالم المسيحى فى عالم الإسلام بالغة الإزعاج بالنسبة له لأنها فى قلبه نفسه وما دامت الحرب مستمرة فإن الضغط الإسلامى الرئيسى لا يمكن إلا أن ينصب عليها قبل غيرها . يجب ألا نحذر من الاعتقاد القائل بأن هذه الحملات الثمانى الشهيرة هى وحدها تشكل حروب المسيحية الخارجية ، أن هذه الحملات فى الواقع ليست سوى مرحلة هى أكثر المراحل تأثيراً ، وحقبة هى أشد الحقب عنفاً فى تاريخ هذه الحروب ، لقد كان أمل هذه المغامرة ضئيلا بالنجاح فقد قذف بملايين الأوربيين إلى شواطىء الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن أجل الوصول إلى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق ، وقد تصلب الأوربيون فى عنادهم طيلة قرنين من الزمان وملكية قبر المسيح أصبحت رمزاً للنصر والثبات أكثر منها قضية إيمان » . تلك هى وجهة نظر كاتب غربى اليوم : لقد تصلب الأوربيون عنادا ولكنهم عادوا مهزومين ، وإن كانوا قد استفادوا كثيرا حين نقلوا معطيات الفكر الإسلامى والعلوم التجريبية فكانت هذه الحروب هزيمة عسكرية ونصرا فكريا وحضاريا ، لقد كشف المسلمون عن جوهر طبيعتهم الصامدة القوية فى الحرب قتالا ، وفى معاملة أهل الكتاب سماحة وكرما وحفظ التاريخ ولا يزال يروى صفحات السماحة والبطولة معا ، وكيف عامل صلاح الدين الصليبيين بعد استعادة بيت المقدس .

فمن مركز القوة رفض صـــلاح الدين أن يقتص ممن قتلوا سبعين ألفا فى معركة دخول بيت المقدس وأكرم العائدين وسمح لهم بحمل كل ماخرجوا به وفرض على المراكب الإيطالية وغيرها إعادتهم إلى بلادهم ، وأكرم كل من ورد من حجاج المسيحيين وشرع فى مد الطعام

لهم وعندما مرض ريتشارد أرسل إليه الأطباء والأدوية والثلج ، وقال أن ديننا لا يسمح لنا إلا بحسن المعاملة .

(٥)

لقد غيرت سماحة الإسلام موقف الصليبيين تماما . وسجل المنصفون منهم تقديرهم لصلاح الدين، وكشفوا عن الفارق البعيد بين المغيرين المغتصبين وبين أصحاب البلاد المناضلين فى ميادين الحرب دفاعا عن بلادهم ودينهم ، الرحماء بعد إنتهاء الحروب ، يقول هذا ريك فان لون المؤرخ الهولندى : أن الصليبيين بدأو القتال وهم يضمرون أشد البغض للمسلمين وأعظم الحب للشعوب النصرانية فى الدولة الرومانية الشرقية ، ولكنهم حين عادوا كانت قلوبهم قد تغيرت تماماً .

(٦)

نظرة الغرب إلى الاسلام أبان الحرب الصليبية

لم يكن الواقع فى أرض القدس هو ماصوره الذين حملوا لواء التحريض على الحروب الصليبيه . بل كان الواقع عكس ذلك تماماً . ولم يكن الواقع كما صوره العائدون من الحروب الصليبية هوماحاولت الكنيسة أن تقنع به أهل الغرب ولكنه كان عكس ذلك تماما . ولذلك فقد كان لا بد من تكميم كثير من الأفواه وعزل كثير من العائدين عن المجتمع حتى لا يتبين أن كل هذه الحركة الضخمة التى استمرت قرنين من الزمان لم تكن إلا مؤامرة وهمية خطيره ، فاما قبل الحروب الصليبية فقد كان الكاتب الفرنسى « برنادى وست» فى القدس وكتب فى مذكراته يقول: إن السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أننى كنت مسافراً وهلك بعيرى ، أو حمارى الذى ينقل أمتعتى على الطريق وتركتها كلها فى مكانها دون حارس أو رقيب وسرت إلى أقرب مدينة لأطلب لى بعيراً آخر لوجدت بعد رجوعى أنها باقية على ما هى لم يمسها أحد » ولكن البابا جريجوريوس السابع عام ١٠٧٥ م لواء الحملة المسلحة إلى القبر المقدس ، وبدعوى أن الأتراك أسروا وقتلوا وهدمت الكنائس وانتشرت شائعة بأن شعبا من مملكة الفرس قد اكتسح أراضى النصارى وأباد سكانها بالسيف والنار ونهب منازلهم . ولم يكن شىء من ذلك كله صحيحاً .

الغاية : هى إثارة عواطف المسيحيين لكى يسيروا إلى مقاتلة المسلمين ، وعلى حد تعبير

كارلتون منرو المؤرخ الأمريكى : هذه الفظائع المنسوبة إلى المسلمين كانت ممزوجة بكثير من الأقاويل لتوافق روح العصر وخاصة الرسالة الملفقة المنسوبة إلى الأمبراطور الكسيوس الأول ، وقد لجأ الغربيون إلى أنواع أخرى من الدعاية ضد المسلمين — يقول كارلتون منرو — فقد اتهموهم بعبادة الأصنام ، فى كتب ذلك العهد انتشر كثير فى الغرب الاعتقاد أن بأن المسلمين يعبدون محمداً كآله، وإنه كان لهم آلهة وأصنام أخرى قد ، و وجد فى الكتب الراجعة إلى عهد الحروب الصليبية أنها كثير ما تذكر هذا الاعتقاد بألوهية محمد عند المسلمين » . والمعروف أن الهدف من هذا هو شجب الأثر الذى أحدثه الإسلام فى مجموعات القوى المدفوعة إلى الحرب وقد ظهر من بعد ما يعارضه تماماً إذا كتشفت هذه القوى إن المسلمين إنما يعبدون الله الواحد القهار ، كذلك فقد أشار الباحثون الغربيون إلى أن الدعاية التى روجها المتعصبون بأن المسلمين جبناء : هى شبهة تبددت تماما بعد أن قدموا إلى أرض الإسلام حيث وجدوا أن المسلمين لا يعبدون الأصنام وأنهم مثل عال فى البطولة ، صبر فى الحرب قادرون على سحق أعدائهم ، وقد اعترف بشجاعة المسلمين ومهارتهم الحربية وفروسيتهم وكرم أخلاقهم عديد من المؤرخين فى مقدمتهم جبرت . ويقول البحنيث كتاب (GS8TA) المجهول : أنى سأنكلم عن الحقيقة التى لم يجرؤ واحد على إنكارها : وهى أنهم لو نبتو فى دين المسيح وفى المسيحية المقدسة لما كان باستطاعة أحد أن يجد محاربين أقوى وأشجع وأمهر منهم . ويقول المؤلف (دانا كارلتومنرو) الذى ننقل عنه : لم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الإعجاب بشجاعتهم بل تجاوزه إلى مجاملات أخرى عليهم ، فقد احتك الصليبيون فى سوريا وفسلطين احتكا كاً دائماً متصلا بأهل البلاد فى الأعمال الزراعية وبناء القلاع وقلما كانوا يميزون بين المسلمين وهراطقة النصارى ويقول : وقد أسر كثيرون من الأفرنج ظلوا فى القيد أمداً طويلا ، وكانوا عادة يعاملون معاملة حسنة ويمنحون قسطاً وافراً من الحرية بحيث أصبحوا يعرفون المسلمين عن كثب والتجارة التى كانت من ضروريات الأمارة الصليبية كانت من عوامل التعارف بالمسلمين وكانت نساء الفرنج قليلات فأدى ذلك إلى التزاوج بين الفريقين ، وكان المسيحيون يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتقدمهم على أطباء المسيحيين ، وهكذا نرى أن الحروب الصليبية بعد أن انتهت كشفت زيف الدعاوى التى وجهت إلى الإسلام والمسلمين وتبيين أنه لم يكن هناك حدث خطير يستدعى هذه الحملات المتصلة خلال قرنين من الزمان ، إلا التعصب والمطامع ثم كشفت أيضاً زيف الادعاءات الموجهة إلى عقيدة المسلمين وأخلاقهم ، ولما عاد الصليبيون كان الأمر غاية فى القسوة بالنسبة للكنيسة صاحبة الدعوى الباطلة ولذلك فقد أخذ الدعاة أسلوباً جديدا يصفه الدكتور

(رانا كارلتون منرو) حيث يقول : بدأت الدعاية ضد الاسلام تأخذ شكلا جديداً فبطرس المحترم رئيس دير كلينى فكر فى إتخاذ خطة جديدة هى تفنيد تعاليم الاسلام إذ أن الغربيين كانوا يتوقون إلى الوقوف على تعاليم أعدائهم المسلمين ومعتقداتهم ، فقد يكون وصل إلى الغرب خبر البعض من المسيحيين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى ولكن يظهر أن التأثير الأكبر كان لسفرة قام بها بطرس المذكور إلى أسبانيا عام ١١٤١ م ، فهناك شاهد (تقدم المسلمين وقوتهم) فعزم على معرفة محتويات القرآن لتفنيد تعاليمه فاستخدم مسيحيين ثلاثة وجعلهم يشتغلون بالإشتراك مع رجل عربى فى ترجمة القرآن تحت إدارة كاتبة ، وقد كلفته هذه الترجمة كمية كبيرة من الدراهم . ولكنها لم تكن مع الأسف ترجمة صحيحة بل كانت فاسدة جدا على أنها هى الترجمة الوحيدة التى عرفها أهل الغرب حتى أواخر القرن ١٧ ، وقد طلب بطرس من برنارد اليكرفوس أن يضع رداً على القرآن فأبى فاضطرهو نفسه إلى القيام بهذا العمل وبدأت تظهر كتب حولية فى اللغات الأروبية المختلفة عملت على إشاعة المعتقدات الفاسدة عن محمد والإسلام وهى التى تملىء بها مصادر القرن الثالث عشر والقرون التى تعاقبت » .

وهكذا نجد أن الغرب قد حشد نفسه لمقاومة دخول الإسلام إلى الغرب وبدأ يثير الشبهات حوله ويقوم بحملة مضادة هى ما تولى الاستشراق أمره لتزييف مفاهيم الإسلام لدى المسلمين وقد كان من آثار الحروب الصليبية : إندلاع حرب الكلمة والتبشير وبناء ذلك الجهاز الضخم من الإرساليات التى زحفت على بلاد الإسلام واستقرت فى لبنان ومنها أمتدت الى استنبول والقاهرة وكل بلاد المسلمين ونذكر فى هذا الصدد وصية لويس التاسع الذى هزم فى المنصورة ودعا الغرب إلى اتخاذ حرب الكلمة مع المسلمين بديلاً عن حرب السيف ، ولكن هل استطاعت تلك المحاولات أن تعزل الغرب عن فهم حقيقة الإسلام وأخلاق المسلمين وخاصة تلك الصورة الزاهية : صورة صلاح الدين الأيوبى :الحقيقه أنها لم تستطع فإن كثيراً ممن زاروا بلاد الاسلام فى هذه الفترة قد كتبوا فصولا ضافية مازالت مرجعا تاريخيا ، ومما يذكره المؤرخ الغربى الذى نقل عنه (دانا كارلتوون منرو) ذلك البحث الذى كتبه BURCHBRD برشارد نحو عام ١١٧٥ ونقله (أرنولد أف لبيك) فى تاريخه ، وكان برشارد قد بعث بمهمة من قبل الأمبراطور فردريك بارباسا الى صلاح الدين ، وهنا يصف لنا معتقدات المسلمين وصفا حسنا ويطرى روح التسامح عندهم ، فيذكر أن فى الأسكندرية عدة كنائس مسيحية وأن كل قرية فى مصر لا تخلو من كنيسة ، ويشهد أن كل انسان حر فى إتباع دينه الخاص ، وان أكثر المسلمين يكتفون بزوجة واحدة ، وهو يخبر عن مداومتهم على الصلاة وعلى اعتقادهم بأن الله هو خالق كل الأشياء ، وأن محمدا هورسوله الأقدس، وصاحب الشريعة

وأن العذراء المباركة خلقت من نفخة روحه وبقيت عذراء بعد ولادة المسيح ، وأن ابن العذراء هو نبي وقد نقله الله لنفسه بأعجوبة إلى السماء . والمسلمون ينكرون أنه ابن الله وأنه تعمد ، وصلب ومات وقام ، ويؤمنون بأن الرسل هم أنبياء ويقدمون الكثير من الشهداء والمؤمنين » وتحدث عن صلاح الدين فقال : إن صلاح الدين كان محبوباً في الغرب لسلوكه الرءوف وكرمه بعد استيلائه على أورشليم الذي يخالف تماماً سلوك الصليبيين عام ١٠٩٩ وقد أثار دهشة الصليبيين وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح وقد سمح أن يكون المسيحيين اللاتيين راهبان وشماسان في كل من أورشليم وبيت لحم والناصرة وأن يقوموا بطقوس دينهم بكل حرية ، وكان مشهوراً بتأدبه وقد نشأت بينه وبين ريتشارد قلب الأسد علاقات ودية عديدة وقد وصلت حكايات رأفته وكرمه إلى الغرب ، وقد أشار وليفر في كتاب له : إن المسلمين اعترفوا بالمسيح نبياً وليس إلهاً ، وينكرون آلامه وموته واتحاد الطبيعيتين الإلهية والإنسانية فيه والثالوث الأقدس ، وقد ظهرت في هذه الفترة كتابات كثيرة يجادل بها المبشرون الغربيون دعوة المسلمين إلى دينهم في محاولة لاستغلال بعض نصوص القرآن ، ومن ذلك وليفر ، هذا ، وجوكست ، ويرجع الباحث الأمريكي هذا الاتجاه إلى الاستعانة بالكتاب الذي كتبه وليم الصوري عن المسلمين ، وقد حاول بعض المبشرين المسيحيين في هذه الفترة استغلال بعض نبوءات كاذبة عن قرب نهاية الإسلام ، ومنها انهيار صرح الخلافة الإسلامية في بغداد — على يد هولاكو ولو أنهم علموا ما حدث بعد ذلك من توسع وثبات الإسلام وقيام الدولة العثمانية واتساع الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا لندموا على هذه الأوهام . ويقول (دانا كارلتون ،نرو) : أنه بالرغم من كل هذه المحاولات فقد بقيت نظرية أكثر أهمية على ما هي عليه ، وهي ما كانوا يشعرون به من أنه من المستحيل إستمالة المسلمين إلى الدين المسيحي وقد أثارت مخاوفهم كثرة المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ، حتى أن البابا جريجوريس العاشر عام ١٢٧٤م عمل على وجوب تحريم مد يد المعونة من أرتد من فرقة الداوية وفي معاهدة عقدت مع المسلمين ١٢٧٣ م أرغم الإفرنج على التعهد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي . وكان البابوات يعملون لحرب صليبية جديدة وينشطون الدعاية ضد الإسلام » . وبالجملة فإن محاولات الغرب في مواجهة الاسلام ، هذه المحاولات القائمة على التعصب والحقد والبغي فقد فشلت جميعها وتبين للغرب نور الاسلام وعظمته ألحقه في ذلك التعامل لمدى قرنين كاملين بين المسلمين والمسيحيين الغربيين الذين جاءوا تحت لواء الحروب الصليبية مغرراً بهم وقد تكشف لهم فساد ما نقل إليهم عن الاسلام نفسه وعن أخلاق أهله فوجدوا الحقيقة الكبرى : سلاماً وإيمانا ورحمة .

(٨)

أجنحة المعركة : بين الجزائر وأسبانيا

بعد أن سقطت الأندلس [وقد بدأت بسقوط (طليطلة) ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وانتهت بسقوط (غرناطة) (١٤٩٢ م)] وكانت الحروب الصليبية قد انتهت بهزيمة الغرب (٩٩٦ هـ ١٢٩٩ م) ونشأت الدولة العثمانية فى نفس أعوام هزيمة الصليبيين ، وارتفعت فى سماء المجد حتى فتحت القسطنطينية ٧٥٤ هـ ١٣٥٣ م أى أن آخر معاقل الاسلام فى الأندلس سقطت بعد استيلاء المسلمين على القسطنطينية بأقل من أربعين سنة ، فى هذه الفترة التى أخذت الدولة العثمانية تتسع وتنمو كانت هناك حركة خطيرة تزاولها دولتى الاستعمار الأوليان : أسبانيا والبرتغال بعد أن تحررتا من النفوذ الاسلامى ، هذه الحركة ترمى إلى الانتقام من الاسلام فى الشاطىء الجنوبى وكان التركيز الأكبر على الجزائر حيث دارت معركة الثلاثمائة عام ، وهى الجولة التى سبقت احتلال فرنسا للجزائر من بعد والتى استمرت ثلاثين ومائة من الأعوام لم يكتف الغرب باسترداد الأندلس وإذلال أهلها المسلمين من قتل وتعذيب وتهجير خلال تلك السنوات الطويلة للتخلص من المسلمين نهائياً فى شبه جزيرة ايبريا وهم من أهل البلاد أصلا ، ولكنهم أرادوا ملاحقة هؤلاء المسلمين فى بلاد المغرب والانتقام منهم ومن أهل المغرب الذين عبروا مرتين إلى الأندلس لاستنقاذ المملكة الأندلسية نعم (كما يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى) : لم تكتف أسبانيا النصرانية أو تقنع بسحق الأندلس المسلمة واستعادة آخر نقطة للإسلام فى أسبانيا بل رأت غداة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسعها وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صحيفة حياتها وأن تدفن ذلك الماضى المجيد إلى الأبد ، والمعروف أن البرتغال هى التى أخذت بادرة ما أطلق عليه من بعد اسم الاستعمار والكشف الجغرافى وتبعتها أسبانيا وكانت الضربات الأولى موجهة إلى موانى الجزائر وامتدت إلى تونس والمغرب وليبيا . وقد حملت منذ اليوم الأول روح التعصب والحقد الصليبي وكان قادتها الأول ممن أطلق عليهم اسم المكتشفين بالغى الكراهية للإنسانية ومندفعين فى الانتقام والعسف ، وكانت كل محاولات اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حول أفريقيا تستهدف انتقاض الكيان الاقتصادى لعالم الاسلام حتى يكون عاجزاً عن الجهاد والمقاومة ، وكانت تحاول أن تحقق ما أطلق عليه اسم تطويق عالم الاسلام من الخلف ، حيث كانت الدولة العثمانية إذ ذاك مسيطرة على شرق البحر المتوسط كذلك فإن خطة الغرب المقاومة كلها للإسلام : فكراً وسياسة ، إنما كانت تحاول أن تحول بين أهل أوربا وبين فهم الاسلام فهما صحيحا

ثقة بأنه من اليسر بحيث يدخل فى القلوب بغير استئذان، ولذلك كانت تلك الحركة العنيفة التى تضم إلى سلك محاكم التفتيش وهى القضاء على قوة المستنيرين العائدين من الشرق بعد فشل الحروب الصليبيه والذين أعلنوا بكل قوة أن ما أذاعته أوربا عن الإسلام كاذب ، وإن معاشرتهم للمسلمين كشفت عن سماحة ورحمة وخلق رفيع ، لقد قضوا على هذا الرعيل حتى لا يشكك الأوربين فى أكاذيب الصليبيين التى هى مبرر حملاتهم على الشرق ، كذلك كانت السياسة الإسبانية تعمل على «أن تحجب آثار العصر الإسلامى وتخفيها عن كل باحث ومتطلع كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الإسلامى فى تفكير أسبانيا النصرانية وهى لم تدخر وسعاً فى مطاردة هذا الروح وقتله » ، وقد ظل هذا الاتجاه زمنا حتى جاء الوقت الذى ظهر فيه الحق فكشف النقاب عن الحقيقة التى تبرز كرامة الإسلام وسماحة المسلمين . وفى نطاق هذه الخطة كانت تلك الحملة المذعورة على الشاطىء الإسلامى للبحر الأبيض والتركيز على الجزائر بالذات ، فبدأ هذا الزحف مبكراً حينما استولت البرتغال على ميناء سبتة ١٤١٥ م ، ثم دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح واكتشف كولمبس القارة الأمريكية بعد شهور من سقوط غرناطة بأيدى النصارى الأسبان ١٤٩٢ وفى ١٤٩٧ سار فاسكودى جاما فاستدار حول رأس الرجاء الصالح ، ووصل إلى (موزمبيق) و (مالندى) حيث الحكم العربى الإسلامى ، ثم شق طريقه إلى (قالنقوط) ثم عاد إلى لشبونة سالكا نفس الطريق الذى بدأ من قبل . وأنشأ البرتغاليون المستعمرات على ساحل أفريقيا الشرقى، وتمكنوا مابين « ١٥٠٩ — ١٥٨٢ » من إنهاء السيطرة الإسلامية على شرقى أفريقيا والمحيط الهندى وإقامة ثلاث مستعمرات رئيسية « كاو — موزامبيق — سوخالا » .

ثم بدأ تنافس الدول الأوربية واضحاً بعد زمن قصير من تحرك البرتغال فتحركت فرانسا ١٥٢٩ وانجلترا ١٥٨٠ (وهو نفس العام الذى بدأت البرتغال تفقد فيه مستعمراتها بعد ضمها إلى أسبانيا) ثم جاءت هولنده ١٥٩٥ ، وكان لانكشير الإنجليزى قد وصل إلى الهند عام ١٥٩١ سالكا نفس الطريق البرتغالى القديم حيث أسست شركة الهند الشرقية ١٦٠٠ ، وقد قام البرتغاليون باستعمار شرق القارة الأفريقية فى أقل من عشر سنوات ، ثم هبت الدول الاوربية تنازعهم السيادة الأوربية فى آسيا وأفريقيا ، ولم تلبث البرتغال وأسبانيا أن سقطتا وانسحبتا من ميدان الإستعمار ، وكان أخطر أدوارها هو حرب الجزائر التى استمرت ثلاثمائة عام أذاقها فيها المسلمون صنوف العقاب والمقاومة، فلم يمكنوها أن تحقق شيئاً مما كانت تأمل فيه .

(٢)

خرج الشرق الإسلامى من الحرب الصليبية مضعضع القوى ، وكانت المعركة فى الأندلس على أشدها ، وهى معركة لم يكتف فيها الغرب بالسيطرة على أسبانيا بل امتدت للقضاء على المهاجرين ومعاقبة الشاطىء الإفريقى العربى الإسلامى الذى عاونهم وساندهم والانتقام منهم ، وكانت هناك المحاولات المتصلة لمهاجمة الشواطىء الجزائرية ، وموانيها حيث تكونت فى موانى أوربا قواعد للقرصنة فى أسبانيا والبندقية وجنوة وصقلية . وقد هاجمت هذه القوى معظم سواحل المغرب الأقصى واحتلت مدن وهران ومستغانم والقلعة المقابلة لمدينة الجزائر وموانى من تونس ومراكش ، وكان ذلك مقدمة لخطة شاملة للسيطرة على الإسلام ، وشن الغارات على المهاجرين من الأندلس ومدها إلى مواطنهم الجديدة فى شمال أفريقيا ، ولقد اشترك فى مقاومة هذه الحملة الحفصيون فى تونس والزنانيون فى الجزائر والمرينيون فى المغرب الأقصى ، وقد جاء دورهم فى الجهاد بعد دور الموحدين والمرابطين. ومن ثم بدأت الجزائر تدخل المعركة الكبرى التى جاءت بعد سقوط الأندلس بعشرين عاماً تقريباً والتى بدأت ١٥١٤ وظلت ملتهبة الأوار حتى تناهت بالهزيمة الكاملة عام ١٨٣٠ (٩١٨-١٢٤٦ م) كانت يد الإستعمار المسيحى الأوربى قد طمعت فى السيطرة على المغرب وأخذت تدق أبوابه بشدة ، وكان الأسبان قد سيطروا على مدينة تطوان عام ١٤٠٠ م ، حيث حطموها وقتلوا نصف سكانها وساقوا باقى أهلها أسرى إلى أسبانيا وامتدت يد البرتغال إلى مدينة سبته ١٤١٥ ، وإذا كانت المعركة قد توقفت فى المشرق فإنها نقلت فى المغرب واتسع نطاقها ودخل المسلمون فى تجربة أريد بها « السيطرة » على الإسلام من هذه الناحية ، سيطرة قائمة على مفهوم التبشير والغزو الفكرى أساساً وإذا كانت موانى الشاطئ المغربى (الجزائر وتونس والمغرب) قد سقطت بين أيدى البرتغال (سبتة وطنجة وأصيلا وأزمور والصويره وأسفى) والأسبان (صخرة باديس الحربية ومدينة سبية وبلدة أفنى إلى يومنا هنا) فإن ذلك لم يحدث إلا بعد حروب ومعارك قاسية عنيفة أبلى فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن بما عرف عنهم من قوة إيمان . وإتقاء لخطر اتحاد إسلامى موسع فى أفريقيا ضد الصليبيين الإسبانيين أرسل فريناند ١٥٠١ بعد سقوط غرناطة وأثناء اشتداد المحنة وفداً إلى العاصمة: عاصمة المماليك يطلب عقد معاهدة صداقة ، كذلك فإن الراهب (خيميفس) الذى قاد الحملة الصليبية على الجزائر كان يدعى أنه يعمل جهاداً فى سبيل الله ، وكان البابا فى روما قد أصدر أمره إلى جميع البلاد المسيحية الأوربية أن تضع كل إمكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك أسبانيا من أجل

إخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم والدين المسيحي أخيراً وكان ذلك كله رد فعل الخوف الذى ملأ قلوب الغربيين والأسبانيين على الخصوص بعد إخراج المسلمين من أفريقيا من أن تزحف موجة جديدة على رأسها قائد مثل يوسف بن تاشفين أو عبد المؤمن وكان الأسبان يخافون أن يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ، وكان ظنهم أن يستسلم لهم المغرب فريسة طيعة وخاصة الجزائر ، ولكن الأمر لم يكن كما تصوروا فإن الأمة الإسلامية التى كانت قادرة دائماً أن تستجيش من أعماقها بالقوة القادرة على المقاومة والردع فى الوقت المناسب سرعان ما أخرجت عروج وخير الدين فتغير وجه التاريخ وتحولت المواقع من هزيمة إلى نصر ، وسجل التاريخ للجزائر دوراً بطوليا فى هذا العصر وفى إبان شراسة الاستعمار البرتغالى والأسبانى لايقل قوة عن دورها من بعد فى مواجهة الاستعمار الفرنسى : فقد حشدت الجزائر كل مدخورها الروحى والمادى ضد العدو المهاجم ، وأقامت دولة الجزائر : دار الجهاد ١٥١٦ التى ظلت تقاوم إلى ١٨٣٠ . « وظهر عروج وخير الدين فى الميدان ودخلا فى الأسطول العثمانى، وبقى عروج أسيراً فى يد قراصنة مملكة البندقية وعندما أطلق صراحه بعد تعذيب وتنكيل قرر أن يكرس حياته لمقاومة القراصنة واستمال اليه أخاه خير الدين حيث كان الصراع على أشده بين القراصنة الأسبان ومسلمى شمال أفريقيا والقادرين من الأندلس فشاركا فى تهريب الناجين والفارين منهم إلى شمال أفريقيا وبلاد الشرق واتفقا مع الأمير الحفصى بتونس أن يكون ساحل تونس وميناء حلق الوادى بالذات مؤئلا ومركزاً لقوتها البحرية لقاء خمس مايغنمونه من الأعداء ومن « جيجل » بعد افتكاكها من الايطاليين أخذا يشنان الغارات على القراصنة ، وكررا المحاولات ضد الأسبان فى ثغر بجايه ، وقد استطاع عروج وخير الدين ومن ورائهم الجموع المجاهدة الكثيفة من الاستيلاء على الجزائر وطرد الأسبان ووسعا مجال السيطرة حتى تلمسان وأقرت الدولة العثمانية هذا الوضع وقد دخل المغرب الإسلامى فى الدولة العثمانية عن رضا وطواعيه واستطاع خير الدين من بعد الحملة الأسبانية الكبرى على الجزائر ١٥١٩ أسر ثلاثة آلاف جندى من مدينة جيجل وواصل نشاطه سبع سنوات متصلة فاستطاع أن يسيطر على الملاحة فى المتوسط وإخضاعها لسيطرة الأساطيل الأسلامية ، كذلك فإنه استطاع اقتحام قلعة الأسبان المواجهة لمدينة (برج الفنار) وضربها عام ١٥٢٩ م وتوالت حملات الأسبان ولكنها هزمت شر هزيمة . ثم اختير خير الدين بعد ذلك عاما قائداً للبحرية العثمانية ولما حاولت أسبانيا وألمانيا وإيطاليا الوقوف فى وجه النفوذ العثمانى والسيطرة على بلاد شمال أفريقيا زحف خير الدين فى قوات كافية ودخل إلى تونس ١٥٣٤ وقد زحف شارل الخامس بعد ذلك فى أربعمائة سفينة ، و ٢٨ ألف جندى واحتل حلق الوادى

واتخذ جامع الزيتونة اسطبلا ولم يلبث خير الدين أن رد عليه بهجوم مفاجيء على جزر البليار واسترق منها ٦ آلاف شخص وعاد بهم إلى الجزائر وتولى قيادة البحرية الجزائرية (حسن أغا) الذى واجه القرصنة الأسبانية، حيث أعاد شارل الخامس ١٥٤١ الكرة وقاد حملة بحرية فى ٣٦ ألف جندى و١١٦ سفينة وقد سجلت الجزائر انتصاراً عظيما على أكبر حملة فى القرن السادس عشر وضد أكبر دولة ولم يرتدع شارل الخامس وحاول تنظيم حملات انتقامية منذ عام ١٥٤٣ ولكنها فشلت كلها كما فشلت حملته فى نفس العام على تلمسان . ولم تفلح مؤامرة شارل الخامس (الذى كان امبراطور أسبانيا) فى الإتصال بالأمير الى العثمانى خير الدين حيث عرض عليه الاستقلال لبلاد المغرب تحت حمايته، ولما أحس الاسبان بمساعدة فرنسا لهم، نزلوا ضد العثمانيين فى تونس ولكن درغوث التركى تمكن من النزول فى تونس ودخل فى صراع عنيف مع قوات أسبانيا فى البحر المتوسط وكانت طرابلس فى يد فرسان القديس يوحنا منذ عام ١٥٣٥ تسلموها هدية من الامبراطور الأسبانى شارل الخامس، وكان الأسبان قد استولوا عليها ١٥١٠ فلما استنجدت طرابلس بالسلطان العثمانى بعث إليهم نجدة بقيادة مراد أغا، فلما استعصت عليه طرابلس جاءته نجدة من سنان ودرغوث الذين قدما جميعاً إلى طرابلس وفكوها من الفرسان وطردوهم نهائيا ١٥٥١ م وجمع درغوث قوات بحرية كبيرة وحاصر جزيرة مالطا وتصارع من جديد مع فرسان القديس يوحنا واستشهد وهكذا نجد أن الغرب المسيحى ممثلا فى البرتغال وأسبانيا قد انطلق انطلاقة عنيفة حاقدة إزاء المغرب كله ولكن الدولة العثمانية كانت مع مجاهدى المغرب عونا على ضرب هذه المؤامرة ولما رأى البابا أن القوى الإسلامية صامدة وقادرة على رد الاعتداء بقوة، ألف حلفا مسيحيا ضد الدولة العثمانية اشتركت فيه البندقية وأسبانيا، وقد التقت قوات هذا الحلف بالأسطول العثمانى فى معركة (ليبانتو) الشهيرة عام ١٥٧١ على مدخل خليج كورنثه باليونان وتغلبت، ولكن الأتراك أعادوا تونس أواخر ١٥٨٣ ضربوا الحصار على حلق الوادى حتى أرغموا الأسبان والأمير الحفصى على الفرار إلى تونس ثم لاحقوهم هناك والتحموا معهم فى معركة فاصلة وهزموهم ولم يتوقف الأمر بعد على البرتغال والأسبان بل أخذت الدول الأوروبية جميعها تتصارع على الشاطىء الإسلامى الافريقى، وبدأ عصر القرصنة الاوربية المسيحية وقد واجه المسلمون فى تونس وطرابلس والجزائر هذا الخطر باتخاذ قوات بحرية للدفاع عن كيانها وشوطئها ضد الحملات والحروب الصليبية التى كانت تشنها الدول الاوربية، وقد واجـــه المغرب الإسلامى التحدى الصليبي (كما فعل أهل المشرق بالحروب الصليبية) بأعنف الوسائل التى تمثلت فى إنشاء أساطيل وإعداد قوات بحرية ضخمة تحدث أطماع

دول وممالك أوربا وظهر الأسطولين الفرنسي والانجليزى على أنقاض التركى والأسبانى وكانت هذه بداية مرحلة جديدة .

(٤)

ولقد كانت القرصنة الأسبانية البرتغالية أشد ما تكون هولا وفظاعة ، تفتك بالمسلمين فتكا ذريعاً ، وتعمل على استذلال رقابهم ، لولا أن الأتراك العثمانيين كانوا قد وطدوا فى المشرق أقدامهم ، وشيدوا اسطولا عتيداً واشتهر رجال البحر عروج وخير الدين وكانا قد تطوعا بنقل المسلمين من الأندلس إلى سواحل المغرب، ثم تعاقدا مع الأمير الحفصى التونسى على أن يجعلا قاعدة أعمالهم البحرية فى جزيرة (جربه) وأصبح النفوذ الأسبانى يزداد فى البحر والأسبانيون يتكالبون بكل جرأة على المسلمين ، ثم أرسل الجزائريون إلى بربوس خير الدين يستنجدون به فقدم وجعل مدينة الجزائر عاصمة ملكه ، ولما أرسل خير الدين إلى السلطان يشعره بدخول الجزائر تحت لوائه أمد السلطان الجزائر بجند وأسطول وأصبح الأتراك يقفون وجهاً لوجه أمام الأسبان المعتدين . وأذاق بربوس الأسطول الأسبانى أمر العذاب ودمره شر تدمير فى عدة مواقع كبيرة وامتد ميدان المعركة بين الغرب والإسلام من تلمسان إلى البحر المتوسط وكان للحكم التركى أثره الكبير فى إنقاذ الجزائر — والمغرب كله — من شر الاحتلال الأسبانى وكانت ولاية الجزائر تتمتع باستقلال داخلى تحت سيادة الباب العالى الاسمية وأقامت الجزائر فى مواجهة القرصنة الأوربية وعاد من الجهاد الذى يسفر عن الحرب مع الدول البحرية التى لم تربط علاقاتها التجارية مع حكومة الجزائر ، وكانت تحسن معاملة الأسرى المسيحيين وتسمح لهم بإقامة معالمهم الدينية علما فى نفس الوقت الذى كانت أسبانيا تقوم فيه بحرق المسلمين أحياء . ولقد انكسرت الدول الأوربية وخاصة الأسبان أمام الجزائر مرات ومرات، وحاولت أسبانيا أن تنال من الجزائر ، ولكنها كانت أعظم مدينة حصينة بالبحر المتوسط كله ، وكان بها من المواقع الضخمة ما يفوق فى رميه وقوته مدافع أوربا وكان الأسطول الجزائرى مؤلفاً من ٧٢ قطعة بحرية يحمل كل منهما ٣٠ مدفعاً إلى ونحو من ١٤٠ سفينة من ذات العشرين مدفعاً .

(٥)

ولقد حاول الغرب فى العصر الحديث وهو يكتب التاريخ أن يزيف كثيراً من الوقائع ، ومن ذلك محاولة الإدعاء بأن المسلمين كانوا يمارسون القرصنة على النحو الذى عرف عن للغرب نفسه والواقع أن ما كان يمارسه الغرب فى مواجهة أساطيل المسلمين وفى وجه هجرة الأندلسيين ، إنما يسمى بالقرصنة كذبا وتموبها ولكنه فى الحقيقة يسمى باسم لصوصية البحر Course أما القرصنة Firaterie فى مفهومها الصحيح فهى نوع من أنواع الحروب البحرية التى تقع بين الدول المتعادية التى كانت الغاية

منها ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه والواردة إليه وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية وقد كانت الحكومات تسلم أوراقا رسمية للقراصنة تكسبهم بذلك صبغة مشروعة تميزهم عن لصوص البحر وتجعلهم شبه جنود ومتطوعين أحراراً يعملون فوق البحر، كذلك فالمعروف أن القراصنة لا يعملون إلا مدة الحرب فحسب ولقد نشطت القرصنة الاسلامية بهذا المفهوم داخل القيود المشروعة وفى نطاق القرصنة العالمية فى ناحيتين: (الأولى) ناحية الشرق حيث كانت السلطنة العثمانية أيام عنفوان قوتها تحارب كل الدول الأوربية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط فإلى جانب أسطولها الضخم الذى كان يدوخ البحر وتحتل الجزر والموانى وينقل الجنود والعتاد، أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولا للقرصنة النظامية يحارب من حارب سلطانهم ويسالم من سالمه، وعظم شأن هذه القرصنة فأصابت تجارة وأرزاق الدول المعادية فى الصميم. واشتهر من قراصنتها أبطال عمالقة لعبوا فى التاريخ الاسلامى أدواراً سجلت أسماءهم فى سجل الخالدين أمثال عروج وشقيقه خير الدين وأمثال قالش على وطورغود، وسنان وإضرابهم. (الثانى) فى بلاد المغرب الاسلامى حيث نشأت القرصنة الاسلامية أول ما نشأت ببلاد الأندلس وكانت مدينة (المرية) مركزها الأكبر، فكانت بأعمالها الواسعة فى البحر المتوسط وفى المحيط وفى مضيق جبل طارق تشارك فى ذلك الصراع الاسلامى المسيحى الرهيب وتتصدى لسفن الأسبان وحلفائهم. وذلك بينما كان للأسبان والبرتغال قراصنة فى ذلك الحين من أولى القوة والبأس يعترضون فى كل البحار سير السفن الاسلامية وخاصة على سواحل المغرب الاسلامى وإزدادت هذه القرصنة على السواحل المغربية جرأة وعدوانا عندما حم القضاء بمسلمى الأندلس وأخذت بقاياهم وفلولهم تخترق البحر، فارة بدينها وشرفها وبقايا متاعها وأموالها إلى سواحل الشمال الأفريقى فكانت سفن القراصنة الأسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الاسلامية وتسبي من فيها من رجال ونساء وتأخذ ما معهم من متاع، وقد اشتد عضد المسلمين فى المغرب بمن جاءهم من مهاجرى الأندلس الشفريين العارفين بالملاحة وفنونها الماهرين فى صناعة السفن فأخذت المدن الساحلية تنشىء سفن القراصنة دفاعا وتقابل العدوان بالمثل وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا، ووهران وشرشال والجزائر ودلس وبجاية وجيجل، تخرج جريئة إلى سواحل أسبانيا تقاتل فيها العدوان بمثله فتخرب معالم العدو وتأخذ ما استطاعت أخذه من خيراته، وأرزاقه، وتسبي ما استطاعت سبيه من رجاله ونسائه وتمد يد الاعانة والمساعدة للمنكوبين البائسين من رجال الاندلس، وكان لمدينة وهران فى مستهل القرن ١٦ (١٢ سفينة) قرصان بلغ قوتها وجرأتها انها هاجمت سواحل الشى واليكانتى وأخذت منها الغنائم والأسلاب ثم صارت ست منها إلى مرسى مدينة مالقه الأسبانية فاقتحمها وأحرقت داخلها كل السفن المعادية التى كانت بها.

يقول الأستاذ ف . ا . بروديل : أن القرصنة لم تكن فى غرب البحر المتوسط بالشىء الجديد فمنذ قرون عديدة كان المسلمون ، وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة فى البحر ، ولا يحق لنا أن نغالط التاريخ ، فإن القراصنة المسيحيين كان عددهم كبير جدا خلال القرنين ١٥ ، ١٦ بهذا البحر المتوسط ثم خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك ، لكن القرصنة الإسلامية زادت ضراوة فى الشمال الأفريقى بعد إبعاد مسلمى أسبانيا واضطرارهم إلى الإلتجاء لهذا الشمال .

(٦)

ولا ريب أن القرصنة قد انطلقت من أوربا ومن أسبانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، وبريطانيا والدنمارك والسويد وبلجيكا وغيرها من الدول الأوربيه ، أما الدفاع فبدأ من المغرب الإسلامى ، إبتداء من ١٥١٠ بتدخل عروج وأخيه خير الدين بعد أن كانت القرصنة الأوروبية المقرونة بالصليبية شائعة دائمة سائدة فى البحر المتوسط ، هذه القرصنة بدأت فى أوربا بالهجوم وكانت احتلالا صليبيا وكانت أيضاً قرصنة بقصد الأغراض الدينوية ، بقصد الكسب والسلب والنهب ، ولم تكن من المغرب الإسلامى إلا دفاعا عن النفس ، وقد أنقذت هذه الحركة الجزائرية كثيراً من الأندلسيين من أسبانيا ، وإذ ذاك فقط قويت البحرية الجزائرية إبتداء من عام ١٥٣٠ ووصلت سفنها إلى سواحل ابرلندا وانجلترا والدنمارك ، وفى القرنين ١٧ ، ١٨ أصبحت قوية فعلا وقلبت الموازين وسادت البحار طول القرون التالية حتى عام ١٨٢٧ كانت البحرية الجزائرية مجرد دفاع عن الشواطىء والسيادة ضد حركة صليبية جديدة خطط لها على مستوى عالى ، وبدأ تنفيذها « فرديناندو الكاثوليكى » على سواحل المغرب والجزائر ونائب ملك صقلية على سواحل تونس وطرابلس . وكانت القرصنة الصليبية الأوربية تمتد وتبسط نفوذها وتنطلق بعيداً ، وفعلا ذهبت بعيدا إلى الفيلبين وإذ أمتدت أسبانيا حتى الفيلبين أمتدت هولندا إلى أندونيسيا فلما جاءوا إلى الجزائر هزموا شارل الخامس شر هزيمة ، وقاومت حملات أوروبية أخرى عديدة وخاصة فرنسية إبتداء من عهد هنرى الرابع قامت بها البحرية الأوربية ولكنهم نكصوا كلهم على أعقابهم مدحورين أمام شواطئنا تاركين وراءهم أسلحة وعتاداً وأسرى فى المعارك التى لا تكاد تحصى كما منى الاسبان والبرتغال فى المغرب بهزيمة شنيعة فى معركة وادى المخازن المعروفة .

(٧)

ولا ريب أن قيام الامبراطورية العظمى فى التاريخ الاوربى ١٥٢٠ م وهى أمبراطورية شارل الخامس أو شرلكان كانت أكبر من حمل أحقاد الصليبيين الغربية على المسلمين ، وكان شارل قد جمع بين يديه أسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصقلية وطليطلة وسردينيا ونابولى وجزءاً من ألمانيا وأغلب البلاد الأمريكية المعروفة ، وأصبحت هذه الامبراطورية تقف أمام الامبراطورية العثمانية ودولة الجزائر ، وقد لقيت الانحدار فوق أرض الجزائر وأنهار الامبراطور مكسيمليان تحت ضربات الأتراك العثمانيين الذين تحالف معهم ملك فرنسا فرنسو الأول . ومما وقع فيه شارلكان : احتلال عاصمة ألبانيا ١٥٢٥ وانتهاك حرماتها بواسطة جنوده من ألمان وأسبان واحتلال تونس ونهبها وانتهاك حرمة سكانها ١٥٣٥ .

(٩)

اوربا والغرب بين المسيحية والاستعمار

١ — أوربا المسيحية

عبرت المسيحية : دين الله المنزل بالحق على عيسى بن مريم إلى أوربا الرومانية الوثنية التى كانت تعيش سنوات انحلال الامبراطورية المتيدة ، وكان ذلك على يد « بولس » الذى ظهر فى السنة الثامنة بعد المسيح ، وكان من أكبر أحبار اليهود المعروفين بالعلم والذكاء ، وكان فى أول أمره من أعداء المسيح وأشد المنكرين على تعاليمه مع أنه لم يجتمع به قط ، ثم عاد فادعى إن المسيح هبط عليه وعلمه الحقائق وأمره بإعلانها فظهر للناس فى طوره الجديد . ولد فى طرطوس بآسيا الصغرى ، إسمه الأصلى (شاءول) رومانى الجنسية درس فى القدس وكلف من رئيس الكنيس اليهودى بالذهاب إلى دمشق لمقاومة المسيحية قال : أنه فى طريقه رأى نوراً ساطعاً يدعوه إلى الإيمان بالمسيح وقد أدعى أنه تلقى المسيحية من المسيح نفسه لا عن طريق الحواريين . وقد ثار عليه اليهود بعد اندماجه فى المسيحية وقبض عليه فى أورشليم فسجن عدة سنين قبل أن يرسل إلى روما ومن هنا أدخل المسيحية إلى عالم الغرب وهو فى نظر كثير من المؤرخين الغربيين : المؤسس الحقيقى للمسيحية الحالية فقد وضع قواعد جديدة اختلفت بها عن الرسالة المنزلة وأمامنا وثيقتين أحدها للعالم الغربى (بيرى) والأخرى للفيلسوف (ويلز) يقول بيرى [جاء شاءول وهو يهودى رومانى من الفريسيين أحد طبقات اليهود

العليا لم يرى عيسى ولا سمعه يبشر الناس ، وقد لعب شاءول هـذا دوراً كبيراً أنقذ به المسيحية بعد أن أوشكت أن تدخل عالم النسيان الذى ضم كثيراً من أمثال هذه الحركات ، وكان شاءول فى عهده أكبر أعداء المسيحية أوقع بأهلها ألوانا من الاضطهاد والقتل والتعذيب ولـكنه فجأة تحول إلى المسيحية واستخدم تجاربه ومكانته لينفع المسيحية وينتفع بها . وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبداً ولـكن شاءول كون المسيحية على حساب عيسى ، فشاءول الذى سمى فيما بعد بولس — هو فى الحقيقة مؤسس المسيحية وهو يمتاز بأنه صاحب دراية فى السياسة والابتـكار ، أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود ، أدخل صوراً من فلسفة الأغريق ليجذب له أتباعاً من اليونان فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة ، وهذه الاصطلاحات التى قال بها بولس كانت شهيرة عند كثير من الفرق اليهودية فانحازوا إلى ديانة بولس ، وعمد كذلك ليرضى المستضعفين اليونان فاستعار من فلاسفة اليونان فـكرة إتصال الإله بالارض عن طريق الـكلمة (فيلون) أو ابن الإله أو الروح القدس ـ بدأ بولس ديانته فى أنطاكية حيث نشأ لأول مرة التعبير الشهير المسيحية Christian وبدأت تنتشر هــذه الديانة فى المدن حيث تـكثر الحاجة والفقر . فبولس هو المؤسس الحقيقى للديانة المسيحية وقد طور فـكرة « المسيح » من الناحية اللاهوتية والناحية الإنسانية وجعلهـا تتناسب مع فـكرة الإنقاذ القديمة فقدم آدابا مستحدثة فى طابع قديم مألوف ، وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية . ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية بل على العكس اقتبس كثيراً من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين وليبعد ديانته عن أن تذوب فى اليهودية ومنها أنه جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد ، وأهمل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود كما غير أيام الأعياد .

وعيسى أصبح ابن الله حملت به أمه العذراء حملا غير طبيعى واحتلت صورة العذراء والمسيح مكانا مقدساً أحتلته قديماً صورتا حورس وازوبريس ووضعتا فى كل الـكنائس . وعلى الرغم مما أخذت المسيحية من الوثنية لم تصبح المسيحية وثنية فى روحها بل ظلت متمسكة بحفظها الدينى الذى ورثتـه عن اليهودية كما حافظت على ابتعادها من الناحيـــة الجسمانية الشهوانية . أما الفيلسوف (هـ . ج . ولز) فيقول : كان القديس بولس من أعظم من أنشأو للمسيحية « الحديثة » ، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس ، وكان اسم بولس فى الأصل شاءول وكان فى بادىء الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس وقد أوتى ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية فتراه على علم

عظيم باليهودية والميثراسية ، وديانة ذلك الزمان الذى تعتنقها الاسكندرية ، فنقل إلى المسيحية كثيراً من فكرتهم ومصطلح تعبيرهم . ولم يهتم بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها وهى فكرة ملكوت السموات ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح الموعود فقط، بل أنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر ، فوته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة فى أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشر (مع ملاحظة أن الاسلام لا يقر هذا المفهوم ويقرر أن عيسى رسول الله وليس ألها ولا أبى إله وأنه لم يصلب كما لا يقر نظرية الخطيئة) وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالقسيس الحليق وتقديم النذور والهياكل والشموع والتراتيل والتماثيل التى كانت لعقائد مثراس والإسكندرية بل تبنت أيضا حتى عبارتها فى عبادتها وأفكارها اللاهوتيه ، وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن أوزيريس : كان ربا مات ليبعث حيا وليمنح الناس الخلود » .

من هذين الوثيقتين التاريخيتين اللتين كتبهما رجال مسيحيون من خيرة مفكرى الغرب نرسم الصورة التى عبرت بها رسالة السيد المسيح — التى جاءت ختاما لرسالات أنبياء بنى إسرائيل — عبرت إلى الغرب ، وكأنها ديانة مستقلة ، وديانة دعوة ، وقد تحررت تماما من أكثر صلاتها السماويه وارتباطها التاريخى ، وانصهرت فى مجتمع مشكل مكون له حضاوته وثقافته وقانونه ونظامه فكان من العسير عليها أن تجد مكاناً إلا بعد مشقة شديدة . وقد وجدت فى سنوات انتقالها الأولى معارضة شديدة ، ولكنها لجوهرها الربانى استطاعت أن تشق طريقها إلى النفس الإنسانية الغربية الوثنية التى كانت غارقة فى الشهوات والآثام فوجدت للمؤمنين بها الذين واجهوا بعد ذلك أشد أنواع الاضطهاد والتعذيب حتى اعترف (قسطنطين) بها كديانة للدولة عام ٣٢٣ م وكان عهد دقلديانوس ٢٨٤ م من أقسى عهود التعذيب والاضطهاد . ولقد كانت فكرة بولس قائمة على استرضاء كل العناصر الوثنية والمتدينة وغيرها حتى تنفذ المسيحية إلى المجتمع الذى كان فى ذلك الوقت يعيش حياة مريرة من العبودية القاسية ، والتسلط الحاكم الشنيع ، وحيث يسيطر الحكام ويتأملون، ويعيش المجتمع كله حياة الذل والحرمان، وعندما دخلت الدولة الرومانية فى عهد قسطنطين المسيحية تحولت الصورة ثمة: «فقد حمل الناس على الدخول فى المسيحية بالسيف فدخل الناس فى الدين حاملين معهم عقائدهم الوثنية الموروثة التى عز عليهم أن يتحرروا منها لشدة إلتصاقهم بها فخلطوا بينها وبين دينهم الجديد فكان هذا أول ما طرأ على الديانة من الانحراف ومن هنا فقد أصبح أتباع المسيحية فريقان: فريق الشرقيين الذين نزلت فيهم الديانة والذين يؤمنون بأن المسيح عليه السلام نبي مرسل من ربه ، وفريق الغربيين

الرومانيين الذى شكل فكرهم بولس ، والذين يقولون بألوهية بالمسيح وقد وقع الصراع بين الفريقين وكان عنيفاً فقد كان (أريوس) وأتباعه يعارضون المذهب الرومانى ويعلنون موقفهم واضحاً بالتفرقة بين الألوهية وبين النبوة وقد عقدت مجتمعات متعددة لمناقشة هذا الخلاف وحسمه وقد حسم أخيرا لحساب المذهب الرومانى فلا ريب كان لدخول المسيحية إلى الغرب مصدراً من مصادر التغيير ، ولكنها وقعت فى براثن الفلسفة اليونانية فاحتدم الجدل بين الفلاسفة والنصارى وبين النصارى وأنفسهم ، وكان الخلاف حول طبيعة المسيح ، « ولم يكن للنصارى الأول من العلم ما يمكنهم من مقاومة الفلسفة اليونانية فتغلب العنصر المسيحى اليونانى على العنصر المسيحى المركب من بسطاء اليهود فاختلطت وتغلبت مسائل الفلسفة اليونانية على تعاليم الديانة المسيحية . وقد ظلت فكرة (أريوس) مسيطرة زمنا ، القائلة ببشرية المسيح ، وأنه ليس بآله ، وكان المذهب الأريوسى شرقياً وقد ظل مسيطراً ، حتى عام ٣٦١ عندما ثار الأساقفة الغربيون ونادوا بمذهب ألوهية المسيح ، وأصدر الملك تيودسيوس (الذى جاء بعد الملك قسطنطين) قراراً بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا القائل بألوهية المسيح ومن يخالف ذلك هرطقيا مرزولا ومستوجباً لأشد العقوبات . وكان الأسقف أنفيلوك هو الذى أقنع الأمبراطور تيوسودوس بهذا الاتجاه ومن ثم استقرت فكرة ألوهية المسيح . ويرى توينبي : إن المسيحية هى نتاج لامتزاج الحضارتين اليهودية واليونانية . ويقول: إن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة عالمية موجودة ، آنذاك ، هى الأمبراطورية الرومانية ، واستغرق تمسيح هذه الأمبراطورية من الكنيسة الكاثوليكية ثلاثمائة سنة .

ويقول العالم المسيحى (أرنست دى دينسين) فى كتابه :

ISPAM OR TRUE CHRISTIANI

إن المسيحية انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار البوذية واليونانية على يد بولس : وإن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء به الإنجيل ليس هو الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع بين المسيحيين اليوم وبين مفهوم الإسلام ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس : ذلك المآزق اليهودى والمسيحى وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل ، وملئه الصحف بالنبوات والأمثلة ، أن بولس فى تقليده لأسطفانوس راعى (Essenie) المذهب الإنسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، أنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التى يحتوى عليها الأنجيل اليوم والتى تعرض المسيح بصورة لا تتفق مع التاريخ أصلا ، ليس

المسيح هو بولس ، والذى جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس العقيدة المسيحية والأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً » .

ويرد الكثير من الباحثين الغربيون : الفكرة الأساسية فى المسيحية : « التثليث » إلى الفلسفة الأغريقية ، ويقولون : إن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية الحديثة ، لذلك يوجد بينهما مشابهات كثيرة ، ومن هنا فقد صار للمجتمع الغربى بعد المسيحية : اضطراب فكرى شديد لتلك التداخلات بين الدين الحق المنزل وبين الفلسفات ، وفى هذا يقول لورد ما كولى : « لم يسلم تابعوا المسيح من النصارى » أن يصيبهم فى إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الإله لهم فى صورة آدمى مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان يبكى على القبور وينام فى البيوت ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريخ عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء وميسليا وغيرهما إلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى إلهات لدى اليونان » وبعد ، فهل استطاعت المسيحية على هذا النحو المغاير أن تعطى المجتمع الغربى كلمة السماء : ألحق أن المسيحية حين وصلت إلى أوربا ، وصلت إليها نظاماً روحياً وإرشاداً خلقيا فقد كانت روما تقوم على القانون الرومانى على الحياة والمجتمع ، ومن هنا فهى لم تستطع أن تتجاوز دائرة العقيدة ، كذلك فإن المسيحية حين اعتنقت مفهوم الرهبانية عارضت العمل الدنيوى معارضة شديدة وجعلت الحياة الإنسانية قاصرة على العمل للأخرة ، وفى كلا الأمرين عجزت الدعوة الوثنية التى عبرت إلى الغرب أن تعطى مفهوما حقيقيا لرسالة السماء .

(١٠)

الامبراطورية الرومانية

استولى القوط الغربيون على روما عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم الهيروليون الذى قوضوا أركان الأمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ وقد ضمت الامبراطورية الرومانية بين حـــدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت أقصى اتساعها فى عهد الامبراطور ترجان — ١١٧م وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسى غرباً حتى الفرات شرقاً فشملت

فى الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وأبيريا وإيطاليا بالإضافة إلى شمال أفريقيا من المحيط الأطلسى حتى طرابلس ، وشمل الجزء الشرقى من الامبراطورية : البلقان من آسيا الصغرى وأهالى بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقة وقد امتد نفوذها السياسى إلى ما وراء حدودها التى تسيطر عليها واستوعبته شعوباً ذات حضارة قديمة كالمصريين واليونان . ويرد المؤرخون قيام الامبراطورية الرومانية إلى عام ١٤٦ قبل الميلاد ومنذ العام ٣١ قبل الميلاد أصبحت الدولة الرومانية امبراطورية . ومن أهم أحداث التاريخ أن المسيحية ظهرت فى عصر الامبراطورية الرومانية وكانت منطقة الشام وفلسطين التى ظهر فيها السيد المسيح تحت سيطرة الرومان وقد تعقب الأباطرة الرومان المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديدين منذ البداية إذا كانت المسيحية منافسا خطيراً للوثنية التى كانت تدين بعبادة الامبراطور ، وبعد فترة دقلديانوس أشد ما واجه الكنيسة المسيحية ، فقد قدم كثير من الشهداء أرواحهم فداء لرسالة السماء ولكن المسيحية عادت فانتصرت عام ٣٢٥ . وفى عهد قسطنطين الأكبر ٣١٣م الذى اعترف بالديانة المسيحية كإحدى ديانات الدولة المتعددة فى ذلك الوقت ولم تلبث المسيحية أن انقسمت إلى أريوسين واثناسيوسين ، وقد اعترف قسطنطين بالمسيحية بمذهبيها مع عبادة الامبراطور ، التى كانت تعتبر مصدراً أساسياً لقوة الأباطرة ونفوذهم وقد أقام قسطنطين قوته السياسية على دعائم رئيسية هى : [العبادة الامبراطورية + العقيدة الأريوسية + العقيدة الاثناسيوسية] وقد احتفظ بالعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها كما احتفظ كأسلافه الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم . ويقول المؤرخون : « لقد التقى قيصر والمسيح فى المجتلد فانتصر المسيح على قيصر » ولاريب أن المسيحية قد كسرت حدة الوثنية واليهودية التلمودية ومهدت للتوحيد الخالص خلال ستة قرون كاملة وقد اتخذ قسطنطين : القسطنطينية عاصمة له عام ٣٣٠ وكان من أثر ذلك أنه عندما اجتاح الغزاة أوربا سقطت دولة روما عام ٤٧٦ وبقيت الدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينية حامية للمسيحية حتى اقتحمها محمد الفاتح عام ١٤٥٣ حيث سقطت القسطنطينية نهائياً فى أيدى المسلمين وبعد سقوط الدولة الرومانية فى أوربا قامت بدلا منها دولة الكنيسة وظهر سلطان البابا سياسياً ودينياً وأصبح له نفوذه الواسع على ملوك أوربا وأخذت أوربا تتجمع فى وحدة فكرية مسيحية تحت لواء الكنيسة ، وفى نفس الوقت ظهرت الرهبانية واكتسحت المجتمع الغربى كله وبالمسيحية انتقل الغرب من مرحلة أخرى فى الفكر والعقيدة والثقافة . كانت الفلسفة الرومانية قائمة على عبادة القيصر ، وإطلاق اللذات والشهوات ، واستعلاء السادة وعبودية العبيد ، فلما جاءت المسيحية هدمت هذه الأسس الثلاث وسارعت بإسقاط المجتمع الرومانى جملة فإن الاعتراف بالمسيحية

عام ٣٢٥ وسقوط روما عام ٤٧٦ مالا يزيد عن قرن ونصف قرن تحول فيها المجتمع الغربى تحولا خطيراً وانتهى ذلك الإطار اليونانى الرومانى الذى قام على الإلحاد والإباحية والعبودية ودخلت أوربا حينئذ فى مفهوم جديد قوامه عبادة الله وتحريم الإنسان والدعوة إلى الأخلاق غير أن هذه العوامل الثلاثة لم تستكمل وجودها فقد شاب الدعوة إلى عبادة الله إنحراف التفسير الذى قدمه بولس وشاب الدعوة إلى تحرير الإنسان روح النسك والرهبانية التى نقلت المجتمع الغربى من التحلل الخطير إلى العزلة التامة .

يقول روبرت بالمر فى كتابه تاريخ العالم الحديث : لقد انتشرت المسيحية فى البداية بين الفقراء المحرومين من بهاء الحياة الأغريقية وزهو الحياة الرومانية أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم إلا أن يرجو المسرة على الأقل فى العالم الباقى ، ثم أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى ، ولم يحل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الرومانى يدين بالمسيحية رسمياً ، ودخل فى المسيحية المفكرون والرجال الذين أخذوا على عاتقهم توحيد المعتقدات المسيحية مع الفكر الأغريقى الرومانى التقليدى وفلسفته التى مر عليها ألف عام وأهمية المسيحية فى دخولها أوربا ، أنها جلبت مفهوما جديداً للحياة البشرية ، فإذا قاد الاغريق الإنسان إلى عقله فإن المسيحية دلته على روحه وعلمته أن الارواح متساوية فى نظر الله وأن كل نفس بشرية مقدسة وطاهرة وإذ عرف الاغريق جمال الروح استبدل المسيحيون القناعة الذاتية بثمرات الاعمال البشرية التى كان يؤمن بها الاغريق والوثنيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواصل لله ويشير روبرت بالمر إلى أن المسيحية أحدثت بذلك ثورة ، إذ إليها يرجع الفضل — لا إلى الفلسفة العملية — فى تبديد الكثرة من الآلهة والآلهات الصغرى والعظمى وأبطال ضحايا الدماء وعملية التضحية بالنفس ، واختفت بفضل المسيحية عقائد الوثنيين فى آلهتهم المحلية ، أو القبلية أو القومية ، وأصبح على جميع العالم أن يعتقد بآله واحد للخلاص من الآثام بعناية إلهيه واحدة تتجه إليها القلوب ؛ وكان من شأن المسيحية أيضاً : أن كشفت أن الامبراطور فى الدولة الرومانية ليس كما كانوا يصورونه أعلى من كل مخلوق على وجه الارض .

ويقول : لم يكن فى نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس فبعض الآلهة يتصرفون كالناس وبعض الناس أكثر شبهاً بالآلهة من غيرهم ، فالأمبراطور كان يعد فى الحقيقة إلهاً ، « الآلهة قيصر » وقد اقيمت العبادة للقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التى كانت هى العالم نفسه ، وقد رفض

المسيحيون ذلك بشدة وامتنعوا عن قبوله ، وقد عرض القديس أوغسطين : العقيدة بصورة منظمة وواضحة فى كتابة مدينة الله (٤٢٠ م) على ضوء قول المسيح : « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كان العالم عالم القيصر ، وكان عهد القديس أوغسطين قد أشرف على الإنهيار فقــد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها ٤١٠ م ، وقد كتب أوغسطين كتابه فى ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وأن كان العالم تلاشى فإن هناك عالماً آخر أ كثر خلوداً وأهمية ، وقال أنه يوجد فى الحقيقة مدينتان : المدينة الأرضية والمدينة السماوية ، فمدينة الإنســان زائلة ومدنية الله هى الخالدة ، والمدينة الأرضية هى ملك الدولة والأمبراطور ، وملك السلطات السياسية والخاضعين للسياسة ، وقال : أن الإمبراطور إنسان والحكومة ليست أزلية ومطلقة التصرف . وهى خاضعة فى الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا ، وأن هذه القوة تقع فى مدينة الله ، ولا ريب أن هذا التحول فى مفهوم المسيحية قد اتسع فى القرون التالية وأحدث تأثيراً بعيد الأثر خرج بالدين الإلهى عن وضعه الصحيح ، وخاصة فى مفاهيمه التى تتصل بالصلب والخطيئة والتثليث : وما أشار إليه روبرت بالمر : من قوله : (إن الله نفسه قاسى الآلام بهيئته الإنسانية على الصليب) تعالى الله عما يقولون علوا عظيما . ولا ريب كان لهـذه المفاهيم أثرها فى ذلك التحول الخطير الذى عرفته أوربا فى عصر النهضة خروجا من الفكر اللاهوتى كلية إلى الفكر الوثنى اليونانى والرومانى وتجديده . واعتباره أساساً للنهضة وللحضارة الغربية القائمة ويرى أدوار جيبون أن المسيحية هى أبرز عوامل سقوط الأمبراطورية الرومانية لأنها جاءت بتعاليم جديدة لا يتفق مع القيم التى ورثتها روما عن الوثنية اليونانية والعصور القديمة كلها ، وأن الاتجاه الذى قدمته المسيحية أدى إلى أضعاف الروح الحربية وامتد تأثيره إلى جميع مرافق الامبراطورية مما مكن الجرمان من هجماتهم التى زلزلوا بها أركان الامبراطورية .

(١١)

الـكنيسة

تؤلف الـكنيسة جزءاً لا يتجزأ من العقيدة المسيحية . ولم يكن معنى كلمة الـكنيسة chureh مقتصراً على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد الـكنيسة أيضاً المجتمع المسيحى بأسره بعلاقاته المادية والمعنوية إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الـكنيسة الأوحد عن طريق الإيمان ، ولما كان الدين المسيحي يرتـكـز بصورة عامة على ما جاء فى العهد القـديم والجديد، وعلى ما تناقلته

الألسنة مما لا يكتب وتدور العقيدة فيه حول الخطيئة الأولى (riginalen) خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالسقوط إلى الأرض وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت ثم شمل الغضب (فى مفهوم هذه النظرية) ذرية الإنسان ، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة فى نسله وإن مهمة كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح كانت الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح ، لما كانت الديانة تقوم على هذه النظرية فإن الكنيسة هى الركن الركين فى عملية الإنقاذ وهى تعتمد فى هذه العمليه على رموز دينية يشار إليها بالأسرار السبعة saeromonts لأنها صلات الوصل الخفيه إلى توطد الرابطة الروحية بين المسيح وأتباعه . وعن طريق ممارسة تلك الاسرار تحتضن الكنيسة الفرد المسيحى من المهد إلى اللحد وجعلت هذه الاسرار سبعا حددها المسيح نفسه ولان حياة الإنسان والروحية كحياته الجديدة تتطلب هذا العدد ، ومن أبرز المتطلبات الروحية (التعميد) (Peptism) هو السر الذى قصد به إزالة الخطيئة الاولى ومنح الولادة الروحية الثانية ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التغطيس . وكان هذا من أهم أعمال الكنيسة وكذلك فيما يتعلق بالتوبة التى تمارس بالاعتراف أمام الكاهن وقد اتبعت الكنيسة فى تقسيماتها الإدارية الانظمة التى ورثتها عن اليونان ، وقد صور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية فى العصر الوسيط فأنها أشبه بحكومة ملكية يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق فى الشئون الروحية وهو المشرع الاعلى ، وليس هنا من مجلس مهما سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته وإن كل تشريع يعتمد على موافقته ، ويمكن للبابا إلغاء أى قانون مهما كان قديما لم يشر له فى الإنجيل ، ويساعد البابا مجلس من الكرادلة ويتم الإشراف البابوى من روما على سائر الجهاز الإدارى فى العالم المسيحى بعدة أساليب . وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقا ٣٢٥ م وما بعده وعلى قرارات البابوات ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم يقاطع بموجبها الصادرة بحقه دينيا ودنيويا وقد يصدر البابا عقوبات التحريم ضد مدن وأقطار بأ كملها وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر توضحت فى سياسة البابا أنوسنت الثالث وظهور فرقتى الفرنسيسكان والدومنيكان ونشاط الاديرة النسائية ومحاكم التفتيش . وفى عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مرتبة ، فقد تمكن من فرض سطوته على عدة ملوك فى أوربا وأصبحت مملكتهم تابعة بالمعنى الاقطاعى للبابوية (انجلترا — البرتغال — الاراكون) وقد أشير إلى أن البابا وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الا كبر وأعلن أن السلطة السياسية ، وقد كانت

البابويه من الناحية الرسمية هى التى تنطق بلسان الدين المسيحى وكان رجال الدين فى الغرب يمثلون نسبة عددية ضخمة بالقياس إلى السكان فى تلك العصور وكانت الكنائس والأديرة أملاك واسعة وكان عدد من الأساقفة ينحدرون من أسر النبلاء فكانوا يديرون أملاك الكنائس على النمط الذى يدير به مراء الإقطاع إقطاعاتهم ، وكان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جامعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم له ويتسلمون منه قطائعهم ، وكان للكنيسة طموحها السياسى الواسع وأثرها القوى فى الحياة العامة .

ومن أكبر أعمال الكنيسة . تلك الحرب التى أثارتها على المسلمين فى أسبانيا وفى المشرق . ويعد البابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثانى هما أبرز رجال هذه القضية وللبابا جريجوار السابع دوره الخطير فى تحول القتال بين المسلمين والمسيحين فى أسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوربا على اختلاف أقطارها وكان لها أثاره البعيدة فى حياة أسبانيا الإسلامية . ففى عهد سلفه البابا اسكندر الثانى ١٠٦٣ اندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة النورمان إلى أسبانيا وانتزعوا حصن (بربشتر) من أيدى المسلمين بعد مذبحة هائلة ، أما جريجوار فقد تجاوز التمضيد إلى الدعوة الصريحة يوجهها البابا بنفسه إلى أمراء المسيحية يحضهم على المشاركة فى هذه الحرب المقدسة ويعلن مقدما سيادتهم على الأراضى التى ينتزعوها من المسلمين ومن ثمرة ذلك سقوط (طليطلة) فى ٦ مايو ١٠٨٥ بعد حصار دام سنين ، الحدث الذى استقدم بسببه المرابطون من المغرب العربى ووقوع معركة الزلاقة المشهورة . أما البابا أوربان فقد كان له دوره الهام فى انتقال الحروب الصليبية إلى شواطىء البحر المتوسط وتحريض تلك الجماعات بادعاء غير صحيح على اقتحام عالم الاسلام باسم استنقاذ بيت المقدس ثم كانت الكنيسة بعد ذلك هى التى تضع علامة الصليب على صدور جنود الغزو الأسبانى والبرتغالى وتعطى هذه المجاميع الضخمة مبررات الغزو الإسلامى لأراضى الإسلام باسم التبشير ، وخاصة مابعث من شراذم إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيا على نحو ربط بين التبشير والكنيسة من ناحية وبين الاحتلال والاستعمار الغربى كله . وبذلك صك تاريخها بأنها اختارت لنفسها خدمة الطبقات والقوى الحاكمة فى عصر الاقطاع وخدمة الاستعمار فى عصر الرسمالية .
ويصور نفوذ الكنيسة فى هذه المرحلة الكاتب الغربى (ج كويب أجا كوب) فيقول : لقد أمتد نفوذ الكنيسة فى العصور الوسطى إلى ما هو أعمق من الهيمنة على المجتمع ، مع التسليم بأن رجال الدين فرضوا لأنفسهم حقوقا فى ولاء أهل كنيستهم ، وهى حقوق لا أصل لها فى الروابط الطبيعية بين رجال الدين وأهل كنائسهم ، لاصلة لها بالجدارة الشخصية المفروضة من رجال الدين ، وقامت

هذه الحقوق على الاعتقاد الدينى بأن مملكة المسيح ليست فى هذا العالم ، لقد ظل أهل القرون الوسطى للكنيسة ولرجال الدين بواسطة الاعتراف والكفارة والتناول الكلى فى العشاء الربانى ، ثم عير رجال الدين دائماً بالنفاق والإرشاد والفجور ، وأن ما تأخذه على كنيسة العصور الوسطى مما نسميه مساوىء أو خرافات هى فى الواقع جزء من الثمن الذى دفعته الكنيسة لوصولها إلى مرتبة العالمية ولقد أقبل الفرد برغم فطرته الوثنية على المسيحية ودان لها بالتبعية ولم تلبث الكنيسة أن صبغت حياته كلها صبغة تامة ، إذ أحس الناس أن الكنيسة هى التى تفسر لهم طريق الحياة لأن سر الكنيسة لم يكن جزءاً من الحياة فحسب ، بل هى معنى للحياة ، ولقد حاولت الكنيسة أن تسيطر على الدنيا ولم تكف أبداً عن التأثير فيها ولكنها لم تستطع أن تجعل الدنيا والكنيسة مملكة واحدة هى مملكة الله وقد نادت الكنيسة بأن المسيحية هى تفسير العالم وأنها الحركة الحية المشيئة الإلهية ، هذه هى الصورة كما يرسمها أصحاب الولاء ، أما أصحاب الخلاف فإنهم يرسمون صورة أشد قتامة ، وبالجملة فان الكنيسة غاصت فى السياسة والمطامع الدنيوية وقل اهتمامها بالدين ، وفى عصور الغرب المظلمة بسطت نفوذها ، على الملوك ، وكانت هناك جماعتان منفصلتان : رهبان الأديرة المنصرفين إلى الصلوات والمعتزلين الحياة والقسس الذين كانوا يشتغلون بالسياسة ، ولقد كان من الطبيعى أن تواجه الكنيسة رياح التغيير فتنقسم على نفسها وتعيد النظر فى كثير من مفاهيمها ويصل الصراع الدموى بين البروتستانية والكاثوليكية إلى أشده .

(١٢)

تمزق الوحدة الأورنية

دخل الغرب الاوربى مرحلة جديدة بوصول الاسلام إلى الاندلس وكان لمعركة بلاط الشهداء أثرها فى صد التوسع الاسلامى من السير إلى غايته ولكن الوجود الإسلامى لم يتقاص من أوروبا بل تمكن فى مواضع كثيرة فى فرنسا وإيطاليا ، ومن الاندلس أمتد الفكر الاسلامى إلى عالم الغرب وكانت حركة لوثر ومن بعده حركة كالفن من ثمار التأثير الإسلامى ، وبدأت هذه الحركة عام ١٥١٧ حيث أحدثت تغييراً جزئياً فى مفهوم المسيحية وإن ظلت الاصول العامة التى قدمها بولس قائمة لم تغيرها الحركة البروتستانتية ، أنكر لوثر حق البابا فى بيع صكوك الغفران بل وأنكر عليه حق منح الغفران بأى وجه من الوجوه وحطم احتكار الكنيسة لقراءة الانجيل وتفسيره فترجمه إلى اللغة الالمانية وخول لكل مسيحى حق مطالعة الإنجيل ومن هنا تطلق الكنائس

البروتستانية على نفسها اسم الكنائس الإنجيلية ورفضت حركة البروتستانية فكرة العشاء الربانى وعبادة الصور والتماثيل وأنكرت على الكنيسة غفران الذنوب وكان قد سبق لوثر كثير من المصلحين أمثال وكليف فى إنجلترا وهوس فى بوهيميا فلما ظهر لوثر فى القرن السادس عشر جمع كل ما قيل قبله من مسائل الإصلاح الدينى وقام بالدعوة إليه وجاهر بالعداء للكنيسة فتبعه خلق كثير وانتشر مذهبه فى كل جهة من ألمانيا ومن ثم وقع الخلاف والحرب بين الكاثوليك والبروتستانت وقد منحت البروتستانية القسس حق الزواج ولم يعد هناك رهبانية واستبدلت جميع الكنائس البروتستانية اللغة اللاتينية باللغات المحلية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية . ودعت البروتستانية إلى التخلى عن الإعتراف الإجبارى وما يتبعه من غفران يتحقق على يد الاكليروس لذنوب المعترف وخطاياه ، وكذلك التخلى عن فكرة الاعتراف وعن عبادة القديسين وعبادة مريم العذراء وأعلن البرتستانت أنهم لم يعودوا يطلبوا وساطتها من السماء ، وأعلنوا أن المصدر الوحيد الحقيقى للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس كما أنكروا استحالة مادة القربان إلى فم المسيح ودمه وأعلن لوثر أن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر فى تفسيره حسب فهمه له وإدراكه إياه ، ورجا أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية فى الإنجيل نفسه ، ورفض القول بأن طبقة الاكليروس تمتاز عن العامة وأنب الكرادلة على حياة البذخ والرفاه التى يحبونها كما دعا إلى إنهاء الرهبة ودعا إلى عدم إنشاء أديرة جديدة وإلغاء الحج إلى روما .

وقد كان لظهور مذهب لوثر أثره فى الكنيسة الكاثوليكية التى أجرت كثيراً فى محاولات الإصلاح وقد شقت حركة لوثر « البروتستانية » طريقاً وعراً من المصاعب والأخطار والدسائس وعقدت عديداً من المناقشات السياسية بين حكام المقاطعات وسرعان ما اكتسحت جميع ألمانيا وانتشرت فى انجلترا وامتدت إلى الدنمرك والسويد وفى سويسرا ظهر كالفن ١٥٢٦ م واتخذ من البروتستانية مذهباً رسمياً لجنيف وانعقدت الكالفنية مع اللوثرية من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده فى جميع المسائل الدينية وفى خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحى فى أوربا الغربية قد خرج على كنيسة روما ونبذ ولاءه للبابا وقد كانت البابوية هى صرح المسيحية الشامخ فى أوربا وهو القوة الوحيدة فى غرب أوربا التى استطاعت حماية التراث الرومانى بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، وهى القوة التى أثارت الحروب الصليبية وحرضت أوربا على تلك الموجات المتلاحقة نحو عالم الإسلام منذ القرن الحادى عشر وعلى مدى قرنين كاملين ، أصبحت فى القرن السادس عشر تزكى روح الانقضاض الصليبي بين شعوب غرب أوربا إزاء الوجود العثمانى فى البلقان وقد كان من

جراء ظهور البروتستانية اندلاع الحروب الدينية فى أوربا ، فى الصراع بينها وبين الكاثوليكية ، وقد استمرت هذه الحروب من أواسط القرن السادس عشر إلى العقد الثالث من القرن السابع عشر وقد أضحت البروتستانتية عام ١٥٣٥ حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين وقد أمكن للوثر بعد أن أطلع على ما كتبه نبي الإسلام محمد وما قرأه من كتابات ابن رشد وابن سينا والفارابى أن يقول عن المسلمين « أن نشاطهم الدينى مثل يحتذى وكذلك حكومتهم الرشيدة وقوانينهم وصدق أخلاقهم وهم يتركون الناس يعتنقون الدين الذى يميلون إليه » ويشير المؤرخون إلى أن مظالم الكنيسة وتعاونها مع الأمراء والإقطاع هو الذى مكن لمارتن لوثر فى دعوته فقد انعقد أمل الناس عن طريقها فى التحرر من نير المظالم التى فرضتها الكنيسة ولذلك سرعان ما التف الناس حول لوثر وكالفن . غير أن الكنيسة الكاثوليكية ألم تلبث أن شنت حرباً شديدة على معتنق البروتستانية » : واشتعلت الحروب الدينية هادرة كاسحة جارفة ومضت بأصحابها فى ضراوة بالغة وفى لدد من الخصومة واستطالت هذه الحرب أحقابا متعاقبة ونشرت الخراب والدمار فى كثير من الأقاليم الأوربية وأصبح الجو العام فى أوربا (من نهاية القرن ١٥ إلى منتصف القرن ١٧) وعلى وجه التحديد عام ١٦٨٤ : هو الجو الدينى المحموم التزمت شعاره المغالاة فى التعصب الدينى والمذهبي ووسائله المشروعة وغير المشروعة ومضت الحروب الدينية تخضب أرض أوربا بالدماء وأفراح الموت تقام علنا فى الميادين حيث يحرق أحياء المتهمون بمخالفة المذهب الدينى الرسمى للدولة تنفيذاً لأحكام صارمة عن محاكم التفتيش ، والقوائم تنشر على الملأ متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظور تداولها أو قراءتها ، أو اقتنائها والهيئات الدينية القديمة يعاد تنظيمها ومنظمات دينية جديدة تؤسس ومجمع ترانت المسكونى يعقد وتطول اجتماعاته على مدى ثمانية عشر عاماً (١٥٤٥ — ١٥٦٣) وأحلاف دينية عسكرية تتكون وكان يطلق على كل منها « العصبة المقدسة » .

(٢)

وتعد موقعة « سان برتلمى » من أبرز هذه المعارك الدموية الخطيرة التى وقعت عام ١٥٧٢ من الكاثوليك ضد البروتستانت الفرنسيين ، وكان من نتائجها فقدان فرنسا لزهرة رجالها من أهل العلم والصناعة ، وسبب هذه المجزرة كما يصورها مؤرخ معروف : هو الحقد الدينى فى أقسى أشكاله ، ذلك أنه لما ظهر المذهب البروتستانتى فى ألمانيا وامتد إلى سائر ممالك أوربا أصاب فرنسا منه قسط وتبع طريقه كل من كان ناقما على سلوك الكنيسة الكاثوليكية إذ ذاك وكان من أكبر ما أثر الناس على

فيه ذلك القرن الذى ظهر فيه فجر العلم من أفق البشرية هو حرية البحث فلم يرق فى عين الملكة كاترين دومديشى أم ملك فرنسا شارل السابع أن تنتشر البروتستانية فى بلادها فعزمت على إحداث مقتلة عامة تكون سبباً فى إفناء البروتستان الفرنسيين وتقطع دابرهم جميعاً وكانت يد الكنيسة الكاثوليكية فى تدبير هذه المكيدة الفظيعة أقوى عامل فيها ودافع إليها ، فى ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ وهو عيد إحدى حوارى عيسى عليه السلام أمروا الكنائس فدقت أجراسها وكان ذلك إشارة للجنود والمتطوعين من الأهالى المتحمسين الذين باتوا ليلهم ينتظرون تلك الإشارة أمراً صريحاً فى البدء فى الفتك بالبروتستان فدهموا بيوتهم وفى أيديهم المشاعل تضىء عليهم الطريق فى الليل الدامس مقودين بأمراء البيت الملوكى وكبراء العائلات الفرنسية وأخذوا يفتكون بأولئك الأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله فى تاريخ البشر ، وكانوا يبقرون بطون الحوامل ويخرجون الأجنة ثم يلقونها للكلاب والخنازير ، وكانوا يعطون الأطفال الذين فى المهد للصغار الذين فى سن العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جراً من أعناقهم فى أسواق باريز ، ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء وعجت الأصوات إلى السماء ولبس نهر السين حلة أرجوانية وحدث ذلك فى كثير من مدائن فرنسا ، ثم حدث أن دقت أجراس الكنيسة مرة أخرى فظن أتباع الحقد الدينى بأن ذلك أمر ثان باستئناف القتال فانحوا على إخوانهم قتلا ونهبا وتمثيلا بأشد مما فعلوا بالأمس واستمرت المجزرة إلى يوم الثلاثاء وما بعده واستحالت إلى مذابح فردية طوال شهر سبتمبر وأكتوبر وأحصوا عدد المقتولين فبلغو ٢٥ ألفا وكان من نتيجة المقتلة أن تزمرت النفوس الطيبة من فعل الكنيسة وكثر ضدها الهجوم والقول والهجر ومال الناس إلى تقرير قاعدتى حرية الضمير وحرية البحث وهما قاعدة المذهب البروتستانتى فكان أنصار الكاثوليكية بسوء سلوكهم فى تأييد مذهبهم أكبر مؤيدى مذهب أضدادهم فى بلادهم ، وجاءت من بعد ذلك حرب الثلاثين عاما بسبب الخلاف الدينى فى بوهميا واتسعت إلى أن دخلتها معظم الدول الأوربية بدرجات متفاوتة وكانت ألمانيا هى المسرح الأصيل لهذه المأساة . ويعد البابا كوبلورى التاسع — ١٢٤١ المسئول عن إيجاد محاكم التفتيش التى ملأت قلوب الناس رهبا فى العصر الوسيط ، وقد اعتمدت البابوية فى محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله فى اصطياد الهراطقة للمحافظة على الكنيسة ، وقد اعتمد محاكم التفتيش على التعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف وتذرعت بالقوانين اليونانية وظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون وكانت مصدراً لانفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية ، وقتل ديوان التحقيق فى أسبانيا وحدها على قول (ريتاخ) نحو مائة ألف إنسان.

وقد حملت الكنيسة مسئولية فظائع سانت بارتلمى ومذبحة « الاليجواء » وهى طائفة دينية انتشرت فى القرن الحادى عشر بجنوب فرنسا وقد أمر البابا أنيوسان الثالث بإبادتها عن آخرها فأبيدت وقتل فى حرب الكاثوليك مع البروتستانات (١٦٠ ألفاً) وقتلى كادا الدومنيكى الأسبانى وحده ستة آلاف إنسان بالنار ومن ثم واجهت أوربا صراعا عنيفا استمر طويلا عن اختلاف المذاهب ثم واجهت اختلاف القوميات منها حرب المائة عام وحرب الثلاثين عاما . والحرب بين فرنسا وانجلترا وبين فرنسا وألمانيا وقامت سلسلة من الثورات ابتداء بالثورة الفرنسية والثورة الشيوعية من بعد .

(٣)

تمزقت وحدة أوربا بظهور البروتستانية وكان ذلك مقدمة لتحولها عن المسيحية كلية وعودتها مرة أخرى إلى الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية وكان عصر النهضة علامة هذا التحول فقد كانت النهضة الأوربية فى الواقع ثورة على الكنيسة حيث لم ينجح الإصلاح الدينى الذى قام به لوثر إذ ظلت المسيحية فى الكنيستين متمسكة بالصليب والتثليث والفداء ، وكان من أخطر تحولاتها الآثار العميقة التى أحدثتها اليهودية فيها وهى تتمثل فى قبولها تبرير الربا إرضاءاً لليهود الذين يعملون فيه ويقول ايف كونجار : أن اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهداء فى العصور الأولى كان يرجع إلى وشايات يهودية فى عالم كانت اليهودية فيه صاحبة الميل والهيلمان تبسط أجنحتها وتنعم بالسطوة والنفوذ كما أوضح ذلك مارسيل سيمون فى كتابه (إسرائيل الجرثومة) إذ ذكر أن نزعه مناهضة السامية فى أسفار الكهنة للمسيحيين القدامى كانت تقابل تعاليم العداء للمسيحية فى التلمود وقد أشار الباحثون والمؤرخون المنصفون أن تعاليم الماسونية كان لها أثرها فى تحول الغرب المسيحى عن الدين وأن اليهود كان لهم دورهم فى الحروب الصليبية وكانت الماسونية التى أقامتها اليهود فى الغرب واحتضنتها البروتستانية أساسا هى محاولة عميقة بعيدة المدى لتعويض الكنيسة والدين وقد فشلت المسيحية بظهور البروتستانية والتحدى اليهودى فى اعتبار الكنيسة وحدة عالمية تضم جميع المسيحيين ، ولم تصبح الكنيسة هيئة عالمية جامعة بين رجال الدين والعلميين على السواء وفشل ما نادت به فى العصور الوسطى بأنها تفسير العالم ، وظهر جيداً كيف أمكن إحتواء الفكر المسيحى وكان لموقف الكنيسة من الحرب مع البرتستانية من ناحية ومع العالم الإسلامى من ناحية ، أكبر الأثر فى أفولها ثم جاء تنازلها عن أصول الدين فى تبرير الربا من أكبر ما عرض لها من أخطار .

(٤)

ويصور ول ديوارانت كيف انحرفت المسيحية فى تبريرها الربا فيقول : كانت العقيدة الدينية المسيحية فى الربا أكبر العقبات فى نمو النظام المصرفى وتقدمه ومصادرها فى معارضة الربا : طعن أرسطوا على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعى إذ هو توليد المال للمال، وطعن المسيح على الربا ومعارضة أباء الكنيسة للأعمال التجارية والربا فى روما ، أما القانون الرومانى فقد شرع الربا وكان بروتس وغيره يتقارضون ربا فاحشا على أموالهم ، وكان أمبروز قد عارض النظرية القائلة بأن من حق الإنسان أن يفعل بماله ما يشاء . ولما عاد القانون الرومانى إلى الوجود فى القرن الثانى عشر شجعت عودته (أريرموس) والشراح فى بولونيا على الدفاع عن الربا وقد أيدوا حججهم بما جاء فى قانون جستنيان ولكن مجلس لاتران الثالث ١١٧٩ جدد هذا التحريم وظل هذا قانون الكنيسة حتى عام ١٩١٧ وكانت ثروة الكنيسة فى الأرض لا فى التجارة وظلت قرونا طويلة ولما كان جميع المرابين يهود ، فقد تبين أن حاجات التجارة أقوى أثراً من خشية السجن أو الجحيم ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال المتعطل واضطرت الكنيسة على كره منها أن تكيف نفسها فتقدم القديس توماس أكويناس حوالى عام ١٢٥٠ بجرأة عظيمة بمبدأ كهنوتى جديد عن الربا قال فيه أن من يستثمر ماله فى مشروع تجـــارى يحق له شرعا أن ينال نصيبا من ربحه إذا شارك فعلا فى التعرض للخسارة وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر عن أداء الدين عند تاريخ معين بشروط ثم جرى التوسع فى هذا الاتجاه من بعد فقالو بشرعية أداء عوض للدائن نظير ما يصيبه من الخسارة لعدم انتفاعه برأس ماله . وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول فى إصدار سندات ذات فائدة وبعد عام ١٤٠٠ ألغت معظم الدول الأوربية ما وضعته من قوانين لتحريم الربا ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهملا يتفق الناس جميعا على إغفاله » .

(١٣)

الفكر الغربى المسيحى

لم يخلف السيد المسيح أى نص مكتوب ولا أى نص محفوظ ، والأناجيل الموجودة كتبت بعد المسيح بسنوات طويلة وتشكلت على نحو مختلف إختلافاً واسعاً عن مفهوم المسيحية المنزلة، فشتان بين عقيدة المسيح وعقيدة الكنيسة. ومنذ دخل اليونانيون أصبحوا هم حملة العلم فى الدين المسيحى

وبدخولهم فيه دخلت الفلسفة اليونانية فى التعاليم المسيحية ومن ثم احتدم الجدل بين الفلاسفة والنصارى وبين النصارى أنفسهم ، وكان الخلاف الأكبر حول طبيعة المسيح وتركيبه من لاهوت وناسوت ، وتغلبت الفلسفة اليونانية على « تفسيرات »المسيحية وكان أهم خلاف ذلك الذى قاده (أريوس) وكان يقول أن للاب والأبن جوهرين متميزين وأن الثانى خليفة الأول وليس هو بإله ودعا قسطنطين إلى مجمع مؤلف من أساقفة النصرانيه لحسم الخلاف وكان على رأى ألوهية المسيح وبذلك استعمل نفوذه فى إقرار هذ الاتجاه فى مجمع نيقة عام ٣٢٥ ولكن الخلاف استمر طويلا حتى حسمه الملك تيودسيوس الذى أمر بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا (أمسيوس) القائل بألوهية المسيح ومن يخالف أمره يعد هرطقيا .

يقول العلامة أبو الحسن الندوى : أن المسيحية امتحنت فى عهدها الباكر (منتصف القرن الأول المسيحى) بتحريف لايوجد له نظير فى تاريخ الديانات فى عهدها الأول فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من أفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس (١٠ — ٦٥) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام لايشارك الثانى الأول إلا فى الأسم وبعض الطقوس ويتحدث عن ذلك عالم مسيحى هو (أرنست دى بنسين) فى كتابه :

ASLAM OR TRUE CHRISTAINTY

إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء به الأنجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ؛ وإن مرد النزاع القائم بين المسيحيين واليهود وبين اليهود والمسيحيين ليس إلى المسيح بل إلى دعاء بولس ، ذلك المازق اليهودى والمسيحى وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (ESSENIE) والتمثيل وملئه هذه الصحف بالنبوات والأمثلة . إن بولس فى تقليده لأسطفانوس داعى المذهب الإنسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، أنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التى يحتوى عليها الانجيل اليوم ، والتى تعرض المسيح فى صورة لاتتفق مع التاريخ أصلا ، ليس المسيح بل بولس ، والذى جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس للعقيدة المسيحية الأنوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا . وبقيت المسيحية قرونا طوالا ولاتزال تحمل روح بولس وتحافظ على تراثه ، ولم يظهر فى العالم المسيحى فى هذه المدة الطويلة من يثور على هذا الوضع الطارىء الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذى تركها عليه سيدنا المسيح ومضت أجيال أثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر

لتجديد المسيحية وتجريدها من الأجزاء الأجنبية حتى كان القرن الخامس عشر المسيحي فظهر مارتن لوثر في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جزئية وعارض بعض عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية ولم تكن إصلاحا جوهريا شاملا ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ثم لم يخلفه رجل في العالم المسيحي يرفع صوته ضد الخرافات الكنيسية وإعتداءاتها ويقوم بمثل الدور الذي قام به لوثر على ضعفه، وظلت الكنيسة تمشي في الدرب الذي اختارته أو بالأصح فرض عليها وضعف تأثير الكنيسة وانحل سلطانها في العهد الأخير وقامت دولة المادية في أوربا وأصبحت الديانة الحقيقية التي خلفت المسيحية وخلفت كل ديانة في هذا العالم الغربي فلم يظهر في الأوساط المسيحية من يحارب هذه المادية ويعيد المسيحية إلى مركزها في الحياة، أو يوجد الثقة بين المسيحيين بديانتهم وينشيء فيهم القوة الروحية الخلقية التي يقاومون بها اغراءات المادية القاهرة ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والأخلاق والعقائد المسيحية ويواجهون معضلات العصر وأزماته ويحاولون حلها في ضوء الدين، وبالعكس من ذلك نرى المفكرين والمؤلفين المسيحيين في أوربا يائسون من مستقبل المسيحية ومصابون بمركب النقص أمام المادية اللادينية. اهـ. وهكذا نجد أن الفكر الغربي قد أخذ يتشكل بصورة جديدة فيها كثير من ميراث اليونان والرومان وفيها من المسيحية الوافدة على الغرب بتفسيراتها التي قدمها بولس، ثم كانت آثار الفكر الإسلامي وقد بدأت في الأندلس وجامعاته وأخذت تنتقل رويداً رويداً إلى قلب أوربا وكان لها أثرها الواضح في دعوة لوثر. وبذلك اجتمع للفكر الغربي عناصر مختلفة وربما متضاربة هي حصيلة الفكر الفلسفي القديم وميراث اليهودية، وآثار مدرسة أثينا ومدرسة الاسكندرية، وما جاء به الإسلام ولكن الفكر الغربي سرعان ماشكل نفسه مستمداً من الفكر اليوناني مفاهيمه الاجتماعية في الإعجاب باللذات والأجساد العارية وفلسفة الإباحية المسرفة، وأخذ من الإسلام المنهج التجريبي الذي بني عليه عصر النهضة وعصر العلم، وقام الصراع بهذا التشكيل الجديد مع المسيحية والفكر المسيحي الكنسي الذي كان قائما على الرهبنة وإنكار الذات الحياة والمرأة، والذي كان في نفس الوقت معارضا لما حاول العلم أن يقدم من مفاهيم وأساليب، تتعارض وماتحمله في طواياها الكتب القديمة، ومن هنا بدأ ذلك الصراع العنيف الذي دفع الفكر الغربي دفعا قويا إلى معارضة الفكر المسيحي، بل والفكر الديني عامة وكان لموقف الكنيسة في تاييدها للامراء الظالمين والإقطاع، ثم معارضتها للعلوم أثر بعيد في ذلك التحول الخطير، فقد واجه العلم أموراً كثيرة، وأراد أن يفهمها عن طريق العقل فعجز عن ذلك كالأسرار الدينية السبعة وما يتصل باللاهوت والناسوت. وكان للفكر اليهودي القديم أثر

بعيد فى هذه المعركة ، فقد أحكمت السيطرة على هذا الفكر لإخراجه من إطار الدين بصفة عامة ، وذلك حين اندفعت مجموعات من رجال المحافل الماسونية إلى تصدير الفكر الغربى والدعوة إلى الإلحاد ومعارضة الوحى والدين وإنكار الخالق تبارك وتعالى وكان هذا هو التمهيد للمحاولة اليهودية التى تحققت بالثورة الفرنسية والمعروف أن اليهودية هى التى نشرت المذاهب الفلسفية فى العالم لزعزعة أساس القواعد الدينية فى صدور المفكرين والعامة السواء ، ومن أجل ذلك عمد اليهود على إقامة أدلة فلسفية تتأول النصوص الصريحة ، وخاصة فيما يتعلق بالألوهية والبعث والجزاء ، وهذا ما استطاعت الفلسفة إغراق الفكر المسيحى الغربى ثم نقله تواً إلى الفكر المثالى البديل عن الدين المسيحى فالفكر المادى المعارض لكل مايتصل بالألوهية أو النبوة أو الرسالات السماوية وقد شكلت أوربا والغرب منطلقها الفكرى على أساس أن الدين « لاهوت » أو عبادة أو علاقة بين الله والبشر فقط ، أما ما يتعلق بالنظام الاجتماعى فانه لاصلة له بالدين ، وقد جاء ذلك نتيجة أن الدين المسيحى عندما دخل أوربا كان هناك النظام الاجتماعى الرومانى قائما والقانون الرومانى نافذا ولم تكن المسيحية نفسها دينا له شريعة وإنما كانت مجموعة من الوصايا ترتبط أساساً بالدين الذى أنزل على موسى والذى يضم الشريعة ، غير أن محاولة فصل المسيحية عن الدين الموسوى ، واستقلالها ، وإدعاء إنها دين عالمى ، كل ذلك أوجد الخلاف بينهما وبين دين الله الحق الجامع بين العقيدة والشريعة والأخلاق ولقد كان لذلك الصراع الشديد بين الكنيسة والمجتمع الأوربى أثره البعيد فى تعميق هذا الاتجاه وكان لليهود أثرهم الواضح فى تنحية الدين المسيحى عن نطاق المجتمع والسياسة حتى يفسحوا لأنفسهم مكانا فى المجتمع الغربى تحت اسم الوطنية والقوميه يقول محمد هاشم الهاشمى : إن أوربا فصلت الدين عن الدولة نتيجة لتاريخ طويل من تجبر الكنيسة التى فرضت الظلم والتخلف باسم الدين فألجأتها الى الأيدلوجيات فاستبدلت أوربا بالدين فكراً وقيما ولقد أسلمت الشعوب المسيحية قيادها إلى الأيدلوجيات لأن الدين المسيحى لم يستطع أن يمدها بالبناء الفكرى الكامل الذى يستطع أن يفسر الاوضاع الاجتماعية فى المجتمع وأن يمنحها الأمل والمثل الأعلى فى مستقبلها ولكن فى الإسلام « الامر غير ذلك » ويقول تويني : إن المسيحية اهتمت بالإنسان نفسه مفصولا عن المجتمع .

(٢)

بين حركة لوثر التى يطلق عليها اسم « الإصلاح الدينى » وبين الثورة الفرنسية أقل من قرنين ونصف القرن (١٥٤٦ — ١٧٨٩) تحول فيها الفكر الغربى تحولا واسما عميقا ، فقد انتقل الغرب من الرهبانية إلى الكشف والعلم ، وتحرر من قيود الكنيسة والدين ، وعاد إلى الفكر اليونانى والفلسفة اليونانية يجددها ويوجه حياته وفقا لها ويرى أن المسيحية عامل دخيل وافد قدم إلى الغرب فطبعها بطابع النسك والزهادة . وجاءت الثورة الفرنسية لتضع الغرب كله على طريق جديد ، كان النصر فيه لليهود أنفسهم الذى حررتهم الثورة من القيود التى وضعتها المسيحية أمامهم والتى جعلتهم من درجة أقل وحظرت عليهم المناصب الرئيسية فى الدولة والتعامل والزواج . وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى الغاية من الثورة الفرنسية وما تلاها فى ثورات فى أوربا ، وكان هدفها الانتقام من النظام الاجتماعى والسياسى الذى جمع أوربا تحت لواء الكنيسة ، ولم تكد الثورة الفرنسية أن تعلن حتى سيطر عليها جماعة من اليهود حازوا شهرة فائقة فى سفك الدماء وحفظ التاريخ أسماء (كوتون — دينوكراشة — فوشيه — كاودبرادبوا) وغيرهم ممن عرفوا بالوحشية والغلظة ، وقد استطاعت هذه القوة أن تحقق الهدف الخفى وراء الثورة :

١ — إعدام الشخصيات المرموقة فى المجتمع الفرنسى . ٢ — احتلال الكنائس والمعابد وسلب ما تذخر به من تحف وأموال . ٣ — تعليق الرؤس على أبواب الكنائس ومداخل الميادين . ٤ — قتل النساء وبقربطون الحبالى . وفى ظل هذه المجازر المتصلة التى كانت تتجدد دوما ولا تتوقف تمكن اليهود من السيطرة على مقدرات فرنسا المالية والفكرية والإجتماعية وبالرغم من إنكشاف دورهم فى التحريض على الثورة والقيام بها فإن فرنسا مازالت تحتفل بها كل عام وقد أطلق على الثورة الفرنسية نفس الشعار الذى عرفت به الماسونية (حرية — أخاة — مساواة) وتعد هذه الثورة هى الثمرة الأولى والكبرى للنظام الماسونى كله ، وقد تبعها بعد ذلك ما أطلق عليه حركة التنوير وهى علامة على عصر المادية والإلحاد ومعارضة الدين بعامة وخير ما يقول أنصار الثورة الفرنسية أنها قررت الحرية الدينية ، وقضت على الامتيازات الطبقية وهو ماقصد اليهود إلى تحقيقه فى مواجهة المجتمع المسيحى وكذلك كان لها أثرها البعيد فى القضاء على الوحدة الأوربية التى قامت على أساس الدين وتحولت أوربا من بعد إلى صراع عنيف بإسم القوميات العنصرية والعصبيات اللغوية وتحت اسم النظم الديمقراطية بما يحقق لليهودية العالمية تغلغلا أكبر وسيطرة أوسع وكان ذلك

مقدمة للاستعمار ، الذى رافق حركة الانقلاب الصناعى . ولا ريب أن الثورة الفرنسية فى هدفها الخفى ، قد استغلت التعاليم الإسلامية ، فى تحرير الفرد من العبودية ، والدعوة إلى المساواة ، وحرية العقيدة والشورى والعدل ، ولكنها استغلت كل هذه المفاهيم لغايات بعيدة استطاع اليهود بها السيطرة على الأحزاب والأنظمة والبرلمانات وكانت سيطرتهم الواسعة على الفن والآدب والفكر والصحافة وكان معنى تحرير الإنسان فى الثورة الفرنسية هو تحرير اليهود » وكان معنى القضاء على الاستبداد هو تقليص نفوذ الكنيسة والمسيحية ، وبالثورة الفرنسية والثورات التى تمت بعدها فى أوربا كلها استطاع اليهود السيطرة على مقدرات أوربا الاقتصادية وتوجيهها الوجهة التى يهدفون إليها وكان نابليون ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية ، وقد وقع فى براثن اليهود وسخر الدستور الفرنسى لمآربهم وصدق على جميع القوانين التى قدموها إليه ، ولما جاء نابليون إلى المشرق دعا اليهود فى العالم كله إلى التقدم لتحضير هذه المناطق واستغلال ثرواتها ، وكان عصر نابليون مقدمة لإثراء روتشيلد وبلجراد ولوب وباروخ ولازار وفاربورج وسلكمان وهم ملوك الذهب فيما بعد ، الذين سيطروا على معظم مناجم أوربا واستطاعوا تحريك المواد الخام فى العالم أجمع ، وقد ملكوا زمام الثورات وأشعلوا ببراعة نار الحروب منذ عهد نابليون إلى اليوم ، ويقول القس جوزيف لومان فى كتابه (نابليون الأول واليهود) : « أن القوانين التى أصدرها نابليون صهرت المصالح الفرنسية فى المصلحه اليهوديه والبست الثورة والمصير الفرنسى القفطان السام الذى التصق بالجسم الفرنسى ولم يعد فى الإمكان نزعه إلا إذا نزع منه الجلد واللحم الفرنسى فأصبح ما تملكه المؤسسات اليهودية فى فرنسا ٩٢٪ من الصناعه المعدنيه الثقيلة ، و ٩٨٪ من أموال البورصه و ٩٥ فى المائه من مصانع أجهزة الصناعه و٩٠٪ من التحف الأثريه و ٧٥٪ من مؤسسات الترانزيت والوساطه ، والمؤسسات التجارية التابعة لهم فى باريس وحدها تسيطر على ١٥ ألف وكالة منتشرة فى جميع أنحاء فرنسا ، وفى أبان الحرب العالمية الأولى كانوا يملكون نحواً من ٢٣٨ مصنعا للأسلحة يمولها يهودى واحد هو (باروخ) وقد جنى اليهود أرباحا مذهلة خلال الحربين العالميتين تزيد على ٤٠٠ مليار فرنك من الذهب فى فرنسا وحدها هربوها إلى أمريكا وهذا استطراد يكشف عن الدور اليهودى فى حياة الغرب فيما بعد نتيجه سيطرتهم على الفكر والمجتمع الأوربى الذى هو مدين فى عصره الحديث لرجال نشأوا فى المحافل الماسونيه ومعهم هدف واضح هو وضع الفكر الغربى المسيحى كله فى قبضة اليهوديه التلموديه واحتوائه ، وكان رواد هذا الاتجاه : فولتير وديدرو وروسو ، وجاء من بعدهم بوك ونيتشه وليبنز وليسنج وكنت ورينان وكلهم خدام للهدف الأساسى ، الذى يوجه النقد للدين

عامة وللمسيحية خاصة ، ويدعو إلى العلمانية والمادية والإباحية والفكر الحر القائم على الإلحاد . والتحرر الكامل من الأخلاق والقيم الدينية ، وهذا هو ما أطلق عليه (عصر التنوير) وبذلك بعدت أوربا وبعد الفكر الغربي عن الأسس التي قامت بها على حياتها الأساسية وتحررت تماماً من كل قيم الرحمة والسماحة والأخاء التي جاءت بها المسيحية وسيطرت عليها مفاهيم التلمود القاسية العنيفة التي سيطرت على أوربا خلال عصر الاستعمار في مواجهة البشرية كلها وإلى هذا الاتجاه يشير المؤرخ أرنولد توينبي : يشير إلى تحول المسيحية إلى فكرة الإله الغيور ، ويحاول أن يبحث . يقول : ما هو السبب في تقبل المسيحية مرة أخرى الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الغيور . ويقول : إن هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين ، كان الثمن الذي دفعته المسيحية في كفاحها المرير : كفاح الحياة أو الموت مع عبادة قيصر أن تقبلت فكرة إله اليهود الذي من سماته الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح ويقول : إن المسيحية الجديدة قد وأمت بين فكرتين متناقضتين : الأولى فكرة البطش وعدم التسامح والثانية : فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية » ا . هـ .

وقد جاء هذا الإستسلام نتيجة صراع طويل سيطر فيه اليهود التلموديين على الفكر الغربي : السياسي والاجتماعي وأقاموا العلمانية أساساً للتعليم والثقافة والجامعات وأعلنوا شأن أمثـــال نيتشه الذي قال أن للمسيحية ما هي إلا أكذوبة كبرى من أكاذيب اليهود التي اختلقوها في عهد عبوديتهم وذلهم ليقبلوا بها الحقائق ويسبغوا على أنفسهم وعلى من كان في مثل حالهم من العبيد المضطهدين نعوتا طبعوها بطابع الإنسانية وما هي في الحقيقة غير تمويه على التاريخ » ولقد هاجم نيتشة الأخـــلاق للمسيحية التي تدعو إلى الرحمة والإنسانية واعتبرها أخطر ما دخل إلى أوربا مما يتعارض مع طبيعتها التي لا تعرف إلا العنف والقسوة . وقد كشفت أوربا فعلا عن هذا الغشاء المسيحي ورجعت إلى طبيعتها عندما اتصلت بالشعوب في مجال الغزو والاستعمار فارتكبت أشد الألوان الاضطهاد والإذلال للأمم ولم تنظر نظرة إنسانية إلا إلى الجنس الأبيض الأوربي وحده أما ماسواه فقـــد اعتبرته مما لا يستحق الكرامة الإنسانية وعادت إلى مفاهيم اليونان والرومان التي قضى عليها الإسلام بعد أن بشرت بها المسيحية :

(١٤)

اثر الإسلام فى الغرب

لاريب كان تأثير الإسلام فى المسيحية عميقاً ، وفى الفكر الأوربى خطيراً ، فهو الذى قدم التحول الحقيقى للفكر والحياة والمجتمع والحضارة . والحق أنه لا علاقة مطلقاً بين حضارة أوربا الحديثة وبين المسيحية لأنها جاءت بعدها بألف عام وبعد قرون من ظلمات العصر الوسيط وإنما هو الإسلام الذى أعطى أوربا مفاتيح الحضارة بالعلم التجريبي الذى ورثته أوربا فى الأندلس من طليطلة إلى قرطبة خلال أكثر من ثلاثة قرون ويزيد وصدق القائل : إن المسيحية أدخلت أهل أوربا الأديرة وأخرجهم الإسلام منها بل إن التقدير الحقيقى للموقف يؤكد أن الإسلام هو الذى نقل البشرية كلها إلى العصر الحديث وليس صحيحاً ما ذهب إليه المؤرخون الأوربيون الذين يخضعون لعنصريتهم على اعتبار حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية حداً فاصلاً بين العصور القديمة والعصور المتوسطة ومن عجب أن تنساق مدارسنا الإسلامية وراءهم فى هذا الخطأ التاريخى الفادح واستمرار مؤلفى الكتب التاريخية العرب فى اتخاذ هذا الحادث حداً فاصلا فى تاريخ الإنسانية متابعة وجريا وراء الغرب ، وإذا كان الغربيون قد عجزوا بتعصبهم القومى والمحلى أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنسانى العظيم الذى غير مجرى التاريخ ، وأنه هو الحد الفاصل ، فإن هنرى بيرين مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) قد أعلن ذلك فى صراحة ووضوح حين قال : إن الإسلام هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوربى وأن العصر الوسيط والنهضه الحديثة ثمرتان من ثمار الإسلام ويقول هنرى بيرين أن القول بسقوط الامبراطورية الرومانية هى القوة التى أدت إلى هذا التحول فى التاريخ الأوربى هو محض خطأ فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً فى أن تناوىء روما وتقضى عليها ، أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أقوى وأسمى من الرومان فى جميع أساليب الحياة ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجبوا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم . لقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الوندال حدودها واستقروا فى نواحيها وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسى من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها العقلية والمادية شىء من الركود والكساد ولكن لم تكد تهب ثورة الإسلام وتسير ركائبه إلى أراضى الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار ، وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة

جديدة حاصرت أوربا من الجنوب ، فاضطرت ملوكها أن يواجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوربا حيث قامت المعارك التى كيفت طريق أوربا فى العصر الوسيط وأبان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه فى تلك العهود إلا موقعة (بواتية) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولا ظهور الإسلام لظلت الأمبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ولظل البحر الأبيض بحراً رومانياً ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوربا الحديثة ولا الثورات الفكرية التى تمخضت عنها الحضارة الراهنة » ا . هـ . وذلك الذى يقرره هنرى بيرين فى كتابه (محمد وشارلمان) هو الحقيقه التى أصبحت اليوم على كل لسان وقلم ، يقول ابريك بيتمان فى بحثه : أثر الإسلام فى المسيحية : لقد اجتذبت الأندلس ومدارسها فى أسبانيا والبرتغال ومؤلفاتها ومكتباتها العالم المسيحى فكان من درسوا فى مدرسة طليطلة كثيرون ، ظل كتاب (الرازى) : (الحاوى) المؤلف من عشرين مجلدا المرجع الوحيد المعترف به فى جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر ، أعظم تقدم علمى حققه المسلمون فى علم البصريات . وعندما اكتشف المسيحيون إن الإسلام شىء آخر غير مجرد إلحاد مسيحى أخذوا فى مقاومته بطريقتين : الأولى . تشديد الهجوم المضاد على الدين الإسلامى . الثانية : هى الحملات الفعلية لمحاربة الشعوب الإسلامية . ولقد أحدث الفكر الإسلامى حين اقتحم أوربا ثورة ضد الكنيسة وتعاليمها التقليدية ، وكانت أكبر الآثار هى معارضة ما كانت الكنيسة تنادى به من أنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان وبأنه لا يصل إلى الله دعاء أو صلاة أو استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها ، ومن ثم امتد القول بأنه لا وساطة بين الله سبحانه وبين الإنسان . يقول أحمد عطيه الله : هذه التعاليم التى كانت غريبة عن طبيعة التقليد الأوربى حتى ذلك العصر والتى اقترن ظهورها بما سبقها من حوادث اضطهاد المسلمين فى أسبانيا وتشتيت البقية الباقية من سلالتهم ومن اليهود الأسبانيين الذين نزحوا جميعاً من الأندلس يحملون معهم ما يحفظون من تراث الثقافة الإسلامية قاصدين به فرنسا وهولندا وسويسرا وألمانيا . ويرى كليدس وب : إن أثر الإسلام فى المسيحية كان فى الأغلب فى ناحيتين متعارضتين .

الأولى : تقوية روح الاتحاد بين الشعوب المسيحية بعد أن ظلت ردحاً طويلا من الزمن على خلاف فقد وحدة جهودها واتحدت كلمتها مئات من السنين بعد أن أحست أنها تواجه قضية مشتركة فى الوقوف ضد الإسلام . الثانية : عن طريق الآراء والأفكار التى اقتبستها مدارس أوربا المسيحية فى القرن ١٢ إلى القرن ١٦ من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والغزالى وابن رشيد ولولا تأثير هذه الأفكار الإسلامية لاتخذت تطورات الفلسفة واللاهوت فى العالم المسيحى طريقاً آخر » .

ويصور هذا التاريخ أثر الإسلام فى المسيحية الأوربية عميقاً بعيد الأثر فى تحرير الإنسان من قيد اللاهوت العنيف ، فقد نقل الفكر الأوربى مسئولية الإنسان أمام الله بصفة مباشرة ، كذلك حريته فى تفسير الكتاب المقدس ، على ضوء ما يمليه عليه ضميره ، وقد كان لهذا التحول أثاره البعيدة السياسية منها أنه خلع على الأفراد حقوق السيادة فى المسائل الدينية التى كانت تعد أسمى الشئون وأقدسها « وإذا كان الإنسان حصل على سيادة نفسه فى الدين ، فلا أقل من أن يطلب هذه السيادة فى الشئون الزمنية واعتبر كل فرد نفسه مكافئاً ، وتطرق الإنسان من ذلك إلى بحث أصول السيادة بجميع مظاهرها مما ترتب عليه أن امتنع الأفراد عن دفع الضرائب التى فرضتها عليهم الكنيسة وبرزت فكرة المساواة الطبيعية والحرية الطبيعية إلى الظهور مرتكزة على دعائم علمية ودينية وقانونية ، ومن ثم بدأت فكرة الدولة تحل محل فكرة الكنيسة المقدسة ، وكان ذلك مقدمة للفكرة القومية . والحق أن عطاء الحضارة الإسلامية لم يكن فى العلم بقدر ما كان فى القيم الإنسانية : « القيم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية » فقد قدم الاسلام للغرب منهجاً رائعاً فى بناء المجتمع على أساس العدل والرحمة والأخاء الانسانى .

ولكن الغرب لم يتقبل مفهوم الإسلام تقبلا كاملا فقد كانت تغله وتقيده طبيعته الخاصة وفكره الوثنى اليونانى الرومانى المعروف الذى لم يلبث أن تجدد وانبعث وهو ليس فكراً مسيحيا رحيما أو عادلا بالضرورة ، بل فكر تلمودى عميق الجذور فى الغرب منذ أن امتزجت الفلسفة اليونانية بالفكر اليهودى التلمودى فى مفاهيمه الحاقدة على الانسانية الراغبة فى امتصاصها بالربا وقتلها بالسيطرة واستغلال مقدراتها وتركها تموت جوعا ، هذه هى الروح التى سيطرت على الغرب بعد عصر النهضة ، فقد استطاعت أن تأخذ الخيط من المجتمع الاسلامى وتحمل لواء العلم التجريبي ، ولكنها وجهته وجهة أخرى سيكون لها آثارها البعيدة المدى فى تطور الحضارة والمجتمع ، لقد أدخلت تفسيرات للمسيحية أهل أوربا الأديرة وأخرجهم الاسلام منها إلى آفاق من الكشف والاختراع ، فقد ظلت الأرض ثابتة بين يدى الآله أطلس مدة أربع عشر قرنا إلى أن أتى كوبر نكيس (تلميذ المسلمين فى الأندلس) فى أواخر القرن الخامس عشر وحركها بين يديه ، ذلك لأن الأعتقاد بدوران الإرض حول الشمس وهو ماقدمه المسلمون للبشرية كان أسهل من الاعتقاد بأن الكون يدور حول ذرة صغيرة فى الفضاء ، وكانت اعتقادات اليونان التى انتقلت إلى أوربا المسيحية هى أن الآله أطلس هو الذى يحمل الأرض بين يديه و كذلك حرر الاسلام أوربا من العنف الذى عرفته فى نشر المسيحية فقد قابل الغرب بالتسامح وأجاز له أن يقبل الاسلام أو يحتفظ بعقائده ، وسمح له أن ينتفع بالعلم والمعرفة

دون شرط أو قيد ، ويذكر في هذا ماحدث في جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دي مو نفور) التي توجه بإذن من البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسية ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج رول لاستئصال الديانة المجوسية فيها فأغرقوا الإقليم كله في أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس ، وباسم الاصلاح الديني قامت الحرب في شمال ألمانيا عنيفة دامية ثلاثين عاماً ، وكان الملوك الأوربيون يسوقون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس بالقوة إلى مذهبهم . هكذا قارن علماء الغرب بين الاسلام حين جاء بالسماحة والرحمة والأخاء الإنساني فوقف في وجه كل هذه المحاولات وعلم الغرب الارتفاع فوقها .

(٢)

وقد أكد المؤرخون الغربيون المنصفون أن دخول الإسلام أوربا هو بداية العصور المتوسطة ونهاية العصور القديمة وليس حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية . وقد أشار إلى هذا المعنى (هنري بيرين) المؤرخ الفرنسي المعاصر في كتابه باللغة الإنجليزية (محمد وشارلمان) بعد أن منع الأوربيين تعصبهم القومي والمحلي في صدر نهضتهم عن أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنساني العظيم الذي غير مجرى التاريخ ، وكان حقا أن يعتبر الحـــد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة . (ومن عجب أن كتبنا التاريخية المدرسية مازالت منساقة وراء فكرة التغريب في أن حادثة الشعوب الجرمانية هي بداية العصر الوسيط وليس الإسلام) .

وقد أشار هنري بيرين في إنصاف ونزاهة ، إلى أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوربي ، إلى الحد الذي يمكن أن يقال معه بأن العصر الوسيط والنهضة هما ثمرتان من ثمرات ظهور الإسلام ، وحين يرى أغلب المؤرخين أن الشعوب الجرمانية التي كانت تعيش على تخوم الإمبراطورية الشمالية هي التي اجتاحت حدود الرومان وقضت على دولتهم ، يقول هنري بيرين إن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياه إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً في أن تناوىء روما وتقضي عليها ، أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أسباب الحياة ، ولا سيما في الناحيه الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم ، وهذا هو الفارق بين الشعوب الإسلامية والشعوب الجرمانية ، فأولئك كان يعدون أنفسهم عيالا على الدولة الرومانية ، وهؤلاء كانوا يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين

ضعفوا وشاخوا ولقد كان أمراء الجرمان يفخرون بما يمنحه إياهم أباطرة الرومان من الأوسمة والألقاب أما رجال الاسلام فكانوا يأنفون من هذه الرشى ، لأنها تقدم ممن هم أدنى منهم دينا وخلقا وأصلا ، وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها من سلبية من أسباب الحضارة : من العقيدة الدينية الراقية فكانت تتخذ حضارة الرومان ودينهم تشبهاً وتقليداً أما الشعوب الاسلامية فكانت ترى نفسها جديرة بأن تمنح الرومانية دنيا جديداً يرشدهم إلى مدنية أخرى .

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا فى نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها المادية والعقلية شىء من الركود والفساد . ولكن لم تكد تهب ريح الإسلام وتسير كتائبه إلى أراضى الرومان حتى تلاشى كل ما كان لهم من المعالم والآثار ، وكأنها كانت رماداً ذرته الرياح وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها لأن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوربا حيث قامت المعارك وحدثت الوقائع التى كيفت تاريخ أوربا فى العصر الوسيط . أما الجزء الجنوبى من أوربا فلم تقع فيه فى تلك العهد سوى موقعة (بواتيه) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولا ظهور الإسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة ، وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ولظل البحر الأبيض بحراً رومانيـــاً ولما قامت الثورات القومية التى خلقت دول أوربا الجنوبية ولا الثورات الفكرية التى تمخضت عليها الحضارة الراهنة » .

وهكذا نجد أن الإسلام هو الذى أخرج أوربا من الظلمات بعد دخول المسيحية إليها بأكثر من سبعة قرون أو بعد اعتنقت الإسلام رسمياً بستة قرون ، وأن المسيحية حين دخلت أوربا عملت على تحرير الغرب من الوثنية منتقلة به إلى الإيمان بالإله الواحد، غير أن تفسيراتها المضطربة عجزت على أن تحقق ذلك ، فلما جاء عصر العلم وجدت نفسها فى موقف المعارضة، والخصومة ، فلما جاء الاسلام أعطى الغرب العلم والعقل وتحرير الفرد من قيود الاكليروس ، وهزيمة الرهبانية والاندفاع إلى العمل غير أن الغرب لم يستطع أن يحرر نفسه من الوثنية فاستعمارها ، فشكل مجتمعاً ماديا يتقدم من ناحية العلم التجريبي الذى أورثه المسلمون إياه ودمر نفسه لأنه عارض التوحيد والعدل والأخلاق .ولقد عاشت المسيحية فى أوربا خمسة عشر قرناً قبل أن تقوم النهضة التى كانت من أثر العلوم والانسانيات الاسلامية . ولم تلبث أن صرعتها القوميات والأيدولوجيات والعنصرية والوثنية ، فى مختلف صورها الحديثة ، وعلت فكرة تقديس الدولة وتمجيدها ، والنظر إلى الإنسان على أنه حيوان حيث حاولت أن تطبق عليه

للمناهج المادية ، مع أنه نفس وجسم ومادة وروح ، وليس مادة خالصة . وحين حاولت أوربا أن تقضى على التفسيرات التى جاء بها بولس للمسيحية ، اندفعت إلى نهاية الشوط فقاومت الدين بصفة عامة واستعلمت بالعلم وحاولت أن تجعله لها عقيدة ودنيا مع أنه يعجز عن أن يعطى الاجابات إلا فى مجاله المحدود ، ولو أن الغرب اتجه إلى الاسلام لوجد فيه سعادة المجتمع وسلامة النفس وسلامة الترابط بين قيم الروح والنفس وحسن التوازن بين المعنويات مع الماديات . ولكن القوى اليهودية التلمودية الصهيونية دفعت الغرب إلى طريق الوثنية المادية ، واستطاعت بسيطرتها على الفكر الغربى أن تحوله عن المسار الطبيعى وأن تحتويه وأن تفرض عليه مناهج التلمود مصاغة فى أيدلوجيات ومذاهب ونظريات منها التفسير المادى للتاريخ والتحليل الفرويدى والنظرية المادية وا جودية وغيرها من نظريات هدمت المجتمع الغربى والنفسى وأثارت أزمة الانسان الحديث بمدحربين أججتهما الصهيونية فأكلت أكثر من مائتى مليون غربى وفتحت الأبواب للفزع والتدمير لتتمكن من السير إلى الطريق المرسوم الذى رسمته بروتوكلات صهيون بتدمير العالم واحتوائه قبل السيطرة عليه .

ولقد كشف كثير من الباحثين الغربيين : ذلك الأصرار الغربى الشديد على مدافعة الاسلام والحيلولة دون اعتناقه ، والدعوة إلى إيقاف الاسلام عند البواغير دون أن يقتحم أوربا ورده عن طريق الأندلس ثم رده عن طريق البلقان مرة أخرى ومناهضة فكره حتى لا يدخل أوربا ولا يقنع أهل الغرب مع إثارة الحملة عليه بالكلمة والاستعمار والاستغلال والسيطرة حتى يظل عاجزاً عن الحياة أو عن القدرة على القيام بمحولة جديدة فى أفق الغرب يقول الكونت كاتيانى : المستشرق الايطالى فى كتابه (تاريخ الاسلام الكبير) : إن الديانة الإسلامية هى أقوى دين فى العالم بعد المسيحية ، والمسلمون يعملون بقوة إيمانهم على صد تيار المسيحية فوقع حزاء ذلك تشاد بين هاتين الديانتين ، وما زالت اثاره باقية الى عصرنا الحاضر وستبقى كذلك قروناً ما دامت أوربا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل تمتلكها .

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه تماما الديانة الجديدة على حين أن الأمر عكس ذلك تماما ، فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى للمسيحية إذ لم لو تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التى يعتنقها الأروام والروس والتى لم يقم أى دليل على نهوضها — أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدنية العرب والعجم فماذا كان يكون مصير غربى آسيا

وأوربا فى القرون الوسطى المظلمة ، أو لم تحل النهضة البروتستانية التى ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية فى هوة الانحطاط بيد أن هذه الخدمات التى قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين أتباع هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد » ويقول كاتياني : إن الوثائق الحقيقية التى بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين (الإسلام) ندر أن نجد أمثالها فى الديانات الأخرى فتاريخ عيسى وما ورد بشأنه فى الإنجيل ناقص لا يشفى الغليل ، أما حياة محمد فإن لدينا منها قسماً مهماً حقيقياً بحيث يحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بأن لمحمد شخصية بارزة فى تاريخ حركة البشرية وأنه مشرع كبير أحدث أعظم انقلاب فى الأخلاق والسياسة بعد المسيحية .

(١٥)

الاستعمار

بدخول الغرب عصر العلم والصناعة بدأ عصر الاستعمار والسيطرة على مناطق الخامات والأسواق فى آسيا وأفريقيا ، وقد كان هذا العصر فى حقيقة مفهومه : إحكام للسيطرة على العالم الإسلامى للقضاء عليه وتحطيمه واحتوائه فكرياً وعقائدياً وقد جاء عصر الاستعمار بعد أن استولى الغرب على مصادر العلم الإسلامى فى الأندلس بإخراج المسلمين منها كلية ، واستهلال حركة الغزو بمهاجمة الشواطىء الإسلامية فى الجزائر والمغرب وتونس ، والاتجاه نحو الدوران حول أفريقيا تحت اسم حركة الكشف الجغرافى التى كانت فى صميم أمرها حركة صليبية تستهدف القضاء على النفوذ الإسلامى فى مختلف موانى أفريقيا وآسيا وكان العمل الاستعمارى كله يصدر عن خطة أطلق عليها تطويق عالم الإسلام وحصاره وقد بدأت الخطة منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت حتى أمكن السيطرة على العالم الإسلامى كله فى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، أعنى أن حركة التوسع الاستعمارى امتدت أربعة قرون كاملة حتى أمكن السيطرة على عالم الاسلام ، هذه التى تعمقت بعد ذلك ، وتحولت من الاستعمار العسكرى والسياسى إلى استعمار فكرى واجتماعى وتربوى على النحو الذى أريد به « إحتواء » العالم الإسلامى كله وصهره فى بوتقة الأممية العالمية للقضاء على الإسلام نفسه ، وتعد حركة الاستعمار الحديث فى تقدير الغرب مرحلة تالية للحروب الصليبية التى انتهت قبل ذلك بثمانمائة عام بالهزيمة الساحقة للغرب حتى إن اللورد اللنبى عندما دخل بيت المقدس لم يستطع أن يحبس شعوره وشعور الغرب كله حين قال: الآن انتهت الحروب الصليبية ، بل أنه ليمكن القول أن الحروب الصليبية التى انتهت فى جبهة المشرق

عام ١٢٩١ استمرت ولم تتوقف فى الجبهة المغربية فإنه بعد أن سقطت الأندلس فى يد الغرب بدأت معركة استمرت ثلاثمائة عام بين الغرب وبين شواطىء الجزائر والمغرب ، ومنها امتدت حركة الغزو الاستعمارى (البرتغال وأسبانيا) إلى سواحل أفريقيا ، و (هولندا) إلى جزائر الملايو . ثم جاءت المرحلة الأشد خطورة بظهور فرنسا وبريطانيا واندفاعهما إلى السيطرة : الأولى على الجزائر والأخرى على الهند ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى استطاع الغرب فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) وضع يده بالكامل على أغلب مناطق العالم الإسلامى حيث سقطت القدس مرة أخرى فى يد الاستعمار البريطانى الذى سلمها بعد ذلك إلى الصهيونية العالمية .

وهكذا نجد أن حركة الانقضاض الغربى على عالم الاسلام لم تتوقف منذ بزوغ فجر الإسلام ، وانها استمرت بصورة أو أخرى على جبهات بيزنطة ، والشام ، والبحر المتوسط والأندلس ، وغيرها ، وان كان الاسلام قد حقق توسعات ممتدة فى الأندلس وجنوبى فرنسا وايطاليـــا ، ثم فى الإستيلاء على القسطنطينية والبلقان . وكانت حركة الغرب كلها فى حقيقتها محاولة مستميتة لوقف زحف الاسلام سواء الى أوربا نفسها أو الى الاجزاء المختلفة من العالم ، وكانت الى ذلك حريصة على أن تفسد رأى الغرب فى الإسلام نفسه وذلك عن طريق إثارة الشبهات حوله ، والحيلولة دون وصول مفهومه صحيحاً إلى أهل الغرب ، ولذلك عارضت التيار الذى ظهر بعد الحروب الصليبية والذى كشف للغرب سماحة الإسلام وسماحة أهله والذى كذب « الافتراء » الذى كان مصدر الحروب الصليبية كلها خلال مائتى عام وهو القول بأن المسلمين يضطهدون النصارى أو أنهم يسيطرون على بيت المقدس ويحولون بين المسيحيين وبينه . ولقد حملت حركة الاستعمار الحديث لواءين فى وقت واحد . ١ — لواء إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام ومفاهيمه حتى لا تصل إلى الغرب . ٢ — لواء التبشير المسيحى فى عالم الإسلام لتحويله عن الإسلام .

(٢)

بدأ التوسع الاستعمارى منذ سقوط طنجة فى قبضة البرتغاليين عام ١٧٤١ وغرناطة فى قبضة الأسبان عام ١٤٩٢ وامتد باسم الكشوف الجغرافية ، حين سيطر فاسكودى جاما على زنجبار عام ١٥٠٥ واحتلال البرتغال لمسقط عام ١٥٠٩ وسقوط مالقه بالملايو فى قبضة البرتغاليين عام ١١٥١ واستراخان وجزيرة القرم عام ١٧٧٣ والقوقاز عام ١٨٥٩ واستيلاء بريطانيا على الهند ابتداء من عام ١٨٣٢ وسنغافورة عام ١٨٣٦ ثم كان احتلال البلاد العربية التى بدأت بالغزو الفرنسى لمصر عام ١٧٩٢

والسيطرة على الجزائر عام ١٨٣٢ وهكذا شاركت فيه أسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وانجلترا وهولندا . ولقد كان هذا الاستعمار باسم الصليبية الغربية التى لم تنس هزيمتها . يقول دكتور حسين مؤنس: إن أوربا لم تكف عن التفكير فى الاسلام والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبى ، وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر (السابع والثامن الهجرى) سعت إلى تنصير المغول حتى تحصر الاسلام بين دولتين مسيحيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الاسلامية فى مصر ثم كيف بدأت تتجه إلى الغرب للوصول إلى الهند والوصول إلى بلاد الاسلام » . ويقول باركر : مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشيرية التى أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد ، بيد هذا الحلم الخادع قد تهدم من آخره . نعم تلاشى الحلم الخادع الذى كاد يرسم لأصحابه فى الخيال صورة آسيا وأوربا المسيحية تحصران الاسلام بينهما فلا يصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة فى فئة قليلة من الناس فى ركن أسبانيا وفى جانب من شرق البحر الأبيض ، ذلك أن خانات فارس دخلوا الاسلام عام ١٣١٦ وأسلم من آسيا الوسطى فى منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجرى) وتربعت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتى ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين فى وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعا بعيداً فى رقعة الاسلام الذى أدرك شأنا بعيدا من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولكن أملا جديدا تراءى للغرب الذى لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً فى أكبر انقلاب عرفه التاريخ ، وتسأل الأوربيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر . لماذا لا تبحر إلى الشرق تهاجم الاسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على ظهورهم واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضى المقدسة » . وقد كان احتلال بريطانيا للهند وهولنده لجاوه وارخبيل الملايو . كان هو الخط الأول لتقويض عالم الاسلام وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدعوا فكرة استعمار عالم الاسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٣ وأسس الهولنديون الشركة الشرقية ١٦٠٠ والشركة الغربية عام ١٦٢١ وامتلكوا غينيا وسوريتام وركارب وسيلان عام ١٦٥٣ وجزائر ملقه وفى عام ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارمة (أهل حضرموت) هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام ونشروا فيها الاسلام ، وبعد أن تمت حركة التطويق تحولت شركتى هولندا وانجلترا إلى استعمار صريح ، ولم يلبث الغرب أن ركز ثقلة على تمزيق قاعدة الاسلام :

« الدولة العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من سنة ١٦٨٤ الى سنة ١٨١٨ خلال مائتى وأربعة وثلاثين عاما وتنافست فى ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت فى نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة واستطاعت بالضغط أن تفرض فى الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية وفى الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمت روسيا (حين عبرت القوقاز وبسطت سلطانها على أواسط آسيا) وبريطانيا وفرنسا وتدخل فى هذه الحركة الضخمة ، « أزمة الإسلام الكبرى » المكملة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتى لم تتجمد فى جبهة المشرق أكثر من ثلاثة قرون يوم تضاءلت — ولا نقول توقفت — فى أواخر القرن الثانى عشر (السادس الهجرى) ثم استأنفت عملها من جديد فى منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجرى).

وقد تمثلت فى عدة خطوات :

١ — تطويق العالم الإسلامى . ٢ — السيطرة على الهند وأرخبيل والملايو . ٣ — تمزيق الدولة العثمانية من الدخل . ٤ — اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانيـــة . ٥ — تنازع السيطرة على فارس .

(٢)

ولم تكن حركة الكشوف الجغرافية إلا حركة استعمارية صليبية : ويؤكد هذا المعنى واحد من كبار هؤلاء المكتشفون (ولفنجستون) حين يقول فى إحدى تقريراته : إن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى ، وهذه كلمة صريحة تكشف خلفية الحركة كلها عندما يقول : وهذه حقيقة كلية : إذ أن من المحال أن تكتشف أراضى جديدة دون أن تنبه شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل » . وتشير حركة الكشوف الجغرافية إلى الرحلات الاستطلاعية للاستعمار والتبشير التى قام بها : ماركو بولو ، فاسكو دى جاما ، ولفنجستون ، وصمويل بيكر ، وفردون ومنهم من سافر إلى فارس وأفغانستان وبكين : (ماركو بولو — ١٣٢٤) ومنهم من أبحر حول أفريقيا ومنها إلى الهند (فاسكو دى جاما — ١٤٩٧) . ومن العجب ان كتب التاريخ والجغرافيا المدرسية تعرف هذه الحملات الاستعمارية بأنها من أعمال الكشف والبطولة . وإن أربابها أسسوا الدول ونشروا أنوار الحضارة وهو ماليس صحيحاً من الوجهة العلمية البحته فإن هذه البلاد كلها كانت مكتشفة من قبل وقد أوردها مؤرخوا ورحالة المسلمين قبل أن يصل إليها هؤلاء بمئات السنين وذلك أنه

منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) انتشر المسلمون فى آسيا حتى بلاد الصين حيث حلوا فى موانيها التجارية ومدنها الداخلية وقد عثر فى بلاد أنام (الهند الصينية) على مخطوطات عربية تثبت أن جالية مسلمة كانت تعيش فى تلك البلاد فى القرن العاشر الميلادى وكذلك وصل العرب ما انقطع من الروابط بين الشرق والغرب بعد إندثار الدولة الرومانية وبقيت الطرق البحرية والبرية مفتوحة للتجارة بين البحر الأصفر والبحر الأبيض ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين لم يكتشفوا الهند فقد كانت هذه البلاد معروفة فى أوربا منذ العصور القديمة ، ومنذ معركة حطين وطرد الصليبيين من البلاد الإسلامية ، أصبح العرب هم همزة الوصل بين آسيا وأوربا فمن عجب أن تصور الكتب المدرسية التى يقرأها أبنائنا أن هذه البلاد ظلت مجهولة حتى اكتشفها الأوربيون ، وهو غير صحيح كذلك من العجب أيضاً أن تكال لهؤلاء البحارة أوصاف المجد والبطولة ، بينما كانوا غاية فى البطش والإعتداء والظلم للعرب والمسلمين ، فضلا عن أنهم أحتلوا هذه السواحل عنوة فى أسلوب غاية الشراسة والظلم وإذا كان لنا أن نقول الحق فإن هذه الحملات الاستعمارية التبشيرية هى بمثابة صفحات سوداء فى تاريخ الغرب وحضارته ، وإن هذه هى طلائع الاستعمار الذى لم يلبث أن سيطر على العالم الإسلامى كله ولم تكن هذه الرحلات علمية الطابع وإنما كانت استعمارية الهدف ، بحثا عن الذهب والخامات والتوابل لإنتهابها من أصحابها الذين كانو يمرون بمرحلة إغفاء قصيرة بعد نضال طويل وحين نستعرض أعمال هؤلاء الرواد نجد أن الصفة الجامعة بين هنرى الملاح وفاسكو دى جاما . والبوكرك ، هو حقدهم على المسلمين والعرب أما هنرى الملاح فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة سبتة التى أنطلق منها طارق بن زياد إلى الأندلس ، ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أعقابه فأدرك حينئذ أن عليه أن يقابل الإسلام من خلف أفريقيا والشرق الأدنى فأسس مدرسة بحرية صليبية نذر أصحابها أنفسهم لقتال المسلمين فى حرب صليبية لاهوادة فيها وأعطاه البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء على جميع البلاد التى فى طريقه إلى الهند وقد رفع لواء النصرانية فى البلاد النائية وأعاد الى حظيرة الكنيسة أعداءها الألداء كما جاء فى خطاب البابا فى تكريمه اياه ومع ذلك فهو يوصف فى كتبنا المدرسية بالبطولة بينما هو واحد من خصوم أمتنا فقد كان ابتداء من عام ١٤١٩ يرسل كل عام بعثة جديدة الى سواحل أفريقيا الغربية تقاتل أصحاب البلاد وتسيطر عليها . كذلك فقد اتصف فاسكودى جاما بكرهه المسلمين كرها شديداً ، ومن مواقفه الإجرامية أنه فى رحلته الثانية الى آسيا وقبل وصوله الى شواطىء الهند أطلق مدافعه الثقيلة على مراكب عزلاء تنقل الحجاج الى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموالهم وأمتعتهم الى أسطوله

وبعد أن خطر على رجاله إنقاذ الغرقى منهم وفيهم النساء والأطفال حتى هلكوا جميعاً إلا عشرين طفلا بعث بهم فاسكودى جاما إلى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية . بينما يفعل هذا نلقن أطفالنا أنه حمل لواء الكشف فى أفريقيا وآسيا والحقيقة أن فاسكودى جاما لم يكتشف شيئاً لأن البرتغالى بارتلمى دياز قد بلغ رأس الرجاء قبله بعشر سنين ولأن عبور المحيط الهندى من سواحل أفريقيا الشرقية إلى آسيا كان معروفاً من البحارة العرب والهنود منذ قرون وفاسكودى لم يصل إلى مدينة كالكوتا كما تقول الكتب المدرسية المقررة ولكنه وصل إلى مدينة أخرى تسمى (كاليكوت) تقع على ساحل كيرالا أو الملابار فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة الهند وتبعد بأكثر من ألف ميل عن كالكوتا التى تقع على مصب نهر الكونج فى الشمال الغربى من الهند . أما البوكرك : فقد كتب إلى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمى مدينة غوا وجعلهم أكداساً فى المساجد ثم أحرقها ، وفى عام ١٥١١ انتهى بغتة إلى (ملاقا) التى كان يحكمها سلطان مسلم فأعمل النار فى سفن المسلمين وخطب خطابه المعروف الذى يقول فيه : « يجب علينا أن نقتلع الإسلام من جذوره ابتغاء مرضاة السيد المسيح وأن نستولى على تجارة ملاقا حتى يحل الدمار بمكة والقاهرة » هذا الرجل السفاح تذكره كتب التاريخ المدرسية بأنه فاتح مظفر ، وكان البوكرك قد احتل جزيرة سقطرة على مدخل البحر الأحمر ومدينة هرمز على مدخل الخليج العربى واستولى على مدينة غوا فى الهند التى أصبحت عاصمة النفوذ البرتغالى فى آسيا واستولى على ملاقا وبذلك وضع يده على بحار الصين وأصبح المحيط الهندى كله بحيرة برتغالية واستولى على جزر الهند الشرقية ووصل إلى كانتون على ساحل الصين ، وقد استطاع أن يحقق ذلك لأن هذه المناطق كانت تمر بإغفاءة طويلة وقد استيقظ الغرب وحمل نتاج العلم الإسلامى والمنهج التجريبي ليضرب به المسلمين فى عقر دارهم أما ولفجستون الذى جاء ١٨٣٧ إلى لندن ليحصل على درجة مبشر فقد رحل إلى جنوب أفريقيا حيث بدأ عمله ، وقد نسب إليه أنه قام بأول كشف جغرافى فى هذه البقاع ، وقد أعلن عن نفسه أنه إنما يشق طريقاً للدين المسيحى فى هذه البلاد ليكون منطلقاً للتجارة الأوربية ومن عجب أن يلقى مثل هذا المبشر تكريماً من مثل الدكتور محمد كامل حسين الذى يقول عنه أنه شخصية فذة لأنه قاد عدداً كبيراً من رجال الإرساليات فى جنوب أفريقيا . وقد وصف صمويل بيكر بأنه مكتشف منابع النيل الأبيض وهذا من خداع الاستشراق، ذلك لأن منابع النيل الأبيض لم تكن مجهولة عام ١٨٦١ وأن الذين قادوه إليها هم رحال الحملة المصرية، كذلك ولفنجستون حين وصل إلى بحيرة تنجانيقا كان ذلك بمساعدة السيد حامد بن محمد المعروف باسم (تيبوسيب) أشهر تاجر فى تلك الأصقاع . وأنه لما انقطعت أخباره عن العالم المتمدن لم يتمكن (استانلى) من

الوصول إليه بمساعدة السيد حامد كذلك . وحول هذا المعنى يقول الدكتور القاسم : الحقيقة أن هذه الرحلات التى قام بها المسيحيون الأوربيون فى باطن أفريقية وعدها أهل أوربا مآثر عبقرية ووضع أصحابها فى صف أعاظم الدهر ، كان العرب من سياح وتجار ودراويش قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ولكن بدون فخر أو ضوضاء بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم فى الذهاب إلى بحيرة تشاد أو إلى الكنغو من الغرابة أكثر مما يرى فى الذهاب من تونس إلى (غدامس) ولما وصل الأوربيون إلى تلك الأقطار ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ولم يجدوا فى مجاهلها مكاناً إلا وفيه عرب أو آثار للعرب واللغة العربية . وجاءت البعثات التبشيرية البروتستانية بعد البعثات الكاثوليكيا كما جاءت الألمانية وغيرها فى شبه صراع عجيب للاستيلاء على الأرض وكانت الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٩٠١ نهضة إسلامية كبرى فى أفريقيا اتسع فيها نطاق الدعوة الاسلامية على أيدى الدعاة المسلمون فلما جاءت حركة التبشير الكاثوليكى والبروتستانتى بدأ صراع شديد إنحسر فيه النفوذ الإسلامى عن كثير من المناطق وتوسع التبشير فى بناء مراكز وقواعد عديدة وكان الإستعمار أثره الكبير فى دعم التبشير المسيحى وإيقاف الزحف الإسلامى .

(٣)

وتبعت هذه الحركة ، حركة أخرى أشد عنفا ، تلك هى حركة تهجير ملايين الأفريقيين إلى أمريكا فى مأساة من أشد المآسى التى واجهت الإنسانية كلها وكان ضحيتها الأفريقيين هؤلاء . يقول مونتسيكو : إن شعوب أوربا بعد ما أبادت سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر لم تر بداً من استعباد شعوب أفريقية لكى تستخدمها فى إستغلال هذه الأقطار الشاسعة . ويقول المؤرخ كاثال : إن شعوب أفريقيا السوداء هى التى دفعت ضريبة جنون حب المال عند الأوربيين . لقد أفنى المستعمرون الأوربيون شعب البلاد الأمريكية لامتلاك الأرض الزراعية ثم اقتلعوا الأفريقيين من بلادهم ليصبحوا رقيقاً فى زراعة الأرض . ويقول المؤرخ جوليان : إن البرتغاليين قد قاموا باكتشافاتهم بعد الحروب الصليبية بدافع انتقامى من التفوق الإسلامى وبدافع استعمارى اقتصادى لإيجاد المستعمرات التى هيئت لتكون مراكز للمواصلات لضرب التجارة العربية فى أفريقيا الشرقية والهند لهذا فهذا أول من روج هذه التجارة فى القرن السادس عشر ، وقد احتكرها البرتغاليون مدة ليست بقصيرة ثم لحق بهم الأسبان والهولنديون فى القرن ١٧ وجاء بعد ذلك الفرنسيون والإنجليز فى القرن ١٨، لقد كانت مناطق تجارة الرقيق الأفريقى تمتد حذاء سواحل أفريقيا الغربية من موريتانيا حتى الكونغو على ساحل يزيد طوله عن خمسة آلاف كيلو متر .

وقد ساهمت معظم الدول الأوربية فى غزو أفريقيا والمتاجرة بشبابها لأن المستعمرين فى أمريكا وجدوا أن الأفريقيين يستطيعون أن يعملوا بدلا من الهنود الهالكين بسبب تشابه المناطق الاستوائية فى أمريكا وفى أفريقيا السوداء . وقد احتكر الغرب تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا الغربية ١٥١٧م بمعدل ٤ آف عبد فى كل عام ، وفى عام ١٦٩٠ اعتبرت بريطانيا تجارة الرقيق عملا شرعياً ، فنقل الإنجليز إلى أمريكا فى القرن الثامن عشر نحوا من (٣٨ ألفا) أفريقى بينما نقل الفرنسيون (٢٠ ألفا) والبرتغاليون والهولنديون (١٤ ألفا) وعمل فى نقل هذه الكتل البشرية الهائلة أسطول ضخم مؤلف من ٨ آلاف مركب . وقد دخل إلى جزيرة هايتى أم مراكز تجمع العبيد منذ عام ١٦٧٠ م أكثر من ٨٠ ألف زنجى بينما لم يكن فيها عام ١٧٧٦ إلا نحو ٢٩٠ ألف وكان أغلبهم يموت خلال السنين الأولى من شدة العمل المهق ، وقد أدخل الأسبان الرق إلى الجزيرة لأول مرة عام ١٥٠٢ . وفى القرون الأربعة التى تم فيها النقل (١٦ — إلى ١٩) قدرت بنحو ٢٩ مليونا يرفعها البعض إلى ٨٠ مليونا وإلى ١٥٩ مليونا ، وقد لقى عدد كبير من هؤلاء حتفه قبل وصوله إلى أمريكا بسبب الظروف السيئة التى تعرض لها النقل وقدر عدد المفقودين بنسبة أربعة أخماس المجموع ، فقد كان يصل عبد واحد ويموت أربعة فى الطريق ، وكانت مطارده الشباب الأفريقى تستمر ستة أشهر يموت خلالها عدد كبير ، وإذا أصر الأب على اصطحاب طفله يقتله التاجر الأوربى اذا كان عمره أقل من ثلاث سنوات ، وعندما يصعدون إلى المركب يقيدون بالحديد لئلا يقذفوا أنفسهم فى البحر ، وبما أن الزنوج كانوا عراة فإنهم كانوا يهلكون من البرد عندما يتغير المناخ ، ويتناول الرقيق جراية بسيطة من حساء الذرة البيضاء ، وعندما تصل الباخرة إلى مراكز التوزيع فى جزر (الأنيتيل) يسجن الأفريقيون فى أماكن ضيقة إنتظاراً لمن يدفع الثمن الأحسن ، وقد تدوم عملية السفر والانتظار أكثر من عام ويقدر عدد الذين يموتون فى جزيرة هايتى سنوياً بثلاثين ألفا يرهقون بالعمل القاسى ، ولا يبالى بهلا كهم تعبا إذ كانوا يحصلون منهم على ربح يعادل أثمانهم ، وقد سجلت صور قاسية من التصرفات الوحشية التى قام بها القراصنة الأجانب نحو النساء الأفريقيات بتنصير المسلم من الرقيق ، وقد أيدت الكنيسة هذه الإجراءات الظالمة » .

وهكذا نجد صورة الإستعمار قاتمة مظلمة بعيدة عن كل عوامل الحضارة أو الرحمة أو التمدن الحقيقى ، وقد جاء ذلك من مصدر أساسى أخذ يتملك الفكر الغربى وهو الاستعلاء بالجنس واللون على جميع شعوب العالم الملونة .

(٤)

اندفع الغرب بعد أن حصل على الأصول العامة للمنهج العلمى التجريبي الإسلامى متفوقاً على أصحاب المنهج نفسه ، فكانت الإنتصارات التى حققها البرتغال والأسبان على المسلمين فى جبهة الأندلس والمغرب ، ومن بعد على المسلمين فى جبهة البلقان وتركيا ، ومنذ اليوم الأول لسقوط قرطبة بدأت الجولة الأخرى المضادة التى زحفت إلى السواحل الإسلامية فى أفريقيا حتى وصلت إلى الهند ، ومنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة الإستعمار الأوربى فى عالم الإسلام من أجل الإنتقام والسيطرة والاحتواء مسبقة على الخامات والأسواق . ولقد حاول الإستعمار الغربى أن يبرر حملته على عالم الإسلام باسم دور الرجل الأبيض مما أطلق عليه حمل أمانة « تمدين » البشرية ، وقد جاءت النتائج بعد ذلك لتكشف عن دور من أشد أدوار التاريخ ظلما وتجبراً وإذلالا لبنى البشر ، الذين لم يقبلوا بهذه المحاولة التى استهدفت احتواءهم ، فكانت الثورات فى كل مكان واستجاش عالم الإسلام من أعماقه بقوة مبادئه لمواجهة هذه الحملة الصليبية الجديدة المتخفية تحت اسم الإستعمار والاحتلال ، وقد ارتبط الإستعمار السياسى والعسكرى والاستعمار الثقافى ، بل أن الخطوات الأولى كانت باسم التبشير والإرساليات تمهيداً لخلق أجيال موالية لفكر الغرب تعد أعدادا دقيقا لتولى قيادات البلاد الإسلامية فى مختلف المجالات فتحفظ للاستعمار نفوذه الإجتماعى والثقافى حين ينسحب من الصورة العامة . وهذا هو ما عرف من بعد باسم التغريب والغزو الثقافى والذى خطط له لويس التاسع منذ وقت بعيد إبان الحملة الصليبية السابعة على المنصورة ، ولقد كان للاستعمار كتاب وفلاسفة (ولا يزال) يدافعون عنه ويشرحون أغراضه ومراميه وهم يحاولون وصفه بأنه رسالة عالمية مقدسة : رسالة المدنية والحضارة ، لرفع مستوى الشعوب والامم وقد تكشفت وقائع التاريخ عن حرص الاستعمار على إدامة تفتيت الأمم بالإقليميات وجهلها وتبعيتها والحيلولة بينها وبين العلم الحقيقى أو اتخاذ طريقها إلى الوحدة .

وقد تبين بما لا يدع مجالا للشك بأن الاوربى لم يفد إلى الشرق كممدن بل كمستعمر ، حرص أول ماحرص على نقل التراث الإسلامى وسرقته وحرمان أهله منه ، وكانت تلك جولة واسعة حرص فيها رجاله على جمع أكبر قدر منه ونقله إلى الغرب بالإضافة إلى نقل الخامات والموارد المتعددة ، كذلك عمد الإستعمار إلى أسلوبين مختلفين فى السيطرة ، ففى مناطق الاستعمار الفرنسى عمد إلى الاستيطان : فاستقدم عدداً كبيراً من الفرنسيين وطنهم فى الجزائر وتونس والمغرب ليسيطر بهم على الاراضى وانتاجها بعد طرد أصحابها الاصليين ، كذلك عمل بناء قلاع ومعاقل حربية للدفاع عن المرافق ومسالك البر والبحر وحراسة مخازن التجارة ، وعمد الى الحصول على الموارد الاولية والحاصلات الزراعية بابخس الاثمان لاغراض الصناعة واعادة بعضها لبيعه بأضعاف ثمنه . كذلك عمل

على إنشاء مؤسسات إقتصادية ومصارف ربوية لتوظيف ذهب أوربا التي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن الماضي ، أو فتح الأسواق لبيع مصنوعاته الكمالية والتي تدر قناطير الذهب على الرأسمالية هناك ، هذا بالإضافة إلى الاستيلاء على الأراضي الوطنية ونزعها من أهلها الذين تعاملوا معه بنظام الربا ، ثم عمد إلى أقراض الأمراء وحكوماتهم لتكبيلهم بالنفوذ الغربي والسعي للسيطرة بإقامة الامتيازات على مختلف الموارد الطبيعية كالمناجم والبترول وتسخير موارد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف في وجه أي تصنيع حتى تظل البلاد أسواقا مضمونة لتصريف منتجات لانكشير وبوركشير وليون وباريس ولندن .

ولقد واجه العالم الإسلامي هذا الزحف بقوة المقاومة ، التي استمدها من روح الإسلام ، حيث وقفت الشعوب العزلاء من كل سلاح لتقاتل بالأجساد المتراصة ، مما دفع الاستعمار إلى تغيير جلده مرات ومرات في سبيل البقاء بالادعاء بأن الشعوب عاجزة عن أن يدير شئونها بنفسها بينما كانت تدير شئونها في كفاية تامة قبل وصوله بعشرات السنين . لقد كان هدف الزحف الاستعماري الغربي ، الذي هو بمثابة الحلقة التالية للحروب الصليبيه العمل أساساً للقضاء على الدولة العثمانية التي كانت قد أصبحت بمثابة الصخرة العاتية في وجه السيطرة الغربيـة والصهيونية والتي تجمعت حولها الدول الإسلامية في وحدة جديدة تحت اسم الجامعة الاسلامية لمواجهة الزحف الغربي العنيف . ولاريب أن الدولة العثمانية هي القوة الاسلامية التي نشأت بعد الحروب الصليبية وحمت العالم الاسلامي من الغزو الغربي خمسة قرون كاملة .

(١٦)

الدولة العثمانية : سبعة قرون من الدفاع عن الاسلام

(١)

العثمانيون حول اسوار فينا

انتزع المسلمون أخر معاقل الصليبيين في الشرق ٦٩١هـ ١٢٩١م بعد أن استمرت غزوة الغرب الصليبية على أفق المشرق الاسلامي قرابة قرنين كاملين وكانت قد بدأت ٤٩٠هـ — ١٠٩٦م ظلت تتدفق خلالها جماعات الغرب دون توقف على شواطيء الشام ومصر في محاولة السيطرة على

رأس الحربة فى بلاد المسلمين ، وعلى مرمى المدافع من مكة والمدينة وقد أثارت الحملة الصليبية القوى الاسلامية ووحدتها وحررتها من ضعفها وانحرافها الفكرى وردتها إلى أصالة الاسلام فالتمست مناهجه وأساليبه وأعلنت الجهاد المقدس ، وعاشت مرحلة المرابطة والقتال والدفاع والمواجهة على مدى ذلك الزمن دون توقف ، وقد انتهت الجولة الغربية بهزيمة ساحقة . وكان رد الفعل الاسلامى قويا وكاسحا ، فقد انبعثت من قلب عالم الاسلام قوة جديدة سرعان ما سيطرت على آسيا الصغرى سنة ١٢٩٩ أى بعد خروج الصليبيين من الشرق بثمانى سنوات ، تدفقت قواتها المسلمة إلى أوربا فعبرت الدردنيل عام ١٣٦١م وظلت تتوغل فى قلب الغرب حتى حاصرت أسوار فينا ثلاث مرات فى خلال مائة وخمسين عاماً بعد ذلك وبقى نفوذ الدولة العثمانية فى أوربا ستمائة سنة (١٢٩٩ — ١٩١٧) أوقعت خلالها الرعب فى عالم الغرب ، وسيطرت على بلغراد والمجر والنمسا وبولونيا وجزائر رودس ومالطة وقبرص ، وامتد ملك الاسلام باسم العثمانيين من بودابست على الطونة إلى أسوان إلى شلالات النيل ومن الفرات إلى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) وكان ذلك كله يحكم باسم الله . ويعلى من كلمة الله . وكان فى حوزة الأسطول العثمانى ما يفوق أربعمائة مركب حربياً ، وكان سليمان القانونى الذى دخل أبواب المجر وحاصر فينا يقول : إن خيولنا ليلا ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة وكان يكتب تحت عنوان (بعناية الله عزته وقدرته وبمعجزات سيدنا أمرة الأنبياء محمد) وقد دخلت ضمن المملكة الاسلامية العثمانية كل مدينة شهيرة فى العالم القديم ما عدا رومه : (دخلت أثينا وأسبارطة والأستانة وأنطاكية وبابل ، ونينوى ، وبغداد ، وأرشليم ، ودمشق ومكة ، والمدينة ، والاسكندرية ، والقاهرة ، وممفيس ، وطيبة وقرطاجة) وكانت فرنسا تلقب سليمان فى مراسلاتها بالسيد الأعظم أو امبراطور العالم الكبير ، وعجز (شارلكان) سيد الغرب إذ ذاك عن منافسة سليمان القانونى ولم يجد سبيلا إلا استرداد ما دخل فى حوزة السلطان من بلاد المجر ، ويعد فتح القسطنطينية هو قمة الموقف بالنسبة للغرب فإنه لم يمض أكثر من أربعين عاما حتى سقطت آخر معاقل الأندلس عام ٨٩٨م . بدأ السلطان محمد الفاتح بمهاجمة الأسوار الغربيه وكانت تمتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمره ، ثم رأى على ضخامة مدافعه أنه لا يستطيع التغلب عليها لمناعتها وعظم سمكها فعول على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهى الجهة المشرفة على القرن الذهبي ، وكان الروم قد احتاطوا لذلك ومدوا سلسلة عظيمة على مدخل القرن حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار فلم يثن ذلك من عزم العثمانيين واحتالوا على نقل سفنهم إلى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال من أعجب ما حدث فى التاريخ وذلك أنهم مهدوا طريقا برياً بين البسفور والقرن يبلغ طوله نحو الفرسخين ووضعوا عليه

عوارض ضخمة من الخشب الذهبي تتدحرج عليها اسطوانات طويلة من الخشب (بكر) وسيروا فوقها ثمانين سفينة صغيرة من أسطولهم الذى كان بالبسفور فجرت عليها السفن الريح تدفع فى شراعها كأنها تجرى على الماء حتى بلغت القرن الذهبي فنزلت فيه بلا عناء وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول يضلل حامية المدينة بإلحاح على ضربها بالمدافع من باقى الجهات الأخرى . ودخل المسلمون القسطنطينية وسقطت دولة الروم الشرقية ، وسار محمد الفاتح إلى كنيسة أيا صوفيا فصلى فيها ظهر ذلك اليوم باسم الله أكبر ، صلاة الفتح فى ثمان ركعات .

ماذا كان رد فعل فتح القسطنطينية : التى حاصرها المسلمون قبل ذلك مراراً ثم ارتدو عنها ؟ وماذا كان موقف الغرب ؟ يقول البارون كارادفو فى كتابه (مفكرو الإسلام) : إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقا ولا تيسر لمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم كل ما كان فى عصره من قوة العلم فقد كانت المدافع حديثة العهد فأعمل فى تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ . وانتدب مهندساً مجريا ركب مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام وكان مدى مرماه أكبر من ميل ، وقيل أنه يلزم لهذا المدفع سبعمائة رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، فلما زحف محمد لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ٣٠٠ ألف مقاتل وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر مكوناً من ١٢٠ سفينة حربية ، وقد سحب جانباً من الأسطول من البر إلى الخليج وأنزلوه على الأخشاب المطلية بالشحم ، سبعون سفينة أنزلها البحر من جهة قاسم باشا « المهم هو الفكرة والإيمان بها والفرد القائم عليها » .

(٣)

ومن نصر إلى نصر توالت خطوات الدولة العثمانية فى قلب أوربا (١٤٥٣ — ١٨٦٣) خلال قرنين ونصف بعد ذلك لم يتوقف فيها الزحف والنصر ، يقول : شكيب أرسلان : لقد بقى هؤلاء السلاطين مدة سبعمائة سنة كاملة يذبون عن الإسلام شرقا وغرباً وجاء وقت كانت فيه أوربا بأجمعها ترتعد فرقاً من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوربا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثمانى إلى طولون أو نيس أبطل الأهالى هناك قرع الأجراس فى كنائسهم وكان أهالى فينا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم فى اليوم التالى رعايا لإبن عثمان (بين محاصرة فينا الأولى عام ١٥٢٩ والثانية عام ١٦٨٣ مائة وأربعة وسبعين سنة) وبقيت المجر ملكا لإبن عثمان مائة وخمسين سنة وبودابست عاصمة

إسلامية . وجاء زمن كان الأسطول الثانى هو الأسطول السادس فى البحر المتوسط ، وكانت ريح تقصف فى البر ومن شاء أن يرى التاريخ المجسم فليذهب ويشاهد جوامع القسطنطينية ومدارسها ويشاهد فخامة تلك الأبنية التى مضت عليها القرون بزلازلها ونوازلها وهى باقية كالأهرام ولم يحتفل آل عثمان بشىء من المبانى احتفالهم بالمساجد الشريفة التى صيروها حلة الأستانة وبهائها ومفخرتها فى أعين السياح الأجانب وهناك من المبرات لهذه العائلة فى الاستانة وتركيا وفى بلاد العرب وفى الحرمين الشريفين نبع خاص لا يحصيه الأقلام ولا تحصيه الأرقام وقد بقى الإسلام مئات السنين فى كفالة آل عثمان وكان الترك والله لا يستحى من الحق هم سيوفهم المسلولة . ولم يقتصر فضل الترك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم ومن شاء فليقرأ كتب التراجم ولا سيما (الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من فحول العلماء وأساطين الحكماء وكم لهم من موقف شريف إلى جانب الفقه والحكمة » . وقد كان تشكيل الدولة العثمانية فى جوهره « حربيا » كما يقول كيرك فى كتابه موجز تاريخ الشرق الأوسط وقد بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساع لها عام ١٥١٧ حين ضمت إليها سوريا ومصر . وكانت الدوله العثمانية دولة إسلامية بمعنى الكلمة فى تقدير كل المؤرخين والباحثين ، وكانوا يعبرون عن القومية بكلمة الملة وكانوا يقولون على الدوام أن الدين والملة شىء واحد ، وكانت جيوش الدولة تخوض الحروب بحماسة دينية شديدة وكانت عبارتهم المشهورة : أما غازى وأما شهيد . وقد أشار شفيق غربال إلى هذا المعنى فقال : كان إمعان السلاطين فى شن الحرب فى البر والبحر فى أوربا لنصرة الإسلام ولنشر لبنوده فى الارض والذب عن بيضته ولنصرة الإسلام نشأت أمارة عثمان ولأجلها حقق أرخان أداة النصر (العسكر الجديد) وفى سبيلها استشهد مراد فى ساحة قوصوه وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسى المسيحية الآخر فى رومه ولصون الاسلام سلك جيش مسلم أوعر المسالك فى الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة ولحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر فى ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوربى إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوربيين فى اتجاه البحار العربية ، وكانت نظم العثمانيين الأول وما اختطه سلاطينهم الأول لشئون الحرب والسياسة على جانب عظيم من المرونة والقدرة وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيهما سببا لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية ، فقد كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطنة ووافقها المسلمون عليه . والعثمانيون لم ينتزعوا البلدان العربية من أيدى العرب أنفسهم بل من أيدى المماليك ، وكان العرب يطمعون فى وحدة تحفظهم من تجدد الغزو الغربى الذى بدأ وشيكا بعد انتهاء الحروب الصليبية

على جبهة المشرق ، وقد حمى الحكم العثمانى الأقطار العربية والإسلامية من العدوان الخارجى أربعمائة سنة والعرب هم الذين وضعوا النظام القضائى الإسلامى على أساس الشريعة الإسلامية للإمبراطورية العثمانية وكان لهم أثر بارز فى الإدارة الداخلية فيها ، وشيخ الإسلام كان يمثل السلطة التى يحق لها الفتوى الإسلامية ، وكان الإسلام هو الجامع الأوحد بين العرب والترك فى رابطة متينة استمرت أربعة قرون وكان العرب كمسلمين يعتبرون شركاء للترك وكانوا مثلهم فى الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصرى وكانت الوظائف العليا سواء العسكرية أو المدنيـة مفتوحة للعرب ، وكان العرب ممثلون فى مجلس المبعوثان وأصبح كثيرون منهم رؤساء وزارة ومنهم كان شيخ الإسلام .

يقول برنارد لويس : كانت الأمبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها فى سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أى اعتداء خارجى ، وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون فى حرب مستمرة ضد الغرب المسيحى ، أولا : لمحاولة فرض حكم إسلامى على جزء كبير من أوربا وهى محاولة رافقها النجاح . وثانيا لشن حرب دفاعية تقف فى وجه الهجوم المعاكس الذى قام به الغرب وكانت الأمبراطورية العثمانية فى نظر الرجل العثمانى بمثابة الإسلام ذاته .

(٣)

مضت عمليات الغزو فى أوربا وأوغلت فيها فى وقت كانت موجة الإسلام تنحسر من الأندلس بسقوط غرناطة فى أيدى الاسبان عام ١٤٩٢ م وقام الاتراك بتعويض الخسارة ، وانهارت معاقل أوربا تحت مطارق العثمانيين الذين انتقلوا من نصر إلى نصر ، وتوغلوا فى قلب القارة الاوربية ، وفتحوا جبهة بحرية فى حوض المتوسـط ، حيث انتزعوا أهم جزره : رودس ، قبرص ، كريت ، الجزر الايونية ، وكذلك القواعد العسكرية التى كانت قد اتخذتها أسبانيا والبرتغال على الشاطىء الشمالى لافريقيا . ثم نقل الاتراك جبهـة القتال إلى الحوض الغربى المتوسط حيث كان الاسبان قد أشعلوا حروبا صليبية بالغة العنف والضراوة ضد القوى الاسلامية فى شمال أفريقيا وخاض الترك معارك بحرية ضد الأساطيل الإوروبية المتحالفة . واستطاعت الدبلوماسية العثمانية أن تجتذب فرنسا إلى جانبها تتبادلان المعونة وقدمت فرنسا للعثمانيين ميناء طولون الحربى لتأوى إليه الوحدات البحرية العثمانية ، وكان أبرز الصليبيين : شارل الخامس أو فيليب الثانى . وقد قام الاتراك بعمليات حربية ظافرة حتى وصلوا أسوار مدينة فيينا عاصمة النمسا واعتنق الاسلام بفضل العثمانين جماعات من السكان فى أقاليم البلقان ووسط أوربا وبفضل الأتراك العثمانيين لا تزال تعيش حتى اليوم أقليات إسلامية فى بولندا وبلغاريا ويوغوسـلافيا وألبانيا وما يؤخذ على العثمانيين أنهم لم

يتعمقوا الإسلام فى نفوس أهـل أوربا ، ولم يجعلوا منه محورا تتجمع حوله الشعوب التى دانت لهم عسكريا وسياسياً .

ومن الحق أن يقال أن الدولة العثمانية هى بديل الاندلس ، فإنه عندما أخذ نجم المسلمين يأفل فى بلاد الغرب الاوربى كان نجمهم يشرق ويسطع فى الجانب الآخر من القارة الاوربية (بلغاريا والمجر والصرب وألبانيا والبندقية) هذه الدولة التى نمت فى بلاد الاناضول ثم تدفقت سيلا إسلاميا عارما على الغرب خلال أكثر من قرن ونصف فى مرحلة المد الاولى حتى توقفت عند أسوار فينا بعد أن حاصرتها أكثر من مرة .

ومنذ برزت دولة بنى عثمان ٦٩٩ هـ — ١٣٠٠ م فقد استطاعت أن ترفع رايه الاسلام ، وبالرغم من الضربة العنيفه التى وجهت إليها من التتار فإنها سرعان ما استعادت قوتها وعادت إلى امتلاك إدارتها وقد كانت ضربة تيمورلنك عام ٨٠٤ باتفاق بين فرنسا والبابا يؤيد ذلك الكتاب الذى حمله إليه وتتنذ الراهب (فرنسيقوس) من ملك فرنسا شارل السادس الذى كتب جوابه تيمور بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك أسبانيا يهنىء تيمور على إجهازه على آل عثمان ، وقد دلت وثائق تاريخية كثيرة ظهرت فى السنوات الأخيرة على أن الصليبيين اتصلوا بالفاتحين المغول وحرضوهم للحملة على المسلمين (وكانت أم هولاكو وزوجته مسيحيتان) وكانت الخطه هى وضع العالم الإسلامى فى كسارة البندق بين الصليبيين والتتار ثم الإجهاز عليه ، ومن ثم انطلقت البعثات من البلاطات الأوربية الدينية والسياسية تخطب ود التتار وتعمل بمكر شديد على تحويل أنظارهم عن أوربا إلى القضاء على عالم الإسلام ، وكانت الحملة على بغداد باتفاق وتحالف كمقدمة للقيام بحملة مشتركة ضد الدولة السورية المصرية (جان بورو — الإسلام فى الغرب) ولكن المؤامرة بين المسيحية الغربية والوثنية المغولية فشلت ونجت دولة الاسلام لتقود معركة طويلة بعد ذلك إلى الغرب أمتدت أكثر من قرنين ونصف ولقد حاول هولاكو فى نطاق هذه المؤامرة — أن يتجه إلى مصر ولكنه فشل بعد أن هزمت الحملات الصليبية . نقول أنه بالرغم من هذه الضربة العنيفة فقد استيقظت الدولة العثمانية سريعا واتجهت إلى أوربا فيما بين ١٣٠٠ — ١٥١٦ ومن خلال حكم تسع سلاطين نشرت جناحها فوق ربوع آسيا الشرقية . وكانت الفكرة الأساسية عند الدولة العثمانية خلال القرون الوسطى وما بعدها أن الاسلام كله فى حالة حرب مستمرة مع المسيحية كلها لايستثنى من ذلك إلا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتى تدفع الجزية وقد وجه العثمانيون جهدهم لفتح أوربا ونشر لواء الاسلام فوقها وتمكنوا خلال القرنين الأولين من دخول بلاد البلقان

وبلاد المجر والكثير من بلاد النمسا وجنوب البلاد الروسية حول البحر الأسود ودوقوا أمام جدران مدينة فينا ولولا لطمة المغول وحربه وقهره للسلطان بايزيد عام ١٤٠٣ وما عقب ذلك من فترة خلل عطلت الفتوحات الإسلامية خمسين سنة لبغت الدولة مبلغا عظيما قبل أن توحد أوربا جهودها وتستعد لمقاومة المسلمين » . ويمكن القول أنه منذ عام ٩٠ هجرية والإسلام يقتحم أوربا من الغرب حتى إذا تداعت أركانه فى أسبانيا اقتحم أوربا من الشرق ، وفى الأولى استمر ثمانيـة قرون وفى الأخرى ستة قرون هى عمر الاسلام نفسه (بل إن غرناطة لم تسقط إلا بعد أن أستولى محمد الخامس على (اسلام بول) : القسطنطينية العظمى عاصمة مملكة الروم الشرقية بأربعين سنة . ولقد كانت خطوة الدولة العثمانية فى الارتباط مع العرب خطوة هامة ، فإن البلاد العربية كانت تعانى من محاولات غدر أوربية بعد أن انتهت الحروب الصليبية وكانت لما تزال مثخنة بجراح قرابين كاملين من المقاومة ومن هنا كانت تنظر إلى الدولة العثمانية كنصير كبير ومظلة ضخمة يحتمى تحتها أهل لا إله إلا الله دون نظر إلى المفاهيم التى ظهرت من بعد مما يسمى قوميات أو استعمار . والواقع أن العثمانيين لم يتعرضوا للبلاد العربية التى كانت تحت سلطان الأتراك المماليك إلا بعد أن ظهر تحالف السلطان قانصوه الغورى مع الشاه اسماعيل سلطان فارس ، لمحاربة الدولة العثمانية ، عندئذ اتجهت جيوش العثمانيين إلى الشام ومصر وبذلك أصبحت الأمبراطورية العثمانية تمتد من مدينتى فينا وبودابست فى قلب أوربا إلى طرابلس الغرب وأحيطت أوربا بالخطر الأكبر واستعدت لمقاومة جيوش الإسلام المكتسحة ، وهنا وقف العثمانيون وجها لوجه أمام دولة أسبانيا التى كانت مهيمنة على أوربا الجنوبية .

(١٧)

مرحلة المقاومة الدفاعية فى وجه الهجوم المضاد

انتهى المد الاسلامى عند أسوار فينا وبدأت مرحلة المقاومة منذ هزم العثمانيون فى معركة ليبانت البحرية عندما تجمعت الدول الاوربية تحت اسم الإتحاد المسيحى للقضاء على الاسطول التركى ، وقد اشترك فى هذه المعركة : إساطيل البابا وأسبانيا والبندقية ومالطة والسافو المتحدة . ويمكن القول أن مرحلة المقاومة بدأت منذ ذلك التاريخ عام ١٥٧١ م وإن كان العثمانيون قد حققوا عديداً من الانتصارات بعد ذلك حتى معاهدة كالور فيتز ١٦٩٩ التى توصف بأنها ختام مجد آل عثمان . هذه المرحلة التى تبدأ من هذا التاريخ وتستمر حتى الحرب العالمية الأولى يمكن وصفها بأنها « شن حرب

دفاعية » للوقوف فى وجه الهجوم المضاد الذى قام به الغرب ، وقد انتهت فى خلال عصر السلطان عبد الحميد إلى (حرب دفاعية سياسية) بعد أن تخلت الدولة العثمانية من اجزائها الأوربية ، فقد كان الموقف مشابها تماما الموقف الغربى من أسبانيا ومحاولة تطويق البلاد المغربيه بعد استعادة الأوربيين لها ، كذلك فإن الخطة كانت تستهدف بعد تحرير الاجزاء الأوربية من الدولة العثمانية العمل على تقسيم الامبراطورية وتمزيقها ، كانت هذه الخطط قديمة جداً ومتصلة حتى أن الوزير الإيطالى « جوفارا » أحصاها فى مائة مشروع هى مائة مؤامرة على تمزيق الدولة العثمانية والقضاء عليها وقد بدأت هذه المؤامرة منذ وقت باكر واستمرت ستة قرون متتابعة ، فمنذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية بدأ الغرب مؤامراته ضد الدولة العثمانية ، ولقد استغل الغرب كل أساليب الحرية والتسامح الإسلامية فى العمل على ضرب هذا الكيان والانتقام منه ، ولقد واجه الغربيون المسلمين بالعداوة والتعصب بالرغم من تسامح المسلمين وإتاحة الفرصة لهم لإقامة شعائرهم وتعاملهم الحر . وقد شهد كثير من مؤرخى أوربا المنصفين بذلك يقول : (لامنس ورامبوا) إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك والمغول بعيداً عن كل اضطهاد دينى . وكانت حكومة الترك لا تعارض أحداً فى دينه وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة » ليس هذا وحده شهد به المؤرخون الغربيون ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك . إلى أن هزيمة الدولة العثمانية فى الأخير كانت نتيجة تسامحهم مع النحل غير المسلمة : وإن هذا التسامح كان مدخل للمؤامرة على الدول العثمانية ولحمتها وسداها . يشير إلى هذا المعنى دوجوا فاراً فى كتابه (مائة مشروع) إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها فى إعطاء الحرية المذهبية والمدرسية التامتين للأمم المسيحية التى كانت تبث دعايتها القومية ، وتتماسك وتنهض وتسير سيراً قاصداً فى طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية » بل أنهم ذهبوا إلى أبعد ما أشار إلى دوجو فاراً ، لقد عملوا على « تغريب تركيا » حتى تكتب من اليسار إلى اليمين حتى لا يكون الإسلام مجاوراً لأوربا ، وتكون فاصلا من عالم الاسلام وبين أوربا ويرجع كثير من المؤرخين أن مؤمرات العودة إلى منطقة بيت المقدس والسيطرة على العالم الاسلامى بدأت بعد انتهاء الحروب الصليبية مباشرة ومنها الزحف على شمال أفريقيا ومعركة الثلاثمائة عام مع الجزائر بالاضافة إلى الحملات التى وجهت إلى مصر وسوريا ، فضلا عن أولئك الذين طالبوا ملوكهم بالسيطرة على المنطقة الجامعة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض .

وكان الرهبان ومستشارى الملوك يقومون برحلات سرية إلى هذه المناطق ليحرضوا ملوك الغرب على معاودة الحرب ، ولقد كان البابا جريجورس الثانى عشر قد أعلن فعلا الحروب الصليبية

مرة أخرى على المسلمين فى ٩ نوفمبر ١٤٠٧ إلا أن هذه الخطة فشلت بعد أن استولى الأتراك على القسطنطينية وقبرص . ويركز المؤرخون على معركة (ليبانت) التى هزم فيها العثمانيون لأول مرة ويرونها علامة على انتهاء مرحلة المد الإسلامى العثمانى فى الغرب وبدأ مرحلة الهجوم المضاد . ولقد كان السلطان سليمان القانونى — ١٥٦٦ أضخم اسم فى أوربا جاء بعد فتح القسطنطينية : ذلك الحدث الفذ الذى اعتبره أغلب المؤرخين « مبدأ العصور الحديثة » فأتم هذا الفتح باقحام ولايات البلقان مما نعرفه اليوم بأسماء (رومانيا ، بلغاريا ، اليونان ، يوغسلافيا ، ألبانيا ، بلاد المجر) وكان البحر الأسود كأنه بحيرة عثمانية وأسطولها يجوب عباب البحر الأبيض متحديا أساطيل البندقية والبابا والأمبراطور شارل الخامس (شارلكان) الذى كان أقوى ملوك أوربا : امبراطوراً للنمسا وأسبانيا والأراضى المنخفضة ، هذا التوسع لم تصحبه الدعوة إلى دخول هذه الأمم فى الإسلام ولذلك فإنه سرعان ما انهار عندما ضعفت بيضة الأتراك الحربية وحين بلغت الدولة ذروتها العسكرية والحربية ، لم تجد أسس التقدم العلمى والاجتماعى والفكرى مساندة لبقائها ، فقد استطاعت أسبانيا متحالفة مع البابا والبندقية أن تنزل بها هزيمة فادحة وتحطم أسطولها فى موقعة (ليبانتو) عام ١٥٧١ التى يعتبرها الغرب من المواقع البحرية الحاسمة ، ولكن هذه الموقعة لم تقض على الدولة العثمانية التى سرعان ما استعادت قوتها وحققت انتصارات جديدة وتوسعات كبرى وكان استيلائها على قبرص قطعاً لأحد سواعد البندقية بل أنه بعد بضعة شهور من معركة ليبانت خرج من القسطنطينية ٢٥٠ مركباً حربياً كاملة العدد والعدد وشرعت تتحدى أساطيل العدو وألقى الأسطول الذعر فى قلب البندقية فانسحبت من محالفها وأمضت الصلح مع آل عثمان ولم تمض أكثر من مائة عام حتى غزت فينا مرة ثانية عام ١٦٨٢ وكانت الأولى عام ١٦٢٩ وقد أخفقت المحاولة إخفاقاً ذريعاً وبددت شمل جيشها وأجبرت على أن تجلو عن بلاد المجر جميعاً فقد تألبت أوربا على الدولة العثمانية وتجمعت قوى النمسا وبولونيا والبندقية ومالطة والبلبار وروسيا وأطلقوا على تجمعهم الحلف المقدس وزحفوا عليها من كل صوب .

هذا ما أطلق عليه الحلف المقدس من الأمبراطور وبولنده والبندقية واستمرت الحرب مشتعلة سنين عدة فى البر والبحر ، حتى قبلت الدولة العثمانية معاهدة عام ١٦٩٩ وهى معاهدة كان لها أثر كبير فى تاريخها ففيها لأول مرة رضيت بالتنازل عن مناطق واسعة من أراضيها ، لقد أخذ الغرب موقف المهاجم منذ ذلك التاريخ وأخذت الدولة العثمانية موقف الدفاع . وبدأ العثمانيون مرحلة المقاومة فى صلابة وعناد وجاء محمد كويريللى الإلبانى الصدر الأعظم فاستطاع أن يوثق عرى

الأمبراطورية من جديد وتمكن ومن بعده خلفائه القيام بدور ضخم هدد دول جنوب شرق أوربا وأنهك خطوط الدفاع فى الغرب . ولقد انحصرت معركة الدولة العثمانية مع الغرب فى منطقة البلقان . بينما سار الغربيون فى قوة للسيطرة على العالم الإسلامى وتطويقه . والسيطرة على المحيطات : إلى المناطق الإسلامية فى الهند وأندونيسيا وأفريقيا الاستوائية ، على النحو الذى يصوره توينبي. « كان الغربيون يتطلعون بقوة فى السيطرة على المحيط وفى السيطرة بالتالى على العالم ، وهكذا لم يكتفوا بسبق المسلمين إلى إكتشاف أمريكا واحتلالها بل توغلوا كذلك فيما كان تراث المسلمين الخاص : أندونيسيا والهند وأفريقية الاستوائية ، وأخيراً بعد ما طوقوا العالم الإسلامى وألقوا عليه شباكهم انتقلوا إلى مهاجمة عدوهم القديم فى عقر داره ، وقد افتتح هذا الهجوم المركزى الذى شنه الغرب الحديث على العالم الإسلامى النزاع الحـــالى بين المدينتين » . ويمكن القول أن معركة المقاومة التركية والتى استمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى قد كشفت عن ضعف الأتراك العثمانيين فى مجال القوة المادية والتقدم العلمى الذى أحرزه الغرب والذى كان قد تدافع ليقاتل بأسلحة جديدة منها المراكب التجارية بينما كانت العثمانية لا تزال على أساليبها القديمة ومن ثم وقعت فى هزائم ضخمة وتـكبدت خسارة كبرى . وكانت المرحلة الأولى هى تخليص الأجزاء الأوربية من النفوذ العثمانى وكانت المرحلة الثانية هى سيطرة الاستعمار الغربى على الأجزاء الإسلامية بدءاً بالجزائر ومصر والسودان وتونس حتى سقطت آخر هذه الأجزاء وهى الشام والعراق خلال الحرب العالمية الأولى ، وفى هذه المرحلة الأخيرة برز دور السلطان عبد الحميد فى مقاومة الاستعمار ورفع لواء الجامعة الإسلامية فى وجه الإستعمار ومعارضة المؤامرة الصهيونية على أراضى فلسطين . وقد كانت المقاومة فى هذه المرحلة سياسية ولـكنها لا تقل خطراً عن المرحلة العسكرية السابقة لها ، فقد بذل السلطان جهداً وبراعة واقتداراً فى السياسة وفى ضرب دول الغرب بعضها ببعض مما أجل عملية السيطرة الكاملة على المنطقة سنوات طويلة .

(٢)

كانت الخطة التى وضعها الغرب على المائدة منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية وتوغل سليمان القانونى إلى أوربا مكونة من شقين هما : أولا : رد الإسلام عن أوربا . ثانيا : قمعه فى بلاده حتى لا تقوم له من بعد قائمة توسع نحو الغرب . قال جود فرواكورت فى كتاب عنوانه الصليب والهلال : إن الإسلام قد عمل مالم يقدر أن يعمله ، بل مالم يجروؤ أن يعمله دين آخر ، ذلك بأن

الصليب تغلب على كل شيء أمامه وجاء الإسلام أخيرا فتغلب عليه ، ومن هنا نشأت تلك الخطط التي أطلق عليها الوزير الروماني « مائة مشروع لتقسيم تركيا » :

يقول : إن المسلمون كانوا أرعبوا أوربا وضعفت لهم أسبانيا مع عظمتها ، وفي أواخر القرن الثاني عشر أمتد سلطان العرب (وهم لا يقرلون المسلمون تعصبا) من الهند إلى الأطلانطيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وأرقى من حضارة أكس لا شابل وباريس وكان الفرنج تحت قيادة شارل مارتل هم الذين أوقفوا المسلمين في بواتيه وأنقذوا النصرانية ، فمن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوربا إلا تحت اسم بلاد الأفرنج ، وقد بدأت الحرب الصليبية فأخرت فتح الأتراك القسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة ، ودخل الأتراك أوربا عام ١٣٥٦ فعبروا مضيق الدردنيل وفتحوا أدرنة عام ١٣٦٠ ، وفي فترة ما بعد الحروب الصليبية كان للمفكرون الغربيون لا يفتأون يهيجون خوطر الشعوب الأوربية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لدحر الإسلام ولا سيما في فلسطين ، وجاءت الدعوة إلى التوقف عن مقاتلة المسلمين بالسيف ومقاتلتهم بالتجارة بما يسمى حرب الإسلام بمشروع كارلوس الثاني ملك صقلية ، وتوالت المشروعات بعد عودة عكا إلى المسلمين عام ١٢٩١ وكانت كل الخطط تستهدف توحيد الغرب في وجه الإسلام . يقول (البابا ما كسيميليان) أن السلطة التركية قد تبسطت تبسطا هائلا بسبب بذالتنا إلى حد أننا أصبحنا لا نقدر أن نقف في وجه أعدائنا إلا إذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو بمناصبته القتال براً وبحراً ، ولما كنا على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لامندوحة من أن ندعوهم جميعاً » .

وتشكل الحلف المقدس تحت زعامة البابا لمقاتلة الأتراك : ٢٥ مايو عام ١٦٧١ وأطلق عليه الحلف المسيحي الثالث عشر : مكونا من البابا بيوس الخامس وفليب ملك أسبانية وجمهورية البندقية ، هدفه إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي (اغتصبوها) من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس . ولما هزم العثمانيون في ليبانت : أرسل البابا يثير المسلمين على تركيا وكتب إلى شاه العجم يقول : أنه لن يجد فرصة أحسن من هذه الفرصة من أجل الهجوم على العثمانيين ، ولكن هذه الرابطة لم تلبث أن انحلت وصالحت البندقيه الباب العالي . ولكن خطط التآمر والانقضاض لم تتوقف ، وفي ظل هذه الحملات الموجهة من الغرب إلى العثمانيين نشأت الأجيال المتوالية في أوربا على هذا الحقد وهذه الكراهية وتجددت المشروعات التي ترمي إلى محو تركيا والإسلام بأسره ، وكان نابليون قد درس تقسيم السلطنة العثمانية مع الروس وكان يرى أن يستولى على القسطنطينية وقدم تاليران إلى نابليون في ١٧ أكتوبر عام

١٨٠٥ مشروعاً بتقسيم السلطنة ، وتعددت المطامع والخطط حتى قال فندال : أنه لم يكن فى ذلك الدور رجل سياسة إلا وعنده برنامج بتقسيم السلطنة العثمانية ، محتفظ به لوقت الحاجة . وتوالت منذ ذلك الحين الحروب على الدولة العثمانية فى محاولة لاستخلاص الاجزاء الأوروبية ، وفى عام ١٨٣٠ بدأت الضربات توجه إلى الاجزاء العربية حيث احتلت فرنسا الجزائر وعمدت الروسيا إلى السيطرة على الاجزاء المجاورة لها فوصلت إلى أدرنه وأجبرت الباب العالى على قبول شروطها عام ١٨٧٨ هنالك عقد مؤتمر برلين : أخطر محاولة لتمزيق الدولة العثمانية أو « نهب » أملاكها كما صوره كثير من المؤرخين .

يقول أرنولد توينبي : أنه بعد فشل الاتراك أمام فينا عام ١٨٦٣ كان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربى على العالم الإسلامى فى يوم وأخر ، وقد أجاب العالم الغربى على استيلاء الاتراك على المسيحية والأرثوذكسية الشرقية فى القرنين الرابع والخامس عشر بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الاسلامية عوضا عن مقابلتها وجها لوجه وكانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد عزائم المسلمون أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم بأن وراثة أوربا عداوة الترك ما كانت إلا لأنهم كانوا آخر كتيبة من كتائب الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً صدمت جدار الحصن المنيع الذى اعتصمت به أوربا المسيحية منذ عادت أدراجها مهزومة فى معركة صليبية ثم نفذت منه وتركت كلمة الله تعلو فوق شواهق جباله .

(٣)

كان مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ أول محاولة لغرس السكين فى جسد الدولة العثمانية فإن بسمارك الذى كان سيد الغرب فى هذا الوقت بعد أن هزم فرنسا وضمها إلى بروسيا ، وبعد أن سلم نابليون الثالث سيفه لملك بروسيا وانهارت الأمبراطورية الفرنسية الأوربية عام ١٨٧٠ وحيث أقتطعت الإلزاس وجزء من اللورين من فرنسا ، وتضعضعت قوة النمسا وانهزمت الأمبراطورية النمسوية البحرية أمام قوة بروسيا ، انبعثت من جديد فكرة التحالف الأوربى المقدس ومحاور اقتطاع أملاك الدولة العثمانية خاصة الأجزاء الأوربية منها فى البلقان وآسيا الصغرى ولذلك فقد جمع بسمارك بين إرضاء مطامع الروسيا والنمسا بإعطاء الأولى الاشراف على شرق البلقان والاخرى غربى البلقان على أن تذهب انجلترا إلى شرق البحر التوسط وإلى مصر وأن تستعيض فرنسا عن الإلزاس واللورين سوريا وتونس

وكانت فكرة بسمارك تستهدف تقسيم أراضى الدولة العثمانية لارضاء الدول الكبرى فى أوربا محافظة على تفوق ألمانيا فى القارة الأوربية ووجد فى وضع هذا الحل المسألة الشرقية وسيلة يسترضى بها الدول الكبرى، وقد حضر المؤتمر الذى عقدته ألمانيا، والنمسا، والمجر، وفرنسا، والمملكة المتحدة وإيطاليا والروسيا وكانت أهم الشروط تحرير بلغاريا والبلقان والجبل الأسود والبوسنة والهرسك والصرب ورومانيا، وأن يتنازل الباب العالى لروسيا فى آسيا عن أراضى أردهان وقارص وبالطوم وأن يعلن الباب العالى رغبته فى منح حرية الاعتقاد الدينى وإلا يجب أن يقف الاعتقاد الدينى عقبة فى سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القناصل فى حماية رعاياهم، وهكذا كان مؤتمر برلين أقوى ضربة وجهت للدولة العثمانية من حيث:

أولا: تقسيم ممتلكات الدولة فى البلقان بين الدول الأوبية. ثانياً: دعم نفوذ الامتيازات الأجنبية فى الدول العثمانية، حيث وسعت نفوذ القناصل، ذلك النفوذ الذى سيعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسى واجتماعى واقتصادى أو تشريعى فى الدولة العثمانية وسيعمل على تدهورها النهائى. ثالثاً: فرض حماية الدول الأوربية على شعوبها المسيحية المقيمة فى الامبراطورية وتأليبها على الحكم العثمانى (انجلترا البروتستانت فرنسا الكاثوليك، روسيا: الأرثوذكس، هكذا كانت معاهدة برلين ١٨٧٨ هى الخطوة النهائية لتمزيق الامبراطورية العثمانية وهذه هى المرحلة التى بدأ فيها القتال بسلاح السياسة وهو السلاح الذى استعمله ببراعة السلطان عبدالحميد خلال الأربعين سنة من حكمه: لقد ثارت الأجزاء الأوربية وعمدت إلى الإنفصال ولكن الخطر كان فى تدافع روسيا وانجلترا للسيطرة على الأجزاء العربية فى مصر والسودان والجزائر وتونس وتدافع روسيا للسيطرة على الأجزاء الإسلامية الآسيوية وهذه هى طبيعة المرحلة التى بدأت ١٨٧٨ واستمرت أربعين عاما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى والتى انتهت بتصفية الأجزاء العربية الإسلامية من الدولة العثمانية والسيطرة الفعلية على العالم الإسلامى كله، وقد ظهرت حركة الجامعة الإسلامية فى محاولة من السلطان عبد الحميد لتجميع المسلمين كرد فعل لهذا المؤتمر والأخطار التى تجمعت منه وخاصة الحرب الروسية التركية واتساع أطماع فرنسا وانجلترا، فقد كانت الدعوة إلى إتحاد المسلمين خارج الدولة العثمانية معها تحت لواء الخلافة من الحركات القوية التى هزت عالم المسلمين تدافعا إلى الوحدة والمقاومة، كما هز عالم الغرب وآثار مخاوف لاحد لها، مما دعا إلى العمل السريع على أقصاء السلطان عبد الحميد وهدم محاولته وكان السلطان عبد الحميد قد اتخذ سلاح السياسة وتأليب الخلافات بين دول أوربا وسيلة للحيلولة دون تجمع الغرب على العالم الإسلامى

وتركيا ومن ذلك عمله فى كسب نفوذ ألمانيا بعد بسمارك ، ووضع مشروع سكة حديد بغداد والعمل على ربط برلين باستانبول ببغداد لمقاومة نفوذ إنجلترا فى الشرق الأدنى والأوسط ، وقد كان لهذا الإتجاه أثره فى مخططات إنجلترا ومطامعها ، مما ادعاها إلى العمل السريع للقضاء على الدولة العثمانية بانتزاع العرب وهم شطر الدولة إلى صفهم وخداعهم والقضاء بهم على الدولة العثمانية فى الأجزاء العربية (الحجاز — الشام) وكانت الصهيونية من وراء هذا الاتجاه كله ، باعتبارها صاحبة رءوس الأموال الربوية العامة فى مجال التجارة ومن حيث مطامعها فى السيطرة على فلسطين التى حال السلطان عبد الحميد دون تحقيقها .

(١٨)

محاذير الغزو الفكرى

لا نستطيع أن نفهم مؤامرة الغرب على الدولة العثمانية دون أن نكشف عن ذلك الجانب الخطير الذى صوره كثير من المؤرخين بأنه كان عاملا هاما من عوامل هزيمة الدولة : ذلك هو استغلال الغرب سماحة الدولة العثمانية فى إعطائها أهل الأديان الأخرى حرية العبادة وإفساح الطريق أمامهم فى المساواة الاجتماعية وكان مصدر هذا ومنطلقة منح الامتيازات الدولة الأجنبية ، بمعنى السماح لكل مذهب بحرية ممارسة طقوسه وعبادته وإعلان حرمة الأديان وإعطاء كل طائفة الحق فى إنشاء مدارس خاصة بها ، فإن معنى ذلك ، وخاصة بعد أن أعلنت كل دولة فى مؤتمر برلين إنها تحمى رعايا مذهب من المذاهب المسيحية داخل الأمبراطورية ، كان معناه كما صوره المؤرخون الغربيون أنفسهم ، أنه عامل أدى إلى انهيار الجسور الأخيرة التى ضمت المملكة العثمانية فقد فتح الباب واسعا « إزاء الطوفان الثقافى الذى نبع من الغرب ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التى فتحها أوربا إلى الشرق » . ومن أهم من أشار إلى هذا المعنى وأولاه عناية كبرى (بول شمتز) مؤلف كتاب (الاسلام قوة الغد العالمية) حين قال : لقد بدأت حقيقة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذى سيقرر مصير العالم الاسلامى بالنسبة لاستمرار التطور ، فلأول مرة فى تاريخ الاسلام ، يسوى بين المسيحى والمسلم فى قانون مدنى فى دولة إسلامية ، لقد قصد الباب العالى بهذه التسوية عام ١٨٥٦ أن يلعب بها دورا فى الأرجوحة السياسية فى عالم الصراع بين القوى الكبرى ، غير أنها كلفته

كثيراً ، فقد انتقصت من سلطاته المطلقة وأضعفت هيبته داخل المملكة وفى أوساط المواطنين المسلمين ، وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا ، ففى أواخر العقد الخامس فوجىء الشعب باصلاحات فى القضاء وفى الأجهزة المالية ولم يتوقف عند هذا الحد بل واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم » وهكذا يرى شمتر إن اضطرار الدولة العثمانية تحت ضغط الدول الأوربية إلى السماح لكل الطوائف بحرية النشر وحرية التعليم لم يحقق أثراً إصلاحيا بين المواطنين بقدر ما فتح أبواباً أخرى أمام القوى الغربية للسيطرة وإن تجربة تركيا التى بدأها السلطان محمود بالإستعانة بالمناهج الغربية كانت وبالا عليها . ويقول إن : (العقل الأوربى الذى استعانت به تركيا ليساعدها فى تنفيذ البرامج الإصلاحية كى تستطيع الدفاع عن نفسها وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلص منه أبدا ، أعطى الامتيازات ونال من الغرض ما مكنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض) .

وقد ظل دعاة التغريب يخادعون المسلمين والعرب فى كل مكان بهذه الفكرة المسمومة ، وذلك قولهم : « إن الطريق الوحيد لمحاربة الغرب هى استعمال أسلحته ، ولقد كانت تركيا قد أثبتت بتجربتها فساد هذه النظرية ، ومع ذلك فان الدول الإسلامية والعربية لدغت من نفس الجحر مرات دون أن تفيق إلا منذ سنوات قليلة وبعد هزيمتها الساحقة عام ١٩٦٧ بل ان خطة السلطان محمود فى اصلاح الجيش طبقاً للنظام الأوربى عام ١٨٢١ م هى التى فتحت الطريق أمام الشباب العثمانى إلى أن يقع فريسة القوى التغريبية تحت اسم حرية واخاء ومساواة وما اليها من مبادىء الثورة الفرنسية وفلسفة كانت وغيره ذلك لأنهم ، ذهبوا إلى أوربا خواء من مفهومهم الإسلامى ومن أرضية فكرهم الأصيل فوجدوا الجو مهيئاً لغزوهم والسيطرة عليهم تحت أجنحة المحافل الماسونية التى كانت ترقبهم وتتلقفهم لتحطم بهم الدولة العثمانية والخلافة والجامعة الإسلامية ، وقد أتاحت هذه الفرصة ، فرصة الإنفتاح الثقافى الغربى ، الى قيام الجمعيات السرية والمحافل الماسونية تحت نفوذ الامتيازات وفى المناطق البعيدة عن الرقابة ، وأفرخت قوى التآمر على الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية فى داخلها ، وخاصة فى سالونيك ، وعندما تنبه السلطان عبد الحميد الى هذا المخطط الرهيب كان الوقت متأخراً ، فان جماعة مدحت ممن سمو الأحرار كانوا قد زادو نفوذهم فى داخل الجيش ، وكانت جماعات منهم قد تركزت فى فرنسا وغيرها ، وبدأت الحرب ازاء دعوة الخليفة الى تجمع المسلمين فى كل مكان تحت لواء الخلافة ، هذا الخطر الذى هدد الغرب وأفزعه فأسرع بالتآمر على السلطان وانتزاعه من مقعده

وكانت الصهيونية قد حاولت معه محاولتها الماكرة فى الوصول إلى فلسطين ووقف فى وجه المؤامرة صامداً وهو يعلم أنها ستطيح به . يقول شميث : إن السلطان محمود آمن بأن أوربا لا يمكن أن تضرب وترد إلى ديارها إلا بسلاح أوربى ، وهذا ما يقوله توينبى أيضا ولكن : غاب عنهما وغاب عن السلطان محمود ، ومن يرى هذا الرأى من زعماء المسلمين أنه لابد من بناء العقل والنفس الإسلامية المؤمنة وفق مفهوم الجهاد فى الإسلام والدفاع عن عرينه ، قبل أن تمسك بهذا السلاح الذى لا يستطيع أن يكون إلا سلاحا إسلاميا ، ولكن الذين ذهبوا للتدريب على الأسلحة الأوربية ذهبوا وقلوبهم خواء من إيمانهم بأمتهم ، لقد ذهبوا وهم جاهلون مدى حقد الغرب عليهم وتآمره على دولتهم للقضاء عليها كمقدمة لضرب الإسلام نفسه .

وفى الوقت الذى عاشت فيه أوربا أكثر من مائة سنة يحيي الروح الصليبي المتعصب أمام الإسلام ذهب العثمانيون التقدميون إلى الغرب وهم عزل من كل سلاح ، ذلك بأنهم لم يكونوا قد آمنوا بأمتهم ولا عقيدتهم بالقدر الكافى الذى يحميهم من الاحتواء الغربى لحساب الصهيونية العالمية والاستعمار . وقد نسوا أنهم كانوا يرهبون أوربا أكثر من أربعة قرون، وهاهم قد جاءوها متسولين للسلاح الحديث والصناعة العسكرية ، وكيف يمكن للغرب أن يعطيهم أسرارها وهو الذى سبقهم فيها ليضربهم بها ، فهل يعقل أن يعطيهم إياها ليقفوا على أقدامهم مرة أخرى ويواجهوا الغرب ، إن هذه هى النقطة الوحيدة الفاصلة بين هزيمة العثمانيين وانتصار الغرب أصبحت مدافع تركيا لا تصل إلى الغاية إلا إذا قذفت بألوف القذائف ، أما الغرب فقد تمكن من أن يهزمهم بأقل من ذلك ، لقد استطاع أن يطور أسلحته فتكون بعيدة المدى ويطور حاملاته فتكون قادرة على العمل السريع ، ومع هذا التطور « عقيدة » هى مقاومة الغزو الإسلامى ، أما الأتراك فى هذه الفترة فقد استناموا إلى الانتصارات الماضية والتاريخ القديم وأخذوا يدخلون مرحلة الضعف . وهذه هى المفارقة: القوى الذى سقت الغرب كؤوس المذلة ، تعود مستجدية ، وتضعف حتى تسمح لأعدائها بإدخال ثقافتهم لفتح الطريق لنفوذ خطير ، تحت اسم سماحة الإسلام ، كيف يمكن للسماحة الدينية فى أمور الأقليات أن تكون وسيلة لضربها من الداخل . إن الاتجاه إلى إقامة علاقات مع أوربا — كما يقول بول شمتز فى معالجته الخطيرة لهذه القضية — كان يحمل فى طياته محاولة الدفاع ضد التيار الغربى فقد كان الأمل بواسطة هذه المعاهدة أن تمسك الدولة العثمانية بزمام التأثير الغربى الذى يزداد كل يوم وأن تراقبه لتكون على علم بخطواته ومسالكه التى يتخذها للوصول إلى أغراضه وذلك حتى يمكن إبعاده عن النقطة التى يصبح فيها خطراً

على وجود السلطة الحاكمة لتركيا القديمة . يقول « فهم الباب العالى كيف يلعب بهذه السياسة بين القوى الأوربية المختلفة ويوقع بينها على مدى عشرات السنين وتحت ظل هذه العداوة التى وقعت بين الدول الأوربية » ولكن ثبت خطأ هذه التجربة التى أرادها السلطان بنقل الحضارة الغربية إلى تركيا فلم يكن لدى البلاد مقومات استقبالها وعناصر التفاعل معها ودخل النفوذ الأجنبي من هذا المنفذ ولم يلبث أن اتسع وسيطر عن طريق الإرساليات التى أنشأتها هذه الجماعات الكاثوليكية والبروتستانية والأرثوذكسية التى كانت فى الواقع تمثل الغزو الفكرى لفرنسا وانجلترا وروسيا فقد عمدت الدول الثلاث إلى إعلان حمايتها للعناصر الأجنبية ووضعت فى موضع ممتاز يجعل لها القدرة على حرية الحركة دون رقابة من الدولة العثمانية وبذلك فتح طريق آمن للقناصل لضرب الدولة من الداخل. كانت الخطة هى استقطاب الأقليات وهى بطبيعتها خصيمة للدولة الإسلامية تحت دعوة طامحة لإحلال العنصرية التركية مكان الوحدة الإسلامية وقد اختير لها اسماً قديماً هو « الطورانية » وحل فى تركيا دعاة إلى إعادة بعث تاريخ الأتراك قبل الإسلام ، هذا بالإضافة إلى الجماعات التى سافرت إلى فرنسا وصيغت فى إطار الثورة الفرنسية ، وكانت هناك المحافل الماسونية التى تنمو فى سالونيك القادرة على احتضان هذه الجماعات وخاصة جماعة الاتحاد والترقى التى أفرخت حزب تركيا الفتاة . وفى الطرف الآخر أثيرت الفتنة فى لبنان ، بين الدروز والموارنة على نحو دفع الدول الغربية إلى التدخل وإقامة كيان مستقل بإشرافها تنفصل فيه لبنان عن الدولة العثمانية انفصالا يمكن الدول الأجنبية من إعدادها لرسالة التبشير والغزو الثقافى حيث سيطرت عليها قوتين : قوة فرنسية وقوة أمريكية ، بدأتا العمل فور خروج القوات المصرية من الشام ، وكانت الإرساليات الأمريكية قد زحفت نحو استانبول ونحو القاهرة وأقامت قواعدها فى ظل الامتيازات وباسم تعليم الأقليات التابعة لها ، هذه الخطة التى نمت وأصبحت فى عهد السلطان عبد الحميد عام ١٨٦٠ تشكل خطراً معقداً ، قوامه :

(١) اليهود الدونمة فى سالونيك ومحافلهم الماسونية . (٢) الإرساليات التبشيرية فى فروعها المختلفة وما تحتويه من شباب المسلمين والعرب . (٣) جمعية الاتحاد والترقى واحتواء المحافل الماسونية لها . (٤) الأقليات الأجنبية وتعاونها الداخلى والخارجي .

(١٩)

مخطط المؤامرة

كانت المؤامرة استعمارية صهيونية شيوعية ، أو صليبية يهودية ماركسية ، تجمعت فيها كل القوى المعارضة للإسلام والراغبة إلى تمزيق عالم الاسلام واحتوائه . ففي الوقت الذي كانت دول الغرب (الحلفاء) تضرب المسلمين الأتراك بالمسلمين العرب ، كان الكسب للغرب لا للعرب ولا للمسلمين ، ولم يتنبه العرب الذين ضربوا أخوتهم المسلمين لذلك إلا متأخراً جداً ، كان الهدف إفساح المجال لتقدم الصهيونية فى فلسطين ، وعندما دخلت القوات العربية القدس خلفا للأتراك كان اللورد اللنبي أسبق منهم إلى القول بأن الحروب الصليبية قد انتهت ، وأن عهداً جديداً ، ليس هو الدولة العربية الموعودة وإنما هو الاحتلال والانتداب والوصاية والتقسيم ، كانت كل خطوات هرتزل قد امتدت فى حركات لورنس ، الذى كان يخدع العرب ويلبس لباسهم ويتكلم لغتهم ، والذى كان يخــدم الاستعمار الغربى ظاهرا ولكنه كان فى أعماقه يعمل للصهيونية ، لذلك فإن المؤرخة الصهيونية التى هللت يوم دخل الانجليز القدس عام ١٩١٧ كانت تعرف ما هو متفق عليه بين الاستعمار والصهيونية وهو أن القدس ستسلم إلى أيدى اليهود بعد قليل ، وإن كانت قد سلمت رسميا بعد خمسين عاما ، عام ١٩٦٧ ولقد كان النجاح فى إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها إنما يعنى « إسقاط الدولة الاسلامية القائمة على الشريعة الاسلامية » وإقامة القوميات التى ينتظمها القانون الوضعى والعلمانية ومناهج التعليم التى أعدتها الارساليات مسبقا ، وحين دخل الاستعمار البريطانى مصر والسودان ، ودخل الاستعمار الفرنسى الجزائر وتونس ، فقد انطوت صفحة النظام الاسلامى بها جميعا لأول مرة منذ ظهور الاسلام وحل بها القانون الوضعي والمصرف الربوى والديمقراطية الغربية بمفاهيمها ومناهج التعليم العلمانية . ولذلك فقد كان إسقاط الدولة العثمانية حلماً من أحلام الغرب : الغرب بمختلف قواه استعمارية وصليبية ، وماركسية ويهودية وصهيونية ، وهو حلم تحقق على مراحل ثلاث : (١) إسقاط السلطان عبد الحميـــد . (٢) تمزيق الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى . (٣) إسقاط الخلافة الاسلامية ، على مرتين : الأولى بفصل السلطنة عن الخلافة ثم إسقاط الخلافة جملة . وكان ذلك يعنى « تدمير » ذلك العقد الذى يربط الأمم الاسلامية ويزيل تلك القيادة ، فتصبح هذه الأمة بدداً و « تمكين » الاستعمار من إلتهامها جزءاً جزءاً ، ولقد كان تكالب

الغرب على الغنيمة واضحاً ، وكانت الدعوة التى بثها التغريب فى تركيا لبعث العرق الطورانى ، مقدمة لمثيلها على الجبهة العربية لازاحة الاسلام وإحياء العنصرية باسم العروبة الجاهلية أو العروبة العلمانية ، وكان الهدف من هذا كله هو تدمير القوة الباقية باسم الاسلام والجامعة للمسلمين تحت لواء الخلافة ، والقضاء على النظام الاسلامى كمنهج مجتمع وإثارة العصبيات والقوميات والاقليميات فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى . وقد أمكن تحقيق مخطط كبير فى أبعاد خمسة شملت العالم الاسلامى كله تمثلت فى : أولا : تحويل الدولة العثمانية والمسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية وذلك بإثارة الدعوة الطورانية التى وكانت ثمرتها جماعة الاتحاد والترقى التى أسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدونمة الخليفه عبد الحميد وأعدت الدولة للدخول فى مرحلتها الجديدة التى برزت فى صورتها الكاملة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسرى . ثانياً : أوقعت الخلاف بين عنصرى الدولة الاسلامية : العرب والترك ودفعت الاتحاديين إلى التسلط على العرب والعمل على تتريكهم ودفعها دفعاً للتخلص من رابطه الوحدة الاسلاميه مع الترك وإقامه المشانق لهم لتعميق الخلاف والخصومه وكان قائد هذه المعركة (لورانس) لحساب الاستعمار الغربى ظاهراً ولحساب الصهيونيه أساساً . ثالثاً : مكنت الصهيونيه من أن تحقق حلمها فى الوصول إلى القدس بعد ثمانيه عشر قرناً وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل ، استطاعت جماعة الدونمه المقيمه فى سالونيك إعداد خطه طويلة المدى بالدخول فى الاسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامه المحافل الماسونيه لتدبير الخطط السرية لضرب الخلافه والدوله الاسلاميه والسيطرة على كل الحركات الوطنيه والقوميه واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفه وفتح الطريق إلى القدس بواسطه أوليائهم الاتحاديين . رابعاً : تحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدوله العثمانيه فى الحرب العالميه الأولى دون أن يكون لها أى مصلحه أساسيه فى صف الألمان وهزيمتها وتمزيقها وإعدادها لاسقاط الخلافه وإقامه نظام ديمقراطى غربى يستأصل الاسلام ، ولقد كان القضاء على الوحدة الاسلاميه فى كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للإستعمار والصهيونيه والروس قبل إعلان البلشفيه وبعدها . خامسا : تحقق للدوله الروسيه تنفيذ وصيه بطرس الأكبر بالسيطرة على أجزاء واسعه من العالم الاسلامى والزحف فى اتجاه المياه الدافئه والوصول إلى قلب العالم الاسلامى .

(٢٠)

أولا : الطورانيـة وتعميق خلاف القوميات

تحويل الدولة العثمانية المسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية ، وذلك بإثارة الدعوة إلى الطورانية ، التى كان ثمرتها جماعة الاتحاد والترقى التى أسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدونمة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة للدخول فى مرحلتها الجديدة التى برزت فى صورتها الكاملة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسرى ولقد استخدم الغرب فى أحداث هذا الانقلاب الفكرى الخطير رابطة العنصرية وأثار حولها الإعجاب الشديد لتحل فى النفس التركية بديلا من رابطة الاسلام واستخدم فى سبيل ذلك كل وسائل الإغراء والكذب والإدعاء واصطنع لها حثالة من الروس والدولة العثمانية مليئة إذا ذاك بالعناصر ، فاستخدم يوسف أقجورة ، وأحمد أغاييف ، وضياء ألب ولقد كانت سياسة روسيا العنصرية التى أعلنها بطرس الأكبر والتى تستهدف استعمار الولايات الأسيوية ، وطرد المسلمين من أوربا وسحق الدولة العثمانية قد ولدت هذا النفر من الحاقدين الذين استغلتهم هذه الحركة التى أدارها الاستعمار والصهيونية من وراء ستار المحافل الماسونية . فانفجرت فى الدولة العثمانية حرب العنصريات القومية ، وجرى إعلانها على رابطة الإسلام وحرضهم هؤلاء على العودة إلى التاريخ القديم البائد السابق للاسلام : تاريخ طوران فجدده هؤلاء وبعثوه ونشروه أما العثمانيين فاستجاب لهم بعض المخدوعين وقد اتصل هؤلاء بالقوى الغربية تحت اسم العلوم العصرية والثورة الفرنسية وأسماء حرية وأخاء ومساواة ، وعلت صيحة الجنس والدم علواً شديداً حتى يقول ضياء إلب : إن الشعور الذى يجرى فى دمى هو صدى ماضى ، وأن أعمال أسلافى المجيد أتحسس آثارها فى الدم الذى يجرى فى عروقى وفى قلب أتيلا وجنكيز خان وهما معجزة جنسى ومظهر عظمة مسارية لعظيمة الإسكندر وقيصر » كانت هذه المحطة هى نقطة البدأ فى الفصل بين الإسلام وبين الجنسيات والقوميات ثم كانت مع تركيز شديد عن عوامل الفصل بين العرب والترك وبين العروبة والإسلام وإعلاء صيحة الأجناس والعروق والدماء على رابطة العقيدة والفكر والثقافة الجامعة للعرب والترك تحت لواء الاسلام وحضارته . إن القوى الأجنبية لم تسقط الدولة العثمانية عن طريق التآمر وأساليب التهديد قرونا طويلة كما عجزت عن مواجهتها بالحرب وكان فى تقديرهم أن

حربا صليبية عسكرية قد لاتنجح ، ولقد كان السلطان عبد الحميد قد حسب لهذه الخطوات كلها حسابا دقيقا ، لذلك فقد كان الغزو الثقافى عن طريق إعلاء العنصرية والدماء والتفريق بينها ، هو الأسلوب الذى حقق لهم غاياتهم ، ولقد أوتيت الدولة العثمانية من وراء قوى لم تحسب حسابها ولم توضع فى ميزان التقدير الصحيح فقد كانت سالونيك وكانت المحافل الماسونية غير خاضعة للدولة وفيها باضت وأفرخت هذه المؤامرات والدعوات ، كان السلاح الذى استغل استغلالا كبيراً هو سلاح العصر : سلاح القوميات فى الوقت الذى كانت أوربا كلها تغلى بالنعرات القومية ، وفى البلقان عندما أثارت الدول الأوربية النعرة القومية ونجحت ، وجدت أنها تستطيع أن تتخذها أسلوبا لضرب وحدة الترك والعرب الإسلامية ، وكانت سالونيك تضرب الدولة فى مركز قيادتها ، وفى بيروت كانت تضرب الجبهة العربية كلها ، ولما تولى الاتحاديون الحكم عمقوا المؤامرة فأعلنوا تتريك العناصر ، وتتريك العرب فكان لذلك أثره العميق عند العرب الذين حاولوا أن يرفعوا راية العروبة فى مواجهة هذا الخطر وبذلك استطاع الاستعمار والتغريب أن يدخل القوتين فى نطاق الصراع العنصرى : صراع الدم والعرق . وتدافع المستشرقون يؤلفون ويكتبون عن تاريخ طوران : وما للقبائل التركية القديمة من تاريخ ولغة وخصائص وحياة اجتماعية ومن أبرز هؤلاء الذين تصدر للعمل : غولاوسكى وقره جون وماو نان هارتان .

كان هدف الداعين لبعث العنصرية الطورانية : هو تدمير الوحدة العثمانية ولذلك فإنه بعد إعلان الدستور مباشرة عام ١٩٠٨ كتب حسين جاهد فى صحيفة طنين أن الأمة التركية كانت وستظل الأمة الحاكمة فى السلطنة العثمانية فلا مجال للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الأخرى : أى العرب وهذا ما دفع العرب إلى الارتماء فى أحضان الاستعمار الغربى وقد جاء هذا بعد سياسة عبد الحميد الحكيمة التى كانت تعمل على تقريب العنصر العربى . ولا ريب كانت حركة الوحدة الإسلامية هى الخطر الأكبر الذى أريد القضاء عليه ، فقد كانت الحاجز الاكبر دون تمزيق الدولة العثمانية وتنفيذ الاستعمار لمخططاته ، وتقسيم التركة « ومن ثم كان التركيز على البلاد العربية وفصلها عن الدولة العثمانية مقدمة لتوزيعها . وفى سبيل إعلاء شأن الطورانية ، أخذت هذه القوى النازية تبحث وتنقب عن آثار الحيثيين والمغول وجعلوا يتبرءون من كل أثر عربى أو غريب عن دمائهم ولغتهم ، ويعلنون أنهم كالمصريين والإغريق والرومان والقدماء العرب شعب ذو حضارة قديمة وآثار خالدة مفاخرين بأنهم ينتسبون إلى جنكيز خان وتيمورلنك وهولاكو .

ومضت حركة العنصرية فى طريقها فعمد الاتحاديون الطورانيون الجدد إلى تطهير اللغة التركية من كل ما هو عربى وإلى محو الجنسية العربية وإدماجها فى الجنسيات الأخرى وجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام. ويشير أحد الباحثين: «إلى أن أيدولوجية النزعة الطورانية هى من صنع المستشرق المجرى (فامبرى) بين (١٨٦٨ — ١٨٧٤) وتبناها الانجليز فعملوا على تكوين كتلة عنصرية من الأتراك العثمانيين وأتراك الشرق ليحطموا بها النفوذ الروسى المتزايد فى أسيا الوسطى ثم غير الانجليز سياستهم وأيدوا سيطرة الروس على أتراك آسيا. وكتب (هنرى نورمان) أثناء الحرب الكبرى عام ١٩١٨ أن اتحاد الترك، إذا تم تحت إشراف الالمان فإن أتراك إيران وهم أهل قتال مع أتراك قفقاسيا فإذا وثقوا علاقاتهم بالعثمانيين فإن ذلك يكون خطراً على مركز الانجليز فى الهند. يقول الباحث: «وقد كانت فكرة الجامعة الطورانية وافدة من الخاوج وصعبة التحقيق لانعدام الوحدة الجغرافية والاجتماعية فى موطن الترك. كانت الطورانية التى دافع عنها بعض الترك وخاصة ضياء كوك ألب أجنبية النشأة فإن جماعة من المجريين أرادوا التوقف فى وجه التيارين القوميين الذان يحدثان بهما وهما تيار الجامعة الالمانية وتيار الجامعة الصقلمية أبتدعوا لذلك فكرة التوارنية (الترك والمغول) بينما الشرائط الجغرافية والاجتماعية لا تساعد على إتمام الاتحاد بين هذه العناصر، وكانت المحاولة فى إقامة امبراطورية تركية متجانسة يعتمد الحكم فيها على النظام المركزى ويقوم مقام الامبراطورية العثمانية الفيدرالية، كان تحقيق هذا الحكم يقتضى تتريك الشعوب الخاضعة له ولذلك عملوا على تمثل هذه الشعوب فاصطدم الاتحاديون بالعرب وفى سوريا تعرض العرب بدورهم لسياسه التتريك فلما قاوموها إذاهم يسامون صنوف العذاب والتنكيل على يد الاتحادى المتعصب: أحمد جمال باشا الذى أعدم العرب وعمل على تشوية بطولاتهم فى كتابه (حقيقه المسألة السورية) فقد زعم أن المسأله ليست مسأله القوميه العربيه ولكنها تهمة الخيانة العظمى.

ويرد الباحثون هذا التيار الذى حرص الاتحاديون على السير فيه إلى ما قام به المجلس العلمى الفرنسى سنه ١٩١٦ فى التنويه بكتاب ظهر عام ١٨٩٦ عن تاريخ الترك والمغول فى آسيا ابتداء من نشأتهم إلى عام ١٤٠٥ لتونى كاهون (وهو يهودى) وكانت هذه التحيه من المجلس العلمى الفرنسى إشارة توجيه إلى الاتحاديين الذين أولوا اهتماما كبيراً بالكتاب واتخذوه دستوراً لخطتهم الطورانيه، وقد كان ظاهر الدعوة أن الاتراك يريدون إحياء الروح التركى القومى مستقلا عن الإسلام وهم يعتمدون على عبارة مضللة للمستشرق فمبرى اليهودى المجرى الذى قال: لا وطن فى الإسلام. لقد كان الهدف خطيراً وبعيد المدى فى تمزيق وحدة الفكر الإسلاميه القائمه على جماع

القوميات تحت لواء الإيمان بالله وتحت جامعه لا إله إلا الله التي هي أعلى من كل رباط قومي أو جنسي وكان الهدف أن ينفصل الدين عن الدوله، وكان الهدف أن ينفصل الترك عن العرب، وأن تقوم دعوات لكل جنس تحت لواء الجامعه الإسلاميه للمطالبه بكيان خاص وعلى الاستعمار أن يثير هذه الأجناس ويحرضها لتضرب بعضها بعضاً ولقد استعلى هذا الاتجاه من بعد ووصل الغاية ومكن لقومية دخيلة هي القومية اليهودية وكان ذلك تمزيقاً لوحده هذه الأمة وتفرقة لكلمتها وتوزيعا لاجزائها بين اليهود والفرنسيين والإنجليز. وقد كان لهذه الحركة أثرها في إحياء التاريخ القديم السابق على الإسلام ليس تاريخ الطورانية وحدها ولكن الفرعونية والبابلية والفينيقية والأشورية وغيرها، بعد أن مات هذا التاريخ ووقع الانقطاع الحضارى أكثر من أربعة عشر قرناً، ولقد كان من أثرها أن اتجه العرب إلى الدعوه لعروبتهم فالتمسوا مناهج القومية الغربية القائمة على عوامل معارضة لمفهوم العروبة المرتبط بالاسلام وإعلاء شأن القوميات والاقليميات في العالم الاسلامى كله، أى أنه بهذه الحركة دخل العالم الاسلامى مرحلة الصراع بين الوحدة الاسلامية والعنصرية والقوميات والاقليميات. وبذلك انفصلت دولة الخلافة الاسلامية وتاج الاسلام عن اللغة العربية وعن أمجاد الاسلام بحثاً عن أمجاد قديمة بالية تتصل بطوران وجنكيزخان وغيره من المحربين، ويقول باحث إنجليزى أن الحركة ترمى إلى جعل روح التركى القومية مستقلة عن الاسلام وذلك بناء على القاعدة التى وضعها فمبرى — اليهودى المجرى المعروف وهى أنه لا وطن فى الاسلام وحجتهم أنه كان من حال الاسلام تحت تأثير العوامل والتقاليد العربية الفارسية واليونانية والبيزنطية جعل الترك أمة شرقية لها عمران خاص، وهكذا علت نعرة تعيد تفسير التاريخ القديم كله تفسيراً جديداً وتجدد الحديث عن الديانات الوثنية التى كانت القبائل التركية تعتنقها فى بلاد آسيا إلى حدود نهر جيحون، ولقد ظلت الدعوة تتردد بين يهوديين: أحدهما (ليون كاهون) مؤلف كتاب الترك، والمغول فى آسيا حتى ١٤٠٥ وبين نظرية فمبرى، وكان فمبرى قد زار القسطنطينية مراراً واتصل بالسلطان عبد الحميد وكتب ممجداً إياه فلما خلع عبد الحميد بدأ يردد هذه الآراء المسمومة. فاستجاب لها المثقفون هنالك لأنه منذ ١٨٩٠ وهو موضع ثقة الدولة والصحف ولقد بث الاتحاديون فى هذه الآراء روح العداء للاسلام ونفخوا فيها وأخذ كتابهم يحرضون العرب على الخلاف أمثال جلال فوزى وأحمد شريف وغيرهم وعلت الدعوة إلى اتحاد بلاد العرب كمستعمرات فى نظام التتريك الجديد فى ظلال الدعوة الطورانية كما دعت إلى أن يتكلم العرب بلغة الأمة التى تحكمهم، ومضى هذا التحريض الذى كان من وراءه الاستعمار والصهيونية حتى يقع الخلاف ويعمق، وقد كان ذلك فعلا ما حدث بعد، حين علق جمال باشا السفاح زعماء من العرب والترك

الاسلاميين، خلاف عميق مصدره الدماء والأجناس والقوميات العنصرية ، ومما اضطر العرب من بعد إلى الارتماء فى أحضان الاستعمار البريطانى . وقد أشار الباحث الانجليزى (أغسطس ١٩١٦) إلى أن فيبرى أمضى ثلاثين سنة ، يخير تركيا إما أن تتغرب (أى تصير غربية) أو إما أن تهلك ، ولما كانت لا تستطيع الثانية فلا مناص من الأولى ثم يقول : أن أحرار الترك اقتبسوا بعض الشىء من الغرب ولكن أخذوه من النظام البروسى (الألمانى) المقضى عليه بالفناء وقد انتهى سلطانهم ودنت آخرة ملكهم يوم رفضوا ضمان الحلفاء لأملاكهم » . والمعروف أن الاتحاديين هم الذين زجوا بالدولة العثمانية فى آتون الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل ، وكانوا مصرين على أن تقف فى صف ألمانيا حتى تكون خصيمة للغرب (فرنسا وانجلترا) التى تحقق لها النصر من بعد حتى يتم الاجهاز على الدولة العثمانية جملة وإعلان وعد بلفور لليهود عام ١٩١٧ قبل نهاية الحرب العالمية . وغاية ما فعل الاتحاديون أنهم ذوبوا العالم الاسلامى فى أتون الصراع القومى والعنصرى على نحو ما زال ممتداً من ذلك الوقت ١٩٥٩ إلى اليوم وما تزال عقابيله وآثاره واضحة فى الخطط التى اتخذها ساطع الحصرى وميشيل عفلق وغيرهم وأنهم أيضاً فتحوا الباب واسعاً للصهيونية العالمية لتسيطر فى فلسطين وبيت المقدس وهذا مالا تزال تبعته قائمة وممتدة حتى اليوم .

(٢)

حقق الاتحاديون الشطر الأكبر من آمال الغرب فى هدم الدولة العثمانية ، ثم تجمعوا مرة أخرى بعد الحرب باسم الكماليين لاسقاط الخلافة . لقد كانت مهمة الاتحاديين التى صافتها روسيا القيصرية وانجلترا وفرنسا والصهيونية العالمية الأولى هى تقويض دعائم الأمة الاسلامية بإثارة الثغرات العنصرية داخلها وتفتيتها إلى قوميات حتى تستطيع أن تقسم تركة الرجل المريض وقد نجحت هذه المجموعة : جاويد وطلعت وجمال ليقوموا بعملية التتريك والمناداة بالقومية الطورانية وجاء رد الفعل من الجانب الآخر فقام خريجو معاهد الارساليات وأغلبهم من المارون الذين رباهم التغريب فحملوا اللواء نفسه ودعوا إلى القومية العربية وبقى قوم من المؤمنين برسالة الامة الاسلامية ووحدتها والذين يرون أنه لا سبيل إلا سبيل الاسلام نفسه معزولون عن الحركة محجوبون عن القيام بدور ومنهم (شكيب أرسلان ورشيد رضا) وفى نفس الوقت كان سايكس وبيكو (الفرنسى والبريطانى) يجتمعون لوضع خطط تقسيم تركة الرجل المريض ، وكانت الصهيونية تسعى للحصول على وعد بلفور وقد تحقق ذلك كله فى نفس الوقت الذى كان العرب تنتزعون أنفسهم من الوحدة العثمانية ليتشكلوا خلف فيصل

ولورنس لضرب القوى العثمانية حيث استطاع الاستعمار أن يوقع بين عنصرى الاسلام فما أن لاحت بوادر النصر بدماء العرب المنتصرين والترك المنهزمين حتى سارع اللورد اللنبي فدخل « القدس » وأعلن سيطرة بريطانيا عليها وأعلن أن ذلك هو نهاية الحروب الصليبية . وكانت مؤامرة ضخمة بالغة الخطورة ، وكان قد حذر منها ذلك الفريق الذى عزل عن ركب الاحداث .

كانت اليهودية تعرف أنها لن تحصـــل على شيء ذى بال إلا بعـد أن تـكسر طوق الوحدة الإسلامية وهو التعبير الذى عبر به (حايم وايزمان) فى مذكراته حين قال : أنه هو الذى حال دون أن تجنى المؤسسات الصهيونية لنفسها أى ثمار إيجابية من وراء طول سعيها ولذلك فقد استفرغ اليهود كل مالديهم من جهد وعروض وتهديد وأرسل الثرى اليهودى « قرصو » برقية من إيطاليا لاتزال بعض كتب الترك تحتفظ بالصورة الأصلية لهـا : « أنت رفضت عرضنا ، ولـكن هـذا العرض سيكلفك أنت شخصياً وسيكلف مملـكتك كثيراً » عندما اتجـــه السعى إلى « كسر طوق الخلافة » على حد تعبير حايم وايزمان واعترافه ، حتى إذا تحطم ومزق الشمل تحققت الغاية اليهودية من أيسر سبيل .

أما أخطر ماحدث فهو (سحق الدولة العثمانية) على النحر المثير الذى سجلته معاهدة « سيفر » فإن ثنايا نصوصها تـكشف ذلك الحقد الأسود وتلك المخالب الدموية .

أولا : تنخفض الدولة العثمانية من ٦١٣٥٠٠ ميل مربع و٣٠ مليون نسمة فى سنة ١٩١٤ إلى ١٧٥ ألف ميل و٨ مليون من السكان . ثانيـا : ألا يبقى للترك فى أوربا غير القسطنطينية مع شقة رقيقة لحمايتها . ثالثـا : السماح لليونان بالإستيلاء على الجهة الأوربية من الدردنيل وإدارتها . رابعـا السماح لليونان بالاستيلاء على أزمير إلى أن يقرر مجلس عصبة الأمم ضمها إلى اليونان نهائياً. خامساً : منح الأرمن : اســـتقلالهم وتأليف دولة الأناضول منهم . سادساً : ألا يكون لتركيا أسطول بحرى أو جوى وأن تخفض جيشها إلى شرطـة فقط . سابعـاً : أن تعود الامتيازات الأجنبية إلى سالف عهدها بعد إلغائها فى أوائل الحرب . ثامنـاً : أن تؤدى تركيا غرامة باسم تعويضات وغيرها من الأعباء المالية والاقتصادية .

ثم وقعت انكلترا وفرنسا وايطاليا اتفاقا لحـماية مصالحهم الخاصة قسمتا فيه ما بقى من تركيا إلى مناطق نفوذ وتمت الموافقة على معـاهدة سيفر (١٠ أغسطس ١٩٢٠) ووضعت أسسها موضع التنفيذ منذ شغل اليونانيون فى تلك السنة خط (مورخة — عشاق) على نهر المندريس حيث ساعدهم

الايطاليون بجيوشهم عند الجناح الأيمن . ثم سقطت (درنه) وأنزل الأسطول البريطانى قوة بحرية معها جيش يونانى فى رودستووفى تراقيا وباندومه فى آسيا مصغرى ثم استولى اليونان بمعاونة انكلترا على أفيون قره حصار وكوتاهيه ووصلوا زحفهم إلى نهر صقاريه وكوك ، وهكذا بدت روح الانتقام والغدر الغربى فى أقسى صورها ، ولم تستطع تركيا من بعد أن تتخلص من هـــذه القيود وتستعيد وجودها كدولة محددة إلا بعد أن دفعت الثمن غاليا فى تلك المعاهدة السرية التى وقعها خلفاء الاتحاديين: مصطفى كمال ، وعصمت اينونو ، وهو « التنازل عن الإسلام دينا ولغة وقانونا ونظاما اجتماعيا الخ. وكان أبرز ما تمثله هذه المرحلة هو : تحول الولاء عن الإسلام إلى القومية والوطن ، ولقد فرح الغرب وأعلن شماتته بالدولة العثمانية عندما سقطت حتى قال كبير الإنجليز (لويد جورج) نوفمبر عام ١٩١٤ أنى لمغتبط إذ حلت الفرصة لدعوة الأتراك لتأديتهم حساباً أخيرا بعد سلسلة المخازى الطويلة التى إقترفوها ضد الأسبان : وقال ولسون : أنه قد تم طرد الإمبراطورية العثمانية من أوربا لأنها غريبة تماما عن المدنية ، وهذا كله مشابه ومساو لما قاله اللورد اللنبي فى القدس .

(٢١)

الفصل بين العرب والترك

ثانيا : أوقعت الخلاف به عنصرى الدولة الإسلامية : العرب والترك ، وتحريض الاتحاديين على التسلط على العرب والعمل على تتريكهم ودفعها دفعاً للتخلص من رابطة الوحدة الإسلامية مع الترك وإقامة المشانق لهم لتعميق الخصومة والخلاف .

وكان قائد هذه المعركة لورنس لحساب الاستعمار الغربى ظاهراً ولحساب الصهيونية أساساً وكان كسر الوحدة بين العرب والترك بمثابة آخر حلقات مطامع الاستعمار والصهيونية والروس لابتلاع العالم الاسلامى ، وكان التركيز على العرب بالذات هاما بوصفهم أصحاب الرسالة الأولى ، وقلب العالم الاسلامى وقوته الفكرية والروحية وفيها بيت الله الحرام معقل الدعوة الاسلامية . وكانت المحاولة بالنسبة لفصل العرب عن الترك وفصل المصريين عن العرب قديمة منذ محاولة نابليون الأولى . فقد كانت الحملة الفرنسية هى أول تجربة من الغرب لاقتحام عالم الاسلام فى المشرق بعد الحروب الصليبية والادعاء بأنها الحركة التى ايقظت العرب والمسلمين فى العصر الحديث مع أنها جاءت بعد حركة الامام محمد بن عبد الوهاب بأكثر من خمسين عاما . وقد أدعت الحملة الفرنسية أنها حملة تمدين

ورسالة حضارة ، ولكنها كانت فى الحقيقة « غزوة استعمارية ، تكشف عن صراع المطامع بين فرنسا وبريطانيا : أيهما تسبق إلى هذه المنطقة ، وكان عنصر التعصب والحقد على الاسلام فيها قائما وواضحاً بالرغم من محاولة إخفائه حين أدعى نابليون الاسلام، ولاريب أن واقعة دخول الخيل الأزهر لتهدم دعوى نابليون وتكشف هواه . فقد حول نابليون القاهرة إلى بارات لجنوده السكارى، والعاهرين واصطنع طبقة من الخونة أمثال المعلم يعقوب وأحدث الفرقة بين المسلمين والمسيحيين وأعلى النعرة الدينية لدى القبط .

ولكنه وجد معارضة تامة عنيفة قاسية أزعجت لياليه وأيامه كلها حتى عاد مهزوما فقد قاومت مصر بثورتين متتاليتين وعشرات المحاولات فى القضاء على الجنود الفرنسيين وإذلالهم وسد الطريق أمامهم من الاسكندرية إلى القاهرة وحرمانهم من الماء والزاد وتقدم مسلم عربى غير مصرى ليقتل القائد العام بعد نابليون باسم الدفاع عن وطن الاسلام ، وقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه رافع الرأس لأنه آمن بما فعل ، ولقد عامله الفرنسيون أسوأ معاملة ونفذوا حكم الإعدام فيه عن طريق الخازوق ، وبذلك كشفوا عن همجية وتعصب وحقد بعيد عن كل ما يدعون من هدف حضارى ، ولقد فتحت الحملة الفرنسية الطريق إلى الاقتباس الغربى على غير أسس صحيحة ، فكان لذلك آثاره من بعد الاحتواء التغريبي الذى أوقعه الغرب بالمسلمين والعرب والمصريين ، لقد قبل المسلمون تسول الحضارة ، وكانوا يستطيعون أن ينقلوها فى إطار فكرهم وعقيدتهم ، ولكن كان لتولى محمد على الحكم فى هذه الفترة وهو ممن لايعرفون تيارات التغريب أو من لا يأبهون لأثرها فى الإسلام ولا لأثرها فى مصر ، أسوأ الأثر فى الطريق الذى اختطته مصر ، حين غلبت المطامع الشخصية على الغاية الكبرى ، وبدا كان محمد على يريد أن يدمر الدولة العثمانية لحساب الغرب ، فلما لم يستطع قضى على الحركة الاسلامية الوليدة فى شبه الجزيرة ، ولو تعاون معها فى إطار الدولة العثمانية لتغير موقف عالم الاسلام ولكن الاستعمار كان يقظا لضرب القوى الصاعدة بعضها ببعض ، فإنه أوهم العثمانيين بأن الحركة الإسلامية الوهابية تعارضه ، وحرض محمد على باسم الدولة العثمانيه للادالة منها وبذلك وقعت المعسكرات الثلاث فى الصراع الذى قضى عليها جميعاً ولو أنها تعاونت — وهى المسلمة — فى طريق واحد لتغير الموقف .

لقد استطاع محمد على أن يحرز بعض أدوات التقدم العلمى ولكن لم يلبث أن تجمعت الدول الأوربية فى تقارين لسحقه ، حتى لاتكون قوته حائلادون تنفيذ خطة الغرب فى تمزيق الدولة العثمانية أو ترك قوة إسلامية عربية جديدة لتنمو ، ولقد أحصى على محمد على أنه عمل لحساب فرنسا فى أكثر

من موضع وموقف . كانت الدولة التي كونها محمد علي تمتد من كريد إلى الخليج الفارسي ومن جبال طوروس إلى أعالى النيل الأبيض ولكن خطة محمد على لم تكن واضحة في شأن إعادة مجد الإسلام ، وإنما كانت مطامعه الخاصة هي أبرز وجهاته ولذلك فقد تهدم سلطانه رويداً ، حتى فقد كل شيء في سنوات قليلة لاتزيد عن عشر سنوات ، صحيح أنه لم يطمع في السيطرة على الدولة العثمانية ولكنه لم يصنع شيئاً بقدراته في سبيل تعزيز هذه الدولة وحمايتها من المؤامرة التي — يجرى تنفيذها من أجل تمزيقها . كان — كما يقول المؤرخ محمد رفعت — الغرض الذي كان يعمل له هو تثبيت أقدام أسرته من بعده في حكم مصر ، ولقد كان ميله إلى فرنسا عاملا هاما في تأليب بريطانيا وإذا كان محمد على لم يقدم على دخول القسطنطينية وخلع الخليفة فإنه كان يعلم مما جرت مناقشته بين الدول الأوربية أبان عام ١٨٣٣ ، وما اتفق عليه من رأى في المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة في أوربا ضمانا للسلام والصفاء بين الدول . وقد كتب الكونت نسلرد رئيس حكومة روسيا إلى المندوب الروسى في القسطنطينية : « يجب أن لايصل محمد على القسطنطينية ويقلب نظام فيها فإن هذا لاتتفق مع مصالح حكومة القيصر وأغراضها فإن محمد على إذا وحد ملكه في الأستانة كان في حصن منيع ووحدة لايستهان بها أمام روسيا بدلا من جار ضعيف منهزم » . وهكذا نجد أن الغرب كان يعمل على الحد من مطامح محمد على والحيلولة دون تحقيق أمل كبير يحمى الدولة الإسلامية أو يؤدى إلى أن ينبعث العالم الإسلامى من جديد ، ولقد تضامنت بريطانيا مع فرنسا في حمل السلطان على إيقاف محمد على وقصره في مصر ونزع نفوذه من كل الأجزاء الحجازية والشامية التي كانت معه وكانت تلك نهاية محاولة طامعة لم تكن تستهدف عملا يرمى إلى إعادة مجد الاسلام وذلك بخلاف ما وقع بالنسبة للحركة التي قادها الأمام محمد بن عبد الوهاب والتي نمت واتسعت ، وحققت نتائج هامة فكانت أبرز القوى عام ١٩٢٤ بعد إسقاط الخلافة . أما محمد على فقد فتح أبواب مصر أمام النفوذ الغربى والفرنسى بالذات على نحو شديد الخطر والأثر ، عندما جاء اسماعيل ففتح باب الأستدانة وعشش المرابون اليهود في أرض الكنانة وتسلطوا عليها .

(٢)

كانت الحملة الفرنسية على مصر هي الطرقة الأولى على الجدار العربى للدولة العثمانية ، حيث فتح الباب للنفوذ الغربى في مصر وأخطر مافيه كان حفر قناة السويس وما اتصل بها من مؤامرة اليهود المرابين في السيطرة على مقدرات مصر يقول دكتور محمود صالح رحمه الله وأجزل مثوبته :

إذا رجعنا إلى تاريخ مصر المالى نجد أن اليهود هم المسئولون عن القروض المشئومة التى صبت بؤس المصريين وفقر الأهالى واستغلالهم فقد استغلوا اضطراب الحال الداخلة فى مصر بعد حروب محمد على فاستولوا على اقتصاديات البلاد وقد بلغت ربويات القروض إلى ٣٦٪ وإلى ٤٨ فى المائة كما يذكر مؤلف تاريخ مصر المالى وهذا أفحش ماسمع عن الفوائد الربوية وقد اضطر تأمر اسماعيل على رهن إيرادات السكة الحديد و الجمارك والضرائب الشخصية وفى عام ١٨٧٥ اتفق دزائيلى اليهودى رئيس وزراء بريطانيا مع روتشيلد الرسمالى اليهودى، على شراء أسهم قناة السويس الذى كانت مصر ٢٠ مليونا بمبلغ ٤ ملايين والأموال التى أقرضها اليهود لإسماعيل وقد بلغت ٥٤ مليونا حسبت على مصر ٩٦ مليونا، وقال جابريل شارم. ن اسماعيل قد اقترض فى ٢٨ عاما التى تولى فيها الحكم ٣ مليارات من الفرنكات أى ١٢٠ مليون جنيه ولكن نصف هذا المبلغ بقى فى يد المرابين وأصحاب البنوك المضاربين» وهكذا أنقض الغرب على الدولة العثمانية من جدارها العربى فى مصر فأعدت للاستعمار البريطانى سنوات، وفى خلال ذلك كانت فرنسا تضرب الجزائر والجزائر تقاوم ثمان سنوات حتى استولت (١٨٣٠ — ١٨٣٨) وتدفقت إيطاليا على طرابلس الغرب وفرنسا على تونس، فى خطة مزدوجة : إعطاء فلسطين لليهود العالمية وتقسيم العراق والشام بين فرنسا وبريطانيا، هنالك كان لابد من إقامة الاقتتال بين المسلمين :العرب الترك فى المناطق التى كانت الدولة العثمانية تسيطر عليها من أرض الجزيرة العربية إلى الشام والعراق، وتلك كانت مؤامرة ضخمة خدع فيها العرب وقتلوا إخوانهم المسلمين الأتراك ثم سلموا القدس بعد ذلك إلى اللورد اللنبي الذى قال بعد النصر : إن الحروب الصليبية قد انتهت وقال : أن بيت المقدس قد عاد اليوم فى كفالة الاستعمار البريطانى.

كان الهدف هو فصل العرب عن الترك وإحلال نفوذ حاكم الحرمين مكان الخليفة، وحاكم الحرمين هو شريف مكة ولذلك فقد تركزت المحاولات على أن تقوم بريطانيا بمساعدة العرب بإخراج العثمانيين من الجزيرة العربية ومن الشام والعراق. وقد استطاع الانجليز إقرار الإتفاق مع الشريف ووعدوه بدولة عربية عند انتهاء الحرب على أن يعلن الانفصال عن الدولة العثمانية. وكان لورنس هو الموجه الحقيقى لهذه الخطوات بخلفياته الاستعمارية والصهيونية وخداعه العجيب فى اصطناع لباس البدو ولهجتهم، وقد جمع فيصل بن الشريف حسين بين ٧، ٨ آلاف من الرجال البدو وقدمت لهم بريطانيا أسلحة وأطعمة ومئات من الليرات وبدأت حملة إخراج القوات التركية من الجزيرة العربية، بمساعدة لورنس والمراكب الانجليزية، وقد ظلت هذه القوات تتقدم حتى

دخلت بيت المقدس ودمشق ، دخلت القوات العربية دمشق بقيادة اللورد اللنبي ودخل الحلفاء القدس ، ووقف اللنبي على أبواب درعا في ١٦ أيلول ١٩١٨ وقد انهزم الجيش التركي السابع والثامن ودخل الحلفاء دمشق قبل أن يصل فيصل إليها وأداروا شئونها واعتبر الحلفاء أنهم محرروها الحقيقيون ، وقد استمرت هذه الحركة عامين تقريبا .

ثم تبين أن الشام والعراق قد قسمت بمقتضى معاهدة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا وأن وعد بلفور قد أعطى بريطانيا الحق في أن تسمح لليهود بالإقامة والهجرة إلى فلسطين وإن وعد بريطانيا للعرب باقامة حكومة عربية كان وعدا باطلا وزائفا وكان خداعا . وقد أ كتفت بأن ولت أبناء الشريف حسين حكومات سوريا والعراق وشرق الأردن وخدع لورنس العرب وانكشفت بعد خطته الإجرامية لحساب الاستعمار ولحساب الصهيونية في وقت مما حتى وصف بأنه العميل المزدوج . .
يقوله البروفسور هوجارث الأستاذ بجامعة أكسفورد وأعظم خبير بريطاني في شئون الشعوب الآسيوية والعربية : لم يعد مراء في أن لورنس كان مكلفا بتنفيذ خطة مرسومة بكل دقائقها وبكل تفصيلاتها ، خطة تستهدف تحريض العرب على الثورة ضد الحكم التركي وللاسهام بالتالي في تقويض الامبراطورية العثمانية . وهي خطوة ضرورية لفرض السيطرة البريطانية على فلسطين وانفتاح الباب على مصراعية لإقامة دولة إسرائيل .

وبالنسبة للعمل المزدوج ، فإنه كان على علم بأبعاد دوره وكان يعرف منذ اللحظة الأولى أن الجيش العربي بقيادة فيصل سوف يشارك بالقسط الأوفر في فتح فلسطين ، وقد دخلها بالفعل قبل جيش اللنبي لكي تسلم فيما بعد غنيمة باردة للصهيونية العالمية .

« وكان لورنس يعلم أن السياسة البريطانية وقد شارك في وضعها تتعارض تعارضا مباشراً وكاملا مع مفهوم العرب للحرية ومع طراز الدولة التي وعدوا بها وحاربوا من أجلها ، ولقد كانت التقارير السرية منذ بداية الثورة تكشف عن إخضاع العرب للسيطرة البريطانية والعمل على تعميق انقسامهم وتباغضهم ، ففي تقرير (١٥ يناير عام ١٩١٦) أن نشاط حسين يبدوا مفيداً لنا لأنه يتفق مع غاياتنا العاجلة وهي تحطيم (الكتلة) الاسلامية وهزيمة الامبراطورية العثمانية وتقويض بنيانها ولأن الدولة التي سوف يقيمها حسين خلفاً للأتراك تكون طيعة لنا مثل ما كانت تركيا قبل أن تصبح حليفة للألمان ، وإذا عوملت هذه الدولة بالاسلوب الصحيح فإنها ستبقى في حالة تخبط سياسي » ومما سجله لورنس في وثائقه وكتبه : « إذا انتصرت بريطانيا في الحرب فسيكون وعودها للعرب كالورقة

المينة ، ولو انني كنت ناصحاً شريفاً لسرحت رجالي ولمنعتهم من المخاطرة بأرواحهم لمثل هذا ، ومع ذلك فإن الأماني العربية كانت أداتنا السياسية لكسب الحرب في الجبهة الشرقية » . ويقول : « لقد غامرت بالتضليل الايماني بأن عون العرب كان لازماً لإحراز نصر رخيص وسريع في الشرق ، وخير لنا أن ننتصر وأن نخلف وعودنا من أن نمنى بالهزيمة » وكان في تقدير لورنس أنه إذا وافق حسين الشريف نسل الرسول على المساندة البريطانية والثورة ضد الأتراك لكان ذلك رداً على مناداة سلطان تركيا بالجهاد ضد الحلفاء وهي دعوة خليقة بإشعال ثورة ملايين المسلمين من رعايا الممتلكات البريطانية والفرنسية والروسية » ويقول في تقرير آخر ١٩١٦ : « لابد من القضاء نهائياً على سيادة السلطان التركي ، ذلك أن قدرة بريطانيا على أن تنصب خليفة جديداً لا تعدو قدرة اليابانيين على أتباع الكنيسة الكاثوليكية ، وحتى سلطان مصر لا يستطيع أن ينصب نفسه للخلافة لأن فعلته ستكون مناراً للريبة بسبب علاقاته معنا ، أن أكثر المطالبين بالخلافة رجحانا بعد السلطان هو شريف مكة » .

وقد فصل لورانس القول فيما قرره من اختيار فيصل دون آل شريف مكة جميعاً فقال : عبد الله زكي وزيد بارد ووجدت في فيصل القائد ذا الحمية المطلوبة ، أما حسين فإنه إذا قرر أمراً فمن العبث أن يحاول المرء إقناعه بالعدول عنه . ويقول : (هوجارت) أن فيصل كان يعتقد أنه قادر على استغلال لورنس لتحقيق الاستقلال العربي ، بينما كان لورنس موقن من قدرته على استغلال فيصل لأحداث الانقسام في الكتلة الإسلامية ولتدعيم نفوذ بريطانيا في الشرق الأوسط ، وبذلك تكاملت عناصر المأساة وكان من الضروري أن تنجلي عن كارثة . ويقول : أن الوقائع قاطعة في أن لورنس كان يحتقر العرب والوثائق كلها تثبت أنه لم يعرف سوى المقت الأسود للأمة العربية ، فهو يرتدي ثياب العرب ويتحدث لغتهم ويسلك سلوكهم لا لشيء إلا ليكون أقدر على التغلغل في الوسط العربي : يقول لورنس: إذا كنا نريد أن نكون في سلام بجنوب سوريا وأن نستولي على جنوب العراق وأن نسيطر على المدن المقدسة فلا مندوحة من أن نحكم نحن دمشق أو تحكمها دولة أخرى غير إسلامية تكون صديقة لنا) ويحاول لورنس أن يرسم خطة ما بعد إيقاع الفرقة بين العرب والترك : أن حسين شريف مكة يفكر في أن يأخذ لنفسه ذات يوم مكان الحكومة التركية في الحجاز ، وإذا كنا نستطيع أن نرقب الأمور بحيث يكون هذا التغيير مصطبغاً بالعنف ، فإننا نكون قد محونا خطر الإسلام إذ سوف ينقسم المسلمون على أنفسهم وفي قلب الإسلام وسيكون خليفة تركي وخليفة في الجزيرة العربية وسيعود الإسلام ضئيل القدر شأن البابوية أيام كان البابوات يعيشون في (أفينون) » ويقول : لقد كان لورنس ماضيا في خديعة العرب بينما بريطانيا وفرنسا كانتا توقعان معاهدة (سايكس — بيكو) وهي وثيقة مروعة وثمرة الجشع في أبشع صورة وهي تستنفد فلسطين من

عملية التقسيم « ليكون لها نظام دولى خاص بها ولإقناع الصهيونيين بأن الفرصة قد أتيحت لتحقيق حلمهم فى إقامة وطن قومى لليهود » وقد عملت فرنسا وبريطانيا على إخفاء الاتفاقية حتى سقط النظام القيصرى فى روسيا فى نوفمبر ١٩١٧ وأذاع البلاشفة الاتفاقيات ولما علم الشريف حسين بأخبار الاتفاقية قال: إن الوعد البريطانى كالذهب مهما جلوته بشدة فإنه يستطع دائماً ويقول هوجارت : ولسوف يأتى يوم قريب يدخل فيه فيصل على رأس قواته إلى القدس ثم إلى دمشق ، ويهتز وجدانه لتحرير العاصمة العربية بعد أربعة قرون من الاحتلال التركى ، وعندها يعلم أن وعود بريطانيا لم تكن ذهباً وأن سوريا ستكون فرنسية طبقا للاتفاقية . ولقد مهدت الدماء العربية طريق اللورد اللنبي إلى القدس ودمشق وفقد الجيش العربى عشرين ألف رجل وتشير إلى أن المراسلات التى أجراها الشريف مع مكماهون عام ١٩١٥ — ١٩١٦ ثم تبين أن لا قيمة لها لم تنص على دخول فلسطين فى المنطقة العربية وقد نشر مؤلف كتاب (الحيوات السرية للورنس فى الجزيرة العربية) وثيقة بريطانية بقيت سراً مدة ما يقرب من خمسين عاما هى محضر اجتماع عقدته لجنة مجلس الوزراء للحرب الشرقية فى لندن (٢٨/١١/١٩١٨) برئاسة اللورد كرزون : قال كرزون أن وضع فلسطين كما هو يلى :

إذا كان لنا أن ننجز إلتزاماتنا فهناك الوعد العام لحسين فى أكتوبر عام ١٩١٥ وبموجبة تدخل فلسطين ضمن المناطق التى ألزمت بريطانيا نفسها بأن تكون عربية ومستقلة فى المستقبل . ويقول المعلقون : أن الوثيقة لا يمكن أن تكون أكثر قطعا فقد كانت بريطانيا تعلم يقينا إنما وعدت العرب أولا بفلسطين كجزء من منطقة عربية مستقلة » . أما لورانس فقد كان يعمل فى اتجاه آخر يقول هوجارت : فمنذ أن صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ فهو فهو يسعى ملحا فى تبديد مخاوف العرب بتقبل الموقف وقد عبر فى تقاريره عن ثقته فى التأثير على فيصل . « سأتحدث مع فيصل لصالح اليهود وسيكون موقف العرب مشوبا بالعطف خلال الحرب على الأقل » أما الشريف حسين فإنه لم يقبل إقامة دولة يهودية فى فلسطين . ثم نقضت بريطانيا وعودها للعرب : لن تكون دولة فلسطين عربية ولا مستقلة ، ستكون منحة بريطانيا للحركة الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل، ويوصى هوجارت حكومته باستعمال القوة ضد العرب ولم تجف بعدها دماؤهم المراقة فى سبيل الحلفاء ، وقد تقرر أخيراً بأنه لامناص من أن تفرض بريطانيا تعهدها للصهيونية بواسطة القوة . كذلك فقد سعى لورنس لتدبير لقاء بين فيصل ووايزمان زعيم الحركة الصهيونية فى فندق كارلتون فى لندن ، وكان لورنس قد تقابل مع وايزمان للمرة الأولى فى فلسطين عقب سقوط القدس فى أيدى الحلفاء وأعجب به إعجابا فائقا .

ويقول هو جارت : أن مباحثات كارلتون بين فيصل وايزمان ، كانت حلقة الختام لمحادثات سابقة بين فيصل والصهيونية بدأت قبل انتهاء الحرب ففى ٤ يونية عام ١٩١٨ قصد وايزمان إلى العقبة ليقابل فيصل ويقول له : « إذا كنت تريد أن تشيد مملكة عربية قوية وغنية فإننا نحن اليهود ، قادرون على معاونتكم ونحن وحدنا ، وسنكون جيرانك ، ولن نشكل خطراً عليك لأننا لسنا دولة قوية ولن نكون » . وكانت المفاوضات مع فيصل كالمحادثات مع السلطان عبد الحميد والإتحاديين من بعد تستغل الحاجة إلى المال ، وفى اجتماع كارلتون « فيصل — وايزمان — لورنس المترجم » تحدث وايزمان عن وجود اتفاق يرمى إلى إرضاء الأطراف الثلاثة : (١) بريطانيا : تحصل على الوصاية . (٢) الصهيونية : تحصل على حق الدخول والتوطن . (٣) فيصل : الحصول على أموال يهودية للتنمية ومساعدة فى مؤتمر السلام ثم ثارت عقبات وحاول وايزمان أن يضمن الوثيقة عبارتى : الدولة والحكومة اليهودية وأصر فيصل على استبدال العبارتين بفلسطين وحكومة فلسطين ، كما أصر على إضافة تحفظ باللغة العربية فى أسفل الصفحة الأخيرة من الاتفاق : هذا نصه : وإذا استتب الأمر للعرب فسوف أنفذ ما جاء بهذه الاتفاقية وإذا طرأت تغييرات فلن أكون مسئولا عن عدم تنفيذها .

وبدأ تباين فى ترجمة عبارة : « شريطة أن يحصل العرب على الاستقلال » بين صيغة فيصل وصيغة لورانس ويضيف النص العربى تحفظا أكثر : « فلن أكون عندئذ مقيداً بكلمة واحدة مما جاء فى هذه الاتفاقية التى تعتبر لاغية وبلا أثر أو مفعول » .

وقد أشار المؤلف إلى أن لورنس أضاف جريمة التزوير إلى قائمة جرائمه وغايته أن يحصل على توقيع فيصل بأى ثمن . والمهم أن تقدم بريطانيا وثيقة اتفاق بين العرب والصهيونية إلى مؤتمر السلام وما دامت بريطانيا تحكم فلسطين والطريق مفتوح أمام الهجرة والصهيونية فإن مهمة لورنس تكون قد تمت ا . هـ . هذا موجز للمؤامرة بقلم كاتب غربى ، ومشارك فى الإحداث نفسها، تكشف عن مدى الخطورة التى استهدفتها محاولة تمزيق وحدة المسلمين : العرب والترك وإيقاع الخلاف بينهم والتمكين للصهيونية فى فلسطين وللاستعمار فى الأجزاء الأخرى والتمهيد للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية . ويكشف لورانس فى مذكراته للعبرة القوية التى يجب أن تكون موضع تقدير المسلمين والعرب : عن طابع الاحتقار الذى يضفيه على الأحداث لأن العرب قبلوا التبعية للغرب :

« إن العرب قد اقترفوا الكثير من الأخطاء الفظيعة بسبب قبولهم نصائح أوربية لم يكن فى

مستطاعهم أن يدركوها . كان على المستشارين أن يعلموا أن العرب إذا ما ركبوا متن عقيدة وسلموا زمام أمرهم إلى نبي مدجج بالسلاح وأوكلوا إليه توجيه جهودهم غير المحدودة فإن فى استطاعة الأيدى الماهرة أن تصل بهم ليس إلى دمشق فحسب بل إلى القسطنطينية أيضاً » . ولم يكن لورانس هو وحده الذى يعمل للاستعمار والصهيونية فى البلاد العربية ، فى سبيل تعميق الخلاف بين العرب والمسلمين : وإنما كان هناك فيلبي وكلايتون وغيرهم . وقد استطاع الباحثون الكشف عن مخططات الاستعمار والصهيونية فى وثائق كثيرة سرية تسربت فى السنوات الأخيرة : قوامها القضاء على الإسلام وتمزيقه وتدمير الدولة العثمانية بأيدى العرب أنفسهم الذين حملوا لواء دعوة العنصر والدم إزاء أخوتهم فى رابطة لا إله إلا الله فقاتلوهم ، لقد حاول هولاء أن يقنعوا العرب بأن انتقاضهم على الدولة العثمانية يفتح الباب واسعا أمام الإستقلال ولكن الذى حدث هو العكس تماما ، وضاع الدهاء العربى فى آتون المؤامرة وبعد أن تمزقت الوحدة العربية التركية تمزقت الوحدة العربية إلى إقليميات تتصارع. وقد أشار زهدى الفاتح إلى النتائج الخطيرة : التى تتمثل فى أن لورانس مشى على خطأ هرتزل . لقد قال هرتزل : إن أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحـدة الإسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها . ولقد كانت القوى الاستعمارية الصهيونية قد أعدت خططاً سابقة للحرب العالمية الأولى لدراسة هذه المناطق العربية التركية ، والاستعداد للحرب فيها ، تدل على ذلك وقائع متعددة عن جواسيس أمثال لورانس وردوا هذه المنطقة تحت اسم التنقيب عن الآثار ، وقد ذهب لورانس نفسه إلى سوريا ١٩١٠ فيما أطلق عليه رحلة علمية للبحث عن الآثار فى قرقميش (جرابلس) بآسيا الصغرى » وقد ظلت مهمة هذه البعثة سراً دفيناً إلا أن أفرادها كانوا يعملون فى مناطق مهمة للغاية عسكريا واستراتيجيا ، هذه البعثات لم تقف عند هذه المناطق بل تعدتها إلى أرض الحرم المكى أيضا حيث أدعى واحد من هولاء أنه مسلم وأمضى هناك سنوات للبحث وتقييد الأماكن ، وقد قام بهذا الدور العسكرى الذى يوصف بأنه بحث عن الآثار : فيلبي الذى أمضى فى الجزيرة العربية سنوات . ولقد كانت معاهد الإرساليات فى لبنان هى بمثابة : الركائز الحقيقة للاستعمار والصهيونية تستقبل هذه البعثات وتساعدها ، وقد توجه لورانس وهوجارث إلى البحر لزيارة الكرمل وقرى اليرموك ومن درعا استقلا قطار خط الحجاز إلى الشام فحمص وحلب ، حتى وصلا إلى قرقيش وقد أوتاب الأتراك ، فى أمر لورانس وهكذا عندما عاد لورانس ١٩١٦ كان يعرف كل شىء دون حاجة إلى دليل ، فقد ارتاد المنطقة قبلا واحتفظ بدلائل وافية لها ولعل أهم دراسة قام بها لورانس وهوجارث

وغيرهما هي ما حرص اليهود على دراسته ومازالوا يوالونه حتى اليوم وهو : تجربة الحروب الصليبية وكيف هزمها المسلمون لتفادي الوقوع فيما وقعوا فيه ، ولذلك فإن لورنس كان يعمل على إعداد أطروحة عن الحروب الصليبية يحاول أن يكذب فيها حقائق التاريخ مما عرف المسلمين من أثر في علوم الهندسة الحربية في الغرب بعد الحروب الصليبية والادعاء بعكس ذلك ، وقد كتب فعلا أطروحة تحت عنوان (قلاع الصليبيين) مشيداً فيها بما أسماه فروسية العصر الصليبي . « راح يتخيل فيها نفسه فارساً صليبياً ولكن لحساب الصهيونية . ولقد كانت رؤيا لورنس واسعة : وكانت أبعاد الموقف الإستعماري والصهيوني واضحة أمامه ، وكان قادراً على معرفة الأبعاد بين : (١) الدولة العثمانية التي مزقت . (٢) العرب الذين خدعوا ولن تقوم دولتهم . (٣) القضاء على الخلافة . (٤) معارضة القوة الإسلامية الحديثة في شبه الجزيرة « الوهابية » ذلك في حدود عباراته التي جمعها زهدي الفاتح وحللها : وأخطرها هذه الوثيقة : « أهدافنا الرئيسية : تفتيت الوحدة الإسلامية ، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها ، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعيا للاستقرار من الأتراك فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك ، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد آية قوة خارجية » . هذه الوثيقة تحت عنوان « سياسات مكة » يناير عام ١٩١٦ تكشف الأفق الذي يراد بعالم الاسلام كله . الهدف » « تطويع العرب الذين خدعوا بالفكرة القومية لخدمة الأهداف الغربية (البريطانية) وكان ماكس نوردو الزعيم الصهيوني (خليفة هرتزل) قد أعلن في أوائل القرن إلى إمكان استغلال (القومية) كسلاح لضرب العرب أنفسهم بحطام الامبراطورية العثمانية والقضاء على الاثنين معا في فلسطين خاصة ، فيدخل اليهود هذه الأخيرة فارغة من السكان » كان (ماكس نوردو) يهدف إلى استغلال حركة القومية لتفريغ فلسطين من المسلمين : يقول « إن الحركة التي استحوذت على قسم كبير من الشعب العربي يمكنها أن تتخذ بسهولة وجهة سير نحو فلسطين أيضاً ، وهكذا تصبح أرض أبنائنا من جديد » .

وهكذا نجد أن القوى الاستعمارية والصهيونية قد فرضت العنصرية باسم القومية في أرض العثمانيين وأشملتها تحت اسم الطورانية حتى ضرب الاتحاديون العرب وعملوا على تتريكهم مما دفع العرب إلى التماس نفس السلاح فلما أصبحت القومية بديلا للوحدة الاسلامية أصبحت قوة تمكن الاستعمار والصهيونية من تحقيق أهدافهما . وإذا كان الاستعمار قد قضى على القوة الجديدة في

مصر وقضى على الدولة العثمانية ، وفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين فإنه كان حريصاً على أن يدعم مطامع الصهيونية والاستعمار فى مكة والجزيرة العربية ولذلك فقد أثيرت الدعوة إلى خلافة عربية وإلى جعل الخلافة الإسلامية وقفاً على شخص ينحدر من الرسول العربى الكريم وتحويل مكة إلى كرسى بابوى على غرار روما ، وكان الشريف حسين هو البديل للخليفة العثمانى . ولقد سعى هرتزل نحو هذه الغاية غاية استرجاع الخلافة من أيدى الأتراك ، وتحويل مكة إلى كرسى بابوى إسلامى ، وأن يربط بين هذا بين حركة القوميين الذين يقودهم فكريا نجيب عازورى ، الهدف ، كما يقول زهدى الفاتح هو « القضاء على أية محاولة لإحياء الكيان الإسلامى » وإبدال الكيان القائم ببديل ضعيف مهين ، ولقد كان لورنس ممثلا للصهيونية والاستعمار الغربى معاً فى محاولة مساعدة العرب على إقامة دولة قومية علمانية متخلية عن الإسلام فى سورية ، لقد تحول الوعد بدولة عربية إلى تعيين أبناء الشريف ملوكا على دويلات مفككة سواء فى العراق أو فى شرق الأردن ، أو سوريا .

لقد كان لورانس واعيا للهدف وهو الذى يقول فى أحد الوثائق التى كتبها : « مهما تمخضت عنه هذه الحرب فنجد أن تكون نتيجتها القضاء وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركى » . أى القضاء على كل ما تمثله الامبراطورية العثمانية من نفوذ إسلامى ، ومكانة يرتبط بها أغلب المسلمين فى العالم كله . ويصور لورانس فى وثائقه السرية خطورة الدولة السعودية التى يخشى أن تكون قوة جديدة بعد سقوط الدولة العثمانية « إذا أصر عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود فى تبنى الوهابية فإننا يجب أن نشن بفرق الجيش الهندى الإسلامية حربا لاستعادة مكة وقهر الحركة الوهابية ، لقد اقترحت عام ١٩١٨ أن نفعل ذلك بعشر دبابات » وهكذا نجد أن لورانس فى إطار الإستعمار والصهيونية العالمية قد عمل كثيراً .

(٢٢)

تحقيق حلم الصهيونية فى الوصول إلى القدس

ثالثا : تمكنت الصهيونية من أن تحقق حلمها فى الوصول إلى القدس ، بعد ثمانية عشر قرنا ، وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل ، استطاعت الدونمة المقيمة فى سالونيك إعداد خطة طويلة المدى بالدخول فى الإسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامة المحافل الماسونية لتدبير الخطط السرية لضرب الخلافة والدولة الإسلامية والسيطرة على الحركات الوطنية القومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الاتحاديين .

عندما طرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٣ أصدر السلطان بايزيد الثانى أمراً يقضى بحسن معاملة اليهود فى الدولة العثمانية وقد أمر لهم السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧١ م بالاستقرار فى استانبول وعين لهم حاخام باشى خلع عليه سلطات واسعة وأصبحت فلسطين وممتلكات الدولة العثمانية ملجأ لليهود المطرودين من أسبانيا والبرتغال والهاربين من الاضطهاد فى البلاد المسيحية الأخرى ، وقدر عدد اليهود فى فلسطين فى القرن السادس عشر بعشرة آلاف نسمة ، وفى منتصف القرن الثامن عشر جاء يهود من بولندا وروسيا إلى فلسطين (صفد وطبرية) وفى آخر هذا القرن وجه نابليون ندائه إلى اليهود فى آسيا وأفريقيا بعد حملته على مصر ، الذى وعدهم فيه بإعادة اليهود إلى القدس وإعادة بناء هيكلهم من جديد إذا ساعدوه فى غزو فلسطين . ولكن يهود الدولة العثمانية لم يعيروه أى اهتمام ، ويقدر المؤرخون اليهود أن نداء نابليون كان هو الحافز الذى حفزهم فيما بعد للتفكير فى مشروع تأسيس دولة لهم فى فلسطين ، وعندما تم الانسحاب المصرى من الشام عام (١٨٥٠) بذل بالمارستون مساعيه لدى السلطان العثمانى لإعادة اليهود إلى فلسطين ولما فشل فى ذلك أصدر تعليماته الصريحة إلى القناصل الإنجليز بالدولة العثمانية بمنح الحماية البريطانية لجميع اليهود الأجانب وهكذا بدأ الاستعمار يتعامل مع الصهيونية العالمية .

وأعلن بسمارك فى ألمانيا عام ١٨٧١ م أنه اتخذ الإجراءات لرفع كافة القيود عن اليهود مما يؤدى إلى حل المسألة اليهودية فى المجتمعات المسيحية التى نشأوا فيها ، غير أن اليهود قاوموا سياسة (الاندماج) لأنها فى نظرهم تقضى على ميزاتهم التى يتفردون بها وقد كان للتحول الذى شهده المجتمع الأوربى من التعصب الدينى أوائل القرن ١٩ إلى القومية العنصرية فى العقود الأخيرة منه (وكان من أثر ما أحدثه اليهود بالثورة الفرنسية لإقامة قوميتهم العنصريه) . وقد كانت خطة مقاومتهم للاندماج فى الجمعيات القومية ، مقدمة للتنادى بالقومية اليهودية ، وجرى الاتجاه نحو قومية يهودية والبحث عن وطن خاص لليهود وجاءت أحداث ١٨٨١ التى رافقت اغتيال قيصر روسيا لتؤكد هذا الاتجاه بعدها وقد كان القيصر يحاول محاولة الادماج أيضا السكندر الثالث الذى اغتاله اليهود لإيقاف محاولة الإدماج ، وتلا مقتله هجرة واسعة من روسيا وأوربا الشرقية نحو الغرب ووصل إلى فلسطين جماعات منهم ، وشهدت فلسطين موجات أخرى فى أعقاب فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ بسبب الاضطهاد الذى وقع لليهود أثر فشل الثورة . وقد وقفت الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية موقفا حاسما ، بعدم السماح لليهود بالاستيطان فى فلسطين وإن سمحت لهم بالاستيطان فى ولايات الدولة الأخرى ، وتدل صحائف التاريخ ومراجعاته إلى أنه فى عام ١٨٨٧ بدأت تتحرك من أنحاء العالم جموع من اليهود

متجهة إلى القدس وجوارها بهدف إعادة تأسيس مملكتهم القديمة وفى ١٨٩٦ سعى هرتزل للاتصال بالسلطان محاولا اتخاذ تفاهم عثمانى يهودى يساعد السلطان بموجبه اليهود فيعطيهم مساحة من الأرض مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة والتأثير على الرأى العام الأوربى ليقف إلى جانب السلطان. هرتزل ثمن فلسطين بمبلغ عشرين مليون ليرة تركية .

وقد رد السلطان بعد شهر من مسعى هرتزل (يونية عام ١٨٩٦) : « إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقى فأنصحه أن لا يسير أبداً فى هذا الأمر، لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحدة من البلاد ، لأنها ليست لى بل لشعبى ، ولقد حصل شعبى على هذه الأمبراطورية بإراقة الدماء وقد غذوها بعد بدمائهم ، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحـــد باغتصابها منا ، الأمبراطورية التركية ليست لى وإنما للشعب التركى ، لا أستطيع أبداً أن أعطى أحـداً أى جزء منها ، ليحتفظ اليهود ببلايينهم فإذا ما قسمت الأمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، أننا لن نقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريح أجسادنا لأى غرض كان » . وحاول هرتزل أن يستميل السلطان ، بوسيلة أو أخرى ، ولـكن السلطان تشبث بموقفه المعارض للهجرة اليهودية خصوصاً بعـــد انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بال (أغسطس عام ١٨٩٧) وزاد من اهتمامه بشئون متصرفة القدس وقد أبرق السفير العثمانى فى وشنطون (أبريل عام ١٨٩٨) إلى يلدز بأن هدف الصهيونية فى فلسطين وإقامة حكومة مستقلة فيها وأن بين يديه نشرة عبرية تبين مطامعهم وبعض يهود أمريكا موالون للفـكرة ، وزادت الأنباء مخاوف السلطان فأصدر قراراً (يونية عام ١٨٩٨) بمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم .

وحاول (هرتزل) فوسط القيصر الألمانى لمـكانته لدى السلطان دون جدوى وقد تمـكن من مقابلة السلطان بعد أكثر من خمس سنوات (١٨ مايو عام ١٩٠٩) على أساس أنه رئيس لليهود وصحفى وليس كصهيونى ودار الحديث حول مشاكل الدولة الاقتصادية وتصفية الدين العام وما يمكن لهرتزل أن يقدمه من مساعدات مالية ، واستمرت الاتصالات عن طريق (عزت العابد) حول عروض منها إنشاء شركة أراضى تمسح المناطق غير المستغلة ، لتمـكن من إسكان الأهالى ، وطلب عزت العابد من هرتزل أن يقدم تعهدا بأن من يدخل من اليهود الأمبراطورية يصبح من الرعايا العثمانيين ، ورفض هرتزل ، وطالب بهجرة غير مقيدة ، ولم تحقق هذه المحادثات شيئاً فقد أصر السلطان على موقفه وإن كان قد أفسح لهرتزل ليعرف طبيعة ما عنده إلى آخر الشوط ، وظل السلطان طيلة حكمه (١٦٧٦ — ١٩٠٩) عقبة كأداء فى وجه المشاريع اليهودية وبخاصة وصول الصهيونية إلى فلسطين ، وإذ فشلت

الصهيونية مع السلطان واصلت مساعيها مع جمعية الإتحاد والترقى التى جاءت إلى الحكم بعد حركة ١٩٠٨ ، وتمكنت من تحقيق قسط يعتد به من النجاح بفضل المساعى التى بذلتها عناصر فى الحكم من يهود الدونمه الذين تستروا بالإسلام ولعبوا دورا بارزاً فى الثورة على السلطان ، لذلك رحبت الأوساط الصهيونية بالثورة وأصبح لها نفوذ فى جمعية الإتحاد والترقى . وفى عام ١٩١٣ كان أربعة من يهود الدونمة يحتلون مناصب رفيعة فى الحكومة العثمانية منهم : جاويد بك المالية — بساريا أفندى وزير النافعة ، مازلياج : التجارة والزراعة وكان حسين جاهد رئيسا لتحرير جريدة طنين . واستمرت عملية شراء الأراضى من قبل اليهود وحقق اليهود فى ثلاث أشهر أكثر مما حققوه فى ثلاث سنوات ، وأجرت حكومة الإتحاديين مفاوضات سرية مع الحركة الصهيونية لبيع الأراضى الأميرية فى فلسطين وسوريا واستجابت سلطات الاتحاديين لرغبات الصهيونية تحت وطأة حاجة الخزينة الماسة إلى المال . وفى مارس عام ١٩١٤ ألغت حكومة الاتحاديين القيود المفروضة على تملك اليهود للأراضى فى فلسطين وبذلك اختفت تماماً القيود التى فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد للوقوف فى وجه الهجرة اليهودية بل وأظهرت حكومة الاتحاد والترقى عطفها البالغ على الحركة بإلغاء جميع القيود على الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضى . وهكذا دخلت السيطرة الصهيونية مرحلتها الحاسمة . وقد جرت هذه الخطوات من خلال تنظيم صهيونى ضخم وواسع عرف بحكومة العالم الخفية ، حسبما أشار كثير من الباحثين منهم (شيرين وسيبريه وفينش) فى كتابه (حكومة العالم الخفية) ومنهم وليام غاى كار فى كتابه (أحجار على رقعة الشطرنج) . وينطلق المؤلف فى كتابه عن اقتناع كامل بوجود هيئة يهودية لها صفة عالمية قدر عدد أفرادها فى أوائل القرن العشرين ثلاثمائة حبر يهودى يرأسهم أحدهم ، يعملون وفق خطة قديمة مرسومة للسيطرة على العالم فهم عبارة عن حكومة خفية تحكم الشعوب بواسطة عملائها ولا تتوانى عن قتل أو تحطيم كل مسئول يحاول أن يقف فى سبيل تنفيذ مخططاتها ، ولها من القدرة والنفوذ ما يمكنها من إيصال أى حقير إلى الزعامة ، وتحطيم أى قائد يعارضهم ، ويؤكد (م . كوليد البنسلى) إن القوة الخفية التى تتحرك من خلف الماسونية هى الحكومة السرية للشعب اليهودى .

وإن هذه المحاولة تجديد لطموحهم القديم بعد أن سحقت دولتهم مرتين ٥٨٧ ق . م . بختنصر (و٨٠ ميلادية الرومان) وأن اليهود أبان الأسر فى بابل قد اخترعوا فكرة الوعد ورسخوا فى أذهانهم خرافة (شعب الله المختار) ليحافظوا على وحدة الشعب وصفاته العنصرية ويعيدوا إليه

ثقته فى نفسه وقد بدأت فى العصر الحديث من خلال محافل الماسونية بالصهيونية والذى لايختلف عليه الماسون مع غيرهم هو تسلسل الصهيونية إلى الماسونية واستغلالها وحتى يصحح الحاضر ، فليس هناك اختلاف على علاقة الماسونية . ولكن فئة كبيرة من الناس تجزم بأن الماسونية بجميع محافلها تدار عن طريق التسلسل من قبل قيادة يهودية لا يدخلها غير اليهود وقد تبين من بعد أن الصهيونية احتفلت عام ١٩٦٤ فى فلسطين المحتلة بوضع الحجر الأساسى لأكبر محفل ماسونى فى العالم قال الحاخام الإسرائيلى بالحرف الواحد : (يحتفل اليوم بوضع الحجر الأساسى لأكبر محفل ماسونى فى العالم وسيضيء الطريق أمام الماسونية لتحقيق أهدافها والهدف هو العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على هذه الأرض وماعدا ذلك فهى أديان باطلة ، أديان الفرقة بين أهل البلد الواحد وبين أى شعب آخر وسيأتى يوم قريب يتحطم فيه الدين المسيحى والدين الإسلامى ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقداتهم الباطلة .

ويتصل بهذا ما أشار إليه الحاخام ، أما نوئيل رائيوفيتش ، فى تصريح له عام ١٩٥٢ من أن الحرب العالمية الثالثة سيوقدها اليهود للتخلص من الأنظمة القائمة فى العالم الإسلامى وإقامة الدولة اليهودية العالمية . وهكذا نجد صورة التآمر الصهيونى والإستعمارى فى السيطرة على الإسلام : سواء أكانت الصهيونية هى التى تستغل الاستعمار أم أن الاستعمار يستغلها، فالواقع أن هناك مؤامرة مشتركة بين مختلف العناصر إزاء هذا العالم الموحد، الذى يحاول أن يقيم المجتمع الربانى وأن ما يجرى فى هذا العصر ليس إلا موجة جديدة من موجات ذلك التآمر القديم الممتد فى موجات متوالية وبصور مختلفة على مدى التاريخ ، يشترك فيها اليهودية الحاقدة على الإسلام والغرب الطامع فى مصادر الثروة والنفوذ والمختلف مع المسلمين فى العقيدة ، ولقد كان اليهود حربا على الإسلام أينما حلوا يؤلبون الأقوام عليه ، وكان الإسلام حامياً لهم فى كل مكان يلوذون به، فى الأندلس وفى الدولة العثمانية وقد كان اليهود من وراء كل المؤامرات التى عرفها عالم الإسلام وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة المالية والاقتصادية ويرجع ذلك إلى خضوع عالم الغرب لهم فى هذا المجال .

يقول والتر رانتو : (الوزير الألمانى الذى أغتيل ١٩٢٣) تحت عنوان العامل الخفى فى سياسة الدول الغربية : أن العالم المتمدن بأسره اليوم يخضع فى حياته الاقتصادية لطائفة من المموليين كادت فى بعض الدول أن تستولى على السلطة بأكملها فهى فى الواقع تسن القوانين وهى تقرر الحروب والسلم. إن سيطرة كهذه لمن أسوأ أنواع السيطرة فإنها خالية من كل فكرة عالية أو نزعة سامية ولا دافع لها

إلا المصلحة المادية ولا غرض إلا امتلاك الثروة والسلطة . وتحت تأثير المال والاقتصاد والسيطرة على أجهزة الصحافة استطاع اليهود تجنيد كبار الشخصيات لغايتهم الزائفة التى أقاموها بالباطل . وقد وصفها أحد كبار اليهود (مورجنيو) سفير أمريكا فى الاستانة بأنها : أعظم تضليل ظهر فى التاريخ اليهودى » .

وإلى اليهود توجه التهمة بأنهم زعماء الحركات الثورية والانتفاضية ورؤساء الأحزاب المتطرفة وأركان النظام البلشفى ، وأنهم ثانياً ملوك الصيرفة والمال يسيطرون على أسعار الأشياء وعلى تقلب العملة والأشياء المالية ، ويذهب بعض المتطرفين إلى أن هناك اتفاقاً سرياً بين الماليين اليهود ودعاة الانقلابات يقضى بأن يمد الأولون الآخرون بالمال لإحداث الفتن والقلاقل بغية استثمار هذه الحالة والاستفادة منها فإن من الأمور المقررة إن حالة الاضطراب كثيرة الملاءمة لأرباب مصيرفة والمضاربة . ومن يراجع تاريخ الثروات التى جمعتها الأسر اليهودية الشهيرة (كأسرة روتشيلد) يرى أن منشأها هو الحصول على معلومات سياسية ذات شأن والاستفادة منها قبل انتشارها بين الجمهور وأنهم يعملون على إضعاف الرابطة الوطنية والقومية ، وقد انتشر اليهود بعد الثورة الفرنسية حيث حطموا القيد الذى وضعته الكنيسة عليهم واستفادوا من المساواة الاجتماعية وأصبح لهم نفوذ وسطوة وقفزوا للسيطرة على قيادة الأعلام والصحافة والسينما والمسرح والفنون والآداب وقد عمل اليهود فى العصر الحديث فى عدة ميادين للاعداد لخططهم ، فكان مما عملوا له أن زيفوا دوائر المعارف بحيث تتفق مع غايتهم ، وأذاعوا عن طريق الصحافة والأدب والفكر وقد سيطروا عليها تماماً أن ما يسمونه بالمدنية المسيحية : مدينة أوربا الحالية على وشك الزوال وبالطبع ستقوم مقامها مدينة أخرى ، هى المدنية اليهودية نتيجة للسيطرة المالية على مختلف أمور العالم ، وقد كان لليهود نجاحهم الواسع فى إيقاد نار الحرب العالمية الأولى ثم الثانية التى لم يربح منها غير اليهود الذين أعانوا بقروضهم الجهتين المتقاتلتين ، ثم سيطروا على علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وقدموا فيها نظريات هدامة بغية تدمير القيم التى قدمها الإسلام والمسيحية فى العالم .

وقد استطاعت الصهيونية أن تستغل جميع وسائل الأعلام وفنون الحرب الخفية والسافرة لتمزيق شمل المسلمين وكان احتلال فلسطين هادفاً إلى شطر الوحدة بين أجزاءه وهذا ما حاوله الصليبيون فى العصور الوسطى وهو هدف مقصود لذاته ، وتمزيق شمل العالم الإسلامى ومنع قيام الوحدة .

وكذلك العمل أساساً على الحيلولة دون قيام وحدة الفكر فيه (وسندرس فى الفصول القادمة أثر الصهيونية فى الفكر الغربى والفكر الإسلامى) وكذلك السيطرة على موارد العالم الإسلامى ، وإنشاء القوى الهدامة : الماسونية والبهائية لخدمة أهدافها والسيطرة على الأسواق العالمية وعلى البنوك العظمى وعلى وسائل الإعلام ، كذلك سيطرت على معظم زعماء العالم بوسائل التهديد بالإغتيالات أو فضح أسرارهم الخاصة أو شراء ضمائرهم عن طريق الشركات الكبرى ومن ذلك الانقلاب العثمانى الذى أسقط الدولة الإسلامية الكبرى ورد الخلاف بين الترك العرب إلى العصبية الطورانية طريقاً إلى فلسطين وتمزيقا للبلاد العربية بل إن مخططات إرساليات التبشير المسيحى فى العالم الإسلامى كانت فى قسم كبير منها وهو القسم الذى يتبع « البروتستانتية » تسيطر عليه الفكرة الصهيونية ويستهدى فى مناهجه على ضوء التلمودية فكراً والصهيونية هدفا . وقد أشار كثير من الباحثين إلى المخطط الصهيونى للإستيلاء على العالم تتضمن دعوات مختلفة :

(١) الحكومة العالمية . (٢) لغة الأسبرانتو . (٣) الهيبز وقلق الشباب . (٤) سيطرة اليهود على مقدرات الدول الكبرى العالمية . وتشير كثير من الأبحاث السياسية أن الصهيونية قد تمكنت فى الغرب من احتواء الامبريالية الغربية وسخرتها من أجل تحقيق أهداف إسرائيل ، وما يزال نفوذ الصهيونية نافذاً فى البيوت التجارية وتجارة السينما السوداء والجمعيات والمنظمات ، ومصادر الأعلام فى الصحف والتليفزيون وصالات عرض أفلام الجنس ، وأنها من وراء استنزاف ثروات البشرية فى مجال الترف والانحلال حتى تحرم منها الأمم صاحبة الحق فى الانتفاع بها مع ترك الملايين من أبناء تلك الأمم جياعا وعراة . وما تزال دعوة اليهود العالمية فى كل عصر وبيئة والتى يجددونها فى هذا العصر تحت أسماء عصرية ومذاهب أيدلوجية براقة ، هى الربا والأباحية والتفرقة العنصرية واستغلال الشعوب يستخدمون فى سبيل ذلك ما أسموه علوم الأنثربولوجيا والنفس والعلوم الاجتماعية ودعوات الانفجار السكانى والأباحيات وغيرها ، لتبقى هذه المجموعة القليلة من المسيطرين على مقدرات الحياة البشرية هم وحدهم المالكين ويبقى العالم بعد ذلك عبيداً لهم وخدما ، المحاولة ترمى أساساً إلى تهويد العالم فكريا وإحلال مفاهيم (المادية) فى عقول وقلوب الناس إعلاءاً لحيوانية الإنسان وإذلالا لإنسانيته ومنعاً دون قيام المجتمع الربانى وما يزال الصراع بين هذا الفكر البشرى الوثنى الأباحى المادى وبين الفكر الربانى للمصدر الإنسانى الطابع وسيظل ، حتى يتم الله نوره وحتى يتم آياته ويتبين للناس أنه الحق . لقد سجل اليهود وجهتهم فى صراحة تامة : « إثارة حملة الأحقاد والكراهية فى الشرق ضد الغرب وأيضاً فى الغرب ضد الشرق ولن نسمح بأى حال بوجود دول

ما تقف على الحياد أو غير منحازة بل سنعمل بكل ما فى وسعنا من مراكزنا فى كل معسكرات القوى الكبرى على إرغام الدول التى تفكر فى الحيـــاد أو عدم الانحياز أن تلجأ طواعية أو كرها إلى معسكر قائم ، وهذا ييسر لنا العمل فى جهتين متواجهتين نعلم ما بداخل كل منهما وأن تعارضت بطبيعة الحال مصالحهما ، وهذا وحده هو السبب المباشر الكافى لإشعال الحرب العالمية الثالثة عندما تندفع هذه المصالح فى اتجاهات متضاربة متعارضة » . بروتوكولات صهيون : وهذا يتفق مع ما ورد من قولهم : سوف نستثمر كل أموالنا لتغذية هذا العداء المتبادل بين الشرق والغرب مع استمرار استدرار عطف العالم على اليهود فى الوقت الذى ندعم فيه اسرائيل اقتصاديا وعلميا وبشريا على حساب من حولها من العرب الذى يجب أن نشغلهم بالفتن الداخلية حتى لا يتفرغوا أبداً ولا يشعروا بما نفعله من فى إسرائيل ، وعلينا أن نبقى اسرائيل بعيدة ما أمكن عن نار الحرب العالمية الثالثة حتى تكون قادرة على ممارسة إقامة الحكومة العالمية فى روما بعد انتهاء الحرب . وعلينا أن نضمن لها موازنة البقاء بأن يبقى ارتباطها مع الولايات المتحدة من جانب معين وعلى ارتباطها بالاتحاد السوفيتى من جانب آخر » . وفى السنوات الأخيرة بدت ظواهر جديدة : أصدرت الكنيسة الكاثوليكية وثيقة حثت فيها على وضع حد لمعاداة السامية وأعربت بصورة مباشرة عن موافقتها على وضع حد لمعاداة السامية وأعربت بصورة مباشرة عن موافقتها على إقامة دولة اسرائيل . كما أصدرت قراراً بتبرئة اليهود من محاولة قتل السيد المسيح عيسى بن مريم . كذلك تبين مدى العلاقة الجذرية والصلة العضوية بين الصهيونية والشيوعية فقد تسربت وثائق كثيرة تكشف عن مؤامرة السيطرة المزدوجة عن طريق وضع العالم بين كسارة البندق ، من حيث سيطرة اليهود على العالم الغربى الرأسمالى وسيطرتهم على وليدتهم الماركسية اللينينية المطبقة فى روسيا والصين وغيرهما .

كذلك تبين أن فكرة الفصل بين اليهودية والصهيونية هى خدعة ماكرة ، وأن الرأى الصحيح هو أن الصهيونية هى الواجهة السياسية لليهودية ، تلقى إليها حركة العمل وتلسب إليها الخطأ فى حالة التراجع أمام العالم . كذلك إنكشفت العلاقة بين الصهيونية من ناحية وبين العلوم الحديثة التى تحاول سحق المجتمع البشرى . (١) علاقتهم بالماركسية . (٢) وعلاقتهم بالعلوم الاجتماعية (دوركايم) . (٣) وعلاقتهم بالتحليل النفسى (فرويد) . (٤) وعلاقتهم بالوجودية (سارتر) (٥) وعلاقتهم بالبهائية (عباس البهاء) وبالجملة فإلى الصهيونية ترد متغيرات كثيرة فى العالم الحديث تكشف عن جانب من مخطط الغرب كله فى مواجهة الإسلام ذلك أن الصهيونية ترى نفسها الوريث الوحيد للاستعمار الغربى على اعتبار أن الشيوعية هى شطرها الآخر . وقد استهدفت تحقيق غايتها

فى السيطرة على فلسطين أساسا لتنطلق منها للسيطرة على العالم كله ، وفى مقدمة هذه المتغيرات والتحولات : الثورة الفرنسية والانقلاب الشيوعى والحربين العالميتين الأولى والثانية ثم بعد ذلك دعوات الوطنية والقومية والفكر الماركسى والوجودية ، والمادية والصراع الطبقى ،والطوابع الأباحية العالمية المتصلة بالعرى والفساد والأغانى والسينما والفن والمسرح الذى هو عندهم بديل دور العبادة ولقد كانت الماسونية مدخلهم إلى العالم كله ، وإلى هدم الأديان والتقاليد والأخلاق والقيم حتى قال جورج زيدان فى كتابه تاريخ الماسونية العام : « إن الماسونية كانت مصدراً لكثير من التعاليم التى أصبحت من أقوى دعائم التمدن الغربى الحديث » .

(٢٣)

اسقاط الخلافة

(رابعا) أمكن تحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية فى الحرب العالمة الأولى دون أن يكون أى مصلحة أساسية ، فى صف الألمان وهزيمتها وتمزيقها وإعدادها لإسقاط الخلافة وإقامة نظام ديمقراطى غربى يستأصل الاسلام ، فقد كان القضاء على الوحدة الاسلامية فى كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للإستعمار والصهيونية والروس قبل البلشفية وبعدها . إذا كانت الوحدة الاسلامية هى العامل الخطير الذى وقف فى وجه الزحف الاستعمارى وتقسم ميراث الدولة العثمانية وكان الإسلام هو الذى قاوم الاستعمار فى كل مكان من العالم الاسلامى ، ولذلك فقد عملت قوى الغرب على تحطيم الوحدة الاسلامية بإعداد ثلاثة أعمال متصلة :

(١) إسقاط السلطان عبد الحميد . (٢) هزيمة الدولة العثمانية وتقسيمها . (٣) إلغاء الخلافة الإسلامية والحيلولة دون قيامها . وقد سعى الغرب إلى ذلك سعيا حثيثا واستخدم كل الوسائل وأهمها بث روح الوطنيات والقوميات فى كل أجزاء العالم الإسلامى حتى يشغلها بالبعد التاريخى الإقليمى الخاص بها ويعزلها عن فكرة التجمع الأفقى الشامل ومن شأن ذلك فى تقديرهم أنه يقضى على النظام الإسلامى نفسه كنظام مجتمع ومنهج حياة وبذلك سيطرت القوانين الوضعية وعزلت الشريعة الاسلامية تماماً إلا من مناطق قليلة جداً فى العالم الإسلامى .

وجرت الدعوة إلى إعلاء الرابطة العنصرية والدموية والعرقية واللغوية والجنسية ووصف الرابطة

الإسلامية بأنها عامل من عوامل التعصب والتأخر — والهدف من ذلك هو حل عروة الاسلام وكانت فكرة الجامعة الإسلامية قد ظهرت كرد فعل للمحاولات الخطيرة حين أخذ الاستعمار يقتطع أجزاء من العالم الإسلامي ويستولى عليها وكانت للحركة بقيادة السلطان عبد الحميد أثر كبير ، لأنها بيد حاكم له سلطانه ونفوذه ، كما أنها كانت تمثل قوة قائمة ، يمكن أن يتجمع المسلمين جميعا من خارج الامبراطورية العثمانية إلى ظلها . وهذا هو ماتحقق فعلا وأخذ يؤتى أكله لولا مسارعة الاستعمار والصهيونية إلى (إجهاض) هذه الحركة بعزل السلطان عبد الحميد والتآمر عليه فقد اهتز الغرب لفكرة الجامعة الإسلامية التى دعا اليها عبدالحميد اهتزازاً شديداً وهاجمها كرومر ودرا كور وزعماء الفكر الغربيين خوفاً من آثارها البعيدة وألبوا عليها فرنسا وانجلترا . ولقد حدد الاستعمار والصهيونية مرحلتين لتنفيذ المخطط :

المرحلة الاولى : وهى [مرحلة الاتحاديين] : الذين حكموا بعد السلطان عبد الحميد وهؤلاء حجبوا الخلافة ونفذوا مشروعاً قائماً على « التمويه » بحيث ترى دعوة ظاهرة إلى التجمع تحت لواء الخلافة ، وفى نفس الوقت تجرى دعوى الطورانية من خلفها وتجرى دعوة العرب إلى هدم الوحدة العثمانية فى نفس الوقت الذى يقتل فيه العرب على المشانق حتى لايقوم لقاء جزئى الأمة الإسلاميه (العرب والترك) سنوات وسنوات لقد عبد الاتحاديون الطريق أمام الخطوة الأخيرة : وكانت أعمالهم الثلاث الكبرى من أهم الأعمال . (١) فتحوا الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين ، (٢) سلموا طرابلس الغرب للاستعمار الايطالى (٣) أدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل فى صف الألمان . ثم عمدوا إلى تتريك العرب وآثارتهم على الدولة وتحريضهم على الاتصال والإلقاء بأنفسهم فى أحضان الحلفاء وهو ماحدث فعلا . ولما انتهى دور الاتحاديين وحملوا مسئولية خراب الدولة العثمانية بما كبدوها إياه خلال الحرب العالمية ومابعدها اختفوا ظاهرياً ليظهروا فى صورة جديدة تحت لواء مصطفى كمال . وكذلك كان الاتحاديون ثم الكماليون : نسقا واحداً . ومخططاً واحداً ووجهة واحدة قسمت نفسها على العمل تحت أسماء (نيازى وطلعت وجمال) ثم تحت اسم (مصطفى كمال ، عصمت أينونو) من بعد وهم ماسون ، ودونمة ، وأتباع ثقافة الثورة الفرنسية ، والمملون لشأن جنكيزخان ، والكارهون للاسلام والقرآن والعرب ، والمؤمنون بتحطيم الوحدة الإسلامية ، والتفريق بين العرب والترك ، والداعون إلى القضاء على الشريعة الإسلامية ، والخلافة ، وقد نفذ الاتحاديون المرحلة الأولى فيها فلما انتهت الحرب الأولى بهزيمة الألمان والدولة العثمانية بدأ الغرب يصنع السكين فى الزبد لتقطيع الأوصال

والانتقام على النحو الذى ظهر فى معاهدة سيفر عام (١٩٢٠) وبدأ الاتحاديون باسم الكماليين فى تمزيق وجه الدولة العثمانية من الداخل ونقل الأتراك إلى الغرب نقلا كاملا . تمهيداً للقضاء على الخلافة الاسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية التى كانت القوة الحامية للاسلام أربعمائة سنة . وقد بدأ الكماليون بالفصل بين السلطنة والخلافة وجعل الخلافة روحية محضة . وكان هذا خطوة فى سبيل إعلان إسقاط الخلافة على سبيل التدرج .

وقد كشف المفكرون المسلمون مدى ما يحمله هذا الخطر الممهد لإلغاء الخلافة . فقال شيخ الإسلام « مصطفى صبرى » : أن الأمامة الكبرى التى يعبر عنها بالخلافة تتضمن حكومة تنفيذ الشريعة الإسلامية ، فتجريد الحكومة من الخلافة والتفريق بينهما يخرج الحكومة عن أن تكون إسلامية ، وهى تهدف إلى قطع علاقة الدين بإجراءات الحكومة حتى لا تمتد يده إليها ويبقى ملغى عن العمل ، ويصور ذلك بأنه محاولة من الاتحاديين وأخلافهم لفتح الحصن من داخله ، وهكذا أقام الكماليون خلافة بغير سلطة لمدة عام وبضعة أشهر ، وقالوا إن الخلافة اندمجت فى الحكومة . « وكيف تندمج الخلافة النبوية فى حكومة أهانتها واحتقرتها كل الاحتقار وابطلت المحاكم والأحكام الشرعية وعدت ربط الحقوق بها ربطها بالخرافات وأعلنت الإلحاد ورفضت أن يكون دين الدولة : الإسلام . » — ا . ه ويشير شيخ الإسلام مصطفى صبرى إلى أن معاهدة سيفر القاسية قد عدلت من بعد فى مؤتمر لوزان وخففت آثارها بعد أن دفعت تركيا الكمالية الثمن فى تلك المعاهدة السرية التى تناثرت أخبارها . (وأنا أنقلها هنا مما أورده مفتى فلسطين محمد أمين الحسينى فى مذكراته) . قبول تركيا شروط الصلح الذى عقده الحلفاء معها فى لوزان عام ١٩٢٣ وللمرونة بشروط كرزون الأربعة وهى : (١) قطع كل صلة بالإسلام . (٢) إلغاء الخلافة . (٣) إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد . (٤) اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم (ا . ه) يقول شيخ الإسلام مصطفى صبرى : ما سر نجاح عصمت باشا فى مؤتمر لوزان وارتقاء ذلك النجاح إلى كونه نجاحا تجاه دولات لم تغرب الدول الكبرى عن حوزة شمولها ولم تقتصر على اليونان فقط حتى محا الحسابات العتيقة الأمتيازية فقط وكان عاتق الدولة العثمانية يحمل أثقالها منذ عهد بعيد مع أن عصمت باشا لم يظهر بسلاحه على الانجليز فى ميدان الحرب وميدانها ولم يضيق الأرض بما رحبت كما ضيقها على اليونان وكيف عمهم ظفره فى مؤتمر لوازن ، لقد لمح مستشار وزارة الخارجية البريطانية إلى هذا السر العميق فى برلمانهم بعد ما أتم مؤتمر لوزان عمله وعاد ، قال بعض النواب عن المعاهدة

إنها انهزام سياسى لم يسبق مثيله فى تاريخ الانجليز تجاه الأتراك ولو غلبونا فى الحرب العظمى ما أستفادوا بأكثر مما منحوا فى هذه المعاهدة » .

قال المستشار : « عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتى الترك القديمة والجديدة فهى اليوم دولة ملية متحدة » يعنى : مقصورة فى هذه الدائرة المحدودة ومنقطعة عن تعلقاتها الفسيحة العميقة لأقطار العالم باشتمالها على الخلافة الإسلامية الكبرى . وقد باحت جريدة (وقت) التركية عن السر العميق الذى ذكرناه آنفا وكانت الجرائد الانجليزية تكتب : أنه مادام شكل الحكومة فى تركيا جامع بين الخلافة والسلطنة فإنه لا يمكن تطبيق قاعدة سيفر باسم حقوق الأقليات فهى نتيجة طبيعية لذلك الشكل من الحكومة : أى الحكومة الحائزة للخلافة ، أى أن الثمن هو إسقاط حكومة الخلافة الشرعية وإقامة حكومة لاتينية وكان هذا هو العربون الذى قدمه مصطفى كمال للغرب ، وهذا من أبلغ كيد الغرب (والحكومة البريطانية بالذات) الإسلام وللخلافة ولوحدة المسلمين ، يقول شيخ الاسلام مصطفى صبرى . إن بريطانيا تتراءى مغلوبه أمام مصطفى كمال حتى تعظم فتنته فى إبصار المسلمين وبصائرهم والرجل من لا تجد الأنجليز مثله لو جدت فى طلبه من حيث أنه يهدم من ماديات الاسلام ومن أدبياته فى يوم ما لا تهدم الأنجليز نفسها فى عام فلما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته فى طرد اليونان من الأناضول استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا فما غادرتها حتى استخلفت من يعادينا والاسلام أكثر منها » . ويقول : كان مسعى الأنجليز فى أرضنا إعادة أرواح الأتحاديين فى أجساد الكماليين ليمضوا فى إفساد دولتنا . ويربط بين الأتحاديين والكماليين فى عبارة رائعة هى قوله « عدم الغيرية بين الكماليين والاتحاديين » . « اتسموا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقى وانساقوا خلف أشخاص مثل (طلعت وأنور وجمال) وبعد الهدنة جمعوا شملهم المشتت فى حاشية مصطفى كمال فتسموا بالقوى الملية والكماليين وجمعية مدافعة الحقوق وحزب الخلق وتناسوا باسم الاتحاد وتناكروه وهم هم بأعيانهم ولم يدع واحد من الفريقين شيئا من التغاير والتنافر بينهما بل هما بأجمعهما حصرا كل جهدهما فى معارضة المخالفين إلى حزبى الحرية والأئتلاف ومخاصمتهم أشد الخصومة (ك : النكير على منكرى النعمة والخلافة) . وأشار إلى أن حزب الاتحاديين هو الذى أشقى الأستانة فى معاهدة اوزان وتركها مع المضايق من غير دفاع ودخوله الحرب الكبرى هو كل خطيئة ، وأشار إلى ما أوردته الصحف التركية من سخرية من براءة الكماليين من الاتحاديين وأفعالهم ، وهم شركاؤهم فيها بل هم أنفسهم المتناسخون عنهم ، وقال أنه لا فرق بين الكماليين والاتحاديين من حيث المبدأ فكلاهما متفق على

نزع السلطة من الخلفاء والسلاطين ومنحها لصناديده تحت ستار منحها للأمة وكلاهما لا دينى يتراءى للناس تارة بوجه طورانى متعصب الجنسية وتارة بتقحمات البلشفية وتارة كالمجاهد فى سبيل الإسلام وكلاهما مفرض فى دعوى الحرية بلفظه وقاتلها بفعله وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق الهرج والمرج غير باذل من كل ذلك عن نفسه وماله. « إن النهضة الكمالية مرتبة ومدبرة لإحياء مبادىء الاتحاديين بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أماتوا الدولة العثمانية الكبرى فى الحرب العالمية، وإن الاتحاديين الذين هدموا الأمبراطورية العثمانية على ما أعترف به لدى الكماليين، لو لم يكن الكماليون منهم ومعهم فى أفعال الهدم على ما بينا ثم لم يزيدوا عليهم بهدم الخلافة الإسلامية أيضاً كان لهم حق التبجح على الاتحاديين وكلا الحزبين فى الحقيقة من جنس واحد، وكلاهما غير مستند إلى القوة المشروعة التى تستند إليها الأحزاب السياسية وهى القوة الغير مسلحة، أعنى بها قوة الشعب والانتخاب المبنى على المحبة العامة بل منبع القوة فى كليهما عبارة عن الجيش ».

(٢)

وهكذا مهد الاتحاديون لإلغاء الخلافة وأخروا مصطفى كمال لأداء هذا الدور الخطير : إلغاء الخلافة الإسلامية بعد أربعة عشر قرناً ونفى آل عثمان من تركيا وإلغاء المحاكم الشرعية والمدارس الدينية والأوقاف واللغة العربية وقالت الصحف التركية إن الحكومة الكمالية إنما ترمى فى حركتها الأخيرة إلى وداع الشرق وكل ما فيه من التقاليد القديمة التى يمثلها دين الإسلام، وتقول الصحف التركية على مانقل مثلا فى ٢٨ شباط ١٣٤٩ : « إنا عازمون أن ندوس بأقدامنا وأقدامنا وننسف كل موانع وحوائل فى طريقنا التى تذهب بنا من الشرق الذى ودعناه إلى الغرب الذى يممناه، حتى أن التغرب لا يقتصر على شئوننا الرسمية وقوانيننا بل ستكون أدمغتنا وعقليتنا أيضاً غربية بحتة، ولا حاجة لنا بعد الآن إلى مقام الخلافة والوزارة الشرعية والمحاكم الشرعية والأوقاف والمدارس الدينية، إنا تؤدع هذه الأشياء الخلق اللائى تمنعنا من الرقى والتعالى. أن كبير الذنب للحروف العربية لأنها هى التى أخرتنا وجعلتنا وراء الأمم فى العلم والتعليم فيجب علينا أن نخط بحروف لاتينية » وقال مصطفى كمال فى خطبة المجلس الوطنى (١ مارس عام ١٣٤٠) :

حتم علينا ننتفض فى تغيير بيتنا بكل جراءة على كل تأثير ولا نتردد فى الاندفاع إلى الرقيات الشرقية والطريق الذى نمشى عليه فى الحقوق المدنية وحقوق الأسرة لا يكون إلا عن طريق المدنية

والحضارة (الغربية) وكون الأمم مربوطة فى الحقوق بالخرافات ومدارات المصالح كابوس يمنعنا من الاستيقاظ ، لكن أمة الترك تأبى أن يركبها الكابوس » .

وتقول الصحف التركية : أن الخلافة والسلطنة زالتا زوال كلدان وأشور وبابل ومصر القديمة وزال معهما « الدين » الذى يمنع الحياة والاستقلال بتلقية الباطل فحان لنا بعد هذا إقتباس الحقوق الحديثة المنشقة من حقوق رومية ، ويقول أتاتورك : مبدأى هو إلغاء الخلافة لا لأجعلها لنفسى فأنى رجل لا يتنزل إلى قبول المناصب القديمة البالية ، إرتقينا ونجونا مما رميناه اليوم من كناسات التاريخ وجيفه » . وهكذا دخلت تركيا الكمالية مرحلة جديدة كان عنوانها : قائد لايفيق من الخمر ، يحرض النساء على الرقص فى المراقص ، ويكتب في المراقص ، ويكتب بالحروف اللاتينية ويغلق المساجد ويستبدل القبعة الطربوش ، ويكره النساء على السفور ونزع الخمار ويقول: أرقصوا أزواجا أزواجا » . وكم أراق دعاة الكماليين من خمور ، وقالوا : تغربنا وأثبتنا استعدادنا للتغرب فى مدة قليلة ، وعلت كلمات الجمهورية ، الوطنية ، والإلحاد ، اللائكية . ويقول شيخ الإسلام : مصطفى صبرى : أنى أخاف ان تسعد تركيا وترقى بهذه الارادة الحديثة اللاتينية رقيا دنيويا وإن كان ذلك فى غاية البعد والاستحالة فيفتتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى توغل فى سبيل الافلاس والاندراس ، وتكون فتنتها عليهم أكبر مما تقدم واشتم (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة) . وخير ما نقدمه لروح مصطفى صبرى : هو تصريح توينبي الذى « عير » فيه تركيا بأنها تغربت ! وأنها لم تستطع أن تقدم للحضارة أى إضافة علمية أو تكنولوجيه وإنما كانت تابعة زادت الغرب تبعا من حمل مشكلاتها ولقد خدع المسلمون والعرب حقا فى أول الأمر ولكن الحقائق تكشفت من بعد أن شطراً من أمة الاسلام ، ذاهبون فى التيه سنوات فما عادوا حتى قضى على ذلك الطاغوت التى كان مثلا أعلى لبعض الزعماء والقادة . وفى كتاب شيخ الاسلام : مصطفى صبرى النكير هو منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) بيان عن نقطة التحول هذه التى لها خطرها على الاسلام والعالم الاسلامى والعرب جميعاً والتى كانت مقدمة لعديد من الحركات السياسية والاجتماعية الموغلة فى طريق التغرب. يقول شيخ الإسلام : التزمت فى كتابى هذا إثبات أمرين: كون الكماليين أعداء الدين وكونهم أعداء الحرية مستبدين ومضطهدين، والحق أن مصطفى كمال ألغى محارم الاسلام خالية من رجال الحراسة والفراسة فركض عليها بخيلها ورجلها كما قال (تابط شرا) .

وصادف سهل الأرض لم يكدح الصفا
به كدحه والموت خزيان ينظر

قام حزب الحروب أعنى حزب الاتحاد باسم جديد كالى قومة جاوزت قامته الأولى وآثار قيامه العقوبة لى كل من خالفه فى دخول الحرب وسائر المبــادىء السياسية والإجتماعية من الأحزاب والرجال » ويقول : أن الأمة التركية المسكينة المسلمة والتى تفدى دينها بمهجتها منذ إعصار قرون : أصبحت اليوم بين « الإلحاد والسيف » وهو لا يستبعد كل الاستبعاد أن يعد آل عثمان مسئولين عن هذه الحالات لأنهم لم يهتموا ولم يجتهدوا فى درء الاتحادية الكمالية ، ولم ينصروا الذين جاهدوهم حق الإهتمام وحق الاجتهاد وحق النصرة بل التزموا الحياد وحسبوا أن المدارة والحياد تنفع تجــاه فتنتهم التى تأبى إلى أن تهلك الحرث والنسل وإنى أرى أثماً لــكل مسلم تراخى فى مناوأتهم ومحاذاتهم والمجاهدة فى استئصال شأفتهم التى تعترض دين الإسلام» ويشير إلى الخدعة التى خدع بها الاتحاديون المسلمين ليؤيدوهم وكذلك حيث ساعدهم العالم الإسلامى بمئات الألوف من الجنيهات التى أنفقوها على هدم الخلافة والدين . وقد خدع المصريون والعرب بخطوات الاتحاديين أولا ثم الــكماليين وخاصة عندما كان يرفع مصطفى كمال أبان حرب الأناضول المصحف ويدعو المسلمين إلى تأييده فى جهاده ضد اليونان ، ولــكنه سرعان ما كشف عن مخالبه الحمراء الدامية التى أطبق بها على عنق الإسلام منذ ما يعتقد جميع المؤرخين أنه كان خطة مدبرة تتم على خطوات منذ عام ١٩٠٩ حتى أسقطت الخلافة عام ١٩١٤ يشير إلى هذا شيخ الاسلام مصطفى صبرى ثم يعقب قائلا : فليفتح عالم الإسلام عينه وليأخذ حذره من الملحدين الذين دبت عقاربهم ونجحت فى بلادنا تجاربهم فلا ينقده هذا المسالك الذى سلــكه : ينام وينخدع بهم إلى ماشاء الله وشاءوا ثم تنبه بعد ما كانت الــكائنة ولات حين جدوى لذلك الإنتباه ، وليعتبر من أولئك الملاحدة كيف يجتهدون فى إنجاح مبادئهم ساهرين غير ساهين ولنعلم إن الهدى والضلال ليس من الفــكاهات التى يرغب فيها الانسان حين ماشتهى وهوى ويعرض عنها إذا لم يشته وأنى قد أطلت النقد والشد على الاتحاديين والــكماليين فى أوانه لاسمع المسلمين فيتداركوا الخطر قبل تمامه فلم يستجيبوا لى ولم يصدقونى » .

وكان شيخ الإسلام للدولة العثمانية مصطفى صبرى قد هاجر من تركيا إلى مصر بعد أن استفحل أمر الاتحاديين وأخذ يقود حملة فى الصحف المصرية ويكتب الــكتب لينبه المسلمين إلى الخطر قبل أن يقع ذلك أنه عندما بدأت الخلافة تتأرجح وقف كتاب الشعوبية المصريين يؤيدون الــكماليين ويهللون لهم وجاء مصطفى صبرى ليــكشف هذا الزيف : قائلا إن الذين يقومون بهذا العمل ليسوا هم الأتراك المسلمين وإنما هذه فئة بغت عليهم وعلى الخلافة الإسلامية وأحيت اللادينية على الإيمــان والجنسية على الإسلام فإن تعالت العرب وفضلت جنسيتها على إسلامها فسأصرمهم أيضاً .

وهكذا أدخلت تركيا (بحركة الاتحاديين الكماليين) العالم الاسلامي في أخطر مراحل التحدى بين الإسلام والغرب وهي مرحلة استبدال الرابطة الاسلامية الجامعة بالرابطة الجنسية القومية وإحياء اللادينية بديلا عن الدين . هذه النار التي استشرت في الهشيم بعد وعمت العالم الإسلامي كله ماتزال من التحديات الخطيرة والفتن الكبرى التي أوقدها الغرب في دولة الخلافة .

(٣)

كانت كل القوى تعمل على التخلص من الخلافة الإسلامية باعتبارها رابطة المسلمين ومصدر وحدتهم وكان للصهيونية العالمية دورها في ذلك بما يصوره عبد الله التل في كتابه (الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام) يقول : تميز صراع الأفعى اليهودية مع الخلافة الإسلامية بطول مدته وبأن الدفعات كانت قاتلة ، أدت إلى هدم هذا الصرح الشامخ الذى كان المسلمون يلتفون حوله ويعتبرونه رمز وحدتهم وقوتهم وعزتهم وحرمهم ، وجهت الأفعى النظر إلى الأستانه للشروع في عمليات بث السموم قبل عشرات السنين من ظهور هرتسل نبي اليهودية والصهيونية منذ تكاثر اليهود في تركيا بأعداد كبيرة على أثر طردهم من أسبانيا في القرن الخامس عام ١٤٩٢ بدأت الداخات منذ عهد السلطان مراد الثانى ومن بعده السلطان العظيم محمد الفاتح عام ١٤٨١ م الذى اغتاله طبيبه اليهودى يعقوب باشا المعروف باسم (ميا. تر وجا كوب) بالسم كما ثبت أن اغتيـال السلطان سليمان القانونى وأحفاده الصغار قد دبرته (فورباتو) اليهودية ، استمرت مؤمرات اليهود في دوائر الحكم العثمانى أكثر من أربعمائة عام . وقد جاء ذلك نتيجة ظهور الدونمة (المرتدون) وهم الذين تظاهروا بالإسلام بعد وصولهم من أسبانيا وتجمعهم في سالونيك ، كذلك فقد عمدت الصليبية الحاقدة على الإسلام بعد ما رأت إمتداد رقعة الإسلام ولاسيما بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان الفاتح وزحف الاسلام حتى أبواب فينا وأن وضعت الصليبية الحاقدة نفسها في خدمة اليهودية العالمية لتسخرها رأس الأفعى اليهودية في مساعدتها على تحقيق خطط الهدم والتخريب .

ومن أجل ذلك تحالفت قوى الصليبية الأوروبية مع دول عديدة هي بلغاريا ورومانيا والنمسا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء وقد أدى الضغط الصليبي المسخر إلى تضييق رقعة الاسلام في أوربا كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطة التي كانت تمتـد من تركيا شمالا إلى حضرموت جنوبا ومن إيران شرقا إلى طنجة غربا فضاعت الجزائر عام ١٨٣٠ مصر درة تاج السلطنة عام ١٨٨٢ ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب .

وقد أشار عبد الله التل إلى أنه كان من أخطر عمل الأفعى اليهودية بعد رفض السلطان عبد الحميد مطالب الصهيونية هي تلك الدعاية الفاجرة التي صورت الحكم في عاصمة الخلافة في أبشع صورة، من قلب للحقائق وإبراز للمساوىء وطمس للمحاسن، وقد نجحت تلك الدعاية المضللة على أوربا وفي العالم بأسره، وأبرزت وحشية الأتراك وطمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس كذلك حركت غريزة الطمع الإستعماري لابتلاع أجزاء غنية من تركة الرجل المريض وقد صورت الدعاية اليهودية (مدحت باشا) اليهودي الماكر على أنه بطل من أبطال العالم وسمته أبو الأحرار وسخرت صحف أوربا وإذاعتها لتمجيد مدحت باشا حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية وهو في حقيقة أمره يهودي متآمر على الإسلام والمسلمين وآلة مخربة مؤذية، وقد تعالت صيحات اليهودية العالمية حين عزله السلطان عبد الحميد ونفاه إلى الطائف واستثارت سفارات الغرب في الاستانة محتجة على قسوة السلطان عبد الحميد ومطالبته بالعفو عنه، وحين أشعلت الأيدي الصهيونية الصليبية فتنة عام ١٨٦٠ وما صاحبها من مذابح بين الدروز والنصارى في سوريا ولبنان تجمعت الدعاية اليهودية في رمي المسئولية على الأتراك المسلمين تمهيداً لحصول الصليبيين على امتيازات في ديار المسلمين بحجة حماية النصارى، ونجحت الدعاية اليهودية في إيغار صدر المسيحيين في أوربا كلها حين زورت وقائع التاريخ المتعلقة بحرب البلقان وبخاصة الحرب مع البلغار وجعلت شعوب أوربا تنادي لنصرة نصارى البلغار مع أن الحقيقة تشير إلى عكس ذلك فقد كان البلغار يبدأون دائماً بالعدوان ويظهرون أحقادهم الدفينة ضد الإسلام ويبطشون بالمسلمين» ا. هـ. وهكذا نجد أن الإستعمار الغربي (والبريطاني خاصة) كان ينفذ مخططا، وأن الروس كانوا ينفذون مخططا، وأن الصهيونية كانت من وراء كل المخططات تنفذ مخططها السري الذي تعتبر به نفسها وريثة الإستعمار الغربي كله.

(٤)

وإذا كانت القوى كلها متصارعة فيما بينها على ميراث (دولة آل عثمان) فإنها كانت متفقة على إزالة الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية، وكانت تعمل على استخدام «الدونمة» وهم اليهود الذين أقاموا في سالونيك منذ طردوا من أسبانيا وأعلنوا إسلامهم تقية وخداعا، في هذا السبيل، بدأهم: مدحت وختمهم مصطفى كمال. ومنذ بدأ مدحت حركة الاتحاد والترقي وحشد لها من رجال المحافل الماسونية والدونمة الكثيرون وتعددت المراحل حتى حكم الاتحاديون فيما بين عام ١٩٠٩ — ١٩١٨ ثم جاء الكماليون ليتموا هذه الرسالة بالقضاء على كل لون إسلامي أو عربي في تركيا، ولقد احتفل الفكر الغربي بمصطفى كمال أتاتورك احتفالا شديدا وألف عنه مئات الكتب وأشادت به أهواء

للمؤرخين وأعتبرته واحداً من أفذاذ الأتراك لأنه قضى على الدولة العثمانية والخلافة وخدع المسلمين أول الأمر حتى مكن لنفسه ثم فصل بين السلطنة والخلافة ، وقد حكم تركيا منذ عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٨ حكما ديكتاتورياً عنيفاً ، خلال خمسة عشر عاماً دون منازع أو معارض ، غير فيها كل شيء ، وأزال الواجهة الإسلامية لدولة الخلافة تماماً وذوب النظام التركى كله فى أتون العلمانية والأممية العالمية .

ففى ٣ من آذار عام ١٩٢٤ ألغى منصب خليفة المسلمين ومعه ألغيت جميع مؤسسات التعليم الدينية فى عاصمة الإسلام ثم أغلقت المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية وأصبح تعلم أصول الإسلام جريمة يعاقب عليها القانون التركى وألغى من بعد المحاكم الإسلامية فى جميع أنحاء البلاد (الشخصية والشرعية على السواء) وبهذا قضى مصطفى كمال على أهم الأصول والمظاهر الإسلامية فى تركيا ، ومن العجب أن العالم الاسلامى لم يحرك ساكنا إزاء هذا العدوان ، بل وجد فى صحف مصر من يؤيد خطواته ويدعو إلى مثله فى البلاد العربية ، ومضى أتاتورك يغير وجه البلاد بصورة جذرية من نظام الأسرة ، وتعدد الزوجات إعلان سفور المرأة وخروجها إلى المحافل والمراقص ، تحريم لبس الطربوش أو العمامة ، إقرار نظام الزواج المدنى ، وضع قوانين جديدة مقتبسة من القوانين السويسرية والألمانية والإيطالية تحل محل الشريعة الإسلامية ، إلغاء مادة الدستور التى تعتبر الإسلام ديناً للدولة ، إدخال الحروف اللاتينية بدلا من الأحرف العربية ، ثم أصبح التعامل بالدين الإسلامى جريمة تواجه بأشد العقوبات .

ولكن تركيا تغيرت كثيراً بعد وفاة أتاتورك وأخذت تستعيد مسارها الإسلامى فى بطء شديد وهى الآن بعد خمسين عاماً من إلغاء الخلافة تبدو وقد انتعشت روحها الإسلامية كذلك ، فإن العالم الإسلامى لم ينس هذه الشعيرة الاسلامية وقد عملت كل الحركات الاسلامية على النص عليها والدعوة إلى تجديدها ، ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم أقام المسلمون عشرات المؤتمرات التى تدعو إلى الوحدة الإسلامية فى مصر وباكستان والحجاز ودعا كثيرون إلى استبدال نظام الخلافة بنظام التضامن الاسلامى أو عصبة الأمم الشرقية ، وما تزال القوى الاستعمارية تحول دون تحقيق الخطوات الحاسمة للوحدة الاسلامية ، وهى تحاول أن تجد لها بدائل فى دعوات القوميات والوطنيات والاقليميات :

ثم ماذا بعد سقوط الخلافة :

عمد الغرب إلى إلغاء الخلافة كأقسى ما يمكن أن يوجه إلى العالم الاسلامى من ضربات ، لتمزيق وحدته وجعله قطعاً متفرقة لا تلتئم مرة أخرى ، بعد أن أثار فكرة القوميات الطورانية ، العربية ،

ودعوات الفرعونية والفينيقية ، وكلها محاولات لتفريق الصف وتمزيق وحدة العالم الاسلامى وتعميق الخلاف بين العرب والمسلمين وبين العرب أنفسهم ، ولقـــد كانت توقعات الغرب أن القضاء على الخلافة سيكون خطوة للقضاء على الإسلام نفسه ، وأصبحت التجربة التركية الجديدة موضوعه أمام المسلمين والعرب كتجربة ناجحة وصفها لامنس المستشرق المتعصب بأنها الطريق الوحيد للنجاة من السقوط كان الظن كما وردت فى كتابات الـكثيرين أنه بعد سقوط الخلافة فأن الاسـلام لن يعيش ، ولـكنهم دهشوا عندما استبدل المسلمون والعرب بالخلافة وحدات جديدة ومؤتمرات لدعم الأخوة الاسلامية ولم يحـــدث شىء مما أثير من التوقعات فقـد قبل المسلمون التحدى أما الآخرون فقد كانوا على وهم عندما شبهوا الخلافة بالبابوية فى العالم المسيحى وقد أشار إلى ذلك لامنس حين قال يحدث إلغاء الخلافة شيئا من العقبات التى كانت يتوقعها داخل الاسلام وخارجه ، ذلك أن هؤلاء كانوا على وهم من تأثير الخلافة فى العالم الاسلامى إذا كانوا يشبهونها من بعض وجوهها بالبابويه فى العالم المسيحى ، وقد عاش العالم الاسلامى فترات كثيرة فى حياته الطويلة دون خليفة وعاش مع وجود عدة خلفاء ، وهكذا بعد مرورست سنوات على القرار الـكمالى بالغاء الخلافة (آزار عام ١٩٢٤) نرى الاسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا غير أن الـكثيرين فـكروا فى تأليف هيئة ينزلونها منزلة الخلافة » .

(٢٤)

وصول روسيا إلى قلب العالم الإسلامى

(خامسا) تحقق الدولة الروسية (تنفيذ وصية بطرس الأكبر) بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الإسـلامى والزحف فى اتجاه المياه الدافئة . وكان بطرس الأكبر المتوفى عام ١٧٢٥ م قد أوصى بما يحقق لروسيا انتزاع حصتها من تركة الإسلام الممثلة فى الدولة العثمانية بما قاله على النحو التالى : « ينبغى الاقتراب من الأستانة والهند بقدر الإمكان لأن من يستولى على الأستانة قد أصبح قادراً على أن يستولى على الدنيا بأسرها فلا بد من موالاة الحرب مع الدولة العثمانيه والدولة الايرانية = (للسلطنتين) وتحصين البحر الأحمـــر وضبطه لبناء السفن الحربية ويجب الاستيلاء على بحر البلطيق والاسراع فى إذلال إيران وإخضاعها للمرور فيها إلى خليج العجم وبذلك نستطيع إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة بطريق سوريا والوصول منها إلى بلاد الهند مخزن الدنيا بأسرها فنستغنى عن ذهب انكاترا » .

وقد بذل الروس أبان عصر القيصر جهداً ضخماً فى تنفيذ هذه الوصية فأرقوا الدولة العثمانية وواصلوا الحملات عليها وكانت أشدها قبل وبعد مؤتمر برلين وهى التى استطاعت روسيا أن تحصل فيها على القرم ، والأجزاء الأخرى . وقد توارثت الدولة البلشفية نفس الخطة وسارت فيها وقاومت المجاهدين وضربتهم بعنف وضمت هذه الأراضى الإسلامية كلها إليها تحقيقاً لوصية بطرس الأكبر الذى لم يغيرها انتقال الدولة من القيصرية إلى الشيوعية . بل لعل الشيوعية كانت أشد مطمحاً فقد أعلنت منذ اليوم الأول للثورة عام ١٩١٧ عن خطة لجذب الدول الإسلامية إليها وتأييدها فى مقاومة الاستعمار الغربى ، كمحاولة لإخراج المسلمين من فك الأسد إلى ناب الدب والمعروف أنه منذ عام ١٧٣٦ شرعت الدولة الروسية تناوىء الأتراك العثمانيين وتعتدى على بلادهم وأخذت منهم (أوكزاكوف) و (أزوف) ثم أمتدت يدها إلى بلاد القرم عام ١٧٨٣ . فضلا عن أنها هاجمت ولايات الدانوب جملة مرات ، وكانت تركيا نفسها فريسة جندها الثائرين المتمردين . وجاءت معاهدة برلين فأجازت لروسيا امتلاك قارس وباطوم ، وعادت أطماع روسيا تتجدد مرة أخرى بعد أن أوقفتها فرنسا وانجلترا بدخولها ضدها فى حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٥) إلى الظهور باعتدائها على السلطنة العثمانية فى حرب عام ١٨٧٧ ومنذ حرب القرم عام ١٨٤٠ كشفت روسيا عن مطامعها ونيتها القديمة مجددة وصية بطرس الأكبر فى انتزاع مناطق هامة من الدولة العثمانية ، وكان الهجوم الروسى — كما قال بعض المؤرخون — ناقوساً دق على الباب العالى وأيقظ الشعور لديه بأن يعيش فقط على حساب النزاع القائم بين القوى الأوربية فنمت مرة أخرى إرادة الاعتماد على النفس فى الدفاع . فلما جاءت البلشفية : جددت أطماع بطرس وسارت فى نفس الطريق وقد كان هدف روسيا الشيوعية هدم النفوذ الغربى فى الأقطار الإسلامية وحرمان الدول الاستعمارية مما فى يدها من منافذ تجارية ومصالح إقتصادية وقد ساعدها على ذلك مجاورتها لعدة شعوب إسلامية كبرى (الترك والفرس) فضلا عن المسلمين الداخلين تحت حكمها . ولذلك فإنها سرعان ماعقدت معاهدات مع تركيا وأفغانستان وفارس لمدى أوسع ، وكانت روسيا هى المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وعد بلفور وكان ذلك العون أكبر أهمية من العون المادى الذى كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا .

ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية والصهيونية أثرها الكبير فى الخط الذى سارت عليه روسيا من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى ، وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا الماركسية فى السيطرة على البلاد الإسلامية ، وقد عمدت الشيوعية إلى تنفيذ مخطط غاية فى القوة والخطر فى العالم الإسلامى فى هذه المرحلة التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو : (أولا) التفرقة بين

الصهيونية واليهودية ، وإبراز أن الشيوعية والاشتراكية لا تدين للصهيونية بولاء أو تبعية . (ثانيا) مقاومة الإسلام عن طريق التكتيك غير المباشر ، ولقد دعا جارودى فيلسوف الحزب الشيوعى الفرنسى فى كتابه (ماركسية القرن العشرين) إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير الشبهات والخلافات فى داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون فى العالم الإسلامى . (ثالثا) وصف خصوم الشيوعية بالرجعيين عن طريق لون عاصف من الارهاب الفكرى . (رابعا) محاولة إفراغ كل من فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وفقد كل مناعة فكرية وقدرة على التصدى والمجادلة . (خامسا) تطويع الدين : الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية . وقد أشارت الصحف الغربية إلى ما أسمته الخط الروسى الآسيوى عن طريق الإسلام : فقالت أن أوربا اليوم أمام خط أصفر جديد ، هذا الخط هو اتحاد روسيا وأقطار الشرق على دول الغرب وتنظيم قواها وتدريبها إلى أن يجىء اليوم الذى تجمع فيه جموعها لمهاجمة الغرب وليس هذا صحيحا فى جملته ولكنه من وجهة النظر الإسلامية : إحكام خطة المؤامرة على العالم الإسلامى وتمزيقه بين القوى المختلفة الطامعة .

ولقد عمد مصطفى كمال فى حركته التى مزق بها الدولة والخلافة إلى الاستعانة بالدولة البولشفية التى أعانته على ذلك وساعدته كما ساعدته دول الغرب وفى مقدمتها انجلترا وكان لقربها عامل هام فى هذه المعونة : وقد عقد مصطفى كمال مع لينين معاهدة حماية لضمان سلامة الأراضى التركية من العدوان وإعادة السيادة إلى جميع الأراضى التى كانت فى يد الدولة العثمانية . أما الروس فقد تحرروا فى السيطرة على الأجزاء التى احتلوها من المطالبة بها وأقاموا أربع جمهوريات تحت النفوذ الشيوعى : « أذربيجان — جورجيا — أرمينيا — داغستان » وعقد الروس مؤتمراً فى عام ١٩٢٠ فى مدينة باكو أطلقوا عليه اسم مؤتمر الشعوب الشرقية ، حضره ١٨٩١ مندوبا منهم مندوبين عن الأتراك والفرس والأرمن والأكراد والهنود العرب وجاء فى هذا الخطاب قول الروس : إن الشيوعية الدولية ستعمل على تحرير جميع الشعوب الإسلامية ، ودعت هذه الشعوب إلى التعاون معها ثم قامت بعد ذلك بقليل بتلك الإغارة الدموية على الجمهوريات الإسلامية الخمس فقاتلت أهلها واستولت عليها بالقوة فى أسلوب وحشى أشد وحشية من أسلوب الاستعمار الغربى ، ذلك لأن الذين كانوا يحكمون روسيا فى أول عهدها البلشفى كانوا من اليهود الصهيونيون الذين يخططون لمدى أوسع ،وكانت روسيا هى المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وعد بلفور وكان ذلك العون أكبر أهمية من العون المادى الذى كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا . ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية والصهيونية أثرها الكبير فى الخط الذى سارت عليه روسيا من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى ،

وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا للماركسية فى السيطرة على البلاد الإسلامية ، وقد عمدت الشيوعية إلى تنفيذ مخطط غاية فى القوة والخطر فى العالم الإسلامى فى هذه المرحلة التى بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو : (أولا) التفرقة بين الصهيونية واليهودية ، وإبراز أن الشيوعية والاشتراكية لا تدين للصهيونية بولاء أو تبعية . (ثانياً) مقاومة الإسلام عن طريق التكنيك غير المباشر ، ولقد دعا جارودى فيلسوف الحزب الشيوعى الفرنسى فى كتابه (ماركسية القرن العشرين) إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير الشبهات والخلافات فى داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون فى العالم الإسلامى . (ثالثاً) وصف خصوم الشيوعية بالرجعيين عن طريق لون عاصف من الإرهاب الفكرى . (رابعاً) محاولة إغراء كل من فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وفقد كل مناعة فكرية وقدرة على التصدى والمجادلة . (خامساً) تطويع الدين : الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية .

(سادسا) التقليل من شأن القيم الدينية بدعوى أنها مفاهيم عتيقة انتهت مهمتها منذ زمن بعيد لم تعد قادرة على مواجهة مشاكل التخلف . (سابعا) ركوب التيار القومى والوطنى . (عن الدكتور دسوقى أباظة مع التصرف) . ولقد حاولت الشيوعية بعد أن دخلت فى العالم الإسلامى إتخاذ لون من الخداع بالدعوة إلى الحياد المصطنع بالنسبة للدين مع حجب مفهومهم الأصيل للدين بأنه أفيون الشعوب ، وما أرادت الشيوعية القول به هو (الدين لله والشيوعية للجميع) وهذا قول مسموم ، إذ أن الدين لله والمجتمعات لله والأمم لله وليس هناك شىء خارج عن هذا النظام الربانى الذى رسمه للبشرية ، وقد ارتفعت شعارات كاذبة مضللة تقول أنه لاتعارض بين الشيوعية والإسلام ، وهى تحاول « تحييد » الدين الإسلامى وإبعاده عن دائرة المقاومة للغزو الماركسى ، والاسلام لا يمكن تحييده ، كما جرت المحاولة لتحييد الأديان الأخرى ، ذلك لأن الاسلام ليس دينا بمعنى العبادة أو اللاهوت فحسب ، بل الاسلام منهج حياة ونظام مجتمع شامل كامل جامع والدين بمعنى العبادة جزء منه ولذلك فإن كل هذه المحاولات تريد أن تخدع من لايفهمون الاسلام فهما صحيحا ، أما الاسلام فإنه قادراً دائماً على إعطاء البشرية فى كل عصر وكل بيئة حلولا كريمة سمحة لكل قضاياهم ومشاكلهم وتحدياتهم ومعضلاتهم على نحو أصدق وأعمق وأكثر حيوية وسلامة من كل ماجاءت به الأيديولوجيات والدعوات والمذاهب البشرية المحدودة المضطربة التى سرعان ما يعلوها الاضطراب ويحاول أصحابها تعديلها بالحذف والاضافة . ولقد كانت التجربة الشيوعية مع العالم الاسلامى مريرة وماكرة وقائمة على التآمر ومرتبطة بالخطط الجذرية التى ترتبط بين الشيوعية والصهيونية ، ظهر هذا فى كل الارتباطات

التى حدثت فى أفريقيا وأندونيسيا ومصر البلاد العربية ، وبرز واضحاً فى معارك ١٩٥٦ — ١٩٦٧ — ١٩٧٣ فى مصر والعالم العربى : لقد كان الهدف هو تمكين إسرائيل من التقدم والسيطرة على أجزاء من العالم العربى ، والعمل على تدمير وحدة العرب وخطط ترابط العالم الاسلامى ، والقضاء على الفكرة الاسلامية نفسها إثارة الشبهات من كل طريق للحيلولة دون تحقيق قيام مجتمع إسلامى أصيل وفق المنهج الاسلامى .

(٢٥)

قوى الصهيونية والاستعمار والشيوعية فى معركة الصراع حول عالم الاسلام

(١)

الاستعمار والصهيونية

كانت القوة الربوية اليهودية ممثلة فى رؤوس الأموال موجودة فى إطار الاستعمار الغربى الزاحف على العالم الاسلامى ، وكانت واضحة فى القروض قدمت إلى حكام مصر وتونس وفى الاغراءات التى وجهت إلى الخليفة العثمانى بهدف سيطرة الصهيونية العالمية اقتصاديا على كل ما تحتله الدول الكبرى من أرض وما تستولى عليه من مقدرات . وفى أول محاولة للاحتلال الغربى للعالم الاسلامى وهى محاولة نابليون كانت خطة اللقاء والارتباط بين الاستعمار والصهيونية واضحة جلية . ولا ريب أن قيام اليهودية العالمية بإشعال نار الثورة الفرنسية كان مقدمة السيطرة على مخططات المطامع الاستعمارية التى كانت قائمة منذ وقت بعيد وممثلة فى القيام بحفر قناة السويس ، فلما سيطر نابلون تكاتف اليهود على الاستعانة به فى تحقيق أغراضهم وجددوا عرض مشروع استعمار العالم عن طريق إنشاء قناة السويس وقدموا عروضا بأموالهم التى يضعونها تحت تصرف فرنسا مقابل أن تمنحهم فرنسا الأرض الفلسطينية : وقد أعجب نابليون بالخطة وكتب لهم يدعوهم إلى التجمع (وأن يجمعوا الأموال فيبتاعوا ذلك الربع من مصر الذى يجاور برزخ السويس والبحر الأحمر) . أما الثمن الذى يقدمونه لنابليون — بعد الأموال — فهو أن يكونوا أداة تخريب واضطراب « فإذا استطاعوا من هذا الطريق الدخول إلى عقر آسيا فإنهم إنما يحملون معهم الصناعة والفنون والعلوم الأوربية ، هذا وأنهم

يقدمون إليك هذمرا استعماريا متينا ثابت الأركان قد يكون ضروريا كما تقوم فى آسيا مقام الامبراطورية الآخذة فى الانحلال : أمبراطورية العثمانيين، ويقدم أهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة ، وعندما رفع باراراس المشروع إلى نابليون استصوب الفكرة واستعان بعلماء اليهود وحاخاماتهم على صياغة النداء وقد جاء فيه « أن الأمة التى ينظر أعداؤها إلى موطنكم الوراثى كغنيمة تتقاسم وفق أهوائهم بضربة قلم فى دوائرها ستشعلها حربا لا هوادة فيها ولا مثيل لها فى التاريخ للدفاع عن كيانها فتثأر للذل الذى لحق بكم منذ ألف عام تقريبا — فإن هذه الأمة — (أى الفرنسية) تقدم لكم الآن على الرغم من جميع العقبات ، مهد إسرائيل ، ياورثة فلسطين الشرعيين ، إن فرنسا تناديكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم واسترجاع مافقد منكم ، أسرعوا فإن هذه اللحظة لن تعوض قبل آلاف السنين .

وهكذا منذ بدأ الاستعمار خطواته الأولى فى السيطرة على عالم الاسلام كانت الصهيونية هى الأداة والعون والرفيق بل والشريك : الغرب الاستعمارى المسيحى بخططه واليهود بأموالهم ومؤامراتهم الجاسوسية ليكونوا أداة التخريب والفوضى . ولكن نابليون هزم عند أسوار عكا ولم يدخل فلسطين وتراجع اليهود عن خطتهم وإن كانوا قد سجلوا هذه الصيحة الباكرة التى جاءت بعدها خطط عام ١٩٠٧ عندما تقدموا للاستعمار البريطانى على أنهم الجسم الغريب العازل بين المسلمين والعرب بين آسيا وأفريقيا ثم كانت خطتهم الناجحة مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى والتى كسبوا بها وعد بلفور بعد أن عجزوا عن السيطرة على السلطان عبد الحميد فعزلوه ، وسيطروا على خلفائه الاتحاديون الذين فتحوا لهم باب فلسطين :

وإذا كان الغرب لم يستعبد العالم الاسلامى إلا عن طريق القروض والربا والبنوك فإننا نجد أن الصهيونية كانت وراء كل هذه المحاولات المالية والمغريات لإقراض أصحاب الثروات حتى إذا سقطوا فى أيديهم انتزعت منهم أرضهم وأملاكهم ، وقد مرت هذه التجربة بمصر بعد عصر الاحتلال البريطانى وقدرت الاحصائيات أن المصريين الذين فقدوا ثرواتهم نتيجة المرابأة والمعاملة مع القروض اليهودية قد حقق فى خلال عشر سنوات انتزاع أكثر من ثلاثين فى المائة من ثروة الملكيات العقارية وهى نسبة عالية تدل على مدى الظلم والعسف فى أمور الأقراض وإجراءات انتزاع الملكيات وفى السيطرة على أفريقيا كانت الصهيونية وراء الاستعمار وكانت الخطة التى اتخذتها الصهيونية لأن تكون الجسم الغريب الذى يفصل بين آسيا وأفريقيا بعد المؤتمر الذى عقده وزير خارجية بريطانيا

عام ١٩٠٧ تدل على مؤشر الأحداث بعد ، وفى الحرب العالمية الأولى كانت قروض اليهود لفرنسا وإنجلترا عاملا هاماً فى إنتصارها على الألمان ، وقد كان تصريح بلفور الذى قدمته بريطانيا لهم بمثابة عربون لهذا الدور الذى قاموا به والذى حقق النصر للحلفاء . ولقد كانت الصهيونية فى كل مراحل الإستعمار الحديث أداته الفاعلة وقوته الضاربة وخاصة فى المجال الاقتصادى وفتح المصارف وتوظيف ذهب أوربا الذى كان بملكة اليهود فى القروض وكذلك فتح الأسواق وبيع منتجات الترف الغربية لتى تدر قناطير الذهب الرأسمالية هناك وقد حرص الاستعمار بالإتفاق مع الصهيونية العالمية على السيطرة على الدول عن طريق أقراض أمرائها وحكوماتهم لتكبيلهم بالنفوذ الأجنبى ، ومنها شق قناة السويس واستثمار المناجم وآبار البترول وتسخير موارد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف فى وجه أى تصنيع حتى تظل البلاد سوقا مضمونة لتصريف منتجات الغرب .

ولقد كان من أقوى ما وصل إليه النفوذ الصهيونى مع الاستعمار هو الاستسلام له فى وعد بلفور وإقامة الوطن القومى فى فلسطين وتأييد روسيا وأمريكا لاسرائيل منذ الساعة الأولى لإعلانها وحماية قيامها بعد ذلك وإلى أبعد مدى . وكانت الصهيونية وراء الاستعمار فى الصراع مع الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد وسحق الدولة العثمانية نفسها وهزيمتها وإسقاط الخلافة للوصول إلى فلسطين ، وعندما دخل اللورد اللنبي القدس عام ١٩١٧ وأعلن انتهاء الحروب الصليبية كان اليهود يعلمون أنهم سيتسلمون القدس من الإستعمار .

(٣٦)

الشيوعية والاستعمار

كان الروس قبل الشيوعية جزءاً من خطة الإستعمار التى شاركت بأكبر ما تستطيع من قوة للطامع فى هدم الدولة العثمانية والسيطرة على أجزاء واسعة منها والقضاء على كل محاولات التحرر والاستعادة التى جاهد المسلمون بها فى سبيل إقصاء نفوذ الروس عن بلادهم ، وكانت أروع صور المقاومة هى صورة الشيخ شامل الذى قام بحركته عام ١٨٠٣ فى مقاومة الروس وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدون كانوا الذين تحت لوائه من مختلف القبائل والديار الإسلامية ، وقد أمضى تسعة وثلاثون عاماً متواصلة فى ميدان الجهاد ، كبد الروس خلالها مئات الآلاف من القتلى وغرمهم بإنفاق الملايين الوفيرة من الأموال وكانت مقاومته ترمى إلى تحرير أمة تبلغ أربعين مليون نسمة من

يد الإستعمار الروسى الجائر . وقد جاء هذا الاتجاه من الروس تطبيقا لوصية طامحة من « بطرس الأكبر الذى كان يهدف فيها إلى القضاء على الدولة العثمانية والنفوذ الاسلامى فلما جاءت البلشفية وسيطرت على روسيا أرادت أن تسير فى نفس الطريق : طريق الطموح إلى السيطرة على أجزاء خطيرة من عالم الإسلام وهم له أشد عداوة من القيصرية ، ولكنهم خدعوا المسلمين بأساليب أدعوا بها أنهم يناصرون حركات التحرر من الإستعمار الغربى فقد أصدر ستالين ولينين فى ١٧ ديسمبر عام ١٩١٧ منشوراً يطمئن الشعوب الاسلامية على دينها وعادتها « أيها المسلمون : أديانكم وعادتكم وثقافتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء ، أعتقدوا أن البلاشفة يدافعون عنكم وعن حقوق الشعوب التى تعيش فى روسيا كلها ، أعملوا على الانقلاب وجندوا الثورة وساعدوا حكومة البلاشفة أيها الرفاق ، أننا حين نرفع علمنا هذا إنما نعلن للشعوب المستعبدة فى روسيا شعار الحرية والاستقلال أيها المسلمون نحن ننتظر منكم معاونتكم المادية والأدبية »

ولم يكن هذا إلا خداعا : مثل خداع نابليون ثم دخول الأزهر بالخيول . ومثل خداع الاتحاديين الأتراك للعرب والسوريين ومثل خداع لورنس للعرب . كل هذا كان يجرى فى وقت واحد ، ذلك أن البلشفيك لم يكونوا أقل غدراً وخسة ففى أبريل عام ١٩١٨ أصدر لينين أمراً يزحف الجيوش الروسية على البلدان الإسلامية دون سابق إنذار فأخذت تحصد المدن والقرى وتفتك بالشعب الأعزل الآمن دون تمييز ولم ينته عام ١٩١٨ إلا وجمهوريات (إيدل أورل) و (القوقاز) و (التركستان) قد غدت تحت حكم البولشفية المباشر ، وفى عام ١٩٢٠ أتمت موسكو احتلال شبه جزيرة القرم وفى عام ١٩٢١ هجم الروس على جمهورية بخارى وشرعوا فى تطبيق أنظمتهم الشيوعية فألغوا الملكيات وصادروا الأموال والثروات وألغوا التعليم الدينى واضطهدوا رجال الدين والزعماء والقادة وحولوا المساجد إلى دور اللهو ومكاتب لرجال الحزب الشيوعى . ولقد هوجمت شبه جزيرة القوم من البحر بستين ألف مقاتل ، ١٩١٨ واجتاز الجيش الشيوعى أراضى القرم لأول مرة ، وقد قاومهم السيد جعفر سيد أحمد ورجاله وصدوا جموعهم المتدفقة وسقطت العاصمة بسقوط رئيس الجمهورية جلبى جهان ووقع المفتى الكبير أسيراً فى يد الأعداء وهو يدافع عن العاصمة بجرأته العظيمة وقد ساقوه إلى الموت ومزقوه إربا ومثلوا بجثته أشنع تمثيل .

وكان الروس يرون أن شبه جزيرة القرم هى مفتاح السيطرة لروسيا الجنوبية والبحر الأحمر وما أن انتهوا من هذا الاستعمار الدموى ، حتى أخذوا يتجهون نحو إيران وأفغانستان وتركيا يعقدوا معها

معاهدات . وكانت دعواهم الخادعة إلى تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار الغربى ومساعدة الشعوب الإسلامية على تحقيق هدف الاستقلال ، هذا هو مدخل الشيوعية إلى العالم الإسلامى . ولقد كانت روسيا تستهدف وهى وليدة الصهيونية أن تضع العالم الإسلامى بين فكى الكماشة ، أما إلى الاستعمار الغربى الذى تسيطر عليه الصهيونية ، أو الشيوعية التى هى جزء من الصهيونية نفسها ، جاءوا بسحر كلمات منمقة وعبارات خادعة ووعود خلابة ، وقد انحاز إليها البعض بحكم الضغط الحربى وفريق استهوته الوعود الكاذبة . وبدأت مرحلة من الصراع بين روسيا البلشفية من جهة والدول الاستعمارية من جهة أخرى أخرى استمر طويلا وإلى وقتنا هذا ، ويقول الباحثون أن هذا فصلا حديثاً من مأساة قديمة قامت بها انكلترا وروسيا، تلك التى شغلت تاريخ الشرق الأوسط من القرن الماضى، حتى أوائل هذا القرن والتى أسفرت عام ١٩٠٧ عن اتفاق لم يطل أجله بين تينك الدولتين لتعيين المناطق الواقعة تحت نفوذ كل منهما . وقد تبين أن هدف روسيا البلشفية هو السعى لهدم النفوذ الاستعمارى الغربى فى القارة الأسيوية وحرمان الدول الغربية ما كان فى يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية ، وهو فى موجهة عالم الإسلام ليس إلا استبدال استعمار باستعمار أشد قسوة منه . وهو من هذا الطريق أخذت الشيوعية تنشر أفكارها فى العالم الإسلامى ، وفى فلسطين وسوريا ومصر ظهرت أفكار شيوعية بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق الصهيونية وأثرياء اليهود فى البلاد العربية وقد نشأت أحزاب شيوعية سرية فى هذه المناطق كان هدفها :

(١) تقويض الاستقرار الاقتصادى والسياسى والإجتماعى . (٢) خلق جو من عدم الثقة بين العرب أنفسهم لمنع أى تكتل باسم الاسلام والتركيز على الدعاية على الخطر الصهيونى (٣) إذكاء العداوة بين الشعوب العربية وحكوماتها . (٤) إظهار الاتحاد السوفيتى بمظهر الحليف للعرب . ولقد كان للتحالف الذى قام أبان الحرب العالمية الثانية بين الاستعمار والشيوعية أثره فى قدرتها على تكوين خلاياها داخل الأحزاب السياسية فى البلاد العربية والاسلامية بما تحقق عنه بعد انتهاء الحرب العالمية من آثار خطيرة كانت تستهدف إسقاط البلاد العربية كلها فى قبضة الشيوعية الدولية . ولا ريب أن (الماركسية والشيوعية والبلشفية) قد خدعت العالم الإسلامى كله حين أذعت أنها سواء أكانت نظاما أم دولة تستطيع أن تساعد البلاد فى كفاح الاستعمار الغربى والصهيونية وذلك بادعاء الاتحاد السوفيتى مناصرة حركات التحرر ومعاداتها للصهيونية والاستعمار فقد استطاعت روسيا أن تخفى حقيقة صلتها بالاستعمار وصلتها بالصهيونية وتخدع العرب والمسلمين بالتحالف معهم كصديق حميم لهم وعدو لأعدائهم ، وقد احتاج ذلك إلى وقت طويل حتى يكتشف

العرب والمسلمون أن الشيوعية أعدى أعداء الإسلام والعالم الإسلامى وأن الاتحاد السوفيتى لايستطيع أن يحارب الصهيونية وهو وليدها . وحين ينكشف أن الماركسية فى أصلها هى دعوة صهيونية وأن كبار مؤسسيها هم اليهود الذين هم أشد عداوة للاسلام وأهله لايكفى هذا إزاء القلوب الغلف والعقول الصم لتحذر ، ولكنها لم تكشف الحقائق إلا يوم وجدت نفسها فى ميدان القتال وقد صممت الشيوعيه الماركسية السوفيتية أن لاتمكنهم من ضرب الصهيونية فى فلسطين ، واحتالت لتحطم خططهم وتفسدها بعشرات من الحيل .

(٢٧)

بين الشيوعية والصهيونية

لم تعد الصلة بين الشيوعيه موضع جدل كثير بعد أن تسربت فى السنوات الأخيرة عشرات الوثائق التى تكشف هذه الحقيقة وتؤكدها ، ولقد كشف هذه لحقيقة (فرانك برايتون) منذ سنوات طويلة فى كتابه (الصهيونية والشيوعية) الذى يقول بالحرف : « إن الحقيقة الراهنة هى أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وجوهرها واحد والفئة التى تقوم عليها من وراء الستار واحدة وما اختلافهما الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح فى السعى إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت بالنجاح الكامل اتحدتا معاً للسيطرة على العالم . ولاعبرة بهذا الفارق الظاهر بين الشيوعية والصهيونية فيكون اليهودى شيوعياً أو صهيونياً أو كليهما معاً . وكثيرون منهم كذلك — لا يلبث كونه يهوديا وليست الصهيونية والشيوعية سوى مظهرين لقومية واحدة : هى القومية اليهودية التى لاتفتأ تناوىء سائر العالم غير اليهودى ويقول (فرانك بريتون) : الصهيونية والشيوعية تختلف ظاهراً فى ثلاث أمور :

(١) التسميه : فى الصهيونية تخصيص ، وفى الشيوعية تعميم ليختار المرأ بينها بحسب مزاجه .

(٢) مراكز النشاط : مركز نشاط الصهيونية ما اصطلح على تسميته بالغرب وتتزعمه أمريكا (واشنطون) ومركز نشاط الشيوعية الشرق وتتزعمه روسيا .

(٣) الأسلوب فى العمل : الصهيونية تتاجر بالمال وتدعم الدعاية عند اللزوم والشيوعية تتاجر بالدعاية يدعمها المال عند الإقتضاء » ا . هـ . وتجمع المصادر الموثوق بها جميعا على أن الثورة الشيوعية قامت بتدبير اليهود وتخطيطهم ، وكبار زعماء الشيوعية : ماركس ولنين وستالين وفورشيلوف

ومولوتوف كل هؤلاء وغيرهم من أصل يهودى أولهم زوجات يهوديات . وأن أهداف الصهيونية العالمية ، هى نفس أهداف الماركسية الاشتراكية ، أو الشيوعية اللينية ، كلاهما يسعى للسيطرة على العالم وتسخيرة لليهود : شعب الله المختار .

ويقول أفريكان هيبرو (كبرى المجلات اليهودية فى أمريكا) بتاريخ ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠ إن الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود وإنما قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وأن ماتحقق فى روسيا كان بفضل القلة اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم ولسوف تعم الشيوعية العالم كله بسواعدهم ، ويقول موشى « الزعيم الإسرائيلى » : كل يهودى يعلم فى أعماق نفسه من كان أعظم وأحرصهم على صداقة ، أنه الجمهورية السوفيتية . ، ويقول : لاأستطيع أن أتصور يهودياً يقوم بدور العداء للاتحاد السوفيتى ومثل هذا اليهودى غير طبيعى وتشويه لكل الحقائق .

ومن القرائن القوية والأدلة القاطعة على صلة الماركسيه والشيوعة الوثيقة بالصهيونيه العالمية واليهود أن كارل ماركس نفسه هو نفسه الحاخام الأكبر واليهودى الذى يمثل فى كل حياته جميع ما تنطوى عليه النفسية اليهودية من أحقاد وكراهيه ورغبة فى الانتقام من البشرية كلها .

إذا نظرنا إلى خطوات الثورة الشيوعية الأولى وجدنا هذا السبب واضحاً وقائما فى مختلف أوضاعها ، فإن مجلس الثورة الذى حكم روسيا بعد عام ١٩٧١ كان مكونا من عشرة من الأعضاء من بينهم ستة من اليهود ، وأن لينين وستالين من أصل يهودى وكان ستالين متزوجاً من يهودية وأن أربعه من أعضاء مجلس السوفيت الأعلى من اليهود وأن أنصار الشيوعية فى العالم معظمهم من أنصار الصهيونية وأن ٤٩ فى المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من غلاة الصهيونية ، ولقد كانت روسيا السوفيتية هى أولى الدول بعد أمريكا التى اعترفت بقيام دوله إسرائيل . ولقد عرف اليهود لروسيا هذه المكرمة وأعلنوها على لسان الكثير من زعمائهم .

ولقد رد اليهود لروسيا هذا الجميل ، بأن سلموها أسرار القنبلة الذرية التى كانت أمريكا وحدها هى التى تعرف أسرارها بعد الحرب العالمية الثانية ، هذه القنبلة التى كانت سبباً مباشراً لإنهاء الحرب مع اليابان بعد إلقاء اثنتين منهما على المدينتين اليابانيتين فى هروشيما وناجازاكى .

(٢)

وقد كشفت الوثائق التى ظهرت فى السنوات الأخيرة آثاراً أبعد غوراً من حيث عمل الشيوعية لتحقيق أهداف الصهيونية فى تدمير العالم والسيطرة عليه . ويشير الدكتور محمد عزت نصر الله فى كتابه الثورة الاشتراكية ، إلى أن الشيوعية التى هاجمت جميع الأديان «وخاصة الإسلام» قد غضت الطرف عن اليهودية وسمحت لها بأن تمارس نشاطها الدينى فى الاتحاد السوفيتى وقال فى تبرير ذلك لينين فى تصريح له فى ٨ أكتوبر عام ١٩١٧ : « إن حجر الزاوية فى رأى كارل ماركس وانجلترا فى الدين هو قولهما المأثور (إن الدين أفيون الشعوب) لقد كان رأى الماركسية على الدوام فى الدين والمعاهد والكنائس والمساجد وكل نوع من أنواع المؤسسات الدينية أنها صدى للرجعية والبرجوازية لا هدف للأديان إلا الدفاع عن سياسة الاستغلال والتحذير وتشريع تصرفات الملوك التى يتخذها الرأسماليون نحو الطبقات الكادحة ، أما الخرافات اليهودية وإن كانت لا تختلف عن باقى الأديان ولكن بقاءها لليهود البؤساء أمر ضرورى للمحافظة على يهوديتهم حتى ينالوا حقهم ، ذلك لأن اليهود إذا نبذوا دينهم حينئذ يتيهون فى الأقوام المجاورة لهم وبمرور الزمن يفقدون إسرائيليتهم ، ولمحافظة إسرائيل كمجموعة كاملة ومتحدة ، فالدين أمر ضرورى لحياة الشعب اليهودى المختار ريثما ينالوا حقوقهم . ويقول الدكتور محمد عزت نصر الله : إن هذا التجاوز الشيوعى الدين اليهودى واستثنائه من مخطط محاربة الأديان يبرهن على أن الشيوعيه إنما تعمل لتحقيق الهدف الصهيونى فى السيطرة على العالم إبتداء من فلسطين العربية المسلمة ، فإذا كانت الحرية الدينية محرمة على المسلمين والمسيحيين ومباحة لليهود ، فإن الأجيال المسلمة والمسيحية القادمة ستصبح بلا دين ولا تعبد غير المادة وذلك بخلاف الأجيال اليهودية التى تستطيع عندئذ أن تسيطر على الشعوب التائهة التى كانت مسلمة أو مسيحية فيما مضى .

وهكذا يعترف لينين باليهود كشعب مختار ، ويكشف عن هذه الصلة العضوية بين الماركسية والصهيونية ولعل هذا هو الذى دفع الحكومة السوفيتية فى بداية حكم لينين عام ١٩١٧ إلى إصدار جملة قرارات كان أهمها إعلان التأييد الكامل لحق اليهود فى وطن قومى لهم فى فلسطين ، يقول دكتور نصر الله ، وإذا سألنا ما هى حقوق اليهود فالجواب — ماركسيا وصهيونياً — تنفيذ مرامى وأهداف الأيدلوجية اليهودية القائمة على فكرة « الشعب المختار » والدائمة بالتالى لاعتبار : أولا : أن الأرض وما فيها ميراث لبنى إسرائيل ، تلزمهم مشيئة الرب بأن يستولوا عليها . ثانياً : أن كل

شريعة غير شريعة بنى إسرائيل فهى فاسدة . ثالثاً : أن كل سلطة على وجه الأرض غير سلطتهم هى مغتصبة . رابعاً أن كل شعب حر ، غير شعبهم ، قابض على ذروة من السلطة غاضب . خامسا : أن الرب حرم عليهم الشفقة والرحمة . وهكذا أصبح حل المشكلة اليهوية يستلزم أن يسيطر اليهود على جميع الناس ويرى كاى مردخاى (كارل ماركس) كما يحب أن يسمى نفسه: أن المشكلة اليهودية لا تنحل نهائيا إلا بالتحويل الاشتراكى للعالم بأسره ، وإذابة الأديان والقوميات فى بوتقة الماركسية أو الاشتراكية العلمية أو التقدمية الثورية ، (سمها ما شئت) ذلك أن المشكلة اليهودية قائمة تحت ضغط الاعتقاد القائل بأن اليهود هم « شعب الله المختار » وبما أن التقدمية الثورية فكر وحركة وهدف يعمل لاخضاع المجتمع البشرى كله إلى (قيادة طليعية) اشتراكية ماركسية واحدة ترتبط بها كل الحركات الماركسية فى العالم ، يرى اليهود أنهم أصلح البشر بصفة كونهم شعب الله المختار لاحتلال مركز القيادة الطليعية التى هى الاسم العصرى لعقيدة الشعب المختار اليهودية . ولقد استطاع المكر اليهودى أن يؤسس الحركة الماركسية لتتم السيطرة اليهودية على العالم بالتحويل الاشتراكى وأن يؤسس الحركة الصهيونية لتتولى عملية مخادعة العالم (وخاصة الولايات المتحدة وأوربا الغربية) بأن هذه الحركة لا صلة لها بالشيوعية العالمية وأنها تعمل لصالح الاستعمار الغربى وخدمة استراتيجية الدولية العامة وبذلك تتمكن من إحراز عطفه ومساعدته على إقامة الوطن القومى اليهودى ، ثم الالتفاف — بعد تحقيق ذلك ، للانقضاض على الغرب وتحقيق السيادة اليهودية العالمية بالسيطرة — ماركسيا وصهيونيا على العالم كله، وهكذا يتحقق التصور اليهودى للعقيدة اليهودية ، وما هذا الخلاف الظاهر بين الاتحاد السوفيتى — قاعدة العمل الماركسى — والصهيونية سوى « التكتيك المرحلى » الذى تتطلبه خطة السيطرة اليهودية فى الوقت الراهن . وطبيعى أن السيطرة اليهودية لا يمكن أن تتم إلا بعد تهديم العالم الاسلامى وإضعاف الشعوب الإسلامية .

(٣)

تجمعت فى السنوات الأخيرة دلائل كثيرة تكشف تعانق الماركسية والصهيونية : يقول الدكتور أحمد عوف: إن لينين كان من مخططى الصهيونية ومن واضعى بروتوكولات حكماء صهيون وأنه حضر مؤتمر الحكماء عام ١٨٩٧ فى سويسرا وأن الثورة الدولية ليست من طبقة البروليتاريا بل من طبقة اليهود وأن أول رئيس فى دولة روسيا هو الزعيم اليهودى : كليمنيف وتلاه الارهابى اليهودى سفرولوف وتبعهما زينوفيف

وقال : إن الذين يحكمون روسيا الآن ليسوا الروس ولكن حفنة من اليهود الارهابيين العالميين وما زال الشعب الروسى يعيش فى فقر وحرمان يقتنى قادة الكرملين السيارات الأمريكية الفارهة ويعيشون عيشة القياصرة . ويقول هاريمان لوهر اليهودى فى كتابه الصهيونية ودورها فى السياسات العالمية : أنه منذ ظهور الحركة الصهيونية فقد ظهرت داخلها اتجاهات كثيرة تحاول توحيد فكرة الصهيونية والاشتراكية وفى عام ١٩٠٠ ظهرت هذه الاتجاهات مع أول جماعة صهيونية أنشئت فى روسيا وهى (عمال صهيون) فنى داخلها ظهرت عدة تيارات اشتراكية متنوعة مختلفة ، وقد ظهر أول وأهم هذه التيارات على يد (سيركين) وبورشوف ولقد حاول هذا الأخير الجمع بين الماركسية والصهيونية ». والمعروف أن التخطيط الاستعمارى الصهيونى قد ختم تقسيم ميادين العمل وفرض على الشيوعية أن تعلن فى فترات متفاوتة خلافها مع الصهيونية وقد عملت الشيوعية على كسب خصوم الصهيونية بإعلان عدة تصريحات نسب بعضها إلى لينين وإلى غيره من بعده تصف الصهيونية بأنها حركة رجعية عدوانية عنصرية وذلك فى سبيل « حجب » الرابطة العضوية بينهما ولتطمئن أولياء الأنظمة الرأسمالية الغربية الذى تسير الصهيونية فى خطاهم .

(٤)

ومن خداع الصهيونية تلك التفرقة الوهمية بين اليهودية والصهيونية يقول : الكاتب اليهودى (دافيد بن أهارون) فى كتابه الصراع بين اليهودية والصهيونية : إن وجود إسرائيل هو تحقيق أمل قديم وأن هذا الشعور أو الأمل ينبعث من الدين اليهودى نفسه ، وبرغم ذلك فإن هناك قلة من اليهود يؤمنون بأن وجود الدولة اليهودية أمر يناقض التقاليد اليهودية ويجب نكرانه وعدم الاعتداد به ، إن معظم اليهود يلتصقون بالمبادىء الصهيونية بنفس الطريقة التى عبد بها يهود التوراة العجل الذهبى أيام النبى موسى عندما خرج بهم من مصر إلى صحراء سيناء . إن الأقلية من اليهود الذين يعيشون فى معظم أرجاء مدينة القدس يطلقون على أنفسهم « حراس المدينة » ويؤمنون بعمق فى كتابات الحاخامات التى كتبت عبر القرون . إن حراس المدينة الذين يحيطون بالقدس إحاطة السوار بالمعصم من الصهاينة المتعصبين لا حق لهم فى امتلاك مدينة بها مقدسات أديان أخرى من حق أصحابها أن يحجوا إليها كلما أرادوا ذلك . ولقد خلق اليهود لأنفسهم مشكلة فوق مشاكلهم التى عانوا منها خلال الألفى سنة بتأسيسهم دولة إسرائيل التى لم ترفرف عليها رايات السلام ما دام يديرها جماعة من الزعماء الذين احترفوا السياسة وأحلوها محل الدين الذى تلاشت تعاليمه بمضى السنين وأصبح من مبادئهم الاغتصاب والتهور والإخلال بالنظم العامة وعبادة القوة وحب السيطرة والظهور .

(٥)

وقد كان بين الصهيونية والدولة الروسية صلات قديمة وعميقة وبعيدة الأثر في التاريخ منذ قضى الروس على دولتهم المسماة دولة (الخزر) وبيتوا الانتقام لهم وذلك بالأعداد لخطين متكاملين هما : الشيوعية الماركسية والصهيونية وتشير الوثائق إلى أن المؤتمر الصهيوني في بال عام ١٩٠٢ أصدر واحدة من أخطر البروتوكولات هي : « إن آخر حصن للعالم وآخر ملجأ من العاصفة هي روسيا فإيمانها مازال جيا (بالمسيحية) وأمبراطورها مايزال قائماً كحاميها المؤكد » . يقول الأستاذ على منير مراد : وكان الهدف هو التخلص من هذا الأمبراطور وتدمير ذلك الحصن تأكيداً لما قرره المحفل الماسوني الأمريكي في نهاية القرن التاسع عشر وهو الذي يدير الماسونية الكونية وكل أعضائه من كبار اليهود ، فقد تقرر انفاق مليار دولار في سبيل قيام ثورة في روسيا تطيح بالأمبراطور وتهيء الدولة للشيوعية غير عابئين من تضحية أعداد ضخمة من يهود روسيا ، فالشيوعية هي جناح أيدلوجي للصهيونية العالمية ، وإن الثورة الشيوعية في حقيقتها هي ثورة اليهود ضد القيصرية وهما مظهران للفكر اليهودي الذي يجهر بالعداء السافر للشعوب ، وما أن نجح المخطط الصهيوني بقيام الثورة الشيوعية حتى كان اليهود هم القائمون بالاغتيالات السياسية .

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى التي قدم فيها زعماء اليهود المساعدات المالية الضخمة إلى الحلفاء في سبيل انتصارهم على ألمانيا وصدر وعد بلفور المشئوم بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين رداً للجميل كانت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي قد استولت على فلسطين وبدأت هجرة اليهود إلى فلسطين وساعدتهم الإدارة البريطانية على شراء الأرض للتوسع في إقامة المستوطنات اليهودية والمستعمرات وكانت الشيوعية التي استقرت في روسيا والتي تزعمها اليهود تعمل على مساعدة اليهود الروس للهجرة إلى فلسطين ، لذلك لم يكن غريباً أن يدفع يهود أمريكا روزفلت لمديد المعونة إلى روسيا الشيوعية للقضاء على هتلر غير الشيوعي في الحرب العالمية الثانية لأنه عدو اليهود الأول وما أن تخلت بريطانيا عن إدارتها في فلسطين عام ١٩٤٨ حتى أعلن قيام دولة إسرائيل وكان الاتحاد السوفيتي هو ثاني دولة تسارع إلى الإعتراف بإسرائيل بعد الولايات المتحدة كما كانت الأسلحة التي أرسلت إليها من تشكوسلوفاكيا والدول الشيوعية في أوربا لها أكبر الأثر صمود القوات الإسرائيلية في وجه الدول العربية التي كانت تسعى لشراء الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية بعد أن امتنعت دول الغرب عن بيع السلاح لها .

(٢)

التقاء الشيوعية والغرب تحت ظل الصهيونية

يقول كودنين كوهين : أن اسم تروتسكي ورتشيلد يمثلان تموجات العقلية اليهودية : تروتسكي علم الشيوعية ورروتشلد علم الغرب الرأسمالي . وتكشف التحولات الأخيرة عن تلاقي الشيوعية والرأسمالية تحت ظل الصهيونية ولخدمتها ، بل أن هناك تقاربا واضحاً اليوم بين المذهبين : الديمقراطي الليبرالي الغربي والماركسي الشيوعي ، وقد بدأت تقوم القناطر بينهما في كتابات سارتر وماركوز وغيرهما وذلك مقدمة لإنصهار الأول منهما في الثاني ، وقد جرت محاولات عديدة لربط الفرويدية الغربية بالماركسية قام بها (سارتر نفسه قبل ماركوز) وهناك محاولات متعددة لهذا القاء ، لعل أخطرها هو أن الفلسفة المادية هي الجذر الأصيل الآن لكلا الفكرين الماركسي والليبرالي وأن التفسير المادي للتاريخ الذي قال به ماركس هو أساس من أسس الفكر الغربي الليبرالي . وأن هذا التحول إنما يجري لتحقيق الرؤيا المستقبلة التي تعد بروتوكولات صهيون العالم لها عن كل طريق :

(١) عن طريق الأدب والقصة والشعر الجديد . (٢) عن طريق المدرسة الاجتماعية ونظريات النفس والأخلاق . (٣) عن طريق التكامل بين الماركسية من ناحية والفرويدية والوجودية من ناحية أخرى : ونحن نرى الصورة تتحرك في أفق الفكر الإسلامي العربي اليوم بعد أن اتسع نطاق الدعوات الماركسية والوجودية والفرويدية بها وكذلك مذهب المدرسة الاجتماعية دوركايم وكل دعاة هذه المذاهب من اليهود الصهيونيين ولهم علاقات واضحة وعميقة بالحركة التي قام بها هرتزل ، بل أن المخططات التي تقوم بها الرأسمالية الغربية في محاصرة بعض الأقطار الشرقية واضطهادها بعنف إنما تهدف إلى أن تلقى هذه الدول بنفسها في أحضان الشيوعية ولو كانت الرأسمالية الغربية تريد أن تحررها من الظروف لاجتماعية أو الاقتصاديه التي تمر بها لأنفقت هذه الاموال لاعلى حربها بل على سلمها ، وتجربة أندونيسيا وفيتنام والشرق الأوسط وغيرها يمكن أن تدرس في هذا المجال . كذلك فإن المسيحية الآن تستخدم لخدمة أهداف الصهيونية التلموديه وأن القرارات التي أصدرتها المجامع المسيحية سواء الكاثوليكية والبروتستانية إنما هي خطوات على نفس الطريق وأن كل حركات التبشير المسيحي الآن في العالم الاسلامي محتواه بالتوراة والوعد المقدس وهو مايعتنقه البروتستانية وتقوم به ، بل أن الجامعات والإرساليات الغربية الموجودة في العالم الاسلامي (وفي عواصم بعض البلاد العربية) وخاصة التابع منها للبروتستانيية فإنها تعمل في خدمه الصهيونية ومن أجل الدفاع عنها

والمعروف أن اليهود قد وضعوا آراء التلمود فى نظريات ومناهج ومذاهب عالمية ، فى إطار العلمانية والمادية ، وذلك لخداع العالم كله عن هوية هذه المذاهب ولفرضها على الجامعات والصحافة والنظم الاجتماعية .

(٣٨)

عالم الغرب اليوم إزاء الإسلام

(١)

تمزق الفكر الغربى

إن القوى الطامعة فى السيطرة على العالم اليوم تقف فى وجه الإسلام من ناحيتين : تقف فى وجهه من ناحية نمائه واتساعه وانتشاره وتمكنه من الحصول على ثرواته وقوته واستمادة مكانه الطبيعى فوق سطح الأرض فتحاول ماتستطيع تعويق هذه النهضة ووضع الحواجز والمعوقات فى طريقها وتبديد هذه الثروة بتوجيهها وجهة الاستهلاك والترف والفساد . والحيلولة دون انطلاقة التفوق البشرى والنمو السكانى بإذاعة دعوات الإنفجار السكانى والتهديد بأن النمو البشرى سوف لا يجد مادة العيش ، وانتشار دعايات تحديد النسل والإصرار عليها محافظة الأثرياء أصحاب الملايين على ثرواتهم ، ومكانتهم، وحتى تظل الأمة الإسلامية فقيرة عاجزة عن السيطرة على مقدراتها الطبيعية التى تستجيش بها أرضها وبلادها، ونهب هذه الثروات وترك الفتات لأهلها . كذلك فإن هذه القوى الطامعة فى السيطرة تسد الطريق على الإسلام حتى لا يزحف سواء إلى أقطار آسيا وأفريقيا حيث الحشد البشرى الضخم الواسع المتعطش إلى الدين الحق وإلى أوربا والأمريكيتين اللتين تتطلعان إلى منهج حياة وأيدلوجية جديدة ترضى النفس الإنسانية وتحقيق الأمن النفسى بعد أن عجزت هذه المناهج والأيدلوجيات عن أن تحقق لها شيئاً . وليس سوى الإسلام قادر على هذا العمل وهو بالغه بقوة (الله) الحق الذى يمثله ارتباطاً بالفطرة والعلم ونواميس الكون والحياة والمجتمعات وبالغه بإرادة الله الذى سيرى البشر آياته حتى يعلمون أن دينه هو الحق. والغرب يعلم تماماً أن منهج التجريب الاسلامى هو الذى صاغ الحضارة الغربية ومع ذلك فقد عاش الغرب قروناً متطاولة يتنكر لهذه الحقيقة ولا يجد أهله القدرة على الاعتراف بها واليوم وهو يرى الحياة الاجتماعية الغربية وقد فسدت واضطربت وأن

المناهج والأيدلوجيات التى وضعها خلال أربعة قرون لم تحقق شيئاً ، يعلم أن الاسلام يستطيع أن يعطيه إن شاء الأمن النفسى والمجتمع الأمثل ولكن ما زالت الحوائل تحول بينه وبين إقرار هذا الرأى والاقتناع به وإنا لنجد عشرات من الباحثين قد أشاروا إلى حيرة الغرب وتمزقه ، ومنهم من أشار إلى الاسلام هو الأمل المرتجى ولكن القوى الطامعة فى السيطرة ما تزال ترى فى الاسلام منافساً خطيراً لها ولذلك فهى تضربه فى فكره وتثير عليه حرباً قاسية عن طريق الاستشراق حتى لا يصل إلى أهل الغرب على نحو صحيح ، وتقسو على أهله فى بلادها ، والمهاجرين إليها من بلاد الاسلام، حتى لا يشكلوا صورة تأخذ بألباب أهل الغرب الذين يتطلعون الآن إلى منقذ .

وما تزال اليهودية الصهيونية التلمودية تحتوى الفكر الغربى المسيحى والفكر الثقافى جميعاً وتسيطر على الإنسانيات المتمثلة فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع ، فإذا كان علماء الغرب المسيحيون قد قاموا على هذه المعطيات العلمية التجريبية فى مجال الطبيعة والكيمياء والفلك وغيرها ، فإن التلموديون اليهود الذين لم يشتركوا فى هذا الإنجاز إلا بقدر ضئيل ، هم اليوم يحاولون عن طريق العلوم الإنسانية والسموم التى يقدمونها من خلالها أن يسيطروا على الفكر البشرى كله وأن يحتووه لإفساد المجتمع الغربى إفساداً يحول بينه وبين القدرة على تاتى أى عطاء جديد . إن الغرب (باستعلائه العنصرى على المسلمين العرب وبتعصبه على الإسلام وبسيطرة اليهودية التلمودية) يعمل على محاصرة الإسلام والعالم الإسلامى بأكثر من قوة من قوى التغريب والغزو ممن يسيطرون على مراكز القوة فى العالم وفى قلب الاسلام ومن ذلك نجد أن الحركة إلى اليقظة ومنها إلى النهضة تسير فى بطء شديد حتى لتكاد تتحسس طريقها وإنها كلما انطلقت إلى هدف جرت المحاولة لتحطيمه أو إجهاضه قبل أن يحقق غايته .

ولقد كان من أكبر ما حمل لواءه الغزو التلمودى الصهيونى إثارة مشاعر الغرب على الاسلام بالقول بأنه الدين الوحيد الخطر على العالم الغربى فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية . إذ إنها جميعها ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها وهى فى نفس الوقت أقل من المسيحية رقيا أما الاسلام فهو كما يسمونه — دين متحرك زاحف وهو يمتد بنفسه بلا أية قوة مساعدة وهذا وجه الخطر فيه . ولقد حرص الغرب بقواه الثلاثة (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) على مواجهة حركة اليقظة منذ يومها الأول ، حتى لا تقوى على حمل لواء الإسلام ولكن هذه الموجة استطاعت أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ومن بين ضرباته وأن يحقق تقدما فى مجالين : مجال

الحرية الوطنية والوحدة وفى مجال انتشار الاسلام وتصحيح مفاهيمه . وإذا كان الغرب قد أعلن بأنه لا يقبل مزاحمة الاسلام له فى أوربا وقاومه من الجهتين على هذا النحو من العنف . فإن الغرب كان حريصاً إلى التسلل إلى عالم الاسلام تحت إسم السيطرة والتسلط ، يبدو هذا واضحاً فى قصص أولئك الذين عمدوا منذ وقت بعيد إلى التسلل إلى العالم الإسلامى فمنهم من تسلل إلى الحرم المكى ومنهم من تسلل إلى الأزهر ، ومنهم من عمل فى مجال الآثار ، كل هذا ليضعوا هذا العالم الاسلامى تحت نظرهم وتقديرهم ويقيموا وسائل غزوهم على أسس ثابتة ومعلومات يأخذونها من أهل الأوطان بغير حق ، أو أن ينقلوا هذا التراث من المساجد القديمة والزوايا ليسيطروا به على الفكر الاسلامى فينشروا منه ما يشاءون ويحجبوا مايريدون ، ولقد روت الصحف قصص كثيرين من هؤلاء منهم برخارت الذى وصف بأنه أولى أوربى مسيحى يدخل إلى الحرم المكى آمنا مطمئنا ويشارك المسلمين حجهم وصيامهم وصلاتهم وقيامهم ثم يخرج من مكة ليكتب أول وصف من شاهد عيان الأماكن الاسلامية ينشر فى العالم الأوربى عام ١٨٢٩ تحت عنوان « رحلات فى بلاد العرب تصف الأماكن الحجازية التى يعتبروها المحمديون مقدسة » وواضح من طريقة العرض كما يقول الأستاذ محمد جابر الانصارى الذى نقلنا عنه : إن برخارت لم يكن مسلماً صادقا على الاطلاق وأنه كان يتظاهر بالاسلام طوال الوقت تحقيقا لغرضه الذى جاء من أجله وإن سوء ظن الوالى التركى به كان فى محله، برخارت أول من مهد الطريق لذلك الرعيل الطويل من المستشرقين والمستشارين الذى أدعوا حب الاسلام كستار يخفى أغراضهم :

وبعد أن أنهى برخارت زيارته للأماكن المقدسة توجه إلى مصر حيث أعطى رجال القنصلية البريطانية ما أرادوه من معلومات وأخذ منهم ما أرادوه من مال بناء على تعليمات لندن للتخطيط لا كتشافه الثانى وإذا كانت رحلته الأولى قد تمت فى إطار الاهتمام البريطانى ببلاد العرب وأماكنها بعيدة عن بذور الاهتمامات اليهودية الصهيونية الأولى بفلسطين وبأرض التوراة والنفى والميعاد ، فقد قرر برخارت اكتشاف الطريق الصحراوى الذى سار فيه موسى وقومه من بنى إسرائيل عندما خرجوا من أرض مصر وذهبوا — عبر صحراء سيناء — إلى فلسطين بحثا عن أرض الميعاد ! وقد أنهى برخارت هذه المهمة فى حزيران عام ١٨١٦ ويتساءل الباحث هل كان يخطط بلا وعى للطريق المعاكس الذى سوف يتبعه الاسرائيليون من أرض الميعاد إلى مصر فى حزيران عام ١٩٦٧ . وفى عام ١٨١٧ شرع برخارت فى الإعداد لرحلته الثالثة فى جنوب الصحراء الكبرى لاكتشاف منابع نهر النيجر . وهكذا نجد جولد زيهر المستشرق اليهودى من بعد يقدم القاهرة ويجاور فى الأزهر

ويكتب أسوأ ما كتب مستشرق عن الاسلام ونجد لورنس يقدم فى تقيه البحث عن طريق موسى ثم يكون بعد ذلك حامل لواء المعركة الفاصلة بين العرب والترك حيث حرض المسلمين العرب على الاقتتال لحساب الصهيونية العالمية .

يقول محمد جابر الأنصارى : ليس مهما ما قاله برخارت وما فعله بل المهم أن نرى كيف كان الغرب يدرس أمورنا عن كثب ، ويصل إلى قدس أقداسنا رغبة فى معرفة مواطن القوة والضعف ورغبة فى إدراك الحقيقة ، لا حبا فى الحقيقة . ولـكن من أجل استخدامها لمصالحه ، بـل أنه لم يبدأ زحفه السياسى إلا بعد أن درس ونقب وأكتشف وقيم . هكذا نجد أن الغرب لا يكف عن العمل ، ولا يكف عن عرقلة كل أسباب التقدم على جبهة الاسلام ، وعلامات هـذه المؤامرة قائمة فى كل الخطوات ، فالغربيون الذين هزموا فى الحروب الصليبية ينتظرون ثمانية قرون ليجىء من يقول : هانحن قد عدنا ياصلاح الدين أو يقول الآخر : الآن انتهت الحروب الصليبية : ولا يعني هذا فى الحقيقة إلا أن يقول : هذه هى الحرب الصليبية التاسعة التى انتصرت بعد هزيمة لويس التاسع .

(٢)

وفى مواجهة كل توسع إسلامى نجد المحاولات المريرة من أجل القضاء على كل ما يحصل الاسلام عليه من تقدم نجد تلك الخطط الماكرة التى تقوم بها حركة التبشير فى عالم الاسلام وفى أفريقيا وجنوب شرق آسيا بالذات حيث ينمو الاسلام هناك نمواً كبيراً وتحاول الـكنيسة الـكاثوليـكية فى أفريقيا محاولات واسعة فى سبيل توقيف نمو الاسلام يقول لورنس اليـكو فى بحث له : فى عام ١٩٥٥ ذكرت صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون أن السلطات التبشيرية فى روما كانت تأمل فى تحويل شعب أفريقيا السوداء إلى المسيحية فى مدى خمسة عشر عاما ، أما صحيفة لاكرو وهى صحيفة كاثوليـكية فرنسية فقد خفضت هذه الفترة إلا أن الأحداث فى عالم المستعمرات بما فى ذلك أفريقيا فقد تطورت بأسرع ممـا كان متوقعا ويذكر الباحث أنه فى القرن الأول من العصر الاسلامى (السابع الميلادى) أخرج الإسلام المسيحية من شمال أفريقيا كلها بسرعة مذهلة ، ولعله يرى أن على المسيحية أن تستعيد الآن هذه الأرض . ولـكن الباحث يؤكـد أن هذا العمل لن يتحقق لأن الأرساليات تعمل تحت لواء الاحتلال وأن الاسلام يعمل تحت لواء التحرر وأن النضال ضد الاستعمار يشن دائما من تحت راية الاسلام ، وأن القساوسة والأساقفة دائما يصاحبون القوات الأجنبية الغازية حتى أن الـكاثوليـكية فى أفريقيا ينظر إليها على أنها دين المستعمر ، ويقول بيرجيرو فى كتابه ثورة الشعوب الملونة عام

١٩٥٦ : أن هناك اتجاها عاما للنظر إلى المسيحية كآخر بقايا الاستعمار وأن المبشرين يشاركون البيض الآخرين مصيرهم وقد أشار أرتهاردت أنه فى عام ١٩٥٤ وجد فى جنوب أفريقيا ١٢٨٦ كنيسة ينتمى إليها ٧٦١ ألف شخص وقال أحد الفلاحين الأوربيين المستوطنين لأهالى البلاد : ذات يوم كانت الأرض من نصيبنا وكان الأنجيل من نصيبكم أما اليوم فقد انعكست الآية . ويقول : لقد تشكلت السياسة الإستعمارية الكاثوليكية فى القرن الخامس عشر كجزء لا يتجزء من سياسة الغزو التى كانت تتبعها أسبانيا والبرتغال . وان أفريقيا قارة مستعمرة وفى مدى ثلاثة قرون قام مجتمع الدعوة للعقيدة وهو جهاز الإرساليات ، التابع للفاتيكان بتغطية القارة بشبكة من الارساليات ، هذا المجتمع الذى يعمل لحسابه ٣٠٠ ألف شخص يتلقى الاعانات من الدول الأوربية ويملك إقطاعات شاسعة . وفى كثير من المستعمرات نجد أن الكنيسة هى أحد ملاك الأرض الكبار ويقدر ما يصل إليها به ١٤ مليون دولار سنوياً برغم أنه لا يوجد فى أفريقيا ما يزيد على ٢٠ مليون كاثوليكى . ويقول لويس جيليه عضو المجتمع العلمى الفرنسى: لقد أعلنت الكنيسة العداء على الاسلام وأهله ومضت فى ذلك زمانا طويلا ، وكان رهبانها والقائمون بالأمر فيها يعلمون العلم كله بقيمة الإسلام والحضارة الإسلامية والعلم العربى وكأنهم كانوا يعدون إنكار ذلك لونا من التقوى والتدين . فمن ألوان هذه الأفكار حملة رهبان الدومنيكان على ابن سينا وابن رشد وتصويرهما فى هيئة تعبر عن انتصار القديس توما الأكوينى عليهما ، والمراد بذلك القول بانتصار المسيحية على الاسلام وموقف الكنيسة فى هذا يفيض بنكران الجميل والجرأة على الحق . ويقول لوريشو إليكو : إن الحرب العالمية الأولى كانت السياسة الاستعمارية تعنى بالنسبة للفاتيكان غزو المستعمرات وزرع المسيحية كأن الاحتلال الأوربى يعتبر شيئا خالداً وكان تحويل السكان المحليين إلى المسيحية وهو أمر لم يجعله صعباً إلا منافسة الإسلام — ينظر إليه على مسألة زمن .

ونجد فى الجزء الثالث من كتاب رأس المال الذى كتبه ماركس وصف الأسلوب المستهتر الذى اتخذته الكنيسة الكاثوليكية فى تجنيد الرجال الذين يعملون لحسابها ، وأشار الباحث إلى النظرة الماركسية المادية التى احتضنتها الكنيسة عن طريق (باتريس لومومبا ، وكوامى نكروما) وهم أول من أطلق الشعار العلمانى : علينا أولا أن نجد الملكوت على الأرض . ويشير بيير روندو فى كتابه « مصير النصارى فى الشرق » إلى أزمانهم حماية الاقليات وطد الغربيون أقدامهم فى عالم الاسلام ، وأن الاسلام لم يضطهد أهل الكتاب وأنه أدل على تسامح المسلمين من السماح لهم بالاحتفاظ بها كلهم ومعابدهم فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى فى الوقت الذى أقرت فى الكنيسة فى غرب

أوربا بتحطيم كل وجود للمسلمين فى أوربا . ويقول موريس كرزويه : فى موسوعته : تاريخ الحضارات العام : ظهر الاسلام للمسيحى والزنجى والآسيوى بسمو تعاليمه ولاسيما بنظرته إلى الله بعيداً عن الحلولية والوثنية والاشراك وأن نظرية التعدد قد وقفت دوما حجر عثرة لدى العقول وحالت دون اعتناق الناس لها أو دون استمرار من أحد القول بها . وعلى العكس من ذلك جاءت عقيدة الاسلام تنطلق عقوبة على مفهوم وحدانية الله فالله هو الكائن الحى الأبدى الأزلى السرمدى ، هـذا الشعور بوحدانية الله تغلل فى تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن .

وبينما نجد عشرات من المفكرين المستنيرين يفهمون الاسلام الان فى أوربا وبالرغم من تلك الأراء العاصفة التى تواجه التفسيرات الغربية للدين نجد القوى المصادمة للحق تجدد من حملتها للاسلام ولا تتوقف عن إثارة الشبهات حوله . ومع ذلك فاننا نجد مثلا (أوناموليو) فى بحثه عن المسيحية يحاول أن يكشف وجهة نظر العقل المستنير فى ضوء العلم لبعض التفسيرات التى وضعها الرهبان والأحبار والتى لم تكن أساساً من الدين المنزل على سيدنا عيسى ومع ذلك فهناك قضايا كثيرة فى حاجة إلى بحث ومنها قضية « الخطيئة الأولى » وهناك مسألة الصراع بين الكنيسة الغربية والقوى الشيوعية النامية المسيطرة على أجزاء كثيرة من أوربا ، ومن وجهة نظر الاسلام فإن السيد المسيح هو رسول الله وكليمه وخاتم رسله إلى بنى إسرائيل جاء مكملا لرسالات أنبياء بنى إسرائيل : توراة موسى ، وزابور داود ، وانجيل عيسى ، كلها متصلة ببعضها وأن المسيح عيسى بن مريم لم يصلب ولم يقتل ولكن رفعه الله إليه ، وإن خطيئة آدم ليست خطيئة لأحد سواه ، وقد تاب الله عليه منها ، وعفا عنه ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ، والمسلمون يؤمنون بوحدة الدين من نوح إلى محمد ووحدة الرسالة « قولوا آمنا بالله وما أنزلنا إلينا » وإن سيدنا عيسى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعده أسمه أحمد .

والمسلمون يؤمنون بكل أنبياء الله وبكل كتبه المنزلة . ولا يقر الاسلام فكرة (الأبوة) ويفصل بين الألوهية والنبوة وبين النبوة والبشرية وقد أشار أرنولد توينبي (ج ٣ مختصر دراسة لتاريخ ص ١٦٧) إلى تحول المسيحية إلى فكرة الإله الغيور وتساءل لماذا قبلت المسيحية الغربية هذه الفكرة اليهودية الأصل ولقد استطاعت الصهيونية فى العصر الحديث احتواء الفكر الغربى المسيحى وكان أخطر ما استطاعته فى ذلك هو الايمان بفكرة محرفة هى : وعد الله لليهود وهو فى الحقيقة وعد الله لإبراهيم عليه السلام ولأبنائه من بعده (اسماعيل واسحق) وأنه ليس قاصراً

على أبناء اسرائيل وحدهم كما كتب ذلك اليهود فى توراتهم التى حرفوها أبان سبي بابل . ومن ذلك مايذكره توينبى : من أن إله اليهود : هو (يهوه) من سماته الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح ويعنى توينبى أن الغربيين تحت ظل تفسيراتهم الخاطئة للمسيحية قد واءموا بين فكرتين متناقضتين : الأولى فكرة البطش وعدم التسامح اليهوديتان ، والثانية فكرة المحبة والتسامح التى يقوم عليها دعائم المسيحية الإصلية وأن الوجه الذى عرفه الناس عنها فى ظل الاستعمار والتبشير الذى انطلق خلال هذه السنوات المائة الأخيرة وعن طريق الربا والمصارف هو الوجه الاول الدخيل الذى احتوت به الصهيونية العالمية أنقى وأصفى ما فى المسيحية من عناصر . وإذا كان الغرب قد بدأ من الفكرة الإسلامية الأصيلة : فكرة التجريب فإنه قد تحول كثيراً إلى المفهوم الاجتماعى والسياسى للتلمود الصهيونية وفرضت عليه فكرة العلمانية . يقول الكونت كاثيانى: من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى إلى المسيحية إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التى يعتنقها الأروام والروس والتى لم يقم أى دليل على نهضتها — أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدينة العرب والعجم ، فماذا يكون مصير غربى آسيا وأوربا فى القرون الوسطى المظلمة أو لم تحل النهضة البروتستانتية التى ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية فى هوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التى قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة عن الآباء وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد » .

ويقول الكونت كاتيانى أن النضال هو من ناحية واحدة ، أما ناحية المسلمين فكلها سلام ورحمة وتكريم للمسيح وأمه ودينه المنزل واعتراف وتجاوز عن كل خلاف ، أما النضال فهو من الذين لا يريدون للاسلام فى أهله ولا فى أرضه أن يبقى ، أولئك دعاة الاستعمار والصهيونيا والشيوعية . وأن المسلمون لراغبون إلى التلاقى فى مواجهة أخطار المادية والشيوعية والإلحاد ولكنهم يرون أن عوامل التبشير والغزو الثقافى لما تتوقف من الجانب الآخر . وقد أشار العلامة أبو الأعلى المودوى إلى مثل هذه المعانى حين خوطب فى مساعى الالتقاء بين الأديان فقال أن المسلمين مازالوا يتأذون مما يشنه على الإسلام بعض العلماء والكتاب والمبشرين والمستشرقين على سيدنا محمد ﷺ وعلى القرآن والإسلام ، وهى حملات تقوم على افتراءات واتهامات تدمى القلوب وتمس الكرامات .

بينما يراعى المسلمون كل المراعاة جوانب الأدب والتكريم فى شأن مريم وعيسى عليهما السلام ويعتبرون من وجهة العقيدة الإسلامية كل كلمة تنال من كرامتهما أو تنافى مكانتهما كفراً وأنتم لا تجدوا ولا مثالاً واحداً أن مسلماً قد ارتكب ما ينافى الأدب فى شأن سيدنا المسيح وأمه الصديقة عليهما السلام ونحن إن كنا لا نعتقد فى ألوهية المسيح ابن مريم ، إلا أننا نؤمن بنبوته عليه السلام إيماننا بنبوة محمد ﷺ ولا يكون أحد مسلماً حتى يؤمن بالمسيح وغيره من الأنبياء عليهم السلام كما أننا لا نعتبر القرآن فقط كتاباً منزلا من الله تعالى بل نعتبر كذلك التوراة والانجيل مما أنزل الله . ولا يتفكر أحد من المسلمين فى إهانة هذه الكتب المقدسة . وإن المسلمين اليوم وإن كانوا لا يقرون بكون الكتاب المقدس فى صورته الحالية وحيا منزلا من الله بأجمعه بيد أنهم يعتقدون بدون ما ريب أن فيه ما نزل من الله تعالى ولذلك فإن أخواننا المسيحيين لم يجدوا مجالا للشكوى من أننا قد ارتكبنا إهانة أنبيائهم أو كتبهم المقدسة (والخطاب هنا موجه إلى بابا روما) والعكس من ذلك فإننا لا نزال ننال منهم منذ قرون ضروبا من الأذى فيما يشن كتابهم وخطباؤهم من الهجوم العنيف على نبينا الكريم وعلى كتابنا المقدس وعلى ديننا الحنيف ، ذلك لأن هذه الدعاية غير الصحيحة تبذر فى قلوب عامة المسيحيين أنفسهم بذور الكراهية والاحتقار للمسلمين .

كذلك فإن ما تقوم به البعثات المسيحية والمبشرون المسيحيون الغربيون منذ مدة طويلة فى نشر الديانة المسيحية فى العالم الإسلامى هى أيضا مما يأخذه المسلمون على أخوانهم المسيحيين ، ذلك لأن المبشرين المسيحيين لم يقتصروا على التبشير فقط بل جاوزوا هذا الحد واختاروا الوسائل الأخرى التى ليست من وسائل التبشير فى حقيقة الأمر بل هى من وسائل الضغط السياسى والأطماع الاقتصادى والهدم الخلقى والعقائدى والتى لا يقر من فيه مسكة من العقل بكونها وسائل نزيهة للتبليغ عن الدين . أنهم فى معظم الأقطار الأفريقية حرموا المسلمين من التعليم بمعاونة من القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم على وجه كل من لا يعتنق الديانة المسيحية أو لا يختار لنفسه الاسم المسيحى بدلا من اسمه الإسلامى على الأقل . وأن الأقلية المسيحية ذات النفوذ التى خلقت بهذه الطريقة هى التى تسيطر اليوم من النواحى السياسية أو العسكرية والاقتصادية على كثير من الدول الأفريقية التى معظم سكانها المسلمين . وأشار الأستاذ المودودى إلى سبب آخر يحول دون تلاقى الإسلام مع الغرب: فقال إن هناك شعور عام يسود المسلمين نحو العالم المسيحى هو أن العالم المسيحى يكن حقداً شديداً بالنسبة للاسلام والمسلمين والتجارب التى تمر عليها من حين إلى آخر تؤكد هذا الشعور وتعمقه . ومنها ما شوهد أخيراً فى الحرب التى اندلعت بين العرب وإسرائيل فإن الارتياح الذى أعرب عنه معظم البلاد

الأوربية والأمريكية بمناسبة إنتصار إسرائيل على العرب ترك فى قلوب المسلمين وفى سائر الدنيا آثراً أليماً وجرحاً لا يندمل ولا تكاد نجد بلداً من البلاد الإسلامية إلا وتراه يعتبر ما أبداه العالم المسيحى من سرور وارتياح علنا يوم انتصار إسرائيل على العرب ظاهرة الحقد والعداء الذين يضمرها المسيحيون فى قلوبهم للإسلام والمسلمين . بل أن العالم المسيحى هو المسئول عن العدوان السافر الغاشم على فلسطين ، بل هو الذى خلق وطناً جديداً للشعب الأجنبي فى داخل وطن آمن مطمئن وهو الذى ساعد على جعل هذا الوطن المصطنع دولة مستقلة وهو الذى أمد هذه الدولة العدوانية بالعون المالى والسلاح الحربى وجعلها تتمكن من تطبيق خطتها التوسعية وها قد نرى العالم المسيحى يغرق فى غمرة الفرح والابتهاج والاهتزاز لما حقق لهذه الدولة من انتارات » إلخ .

(٣)

وإننا لنجد أن الصهيونية التلمودية التى سيطرت على الفكر الغربى فى أوربا وأمريكا قد استطاعت أن تجند كل المؤسسات الغربية لغايتها فالكنيسة البروتستانية تؤمن بنبوءة إسرائيل الباطلة وترى لها حقا فى العودة إلى فلسطين ، عن طريق ما استطاعت الصهيونية أن تعمل فى سبيل فرض هذه السيطرة على دوائر المعارف ومناهج المدارس . بل إن خطط التبشير المسيحى الغربى فى العالم الإسلامى إنما تجرى فى إطار الاحتواء الصهيونى فهى ليست دعوة للمسيحية وحدها ولكنها فى الحقيقة دعوة لإحياء الفكر التلمودى : بعقائده ونظرياته ومفاهيمه . ويقف كثير من كتاب الغرب فى وجه هذه المحاولة الخطيرة لاحتواء الفكر الغربى المسيحى وخاصة بتطويقه بمفاهيم العلوم الانسانية فى النفس والأخلاق والاجتماع عن طريق المدرسة الفرنسية (دوركايم ، ليفى بريل) وغيرهما . وعن طريق الماركسية والوجودية والفرويدية (سارتر ، فرويد ، ماركس) وكلها نظريات وأيدلوجيات لا تمثل الفكر المسيحى الأصيل وإنما تمثل الفكر الوثنى المادى الذى ارتبطت فيه التلمودية الصهيونية بالفكر الهيلينى اليونانى القديم .

ونجد فى كتابات أونوموتو فى كتابه احتضار للمسيحية أو كتابات كولن ولسون عن اللامنتمى وغيره محاولة لدفع هذا الخطر ومحاولة لإيجاد تيار فكرى مسيحى مختلف ومعارض للغزو التلمودى للفكر الغربى بل أن تلك الدراسة الضخمة التى قام بها (توينبى) إنما كانت دفاعا عن المسيحية الغربية باعتبارها هى التى أنشئت الحضارة الحاضرة ، فى وجه حملة (شبنجلر) وماركس اليهوديين عليها والذين أعلنا سقوطها وهزيمتها . ويقرر أومانو : إن للمسيحية لا علاقة لها بالأنظمة السياسية

والاقتصادية وإن المسيحية عاجزة على أن تحل مشاكل الفقر والغنى أو توزيع الثروات ويعادى أوتومانو جميع الأنظمة البلشفية ويناصر أعداء الثورة الروسية ، ويرى أن البلشفية قد استبدلت ماركس بالمسيح ودستويفسكى ببولس والأخوة كرامازوف بأعمال الرسل ويرفض كل محاولة للتقريب بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية المنطقية ويرفض الاستشهاد فى سبيل المبادىء السياسية لأن ذلك إيمان بالأصنام ويرى أن المسيحية تحتضر عندما تتحول إلى حياة إجتماعية أو حركة سياسية أو مدنية والمسيحية عنده لا يمكن إيصالها للآخرين : فهى شيء فردى محض ، كما يستحيل أن تدخل الدين فى سياسة الحزب أو المعرفة الانسانية فى علم الاجتماع أو علم الآثار ويرى أن الدين أقرب إلى التجربة الصوفية والأسطورة الشعبية ويرى أنه من المستحيل أن تتحول إلى قانون أو تشريع ويركز على أن الدين (أى المسيحية) أساساً يقوم على مصلحة الفرد لا مصلحة الجماعة . ومجتمع المسيحية يتكون من مجموعة من الأفراد المتعزلين . ويقصر أوتامونو الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات ويراه علاقة بين الانسان والله لا بين الانسان والانسان الآخر . وعنده أن الديمقراطية المسيحية خرافة وإن الاشتراكية المسيحية خرافة ، وإن المسيح لم يتحدث عن المملكة الفردية إثباتاً أو نفياً . ويرفض أوتامونو أن يتحول الدين إلى حضارة . وبالجملة فإنه يرى أن المسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا حتى بالسماء ، وبالمثل الأعلى المسيحى عند اتامونو هو الراهب وهو يرى أن الدعوى تفصل الدين عند الدولة فى القرن العشرين فى البلاد المسيحية دعوة تقدمية بعد أن استغل الدين لمصلحة الطبقات المتميزة من أمراء ونبلاء وأشراف .

هذا موجز محاولة « أوناموو » وهى تعارض الفكر الغربى القائم الآن وتعزله عن المسيحية تماما ، وتؤكد فكرة الانشطارية التى أقامتها التفسيرات المسيحية فى الغرب بين الدين والدولة ، وهى ما حاول البعض نقلها إلى أفق المجتمع الاسلامى . ويرى الدكتور الفاروقى فى كتابه الملل المعاصرة : إن اليهود كانوا من وراء هذه الخطة فهى التى حققت لهم الخروج من الجيتو : يقول: علينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية فى التنظيم السياسى والاجتماعى إذ أن إقصاء الدين عن السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية لا على أساس الدين بل على أساس وجودهم فى الوطن . ويقول الدكتور الفاروقى : إن المسيحى الأوربى قد قسم حياته إلى دوائر ، وجعل بينها سدوداً تمنع أى اتصال وتجرى الحياة فى هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحـــدة بما يجري فى الدوائر الأخرى فالعائلة والأخلاق

الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلا فالويل كل الويل إذا سمح الغربى لمبادىء الدين أن تتعدى حدودها للتأثير فى الإقتصاد والواقع ليست العلمانية سوى الإعتراف بأن هناك مبدأ يشمل حياة الإنسان بكاملها كما هو الحال فى النظرة الدينية فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأه الخاص » .

وهكذا نجد أن الفكر الغربى قد تبلبل تحت تأثير الاحتواء الصهيونى فانشطر أشطاراً ، وغلبت عليه المادية ، وسيطرت المذاهب الماركسية والفرويدية والوجودية والمادية والإباحية على درجات وحلقات . وقد جاء ذلك نتيجة صراع طويل المدى بين اليهودية والمسيحية فى أفق الفكر الغربى وكانت للفكر المسيحى محاولات لدفع أخطار اليهودية التلمودية يتمثل فى عشرات من التصريحات وفى مقدمتها ما كتبه مارتن لوثر فى كتابه (كذب اليهود) الذى ألفه قبل عام ١٥٤٦م وهو يمثل مدى اتساع الصراع بين المسيحية واليهودية فى أوربا ، وقد رد هذا الصراع إلى سببين. (أولا) : التناقض الذى لا حل له بين النظرة اليهودية والنظرة المسيحية فى موضوع السيد المسيح فاليهود لم يؤمنوا به وما صدقوا برسالته بينما الإيمان به والتصديق برسالته هو أساس الديانة المسيحية . (ثانياً): من ناحية دنيوية رغم إمكانية ربطها بمعتقدات اليهود الدينية وهى ناحية حساسة . وفى مقدمة القضايا التى كانت موضوع الخلاف : قضية الربا والاستئثار اليهودى بالحياة المالية فى أوربا إذ يظهر أن حب اليهود المال واعتمادهم عليه كعصب أساسى لمسيرتهم الحياتية نحو تحقيق أهدافهم بالتسلط ليس قضية عابرة ولا مبالغ فيها وليست حديثة العهد . وقد كشفت هذه الدراسة عن عشرات الأدلة لمعاناة المواطن العادى فى أوربا من الجشع اليهودى الذى كان مجسداً إذ ذاك فى الربا وحده وما تزل قضية اتهام اليهود بالتحريض على صلب المسيح وتبرئتهم من هذا التحريض موضع دراسات عن طريق المحافل الكنيسية والمؤلفات والكتب لم تتوقف منذ ذلك الوقت البعيد . ولقد استغلت التلمودية اليهودية الصهيونية فى أوربا : نيتشه ورينان وعشرات غيره فى الهجوم على المسيحية وعلى السيد المسيح ، وحاول الفكر المسيحى رد هذا الهجوم بتفسير نيتشه مثلا تفسيراً مسيحياً فى المحاولة التى قام بها المسيحى (باسبرز) حين حاول أن يجعل من كتابات نيتشه تفسيراً مسيحياً واعياً ، وأن هدف نيتشه كان هو إنقاذ المسيحية من ألد أعدائها . ولست أدرى كيف يمكن تبرير إعلان نيتشة كان مريضاً مرضاً عضويا فى المخ أدى به إلى الشلل ، وإلى الجنون .

ويحاول توينبي فى كتابه « المسيحية من أديان العالم » أن يواجه أخطار الاحتواء اليهودى التلمودى الصهيونى الذى وقعت المسيحية الغربية والفكر المسيحى الغربى فى براثنه حين يقول : أن

أعظم إنجاز قدمتها التلمودية هما : عدوين المسيحية وهما الشيوعية والقومية : يقول أن الشيوعية والقومية هما العدوين الأديان إذ هما شكلان مختلفان لموضع فاسد إلا وهو عبادة الإنسان لنفسه ، وقال إن العالم كله متغرب ، ومثل تويني ماذا تسكره فى القومية قال : التعصب الذى يصيح بكثير من القيم الإنسانية ويثير الفتن والحروب : والمعروف أنه عندما اختلف العلماء التجريبيون فى أوربا مع الكنيسة وتفسيراتها للأرض والسكون ، قامت محاكم التفتيش بمعاقبة العلماء واضطهاد هؤلاء الذين بلغوا ثلاثمائة ألف فى بعض التقديرات وقد أحرق منهم ٣٢ ألف أحياء وكان منهم العالم الطبيعى برنو والعالم جاليلو .

وبدأ العداء بين العلم والدين وكان فى الإمكان حصره فى دائرة التفسيرات المغلوطة ولكن اليهودية التلمودية عمدت هذا الخلاف وجعلته نهائيا ، وأثارت على الكنيسة حملة عاصفة وطرحت الفكر المادى ، القائم على سيادة الحصن الحصين وسيطرة العقل على الدين وأخذت تحتوى كل النظريات العلمية لتفسيرها فى دائرة الإلحاد كما فعلت بالنسبة لنظرية دارون حين نقلت مفهوم التطور من المجال البيولوجى إلى مجال الاجتماع وحين طرحت مفاهيم التفسير الاقتصادى والتفسير الجنسى للتاريخ وبرز أكبر عملين : ماركس : الذى يقول : إن تاريخ العالم هو تاريخ البحث عن الطعام . فرويد : الذى يقول : إن الغرائز هى التى تحكم الإنسان والروح لا وجود لها .

وجاءت بروتوكولات صهيون لتؤكد هذا الاتجاه وتفسره حين قالت : لقد رتبنا نجاح دارون وماركس وتيتشة بالترويج لآرائهم وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر (غير اليهودى) واضح لنا بكل تأكيد » . والواقع أن الدين الذى دخل المعركة ليس دين الله ولكنه تفسيرات بولس وإن صراع العقل مع الدين هو صراع الفكر البشرى مع تفسيرات الكنيسة وإن دوافع هذا الصراع كله هى السيطرة الصهيونية التلمودية على المجتمع والفكر الأوربيين الغربيين مقدمة للسيطرة على البشرية كلها .

(٢٩)

فساد المجتمع الغربى

إذا كان الفكر الغربى قد اضطربت طريقه فلا بد أن يكون من نتيجة ذلك فساد المجتمع الغربى نفسه . لقد وجد الغرب فى التفسيرات التى ألقيت إليه عن العقيدة مالا يرضى النفس المتطلعة إلى الاقتناع والايمان وجاءت نهضة العلم فوقفت أمام كثير من المسلمات لتنظر إليها نظرة العقل فلم يجدها مرضية للنفس أو مؤامة للفطرة فكان عليها أن تضطرب بين وثنية الأغريق ، وتلمودية اليهود ، وإباحية المجوسية وغيرها من آثار الفكر البشرى المضطرب ، وكان الإسلام قد جاء ليعطيها المفهوم الأصيل والطريق الناصع ، ولكنها قبلت الفكر التجريبى الإسلامى ورفضت مفاهيم العقيدة فى النفس والأخلاق والمجتمع ، فضلت طريقها ولم يحقق لها التقدم العلمى مما كانت تتطلع إليه من سلامة المجتمع أو الأمن النفسى . ثم جاءت لتحاصر عالم الإسلام وتحتويه ، بعد أن سيطرت عليه إقتصاديا وعسكريا وسياسيا ، وحملت معها كل هذه النظريات والأيدلوجيات لتضرب به هذه القوة المؤمنة بالله التى تعيش عقيدتها ومنهجها رغبة فى إحتوائها ومحاصرتها وتذويبها فى آتون الأممية والعالمية بحيث تقضى على مقدارتها وقيمها جميعاً . وكان على المسلمين والعرب أن يعلموا أن الحضارة الغربية التى بدأت بالتجريب الإسلامى قد انتهت اليوم بشىء من التوتر والتمزق والعنف والإباحة التلمودية ، مايهدد بسقوط الحضارة ويضع المجتمع الغربى كله فى نفس الوضع الذى عرفه من قبل مجتمع الحضارة الرومانية فى أبان عظمتها مقدمة لانحدارها وتحطيمها وإنهيارها . وحق أن يقول كريسى موريسون رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم :

لسوف تنتهى هذه الحضارة بدون العقيدة والدين ، ولسوف يتحول النظام إلى فوضى وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماسك وسوف يتفشى الشر فى كل مكان ، إن الحاجة ملحة أن تقوى صلتنا وعلاقتنا بالله . وما يقوله كرلسى موريسون اليوم قاله منذ بضعة وثلاثين عاما (بيتان) رئيس جمهورية فرنسا فى بيانه الذى خاطب به الأمة الفرنسية موضحا أسباب هزيمتها فى الحرب الثانية حين قال : لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ماشيدته روح التضحية وإنى أدعوكم قبل كل شىء أن تهتموا بأخلاقكم (٥ يوليو عام ١٩٤٠) ويتساءل الكسس كاريل : هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة ؟ ويجيب فيقول : إن معارفنا العلمية فى الزمن الحاضر غير وافية فنحن نعرف

كثيرا عن الحياة ولكن لانعرف كثيراً عن أنفسنا . عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكى الذى خلقناه ، والباعث على ذلك خطأ قديم عندما فرقوا بين الكم والنوع وعنى بالأول فارتقى العلم المبنى عليه وكان انتصاره باهراً ، لقد حصروا همهم فى الكم وأهملوا الكيف . فحماستهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء وكان خطأ جاليلو فى التفرقة بين خواص الكم وخواص الكيف وخطأ ديكارت فى الفصل بين الأشياء المادية والأشياء الروحية والاهتمام بالجسم دون العقل هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق التى أفضت إلى انتصار العلم وانحطاط الانسان وأن منقذو العالم يجب أن يتوفروا على دراسة الانسان من ناحية الكم والنوع معا وعليهم دراسة العقل الانسانى وهو المجهول العظيم . أن تقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الأمراض قد تم على حساب النمو العقلى والعقل لاينحصر فى أساليب الفكر بل يمتد إلى الدين والتصوف والجمال والروحانية ، ولقد صدرت فى أوربا وأمريكا فى السنوات الأخيرة مئات الكتب أو عشرات الألوف وكلها تتحدث عن السر والخفاء والسحر والقوى الهائلة التى يحرك الانسان دون أن يكون له سلطان عليها إلا إذا عرف سرها يقول الكاتب : إن هناك مشكلات كبرى تحطم وتمزق الضمير والوعى فى أوربا وأمريكا . إن هذه الشعوب تتمزق وأن الحياة قاسية ولا مفر من الاستمرار فيها وهناك من يهرب منها ومن بين أشكال الهرب : الإدمان والإسراف فى الأكل والشرب والجنس والجريمة وإن الإنسان فى أوربا وأمريكا رغم كل هـذا التقدم العلمى لايزال حائراً أو ان يجد العلم قاضيا على راحته وعن إسعاده ورغم مئات الملايين ، وألوف الملايين فى كل مكان فإن الانسان يشعر أنه وحده وإن وحدته تتأكد كلما وجد الناس من حوله ، إن الإنسان الحديث عنده إحساس أنه ليس مالكا لنفسه ، وأنه مسلوب الإرادة ، إن قوة أخرى تتحكم فيه وإن هذه القوة قد أوجدته » .

وهكذا يضطرب الإنسان الغربى لأنه فقد الدين الذى كان يملكه وعجز عن أن يصل إلى الحق لأنه لايستطيع أن يتجاوز عقبة الهوى والشهوات والمطامع ، (أفلا أقتحم العقبة) إلى الحق الواضح فى الإسلام . ومع ذلك فهو يريد أن يحتوى الإسلام وأهله وأن يفسد هذا الدين الحق بالشبهات والسموم التى مازال يثيرها لايتوقف حتى يضع المسلمين فى مناطق الأممية والعالمية والعلمانية التى سقط فى هوتها وعجز عن إخراج نفسه منها . وهو يدعى أنه يستطيع أن يعطى ، وماذا يعطى ، هذه التكنولوجيا التى كان للمسلمين فضل بناء أساسها وقواعدها ، وهى ملك العالم كله ، أما أسلوب العيش الذى يرضاه لنفسه ، وهذه المفاهيم المادية الوثنية العبودية التى يحرك بها الحياة والحضارة فإن الإسلام يرفضها جميعاً .

إن العالم الغربي الذي فقد دينه وعجز عن معرفة الدين ، يواجه ضربات عنيفة عاصفة تهزه من أعماق كيانه ، يقول الأستاذ إيفان حزرول عضو المجتمع العلمي السوفييتي في صرخة إنذار : إن الإنهيارات العصبية لم تزل تتزايد في العالم والدماغ البشري سائر نحو التعطل العام ، ومعظم العلماء ينسبون إلى الحياة العصرية أسباب الاضطرابات النفسية فإذا كانت هذه الحياة في صجيجها ودخانها وتكوينها لا تسبب الجنون فإنما تهيء الإنسان العصري للجنون . يقول الدكتور الفرنسي لاروش: إن الشر الأكبر في مجتمعنا الحالي ليس هو الضجة بحد ذاتها ولا التلويث الصناعي بل إنما هو إنكسار التوازن بين أفراد المجتمع ، لقد كسر المجتمع الحالي أشكال التوازن القديم وأصبح يتطلب من الناس مزيدا من المعارف ومجهودا متواصلا للانسجام مع المقتضيات الجديدة كما أنه عزل الفرد عن أسرته وعن قريته الأصلية وحصره في بيت صغير المساحة فضلا عن أن هـذا المجتمع صرف الإنسان عن تغذية عقله ونفسه ولم يحمه من المتناقضات المستعصية على ذهنه ، هذه المظاهر الجنونية مرض عصبي ، وأن العوامل الاجتماعية المختلفة تزيد هـذا المرض خطورة وتهيء الظروف المناسبة لظهور الاضطرابات العصبية واختلال التوازن » أما علاقات المجتمع الغربي فليست في حاجة إلى كبير بيان . (١) الانتحار وباء بين شباب أمريكا : صرح ريتشارد سيرين أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بأن انتحار الشباب الأمريكي يتزايد بصورة وبائية وأن السبب يرجع إلى تعاطي المخدرات. (٢) في تقرير للأمم المتحدة عن خطار مدمني المخدرات وجد أن عددهم يصل إلى الألف مليون نسمة (نصف سكان الأرض) بحثا عن السعادة المزعومة ، وأن أشد المخدرات فتكا هي التي ظهرت بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا وأهمها حبوب الهلوسة .

(٣) ٣٠ مليون حالة إجهاض في العالم كل سنة (٤٠ في المائة اقتصادية) و ٣٦ في المائة نفسية . وأن انجلترا سمحت بعمليات الإجهاض مما جعل أكثر نساء الغرب يسافرن إلى بريطانيا ودعت مجلة نوفيل أوبسرفاتور الفرنسية إلى السماح بالإجهاض في فرنسا ونشرت بشكل جرأة اعترافات سيدات شهيرات مارسن الإجهاض . وتقول الصحف أن ٣٠ في المائة كل سنة يتم إجهاضهن بما يعادل ربع المولودين . (٤) أفردت الصحف الغربية بحوثا مستفيضة عن تجارة الجنس وعن أرباحها ، وتحدثت نيوزويك عن الأفلام السينمائية والخلاعية والكتب والسجلات المصورة وصالونات التمسيد والملاهي الليلية فضلا عن البغاء التقليدي وقالت أن أرباح هذه التجارة تبلغ مليارى دولار في السنة ، وأن مدينة نيويورك أصبحت عاصمة هذه التجارة الرابحة ففي مدة سنتين انتقل عدد صالونات التمسيد من أربعة إلى ستة وأربعين علما أن هذه التسمية ليست سوى (تورية) للدعارة ومحايلة على القانون

وأن ثمن عناية ثلاث مسدسات تبلغ مائة دولار وبعض صالونات التمسيد تستقبل كل يوم مائة رجل ولا تعطل فى نهاية الأسبوع . وأشارت إلى أفلام الخطيئة الخلاعية . وإن فلم ديت ثروت «الحنجرة» العميقة در على أصحابه ٣ ملايين دولار ولم يتكلف أكثر من ٣٥ ألف دولار . ٥ — لندن ٢٣ — ى ب . (الأهرام ٢٤ مايو ١٩٧٣) أن عمليات الإجهاض المشروعة للفتيات اللاتى تقل أعمارهن عن خمسة عشر سنة قد ارتفعت فى بريطانيا بنسبة الثلث فى العام الماضى وبلغ عـــدد حالات من الإجهاض من بين هذه الأعمار إلى ٢٢٩٦ بزيادة ٦٥٤ عنها عام ١٩٧٠ وكشف التقرير الذى أصدرته إدارة الإحصاء البريطانية إن بين هذه الحالات ٣ فتيات لا تزيد أعمارهن عن (١١ سنة) وإن ثمان من الفتيات أقل من سن ١٥ سبق لهن الإنجاب . ٦ — أشارت الصحف إلى تسريح ٣٧٠٠٠ خبير نووى بسبب الأدمان من خبراء التسلح النووى لأسباب تتعلق بإدمان الكحول والمخدرات لأنهم كانوا يتعرضون بسبب تصرفاتهم غير الطبيعية إلى الإنذار ٩ — صدرت مجلة جديدة فى أمريكا أسمها (بلاى جيرل) وصاحبتها سيدة جميلة أسمها (تونى هولت) المجلة مخصصة للنساء فقط فهى تنشر صور الشبان وهم عرايا تماما وتكتب المقالات والدراسات حول تصرفات الرجل وميوله واتجاهه وكيفية الايقاع والاحتفاظ به تحت قبضة المرأة . صدرت هذه المجلة لترد على مجلة (بلاى بوى) الشهيرة بنشر صور أجمل نساء الدنيا .

١٠ — مسرح أوبرا كوبنهاجن عاصمة الدنمرك عرض باليه (أشعار الموت) المأخوذ من قصة (يوجين أونسكو) وتدور حول أطماع الإنسان ونزعته إلى الدمار — ٢٢٠ راقصاً وراقصة يقفون عرايا تماما لاتستر أجسادهم حتى ولا ورقة التوت . (١٠) دراسة أجرتها جامعة جونز هوبكنز فى بلتيمور حول الجنس والزواج بالنسبة للفتيات الأمريكيات أقل من عشرين سنة (ما بين ١٥و١٩) أجريت التجربة على ٤٦٠٠ فتاة ينطبق عليهن هذا الشرط . تبين أن ٣٠ فى المائة من الفتيات دون دون العشرين قد مارسن الجنس بدون زواج وأن ثلث هذا العدد قد أدت ممارستهن للجنس إلى الحمل غير المشروع .

(١١) وأشارت الصحف إلى تصريح الدكتور رومافولد الذى قال فيه أنه يوجد ٤ ملايين مرضى بالزهرى فى العالم كل عام وأن أغلب هؤلاء فى أوساط الشباب وأن للأمراض الزهرية خطاً بيانياً متصاعداً منذ الخمسينات وأثناء الخمس سنوات الأخيرة ، ارتفع معدل الإصابة بالأمراض الزهرية إلى ٢٠٠ فى المائة من الرجال وخمسمائة عنـــد النساء ويتراوح السن بين ١٨ ، و٢٤ سنة (١٩٧٥) .

(١٤) ٨٥ ٪ من طلبة الجامعة فى أمريكا يتعاطون الماريجونا ، ٤٠ ألف شخص دون سن ٤٥ سنة يعانون من النوبات القلبية يتوفى منهم ١٥ ألف . (١٣) سرطان الصدر خطر يهدد المرأة : هذا ما أعلنته صحف الغرب فقالت أن ٢٥٠ ألف امرأة تموت سنوياً بسبب سرطان الصدر ، وأن العدد يرتفع فى أوربا الغربية وأمريكا . وأن امرأة تموت بسبب سرطان الصدر من بين كل ٢٥ امرأة تفارق الحياة بسبب أو بآخر .

ويقول أحد الباحثين : لقد كانوا قديما يقيمون المذابح ليحرقوا عليها أجساد البشر إرضاء للآلهة ولكنهم الآن يضحون بالملايين على مذابح آلهة الوثنية الحديثة . آلهة الربح الفاتك وصنم الخمر الأعظم ، وكاهن الرزيلة البشع وشيطان السرعة المخيف ، أن العلم يقدم إمكانيات هائلة للتقدم البشرى ولكن أين هذا : إلى الحروب الجهنمية الحديثة ، ومعسكرات الاعتقال والإبادة والغازات السامة والنابالم . وهذا الذى يقاسيه المجتمع الغربى يرجع إلى انحرافه الفكرى . وقد جاء الإسلام ليقدم له الهدى فرده ، وقسا فحمل على الإسلام وعالمه وحاول تذويبه فى أتون الإباحية والإلحاد والفساد والوثنية التى يعيش فيها ، وللبهودية التلمودية فى هذا التحول الخطير الذى يسير فيه المجتمع الغربى أثر كبير وواضح فهى وراء كل هـذه المحاولات لتدمير المجتمعات البشرية ، أنها من وراء دائرة المعارف التى تصدر فى مختلف اللغات الأوربية وتحوى ٣ آلاف مليون كلمة لشرح الجنس والهيبز وعقارات الهلوسة ، وهذه الدائرة مقصود بها تدمير الشباب والأطفال ولذلك فقد قصرت عليهما وتقع فى ٢٠ مجلد ويحتوى على ٦٥٦٥ صفحة والتى قام بها ٧٥٠ مؤلفا وخبيراً متخصصا فى مختلف المجالات . والقصد هو احتواء الأطفال قبل أن يكونوا شبابا ببعث هذا لمعلومات الجنسية الكاشفة والفاسدة لهدم الأطفال ، وتوجيههم إلى الإباحيات : تحت إسم الحب والمخدرات وعقار الهلوسة . وإلى جوار الكتب نجد الأفلام : القائمة على الجنس والجريمة معا وقد بلغت إلى درجة عالية من الفساد والانحلال . ويشير الأطباء إلى أن انتشار الأمراض الزهرية فى العالم وخاصة فى أوساط الشباب والتى تبلغ ثلاثة ملايين إصابة فى كل عام لا تعود إلى فقدان الوسائل الطبية والوقائية بقدر ما تكمن فى التدهور الأخلاق والانحلال الذى تشهده المجتمعات الغربية . فإذا اتجهنا إلى مجال العلم والتكنولوجيا وجدنا أخباراً مذهلة للانحراف العلمى ، فى مقدمة هذا تلك الاختراعات الحديثة وأهمها « الغاز العصبي » الذى وصف بأنه أخطر من القنبلة الذرية والقنبلة الهيدرجنية ، وكذلك اختراع ما سمى بأشعة الموت باستخدام أشعة الليذر ، وهو من القوة بحيث تستطيع أن تدمر أى صواريخ معادية على ارتفاع ١١٢ كيلو مترا كما تستطيع تدمير الصواريخ والدبابات البعيدة المدى .

وهكذا يصل العلم إلى أقصى مراحل تدمير البشرية . كذلك فى مجال البيولوجيا : علت صيحة بعض الذين لم تجرفهم المادية إلى التحـــذير من الأخطار التى ينجرف إليها علماء الأجنة يقول الوردريتشى كالدار أشهر خبراء علم الأجنة : أن هؤلاء العلماء يجرون فى تطوير أبحاث إنتاج الإنسان المختبرى على النحو الذى يفسد الجنس البشرى ويزج بالعالم فى آتون عصر أسوأ من عصر المخاوف الذرية ، أن هذه الطريقة التى ترمى إلى ذراعة شريحة من جلد إنسان فى أنبوب سوف تؤدى إلى إمكانية إنتاج عدد لا يحصى من الأشخاص الصناعيين الذين يتشابهون فى كل شىء أكثر مما تتشابه التوائم وهم بذلك أشبه بعرائس المصنع أو الإنسان الآلى وسوف تجمع بينهم القدرة على قراءة أفكار بعضهم البعض ، بهذا يكون انتاجهم بداية لوفاة خاصية التفرد الذاتى وهذا مجرد تصور لكارثة تحيق بالبشريه » . وهكذا نجد العلم فى يد الغرب يخرج عن رسالته وهدفه من حيث يكون « مدمراً للإنسان » خمراً ومرجوانا ومخدراً ، و « مدمراً » للبشرية من حيث هو ذرة وقنابل وأشعة الموت والغاز العصبي ومدمراً للإنسانية من حيث هو إفساد للجاس البشرى نفسه . ولا ريب أن تحليل هذه الإحصائيات والأخبار يؤدى إلى حقيقة هامة : هى نجاح النظريات والأيدلوجيات التى طرحها ماركس وفرويد وسارتر ودور كايم (هؤلاء اليهود) فى هزيمة المجتمع الغربى وتدميره وذهابه إلى أقصى غايات الانحراف والتمزق ووصول العلم إلى درجة اللعب بالنار الخطير الذى يهدد البشرية كلها بالتدمير .

وهذه هى أزمة الغرب الساحقة التى تضع النهاية له ، ولكنه مازال يقاتل وهو فى لحظته الأخيرة حتى يحول دون أن يصل الأسلام إلى قلوب أهل الغرب فأزمه الغرب الآن هى أزمة عقيدة وإيمان ودين ونفس ، فقد خرج من مفهوم المسيحية المنحرف إلى مفهوم اليهودية الضال فطابع التلمودية واضح الآن فى مختلف مناهج ومفاهيم النفس والاجتماع والأخـلاق حيث تسيطر النظرية المادية والفكر التلمودى والآلى والإباحة والوثنية .ولقد كان الفكر الغربى ومازال يقوم على الاستعلاء العنصرى والكبرياء الكاذب الذى يدعى أن فكرة العالم وأن تاريخه هو تاريخ العالم وأن رأيه هو الرأى الذى تخضع له البشرية . وأنه صاحب الدم الأبيض الذى لايهزم وهكذا يطغى المفهوم المادى (الإقتصادى الجنسى) على تفسير الحياة الواقعة وتفسير التاريخ ولقد أصبحت مفاهيم التلمودية الصهيونية مصاغة فى نظريات ومذاهب وأيدلوجياب ومفروضة على العالم الممزق بين الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية وقوامها النظارة المادية فى الفكر والتفسير المادى فى الإقتصاد ومعابر وصلات تحاول أن تخضع الرسمالية الغربية الليبرالية الماركسية الشيوعية حتى يسلم العـــالم كله للصهيونية التلمودية .

وقد تجددت مفاهيم الغابة والعبودية القديمة إلى عرفها الرومان والقياصرة والأكاسرة والفراعنة غير أن الحضارة الغربية الحديثة لم تعد تملك إمكان حل أزمتها الخانقة ، بعد أن عقمت التربة وفسد الهواء ، فهى تقفز من حل إلى حل ومن منهج إلى منهج محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى منذ أن تركت الدين حين عجز فى ظل تفسيرات الكهنة عن العطاء للنفس والروح وحالت القوى والاساطير التلمودية بين الغرب وبين أن تأخذ مفهوم الإسلام وخصرته فى مناهج التلمود فإذا انفلت منها نقلته إلى البوذية والغنوصية والسحر . لم يكن هو الدين « ولكن تفسيرات الدين » ثم فشلت الفردية لأنها استقلت وظلمت وفشلت الجماعية لأنها سحقت الإنسان ، وفشلت القومية لأنها كانت عدوانية لمن جاورها ، وفشلت العالمية لأنها عجزت عن الاخاء الإنسانى وكان الخطأ فى غياب الاساس الثابت : والمنطلق الاصيل ، كلمة الله الواحدة التى تربط جميع الخيوط ، وتقيم العلائق بين الكون والحياة والإنسان والمجتمع والدنيا والآخرة ، إلى أين يتحرك التطور وإلى أى مدى ؟ أين وجهة الحضارة وإلى أى مدى ؟ أين غاية العلم وما هى رسالته ؟ لابد من وجود الاساس الثابت حيث تبدأ منه الحركة وعنده تنتهى : نقطة البدية والنهاية بعد الحركة الواسعة يجب أن تعود إلى أصل ليس من عند الانسان وليس من صنعه .

وهذا أمر لا يعطيه إلا الدين الحق . أن الغرب الذى احتوته التلمودية قد حاول أن يقول بأن الدين مرحلة فى حياة الامم وأن الامم قد تجاوزت هذه المرحلة وأن الدور الذى احتاجت فيه البشرية إلى الدين قد انتهى وأن البشرية أصبحت راشدة بالعلم وليست فى حاجة إلى وصاية الدين وهذا هو « الخطر » الذى أوقع الغرب فى أزمة الحضارة والإنسان . وليس هذا القول مفهوما صحيحا والإسلام لا يرى هذا الرأى وإنما كان هذا هو رأى الغرب فى دينه أو فى التفسيرات التى حملت إليها عن حقيقة الدين ، والوقع أن الدين ليس مرحلة فحسب فى حياة الأمم ولا فى حياة البشرية ولكنه عنصر أصيل وكيان عضوى فى تركيب الانسان — عقله وروحه وحياته — لاسبيل إلى إنفصاله عنه أو انتزاعه منه ، لذلك فإن الدين لم يمت ولن يموت وأن الفكر الغربى حين حاول أن يتجاهل الدين (بمعناه الحق) ويتجاوزه فإنه يواجه الآن أخطر أزماته . وإن تجربة أوربا فى هذا الصدد لاتفيد البشرية بل تسىء إليها ونحن نرى أوربا بعد أن تركت الدين مازالت تضطرب ذات اليمين أو ذات الشمال دون أن تصل إلى شيء . ومن ثم فإن الغرب يأفل الآن ويسقط ولا سبيل له حياة إلا إذا عرف الاسلام طريقه فى الحياة .

(٣٠)

الإسلام فى دور الفلك

(١)

ألف مليون مسلم

لا ريب أن الإسلام يتألق الآن فى دورة الفلك وإن علامات كثيرة تكشف هذا الدور الخطير الذى يتحرك إليه فى المجال العالمى والبشرى والإنسانى وتتمثل هذه العلامات فى عدة حقائق هامة : أبرزها أن تعداد المسلمين يصل الآن إلى ألف مليون مسلم وأن الإسلام يعود إلى أوربا مرة أخرى فى قوة وثالثها أن امتلاك المسلمين للطاقة والثروة والتكنولوجيا من شأنه أن يركز بناء هذا المجتمع الجديد أما آخر هذه العلامات فهى التفوق البشرى . وتقف القوى المادية للإسلام (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) فى وجه هذا التقدم الظاهر وتحاول هدمه أو تعزيقه أو اجهاضه أو احتوائه . وترمى المحاولات التى ترسمها مخططات الغزو الثقافى والتغريب بالاشتراك مع القوى الثلاث : الاستعمار والصهيونية والمذاهب الهدامة جاهدة فى عصر ما بعد التضامن الإسلامى والعاشر من رمضان على ضرب النفس الإسلامية العربية فى صميمها عن طريق : (أولا) إثارة روح اليأس والقلق والتشكيك فى قوة المسلمين ومكانتهم وتاريخهم ودورهم المرتقب فى أداء رسالة السلام والإيمان . (ثانياً) التهوين من شأن مقدراتهم الحقيقية وترابطهم وانتصاراتهم والخط الجديد الذى يسيرون فيه فى مواجهة الاستعمار والصهيونية . (ثالثاً) زعزعة الثقة فى ذاتيتهم الخاصة وشخصيتهم المفردة التى بناها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً والتى ظلت صامدة وقادرة على مقاومة الغزاة دون أن تنحنى أو تنهار . هذه هى الأهداف الجديدة المضافة إلى الأهداف القديمة التقليدية التى ترمى إلى انتقاص الشريعة الإسلامية وتاريخ الإسلام وحياة الرسول والقرآن ، وهى تجارة الاستشراق والتبشير المتجددة التى لا تتوقف . ولعل أكبر ما يثير الاستعمار والصهيونية والمذاهب المادية اليوم هو ذلك النمو المتزايد للقوة البشرية الإسلامية ، التى تجرى محاربتها بالدعوة إلى تحديد النسل ، أو عقد المؤتمرات لتخويف المسلمين من هذا « الانفجار » السكانى الذى يحدث فى عالم الإسلام بينما يواجهه فى عالم الغرب نقص مخيف وتقلص متزايد . ومصدر الخوف هو أن تقل الحصيلة التى تصدر من أراضى المسلمين إلى الغرب عندما ينمو عدد المسلمين أنفسهم أصحاب الثروة الحقيقية . أن الغرض من هذه الصيحات هو أن يظل

المسلمون قلة وأن يظلوا فقراء ، وأن تبقى ثروات المنجنيز والنحاس واليورانيوم والكوبالت وغيرها من الثروات التى تنقل من قلب أفريقيا إلى الغرب والتى وصفها أحد الزعماء المسلمين الأندونيسيين يوماً حين قال : أن ما نهب من أندونيسيا يمكن تصوره بأنه يمثل جسراً من الذهب الخالص يصل ما بين أندونيسيا وهولنده ! . واليوم تكشف الإحصائيات عن زيادة فى عدد المسلمين ، تستشرف الألف مليون ولكن الإحصائيات التى تنشر والتى تصل دائماً من دوائر الغرب والتى تقوم أساساً على فكرة مسبقة بانتقاص أعداد المسلمين هذه الإحصائيات تصر على أن المسلمين لا يزيدون عن ٧٠٠ مليون . وتقول التقديرات أن سكان العالم وصلوا عام ١٩٧١ إلى ٣٧٩٦ مليون نسمة بزيادة قدرها ٧٤ مليون نسمة فى العام الواحد (الكتاب السنوى للأمم المتحدة) هذا الرقم يمثل معدل زيادة سنوية تقدر بنسبة ٢ ٪ ، لو استمرت بهذا المعدل فسيتضاعف سكان العالم عام ٢٠٠٠ على ما هو عليه الآن ، فيصبح ٧٤١٤ مليون نسمة .

ويقول التقرير أن شخصاً من كل شخصين فى العالم : هو آسيوى ، وأن ٢١١٤ مليون شخص يسكنون القارة الآسيوية وأن الآسيويين يمثلون ٥٦٫٧ فى المائة من مجموع سكان العالم . كما يسكن أفريقيا ٣٥٤ مليون شخص ، أى ٩٫٥ فى المائة من المجموع الكلى لسكان العالم . أما أمريكا الشمالية ففيها ٣٢٧ مليون شخص أى ٨٫٨ . أما أمريكا الجنوبية فيسكن فيها ١٩٥ مليون شخص أى ٥٫٣٪ وفى أوربا يسكن ٤٦٦ مليون شخص أى ١٢٫٦ ٪ . وفى الاتحاد السوفيتى ٢٤٥ مليون شخص أى ٦٫٦ ٪ وأقل نسبة فى العالم من السكان ١٢٫٨ مولود لكل ألف شخص (أوربا والغرب) . وأعلى نسبة فى العالم من السكان ٢٥٫٣ مولود لكل ألف شخص (آسيا وأفريقيا) . ا . هـ .

أما أفريقيا فإنها قارة للاسلام فى القرن الخامس عشر الهجرى الذى يبدأ بعد قليل ويمثل بالنسبة للاسلام مرحلة جديدة غاية فى القوة والتوسع ولا ريب أن التوسع الإسلامى يواجهه ويظاهره نمو فى الثروة الإسلامية التى تتكشف فى كل يوم وفى كل بلد والتى هى ملك المسلمين وعتاد لهم فى مظاهر حريتهم واتجاههم الواضح إلى بناء قوتهم المادية الآن فى وجه التحديات الاستعمارية والصهيونية والشيوعية الزاحفة وتدل أحدث الإحصائيات عن تعداد المسلمين أنهم موزعون على ١٩٢ بلدا فى العالم منها ٧١ بلدا يمثل المسلمون فيه أكثر من ٥٠ فى المائة بالنسبة لعدد السكان : ١٧ بلداً يشكل المسلمون فيها مائة فى المائة ، ٢٢ بلداً تبلغ نسبتهم ٩٠ فى المائة ١١٠ بلداً تبلغ نسبتهم ٨٠ فى المائة و ٣ بلدان نسبتهم ٧٠ فى المائة و ٦ بلدان نسبتهم ٦٠ فى المائة و ١٢ بلداً يمثلون ٥٠ فى المائة و ٣ بلدان نسبتهم ٤٠ فى المائة و ١١ بلداً يمثلون ٣٠ فى المائة و ٢٠ بلداً نسبتهم ١٠ فى المائة فما فوق

و ١٦ بلداً نسبتهم ١٠ فى المائة. وهكذا نجد أن الإسلام قد زحف زحفاً سلميا إلى مختلف أجزاء العالم بقاراته الخمس واتخذ لنفسه فيها مقاماً ، وأن أوربا قد قاومت الإسلام أكثر من ألف عام حين طاردته من الأندلس أكثر من مائة عام حتى أجلت آخر المسلمين عنها ثم طاردته من البلقان خمسين سنة قد عادت اليوم مرغمة إلى قبول جاليات إسلامية كبيرة فى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تمثل (وجودا) واضحاً (وحضوراً) متميزاً للمسلمين بمعاهدهم ومساجدهم وكيانهم الذاتى — وفى أمريكا نجد صورة رائعة حين يقول الدكتور محمد عبد الرؤوف أنه لا تطلع الشمس فى نيويورك إلا على مسلم جديد ويكون المسلمون السود بها جالية ضخمة .

وبالرغم من كل أسباب الاضطهاد والتضييق التى يواجهها المسلمون فى الغرب فإنهم ثابتون يستمدون قوتهم من إيمانهم . وفى العالم الإسلامى تحارب الأقليات الإسلامية وتضرب بعنف وخاصة فى الفلبين وأريتريا والصومال ولكن القوى الإسلامية ما تزال تنمو وتتعزز ويكشف الإسلام دوما عن حبه للسلام وخير الإنسانية وأنه لا يريد إلا الأخاء البشرى الصحيح وإن الدراسة الصحيحة لأحوال المسلمين تكشف حقيقة واضحة جداً هى : أنه منذ ظهر الإسلام وامتد إلى الآفاق فإنه بدأ يقتحم أوربا من ثلاث جبهات ، من الجبهة البيزنطية وجبهة الأندلس ، وجبهة صقلية ، ثم زحف إلى الأمريكتين ومنذ وصل إلى هنالك فقد استقر وما زال ينمو وتعداد المسلمين اليوم إنما يمثل حقيقة واضحة هى أن : المسلمين الآن أكبر عدداً من الكاثوليك ومن أهل الصين . وأن أرض المسلمين ما تزال تتميز بالتفوق البشرى بالإضافة إلى الطاقة والثروة ومصادر الإنتاج وما يزل العالم الإسلامى مؤثراً قوى الأثر فى موازين القوى السياسية والتجارة والاستراتيجية العالمية ، وفى الاقتصاد العالمى وسيظل .

ومن شأن عالم الإسلام اليوم أن يمتلك قوته الذاتيه وإرادته الحقة ، لأنه مؤهل لرسالة الإسلام ينشرها فى العالمين . ويقدم لكل شعوب الأرض منهجاً صحيحا سليما لبناء المجتمع الإنسانى بعد أن فشلت وعجزت عن تحقيق ذلك كل المناهج والأيدلوجيات .

(٣١)

عودة الإسلام إلى اوربا

أقفلت أوربا أبوابها مرتين أمام الإسلام : فى بوغاز جبل طارق وفى الدردنيل وقاومت الإسلام فى الأندلس (شبه جزيرة ايبريا) وفى البلقان . ولقد أصر الغرب على أن يرفض مزاحمة الإسلام له فى أوربا ووضع تلك القاعدة التى ظلت وقتا طويلا سائدة وهى : أن على المسلمين أن ينتهو من أوربا بالهجرة أو بالتنصير من كلا طرفيها . ولكننا ننظر الآن فنجد أن الإحصائيات تذكر أن فى أوربا وحدها خمسة وعشرون مليونا من المسلمين . وأن الإسلام يزحف على أوربا كما يزحف على الغرب كله فى قوة . يقول دكتور خورشيد أحمـــد : جاء الاندفاع الاسلامى الأول من الجنوب غير أن هذه الموجات تراجعت بعد أن وصلت إلى حدود ألمانيا وحدود فرنسا ، أما أسبانيا فظلت جزيرة إسلامية متألقة فى أوربا على مدى ستة قرون ، وكان لها أثر فى بقية أجزاء القارة الأوربية غير أن هذا الأثر ظل جزئياً وغير مباشر ، ثم جاء عصر الحملات الصليبية التى قامت على أساس من الجهل والتعصب وتشويه الحقائق وأسفرت عن سفك الدماء والعداء . ثم نمت بذور عدم الثقة وتحولت إلى غابة من الأشواك ، ومنذ ذلك الحين ظل العالم الاسلامى وعالم النصرانية متباعدين ، وما تزال الظلال المشئومة تخيم فوق الرءوس . ومع ذلك ظلت الاتصالات الفردية وآثار الاسلام الثقافية تنتشر . وقد وصلت رسالة الاسلام إلى شعوب أوربا الشرقية عن طريق التجار المسلمين بل عن طريق الذين وقعوا فى الأسر أبان الحروب الصليبية وكان دخول الاسلام أول مرة فى أوربا الشرقية نتيجة لعمل قاض مسلم وقع فى الأسر وأخذ إلى بلاد البشناق (بين الدانوب الأسفل والدون) فى بداية القرن الحادى عشر ولم ينته ذلك القرن إلا وكان شعب البشناق كله قد اعتنق الاسلام : ولقد ساد الأثر الفكرى الاسلامى الفترة كلها وما يزال محسوساً حتى الأزمة الحديثة ، ولكن هذا الأثر لم يتمكن من إزالة التعصب ضد الاسلام كما لم يمكن من تمهيد الطريق لتفهم أفضل لرسالة النبي وتبدأ المرحلة الثالثة مع امتداد الامبراطورية العثمانية وبسط سلطانها على أجزاء من شرق أوربا ولكن هذا المد أخذ ينحسر ابتداء من القرن ١٩ حين بدأت حملة جديدة ضد العثمانية فى تلك الفترة كان العمل التبشيرى النصرانى قد رسخت أقدامه فى بقية أنحاء العالم وكانت الدول الغربية تتخذ لنفسها مستعمرات فى البلاد الاسلامية ، وكذلك أعدت دراسات نصرانية فى مهاجمة الاسلام وتنيل

منه فكانت عاملا كبيراً فى خلق تعصبات جديدة ونشر غشاوة من المعلومات الخاطئة عن الاسلام ولعب نمو الدراسات الاستشراقية دوره فى هذه الاساءة الفكرية والثقافية وتدهورت العلاقات بين الاسلام والدول الأوربية . أما المرحلة الحالية فى العلاقات مع الدول الأوربية بعد بدأت مع انحسار الاستعمار وظهور حوالى أربعين دولة إسلامية مستقلة . وعاشت جماعات من المسلمين فى أوربا ٣ أو ٤ فى المائة من مجموع السكان الأصلى . كانوا يشكلون قبل الحرب العالمية الثانية ٦٦ فى المائة من سكان ألبانيا ١٥٪ من موطنى يوغسلافيا ٢٤٪ من سكان قبرص ١١٪ فى مالطة . ثم جاءت موجات كثيرة من الهجرة إلى إيطاليا وفرنسا وهولندة والمملكة المتحدة كان أغلبها من البلاد التى استعمرتها هذه الدول فى الماضى ونالت ألمانيا نصيبا من العمال الضيوف الذين جاءوها من تركيا ونجم عن هذه الهجرة جاليات إسلامية كبيرة فى عدد من الدول الأوربية كذلك فقد وفد إلى أوربا عدد ضخم من الطلاب . وتدل التقديرات أن عدد المسلمين حاليا فى أوربا يبلغ حوالى ٢٥ مليونا منهم نحو خمسة ملايين من الدول الأوربية غير الشيوعية والباقى فى أوربا الشيوعية بما فى ذلك المناطق الأوربية فى روسيا وهذه التقديرات مبنية على دراسة (الأديان الحية فى العالم : كرانشى) . وهناك بيان يرد المسلمين إلى ٢٣٫٧ مليونا بما فى ذلك روسيا بينما يبلغ عدد المسلمين فى روسيا الآسيوية وحدها بين ٣٠ و ٣٦ مليونا .

وفى الدول غير الشيوعية يظهر أن أكثر من ٢٠٪ من عدد المسلمين يتألف من أطفال وشباب يدرسون وفق أنظمة تعليمية مختلفة . وتحليل السكان المسلمين فى أوربا يبين وجود ثلاث مجموعات رئيسية : (١) المسلمون المحليون . (٢) جاليات إسلامية كبيرة مهاجرة تعيش فى دول معينة . (٣) عدد كبير من الطلاب المسلمين والعمال الضيوف . ويقول التقرير : لقد حاول المسلمين فى كل مكان تقريباً أن ينشئوا المساجد وأنواعاً من المراكز الإسلامية وكذلك فقد اتخذت بعض الترتيبات لتوفير تعليم إسلامى للأطفال المسلمين والمشكلة هى كيفية توفير الحماية والحفاظ على الشخصية العقيدية والثقافية للمسلمين الذين يتعرضون لمناخ غير ملائم لهم خلقيا وثقافيا وفى الايات المتحدة تشير التقديرات : إلى وجود جاليات إسلامية كبيرة من الفئات التى تنحدر من من أصل لبنانى وتركى وسورى وباكستانى وهندى ويوغسلافى وأنه توجد ثلاثمائة منظمة إسلامية فضلا عن وجود ظاهرة الإسلام المقسمة دوما بين الزنوج الذين يكونون مجتمعاً يبلغ تعداده ثلاثة ملايين مسلم ويقول الاستاذ محمد عبد الرءوف مدير المركز الإسلامى فى نيويورك أنه لاتطلع الشمس حتى يصبح إلا على مسلم جديد .

(٢)

(٢) لقد لفتت ظاهرة عودة الاسلام إلى أوروبا نظر كثير من الباحثين فى مقدمتهم جان بول رو الذى يقول فى كتابه الإسلام فى الغرب : لقد قضى إخراج العرب من أسبانيا عام ١٦٠٩ على وجود المستعمرات الاسلامية الدائمة فى أوروبا الغربية وخلال ثلاثة قرون لم تر أوروبا الغربية فى مدنها وقراها خصومها القدماء . ومع فجر القرن العشرين وبسبب عوامل متعددة بدأ هؤلاء يعودن ببطء ، هل هى عودة عرضية عابرة أم هى بداية موجة إسلامية جديدة . ويقول : إن عودة الاسلام إلى أوروبا هى موجة جديدة لن يقدر على وقفها أو الحد منها أية عقيدة أو مبدأ أو دين . وقال إن وجود الاسلام فى الغرب يرتدى حاليا طوابع أربعة مختلفة :

(أولا) : إقامة مؤقتة لطلاب جاءوا يكملون دراستهم العليا فى جامعات أوروبا الغربية أو دبلوماسيون يمثلون بلادهم لدى العواصم الأوربية . وليس للطلاب ولا الدبلوماسيون نشاط . (ثانيا) : هجرة محدودة للاجئين سياسيين . (ثالثا) : الأيدى العاملة . (رابعاً) : بعض الأوربيين الذين اعتنقوا الاسلام . وفى حوالى عام ١٩١٣ فى انجلترا اعتنقت بعض عائلات انجليزية الاسلام وأسست جماعة متماسكة فى « ووكنج » منطقة سوارى وبعد ذلك فى فرنسا والنمسا وإيطاليا وألمانيا « قام بعض الأفراد واقتدوا بما حصل فى انجلترا . ويقال إن هذا العمل فردى وليس له أثر توسعى لا فى العائلة ولا فى الابناء غير أن الاعتناقات الحديثة التى حصلت عليها فى ألمانيا مازالت قريبه منا وجامع برلين مديره ومسلم ألمانى هو الإمام هيوهم وقد أحسن وفادتى عند زيارته عام ١٩٥٢ وكان متفائلا بشأن مستقبل الاسلام فى ألمانيا وقال إن المسلمين يجتمعون فى عدة مدن فى هامبورج ، ترفلين ، لاندشات ، شوتنرنجن ، ولم تكن فى أوروبا الغربية أى دعوى إسلامية منظمة أو أية لغة تبشيرية ثابتة شبيهه بتلك التى ترسلها بلدان أوروبا المسيحية إلى ديار المسلمين . (١) وتقول الكاتبة الغربية ڤاليرى :

فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها لبعدها عن مدى الإفهام على حين كان الإسلام عجيباً فى سهولته صريحاً فى فروضه وهذا كان سببا آخر فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت أخلاقهم كل الإضطراب بما أصابها من الشك المضنى لعقائدها الدينية . وكان هذا ولا يزال السبب فى سرعة انتشار الإسلام المتواصل بين الأمم فى آسيا وأفريقيا

لنفوذه إلى أرواحهم دون حاجة إلى التطول فى شرحه والتكلف فى الدعاية له . أولئك الذين يرون أن حظ الإسلام أوفر من حظ المسيحية يعترفون بأن الخوارق فى الدين المسيحى ترضى وتسر وتذهل الخيال ولكنها معقدة وليس فى الإسلام شىء من ذلك . الإسلام الذى يقول أن الحساب ان يكون فى هذا العالم وأن السعادة هذه يجب أن تتحقق على الأرض لتكون مقدمة للسعادة الأبدية .

(٤) ويقول هوبير دنشان : صاحب كتاب الديانات فى أفريقيا السودانية أن انتشار دعوة الإسلام فى غالب الظروف لم تقم على القسر وإنما قامت على الاقناع الذى دعا إليه دعاة متفرقون من المرابطين لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب البطىء من قوم فكان إذا ما اعتنقته الارستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة . وقد يسر انتشار الإسلام أنه دين الفطرة بطبعه سهل التناول لا لبس فيه ولا تعقيد فى مبادئه وأنه سهل التكاليف والتطبيق على مختلف الظروف أن وسائل الانتساب إليه إيسر من أى دين .

ويقول الأستاذ أبرهم ولكى (المدير العام لرابطة موريشيا) أن الاسلام سيصبح قريبا أحد أديان أوربا ويصور الدور الذى يقوم به المسلمون الآن فى أوربا بعد أن كونوا فيها جاليات ضخمة تجمعها مراكز وهيئات على مستويات مختلفة ، ومن بينها المعهد الاسلامى فى إنجلترا الذى سيكون له دور حاسم فى مستقبل المسلمين فى انجلترا وغرب أوربا . ويقول : أن المسلمين الذين استوطنوا غرب أوربا يشعرون أنهم مجموعة تختلف عن بقية المجموعات التى تسكن فى هذه المنطقة ، هذا الشعور مبلور فى المنظمات والجمعيات المختلفة التى يكونها المسلمون لخدمة أغراض مجموعهم ولربطهم برباط كى لا تمحى ثقافتهم الاسلامية وتجد هذه الظاهرة فى المملكة المتحدة وإيرلندا . كما نجد أن المسلمين عشرات الجمعيات كونوها لخدمة ثقافتهم الدينية . ويقول أبرهم بولكى: أن أوربا تعرف الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا ويوجد على الدوام مسلمون فى روسيا وهولندا واليونان ويوغسلافيا ودول البلقان بجانب ألبانيا وتركيا وهما دولتان مسلمتان ولكن المسلمين فى كثير من هذه الدول يجدون معاملة قاسية . وكان الغرب على مر الدهور يريد تحطيم الاسلام ومحو الوجود الاسلامى ولكن هيهات له ذلك فدين الله لن يزول من الأرض .

ومنذ أن عرفت أوربا الاسلام ناصبته العداء وعرفت أن فى وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهى مستعدة لأن تفهم الاسلام وتتقبل وجوده بعد أن عرفت أنها تعتمد فى وجودها الاقتصادى على الدول الاسلامية . إن انتقال المسلمين إلى أوربا جعل الأوربيين يتقبلون التعايش مع المسلمين مثال ذلك الباكستانيون فى بريطانيا والأتراك فى ألمانيا والمغاربة فى فرنسا ، وهذه

الهجرة إلى أوربا مستمرة وفى إزدياد وسيصبح الاسلام بإذن الله أحد أديان أوربا . فى بريطانيا الآن حوالى مليون مسلم وفــدوا إليها فى الـ ١٥ سنة الماضية واستوطنوها وشجعهم على ذلك الديمقراطية والحــرية ليكونوا جمعياتهم الإسلامية وصارت مجموعتهم متحدة ومتميزة عن بقية المجموعات .

ولقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الإسلام كان شيئا فى الماضى وانتهى، وينتظرون بلهف ذلك اليوم الذى سينتصر فيه الإسلام ، لقد كان الإسلام صاحب الجولة الأولى فى العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب جولة ثالثة بإذن الله ويعمل المسلمون الآن للحفاظ على الثقافة الإسلامية والفــكر الاسلامى لكى لا تنمحى شخصيتهم المسلمة المتميزة وهناك حقيقة مؤسفة أن بعض المثقفين والشباب انحرفوا فى تيار الحضارة الغربية ساعدهم على ذلك جهلهم بانحطاط الثقافة الغربية وسمو الثقافة الاسلامية . أن من يعيش فى الغرب يستطيع أن يعيش انحطاط المجتمع الغربى وسمو المجتمع المسلم ، والمسلمون فى غرب أوربا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعى لا يقاربه نظام ويقيمون فاصلا بين الحياة فى ظل الاسلام وبين الحياة فى ظل فوضى الغرب وتفسخه . أن المجموعة المتميزة فى بريطانيا لها دورها فى تبصير العالم الاسلامى بما يعتقده الغرب فى كثير من نواحى العقيدة الاسلامية وتشكل مجموعة المسلمين فى بريطانيا أكبر مجموعة إسلامية موجودة فى قطر أوربى ورغبة أفراد هذه المجموعة فى الثقافة الإسلامية ستجعل لهم دوراً بارزاً فى نشر الفـكرة الاسلامية ويتمثل النشاط الاسلامى فى ألمانيا ، وإيطاليا ، وفرنسا ، والنمسا فى بناء المساجد وإنشاء الجمعيات وإنشاء الصحف ووضع الكتب وكذلك يقوم بهذا النشاط اتحاد الطلاب المسلمين فى أمريكا وكندا . ويتحدث الدكتور محمد حميد الله فى كتابه « نمو الاسلام فى أوربا » فيقول :

يكاد يكون اليوم فى كل قطر أوربى من الرعايا المسلمين عدد ولا يزال المهتدون أقلية والأكثرية من من أصل أسيوى وأفريقى ويشتغل فى كل من ألمانيا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا وغيرها من البلدان آلاف المسلمين كعناصر مساعدة وتجذب كل من إنجلترا أو فرنسا القسم الأعظم منهم . وحتى بدء القرن العشرين كان لا يوجد مبشرون من المسلمين ومع ذلك فى بدء الحرب العالمية الأولى يوجد فى ووكينج قرب لندن جالية من المسلمين الهنود وقد شيدوا جامعا وأخرجوا مجلة باسم المجلة الاسلامية التى مضى عليها أكثر من خمسين عاما . وللسنيين مؤسسات عديدة فى كل من إنكلترا وألمانيا

وسويسرا وأخيراً يوجد مهتدون للاسلام ممن اهتدوا إلى هـذا الدين الحنيف عن طريق الثقاة الصوفيون . أن كتابات جونيون وتلاميذه أفضت إلى تشكيل مجموعات إسلامية فى كل من باريس وجنيف وأماكن أخرى ، ويظهر أن المسلمين فى يوغسلافيا لهم الآن الحرية فى النشر والدفاع عن دينهم . ويوجد الآن فى جميع الجامعات الأوربية الكبرى كرامى لتدريس الاسلام لكثير من الفروع كاللغات والدين والتاريخ والفن والاقتصاد والاجتماع ويزداد عدد المسلمين فى المعاهد الثقافية الأوربية وهم يزدادون دوما بصورة خاصة فى فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا وحتى فى البلدان الشيوعية يقرب العدد من ٥٠ ألف طالب ويقول : أن أوربا منفتحة للاسلام أكثر مما كانت عليه فى القرون الوسطى ، ورغما عن ذلك فهناك بعض العقبات التى يلزم تذليلها ولابد من الاشارة بأن كثيراً من المؤلفين المسلمين يكتبون باللغات الأوربية إذ يفسرون القرآن وينشرون بعض الكتب عن الاسلام ، وبذلك يزيدون الثروة الدينية وأن الفهرس الاسلامى المعروف (اينديكس إسلاميكوس) هو باللغات الأوربية وقد ساهم فى تأليفه كثير من الكتاب المسلمين ، ويعتبر هذا الفهرس فى أوربا من الأسفار القيمة والجديرة بالثقة »

ولا ريب أن هذه الملامح السريعة تستطيع أن تعطى اتجاه الريح . ولكن هناك ما هو أهم من ذلك : هو نشأة تيار جديد فى الفكر الغربى يحاول أن يتفهم الاسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لاصلاح البشرية وأن أوربا لن تستطيع أن تجد المجتمع السليم ألا إذا اعتنقت أسلوب العيش الاسلامى ، ردد هذا كثيرون فى مقدمتهم برناردشو وغيره وهناك من أشار إلى أن الإسلام يحل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة ومن يرى أن الغرب حافل بالاسلام وسوف لايجد محيصا عن التماسه منهجا لمجتمعه وحياته عاجلا أو آجلا .

(٣٢)

الإسلام فى الأفق

إن صورة الإسلام فى الأفق تتمثل فى عدد من العناصر والخطوط العامة بحيث لاتخفى على الرائى أبدا وبحيث لا يستطيع أهل الانتقاص من أقدار الأمم والحضارات إنكار ضوءها ووهجها . وهى تتمثل اليوم فى ثلاث عناصر ضخمة :

(١) التفوق البشرى . (٢) إمتلاك الطاقة والثروة . (٣) امتلاك التكنولوجيا .

تتحدث كل الأبحاث التى تقايس المجتمعات والأمم اليوم عن «العرب : القوة الجديدة» تقول إحدى هذه الأبحاث : الزمن تغير فجأة وعلى غير انتظار تبدلت نظرة العالم إلى العرب بعد طول معاملة لهم على أنهم دول متخلفة ، لأول مرة منذ زحفت جيوش الإسلام من الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى لنشر رسالة محمد فى العالم تمكن العرب من تحقيق سلسلة من الأعمال الناجحة عسكريا وسياسيا واقتصاديا . وإن الوجود العربى استعاد ثقله القديم وتفجرت قدرات الخلق الفنى والأدبى فى كل بلاد العرب . لقد رسم الأوربى صورة مشوهة للانسان العربى تعطيه صفات البدائى الهمجى غير المتحضر ، هذه النظرية ترجع أساساً إلى العصور القديمة عندما وصلت الجيوش العربية إلى أوربا وفتح الأوربيون أعينهم على جندى غريب أثار الخوف فى نفوسهم وشعروا مع قدومه بما يمثله من خطر على تقاليدهم ، إن هذا الجندى نفسه هو الذى حمل معه إلى أوربا : «العلم» الذى كان العرب سباقين إلى كشف أسراره . جاءت حرب أكتوبر تضيف إلى العربى سمات جديدة بما أحدثته من تأثيرات على شخصيته . والسؤال المطروح فى الغرب الآن : كيف سيستخدم العرب قوتهم الهائلة الجديدة ؟ عندما اقتحمت جيوش مصر حصون اسرائيل ، عبر الاسرائيلى الذى تجاوزت غطرسته كل حد ، استطاعت أن تضرب تفوقه القتالى السابق . وقد وضع أقدام العرب على عتبات الطريق نحو مستقبل مشرق ، والعرب ملتزمون بمواصلة نضالهم فى سبيل التحرر وسيكون النضال طويلا وبكل الوسائل وفى كل المجالات » . هذه صورة لما يراه الغرب عن الإسلام وأهله اليوم وفى أغسطس عام ١٩٧٤ كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين : إن الغزو التركى لقبرص أعاد إلى الأذهان دفعة واحدة ذكرى قرون غابرة : الإسلام يطرق أبواب أوربا . العثمانيون ضد الأغريق ، ولم تتورع جريدة انجليزية ذات يوم أن تستخدم فى عنوانها الضخم كلمة « البرابرة » كل قصص الحكم العثمانى فى البلقان من جديد . المسألة الشرقية من جديد ، أوربا مشكلة العالم العربى الإسلامى ، فى تلك السلسلة التاريخية والمتصلة الحلقات عبر التاريخ ، مداً وجزراً ، بين شرق وجنوب ، البحر الأبيض من شماله وغربه ، هل عاد الشرق يطرق أبواب الغرب ، بعد دورة من الزمان ولكن بجيوش هذه المرة من المال الغزير .

(٢)

وتقول جريدة نوفيل أو بسرفاتور فى ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ : أن غزوة العالم العربى الإسلامى للغرب الصناعى تحدث هزة أعنف من الهزة التى آثارتها ولادة العالم الشيوعى . وتقول : أن غزوة العرب غزوة مالية أو أى شىء آخر إلا أن تـكون إسلامية فما الذى يحمل الغربيين إلى النظر للعالم العربى بالمنظار الإسلامى ، ما الذى يجعلهم يرفضون أن يصدقوا أن الإسلام لن يفعل فعلة فى توجيه مقدرات « الغرب » وبالتالى فى مقدرات العالم كله . ماذا يمـكن أن يفعله البترول للاسلام ومايحتمل أن يفعله الإسلام بالبترول ثم ما يمـكن للاسلام والبترول أن يفعلا بالعالم فعلا وهل يمـكن أن يحلا مشا كل التنمية الاقتصادية والتضخم وأزمة السيولة النقدية وكيف حصل هذا كله ، هذا هو مايخيف العالم الصناعى الرأسمالى . وتتحدث الصحف والأنباء عن الأزمة الاقتصادية التى تعانى منها أمريكا وخاصة فى مجال الطاقة والتضخم المالى الذى يؤثر على قوت الشعب اليومى ، وتتحدث عن إنتاج الدول العربية من البترول وهو يمثل ٦٠ فى المائة من الإنتاج العالمى . وأن ١٢٠٠ مليار دولار هو دخل دول البترول العربى عام ١٩٨٥ فى الشرق الأوسط ، وتتساءل الصحف عما إذا استمر دخلها من البترول بمعدلاته الحالية فما هو التهديد الاقتصادى الحقيقى : إن الدول المصدرة للبترول ستحقق دخلا صافيا يصل إلى ٦٥٠ مليار دولار خلال خمس سنوات ثم يتضاعف هذا الدخل عام ١٩٨٥ وستـكون دول الشرق الأوسط قادرة على شراء كميات كبيرة من الأسلحة والفنون العسكرية لتدعيم نفوذها . هذا هو ما يشغل الغرب إزاء الثروة الإسلامية الضخمة وامتلاك الطاقة إلى أمد طويل وتشير الصحف الغربية إلى ما تسميه : قلق عالمى لزيادة دخل دول البترول العربية الإسلامية وأثر ذلك فى الاقتصاد العالمى وخاصة فيما يصاحب ذلك من تفوق بشرى فى عالم الإسلام بينما يوجد انهيار ضخم فى تعداد السكان فى الغرب . وقالت مجلة تايم الأمريـكية (٢٩/٣/١٩٧٣) إن الثروة البترولية فى الدول العربية فى طريقها إلى إحداث تغيير فى « تاريخ العرب » وتزويدهم بسلاح لم يتوافر لهم منذ عهود الحروب الصليبية وهو سلاح قوى يمـكنهم من استخدامه فى التنمية ، وفى مواجهة الإخطار وإن الدول العربية تمر الآن بثورة فى البترول ستتيح لها إمـكانيات القوة والثراء ، وأن العرب الذين يبلغ عددهم مائة مليون شخص بدأو يدركون فجأة أبعاد السلاح الاستراتيجى الذى يمـكون به وقالت أن استهلاك الولايات المتحدة من البترول يزيد بنسبة ٨٫٧

سنويا وأن الدول العربية تسيطر على ٦٠ فى المائة من احتياطى البترول العالمى وإن دخلها الذى وصل إلى أربعة آلاف مليون و ٤٠٠ مليون دولار وسيصل إلى ٤٠ ألف مليون دولار عام ١٩٨٠ وهذا الرقم يزيد عما تحققه الشركات الصناعية الضخمة من البترول وعددها ٥٠٠ شركة ، وقال وليم فولبرايت : أنه قد يأتى يوم تقرر فيه إحدى دول الغرب احتلال دول النفط فى الشرق الأوسط بالقوة أو تترك ذلك لأصدقائها الأقوياء عسكريا فى المنطقة كاسرائيل : الصحف (أبريل عام ١٩٧٣) . وانشرت الصحف اليومية فى لندن ذات صباح عناوين ضخمة من كلمتين لا ثالث لهما :

« العرب قادمون »

وقالت : ذلك لأن العرب يملكون القدرة على شراء أكبر شركات الولايات المتحدة وهلات الصحف لمجرد أن فريقا من أثرياء العرب قد حملوا معهم إلى لندن بضع مئات الملايين من الجنيهات الاسترلينية لشراء الأراضى والمبانى فى قلب العاصمة البريطانيـــة (١٩٧٤/٩/٢٠) . وتساءلت الصحف : عن الدوافع التى جعلت المال العربى ولم تمض سنة هجرية بعد معركة العبور يحول إتجاهه صوب بلاد الفرنجة . وفى وسط هذا الخليط المتضارب من النظرات والمشاعر نجد العرب يتجهون إلى تأصيل فكرهم الأساسى بالدعوة والعمل على إنشاء البنك الاسلامى وإعداد منهج أصيل للاقتصاد الاسلامى وتوجيه المال الاسلامى وجهة البناء والانشاء ويتحـــدث الفكر الاسلامى اليوم عن التكنولوجيا ودخولها إلى العالم الاسلامى وتحركها فى إطار الفكر الاسلامى نفسه ويجرى الحديث حول قدرة المال الاسلامى على شراء العلم نفسه وليس الآلات ، حتى يصبح علما عربيا إسلاميا يتحرك فى إطار اللغة العربية ، خاصة وأن البلاد الاسلامية أخذت تشكل قوتها العسكرية فى مواجهة إسرائيل وكل خطر أو غزو استعمارى أو شيوعى ، وقد أثبتت حرب رمضان أنه لم يعد لاسرائيل على العرب ذلك التفوق التكنولوجى الذى كان معروفا قبل عام ١٩٧٣ . كذلك فإن البحث يدور حول مجتمع الغرب الذى أسرف فى الاستهلاك وأسرف فى رفع مستوى معيشته وفى ترفه وبذخه ووضع للاقتصاد العالمى قوانينه التى تحكمه وهو يريد الآن من الدول الاسلامية أن تدفع الثمن له فى أزماته كما كانت تدفعه فى أيام رخائه وازدهاره . وتقول الأبحاث : أن الذين اخترعوا قوانين السوق والعرض والطلب ليس من حقهم أن يتذمروا إذا دارت عجلة هذا القانون مرة لغير صالحهم ، وإن تركوا المسافة تتسع بينهم وبين دول العالم النامية بل شعوبه الجائعة ، وأن العرب لا يريدون أن يدمروا قواعد الاستقرار الاقتصادى فى ولـكنهم يريدون فقط حقوقهم ، أنهم يدركون واجبهم نحو المجتمع الدولى ولـكن على المجتمع الدولى أن يدرك واجبه نحوهم ، ذلك أن المجتمع الدولى ليس محتاجا لحل مشاكله إلا لبعض

التقشف وهو مهما تقشف فسيظل فى نعمة ، إذا قيس إلى سائر العالم بأكمله ولكنهم لا يريدون التقشف ويبحثون عن الحل على حساب الآخرين » . وتشير الأبحاث إلى تآمر الغرب على ثروة الإسلام . وتقول : أن الخطر المستحدث بالنسبة المال العربى هو الاحتواء الأجنبى والوصاية والتهديد بالمصادرة والاحتلال وأن المال العربى ما زال أسير المؤسسات المالية العالمية حيث تستقطب الحضارة الأجنبية الجزء الأكبر من الأموال العربية وفى الغالب لا تدخل هذه الأموال فى الاقتصاديات العربية بل تبقى خارجها .

(٣٣)

التفوق البشرى

من أبرز مظاهر تألق الإسلام فى الآفاق : تلك الظاهرة الضخمة التى تتأكد فى مجتمع الإسلام وهى : التفوق البشرى ، ومدى الخطر الذى يحسبه الغرب لهذا التضخم والحملة القاسية المليئة بالتآمر على هذا الخطر خاصة فى الوقت الذى يضعف فيه النمو البشرى فى الغرب ويتضاءل . ويطلقون على هذا التفوق البشرى كلمة « الانفجار السكانى » . والظاهرة كما تبرزها التقارير والاحصائيات : إن العالم يضم الآن ٣ر٥ مليار من السكان ترتفع إلى ٧ مليارات نسمة فى نهاية القرن الحالى وقد زاد الجنس البشرى سبعمائة مليون فى السنوات العشر الأخيرة فى كل عام يولد بالعالم ١٢٧ مليون طفل ويصل إلى سن التعليم ٩٥ مليون طفل وإن الدول النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هى أكثر الدول تأثراً بهذه الزيادة إذ أن ثلثى سكان العالم يعيش فى هذه المناطق وأن خمسة أسداس الزيادة المنتظرة فى عدد السكان تكون أيضا فى هذه المناطق وقد أصبح الوافدون يزيدون عن الراحلين فى الشهر الواحد بما لا يقل عن سبعة ملايين نفس فالعالم يستقبل كل يوم ٢٠٠ ألف نسمة زيادة صافى بعد الخسائر وقد استغرق العالم ثلاثة آلاف عام بأكملها قبل أن يضاعف تعداده ولكنه الآن يتضاعف تلقائيا كل خمسة وأربعون عاما .

ولاريب أن لنا نحن المسلمين عبرة فى دراسة هذه الأرقام . فنحن نؤمن أن الكون كله لله وإنه هو الخالق وإن ظاهرة التفوق البشرى هذه ظاهرة طبيعية فى طريق اكتمال صورة الكون والأرض على النحو الذى أشار إليه القرآن لتأخذ الأرض زخرفها وزينتها ولتخرج الأرض مذخورها من معطيات الحياة فى قاع البحار وفى قلب صخور الجبال وفى جوف الأرض ، وأن للمسلمين فى هذه المائتى ألف

طفل يوميا أكثر من ٢٩٩ ألف طفل وهذا يدل على أن ظاهرة التفوق البشرى تمثل جيشا نا ضخما فى عالم الإسلام بما يدل على تفوق ظاهر لهذه القوة المؤمنة بالله ، بينما نجد أن الانحسار السكانى واضح الدلالة فى عالم الغرب . وفى إحصائيات أخرى أن عدد سكان العالم الآن هو ٣٧٠٠ مليون نسمة وأنه إذا سار معدل المواليد على حالته الآن فإن العدد سيتضاعف خلال ٢٦ سنة ، أى فى نهاية هذا القرن م يكون قد ارتفع إلى ٧٤٠٠ مليون سا كن وأن هذه الزيادة ستكون من نصيب الدول النامية فى آسيا وأفريقيا أى أنه من بين ٢٢٤ طفلا يولدون فى الدقيقة الواحدة ٢٠٢ طفل للدولة النامية و ٢٢ طفلا للدول المتحضرة . وهكذا نجد انحساراً شديداً فى مواليد الغرب ونمواً شديداً فى مواليد الإسلام ومن هنا نجد تلك الحركة الضخمة التى تصورها الصحف وتلوكها دون أن تفهم ما وراءها ، وهى محاولة الغرب لضرب هذه القوة وتدميرها حتى لا ينمو فى سنوات قريبة « ذلك العملاق » الذى سيقود البشرية فى اتجاهها الصحيح . ومن هنا نجد المجتمع الغربى يرفض تحديد النسل ويفرضه على عالم الإسلام ويعلن البابا بيوس الثانى عشر رأيه صراحة فى تأييد المسيحية لكثرة النسل ويواجه المسلمون مع حملة تحديد النسل ذلك التحدى الخطير ، تحدى نمو الصهيونية فى فلسطين ونمو المسيحية فى أوربا وفى أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى ، بينما يطالب المسلمون بخفض تعدادهم وهنا تنكشف المؤامرة. أن الخطة مدبرة ضد المسلمين بالذات ذلك أن غير المسلمون يخشون تكاثر المسلمين ويحاولون إيقاف هذا التزايد بكل وسيلة : ومن هنا كانت الدعوة إلى تحديد النسل والحد من تعدد الزوجات . وبينما يطلب ذلك إلى المسلمين تترك الصين ليتزايد سكانها بمعدل ١٤ مليونا كل سنة ويجرى تهديد العالم الثالث بنضوب الثروات وتلك أكذوبة كبرى فإن الخطر كله كامن فى سوء توزيع الثروة والعالم الثالث يملك أغلب ثروة العالم وإفقاره إنما يجىء من نهب هذه الثروة وتصديرها للأمم المترفة الاستعمارية المسيطرة التى تأخذ أكثر من طاقتها والتى تقوم على سياسة الاستهلاك المدمرة .

(٢)

تتحدث الأبحاث عن ظاهرة الانحسار السكانى فى الغرب وتصفها بأنها ظاهرة مخيفة وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال وهى ظاهرة هبوط نسبة المواليد بين الشعوب الغربية والأمريكية بالذات ، فأمريكا تتجه نحو حالة الصفر فى النمو السكانى فهى تقف الآن فى النقطة التى يكون فيها عدد المواليد مساويا لعدد الوفيات . وتتحدى الأبحاث عن هذا الخطر الماثل الذى يتهدد الولايات المتحدة والدول الغربية على بعد بضعة أجيال : مما يؤدى إلى انخفاض القوة العاملة ومما يؤدى إلى ركود الإنتاج فى حين أن الدول الفقيرة تعانى نمواً هائلا فى السكان .

وتقول الأبحاث أن عدد سكان أمريكا ٢١٢ مليون نسمة وإن النمو السكانى فى أمريكا يصل إلى درجة الصفر ٢٠٢ عندما يبلغ السكان ٢٦٠ مليون نسمة ، ويشارك الولايات فى هذه الظاهرة (السويد ، ألمانيا الغربية ، اليابان ، هنغاريا ، رومانيا) وإن نسبة المواليد فى هذه الدول فى هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة . وأن الهبوط كان هائلا فى السنوات الأربع الماضية : فى السويد ، وفنلندا ، النمسا ، بلجيكا ، الألمان،أما هنغاريا وبريطانيا قد بلغت درجة الصفر فى النمو والقلق ناجم من أن القوى العاملة سوف تتضاءل فى المستقبل مما يؤدى إلى ركود الانتاج ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوربا فى قضايا للاجهاض وفرضت عقوبات . ومنع السوفيات تداول الحبوب المانعة للحمل وأعطوا أجازات أطول للزوجة الحامل . ويتوقع الخبراء أن أكثر دول أوربا ستصل درجة الصفر فى النمو السكانى فى بداية القرن الواحد والعشرين م،ويرى بعض الخبراء أن نمو السكان إلى درجة الصفر سيؤدى إلى ركود اقتصادى اجتماعى . ويرجع الخبراء هبوط الخصب فى المدى البعيد فى الدول المتطورة إلى مجموعة عوامل يطلقون عليها التعقير أو التحديث (موردنا برشين) ويقول الخبراء أن موانع الحمل والاجهاض قد خفضت المعارضة الأخلاقية لضبط النسل وإن ثلث النساء الكاثوليكيات يمارسن موانع الحمل بالرغم من أن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ترى أن موانع الحمل أمر خاطىء غير مستحب كذلك فإن الموجة الجديدة للأنوثة قد ساعدت على جعل نسبة المواليد منخفضة حيث شجعت المرأة على تحدى دورها كربة بيت وأم ، وقال : الدكتور جون يلدز : إن المرأة لم تشعر بأن عليها خلق الأطفال لتصبح إنسانا بشريا ، ويرى كثير من النساء أن مساهمتهن فى المجتمع أو تحقيق أكتفاء ذاتى أكبر يكون ببقائهن فى أعمالهن بدلا من البقاء فى البيوت مع الأطفال وأن المرأة تصبح شيئا مهملا إذا كانت أماً أو ربة بيت (٦٫٥ مليون أمرأة عاملة تؤلف ٤٦ ٪ من القوى العاملة فى الولايات المتحدة) .

ويشير التقرير إلى خطورة امتناع الشباب عن انجاب الأطفال : يقول بول ايرليس فى كتابه (القنبلة البشرية) عام١٩٦٨ وكتاب آخر (حدود النمو) إن العالم يواجه كارثة إذا تناقص النمو السكانى وقال ولفريد نيكرمان : إن الإنسان قد استخف بحجم الموارد الطبيعية الهائلة فى العالم . وهناك إشارة إلى أن التضخم الاقتصادى يعد عائقا فى إنجاب الأطفال . وأنه بوجود دخلين فى البيت غدا فى مقدور الكثير من الأزواج التمتع بالأمور الترفيهية .

(٣)

وهكذا نجد الخلفية الواضحة لموقف الغرب إزاء التفوق البشرى فى عالم الإسلام ، أنه موقف الرغبة فى إيقاف النمو حتى لا يحتجز المسلمون ثمرات أرضهم ومقدراتهم التى تصدر إلى الغرب والتى يسيطر عليها عدد قليل من أصحاب الملايين أغلبهم من الذين يمتلكون ويديرون ثروة البشر كلها .
ومن هنا كان ذلك الإلحاح الذى نواجهه فى الصحف لا يتوقف على ما أسموه الانفجار السكانى وقد استدرجوا إلى الكتابة فى ذلك عـــدد من الذين لا يعلمون ومنهم الافرام الذين ينتظمون فى الماسونية عن طريق أندية الروتارى والليونز وغيرها فضلا عن هذه الحشود من العلماء الذين تجمعهم مؤتمرات الوالدية فى تحديد النسل ومؤتمر الغذاء العالمى . وقد أكدت عشرات المصادر والدراسات إن الخوف من نمـو السكان فى البلدان النامية والمتخلفة هو الذى يقلق سادة الغرب فإن هـؤلاء سيصبحون قوة عددية تضر بالبلاد الأوربية وآية ذلك فى العمل لهذه الغاية تلك المبالغ الضخمة التى تصرفها المؤسسات الدولية فى إقرار هذا العمل فى البلاد المتخلفة ففى تونس وحدها تصرف ٢٠ مليارا من الفرنكات سنويا على تأسيس مستشفيات التعقيم .

ويشير الأستاذ خورسيد الأستاذ بجامعة كراتشى عن سوء نية الاوربيين والتخطيط الاقتصادى لإدامة احتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية . « إن آسيا والعالم الإسلامى أكبر مناطق الارض اليوم إزدحاما بالسكان وما عدد السكان فى البلاد الغربية بالقياس إليها إلا قليل : أنه هذا التفوق السكانى سوف يقضى على الاسس التى أقامها الغرب لسيادته السياسية فى العالم منـذ القرون الخمسة الماضيـة وعلى ذلك التفوق الفنى والعلمى الذى كان له على الشرق والذى به استطاع أن يقيم احتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة سكانه ، لقد آمن الاستعمار أن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قـلة سكانه ، ولـكن الأوضاع الحالية والحقائق الجديدة فى العالم قد فندت هذا الخيال الخاطىء وأماطت اللثام عن وجه الحقيقة وأنه لأجل التناقص المطرد فى عدد سكان البلاد الغربية فقد ظهرت بوادر الانحطاط والأفول فى السياسة رغم الشعور بعد الحرب العالمية الأولى خاصـة بأن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهين السياسية والإجتماعية،ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العلمية شيئاً فشيئاً وأعلن المارشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الأساسية الرئيسية التى عملت لتوهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية . قلة عدد الأطفال والسكان . وقـد بدأت آثارها السيئة

تحدث فى حياة انجلترا وغيرها وأوجست خيفة من آثارها السويد وألمانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا وشعرت بحاجة ماسة إلى إعادة النظر فى خطتها بشأن عدد السكان ولذا فهى تبذل الآن جهوداً متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلا من تقليله ، إلا أن الغرب لن يستطيع مع كل هذه الجهود أن يزيد عدد سكانه إلى حد يستطيع معه أن يحتفظ بمكانته السياسية ويبقى متربعا على كرسى السيادة العالمية بل الذى لا شك فيه أنه سيعود عاجزاً فى المستقبل عن مقاومة الشرق والعالم الإسلامى مهما بذل من جهوده لزيادة عدد السكان فى أقطاره .

وأشار الدكتور خورشيد إلى أن عدد السكان فى بلاد الشرق أكبر بدرجات من عدد السكان فى الغرب وأن هذا معناه أنه ليس فى الإمكان بقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بعد تدربها على الآلات الميكانيكية وتصنيعها فى العلوم الفنية ، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة كسابق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على العرب أزهى أيام حياتها وأن تبرر القيادة العالمية فى أماكن فيها زيادة السكان ولها فى نفس الوقت خبرة فنية وتكتيكية حربية فكل ما يصنعه الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية فى مثل هذه الأوضاع خطير للغاية وأن أى محاولة للحد من زيادة السكان فى الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل مسألة فاشلة تماما» . نعم أن هناك محاولة خطيرة يحاولها الغرب ليوقف النمو السكانى والتفوق البشرى فى عالم الإسلام وكذلك لإيقاف القدرة على استعمال التكنولوجيا والسيطرة عليها فى مقدمة ذلك خطة تحديد النسل ومنع الحمل كحل ناجح ، أو تحويل إرادة المسلمين والعرب لتوجيه مقدراتهم وثرواتهم ومقدرتهم الاقتصادية والمالية إلى طريق الإستهلاك والترف . ويقول الدكتور خورشيد «إن هذيان أمريكا وكل ما تبذل من النصائح والمواعظ عن مشكلة السكان إنما هو نتيجة إلى حد كبير لشعورها بتلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغير الأحوال فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ويقول أرثر كورمل : أنه لما تعجب الناس فى البلاد المتقدمة إعجابا فطريا أن يقل عدد سكان الناس فى البلاد غير المتقدمة ذلك أنهم يرون فى زيادتهم المطردة خطرا داهما على مستواهم الرفيع فى المعيشة وعلى سلامتهم السياسية . وقد إشار ميك كارل إلى هذه المؤامرة الخطيرة لانقاص سكان العالم الإسلامى ، قال : إن أهل الشرق سوف لايلبثون إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها وأن القوة الغالبة لا تكون فى المستقبل إلا البلاد التى تتمتع بزيادة السكان وتتحلى فى نفس الوقت بالعلوم الفنية وأن محاولة أمم الغرب

للإحتفاظ بسيادتها وقيادتها للعمل هى التى تدعوها إلى العمل على نشر حركة تحديد النسل ومنع الحمل فى بلاد آسيا وأفريقيا وفى نفس الوقت تعمل البلاد الأوربية الآن ما فى وسعها لزيادة سكانها وفى نفس الوقت تستعين بأحسن ما عندها من أساليب الدعاية لتقيم حركة تحديد النسل فى البلاد الآسيوية والأفريقية وللأسف أن كثيرا من المسلمين يتقدمون ليقعوا فى شرك دجلها وقد تنبه إلى هذا المعنى الفيلسوف الإسلامى محمد إقبال : الذى يقول : هناك سيل عرم من الكتب والرسل قد انجرف فى بلادنا لدعوة الناس إلى اتباع خطة منع الحمل وتشويقهم إلى قبول حركتها ، على حين أن الغرب فى بلادهم يتابعون الجهود الفنية لرفع نسبة المواليد وزيادة عدد السكان .

ويقول الأستاذ علال الفاسى : أن أكبر الخطر أن تدرس حركة تحديد النسل منفصلة عن سياقها السياسى والتاريخى فنحن لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها ولا أن نرسم لأنفسنا خطة عملية راشدة إلا داخل نطاق التحدى . فإذا أضفنا إلى هذا الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الأوسط وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليه وخلق حركات داخل كل بلد عربى وإسلامى من الأقليات التى يصل بها التعصب أحيانا إلى المطالبة بالانفصال عن الوطن الواحد عرفنا أن التنقيض فى عدد المواليد لا يخدم إلا مصلحة الاستعمار والصهيونية .

كذلك فإن علماء الطب والاجتماع والدين من جهة وعلماء الاقتصاد من جهة أخرى يرون أن تحديد النسل خطر على قوة الدولة العديدية وعلى زيادة إنتاجها ويقاومون الدعوات التى نبعت فى بلادهم والحركة التى نشأت عنها فكيف يمكننا نحن الذين مازلنا فى طور التخلف وما زلنا نأمل أن يكون من شعبنا قوة مادية وإنسانية أن نتجه إلى معالجة ضعف الانتاج الاقتصادى بإضعاف الاخصاب الإنسانى كذلك فقد أشار الباحثون إلى أن التنقيص من عدد السكان هو خطأ من الناحية الاجتماعية لأن المواليد لا يولدون بأفواههم فقط بل يولدون بعقولهم وسواعدهم فهم مادة وعامل قوى فى النمو الاقتصادى وتقوية الإنتاج وليسوا مجرد طفيليين فى المجتمع وإنما هو عجز التدبير من الحاكمين وسوء توزيع الثروة على المواطنين والتخلى عن الأقاليم الوطنية للمستعمرين هو الذى يدفع إلى هذا التفكير الكسول الذى يرضى بتلك التدابير غير الإنسانية .

(٣٤)

مستقبل الإســـلام

يقول المؤرخ البريطانى أرنولد توينبي فى كتابه (الإسلام والغرب والمستقبل) : نستطيع أن نميز بعض المبادىء الإسلامية التى يمكن أن يكون لها فى المستقبل القريب أثرها البالغ إذا ما أتيح لها أن تعمل عملها فى الحياة الاجتماعية ، ذلك أن هناك مصدران للخطر تواجهها الحضارة الغربية هما : الشعور بالعنصرية وآفة الخمر وأن الروح الإسلامية فى مكافحتها لكل من هاتين الآفتين تستطيع أن تسدى خدمات اجتماعية وأخلاقية جليلة . إن انطفاء جذوة النزعات العنصرية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية فى الإسلام ، وفى العالم المعاصر تبدو الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموما أن الشعور بالعنصرية لم يكن قاعدة عامة بل حالة شاذة فى طبيعة العلاقات بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سيئات العصر الحاضر أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التى استطاعت أن تقطع لنفسها — ولو مؤقتاً — حصة الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذى قام بين الدول الغربيـــة فى القرون الأربعة الأخيرة » . ويشير توينبي أن أخطار النزعات العنصرية الهدامة التى بلغت أوجها فى أفريقيا الجنوبية ، أو فى العالم الجديد عبر البحار قد أخذت تعصبا عنصريا ما زال فى تزايد ، وعنده أن القوى التى تدافع عن فكرة التسامح العنصرى إذا ما أعانتها قوى أخرى ومن المعقول أن تكون روح الإسلام هى تلك القوة المدخرة التى قد تقرر مصير تلك المشكلة لصالح التسامح والسلام » .

ويتحدث عن آفة الخمر ومالها من أثر سىء بين الشعوب البدائية فى المناطق الاستوائية التى فتحها الغرب وصارت ميداناً لمشاريعه ويقول : إن الإسلام يستطيع أن يلعب دوراً فى هذه المناطق الاستوائية التى فتحها الغرب ، ثم يقول : هنا نستطيع أن نرى أثرين فعالين يمكن أن يحدثهما الإسلام فى مناطق وقعت تحت سيطرة مجتمع غربى رمى بشباكه على العالم كله » . ولاريب أن المؤرخ توينبي قد ظلم الإسلام ظلما شديداً مرتين ، مرة حين تنكر لحضارته ودورها الضخم فى بناء مستقبل البشرية كله ومرة أخرى حين أراد أن يقصر دوره فى المستقبل على حل مسألتى العنصرية والخمر ، ولا ريب أن يكون توينبي قد صدر فى بحثه كله عن ذلك الاتجاه المسيحى الغربى الذى استعلى به على كل مفهوم والذى حصره دون الأنصاف أو التقدير لكل ماستجيش به البشرية من قوى جديدة ، ذلك أنه كان يريد الدفاع عن الحضارة الغربية : حضارة الليبرالية الفردية التى صنعها

المسيحيون الغربيون ، وأن يقف فى وجه التحديات التى قدمها مدوكن وشبنجلر من سقوط الحضارة الغربية وانهيارها وقرب أفول نجمها .

ولا ريب أن أرى توينبى فى مستقبل الاسلام هو رأى الغرب المسيحى الرأسمالى الطامح إلى استدامة السيطرة (مع الاحتفاظ بوجهة نظره إلى الصهيونية التى يستمدها من نظرته المسيحية المعادية للهودية) ولذلك فهو يرى أن أسلوب العيش الغربى فى العالم الإسلامى هو الطريق الوحيد وإن على المسلمين أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا الغربية وأسلوب العيش معها وهذا هو الزيف الذى عجز توينبى عن أن يتحرر من السقوط فيه وهو بشر ولا شك يؤمن بمسيحيته وحضارته وغربيته . ولا يتصور مستقبلا للبشرية غير هذا الغرب وهذه الحضارة وهو يريد أن يطعمها بكل ما فى الديانات أو الفكر الإنسانى من أسباب تمد فى عمرها وتجعلها خالدة إلى الأبد وهيهات ، ولذلك فهو يحذر من يقظة الخلافة الإسلامية ، ويحذر من تزعم المسلمين لقيادة العالم ، ويحذر من فريق ثالث ليس هو المتابع للغرب أو الخاصم للغرب . ويقول إذا سبب الوضع الدولى الآن حروبا عنصرية يمكن للاسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخى مرة أخرى ثم يقول . « وأرجو أن لا يتحقق ذلك » وهناك اعتذاره عن جرائم المستعمرين وإغفاله دور الماسونية واليهود (الدونمة) فى إسقاط الخلافة ودعم حركات التغريب وهذا ما لاحظه الأستاذ مسح خورى فى بحثه عن توينبى وبالجملة فإن رؤيا توينبى هى رؤيا مسيحية مستمدة من تفكيره الغربى المسيحى وإن نظرته للاسلام قد صدرت عن روح التحيز الذى لا يستطيع التحرر منها ونحن نؤمن دائما بأن التماس وجهة نظر الوافد لا نقبلها أبداً فى استقراء الأمور وأن الطريق الصحيح هو أن نواجه قضايانا فى ضوء العقيدة الاسلامية والايمان بها ومعرفة أبعاد التحديات التى تواجهها . وقد استطاع المسلمون عام ١٩٧٣ م — ١٣٩٣ هـ كسر قيد ظل يحول بينهم وبين التحرك زمنا طويلا بعد أن أدالوا من الصهيونية فى معركة العاشر من رمضان وتلك علامة على طريق جديد فى حاجة إلى عمل كبير حتى يتحقق له من النتائج مايكفل دعم هذا المنطلق الجديد ، وأن الخطة التى قام بها الفكر الاسلامى منذ بدأ مرحلة اليقظة توشك أن تسلم العالم إلى مرحلة جديدة هى مرحلة النهضة . وإن مواجهة الصهيونية العالمية التى اتخذت رأس جسر لها فى فلسطين هو بمثابة العمل الذى تتركز فيه القوى وتنصهر فيه التحديات التى حملها الاستعمار والشيوعية خلال أكثر من مائة عام ، وإن هذه القوى الثلاث تتكامل اليوم لتحول بين ضربة جديدة لتمزيقه ، وما تزال قضايا بنجلاديش والفيليبين ولبنان وجنوب السودان والتحديات التى تواجه مسلمى أفريقيا والملايو

تشكل أخطارا وتحديات ذات أهمية خطيرة فى الخطوة التى تحاول الصهيونية العالمية القيام بها فى وجه التقـــدم الإسلامى الزاحف بقواه المختلفة : « الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والتفوق البشرى » وتجرى المحاولات فى كل هــذه النقاط لإحداث التمزق والافساد والحيلولة دون تحقيق الغاية المرتجاه .

(٣٥)

التحدى الكبير القائم فى وجه المسلمين

إن التجارب العديدة التى تمر بالمسلمين ، وخاصة تلك التى مرت فى السنوات الثلاثين الأخيرة جديرة بأن تلفت أنظارهم إلى حقيقة ماثلة يجب إلا تغيب عن الأذهان لحظة ، ويجب أن تقوم كل مخططاتهم ومشروعاتهم ومصالحهم على ضوئها ، ويلزم أن تكون عنصراً أساسيا لكل مطامحهم ومشاغلهم ، بل وجدهم ولهوهم . ذلك هو مايسمى بالتحدى الكبير الذى ينتهى ، هذا التحدى الذى أسلم الشعوب إلى الهزيمة والتخلف حين فقدت الإحساس به ، وغفلت عنه وحين غلب عليها ذلك الإحساس بالأمن والتوقف عن مواجهة التحـــدى والغفلة عن الحذر الدائم إزاء إخطار الأعداء المتربصين . لقد كان هذا الأمر وهذه الغفلة عن أدوات المقاومة والمحافظة على ثغور الأمة وأطرافها باليقظة والسلاح والمرابطة وتلك الاستنامة عن الأخطار هى مصدر كل ماواجهته من مباغتة على طول تاريخها سواء من الدولة البيزنطية أو الحروب الصليبية أو حملات الفرنجة أو زحف التتار أو تطويق الاستعمار للعالم الإسلامى فى العصر الحديث أو هجرة اليهود إلى فلسطين . أن المراجعة لوقائع التاريخ الإسلامى تثبت أن مصدر الأزمات الكبرى كان هذا الأمن ، وهذه الغفلة عن الأسلحة والاستنامة عن الأخطار . ولقد كان « الحذر » عنصراً أصيلا وأصلا أكيداً مما علم الله سبحانه وتعالى المسلمين فى القرآن حين دعاهم إلى إقامة الأمة الوسطى وهو جزء لايتجزأ من كيان هذه الأمة ووجودها فإذاغفلت عنه فقد آن لعدوها أن يصرعها بالغزو والتسلط والاحتلال .

ولقد كانت أكبر معارك المسلمين هى فى مواجهة هذا الخطر ، وكان الأمن الذى عرفه المسلمون فى بغداد عام ٦٥٦ هو مقدمة الغزو الذى قام به التتار وكان الأمن الذى عرفه المسلمون فى تلك المنازة التى تصل بين حدود الدولة الرومانية وبين بلاد المسلمين وهو مقدمة الغزو الصليبى ثم الغربى ، وكان

التراخي في المرابطة في الثغور الاسلامية على البحر الأبيض في مواجهة أوربا هو الذى مكن المراكب الصليبية من الوصول إلى موانىء الشام وكان الأمن الذى عرفه المسلمون فى الأندلس هو مقدمة انقضاض الأسبان والبرتغال عليهم والقضاء على وجودهم فيها . ولذلك كان الأمن الذى عرفه المسلمون فى أبان الدولة العثمانية . هذا الأمن ليس أمنا صادقا ولكنه أمن زائف لأنه يقوم على تجاهل واقع العالم من حول المسلمين ، والنكوص عن الوصول إلى أدوات التقدم والغرق فى الترف والملذات والأهواء ، والانقسام والصراع بين الحكام . ولقد ولدت أجيالنا فى ظل الاستعمار الذى سيطر على العالم الاسلامى منذ أكثر من مائة عام ومازلنا نعيش هذا الخطر ، ولقد خيل إلى البعض أن خروج جيوش الاحتلال وتحرر الأوطان هو مقدمة لمرحلة من الأمن جديدة ولذلك فإن محاولات التلهى عن الخطر كانت مصدر الضربات التى أصيب بها العرب والمسلمون فى السنوات المتوالية هزيمة ونكسة وغزوا وتسلطا وسيطرة على فلسطين وبيت المقدس . ومايزال الاحتلال الاسرائيلى لفلسطين وبيت المقدس يمثل قمة التحدى والخطر الذى لايسمح للمسلمين والعرب مطلقا أن يحسوا بالأمن ، ذلك لأن هذا الخطر ليس محدداً بمكان ولكنه خطر مصحوب بالتوسع والمطامع فى بلاد كثيرة ومواقع غاية فى الخطورة والحساسية وهو ليس خطراً سياسياً عسكريا فقط ولكنه خطر فكرى وثقافى واجتماعى ، متصل أشد الاتصال بالذاتية الاسلامية وكينونة الأمة العربية وبالنظام الاسلامى والشريعة الاسلامية وباللغة العربية والتاريخ الاسلامى جميعاً ، ذلك أنه يستهدف استلاب الكيان النفسى الاسلامى المتمثل فى العرب أولا وفى الفكر الاسلامى أساساً وذلك أمر خطير يستدعى أن تظل الأمة بكامل قواها وأفرادها وكفاياتها ومقدراتها قائمة يقظة لايطرف لها جفن أو تنام لها أعين إلى جيل أو جيلين آخرين .

ولذلك فإن من أشد ما يدخل على المسلمين الآن أن يتصوروا أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياة الأمن ، أو أن يتوقف الحذر . مادامت هذه الجبهة مفتوحة عليهم جميعاً وأخطارها قريبة من كل أوطانهم . فإذا أمنوا وأقاموا مجتمعاً فيه طابع الرفاهية والترف فإن ذلك سيكون منذراً باجتياحهم من قوى عديدة تتربص بهم . ولذلك فعلى المسلمين والعرب أن يوطنوا أنفسهم على أن يعيشوا حياة الخطر والتحدى لا حياة الأمن ، وأن يظلوا قائمين فى مواجهة الخطر وفى حالة الحذر ، وأن يكونوا فى رباط دائم . وليس هذا غريباً ولاعجيبا ، ولكن الغريب هو عكسه مما حاول خصوم المسلمين أن يلقوه إليهم بالطمأنينة والاستسلام وإلقاء أنفسهم فى أحضان عدوهم وقد شهدوا نتيجة التجربة وخطأ التبعية فإن قوانين التغريب والغزو الثقافى أوقعتهم فى الهزيمة مرة ومرة ولم يتحقق

لهم النصر إلا حين أخذوا بقوانين أمتهم وعقيدتهم والتمسوا الأصالة من خـــلال مفهوم الإسلام .

ولا زال الإسلام كـذلك وسيظل منذ أن بزغ فجره وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يمثل هذه القوة الصامدة على أرض الله تحمى رسالته وأمنه فى مواجهة كل القوى التى تحاول أن تجتاحها سواء جاءت من شرق أو غرب أو شمال أو جنوب ، وذلك موقعها الجغرافى ومركزها الاستراتيجى ومـكانها الاقتصادى ومقدراتها ومعطياتها وثرواتها ، ولأمر آخر ، ذلك أنها تحمل رسالة التوحيد والعدل والأخاء البشرى إزاء عالم يعيش بالأحقاد والصراع والتسلط والسيطرة . ولذلك فقد كانت كل القوى وستظل تحاول أن تتجمع لتحطيم هذا الـكيان أو احتوائه ، ومن هنا كان على أصحاب هذا الـكيان أن يكونوا قادرين بأحدث وسائل العصر وأقوى قوى الإيمـان بالله على الثبات فى وجه الأعاصير والصواعق .

ومن هنا جاءت كلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاسمة فيما معناه أن هذه البقعة فى رباط إلى يوم القيامة . وحين يحاول الباحثون والمفـكرون مراجعة التاريخ فى سبيل البحث عن سبب التخلف الذى أصاب المسلمين والهزيمة التى لحقت بهم فى الماضى ، نجد أن ذلك يتركز فى مصدر واحد هو أقوى من كل المصادر وأبرزها ذلك هو [فقدان الحـــذر والاستسلام إلى الأمن] . وشىء آخر هام : هو تهاوى الإرادة الحاسمة فى وجه الخطر . ولا ريب إن تخلف المسلمين على مدى العصور قضية مستقلة عن الإسلام نفسه كنهج ورسالة ، ذلك أن المسلمين قد طبقوا الاسلام فى مراحل من تاريخهم فوجدوا عظمة التمـكين فى الأرض فلما خالفوا عنه وجدوا الأزمة التى لاتنكشف إلا بعودتهم إلى التماس منهج الإسلام . ولا عيب فى المنهج لأنه منهج ربانى المصدر ، قائم على الفطرة والحق والخير وقد جرت تجربته الناجحة المظافرة وسجلت بصماتها على صفحات التاريخ ولن تـكون القيم الاسلامية فى تقدميتها ونصاعتها مسئولة عن التخلف بحال وإنمـا جاء التخلف من تجاوزها وإهمالها . وسقوط العزيمة وتهاوى الارادة ، هى مصدر آخر إلى جانب الغفلة عن الأخطار المحـــدقة من كل جانب ، ويرجع ذلك إلى التهاون فى بناء الانسان المسلم على الصمود والخشونة والانفطام عن الشهوات بحيث يكون قادرا على الانتصار على النفس فلا تستهويه المتارف والمغريات فيسقط ذليلا أمامها ، ولا بد أن يعود المسلمون إلى بناء الارادة بالاستعلاء عن الأهواء وبناء الفـكر بالنظر إلى مختلف الأبعاد . أن ظواهر التخلف ظهرت فى اليوم الذى بدأ فيه المسلمون يميلون إلى الحلول السهلة ويسترخون ويتجاهلون الخطر المحدق ويبتعدون عن حياة الوقوف فى وجه التحدى والمرابطة الدائمة فى الثغور والانحراف عن تطبيق القرآن شريعة أمه ومنهج حياة ، وهم أمة الرباط إلى يوم القيامة كما حدث الصادق المصدوق.

لقد فقد المسلمون التحدى فسقطت العزيمة وغفلوا عن المجاهدة حين فقدوا روح الصلاة ، وطابع الايمان واكتفوا بالمظاهر ، وهذا الدين لا يصلح له إلا من يأتيه من جميع أطرافه . عند ذلك دارت الدائرة . . يقول المؤرخ أرنولد توينبي : أن الغرب وضع الحبل فى رقبة العالم الاسلامى منذ القرن الخامس وكان يتهيب أن يشده وظل خائفا ثلاثة قرون ، ثم بدأ له أن المسلمين فى نوم عميق فشد حبله وسيطر . وعلى المسلمين أن ينظروا إلى الطامعين ، وكيف أنهم يعيشون فى حالة التحدى التى لا تنتهى ، وهم على الباطل فما بال أهل الحق وفى حوزتهم تلك الأمانة التى سلمها لهم الأجداد ، كيف يلقون الله وقد فرطوا فيها وكيف يحكم عليهم التاريخ ، هؤلاء فى باطلهم لا يستسلمون فكيف يستسلم المسلمون ويفرطون فيما يملكون وهم حملة أصدق رسالة وأصحاب حق ، وهم الموكلون بتبليغ هـذا الدين إلى العالمين . ولماذا لا يثبتون على حقهم ولا يصمدون فى مواجهة الأعاصير الموج ، ولماذا لا يعيدون بناء إرادتهم بإقامة صرح التربية الاسلامية ، ولماذا لا يفهمون تغيرات الأمم والمجتمعات وقد أعطاهم كتابهم نواميس الكون والأمم والحضارات . أن مسئولية المسلمين فى هذا العصر جد خطيرة وحساب التاريخ لهم جد عسير .

(٣٦)

الاسلام فى دورة الفلك

ترددت فى الغرب منذ وقت بعيد أفكار تقول : « أن الحضارة الغربية فى طريقها إلى الأنهيار وأنه لكى يطول أمد إنهيارها يجب القضاء على الوريث الوحيد الذى هو الأمة الاسلامية التى تحمل بدينها وتراثها وترابطها وموقعها الاستراتيجى كل مؤهلات القدرة على حمل لواء الحضارة على نحو أكثر صلابة وعدالة وإنسانية ومن أجل هذا وجهت الخطط للعمل على تفتيت هذه الأمة حتى لا تتمكن من القدرة على إمتلاك إرادتها والسيطرة على العالم . هذا المعنى الذى انتهت إليه أبحاث مؤتمر علمى جمع صفوة من الباحثين الغربيين الذين درسوا تاريخ الحضارات القديمة وخاصة الحضارة الرومانية والفارسية وغيرها ، ومايزال يفرض على مخططات الغرب وجهة معينة فى كل ما يتعلق بأمر الاسلام والمسلمين ربما لا تبدو واضحة لدارسى الأحداث الفرعية يوما بعد يوم حيث يجد علامة استفهام كبرى أوحلقة مفقودة ، وهذا العمل هو من مخططات الصهيونية والاستعمار والماركسية وهى القوى الثلاث التى تتمثل فى « قوة قائمة من وراء المذاهب والحكومات والنظم تحاول أن تفرض نفوذ أصحابها على واجهة السياسة العامة الظاهرة .

ومن وراء هـذه القوى تـكمن الدعوة إلى محاولة تقليص المسلمين بوسائل مختلفة من بينها إضعاف نسلهم وتحديده حتى لا يكونوا تفوقا بشريا خاصة وأن الغرب الآن قد وصل إلى مرحلة الانهيار والضعف ثم محاولة تبديد الثروات الاسلامية حتى لا تشكل قوة تجمع وتحشد فى مواجهة الغزو الاستعمارى والصهيونى. وعن طريق « التغريب » والغزو الثقافى حتى لا يلتقى المسلمون على أساس واحد من الفـكر والإيمان والاعتقاد. ونحن حين نبحث فى كتابات رجال الاستشراق والاستعمار نجد (توجيهات صريحة واضحة فى هذه الأمور جميعا، كلها تعلن الخوف من الوحدة الفـكرية الاسلامية وهناك محاولات تحاول أن تجدد صيحات الخوف من الجامعة الاسلامية والوحدة والخلافة).

ومن أجل هذا يجرى العمل فى محيط الفـكر المطروح فى أفق العرب والمسلمين على دعوتهم إلى أشياء كثيرة كلها زائف. وأخطر ما يدعون إليه فرض تصور بضرورة التلازم بين الأخذ بعلوم وتـكنولوجيا العصر وبين إتباع أسلوب العيش الغربى بـكل علله وأمراضه. وأى عقل يمـكن أن يقبل ذلك: هذا جهاز غربى الصنع من أحدث الأجهزة سواء كان عقلا إلـكترونيا أو آلة سينما أو راديو أو مركبة فضاء كيف يمـكن أن يطلب إلى أن أحمل داخله فـكرا غربيا أنه (أداة) ليست سوى منطلق لما أريد أنا أن أقوله عن طريقها أو أحمله عليها. ما العلاقة بين المطبعة أو السينما أو التليفزيون وبين آراء الغرب ومفاهيمه وسمومه، أن هذه الأدوات إنما استقدمناها لتحمل للناس فـكرنا وتاريخنا ووجهة نظرنا فهى أداة فقط مفصولة تماما عن فـكرها. ونحن ننقل أحيانا مترجمات الغرب وأفلامه ورواياته ولـكننا نعرف دائما أن ذلك هو فـكر ومثل وأساليب مجتمع غير مجتمعنا، نطالعها لـكى نعرف أساليب عيش الآخرين ولـكننا لا نطبقها حيث لنا أساليبنا وتقاليدنا وقيمنا. وكيف يمـكن أن ننقل أسلوب عيش الغرب والغرب الآن يسير فى مرحلة التمزق والانحلال والانهيار الاجتماعى سواء فى أسرته أو مجتمعه أو أخلاقه أو أدبه أو فلسفته وكيف يطلب إلينا أن نقبل ذلك. ولو كان الغرب فى مرحلة القوة والتماسك اليوم لما كان لنا العذر أيضا فى أن نأخذ أسلوب عيشه ولا أن يبهرنا منهجه، فإن جذور الخلاف ووجهات النظر وطريقة التفـكير بيننا وبينه هى جد مختلفة من الأعماق. وما نحن بطبيعة ديننا وتركيبنا الثقافى والاجتماعى مؤهلون للاندماج أو الانطواء أو الانصهار فى المجموعات البشرية الأخرى مع تقديرنا للجامعة الإنسانية التى تربطنا ولـكننا مؤهلون فى الحقيقة لأداء دور مختلف: صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، فهذه الجماعة المؤمنة التى أنشأها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ليست فى الحقيقة إلا « جهازا » جديدا إنما « أعد » ليقدم للبشرية رسالة الله وليؤدى على وجه الأرض كلمة الحق ولتقيم مجتمع الانسانية الـكريمة التى عجزت الايدلوجيات المتعددة عن أن تصل إلى شىء منه، هذه الأمة إنما تعد لذلك، ودورها قادم، وأن

جهل ذلك الكثيرون الذين يرون أنه لا فائدة لنا إلا أن تندمج وتنصهر فى الحضارة القائمة بخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب ، وما هكذا كانت دعوة قرآننا ورسالة نبينا ، وإنما كانت هذه الرسالة لقيادة البشرية إلى الخير والحق . ولا ينتقص من هذا الهدف الكبير الضخم الذى لم تنضج بعد الأمة الاسلامية لأدائه وحمل أمانته ، لا ينتقص منه ما نرى من « أزمة » وتخلف وتمزق ، ماتزال عقابيله بعيدة المدى وما يزال الضوء الكاشف للفجر الجديد بعيد ، ولكن من يعرف أن هذا الكون يجرى أمره على سنن وقوانين لا تتخلف . (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) . يعرف أن للمسلمين لا يخرجون على هذا القانون مهما كانوا مؤهلين لقيادة البشرية ، ولابد أن يخضعوا لسنن الله وأن يغالبوها ويتوافقوا معها حتى يصلوا إلى وضع القوة والتمكن : وهذه الحضارة القائمة إنما هى بمثابة حقل التجارب الذى يوضع بين أيدى المسلمين حثيثا ، ليقفوا على ماقى التجربة الغربية التى أمتدت منذ أن أسلم المسلمون ميراثهم فى الأندلس إلى اليوم . وليروا ما هى إيجابياتها وسلبياتها وليتمكنوا من بعد من تحقيق إرادة الله وتطبيق حدود الله فلا تكون الحضارة صراعا ولا ترفا ولا بذخا ولا ظلما ولا سيطرة ولا غرورا فإذا أحسن المسلمون فهم تجربتهم الأولى وتجربة الغرب اليوم واستقاموا على الطريقة أسلم الله إليهم قيادة البشرية فى مستقبلها القريب وإلا فإن سنة الله سوف تلحقهم مرة أخرى .

إن الأمة الإسلامية المؤهلة لقيادة البشرية وذات المعتقد الأصيل الأصل لا يمكن أن تخدع وهى تستطيع أن تأخذ من العلوم ما تشاء على أنه مواد خام وأن تصهر ذلك فى بوتقة (لا إله إلا الله) متحررة من أنماط العيش ومن أوهام الوثنية وأخطار المادية وفساد الأباحية وهى تعرف الآن معرفة تامة ماذا يريد بها الغرب ؟ وماذا يعد لها ، وتعرف أن الحضارة العصرية على شفا الهاوية ، بالإلحاد والتمزق والتحلل . وسوف تنكسر كل القيود وتتحطم كل المؤامرات التى تدبر لتأخير دور المسلمين وإطالة أمد الحضارة المنهارة (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) يحدث هذا عندما يصبح المسلمون مؤهلين لحمل الأمانة قد فطموا أنفسهم عن الشهوات والمطامع وأصبحت الدنيا فى أيديهم وليست فى قلوبهم وليعلموا أن ما يعطيهم الله من تفوق بشرى وثروة مال وموقع استراتيجي إنما هو فى عداد المسئولية والحجة المقامة عليهم يوم الحساب بأنهم قادرون على إقامة الحق ودك الباطل .

لاريب أن المسلمين اليوم هم المؤهلون لهذا الدور الذى يقترب حثيثاً ولكنهم فى حاجة إلى استعداد كبير لحمل الأمانة ، وإلى فهم عميق لضرورة تحويل الحضارة فى اتجاه العمل الانسانى القائم على الأخاء البشرى وعلى المساواة بين الناس وعلى هدم العبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،

وعلى أن تكون ثروة المسلمين فى سبيل إسعاد البشرية كلها وليست لخدمة حفنة من أباطرة الاستعمار والصهيونية المسيطرين الآن على مقدرات الشعوب . أن كل الدلائل والعلامات تدل على أن حضارة المجتمعات الغربية سوف تنهار وتندك معاقلها وسوف ترد أصولها ومقوماتها العلمية إلى أيدى المسلمين — جزاءا وفاقا — ليحملوا مرة أخرى أمانة الحضارة الحقة فهل سيكونون على طريق القرآن ونهج الاسلام . ليست المسألة أكثر من مسألة وقت حتى يمتلك المسلمون فى أيديهم تلك الأسرار العلمية بقوة ويحولونها إلى أحضان لغتهم التى هى لغة القرآن وأن التحدى الصهيونى ما هو إلا مقدمة لهزيمة المكر والتآمر اليهودى مهما بدأ الآن وكأن الصهيونية قادرة على الحركة .

وسوف تعيش حضارة الاسلام الصاعدة حضارة التوحيد إلى جانب حضارة الغرب الغاربة حضارة الوثنية فلا عيب أن تتجاور الحضارات ولكن البشرية سوف ترى نموذجا فريداً . فالحضارة الاسلامية ليست عدوانية ولا غازية ولا مستعمرة ولا متسلطة ولكنها سوف تجعل معطيات العلم والتمدن للبشرية كلها وليس لجنس ولا لأمة ولا لطبقة . ومهما حاول دهاقين السياسة الغربية من استعمار وماركسية وصهيونية فى تأخير هذا الضوء عن ظهوره فى موعده المقدر له فلن يستطيعوا .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

صدق الله العظيم

الرســــالة الثالثة

من الوحدة الإسلامية العثمانية
إلى : العرب والترك (والعروبة والإسلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

تفسير جديد للتاريخ الإسلامى المعاصر

انكشفت فى السنوات الأخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيعت أسرار كثيرة ظلت فى على الكتمان أعواماً وأجيالا ، وقد كان لخطورة هذه الحقائق والأسرار أثرها البعيد فى مجرى الفكر العالمى ، وكان لها بالطبع أثرها العميق فى حركة التاريخ الإسلامى المعاصر جميعاً . ذلك أن وقوع العالم الإسلامى تحت سيطرة النفوذ الأجنبي فى القرون الأخيرة قد خلق حالة من حالات الخطر وأنشأ أزمة بالغة الأهمية بالنسبة لحركة اليقظة العربية الإسلامية التى كانت قد بدأت عملها منذ منتصف القرن الثامن عشر قبل أحداث كثيرة وقعت فى أوربا وفى الشرق ومنها الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية على مصر ومخططات النفوذ الاستعمارى التى عمدت إلى تمزيق جبهة العالم الإسلامى بتقسيم أفريقيا وآسيا ، ووضع حاجز بشرى بينهما فضلا عن أطماع الصهيونية العالمية فى الزحف إلى فلسطين والسيطرة على بيت المقدس ، ولقد كان النفوذ الاستعمارى فى مجال الفكر والثقافة والتاريخ والأدب واللغة قد أعد خطة كاملة لضرب الإسلام واللغة العربية والعروبة جميعا من أجل تثبيت دعائمه ، وفى هذه المرحلة توالت قوى النفوذ وتعددت وحاول كل منها أن يسيطر على السابق وأن يفرض سلطانه على هذا العالم الإسلامى الذى هو فى نظر الجميع: مصدر الثروة الاقتصادية والاستراتيجية ، وقد كانت قوى الاستعمار بما فيها فرنسا وانجلترا وروسيا ومن ورائهم الصهيونية العالمية كلها تستهدف تقسيم العالم الإسلامى أساساً والقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها القوة الأساسية القادرة على تجميع المسلمين ورفع علم الوحدة أو التجمع أو التضامن الاسلامى ومن هنا فقد كان المخطط يحتوى على عملين أساسين:
العمل الاول : هو بث الشبهات حول القيم الاسلامية العربية فى مجال التاريخ واللغة والعقيدة جميعاً

وذلك عن طريق مؤسستين أساسيتين : إحداهما (مدرسة الاستشراق) التى كانت تدرس وتصنع وتحاول تجميع الشبهات والتناقضات وتذيعها على أنها حقائق وذلك من أجل تدمير معنويات هذه الأمة فى نفوس أبنائها وخلق جو من اليأس والتمزق وصولا إلى أن إثارة الشبهة بأن الاسلام والقرآن واللغة العربية هى جميعا مصدر ما وصل إليه العالم الاسلامى من ضعف وتخلف وأن الطريق الوحيد هو الانصهار فى بوتقة الغرب العالمية والذوبان فيها . (العمل الثانى هو إعلاء) شأن أوربا والغرب والحضارة ، والفكر الغربى والجنس الأبيض باعتبارها جميعا تمثل القوة المسيطرة على مصير العالم « وأن زعماءها وأبطالها ولغاتها وفكرها هو : المصدر الوحيد للنهضة التى يحاول أن يلتمسها العالم الاسلامى . ومفهوم هذا المخطط هو أن ينسلخ المسلمون والعرب من تراثهم وقيمهم ولغتهم ، وأن يذوبوا فى داخل بوتقة الفكر الغربى المسيحى الطابع الوثنى الأغريقى الجوهر المضطرب فى داخله وأعماقه بين فلسفات الفردية والجماعية والليبرالية والرأسمالية والشيوعية والذى لم يستطع أن يصل خلال خمسة قرون كاملة إلى منهج اجتماعى أو نفسى يعطى الانسان المعاصر ذلك التطلع إلى الآفاق العليا من إيمان وعقيدة فقد بدأت النهضة الغربية من مصادر الاسلام والمنهج العلمى التجريبى الاسلامى أساسا ثم تحولت إلى مناهج الوثنية اليونانية مع إطار من المسيحية فمزجت كل ذلك وصاغت منه منهجا مضطربا، قوامه الليبرالية الرأسمالية ثم انبثق منه منهج الجماعية الماركسية الذى تمثل فى الشيوعية السوفيتية وقام بينهما الصراع الطويل الذى ما زال مستمراً ، ثم قامت الصهيونية العالمية مسيطرة من وراء المنهجين والمجتمعين فى سبيل الوصول إلى وراثة النظامين وإقامة الدولة اليهودية العالمية الكبرى .

وقد واجه العالم الاسلامى صراع القوى الثلاث لأن هذا الصراع دار على أرضه أساسا ثم واجه الفكر الاسلامى صراع المذاهب الفلسفية والاجتماعية المختلفة وكان موقفه منها موقف المتردد فى قبول ما فرض عليه بقوة النفوذ الاستعمارى أولا ، ثم تحول من ذلك إلى وعى بموقفه ، ومفاصلة بين مفاهيمه الأساسية العميقة ذات الجذور البعيدة المدى فى التربة الاسلامية العربية والنفس العربية الاسلامية والتى بثها القرآن ، ورسمها الاسلام ، وأذاعها محمد منذ خمسة عشر قرناً ، وبين هذه القيم المضطربة والمتصارعة التى تختلف عن مفاهيمه فى أعمق أعماقها وفى أصل جذورها : « التوحيد » .
ولقد كانت اليقظة العربية الاسلامية التى انبعثت من أعماق الأمة العربية مجددة لها ومجددة العالم الاسلامى وفكره جميعا قد بدأت قبل الغزو الاستعمارى الغربى ، وكانت حفية بأن تشق طريقها إلى الامام فى قوة لتحقيق هدفها من البعث الاسلامى على النحو الذى حققته الحركات المتوالية فى تاريخ الاسلام غير أن اندفاع الغزو الغربى الاستعمارى فى جولته الجديدة التى أطلق عليها اللورد اللنبى

(الحملة النهائية للحروب الصليبية) بعد سبعمائة عام لم تتوقف خلالها : هذه الاندفاعة فرضت على حركة اليقظة أن تواجه وتقاوم وتحرر المفاهيم وتصحح الأخطاء وتدافع من منطلق الفكر تلك الحملة الضخمة من الشبهات والتحديات . فتضاعف حملها وتعقدت مهمتها ، وخاصة بعد أن استطاع النفوذ الاستعماري أن يقيم دائرة مغلقة لدعوته ، وأن يفرضها على أنها هي وحدها فكر التقدم وقد أقامها من خلال معاهد الارساليات ومدارس وجامعات التبشير ومن خلال خريجيها وأبنائها الذين سيطروا على الصحافة في البلاد العربية ثم سيطروا عن طريق اوليائهم وأتباعهم على فأمسكوا في أيديهم القوى الثلاث :

والتعليم والصحيفة والثقافة » ولقد كانت لمعونة النفوذ الاستعمارى لهذه الدائرة أثرها الواضح في إعلائها وإعطائها القوة والسيطرة في مجالات الحكم والسلطان والدولة ، بينما تقاص ظل الدائرة الأصلية المرنة التي قامت أساساً من أعماق الأمة حاملة لواء اليقظة الاسلامية العربية . غير أن حركة اليقظة الأصلية ذات الدائرة المرنة لم تلبث أن وجدت الكثير من الأسانيد والوثائق التي بدأت تنكشف أولا بأول والتي أنارت أمامها الطريق إلى معرفة الخفايا المضللة والخلفيات الخطيرة التي يدبرها الاستعمار والصهيونية من أجل القضاء على مقومات هذه الأمة التي لم تستسلم من قبل لغاز ولم تذل لطامع ، والتي كانت مقوماتها قادرة على أن تمنحها القوة لترد الغزو وتحطم التسلط الذى استمر على مدى حقب التاريخ الاسلامى ومراحله والذى تحرك فى صور متعددة من الحروب الصليبية إلى حروب الفرنجة إلى الغزو الاستعمارى الحديث . ولقد تكشف للغزو أثر هزيمته الساحقة في الحروب الصليبية وانسحابه مدحوراً بعد مائتى عام من المؤامرة ، أن هذه الأمة لاتغلب عن طريق الحرب ، لأن مفهومها فى الجهاد والمقاومة والنبذ على السواء ، والتجمع فى وجه الخطر تحت لواء القرآن كل ذلك كان حائلا قويا دون فرض سيطرة طويلة المدى ، ومن هنا : خطط الاستعمار وقدر وفكر ودبر حتى وصل إلى نقطة بدء خطيرة : هى العمل أولا على تدمير مقومات هذه الأمة التى تستمدها من الاسلام والقرآن ، فإذا تحطمت هذه المقومات استسلمت هذه الامة للغزو وعاشت خاضعة ذليلة للغرب ، وفقدت سمات شخصيتها ، ومعالم ذاتيتها وطابع حضارتها . ومن هنا كان الغزو الفكرى من أبرز أعمال الاستعمار ممثلا فى التبشير والاستشراق والارساليات وجامعاتها والسيطرة على التعليم والصحافة والثقافة ومن هنا أيضا كان أبرز أعمال حركة اليقظة كشف هذه المخططات ومعرفة هذه الخفايا وفضحها والتحذير منها وتصحيح المفاهيم التى حاول التغريب أن يفرضها ويذيعها ويدافع عنها ويحميها . ويدخلها فى مناهج التعليم والثقافة ، ويضعها فى قوالب من النظريات العلمية والدراسات

التاريخية حتى تصبح مقررة فى النفوس ، توصلا إلى عملية هدم هذه المقومات ذاتها ، وفرض عقلية غربية مخالفة على مناهج اللغة والتاريخ والفكر جميعاً ، بالاضافة إلى فرض نظريات القانون والنفس الغربيه والاجتماع ، ومن هنا فقد كانت مهمة المصلحين المبرزين فى هـذه المرحلة ، هى تصحيح المفاهيم وكشف مخططات الاستعمار والتبشير والشعوبية والتغريب .

وقد كشفت السنوات الاخيرة الكثير من المخططات ، ولكنها كانت تظهر بين حين وآخر ثم تختفى غير مخلفة وراءها شيئاً ، ولما تباعدت بينها الفترات ، لم يكن فى الامكان أن تحدث فى الفكر الاسلامى العربى أثراً واضحاً : ولذلك كان لابد من الربط بينها وعرضها على نحو متكامل شامل ، حتى تستطيع أن تبدو فى صورتها الحقيقية حيث تمثل تحديا واضحاً يمكن مواجهته والنظر فيه ، إذا كان الاستعمار يعمد إلى أسلوب التفتيت أو الذرية فى إخفاء هذه المخططات واحداً بعد آخر ، أو التهوين من شأنها ، أو ضرب بعضها ببعض ، اعتماداً على أن العرب والمسلمين لايجمعون الظاهرات المفرقة ولايعنون بالنظر نظرة متكاملة . وأمامنا الآن قدر كبير من هـذه الظاهرات يمكن أن تشكل مخططا كاملا واضح المعالم فى غزو الفكر الاسلامى والقضاء على وحدة العالم الاسلامى ، هذا المخطط هو ما قدره الاستعمار فعلا (بالاشتراك مع الصهيونية العالمية) أو بواسطتها فى الاغلب وما نفذه فعلا وكان منطلقه فيه هو تمزيق الرابطة العضوية العميقة الجذور بين (العروبه والاسلام) وذلك عن طريق ضرب العرب والترك داخل الدولة العثمانية لتمزيقها وفرض دعوات الطورانية والاقليمية والفرعونية والفينيقية والقومية الضيقة المغلقة وفق المفهوم الغربى الوافد .

وقد امتد هذا المخطط فكريا واستطاع عن طريق النفوذ الاستعمارى أن يحقق نتائجه فعلا ، على الوجه الذى رسمه الاستعمار والصهيونية والتغريب . وكان علينا أن نعرف أولا : هل العلاقة بين العروبة والاسلام هى علاقة مرحلية أم علاقة طبيعية لافكاك منها . إن كل القيم الأساسية للفكر الإسلامى وكذلك الوقائع والأحداث التاريخية تكشف بما لايدع مجالا للشك بأن العلاقة بين العروبة والاسلام علاقة جذرية :

(٢)

الترابط الجذرى بين العروبة والاسلام

إن بين العروبة والإسلام ترابطاً جذريا عميقاً قديماً ممتداً عبر خمسة عشر قرناً من الزمان التقى فيه (العرق) مع (الفكر) ثم انصهر العرق فى دائرة الفكر فأصبح قوة عاملة حملت الاواء وقادت الحركة . هذا الترابط هو أخطر ما واجهه الاستعمار الحديث ، فقد كان من أخطر العوامل فى تحطيم حركة الحروب الصليبية ودحرها ، ثم كان عامل المقاومة الخطير فى وجه الغرب الزاحف بعد الحروب الصليبية وذلك بقيام أكبر وحدة إسلامية عربية بين العرب والترك ، وهى وحدة وليست استعماراً ، وقد بلغت هذه الوحدة أقصى مداها وقوتها ، حين تجمعت فى حركة الجامعة الاسلامية التى قادها السلطان عبد الحميد ووقف بها فى وجه الاستعمار فكانت أكبر التحديات التى واجهت الاستعمار الغربى وكادت تقضى على مخططاته لولا تآمره بالسلطان عبد الحميد وتدبير خطة إسقاطه كخطوة أولى لتدمير هذا الترابط الجذرى بين العروبة والإسلام الذى تشكل فى جبهة شاملة تقف فى وجه الاستعمار وتهدد بالمقاومة الشامله ، ليس فى حدود الدولة العثمانية وحدها ، بل فى نطاق العالم الاسلامى كله الذى يدين بالخلافه الاسلاميه .

لقد كان هذا الترابط هو أكبر أزمات التـــاريخ الإسلامى المعاصر ، والفكر العربى الإسلامى الحديث ، وهو أعمق « بؤرة » التقاء وأعظم قوة ركز النفوذ الأجنبى حربة عليها ، وجند لها قواة فى مجال السياسية وذلك عن طريق تمزيق الدولة العثمانية والوحدة العربية التركية وإلغاء الخـلافة الإسلامية ودحر حركة الجامعة الإسلامية التى كادت تجمع تحت لواء الخلافة (العالم الإسلامى) كله ، القائم خارج نطاق الدولة العثمانية . ولقد كانت الدولة العثمانية هى نقطة الارتكاز الحقيقية فى الدعوة . ومن هنا لقد كان من أخطر ما استهدفه الغزو الثقافى ودعـــوات التغريب والشعوبية عن طريق مؤسسات التبشير والارساليات وحركة الاستشراق هو فصم هذه العروة ، ودحر هذه القوة ، وتمزيق هذه الوحدة ، ومحاولة القضاء على هذا الترابط الجذرى بين العروبة والإسلام، ولقد كان من الضرورى لكى يتم ذلك فى مجال السياسة والجغرافيا والاستراتيجية ، أن يبدأ أساسا فى مجال الفكر والدعوة والصحافة والمدرسة والثقافة .

وقد حمل لواءه أول الأمر دعاة من الأجانب الغربيين ثم تولى بعدهم أبناءهم وتلاميذهم من العرب

والمسلمين . وقد بدأ ذلك واضحاً فى دعوات عديدة متفرقة ولـكنها تشكل فى مجموعها هدفاً واحداً وتكون أيديولوجية متكاملة : (أولا) الدعوة الطورانية : فى تركيا استمداداً من جنكيزخان . (ثانياً) الدعوة إلى الوحدة العربية (المحصورة أولا فى الشام) إنفصالا عن الخلافة ثم فى الشام والحجاز (ثالثاً) الدعوة إلى خلافة عربية بدلا من خـلافة إسلامية . (رابعاً) الدعوة إلى العـاميه . (خامساً) الدعوة إلى الاقليمية الضيقة وعزل مصر عن الأمة العربية . (سادساً) عزل المشرق العربى عن المغرب العربى . (سابعاً) دعـوة المحاور الثلاث · الصحراء (الحجاز والأردن) والمشرق (الشام والعراق) وأفريقيا (مصر والمغرب العربى) . (ثامناً) الدعوة إلى الفينيقية فى لبنان ، والكيان اللبنانى . ولقد كان مخطط الفصـل بين العروبة والإسلام مرسوماً على درجتين : (أولا) إنشاء جيل يحمل لواء الدعوة فى تركيا وهم الاتحاديون الذين تربوا فى أحضان المحـافل الماسونية خمسين عاماً . (ثانياً) إنشاء جيل يحمل الدعوة فى العالم العربى وهم خريجو الارساليات فى بيروت وهم الذين اصطفاهم الاستعمار لحمل لواء الصحافة فى العالم العربى كله وفى مصـر بالذات . وقد بدأت الخطوات على الوجه الآتى : (أولا) الايقاع بين الموارنة والدروز لعزل لبنان وإقامة كيان خاص به كاتم ١٨٦٠ . (ثانياً) رفع لواء الدعوة إلى العروبة انفصالا عن الترك ، والدعوة إلى الخلافة العربية لعزل سوريا عن الدول العثمانية .

(ثالثاً) إسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الجامعة الإسلامية التى كانت أخطر رد فعل واجه الاستعمار من حيث تجميع العالم الاسلامى خارج الدوله العثمانية تحت لواء الخلافة الاسلامية والبيرق النبوى . (رابعاً) إعلاء شأن الاتحاديين فى تركيا لتمزيق الوحدة بين العرب والترك داخل الدولة وذلك بتعليق المشانق للعرب واتهامهم بالخيانة . (خامساً) إعلان الدعوة الطورانية وتتريك العناصر بما فيهم العرب ، حتى يضطر العرب ، إلى إعلان الدعوة إلى الانفصـــال . (سادساً) إدخال تركيا العثمانية الحرب العالمية للقضاء عليها وتمزيقها . (سابعاً) تقسيم الأجزاء العربية بين الحلفاء . (ثامنا) تحويل تركيا إلى الغرب كلية بعد الحرب العالمية الأولى للانفصال عن العرب والاسلام . وقد تم هذا فى مجال السياسة بعد أن مهدت له القوى الاستعمارية فى مجال الفـكر بالدعوة إلى فصم عروة الترابط الجذرى بين العروبة والاسلام ، التى هى قوام وحدة العالم الاسلامى والترابط الحقيقى المحدد لموقف العرب من العالم الإسلامى ، ومن الاسلام ومن المسلمين ، ولموقف المسلمين من العرب والاسلام .

تلك هى أضخم التحديات التى واجهت العالم الاسلامى الحديث من أجل سيطرة النفوذ الاستعمارى فى موجاته الثلاثة المتوالية المتداخلة المتصلة :

(١) الاستعمارية الغربية الرأسمالية . (٢) الشيوعية الماركسية البلشفية . (٣) اليهودية الصهيونية الاسرائيلية . ومن هنا كان على الباحثين أن يكشفوا هذه المخططات من خلال التقارير الرسمية للاستعمار والصهيونية ، ومن خلال الوثائق التى رفع عنها الستار فى خلال السنوات الأخيرة . وهى وثائق كثيرة متعددة يمكن إذا تجمعت ، أن تشكل صورة كاملة لخطة الغزو ، ومداه ، وغايته . ولاشك أن كشفها وتصويرها على نحو متناسق من شأنه أن يعين المفكرين المسلمين والعرب فى التعرف على هذه التحديات ومواجهتها . كما يعين كذلك على تفسير الأحداث الواقعة والمستمرة والخطوات التى تجرى بها السياسة الغربية الاستعمارية والصهيونية العالمية وكل القوى الطامعة فى غزو العالم الاسلامى والسيطرة عليه . ولاريب أن ترابط الاسلام والعروبة (سياسيا وفكريا) هو أخطر قوة واجهت المؤامرة العالمية : (١) أما الترابط السياسى فيتمثل فى (الوجود الاسلامى العربى) القائم فى الدولة العثمانية فعلا ، بالاضافة إلى الخطة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد من أجل تجميع المسلمين خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة الاسلامية كقوة موحدة لمواجهة النفوذ الاستعمارى الصهيونى الزاحف .

٢ — أما الترابط الفكرى فيتمثل فى الدعوة إلى تحرير العقيدة الإسلامية وهى الخطة التى عرفت (بحركة اليقظة العربية الإسلامية) والتى دعت الى تصحيح مفاهيم الإسلام وبعثه والتماس ينابيعه الإسلامية بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع قائم على أساس التوحيد مخالف فى ذاتيته كل المخالفة للدعوات وللمذاهب والفلسفات الوثنية ، ولقد عمدت المؤامرة العالمية للسيطرة على الإسلام والعالم لاسلامى (وتضم هذه المؤامرة الاستعمار الغربى وروسيا والصهيونية) ووحدت خطتها فى سبيل ضرب هذه الوحدة الأساسية (وحدة العروبة والإسلام) عن طريق مؤسسات الصحافة والسينما والأزياء ، وكلها تتخذ مادة عملها من مخططات الاستشراق والغزو الثقافى والتغريب ممثلة فى اذاعة عشرات من الفلسفات والدعوات والمذاهب لتدمير مقومات الفكر الإسلامى وقيمه الأساسية واغراقه فى تيه من التيارات والشبهات التى لا حد لها . ولقد جرى العمل من أجل تنفيذ مخطط المؤامرة العالمية فى مجالين :

(١) فى ضرب الوجود الإسلامى العربى الموحد القائم فى لدولة العثمانية فعلا (٢) وفى حركة الجامعة

الإسلامية وذلك بإثارة مذاهب الجامعات القومية فى تركيا وفى سوريا وفى لبنان وفى مصر وهى المناطق المرتبطة بحركة الوحدة الإسلامية · ولذلك فقد كانت الدولة العثمانية هى أكبر أهداف المخطط الاستعمارى بوصفه الكيان القائم الجامع ، والوجود المجسد للرابطة الإسلامية ، والحامل للواء التجمع الإسلامى فى وجه الغزو الاستعمارى . وهذا هو العمل الضخم الذى قامت به المؤامرة العالمية أولا . وقد تم هذا العمل على مراحل وفق خطة دقيقة مرسومة قوامها : (أولا) بناء تشكيلات : داخل الدولة العثمانية أحدها فى سالونيك يحمل لواء الدعوة الغربية للتجزئة والانفصال واعلاء شأن الجنس التركى وربطه بجذوره القديمة السابقة للاسلام والتى أطلق عليها من بعد اسم (الدعوة الطورانية) . والثانى فى بيروت يحمل لواء التجزئة والانفصال باسم العروبة أو الأمة السورية أوالدعوة الفينيقية . والثالث فى القاهرة يحمل لواء مصر للمصريين ثم الدعوة الفرعونية . وكانت الصهيونية العالمية من وراء هذا المخطط كله من أجل فتح الطريق أمام اليهود الى فلسطين ، ومن ثم كانت لها فلسفتها ومخططاتها وشبهاتها فى محاولة افساد حقائق التاريخ العربى والإسلامى وجغرافيته من أجل اقرار فرية ضخمة هى أن اليهود كان لهم وجود تاريخى فى فلسطين وأنهم حين يدعون اليه اليوم انما يجرون مع تيار التاريخ ، وكان ذلك العمل من أخطر أهدافهم .

(٣)

الدولة العثمانية

أكبر أهداف الاستعمار والصهيونية

ان كثيراً من الأخطاء والشبهات قد وضعت فى وجه التاريخ الإسلامى المعاصر من أجل الوصول الى تقرير أمور يراد بالتركيز عليها تنفيذ مخطط بعيد المدى فى تمزيق وحدة العروبة والإسلام كوسيلة لتمزيق وحدة العالم الاسلامى وانتزاعه من قيمه ومقوماته . ولقد كان من أكبر ما ركزت عليه الشبهات والحملات : دور الدولة العثمانية فى التاريخ الاسلامى وعلاقتها بالعرب ، ولقد انبعثت كتابات الغرب فى هذا المجال عن أسلوب غير علمى وغير منصف ، فقد كانت قضية الدولة العثمانية بالنسبة لأوربا من العوامل الخطيرة فى تشكيل العقل الغربى الحديث ، ومن هنا فقد صدرت هذه الكتابات وكلها تعصب وحماقة دون أن يستطيع أصحابها إلا القليلون منهم مواجهة البحوث العلمية والتاريخية مواجهة أصيلة صادقة .

ذلك أن الغربيين نشأوا يحملون مع لبن الرضاع تلك الكراهية المتعصبة الحاقدة للدولة العثمانية التى حطمت آمال أوربا خمسة قرون فى السيطرة على العالم الإسلامى، وحالت دون تحقيق مؤامراتهم فى إعادة الغزو بعد هزيمتهم فى الحرب الصليبية. والثابت تاريخياً أن الغرب الأوربى (ملوكا وكنيسة) لم يتوقف بعد الانسحاب النهائى عام ١٢٩١ م حتى قامت الدولة العثمانية ١٣٥٦ وفى خلال بضعة وستين عاماً، لم يتوقف عن محاولات الغزو وإعادة السيطرة على العالم الإسلامى وخاصة فى مناطق الساحل الشرقى للبحر المتوسط، فلما برزت الدولة العثمانية تغير الموقف تماماً وقام ذلك الصراع العنيف بين أوربا والدولة العثمانية الزاحفة فى قلب أوربا حتى أسوار فينا، وامتد هذا الصراع خلال خمسة قرون ونصف القرن حتى انتهى عام ١٩١٨. من هنا يجىء التفسير الصحيح للحماقة والحقد والكراهية التى تقسم بها كتابات المؤرخين والباحثين الغربيين حين يتصل الأمر بالحديث عن العلاقات بين الدولة العثمانية وأوربا، ومن هنا تنكشف تلك الصفحات الخفية التى كتبها (دجوفارا) فى كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا). Cent Prajets de Pasloge de Ie Turquie

وهو من الوثائق الهامة التى كشفت النقاب عن حقائق خطيرة فى الثلاثينات من هذا القرن، وصححت فى نظر الباحثين العرب والمسلمين الكثير من المواقف الخفية وأزالت تلك الدهشة التى اعترت الأذهان فترة على أثر تصريح اللورد اللنبى فى القدس بعد أن احتلها الإنجليز عام ١٩١٨ حين قال: «الآن انتهت الحروب الصليبية». ذلك أن أوربا والكنيسة كانت تخطط منذ ذلك الوقت البعيد للعودة إلى العالم الإسلامى والأخذ بثأر هزيمتها فى الحروب الصليبية، والاستيلاء على هذه المنطقة تحت اسم (الدفاع عن بيت المقدس): هذا الحلم العجيب الذى ظل يراود الساسة والكنيسة منذ عام ١٢٩١ أى بعد ستة قرون ونصف، والذى يبدو واضحاً فى هذه المشاريع المائة التى ظل الساسة يرسمونها سنوات طويلة، والتى كان وجود الدولة العثمانية حائلا دون تحقيقها حتى فى أشد فترات ضعفها. ومن هنا يتكشف ذلك المخطط البعيد المدى الذى بدأ بسقوط السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ وتسليم الدولة للاتحاديين أتباع المحافل الماسونية وتلاميذ المدارس الاستعمارية الغربية والذين دفعوا الدولة بغير مسوغ إلى الاشتراك فى الحرب العالمية بما حقق تمزقها وسيطرة أوربا مرة أخرى على الشام والعراق وبيت المقدس تمهيداً لتسليمه إلى الصهيونية. وبذلك تحقق ما أشار إليه اللورد اللنبى حين وقف فى القدس مذكراً بالحملات الصليبية ومكملا لهـــا ولقد أشار (دوجوفارا) فى كتابه إلى هذا المعنى حين قال أن معظم هذه المخططات كانت تقول «علينا أن نقوم بحرب دينية نستخلص بها القبر المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحى وحماية الدول العظمى.

وقال : إن كتاب النصارى والمفكرون منهم لم يكونوا يتوقفون عن تهييج خواطر الشعوب الأوربية وتحريضها على القيام بعمل مشترك لدحر الإسلام ولا سيما فى فلسطين . وقد شملت هذه المخططات الحرب والقتال كما دعا البعض إلى قطع الطريق على متاجر المسلمين وإعداد الأساطيل لهذا الحصار البحرى وتوالت المشروعات التى كان يرسمها البابوات وملوك أوربا وكانت فى أغلبها تدعو إلى الاستعانة بالأرثوذكس فى الشرق ليكونوا مع الكنيسة الكاثوليكية يدا واحدة فى وجه الإسلام ، غير أن هذه المشروعات جميعا لم تجد سبيلها إلى التحقيق ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ولم يعد فى استطاعة أوربا الزحف من هذا الطريق . وهنا نشأت تلك الفكرة بتطويق عالم الإسلام عن طريق الالتفاف حول أفريقيا والوصول إلى الهنـــد ومحاصرة الإسلام من الخلف ، ووضع الحبل حول عنقه تمهيدا لشده فى الوقت المناسب حسبما يعبر أرنولد توينبي فى كتابه [الغرب والعالم] . وهنا يبدو مدى دور الدولة العثمانية فى حماية الإسلام والعالم الإسلامى خلال خمسة قرون ويزيد بالوقوف فى وجه الغزو الأوربى الزاحف . فقد جمعت الدولة العثمانية شتات الشرق الإسلامى بعد أن ضعفت دولة المماليك فى مصر ولم يكن هذا التجمع فى حقيقته استعمار أو سيطرة أو احتواء حسبما يريد الكتاب أو يصفوه خطأ أو تعصباً لأوربا وللاستعمار نفسه . ذلك أن كلمة الاستعمار هى إصطلاح خاص ينطبق على تلك الحركة التى قامت بها أوربا بالزحف على دول العالم الإسلامى والسيطرة عليها عسكريا ثم سياسيا وما صاحبها من مخططات التبشير والغزو وغيرها أما الدولة العثمانية فلم تفعل ذلك ولم يكن هذا أسلوبها ، وإنما كان بين العرب والترك آصرة ضخمة هى الإسلام وهى كبرى الروابط إذ ذاك والمقدمة على غيرها ، والسابقة لدعوات القوميات والعناصر والأجناس التى عرفتها أوربا فى القرن التاسع عشر . ولقد كان التقاء مصر والشام والمغرب كله بالدولة العثمانية هو إلتقاء الترابط الفكرى والروحى الذى يدعو إلى تجميع الشتات للوقوف فى وجه الخطر الأوربى الزاحف .

وقد امتدت هذه الصلة قرونا ومع ذلك لم تحمل فى يوم من الأيام صورة الاستعمار ، ولهذا فإن محاولة تصوير هذه الرابطة بكلمة الاستعمار التركى إنما هى من عمل النفوذ الغربى الذى يحاول أن يصور الرابطة بين العرب والترك على أنها رابطة سيطرة واحتلال واستنزاف للقوى وهذا ما ليس معلوما بالطبيعة فى تاريخ هذه الرابطة فقد كان العثمانيون يدعون لكل قطر حرية نظامه وحكمه ويكتفون بالرابطة العامة تحت لواء الخلافة . وتكشف كل كتابات المنصفين زيف دعوى الغزو الثقافى والتغريب ، بل إن الذين عاشوا هذه الفترة وهم أقرب الناس إلى فهم هذه الحقائق يؤيدون

صدق ماذهب إليه . وفى هذا يقول العلامة محمد جميل بيهم أنه بعد « انسحاب الصليبيين وضعف المماليك تطلع العالم الإسلامى إلى قوة حامية ومنقذة تقف فى وجه الغزو الغربى الذى كان يصر على متابعة الحروب الصليبية فى المشرق وفى المغرب جميعاً ، كان العالم الاسلامى يتطلع إلى منقذ ينقذه من الهاوية التى سقط فيها فلما خرج آل عثمان إلى ميدان الكفاح وظهرت بوادر نجاحهم فى حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية علق المسلمون عليهم الآمال واتجهوا بقلوبهم إليهم . وقد خلفت الدولة العثمانية العرب على سيادة البحار فغدا البحر الأسود بحيرة لتركيا وقد بسطت السلطنة سيادتها على البحر الأحمر وخليج فارس فضلا عن أنها أصبحت سيدة البحر المتوسط على أثر انتصار أسطولها فى (جوار برة فيزا) عام ١٥٣٧ على أساطيل الدول الأوروبية والبابا (مجتمعة) . ومن هنا نعرف كيف أن الدولة العثمانية كانت منقذة العالم الاسلامى وليست مستعمرة له بمفهوم الغرب الذى يحاول تصوير هذه العلاقة بأنها شبيهة بالاستعمار الأوربى ولذا فإن القول بأن العرب انتقلوا من الاستعمار التركى إلى الاستعمار الأوربى بعد الحرب العالمية الأولى قول مضلل . والواقع أن العثمانيين قد وقفوا وقفة صلبة عنيدة فى وجه الزحف الأوربى ، وأظهروا احتراما لمعلميهم فى الدين (العرب) وأعطوهم حرية واسعة . ولقد ظل العثمانيون ينظرون إلى العرب على أنهم لواء الاسلام ، وأصحاب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، ولم يظهر إلى وقت طويل جداً ذلك الفصل بن الاسلام والعروبة الذى كان من مؤامرات الاستعمار الغربى والصهيونية العالمية ، وهذا مايصوره الدكتور يوسف عز الدين حين يقول : « إنهم لم يكونو يفرقون بين العروبة والاسلام لأنهما كانا شيئاً واحداً متلازماً لا يمكن الفصل بينهما وقد بقى هـذا الوعى العربى متصلا بالاسلام فترة من الزمن لأن العرب هم أهل الاسلام ولأن محمداً رسول الله إلى الناس أجمعين عربى الأرومة ، ولأن القرآن دستور المسلمين عربى اللغة ، وتلك مقومات وأسس ترضى الشعور الاسلامى والعربى للامة العربية .

ولقد كان بين العالم الاسلامى والترك رابطة إعجاب بفتوحهم فى أوربا ،وكان بين العرب والترك حرية فكرية ، حيث اختلط العرب بلغيهم وعاداتهم وتقاليدهم وقد استمرت هذه الروابط أربعة قرون (١٥١٧ — ١٩١٨) وشملت العالم العربى كله ماعدا مراكش ولاشك أن أية مراجعة لوقائع التاريخ بعد تصفية الإمارات الصليبية فى فلسطين تكشف عن أن الالتقاء بين العرب والدولة العثمانية كان أمراً طبيعاً وضروريا ذلك أنه لم يمض غير قليل من الزمن حتى بدأت حركة لتحريم الاتجار مع المماليك مهددة بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة على كل من يخالف هذا الحصار بما قاموا به من حسن معاملة تجار الأفرنج . لذلك عاد الصليبيون إلى إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكرياً وقد

اتجهت خطتهم إلى الاستيلاء على الاسكندرية والزحف منها على القاهرة ومن ثم قامت الحملة التى قادها بطرس الأول ملك قبرص ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ واضطرت للإنسحاب بعد بضعة أيام ثم بدأت الصليبية الأوربية حركة ضخمة للسلب والنهب والأسر فى حوض البحر الأبيض ، وبدأت غارات القراصنة بالتعاون مع القبارصة وفرنسا الاستعمارية فى (رودس) على السواحل والثغور المصرية والشامية والتربص بسفن التجار المسلمين فى عرض البحر ومن ثم قام المماليك بالغزوات الانتقامية ضد رودس وقبرص والاستيلاء على قبرص . وبعد أن برزت الدولة العثمانية وبدت خطراً داهما على أوربا حاولت الصليبية الاجهاز على العثمانيين والمماليك . غير أن سيطرة الدولة العثمانية السريعة على البحر الأبيض المتوسط ردت الصليبيين إلى العمل عن طريق البرتغال وأسبانيا للوصول إلى الهند والحبشة وذلك بهدف انتزاع تجارة المسلمين ، وهنا بدت تلك الدعوة الواضحة التى أذكتها روح الجهاد والوحدة والتضامن بين المسلمين فى جميع الجهات بمصر والشام للالتقاء بالدولة العثمانية فى قوة موحدة مما أحبط مشروعات الفرنج الصليبيين وخططهم ، وبذلك أعادت الدولة العثمانية مرتبطة بالعرب الوحدة الإسلامية وجمعت بلاد الشرق الإسلامي إلى لواء الخلافة من جديد ووجدت الشعوب الاسلامية قوة تحميها وترد عنها الغزوات الأوربية الصليبية ، وحققت وحدة سياسية كبرى بعد تفكك العالم الإسلامى بسقوط الدولة العباسية ، مما أوقف النفوذ الغربى من التوغل فى البحار العربية وبالتالى أنقذ الشرق العربى من الخطر الاوربى .

ولقد كانت الدولة العثمانية قوة إسلامية جديدة أخذت تزحف على أوربا من الشرق بعد أن توقف للمسلمين من الاندلس وقد أزعجت أوربا ازعاجا شديداً وكشفت على قدرة للمسلمين مرحلة بعد مرحلة فى آفاق التاريخ على صد العدوان الزاحف ودحر الغزو الغربى المتربص الذى لم يتوقف منذ ظهور الاسلام حتى اليوم ولاشك أن الدولة العثمانية كانت فخاراً للمسلمين خلال هذه القرون الخمس وأن النظرة إليها يجب ألا تكون جائرة ولا متحيزة من حيث النظر إلى مراحل الضعف الاخيرة وإنما يجب تصحيح الامر بمراجعة موقف هذه الدولة فى نظرة كلية شامله تكون أقرب إلى إحقاق الحق وإلى الاسلوب العلمى المنصف : أما هذه النظرة الجائرة التى تتردد فى مؤلفات كتابنا بالتركيز على مرحلة الضعف وهى لاتزيد عن مائة عام فى مرحلة مديدة طولها خمسة قرون ونصف ، فهى نظرة أوربية متعصبة ، تابعنا نحن فيها خصومنا وخصوم الدولة العثمانية وكنا أسلحة لهم ومخالب قط . من الحق أن يقال كظاهرة عامة أن تاريخ الدولة العثمانية لم يلق النظرة العلمية أو الانصاف العلمى

وأن معظم ما كتب عنه كتبه المغرضون من خصوم الدولة العثمانية ومن أتباع الغرب الذين لاذوا بالإرساليات التبشيرية ومعاهدها وكانوا حربا على العرب والمسلمين ، ويؤيدنا فى هذا الدكتور عبد العزيز الشناوى الذى يقول :

« إن الظاهرة الواضحة هى أن تاريخ الأتراك العثمانيين فى هذه المرحلة من تاريخ أوربا [مرحلة التوسع العسكرى الإقليمى الذى قام به العثمانيون فى أوربا] لم يأخذ من تاريخ أوربا من مؤلفات معظم المؤرخين الأوربيين الحجم أو الحيز الذى يناسب الدور الكبير الذى يقوم به العثمانيون سواء فى الميادين العسكرية أو فى المجالات السياسية . « وقصر المؤرخون الأوربيون اهتمامهم على الكتابة فى إفاضة عن الدولة العثمانية حين دخلت دور الاضمحلال شأن كل الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ـ وطاب لهم أن يسهبوا فى تاريخ حقبة الاضمحلال وأن يبرزوا فى كتاباتهم اللقب الذى أطلقه الساسة الأوربيون على الأمبراطورية وهو : [رجل أوربا المريض] هو أن ينسجوا حوله مزيجاً من الحقائق والأساطين للإساءة إلى الباب العالى وإلى الدولة وإلى رعاياها المسلمين بوجه خاص ، ونعتوا الدولة بأنها نقمة على الحضارة والإنسانية وغير ذلك من نعوت أملتها عليها روح التعصب ، ووصفوا رعايا الدولة المسلمين بأنهم جماعة من المتبربرين ، ومما لا مراء فيه أن الأتراك العثمانيون يحتلون مكانة كبرى فى تاريخ أوربا ، سواء أراد جمهرة المؤرخين الأوربين أو لم يريدوا وجاء حين من الدهر كان العثمانيون هم القوة العسكرية الأولى فى أوربا ، وكانت تعنو للسلطان العثمانى جباه ملوك أوربا وأمرائها . « أما الأوربيون الذين عاصروا هذه الفترة الذهبية من تاريخ الدولة فقد ربطوا بين الإسلام وبين العثمانيين ، واعتقدوا أن العثمانيين هم الرمز الحى لمجد الإسلام فى مطلع العصور الحديثة ، فباسم الإسلام استولى السلطان محمد الثانى على عاصمة الدولة البيزنطية واستبدل باسمها القديم وهو القسطنطينية اسمها فريدا هو (استانبول) أى دار السلام وحول كاتدرائية القديسة صوفى إلى مسجد بعد أن أدى فيه صلاة الظهر جماعة مع قواد جيشه ، وباسم الاسلام جعل العثمانيون البحر الأحمر « بحراً إسلامياً » مغلقاً فى وجه السفن غير الإسلامية وأصبح محرما عليهم الابحار فى مياهه فيما وراء ثغر (مخا) فى بلاد اليمن منعا من تسلل البرتغاليين إلى الأراضى المقدسة الإسلامية فى الحجاز ، والذين كانت قد احتوتهم أحلام اليقظة فاعتقدوا أن فى استطاعتهم نبش قبر الرسول ﷺ ثم التوغل شمالا فى مياه البحر الأحمر حتى السويس وعلى ذلك اتجهت حملة برتغالية بقيادة لويه سوازيز إلى جده .

وقد فشلت هذه الحملة لأنها تعرضت لريح صرصر عاتية وارتطمت سفن الحملة بعضها ببعض

وتحطمت قبل أن تبلغ غايتها وقام البرتغاليون بعد ذلك بهجوم بحرى على ميناء السويس ولكنهم فشلوا أيضا فى تحقيق أهدافهم ، ثم جاء التشريع العثمانى ليحول بين البرتغاليين وبين ما كانوا يشتهون ، وظل هذا التشريع نافذاً حتى نهاية القرن السابع عشر ثم سمح للسفن غير الاسلامية بأن تمد رحلاتها فى البحر الأحمر حتى جده وبقيت المنطقة الواقعة بين جده والسويس منطقة محرمة على السفن المسيحية . حتى أذن عام ١٧٦٨ لهذه السفن أن تمد رحلاتها البحرية حتى ميناء السويس وما تزال كتب التاريخ : تصور هذا الترابط بين العرب والترك على أنه استعمار وقد واجه العثمانيون فى حروبهم تكتلات دولية حتى أنه لما سمعت فرنسا وهى فى محنتها إلى التحالف مع الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان وتلاقت مصلحة الدولتين على محاربة شارل الخامس أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأنكر الرأى العام الأوربى على فرنسا هذا التحالف بين دولة مسيحية ودولة إسلامية وأطلق عليه التحالف المدنس احتفظ العثمانيون بروح الإسلام : العزة والكرامة والشمم والإباء وصلابة الضربة والتصميم على إحراز النصر ، ولم يتخلفوا عن هذه الخصال إبان الفترات التى بدت فيها النذر الأولى لاضمحلال دولتهم . وتعطى معركة ليبانت البحرية فى أكتوبر ١٥٧١ صورة صحيحة لمدى اقتدار الدولة العثمانية فى مواجهة حدث من أخطر الأحداث ، حيث نكلت الصليبية الأوربية المتمثلة فى البابوية وأسبانيا والبندقية وجنوه وسافوى وتوسكانيا وفلورنس ومانتور وبارم وغيرها بالبحرية العثمانية ، فضلا عن فرسان القديس يوحنا الذين اتخذوا من جزيرة مالطة مقاماً ومعقلا ومركزاً للانقضاض على السفن الاسلامية وهى فى أعالى البحار . وقد انطلق العثمانيون فى همة ونشاط محموم يعيدون بناء قواتهم البحرية ، واستطاعوا قبل عام أو بعض عام أن يعاودوا جولاتهم فى البحر المتوسط ، ويتحرشوا بالدول التى وقفت موقفاً معاديا فى معركة (ليبانت) بل أخذ الأسطول الجديد يبحر فى المياه الأقليمية الايطالية دون أن تجرؤ إحدى الدول أو فرسان يوحنا على التعرض لأى من وحدات هذا الأسطول ، واستطاع العثمانيون أن يفرضوا عام ١٥٧٣ على جمهورية البندقية صلحا كان مهينا بالنسبة لها وبعد ثلاث سنوات من معركة ليبانت أى عام (١٥٧٤) انتزع العثمانيون تونس من أسبانيا وأعادوا هذا الاقليم إلى رحاب الكتلة الاسلامية .

هذه الصفحة لاشك هى من مفاخر تاريخنا الاسلامى المعاصر . ولا قدرة لنا على تفسير الأحداث والوقائع التى واجهنا حتى الآن من الصراع بين الاستعمار الغربى والعالم الاسلامى بفهم هذه المرحلة وتبينها . وقد كانت هذه المواقف كلها اسلامية أساسا .

« فباسم الاسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التى كانت قواعد عسكرية

صليبية . « وباسم الاسلام فتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية . « وباسم الاسلام قاد السلطان سليم المشرع ستة عشر حملة عسكرية فى جوف أوربا ووصل بها إلى أسوار فينا . « وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة المسلمين فى شمال أفريقيا فى كفاحهم ضد الأسبان » ويرى الدكتور الشناوى : أنه قد أستقر فى أذهان الأوربين إن أى نصر تحققه القوات العثمانية سواء فى البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام ، يقول « وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التى شهدها الشرق الإسلامى لم تنته بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين فى يد المسلمين فى عهد السلطان خليل بين قلاوون فى ١٨ من مايو ١٢٩١ بل استمرت متجددة متنقلة فى نفوس الأوربيين فى العصور الحديثة وأن احتلت ميادينها وشخصياتها والدول التى شاركت فيها والأسلحة التى استخدمت « ويصل الدكتور الشناوى إلى ما وصلنا إليه من أن « الانتصارات العسكريه الرائعة التى أحرزها الأتراك العثمانيون على الأوربيين قد أضفت هالة من المجد فى أرجاء العالم الإسلامى ونظر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل » . وهذا ينفى نفياً قاطعاً ما أطلق عليه الاستعمار التركى أو الغزو العثمانى ، فى محاولة لإثارة نفوس العرب المسلمين على أشقائهم الأتراك المسلمين ولحساب الصهيونية العالمية والاستعمار العالمى . وتكادا لمصادر الموثوق بها تجمع على هذه الحقيقة التى تقول بأن العثمانيين كانوا حماة الشرق العربى من الخطر البرتغالى الصليبي الاستعمارى الذى كان قد استفحل أمره ، وأنهم حين وصلوا إلى حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية دفعوا عنه خطر البرتغاليين ، واتخذوا من اليمن بصفة عامة وعدن بصفة خاصة مراكز استراتيجية للقضاء على النفوذ البرتغالى فى البحر الأحمر والزاحف من المحيط الهندى ، كما أنهم جعلوا من البحر الأحمر بحرا إسلامياً فعلياً لا تدخله السفن غير الإسلامية لأنه يطل على الأماكن المقدسة فى الحجاز . ومن الحق أن يقال أنه عندما تراجع نصوص هذه العلاقات بين العرب والعثمانيين فى هذه المرحلة فى كتابات أمثال ساطع الحصرى وسليم سركيس والبستانى وجرجى زيدان وأصحاب المقطم والمقتطف نجد تحاملا واضحاً ومحاولة خفية لمداراة صفحات النصر والقوة والعظمة وهم لا يصورون هذه الظروف التى فرضت على العرب الالتحاق بالدولة العثمانية ولكنهم يصورون الأمر كله على أنه احتلال واستعمار .

ولقد دافع الكثيرون عن هذه الشبهات والاتهامات التى حاول بها أولياء الصهيونية والنفوذ الاستعمارى والكارهين بحكم التعصب والخلاف الدولة العثمانية أن تثير الشبهات حول سلاطين آل عثمان – يقول الأمير شكيب أرسلان : لقد بقى هؤلاء السلاطين يذبون عن الإسلام شرقاً وغرباً مدة سبعمائة سنة كاملة ، وجاء وقت كانت فيه أوربا بأجمعها ترتعد فرقاً من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوربا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثمانى إلى طولون أونيس أبطل الأهالى هناك قرع الأجراس

فى كنائسهم ، وكان أهالى فينا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم فى اليوم التالى رعايا لابن عثمان وبقيت المجر ملكا لابن عثمان مائة وخمسين سنة ، وبودابست عاصمة إسلامية ، وجاء زمن كان الأسطول العثمانى هو الأسطول السائد فى البحر المتوسط وكانت ريح الإسلام تعصف فى البحر كما تعصف فى البر وبقى الإسلام مئات السنين فى كفالة آل عثمان وكان الترك هم سيوفه المسلولة ، ولم يقتصر فضل الأتراك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم مالا ينكر ومن شاء فليقرأ كتب التراجم ولا سيما (الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من فحول العلماء وأساطين الحكماء » . هذه هى حقيقة الدور الذى قامت به الدولة العثمانية وهو يكشف فى وضوح مفهوم العلاقة بين العرب والترك وأنها لم تكن « استعماراً » بحال ، كما يكشف كيف ذادت الدولة العثمانية عن العرب الغزو الغربى وأخرته أربعة قرون ، وكيف أصبحت الدولة العثمانية هدفاً ضخما من أهداف الاستعمار يرمى إلى إزالتها وتدميرها وحياكة المؤامرات للقضاء عليها وتمزيقها وتقسيمها بين الدول الأوربية . وهذا كله ولا شك يعطى ضوءاً على المرحلة القادمة من البحث : مرحلة الوحدة الاسلامية التى حمل لواءها الخليفة عبد الحميد وهى كبرى الحركات الاسلامية فى هذا العصر .

(١)

الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية

كبرى الحركات الإسلامية

لاريب أن هذا العمل الخطير الذى رفع لواءه السلطان عبد الحميد قد هز قواعد الاستعمار الغربى والصهيونية ، وقلب مخططاتها وتقديراتها مما دفع قوى الغزو إلى التكتل لإسقاطه أو أغتياله فقد شكل بهذه الدعوة حاجزاً ضخماً ظل يقوى ويتماسك حتى أوشك أن يكون سداً منيعاً لا قبل للاستعمار الغربى باقتحامه ، هنالك لم يجد الاستعمار سبيلا لمقاومة هذه الحركة إلا بالتآمر للقضاء على قائدها وحشد الخصوم من داخل الدولة العثمانية وخارجها لدحره وعزله . ومن العجب أن هذه الصفحة ما زالت مطوية حتى الآن ولم تكتب على نحو مفصل وقد مضى عليها أكثر من مائة عام ، وأن قضية هذه المؤامرة مازالت محجوبة ، ووثائقها مازالت خفية وما يعرف فى هذا الصدد وما يذاع وما يملأ كتب التاريخ المقررة فى المدارس والجامعات فى العالم الإسلامى كله إنما هو الزيف والكذب والتضليل الذى يمثل وجهة نظر الخصوم ، والسلاح القوى لتمزيق الرابطة الجذرية بين العروبة والإسلام والحيلولة دون التقاء العرب بالمسلمين تركا وفرساً وهنوداً وغيرهم وهى من أقوى خطط العدو المغتصب المتمثل فى الاستعمار والصهيونية . فما زالت الكتب التى تدرس بالمدارس ، والتى

تنشر فى محيط الثقافة ، وما تزال الصحف والمجلات والأبحاث التاريخية جميعاً تحمل هذه الأخطاء : « الاستعمار العثمانى » . الاستبداد العثمانى » . « السلطان الأحمر » . إلى غير ذلك من العبارات الموحية التى وضعها الاستعمار والصهيونية والشيوعية والتى تشكل جميعها : (المؤامرة العالمية للسيطرة على الإسلام والمسلمين والعرب) والتى أريد بها حجب الحقائق التاريخية وإخفاء الخطة الخطيرة التى دبرت خلال أكثر من ثلاثين عاماً من أجل القضاء على حركة الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية . ولقد كان المخططون للمؤامرة ، المنظمون لتاريخهم الزائف المكذوب قد وجدا فى رجلين من أكرم رجال العرب والمسلمين مخلب قط لهذا العمل وهما : جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى . وقد كان التركيز يرمى إلى جعل جمال الدين الأفغانى بديلا للسلطان عبد الحميد ومواجهاً له ، بل أنه بعض النصوص كانت تحاول أن تصور جمال الدين وهو صاحب الفكرة الأساسية للجامعة الإسلامية وأن الخليفة العثمانى عبد الحميد هو الذى تلقفها منه ثم حاول أن يطويه تحت جناحه ثم انتهى الأمر به أن دس له السم فى فكه وقضى عليه .

وكل هذا زيف لم يثبت بالبرهان أو الدليل أو بالوثائق الصحيحة ، ومن أجل هذا أعلى إلى حد كبير ، أكبر من الواقع ، قدر جمال الدين الأفغانى ، وكان أكبر العاملين لتسجيل فكرة وإذاعة آرائه هم الماسونيين ، وفى مقدمتهم (محمد المخزومى باشا) صاحب كتاب (خاطرات جمال الدين) الذى يكاد يكون المرجع الوحيد لأفكار جمال الدين والذى كان رئيساً لمحفل دمشق فى سنوات ماقبل الحرب ، ولقد كان هذا التخطيط يهدف إلى إعلاء شأن رجال آخرين من أصحاب الولاء للماسونية والصهيونية (سواء دروا بذلك أم جهلوا) من أمثال مدحت ، وغيره وهدماً لرجال كان لهم دورهم الكبير فى الحركة إلى جوار السلطان من أمثال أبو الهدى الصيادى وغيره ، ولقد ظلت تكال لعبد الحميد عبارات الحقد والكراهية فى مؤلفات العرب وكتبهم وأبحاثهم إلى وقت قريب جداً ، ربما إلى عام ١٩٦٥ عندما ظهر أول تصحيح علمى وثائقى لهذه المفتريات وهو كتاب الجنرال جواد رفعت الذى صدر فى بغداد وهو الكتاب الذى كشف بعض هذه الحقائق ثم تتابعت الأبحاث وظهر كثير مما كان مستوراً مما حفظه أصحابه فى صدورهم وخاصة ممن لا يزالون أحياء منهم فى الشام وغيرها ولقد تواترت هذه الحقائق وانتشرت فى السنوات الأخيرة وخاصة بعد نكسة ١٩٦٧ على نحو يشكل تياراً واضحاً قويا من شأنه أن يصحح زيف تلك الكتابات الخاطئة والمبطلة التى تواترت على مدى هذه الأعوام السبعين منذ اعتزال السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ والتى ماتزال تتردد على ألسنة خريجى الارساليات التبشيرية من خصوم الإسلام والعروبة ودعاة التفرقة بينهما ، ولا شك أن

بروز هذه التيارات واندفاعه اليوم ممثلا للحق الذى ظل حبيساً هذه السنوات الطويلة يؤكد ما قالة الباحثون جميعاً من أن التاريخ قادر على النصفة وإحقاق الحق ودحض الباطل على المدى الطويل ، وأنه لا يمكن مطلقاً لأ كذوبة مضللة مهما أحيطت بالسبك والإحراج البارع أن تستمر طويلا إلا فى غفلة الحق ، فإذا انكشف الحق وتنبه الناس له انهارت تلك الأباطيل ودحضت كالضوء الساطع يدحض الظلام .

واليوم نرى أن كتبنا التاريخية التى تعلم فى المدارس والجامعات ومن ورئها كتب التاريخ والثقافة العامة والأدب والدراسات القومية وغيرها إنما تحمل خطأ كبيراً يوجه مسار البحث العلمى كله ناحية مضلله بما يحول دون تبين وجه الحق فى المراحل المتصلة من هذا التاريخ ، وبما يحقق لأصحاب المؤامرة الكبرى — فى تدمير الإسلام والتفرقة بين العرب والمسلمين — استمرار زيفهم ، ولذلك فنحن ننادى بتحرير هذا النص وكشف زيفه ونعتبره أكبر خطأ فى تاريخ الإسلام المعاصر وأخطر مسلمة ترتب عليها أبعد الأثر فى الإنحراف عن فهم الوقائع والحقائق . ولعل من أخطر الوثائق التى تناولتها الأيدى فى السنوات الأخيرة وكانت بعيدة المدى فى هذا السبيل ذلك النص الذى أدلى به السلطان عبد الحميد فى الرد على مؤامرة الصهيونية حين طمعت فى أن تدفع للدولة العثمانية ملايين من الجنيهات من أجل السماح لها بالإقامة فى فلسطين وكيف رفض السلطان عبد الحميد ذلك فى عزة وإباء ، وفى قوة وصمود ثم كيف أخفى هذا النص سنوات طويلة حتى لا يعرف أحد عظمة هذا الرجل ونبله بما يتعارض مما وجه إليه من إتهام .

ولقد كان هذا الرفض القاطع بعد أن توالت الإغراءات والمطامع عاملا حاسما فى مجريات الأحداث حيث وجهت جميع الخطط للقضاء عليه وتحطيم عرشه وخلعه من ملكه ، وكان هو يعرف جيداً مدى خطر ما ذهب إليه ومدى أثر ذلك فى القوى التى تحركها الصهيونية من داخل البلاد ولكنه قبل النتائج فى يقين وصدق لأنه كان يعرف أنه على الحق ، وأن خصومه إذا استطاعوا أن يخفوا هذه الحقيقة زمنا وقد أخفوها سبعين عاما فإنها لابد أن تظهر يوما وأن تدحض كل الزيف الذى أحيط به تاريخه وسلوكه وهذا هو اليوم الذى نحن فيه . ومن العجب أن خصوم الإسلام والمسلمين كانوا يعرفون هذا النص ويعلمون هذا الموقف ولكنهم حين يذكرونه ، كانوا يعرضونه فى شىء كثير من التمويه فيقول محرر الهلال مثلا (ورفضت الدولة العثمانية مطالب الصهيونية) أو ما شابه ذلك من العبارات بينما لم يكن الموقف على هذا النحو من البساطة ولكنه كان تحديا خطيرا للسلطان ومكانه ودعوته إلى حمل لواءها . وحين يحاول خصوم العرب والإسلام أن يكتبوا تاريخ السلطان عبدالحميد

ويدعون أنهم يصطنعون المنهج العلمى فى البحث فإلى ماذا يرجعون من مصادر ؟ : ليس لهم من هذه المراجع غير : بروكلمان ، الماوتلن ، جورج أنطونيوس ، الموسوعة الأمريكية ، توينبى ، سليمان البستانى ، محمد أنيس ، ونحن نعرف أن كل هؤلاء خصوم لعبد الحميد بوجه من الوجوه ودعاة المخطط التاريخى الظالم المفروض على مناهج الدراسات العربية ، وأن مصادر هؤلاء جميعا إنما تقدم اتجاهاتهم ومذاهبهم ، وأهواءهم ، وهل ينتظر من أوربى أو غربى أو ولى من أولياء الفكر الغربى ما يمكن أن ينصف لعبد الحميد الذى كان فى نظرهم ممثلا للدولة العثمانية التى أخضعت الغرب خمس قرون ، والذى حمل لواء الإسلام فى مواجهة زحفها للسيطرة على العالم الإسلامى وأحدث فى سنوات قليلة فى سبيل الوحدة الإسلامية الأعاجيب . لقد اتفقت كل الأطراف الاستعمارية : الروسية والغربية والصهيونية على مقاومة هذا الخطر ، وعلى توسيد تاريخ يظل حاملا لهذه المفاهيم أمداً طويلا حتى يتقرر فى النفوس موقف الكراهية والامتهان لرجل قاوم ودافع ووقف فى وجه الخطر وهو يعرف حجمه ومداه ، على النحو الذى يحقق وقوع الخلاف بين المسلمين والعرب واستمراره وتعمقه على النحو الذى يحول بكل وسيلة دون إلتقاء العروبة والإسلام ، هذا اللقاء الذى يمثل الخطر الجاثم فى وجه الغرب كله من أجل نفوذه الاستراتيجى والاقتصادى القائم ، وخوفا من المستقبل القريب أو البعيد ، أما كتاب العرب المعتمدون لهذه المراجع فهم تابعون للفكر الغربى الزاحف بشقيه ولهم هوى فى كراهية هذه الوحدة وهذا الالتقاء .

(٢)

ماهية الحركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد

لكى نعرف حقيقة هذه الحركة يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وقد بلغت الدولة العثمانية والعالم كله أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية على وضع الخطط للقضاء عليها وتمزيقها وإذلالها . وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعا بالإضافة إلى البابوية تشترك فى رسم هذه الخطط وفى انتزاع الأجزاء الأوربية من الدولة واسترجاعها . والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية فى الدولة وهى الشام والعراق والجزيرة العربية . وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى فلسطين وتحقيق حلمها فى إقامة هيكل سليمان . فلما ولى السلطان عبد الحميد

الحكم : خليفة المسلمين وسلطانا للدولة العثمانية ، واجه الموقف على نحو مختلف عما واجهه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه ، وكانت مواجهته حادة حاسمة . وكان إحساسه بالتبعة كبيرا وكان ذكاؤه وسعة فكره وإلمامه بالتيارات المختلفة بالغا ، ومن هنا فقد جرى من الأحداث فى طريقها المرسوم شوطا ثم لم يلبث أو وضع خطته المحكمة التى رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة هذا الغزو الاستعمارى الزاحف ، والمتشكل داخل الدولة العثمانية فى مؤسستين خطيرتين : إحداها المحافل الماسونية فى سالونيك وتركيا الفتاة التى سميت بعد (الاتحاد والترقى) والتى ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكرى الغربى وخاصة الفرنسى ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لتصل إلى التحرر والقوة إلا بالتماس مناهج الغرب إلتماساً كاملا وطرح أسلوبها وفكرها ومنهجها الاسلامى القديم والتخلص منه إلى غير رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن تقف وحدها ، فاضطرت إلى التماس العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها ووجهتها الوجهة التى ارتضتها فى القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه فى مواجهة النفوذ الغربى على هذا النحو :

إن الوسيلة الأساسية بمواجهة النفوذ الاستعمارى هو تجمع المسلمين فى كل مكان تحت لواء الخلافة الإسلامية الذى تحمله الدولة العثمانية الجامعة فى كيانها بين العرب والترك . ومن هنا فقد كان على السلطان العثمانى الذى هو خليفة المسلمين أن ينادى المسلمين فى جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه فى صف واحد فى مواجهة النفوذ الغربى ومن هنا كانت صيحته المعروفة المشهورة التى هزت الغرب كله: « يا مسلمى العالم اتحدوا » . ومن هنا بدأ الخطر الذى واجهته الدول الأوربية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية فى عنف وأخذت فى التماس كل وسائل التآمر والغدر فى سبيل تحطيم الخطة والقضاء على القائم بها ، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتاً طويلا ، ذلك أنه وكان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء فى قوة فى مواجهة هواصف السياسة الأوربية ثلاثون عاماً كاملة دون أن يتزلزل أو يضعف . لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوربا والغرب المتجمع المتآمر العنيد ، ولذلك فقد اتخذ من هذا الأسلوب الخطير ، أسلوب التجمع باسم كلمة (لا اله إلا الله) وتحت لواء الخلافة قوة هارمة خشيت بأسها أوربا وحسبت لهـــا ألف حساب ، فقد كان المسلمون الموالون للسلطان تحت النفوذ الغربى يحتشدون فى عديد من الأقطار التى احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات

أهمية خطيرة . ولقد مضى السلطان فى تنفيذ مخططه فى قوة وسرعة بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية وذاعت فى كل مكان وحملت معها عملا إيجابيا نافعاً ، قوامه المدارس والمنشئات فى كل صقع من البلاد الإسلامية . وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة الذين سرعان ما أنبثوا فى كل أطراف العالم الإسلامى إلى الهند والصين وجزائر المحيط ، ومصر وأفريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية . كما عقد مع الأمراء المسلمين فى شتى هذه البقاع مراسلات وعقود وعمق رابطة الود والإخاء الاسلامى فيما بينهم وبين الخلافة ، حتى قيل أنه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفا عن هذه الدعوة . وقد جعل السلطان عبد الحميد أمامه أمرين هامين :

الأول : هو أن يكون العرب هم ساقة هذه الدعوة وحملة لوائها ومن هنا فقد اتخذ من كل قطر عربى مشيراً له فجمع حوله علمـــاء وأمراء من الجزائر والشام ومكة ومنهم أبناء الأمير عبد القادر الجزائرى وغيره من أمراء المسلمين . الثانى : هو إنهاء الخلاف الذى أججه الاستعمار بين السنة والشيعة أو بين الأتراك والفرس وقد استخدم لذلك علامة كبيراً هو السيد جمال الدين الأفغانى وأجرى صلحاً مع شاه فارس وصفى أمر الخلافات القديمة كلها .

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها وإنما جعلها واجهة لعمله الكبير الذى بدأه فى بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله وقد استقدم بعثه ألمانيه ، ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين من شباب العرب من العراق وسوريا ومصر ، وقد مضت الخطة إلى غايتها المرجوة فاشتد عصب المسلمين بالترابط ، وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دعاة الفكرة الإسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربى الزاحف والخطر الأوربى القيصرى الصهيونى جميعا وتركزت الآمال حول السلطان عبدالحميد خليفة المسلمين وترابطت الدول الإسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة « فكانوا يذكرون اسمه فى خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية ويتحدثون باسم خلافته على المسلمين كافة » وكلهم من رعايا دول أوربا فى الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقيا ، وكان هنا أخذ السلطان يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها أحيانا ملوحا بســـلاح الجهاد الدينى . وكان للصحافة الإسلامية فى العالم الإسلامى دور كبير فى حمل بذور هذه الدعوة والإشارة إلى الاصلاحات التى أقامتها فى مختلف البقاع من إقامة المعاهد والمساجد والمستشفيات وغيرها واستطاع السلطان عبد الحميد أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز المسلمين فى مجال الفكر أو السياسة وفى مقدمتهم : خير الدين التونسى

وجمال الدين الأفغانى وأبو الهدى الرفاعى (الصيادى) وأبناء الأمير عبد القادر الجزائرى . وأقام من العرب فرقة خاصة ضمها إلى الحرس السلطانى وولى كثيراً منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم أحمد عزت العابد .

وكان من أكبر أعمال السلطان عبد الحميد فى هذا الصدد : إنشاء سكة حديد الحجاز التى تربط بين دمشق والمدينة وكذلك ربط سكة حديد الحجاز بسكة حديد بغداد وقد وجد هذا العمل تقديراً بالغاً من المسلمين فى كل مكان وتبرعوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية فكان من أخطر المشروعات التى عجلت بالقضاء على السلطان إذ كان نذيرا بتغيير الاستراتيجية الغربية الاستعمارية ، وقد استهدف هذا المخطط أساسا القضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم فى البحر الأحمر والجزيرة العربية وكان من أخطر مواقف الحركة الإسلامية الواحدة هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين والعالم الإسلامى كله ومواجهتها . ومن هنا انطلقت الصحافة الأوربية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والتى قاد حركتها خريجو الارساليات التبشيرية من أمثال : سليم سركيس ، وفارس نمر ، ويعقوب صروف ، وفرح انطون وغيرهم للتشهير بالسلطان عبدالحميد ومعارضته وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وإثارة عوامل الفتنة بين قيادة الحركة الإسلامية وبين العناصر المختلفة فى الدولة العثمانية وخارجها وكان من أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر اللورد كرومر الذى حمل على الجامعة الإسلامية حملة ضارية ودعا الدول الأوربية فى تحريض سافر إلى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدعوة .

يقول دكتور توفيق برو فى كتابة : (العرب والترك) وفى الحقية شعر الأوربيون بخطر هذه السياسة على نفوذهم وانبرى رجال لهم شأن فى تاريخ الاستعمار كالمسيو هانوتو ولورد كرومر واللورد غراى إلى مهاجمة الجامعة الإسلامية واعتبارها بؤرة التعصب الدينى وأنه ليس القصد منها سوى تحدى قوات الدول المسيحية ودعم الأوربية إلى مراقبتها مراقبة دقيقة والحذر منها » وقد حملت جريدة المقطم فى مصر لواء مهاجمة هذه الدعوة ، كما هب أقطاب العرب والترك يدافعون عن الجامعة الإسلامية ، ينفون عنها صفة التعصب الدينى ، وقد تضمن رد محمد عبده الذى وجهه إلى كرومر دفاعا عن السلطان عبد الحميد إذ وصف دولته بأنها أكبر دول الإسلام .

ورد البرنس صباح الدين على ما ردده اللورد غراى فى مجلس العموم البريطانى على صفحات جريدة التيمس (١٣ أغسطس ١٩٠٦) من قول لورد غراى أن الجامعة الإسلامية ليست أسطورة من أساطير بل تسمى باللغة الاجتماعية : « رد فعل الشرق ضد الغرب » هذه الأعمال التى لم تكن

على الدوام تحمل الطابع السلمى . وقد شهـد كثيرون بأصالة هذه الحركة وقوتها وأثرها : فيرى (الدكتور برو) أنها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية الأوربية الطاغية كما أشار إلى أن قادتها كانوا من الدعاة المبرزين « وقد أزكى نار هذا الشعور أئمة من أفاضل العلماء أمثال : جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلاييني ورشيد رضا ، (الذين قاموا) باستغلال هذا الشعور فى سبيل توحيد سيطرة السلطان فى الداخل وتقرير مكانة الدولة فى الخارج ولذلك فلا عبرة بما حاول بعض الكتاب المتغربين فى القاهرة من الغض من أهمية هذه الحركة أو تجاهلها أو القول بأن هذه الحركة كانت الدعاية الشخصية للسلطان عبد الحميد ، والمعروف أن أية حركة لابد أن تركز على حامل لوائها كأساس لها فليس هناك ما يعاب أن يذكر الدعاة السلطان أو يجمعوا القلوب حوله أو يؤيدونه فى موقفه الصامدة إزاء الغرب ومخططاته وتجمعه فى وجه الدولة العثمانية والإسلام والسلطان ولقد كان السلطان عبد الحميد ، سياسيا قديراً ، وقرما من أقرام السياسة الدولية ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجه هذه الرياح العاتية إذ كان قادراً على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات . وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى الذى يؤججه الاستعمار عن طريق حزب تركيا الفتاة وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية وأوجه الخلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست أستطيع أن أصور هذا المعنى بأعظم مما صوره جمال الدين الأفغانى : الذى التقى بالسلطان ساعات ومرات ودراسة شئون العالم الإسلامى ومخاطر السياسة الأوربية ومخططاتها فهو القائل : « رأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ، ومرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلماً ، وأعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل ، كى لا تتفق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ويريها عيانا محسوسا أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب يعم الأمم الأوربية بأسرها » . وقال : إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة قد دفعنى إلى أن أمد يدى له فبايعته بالخلافة والملك . ! إلخ . ولقد أكد كثير من المؤرخين والباحثين فى إنصاف : إن السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بها الإسلام عن وجوده العالمى وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية . ومن الحق أن يقال أن الحركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد فى تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة الإسلامية كانت اتجاها طبيعيا وأملا يملأ كل النفوس ولذلك فقد حققت نجاحا كبيراً ، أزعج الاستعمار والصهيونية إزعاجا شديداً على النحو الذى دفعهم إلى تدميرها من الداخل واستهداف القضاء على حامل لوائها أصلا كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .

(٣)

التحديات فى مواجهة الحركة

كان السلطان عبد الحميد يعرف القوى التى يواجهها ، ويعرف المؤامرة التى تدبر له الميجة حمل لواء الدعوة إلى الوحدة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار الغربى والصهيونى وكانت أخطر القوى التى تواجه السلطان هى من داخل الدولة العثمانية وتتمثل فى ثلاث فئات : ١ — فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم المعاهد الغربية . ٢ — حركة الارساليات الأجنبية فى لبنان ٣ — حركة المحافل الماسونية فى سالونيك . وكان السلطان يعرف أن كل هذه القوى إنما تعمل للتخلص من مشروعه الخطير بالتخلص منه هو شخصياً على أنه هو حامل اللواء . ولذلك فقد عمد السلطان إلى مواجهة ذلك بعمل كامل دقيق لمراقبة هـذه التحركات ومعرفة اتجاهـات المؤامرة ، ومقاومتها ، وليس من المعقول مطلقاً أن يقف السلطان (أو حـكومته) مسلوب الإرادة أمام عمليات التجسس الخطيرة التى تقوم بها كل هذه الدول : البريطان والروس والفرنسيين ومن وراءهم الصهيونية العالمية ولذلك ماترده كتابات خصوم الغرب والاسلام وما تروجه من القول بأن هناك شبكة تجسس ضخمة داخل المملـكة العثمانية كان من الأمور الطبيعية إزاء هذه الحالة وإزاء مجتمع متعـدد الأديان والأجناس والنفوذ الأجنبي عليـه سلطان كبير ومن شأن ذلك أن يحرك الـكثير من المؤامرات .

فضلا عما كانت تثيره الدول الغربية من اتهام للعرب — بالتآمر على السلطان بالدعوة إلى الخلافة العربية — وهم القوة الجديدة التى اتخذها السلطان أداة لدعوته الـكبرى ، وإذا كان السلطان قد عارض أهداف حزب تركيا الفتاة فقدكان عالما بأنهم واقعون تحت نفوذ الماسونية العالمية وهى أداة الصهيونية العالمية، ولقد كان عبد الحميد عالما بأهداف الصهيونية وفاهما لمخططات المحافل الماسونية وكان وقوفه فى وجه الاتحاديين وتركيا الفتاة ومعارضتهم وتحطيم مخططاتهم ليس نابعاً من كراهية لنهضة تركيا ولـكنه كان عمقاً فى النظرة إلى ماوراء ذلك من تبعية وولاء وعجز فى مواجهة براعة المستعمرين الغربيين ومراوغتهم فى إخفاء أهدافهم وراء مظاهر براقة زائفة من الدعوة إلى التحرر والتقدم وغيرها ، وليس دليل أصدق بمدنظر السلطان عبد الحميد مما وقع فعلا ، ومما قام به الاتحاديون من بعد من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية جميعاً مما كشف عن أصالة

عبد الحميد وبعد نظره وتقدير موقفه الحاسم فى وجه النفوذ الاستعمارى نفسه بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية وفى نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التى كانت تحمل مظهراً براقا هو « الاصلاح » على طريقة الغرب » بينما كانت تحمل فى أعماقها إيمانا بالفناء فى الغرب كله . ولقد استطاع الغرب مرتين خداع المسلمين والعرب : خدعهم بالاتحاديين حتى التهم الدول العثمانية وخدعهم بالذين وثقوا بعهود مكماهون ولورنس حتى التهم البلاد العربية . إن مقدرة عبد الحميد على فهم مايحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون، فقد كانت اتصالاته الواسعة ومعلوماته عن مخططات الغرب الاستعمارية وتطلعات الصهيونية أكبر مما كان معروفا فى الأفق السياسى العام إذ ذاك . ومن خلال لمحات خفيفة يستطيع الباحث اليوم أن يستوعب مدى هذه الأخطار التى كانت واضحة أمامه ، والتى كانت تدفعه إلى براعة الحركة واختيار الطريق الأصح ، بالرغم مما يبدو على السطح من أن ما كان يدعو إليه الاتحاديون وتركيا الفتاة هو أكثر بريقاً وأزهى فى العيون .

ذلك أن الدعوة إلى الحرية والتقدم كانت هدفاً حقيقياً لكل مصلح ،ولكل حاكم يريد الإصلاح وكان عبد الحميد من القلة القليلة الصادقة فى طلب الاصلاح واستنقاذ التركة المثقلة التى ورثها ، ولم يكن له هو يد فيها وما تجرى به الأقلام من اتهامات للسلاطين قد تصدق وقد تجور ، ولكن الموقف بالنسبة للسلطان عبد الحميد لايدخل فى نطاق النظرة المعممة ، ويجب أن يفرد بالنظر ، فلم يستطع خصوم السلطان عبد الحميد أن يحصوا عليه اتهاما واحداً بالخيانة أو الاختلاس أو معاونة غاصب ، أو السماح لدخيل ، أو المراهنة بالوطن والأمة والدولة ولم تكن له فى جانب المطامع الشخصية ومجال اللذات والشهوات مكان ما ، وكل ما استطاع خصومه أن يقولوه عنه . هو أنه كان دكتاتوراً أو حاكما مستبداً وأنه خلق حركة ضخمة من حركات رصد تنقلات العدو هى ما كان يطلق عليها « التجسس » وتعرف فى العصور الحديثة باسم استخبارات دواعى الأمن وهى من ألزم ضرورات الأمم وأشدها أهمية فى حماية مصير الدول .

وليست عبارة التجسس أو استخبارات الأمن بالأمر الذى يضير قائداً طموحاً له مخططاته فى وجه العدو يعيش فى دولة مفتوحة على الغرب المتآمر الطامع فى إسقاط المملكة وتقسيمها وتدمير مقوماتها ، وبين أجناس متعددة يستغل النفوذ الغربى فيها كثيراً من أصحاب الديانات والمذاهب ويلتقط الكثير من المسلمين الأتراك الذين يصلون إلى معاهد العسكرية أو العلمية فى أوربا ليجندهم ضد دولتهم وضد المخطط الضخم الصاعق الذى أزعج أوربا جميعا وهو « لواء الوحدة الاسلامية »

وقد اختار النفوذ الاستعماری لذلك بديلا أطلق عليه اسماً غامضاً له بريق وإن كانت الوثائق والأحداث قد كشفت عن زيفه من بعد واتصاله بمخططات الماسونية واليهودية العالمية وهو ماأطلق لأول مرة على الثورة الفرنسية التى صنعها اليهود : [حرية ، إخاء ، مساواة] كما تكشف من بما لايدع مجالا للشك أن الدولة العثمانية والسلطان عبدالحميد كانا هدفين أساسين للنفوذ الغربى والصهيونية العالمية . وأمامى هنا نص خطير أورده الدكتور محمد على الزغبي فى كتابه (الماسونية فى العراء) لا يحتاج إلى مراجعة كبيرة للاقتناع به وهو : « كان اليهود يرون السلطنة العثمانية وهى شبح مخيف للخلافة الإسلامية ، خطرا على مستقبلهم وقد زار هرتزل السلطان وعرض عليه عروضاً مغرية ثم قرر المحفل الكونى خلع عبد الحميد وكلف فرسان تركيا الحكماء المتسترين بالإسلام (الدونمة) بتنفيذ القرار فنفذوه سنة ١٩٠٩ .

ولقد قادت الصهيونية هذه الحملة على السلطان عبد الحميد تمهيدا لعزله ، فى محاولة لخلق رأى عام ضده فى كل مكان وخاصة بين الأتراك من ناحية وبين أهالى الشام بالذات وفيهم جانب كبير من خصومه وخصوم الدولة والذين أثيروا من ناحية جمع كلمة المسلمين فى العالم كله وتصويرها على أنها خطر على وجودهم . أما الاتهامات التى وجهت للسلطان من قتل واستبداد وغيره فقد انكشف زيفها حين أعلنت الحقائق التى أخفيت بعد زمن وتبين أنها لم تكن إلا من صياغة المتآمرين . يقول الدكتور سعيد الأفغانى أحد كتاب سوريا والذى كان فى زيارة بلاد الأتراك عام ١٩٥٠ وفى لقاء مع المسئولين بها : « لما ذكر أحدنا الألوف من الأحرار الذين لا يحصون ممن أغرقهم السلطان عبدالحميد فى مياه البوسفور انبرى رئيس الهيئة فى رقة ولطف طالباً تسمية عشرة فقط من هذه الألوف التى لا تحصى فلما أحرجنا قال : يا إخوتى : لم يثبت غرق إنسان واحد فى البسفور ، لكن كتباً وبحوثاً ظهرت فى السنين العشرين أزالت من نفسى كل ما كان رسخ فيها منذ الصغر عن عبد الحميد حتى ما حفظناه من قصيدة حافظ :

مشبع الحوت من لحوم البرايا ومجيع الجنــود تحت البنود

والواقع أن هذه الروايات لم تكن وقائع حقيقية بقدر ما كانت عبارات يرددها أمثال جرجى زيدان وصروف وفارس نمر وسليم سركيس وهم جميعا من أبناء المحافل الماسونية الذين يتحركون وفق مخطط مرسوم ، أما الحقيقة فقد ظلت مختفية لأنها لم تجد سبيلا إلى الكشف عنها أو إذاعتها خلال هذا الوقت الطويل . وقد عرف اليهود بالقدرة على افتراء التاريخ بذكائهم وأساليبهم فى النشر والصحافة على النحو الذى استطاع تسميم أفكار جيلين أو ثلاثة من أجيـال المسلمين والعرب ،

فكتبوا هذا التاريخ المغلوط الذى جعل من إخراج عبد الحميد علامة نصر وفرح للسذج قصيرى النظر . ولقد استطاع عالم مؤرخ غربى منصف هو المؤرخ «فمبرى» المجرى أن يكشف هذه الحقائق ولكن صوته ضاع إذ ذاك فى وسط الزحام ، وغطت عليه عشرات من الأكاذيب المصروغة فى قوالب براقة ، والتى كثر ترددادها وتعدد واستمر قائما بعشرات من الصور حتى أصبحت فى نظر بعض الناس هى الحقائق ؛ يقول فيما يتعلق بالرقابة : ١ — قيل لى أن للسلطان ألف جاسوس ، وأخبرنى آخرون أن له ألف وستمائة جاسوس يتقدم الأموال الكثيرة كل شهر ، وأنهم منبثون بين أهالى الاستانة كلهم من وطنيين وأجانب بل فى مخادع النوم وغرف البيوت فلما سمعت هذا الكلام بحثت طويلا واستقصيت طويلا ثم رجعت وقد أيقنت أن كل ما سمعته اختلاق ومبالغة وغلو .

٢ — ويقول فى اتهام السلطان بالتعصب ومعاداة المسيحيين من قومه وغير قومه : « الحال أنه اتخذ كبير أطبائه من المسيحيين وجعل وزير ماليته دولتلو أغوبيان المسيحى الأرمنى ، وعهد بكثير من مهام سلطنته إلى غير المسلمين من رعيته . وهو أول سلطان من سلاطين آل عثمان خرق الحواجز القديمة ودعا رعاياه المسيحيين عدا ملوك أوربا وسفرائها وكبرائها ووجهائها إلى ضيافته والجلوس معه على مائدته . وبالإضافة إلى مافعله لتعليم شعبه وتنوير أذهانهم وتثقيف عقولهم . وإذا استمر الأتراك سائرون على المنهج الذى نهج لهم سلطانهم ، بلغوا مبلغاً يذكر يوطد أساس ارتقائهم العقلى والاقتصادى . وأن من يقرأ ما كتبه فمبرى عن حياة السلطان يصل إلى الحقيقة التى أخفاها أعداء السلطان طويلا عن حاكم يعطى أمور الحكم أهمية بالغة فى صمود وصدق يقول : « إنه يقضى يومه من الصبح باكراً إلى أن يتناهى المساء مهتما بقضاء أشغال الدولة ، ومهام السلطنة ناظراً فى كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يفنى صحته ويعاون سير الحكومة . ولقد دخلت يوماً فوجدته جالساً على ديوانه عن يمينه عدد من الجرائد التركية وترجمات من الجرائد الأجنبية قد تراكم بجانبه كوما عالياً وعن يساره مايضاهيها من أوراق الحكومة المعروفة حملها جلالته لمراجعتها والتوقيع عليها » . ثم يعرض لمفاهيمه فى السياسة العالمية :

« لا أرى أسد من كلامه حيث قال لى يوماً إن أوربا قد غرقت أرضها ومهدت تربتها أعواماً وعصوراً حتى جاءت بما تراه فيها من مصادر الحرية والمنشئات الحرة ، والآن تطلبون إلى أن أقلع فسيلة من منابت الحرية التى فيها وأغرسها فى أراضى آسيا الوعرة القاحلة . دعونى أتعهد هذه الأرض قبلا بما يحسنها فأقلع أشواكها وأرفع أحجارها وأفلح تربتها ، وأحضر الأقنية لإروائها ثم أنقل تلك الفسيلة إليها وأكون أول من يطيب نفساً ، ويقر عيناً بنمائها ونضارتها .

ونفى استخدام الجواسيس وقال : ان كل ما سمعه من هذا القبيل اختلاق أو مبالغة وغلو وأصل تلك الأقوال كلها أن رجالا من أهل البلاط يستخدمون الجواسيس سراً ويرصدون العيون خفية لإجراء دسائسهم ومكايدهم الشريرة وتنفيذ مآربهم الفاسدة ، وجلالته عالم بمكرهم ودهائهم ، ولكن كشف حيلهم وإظهار دسائسهم ومكايدهم ليس بالأمر السهل عليه كما يتوهم الأوربيون فى بلادهم » . ا ، ه .

ولم يكن « فمبرى » وحده هو الذى أنصف عبد الحميد ولكن كثيراً من الباحثين الذين لم يقعون تحت طائلة النفوذ الأجنبى والصهيونية أنصفوه فقد وصفه الأستاذ (أدون جرثنور) الأمريكى وكان من أساتذة جامعة بيروت الأمريكية وصفا لا يوصف به إلا أعاظم الملوك وأعدلهم فقال : أنه جواد كريم يهتم بخير رعيته وليس بين الملوك من يجاريه فى الجود على ذوى البأساء ، وقال (ده سوهمس اليونانى) . أنه سائر على خطة محمد الفاتح وسليمان القانونى وقد عضد العلوم والفنون وهو وديع أنيس كريم مستنير زكى الفؤاد عالى الهمة كثير الاشتغال بمهام السلطنة سديد الاحكام فيها . وقال صموئيل كولس سفير أمريكا فى تركيا عنه : إنه ملك بكل معانى الكلمة ويستحق أعظم مدح على ما يبديه من المقدرة فى سياسة بلاده والتوفيق فى شئونها المختلفة الأجناس والمذاهب » . وفى تقدير شخصية عبدالحميد لم يستطع حتى أشد خصومه ضراوة أن ينكروا عليه عظمته فيقول الدكتور شبلى شميل بعد عزل السلطان :

« لا ريب أن عبد الحميد من أشهر مشاهير هذا العصر وسيمد له التاريخ صفحة كبيرة فقد استطاع أن يعيش كل فترة حكمه سلطانا مطلقاً ، ويقول الأخلاقيون أنه تمكن من ذلك لأنه على جانب عظيم من الدهاء والذكاء حتى أجاز على رعاياه وسائر الأمم فوز أغراضه . بل هو فى نظر البعض أعظم داهية فى هذا العصر ، ولا ينكر عليه أن قواه العقلية مترابطة فى مراميها متناسقة فى استنباطها ثم قال : عبد الحميد يعتبر اليوم فى قوة فهمه أعظم ممثل للذكاء فى الشرق الفطرى الذى قضت عليه التربية العلمية الحديثة . وفى سلوكها أعظم ممثل للسياسة القديمة الشرقية المكتسبة من تربية الشرق الاجتماعية والتى كان آخر ممثل عظيم لها فى السياسة » . ولم يستطع جرجى زيدان وهو من أتباع المحافل الماسونية أن ينكر مكانة عبدالحميد السياسية بالرغم من ترديده عبارات الاستبداد والتجسس وقتل الألوف مما كشفنا زيفه : فقال أنه من الرجال الذين واجههم غلادستون وبسمارك ، ولقد كان عبد الحميد فى ذكائه السياسى وخلاص الوجهة لإنقاذ الدول العثمانية وحمايتها ورفض نفوذ الصهيونية

في فلسطين والحيلولة دون تحقيق مشروعات الاستعمار بتمزيقها إنما يقف في وجه هذه المؤامرة العالمية الخطيرة التي كانت ترى في بقاء الخلافة الإسلاميه والدولة العثمانية عقبة في وجه تنفيذ مخططاتها ، فإذا ما أضاف إليها السلطان عبد الحميد مشروعه في الوحـدة الإسلامية الذى وجد قبولا لا حـد له في نفوس المسلمين خارج الدولة العثمانية وحقق نجاحاً باهراً ، كل هذا أزعج القوى الاستعمارية ودفعها إلى التعجل بالتخلص من عبد الحميد بالذات بوصفه قائد هذا الاتجاه وحامل هذا اللواء . وقد جرت المؤامرة عليه عن طريق إثارة العناصر من ناحية والايقاع بينه وبـين العرب ، وإغراء مجموعة من الأتراك أنفسهم لحمل لواء تحرير الدولة العثمانية ، عن طريق دعويين (١) التمـاس المناهج الغربية كاملة في الحضارة والثقافة معاً (٢) إذاعة النعرة الجنسية بالدعوة الطورانية وتتريك العناصر . هذا هو المخطط الذى كان السلطان عبد الحميد يقاومه ، ويعارضه ويحول بينه وبين إفساد مخططه ودعوته التي كانت قد حققت نجاحاً كبيراً وأوشكت أن تؤتى ثمرتها المرجوة . ولقد كانت سعة أفق السلطان عبد الحميد وذكائه وبرودة أعصابه هي التي مكنته من السيطرة بالاصرار والقوة هذه السنوات الطويلة ودحر كل مناورة أو مؤامرة . ويصور هذا المعنى الجنرال جواد رفعت وهو ضابط تركي من أصدق الأتراك إيماناً بالإسلام وبحثا عن الحقيقـة في ذلك الركام الضخم من الأكاذيب التي لفقها النفـوذ الاستعماري والصهيونية فيقول « أن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه الذى عرف حقيقـة الصهيونية والسباتائية وقدر أضرارهما على الترك والإسلام وخطرهما المحدق تماماً وكافح معهما مـدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان العثماني الثالث والثلاثين السلطان عبد الحميـد الثاني فقط ، إن هذا السلطان التركي العظيم كافح هذه المنظمات الخطرة مدة ثلاثة وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال والكفاح لمدة طويلة كهذه مع هؤلاء تعتبر فوزاً عظيما تجاه شبكتهم المبثوثة في جميع أنحاء العالم ومنظماتهم التي أحدثوها في الأرض ووسائط وأسلوب دعاياتهم وافتراءاتهم الكاذبة الشنيعة من هنا قاوم رحمة الله في كفاحه هذا إلى آخر حياته وأن شرف الكفاح لمدة طويلة كهذه مع هذه المنظمة الحقودة لحساب الأتراك والإسلام لم يكن ميسراً لأحد في التاريخ سوى السلطان المذكور فقط . ولقد كذبت الأحداث ما زيفوه من اتهام حول رباطة جأش السلطان ، فقد ثبت في موقفين حاسمين كيف تصرف السلطان في شجاعة فائقة : أما أحدهما فحين ألقيت عليه قنبلة وهو في طريق عودته من صلاة الجمعة واهتزت الجموع وثبت السلطان على نحو هز المراقبين والشعراء .

أما الحادث الثاني فندع خصما من خصوم السلطان يرويه ، وهي المؤلفة (اللاوتمان) صاحبة كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) تقول :

« فى ١٩٠٤ فى حفل الاستقبال السنوى فى قصر ضولمبغشة حيث كان (السلطان) يستقبل ضيوفا من أنحاء العالم وقع زلزال شديد فتحطمت النوافذ وانشقت أرض القصر ، وتهاوت الثريات من السقوف ، فقفز الوزراء والباشوات من النوافذ واستولى الذعر على كل الموجودين ، ماعـدا عبد الحميد الذى ظل واقفاً منتصبا رابط الجأش وسط الغرفة المتأرجحة » . هذا وقد عمد كل الذين كتبوا عن عبد الحميد أن يصفوه بالضعف والمرض والوهن وأنه على وشك الموت وقد كذبت الاحداث كل ماقالوا فقد عاش بعد عزله ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٨ عشر سنوات كاملة ، ولو كان كما يقولون كما عاش كل هذه السنوات التى كان خلالها فى أقصى درجات اليقظة والوعى والوقوف على الاحداث ومراقبتها .

(٤)

عبد الحميد والصهيونية

إن موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية لايزال من أشرف المواقف وأبرزها فى حياة هذا الرجل الذى ظلمـه التاريخ الزائف المعاصر طويلا ، حتى انطوى أكثر من خمسـين عاماً قبل أن ينكشف الستار عن بعض الحقائق التى تبرىء ذمة هذا الرجل ، وتضعه فى مـكانه الحق فى مواجهة أخطار الصهيونية وقوتها الخطيرة : الماسونية ، هذا بالإضافة إلى مؤامرات النفوذ الأجنبي الاستعمارى من روسيا وفرنسا وبريطانيا الطامحة فى تمزيقها وانتزاع أجزاءها الاوربية والعربية جميعاً ، ولقـد ترددت روايات كثيرة حول موقف عبد الحميد من الصهيونية ، عن لقاءات متعددة ، أو محاولات متوالية لأغراء السلطان أو تهديده أو التوسط لديه من أجل أتاحة الفرصة للصهيونية لإقامة معسكرات لهم فى فلسطين وتقديم عروض مغرية سخية للدولة ولخزينة الخليفة نفسه ، وكلها تجمع على الموقف البالغ التقدير والشرف والـكرامة من السلطان إزاء هذه المغريات مما أغلق الباب نهائياً أمام الصهيونية وأفقدهم كل أمل فيه وأيأسهم منه نهائياً فكان قرارهم بالقضاء عليه ، هذا القرار الذى نفذه رجال الماسون الاتراك الذين كانوا يتجمعون تحت أسم تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقى وكانوا أداة فى يد الصهيونية العالمية ، فى نفس الوقت الذى كانت الصهيونية والاستعمار تمدهم لتولى زمام الامور فى تركيا ، خدعة وتآمراً على تصفية هذه الامبراطورية الضخمة تصفية نهائيا على مرحلتين : مرحلة مابين ١٩٩٠ و ١٩١٨ عن طريق الاتحاديين ، وفيها استولى الاستعمار على البلاد العربية وفيما بعد ذلك على أيدى الـكماليين بالغاء الخلافة وفصل تركيا نهائيا عن العالمين العربى والاسلامى والحاقها

باوربا ، والابقاء عليها مضغوطة حتى لاتكون عاملا من عوامل الخطر فى وجـــه أوربا .
وهناك لقاءان ترددا كثيراً فى كتابات المؤرخين والباحثين : (أولا) لقـــاء اليهود الثلاثة (مزراحى قراصو « جاك — ليون) الذين قدموا إلى قصر يلدز ، وقدموا عرضاً بوفاء ديون الدولة العثمانية وبناء أسطول لحماية الامبراطورية العثمانية وتقديم قروض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية دون فائدة لإنعاش مالية الدولة ، وذلك مقابل إباحة دخول اليهود إلى فلسطين فى أى يوم من أيام السنة للزيارة والسماح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل بهـــا أبناء جلدتهم قرب القدس . (ثانياً) لقاء تيودور هرتزل ومعه الحاخام موشى ليوى (حاخام اليهود فى الدولة العثمانية إذ ذاك) وقد استقبلهما السلطان وسمع منهما ما عرضاه وكان يدور حول السماح لليهود بشراء بعض الأراضى التى ليست مملوكة لأحد فى فلسطين على أن يدفع بدلها نقداً ومع الزيادة وبالذهب . ويقول مستر كريسى أن هرتزل قدم فكرته وهى أن الصهيونيين يتعهدون لقاء نزول اليهود المضطهدين فى أنحاء العالم بفلسطين أن يدفعوا الدين العثمانى البالغ ٣٢ مليون ليرة إنجليزية ويتعهدون كذلك ببناء أسطول كامل للدفاع عن أراضى الدولة العلية .

(ثالثاً) وهناك محاولة أخرى قام بها السفير اليهودى غوش ، وهى سابقة فى التاريخ على المقابلة التى قام بها اليهود الثلاثة أشار إليها الصحفى البريطانى كريسى فى مقابل أرسل به إلى جريدة أقسام التركية . وقد تمت هذه المقابلة (١٩٠٠ / ١٩٠١) قال « كان الدكتور هرتزل فى ذلك العهد رئيس تحرير القسم الأدبى من جريدة (نيوفرى) فى فينا فأرادنى أن أسعى له فى مقابلة السلطان عبد الحميد بعد أن بسط لى بحزن شديد كيف أن غليوم الأول والبرنس دى بيلوف خدعاه لما رافقاها فى رحلته الأمبراطورية إلى فلسطين ، فقد وعده هذا الأخير أن يقدمه إلى السلطان ، فلما وصلوا إلى الاستانة اكتفى البرنس بأن عرفه إلى عزب باشا العابد .

وقد أشارت مجلة المشرق : إلى هذه المقابلة . فقالت : « لما كان اللورد غوشى الإسرائيلى سفيراً بالآستانة عرض على الحكومة السنية أن تجعل تلك النواحى (ملفاد ومؤاب عـــبر الأردن) التى مساحتها نحو ستمائة ألف هكتار مستعمرة لليهود تحت نظارة الباب العالى يسوسونها كما يشاؤون ، بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغاً عظيماً من الدراهم لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات . غير أن الدولة السنية لم تلب دعاء غوشى وأغنياء اليهود فذهبت آمالهم أدراج الرياح وكانت غايتهم أن يمهدوا الطريق لأبناء جلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة بالأراضى المقدسة كما كانت قبل المسيح » .

وفى هذه الرحلة بالذات ، وكان ذلك خلال حكم السلطان عبد الحميد ، تحدثت صحف الآستانة مواجهة أنظار الحكومة والأهالى إلى هذا الخطر ، ونشرت جريدة معلومات (ونقلت منها جريدة ثمرات الفنون) عدد صفر ١٣٢٤ هـ ١٣٠ حزيران ١٨٩٩ م تحت عنوان (اليهود فى سوريا وفلسطين) « . . لليهود ميل شديد تقادم فيهم لمجاورة القدس ، لأن تلك الأقطار كانت مهداً لاعتلاء مجدهم فى الأزمنة الغابرة ، وقد جذبتهم معتقداتهم الدينية إلى مجد أسلافهم ، فقام الكثيرون على المهاجرة إلى أنحاء القدس وتوطن فريق منهم فى تلك الجهات وصار لهم قسم كبير من الأراضى وما زال الكثيرون يرغبون فى الهجرة وشراء الأراضى وهذا مما يضر بصوالح الدولة والأمة معاً ، إذ تصبح القدس فى يوم من الأيام بين اليهود فقط ، وقد سمعنا أن الدولة شعرت بالخطر فأصدرت أمراً إلى متصرف القدس ، حظرت فيه بيع الأراضى الأميرية إلى أولئك المهاجرين كما نصحت الأهالى بأن يحافظوا على أراضيهم ولا يبيعوها لليهود » . ويهمنا أن نعرف بعد ، ماذا كان موقف السلطان عبد الحميد وإجابته الحاسمة لمثل هذه المحاولات المتكررة ، لقد وقف السلطان عبد الحميد ، أشرف موقف ورفض رفضا باتا كل ما عرضه اليهود بل رفض وساطة أمبراطور ألمانيا وهو نصير تركيا فى ذلك الوقت فى وجه خصومها الفرنسيين والإنجليز والروس . وهذا ما قاله السلطان عبد الحميد ردا على ذلك بالنص :

« ليحتفظ اليهود بأموالهم فالدولة العلية لا يمكن أن تختبىء وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام » . « لست مستعدا لأن أتحمل فى التاريخ وصمة بيع بيت المقدس لليهود وخيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحمايتها » . « إن ديوان الدولة ليست عاراً لأن غيرها من الدول هى الأخرى مدينة مثل فرنسا » . « إن بيت المقدس قد افتتحه المسلمون أول مرة بخلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولست مستعداً أن أتحمل فى التاريخ وصمة بيعه لليهود وخيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحمايتها » . وقد أورد هرتزل فى مذكراته التى طبعت بالألمانية فى تل أبيب سنة ١٩٢٤ (يراجع النص) قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة : أن السلطان بعث له وساما عاليا ومعه خطاب جاء فيه : بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئا من المحاولة فى هذا الأمر(التوطن بفلسطين) فإنى لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبى روى ترابها بدمائه فليحتفظ اليهود بملايينهم من الذهب » . كانت هذه العبارات الشريفة القاطعة الصريحة كفيلة بأن تدفع الصهيونية العالمية وأداتها الماسونية إلى تنفيذ الخطة التى انتهت بعزل عبد الحميد بعد مؤامرة قتله التى فشلت . وما تزال هذه العبارات نبراسا مضيئا ، وتاجا لامعا ، وشرفا ما بعده شرف يتوج جبين عبد الحميد ويرد عنه كل ما روجوه حوله من إشاعات

وشبهات من أجل تحطيمه فى نظر العالم وتصوير نهايته على أنها كانت من صنع قومه وأهله وشعبه ، حسبما فهم الناس وردد الكتاب فى مؤلفاتهم دون وعى — وقد كنا خدعنا مثل غيرنا بالوقائع المزيفة قبل العقد السادس من هذا القرن حيث ظهرت بروتوكولات صهيون وانكشف الستار عن مخططات مؤامرة قلب الدولة العثمانية وإنزال السلطان عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه الجريمة البشعة التى سنوالى رسم حلقاتها فى هذا الكتاب ، لنكشف الستار بذلك عن المؤامرة العالمية لتدمير الرابطة العضوية بين العروبة والإسلام بعد أن ظهر عدد كبير من الوثائق والمقررات والأسانيد التاريخيـــة التى تلقى الضوء على الحقائق التى كانت مخبوءة فى المواقف الغامضة التى سيطرت عليها الماسونية اليهودية وحجبتها ردحا من الزمن عن الصحافة والأقلام حتى أتيح لها بشكل أو بآخر أن تتسرب وأن تصل إلى الناس وأن تشكل فى مجموعها خطا واضحا بعيد الأثر فى إعادة تفسير التاريخ الإسلامى المعاصر وإلقاء الأضوء على كثير من الفجوات والغوامض ، وكشف الحقائق التى يجب أن تكون بين أيدى الباحثين فى فترة من أدق فترات حياة العالم الإسلامى والأمة العربية ، ولقد كان واضحا أن النفوذ الغربى بالاشتراك مع الصهيونية العالمية كان يعمل منذ وقت بعيد على تدمير الدولة العثمانية ، ولكن اختلاف الدول الأوربية على الغنائم وارتفاع نفوذ بعضها على البعض ، وحرص بريطانيا على ألا تحصل روسيا على نصيب الأسد كان يؤخر هذا الإجهاز ، غير أن الصهيونية العالمية عندما أحست بأن طريقها إلى بيت المقدس وبناء هيكل سليمان وهو العمل الذى ترتب له سراً على نحو دقيق ومتصل من خلال المنظمات الماسونية إبتداء من عام ١٧٦٠ تقريبا بدأت بانشاء أول محفل ماسونى فى بريطانيا الزاحفة إلى العالم الإسلامى للسيطرة عليه ، وعندما قال عبد الحميد كلمته الحاسمة :

« قولوا للدكتور هرتزل لا يتصل بى مرة أخرى » كان ذلك حكما من السلطان عبد الحميد على نفسه بأنه أصبح صريع الماسونية العالمية وضحية من ضحاياها ، وقد كان يعرف هو الكثير عن هذه المخططات ولكنه لم يبال ذلك عندما جاء وقته من أجل (شرف الكلمة) وبراءة التاريخ الذى سجل له فى هذا الموطن أروع صفحة وأنصع كلة . لقد حددت الصهيونية العالمية موقفها تماما من السلطان عبد الحميد ونفذته على مراحل ، المرحلة الأولى : تلك الصفحات العاصفة من الدعاوة ضده وتصويره وتصويره بصورة المستبد القاتل الذى يلقى بضحاياه فى البسفور وأطلقت عليه اسم السلطان الأحمر إشارة إلى الدم والقتل وظلت تنشر ذلك فى كل مكان واختيرت مصر مقراً أساسيا لهذه الدعوة فقامت المقطم والهلال وروايات الهلال ومجلات سركيس وفرح أنطون وغيرها بالحديث عن الاستبداد، واستغلت كتابات عبد الرحمن الكواكبي فى وقت كان الخلاف قد وقع عن السلطان والخديو عباس،

ثم امتدت هذه الحركة إلى باريس ولندن وحمل لواءها المسيحيون اللبنانيون . وفى مقدمتهم : صابونجى ومراش وعازورى حيث أنشأوا الصحف فى العاصمتين وظلوا يحملون عليه ويسربون كتاباتهم إلى البريد العربى والتركى ليصل ألى أيدى المسلمين والعرب فى بلاد المملكة العثمانية . وقد رد الباحثون المنصفون هذا الإتجاه ، وما بذلوه فى سبيل إشاعة الكره ضد السلطان فى كافة أنحاء العالمين الإسلامى والمسيحى إلى نص وارد فى البروتوكولات المادة الخامسة : يقول: « وجوب تلفيق الوقائع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس للحط من كرامتهم وكسر اعتبارهم ومن هنا كان ذلك المخطط الواسع الدقيق فى تلفيق الوقائع ، الموهمة من قضايا القتل والإعدام والإحراق والاغراق » مما لا يزال يصدقه الكثيرون لترديده سنوات دون أن يتعرض له أحـد بالتصحيح أو التكذيب . (ثانيا) أستيعاب المنظمات والجميات السرية وخاصة منظمة الاتحاديين (تركيا الفتاة) ودعمها عن طريق أموال الدونمة فى سالونيك وفتح أبواب المحافل الماسونية الداخلة فى حماية القنصليات ضمن قوانين الامتيازات الأجنبية المعقودة حتى يكونوا فى مأمن من السلطات التركية ودفع هذه المنظمات إلى العمل فى الخارج أيضاً .

(ثالثاً) محاولة تدبير مؤامرة إغتيال السلطان التى قام بها بعض الأرمن . ويروى جواد رفعت هذه المحاولة فيقول : أن الماسونية الصهيونية عثرت على يهودى معروف بأعماله الهدامة فى الثورة الروسية ، فاتفقوا معه واستطاع هو أن يعثر على بعض الأرمن ، الذين أغروهم بأن اغتيال عبدالحميد سيحقق لهم قيام (أرمينيا الكبرى) فألقوا قنبلة على موكب السلطان وهو فى طريقه لصلاة الجمعة فأدت إلى استشهاد رجلين من رجاله ونجا السلطان الذى كان قد تأخر بضع دقائق . ولقد ترددت فى كتابات جرجى زيدان وصروف والكاتبة أولما ولكن وغيرهم عبارات تفيض بالخزى عن ما وصفوه بضعف السلطان وخوفه وتوجسه وغير ذلك مما لفقوه ليبرروا به ما قالوه من إتساع نطاق الرقابة وإجراءات الأمن ولكن ماذا كان موقف السلطان حقيقة من مثل هذا الحادث الذى وقع فى مواجهة المراقبين والسفراء ومندوبى الصحف ووكالات الانباء : لقد دهش الجميع لمدى رباطة جاش السلطان وحزمه ، وجرأته ، فقد وقف صامداً دون أن تبدو على وجهه أى علامات الاضطراب ويصور ذلك جواد رفعت فيقول . « إن الشجاعة وبرودة الدم اللتين أظهرها السلطان فى أثناء وقوع الحادثة قد حيرتا كافة رجال السلك السياسى الأجانب الذين كانوا يشاهدون المراسيم من دائرة التشريفات ، وأظهر للملأ قاطبة كذب الدعاية الصهيونية القائلة بوجـود « التوجس فى السلطان » والمعروف أن الصهيونية العالمية عندما عجزت فى مجال الاغتيال، رتبت خطتها على أساس تدبير انقلاب عسكرى فيه

كثير من الخداع والتآمر . وفى مواجهة الموقف اتخذ السلطان عدة إجراءات حاسمة : (أولا) أمر السلطان بإتخاذ إجراءات حاسمة بشأن الوجـود اليهودى فى فلسطين والقدس ، ووضعت حكومة الآستانه قانون (الجواز الأحمر) وكان خاصا بكل يهودى يدخل فلسطين بقصد السياحة أو الزيارة كما منعت أمتلاك اليهود للأرض أو استيطانهم فيها . وأرسل السلطان إلى (متصرف القدس) ليقوم بالتحرى عن اليهود فى فلسطين ولا سيما فى القدس ، ولا يبقى فى الأرض المقدسة احـداً من الطائفة اليهودية غير الذين قدموا إليها بقصـد الزيارة العابرة ، وألا يسمح لهؤلاء بالمكوث فيها إلا بمقـدار الزمن المحدد لهذه الزيارة . (ثانياً) عزز السلطان دعوته إلى الوحدة الإسلامية واتخـذ من العرب عصبية له ، وقد اعتمد فى هذا المشروع أساسا على خير الدين التونسى وجمال الدين الأفغانى ثم قرب إليه فريقا من مشايخ الأمصار العربية من أمثال : أبو الهدى الرفاعى من سوريا ، محمد ظافر من الجزائر ، أحمد القيصرلى من المدينة ، فضلا عن أشراف مكة وعدد كبير من العلماء والأشراف كما عهد إلى بعض أبناء زعماء المسلمين والعرب بالمناصب الكبرى فى العاصمة : أحمد عزت العابد ، شفيق المؤيد ، شفيق الكورانى ، سليم ملحمه ، نجيب ملحمه ، شكرى الأيوبى وكل هؤلاء من سوريا ولبنان وطالب النقيب وأحمد الزهير من العراق . كما وضع عدداً من ضباط العرب فى درجات عالية ، وكان فى عداد ياورانه : فريقان من العرب هما محمد ومحى الدين ولدا الأمير عبد القادر الجزائرى وفؤاد باشا المصرى كما اتخذ من أبناء العروبة حرساً خاصاً له ألبسه العمائم الخضراء وأنزله حـول قصره وصاهر السلطان العرب فزوج أميرتين من أسرته من شابين رقاهما إلى رتبة (دامار) أى صهر ، هما عبد الحميـد بن شريف على حيدر وصالح ابن خير الدين التونسى ، وانشأ مدرسة العشائر التى فتحت أبوابها للعرب والمسلمين فى كافة الأقطار .

(ثالثا) أسرع فى اتمام الخط الحديدى بين دمشق والحجاز . وكان هذا العمل من أخطر أعماله بعد الدعوة إلى الوحدة الإسلامية الجامعة تحت لواء الخلافة ، فقد هز الدوائر الاستعمارية الصهيونية . وكان قد تكشف له أن اليهود ربما سيخرجون جنودهم إلى مرافىء البحر الأحمر مثلا كجدة ويقومون بسد قناة السويس يوما لسبب عدم نزوله على رغبتهم ، من أجل ذلك اعتبر أن إنشاء الخط الحديدى الحجازى ، عملا استراتيجيا هاما لمجابهة هذه الاحتمالات لكى لا توثق يد الخلافة فى حالة قيام الانجليز بمثل هذه المخاطرة . وهو من ناحية أخرى عامل هام فى تمكين المسلمين بين أداة فريضة الحج ، وتأمين المواصلات مع البقاع المقدسة . (رابعاً) كان من الطبيعى أيضـاً أن ينظم السلطان إدارته على نحـو معين ويوسع دائرة استخباراته ليعرف إلى أى مدى ستحاول الصهيونية العالميه والاستعمار توجيهه

الضربة إليه وخاصة بعد محاولة اغتياله وليس فى هذا من بأس على السلطان ولا على الدولة إزاء هذه المؤمرات الضخمة التى انكشفت بعد ذلك والتى لم يكن فى الإمكان الكشف عن أسرارها للناس .
أما بالنسبة للحملات التى وجهت إلى شخصية السلطان عبد الحميد فقد باءت بالفشل جميعها . فلم تكن مكانة عبد الحميد فى نظر العالم الإسلامى موضع ريب أو شك بالرغم من كل ما أثير حوله من شبهات وحملات ، فقد كان أمل المسلمين وكانت خطته التى أعلنها قد لقيت رضا وتقبلا لا حد له ، لأنها جاءت منسجمة مع طبيعة النفس المسلمة والمزاج المسلم ولم تكن متعارضة معها على النحو الذى جاء بعد دعوات الاقليمية والتعصب الجنسى والمذهبى ، ولذلك فإن الذين يقولون إن عبد الحميد كان يسبح ضد التيار كانوا مخطئين ، لقد كان يسبح فى الاتجاه الصحيح ، ولم يكن من اليسير أن تتم محاولة تطويقه لو أنه قضى على خصومه فى الداخل ، الذين كانوا سلاح الصهيونية فى القضاء عليه، أما بالنسبة للدول الأوربية فقد كان قادراً على أن يحطم كل خططهم وقد حطمها فعلا وضرب بعضهم بالبعض الآخر وبلغ فى ذلك ما وصفه جمال الدين الأفغانى بدقة حين قال : « أعظم ما أدهشنى ما أعده من خفى الوسائل وأمضى العوامل كى لا تتفق أوربا على عمل خطير فى الممالك العثمانية ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة — السلطنة العثمانية لا يمكن (أن يتم) إلا بخراب يعم الممالك الأوربية بأسرها » ، ومعنى هذا أن جمال الدين الأفغانى وهو السياسى الداهية قد عرف من محادثاته مع عبد الحميد كيف كان هذا الرجل يواجه خطر النفوذ الأجنبى وليست ثقة المسلمين فى السلطان عبد الحميد موضع شك فقد شهد بها خصومه وأنصاره على السواء ، وهى الصخرة التى حاول الاستعمار والصهيونية تحطيمها خلال حياته وبعدها دون جدوى .

ولقد حاولت جريدة التيمس أن توجه للسلطان عبد الحميد بعد إنشاء الخط الحديدى بعض سمومها حين قالت . كان عبد الحميد يرى أن إنشاء هذا الخط ، من شأنه أن يعزز المنصب الذى كان يدعيه لنفسه من أن الزعيم الروحى للمسلمين ، وكان يخامره شعور قوى فى نفسه أن لإنشاء هذا الخط الحديدى استراتيجية عظيمة ، لا سيما إذا اتصل هذا الخط بالخطوط الحديدية المؤدية إلى بلاد الأناضول وقد علق هذا الاستاذ زين زين فقال : ما كان للسلطان أن يخامره شكوك ومخاوف من رعاياه العرب مادام الأمر يتعلق بالخلافة ، فلم يكن يخطر فى بال الغالبية الإسلامية العربية أن تعمل على تقويض أركان الخلافة لأن ذلك كان بمثابة تقويض لأركان الإسلام ذاته . وقال : لقد كان قادة الفكر العرب ينظرون إلى المؤامرات والدسائس التى كانت تحركها الدول الأوربية ضد الامبراطورية العثمانية لنظرة شك وتخوف من أن يؤول الأمر إلى تجزئة الامبراطورية العثمانية واقتسامها فيما بينها

مما قد يؤدى إلى زوال الخلافة وبالتالى إلى انفصال العرب عن الامبراطورية الإسلامية . ولقد هزت خطة عبد الحميد الدوائر البريطانية بالذات حتى ليقول سفير بريطانيا لدى الباب العالى فى تقريره عام ١٩٠٧ عن خطة الجامعة الإسلامية التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد عشر سنوات (من ١٨٩٧ — ١٩٠٧) . يمكننا أن نقرر بأن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان فى الموقف السياسى العام : (أولا) خطة السلطان الماهرة التى استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم فى ثوث الخليفة الذى هو الرئيس الروحى فى الدين الإسلامى وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعا أعمى (ثانياً) علاقة عبد الحميد بامبراطور ألمانيا (غليوم الثانى) الذى زار تركيا ١٨٦٨ وكان له دوره فى بناء خط سكة حديد الحجاز . والواقع أن السلطان استطاع بدهائه السياسى البارع أن يحطم الحلف الأوربى المقدس الذى تجمع من (روسيا وفرنسا وانجلترا وألمانيا) على الدولة العثمانية ، وذلك بأن عقد صلات المودة مع الامبراطور غليوم فتحطم ذلك الحلف ،وبدأ خطر جديد تخشى منه بريطانيا على القيام بعمل مع حلفائها ضد السلطان والدولة العثمانية . ولا شك أن هذه الأعمال المتعددة :

أولا — حركة الجامعة الإسلامية . ثانياً — إنشاء الخط الحديدى . ثالثاً الاتفاق مع امبراطور ألمانيا. رابعاً — رفض مطلب الصهيونية : كانت بعيدة المدى فى التعجيل والقضاء عليه رغم كل ما أحاط به نفسه من خطط وحماية خاصة إذا أضيفت إلى ذلك ، تلك الكلمة التى كان عبد الحميد يحتفظ لها للوقت المناسب والتى ترددت الشائعات حولها كثيراً فى عديد من أحاديث السفراء والدبلوماسيين وهى ، رفع لواء النبي والدعوة إلى تجميع المسلمين حوله : يقول العلامة محمد جميل بيهم وهو من معاصرى هذه الفترة : كنا نسمع أثناء وجودنا فى المدارس أن السلطان (عبد الحميد) سينشر العلم النبوى فى اليوم العصيب فيزحف المسلمون وراءه من كل صواب ، كما أشار إلى ما لبيت مال المسلمين من فريضة على حجاج بيت الله ، ولا بأس أن يكون أداء تلك الفريضة بتقديم الجواهر والأحجار الكريمة وكلها رهن أوامر الخليفة يوم يضطر لإخراج العلم النبوى ودعوة المسلمين للجهاد : وكل هذا كان يهز دوائر الاستعمار ويزعجها ، حتى إن انكترا وفرنسا اللتين كانتا تحكمان أكبر عدد من المسلمين شعرت بحرج الموقف إزاء التفاف العالم الإسلامى حول الخليفة وحسبت له ألف حساب ولاسيما حينما أيدته ألمانيا العدوة اللدودة لهذه الدو وخاصة عندما منح الخليفة ألمانيا امتياز الخط الحديدى الذى يصل الآستانه ببغداد وينتهى بخليج فارس . لقد كانت خطة

السلطان عبد الحميد ومشروعه بإنشاء الجامعة الإسلامية من الأعمال الكبرى التى تمثل فلسفته ومفاهيمه وأيدلوجيته التى عاش لها حياته فى الخلافة والسلطان ، وعلى الرغم من أهمية الخطوات التى اتخذت والتحديات التى واجهها هذا المشروع فقد خرست كل الكتابات التى قدمها الذين أرخوا للسلطان وكتبوا عنه ، عن استعراضها أو مجرد الإشارة إليها لأنها من الأعمال المشرفة التى يجب حجبها وإنكارها فإذا عرض لها بعضهم تناولها من حيث هى عمل معارض للعصر أو للعناصر فى المملكة أو من جهة أعتراض فرنسا وانجلترا عليها كأنما كان على السلطان أن يرضى هذه الدول المتآمرة على الدول العثمانية والمسلمين بتقبل أهوائهم ووجهات نظرهم والتسليم لهم . ومن الحق أن يقال أن السلطان عبد الحميد يسلم حتى آخر لحظة وهو يعلم كل المؤامرات التى تحاك من أجل قتله أو انتزاعه من مكانه ، غير أن الكاتبة الدكتورة الماوتلمن فى كتابها (عبد الحميد ظل الله على الأرض) وبالرغم من تحاملها البغيض شأن أبناء جنسها إزاء الاسلام والعرب والدولة العثمانية قد عرضت للجامعة الإسلامية مشروع عبد الحميد فى بضع صفحات من كتابها على ذلك النحو المعروف من الكتابات الأوربية ذات الهوى والتعصب ، فقالت أن نداء عبد الحميد للوحدة الإسلامية كان ضد أمم الأرض الكبرى ، وضد تيار المادية الغربية الجارف ، وقالت إن مذهب الجامعة الإسلامية ذاته لم يكن جديداً فقد كانت هناك الوهابية والمهدوية .

وقالت إن برنامج الجامعة الإسلامية تضمن طبع آلاف النسخ من القرآن الكريم جرى توزيعها فى أنحاء البلاد ، وأن الدعوة كانت بمثابة تكييف مبادىء الإسلام بحيث يتفق مع الأغراض السياسية » . ولا شك أن الكاتبة تجهل مفهوم الإسلام الحقيقى ولذلك فهى تتخبط فيما تقول . وتقول الكاتبة أن السلطان عبد الحميد وصف تركيا بأنها « نافذة الإسلام » النافذة التى سيشع منها النور الجديد ، فقد كان رمزاً للإسلام والشرق ، وقد وعد بقيادة المسلمين إلى مستقبل أفضل ، وكان أول من تجرأ بعد مائتى عام من الهزيمة والتقهقر على تحدى العالم الغربى » . ومما قاله السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٠ حسبما أوردته الكاتبة : « يجب أن لا ندع الغرب يبهرنا فإن الخلاص ليس فى المدينة وحدها » لقد أدى تعلقه بهذه الآراء التى كان يرددها باستمرار إلى أن يؤمن بها الناس وبه ، وقد أخذت تصل إليه آلاف الخطابات والوثائق الرسمية من كل أطراف العالم حيث كان يعيش المسلمون وفيها يعلن مئات الملايين ولاءهم للسلطان وتعلقهم بحركة الجامعة الإسلامية . وتقول : لقد كان يرى أن واجبه الأول هو إقناع آسيا بتفاهة المدينة الأوربية وإنشاء عصر جديد من عصور الاستقلال فى الشرق وأشارت إلى أن الدعوة الجديدة إلى الحركة الإسلامية استنفدت مبالغ طائلة للانفاق على

تنقلات الدعاة ، وعدد من المبشرين الكبير ، وللسافات الكبيرة التى كان عليهم أن يقطعوها للوصول إلى الجماعات الإسلامية المتفرقة وقد كان السلطان ينتظر اشتداد ساعد حركة الجامعة الإسلامية فيستطيع أن يتحدى أوربا وأن تعاونه مع الألمان قد جر عليه خصومة فرنسا وإنجلترا .

(٥)

عبد الحميد وجمال الدين

حاولت المخططات الصهيونية والاستعمارية أن تتخذ من شخصية جمال الدين الأفغانى موقفا مقابلا للسلطان عبد الحميد فكان مما رددته : أولا : أن جمال الدين الأفغانى هو صاحب فكرة الجامعة الاسلامية وأن السلطان عبد الحميد اقتنص الفكرة وحولها لحسابه لتأكيد وجوده ونفوذه . ثانيا : أن السلطان عبد الحميد كان حريصا على أنه يجتذب إليه كل شخصية لامعة من شأنها أن يتجمع الناس حولها حتى ينفرد هو بالسلطان ، ثم يحتجز هذه الشخصية أو يقتلها . وكذلك وصفت علاقة جمال الدين بالسلطان عبد الحميد ، فقيل أن السلطان ظل يغرى جمال الدين بالحضور إلى الاستانة فلما «استسلم» جمال الدين أقامه السلطان فى قفص من ذهب وحال بينه وبين الاتصال بالناس وليس فى ذلك كله الذى روى شىء من الحقيقة ، فإن محمد المخزومى باشا يشير فى كتابه (خاطرات جمال الدين) أنه كان مصاحبا للأفغانى طوال مدة إقامته فى الآستانة وإلى آخر لحظات حياته وأن كثيراً من أصحابه كانوا على اتصال به دون انقطاع والواقع أن هناك خلافا واضحا بين شخصيتى عبد الحميد وجمال الدين من عدة وجوه :

(الأولى) من حيث أن الأول سلطان حاكم والثانى مصلح فيلسوف . (الثانية) من حيث أن السلطان كان غاية فى ضبط النفس وهدوء الأعصاب والقدرة على مواجهة الأمور بالحكمة بينما كان جمال الدين الأفغانى دموى المزاج عنيفا ، يشتط لأقل الأمور ، ويثير الغبار من أجل أبسط المسائل ، ولا يصبر ولا ينتظر . وتكشف عن هذا كله تلك الأحداث التى وقعت بين السلطان والسيد جمال الأفغانى ومما يرويه فى هذا الصدد محمد المخزومى فى كتابه خاطرات جمال الدين « خف جمال الدين يوما وطلب من السلطان لأحد الأخوان المصريين الموجودين فى الآستانة ممن كان يتردد على السيد — رتبة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بامضاء ذلك فأتى جمال الدين وبشر الرجل بحصول طلبه .

مضت إيام ولم تصدر الإرادة السلية بما طلبه فكتب للسلطان يذكره ويستنجزه وعده ، ولكن عبثا انتظر ، فاحتدم جمال الدين غيظا وأكبر الأمر ، وطلب خطا أن يؤذن له بالمثول — وهذه أول مرة طلب بها الإذن بالمقابلة ، إذا كان السلطان هو الذى يدعو جمال الدين إليه . فما وصل الطلب بالاستئذان حتى أسرع الحاجب (القرنا) يدعو السيد للحضور فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ ، وخشينا سوء العاقبة ، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه ودخل على السلطان فاستقبله حسب عادته بوجه طلق بشوش ، وجمال الدين بوجه عبوس قمطرير . فاستجوبه السلطان قائلا : خيراً إن شاء الله ، ماذا حدث مع حضرة السيد قال : لاشىء ، إنما أتيت لاستسمح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك لأنى رجعت عنها ، فانتفض السلطان واهتز لهذا النبأ وقال : ياسيد : هل أفتكرت بما تقول : قال : نعم ، بايعتك بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد ، بيد جلالتك الحل والعقد ، وبإمكانك أن لاتعد ، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء ، وقد رجوتك بالأمر الفلانى ووعدت بأنك تمضيه ولم تفعل . عندئذ سكن غيظ السلطان وبهت برهة مطرقا يهز رأسه ، يمينا وشمالا ثم قال : سبحان الله ياحضرة السيد .

إن أمراً طفيفاً مثل هذا ، يحملك على تهجم على نقض بيعتى لأجله ! : أما كان يحسن بفضلك ، أن تلتمس لى عذراً بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرنى قبل نقض البيعة ، سامحك الله وأحسن جزاءك ثم أصدر ارادته حالا بما طلب جمال الدين وآنسه كثيراً وباسطه — قال جمال الدين : الحق يقال أنى شعرت بتسرعى ، وعرفت خطئى كما أنى عرفت للرجل كبير فضله وسعة صدره ، وعند خروجه تقدم الحاجب من جمال الدين وناوله كيسا من المخمل الأحمر ، فيه دنانير ، فتردد جمال الدين وقال : ياحضرة البيك ، أن نعم السلطان من قصر وفرش وخدم وحشم ، ومركبة لم تترك مجالا لمثل هذا المال . قال القرين : ياحضرة السيد ، عطاء السلطان لايرده إنسان . فأتانا جمال الدين وبيده الكيس وقص علينا ماجرى وقال : عد هذه الدنانير ، فإذا هى خمسمائة ذهب عثمانى . تكفى هذه القصة وهى من مصادر أولياء جمال الدين للكشف عن الفوارق الهائلة الضخمة بين النفسيتين والعقليتين ، ومدى المراس الصامد العجيب فى عبد الحميد ومدى العنف المندفع فى جمال الدين . من أجل ترقية تطلب من رجل تشمله ما أوردناه من الأمور والأخطار ، يخلع جمال الدين بيعته ! . ثم يستردها بعد كلمات قليلة ومباسطات :

أما الأمر الآخر فهو محاولة الربط بين دعوتين : إحداها لجمال الدين والآخر للسلطان عن الجامعة

الإسلامية ، والواقع أن جمال الدين لم يتحدث عن الجامعة الإسلامية إلا قليلا وأن دعوة جمال الدين الحقيقية والتي أنفق فيها أغلب وقته وأحاديثه كانت عن مواجهة الاستعمار وتنكيس أعلام بريطانيا والدعوة إلى الحرية والدستور والنظام النيابي والتقريب بين الأديان الثلاثة وتحرير الاسلام من الاضافات والبدع والالتقاء بين السنة والشيعة والتقارب بين أجزاء العالم الاسلامي ولكنه ما كان قد أعد برنامجاً كاملا للوحدة الإسلامية على النحو الذي كان عبد الحميد قد اضطلع به ولم يعرف عن جمال الدين مشروعا في الجامعة الإسلامية منفصلا عن الخلافة العثمانية ولم يرد عنه أي نص في هذا الأمر ، وقد سجل ذلك السيد رشيد رضا بوضوح كاف في كتابه عن (تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : نقلا عن تراجم مشاهير الشرق لجورجي زيدان) إن الغرض الذي كان يصوب نحوه أعماله والمحور الذي تدور عليه آماله توحيد كلمة المسلمين وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا » . واستدرك رشيد رضا على جرجي زيدان فقال : الصواب أنه كان له في حياته مقصدان (أحدهما) علمي : هو تنبيه المسلمين إلى الإصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو مابينه الأستاذ الإمام (محمد عبده) في ترجمته وهو ترقية دولة إسلامية ، أية دولة كانت وحسبك أنه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الامارة المصرية فقد كان يرمي إلى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الأوربية ثم تعلق أمله بالسودان ثم بلاد إيران ثم بالدولة العثمانية .

وهذا يكفي في إلغاء ذلك التضارب التي حاولت المصادر الاجنبية والصهيونية أن تلقي ظله على الموقف بين السلطان عبد الحميد الذي طفقت تصوره بصورة المستبد الظالم بينما أعلت شأن جمال الدين حتى لقد نسبت إلى السلطان قتله والتخلص منه وهو مالم يكن من الوقائع المضبوطة الصادقة بحال والواقع أن جمال الدين الأفغاني كان حلقة في دائرة الحركة إلى الوحدة الإسلامية الكبرى التي رفع لواءها السلطان عبد الحميد وأنه قام بدور ضخم كان له أبعد الأثر في دعم هذه الوحدة فقد حمل جمال الدين لواء التقريب بين السنة والشيعة ، وبين الدولة العثمانية والدولة الفارسية وبينهما تاريخ طويل من الخصومة ، كان للاستعمار الأثر الاكبر في تأريثه وموالاته حتى لايتجمع المسلمون على وحدة كاملة ، وقد كان لدور جمال الدين أهميته الضخمة ، وأشار إليه كثير من المؤرخين والكتاب ، وذكرته الدكتورة الماوتلن في كتابها عن عبدالحميد ، كما ذكره على أصغر شمم في كتابه (إيران في عهد الدولة القاجارية) .

فقد استطاع جمال الدين أن يقرب الوشائج بين الدولتين وبين السلطان والشاه ، وكان لمراسلات جمال الدين مع عدد من قادة إيران وأمرائها أثر بعيد فى إزالة الثلوج المتراكمة فى طريق الدولتين الاسلاميتين الكبيرتين وكان مما يقوله جمال الدين : (أن السم القديم يجب ألا يسرى فى جسد آسيا القوى وعلى السنيين والشيعة أن يتحدوا لمقاومة أوربا فى محاولتها قهر العالم) .

وقد كان من أعظم ثمار هذا العمل فى نطاق وحدة العالم الإسلامى أن زار شاه العجم الباب العالى عام ١٩٠٠ وحضر الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة مرور خمسة وعشرين سنة على ولاية السلطان عبد الحميد ووصفت الماوتلن هذه الحادثة بأنها غيرت مجرى التاريخ بالنسبة للإسلام والشرق وأنها تحذير لتلك الشعوب الأوربية التى أخذت تتجه الآن شطر آسيا بعد أن أتمت إخضاع أفريقيا ، لقد أنهى تصافح السلطان والشاه الخلاف الذى كان منذ مدة طويلة ينخر فى عظام العالم الإسلامى » .

غير أن الأمور لم تجرى رخاء ، فقد كان هذا العمل بعيد الأثر فى نظر مخططات السيطرة الغربية الصهيونية ، ولذلك فإن الالقاء بين السلطان والسيد لم يدم طويلا .

وكان السلطان قد وجه إلى السيد جمال الدين وهو فى لندن كتاباً أرسله عن طريق رستم باشا السفير التركى فى لندن فاعتذر السيد عن قبول الدعوه ثم جاءه خطاب آخر من السلطان فغادر السيد لندن إلى الاستانة عام ١٨٩٢ وكان قد زارها المرة الأولى ١٨٧٠ قبل أن يلى السلطان عبد الحميد الحكم عام ١٨٧٦ ، ومن الحق أن يقال أن جمال الدين كان فى هذه الآونه قد وصل إلى مفترق الطرق فقد طاردته بريطانيا فى كل قطر إسلامى وفشلت مخططاته فى مصر والسودان وإيران وعجزت طبيعته العنيفة الدموية عن أن تمارس الحكم وكانت مشروعاته وتحركاته توصف بالخطورة على الملوك والأمراء وقد وصفه محمد عبده : أعرف تلاميذه به أصدق وصف حين قال : « إن الحدة فيه تهدم ما تبنيه الفطنة » . ولذلك فان دعوة السلطان عبد الحميد كانت فى الحق هى سهمه الأخير أو أمله الأخير فى تحقيق دعوته من خلال مشروع السلطان عبد الحميد للوحدة الإسلامية الكبرى . ولكن طبيعة الرجلين المختلفة ، عنف جمال الدين ، وحذر السلطان عبد الحميد ، كلاهما ، كانا من العوامل التى عجلت بوقوع الخلاف والنفرة بينهما . ولعل حادث مقتل الشاه ناصر الدين فى فارس وما أشير إلى صلة جمال الدين به قد زاد فى الحذر من ناحية السلطان . وكان السلطان قد رجا جمال الدين أن يكف عن الطعن فى ناصر الدين بعد أن وقع الخلاف بينه وبين الأفغانى فى فارس . لقد تلقى السلطان عبد الحميد جمال الدين بقدر كبير من الاحتفاء والاكرام شهد به مؤرخه

(محمد المخزومى) واستهل جمال الدين هذه العلاقة بتصوير عجيب للسلطان قال فيه أنه لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء وسياسة ودهاء .

وقال : رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستورى ، ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ... الخ ثم قال : إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكايد أوربا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة — الذى فيه نهضة للسلمين عموما — قد دفعنى إلى مد يدى له فبايعته بالخلافة والملك ، لأنى أعلم علم اليقين أن الممالك الإسلامية فى الشرق لا تسلم من شراك أوربا ولا من السعى وراء إضعافها وتجزئتها ثم ازدرادها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عمومى ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم » .

وقد كان السلطان يدعو إليه جمال الدين بين حين وآخر ويفيض فى الحديث معه ، وكان جمال الدين صريحاً غاية الصراحة ، ومن أهم ما عرضه جمال الدين الدين على السلطان : (أولا) التخلص من الحاشية . والخاصة جميعاً « اقص الخائنين من خاصتك ، خفف الحجاب عنك واظهر للملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، وأعتقد أن نعم الحارس الأجل . (ثانياً) تقسيم المملكة إلى خديويات ، وقد عرض السلطان على السيد مشيخة الاسلام فاعتذر عنها . وكان يقول : ما استبدلت وزيراً بآخر إلا ورأيت من مساوىء الخلف ما أسفت معه على السلف ولا مناص مع الصبر ، ويقول: لا بد من كارثة تحدث فتشغل أوربا عنا ونغتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعثنا . (ثالثاً) استبدال التركية بالعربية لغة الدين الحنيف : وقال إنه إذا تم هذا فان الامبراطورية العثمانية كدولة إسلامية والسلطان كخليفة المسلمين يزدادان قوة ومنعة ونفوذاً فى العالم العربى والاسلامى .

(٦)

المؤامرة على الدولة العثمانية

— ١ —

الدونمـــة

لما كانت الدولة العثمانية هى أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية ، وكان إسقاط السلطان عبد الحميد رافع لواء الجامعة الاسلامية هو الحلقة الأولى فى مشروع هدم الدولة العثمانية والغاء الخلافة وتمزيق وحدة الاسلام والعروبة ، ولما كان موقف السلطان عبد الحميد بالحزم والقطع على رفض مشروع هرتزل ، وإيصاد الباب نهائياً فى وجه الصهيونية العالمية للوصول الى فلسطين ، فقد كان على (قوى المؤامرة العالمية على الاسلام) أن تزيح السلطان من الطريق وتحطم مشروعه الضخم بدعم الوحدة الاسلامية وتفتح الطريق أمام تصفية الدولة العثمانية عن طريق القوة التى خلقتها ونمتها خلال أكثر من ثلاثين عاماً ، داخل المحافل الماسونية ، فى سالونيك ، وبواسطة اليهود الدونمه : ذوى الباع الراسخ والنفوذ الاقتصادى والاجتماعى القوى ، هؤلاء هم (الاتحاديون = تركيا الفتاة) الذين احتضنتهم الصهيونية العالمية . ومن ثم فقد كان دور الصهيونية العالمية عن طريق ربيبتها الماسونية واضحاً فى ازاحة السلطان وتسليم الحكم الى الاتحاديين . وقد كشفت الصهيونية دورها بوضوح فى هذا الموقف اذ كان ممثلها (مزراحى قراصوه) هو أحد الثلاثة الذين قدموا الى السلطان فى ٧ آزار ١٩٠٩ قرار التنازل عن الولاية الشرعية ، وكان مزراحى نفسه على رأس وفد اليهود عام ١٩٠٢ الذين كانوا يطالبون بالسماح لهم بالدخول الى فلسطين ، وفى ذلك اشارة واضحة الى قوة الصيونية وأثرها فى تنفيذ مخطط ازاحة السلطان ثم ازالة الدولة العثمانية ، وازالة الخلافة الاسلامية من بعد ومن هنا كان علينا أن نلقى الضوء على هذه الحلقة الخفية من المؤامرة العالميه على الاسلام .

كان من أخطر ما منيت به الدولة العثمانية ذلك الجيب الخطير من اليهود المتسترين باسم الإسلام فى مقاطعة أزمير وفى مدينة سالونيك بالذات : هؤلاء الذين أطلق عليهم من بعد كلمة (الدونمة) —

أى المرتدون . ولقد حاول بعض الباحثين رد (ظاهرة الدونمة) إلى أيام السلطان بايزيد الثانى (١٤٦١ — ١٥١٢) وربطها بأجلاء اليهود من أسبانيا المسلمة بعد سقوطها فى يد الفرنجة . فقد ردها المؤرخ جواد رفعت إلى الحاخام اليهودى (ساباتاى سيوى ولد مردخاى) المولود فى مردخاى فى أزمير ١٦٦٥ م والذى كان قد أعلن أنه المسيح الذى ينتظره اليهود وحوكم ، وأعلن إسلامه تقية كما أسلمت طائفته وسموا بالمرتدين (الدونمة) وبدأوا يعملون لهدم الإسلام وتمزيق وحدة المسلمين ، وقد ضبط بعد ذلك يعظ باللغة العبرية ويدعو دعوته فنفى إلى أسبانيا فاستقر فى (سالونيك) ومنذ ذلك الوقت أصبحت (سالونيك) مقراً للمرتدين الذين أصبحو من بعد مثقفى الشعب التركى وقادة الفكر فيه فضلا عن سيطرتهم على التجارة والصنائع والمعارف . وكان السلطان بايزيد قد سمح لليهود الذين هاجروا من أسبانيا بالإقامة فى بلاده بحسبان أنهم يملكون ثروات ضخمة ، وظل اليهود المتسترين بالإسلام خلال ذلك الوقت الطويل يرسمون خططهم للسيطرة الكاملة على الدولة العثمانية وقد تحقق لهم ذلك فعلا ، على نحو مايشير (جواد رفعت) أنهم من كانوا يسيطرون على الطباعة والتجارة والمؤسسات الخصوصية للمعارف ، وأنه (كان لهم دور كبير فى جميع الحوادث الجارية فى بلادنا وبالأخص فى تاريخنا القريب) كما أشار جواد رفعت إلى أن السلطان عبد الحميد هو الذى كشف خطر هؤلاء المرتدون السباتائيين وكان قد أصدر أوامره بأن يبقى هؤلاء المرتدون فى سلانيك ، والحيلولة دون إفساح المجال أمامهم فى الاستانة . ولما لم يستطع الدونمة التأثير على السلطان عبد الحميد « عادوه عداوة شديدة وقاموا بالدعاية ضده لدى الشعب والجيش ، وقال إن الدور الذى قام به قره صو وجاويد فى حادث خلع السلطان كان كبيراً جداً ، وأن الدونمة هم الذين قاموا بالدور الهام فى تأسيس وتوسيع جمعية الاتحاد والترقى المرتبطة بروابط متينة بالتشكيلات الماسونية التى أسست بمال وذكاء اليهود » .

ويقول جواد رفعت : هؤلاء المرتدون يحملون اسم الإسلام وهم ليسوا بمسلمين وأنهم أعداء الفكرة القومية فى الوقت نفسه يتمسكون بقوميتهم وعبقريتهم إلى أقصى حدود التمسك وهم يستعملون الإسلام كقناع لمجرد سلب الأتراك ووضع اليد على مقدراتهم . ويمكن القول بأن الدونمة قد شكلوا أنفسهم فى حزب الاتحاد والترقى ومن بعده فى حزب الكماليين . وأنهم سيطروا سيطرة كاملة على المناصب والفكر . وبثوا سمومهم فى سبيل تمزيق وحدة الإسلام والعربية ، وكان لهم دورهم الخطير فى الدعوات القومية والإقليمية مما ذخرت به البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى » . وتؤكد أكثر المصادر على أن الدونمة قد أحدثوا أثراً كبيراً فى تاريخ الدول العثمانية

ولذلك فان تاريخهم لا يمكن أن يدرس منفصلا عن مخططات الصهيونية العالمية فهم قطاع من أهم قطاعاتها . وإذا كانت القوة الخفية اليهودية قد استطاعت أن تغير من مجريات الأمور فى العالم كله فان أبرز أحداثها يتمثل فى أعمال ثلاثة كبرى : الأول : اشعال الثورة الفرنسية فى فرنسا ثم اشعال ثورات أوربا كلها من أجل كسر القيد الذى كان مفروضاً عليهم بعزلهم عن تسنم المناصب الكبرى والعامة . الثانى : أحداث الانقلاب العثمانى ١٩٠٩ باعتباره الخطوة الأولى فى تحقيق هدفهم الأكبر الذى عاشت للمنظمات الماسونية تجمع حوله غير اليهود ولا تطلعهم عليه إلا بعد أن يصلوا إلى الدرجة (٣٣) وهو بناء هيكل سليمان فى مكان المسجد الأقصى والصخرة وقد كان تجمع اليهود فى سالونيك بالذات وفى منطقة أزمير كلها وكان إعلانهم الإسلام بمثابة جزء هام من هذا المخطط الذى جرى تنفيذه من بعد خطوة بعد خطوة .الثالث: إحداث الثورة البلشفية ١٩١٧ على الكنيسة الأرثوزكية فى روسيا وكانت من أقوى مراكز المسيحية فى العالم الغربى وكان لتجميع اليهود فى المناطق الكائنة من القرم على البحر الأسود إلى بحر البلطيق فى الشمال أكبر الأثر فى تحقيق هذه الحلقة الثالثة من مخططات الصهيونية . ولاشك أنه كان الدونمة الذى نظموا أنفسهم فى سالونيك وما حولها داخل إطار المحافل الماسونية وكانوا يبلغون حوالى ٥٠ ألفاً — كان لهم دور كبير فى خطة الإنقلاب العثمانى وتدمير الدولة العثمانية وإزالة الخلافة الإسلامية من بعد ، فهم الذين حملوا العبء الأكبر فى تنمية وحماية (الاتحاد والترقى) وكانت أبرز شخصياته منهم ، وكانت موارده ومصارفه مما كانوا ينفقونه عليه فضلا عن أنه تشكل داخل محافلهم الماسونية الموضوعة تحت الحماية الأجنبية والتى لا تخضع لرقابة الدولة . والدونمة هم الذين أحدثوا حادث (٣١ مارس ١٩٠٩) الذى أنهى حكم السلطان عبد الحميد ، إذ ثبت دخول الضباط المرتدين فى صفوف الجيش بزى الجنود وتحريض الجنود للقيام بالثورة ، فبعد إعلان المشروطية عام١٩٠٨دخل هؤلاء الاستانة على هيئة قوافل وأخذوا التجارة الداخلية بيدهم فى مدة وجيزة » .

وقد أكد أكثر من باحث هذه الحقيقة التى تقول بأن قيادة النفوذ السياسى فى تركيا من خلال المنظمات السرية (الاتحاد والترقى) وخلال حكم الاتحاديين وبعده كانت بيد (الدونمة) . وقد أشار الكاتب الفرنسى المسيحى (سبيير هيبس) فى كتابه جمهورية إسرائيل العالمية الذى طبع فى بيروت ، بعد أن رفضت المطابع الأوربية الأمريكية طبعه بسبب سيطرة الصهيونية العالمية هناك قال : إن الدونمة ويعنى بهم اليهود الذين أسلموا كثيرون ، منهم مدحت باشا حاكم ولاية الدنوب الذى كان ابن حاخام هنغارى وهو الذى أنشأ المدارس اليهودية فى الشرق الأدنى وكان

قادة حزب الاتحاد والترقى من الدونمة وكذلك مصطفى كمال والدكتور ناظم وفوزى وطلعت ونعوم وغيرهم. وأشار الأمير شكيب أرسلان فى تعليقاته على كتاب (حاضر العالم الاسلامى) إلى هذه الحقيقة فقال: إن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركيا الفتاة تدير سفينتها عصبة من الجحدة الغربيين غالبهم ليسوا من المسلمين إلا إسماً بل هم من زنادقة اليهود ففى سالونيك طائفة يقال لها (الدونمة) أى العائدون المنيبون أصلهم يهود من مهاجرى أسبانيا ولما كانوا المثل البعيد فى الحصافة والذكاء كان أثرهم فى حركة الانقلاب الدستورى مهماً، فكان منهم أناساً يعدون أركاناً فى جمعية الاتحاد والترقى. وقد أشار جبران شامية إلى الدور الذى قام به واحد من أبرز الدونمة (مصطفى كمال) فى وضع نهضة تركيا الحديثة على أساس العلمانية والتخلص من الاسلام.

وأشار إلى ذلك (أسامة عيتنانى) فقال: أن الدونمة يعتزون كثيراً بأتاتورك ويعتبرونه واحداً منهم وحجتهم فى ذلك أن أتاتورك أسفر عن نياته ضد الاسلام حين تولى الحكم ورسخت أقدامه فيه، فقد ألغى التعليم الدينى وأغلق عدداً كبيراً من المساجد وهدم أحدها فى (هيبلى أغا) لأن العازفين على الموسيقى أوقفدا عزفهم احتراما للآذان. وأشار إلى هذا المعنى (محمد عزة دروزه) فى كتابه تركيا الحديثة: أن الدونمة بدأ فى تحويل عطلة الأسبوع من الجمعة إلى الأحد وإبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية وإلى هذا المعنى أشار صالح جودت فى مجلة المصور على أثر زيارة له لتركيا عام ١٩٦٣ حين قال: إن سلطان الدونمة على الصحافة والجيش والتعليم والسياسة فى تركيا الكمالية مازال واضحا ملموسا رغم أن كمال أتاتورك مات منذ أمد بعيد وكان رشدى اراس وزير خارجية تركيا قد أدلى إليه بحديث قال فيه: إنه مسلم من أبوين مسلمين ولكنه مع ذلك لا يرى بأسا أن يعلن أنه ينحدر من صلب أجداد يهود وأنه يعطف على الصهيونية وأهدافها». ومن المعروف أن الدولة التركية كان لها دور خطير فى حماية قيام إسرائيل فى العالم العربى. وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى الدونمة فقالت انه لا يزال فى سالونيك إلى اليوم نحو ألف أسرة يبلغ عددها عشرة آلاف نسمة (١٩٣٠) ولاشك أن هناك علاقة وثيقة بين الدونمة والصهيونية العالميه، وبين الماسونية التى هى أحد أجهزة اليهودية العالمية وبين الاتحاديين وذلك يكشف بوضوح عن الدور الذى قام به الاتحاديون بعد إسقاط السلطان عبد الحميد من فتح الطريق للصهيونية إلى فلسطين حتى استطاعت أن تتجمع فيها بأعداد كبيرة فى تلك الفترة القصيرة ما بين ١٩٠٩ إلى ١٩١٨.

(٢)

إن أعظم ما استطاع الدونمة فى الدولة العثمانية أن يفعلوه هو قيادة الفكر السياسى نحو الدستور والمشروطية والجامعة الطورانية والجمهورية وإلغاء الخلافة من بعد . وكان أبرز ما حملته قيادة الفكر السياسي الصهيونى على طريق الماسونية إلى الأتراك هو النفور من الدين عامة ، والتنكر للإسلام ومحاولة وصفه بأنه مصدر التأخر الذى وصلت إليه تركيا والدعوة إلى الجامعة الطورانية كبديل للجامعة الإسلامية ، وإعلاء شأن الجنس التركى ومحاولة الإغراء ببطولات جنكيزخان وهولاكو لإحلالها محل بطولات خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص . وهذه الفلسفة فى هى جماعها التى سادت الفكر التركى وبدأت تسيطر فى أواخر عهد عبدالحميد على مجموعة من المثقفين الذين أغرتهم الماسونية باسم الحرية والتقدم هى الخط الواضح الصريح المستمد من بروتوكولات صهيون ومن أهداف الصهيونية العالمية .

ولقد كان طموح هؤلاء الشبيبة العثمانية كما يسميهم البعض يتطلع إلى الغرب ، إلى أوربا ولكنه بتوجيه الماسونية الصهيونية كان يركز على الفلسفة الغربية التى وضعتها الصهيونية كنواه لتوجيه الفكر الأوربى والغربى والعالمى جميعاً . وقد انفصل عن نفوس وعقول هذه الجماعات ، القدرة على المواءمة والربط والموازنة بين الماضى والحاضر ، والقديم والجديد ، والواقع والوافد وجهلوا الخطة المثلى لتجديد الأمم حين تتقبل من الجديد ما يزيد واقعها قوة ولا تقبل منه ما يحول شخصيتها وكيانها عن واقعه الأصيل ، لقد كانت مهمة الماسونية فى الدولة العثمانية أن تخلق قيادة فكرية من الدونمة تستطيع من بعد أن تسيطر على العقلية التركية والفكر السياسى والاجتماعى التركى وتعزله حثيثا عن مصادره الإسلامية وتلقى به فى شباك الفلسفات الغربية الوثنية التى صاغها اليهود على النحو الذى يمكنهم من تدمير النفس الإنسانية والأمم والدول جميعاً . لقد اتجه المثقفون الأتراك إلى أوربا ، والفكر الأوربى وأعجبوا بالثورة الفرنسية وطربوا أشد الطرب لشعارها البراق (حريه — إخاء — مساواة) ولم يكونوا عالمين خفايا هذه الثورة ولا ما يحيط بها ، وكيف استطاع اليهود أن يجعلوها مثلا عاليا للأمم والشعوب الراغبة فى التحرر ، ثم كيف سيطروا من قبلها ومن بعدها على صياغة الفكر الأوربى وإخراجه من القيم التى ورثها من المسيحية الشرقية ومن مقدرات الإسلام التى كان لها أبعد الأثر فى تحريره ونمائه . ولقد استطاعت الصهيونية فيما بعد الثورة الفرنسية أن تسيطر على الفكر الأوربى وتحوله عن قيمه المسيحيه والإسلامية لتدفعه إلى الإلحاد والإباحية بخطى وئيدة .

وقد سجل هذا جواد رفعت حين تحدث عن تطلعات الأتراك إلى أوربا : « الواقع أن الأوربيين قد أعطوا زمام أمورهم إلى اليهود منذ قرن واحد ، فاليهود يخططون مناهجهم السياسية والاقتصادية ويوجهونهم كما يشاءون ، فلذا كانت تلك الدعايات تصدر من المنابع اليهودية فى ذلك الوقت » .
ويسمى جواد رفعت ثلاثة من أعلام الدونمة بالذات كانوا يسيطرون على الحركة الماسونية فى تركيا هم (قاره صو— منير سالم — جاويد) وكانوا يروجون دعوى تقول أن الدول الأوربية تجرى محادثات لتقسيم تركيا ، يقول : أن منير سالم وقاره صو وجاويد أساتذة الماسونية سحروا عيون الأتراك الثوريين المحبين للترقى فرداً فرداً بالماسونية ، وذلك بعـــد ترويجهم تلك الشائعات فأخذوهم تحت قيادتهم وأدخلوا كافة زعماء انقلاب المشروطية (١٩٠٨) ورؤساء جمعية الاتحاد والترقى ومؤسسيها فى المحافل الماسونية .

ويؤكد جواد رفعت ما عليه اليوم إجماع المؤرخين من أن خطة الانقـــلاب التركى المسماة بالمشروطية كانت من أجل التخلص من الإسلام فى الدولة العثمانية أساسا ، وينقل نصا ما نشرته مجلة (بيوك دوغو) عدد مارس ١٩٤٨ وتقول « ان المشروطية كانت أثراً من آثار اليهود والماسونية والمرتدين ، ومنظماتها التى سخرت أرواح قسم من طائش مقدونيا واستثمرتهـا فإن تلك المشنقة المتكونه من العواميد الثلاثة المسماة (باليهودية والماسونية والارتداد) كانت لأجل شنق الإسلام فقط فسيعرف المؤرخون المحايدون يوماً ما ، بأن عبد الحميد الثانى كان هدفا لحركة المشروطية ، قـد ذهب ضحية كفاحة كفاحا منظما ضد اليهودية والإمبريالية والامتيازات ، لصون الإسلام والشعب التركى من الانقراض والوطن من الاستعمار » ويعلق جواد رفعت على ذلك فيقول : أن الذين يطالعون التاريخ ويسبرون غور قضية الصهيونية ويستشفون أسرارها من بين طيات صحائفه المظلمة يقدرون حقيقة تلك الإدعاءات حق قدرها أن السلطان عبد الحميد كان يعرف كل تلك المؤامرات الدائرة حوله وكان يعلم بقرب الإنقلاب والثورة ضده ولو كان قد قام باستعمال نفوذه وقوته لـكان بإمكانه أن يحول دون وقوع هذه الحركة أو كانت الحركة تكلف الثوار غاليا حيث أن السلطان بقى فى كرسى سلطنته غير أنهم تمكنوا من إيصال الاتحاديين إلى الحـكم بواسطة الماسونية الذين كانوا يؤيدون الاتحاديين وبفضل مساعدة الاتحاديين لهم تمكنوا من وضع أسس الامبراطورية الصهيونية فى فلسطين حيث أنهم باشروا حال مجىء الاتحـــاديين إلى الحـكم بتأسيس المستعمرات اليهودية فى فلسطين فى مدة وجيزة .

(٧)

مخططات اليهودية العالمية

إن هدف الماسونية الحقيقي هو خدمة اليهودية العالمية وتأمين سيطرتها على العالم والماسونية أهداف محددة هي فتح الطريق وإزاحة القوى المسيطرة من أمام اليهودية العالمية في طريق السيطرة على العالم عن طريق الوصول إلى بيت المقدس وبناء هيكل سليمان . ولذلك فإن أبرز عملين قامت بهما الماسونية هما : (الثورة الفرنسية والانقلاب العثماني) : الأول في أوربا لإزاحة القيود التي كانت تكبل اليهود في (الجيتو) وتحول بينهم وبين السيطرة على مراكز القيادة في الدول والأمم وقد تحقق ذلك تماما بهذه الثورة والثورات المتوالية التي قامت في أوربا بعدها والتي فرضت النظام الذي يعزل الصفة الدينية عزلا كاملا ويحل بدلا منها صفة المواطنة . ومن هنا فإن منطق الفلسفة الصهيونية اليهودية أساساً هو: عزل الدين عن الدولة . فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية قد وضعت مراسم حاسمة لعزل اليهود عن المجتمعات الأوربية نتيجة لعوامل كثيرة ، فاستطاعت الثورة الفرنسية صنع أيديهم أن تدمر هذه الحواجز ، وذلك بعد أن حملت أقلام كتاب الماسونية الكبار: (فولتير وديدو وروسو) هذه المفاهيم إلى الفكر الأوربي وغزوه بها سنوات طويلة تمهيداً لتنفيذها .وبالثورة الفرنسية حققت اليهودية العالمية هدفها وتمكنت من استيعاب الفكر الغربي المسيحي واحتوائه ، وبث مفاهيمها وفلسفتها في إطوائه وإخراجه من قيمه المسيحية والإسلامية التي قام عليها ورده إلى الوثنية الإغريقية إلى الإلحاد والإباحة بمختلف صورها وفي مجالات الأدب والفن والاجتماع والاقتصاد والسياسة . أما العمل الثاني فهو الانقلاب العثماني الذي أزاح من طريق اليهودية العالمية أكبر قوة تقف في وجه السيطرة على فلسطين وتحول دون تمزيق وحدة العروبة والإسلام وتدمير مقومات الفكر الإسلامي وغزوه من الداخل بمفاهيم تكفل الفصل بين الدين والدولة ، بين الإسلام والمجتمع ، وبين العرب والمسلمين بعشرات المذاهب والمفاهيم المليئة بالشبهات حول اللغة والتاريخ والقرآن والسنة والقوميات والإقليميات وغيرها .

وكارد (جيبون) في كتابه (انحطاط الامبراطورية الرومانية) سقوط روما إلى نفوذ اليهود وكانت بوبيا زوجة نيرون يهودية مرتدة . ولقد كانت الماسونية هي المدرسة الفكرية الحقيقية التي حملت لواء تحقيق هذه الأهداف . وكان اليهود قد سيطروا على الدولة الرومانية بعد القرن الثاني

الميلاد ووضعوا فى أيديهم كل مقدرات المجتمع ، وكانت أبرز أعمالهم تجارة الرقيق . وخلال العصور الوسطى التى امتدت من ٥٠٠ إلى ١٣٠٠ بعد الميلاد كان التاجر اليهودى مسيطراً على أوربا بأسرها ، وقد شملت هذه السيطرة الإشراف على طرق التجارة الشرقية المؤدية إلى بلدان المشرق » غير أن الكنيسية الكاثوليكية لم تلبث أن تنبهت إلى هذا الخطر فأصدرت سنة ١٢١٥ قيوداً ضخمة على حركة اليهود كانت الغاية منها كبح جماحهم ، فحتمت هذه القرارات على اليهود الإقامة فى أحيائهم الخاصة وحرمت عليهم تحريماً تاماً استخدام النصارى أو الاشتغال بأكثر من نوع واحد من التجارة وقد شن كثير من الأوربيين حملات عنيفة على الخطر الذى تتعرض له أوربا المسيحية من النفوذ اليهودى وفى مقدمة هؤلاء الكاتب الأوربى الأشهر (سنيكا) الذى هاجم رومانى عصره لمحاكاتهم اليهود ثم بدأت حركة لإجلاء اليهود عن أوربا فى القرن الثالث عشر كحل وحيد وحاسم للمشكلة فأجلوا عن انجلترا وفرنسا وطردوا من أسبانيا والبرتغال . ومنذ عام ١٥٠٠ حتى ١٥٦٠ م كانت أوربا الغربية بأسرها باستثناء بعض المناطق فى إيطاليا وألمانيا قد تخلصت من اليهود ، وكان اليهود فى هذه الفترة قد تجمعوا فى الامبراطورية العثمانية ويرى الكثيرون أن هذه الفترة التى عاشتها أوربا بدون اليهود هى فترة عصر النهضة التى ازدهرت فيها العلوم والفنون ، والتى بدأت خطاها من شمال إيطاليا — ويؤكد فرنك لى برتون أن عصر الانبعاث فى الحضارة الأوربية لم يتحقق إلا بعد أن انتزعت الأمم الأوربية السيطرة التجارية من اليهود . غير أن اليهود لم يلبثوا بعد ذلك أن عادوا إلى أوربا ، وأقاموا فى أحيائهم الخاصة فى عواصم المدن الكبرى « الجيتو » الذى لم يكن مفروضاً من الدول على اليهود بقدر ما كان ضرورة أساسية تحتمها الفلسفة اليهودية . فقد كان الجيتو مجتمعاً مستقلا بكل معنى الكلمة فيه حافظ اليهود على ثقافتهم ودينهم وتقاليدهم من الانصهار فى المجتمعات المسيحية (وفيه غذوا حقدهم القديم على الحضارة المسيحية قدم عهد نشأة المسيحية) والواقع الذى تسجله المصادر التاريخية أن اليهود قد رفضوا الاندماج فى الثقافة المسيحية والحضارة المسيحية ، وقاوموها حتى استطاعوا بعد ذلك أن ينفذوا إليها ويسيطروا عليها ويحتويها فكرهم التلمودى على النحو الذى عرف بعد الثورة الفرنسية .

ومن هنا فقد حق أن يقول بعض الباحثين « أن هناك قوتان تصطرعان من أجل السيادة العالمية هما : المسيحية واليهودية » . ويرجع ذلك إلى قدرة اليهود على الاحتفاظ بفلسفتهم الخاصة المنفصلة عن المسيحية والتى تقوم على مفاهيم التلمود والتوراة المستحدثة . وقد بدأ بعد عودة اليهود إلى أوربا أن هناك صراعاً ضخما بين شعبين ، وبين ثقافتين . وكانت الماسونية هى المنظمة الدينية والتربوية

الجامعة لهم وهى التى مهدت لهم استيعاب الفكر والثقافة الأوربية واحتواء المفاهيم والقيم المسيحية والتأثير فيها وخاصة عن طريق إقامة المنظمات الماسونية — أولا فى الدول البروتستانية التى كانت ترتضى مفاهيم اليهود وتفسيراتهم للعهد القديم بنبوءة العودة إلى فلسطين وإقامة هيكل سليمان . إن اضطهاد اليهود فى أوربا إنما يرجع أساساً إلى سيطرتهم على المال والاقتصاد وتعاملهم بالربا واحتكار رءوس الأموال وقد قرنت اليهودية بالأرباح غير المشروعة حتى أن شكسبير خلد هذه القضية الخطيرة فى رواية تاجر البندقية . ومن هنا كانت كراهية المجتمع الأوربى وحقده عليهم . وقد وقع الصراع بين اليهودية والمسيحية فى أوربا على نحو آخر . فقد كان اليهود ينظرون إلى المسيحيين على أنهم مرتدون ، ومن هنا فقد عمدت الكنيسة إلى فصل تقاليدها على التقاليد المشتركة مع اليهود ، وعدلت توقيت أعياد الفصح والقيامة . كما منعت الكنيسة الاختلاط الاجتماعى باليهود ومواكلتهم ومشاربتهم وذاع القول بأن اليهود يذبحون أطفال النصارى قربانا . ومن ثم فرضت الكنيسة نظاماخاصاً لليهود فى المعاملات التجارية والحقوق المدنية ونوع المهنة ، وقامت مذاهب فلسفية تفصل بين الآرية والسامية وهى تدعو اليهود بالعزلة عن الحضارة الغربية . يقول تشمبرلن : أن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية وأن روحه لا تلائم روحها وعندما يفيض له فإنه يتحكم فيها وقد يقضى عليها حقداً . وأشار كثير من الباحثين فى مجال هذا الصراع إلى أن اليهودية تضطرم قسوة وعنفاً وجموداً وهى على نقيض المسيحية الرحيمة المحبة التى أعطت البشرية فكرة التسامح .وجرت المحاولات لإثبات أن المسيح وبولس الرسول ليسا من العرق اليهودى وأعلنت الأبحاث من شأن الشعب البتوتونى وقالت أنه ارستقراطية البشرية وأن المدنية الأوربية من نتاجه ، ودعا ديحل وغيره إلى هضم العناصر الغربية فى المجتمع الأوربى أو أبادتها ، وحمل الجرمان على الدماء الغربية (فخته وفاجنر) ومجد نيتشه القوة وهاجم اليهودية والمسيحية وقال إن كلاهما دين الضعفاء والصعاليك .

كانت هذه العوامل دافعاً قوياً لليهودية العالمية إلى احتواء الحضارة الغربية والسيطرة عليها وتفريغها من مقوماتها المسيحية والإسلامية التى قامت عليها وإلحاقها إلحاقا كاملا بالوثنية الإغريقية وإحياء مفاهيمها المختلفة من الجنس والعصبية والإلحاد والإباحة وكانت الماسونية هى المدرسة الكبرى لهذا الفكر ، حتى ليمكن القول بأن مختلف النظريات الفلسفية التى ظهرت فى السنوات المائة الأخيرة بأقلام كبار الأسماء اللامعة فى الفكر الغربى لها جذورها وأصولها فى المقررات الماسونية .

(٨)

الثورة الفرنسية

كشفت الوثائق التاريخية عن حقيقة الثورة الفرنسية ، ودورها فى تنفيذ مخططات الماسونية من أجل تحطيم القيود التى فرضتها البابوية أمام اليهودية العالمية فقد تبين « أن الثورة الفرنسية ترجع إلى جهود الجمعيات السرية الخطيرة ولا سيما محافل البناء الحل (الماسونية) وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دوراً عظيما لاضرام نارها . وقد أشارت بروتوكولات صهيونية إلى ذلك صراحة حين قالت فى البروتوكول الثالث : « تذكروا الثورة الفرنسية التى اسميها الكبرى ، إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروف لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا » . ولقد ألقى مسيو جوترو (Gautherot) فى عام ١٩١٢ محاضرات عديدة فى باريس كشف فيها هذه الحقيقة وقال : إن الثورة الفرنسية كان ضابط أزمتها الماسون وأنهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة أدوارها . وما كان قتل لويس السادس عشر سوى تنفيذ لأحد مآربهم التى كانوا اتفقوا عليها فى المحافل السرية . وقال : وبعد أن ملأ الماسون فرنسا دماً ، عمموا الثورة فى كل أنحاء أوربا بواسطة جيوش الجمهورية ، لقد نفحت الماسونية روح الثورة ، وثلث العروش وقلبت الدول واستعانت بالاشتراكيين والفوضويين والنهلست . وقد أحصى الإحصائيون عدد الملوك والرؤساء الذين قتلوا فى مائة سنة فإذا هو يزيد على الثلاثين . ولقد كانت سيطرة الماسونية العالمية بالغة على عنق أوربا كلها على أثر الثورة الفرنسية وذلك لتحقيق ما استهدفته منها ، ففى الاجتماع الذى عقد عام ١٧٨٩ لوضع الدستور الجديد لفرنسا كان هناك ثلاثمائة عضو ماسونى .

وإن أهم ما حققته الثورة الفرنسية هى أنها رفعت قيد المسيحية والكنيسة وأطلقت اليهود ليحتلوا أعظم المناصب فى مختلف الدول الأوربية ويسيطرون فى الاقتصاد والسياسة والثقافة جميعاً . غير أن عوامل جديدة زادت فى اضطهادهم أهمها : الربا والسيطرة الاقتصادية على المجتمع الأوربى . وبعد سقوط نابليون استطاعت الطبقة اليهودية من داخل البرجوازية أن تكون الحاكمة الآمرة فى معظم بلدان أوربا » وبما أن الطبقة الغنية من اليهود كانت جزءاً هاماً من نواة البرجوازية ، فقد استطاعت أن تلعب بمقدرات أوربا وتسيطر على كل حركة سياسية . وهكذا بدأ الصراع من جديد

بين اليهودية والمسيحية فى أوربا . ولقد استطاعت الماسونية التى ألحقت بتنظيماتها السرية أغلب أصحاب النفوذ فى ميادين القانون والفكر والسياسة فى أوربا أن تحقق عن طريقهم نتائج هامة وخطيرة فسنت القوانين الحديثة للقضاء على التشريعات الكنيسية الأوربية : ومنها شرائع الطلاق وإضعاف سلطة الوالدين فى تحرير التعليم والتربية من الدين وإتاحة الفرصة للأبناء على نبذ أوامر الدين ونشر التعليم اللاديني وإكراه الآباء على وضع أولادهم فى المدارس المخالفة لمذاهبهم الدينية . هذه القوانين لم تقدم إلى المجالس النيابية إلا بعد أن صادق عليها أتباع اليهودية العالمية فى المحافل الماسونية ثم أتاحت لهم اليهودية الفرصة لأن يلوا مناصبهم فى المجالس النيابية وكان قد أقرها مسبقاً . وبالجملة فإنه بالثورة الفرنسية سار الشعب الفرنسي ثم شعوب أوربا كلها فى الطريق الذى رسمته له اليهودية العالمية .

(٩)

احتواء الأديان

يجمع معظم الباحثين فى مخططات الماسونية وعلاقتها باليهودية العالمية إلى أن أبرز أعمالها هو رسم الخطط لتدمير المسيحية وبرهان ذلك قولهم : أن الكنيسة هى عدونا الخطير وبروتوكولات صهيون تكشف على ذلك فى وضوح وفى بشاعة . وأعظم ما ذهبت إليه اليهودية وجمات منطلقه عن طريق المحافل الماسونية التى ضمت الألوف المؤلفة من المسيحيين هى تزييف الدين المسيحى ومحاولة النيل من البابوية . ويكشف إيليا أبو الروس فى كتابه اليهودية العالمية وحربها على المسيحية عن « ظاهرة الحرب المنظمة السرية والعلنية على المسيحية لأن فى زعزعتها نصراً لليهودية وسيطرة لها على العالم » وقال إن هذا ما تفسره مقررات حكماء صهيون . وأشار إلى الإيماءات التى تشير إليها مسرحية النائب (Le Vicaire) التى يمثلونها على مسارح باريس ونيويورك ولندن متهمين البابا بيوس الثانى عشر بالتعاون مع النازية ، ويقول المؤلف أن مع دوافع الأسى والخزى أن لا يثور الغرب المسيحى على هذه الإيماءات وأن المسرحية تمر بأرقى المسارح والمسيحيون فى الغرب لا يحركون ساكناً ، كما أشار إلى حركات اليهود الدينية المستترة لتدمير المسيحية وخاصة حركة « شهود يهوه » ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل البعض يذهب إلى أبعد من ذلك فيشير إلى ما فعله « بولس » عندما أراد تعميم المسيحية وأثره فى عقيدة التثليث التى كانت من عقائد قدماء المصريين وما يتصل

بذلك من خلاف بين أنصار آريوس وأثناسيوس حول طبيعة السيد المسيح . ويشير اميل الخورى حرب فى كتابه (مؤامرة اليهود على المسيحية) الى الخلاف الجذرى بين اليهودية والمسيحية ، حيث تقوم المعتقدات اليهودية القومية على أساس : أن اليهود هم شعب الله المختار وأن الرب أعطاهم أرض الميعاد ووعدهم بملكوت العالم ، ويشير الى أن ما ورد فى الكتب القديمة عن أرض الميعاد انما كان وعدا من الله لإبراهيم ونسله وأن ذلك قد تحقق فعلا . وأشار الى المعركة التاريخية بين اليهود والمسيحية ووصفها بأنها معركة ضارية ، « حيث وجهت اليهودية عنايتها الى القدح والذم وتلطيخ المسيحية بأقبح الصور دون أن تكشف عند الفرصة من اللجوء الى القتل » .

وأشار إلى أن أخطر ما قامت به اليهودية هو محاربة للمسيحيين بالمذاهب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تهدم الروح المسيحية وتقوض أركان الدول المسيحية وبذلك تحقق اليهودية غرضها بصورة غير مباشرة دون أن تصطدم بها وجها لوجه . وقال : إن اليهودية قد نجحت بهذه الخطة إلى حد بعيد » . وأشار أميل الخورى إلى مئات من المجلدات والكتب التى كتبها اليهود وأتباعهم والتى تطعن فى المسيح والمسيحية والقديسيين والكنيسة والأسرار . وقال إن معالم هذه السياسة بدأت تظهر فى أواخر القرن ١٨ مع انتشار الروح الثورية فى فرنسا وبعد أن انتقلت الجمعيات السرية الخاضعة لنفوذهم من العمل من وراء ستار إلى العمل فى وضح النهار . وكانت الخطة هى (محاربة المسيحية باسم المبادىء والمذاهب) . وهناك عدد من المؤلفات التى يتصل بهذا مثل : * اليهودى واليهودية وتهويد الشعوب المسيحية : جوخنود ، موسو . * المأساة الماسونية والمؤامرة اليهودية على العالم المسيحى : كوبان البانسلى . * الكنيسة الرومانية أمام الثورة : كرتينوجولى . كما أشار الكاتب إلى نص لكاتب غربى (السى) يقول « إن الكتاب الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى كانوا فى طليعة الداعين إلى المذاهب المنافية للدين والآداب والمجتمع . « وفى الثورة الفرنسية لعب اليهود دوراً كبيرا بارزا بالنظر لقلة عددهم وكانوا ممن نظموا نهب الكنائس » . وأن اليهود ابتداء من الثورة الفرنسية حتى نهاية القرن ١٩ (١٠٠ سنة) عمـــدوا إلى نشر المبادىء الهدامة وإشعال الثورات » . وفى بحث للدكتور بيلمان (تحت عنوان اليهود المعاصرون) يقول : « لقد حاول اليهود أن يهدموا حضارتنا» .

ويقول بوكهارت : إن الأدب العالمى قد يكون مديناً لبعض كتاب اليهود ، فإن مؤلفات ماكس نوردو ، فرويد ، هوينمان ، توماس مان وأخيه هنريش مان ودامنسكى وديزرائيلى ومورو أضافت

ثروة لثمرات العقول ولكن شرها أكبر من نفعها وإثمها أكثر ، فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس و (نوردو) حلل المبادىء والنظم التى تدعم المدنية وأظهر فسادها وتعفنها و (أوزفالد) أنذرنا بقرب زوال الحضارة أما (فرويد) فقد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية ومجد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاء الشبق الكامن فى حنايا ضلوعهما فالتهتك الجنسى لا حد له فى رأيه والولد يغار على أمه من أبيه أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاحتلام وعلاقة الجنس فيها شفاء من كل داء . وبرر توماس مان عشق الذكور فى قصة (الموت فى البندقية) ووصف مرضى الصدر بأنهم حيوانات متعانقة تتخذ من يأس الشفاء عذرا للتسافد . ولا ريب أن هذه النصوص جميعاً تعطى مفهوماً واضحا للأثر الذى أحدثته اليهودية العالمية فى الفكر الغربى جميعا واحتوائه وتدميره ، وهو الفكر الذى نقل إلينا نحن العرب والمسلمين منذ أوائل هذا القرن وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وقامت عليه المذاهب الفكرية والسياسية والأدبية والاجتماعية فى بلادنا وكنا فى غفلة عن أخطاره وسمومه والمخططات التى يقوم عليها والأهداف التى أريد له أن يحققها فى كل فكر يتصل به وخاصة فى الفكر العربى الإسلامى . وقد يدهش كثير من الباحثين حين يرون أن أصولا أساسية للنظريات التى أفرغت فى قوالب العلم إنما كانت فى الأصل أهدافا أساسية لليهود العالمية وقد حملتها الماسونية وألقتها الى قلوب وعقول أتباعها وروجتها فى محافلها قبل أن تحملها أقلام هؤلاء الكتاب وتروجها فى العالم كله . وفى نشرة الشرق الفرنسى (الماسونى) ١٨٩٥ ما يلى : ان العشيرة الماسونية تأبى اعتقاد أى حقيقة دينية كانت . وينص المحفل الأكبر فى برلين على « ان العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحى . وتشير النشرة الماسونية الألمانية ١٨٦٦ بأنه يقتضى على الماسون أن يقيموا أنفسهم فوق كل اعتقاد بالإله أيا كان ، وان قال الماسون بوجود الإله فانما يريدون به (الطبيعة) وقواها المادية فهم يجعلون الله والإنسان كشىء واحد .

ويقول ويستهويت : منشىء الماسونية المنورة « كل شىء هو مادى ، فالله والعالم ليسا الا شيئا واحد وجميع الديانات هى خيالية وغير ثابتة اخترعها ذوو المطامع » . وان نظرة واحدة الى هذه الوثائق الثابتة منذ هذا الوقت البعيد لتكشف عن روح النظريات والفلسفات الحديثة جميعا من فرويدية وماركسية وبهائية ووجودية وتكاد تجمع كتابات الذين كشفوا حقائق الماسونية ممن كانوا فيها ثم تخلوا عنها ان الماسونية ترى أن الديانات خرافات وأن الله عز وجل بلا مسمى وأنه لا يوجد فى العالم غير الطبيعة المادية .

ويقول كلافل من أساطين الماسونية : إن مسعى الماسونية العظيم بأن نمحو بين البشر كل تمييز بينهم كشرف الأصل والأديان والمذاهب والأوطان وأن الماسونية مدعوة لسحق الرءوس الثلاثة : الدين والسلطة والعسكر . ويشير عبد الله التل فى كتابه (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) إنه فى خلال إجتماع اليهود فى بال بسويسرا ١٨٩٧ دعا ممثل جماعة بناى برث : إلى تخريب المدينة المسيحية والإسراع فى نشر الفوضى . ويقول كلاد دوسليكى فى كتابه حرب اليهود فى العالم .

تحرر كثير من اليهود من قيود أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية ليتمكنوا من الاندماج فى الأوساط المسيحية العصرية كما حدث منهم عند الفتح اليونانى على يد الاسكندر المقدونى (تأغرقوا) أى صاروا إغريقاً فى أسمائهم وعاداتهم ونحلتهم وقسوتهم وتقليد اليونان سادتهم فى الألعاب الرياضية والتهتك فى عبادة الجسد وقد وصلت بهم هذه العصور الحديثة إلى درجة الكفران وانتحال الدين المسيحى ليندمجوا . وقد دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على أن البلاد الذى ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم من بينها وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل حتى أن الفقير ليموت جوعا ولا يجد من يسعفه . وترى الحضارة الأوربية اليوم صبغت بألوان اليهودية ففشت فيها الأطماع المادية حتى صاروا لا هم لهم إلا جمع المال . وكان من أبرز ما أثار اليهود فى الحضارة الأوربية الدعوة إلى تفكك الأخلاق بتسهيل سبل الشهوات فى المصاريف وملاعب القمار والملاهى وصنع أشرطة الصور المتحركة ، المحركة للشهوات المنحطة والحث على الجرائم واللذات البهيمية ، واختراع أنواع الرقص الخليع بأنواعه ، الشارلستون والكاريوكا وإعداد المغانى والغوانى والقيان والقنانى الراغبين ، وابتداع مسابقات الجمال والاتجار بها واختيار ملكات المحاسن فى الشرق والغرب ، والمادة المادة فى كل شىء ، ونشر صحف المجون والفسوق مثل جاذبية الجنسين وما لا يجوز تلاوته إلا بين عاشقين والتصاوير التى هى أقبح وأخطر من الكتب المحظورة على أذهان الشبيبه ونشر الصحف الكاشفة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائى وما هى إلا تحريض خفى لقرائها بطريقة الإيحاء التى يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات والأفراد بفضل شيخ الطريقة المضللة : فرويد وقصص الفسوق التى حذق تأليفها أمثال موريس ديكوبرا وجوزيف كسيل وأندريه موروا وعشرات أمثالهم ولابد أن نذكر هنا ما سجلته البروتوكولات :

نحن الذين هيأنا لنجاح داروين وماركس ونيتشه ولم يعنينا تقدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات فى أذهان غير اليهود . وقد لاحظ كثير من الباحثين أن علماء اليهود يعملون ما فى وسعهم

على هدم الأديان عن طريق المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية والبيولوجية وفى مقدمها : مذهب دوركيم ، وماركس ، ومذاهب الوجودية ، والتطور والسريالية وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسى وعلم الأديان المقارن . ويدخل اليهود فى هذه المذاهب غاياتهم وأهواءهم ويصيغونها فى دقة ومكر ، صياغة علمية لا تفطن إلى زيفها إلا العقول الراجحة ، وتظل موضع الجدل الطويل بين الباحثين والصراع القوى المستمر بين الأمم والدول ، وهم يسخرون من الجميع . والغاية من وراء ذلك هو تشكيك الناس فى الديانات عن طريق النقد ويعد علم دراسة الأديان المقارن من أخطر هذه العلوم . وتعتمد اليهودية العالمية على نظريات قديمة من الوثنية اليونانية أو على نظريات لم تجد سبيلها الصحيح ، كالميكافيلية وغيرها . فهى تركز فى الأذهان أن التنكر الأخلاق الفاضلة هو خير وسيلة للنجاح السياسى وأن السياسة لا تتفق مع الأخلاق ، وأن على الذى يحكم أن يلجأ إلى الحيلة والنفاق فى السياسة وينص البروتوكول الأول على هذه المعانى : (الحيلة والنفاق هما القاعدة ، لا نتردد أمام شراء الذمم والغدر والاحتيال) وهى تستغل فاسدى الخلق لترويج دعوتها كما تستغل الضعف الإنسانى فى إخضاع الناس لمبادىء هدامة ، أمام إغراء المال والذات والأطماع . (يجب ألا نعلق أهمية على ما هو طيب وخلقى) وهى تعلق أهمية كبيرة فى القضاء على نظام الأسرة ، والقضاء على روابط الولاء بين أفرادها . والعمل على تشكيل العقول باستخدام التعليم والثقافة والصحافة فى تنشئة أجيال جديدة لا تؤمن بالفضائل وللمثل الأخلاقية العليا وهدم عقائد الأمم الدينية والقومية . والهدف من هذا كله هو القضاء على الكنيسة البابوية فى أوربا والوحدة الإسلامية فى الشرق .

(١٠)

اليهودية العالمية فى العالم الإسلامى

(١)

إن يهود سالونيك (الدونمة) هم الذين حملوا لواء الحركة السياسية المضادة لاتجاه الجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد بالمعارضة والمضادة والدعوة إلى التخلص من الإسلام ومن الوحدة العربية الإسلامية وإعلان شأن الجامعة الطورانية . وقد كانت المحافل الماسونية هى المؤسسة الحقيقية التى احتضنت هذه الدعوة ضمن مخططات اليهودية العالمية للقضاء على الدولة العثمانية وفتح الطريق إلى فلسطين . كانت إزاحة الدولة العثمانية من طريق اليهودية العالمية هدف من

أضخم الأهداف، وهو المرحلة التالية لما حققته الثورة الفرنسية فى أوربا، وإذا كانت اليهودية العالمية قد حطمت الفكر الأوربى المسيحى واحتوته لتدفعه فى الطريق الذى رسمته وفق مقررات حكماء صهيون من أجل إقامة الحكومة العالمية اليهودية، فقد كانت الخطارة الثانية هى إزالة الإسلام ممثلا فى النظام السياسى الذى تمثله الدولة العثمانية التى تضم العرب والترك والتى ترفع لواء الخلافة على مسلمى العالم جميعاً، وإزالة الإسلام كمفهوم متكامل قوامه نظام المجتمع ومنهج للحياة، يربط بين الإسلام والعروبة وبين الدين والدولة.

ومن هنا كانت هذه المعركة من أخطر المعارك التى قامت بين اليهودية العالمية والاستعمار الغربى من ناحية وبين الإسلام والعالم الإسلامى والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية. وكان تجمع اليهود فى الدولة العثمانية بعد طردهم من أوربا وأسبانيا بالذات من العوامل الهامة فى الإعداد لهذه الخطوة وخاصة بعد إعلانهم الإسلام وقيامهم فى سالونيك على بوابة الغرب وبعيداً عن النفوذ السياسى التركى، وكان لإنشاء المحافل الماسونية التى تقوم فى حماية الامتيازات الأجنبية للدولة الأوربية، أثره البالغ فى حرية التحرك، ومن خلال المحافل الماسونية وفى أحضانها نشأت حركة تركيا الفتاة (وجمعية الاتحاد والترقى) وصبغت بصبغتها وتبنت مفاهيمها العامة التى تمثل فلسفة اليهودية العالمية فى مواجهة الإسلام والأديان عامة وفى مواجهة مفاهيم الاجتماع والسياسة والتربية والأخلاق وغيرها. لقد ظلت جمعية الاتحاد والترقى فى نظر الكثيرين هى دعوة حق ومصدر نور وذلك بحكم ما أحيطت به من دعاية مضللة وتهويل ضخم، وبقدر ماوضعت الأهداف الخطيرة التى تحملها فى ثوب براق وعبارات طلية وتحت أضواء ساطعة باهرة تغشى العيون وتخدع القلوب الفارغة من يقين الإيمان فقد وصفت بأنها ضد الاستبداد ونصيرة الحرية، ومحررة الدولة العثمانية من التأخر والجمود والرجعية وأنها حاملة لواء الدستور والحريات. ثم لم تلبث الوثائق والأسانيد والوقائع التاريخية الصحيحة المدفونة التى تكشف عاماً بعد عام أن أزالت هذا الزيف، وعرت هذه الزخارف وأعلنت الحقيقة كاملة وهى حقيقة مريرة، لا تعدو أن تكون خدعة كبيرة إذا استطاعت الدونمة فى سلانيك أن تحتوى هذه الحركة وأن تصهرها فى بوتقة الماسونية وأن تحولها كاملة لخدمة مخططات اليهودية العالمية بعد أن لواء فلسفتها وأهدافها وحققت بأيديها مطامع الصهيونية فى إزاحة هذه القوة الضخمة وهذا الكيان الجامع بين العرب والترك وبين العروبة والإسلام.

(٢)

يقول (أرنست ر . افردر) مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٩٨ وهو مـوال تمام للولاة الاتحاديين وأهدافهم معاد كل المعاداة لأهداف الوحـــدة الإسلاميه والسلطان عبد الحميد وترابط العروبة والإسلام ، يقول فى صراحة عجيبة : لم يمـض وقت طويل على المتآمرين فى سلانيك وهى مركز النشاط حتى اكتشفوا فائد منظمة أخرى وهى الماسونية ، إذ لما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل بنفس الحرية التى كان يتمتع بها فى الأجزاء الأخرى من الأمبراطورية فإن المعامل الماسونية القديمة فى تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع بطريقة سرية طبعاً وضمت إلى عضويتها عدداً ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد » . « لذلك وجدت الجمعية العثمانية للحرية أن المحافل الماسونية فى سلانيك تلائم أغراضها بصورة رائعة ، وعلى ما يبدو أن الجمعية استعملت تلك المحافـــل أو ربما جميعاً لتسكون محلات الاجتماع وضمت كثيراً من أعضائها واستخدمت الفن الذى نماه الماسونية فى اختيار المرشحين للعضوية .

ويمضى المؤلف فى كشف الموقف الغامض الذى ظل خفياً على التاريخ الإسلامى المعاصر وقتـاً طويلا فقد أخفته اليهودية العالمية كما أخفت بروتوكولات صهيون أكثر من خمسين عاماً عن العـالم الإسلامى والعرب فيقول : « من المؤكد أنه كان سالونيك عدد من اليهود وكان كثير منهم ماسو نيون وهذا وضع يثير بالطبع كثيراً من الشكوك وخاصة فى نفوس من كانوا يرون فى الماسونية محاولة تقوم بها اليهودية العالمية للسيطرة على العالم وقد أدى هذا إلى أن عدداً كبيراً من الكتب تصور فيها ثورة تركيا الفتاة كمظهر آخر لهذه المؤامرة الشريرة العالمية التى يقوم بها الماسون واليهود وهكذا نجد مثلا المؤلفة التى أثبتت أن الثورة الفرنسية ما هى إلى أول ثمار تلك المؤامرة متبعة فى ذلك هوى نفسهـا تعلن : « أن حركة تركيا الفتاة نبعت فى الأصل من المحافل الماسونية فى سلانيك بإدارة (الشـرق الأعظم) الإيطالى الذى أسهم فيما بعد بنجاح مصطفى كمال . ويؤكد لنا دارس آخر للحالة فى حوالى ١٩٠٠ قرر الشرق الأعظم الفرنسى إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يحبذ لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها . كما اشر فردريك وختل فى مكان آخر من كتابه مشيراً إلى نقاط ولسون الأربعة عشرة واصفا إياها بأنها (برنامج ولسن الماسونى للسلم العالمى) ثم يلاحظ محلل آخر : « يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية كلها تقريبا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية . ويقول المؤلف بعد أن استشهد بهذه المصادر جميعاً لتأييد رأيه فى الصلة بين حزب تركيا الفتاة وبين الماسونية العالمية :

اتخذت هذه الصلة بين الماسونية وأعضاء تركيا الفتاة طابعا شبه رسمي بعد الثورة مباشرة . وصرح رفيق أحد قادة الاتحاديين بعد تولى الحكم : « حقاً إننا وجدنا سنداً معنويا من الماسونية وخاصة الإيطالية فالمحافل الإيطاليان قدما لنا خدمة حقيقة ووفرا لنا الملاجىء فكنا نجتمع فيها كماسونيين فكان العمل السرى يجرى فى سلانيك فلما يثير الشكوك فى القسطنطينية كما أن عملاء الشرطة حاولوا عبثاً دخوله » .

هذا النص اقتبسه المؤلف من التيمس عدد ٢٠ آب (أغسطس ١٩٠٨) للبرهنة على اعتقاده بأن ثورة تركيا الفتاة هى مؤامرة ماسونية وهو يقول على الأثر (أن المبالغة فى دور الماسونية يدخل بين آونة وأخرى كما هو الحال فى الوصف الروائى لتاريخ حياة أتاتورك الذى ألفه اره . وهـذا الكتاب يسمى (Grey wolf) الذئب الأزرق ويقول المؤلف أما فيما يتعلق بأعضاء تركيا الفتاة فى أوربا يبدو أن عدداً منهم ارتبط بالمحافل الماسونية لما كانوا فى المنفى والقص عن رسالة الدكتور أرنست باك إلى المؤلف) . ويمضى المؤلف فى تأكيد العلاقة الماسونية وتركيا الفتاة فينقل على كتاب The rise of mationlity لمؤلفه ستيون واطسن : وهو رجل معروف باطلاعه على أحوال الشرق الأدنى قوله « أن الأدمغة الحقيقية فى الحركة كانت يهودية أو يهودية مسلمة ، وقد جاءت مساعدتها المالية من الدونمة الأغنياء ومن يهود سلانيك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين فى فينا وبودابست وبرلين وربما فى باريس ولندن أيضاً . كما أشار المؤلف إلى شخصية هامة فى هذه الحركة هى (أما نويل كاراسو) وهو يهودى من سالونيك كان أستاذاً أعظم فى محفل مقدونيا ونسب إليه بعض الفضل فى أنه عنى بفكرة استدعاء أعضاء تركيا الفتاة للاجتماع فى المحافل الماسونية و (كاراسوا) هذا هو أحد أعضاء الوفد الذى نقل إلى عبد الحميد نبأ عزله عام ١٩٠٩ وكان عضواً فى البرلمان التركى » . هذه شهادة مؤرخ أجنبي له ولاء مع الاتحاديين (تركيا الفتاة) وهى تؤكد الحقائق التى تناثرت السنوات الأخيرة عن حقيقة الدور الذى لعبته بالأشتراك مع اليهودية العالمية عن طريق المحافل الماسونية فى تمزيق وحدة العروبة والإسلام .

(٣)

والمعروف أن الاتحاديين تولوا الحكم عام ١٩٠٨ فى العام الأخير لحكم السلطان عبد الحميد ، ثم تآمروا على عزله فى (مارس ١٩٠٩) وظلوا يحكمون الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . ولقد دبرت الماسونية للاتحاديين استقبالا بارعاً عندما تولوا الحكم وبعد أن أسقطوا عبد الحميد ، لكن تصرفاتهم وأعمالهم لم تلبث أن كشفت القناع عن وجهم الحقيقى . لقد أعلن الاتحاديون الدستور (المشروطية) وبرعوا فى القول بأنه كان ارضاءاً لكل العناصر ، وانه سوى بين جميع الأديان والأجناس ولم يكن الواقع إلا شيئاً واحداً وهو أنه أعطى اليهود حق المواطن فى الدولة العثمانية وفتح لهم بذلك الطريق واسعاً إلى بيت المقدس ، لقد أعطاهم الدستور العثمانى فى العالم الإسلامى ما أعطتهم الثورة الفرنسية فى أوربا وقد سجلت ذلك مجلة الكلمة الصادرة فى تشرين ١٩١١ . فقالت : إن الدستور العثمانى ككل دستور آخر خطته يد الماسونية فقد منح لليهود حق المساواة فلم يلبث اليهود فى تركيا أن أخذوا يظهرون للملأ ماذا يصنعون بهذه المساواة فقبل كل شىء انسلوا إلى الوظائف العالية فى المملكة ثم لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن مديرى دفة جمعية تركيا الفتاة هم (يهود) وبوجه فإن إعلان الدستور فى تركيا قد ملأ قلوب بنى إسرائيل أجمعين فرحا عظيما » وأخذوا بواسطة أعوانهم يثيرون كوامن البغضاء بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية فى المملكة العثمانية وكلما رأوا أن نيران البغض بين الطرفين تكاد أن تخمد أوارها بادروا وزادوها وقوداً . ومما هذه الحقيقة أن جريدة (التيمس) الانجليزية إحدى الجرائد المشهورة لليهود رأت أن تذكر اليهود بالدور الذى لعبوه فى تهييج النصارى ضد الإسلام وبإشراكهم مع الأولين فى ذبح الآخرين ، لكن مذابح سوريا ومذابح الآستانة ولا سيما مذابح أدنه ، ثم تذكرهم بما استفاده اليهود من وراء هذه المذابح الأخيرة هو أن أراضى الذين ذبحوا أو هربوا من الأرض قد استملكها أحد اليهود المسمى جاويل وأسكنها يهودا من روسيا على أن تظاهرهم الوقح بنياتهم مالبث أن أهاج سكان فلسطين ولا سيا الأعراب المسلمين ضد الدولة العثمانية الدستوريه وخصوصا ضد جمعية تركيا الفتاة التى أمست من جراء استلامها للنفوذ اليهودى مكروهة فى أكثر أنحاء المملكة العثمانية .

هذا ماجعل جريدة التيمس الانجليزية المذكورة آنفا تبادر إلى تحذير اليهود فى كل مكان ولا سيا فى تركيا من وخامة عواقب استعجالهم فى التظاهر بأمانيهم اليهودية . ولكن فات هذه الجريدة وسائر الجرائد التى على شاكلتها أن تلك الأمانى اليهودية مهما سعى اليهود واحتالوا بواسطة أعوانهم

على تحقيقها هيهات أن تتحقق ما دامت الأمة اليهودية موصومة بوصمة اللعنة الإلهية » ا . هـ .

(٤)

أما عن تأييد جمعية الاتحاد والترقى لليهود فى بلوغ مآربهم داخل الدولة العثمانية من الوصول إلى فلسطين فإن هنالك عشرات الأسانيد والوثائق .

يقول عارف العارف فى كتابه (المفصل فى تاريخ القدس) : « اندس عدد غير قليل من الدونمة فى حكومة الاتحاد والترقى أمثال جاويد بك وزير المالية من (سلانيك) وبساريا أفندى وزير النافعة من رومانيا واسم مازلياخ وزير التجارة والزراعة وكان هذا ممثلا للجمعية الصهيونية وحسين جاهد (بالتشين) رئيس تحرير جريدة طنين التركية فتغلغل هؤلاء فى الحكم حتى أصبحت كلمتهم هى العليا وعن طريقهم وغيرهم من رجال الاتحاد والترقى سنت الحكومة قانوناً يجيز للجمعيات أن تمتلك الأراضى فى فلسطين ، وسنت أيضاً قانوناً آخر أجازت بموجبه بيع المزارع السلطانية (الجفنلك) وكانت مسجلة باسم السلطان عبد الحميد وهى كثيرة بالمزاد العلنى وعن طريق هاتين الجمعيتين تمكين الصهيونيون من شراء أراضى فلسطين قبل وقوع الحرب العالمية الأولى . فهذه واحدة من الحقائق الكبرى التى خفيت على « التاريخ العربى الإسلامى المعاصر ذلك الوقت الطويل والتى كشفت معها ما هو أشد خطراً إذ تبين أن أقطاب حزب الاتحاد والترقى كانوا من يهود سلانيك وقد أخفوا ذلك فى مهارة فقامت المناهج المدرسية فى البلاد العربية جميعاً على نحو يخفى هذه الحقائق ويظهر غيرها . وهذا ما تنبه إليه العرب فى السنوات الأخيرة وما يصوره الأستاذ سعيد الأفغانى الأستاذ بجامعة دمشق : « درس معلمونا فى حداثتهم الشىء الكثير عن ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة العثمانى ولقنونا له تاريخاً أسوداً حافلا بالإرهاب ونحن صغار ، كما تلقوه هم أيام الاتحاديين آخر العهد التركى . ونشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن ، هذا التاريخ عند جمهرة جيلنا من المسلمات التى لا يعتريها ارتياب . ثم انجلت الأيام لذوى البصائر عن خلافه ، فتبين للناس أن حزب الاتحاد التركى الذى قام ضباطه بالثورة المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقة ، تبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقيين كانوا من يهود سلانيك وأنهم افتروا تاريخاً يوافق نزعاتهم وما يلتوون فرضوه فرضا على الناشئة فى المدارس ، تاريخاً كله من صنع أيديهم توصلا إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والإخاء والمساواة . وتلك كانت شعاراتهم يومئذ فتبعهم المتحمسون من الشبيبة أفراداً وجماعات لكن الغرض الحقيقى لم يكن يعرفه

إلا عدد قليل جداً من هذا الحزب اتضح بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل فى إنكشافه للنكبة الكبرى : نكبة فلسطين فقد شرحت حوادث كثيرة سابقة وصححت نظرات خاطئة » .

(٥)

لم يلبث الاتحاديون فى الحكم إلا قليلا حتى حملوا لواء الدعوات المتطرفة فدعوا إلى الطورانية وأذكوا العداوة بين عناصر المملكة العثمانية من أكراد وأرمن وشركس وأرنؤوط ، وكان هذا هو الديناميت الذى بعثر أركان هذه الأمبراطورية الضخمة ، وكان الهدف هو اغتصاب فلسطين التى لم يكن فى الإمكان إلا بتمزيق الأمبراطورية العثمانية . وقد كشفت أعمال الاتحاديين عن هذا المخطط الخطير : مخطط تسليم الامبراطورية للدول الأوربية ، ومن أبرز هذه المواقف : (أولا) تسليم طرابلس الغرب لإيطاليا (إيطاليا التى كان الاتحاديون فى حماية محافلها الماسونية) وقد كشفت الوثائق حقائق هامة فى هذا الصدد مؤداها أن الاتحاديين كانوا قد قبلوا بالاتفاق مع إيطاليا التنازل عنها ولما لم يستطيعوا إعلان ذلك فقد أضعفوا حاميتها وذلك لتتمكن إيطاليا من احتلالها وقد تقدم فى هذا الصدد إلى مجلس المبعوثان العثمانى تقريراً يطالب بمحاكمة حقى باشا الذى كان سفير الدولة فى روما عاصمة إيطاليا ثم أصبح صدراً أعظم (رئيسا للوزراء) للدولة . وكان يسهر أكثر لياليه فى سفارة إيطاليا يقامر مع الرجال والنساء (المنار م ١٤) . وقد استجاشت الحوافز فى العالم الإسلامى كله لمساعدة طرابلس الغرب وكان للعرب دورهم الكبير وللمصريين دور هام وقصرت تركيا تقصيراً شديداً فى هذا المجال ، ووقفت جمعية الاتحاد والترقى من القصة كلها موقفا مريبا هو أشبه بالخيانة . (ثانيا) إدخال الدولة العثمانية الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا وكان لليهود ومحافلهم أكبر الأثر فى الضغط على الاتحاديين بينما كان اليهود إلى جانب إنجلترا وفرنسا يمولون الحرب وكانت هزيمة ألمانيا هى نهاية الدولة العثمانية وإعلان وعد بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين وإعلان انتداب بريطانيا عليها توطئة لتسليمها لليهود .

ويكاد ينعقد الاجماع على فساد خطة الاتحاديين وعلى تبعيتهم لليهودية العالمية والاستعمار البريطانى — يقول جلال رفعت « إن الثوريين الذين استولوا على الآستانة وخلفوا السلطان عبد الحميد باعوا بلادهم كالأسارى إلى الألمان، إن أنور وطلعت جعلوا أنفسهم من تلقاء أنفسهم وبرغبتهم آلة للألمان وأن ثورة تركية سببا لتقويض إمبراطورية تركية ، فيمكن القول بحزم إن الثورة التركية كانت

أثراً من آثار إفساد اليهود والماسون حيث أن شباب تركيا الفتاة — الذين كان اليهود يحتضنونهم مع الماسونيين الأوربيين الذين كانوا يدبرون الأمور — لم يواجهوا النجاح . إن المبادىء اليهودية والماسونية أثرت كثيراً على منشىء جمعية الاتحاد والترقى ، والذين حافظوا تلك المبادىء والتقاليد حتى بعد الثورة أيضاً حتى أن رئيس المجلس أحمد رضا بك رفض استعمال كلمة (الله) المندرجة فى القانون الأساسى عند أدائه اليمين القانونى فى المجلس بتأثير تلك المبادىء حيث أنه كان رجلا مادياً وهناك مسألة جديرة بالتدقيق والتأمل هى أن اليهود المنتسبين لفرقة الاتحاد والترقى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ فى جمعية الاتحاد والترقى . وأن أعضاء تركيا الفتاة قاموا بتقليد الثورة الفرنسية بمختلف أشكالها . ومن جهة أخرى كانت تركيا الفتاة تقوم بالضرب على النقود كلمات (حرية — إخاء — مساواة) ومن جهة ثالثة تقوم بتطبيق المادة الأولى من البروتوكولات اليهودية القائلة (نحن اليهود قمنا لأول مرة بتلقين كلمات الحرية والأخاء والمساواة إلى الناس منذ القدم وأن العناصر غير اليهودية شاكرون لنا عملنا هذا ، وفى نفس الوقت وبهذه الأسس حطمنا أسس كافة الشعوب غير اليهودية :

وقد أكد هذه الروابط بين الماسونية اليهودية وبين الاتحاديين أكثر من وثيقة وفى عام ١٩١٠ احتفلت المحافل الماسونية ببعض زعماء الاتحاديين وتسجل مجلة المقتطف هذه المناسبة بالنص فتقول: خطب برتو بك بالتركية وقال : أثنى الثناء العاطر على الحكومة الانجليزية والأمة الانجليزية لأنها ساعدتنا نحن العثمانيين فى هذا الانقلاب المبارك الذى قوض أساس الاستبداد ووطد أركان الحرية فى الممالك العثمانية .

وقال : نحن العثمانيون مدينون للماسونية بأكبر دين لأنها هى التى بثت فى نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقى روح الحرية وبها اقتدوا فى إنشاء جمعيتهم التى فكت قيود استبدادهم . وقال : أن الماسونية هى المحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقى .

(١١)

دولة الاتحاديين

حكم الاتحاديون من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٨ تقريباً ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة التحويل الخطير من تركيا الإسلامية حاملة لواء الخلافة والوحدة الإسلامية إلى تركيا الغربية المتحررة من روابط الإسلام والإخاء الإسلامي . وقد أعلن الاتحاديون منذ اليوم الأول معارضتهم التامة للمخطط الإسلامي واتجهوا إلى فكرة إقامة دولة مدنية دستوريه على أساس مبادىء الثورة الفرنسية وشعارها : (حرية ، أخاء ، مساواة) . وسارعت الدول الأوربية بإثارة الأجزاء الأوربية من الدول العثمانية لفصلها فضمت النمسا إلى الهرسك والبوسنة وانتزعت اليونان جـــزيرة كريت والتهمت إيطاليا طرابلس الغرب وأعلنت ألبانيا استقلالها واكتسحت دويلات البلقان الجانب الأوربي تركيا وأطلقت يد فرنسا في مراكش . واستعلت العناصر غير التركية داخل الدول العثمانية نتيجة لتأجيج نيران العصبية والجنسية فتحركت هذه العناصر للتآمر وإثارة الاضطراب . ولم تتحقق الحرية التي طالما تحدثوا عن فقدانها من قبل ، بل أن الأمور بدت أشد قسوة فقد أعلن الحكم العراقي في الدولة العثمانية ووضعت الحريات الصحفية والاجتماعية تحت رقابة شديدة بحجة مراقبة من أسموهم رجعيين وإبعاد كل من كانوا على ولاء للنظام الإسلامي .

يقول الأستاذ محمد جميل بيهم : الواقع أن التبديل قد وقع ، ولـكن على أسوأ حال فبينما كان السلطان عبد الحميد يعتمد على الجامعة الإسلامية التي تضم (٣٥٠ مليون نسمة ونيف) ويؤلف بها قلوب قرابة تسعين في المائة من رعيته شرع الاتحاديون يعملون على جمع شمل الأتراك حولهم حيث كانوا في روسيا ويوغسلافيا وفينا والمجر وبلغاريا وغيرها فيثيرون بذلك حفائظ الدول ذات العلاقة ويخسرون الرعايا المسلمين غير الأتراك . ولقد عمد الاتحاديون إلى إقصاء الضباط العرب عن البلاد العربية وتدخلوا في انتخابات المجلس النيابي عام ١٩١٣ حتى لم يتمكنوا العرب من إرسال أكثر من خمسين نائباً إلى المجلس على حين كان عدد نوابهم سبعين . واتخذ الاتحاديون أسلوب الماسونية في تركيز نفوذهم وهو أسلوب العنف . يقول محمد كرد علي في مذكراته : إنهم أخذوا يعملون على اغتيال المعارض لسياستهم من أرباب الأقلام في الآستانة ، وأحبوا أن يجروا هذه الطريقة في الولايات وكان الدستور الذي وضعوه خادماً لنظريتهم في الاستعلاء على العرب وغيرهم من العناصر ومقدمة

لما جاء بعد ذلك من عودتهم إلى الجامعة الطورانية . وقد سجل كرد على ما أورده أحمد رضا فى هذا الشأن حين قال : إن الدستور الذى نطالب به فيه التفوق للأتراك على أى حال ولا ينال سائر العناصر شيئاً من الحقوق التى تضر بسلامة المملكة . والمعروف أن مجموع الدولة العثمانية كان (٣٠ مليون) العنصر التركى فيهم لا يمثل إلا ٤ ملايين بينما يمثل العنصر العربى (١٥ مليوناً) والباقى من أجناس مختلفة (اكراد . بشناق ، شركس ، روم ، أرمن) . ولا ريب أن الدستور العثمانى كانت صناعة ماسونية وكانت بنوده جميعاً مرسومة فى دقة لخدمة اليهودية العالمية ومما يروى فى هذا الصدد أن الحاخام باشى (رئيس الحاخامات فى الآستانة) فى يوم الاحتفال بمرور عام على إعلان الدستور فى المملكة العثمانية أخذ من شده فرحه بالحرية الدستورية يدوس برجليه أوراقاً منتزعة من كتاب الإنجيل المقدس . أما فلسطين فقد كانت أكبر هدف فى التخطيط كله ، إن الضربة التى وجهت إلى مخطط الوحدة الإسلامية والترابط بين العروبة والإسلام كانت تستهدف فتح الطريق إلى بيت المقدس . وكان الاتحاديون قد حلفوا اليمين فى المحافل الماسونية على تحقيق أهداف البنائيين الأحرار ، الذين سيعيدوا بناء هيكل سليمان وما كان لهم إلا أن ينفذوا قسمهم . يقول جواد رفعت أن السلطان عبد الحميد كان قد منع بيع الأراضى إلى الصهيونية فى فلسطين وكافح طيلة مدة سلطته لعدم إعطاء الامتياز بذلك بكل ماأوتى من قوة فى هذا السبيل وهو يأتى فى رأس الشخصيات النادرة فى التاريخ ، وعند مجىء الاتحاديون إلى الحكم بفضل دسائس اليهود وأموالهم بعد إعلان (المشروطية) برزت إلى الوجود مستعمرات يهودية معمورة ومنتظمة جداً فى مدة وجيزة فى فلسطين وذلك بفضل تعاون الاتحاد والترقى والماسونية حيث استفاد اليهود الذين كانوا يتربصون الفرص منذ سنين (وقد شاهدنا هذه المستعمرات فى الحرب العالمية الأولى) .وأوضح مثال لتعاون الاتحاديين مع اليهود الذين كانوا يسعون إلى تمزيق تركيا وتأسيس دولة إسرائيل ، هو تعاون تركيا الفتاة مع الجمعية الإسرائيلية .

(وقد جاء أحمد رضا إلى مصر ١٩١٧ واتصل بهذه الجمعية التى شاركت فى الاجتماع الذى عقدته تركيا الفتاة فى باريس) . وخلاصة القول أن أساس دولة إسرائيل قد وضع من قبل جمعية الاتحاد والترقى وفى خلال ست سنين ، أحدثت مستعمرات معمورة ، أصبحت كمخافر أمامية لليهود فى الأرض الموعودة . ويمكن تلخيص السبب الرئيسى فى هزيمة الجيش التركى فى فلسطين وسوريا ، هذه الهزيمة النكراء التى لامثيل لها فى تاريخه رغم البطولة والخوارق التى أظهرها فى كلمة واحدة : هى خيانة اليهود فقط ، كان اليهود فى حيفا ويافا والناصرة وطبريا جواسيساً علينا وعلى جيشنا

والرجل الذى كان يدير هذه الشبكة هو (أرانسون اليهودى) الذى عين والياً هاما على القدس مباشرة بعد فتحه من قبل اليهود، وإلى هذا المعنى أشار خليفة التونسى فى مقدمة كتابه (بروتوكولات صهيون) حين قال : إن موقف تركيا منذ الانقلاب تجاه الأتراك والعرب واليهود لا يفسره إلا نفوذ اليهود فى تركيا فلو بقيت الخلافة العثمانية رغم ضعفها لما أمكن قيام وطن يهودى فى فلسطين فنكب اليهود تركيا لذلك بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب الأولى . وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها ، ولكن اليهود على رأسهم وايزمان وبمساعدة بعض النساء هم الذين حالوا دون الصلح بينهما حتى تخرب تركيا وتنحل خلالها وكشف عن أن حاجة بريطانيا إلى اليهود كانت أكبر ، كما كان لهم نصيب كبير فى إلغاء الخلافة وكان لنفوذهم هناك أكبر الأثر فى طرح تركيا دينها الإسلامى وقوانينها الإسلامية ومحاربة اللغة العربية والتبرؤ من صلاتها بالعرب لأن اليهود ولا سيما الدونمة هم الداعون إلى الجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام واللغة العربية وصلة الترك بالعرب وكان لهذا أثره فى تلوين حكم مصطفى كمال بهذه الألوان وكان حاخام اليهود فى مصر من بعد (حايم ناحوم) هو الذى فتح لهم باب الهجرة إلى تركيا ليكونوا بالقرب من فلسطين وهو مبعوث مصطفى كمال إلى مؤتمر لوزان .

(١٢)

الماسونية فى الدولة العثمانية

ظلت الماسونية تعمل فى طى الكتمان فى العالم الإسلامى وقتاً طويلا ولم تكن مخططاتها معلنة خلال تلك الفترة التى نظمت فيها وجودها فى سلانيك لابتلاع الدولة العثمانية وتحطيمها . غير أن خيوطاً قليلة أخذت تظهر بعد أن تولى الاتحاديون الحكم وتحطمت الآمال العريقة الكاذبة الذى علقها عليهم العرب والمسلمون المخدوعون بأنها البديل الأحسن من حكم السلطان عبد الحميد . وكان أبرز من كشف مخططاتها السيد رشيد رضا فى (المنار) والأب لويس شيخو اليسوعى فى (المشرق) .

وفى حوالى عام ١٩١١ أى بعد استيلاء الاتحاديين على السلطة بعامين أخذت تتكشف هذه الخطط ، وقد أشار السيد رشيد رضا فى وضوح إلى صلة الاتحاديين بالماسونية إذ قال : أن زعماء جمعية الاتحاد والترقى المشهورين من الماسون وأن الماسونية قد راجت بسعيهم وأنهم أسسوا لها شرقاً عثمانياً رئيسه طلعت بك الذى كان ناظر الداخلية وهو الآن رئيس فرقة الاتحاد والترقى فى مجلس المبعوثان

وقالت المنار : كان السلطان عبد الحميد عدوا للجمعية الماسونية لاعتقاده أنها جمعية سرية وأن غرضها هو إزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض جميعاً وهى تتحفز بالخلافة الإسلامية وتحرض عليها ، وقد تنفس الزمان للماسون بعد الإنقلاب العثمانى الذى كان لهم فيه أصابع معروفة فأسسوا شرقاً عثمانيا (كذا) ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالى بسخط الأمة ولا برضاها فى إدارته التى استغاثت منها المملكة بألسنة ولاياتها كلها إلا ولاية سلانيك وسلانيك الآن هى مركز السلطة الحقيقية فى المملكة وإنما الآستانه مركز التنفيذ، وكان حظ عبد الحميد أن تكون السلطة الحقيقية حيث يكون (هذا إشارة إلى أن عبد الحميد نفى إلى سالونيك) . وأولى الأب لويس شيخو اهتمامه بالماسونية فكتب فصولا مطولة فى المشرق مجلد ١٣ و ١٤ وجمعها فى كتاب واحد من بعد كما كتب كثيرون عنها من خصومها والكاشفين عن خطرها أمثال رشيد رضا ومن مؤيديها ودعاتها أمثال جرجى زيدان وشاهين مكاريوس وصروف وقد أشار جرجى زيدان عام ١٨٩٩ إلى الماسونية فى الدولة العثمانية فأكد أن السلطان عبد الحميد كان فى ريبة من أمرها وأن مظاهرها لم تخدعه ، ولكنه عاد فأشار أن الماسونية مخلصة لجلالته ولسائر الأمة والوطن وقد علق الأب لويس شيخو على ذلك فأشار إلى أن هذا الإخلاص قد تحقق فعلا حيث تفخر الماسونية بأنها هى التى قلبت سلطنته . وأنها حين تشرفت برضائه قد عملت على تقويض عرشه .

وقال شيخو : إن هذه المحافل قد أخذت تشتغل فى الظلام كما يعرف عادة البنائين الأحرار حتى صار الانقلاب العثمانى الأخير فأخذت تباهى وتنسب إليها الحكم الدستورى ، ولم ترض الماسونية بالإنسحاب فاستندت إلى جمعية الاتحاد والترقى واعتضدت بالجيش وجعلت تلقن مندوبيها فى مجلس العموم مآربها لينفذوها على حسب مبتغاها . فجرى ما جرى بسبب هذا الاستبداد ولم يزل الأمر يتفاقم والشر يستفحل حتى سئم العقلاء هذه الأحوال . ولعل سائلا يسألنا : أجمعية الاتحاد والترقى ماسونية ؟ والجواب عن ذلك أن هذه الجمعية فى أول أمرها كانت تتركب من ضباط ورجال سئموا من حالة الدولة ولعل الماسونية سعت فى جميع كلمتهم وهم لا يدرون من أمرها ولا سيما وأن هؤلاء الضباط كانوا فى حاجة إلى المال والدراهم لتنفيذ ما قصدوه من قلب الهيئة الحاكمة فلما تم الانقلاب الدستورى رفعت الماسونية رأسها وعزت الفوز إلى مساعيها وصورت جمعية الاتحاد والترقى كجمعية ماسونية محضة ، وكان أعضاؤها إذا ساروا إلى عواصم أوربا يبحثون عن المحافل الماسونية ويسلمون على رؤسائها كما فعلوا فى باريس وبودابست . على أن هذه المظاهرات فتحت أعين العقلاء فأحسوا بما أوقعتهم فيه العشيرة الماسونية من التهلكة وبالخصوص لما رأوا أن بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقى

يريدون الضغط على مبعوثى الأمة إلى مجلس العموم لينقـــادوا إلى أوامرهم التى يتفقون عليهـا فى محافلهم السرية وكأن الدستور آلة فى أيديهم . وأشار السيد رشيد رضا إلى هذا المعنى حين قال عن زعماء الاتحاد والترقى : إن هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون فى نشرها وجعـل رجال الحكومة من أعضائها كما ينشرونها فى ضباط الجيش،وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين وتجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية . «إن من لوازم تشيعهم الماسونية قوة نفوذ اليهود منهم وفى الدولة وذلك يفضى إلى فوز الجمعيـة الصهيونية فى استعمار بلاد فلسطين الذى يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول وإلى إبتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد . ومن أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعــل السيادة والسلطة فى المملكة العثمانية للشعب التركى والتوسل بقوة الدولة إلى اضعاف اللغة العربية وإماتتها فى المملكة وتتريك العرب مع بقائهم ضعفاء بالجهـل والضغط وذبذبة اللسان ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم وجعلها لغة علمية، وهذا من المقاصد السرية التى لا يعترفون بها على استعجالهم بتنفيذه بالعمل وبكتابة جريدة طنين .

وأشار إلى المعارضة التى قامت فى وجه حزب الاتحاد والترقى ، من صادق بك وجماعته فى مقاومة مقاصد الجمعيات المؤسسة فى السر وكان لهذا المطلب (إعنى مقاومة الجمعيات الماسونية) وقع كبير فى النفوس ، وانكشف الحجاب عن أعين كثيرين عن فساد الماسونية . وأشار المشرق نقلا عن مجـلة الصباح التى تطبع فى طنجه إلى صورة (اليمين) أى القسم الذى يتحتم على كل من يدخل جمعية الاتحاد والترقى أن يقسمه ليتأتى له الاطلاع على أسرار الجمعية فإذا هو شبيه بيمين الماسون فى بعض أمورها فمن جملة ما يقسم عليه الداخل قوله : (أقسم بدينى وشرفى بأن لا أبوح بسر من أسرارها وأحلف بأن أتمم بالتدقيق جميع الواجبات التى تفرض علىّ وأطيع طاعة عمياء الأوامر التى تنتدبنى إليهـــا الجمعية وبأنى لا أخون مصالحهـا ولا أحنث بيمينى وبأنى مستعد بأن أفتك بالخونة حالا عندما تبلغنى الأوامر وبأننى مستعد لتضحية حياتى وتسليم روحى) . وعرض المشرق للماسونية اليهودية فى البلاد العثمانية فقال : إن سالونيك بها من اليهود نيف وسبعون ألفاً فلما أنشئت جمعية الاتحاد والترقى تحت سيطرة الماسونية كان للضباط وجندهم القوة العاملة ، أما التدبير لتنفيذ العمل واخراجه إلى حيز الوجود فكان فى أيدى الماسونيين الذين تعهدوا بدفع المبالغ المالية اللازمة لذلك المشروع ، ثم نفـذ بالفعل فأسرع الماسون وتربعوا مع الضباط فى دست الحكم وقاسموهم الغنائم الحيدية ، ثم تعاظمت بعد ذلك حركة الماسون حتى استاء منها المحافظون وقاوموها بعزم أدى إلى سقوط جاويد بك وإلى وضع حد لعمل بنى إسرائيل ونقلت المشرق وما نشرته الأهرام عن (جريدة الموزننج بوست) التى قالت

تخلقت جمعية الاتحاد والترقي بعد خلع عبد الحميد بأخلاق الماسونية واليهودية ولبست ثوبهما ولما خمدت ثورة أبريل ١٩٠٩ نالت العناصر اليهودية أهمية أكبر ، فجاويد بك وزير المالية وطلعت بك وزير الخارجية السابق ورئيس الجمعية وجاهد بك محرر طنين ومستشار جاويد بك الخصوصي وكلهم ماسون وأولهم من سلالة يهودية فاستاء ضباط الجيش والأتراك كثيراً لتفوق بعض الأفراد ، الذين ليسوا أتراكاً حقيقيين والذي تحسب علاقتهم مع يهود أوربا سهلة للشر الجامعة الصهيونية ويعتقد الأتراك أن الغرض من الجامعة الصهيونية هو تأليف مملكة فى آسيا الصغرى ويتوجسون من المستعمرات اليهودية المنشأة فى سوريا ويخافون بأن تكون مراكز لنفوذ الأجانب) .وذلك أن الأتراك لاحظوا من أمد طويل أن اليهود ولا سيما الاشكناز منهم أى اليهود (البولونيين) والروسيين والألمان إنما هم من محبي الدولة الألمانية . لذلك استيقظ حزب الاتحاد والترقى وتنبه لحرج الموقف ووجه صادق بك كل همته لمقاومة جاويد بك وزير المالية الذى ساءت الظنون لوفرة علائقه بالمضاربين ولإسباغه النعم على آله وصحبه وغيرهم من اليهود المسلمين . ويعتقدون أن سبب نهوض حركة تركيا الفتاة وعدم سقوطها عدم اعتدال اليهود الأتراك سواء كانوا مسلمين أو يهودا يهوداً أحراراً فهم يحاولون أن يحصلوا على نفوذ كبير من غير أن يفتكروا بأن سعيهم يثير غيرة الأتراك وحسدهم ، وأعظم غلطه أرتكبوها أنهم رضوا بأن (كاسو أفندى) الماسونى اليهودى يكون من الوفد الذى حل الفتوى إلى عبد الحميد بخلعه وقد ارتكبوا بعدها عدة أغلاط والآن صارت الأغلاط تبدو وتظهر . وعرض الأب لويس شيخو إلى المدافعين عن الماسونية فى الدولة العثمانية فذكر فيلكس فارس وأمين الريحانى وسليمان منذر وأديب مظهر وأبى حلقه كما ذكر يوسف الحاج وأشار إلى شعارها الذى وضعه أكبر زعمائها « فولتير » : أكذبوا أكذبوا فلابد أن يعلق فى العقول شيء من كذبكم وقال أن الماسونية فى هيئتها الحاقدة قد انشئت فى انكلترا لتأييد البروتستانية ومناهضة الكثلكة ويقول : أن الماسون ويطلق عليهم اسم (الفرمسون) ينقسمون فى أمور كثيرة إلا فى أمر واحد وهو مقاومة الكنيسة الكاثوليكية وأربابها .

وقال : أن هدفها التحرر من ربقة الشرائع وقيود الآداب ونواميس الدين وأنهم يعملون على نقض أركان الهيئة الاجتماعية وخراب صرح المدينة والعمران » . وقد صدق جواد رفعت حين قال : إن فرقة الاتحاد والترقى قد ولدت فعلا فى المحفل الماسونى (ماكدونيا) المؤسس من قبل (قاره صو) اليهودى السلانيكى . وبعد فهذه هى المقدمات الحقيقية لتمزيق وحدة العرب والمسلمين والفصل بين العروبة والإسلام ومحاولة تحطيم تلك الرابطة التى كانت على ضعفها فى الفترة الأخيرة مصدر قوة ،

والتى أخذت تنمو من جديد حين حمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة للتجمع باسم الخلافة الإسلامية غير أن القوى الاستعمارية واليهودية العالمية كانت حريصة على أن تحطم هذا الصرح الضخم ، تحطيما سياسياً بمزق الدولة العثمانية ذاتها واجتماعيا بمزق الفكر الإسلامى نفسه. ولذلك فقد ارتبطت الحملة على الجامعة الإسلامية بالدعوة إلى القوميات وإعلاء شأن الأقليات ونعرة الجنس والدم والعصبية العنصرية فأخذت تغذى دعوات متعددة فى وقت واحـد فى مختلف أجزاء الدولة العثمانية والبلاد العربية وأهم هذه الدعوات : الجامعة الطورانية فى تركيا والحركة الفينيقية فى لبنان والمصرية الفرعونية فى مصر وبذلك بدأ ذلك الانقسام الفكرى والصراع القومى ، يزعزع مقومات الرابطة العربية الإسـلامية ويهزها من الأعماق .

وقد حدث هذا فى نفس الوقت الذى بدأت فيه اليهودية العالمية تعزز دعواتها الخطيرة القومية الصهيونية وتحاول أن تركز نفوذها فى فلسطين بعد إسقاط السلطان عبد الحميد توطئة لما نفذ بعـد الحرب العالمية الأولى من مخططات انتهت بعزل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإقامة تركيا الحديثة بدلا منها وإصدار وعد بلفور لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

(١٣)

رجال الاتحاد والترقى

إن أدنى مراجعة لشخصيات رجال تركيا الفتاة والاتحاد والترقى تكشف بوضوح عن حقيقة هذه الحركة واتجاهاتها . ولعل من أبرز شخصيات هذه الحركة : أحمد رضا الذى قاد الحركة سراً فى أوربا ورأس بعد الانقلاب مجلس النواب وهو من أبرز الماسون فى سالونيك وأوربا وقد وصفه أرنست رامزور مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ بأنه أبرز رجال الحركة فقال أن أمه نمساوية أما أبوه فكان يعرف باسم (انكليزى على بك) نظراً لميوله للإنجليز وحبه لهم ، أما من حيث المظهر فكان أبعد ما يكون عن تصور الأوربيين للأتراك ، وكان من الذين وقعوا تحت سطرة فلسفة أوجست كنت فأصبح من أتباع الفلسفة الوضعية فى باريس ، وكان لهـــا عليه سلطان بعيد الأثر فى حياته وتصرفاته جميعاً ، وقال أرنست فى هذا : أن أحمد رضا باعتباره مؤيداً طيباً للفلسفة الوضعية لم يكن مسلماً صالحاً لأن أوغست كومت لم يكتف فقط بإعادة تنظيم العالم لأتباعه ، بل وضع لهم أيضاً تعاليم خاصة بالدين : لقد كان دين الإنسانية الذى نادى به كومت فى هـذه الفترة له عدد من الأتباع فى

فرانسا يقودهم (بيير لافييت) إلى أن مات سنة ١٩٠٥ وفى انجلترا كانوا بقيادة (فريدبرك هاريسون) .

وكانوا يقيمون شعائر دينية منظمة ، وقد استطاع أحمد رضا أن يقنع نفسه بأن الإسلام يشبه فلسفة كومت أكثر من أى دين آخر ، وأعلن أن الإسلام لهذا السبب مستعد أكثر من أى دين آخر لتكييف نفسه لفكرة كومت القائلة بالدين العالمى الذى مركزه باريس شأن مبتدعات كومت الأخرى . لقد كان للمثل الأعلى له : مزج كافة أجناس الأمبراطورية للمسلمين والنصارى فى أمة واحدة لها حكومة مركزية على الطراز الفرنسى . ويقول : « لقد أطلق أحمد رضا على الأشهر والأسابيع أسماء رجال اعتبرهم كومت أهم من فى تاريخ العالم فأخذ أهم ثلاثة عشر منهم وأطلق أسماءهم على الأشهر وقد استخدم رضا التقويم الغريغورى أيضاً ولكنه تجاهل التقويم الهجرى الآسيوى » ا. هـ. هذا النموذج على النحو الذى صوره له المؤلف الأوربى يكشف بوضوح عن الاتجاه التغريبي للمسرف فى الانتماء إلى أوربا وإلى الفكر الغربى » بحيث يخجل أولئك الذين يدعون أن هؤلاء الطلائع إنما كانوا يريدون تحرير الدولة العثمانية من التأخر بينما كانوا يريدون أن يجعلوها أشد غربية من أوربا نفسها . ويكشف خطاب أحمد رضا على قبر (بطرس لافاييت) فى باريس عام ١٩٠٦ إلى أى حد بلغ اندفاع زعماء الاتحاد والترقى إلى التغريب ومحاولتهم الانفصال عن الشرق والإسلام والفكر الإسلامى . يقول : بنى دينى الأعزاء :

إن العرب من أبناء الجيل الثانى فى الإسلام كانوا يعتقدون أن السفر إلى أقاصى الأصقاع لزيارة مكة والإصغاء إلى ما يلقيه الخليفة من كلمات محمد التى انطفأ نورها قبل مدة واجب مقدس وكانوا يعدون أيضاً هذا الواجب لسعادتهم . وكأنما كان لى من هذه السعادة نصيب حتى نلت شرف رؤية خليفة دين آخر فى باريس والاستماع له لأنى بواسطة (بطرس لافيت) كنت مظهر سعادة التعرف بأغست كونت وإدراك درجته وقدره . كانت آرائى فى دين (البوزيتيفيزم) عند وصولى إلى باريس مضطربة وناقصة وأن كتاب الدكتور روبينه — اللهم الذى كان مبدأ معارف — لم يكن بعد قد زلزل ما فى نفسى من عبادة المادة المادة بدرجة كافية ، ذلك لأنى وإن كنت قد تخلصت من عقائدى الدينية الماضية ولم أكن قد تهيأت حقيقة لقبول دين جديد ، ومن أجل ذلك تأثر اثنان أرثوذكسيان لخطبتى التى ألقيتها على قبر أوغست كونت عام ١٨٩١ وقد صرح لى هذان الرجلان بأنها لم يجدا فى نفسى أثراً كافيا للتدين فى أنى لم يكن تدينى بدرجة غير كافية فقط بل إنى لم أكن متدينا قط وبعبارة أصح لم يكن شعورى الدينى قد توازن فى نفسى .

فمن الواجب علينا احترام هذا المجتهد الغيور (يعنى بطرس لافاييت) لأنه وفق إلى نشر ديلنا المتين ، والتبشير بكل ما تقتضيه عظمته . وتكفى هذه النصوص لتصوير حقيقة ما ذهب إليه الاتحاديون ، فهم لم يكونوا كما حاولت بعض المصادر أن تدافع عنهم يريدون أن يحرروا أوطانهم أو يحرروا فكرهم وإنما كانوا قد انغمسوا فى ولاء خطير لفكر غريب يخرجهم إخراجا كاملا من أمتهم وفكرهم وقد علق على هذه الخطبة مترجمها السيد محب الدين الخطيب فقال : « لم يكن أنصار الإسلام يقدرون عام ١٩٠٦ ما سيكون لإلحاده وإلحاد أمثاله من نتائج فى تركيا ، بل كانوا حتى عام ١٩٠٨ يظنون أن الدولة التى هؤلاء بعض رؤسائها هى عصمة الإسلام ومناط عزه ، ومما لا شك فيه أن البذور التى بذرها هؤلاء هى التى أنشأت فيما بعد كل الأحداث التى تمت فى عهد الكماليين ، ومنشأ ذلك كله أن التعليم كان يخرج متعلمين يجهلون الإسلام ولا يشعرون بالوفاء لرجاله .

وتعطى شخصية أحمد جمال [الذى أطلق عليه من بعد اسم السفاح] وجها آخر لزعامة الاتحاديين ، فقد كان من المشبعين بالنزعة الطورانية ، وقد عين قائداً عاما فى جبهة القتال مع سلطات فوق العادة لحكم سوريا بأجمعها وقد خدع العرب حتى اقتنص زعماءهم فنفى الصغير وشنق الكبير ، وكان قد بدا حكمه فى دمشق على نحو أشد ما يكون مكراً فتحبب إلى العرب وأثار حماسهم القومى حتى إذا وضع يده على زعمائهم ساقهم إلى ديوان المجلس العرفى العسكرى . وكان قد دبر المذبحة الأولى فى أدنة إذ كان واليا عليها بعد الدستور وهو الذى قتل الجم الغفير من كبراء الآستانة المخالفين للاتحاديين ، وقد اختاره الاتحاديون لتنفيذ ما توعدت به سوريا جريدتها طنين من قبل .

(١٤)

تمزيق العالم الإسلامى

(١)

الإرساليات التبشيرية

كانت خطة تمزيق « الدولة العثمانيـــة » هى الحلقة الأولى فى الغزوة الاستعمارية التى بدأتها أوربا منذ القرن الخامس عشر بعد سيطرة محمد الفاتح على القسطنطينية ، غير أن الأمر لم يكن من السهولة واليسر إزاء قوة هذه الدولة الإسلامية الكبرى وسيطرتها ومن هنا فقد اتجهت الغزوة الاستعمارية إلى تنفيذ المشروع الذى أطلق عليه : « تطويق العالم الإسلامى » . ويرمى إلى الوصول إلى القدس عن طريق الهند ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت سيطرة كاملة على شرق البحر المتوسط ومن هنا فقد كانت السيطرة عليها هى آخر المراحل فى هذه المعركة المريرة التى امتدت نيفا وأربعة قرون . ومن ثم أصبحت الدولة العثمانية هى الهدف الأخير . وكان تمزيق الدولة العثمانية هو الهدف المشترك بين الاستعمار الغربى واليهودية العالمية الجارية فى ركابه والتى يدفعهما هدف واضح هو : الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين بعد أن تقوم قوات الاستعمار بتخليصه لهـا من أيدى المسلمين والعرب . وقد كشف ذلك تصريح اللورد اللنبى فى القدس عام ١٩١٧ عندما أعلن أن الحـــرب الصليبية قد انتهت ، ثم جاءت الكاتبة اليهودية (بربارة توخمان) لتقول : إن دخـــول الجنرال اللنبى إلى القدس حيث نجح فيما أخفق فيه (ريكاردوس قلب الأسد) قد جعل (إسرائيل) الآن قد أصبحت حقيقة واقعة ، وقالت « وكذلك لم يكن بإمكان اللنبى أن ينجح لولا محاولة ريتشارد ، أى لو لم تكن النصرانية قد أقامت فى أصل الأساس الذى يحمل النصارى على التعلق بالأرض المقدسة ، وإن من غريب التهكم أن يكون اليهود قد استعادوا موطنهم وإلى حد ما بفضل الدين أعطوه للأميين » . لقد بدأ الاستعمار خطته فى سبيل السيطرة على العالم الإسلامى بتحطيم الدولة العثمانية واقتطاعها جزء بعد جزء ، بادئاً بالجزائر لفرنسا ومصر لبريطانيا . غير أنه فيما بين عامى ١٨٩٠ و ١٨٨٢ اقتطع جزءاً آخر له أهميته الكبرى وعزل عن الدولة العثمانية وأقام عليه مرتكز خطير لتنفيذ المخطط الاستعمارى اليهودى كاملا ، ذلك الجزء هو (لبنان) . فقد عمد النفوذ الاستعمارى فيما

قبل عام ١٨٦٠ إلى عزل هذا الجزء من العالم الإسلامي ليكون نواة حركة الغزو العسكرى والثقافى فى الأرض العربية . فقد أثار الصراع بين ساكنيه الدروز والمارون (أو بين المسلمين والمسيحيين) إلى الحد الذى حقق للدول الأوربية التدخل باسم حماية العناصر . ومن ثم أمكن فرض نظام جديد يجعل من لبنان « كياناً خاصاً منفصلا عن الدولة العثمانية » . أما الأحداث فقد كانت مفتعلة بشهادة كل المؤرخين المنصفين من خلال النصوص الموثوق بها وفى مقدمتها تقرير سير ريتشارد وود ينكشف الهدف الحقيقى لهذا الصراع الذى غذاه الإنجليز مع الدروز وغذاه الفرنسيون مع المارون حتى اقتتلا وهنا تحقيق الهدف وهو تدخل الدول وعزل لبنان عن الدولة العثمانية وتحريرها تماماً من نفوذها وفتحها على مصراعيها على الغرب حيث أخذت يؤدى دوراً تاريخيا بعيد الأثر فى تمزيق العالم الإسلامى والدولة العثمانية عن طريق التبشير والإرساليات الأجنبية والمنظمات الفرنسية والأمريكية والمحافل الماسونية . وكتب السيد ريتشاردوود الذى كان قنصلا للدولة البريطانية فى دمشق عام ١٨٦٠ هذا فى تقريره الذى رفعه إلى دولته ونشر عام ١٨٧٨ قال : « إن الذى يبحث دقيقاً عن أسباب الفتن التى سفكت فيها الدماء فى الشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو أصبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتن بين ذوى الأحقاد ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة ، وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدىء من جانب النصارى » .
وقد تعرض الكثيرون لهذه الأحداث وكشفوا افتعالها أساساً وأبانوا عن مصادرها الخارجية وقد أشار (زين الدين نور الدين) فى كتابه (نشوء القومية العربية) إلى أحداث سنة ١٨٦٠ فقال إن الحوادث كانت مفتعلة ، وأنها كانت مقدمة لفصل لبنان عن العالم الإسلامى » فقد « طالب الموارنة بالانفصال التام عن الامبراطورية العثمانية » .

وعارض الكاتب ما قاله (جان ريمون قنصل فرنسا فى بغداد) حين ادعى أنها حركة قومية ولم تكن حرباً طائفية . وقال إن هذه الأقوال الجارفة خاطئة ولا مبرر لها ، لأن الحركة المناوئة للأتراك فى لبنان فى القرن ١٩ كانت بوجه الإجمال مارونية لبنانية ولا يمكن اعتبارها ثورة عربية وطنية فى الشرق العربى ضد الحكم التركى فلم تكن غالبية المسلمين الساحقة فى الولايات التى يحكمها السلطان ترغب إذ ذاك فى الخروج على الحكومة الإسلامية والقضاء عليها » وأشار إلى هدف الغرب من هذه الحركة وهو جعل لبنان « ممراً رئيسياً يعبره الفكر الغربى والحضارة الغربية إلى البلدان العربية فى الشرق الأدنى » . ذلك أن لبنان كانت « أشبه بممر تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الإسلامية فى الامبراطورية العثمانية » وقد كان معظم المسيحيين يتجهون بأنظارهم نحو

الغرب المسيحي ولا سيما فرنسا على أنها منارة من منائر الحضارة الغربية» . ومن هنا فقد ركز الغرب على لبنان فى إقامة الإرساليات والمعاهد التربوية التى « حملت لواء ربط اليقظة العربية بالغرب وبالقومية الإقليمية » وكان الهدف الغربي واضحاً من رواء ذلك هو كما لخصه (زين الدين نور الدين) :
أولا — « أهمية التربية الغربية فى إيقاظ العرب السياسي ، ونشر الأفكار الديمقراطية الغربية عن طريق المعاهد التربوية والبعثات التبشيرية من فرنسيه وأمريكية وروسية » . ثانياً — العمل على تنشئة جيل جديد على أسس غربية فى الشرق الأدنى ومن هنا قد بدأ اليسوعيون عام ١٨٣١ فى سوريا ولبنان معاً وكان الأمريكيون قد سبقوهم عام ١٨٢٠ . وأثمر العمل الواسع : الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية) ١٨٦٦ وجامعة القديس يوسف اليسوعية ١٨٧٥ .ولم يقتصر عمل هذه الإرساليات على النشاط الديني وحده وإنما أدى إلى :

أولا — إثارة الشك والريبة فى نفوس غالبية السكان من المسلمين فى هذه الديار . ثانياً — كان سبباً فى إثارة النزاع الطائفي بل إذكاء نار العداوة والبغضاء بينهم . ومن المقرر أن بعض الإرساليات « كان لها مصالح فى الشرق الأدنى » ، وكانت ترى أن من واجبها تقرير النفوذ السياسي لدولها فى المنطقة ورعاية مصالحها فيها » مما جعل أفرادها يحاولون بنشاط وهمة غرس محبة أوطانهم فى قلوب تلاميذهم الذين يؤمون مدارسهم . بل أن مناهج الدراسة فى هذه الإرساليات كانت تشمل بشكل واضح وشامل : تاريخ الديانات والتوراة ، ودراسة الكتاب المقدس دراسة أساسية . وقد كانت هذه المؤسسات تتنافس فيما بينها على اجتذاب أكبر عدد من الطلاب نحو غاياتها وأهدافها القومية الأجنبية بالطبع . وقد نوه كثير من الكتاب بجهود الإرساليات ودورها الهام الخطير وأشار إليها فليب حتى فى كتابه لبنان فى التاريخ وقال إنها كانت الحافز الأول فى إيقاظ الحياة الفكرية وأنه بواسطتها (كان النصارى من سكان البلاد أول من نال قسطاً من الثقافة الغربية) وأبدى العجب من أن العون المالي كان يرد لليسوعيين من وزارة المعارف الفرنسية بينما اليسوعيون مطرودون من بلادهم وذلك فى عام (١٨٨٢ تقريباً) . وأشار هنرى لافنليه فى كتابه تاريخ تركيا إلى أهمية هذا العمل فقال : إن إرساليات التبشير التى ارتادت الشرق الأدنى تآلفت بانتظام من قبل هنرى الثالث وترعرعت ونمت فى عهد هنرى الرابع ولويس الثالث عشر وبلغت ذروة الانتشار فى حكم لويس الرابع عشر (١٦٦٠ — ١٧١٥) الذى ألقى على عاتق الجزويت هذه المهمة . فألقى على عاتقهم مهمة سياسية خطيرة ذلك أنه كان عليهم لقاء إدراك الخطوة ألا يقتصروا على التبشير فحسب ، بل كان عليهم أن ينقلوا إليه المعلومات عن عادات البلاد ولغاتها ومحاصيلها وتجارتها وتاريخها ، كما أنهم كانوا يتلقون منه

الأوامر والتوجيهات ولا سيما من وزارة الخارجية التي كانوا يواصلونها بالتقارير والخطط ». وهذا النص وحده كاف في الكشف عن خطورة المخطط وهدفه ودقته في تمزيق العالم الإسلامي والسيطرة عليه فكرياً وسياسياً عن طريق مؤسسات ثابتة في أرضه تجد حماية ضخمة ورعاية مادية كبرى. كما أشار كمال الصليبي إلى « الدور المهم الذي لعبته البعثات التبشيرية الأوربية في البلاد » في كتابه : تاريخ لبنان الحديث. هذا العمل الذي بدأ عام ١٨٢٠ تقريباً فما كاد ينتهي القرن ١٩٠٠ حتى أصبح لبنان « بلا منازع أكثر أجزاء السلطنة العثمانية تقدماً في مجال التربية العامة » على حد تعبيره حيث أصبح به ١٣ مطبعة في بيروت وجبل لبنان يتدفق منها سيل من الكتب العربية في مختلف الموضوعات فضلا عن ٤٠ نشرة دورية وخمسة عشر جريدة صدرت بين ١٨٧٠ إلى ١٩٠٠. ويتساءل (هنري بجنر) في كتابه سوريا ولبنان منذ نصف قرن : لماذا اختيرت بيروت وليست دمشق مركزاً للمؤسسات الأوربية ويورد الحجج التي ترجح كفة بيروت. أما عبد العزيز محمد عوض في كتابه (الإدارة العثمانية في ولاية سوريا) فيشير إلى أن « النشاط التبشيري قد تركز في ولاية بيروت ومتصرفيه جبل لبنان، وقد بلغ مجموع المؤسسات التبشيرية في بلاد الشام عام ١٩١٢ (٣٨ مؤسسة) من دول أوربية متعددة. كما استطاع الفرنسيسكان أن يؤسسوا إثني عشر إرسالية في شمال ووسط سورية مستخدمين فيها رهباناً معظمهم من الفرنسيين، كما انتشرت كذلك الإرساليات الأمريكية وبدأت تمارس نشاطها منذ بداية القرن ١٩ في جميع أنحاء بلاد الشام من الشاطىء السوري حتى بداية الشام ومن القدس جنوباً حتى حلب شمالا أكثرها في مدن القدس وبيت لحم ».

وقد وجدت الإرساليات التبشيرية في البلاد العثمانية حرية كاملة للعمل نتيجة للحقوق التي حصلت عليها من الدول الأجنبية عن طريق « الامتيازات الأجنبية الممنوحة لها ضمن الرعاية الأمريكية أو الفرنسية » ومن خلال هذه الامتيازات استطاعت أن تمارس نشاطاً تبشيرياً واسعاً، ولم تتوقف هذه الامتيازات إلا عام ١٩١٤ حينما ألغتها تركيا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى. غير أن الدولة العثمانية واجهت هذا الخطر، خاصة خطر استحالة نجاح المعلمين الأجانب في كسب الناشئة لتكوين ولاء بينهم وبين البلاد صاحبة الإرساليات. وقد سارعت الدولة العثمانية إلى فتح مدارس كثيرة في المناطق التي انتشرت فيها مدارس التبشير، واستخدمت عدداً من الوعاظ لتلقين عشائر البدو مبادىء الإسلام والرد على افتراءات المستشرقين، كما أقامت العراقيل أمام المبشرين وفرضت عليهم رقابة شديدة. ولكن الأمر كان في (متصرفية لبنان) غير ذلك تماما فقد كان النظام الذي فرضته الدول عام ١٨٦٠ وبعد عام ١٨٦١ قد كفل الإرساليات في بيروت وما حولها حرية العمل، واستطاعت أن تغرى كثيرين من شباب المناطق المختلفة في سوريا وفلسطين وغيرها من المسلمين.

(١٥)

لبنان مركز التجمع

لماذا أختيرت لبنان لتكون مركزاً لأخطر تجربة فى خطة تمزيق العالم الإسلامى . لقد كانت لبنان بتركيبها الطائفى وصلاتها مع أوربا قاعدة خطيرة لهذه الحركة التى كانت بعيدة المدى فى تحطيم الرابطة الجذرية بين العروبة والإسلام ولها أبعد الأثر فى تمزيق الوحدة العربية التركية وإسقاط السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية حتى ليمكن أن يقال أن هذا العمل الذى احتضنته لبنان وهو « فتح العالم الإسلامى سلمياً » هو الشق الثانى لمخططات الماسونية وهو المكمل لها . لقد وصفت حركة التبشير من قبل القائمين بها بأنها إجراء تؤدى إلى فتح العالم الإسلامى وهى ترجمة حرفية للكتاب الذى ألفه ا . ل شاتليه من مخططات التبشير تحت عنوان :

(La Conquôte Monde Musulman)

ويرد الباحثون علاقات فرنسا بالموارنة فى لبنان إلى أقدم من القرن السابع عشر ، يردونها إلى عام ١٢٥٠ م . ويسجل ذلك كتاب من لويس التاسع ملك فرنسا أرسله من عكا إبان الحروب الصليبية إلى أمير موارنة لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة : هذا نصه : « إن قلبنا امتلأ فرحا حينما أقبل علينا ولدكم سمعان على رأس خمسة وعشرين ألف مقاتل يحمل إلينا الشهادة الحسنة على عواطفكم الطيبة . نحن موقنون أن هذه الملة التى تنتسب إلى القديس مارون هى جزء من الأمة الفرنسية » . وقد أشار بطرس حبيقه فى كتابه (الأحوال الشخصية فى الجمهورية اللبنانية) إلى الصلة بين لبنان وفرنسا إبان الحروب الصليبية وقال « وكان لهم منها الهداة والقادة المخلصون فى اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التى كانوا ينتقلون لفتحها من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم» . والمعروف أن (الموارنة) جماعة من السريان السوريين ينتسبون إلى الراهب (مارمارون) كانوا يتبعون الكنيسة الشرقية ثم اتبعوا الكنيسة الغربية ، وقد أخذت الجمعيات الكاثوليكية الغربية وفى مقدمتها جماعة الجزويت تحتضنهم وتتولى تعليمهم اللغة الفرنسية عن طريق مئات المدارس التى قامت بإنشائها فازدادوا بذلك ميلا نحو فرنسا وأصبحوا أداة طيعة فى يدها وكان لذلك أثر كبير فى حوادث ١٨٦٠ . والمعروف أنه لما انتهت الحروب الصليبية بانسحاب الصليبيين من سوريا كتب اسكندر الرابع رسالة إلى البطريرك سمعان (أو شمعون) ١٢٤٥ م يوصيه فيه خيراً ، بالافرنج المهزومين فى انطاكية الذين فروا إلى لبنان وأن يرعاهم ويحميهم .

وهكذا ظلت العلاقات قائمة وسارية طوال هذه الفترة ، وكانت الدول الأوربية واليهود يعملون على إضعاف الدولة العثمانية من أجل العودة إلى بيت المقدس ، ثم انتعشت فكرة استرداد بيت المقدس منذ القرن ١٧ . وأخذت فرنسا تتجه إلى تركيز بعثاتها التبشيرية فى لبنان ، ويقرر محمد جميل بيهم أن فرنسا والموارنة كانا يهدفان إلى تنصير الدروز حتى لا تبقى فى لبنان قوة معارضة إذا سنحت الفرصة للاحتلال ، والمعروف أن فرنسا كانت قد أعلنت أنها حامية الطوائف الكاثوليكية فى الشرق ، وقد شفعت هذه الحماية بإرسال البعثات التبشيرية . وقد أشار فيليب حتى إلى أهمية لبنان فى مجال الغزو للعالم الإسلامى والبلاد العربية بالذات حين قال : إن لبنان أول بلد حرر نفسه من بوتقه القديم فإنه أصبح مركز إشعاع فكرى ، يشع منه نور الفكر والتحرر إلى البلدان العربية ومع تجاوبه مع الحضارة الأوربية يختلف لبنان عن تركيا فى أن تركيا فرضت الحضارة الغربية على أبنائها بقانون كانت تعاقب بموجبه من لا يتقبل الحضارة الغربية » .ثم أكد هذا الهدف مرة أخرى حين قال : إن جميع الأحداث والتغيرات التى طرأت عليها (البلاد العربية) من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية وعقلية يمكن ردها مباشرة أو بالواسطة إلى هذا العامل » .

والواضح أن عمل الإرساليات التبشيرية قد تركز فى المدرسة والجامعة وفى المطبعة والصحافة وإنه حمل معه لواء فكرة جديدة حاول بثها والدعوة إليها بشتى الوسائل وليست هذه الفكرة فى حاجة إلى إيضاح طويل إذا كان قد تقرر أن هذه الإرساليات التى أوفدتها فرنسا وأمريكا كانت تهدف إلى إعداد أرضية فكرية وخلق جيل جديد يجعل الأمور سهلة من أجل تمزيق الدول العثمانية وإحلال فلسفة جديدة بدلا من الجامعة الإسلامية على أن تكون هذه الفلسفة عاملا هاما فى تمزيق الرابطة الجذرية بين العروبة والإسلام وخلق دعوات إقليمية أو علمانية عربية ، يكون التركيز فيها على الفصل بين العرب والترك من ناحية ثم بين العرب أنفسهم ، وذلك عن طريق طرح مناهج جديدة عن القومية السورية والكيان اللبنانى والدعوة الطورانية والدعوة الفرعونية والدعوة الفينيقية وهكذا من ناحية أخرى . ١ — أما المدرسة فقد عملت من خلال مخطط دقيق قوامه : (١) إعلاء شأن التوراة والصلاة المسيحية التى تفتتح بها الدروس وتختتم .

(٢) دراسة الأديان دراسة مقارنة من وجهة نظر الفكر الغربى . (٣) التنكر والسخرية والتحقير للتاريخ العربى والإسلامى . (٤) رفض القول بأن هناك فلسفة عربية أو فكر عربى إسلامى أساساً . (٥) امتهان القيم الأساسية للإسلام والتاريخ واللغة العربية . (٦) إعلاء

شأن البطولات الغربية والمسيحية . (٧) الفصل بين العروبة والإسلام ، وبين العرب والترك .
(٨) إذاعة مفهوم قومى علمانى للعروبة وإعلان شأن الإقليمية السورية . وأمامنا نص خطاب دانيال بلس مؤسس الكلية السورية فى بيروت عندما فتحت أبوابها ١٨٧١ وهو قاطع فى تحديد هذه السياسة ، قال : إن هذه الكلية هى لكل الأحوال ولكل أنواع البشر دون أى اعتبار للون أو القومية أو الجنس أو الدين ، فيمكن لأى رجل أبيض كان أو أسود أو أصفر ، مسيحياً كان أويهودياً أو مسلماً أو وثنياً أن يدخل الكلية ، ثم يخرج منها مؤمناً بإله واحد أو بآلهة كثيرة أو غير مؤمن بأى إله ، غير أنه يستحيل على أحد من الناس أن يبقى عندنا طويلا دون أن يعلم ما نؤمن أنه حق والأسباب التى تدعونا إلى هـــذا الإيمان . إن نظام ١٨٦١ هو الذى أعطى الدول الأوربية حق الإشراف والتحكم والسيطرة داخل لبنان ، الذى يحكمه متصرف مسيحى من غير أهله يعاونه مجلس مؤلف من طوائفه على أساس المساواة » .

ولا شك أنه كان ولاء المارونيين والطوائف غير المسلمين لفرنسا عاملا هاماً فى مقاومة حكم الدولة العثمانية وخاصة بعد أن أعلنت خطة الجامعة الإسلامية ، فكان هدف الإرساليات أن تكون — وقد استطاعت أن تكون فعلا — جيلا لبنانياً يحمل الحقد والكراهية للعروبة والإسلام والدولة العثمانية واستطاعت أن تقيم هذه الكراهية على أساس فلسفة علمية قوامها استقلال الشام أو سوريا العربية منفصلة عن الدولة العثمانية وعن مصر وعن الجزيرة العربية كما صور هذه الدولة المرتجاه ، نجيب عازورى فى كتابه ، كان المهم فى نظرهم هو إسقاط عبد الحميد وتمزيق الدولة العثمانية وفتح الطريق لليهودية العالمية إلى القدس . ولقد استطاع الاستعمار الغربى عن طريق هذا المرتكز القوى هدم الرابطة الجذرية بين الإسلام والعروبة ، ومواجهة الوحدة الإسلامية بفكرة العروبة المحدودة ، أو العروبة السورية وكانت مدارس الإرساليات فى مناهجها تقدم هذه الدعوى كما حملتها حركتا التبشير والماسونية . وكانت هذه الخطة هى نقطة البدء ، فى الفصل بين العروبة والإسلام وبين العرب والترك وبين لبنان والأمة العربية وإعلاء نزعة الأجناس والعروق والدماء على رابطة الفكر الجامع للعرب والترك باسم الإسلام وحضارته .

٢ — ولقد بدأت هذه الإرساليات خطتها على نحو معين ثم لم تلبث أن غيرته ، بدأت دراستها باللغة العربية ثم لم تلبث بعد سقوط السلطان عبد الحميد أن تحولت عنه فقد كان ذلك وسيلة مرحلية من وسائل الفصل بين العرب والترك . أما التحول الآخر فهو اقتناع العاملين فى الإرساليات « إن

التبشير الديني الذي تميزت به جهود المرسلين في بادىء الأمر أخفق لأن هذه الرسالة الدينية لم يكن لها في نفوس الناس الأثر أو الصدى الذي يترقبه المرسلون ، فبدأ التبشير الديني يحتل مرتبة أدنى أخذ المرسلون يدركون أهمية السيطرة على مناهج التربية والتعليم . ومعنى هذا : أنه لكي تستطيع هذه المعاهد والجامعات أن تستوعب المسلمين الذين رفضوا الاتصال بها وعارضوا مرارا في قراءة التوراة وإقامة الصلاة المسيحية كل صباح ، فقدعدلوا مناهجهم وركزوا على التربية والتعليم واتخذوا من الفلسفات المادية وغيرها وسيلة إلى هدم العقائد الإسلامية في نفوس الشباب دون أن يواجهوهم بالتبشير صراحة . وقد هاجم رشيد رضا الأثر السيء الذي تركته هذه الإرساليات وقال إنها تهدف إلى تعليم صغار التلاميذ من العرب أن يحتقروا تاريخهم وأن يمجدوا كل شيء غربي . وقال : إن المتخرجون من هذه المدارس يحرفون ثورة الأمة إلى جانبها ويقدمون بالفجور والنفوذ الأجنبي من كل جانب فينالون منها جميع المآرب يحقرون لها سلفها ويعظمون في نفسها كل ما هو أجنبي عنها وهم الآلات التي يستعين بها الأجانب على إدارة أمر البلاد لأنهم تربية مدارسهم أو الجيش السلمي لكنهم لا يتم لهم ما يسمونه (الفتح السلمي) بدونهم .

٣ — أما المطبعة فقد بدأت عملها بترجمه التوراة والإنجيل إلى اللغه العاميه . قام بالترجمه غالي سميث وكورنيلوس فان ديك وهو أول عمل للارساليات الأمريكيه ١٨٣٤ وراجع الترجمه العربيه (البستاني — اليازجي — يوسف الأسير) وهم نواة العمل التبشيري والدعوة إلى العربيه الاقليميه في مواجهه الجامعه الاسلامية ومن بيروت . وقد حرص المترجمون أن تبقى الترجمه في إطار العاميه لا تتعداه وكان أول كتاب أصدرته المطبعه الكاثوليكيه هو (سفر المزامير) ١٧٥١ وقد أولت اهتمامها الفائق لطبع ألف ليلة وقصص عنتره والزير سالم . ولا ريب أن ترجمه التوراة ونشرها على نطاق واسع بين قراء اللغه العربيه له هدفه الواضح من مخطط التبشير فضلا عن تدريسها دراسة واسعة مستفيضه للمسلمين في مدارس الارساليات وإجراء دراسات التاريخ ومقارنات الأديان كلها حول نصوصها ومضامينها بحيث يفهم الطالب المسلم أنها هي المصدر الأساسي لكل قضايا الفكر والاجتماع . أما المؤلفات الأخرى التي عنيت بنشرها مطابع الارساليات فقد استهدفت تدمير مقومات الفكر العربي الإسلامي أساساً وذلك بتوسيع نطاق المؤلفات التي يريد المستشرقون والمبشرون أن يجعلوها مصادر للدراسات الأدبيه مثل الأغاني وألف ليلة وغيرها . وهذا أيضاً من الأعمال الهامه ضمن خطه التبشير والارساليات .

٤ — أما الصحافه فقد برز جهد هذه الارساليات في تخريج كبار الصحفيين الذين ظهروا في هذه الفترة وحملوا لواء الحركة السياسيه في مختلف أجزاء العالم العربي وفي مصر بالذات التي جملتها

حركة التبشير والغزو الثقافى منطلقاً لها فقد تحررت من نفوذ الدولة العثمانية منذ ١٨٨٢ وأصبحت تعمل فى مجال خدمة أهداف الاستعمار البريطانى ومن ثم استغلت القاهرة لأكبر حركة لمواجهة تمزيق الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد ، والفصل بين العرب والترك والقضاء على وحدة العروبة والاسلام .

وبمراجعة أسماء الصحفيين الذين خرجتهم مدارس الإرساليات فى بيروت نعرف حجم هذا الخطر ومدى أبعاد هذا الغزو الفكرى السياسى لحساب الاستعمار البريطانى واليهودية العالمية ومن هؤلاء سليم تكلا ، بشارة تكلا ، سليم سركيس ، فرح أنطون ، جرجى زيدان ، فارس نمر ، يعقوب صروف ، شاهين مكاريوس ، مارون نقاش ، داود بركات ، أما المقطم فهو الجريدة اليومية الأولى التى حملت لواء الدفاع عن الاحتلال البريطانى وحملت فى نفس الوقت حملات شعواء على الجامعة الإسلامية والسلطان عبد الحميد ورابطة العرب والترك وكانت أكبر خادم لحزب الاتحاد والترقى والماسونية اليهودية والإرساليات التبشرية وهى القوى التى عملت على تمزيق العالم الإسلامى .

(١٦)

الدور الذى قامت به الإرساليات

أشار كثير من دعاة الاستعمار الغربى إلى أهمية الدور الذى قامت به الإرساليات التبشيرية فقال (غمبتا) فى بحثه المطول عن التبشير وأثره فى العالم الإسلامى : (إن الكردينال لافيجرى والمرسلين التابعين له فى سوريا قد أدوا لفرنسا خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديه ، نعم خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديه أو أسطول ، نحن نريد سوريا كلها من غزة إلى أدنه ومن لبنان إلى الموصل) وعندما أرسل وزير خارجية فرنسا عام عام ١٨٨٧ (٨٢ منحة) لتعليم اللبنانيين فى فرنسا قال فى خطابه إلى القنصل الفرنسى فى بيروت ، « نقترح أن يكون هدفنا مزدوجاً ، أولا أن يكون لنا أصدقاء وعملاء فى العائلات التى فاز أبناؤها بهذه المنح ، وهدفنا الثانى تشويق روساء المعاهد والطلاب على اللغة الفرنسية » .

نحن ينبغى أن نقيم علاقات طيبة مع العائلات ذات النفوذ والعائلات التى يتعلم أبناؤها فى مدارسنا فإن لم ينشأوا على حب فرنسا فعلى الأقل يكونون من الذين لهم معرفة بلغتنا وتاريخنا . كما أشارت المصادر إلى تلك الرابطة القوية بين مصالح الامبراطورية البريطانية بمصالح جمعيات الكتاب المقدس

فى سوريا . وقد كشف أحد الباحثين أهمية الدور الذى قامت به الإرساليات فى البلاد العربية فبلغ به ذلك إلى القول بأن هذه الإرساليات قد حققت ما عجزت عنه الحروب الصليبية . يقول : بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأنظار بناة الامبراطورية كان أيضاً مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشد أن تنجز عن طريق (الكلمة) ماعجز أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف وبعبارة أخرى تنشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح، إن هذا الحلم المسيحى قديم قدم المسيحية ذاتها وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن ١٨ والسنوات الأولى من القرن ١٩ ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التى كرست نفسها لحمل الإنجيل إلى جميع البشر ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطامع السياسية والاقتصادية فى ممتلكات دولة الرجل المريض ، ومن المحتمل جداً أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختيار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيرى . « ولابد أن يكون اختيار المبشرين لبيروت ناتجاً من موقعها على ساحل البحر إذا كانت آنذاك الميناء الصالح الوحيد على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط) ويخلوها من الملابسات اللازمة لوجود الأماكن المقدسة التى تخضع للامتيازات ومصالح دينية معينة برهنت فيما بعد على أنها ذات قيمة عظيمة وأهمية بالغة للأمريكيين .

كان فى عزمهم إن يتمكنوا فى كنائس الشرق الناهضة من كسب (الكفار) إلى دين المسيح غير أنهم سرعان ما وجدوا أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين وصمم المبشرون منذ البداءة على استعمال (الكلمة) حيث فشل استعمال السيف وفى سبيل هذه الغاية أخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة وعكفوا على إنجاز هذه المهمة العظيمة وعادت هذه المحنة بالخير على العالم العربى كله وبدأت حركة أدبية جديدة كان لها آثار بعيده المدى » . « ثم وصف هذا العمل بأنه « الثورة الفكرية التى غرس بذورها البروتستانت الأمريكيون وحملوا شعلتها إلى آفاق العالم العربى » ثم إن أهم الخدمات : هى انطلاق لبنان فى مجال العروبة وقيامه بالدور الرئيسى فى رفع لواء اليقظة العربية الحديثة فلك الدور الذى ما زال لبنان الحديث محافظاً عليه » . كما أشار إلى ما قامت به البعثات التبشيرية « التى عملت على ظهور لغة قوية دارجة موحدة هى وسط بين اللغة الفصحى واللغة العامية » . وقال : إن هذه المدارس كانت القوى التى استطاع الشباب العربى أن يرى من خلالها مظاهر الحضارة الغربية ويتصل بها » .

وأشار الباحث إلى الإرساليات خرجت منذ ١٨٧٠ إلى اليوم ٥٧٠٠ خريجاً من بينهم ١٤٠٠

طبيب ورؤساء وزارات وأساتذة وقضاة وأطباء وسياسيين وصحفيين فى جميـــع أرجاء العالم العربى والأقطار المجاورة له . وأن طلاب الإرساليات ٣٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة وأكثر من أربعين طائفة دينية : « نبيه أمين فارس » · وهكذا تكشف الكتابات الأخيرة التى أطلقت نفسها من التحفظ القديم :الهدف الحقيقى للإرساليات التبشيرية ، هذا الهدف المشترك بين دعاة المسيحية ودعاة الاستعمار ودعاة اليهودية العالمية فى إخضاع المسلمين والعرب وتدمير مقومات فكرهم ، وإخضاعهم لهذا النفوذ كله مشتركا . وأمامى مجموعه من آراء الاستعمار والتبشير أن تكشف أهمية المخططات التبشيرية جمـــلة ·

« إن هدف بعثات التبشير هو تثبيت الأفـكار الأوربية » . « إن الغرض من التبشير هو قتل الإسلام لاستبعاد المسلمين » . إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات وعضدها فى كثير من الأمور المهمة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيراً من العقبات » . « إن الكثيرين منا قـد شبوا على كراهية الإسلام وقد ارتضوا ذلك فى لبان أمهاتهم » . « إن فرنسا تعد العدة فى مراكش لإنشاء جيل جديد لا صلة له بالماضى ، هذا الجيل تصنعه وتنشئه على الإيمان بها فيفهمها ويقـــدرها وبذلك يتم لها عن طريقه وضع يدها على البلاد» . «إن هؤلاء الطلاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أعوانا فى بلادنا » .

« إن المغرب يوجـه كل أسلحته الحربية والعلمية والفـكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامى بغرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع » . « إن هدم الإسلام فى نفوس المسلمين له أهمية كبرى فى شيء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق دولى وأن ما يجب عـمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات » . « إن الغاية التى نرمى إليها هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون إما ملحداً أو مضطرباً فى دينه وعندها لا يكون مسلما أى لا تكون له عقيدة يدين بها . « يجب أن يتم تبشير المسلمين بواسطة رسول من بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » · « إن تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للإسلام داخل حصنه المنيع عداوة لداء لا يمكن للرجـل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على أحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الإسـلام وتربى أولاده على غير دين أبيهم » . « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحـوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بدون قوة ولا تأثير » .

(١٧)

الترابط بين التبشير والماسونية

كان أكبر أهداف حركة الإرساليات التبشيرية فى — لبنان بعد أن أصبح مستقلا عن الدولة العثمانية ، وقائماً تحت إشراف الدول الكبرى — هو ضرب الدولة العثمانية ، من هذا الموقع الحصين المفتوح على الشام والعراق والجزيرة العربية وهى الأجزاء العربية التى لم يسيطر عليها الاستعمار الغربى بعد ولما كان الشام يضم سوريا ولبنان فهى أخطر هذه المناطق لأنها طريق بيت المقدس وما حوله . وقد كشفت كتابات الكثيرين عن خطة الاستعمار واليهودية العالمية فى التركيز على لبنان بوصفها مركز الإشعاع الفكرى كما وصفها (فيليب حتى) بحق ومضاعفة هذا التركيز بعد عام ١٨٦٠ الذى استغلت أحداثه وقتا طويلا لإعلان الحرب على الدولة العثمانية وتأريث العداء فى نفوس أهله . يقول جورج أنطونيوس : انتشر التعليم الغربى فى بلاد الشام فى عهد عبد الحميد على نطاق أوسع جداً مما كان فى العهود السابقة وأدى إلى قيام شبكة من المدارس والكليات امتدت فى أنحاء البلاد ، ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما تنشئه فرنسا وأمريكا وبريطانيا بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والإيطالية والألمانية ثم قال : أصبح هذا أداة من أدوات التغلغل السياسى بالإضافة إلى أنه وسيلة للثقافة وأسوأ من ذلك كله أنه يسر السبل لرجال الدين المسيحى ليتملكوا أسباب القوة السياسية بل كان أحيانا يدفعهم إلى ذلك عمداً » ومعنى هذا أن مضاعفة الإرساليات بعد ولاية السلطان عبد الحميد وبعد إعلانه عن دعوته إلى الوحدة الإسلامية كان عملا منظما يراد به تحقيق الغاية التى تحققت من بعد ، وهى إدخال فكرة جديدة كبديل للدعوة إلى الوحدة الإسلامية وتسريبها عن طريق التعليم الذى تركزت ألويته فى بيروت مفتوحاً على أبوابه للمسلمين والنصارى واليهود والبيض والسود كما أعلن ذلك دانيال بلس فى خطابه المشهور :

لقد ركزت الإرساليات على خريجيها فى صنع نواة الدعوة المضادة واستغلت فى الصورة العامة ثلاثة من الدعاة هم : البستانى والبازجى والأسير : وكان الأول والثانى أبرز جهداً فى مجال العمل الأدبى والصحفى الذى كان منطلق الدعوة الجديدة ، ثم تركز الاهتمام كله فى محيط الكليات عن طريق أساتذة ذوى إقتدار فى هذا المجال ، ثم انبثق من هذا العمل كله جماعة سرية فى بيروت .

أما الداهية الأكبر فقد كان (الياس حبالين) الذى كان يدرس للطلاب فى الكلية الانجيلية السورية اللغة الفرنسية ، فكان يختصر الدرس سريعا ويتحدث فى السياسية فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الظالمة وقد وصفه أبرز كتبه الجماعة السرية وأكثر الطلاب حماسا وهو الدكتور فارس نمر فى مذكراته فى كثير فى المقتطف « بأنه كان رجلا مارونيا ثم أنضم إلى محفل ماسونى ، وكان قد قرأ فولتير » وقال « أن كثيرين من أحرار سوريا النابغين يعترفون بالفضل فى خدمة الحرية للمرحوم الياس حبالين » الذى « وقف جهده على ارضاعهم لبان الحرية واضرام نار البغض فى ضلوعهم للسلطة التركية وشاركه فى هذا رجال العشيرة الماسونية فى سوريا من مسلمين ومسيحيين فياطالما سهروا الليالى وبذلوا الرخيص والغالى لاعداد أبناء سوريا لقبول المبادىء الحرة والنظامات الدستورية » وقال زين زين فيما أورده شفاها عن فارس نمر « وهكذا أصبح طلابه (أى طلاب حبالين) وجميعهم نصارى من أشد اتباعه إخلاصا وولاء فكل واحد منهم يطمح أن يكون (حبالينا) يبز أستاذه وراحوا ينشرون أفكاره بين الطلاب » . كما كان حبالين فى الكلية الانجيلية السورية كذلك كان هناك أيضا سليم عمون ، وكان قرأ رواية اسكندر ديماس (الفرسان الثلاثة) فراح يؤلف جمعية غايتها « تحرير لبنان من الحكم التركى » ويعتقد فارس نمر أن الأفكار الثورية التى كان يأخذ بها عمون وأصحابه فى الكلية السورية الانجيلية كانت أفكاراً فرنسية المصدر » ومن هذه النصوص نستطيع أن نصل إلى ما حققته الكلية مما وصف فيما بعد بأنه أول دعوة للقومية العربية ،وهو قول مبالغ فيه ، فإن هذه الجماعة السرية التى أغراها أساتذة الكلية ودفعوها إنما كانت تدعو إلى شىء واحد فقط هو (تحرير لبنان من الحكم التركى) .

وإن هذه الجمعية السرية التى تشكلت من فارس نمر وشاهين مكاريوس وإبراهيم اليازجى وإبراهيم الحورانى ويعقوب صروف هى التى قادت هذا المخطط التغريبى كله فيما بعد وإلى آخر المدى وخاصة بعد أن انتقل فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف إلى مصر وأصدروا المقطم والمقتطف وكانوا لسانا للاستعمار البريطانى والماسونية وحربا عوانا على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد والوحدة الإسلامية والخلافة وكانوا دعاة توهين الوحدة والترابط بين الإسلام والعروبة فى تاريخ امتد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .أما ابراهيم اليازجى فهو الشاعر المعد لوضع نشيد الدعوة الجديدة ، ليذاع فى البلاد العربية كلها ويزاحم بقوة أهداف الجامعة الإسلامية ويحاول أن يفسد بقوة الاستعمار واليهودية العالمية الخطة التى كانت تعمل من أجل توحيد العالم الإسلامى والوقوف فى وجه

النفوذ الاستعمارى الزاحف . ولقد حاول الكثيرون — وفى مقدمتهم جورج انطونيوس الذى يعدون كتابه (يقظة العرب) أهم مصدر لهذه الدعوة (وهو كتاب خبيث ماكر ملىء بالمغالطات ومكتوب من وجهة نظر الاستعمار والتغريب واليهودية العالمية جميعاً) حاول أنطونيوس وجرى على خطوه دون وعى أو يقظة أغلب الذين حاولوا التأريخ للوحدة العربية — أن يجعل من هـذه الجماعة السرية التى أنشئت فى أحضان الكلية الإنجيلية السورية وسمح لها برفع صوتها على منابرها ، نواة للدعوة العربية بينما تدل كل الدلائل على أنها لم تكن إلا محاولة لعزل (لبنان) عن الدولة العثمانية والأمة العربيـة .
ومن مراجعة النصوص المختلفة حول هذه الجماعة يتبين : أن الجماعة كلها من النصارى الذين درسوا فى الكلية السورية الإنجيلية ، وهذا هو الهدف الطبيعى الأول للإرساليات التبشيرية الذى أخذ يؤتى أكله ويتسع من بعد نطاقه حتى ليقول فارس نمر فى إحدى تصريحاته عام ١٩٢٣ أن وضع لبنان تحت النفوذ الفرنسى إنما تم بين جدران الكلية السورية . كانت مطالبة الجماعة « تحرير لبنان من الحكم التركى » أنشئت الجماعة ١٨٧٦ من الدفعة الأولى فى الكلية وكان حباالين هو المشرف الثقافى والداعية الأول . غير أن الجماعة تعثرت ولم تستطع أن تحقق شيئاً إلا بعد أن راوغت فى هدفها لتشرك معها بعض الدروز الذين هم فرقة من فرق المسلمين .

ولما كان ذلك عسيراً إذ أن المسلمين لا يشتركون فى عمل ما ضـد الدولة العثمانية فقد اتخـذت خطوات غاية فى المكر والائتمار . الأولى : طرح كلمة « العروبة » . الثانى : استغلال أعضاء المحافـل الماسونية المسلمين الذين تورطوا فى هـذه المنظمات وأصبحوا لا يستطيعون الإفـلات من تحقيق توجيهاتها فأوعز دعاة الفكرة وقادتها إلى هذه المنظمات ومن ثم برزت الجماعة فى ثوب جديد وفيهـا مسلمون : هم هؤلاء الماسون . ولكى نكون صادقين فى تصوير هذه المرحلة فأننا نعود إلى ما ذكره الدكتور فارس نمر الذى قال : لم ينقضى زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى (يقصد نفسه ومن معه) إنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغى لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكى يكونوا لهم سنداً وعوناً فقد كان من المحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك جبهة واحدة متراصة . ولم يكن هناك من قاسم مشترك بين المسلمين والعرب والمسيحين العرب سوى « العروبة » فالعروبة كشمار ، كان فى وسعها أن تثير فى نفوس العرب شعوراً بالقومية وإن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقين على الأتراك وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون فى الجمعية السرية أن السبيل الوحيد هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة . ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى وهى إدخال بعض الوجهاء المسلمين فى المحافل الماسونية فى بيروت وكان بعض الأعضاء البارزين فى الجمعية

السرية قد انضم إلى عضوية هذه المحافل الماسونية وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية للانتماء إلى الجمعية السرية ، وفى الواقع انضم عدد قليل من المسلمين إلى المحافل الماسونيه ، وعلموا بوجود جمعيه سرية ، وقـــد اتفق الجانبان المسلمون والمسيحيون على محاربة الظلم التركى على أساس العروبه » . وهكذا تصل الى نفس الوضع فى الدولة العثمانية : جماعة الاتحاد والترقى تنبثق من داخل المحافل الماسونية فى سالونيك وجماعة المقطم المارونية (بحكم ماسيكون) تنبثق من المحافل الماسونية فى بيروت . ومعنى هذا أن الماسونية أولا وأخيراً هى صاحبة الدعوة إلى الانتقاض والائتمار بالدولة العثمانية فى نطاق الأتراك وفى نطـاق العرب . وإذن بالمخطط واحد والعمل هنا يكمل العمل هناك . ومن هنا فإن القول بأن هذه الجمعية التى خلفتها جمعيـة أخرى اشترك فيها بعض المسلمين الذين كانوا فى المحافل الماسونية ووصلوا إلى الدرجة التى عرفوا معها هدف الماسونية من تمزيق الدولة العثمانية وفتح الطريق إلى بيت المقدس ، هذه الجمعية لا يمكن أن توصف مطلقاً بأنها نواة الفكرة القومية العربية أو أنها أو محاولة منظمة لبعث الحركة العربية القومية كما ادعى جورج أنطونيوس وساطع الحصـــرى ومن ورائهم كتاب اليهود والتغريب والتبشير والاستشراق .

ومعنى هذا أن الحركة كانت إقليمية لبنانية وهى ما عرف من بعد باسم (الكيان اللبنانى) وأن طابعها العربى كان تمويها لتصويرها للناس فى إهاب حركة عربية جامعة حتى يقال أن الحركة العربيـة بدأت من الكلية السورية وحمل لواءها جماعة المقطم المارونية . وتبدو الرؤية واضحة تماماً حين توضع الصورة كلها فى إطار المحافل الماسونية التى كانت قد نشأت فى بيروت على النحو الذى شكلت فيـه فى (سالونيك) . وقد أشار جورجى زيدان إلى نشأة الماسونية فى لبنان فقال أن أول محفل تأسيس فى مدينة بيروت كان عام ١٨٦٢ تحت رعاية الشرق الاسكوتلاندى وترأسه قنصل جنرال دولة انكلترا وانتظم فى سلكه جم غفير من أعيان البلاد وأمرها ثم تجدد هذه المحفل ١٨٨٨ وعاد إلى العمـل (ويبدو أن ذلك تم فى ظل حركة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية) . وفى عام ١٩٦٩ تأسس فى بيروت محفل آخر تحت رعاية الشرق الفرنسى انضم إليه كثيرون من أعيان البلاد وعلماء ورجال حكوماتها على اختلاف مذاهبهم . وأشار إلى مهاجمة جماعة الجزويت للماسونيين حتى أن العامة غرس فى أذهانها الكره والاحتقار لجماعة الماسون « حتى أصبح إسمهم مرادفاً لأدنى صفات الاحتقار عندهم» يقول جورجى زيدان : أما الآن (والكتاب مؤلف عام ١٨٨٩) وقد ازدهرت سوريا وعلى الخصوص مدينة بيروت بالعلم والفلسفة وتعددت فيها المدارس والجرائد وانتشرت فيها حرية الأفكار فقـد

أصبحوا ينظرون إلى الماسونية نظرة الأحتقار . وأشار المؤلف إلى المحافل التى أقيمت فى دمشق وحمص وحلب وعيناب والاسكندرية وأنطاكية . كما أشار إلى أول محفل ماسونى فى فلسطين تأسس فى مايو (آيار) ١٨٧٣ واسمه محفل سلطان الملوكى الأساسى » . وقد أشارت مجلة المشرق إلى أن المدارس اللادينية فى لبنان « هى إحدى نتائج الأعمال الماسونية ، فالغاية واحدة والوسائط عديدة وقالت إن لدينا من البراهين على ذلك شاهد حى وهو « نوط » يعطى لكل تلاميذ من تلميذ المدرسة على أحد وجهيه رقم من ارلأقام وعلى الوجه الآخر الشمار الماسونى (الزاوية والبركار) . وهكذا تلتقى الإرساليات التبشيرية مع الماسونية فى الخطة والعمل ، فى سالونيك من أجل إسقاط عبد الحميد وتمزيق الدولة العثمانية وفى بيروت من أجل إقامة بديل للجامعة الإسلامية على أساس عزل لبنان وتحييده كمنطاق للدعوة التغريبية الاستعمارية .

(١٨)

ثمار التبشير والماسونية

كانت الدعوة المنطلقة من الإرساليات التبشيرية فى بيروت : دعوة إقليمية لبنانية مسيحية (ذات طابع عربى للتمويه) وهى التى رفعت شعار العروبة خدعة وعملت فى أحضان المحافل الماسونية وهى ليست على أى صلة ما أو ارتباط بما عرف بعد ذلك بالدعوة العربية التى فرضت نفسها فى مواجهة التحدى الذى وضعه (الاتحاديون) بالدعوة إلى الطورانية ومحاولة تتريك العناصر العربية عام ١٩١٦ تقريبا .

أما هذه الدعوة فقد كانت عملا فى طريق تجزئة الدولة العثمانيه ، ففى كل قطر دعوة : الاتحاد والترقى فى تركيا ، تحرير لبنان من الحكم التركى ، مصر للمصريين فى مصر . إذن فلا صلة مطلقا بين هذه الدعوة الاقليمية الضيقة التى حملتها الكلية السورية فى لبنان وبين الحركة التى قامت بها سوريا (وليس لبنان) فيما بعد فى مواجهة الدعوة الطورانية . ولبنان لم تكن أبداً مركزاً للحركة العربية لا فى ذلك الوقت ولا بعده ، ولم يكن فى لبنان أى نوع من الرقابة أو أى أثر لحكم العثمانيين بعد أن انفصلت بنظامها الخاص عام ١٨٦٠ وإنما كان قيام هذه الدعوة يرمى أساسا إلى اقتطاف ثمار الإرساليات التبشيرية وتحويل مفاهيمها الثقافية إلى عمل ، واقامة مؤسسة لها طابع الحركة الى جوار أعمال التعليم فى الكليات ومنها يكون الانطلاق الى البلاد العربية لإذاعة هذه الآراء ونشر هذه

المخططات وهو ما تحقق بالفعل أن تحركت أول دفعة من الإرساليات إلى مصر ، وعلى رأسها أصحاب الجمعية السرية الماسونية الداعية إلى تحرير لبنان باسم العروبة .

ووضح من جميع النصوص الواردة فى الكتب التى أشارت إلى هذه الجمعية (وخاصة يقظة العرب لانطونيوس) أن أرضية العمل كانت ممثلة فى قصيدة اليازجى (تنبهوا واستفيقوا أيها العرب) ودعوة بطرس البستانى فى مجلة نفير سوريا إلى ما أسماه (حب الوطن من الإيمان) والعرب هنا هم اللبنانيون والوطن هنا هو لبنان . وقد اتفق اليازجى والبستانى على إنشاء الجمعية التى كان من أعضائها إيلى سميث وفان ديك والكولونيل تشرشل ، وبلغ أعضاؤها خمسون عضواً أكثرهم من النصارى السوريين ، ويقول انطونيوس نقلا عن محضر محفوظ فى ملفات البعثة التبشيرية الأمريكية أن الجمعية تتكون من فانديك واثنين من المبشرين ثم أسس اليسوعيون : الجمعية الشرقية على الأساس نفسه وكان المحرك لها الأب (دوبرونبير) فواضح هنا رعاية المبشرين لهاتين الجمعيتين ، بالإضافه إلى حضانة المحافل الماسونية . وقد حاول هؤلاء المؤرخون أن يصوروا قصيدة اليازجى على أنها النشيد الوطنى ، وأنه تحريض للثورة على العثمانيين والتغنى بأمجاد العرب ومفاخر آبائهم (ومعروف فيما بعد أن التغنى كان بأمجاد الأشوريين والكلدانيين والفينيقيين) وكلمة السوريين فى القصيدة إنما تعنى للمسيحيين اللبنانيين فقد كان لبنان جزءاً من سوريا . وقد كشف نجيب عازورى أحد خريجى الارساليات التبشيريه والمحافل الماسونية عن هذا الهدف فى كتابه (يقظة الأمة العربية) وهم يوردون اسمه هكذا ليخفون بعض إيماءاته وإنما اسمه الحقيقى (يقظة الأمة العربية فى آسيا الغربية) وفارق كبير بين الاسم الحقيقى والإسم الزائف ، وقد كشف عازورى هدف دعوته المحملة بأوزار الشبهات حين طالب بمملكتين عربيتين فى آسيا واحدة فى سوريا الطبيعية والأخرى فى شبه الجزيرة العربية مع استقلال ذاتى للبنان . وهكذا تبدو الحركة كلها وهى إقليمية مغرقة فى الانفصالية غارقة فى التعصب الطائفى . أما ما يعيبه خصوم العرب والإسلام على الكواكبي فهو أصح ما جاء فى كتاباته ، وأكثرها أصالة وذلك أنه لم يفصل الفكرة العربية عن الفكرة الإسلامية إذ لا سبيل إلى هذا الفصل ، وإلا لم يكن عبد الرحمن الكواكبي وإنما كان نجيب عازورى . فقد اعترف بواقع عربى مصدره الإسلام ، وكل ما تحمس لإعلانه فهو إن دعا إلى أن العرب فى مقدمة الأمم الإسلامية ، وذلك بفضل اللغة العربية ، طالب بعودة زعامة الإسلام والخلافة إلى العرب ومن هنا لا وجه للمقارنة بين عازورى والكواكبى ولا سبيل إلى الجمع بينهما فى خط واحد . وقد كشف (إدوار عطية) عن حقيقة أساسية فى دعوة خريجى الإرساليات التبشيرية حين قال : كان السوريون المسيحيون يكرهون السيادة التركية ويتطلعون نحو التحرر منها لا بقصد تأليف

دولة سورية مستقلة ، لأنهم يكونون فى هـذه الحالة مضطرين لأن يخضعوا لحـكم يشكل فيه المسلمون أكثر ساحقة ، وعندئذ يتعرضون حسب اعتقادهم إلى الاضطهاد والظلم ، وعليه كانوا يتطلعون نحو التحرر من السيادة الإسلامية بمساعدة دولة أوربية تطرد الترك من البلاد وتحكم سوريا بدلا منهم » وكان ذلك عندهم إذا تحقق » لا يعد خضوعاً لسيادة أجنبية طالما أن الدولة الأوربية المسيحية هى من نفس الديانة التى يعتنقونها » .

(١٩)

أعمال الإرساليات

كان عمل الإرساليات من أهم الأعمال التى ركزت النفوذ الاستعمارى فى العالم الإسلامى وهى الجناح الثانى للمؤامرة الضخمة فى السيطرة المشتركة بين الاستعمار واليهودية العالمية ، أما الجناح الأول فهو المحافل الماسونية ، وقد تكشف اشتراكهما معاً فى كل المخططات والأعمال . لقد كان أبرز أعمال الإرساليات : فصل الأقليات عن الدولة العثمانية وإثارة الخلاف بينهم وبين المسلمين ، واحتضانهم واتخاذهم سلاحا للعمل ، وحائلا دون الوحدة ولقد اندفع أبناء الإرساليات إلى مصر بالذات لإقامة ركيزة أخرى مواجهة لركيزة بيروت تحمل لواء الصحافة وتوجه الرأى العام كله فى البلاد العربية على النحو الذى رسمه النفوذ الاستعمارى واليهودية العالمية . فقد كان أبناء الإرساليات أكثر اندفاعا فى الدعوة إلى التغريب ، وكانوا يرون بينهم وبين الفـكر الغربى صلة وثيقة تلقائية لا تنفصل عنه فى أى جهة من جهاته . ولم يكن كذلك المسلمون الذين كانت تحكمهم قيمهم الإسلامية الأساسية التى تختلف وقد تتعارض مع الفـكر الغربى فى مقوماته وأسسه . وقد صور هذا كمال الصليبى تصويراً صحيحاً حين قال : إن المجددين المسلمين فى تركيا ومصر رأوا أن على المجتمع الإسلامى الوقوف فى وجه الغرب أن يكتشف عناصر قوته وازدهاره ويفتش عنها ، وسرعان ما تبين لهم أن مثل هذا الاقتباس لا يتم إلا بالتغاضى عن كثير من جوهر التراث الإسلامى ، ولم يكن هؤلاء المجددون على استعداد للتخلى عن هذا الـكـنز .

أما المفـكرون المسيحيون فى لبنان فلم يضطروا إلى إبداء مثل هذا التحفظ تجاه الغرب فبالإضافة إلى وحدة الدين بين الطرفين وما لها من أهمية كبرى ، كان النصارى فى لبنان يعتبرون الغرب حاميا لهم وسنداً لقضيتهم ، وكانوا يرونه فى امتداد نفوذه فى السلطة العثمانية مدعاة للاطمئنان لا تحدياً .

لذلك كانت الحركة الفكرية فى لبنان فى القرن ١٩ من حيث زعامتها المسيحية على طرف نقيض للتطورات المعاصرة فى تركيا ومصر والبلدان الاسلامية الأخرى فلم يشعر النصارى اللبنانيون كما شعر المسلمون العثمانيون بمسئولية الحفاظ على دولة فى طريق الانهيار (الدولة العثمانية) أو على دين مهدد بالخطر (الاسلام) وهم أيضاً لم يأنفوا عن الأخذ عن الغرب المسيحى واعتماد طرفه .

هكذا كان حال المسيحيين فى لبنان ، لذلك لم يشعر رجال الفكر منهم فى القرن ١٩ بذلك القلق والانكماش الذى خالج صدور زملائهم المسلمين فى مختلف الأقطار ومن هنا ظهرت هذه الطائفة أولى ثمار الارساليات التبشيرية وانتقلت إلى مصر لتتصدر الصحافة والفكر والثقافة والرأى العام

* شبلى شميل : الدعوة إلى الفلسفة المادية ونظرية دارون . * فارس نمر : المقطم والولاء البريطانى . * جورجى زيدان : تزييف التاريخ الاسلامى والدعوة إلى الماسونية .
* يعقوب صروف : المقتطف والتغريب . * سليم سركيس : محاربة الدولة العثمانية والاسلام .
* فرح أنطون : الدعوة إلى الفكر الغربى .

وكانت الخطة الفكرية التغريبية (التى تنطوى فى أعماقها على الدعوة إلى التوراة والاضطهاد الذى أصاب اليهود فى العالم كله وعلى مدى التاريخ) تبدو واضحة فى صحف الهلال والاهرام والمقتطف والمقطم والجامعة ولسان الحال وغيرها وهى خطة موحدة واضحة الهدف ، هذا الهدف المختفى بدقة من وراء كل الدعوات والكتابات وهو تمزيق الرابطة بين العروبة والإسلام . ولما كان هؤلاء جميعاً يجمعون بين أنهم من خريجى « الارساليات التبشيرية » ومن أعضاء « المحافل الماسونية » فقد كانت كتاباتهم مخططة وفق أهداف الاستعمار واليهودية العالمية . وكان العالم الاسلامى والدولة العثمانية والعرب والمسلمون جميعاً خصوما لهم . ولذلك فقد أيدوا الاستعمار البريطانى فى مصر والاستعمار الفرنسى فى سوريا ، وعاونوا الصهيونية العالمية ومهدوا لها الطريق الفكرى فى كتاباتهم كما حملوا لواء الخصومة العنيفة للسلطان عبد الحميد وآزروا من بعد الاتحاديين وكانوا طوال هذه الفترة يدسون سموما خطيرة فى كتاباتهم ، وقد أعلن المبشرون فى عديد من اجتماعاتهم « أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استطاعوا فى أى بلد إسلامى آخر » ومن خريجى هذه الارساليات من دعا إلى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ومنهم من دعا إلى أن تكون لبنان وطنا للنصارى فى الشرق الأدنى .

(٢٠)

الاتحاديون وليس السلطان

أستطاع النفوذ الغربى الأستعمارى واليهودية العالمية ممثلا فى مؤسساته ومراكز قواه :
« الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية » ومن طريق الجمعيات والصحف والمدارس أن يمزق ذلك التجمع الفكرى المتمثل فى الوحدة الإسلامية العربية والرابطة العربية التركية والمتجمع فى كيان سياسى واحد هو الدولة العثمانية ، حاملة لواء الجامعة الإسلامية تحت إسم الخلافة وكان عمل النفوذ الغربى واليهودية العالمية لذلك مرتباً حلقة بعد حلقة يشتغل أكبر مايشتغل ، ضعف الثقافة العربية الاسلامية والغفلة عن إدراك أبعاد المسائل وخلفياتها ، والنظرة البشرية الخاطفة السريعة .
وكان سقوط السلطان عبد الحميد هو الضربة الأولى التى هى نصف المعركة ، إما ماجرى بعد ذلك فقد كان يسيراً وسهلا ومؤديا إلى الغاية فى أقصر طريق ، وما عجزت عنه القوى الاستعمارية واليهودية العالمية خلال أكثر من نصف قرن لصمود السلطان عبد الحميد ، أمكن تحقيقه خلال فترة قليلة ما بين عام ١٩٠٩ — ١٩١٨ على أيدى القوة التى أعدها ورباها ووجهها على الطريق المرسوم ، تلك هى قوة الاتحاديين فى الدولة العثمانية تعاونها قوة الارساليات التبشيرية فى لبنان وتديرها قوة الصحافة المكتوبه بالعربية الصادرة من مصر .

وفى مخطط واحد ، جرت الدعوة إلى الطورانية فى تركيا العثمانية والفينيقية فى لبنان ، والفرعونية فى مصر ، وفرضت الدعوة الطورانية على العرب أن يحملوا لواء الدعوة إلى العروبة المنفصلة عن الدولة العثمانية وبذلك أمكن عند نهاية الحرب العالمية الأولى أن يقال إن الكيان السياسى الضخم الذى تشكله الدولة العثمانية جامعا للعرب والترك قد إنتهى ، وإن الفكرة الجامعة بين العروبة والإسلام عند المسلمين أنفسهم قد أصابها التصدع نتيجة للتحديات والإغراءات التى قسمت الفكر العربى الإسلامى وأصابته بالتمزق . الاتحاديون إذن وليس السلطان عبد الحميد : هم الذين أحدثوا هذا التصدع والتمزق وخربوا وحدة العروبة والإسلام فى الصميم ، وقضوا على تلك الرابطة القوية الجامعة وأسلموها إلى دعوات العناصر والأجناس وإلى صراع الدماء والعروق بين عرب وترك ، وبين مصريين وسوريين ولبنانيين وعراقيين . ومن ثم يمكن أن يقال أن فكرة تصعيد دعوة القوميات فى الدولة العثمانية إنما أدخل وأغرى به وأفسح له الطريق لكى يشكل تمزقا صحيحا

فى هذه المرحلة : مرحلة السنوات العشر الجماف التى قاد بها الاتحاديون سفينة الإسلام والعروبة حتى ارتطمت بالصخرة التى فرقتها ولم يكن الاتحاديون فى هذا إلا أداة النفوذ الاستعمارى واليهودية العالمية لفتح الطريق إلى القدس ، وكانت المحافل الماسونية والارساليات التبشيرية هى أدوات هذا العمل الخطير ومؤسساته الساهرة فى غفلة الأمم الحاقدة التى سممت كل الآبار ودمرت كل المواقع الحصينة فى المجالين معاً : مجال الكيان السياسى ومجال الفكر والعقائد .

وقد كانت هذه الأجهزة تعمل وكان كل منها مستقلا منفصلا ، ولكن اليد الخفية كانت تديرها جميعاً ، وتسيطر عليها وتوازن بين خطوها ، سواء فى سالونيك وبعدها فى الآستانة ، أم فى بيروت ودمشق والقاهرة . إن الذين كتبوا تاريخ السلطان عبد الحميد وتاريخ الاتحاديين كانوا بطبيعتهم غير منصفين ، ولم يكونوا على مستوى الحقيقة التاريخية أو للمنهج العلمى ، بل كانوا مغرضين خصوماً ، ولذلك فإن شهادتهم لا تقبل ، لقد سيطر التبشير والاستشراق والماسونية والإرساليات على رسم تاريخ العالم الإسلامى والدولة العثمانية فى هذه المرحلة ، ووضعوه أمام الباحثين ، بل فرضوه فرضاً على المعاهد والجامعات والمناهج الدراسية وجرى على الألسن والأقلام كأنه حقائق لا سبيل إلى نقضها وقوام هذا المنهج هو إثارة هذه الشهادات والأضاليل .

١ — السلطان عبد الحميد : مستبد قاتل عاش على الجاسوسية والقتل . ٢ — الدولة العثمانية هى التى وضعت العرب فى أسوأ الأوضاع الاجتماعية والسياسية وهى التى قتلت رجالها الذين طالبوا بالحرية عام ١٩١٥ و ١٩١٦ . ٣ — محاولة القول بأن سوريا هى التى حملت لواء مقاومة الدولة العثمانية . ٤ — محاولة نسبة الحركة العربية إلى الكلية السورية الإنجيلية وخريجيها . وكان أبرز من كتب ذلك المستشرقون ، والمبشرون ، وكتاب الغرب ، ثم جرى فى خطوهم ساطع الحصرى وجورج أنطونيوس وأنيس صايغ وفيليب حتى . وهى كتابات مليئة بالحقد والكراهية والتشفى من السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فإذا تعرضت للاتحاديين بدت مشفقة تلتمس الأعذار ، وإذا كان الإنصاف هو الحكم العلمى الصحيح فإن أخطاء الاتحاديين لا تقاس أبداً بصنائع عبد الحميد ، ولكن لما كان الاتحاديون هم مخلب القط الذى حقق الغايات العديدة فقد التمست لهم الأعذار وعرضت أمورهم فى رفق وتسامح شديدين . إن تاريخ هذه المرحلة قد زيف تزييفاً شديداً فقد كتبه اليهود والمستشرقون وحجبوا كل الحقائق خلال خمسين سنة كاملة ظلت خلالها المناهج الدراسية خاضعة لهم ، وما تزال المؤلفات التى فى الأيدى من كتاباتهم ، وهى كتابات أريد

بها إخفاء الحقيقة من ناحية والتسلط على الرجل الذى وقف فى وجههم والتمويه فى الإشارة إلى ظلم الدولة العثمانية بينما الظلم الحقيقى الذى وقع على العرب هو ظلم الاتحاديين بنفوذهم الذى هيئته لهم اليهودية العالمية والاستعمار فقطعوا الروابط التى استمرت أربعمائة سنة بين الإسلام والعروبة ، وبين العرب والترك .

ولا شك أن هذا يكشف خصومة هؤلاء الكتاب للعرب والإسلام ، وحقدهم عليه وتعاونهم مع خصوم هذه الأمة على تأكيد وقائع مضللة وإرساء باطل زائف فاذا كان هؤلاء الكتاب منصفون فى موقفهم من عبد الحميد فلقد كان أولى لهم أن يكشفوا عن الصفحات السود التى صنعها الاتحاديون والتى بلغت أعنف ما روى من تاريخ العلاقات بين العرب والترك. ولماذا يستعمل مقياسين وأسلوبين ومنهجين فى موضوع واحد ، ولماذا يكون الهوى حاكما فلا تقال كلمة الانصاف هنا أو هناك ، إن موقف السلطان عبد الحميد من اليهودية العالمية سيظل طاقة من النور يتوج جبين هذا الرجل ومع ذلك فانهم لا يعرضون لهذه الواقعة فاذا عرضوها زيفوها وأفسدوها . إن هذه الكتابات الزائفة التى فرضت على العرب والمسلمين أكثر من خمسين عاماً واعتبرت أسساً لمناهجهم فى التاريخ إنما كانت مضللة ولم تقم على أساس منهج علمى ، ولم تضع الأمور فى نصابها ولم تكشف الحقائق كاملة . وإنما قامت على الحقد والتشفى الواضح للأتراك والعرب وللعروبة والاسلام جميعاً فالمعروف أن الاتحاديين سقطوا سقوطا شنيعا وهم على أخف الأقوال المنصفة باعوا المملكة العثمانية وأسلموها للاستعمار وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها أو تبريرها. وقد دحض كثيرون من المنصفين ماحاولت كتابات التغريب ودعاته اتهام الدولة العثمانية به وخاصة فى محاولة تصوير العلاقة بين العرب والترك فى الدولة العثمانية فى تاريخها الطويل بصورة الصراع . وكذلك فيما يتعلق بالاتهام الذى وجه إلى الدولة العثمانية بأنها كانت سببا فى تأخر العرب .

يقول هار ولد بوون : فيما يتعلق بالتعاميم الجارفة التى كانت تصدر عن بعض الكتاب فاننا نلاحظ أن معظمهم كانوا يخبطون خبط عشواء وإن التعصب كان يخفى الحقيقة عن عيونهم ، إن كثير من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر فى القرن الثامن عشر آراء خاطئة . ويقرر الدكتور زين هذه الحقائق : أولا : إن جميع التعاميم والعبارات الجارفة التى صدرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من أولئك الذين يعنون بهذا الأمر ، والتى تتعلق بالكراهية والشحناء التى كانت تتميز بها العلاقات بين هذين الشعبين : التركى والعربى مبالغ فيها كثيراً

كقول أحدهم مثلا (إن الأتراك كانوا يبغضون العرب ولا يثقون بهم) . فضلا عن أن مثل هذه الأقوال الجارفة لم تكن لتنطبق على واقع العلاقات كما كانت عليه فى القرن الأول للحكم التركى ، إن معظم الذين ألفوا فى التاريخ التركى لم يكونوا يجهلون وفرة الوثائق التاريخية التى يجب أن يطلع عليها الباحث فى هذا الحقل وحسب وإن كانوا بصورة عامة على كثير من التحيز والتعصب .

ثانياً : لم يحاول الأتراك تتريك الأعراق البشرية التى دخلت فى نطاق امبراطوريتهم وقد كان العرب أكثر عدداً ، والواقع أن الأتراك ظلوا (غرباء) فى المناطق العربية التى أصبحت جزءاً من امبراطوريتهم والذين توطنوا منهم فى الولايات العربية كانوا قلة ، ومن الإنصاف القول بأن الأتراك لم يحاولوا دمج العنصر العربى أو تتريكه إلا بعد استيلاء جمعية الاتحاد والترقى على مقاليد الحكم سنة ١٩٠٨ . ثالثاً : كانت الامبراطورية العربية والخلافة العباسية من الانحلال والتجزؤ بحيث أصبح العرب فى حالة ضعف ووهن ، حتى ليصح القول بأن الحكم العثمانى حمى الأقطار العربية والإسلام من التعدى الخارجى قرابة أربعمائة سنة . رابعاً : مما لا شك فيه أن الإسلام كان أهم عامل يجمع العرب والأتراك فى رابطة متينة طيلة أربع قرون .خامساً : ليس صوابا القول أن العرب والمسلمين ظلوا طوال أربعمائة سنة أمة مستضعفة تحت نير الأتراك أو أن البلدان العربية نهبت خيراتها وخيم عليها الفقر من جراء الاحتلال التركى ، كذلك ليس صواباً القول أن العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم أن يتقلدوا سلاحا أو أن ينضموا تحت العلم العثمانى للخدمة العسكرية ذلك لأن جيوشا عربية وضباط عرب من ذوى المراكز العسكرية العالية كانوا يعملون فى الجيش العثمانى وقد برهنوا على قدرة ومهارة فى المعارك الحربية .

سادساً : ليس هناك من دليل تاريخى على صحة ما يشاع فى القرن العشرين من أن الاتراك وحدهم هم المسئولون عن « التخلف » وعن « التأخر الحضارى » الذى ألم بالأقطار العربية ، طوال أربعمائة سنة بل يبدو أن بعض البلدان العربية أفادت فى القرون الأولى من الالتقاء التركى . وقد صور هذا الباحث حقيقة العلاقة بين العرب والأتراك وردها إلى الإسلام نفسه وأثبت عجز كتاب الغرب عن فهم الحقائق نتيجة تجاهل هذا المصدر الأصيل . يقول : « إذا كان الاتراك قد استطاعوا أن يحكموا هذه المنطقة مدة أربعمائة سنة . فان السبب يعود إلى أن الاتراك مسلمون فقد استمر السلاطين العثمانيون فى العمل على نشر الإسلام بعد أن كانت مقدرات الإسلام قد وصلت إلى أدنى درجات الانحلال بعد خراب بغداد ١٢٥٨ للميلاد على يد هولا كو وجيوشه المغولية . فقد استطاع

الأتراك أن يجتاحوا أقساما من أوربا، مركــز المسيحية، وأن يرفعوا رايات الإسلام عالية أينما وصلوا حتى مشارف فينا، وهذا مما جعل العرب المسلمين يفخرون بعظمة الأتراك ومكانتهم العالية، فقد كانت الامبراطورية العثمانية امبراطوريتهم تماما كما هي للعثمانيين، هذه الحقائق يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار إذا ما حاول أحد أن يدرس تاريخ العلاقات التركية العربية، أو إذا ما حاول أن يتفهم موقف العرب من الدول الأوربية، ولكن مما يؤسف له كثيراً أن عدداً كبيراً من الذين يعنون بتاريخ العرب المعاصر ينقسمون إلى فئتين: فئة لا تعرف هذا التاريخ معرفة صحيحة. وفئة تنظر إلى هـذا التاريخ من خلال زجاج ملون بالآراء السياسية والقومية العلمانية فيتجاهلون عمداً وبالتالى يعجزون عن إدراك أهمية العامل الدينى فى تاريخ العرب، ذلك العامل الذى كان له أكبر الأثر لمدة قرون فى تكوين الشرق الأدنى السياسى والاجتماعى، وفى تقريره مصيره: أعنى الإسلام.

إن السبب الرئيسى للعجز والفشل فى تفهم الشرق الأدنى العربى هو عدم فهم العنصر البشرى والقيم الإنسانية فى هذه المنطقة فإذا أراد المرأ تقييم الوضع فى هذه البقعة من العالم تقييما صحيحا فإن عليه أولا أن يفهم: تلك القوة الروحية التى هى مصدر جميع الحوافز وجميع الأعمال التى تصدر عن غالبية السكان العرب فى الشرق الأدنى وبدون هذه المعرفة يستحيل عليه أن يدرك جوهر القضايا والمشكلات العميقة التى تعانيها المنطقة، إذ أن كثيراً من هــذه المشكلات السياسية والاجتماعية منهـا ترتبط ارتباطاً محكماً بالدين فالاسـلام كقوة روحية سياسية له أثر عميق والإجتماعية فيها ترتبط ارتباطاً محكما بالدين، فالإسلام: كقوة روحية وسياسية له أثر عميق يفوق أثر القومية العلمانية، وهذه حقيقة أساسية يجب على المؤرخ ألا يتغاضى عنها وألا يتجاهل خطورتها. وقد آن للمؤرخين الغربيين أن يتخلوا عن بعض ما علق بنفوسهم من أوهام وأخطاء حول حقيقة العلاقات بين العرب والاتراك».

(٢١)

الحركة الطورانيـة

(١)

الجامعة الطورانية

ولقد كان النفوذ الغربى قد هيأ « الاتحاديين » فعلا منذ وقت بعيد ، من خـلال محافل الماسونية للدور الذى سيقومون به لتمزيق الدولة العثمانية والقضاء على ترابط الاسلام والعروبة. ولذلك فقد ألقى كثير من المستشرقين فى طريق الفـكر العثمانى مغريات كثيرة لحملة على الانتقال من الوحدة الإسلامية إلى العصبية الجنسية والعرقية وقد ظهرت المغريات على فترات متوالية وكان أهمها : (أولا) إعادة طبع كتاب عن تاريخ الترك والمغول منذ أقدم الأزمنة إلى سنة ١٤٠٥ للميلاد وهو من تأليف كاتب يهودى هو (ليون كاهون) وهو روائى إستغل موضوع قضية غزوات وغارات المغول الـكبار مثل جيكيز خان وتيمور لنك فصورهم بصورة الأبطال العظام . وقد أعلن فى هذه الفترة فى ضجيج كبير أن الأكاديمية الفرنسية قد توجت هـــذا الـكتاب ، فالتفتت إليه الأنظار وحمله السفير الفرنسى إلى واحد من كبار أعضاء جمعيه الاتحـاد والترقى هو ناظم بك الذى قرأه وأعجب به ووضعه أساساً للنهضة الطورانية . (ثانيا) طرح المستشرق اليهودى المنغارى فمبرى نظرية خطيرة تقول إن الاسلام يناقض مع فـكرة الجنسية ، وإن الأسلام هو الذى حال دون نشوء حضارة الأتراك ، ودعا العثمانيين إلى الاهتمام بمـا بينهم وبين أتراك أواسط آسيـا من صلة رحم . (ثالثاً) اشتراك فى هذه القصة مستشرقون آخرون منهم فون لوكوك ممن حاولوا رسم خطوط الأصول العرقية للترك . ومنذ اليوم الأول لتسلم الاتحاديين الحكم بدأ وضع خطوط هذه الفلسفة موضع التنفيذ وتصدى لذلك رجال من خارج تركيا حملوا لواء الجامعة الطورانية هم : ١ — يوسف اشقورا اوغلوا: ٢ — أحمد أغايف وقد عملا فى الآستانة وأسسا مجلة المواطن التركى (١٩١١) . ٣ — ضياء كوك الب : الذى أطلق عليه رسول القومية التركية وكان عضواً فى جمعية الاتحاد والترقى وأستاذاً للعلوم فى جامعة الآستانة ، وظهر لأول مرة فى المؤتمر السنوى للجمعية عام ١٩٠٩ ، أخذ يكتب عن فكرته فى صحيفتين وأسس جمعيتين ، وكان مقر عمله سلانيك .

ومن العجب أنهم وثلاثتهم روسيو الأصل وليسوا عثمانيين . ٤ — حسين جاهد : رئيس تحرير جريدة طنين التركية : وهناك أيضاً مؤلف كتاب قوم جديد (عبد الله) وجلال لورنى مؤلف كتاب تاريخ المستقبل . وبدأت الصحف التركية تمهد للحركة الجديدة وتمد النفوس لها على نحو منير فيه تحامل كبير على العرب والإسلام جميعاً ، ومن الحق أن يقال أن المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية والمستشرقين كانوا جميعاً من وراء هذا العمل الخطير ، غير أن الحكومة الاتحادية كانت لا تكشف أوراقها تماماً ، وتحاول أو تبدو ظاهراً وهى منقسمة على نفسها إزاء : الجامعة الإسلامية ، والجامعة العثمانية والجامعة الطورانية حتى لقد اختص كل واحد من رجالها بالدعوة إلى إحدى هذه الجامعات . ويمكن القول أنها كانت تسير أساساً إلى الهدف بخطى بطيئة ولكنها تغطى ذلك أمام سكان الدولة العثمانية بهذا التضارب والتعارض . ولقد حاول بعض الكتاب الموالين للاتحاديين أن يؤخروا ظهور الدعوة إلى عام ١٩١٦ ويربطوها بأحداث الحرب العالمية الأولى ولكن هناك من النصوص والوثائق ما يؤكد أن الدعوة الطورانية كانت هى الكلمة الأولى فى حكم الاتحاديين عام ١٩٠٩ . ويشير إلى ذلك دكتور زين زين الذى يقول إنه (بدءا من ١٩٠٩ ظهر ما أصبح يعرف بالاتحاد الطورانى Pan — Turanianism وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب التى تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية . وقد بدأت الحركة فى الصحافة والجامعات تهدف إلى تخليص التراث التركى من المؤثرات الفارسية والعربية وخلق صلة قوية دائمة بين أتراك الأمبراطورية العثمانية والأتراك خارج الأمبراطورية وإعلان تفوق العنصر التركى وسيادته على الأجناس فى الدولة العثمانية .

وقد عبر ضيا كوكالب عن فكرته فقال : إن مواطن الأتراك ليس تركيا ولا تركستان : إنه أرض طوران العظيمة الخالدة . إن تسألنى عن قومى فان أمتى قائمة منذ خمسة آلاف سنة ، وأن تسألنى عن نسبي وأرومتى فنسبي للترك . إذا قطعتنا الحراب فليس لنا غنى عن وحدتنا . جئنا كلنا من صلب واحد ، يجمعنا الدين واللسان . يا ابن الترك لا تقل أنا ، أنت ، هو ، كل هذه إن هى إلا كلمات زائلة ويجب أن تضمحل وتتلاشى أمام طوران الكبير . وقد مضت الأقلام المجندة للفكرة تدعو الأتراك إلى العودة إلى فضائلهم القديمة وتعود بهم إلى أصولهم وتقاليدهم قبل الإسلام ، وقطع الصلة بالتاريخ الإسلامى وميراثه وكانت هذه الدعوة تزعم أن الترك هم أقدم أمم الأرض وأنهم الجنس المغولى الذى كان واحداً فى الأصل ويلزم أن يعود واحداً ليس فقط ترك سيبريا وتركستان الصين وفارس والقفقاس والأناضول والروملى بل المغول فى روسيا وإيران والصين الذين يبلغون ٣٥ مليوناً ،

وظهرت أناشيد وطنية وأشعار كلها تمجد الطورانية وتتنكر للإسلام وللعثمانية ، وتدعو إلى تغيير الأسماء والألقاب الإسلامية واستبدالها بأسماء طورانية فضلا عن إعادة النظر فى التاريخ المدون وإلى إنصاف جينكيز خان وهولاكو وتيمور لنك وأتيلا وغلا كثيرون فقالوا نحن أتراك كعبتنا طوران . وقد كانت الدعوة إلى الجامعة الطورانية تجرى على أقلام دعاتها دعوى متعصبة عنيفة تحمل الحقد والكراهية للقوميات الأخرى وللعرب والإسلام . وكان الاتحاديون من وراء تأجيج نيران التعصب القومى والحملة على العرب وانتقاصهم كما عملت على تشويه العنصر العربى على جميع العناصر فى الدولة العثمانية . ودعا ضيا كوك الب وأحمد أغايف إلى أن تخضع العناصر المحتلة فى الدولة التركى خضوع التابع للمتبوع . كما وصف جاويد اليهودى وزير مالية الاتحاديين: العرب بأنهم العرق الأسود كما ظهرت المنشورات السرية التى تهاجم الإسلام ويقول « إن هذه البدعة الخيالية التى يسمونها الأمة الإسلامية التى ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه عام هى فى طريقها الآن إلى التفكك والزاوال . ونشأت فى هذه الحركة ، أنظمة خطيرة أهمها نظام الكشافة التركية التى اتخذت لها شعار (الذئب الأغبر) إشارة إلى المواطن الأول للأتراك . كما شكلت جماعة (ترك يوردس) التى كانت تقاوم كل كاتب تركى أو غير تركى لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم ، ونشر الكتب القومية والأناشيد الحماسية وتدريس التاريخ الطورانى القديم فى المدارس والجامعات .

(٢)

لقد شعر العرب فى الدولة العثمانية منذ اليوم الأول لتولى الإتحاديين الحكم بالتخوف والحذر والشك فقد كانوا موضع ريبة تشملهم من جميع النواحى ، ذلك لأنهم كانوا جميعاً بلا استثناء من الماسون ، ولأن أبرز أعضائهم كانت من يهود سالونيك (الدونمة) . وذلك يتفق تماماً مع ما كتبه (سنون وتسون) حين قال إن الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير تركية وغير إسلامية ، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركى صاف ، فأنور باشاً مثلا هو ابن رجل بولندى مرتد ، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة باسم دونمة وكان كراسو من اليهود الأسبان القاطنين فى مدينة سالونيك وكان طلعت بلغارياً من أصل غجرى اعتنق الإسلام ديناً أما أحمد رضا فكان نصفه تركياً والنصف الآخر مجرياً إلى جانب كونه من أتباع مدرسة كانت الفلسفية » .

وقد كشفت الأيام الحقيقة وأكدتها الأحداث ، التي فضحت المخطط اليهودي الماسوني الممهد مسبقاً والذي خططه مستشرقون وأجانب والقموه للصفوة . ومن الحق أن يقال أن الحركة الطورانية لم تكن في حقيقتها إلا ركيزة لأمرين : الأمر الأول : تحدي العرب ودفعهم إلى ركب مركب القومية والانفصال عن الترك . الامر الثاني : هو إعادة تركيا للمرحلة التالية وهي خلق تركيا اللادينية التي قام على إنشائها كمال أتاتورك . فقد كان الاغراق في الدعوة الطورانية وهو ما تخلت عنه بعد ذلك الدولة التركية الكمالية — هو الهدف الأساسي لإثارة العرب ، ولدفعهم إلى الخروج على الدولة ولذلك ركزت عليه الحكومة الاتحادية فلما لم يحقق الغاية كاملا ، لجأوا إلى أخطر من ذلك (وآخر الدواء الكي) فعلقوا العرب على المشانق فكان ذلك هو السكين الحاد الذي شطر الوحدة بين العروبة والإسلام أو بين الترك والعرب شطرين لا سبيل إلى التقائهما إلى أمد بعيد . ولكن العرب كانوا إلى اللحظة الأخيرة غاية في الإخلاص والارتباط بالوحدة الجامعة فكانوا يطلقون شعار اللامركزية ويدعون إلى ارتباط الترك والعرب تحت خلافة واحدة بل إن عدداً من أبرز كتابهم ومفكريهم ظلوا إلى أواخر الحرب الكبرى الأولى وهم يصرون على الارتباط بالدولة العثمانية لا ينفكون عنها إيماناً بأنه من أخطر الأخطار تركها للتمزق . وكان الشيخ محمد عبده وعبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان ممن يقولون بذلك ويتمسكون به حتى لقد أثر عن الشيخ عبده قوله . إن الدولة العثمانية هي ثالثة العقائد . ولكن الاتحاديون كانوا يعرفون ما تريد المحافل الماسونية تماماً وهو كسر هذه الرابطة وتمزيق هذه الوحدة وفتح الطريق إلى القدس بين شطري العروبة والإسلام وفصل الترك والعرب . وفي عبارة توفيق الناطور أحد قادة العرب البارزين في سوريا ما يؤكد ذلك حيث قال « إن فكرة العروبة لم تكن قد تبلورت وقويت ، جل ما كنا نحن العرب نطلبه هو أن نتمتع في الامبراطورية العثمانية بنفس الحقوق والواجبات التي كان يتمتع بها الأتراك وأن تقوم الامبراطورية على ركنين : الشعب التركي والشعب العربي .

وكان مشروع عزيز المصري يقوم على هذا النحو ، وكذلك كانت فكرة محمود شوكت ، وكان ذلك رأي الكثيرين : دوله مزدوجة (تركية — عربية) يرأسها خليفة تركي وتضم الأناضول التركي وعربستان ، غير أن الاتحاديين ما كانوا يقبلون ذلك أو يرضوه ، إنما كانوا يريدون التمزيق الكامل ولذلك أغروا رجلهم (أحمد جمال باشا) بأن يقوم في سوريا بذلك الدور الذي لا يوصف بأقل من المكر والتآمر حين حمل راية الوفاق بين العرب والترك ، وظل يفسح لزعماء العرب حتى وضع يديه

عليهم جميعاً ثم علقهم على المشانق عامى ١٩١٥ — ١٩١٦ فأنهى كل رابطة يمكن أن تقوم بين العرب والترك ودفع العرب دفعاً إلى الانضمام إلى صفوف الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) بعد أن دخلت الدولة العثمانية الحرب فى صف ألمانيا . ولقد أحس العرب فعلا أن الاتحاديين (وليس الترك) كما يرد على أقلام الكتاب الذين يريدون أن يلتمسوا لهم المعذرة ويدافعون عنهم — يقيمون الدليل على رغبتهم فى فرض اللغة التركية على بقية العناصر العربية فى الدولة بشكل يقضى فيه القضاء الكامل على لغاتها القومية وأنهم استغلوا كل مناسبة لتنفيذ هذه الخطة فى كل مكان من بلاد العرب . لقد دعا جمال باشا شباب العرب فى دمشق عقب وصوله إليها عام ١٩١٤ إلى الاجتماع به وألقى فيهم خطاباً تعرض فيه للجامعة الطورانية فقال مموهاً مطمئنا خادعا ما يلى : « يجب أن تتفقوا بأن مشروع الجامعة التركية الذى سمعتم عنه وعن وجوده فى استانبول وفى الجهات الأخرى الآهلة بالترك لا يتنافى مع الأمانى العربية بشكل من الأشكال . « أنتم تعلمون أن هناك فى الامبراطورية العثمانية حركات بلغارية وبولندية وأرمينية كما تقوم هناك حركات عربية ، أما الأتراك فقد نسوا وجودهم بتاتاً أو تناسوه إلى حد أنهم كانوا يعدلون عن ذكر جنسهم مما أدى إلى ركود الروح الوطنية بينهم حتى بتنا نتوجس خيفة من تلاشى الشعب التركى تلاشياً تاماً لذلك وتداركا لمثل هذا الخطر الداهم خف رجال تركيا الفتاة بغيرة تستحق الإعجاب إلى السلاح ، قصد إثارة الروح الوطنية وما يرافقها من الفضائل فى صفوف الأتراك » .

غير أن هذا كله كان خدعة وتمويها ، ولكن أحمد جمال مضى فى الخطة إلى غايتها فقال فى اجتماع آخر قولا أكثر مكراً فى طريق محاولة إدخال بعض الطمأنينة إلى خطته التى يكتمها ويحاول أن يخدع بها على النحو الذى يوقع الوطنيين فى الفخ . ومما قاله وردده على مايرويه عبد الرحمن شهبندر: إنه الصديق الصدوق للعرب ، وإنه لا يتنزل إلى قبول العدواة فى بلاد لا يطالب أهلها بحقوقهم القومية . إنه هو الذى فاتح سفير ألمانيا بدخول الدولة العثمانية إلى جانب الدولتين المركزتين وأنه هو الذى أصر على مصالحة فتيان العرب وعلى عقد تلك المعاهدة معهم وأرسل مدحت باشا شكرى إلى باريس لمفاوضة أعضاء المؤتمر العربى ١٩١٣ برئاسة الزهراوى وكان ذلك كله من أحط أنواع التآمر، فإنه لم يلبث قليلا حتى كشف زعماء العرب وعلقهم على المشانق متهما إياهم بأحط التهم .وقد إقترف بهذا العمل أسوأ خيانة فى التاريخ ، فيها وحدها قطع كل العلائق وأثار الحفائظ والأحقاد ، ولولاها ما استطاع ثائر من العرب أن يثور على الترك ويرفع السلاح فى وجههم ، وهو إلى ذلك لم يتورع من أن يلجأ سراً إلى إنكلترا وفرنسا ليساعداه على دك حصون الخلافة وتمزيق أوصالها هذا فضلا عن

كذب ما أذاعه جمال وزملاؤه الاتحاديون من أن موقف العرب هو سبب إنهزام دولة الخلافة وتغلب الحلفاء على ألمانيا مع أن تاريخ الحرب العامة تدل على غير ذلك تماماً . ولقد طوق الجنرال لود ندرون رئيس أركان حرب الجيش الألمانى عنق الإتحاديين بالعار حين قال فى مذكراته : « إن الحكومة التركية إستمرت على موقفها العدائى نحو الأقوام العثمانية الأخرى ومع كل ما بذلته بنفسى من الالتماس والاستعطاف ، فالترك (وهو يقصد طبعاً الاتحاديين) لم يبذلوا سعياً واحداً لصرم حبال السياسة القديمة التى سلكوها مع العرب. بل أن المارشال هندنبرج زعيم ألمانيا إبان الحرب صور ذلك بوضوح حين قال : كان فى وسع العرب الافلات بسهولة من نطاق السلطة فى الدولة العثمانية خلال حكم الاتحاديين إذ كان عليهم أن يرفعوا سلاحهم فقط ويتمشوا فى خنادقهم إلى جهة العدو ومع ذلك لم يعملوا شيئاً من هذه الأعمال ويقول الدكتور شهبندر إن هذه العصبة (أى الاتحاديين) قد تآمروا على سلامة الدولة العثمانية فساقوها رغم أنفها إلى حرب ١٩١٤ .

(٣)

هناك إجماع على فساد النظام السياسى الذى إقامه الاتحاديون ، وليس أدل على ذلك من عبارة بعض الكتاب (إن سجل السنوات العشر ١٩٠٨/١٨١٨) يبدو لأول وهلة سجلا قاتماً وإنهم لم يكونوا أكفاء لحمل الرسالة التى بذلوا أنفسهم لها وهناك إجماع على أن تفكيرهم كان مضطربا مشوشاً ، وأنهم وقعوا فى تناقض خطير ، ذلك أن فكرة الطورانية بدعوتها إلى تمجيد العنصرية التركية وإبرازها لروابط القربى بين الأتراك فى الدولة العثمانية وإخوانهم فى الجنس فى آسيا الوسطى تنقض فكرة الوحدة العثمانية التى كانت ترمى إلى توحيد الأجناس المختلفة فى أمة واحدة على أساس المساواة بين الجميع ، لقد عجزت جمعية الاتحاد والترقى عن إدرك التناقض بين الفكرتين أو أنها أدركته فاختارت سبلا غير مجدية بمحاولة التوفيق بينهما ولم تنجح هذه المحاولة إلا فى أثارة الأجناس الأخرى وخاصة العرب إلى الإعتقاد بأن معناها الوحيد هو حملهم على التخلى عن أمانيهم الفكرية العربية وأن يبيحوا لأنفسهم أن « يتتركوا » من أجل الوحدة » .

كما أخذ عليهم ما وصف بأنه خطأ فاحش وهو « إتباعهم نظام المركزية وهو نظام إستعاروه كما استعاروا كثيرا غيره من أفكارهم الرئيسية من مبادىء الثورة الفرنسية ولكنهم حين إستعاروه أغفلوا فارقا جوهريا بين حال ١٧٨٩ وحال الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ . فضلا عن أنهم « تخلوا عن مبدأ

المساواة والقوة ، ولجأوا إلى سلطتهم بأساليب كانت أحياناً إستفزازية وتدل على الحـق ، الترجيح للمصلحة التركية والاضرار باخوانهم العثمانيين وحكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للعنصر التركي ولقد كنت أود أن ننظر فى هذه الأخطاء جميعا ، وتقارن بين أعمال الاتحاديين وبين أعمال السلطان عبد الحميد ، لنعرف أيهما أصدق إيمانا بالدولة العثمانية وأيهما كان خائنها وجلادها . وحقيقة أخـرى طالما أخفاها مؤرخو الاتحاديين والسلطان عبد الحميد ، هى التمويه فى المواقف التى يتعرض فيهـا الاتحاديون للمؤاخذة فيجعلونها مبهمة أو يصيغونها فى صيغة معجمة ، والواقع الذى تكشفه هـذه الوقائع جميعاً والذى نستطيع أن نصل إليه أن « الاتحاديين » وليس السلطان عبد الحميـد هم الذين كانوا مستبدين ، ظالمين ، هم الذين ساقوا العرب إلى أشد المهانة ، وحاولوا تحطيم روحهم المعنـوية ، وإذلالهـم وتتريكهم ، وهم الذين قدموا فى السلاسل ليسلموهم إلى الاستعمار الغربى وسيطرة اليهودية العالمية .

وحقيقة أخرى هى أن المواجهة العربية والردى على التحدى إنما كان أصلا موجها إلى أحمد جمال وإلى الاتحاديين أنفسهم وليس إلى الدولة العثمانية أو الأتراك الذين كانت تجمعهم بالعـرب آصرة قوة لا تنفصم . وغاية القول أننا يجب أن نفرق فى هذه المرحلة بين عهدين : عهد السلطان عبد الحميد الذى انتهى عام ١٩٠٨ وعهد الاتحاديين الذى امتد من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ وكان مقدمة لخطوة أشـد عنفاً وقسوة وهى مرحلة الانقلاب التركى الذى قام بين مصطفى كمال فى وجه الإسلام والعروبة جميعا . وكان هذا هـو التخطيط الاستعمارى اليهودى الذى تم على مرحلتين . والمعروف أن مصطفى كمال كان عضواً فى الماسونية وعضواً فى الاتحاد والترقى ورفيقاً لقادة ما قبل الحرب (طلعت وأنور ونيازى وغيرهم) ولـكنه «حجب» لأمر ما فى الفترة الأولى ليقوم بالمرحلة الثانية . ولقد كشفت النصوص والوثائق المعلنة تبعية الاتحاديين لـكل خصوم العرب والإسلام ، ويسجل المقتطف (مارس ١٩٠٩) برقية مرسلة من الاتحاد والترقى إلى جريدة التيمس يقول : « على كل ما صدر أعظم أن يتبع سياستنا الصريحة الوداد لانكلترا طبقا لمشيئة الأمة العثمانية كلها . ونحن واثقون مع ذلك أن صداقة انكلترا القديمة العهد العظيمة المستمرة لبلادنا لا ننظر فيها إلى الأفراد بل إلى الأمة بأسرها وواثقون أيضاً أنه يمكن لحكومتنا أن تعتمد على ميل انكلترا إليها لكونها أمة صديقة لها » .

(٤)

كانت أولى خطـوات الاتحاديين فى الحكم بناء منهج سياسى وفكرى للدولة العثمانية مستمد من النظرية الغربية العلمانية جريا وراء الخطة التى رسمتها الماسونية فى الثورة الفرنسية وإلغاء المفاهيم الإسلامية واحلال مفاهيم غربية خالصة بدلا منها . ولذلك فقد سارع الاتحاديون باصدار تصريحات تقول بعزل الدين عن السياسة وقد قال أحدهم : (انه لا محل للجامعة الإسلامية فى برنامج تركيا الفتاة فضلا عن استسلامهم لبريطانيا استسلاما كاملا بعد أن أعلنوا أنها آزرتهم فى انقلابهم . وقد وصف ذلك فريد وجدى فى ذلك الوقت فأشار الى « نكران هذا الحزب للعاطفة الدينية وسعيه فى تكوين دولة مختلطة بإهمال الصبغة الإسلامية . وقد أشار كثير من الباحثين إلى خطة الاتحـاديين فى علمنة الدولة العثمانية وهى خطة أسروها وعملوا لها فى الخفاء حتى يتمكنوا من « توفير العلمنة » بأقل ما يمكن من المعارضة وبدون أن يشعر الناس أن العلمنة أمر يتعارض مع الإسلام » . وقد جاءت « الحـركة العلمانية فى تركيا تقليـداً للحركة العلمانية فى أوربا ، وقد كانت تستهدف أساسـا علمنة « التربية والقضاء » كما عمدوا إلى تخطى العصر الإسلامى والذهاب إلى أبعد مدى فى الجاهلية الأولى ، وهى نفس الخطة التى وضعها النفوذ الأجنبى والتبشير والماسونية فى مصر ولبنان وغيرها . وكما ارتبطت دعوة الاتحاديين بالعلمانية والنظريات الغربية ، فقد ارتبطت بقبول الاستعمار الغربى الذى سيطر على بعض البلاد العربية كاقرار الاحتلال البريطانى فى مصر وهـو ما كان رأى خريجى الإرساليـات التبشيرية أمثال الدكتور شبلى شميل داعية النظرية المادية والذى كان فى نفس الوقت ممالئاً للاحتلال البريطانى .

(٥)

فتحت الأبواب بعد سقوط عبد الحميد لكل الأفـكار ولكل الدعوات للمعارضة للوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية والإسلام نفسه ، وأتيحت الفرصة لـكل الغلاة ولخصوم العرب والإسلام فى أن يذيعوا كل ما من شأنه أن يحقق للاستعمار الغربى واليهودية العالمية مطامعها وأهدافها . وخرجت جماعات خريجى الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية لتسيطر على الفكر عن طريق عـدد من الصحف : فى مقدمتها اقدام وترجمان وجون ترك وحقيقة .

وكانت الإرساليات التبشيرية فى الآستانة قد تركزت منذ القرن السابع عشر عندما سمح للبعثات

الكاثوليكية بالإقامة فى أراضى الدور العثمانية ثم تعددت فأصبحت هناك إرساليات الأمريكيين والإنجليز واليسوعيين والعازارين والبروتستانت وكانت هذه للمدارس كلها متمثلة بالحرية فى بث مناهجها . وكان هؤلاء الذين قادوا الفكر التركى يصدرون من مفاهيم التبشير والماسونية ، وهى ترفض الدين رفضاً أساسياً وتعتقد أنه مصدر التأخر ، وأن الإسلام هو مصدر تأخر الدولة العثمانية ، ولم يكونوا قد تبينوا حقيقة ما يرددون أو ما ألقى إليهم ، ولو بحثوا لعلموا أن الدين بمفهوم الإسلام لا يكون مصدر تأخر وأن مصدر التأخر هو ما كانوا يطبقونه وأن أسلوب العمل الأمثل ليس هو رفض الإسلام بل تطبيقه على أصوله الصحيحه . وكان هذا هو الغزو الحقيقى للدولة العثمانية . والعرب والمسلمين منطلقاً من فلسفة واضحة مرسومة تنفذها الارساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وكلها تنضح بالكراهية والحقد على الاسلام والعرب وهدفها القضاء على دولة الاسلام الكبرى وإلغاء الخلافة وتمزيق الدولة العثمانية وابتلاعها واستعادة ما أحرزه محمد الفاتح والانتقام من سيطرة الدولة العثمانية على أوربا . كانوا يربطون أنفسهم بالثورة الفرنسية التى صورت لهم على أنها أعظم حدث فى العصر الحديث واتجهوا إلى الفلسفات الغربية فاعتنقوها حتى كان أمثال أحمد رضا تلميذ أوجست كونت يرفض أن يذكر اسم الله فى القسم وقد بلغ ذلك إلى الحد أن هانوتو قال : إن تركيا الفتاة من اللغة الفرنساوية .

ومن هنا يمكن القول أن كل هذا الاضطراب الفكرى والسياسى الذى حدث وكان على حساب العرب والترك إنما كان نتيجة الإرساليات والماسونية ، وأن أعلاماً كباراً لمعت أسماؤهم هنا وهناك كانوا ضحية خدعة كبرى دبرت لهم ووضع لهم مظهر براق أغشى العيون وسيطر على العقول والقلوب . وكان ذلك كله فى غيبة مفاهيم الإسلام وقيمه التى كانت قد ضعفت فى هذه المرحلة ضعفاً شديداً ، مما أغرى القيم الغربية لخدمة الاستعمار واليهودية العالمية بالسيطرة وقيادة الموقف كله . ولم يكن ذلك التحول هو نهاية المطاف فى أمر العرب والترك ولكنه كان مقدمة لمرحلة أشد خطورة بعد الحرب العالمية الأولى .

(٦)

واجه العرب خطورة الاتحاديين فى قوة وكتبت الصحف تكشف مخططاتهم وكان فى مقدمة الكتاب السيد رشيد رضا فى مجلة المنار وكان هو قد سافر إلى استانبول فأقام عاما كاملا إبان حكم الاتحاديين وفهم أن خطة تتريك العناصر العربية هى عمل ماض لا يتوقف : « وأنهم لا يرجعون عنه

وأنهم جازمون بسهولة تتريك بلاد سوريا والعراق فى ضنين مفردة وما يعسر تتريكه الآن فى جزيرة العرب يعد من المستعمرات التى يوضع لها قانون خاص لإدارتها » وقال إنهم : أرسلوا طائفة من طلبة الترك إلى أوربا من أجل دراسة قوانين الاستعمار » . وأشار إلى موقف العرب أمام التحدى وبرر اتجاههم للعمل فى مجال العروبة وقال : ما أعاد العرب إلى العصبية بعد أن أبعدهم الإسلام عنها إلا الاتحاديون بباعث العصبية التركية . فقد بعث الاتحاديون بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب تأثير العصبية العربية وأحيوها بعد موتها . قال : لقد أزال الإسلام من نفس العرب عصبية الجنسية وما غلبت عليهم البداوة إلا بما توارثوه من الغرائز والأخلاق لا يخضعون إلا لسلطة رؤسائهم . وقال إن العرب أبقوا الشقاق بينهم وبين الترك حتى لا يقضى ذلك إلى زوال الدولة واستيلاء الأجانب عليها ، أما وقد وقع الأمر من قبل الاتحاديين فلا مفر لاتقانه وقد حصل ، وخلفه المقتضى لاحياء هذه الجنسية وهو وجوب المحافظة على اللغة العربية والأمة شرعا .

وأشار إلى خطة الاتحاديين فى تسليم طرابلس الغرب وبرقة إلى الايطاليين ، فضلا على عقد الاتفاق بينهم وبين الدول الكبرى على الاعتراف لها بالنفوذ الاقتصادى فى أعظم الولايات العربية ليقرضها عشرات الملايين من الجنيهات . وأشار إلى أن الاتحاديين وضعوا الدولة فى الأحكام العسكرية العرفية ، وجعلوا من ذلك وسيلة التنكيل بالعرب والأرمن حسب خطتهم المقررة منذ سنين فصلبوا فى سوريا جميع من عرفوا من المطالبين بالإصلاح من تابعى العرب ونفوا من البلاد أرباب البيوتات وصادروا أموال الناس وفعلوا مثل ذلك فى العراق ثم تحرشوا بالحجاز » اهـ .

(٧)

وكان هناك مفهومان للعروبة فى علاقة العرب بالدولة العثمانية (الأول) مفهوم لبنانى يقوم على ذلك الشعور الذى نماه الاستعمار والإرساليات فى نفوس غير المسلمين بالخوف من أى وحدة إسلامية أو عربية وهو ما يدعو أساسا إلى إقامة كيان خاص فى لبنان بعيد عن أى تجمع يجعل للمسيحيين أقلية . هذا المفهوم هو مفهوم اللبنانية ، الخاصة الذى يحمل معه تاريخ العرب قبل الإسلام ويحاول أن يعلى من شأن الفينيقيين ودورهم التاريخى وقد اتخذ من اللغة العربية سلاحا ومن العروبة مظهراً حتى يجمع إليه بعض الطوائف الاسلامية كالدروز وغيرهم . وتقوم فلسفة هذا الاتجاه على المفهوم العثمانى الخالص الذى يرفض كل ما يتصل بالإسلام أو تاريخه أو قيمه فى نظام المجتمع أو الحكم أو غيره وهذا هو ما اتسع نطاقه من بعد ذلك تحت إلحاح الارساليات التبشيرية والمحافل الماسونية حتى أصبح

مفهوم القومية العربية التى أريد لها أن تشمل العالم العربى كله وتقضى على المفهوم العربى الأصيل ذى الجذور الاسلامية الأساسية والمفتوح على الشعوب المرتبطة بالفكر الاسلامى . ولقد كانت هذه الدعوة المنبعثة من وضع لبنان الخاص وظروفه وتحدياته قد أريد لها تحت النفوذ الاستعمارى الثقافى أن تعمم وتشيع وتذاع حتى قامت على مفهومها أحزاب ودعوات حمل لواءها غير المسلمين وعملت على أن تسيطر على العالم العربى كله ولا تقف عند لبنان وحدها . وكان من وراء هذا المفهوم النفوذ الاستعمارى الذى كان يخشى مفهوم العروبة الأصيل .

(الثانى) هو مفهوم العروبة المستمد من التحديات التى واجهها العرب بعد اتساع نطاق الحركة الطورانية وتحـــدياتها إزاء العرب ولغتهم وتاريخهم والتى وصلت إلى أسوأ مظاهرها على أيدى الاتحاديين بتعليق الدعاة إلى العروبة على المشانق وقتلهم فى ساحات بيروت ودمشق عام ١٩١٥ و ١٩١٦ . وهذا المفهوم بدأ أساساً فى دمشق على أيدى طاهر الجزائرى ومحب الدين الخطيب ومعهم كثيرون وكأن هذه الحلقات قد تشكلت فعلا فى خلال حكم الاتحاديين وبدأت تخطو فى ظل حركة اليقظة الاسلامية العربية التى كانت قد بدأت فعلا قبل ذلك وحملت لواءها جماعات كثيرة كالموحدين الوهابيين فى الجزيرة العربية والسنوسية فى طرابلس الغرب والمهدية فى السودان وجمال الدين ومحمد عبده فى مصر . وكانت بشهادة مؤرخيها تركز على اللغة العربية وتؤكد دور العرب فى التاريخ مرتبطاً بالاسلام وبالدولة العثمانيه . وقد أشار السيد محب الدين الخطيب والأمير شكيب أرسلان وعبد العزيز الدورى إلى أن هذه الحلقات كانت تدعو إلى دراسة تاريخ العرب وقواعد العربية وآدابها وتهدف الى بعث العروبة من خمولها . وكان ذلك عملا ضرورياً فى مواجهة حملات التشكيك التى قامت بها الارساليات الأجنبية بالاضافة الى ما اندفع اليه الاتحاديون من تتريك العرب والقضاء على اللغة العربية . وقد كان مفهوم العروبة هذا فى الحقيقة هو نقطة البدأ الحقيقية للوحدة العربية الحديثة وان كل ماسبق ذلك من دعوات ومحاولات حملت اسم العروبة أو اللغة العربية وخاصة ما عرف فى بيروت وبدأ من المدرسة الانجيلية السورية لم يكن يمثل مطلقاً اتجاهاً عربياً أصيلا .

وانما كان دعوة الى اقامة الـكيان اللبنانى بعيداً عن الدولة العثمانية والعروبة جميعاً وقد اتخذ اسم العروبة والحديث عن اللغة العربية « غطاءاً » يغرى به بعض المسلمين وخاصة من كان منهم متصلا بالمحافل الماسونية . وكان ذلك مقدمة لابراز نظرية للعروبة موالية للغرب ، تستمد مقوماتها

من أصول غربية وتنعزل تماماً عن مفهوم العروبة الأصيل ذى الجذور الإسلامية . أما الدعوة إلى الكيان اللبنانى فذلك أمر له طبيعته وظروفه وواقعه التاريخى الذى بدأ منذ عام ١٨٦٠ ومضى فى طريقه إلى اليوم . هذه النظرية التى أقامتها الإرساليات والقوى التغريبية والمستشرقين والماسونية ، وقصد بها أول الأمر لبنان ذاته ، من الخطر ومن الاستهانة بالفكر العربى الإسلامى كله أن تفرض وتعمم ويحاول بعض معتنقيها من ذوى الولاء الغربى أن يفرضوها نظرية عامة للعروبة تأخذ بها الأمة العربية كلها . وقد أشار فيليب حتى إلى موقف لبنان من العروبة فقال : أما النصارى فى لبنان فانهم كانوا يؤثرون القومية اللبنانية بالرغم من أن أعداداً قليلة من المفكرين كانوا يظاهرون العروبة .

وهنا يبدو ذلك المنحنى الخطير بين تيارين يواجهان العروبة فى ذلك الوقت الباكر — خلال حكم الاتحاديين وقبل وأثناء الحرب العالمية الأولى — هو محاولة الدعوة الطورانية التى ترمى إلى أن تزيل عن العرب وجودهم الفكرى واللغوى والتاريخى ، ثم محاولة الدعوة اللبنانية المنبعثة من الارساليات والمحافل الماسونية التى تهدف أن تزيل عن العرب ترابطهم مع قيمهم الأساسية التى أقامها الاسلام والقرآن والفكر الاسلامى وأن تضعهم فى قالب من نظرية غربية فى القومية فرضتها ظروف وتحديات فى أوربا لاتتصل بالعرب بسبب ، ويختلف موقفنا منها تماماً فالعرب قد قبلوا بالعروبة إزاء تحديات الاتحاديين ودعوتهم الطورانية وكانت الحركة العربية أساساً منبعثة من دمشق لا من بيروت ، وقد بدأت بعد ظهور الحركة الطورانية لاقبلها ، واقتصرت على الشام والعراق والجزيرة العربية وكانت فى آخر مراحلها خلال الحرب تتطلع إلى دولة تضم هذه الأجزاء وهو مالم يتحقق ، فالعروبة التى قامت فى سوريا العربية منفصلة تماما عن الدعوة اللبنانية التى أرادت أن تقيم كياناً لبنانياً معبراً عن مختلف تيارات الجامعة الاسلامية أو العروبة التى تشمل أكثر من دولة . وكانت هذه الدعوة اللبنانية دعوة ضرورة تمليها ظروف هذا الجزء وتاريخه وكانت امتداداً لوضع فرضه النفوذ الغربى عليه منذ ١٨٦٠ حين عزله عن الشام وعن الدولة العثمانية وعن سوريا وأراده منطلقا لمخطط واسع المدى فى وجه وحـــدة العروبة والاسلام . فليست الدعوة اللبنانية إلا ضرورة لظروفه الخاصة ، أما محاولة فرض هذا المفهوم على « العروبة » نفسها فإنه ليس طبيعياً ولا يتفق مع مفاهيم وثقافة ومقومات المجتمع كله الذى يقوم فى أغلبه على الاسلام وترتبط فيه اللغة العربية بالقرآن ارتباطا وثيقا .

ولقد كان الخطأ الوحيد والمقصود هو تفريغ العروبة من مقوماتها التاريخية والثقافة والعقائدية

وجعلها مفهوما وافداً خالص الاستمداد من النظرية الأوربية للقوميات والتى تقوم أساس العلمانية فى القانون والتربية والتى تفصل بين الدين والمجتمع . لقد كان لأوربا ظروفها الخاصة فى هذا الصدد . بل إن القومية نفسها فى أوربا إنما قامت على أساس إزاحة الكيان الموحد الذى أقامته الكنيسة الكاثوليكية . لقد بدأت القومية فى أوربا فى مواجهة الكنيسة ، وكانت نظريات الأجناس والعروق هى الدعوة التى أريد إحلالها محل الروابط الدينية ومن هنا بدأ ذلك الصراع بين الأديان والعروق وقد جعلت اللغة منطلقها . والدعاة إلى القوميات : مبادئها وحقوقها كانوا فى الأغلب من أتباع اليهودية العالمية والماسونية وفى مقدمتهم ماكس نوردو الذى استشهد به (ساطع الحصرى) ووصفه بأنه المفكر الألمانى الشهير وحاول أن يخفى حقيقته كفيلسوف يهودى وما استتبع ذلك من اختياره خليفة لهرتزل فى حمل لواء الصهيونية بعد وفاة صاحب كتاب الدولة اليهودية عام ١٩٠٤ . ولقد غلا نوردو فى تقديس القومية حين قال : إن الذين فقدوا البصيرة هم وحدهم الذين يزعمون أن أن الفكرة القومية هى من الآراء الطارئة التى لا تلبث أن تندثر . إن الوعى القومى من الأمور التى تحدث بالضرورة وبصورة طبيعية فى مرحلة معينة من التطور البشرى فى الأفراد وفى الجماهير إنها من الظواهر والحوادث الضيقة التى لا يمكن تأخيرها ولا سيما منعها مثل حوادث الجزر والمد فى البحر وحرارة الشمس فى موسم الصيف » . ولقد تعددت فى أوربا نظريات القومية ، فأقامها (فختة) على أساس وحدة اللغة وأقامها (أرنست رينان) على أساس المشيئة وأقامها (ستالين على وحده الأرض واللغة والثقافة والاقتصاد وقد طرحت هذه النظريات فى العالم الاسلامى دون تقدير للفوارق الفكرية والاجتماعية بين أوربا وبين العالم الاسلامى فقد كان الغربيون قد حددوا موقفهم من الكنيسة بعد الثورة الفرنسية ، وعزلوها عن مجال التأثير السياسى والقومى وكان ذلك مقدمة لبروز القوميات لتخلق الصراع بين الأمم والدول ، مما يمكن لليهودية العالمية من السيطرة على كل أمة على حدة . وبما يقضى على النفوذ الدينى المسيحى الذى حاولت القوميات استبداله بعلمانية القانون والتربية . ولذلك فلم يقع هناك من الخلاف فى شأن مفهوم القومية ما وقع فى العالم الاسلامى .

ولقد أشار الباحثون إلى عدم تقييد القوميات فى البلاد الأوربية بالأديان والمذاهب إنما كان نتيجة طبيعية لتعاليم الانجيل التى تفرض فصل الدين عن الدولة ، وفق القاعدة التى تقول : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، أما فى الاسلام فإن ما لقيصر هو لله أيضاً ، وأن العمل بمبدأ فصل الدين عن الدولة بصورة فعلية لم ينتشر فى أوربا إلا بعد أن تقرر مبدأ حرية الاعتقاد بصورة نهائية بعد سلسلة طويلة من الأحداث الدامية والحروب الطاحنة والتطورات الفكرية والاجتماعية الخطيرة .

ولقد كانت طبيعة التركيب الاجتماعى والسياسى للعالم الإسلامى تتعارض مع تصور القومية على المفهوم الأوربى ، لذلك لم يتغلغل فى نفوس الشعوب الآسيوية والأفريقية وكان الاستعمار الغربى هو الذى بشر بها وأراد بها تمزيق وحدة العالم الإسلامى وضرب الأجناس والعناصر والعروق بعضها ببعض كوسيلة لإقرار نفوذه الذى يتعذر بقاؤه فى ظل الوحدة الشاملة ، وفى مجال الأمة العربية كذلك نشر مفهوم الأقليات الضيقة حتى يحول دون تجمعها . ولا شك أن مسألة العلاقة بين الدين والسياسة فى البلاد الإسلامية أمر جوهرى وجذرى وحاسم ولا سبيل إلى إقرار مفهوم القومية الغربية فيه ، فضلا عن أن كل أمة من شأنها أن تشكل مفاهيمها إزاء القضايا التى يطرحها الفكر الغربى من واقعه ومن مصادره الذاتية . وليس صحيحاً مايردده ساطع الحصرى حين يقول (إن الخلط بين الدين والسياسة استمر فى البلاد الإسلاميه) فهو تعبير يدل على غفلة واضحه لحقائق أساسيه فى الفكر الإسلامى لا يجوز أن يتجاهلها الفكر عربى مسلم ، ولكن ساطع الحصرى كان امتداداً لمفهوم الانحاديين فى القومية المستمد من الفكر الغربى . لقد كان ذلك مبدأ الصراع فى الدولة العثمانية والعالم الإسلامى ، بين الجنسيات والأديان ، وخاصة بين أصحاب الدين الواحد : « الترك والعرب والفرس » وأخذت الدعوات تتصارع بين ثلاث محاور : الجامعه الإسلاميه والعروبة والأقليات . ولقد كانت دعوات العروبة والاقليميات فى أساسها محاولة لخلق ذلك الصراع التى يمزق الجماعة فلا يلتئم شملها أبداً . لقد كانت دعوة القوميات القائمة على الأجناس والدماء والأعراق قد شنها اليهود فى أوربا من أجل القضاء على وحدة الكنيسة فى أوربا وإثارة الصراع بين الأمم جميعاً ، ثم لقد نقلوها إلى العالم الإسلامى من أجل تمزيق وحدة فكر المسلمين والعرب . ولقد قال جان نيتو : إن نظرية الأجناس ستحتل مكاناً هاماً فى تاريخ أضاليل الفكر البشرى . ولقد أشار فيليب حتى إن دعوة القومية التى طرحت فى العالم الإسلامى مستوحاة من الفكر السياسى الفرنسى ولا سيما ذلك الفكر الذى تجسد فى الثورة الفرنسية . وفى مبادىء الحكم فى الجمهورية الثالثة ، ولا شك أن نظرية القوميات بصورتها هذه كانت مخالفة لمفهوم الإسلام .

لقد تقرر ذلك حتى يقول فيليب حتى : « إن الإسلام لا يعترف بحواجز جغرافية وفوارق طبيعية والإسلام دين شامل فى نظرته ودولى فوق الدول والتوكيد فى الإسلام قائم على القيم الروحية التى تربط بين المسلمين لا على المسائل الاقتصادية » . ولكن ولاء المرء لدينه قبل كل شىء . ولقد أشار (حتى) إلى مفهوم القومية فى الغرب وكيف أنه لا يمكن أن يكون مقبولا فى العالم الإسلامى ، حين أشار إلى أن القوميه الحديثة فى نظر أهلها « أشد رسوخاً فى نفوس معتنقيها من ولائهم لدينهم » وقوله « إن

القومية الحديثة لا تستطيع العيش إلا فى جو علمانى » . وإن هذا الضرب من القومية فى شكلها المتطرف فى الغلو يصبح بذاته دينا يعتنقه الناس » . ويعلق (حتى) على ذلك فيقول : ولهذا السبب فإن الروح القومية كحركة واعيه ذات أهداف معينة لم تنجح فى العالم العربى ولم تنتشر فيه إلا بعد الحرب العالمية الأولى . والمعروف أن أوربا قاومت الكنيسة والمسيحية بعد أن وقفتا فى وجه النهضة العلمانية أما الإسلام فليس كذلك بل هو مبدع المنهج العلمى التجريبي . والواضح أن الكنيسة حاولت أن تحكم فى الغرب وأقامت الدولة الثيوقراطية ، ولكن الإسلام لم يعرف حكومة رجال الدين ، وليس فيه رجال دين أصلا ، لهم نفوذ أو مؤسسة تفرض إرادتها . ومن هنا فإن اختلافا بعيداً بين موقف أوربا وموقف العالم الإسلامى من القوميات ومن الأديان على السواء ، ولقد كان الإسلام منذ نزوله قائماً على الترابط بين العقيدة والشريعة ، وبين الدين والمجتمع ، ولقد نهى الإسلام عن تعصب الجنسيات والعروق وإعلائها وأعلى من شأن الأخاء الإنسانى العام . وهناك وجه آخر من أوجه الاختلاف بين مفهوم الجنسيه فى العالم الإسلامى وفى الغرب ، فالقومية فى نظر الشعوب الغربية ضيقة شرسة متعصبة مفرطة بالتعصب مغلقة نحو الإنسانية ، تشيع فيها روح الاحتقار الشديد بين مختلف القوميات الغربية بعضها تجاه البعض الآخر » فهى تتضارب وتتصارع ولا تلتئم بينما فى ضوء القرآن وقيمه ومفاهيمه . فهى جنسيات مفتوحة ترتبط بوحدة فكر تعلو على رابطة الدماء والأعراق . ولقد علت روح العنصرية فى القوميات الغربية بما لم تستطع روح المسيحية أن تحد منها أو تلطفها ، ذلك لأن المفاهيم الوثنية التى غلبت على الفكر الغربى والحضارة الغربية حتى حدت من طابع المسيحية الإنسانى .

ولقد كانت الروح الغربية أساساً متعصبة وغير متسامحه ، فلما جاءت المسيحية حاولت أن تصلحها ، غير أنها لم تستطع ذلك ، ومن هنا علت فى أوربا صيحات الأجناس : واستعلاء الجنس السامى على الجنس الآرى ، وفكرة شعب الله المختار عند اليهود وفكرة ألمانيا فوق الجميع عند الجرمان ولقد أخذ الغربيون هذه المفاهيم من اليونان القدامى الذين يقول فيلسوفهم الكبير ارسطو (الحمد لله الذى جعلنى يونانيا لا بربريا) وعن اليونان برزت تعبيرات (الوطنية ، والعصبيه الجنسيه) ثم أخذتها القوميات الغربيه وطبعتها بطابع التعصب ضد القوميات الأخرى ، ومن ثم قامت المذابح والمعارك الدموية واتسمت بالقداسه والقوميه ، ومثل هذا لا تجده فى مفاهيم المسلمين والعرب ، ولا تتقبله فكرة العروبة ولا ترضاها النفس العربية . وهناك من الآراء ما يحاول أن يشكف عن أن اليهوديه التى تغلغلت فى الفكر العربى وسيطرت عليه هى التى أرادت بتعميق القوميات فى الغرب القضاء على

روح المسيحية الموحد الجامع وأن اليهودية أفادت بذلك الصراع بين القوميات السيطرة عليها جميعا وضربها بعضها ببعض لتكون هي المسيطرة عليها .

(٨)

دعاة الطورانية

كان أبرز دعاة الحركة الطورانية في الدولة العثمانية مهاجرون من الروس ، هم الذين حملوا لواء هذه الدعوة في مقدمتهم اقشورا أوغلي يوسف وأحمد أغاييف وأبرزهم : ضيا آل كوكب الب . وكان الب تلميذاً مخلصا لدوركيم ، يرى أنه ينبغي على تركيا أن تقتبس من المدينة الغربية على أن تحتفظ بشخصيتها القومية دون اهتمام بالإسلام وحضارته . وكان يتردد بين آراء دوركيم الاجتماعية وفلسفة برجسون الروحية . وقد ظهر في « جو » تحرك الاتحاديين الواضح نحو الغرب حيث أغرق الفكر التركي الإسلامي بسيل من ترجمات الماديين في القرن التاسع عشر : وفي مقدمتهم بخنر وأرنست هيكل وكثرت المناقشات حول آراء فولتير وروسو وكان الاتحاديون بلا استثناء من العلمانية اللادينيين الذين نضجوا في المحافل الماسونية أو معاهد الإرساليات التبشيرية . وكان هو من أول المنادين بالطورانية كأسلوب للجامعة التركية أو القومية التركية وذلك في تحدى واسع للبلاد العربية وغيرها من الأمم المرتبط بالدولة العثمانية .

وقد نادى بأن تكون لغة الأستانة العاميه هي اللغه العامة بين جميع الأتراك في الشرق والغرب كي تتأسس بين عامه الأتراك وحدة أدبيه وبدأت الصحف في قازان وباكو تصدر بلغه الآستانه . ومن جماع هذه الآراء يبدو أثر التبعيه الواضح في فكر الب واتجاهاته ، فيعطي صورة لما كان النفوذ الاستعماري يدعو إليه في مصر وغيرها ويحمل لوائه ويلكوكس ولطفي السيد وطه حسين وسلامه موسى وغيرهم . ويمكن أن يقال أن آراءه كانت الإرهاصات التي حققتها حركة الاتحاديين الكبرى بعد الحرب بقيادة مصطفى كمال ، فقد دعا إلى إلغاء المشيخه الاسلامية والمحاكم الشرعيه وإلغاء المعاهد الدينيه العلميه وتأسيس مدرسه الالهيات في الجامعه ودعا إلى استقلال الخلافه وفصلها عن السلطنة وعرفها بأنها الأمامة الكبرى ، وبأنها رئاسة جميع الأئمه الذين يصلون بالمسلمين في جميع أنحاء عالم الاسلام وهذا لا شك مفهوم غربي كنسي ، لا يدل على فهم حقيقي للإسلام من حيث أنه دين ودولة ونظام مجتمع كامل . وقد قبع في سالونيك بعد الانقلاب العثماني وأصدر مجلته المسماة (كنج قليمر)

أى الأقلام الفتية وعاد إلى استانبول عقب نشوب حرب البلقان وعين مدرسا بجامعة استانبول حيث قام بدور خطير فى تنظيم الجامعة على نظام الجامعات الأوربية وأصدر ديوانين من الشعر عرض فيهما آراءه الخاصة فى المجتمع التركى وفى نهاية الحرب العالمية الأولى نفى إلى جزيرة مالطة ، وبعد الانقلاب الكمالى عين رئيساً للجنة التأليف والترجمة بوزارة المعارف التركية وأصدر مؤلفاته : تاريخ التمدن التركى ، الضوء الذهبي ، وأسس القومية التركية ويعد الب : الأستاذ والمرشد والموجة للأستاذ ساطع الحصرى الذى تتلمذ عليه خلال هذه المدة فى الآستانة وسالونيك ، والمعروف أن ساطع الحصرى كان من أقطاب الاتحاديين وقد تولى بعد الحرب عدة وظائف فى التعليم وقد نقل خطط وأفكار وفلسفة كوك الب فى القومية التركية الطورانية إلى دراساته التى كتبها عن القومية العربية ويعد كوك الب أول من قال أن المسلمين ليسوا أمة ، لأن الأمة تعرف بلغتها الواحدة . ومن تلاميذه فؤاد كوبرلى أحد الثلاثة الذين أسسوا الحزب الديمقراطى فى تركيا .

ولا شك أن كوك الب كان وراء هذه المدرسة الفلسفة الجديدة التى قادها مصطفى كمال ونقل بها الترك نقلا كاملا من الفكر الإسلامى إلى الفكر الغربى . وقد كانت التيارات الغربية خلال السنوات العشرة التى تعد مرحلة الانتقال من الجامعة الإسلامية إلى الجامعة الطورانية الممتدة ، حافلة بالتيارات الغربية الضاغطة إلى الحد الذى كان يصعب على أى صوت من أصوات الفكر الإسلامى أن يرتفع أو يعلو ، أو يكشف الحقائق أو يصحح الأخطاء . فقد اندفعت الأقلام فى الاتجاه الغربى المادى اللادينى إلى أبعد حد وذلك من أجل إذابة تلك الآثار الإسلامية التى ارتبطت بها العقلية التركية لتحريرها منها نهائياً .

(٢٢)

الاقليميات الضيقة

فى نفس الوقت الذى كانت الدولة الدولة العثمانية تتقسمها الطورانية فى تركيا ، والاقليمية فى لبنان ، كانت هناك الإقليمية المصرية ذات الطابع الفرعونى فلقد وزعت الدعوة إلى الإقليميات الثلاثة فى وقت واحد كبديل للجامعة الإسلامية والرابطة العربية الإسلامية واختير لها هذه الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ، أو السنوات العشر التى تمتد من ١٩٠٧ فى مصر و ١٩٠٩ فى بيروت واستانبول والتى أفضت إلى هدفها المرسوم بعد الحرب العالمية الأولى فغيرت العقلية العربية

الإسلامية ودفعتها نحو تبنى الانفصال والتمزق بين العروبة والإسلام بعد أن سقطت الدولة العثمانية التى كانت بمثابة الكيان الجامع للعرب والترك. والإقليميات الثلاثة كانت تقوم على أسس ثلاث: (أولا) النظرة القائمة على الإجناس والدماء والأعراق الغالية فى الجنسية، المخاصمة للأجناس الأخرى المحتقرة لها، المعلية لأجناسها إلى أبعد الحدود وإلى ما تكذبه وقائع التاريخ. (ثانياً) العمل على تخطى أربعة عشر قرناً من الإسلام والعروبة لمعاودة الاتصال بتاريخ قديم بائد من طورانية، أو غسان أو فرعون مع أن الإسلام قد أزال كل آثار هذه الحضارات القديمة التى لم يبق لها كيان يمكن إعادته فضلا عن تعارضها تعارضاً كاملا مع دعوة التوحيد. (ثالثا) كانت هذه الدعوات جميعها فى الواقع المعاصر ترتبط بالفكر الغربى الليبرالى، القائم نظريات زائفة عن الثورة الفرنسية ومفاهيم مغلوطة عن الحرية والديمقراطية والقومية تستمد وجودها من واقع الغرب المختلف تاريخياً وعقائدياً عن واقع العالم الإسلامى.

ويكاد يرى الباحث المؤرخ أن الدعوة إلى الإقليميات الضيقة ظهرت كلها فى وقت واحد استهدفت إعداد العالم الإسلامى وخاصه ما كان منه فى نطاق الدولة العثمانية إلى مرحلة جديدة هى نهاية المؤامرة الكبرى التى بدأت بعزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ والتى انتهت ١٩١٨ بسقوط الدولة العثمانية وتمزقها والتى جاءت عام ١٩٢٤ بإلغاء الخلافة الإسلامية وكانت فترة ما بين عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ هى فترة خلق هذا البديل الذى طرح فى آفاق الفكر الإسلامى تركيا ومصر وبيروت على ثلاث دعوات إقليمية مختلفة الطوابع والمناهج، بينما كانت الدعوة إلى العروبة فى سوريا تمثل كياناً جغرافياً محدداً وتمثل طابعاً إقليمياً أيضاً فى الصراع مع الطورانية والأتراك ولم تكن ذات مفهوم قومى صريح أو شامل. كان الهدف هو إحلال بديل إقليمى أو قومى محل دعوة الجامعة الإسلامية أو الرابطة العربية التركية التى استهدفها النفوذ الأجنبي. ولما كانت مصر قد سقطت فى براثن الاستعمار منذ وقت مبكر فقد أعدت لكى تكون البوتقة التى صيغت منها كل الأفكار والدعوات والمفاهيم والتى عقدت أواصر التلاقى والإرسال بينها وبين مركز آخر أقيم فى بيروت. ففى بيروت تركزت الإرساليات التبشيرية وعملت لتخرج أولى ثمارها، ومصر كانت البيئة الصالحة لكى يحمل هؤلاء الخريجيون أضخم رسالة وهى رسالة الصحافة والثقافة. وقد كان صروف ونمر وشبلى شميل وغيرهم من أوائل الخريجيين فى معاهد الإرساليات وهم الذين حملوا لواء الصحافة فى مصر ورفعوا شعارات الفكر الغربى من إقليمية وقومية وليبرالية وحولوا ما كانت المحافل الماسونية تقرره كأصول

لدعوتها ، وما كانت المعاهد التبشيرية تدرسه كمناهج جديدة لصياغة الفكر العربي على أساسها . وإعداد أبناء اللغة العربية لتقبله ، وكان هذا هو الشطر الثاني للخطة التي تنفذ في سالونيك واستانبول داخل الدولة العثمانية على هذا النحو وبينما كانت تحمل هذه المخططات التي أعدتها الماسونية وإرساليات التبشير دعوات الفينيقية والفرعونية وإحياء التاريخ القديم البائد السابق للإسلام كانت هذه المخططات نفسها تحمل في داخل الدولة العثمانية دعوة الطورانية وإحياء مجد جنكيزخان وهولاكو . ومن هنا كانت الخطة موحدة في الحقيقة على مستوى الدولة العثمانية كلها والبلاد العربية جزء منها ، لرسم مخطط طويل المدى بدأ تطبيقه فعلا بعد الحرب مباشرة واستهدف قيام كيان غريب في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودي ، وبه حققت اليهودية العالمية أقوى أهدافها التي بدأتها منذ الثورة الفرنسية وأعدت لها في دقة وأحكام طوال أكثر من سبعين عاماً . وفي مصر كان اللورد كرومر في الحقيقة هو قائد هذه الدعوات التغريبية ، وهو أكبر عدو مقاتل في وجه الجامعة الإسلامية ، ولذلك فقد مضى في خطوتين واسعتين :

(أولا) إتاحة الفرصة لخريجي الإرساليات التبشيرية في بيروت بالقدوم إلى مصر والسيطرة على الصحافة : وكان بعضها قد سبق الاحتلال البريطاني كالأهرام ، غير أنه بعد الاحتلال أمكن التركيز والإعداد لغزو البلاد العربية كلها من مصر عن طريق الصحافة . ويمكن القول أن معظم الشخصيات التي عملت في هذا الميدان قبل الاحتلال وبعضه عليها ظل من الشبهة ويحيط بها غموض وشكوك في مقدمة هؤلاء : أديب إسحق وسليم عنحوري ولويس صابونجي ، ثم جاء دور أصحاب المقطم ومعهم سليم سركيس وجورجي زيدان وشبلي شميل وكان لهؤلاء ولاء واضح في مختلف كتاباتهم للاستعمار وكانت دعواتهم إلى التحرر دعوة مشبوهة لأنها كانت تستهدف اقتلاع العرب والمسلمين من جذورهم واحتوائهم كلية في ولاء فكري وسياسي إلى الغرب المستعمر . وقد أشار إلى هذه الشبهة رجل لا يشك أحد في ولائه لهم هو أنيس صايغ . الذي يقول : « لم تهتم أكثرية السوريين في مصر بالعمل في سبيل عقيدة سياسية معينة بقدر ما أهتمت بالسعي وراء الرزق ومنافسة المصريين ومسابقتهم على مصدر اللقمة ومعاونة الأجانب عليهم ومهاجمتهم وهم في صراعهم القومي .

* ولذلك وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم « منحة من السماء » وأنهم « خيرة البلاد » ووصل بعضهم إلى أعلى المراكز الإدارية وبلغ عددهم في أواخر القرن الماضي ثلاثين ألفاً ، وكان معظم المحاسبين والتراجمة منهم ، ومنهم من اشتغل في الربا .

* وأشار إلى صحيفتى المقتطف والمقطم اللتين أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس فقال : « كانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما فى لفظى تأييد ومهاجمة من معان ، وكتب هؤلاء الثلاثة يدافعون عن حق الانكليز بمصر ويصفون حسنات الاستعمار ويمجدون أبطاله . ويطالبون باستمراره ويدعون أهل مصر إلى الرضوخ إليه لأنه يحميهم من داء الوطنية ! . ولم تمر بمصر حادثة واحدة إلا وقفوا منها موقفاً معارضاً لأمانى الشعب ، فطلبوا سجن الأحرار وعارضوا توظيف الوطنيين ، بل إنهم رحبوا بإعدام الأبرياء أثر حادثة دنشواى وكانت سلطات الاحتلال تحمى المقطم بطبيعة الحال . وجريدة الأهرام نفسها التى كان لها مواقف وطنية معروفة ، آزرت الاستعمار مدة طويله فعملت لحساب المصالح الفرنسية ورحبت بالنفوذ الفرنسى فى البلاد » . وهكذا يكفى لتصوير حقيقة الدور الذى لعبه خريجو معاهد الارساليات التبشيرية اللبنانية فى مصر والتى كانت تعمل لاعداد الأرضية» القوية التى يقف عليها دعاة من مصر نفسها ، والتى تشكلت من بعد باسم حزب الأمـــة والجريدة ومدرسة لطفى السيد الفكرية والتى جاءت استجابة للمقررات التى رسمها لورد كرومر فى تقاريره للمناخ الفكرى المصرى الذى يقوم على فكرة المصرية المنتمية للغرب، المتحررة من العروبة ومن الرابطة العثمانية ، ومن الاسلام فكرياً واجتماعياً وسياسيا . وقد حمل لواء هذه الدعوة بإصدار الجريدة عام ١٩٠٧ وشكل مدرسة فكرية انضم إليها كثيرون فى مقدمتهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمى — وتبنت الكثير من الشباب الذين برزوا بعد الحرب العالمية الأولى .

كان هذا الاتجاه ضربة قوية لدعوة الوحدة الاسلامية الجامعة بين العرب والترك من ناحية وللحركة الوطنية التى حمل لواءها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش والتى كانت تضع مفهومها فى ضوء الاسلام وتحدد موقفها كجزء من حركة اليقظة العربية الاسلامية الممتدة . غير أن الموالاة الضخمة التى احتضن بها دعوته المرسومة وفق مخططه قد حال كثيراً دون نمو الحركة الأصلية وغلب عليها الفكرة التى رسمها وقننها والتى كانت منهج العمل السياسى والثقافى والوطنى فى مصر والبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى وخلال فترة ما بين الحربين. لقد انطلق كرومر من منطلقين كبيرين عام ١٩٠٧ . (أولا) من منطلق (الجريدة) ولطفى السيد لرسم فكرة الاقليمية الطبقية المنعزلة عن العروبة والعالم الاسلامى سياسيا وعن الفكر الاسلامى ثقافيا . (ثانيا) من منطلق نظارة المعارف وسعد زغلول لاقرار المناهج التعليمية والتربوية التى تقر اللغه الانجليزية وتقاوم اللغة العربية ، والاسلام ، والعروبة جميعا .

وبرزت فكرة (مصر المصريين) واضحة ، مع الحملة العاصفة على فكرة الجامعة الإسلامية ، ويحقق ما طمع فيه كروس وهو الالتقاء بالمصريين فى منتصف الطريق ، وحمل لطفى السيد لواء الفكر الغربى فى مختلف مجالات القانون والتربية الاجتماع وتنكر تماماً لكل قيم الفكر العربى الإسلامى . كما اتجه لطفى السيد إلى وجهة الليبرالية والديمقراطية الغربية وعزز كلمات الأمـــة المصرية والوطن المصرى والشخصية المصرية ، ودعا إلى تمصير القيم وفى مقدمتها الأخلاق والعادات بعد أن كانت عربية إسلامية . ودعا إلى التضامن بعامل الوطنية والمنفعة القومية لا بعامل آخر من عوامل الدين أو الجنس الأصلى ولمس الموضع الذى طالما تحاماه دعاة الإقليمية هو الحديث عن الدين أو الإسلام وقال « إن وحدة الاعتقاد سبب من أسباب المشابهات بين الأفراد وعامل من عوامل التضامن ، ولكنى أفكر أشد الإنكار أنها تصلح لأن تكون فى القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية التى يجب أن تبنى على المنافع لا على المعتقدات » . وقد أعلى لطفى السيد من شأن المصرية فى مغالاة شديدة حتى دعا إلى تمصير اللغة وهاجم هبة المصريين إزاء غزو إيطاليا لطرابلس الغرب وكتب سلسلة مقالات تحت عنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) .

دعا إلى نبذ هذه المفاهيم العربية الإسلامية ، وقال إنه لا شىء يربط مصر بجاراتها العربيات بل أن مصلحة مصر تناقض مصالح تلك الجارات . وهاجم دعوة شكرى العسلى إلى الوحدة العربية . وحاذى لطفى السيد فى منطلقاته جميعاً ، أهداف لورد كروس ومنهجه الذى رسمه للفكر السياسى والاجتماعى فى مصر وكان أساس دعوته فصل مصر عن العرب والدولة العثمانية سياسياً وعن الإسلام فكرياً واجتماعياً . ويقف لطفى السيد على رأس الدعوة إلى المصرية الإقليمية المنعزلة عن العروبة والإسلام ، وقد تمت هذه الدعوة من بعد واتسع نطاقها فترة ما بين الحربين .

(٢)

وفى مصر جرى العمل فى كثير من ميدان فبينما كان لطفى السيد يؤكد على العزلة عن العروبة والإسلام . وكان سعد زغلول يؤكد اللغة الإنجليزية : كان هناك رجلان آخران يعملان . أما احدهما فهو دنلوب وأما الآخر فهو زويمر . ١ — كان دنلوب يعمل فى مجـــال التعليم ويقنن له أخطر القوانين التى ما تزال آثارها سارية إلى الآن فى العالم العربى كله ، فقد كان دنلوب مبشراً اسكتلنديا وقسيساً وقد اختاره كروس لهذا العمل فسيطر عليه سنوات طويلة امتدت حتى أوائل الحرب العالمية

الأولى ١٩١٤ وكان قد عين مفتشاً للتعليم ١٨٩٧ ثم أصبح مستشاراً للوزارة خلال سبعة عشر عاماً . وكان المستشار الإنجليزى أقوى من الوزير المصرى . وكان يعمل من أجل تحقيق الهدف الذى رسمه كروم فى تقاريره ، وهو تمزيق وحدة العروبة والاسلام والقضاء على طوابع العروبة والإسلام فى التعليم والثقافة العربية . وكان أبرز ما عمل له هو « إزالة اعتقاد الشباب المسلم فى كتاب الله ومحاربة شعور الطلبة وإحساسهم الوطنى والدينى ، وطمس روح الشباب وحماسته ، واضطهاد كل طالب يظهر ميلا أو عاطفة نحو بلاده ، وكان يحرم على الطلبة كل معلم أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئاً ، كما يحرم على الطلبة الصحف الوطنية وتاريخ الإسلام . وكان يدرس جميع المواد باللغة الانجليزية ، ومنها الرسم والكيمياء والرياضيات والتاريخ بحيث لا يتاح للطالب فرصة لدراسة اللغة العربية . وقد اضطهد أساتذة اللغة العربية وعلماء الأزهر . وقد أشار لطفى جمعة فى ذكرياته بأنهم كانوا يعلمونهم أن مصر لم تحكم نفسها أبداً ، وأن الجيش المصرى هزم فى التل الكبير وأن المصريون ذبحوا فى ليلة ١٤ سبتمبر التى كانت قمرية كما تذبح الخراف وفر قائدهم عرابى . وقد أبطل دنلوب مختلف الكتب العربية الهامة التى كان قد ألفها على مبارك وعبد الله فكرى قبل الاحتلال لأنها تتحدث عن الاسلام والأخلاق الاسلامية كما رفع كتب عبد العزيز جاويش ونصوصه من المناهج واستبدلها بكتب تحمل خرافات لافونتين مكتوبة فى أسلوب سقيم وعبارة هابطة . كما ألغى الباب الوارد فى مناهج التعليم تحت عنوان (العقائد والعبادات الاسلامية) . ولما عورض فى هذا العمل قال إن كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ماله مساس بالدين . وقد أشارت جريدة اللواء إلى هذه الأخطار التى تهدد الثقافة العربية الاسلامية فى مجال التعليم فكتبت تقول : إن دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كروم لتعطيل التعليم فى مصر وأكبر مقاومة لرقى البلاد فى باب المعارف .

والمعروف أن دنلوب وكروم قد نقلا مناهج مدارس الارساليات التبشيرية وطبقها فى مدارس المصرية وكان أبلغ اهتمامهم محاربة اللغة العربية والاسلام ووحدة العروبة والاسلام وإحلال مفاهيم إعلاء الاقليميات واللغة الأجنبية وبطولات الغربيين وفكرهم بدلا منها . ٢ — وفى الجانب الآخر كان زويمر كبير المبشرين يعمل فى إنشاء خلاياه ومعاهده فى مصر والبلاد العربية جميعاً وذلك بالتأليف والخطابة والدعوة وعقد مؤتمرات التبشير فى القاهرة ١٩٠٦ وفى غيرها . وكانت دعوته إلى المبشرين فى المدارس والمستشفيات هى عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم واستمالة أهوائهم ومواساة فقرائهم . وقد حملت كتاباته الكثير من الشبهات والمغالطات التى أراد بها إثارة الشكوك فى نفوس المسلمين والعرب .

وكان زويمر من أكبر دعاة تمزيق الوحدة الجذرية بين العروبة والاسلام ، وتمزيق وحـــدة العروبة بالاقليميات وقد اهتز طربا لسقوط السلطان عبد الحميد واعتبر عهد الاتحاديين عصراً ذهبياً انطلقت فيه الارساليات التبشيرية فى البلاد المختلفة دون رقيب كما أتيحت له طابع الـكتب المسمومة التى كان يقوم بتوزيعها فى كل مكان . وقد امتد دور زويمر ، ودنلوب ولطفى السيد بعد الحرب العالمية الأولى وزاد قوة وكان من أهم أهدافه العمل على تعميق القطيعة بين العرب والمسلمين وبين المصريين والعرب وبين الترك والعرب وتشويه مفهوم الاسلام الفـكرى والاجتماعى والسياسى . وقد كانت مهمة الارساليات التبشيرية التركيز على هذه المعانى واتخاذها منطلقاً لهدفها المشترك مع الماسونية لخدمة أهداف الاستعمار واليهودية العالمية . وقد كان وليم ويلـكوكس من أخطر العاملين فى ميدان الدعوة إلى إعلاء العامية ونبذ العربية الفصحى بهدف تقطيع أواصر العرب وإحالتهم إلى إقليمية تصطنع لهجاتها بديلا للغة العربية . وكان ويلـكوكس إلى ذلك مبشراً ترجم أجزاء من الانجيل إلى اللغة العامية منها كتابه : (الأكل والايمان) . وكان قد ألقى محاضرة فى أواخر عام ١٨٩٢ فى نادى الأزبـكية عنوانها :

لماذا لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ، زعم منها أن قوة الاختراع تأتى من القوة المفـكرة ويرثها الانسان عن آبائه وقال إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع إنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو ألفوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مخترعين واستدل على ذلك بأن الانـكليز كانوا يؤلفون باللاتينية فلم يكونوا مخترعين فلما اختاروا لغة الفلاحين الانجليز وكتبوا بها صاروا مخترعين . وقد واجهت دعوة ولـكوكس هجوماً عاصفا ، وكان قد سبقه ولحقه إلى مثل هذه الدعوة بعض المستشرقين والأجانب من أمثال ولمور وغيره . غير « أن لطفى السيد » لم يلبث أن احتضن هذه الدعوة وتبناها ودعا إلى تمصير اللغة العربية والتقريب بين العامية والفصحى . وجرى فى هذا الاتجاه سلامة موسى وكثيرون من بعد . هذه هى الارهاصات الخطيرة التى تجمعت فى مصر فى السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى وهى نفس الفترة التى انبعثت فيها الدعوة إلى الطورانية فى تركيا وإلى الاقليمية الفينيقية فى لبنان ، وفق مخطط واحد تديره يد قادرة مسيطرة من أجل هدف واضح هو تمزيق رابطة العروبة والاسلام فى الدولة العثمانية والبلاد العربية . فإذا أضفنا إلى هذا : الدور الذى قامت به المحافل الماسونية فى هذه الفترة فى مصر وبيروت واستانبول وضحت أمامنا الصورة على نحو صحيح .

(٢٣)
ما بعد عبد الحميد

ما إن سقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الأمر فى الدولة العثمانية وفى البلاد العربية إلى شيء خطير ، وزارة فى الدولة العثمانية بها ثلاث وزراء يهود بعد أن رفض عبد الحميد ممثل اليهود وشجب مطالبه ومن ثم إنفتح طريق الهجرة إلى فلسطين وأتيح لسماسرة بيع الأراضى العمل فى حرية كاملة ونشط اليهود الصرحاء والدونمة والماسون ومن وراءهم للعمل وبدأت الحركة الطورانية تشق طريقها فى تمزيق وحدة العرب والإسلام ، وتحدثت لبنان عن دعوة إقليمية فى مواجهة الدولة العثمانية والعروبة جميعا ، ومضت مصر فى موقفها الذى حمل لواءه لطفى السيد فى ، معارضة العروبة والدولة العثمانية جميعا . وانفتح الطريق أمام المحافل الماسونية فاتسع نطاقها كما إندفعت جمعية الاتحاد والترقى إلى إستيعاب العرب والترك جميعا فى سبيل غاية ليست لحساب المسلمين والعرب بالتأكيد ، أما الارساليات التبشيرية فقد إنفتح أمامها الطريق إلى العمل فى حرية فى جميع أنحاء البلاد العثمانية والعربية وأعلن مؤتمر المبشرين فى بيروت ١٩١١ أن اعلان الدستور العثمانى قد جعل التنصير المباشر أكثر امكانا وسهولة . وفى الوقت الذى كانت فيه « الجماعة روسيو الأصيل » حملة لواء الطورانية يوسف أقجوره ، وأحمد أغاييف ، وضيا كوك الب يعملون فى (مجلة المواطن التركى) لتمزيق مفهوم العروبة والإسلام ، كان أتباع ويلكوكس يعملون فى القاهرة لتحطيم رابطة المصريين بالعرب والترك جميعا والدعوة الى مصرية خالصة وبينما كانت جريدة طنين فى تركيا تدعو الأمة التركية الى الاستعلاء على العناصر الأخرى ومنها العرب ، كانت [الجريدة] فى القاهرة تدعو المصريين الى الانفصال عن الترك والعرب .

وبينما كانت الطورانية تذهب بعيدا الى تاريخ جنكيزخان وتيمورلنك كانت المصرية تذهب بعيداً إلى تاريخ رمسيس وتحتمس ، وكانت الفساسنة فى بيروخا تذهب بعيداً إلى تاريخ الفينيقيين ؛ وقد كشف المبشرون فى مؤتمر لكنو ١٩١١ عن أثر سقوط السلطان عبد الحميد فى فتح الطريق أمام مخططاتهم ودعوتهم . فقد أشار دكتور زويمر فى تقريره إلى أهمية الانقلابات السياسية التى حدثت فى العالم الإسلامى وخاصة الانقلاب العثمانى ، فقد « صار التجول فى البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجينا فى سلانيك » وقال إن السلطة السياسية على أكثر المسلمين إنتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا وأن عدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً . وقال القس نلسن أن حركة الجامعة

الإسلامية قد ضعفت كثيراً بعد خلع السلطان عبد الحميد ولكن لا تزال فى الأهالى روح تضامن مع ملازمة للإسلام وقال : إن الألوف من مسلمى الأرض يتجهون فى كل سنة إلى مكة ويشربون ماء زمزم كما جرى بحث موقف الإرساليات التبشيرية بعد الانقلابات العثمانية » وقال استورد كروفورد : إن الأمة العثمانية بحصولها على بعض الحقوق الوطنية المصرية قد أخذت تتدرج فى مدارج نهضة عظيمة . وأشار إلى دعوى الإرساليات فى « تنشيط المسلمين لاقتباس الأوضاع الجديدة وترقيتها على وجه يشبه الأوضاع التى تباهى النصرانية بها . وقال : القسيس ثروبدبرج : أن بيع كتب التبشير فى الدولة العثمانية أصبح الآن مباحاً بسبب حرية النشر التى أعقبت الدستور فبيع فى السنة الماضية للمسلمين ما يزيد على ٩ آلاف نسخة من هذه الكتب المخصصة بانتشار التبشير . وهذا واجب آخر قدمه الاتحاديون لحركة الغزو الغربى والتغريب فى البلاد العثمانية ، هذه الحكومة التى حسبما توردة تقارير المبشرين كانت خيراً وبركة وفتحاً جديداً للارساليات التبشيرية .

(٢٤)

الإسلام والجامعة الطورانية

كيف يسعى الاتحاديون للاشاة الحضارة الإسلامية . فى خلال بضع السنوات الأخيرة فى تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة بنى طوران أو الطورانية الحديثة وغرضها هدم المدنية الإسلامية وإحياء العصبية التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية التترية والشعوب المنتمية إليها ومنها الأمة البلغارية أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بعداوتهم للاسلام ونعضهم له ، وكثيراً ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك بحجة أن الإسلام يسعى لقتل العصبية القومية ويحول دون انشوء المدنية التركية ، ولذلك فهم يسعون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام كل الاستقلال .

ومما يقولونه أن الاسلام لا محل له فى المدنية ولا يمكن أن يعيش طويلا إلا إذا أدخلت عليه عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية . ويعلق السيد رشيد رضا على هذا التقرير ويقول : وقد أقمت فى الآستانة سنة كاملة اختبرت فيها الاتحاديين اختباراً كاملا ولا أزال أرى فى كل من الآيات ما يؤيده ويقنعنى بأنى قد سبقت إلى إدراك ما لم يدركه العثمانيون ولا الأجانب . إن الذين يعرفون مقاصد الاتحاديين الالحادية من العرب قليلين جداً ولعلهم لم يكترثوا إلا بعد أن رأوا خواص العرب فى سورية مصلوبين فى أعظم ميدان .

إن قراء المنار يعلمون أن الجرائد الاسلامية الهندية هى أول من رمى الاتحاديين بالكفر والالحاد وكانت المنار أول الصحف الاسلامية دفاعاً عنهم ولما كثر الخلاف رحلنا إلى الآستانة . كان مقصد الاتحاديين خفيا ثم عرف رويداً رويداً ثم اشتهر وتواترت أخباره فى جميع الأمم . ولهذه النهضة وجهتان : إحداها أدبية والأخرى سياسية . فغاية الوجهة الأولى تمجيد الشعوب الطورانية ونشر تاريخها المجيد . وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية . فجنكيز خان فى نظرهم هو نموذج للملوك ورجال السياسة . والعرب يجب القضاء عليهم وإدماجهم فى الترك حتى ينسى العالم تاريخهم وتقاليدهم ، أما لغتهم فلابد من محوها وإحلال اللغة التركية محلها فى كل صقع وناد . والحكومة الاتحادية الآن تؤيد جمعية (بنى طوران) وتعززها بالاعانات المالية العديدة وتسمى تلك الإعانات : إعانات المالية التركية وجميع كبار الاتحاديين أعضاء فيها وهم بعيدون عن الاسلام . ليس هناك من ينكر فضل الاسلام على العالم وما كان لمدنيته من الآثار المجيدة . أما الشعوب الطورانية فليس فى التاريخ ما يدل على أنها عملت عملا واحداً أفاد الانسانية بل على العكس كانت جميع أعمالها تدميراً وتخريبا فالطورانيون لم يستطيعوا شيئا للمنفعة بل كانوا حيثما حلوا يخربون معالم المدنية » . ا . هـ . الأهرام ١٤/٨/١٩١٦ .

(٢)

تبنى الاتحاديون النظرية التى روجها المستشرق اليهودى المجرى « فبرى » والتى : تقول إن الاسلام يناقض فكرة الجنسية فالاتحاديون يقولون إن الاسلام بالاتحاد مع العوامل العربية والفارسية والرومية والبيزنطية قد جعل الأتراك (مسلمين ليفانتين) وحال دون نشوء حضارتهم . على أن هذه الدعوى على عكس المعتقد تماما فإن الأتراك الذين جاءوا أصلا من حدود الصين وانتشروا فى مجاهل آسيا حتى ضفاف (الاكسوس) لم يكن لهم دين معروف أو حضارة راقية لأنهم كانوا قبائل رحل يؤجرون سيوفهم لكل من يطلب معونتهم . فالاسلام لم يحل دون نشوء الحضارة التركية إذ لم يكن للأتراك حضارة هو بفضل الاسلام، ذلك إن العنصر الطورانى لم يشتهر بشىء من قوة الابتداع وما تاريخه سوى تاريخ تدمير . ومما تسعى إليه النهضة الطورانية إنشاء إمبراطورية حربية واسعة الأرجاء تضم تحت ألويتها جميع قبائل التتر والمغول الخاضعة لروسيا أو لدولة أخرى . أما الجنسية العربية فيجب إبادتها وإدماجها فى الجنسية التركية لأنها خطر كبير .

(٣)

عن جريدة نيراسمت الانجليزية (يناير ١٩١٧) ظهرت فى تركيا حركة جديدة عرفها القوم باسم (بنى طوران) أى طوران الجديدة إليك بيان الغايات التى ترمى إليها من مساعيها وأعمالها :
أولا : أن تجعل الأتراك أمة قائمة بذاتها مستقلة عن الدين الاسلامى تمام الاستقلال حتى يتهيأ لها أن تربى فيهم ذلك الشعور القوى الذى ذكره الدكتور (الفرد تونج) فى مقال نشره فى جريدة (اندرنوخ) الألمانية على أثر حديث دار بينه وبين زعماء الاتحاديين .

ثانيا : تطهير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية من آداب هاتين اللغتين ولهذه الجمعية مطمع آخر ترمى إليه وإن لم تجهر به رسمياً وهو تتريك العرب وإدماجهم فى الترك حتى لا تبقى لهم قومية قائمة بذاتها . وأكبر آمال هـــذه الجمعية أن تجعل التركى العثمانى يعد نفسه تركيا قبل كل شىء ، أما كونه مسلماً فيعد عنده من المسائل الثانوية التى لا تهمه كثيراً . أما هـذه الجمعية فانها تقوم بتلك الأعمال بإيعاز من السلطة الحاكمة التى تؤيدها بكل وسيلة ممـكنة وتدفع لها كل ما يلزمها من المـال لأجل بلوغ هذه الغاية . وقد بذلوا غاية الجهد فى تدريس التاريخ القومى للطورانيين وأفرغوا كل عناية للشره فى المدارس العالية . وأخذوا بتأليف قوة كبيرة من فتيانهم سموها بالتركية (ايزجى) أى قافية الأثر ، أما الأولاد الذين أسماؤهم مأخوذة من العربية فقد استبدلوا بها ألفاظـاً تركية محضة . وطبعوا كتباً وروايات كثيرة أهمها (بنى طوران) وهى الرواية التى كتبتها خالدة أديب وقد حبذت فيها تلك الحركة الجنسية . ومن مقتضيات هذه الحركة استقلال العنصرية التركية عن الاسلام .

هذه الحركة مقصورة على جمعية الاتحاد والترقى ومبنية على نظرات أستاذهم المجرى (فبرى) لما علق ذهنه من المزاعم القديمة البالية من أن الإسلام ينافى الوطنية وهى أنه لا وطن فى الإسـلام ، ويزعم الاتحاديون أن الإسلام باختلافه مع التقاليد والمؤثرات العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية قد حول الترك إلى عنصر شرقى مسلم ليس له مدينة خاصة به ، وقد أجاب أصحاب (قوم جديد) فقالوا إنه سيبقى لهم أتراك حوران والإسلام بصورة جديدة فيكون ديناً وطنياً أهلياً . ومما لا ريب فيه أن التركى يخاف العرب أشـد الخوف وبدأت (الجمعية) فى استعمال كل الوسـائل لجعلهم أتراكا ومحو قوميتهم تقليداً لما فعله (سولزويك هولستين) مع ولايات الدانمرك التى انضمت لألمانيا . وقد صرح بذلك جلال نورى فى أحـد كتبه فقال : (إن البلاد العربية بأسرها ولا سيما العراق واليمن يجب تـكون تركية فى اللغة والجنس وأن تـكون لغة الدين عندهم التركية أيضا والاسراع فى تتريك البلاد العربية من أهم الأمور لحفظ وجودنا) .

(٤)

الاتحاديون فى رأى السيد رشيد رضا (م ١٦ للمنار ١٩١٣) إننى أعرف من أمر هذه الجمعية مالا يعرفه أحد فى القطر المصرى وقد بلوتها واختبرتها فى الآستانة سنة كاملة رأيت من زعمائها ورويت عنهم بالأسانيد العالية المتصلة منهم مالا يتفق مثله إلا لقليل من الناس ثم أيدت أحاديث جرائد العالم وحوادث الدهر ووقائعه أول لما سقط عبد الحميد ونزا على الدولة بعده أولئك الا غيلمة المتخرجون ما علمته فيهم من ملاهى غلطة وبيو على وسلانيك وباريس ، أفسدوا كثيراً من ضباط الجيش وجعلوا بقوتهم الدستور آلة لتفريق عناصر الدولة وذريعة لمحو اسمها من لوح الوجود . وأول ماقرر زعماء هذه الجمعية البدء به من الأعمال هو إزالة كل قوة للمسلمين فى هذه الدولة . كان الناس يفهمون من اسم جمعية الاتحاد والترقى أنها جمعية غرضها أن تجعل بين العناصر العثمانية وحدة أساسية اجتماعية بالمساواة بين الترك وغيرهم من الحقوق الشخصية والحقوق العاملة كمناصب الدولة ووظائفها . وأن هذا هو المراد من كلمة الاتحاد والترقى الذى يتبعه الترقى فى العمران . فلما صار النفوذ فى هذه الجمعية لأمثالى الدكتور ناظم وطلعت وجاويد ورحمى وجاهد وأضرابهم ظهر للباحثين أن مرادهم بالاتحاد هو أن يدغم العرب والأرنؤوط والكرد وغيرهم فى الترك وتفنى لغاتهم وجنسياتهم فيهم فيكون جميع العثمانيين تركا . . إن محو جنس من البشر بإدماجه فى جنس آخر قد صار فى هذا العصر محالا وأن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تجعل غير الترك فيها تركا ، لأننى وأنا مسلم أرى أن الإسلام لا حياة له إلا بحياة اللغة العربية وأنما حياتها بجعلها لغة الخطاب والعلم عند أهلها . من أوائل مقاصدهم تتريك العناصر العثمانية ومن مقاصدهم إزالة سلطة الدين وقوته فى الدولة ،ولكنهم يظهرون للمسلمين أنهم يريدون القيام بالجامعة الإسلامية على أن سيرتهم وأعمالهم تكذب هذه الدعوى وحسبك أن جميع زعماء الجمعية من الماسون وأصول الماسون تنافى الجامعة الدينية . وقالوا إنهم لاذوا بالماسونية لإحياء كلمة الوطنية ومخادعة الشعوب المسيحية والدول الأوربية وصدق بعض أعزاز المسلمين كلامهم .

وقد نشرت جريدة الطان الفرنسية أنهم يصرحون بانتقاد الاسلام . والدكتور ناظم صاحب النفوذ الأعلى فى الجمعية يصرح بأن الدولة لايمكن أن ترقى مادامت متمسكة بالإسلام . فضلا عن تفريط الاتحاديين بحقوق الدولة فى خليج فارس والعراق الطرف الشرقى من جزيرة العرب والتزلف بذلك إلى الإنجليز ونقلت الصحف عن محمود شوكت وأحمد مختار أنهما قالا :

إن الدفاع عن طرابلس الغرب خيانة لأننا لا نجد طريقا لذلك ، وقد هب عرب طرابلس للدفاع عن بلادهم ، وهب العالم الإسلامى لمساعدتهم فبدأ لجمعية الاتحاد ما لم تكن تحتسب وأحبت أن تستفيد من هذه الأريحية الإسلامية وكانت قد باعت طرابلس وبرقه الإيطالية على شرط أن يأخذوها بالفتح السلمى بعد أن يخرج منها العسكر العثمانى والسلاح . وهب المسلمون كافة للمساعدة بالمال ، وكان المبعوثون المناصرون للاتحاديين يتهمونهم بالخيانة ويطلبون محاكمة الصدر الأعظم حقى باشا وناظر الحربية محمود شوكت ولما رأوا ذلك أرسلوا بعض الضباط وأمـــدوهم بأموال الإعانة وبما يمكن من السلاح خوفاً من إنكشاف السر .

م ١٦ للمنار سنة ١٩١٣

(٢٥)

بديل للخلافة العثمانية

(لورنس والهاشميون)

كان هدف الاتحاديين الأساسى هو دفع العرب إلى إحضان الغرب وفصلهم عن الدولة العثمانية وقد بلغوا فى سبيل ذلك أقصى وسائل التحدى : فى مجال الفكر والصحافة عن طريق الانتقاص من تاريخهم ودينهم وجنسهم وفى مجال السياسة عن طريق تعليق البارزين منهم على المشـانق واتهامهم بالخيانة . ولما كان الاتحاديون قد دفعوا الدولة العثمانية إلى دخـول الحرب فى صف ألمانيا فقد أغرى العرب بالتماس طريق خصومهم البريطانيين الذين يعدون الفريسة للوقوع فى الأسر وذلك بإغـراء الشريف حسين باقامة دولة عربية تضم سوريا والعراق والجزيرة العربية بعد انتهاء الحرب حيث جرت محادثات فى ذلك مع مكماهون ممثل بريطانيا فى مصر · وكان ذلك آخر حلقة فى خطة تحطيم الوحـدة العربية الإسلامية ، والرابطة بين العرب والترك ، وهذه الرابطة كانت تمثـل بالرغم من ضعف الدولة العثمانية قوة كبرى وجداراً حصيناً فى وجه الزحف الاستعمارى والغزو الصهيونى . وكانت إثارة دعوى القوميات ونقل مخططاتها الغربية إلى العالم الإسلامى عملا من أعمق أعمال الاستعمار لتمزيق وحدة الفكر العربية الإسلامية وإحلال دعوات قائمـــة على الأجناس والعناصر والدماء والعروق فى مجتمع قامت أعمدته منذ وقت بعيد على أنصهار الأجنـاس فى وحدة فكر عربية إسلامية · ومن ثم كانت مرحلة السنوات العشر التالية بعد سقوط عبد الحميد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى مسرحا لدعـــوات

متعددة : طورانية وإقليميه ذات طابع عربى ، وعربية إقليمية وفرعونية وفينيقية وكلها دعوات تشجب الرابطة العضوية بين العروبة والإسلام بما تحمله من تحديات ومن طوابع تقوم فى الأغلب على العلمانية المنكرة لروابط العقائد والفكر والقيم الأساسية التى قام عليها المجتمع العربى الإسلامى منذ قرون . وكانت المنطقة كلها قد وضعت تحت نظر المستشرقين باسم دراسة الآثار التاريخية القديمة وذلك لدراستها استراتيجيا بما يحقق للجيوش البريطانية الزحف والاستيلاء والسيطرة بصدد دفع المسلمين العرب إلى الاقتتال مع إخوتهم المسلمين الترك من أجل إجلائهم وإتاحة الفرصة للجيوش البريطانية والفرنسية من احتلال الشام كله (سوريا ولبنان وفلسطين) تمهيداً لتقسيمها فيما بينهما وإتاحة الفرص للصهيونية العالمية لإقامة وطن قومى لها فى فلسطين كنواة للدولة لليهودية العالمية المرتقبة التى كانت تطمع فى بناء هيكل سليمان فى مكان المسجد الأقصى . وكذلك أتيح للضابط البريطانى لورنس أن يستكشف صحراء العرب وصحراء الشام فى دراسة علمية طبوغرافية وتاريخية للبحث عن الآثار والقلاع الصليبية القديمة ، قبل شهور قليلة من الصدام بين العرب والترك فى هذه المناطق بعد أن أعلن الشريف حسين الانفصال عن الدولة العثمانية وجاء لورنس ليعمل مع العرب من أجل دفعهم إلى الحرب وهو يعلم تماماً أنهم موضوعون فى خدعة كبرى لن يتحقق لهم منها شىء فى النهاية وأن الشريف حسين ووعود مكماهون، وإغراءاته للبدو ، ومحادثاته مع فيصل كل ذلك سينتهى فى النهاية لأن يقف اللورد اللنبي قائد الجيوش المتحالفة فى القدس عام ١٩١٨ ليقول : الآن انتهت الحروب الصليبية .

وقد تحقق للاستعمار الغربى واليهودية العالمية أمور عدة : * تمزيق وحدة العروبة والإسلام. * القضاء على الدولة العثمانية . * تمزيق وحدة العرب والترك . * نقل العرب من ترابط مع الدولة العثمانية إلى احتلال فرنسى وبريطانى : وقد حمل ذلك كله أسماءاً براقة لامعة هى الحركة العربية والوحدة العربية والدولة العثمانية . وقد قامت الحركة جميعها فى ضوء مخططات مشبوهة تفصل الإسلام عن العروبة وتضع للقوميات طابع العلمانية الغربية وتقيم الصراع العنيف بين العرب والترك وبين المصريين والعرب وبين الفساسنة والهاشميين ، وبين الهاشميين والسعوديين وهكذا . لقد دخل العرب الحرب إلى جوار بريطانيا على أمل زائف كانت كل المخططات تعارضه وتكشف عن زيفه ، وكانت هناك معاهدة سايكس — بيكو بتقسيم المنطقة بين فرنسا وانجلترا وكان هناك وعد بلفور بشأن تسليم فلسطين للصهيونية . إن خطة العروبة التى قامت فى دمشق قد وجدت نفسها فى موقف ليس معه اختيار لتقبل الانضمام تحت لواء الشريف حسين ولكن كثيراً من زعماء العرب كانوا

متحرزين متحفظين : حتى يقول شكيب أرسلان : لم يمنعنا من الاشتراك فى الثورة العربيه سوى اعتقادنا أن هذه البلاد ستصبح نهباً مقسما بين انجلترا وفرنسا وتكون فلسطين وطنا قومياً لليهود ، وهذا التكهن كان عندنا مجزوما به حتى أننى كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء فما حصل بالفعل شىء غير ما كنا نقول ، وكذلك كان رأى ياسين الهاشمى الذى قال لرسول الثوار العرب وهو يدعوه للانضمام إلى الملك فيصل ولورنس : « إن الانجليز غير مخلصين لا لفيصل ولا لوالده فهم بعد أن عاهداها على إنشاء دولة عربية اتفقوا مع اليهود وأصدروا وعد بلفور ، كما اتفقوا مع الفرنسيين على إعطائهم سوريا وربطوا العراق بالهند . ومن الحق أن يقال أن ما أطلق عليه الثورة العربية بقيادة الشريف حسين لم تكن إلا مناورة ضخمة للقضاء على الدولة العثمانية وكان منطلق المناورة إحلال بديل فى نظر مسلمى الهند وغيرهم ، يحل محل خليفة المسلمين العثمانى فى تركيا ، وقد تفتقت الحيلة الماكرة على اختيار « شريف » من أهل بيت النبي ليحمل اللواء ويقف مع بريطانيا ، أو على حد التعبير القائل « إذا كان خليفة المسلمين يملك البيرق النبوى فقد جند الإنجليز إلى جانبهم ابن النبي شخصياً ، وإذا كانت استانبول انحازت لألمانيا فإن الإنجليز معهم مكة المكرمة قبلة المسلمين » نعم ، لم يكن الأمر يهدف إلى تحقيق أى أمل للعرب ، بل لتنفيذ مخطط الاستعمار فى تمزيق الدولة العثمانية ، وتصوير الدولة العثمانية والخليفة فى صورة عدوانية ، فضلا عن عزل العرب عن الرابطة الإسلامية كمقدمة لعزلهم عن الإسلام نفسه . ولم تكن هذه الحركة العربية فى حقيقة أمرها انفصالا باسم العروبه عن الإسلام ، بل كانت على العكس من ذلك امتداداً لمفاهيم الفكر الإسلامى فقد كان اعلان الشريف حسين بالثورة على الاتحاديين (لا على الدولة العثمانية) مطبوعا بطابع إسلامى ، وليس له أى مظهر يحمل مفهوم القوميات فهو أولا : موجه إلى المسلمين عامة وليس إلى العرب ، وهو يعزز الانتقاض على الاتحاديين الذين « جاوزوا صراط الدين منهج الشرع الشريف وفرقوا شمل الأمة العثمانيه بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية ، وأن الاعتداء على العرب اعتداء على الإسلام فضلا عن أن قتل اللغة العربيه قتل للإسلام نفسه » .

ومن نصوص هذا البيان يبدو الترابط الواضح بين العروبه والإسلام ويكشف عن أن الحركه جاءت من داخل اليقظه العربيه الإسلاميه لا من خارجها وأن مبدأ الحركة : « نصرة دين الإسلام والعمل على إعلاء شأن المسلمين على أساس أحكام الشرع الشريف » . غير أن موقف الشريف حسين كان ضعيفاً إلى أبعد الحدود ، لقد كانت الخطة هى أن تكون هناك ثورة حقيقيه ، لا أن تكون هناك نقطه انفصال حربيه عسكريه دمويه بين العرب والترك لتفتح الطريق للجيش البريطانى الزاحف إلى احتلال فلسطين ودمشق وبيروت .

وكان ذلك كله مناورة ضخمة لمسلمي الهند وأفريقيا باختيار شريف مكة الهاشمي في مواجهة الخليفة العثماني . كانت المؤامرة واضحة : تتركز في فصل العرب عن الترك ثم اغتيال كل منهم على انفراد . لقد كان دور لورنس في هذه الحلقة الخطيرة من العلاقة بين العرب والدولة العثمانية ، وبين العروبة والاسلام بالغ الأهمية والخطر ، إذ كان هو نفسه « الخدعة » التي أغرى الاستعمار بها العرب للانقضاض على الدولة العثمانية وإعلان الحرب حتى تتسلم فرنسا وبريطانيا هذه الأراضي وتحتلها ويعلن مندوب بريطانيا في القدس : إن الحروب الصليبية انتهت ، كما يعلن مندوب فرنسا في دمشق : إنهم قد عادوا بإصلاح الدين بعد أن أخرجتهم . ويقول لورانس بوضوح وصراحة بالغين في كتابه أعمدة الحكمة السبعة : لقد كان رأيي منذ البداية أننا إذا كسبنا الحرب فان عهودنا للعرب ستصبح « أوراقاً ميتة » ولو كنت رجلا شريفا وناصحاً أميناً لصارحتهم بذلك وسرحت جيشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم ولأصرتهم بالعودة إلى بيوتهم ، وعدم المخاطرة بحياتهم في مثل هذه الحرب ، أما الشرف فقد فقدته يوم أن أكدت لهم بأن بريطانيا ستحافظ على وعودها . غير أن الاندفاع العربي كان وسيلتنا الرئيسية في كسب الحرب الشرقية ، وعلى ذلك فقد أكدت لهم أن بريطانيا سوف تحافظ على عهودها نصاً وروحا ، فاطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال المدهشة ، ولكني في الواقع بدلا من أن أشعر بالفخر لهذا الذي فعلته ، كنت أشعر دائماً بنوع من الخجل والمرارة . كما أعلن (وايزمان) في كتابه : « التجربة والخطأ » شكره وتقديره للخدمات الجليلة التي أسداها الكولونيل لورانس للقضية الصهيونية « إن علاقته بالصهيونية علاقة إيجابية على الرغم من تظاهره بالميل للعرب » . وقد ظل اسم لورانس مع الأسف وقتاً طويلا يدوي في الصحف العربية على أنه ملك العرب غير المتوج « مصوراً من خلال مغامرة ضخرية « وعمل بطولي » . لم يكن لورنس إلا ضابطاً في قلم المخابرات البريطانية وضع في قالب مخطط واسع من أجل تمزيق الدولة العثمانية وخدمة النفوذ الأجنبي واليهودية العالمية فقد كان واحدمن الذين أختيروا لاستكشاف الأرض العربية تحت علم الآثار وبعثات التاريخ القديم فقد أرسل إلى هذه المنطقة عام ١٩١٣ متخفيا مكلفا بدرس الطريق العسكرية التي يمكن أن تستعملها بريطانيا للدفاع عن سيناء فتوغل في صحرائها باحثا عن كل الطريق والآثار والمواني ، وكان البحث العلمي الذي تخفى خلفه يطلق عليه اسم « البحث عن الطريق الذي سار فيه النبي موسى » وكان هذا تمهيداً للعمل الضخم الذي كلف به من بعد .

وكان إيمان الانجليز بعد إعلان الحرب العالمية بأنهم قادرون على خداع العرب وفصلهم عن الدولة العثمانية أكيداً وواضحاً ، وكانت فكرة الاستعمار أن أحسن الطرق لزعزعة الامبراطورية

العثمانية وتمزيقها وبالتالى تمزيق وحدة العرب والإسلام هو تحريض العرب على الاستقلال عن تركيا، وإثارة عوامل القتل لكبرائهم وزعمائهم بما يقيم بين العرب والترك خصومة دامية تمتد زمناً طويلا ، وتؤثر تأثيراً بالغاً فى الروابط العربية الإسلامية وفى العلاقة بين العروبة والإسلام ، وتلقى ظلها على التاريخ والأدب والفكر العربى كله بمـا يعمق ذلك العداء والحقد والكراهية التى من شأنها أن تزيد فى إثارة البغضاء وإعلاء القوميات والأقليات . ولم تلبث بريطانيا بعد أن أحست بأن الشريف حسين قد تم إغراؤه على الإنفصال أن أرسلت لورانس إلى الحجاز معلناً إيمانه الأكيد بحق العرب فى قيام دولة لهم . وقد كان هـذا الإتجاه بديلا لأمرين : بديلا فى نظر العرب للحركة العربية التى كانت تقوم فى دمشق ، والتى ترى إقامة حكومتين عربية وتركيا تحت لواء الخلافة ، وبديلا فى نظر المسلمين عن دولة الخلافة ، وذلك بابراز حاكم الحرمين وشريف مكة وحفيد نبي الإسلام على أنه فى صف بريطانيا والحلفاء ، وذلك للتغطية على فكرة خليفة المسلمين ، وسلطان الدولة العثمانية التى انضمت إلى ألمـانيا .

وكانت هذه الخطوة عام ١٩١٦ حلقة ثانية فى الخطة بدأت بإسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ فى طريق تمزيق الوحدة العقائدية بين العروبة والإسلام وخلق منطلق جديد فى البلاد العربية يستمد نفوذه الفكرى من فلسفة الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية ويهدف إلى إعـــلاء « النزعة العربية » ودحر المفهوم العربى الإسلامى المتـكامل . ومع أن الحركة العربية الإسـلامية كانت متيقظة إلى هذا الخطأ ، فقد ظلت مدرسة العروبة المرتبطة بالإسلام تدعم خطواتها إلى وقت طويل دون أن تؤثر فيها دعوى العروبة العلمانيـة على مفهوم القوميات الغربيـــة بدأ يشق طريقه قبيل الحرب العالمية الثانية على أيدى الأحزاب والهيئات التى قادها عرب غير مسلمين والتى اتسمت بارتباطها بالإرساليات أو بالدول الغربية أو النظرية العلمانية التى تنكر الارتباط الجذرى بين حاضر العرب وماضيهم عبر أربعة عشر قرناً من خلال روابط اللغة والفكر والثقافة والتاريخ .ولقد كان من أكبر المؤامرات التى حققتها بريطانيا أنها أجهضت الحركة العربيه التى قام بها الشريف حسين وفيصل بمجرد إعلانها ، فقد حاصرها الانجليز ومنعوها من التوسع خارج الجزيرة العربيه وا كتفت بريطانيا بأن أذاعت إعلان الشريف حسين بأن بلاده انفصلت عن الدولة العثمانية انفصالا تاما ومن ثم وضعت بريطانيا يدها على المنطقه وقامت القوات العربيه بمحاربه القوات التركيه وإخراجها من المنطقه تحت قيادة فيصل . وكان دور لورانس الذى لبس الملابس العربيه وشارك البدو الحياة فى خيامهم وطعامهم ، وهو وضع خطط الهجمات الصاعقه على مرافق الطرق والمواصلات التى كان يسيطر عليها الأتراك :

وقد تقدمت الجيوش العربية حتى وصلت العقبة فى يوليو ١٩١٧ فاتخذتها نقطة إنطلاق وظلت القوات العربية تقاتل حتى استولت على دمشق ودخلتها فى أول أكتوبر ١٩١٨ وفى أثرها دخلت القوات البريطانية فاحتلت فلسطين وسوريا ولبنان وتسلمت زمام الأمر من القوات العربية . وفى نفس الوقت الذى كان لورانس يخادع فيه فيصل والعرب كانت اتفاقية سايكس بيكو توقع بين الحلفاء بتقسيم المنطقة : العراق لانجلترا وسوريا لفرنسا ، وإقامة إدارة دولية فى فلسطين . لقد كشف لورانس عن حقيقة الخفية فى كتابه حين قلل من شأن العرب ، الذين لم يكن مؤمنا أساساً بحقهم فى دولة مستقلة لأنهم فى حاجة إلى حماية بريطانية . وهو أيضاً لم يكن مؤمنا بحق العرب فى الاتحاد لأنه لم يكن يراهم أمة واحدة ، وقد كان متعاطفا مع هدف الصهيونية ، وقد اعتبر فلسطين أرضا يهودية منذ بدأ التاريخ ، وكان مؤازرته للصهيونية واضحة حين دفع فيصل إلى الإجتماع مع ويزمان فى العقبة ولندن وباريس . كان إتجاه لورانس من خلال مفهوم فلسفى واضح ، أقامه الاستعمار واليهودية معاً هو إعلاء النزعة اليهودية فى صراع القوميات ، وكان لا بد وقد انفصل العرب عن الدولة العثمانية من خلق زعامات عربية جديدة فى الحجاز وسوريا والعراق . وكان البيت الهاشمي هو المؤمل فى هذا الإتجاه .

وبينما سيطرت الدعوة للطورانية فى استانبول ، واجتاحت تركيا وانصهرت بعد الحرب فى حركة مصطفى أتاتورك ، فان النزعة العربية صيغت على أكثر من وجه ومفهوم ، حتى لا تشكل وحدة فكرية عربية ، فكانت فى لبنان دعوتها إلى الاقليمية اللبنانية المستمدة من الفينيقية القديمة ، وكان فى مصر دعوتها إلى الفرعونية وكان فى دمشق وبغداد والجزيرة العربية دعوة عربية محدودة قاصرة على هذه المنطقة التى قبل لها الشريف حسين دولة عربية ، ثم تمزقت إلى سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن والمملكة العربية السعودية من بعد، لقد كان الهدف واضحا وراء المخطط : فصل العرب عن الدولة العثمانية . ثم فصل كل قطر عربى إلى كيان خاص وإعلاء مفهوم إقليمى أو قومى ضيق خاص به بحيث لا تتمكن الوحدة من الجمع بينها ، وخلق كيانات إقليمية لها أعلامها وعملتها وحكوماتها وجوازاتها فى كل دولة . وقد كشف لورانس من موقفه من الوضع العربى بعد تمزيق الدولة العثمانية وانفصال العرب حين قال : لا أمل فى قيام وحدة عربيه لا فى الحاضر ولا فى المستقبل . فالسوريون يطالبون بإقامه مملكة عربيه أما المسيحيون الكاثوليك فى لبنان فيطالبون بحماية أوربيه .

لقد وضعت التحفظات منذ اللحظه الأولى على لبنان وفلسطين وأبعدت مصر عن الموقف كله ؛

وفى لبنان أقيم الكيان اللبنانى امتداداً لدور لبنان التاريخى منذ ١٨٦٠ وفى فلسطين فتح الطريق للصهيونية العالمية لإقامة دولة أطلق عليها أول الأمر خداعاً للعرب « وطن قومى لليهود ». وتوزعت العراق وسوريا ولبنان بين الفرنسيين والإنجليز احتلالا وسيطرة . وقد كانت نظرة لورانس إلى خلق الزعامات الجديدة فى البلاد العربية وفق الاتجاه الذى رسمه الاستعمار صحيحة ، ويبدو ذلك من تصريحات فيصل التى أعلن فيها أن نهضة العرب « تتطلب استعارة أفكار أوربا ، ومعرفة خبرة أوربا ، هذه الخبرة لكى تغدو صالحة لنا يجب أن نترجمها من الشكل الأوربى إلى الشكل العربى وان نجد فى العالم من يصلح لأداء هذه المهمة من اليهود الذين يملكون كل معرفة أوربا » . وكانت سقطة من لم يمكن يملك وضوح الرؤيا فى هذا الوقت المبكر ، لقد استطاع النفوذ الاستعمارى واليهودية العالمية من ضرب العرب بالترك ، وتمزيق وحدتهم ، ثم تحويل كل منهما إلى طريق جديد ، اصطرعت فيه أصول الفكر الإسلامية العربية بالدعوات الغربية المشحونة بالأخطار .

ووقع كل من العرب والترك فى فخ كبير واندفعا إلى تحول خطير وكان منطلق الانهيار والتحول كله هو ضرب وحدة العروبة والإسلام ، وتمزيق هذا الكيان الضخم الذى كان يطلق عليه «الدولة العثمانية» بأيدى الترك والعرب أنفسهم ومن خلال تشكيل هذه الطلائع من طورانية وفينيقية وفرعونية وحائرة بين العروبة والاقليمية . يقول لورانس : وبذلك إنهارت الدولة الاسلامية التى طالما عملى على تدعيمها السلطان ، ويقول : لقد كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً ، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هى الفكرة التى ستمزق الدولة العثمانية شذر مذر . قال لورانس : إن الثورة العربية هى فى الحقيقة تقطيع أوصال الدوله العثمانية ! » . ومن هنا يمكن التعرف على حقيقة الانطلاق العربى من هذه النقطة والذى سمى فى بعض الأحيان بالثورة العربية الكبرى وجرت الإشارة فيه بدور فيصل ، وبدور لورانس ملك العرب غير المتوج ، ودور الشريف حسين . وكيف تبين من بعد أن الشريف الهاشمى ملك الحجاز كان قد وضع تحت أنظار مسلمى الهند وشمال إفريقيا كبديل أكثر أصالة من الخليفة العثمانى . ولم تكن هذه الحركة تمثل فكرة (الوحدة العربية) بأى صورة ويمكن أن يقال أنها كانت تمثل دولة عربية يحكمها الشريف ، فقد استبعدت لبنان وفلسطين ومصر واستبعدت أفريقيا الغربية واكتفت بتلك الأجزاء الأسيوية الواقعة بين سوريا والحجاز . ولعل حقيقة دور لورانس ينكشف فى وضوح ويعطى مفهوماً أعمق فى النفوس إذا سجلنا من مذكراته هذه العبارة : إننى أكثر ما أكون فخراً أن الدم الانجليزى لن يسفك فى المعارك الثلاثين التى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوى فى نظرى موت إنجليزى واحد ، لقد جازفت بخديعة

العرب لاعتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن فى الشرق ولاعتقادى أن كسبنا الحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار .

(٢٦)

تمزيق وحدة العروبة والإسلام

(١)

الإقليميات

الطورانيـــة والفرعونية والفينيقية

مهدت السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى السبيل للاقليميات الثلاثة التى هبت واستحصدت : الطورانية فى تركيا ، والفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى لبنان . كانت البذور قد وضعت فى التربة عن طريق المحافل الماسونية وإرساليات التبشير والقوى الاستعمارية اليهودية العالمية. فظهرت فى تركيا حركة الاتحاديين الداعية إلى الطورانية ، وظهرت فى مصر حركة لطفى السيد وأصحاب القطم الداعية إلى « مصر المصريين » . وظهرت فى لبنان حركة الكيان اللبنانى الخالد الأزلى الذى لا يرتبط بالدولة العثمانية ولا العرب . وقد ابتعثت الدعوات الثلاث التاريخ القديم ، تاريخ طوران وغسان وكلدان وحاولت أن تربط للسلمين والعرب به بعد أن انفصلوا عنه انفصالا جذريا بظهور الإسلام وسيطرته الفكرية والسياسية والاجتماعية على هذه الأقطار كلها خلال أربعة عشر قرنا صيغ فيها العقل الإسلامى والنفس العربية جميعاً بالقرآن صياغة جديدة بعدت بهما أماداً واسعة من الوثنية القديمة والأساطير وحرب البسوس . وقد تصدر الدعوة إلى هذه الحركات الثلاثة من ليسوا من أصحاب الأصالة الفكرية أو الدين الغالب أو الوطنية الصادقة فقد كانوا دعاتها فى تركيا روما وماسون ودونمة كلهم حرب على تركيا والعرب والإسلام ، وكان دعاتها فى البلاد العربية من خريجى معاهد الإرساليات وممن لهم خلاف عقائدى وتعصب وحقد على الكيان الأغلب والحضارة الإسلامية .

(١)

الطورانية الكمالية

اعتبر كثير من الباحثين الوضع الذى آلت إليه تركيا بعد الحرب العالميـــة الأولى من حيث سقوط الدولة العثمانية وتمزقها ، وقيام الدولة التركية التى سيطر عليها مصطفى كمال بمثابة امتداد للحركة الطورانية التى بدأت عام ١٩٠٨ وانتهت عام ١٩١٨ وردد كثير منهم فى وصف هذه الحركة اسم الحركة الطورانية الصغرى ، وأما ما وقع بعد الحرب هو الحركة الطورانية الـكبرى ونحن نؤيد هذا الرأى ونؤكده . ذلك أن كل ما حدث فى فترة السنوات العشرة السابقة للحرب إنمـا كان تمهيداً لمـا جاء بعد ذلك سواء فى تركيا أو مصر أو لبنان وذلك فى ضوء التحول الخطير الناتج عن إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها وهذا قد تحقق بالفعل نتيجة لدخول الاتحاديين الحرب العالمية فى صف الألمـان فـكانت هزيمة الألمـان فى الحرب هزيمة لهم وفرصة سانحة لتحقيق حلم عاش الاستعمار أكثر من مائة عام تخطط له مع اليهودية العالمية . وقد كان العمل الذى تم بالفعل عشية هزيمة الدولة العثمانية من شقين : (الأول) احتلال الأجزاء العربية من الدولة العثمانية سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق . و (الثانى) السيطرة على تركيا وإذلالها وفرض نفوذ فـكرى سياسى غربى عليها حتى لا تصبح يوما عاملا إسلاميا مهدداً لأوربا فى هذا الموقع ، وقد تحقق العملان على النحو الذى أراده الاستعمار وكان المخططات التى نفذها الدونمة والإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وأثرها الواضح فى سهولة تحقيق هدف واحد خطير هو : تمزيق وحدة العروبة والإسلام وتفريغهما من المضمون الإسلامى الحقيقى . كانت الدولة العثمانية هى بؤرة الوحدة العربية الإسلامية ومصدر الجامعة الإسلامية التى ضمت تحت لوائها مسلمى فارس وأفغانستان والهند بالإضافة إلى مسلمى تركيا والعرب ولذلك فإن العمل لإسقاطها وتمزيقها لم يكن يكفى ، وإنما يتطلب تغيير الذهنية والفكر والاتجاه والخصائص ، إلى نحو يحول بينها وبين أن تـكون مرة أخرى منطلقاً للإسلام إلى أوربا أو مصدراً للخطر أو جرثومة لتجمع إسلامى جديد ولذلك فقد كانت فترة السنوات العشرة للاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك وتمهيداً للمخطط التغريبي العنيف الذى نفـــذه مصطفى كمال بقوة القانون وقد كان مصطفى كمال واحداً من الاتحاديين وزملاء طلعت وجمال وأنور ، ولـكنه لم يلمع تحت الأضواء فى هذه الفترة ، فقد استبقى ليصبح بعد الحرب امتداداً لهم ونقطة تجمع لهذه القوى لتتشكل مرة أخرى على نحو آخر بعد أن حققت أكبر هدفين وهما : اسقاط الدولة العثمانية وتمزيق وحـــدة

العرب والترك التي هي مظاهر وحدة العروبة والإسلام . وقد كان أتاتورك واحــداً من رجال سالونيك ومحافلها الماسونية ومن أبرز رجال الاتحاد والترقي ، مؤمناً بتلك المبادىء والمخططات التي نفذت فلم يكن حربا عليها ولكنه كان أكثر واقعية إذ أنه قصر الدعوة الطورانية الواسعة وكانت مخططات أحمد أغاييف ويوسف اشقوره وضيا إلب هي رائدة له بل إن كثيراً مما كان حلماً لدى هؤلاء المهاجرين الروس والذين لم يكونوا تركا في الأصل قد أصبحت حقائق ، بل إن أتاتورك عدا إلى خطو أوسع من أحلامهم وأبعد مما كانوا يتصورون تحقيقه . وإذا كان الاتحاديون قد حطموا الدولة العثمانية وفرقوا رابطة العروبة الإسلام فإن أتاتورك قد حقق عملا أوحــداً في التاريخ الإسلامي أشد قسوة من كل عمل هو إلغاء الخلافة الإسلامية وتحويل تركيا من دولة اسلامية تحمل لواء الجامعة الإسلامية وقيادة الأمم الاسلامية إلى دولة غربية خالصة تتنكر لكل ما هو عربي أو اسلامي ، وتولى وجهها شطر الغرب على نحو كامل جازم غير متردد وفق ثلاث قواعد أساسية .

(١) لغة تركية منتقاة مصفاة من ما هو عربي تكتب بالحروف اللاتينية . (٢) قوانين أجنبية غربية مستقاة من المصادر المسيحية والرومانية بعيدة كل البعد في منطلقها وأهدافها عن الشريعة الاسلامية . (٣) تنكر كامل لكل مخططات العروبة والاسلام الجغرافية والتاريخية والانتماء إنتماء كاملا إلى أوربا وعالم الغرب . ويؤكد أرنست ا . رافرور وصديقه أرنست باك وبمراجعة كتاب أرمسترونج الذئب الأغبر عن حياة مصطفى كمال أنه كان ماسونيا وأن المحفل الايطالي الذي ساعد الاتحاديين عام ١٩٠٨ على نجاح حركتهم كان معينا له في نجاح حركته ولعل آية الصدق في ذلك أنه ألغى الجمعيات الماسونية في البلاد بعد تقلده لواء الزعامة والحكم فيها ، فما الحاجة إليها بعد أن تحققت كل أهدافها وهو عمل قام به كثير من القادة العرب والمسلمين . ولا شك أن العنف الذي واجه به مصطفى كمال مؤسسات الاسلام وما قام به من دحر لنفوذه في تركيا يكشف بوضوح أنه كان من أخلص رجال المحافل الماسونية بل يصل إلى أبعد من ذلك عندما يؤكد ما ردده كثير من الباحثين من أن مصطفى كمال نفسه من أصل يهودي ومن الدونمة المقيمين في سالونيك . وأنه قد تخفى بالمكر والخديعة في معاركه حتى كسب قلوب المسلمين فأرسلوا له من التبرعات والأموال الشيء الكثير حتى إذا تمكن من أزمة الأمور سحق الاسلام سحقا والواضح من دراسة تاريخ حياة مصطفى كمال أمور عدة : (أولا) لم يكن هو قائد معركة التحرير ضد القوات الأوربية واليونانية وإنما هو الذي سيطر على هذه القوات من بعد وسحب أسماء الأبطال الذين بدأوا هذه المعارك وكان لهم دور كبير في تحقيق النصر من أمثال بكير وغيره . (ثانيا) إن أوربا قد سلمت

لمصطفى كمال بزعامة تركيا وانسحبت أمامه بعد أن وقع على مواثيق رسمية دولية فى مؤتمرات الصلح التى عقدت قرر فيها إزالة الإسلام والخلافة وإخراج زعماء المسلمين والحكم بالقوانين الغربية وإلغاء اللغة العربية والشريعة الاسلامية . (ثالثاً) إن هذه البطولة التى حيكت له أثوابها ووضعت فى هـذا الطابع من الروعة والبهاء إنما كانت خدمة النفوذ الاستعمارى لتأكيد وجـوده وسلطانه ومنحه القوة على تدمير كل المؤسسات الاسلامية حتى لا يبقى منها شىء يخيف أوربا أو يزعج اليهودية العالمية التى كانت تطمح منذ وقت بعيد إلى أمرين : القضاء على الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الاسلامية طريقاً للوصول إلى فلسطين .

ولقد دفع مصطفى كمال تركيا دفعاً قويا إلى العلمانية وفصل الدين عن الدولة واضطهد المسلمين والاسلام أبشع أضطهاد وقتل العشرات وعلق جثثهم على أعواد الشجر ، وأغلق المســاجد ومنع الأذان والصـلاة باللغة العربية وأعاد مسجد أيا صوفيا كنيسة ومتحفا واستبدل بالشريعة الاسلامية قانونا وضعياً ، واسـتبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية وألغى تدريس الإسـلام فى المدارس الجامعات وأقام قومية طورانية عرقية متصلة الأواصر بالوثنيين السابقين للاسلام .

ولقد كان منفذاً أمينا للمخطط الذى رسمه الاستعمار واليهودية العالمية فى مقابل التحرير وهو إزالة الخلافة وفصل تركيا عن العالم الاسلامى والأمة العربية . وبذلك حقق مصطفى كمال فى العالم الاسلامى وفى مواجهة العروبة أخطر حركة استغراب West erinisation وفرضها فرضاً على الأمة التركية ولم يحققها تدريجيا أو على نحو التقبل والتطور والمرونة ، فقد كان مدفوعا من القوى الأجنبية إلى تحقيق ذلك فى أقصى مدى ، وإقامة هذا النظام على أساس السلطة الحاكمة والقوانين والارهاب الدموى ، وذلك حتى لا توجد ثغرة من بعده للفتح على الاسلام أو الترابط بين العرب والترك . والمعروف أن الاتحاديين قد جمعوا شملهم المشتت بعد الحرب العــــالمية خلف مصطفى كمال فتسموا بالقوى الملية والـكماليين وجمعية مدافعة الحقوق . وقد واجه الاتحاديون مصيراً قاسيا بعد ذلك الدور الخطير الذى قاموا به فقتل منهم من قتل وفر أغلبهم بمدمرة أجنبية عن طريق البسفور وسلموا الأمة إلى الاعداء ولقد جرت محاولات للهجوم على الاتحاديين فى عهد مصطفى كمال أو التفرقة بين الطورانية التى حمل لواءها الاتحاديون وبين القومية التى دعا إليها مصطفى كمال ونفذهـا : هذه القومية المحـددة بحدود الأناضول وهى غير الدعوة الطورانية التى كانت تحاول جمع الشعوب التركية . وهو كلام ساذج قد يخدع البسطاء ذلك لأن جوهر الطورانية والـكمالية واحـد وهدفه واحد ، بل لقد كانت الطورانية دعوة فـكرية مترددة . أما الـكمالية فقد أعطت نفسها القوة العسكرية التى استطاعت بها أن تفرض

رأيها ، ولا فارق بين الدعوتين فى أبرز مظاهرها ومخططاتهما وهو إعلاء العنصرية التركية والمبالغة فى التغنى بالأمجاد ، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وتنفيذ نظام سياسى واجتماعى غربى لاديني منفصل عن الاسلام والشريعة والقيم والمعتقدات الاسلامية التى عرفتها الدولة العثمانية أكثر من أربعمائة سنة . والانتماء إلى الغرب الذى كان هو المناخ الفكرى للاتحاديين منذ أحمد رضا أغاييف إلى مصطفى كمال نفسه . ولقد كان انتماء تركيا إلى الغرب سبة فى تاريخها لم تسلم من قلم مؤرخ أو فيلسوف ، فماذا استطاعت تركيا أن تعطى الحضارة الغربية عندما انتمت إليها ، كما أعطتها شعوبها لاشىء ، إلا أنها كانت ولا تزال ذيلا لها ، وقد أشار توينبي إلى ذلك صراحة فى موسوعته وقال إن تركيا حين تغربت لم تقدم شيئا إلى الغرب أو جديداً إلى الحضارة وعاشت عالة على القوانين والمنظمات الغربية .

ولعل هذه عبرة الدعاة الذين طالبوا دعوا العرب والمسلمين إلى التغريب وحاولوا التمويه كذبا وادعاءاً وتبعية بالقول أن الحضارة الغربية لا تؤخذ وحدها وإنما تؤخذ مع الفكر الغربى وأساليب العيش الغربية ، وإن كل حضارة مثل كل طريقة حياة هى كل لايتجزأ . كذلك أشار توينبي ، وردد ذلك أحمد أغايف فى تركيا وطه حسين فى مصر . لقد اصطبغت تركيا قسراً بالحضارة الغربية : فكراً ومجتمعا فماذا حققت غير التخلف الذى سيظل طابعا لها إلى أن تتراجع عن هذا المخطط الزائف ، وتجد طريقها الصحيح للضوء فى ظلال الاسلام ، إن العرب المسلمين يستطيعون أن يأخذوا العلم التجريبى ويترجموه إلى لغاتهم ويقيموا مجتمعات ذاتيه قوامها فكرهم ومفاهيمهم فهم ليسوا فى حاجة إلى قوانين الغرب وشرائعه ، ولا إلى مفاهيمه الاجتماعية المنحلله فى مجال التوحيد أو النفس أو الإقتصاد أو التربية . خاصة فى مرحلتنا الحاليه التى وصلت فيها إلى أحط درجات الاضطراب والإجابة إن محاولة إخراج المسلمين من الإسلام باسم خروج أوربا من الدين مقارنة باطلة فان المسلمين والعرب قد شكلوا نفسيا واجتماعيا بهذا المركب الجامع بين الدين والحياة ، وهذا الترابط بين الإسلام والدولة وهذا الامتزاج بين العروبة والإسلام فأى محاولة لإخراجهم من طرازهم النفسى وذاتيتهم هو قضاء عليهم . والعبرة واضحة فى الدولة التركيه والانقلاب الكمالى . لقد كانت الدولة العثمانية تستطيع أن تتجدد وتقف موقف الأمم الراقيه دون أن تدمر مقوماتها فلم يكن الإسلام هو مانعها من الرقى ولكن التخلف عن فهم حقيقة الاسلام هى مصدر التخلف . إن كل ما أصاب الدوله العثمانيه أو العرب والمسلمين من تخلف إنما يرجع إلى تجاوز مفهوم الاسلام والحضارة الاسلامية فى مقوماتها الأصليه وكل ماتوصف به الدولة العثمانيه أو العرب من ضعف أو جمود أو فساد أو تحجر إنما جاء نتيجة الهوة التى قامت واتسعت بين الأساسية وبين الواقع المخالف .

لقد كانت الكلمة المضللة التى اتخذت مفتاحاً لكل هذا التحول هى أن الإسلام حائل دون النهضة وأن القانون السويسرى هو مصدر النهضة وقد فعلوا والنتيجة واضحة ليست فى حاجة إلى دليل . لقد كشف كثيرون دور الصهيونية العالمية فى التحول الخطير كله الذى شمل تركيا والبلاد العربية وأهدافه الأساسية : يقول عبد الله التل : إن اليهود لم ينسوا أن السلطان قد رد هرتزل وأيقنوا أن لا أمل لهم ولا فائدة من السلطان فقررت حكومة اليهود المستورة القضاء على الخلافة وحينما نجح اليهود فى تحطيم الخلافة لم يكتفوا بذلك وإنما رسموا لتركيا خطط المستقبل وقرروا أن تتخلى تركيا عن الخلافة وعن اللغة العربية وأن تتخلى عن الإسلام ثمناً لتأييد دول الحلفاء لها فى ثورتها التحررية التى قادها مصطفى كمال . لقد كان الوسيط الذى أشرف على اتفاق الحلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام حايم ناحوم الذى كان فى تركيا قبل انتقاله إلى مصر حاخاماً أكبر ليهودها » . نعم لقد رسم اليهود الخطط لقيام الدولة التركية على أساسين: [اللادينية Laicisme والقومية nationalisme . ليكون ذلك عازلا كاملا دون العرب والمسلمين والإسلام فى القانون والمجتمع والعلاقات الخارجية . لقد جاء أوان قطف الثمار : ثمار الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وكان على زعماء اليهود فى تركيا أن يضعوا الخطة ، وكان حايم ناحوم مع وستراوس، ومرجانيو سفيرى الولايات المتحدة يعملون من أجل دعم الوجود الاسرائيلى فى فلسطين وفى البلاد العثمانية . ولقد كان هو الوسيط القوى الذى أوفده مصطفى كمال إلى دول الغرب فى مؤتمر لوزان لحقق لتركيا ما أراد الغرب . وتشهد ترجمة الحاخام الأكبر إنه كان مدرساً للادب بمدرسة المدفعية الهندية فى استانبول حيث كان من تلاميذه (عصمت اينو نو) رئيس الحكومة الكمالية وعدد كبير من ضباط الجيش التركى .

يقول عبد الله التل : يا لها من مصادفة عجيبة أن يلتقى فى تركيا المهزومة أساطين اليهودية العالمية وأساتذة الماسونية من أمثال شتراوس ومورجانتو اليهوديين ليتعاونا مع حايم ناحوم على رسم طريق المستقبل للدولة التى كانت إلى زمن قريب تهز العالم وتقرع بجنودها الأبطال أبواب غرب أوربا ، ونجح أساطين اليهودية العالمية بمساعدة عدد كبير من الأتراك الذين يحملون أسماء إسلامية وهم من يهود الدونمة مثل مصطفى كمال باشا وجاويد بك وحسين جاهين يالنشين، نجحوا فى القضاء على الخلافة وفى إلغاء الدين وغدت تركيا دولة لادينية بفضل اليهود الذين نزعوا عنها ثوب المجد الوحيد الذى أوصلها إلى قمة العزة والمجد والسؤدد ، نزعوا عنها ثوب الاسلام فأصبحت تركيا منذ سنة ١٩١٨ حتى يومنا هذا تتخبط فى دياجير ظلمه حالكة تعجز مئات الملايين من دولارات اليهود عن إنارة الطريق أمامها اليوم وستظل دائماً ما دامت تسيرها اليهودية العالمية ــ كمية مهملة فى الميزان الدولى وفى ميزان

الحياة، ليس لها رسالة إلا خدمة اليهود وعبيدهم من دول الغرب الكبرى . والحق أنه بنهاية الحرب العالمية الأولى طويت صفحة من تاريخ العرب والاسلام فقد سقطت الدولة العثمانية وتمزقت . وخرجت حكومة تركيا من إطار الاسلام ومزق العالم العربي بين نفوذ بريطانيا وفرنسا ومكن للصهيونية العالمية فى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

(٢٧)
الخلافة الإسلامية

كان إلغاء الخلافة الاسلامية هو آخر المراحل التى تطلع إليها الاستعمار واليهودية العالمية من أجل تمزيق وحدة الاسلام والعروبة ، والقضاء على آخر صرح جامع للعرب والترك يحمل لواء الجامعة الاسلامية وينادى بالمسلمين فى كل بقاع الأرض . لقد كان إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الأحداث فى العالم كله ، وسيظل من الأعمال الكبرى ، وسيحمل لاسم مصطفى كمال أكبر التبعيات فى حكم التاريخ فقد فتح الباب واسعاً أمام صراع الاقليميات والقوميات التى تتحرك فى فراغ دون أن ترتبط بدائرة أساسية هى دائرة الفكر الاسلامى أو الوحدة الاسلامية الجامعة فى مجال الجغرافيا أو فى مجال الفكر . غير إن إلغاء الخلافة الاسلامية لم يحقق ما توقعه الاستعمار واليهودية العالمية من تمزق الاسلام أو اضطراب المسلمين والعرب الذين أغرقوا على التو فى أتون الأجناس والعصبيات والعنصرية بقصد تعميق عوامل الخلاف ودعمها والحيلولة دون قيام وحدة فكرية أو إجماعية بينهم .
ومن الحق أن يقال أن هذه الأحداث التى توالت من أجل تمزيق وحدة العروبة والاسلام إنما جرت تحت سلطان قاهر هو النفوذ الاستعمارى الذى تحكم بواسطة مؤسساته المختلفة فى الدولة العثمانية وفى البلاد العربية جميعاً . وكانت هذه المؤسسات هى :

(أولاً) الاحتلال البريطانى فى مصر . (ثانياً) الكيان اللبنانى القائم فى حماية دول الغرب فى بيروت . (ثالثاً) الاتحاديين ومن بعدهم الكماليين فى تركيا . (رابعاً) الاحتلال الغربى للدول العربية والتى شمل العالم الاسلامى كله بعد الحرب الأولى . وعن طريق هذه القوى وما تدفعه من فكر سياسى واجتماعى عن طريق الجامعات والمدارس والمحافل الماسونية والصحف والأنظمة السياسية الواقعة تحت نفوذ الاحتلال والتى تخرج رجالها فى الأغلب من الارساليات التبشيرية والمحافل الماسونية فرضت مفاهيم مغايرة لطبيعة الفكر العربى الاسلامى وجرت المتابعة والتكرار والالحاح مع تثبيتها من الأذهان لتصبح بعد خمسين سنة حقائق لا مفر منها ولا معارضة لها .

لقد ركزت هذه الدعوات التغريبية على الازدراء بالخلافة العثمانية والجامعة الاسلامية وعلى إثارة الصراع بين الاسلام والعروبة ، وبين القومية والوطنية ، وبين الاقليمية والقومية ، وبين العناصر المختلفة ، وبين الأديان والمذاهب وذلك كله لاذابة كل هـدف سليم واضح تطرحه حركة اليقظة الاسلامية للسير فى الطريق الصحيح إلى معرفة الحقيقة وإلى إتخاذ الأسلوب الأصيل لمواجهة الأخطار. لقد كانت الحملة الضخمة أساساً موجهة ضد الاسلام واضعة إياه فى قفص الاتهام بأنه مصدر الضعف والتخلف فى العالم الاسلامى ، وكانت الحملة الضخمة مركزة على مفهوم الاسلام الجامع بين الأمم والشعوب الداعى إلى الوحدة والأخوة . وكانت حملة أخرى أشد قوة موجهة إلى الشريعة الاسلامية ومهاجمتها وذلك لاحلال مبدأ فصل الدين عن الدولة فى أنظمة الحكم ومفاهيم التعليم وفى أنظمة القانون ، وإستبدال الشريعة الاسلامية بالقوانين الغربية وبذلك يمكن إخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقوماتهم وشخصيتهم ، والتمكين للاستعمار الغربى والنفوذ اليهودى فى فلسطين . ونتيجة للضعف السياسى الذى كان يمر به العالم الاسلامى فقد عجز قادة المسلمين عن إعادة بناء الخلافة الاسلامية مرة أخرى بعد أن أسقطها مصطفى كمال وإن ظلت عنصراً أساسياً فى مناهج الدعوات الاسلامية وخطة واضحة فى برنامج حركة اليقظة العربية الاسلامية . ومازال المسلمون والعرب يبحثون عن صيغة جديدة تحمل لواء الوحدة بديلا من الخلافة لا تحول دونها قوى النفوذ الاستعمارى المسيطر ، ولقد كانت مكة وجامعتها فى أيام الحج ، وكان الأزهر من القوى التى ساندت حركة اليقظة العربية الاسلامية بعد سقوط الخلافة وكان إنتعاش الوهابية الجديدة فى الجزيرة العربية واليقظة الاسلامية فى مصر والباكستان وغيرها من علامات التعويض السريع .

وقد صور الدكتور عبد الوهاب عزام الإثار التى ترتبت على إلغاء الخلافة فى العالم الاسلامى فقال : إن عمل الكماليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة والخطوة الأولى فى خطة موضوعه : خطة أملاها عليهم الروس والانجليز وأوروبا . لقد كان إلغاء الخلافة فى هذه الخطوب المكفهرة ، حل رباط حزمه من التعصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلغت أعداءهم أبعد غاية ، ولا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم وأحسب أن الانكليز كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كد » . وتكاد تجمع الأبحاث التى عرضت على أن على الخلافة الإسلامية هى مؤامرة إسلامية مدبرة ، وأن هناك ارتباط بين مصطفى كمال والنفوذ الغربى على ذلك وأن مواداً قانونية فى معاهدات دولية قد أقرتها تركيا تنص صراحة على الغاء الخلافة كثمن لتحريرها من الاحتلال

اليونانى والبريطانى . ولا شك أن إلغاء الخلافة كان عملا مرضيا لروسيا ولفرنسا وانجلترا واليهودية العالمية ولأوربا جميعا التى ما تزال تذكر تاريخ الدولة العثمانية وفتوحاتها فى قلب أوربا والتى وصلت إلى أسوار فينا وكان مفهوما أيضا أنه جزء من مخطط تمزيق العالم الإسلامى إلى قوميات وإقليميات تحول دون تجمعه أو ترابطه وبذلك تتساقط فى أتون الحضارة العالمية عندما تتحول كل قومية وإقليم إلى تبعية كاملة للفكر الغربى : هذه التبعية التى تكون نقطة البدء فيها فصل العروبة عن الإسلام وفصل الاسلام عن المجتمعات باقامة قوميات علمانية . وهناك ايماءات واضحة تشير إلى أهداف المخطط الذى رسمه الغرب واليهودية العالمية والذى تغذية المحافل الماسونية وارساليات التبشير تبدو واضحة فى أقوال بعض دهاقين السياسة الأوربية فالورد كرزون يخطب فى مجلس الأعيان البريطانى بعد محادثاته فى مؤتمر لوزان مع الأتراك فيقول : لقد قلت للترك بأن توجيههم وجوههم إلى جهة إيران والأفغان مضر بهم ، وأنه ينبغى لهم أن يوجهوا وجوههم نحو الغرب ويقيموا أنظمتهم على أساس الحضارة الأوربية . ويقول (لويد جورج) السياسى البريطانى وهو من كبار رجال الماسونية العالميين معلقا على إلغاء الخلافة : لقد تحررت الأديان المسيحية من إشراف الحكومات فى قارة أمريكا الشمالية كلها وفى الممتلكات البريطانية وفرنسا وقد حذت تركيا اليوم حذو هذه البلدان » . وقد أشار مصطفى كمال إلى اتجاهه فقال فى صراحة : إن وجهتنا هى السير من الشرق إلى الغرب ، اعلموا أننا لأننا اضطررنا إلى اختيار موطن لنا فى الشرق فقد وقع اختيارنا على موطن غربى بقدر الامكان لما للغرب من علاقة بمنشأنا الأول : فإذا كانت أجسامنا فى الشرق فأنظارنا ما برحت متوجهة إلى الغرب : إن فكرة الجامعة الإسلامية لا نصيب لها من الحقيقة .

وقالت جريدة (توحيد أفكار) التركية : أن على الغربيين أن يقيموا الدليل على أن أنظمة الحضارة الأوربية خير من أنظمة الحضارة الشرقية . وأكد الفيلسوف التركى رضا توفيق تبعية تركيا للفكر الغربى الفرنسى فقال : أن التفكير التركى يتجه إلى الناحية الفرنسية والمدرسة الفرنسية الآن التى هى تقود الروح التركية لأن الآداب من مبتكرات العقل الفرنسى وستبقى الروح الفرنسية هى التى تملى على الحياة التركية الفكرية وقد عرف القارىء بأن الثورة التركية وليدة الثورة الفرنسية » . وهذا كلام واضح يضع النقط فوق الحروف بالنسبة إلى نسب الثورة التركية ، وليدة الانقلاب العثمانى للاتحاديين وكلاهما مستمد من مصادر الثورة الفرنسية الأصيلة ألا وهى المحافل الماسونيه التى حققت بالانقلاب التركى الهدف الثانى من أهدافها الكبار وهو ازاحه الوحدة العربيه الإسلاميه والرابطه بين الترك والعرب والصله بين الاسلام والمجتمعات باسم القوميه اللادينيه المستوردة

من النظريات الغربية والمفروضة فرضا بقوة السلاح وسلطان الحاكم الديكتاتور . ولا شك أن إلغاء الخلافة وإقامة النظام الجديد كان يتركز أساسا على فصل الدين عن الدولة فى تركيا . فقد صرح مصطفى كمال أن الدين يجب ألا يتعدى المعابد وأن حرية الفكر هى أساس لحرية الدولة ولكل أنواع الحرية . وطالب كثير من النواب بإلغاء المواد التى تشير إلى الدين فى الدستور التركى وأعلن مصطفى كمال أن المادة التى تنص على أن الاسلام هو دين الدولة لم تعد صالحة لهذا العصر وأنه يجب حذفها من الدستور فى أول فرصة . ولا شك أن الدين الذى يشير إليه مصطفى كمال والذى يجب ألا يتعدى المعابد ليس هو الاسلام الذى نعرفه والذى يعرفه المسلمون : والذى هو نظام مجتمع ومنهج حياة ، وذلك أن هذه العبارات قد كتبت تحت ضوء أحداث وقعت فى أوربا وصف الدين فيها بهذه الصفات ثم نقلت نقلا لنقال عن الاسلام . ولقد تدرج مصطفى كمال فى إلغاء الخلافة ومادة الاسلام من الدستور التركى على مراحل متعددة ، فألغى الخلافة الزمنية أولا ثم أقام خلافة روحية على نسق البابوية حتى إذا تأكد من أن هذه الخطوة قد مرت بسلام عاد فألغى الخلافة فى ٣ مارس ١٩٢٤ وكذلك فعل بمادة الاسلام التى ألغاها نهائيا عام ١٩٢٨ بعد أن أثبتها فى الدستور الأول . ولقد كان عبد العزيز جاويش من أقرب الناس إلى حكام أنقرة فى هذه الفترة وكانت له محادثات طويلة مع مصطفى كمال ولذلك فقد جاءت نظرته إلى الأمور بعد إلغاء الخلافة غاية فى الدقة والوضوح . وفى بحث له تحت عنوان [القنبلة الكمالية تصيب كبد الإسلام وتركيا] يقول : الذين يزينون لمصطفى كمال مافعل إنما هم فئة من التتار التى دستها روسيا القيصرية بين الترك لقطع مايصلهم بالاسلام ، جاء هؤلاء المفسدون إلى الآستانه قبل الدستور العثمانى فزينوا للاتحاديين مسألة العنصريه والتباعد عن الإسلام .

لقد وسوسوا للاتحاديين بأن سبب تألب أوربا على تركيا إنما هو الإسلام وقيام الخلافه فيها ثم أخذوا يزينون لهم أن تعتبر غير البلاد التركيه من الأمبراطوريه العثمانيه مستعمرات مملوكه وأن يكون للعنصر التركى وحدة حق الحكم غير مشارك . ساقوهم إلى الطورانيه وزينوا لهم أن ذلك يمكنهم من ضم عشرات الملايين من الأتراك القاطنين فى أزربيجان وتركستان . كما استدرجوهم إلى محاربه اللغه العربيه بعد أن صارت نحو ٧٠ فى المائه من اللغه العثمانيه وإلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربيه » ثم أشار عبد العزيز جاويش إلى خلو المملكة العثمانيه بعد الحرب من المصلحين المفكرين مما وضع الأمور كلها فى يد هذا النفر « من التتار المارقين فما لبثوا أن بطشوا بيد مصطفى بطشتهم بالإسلام وتركيا جميعا » .

ولكن هل سارت الأمور حقا على هذا النحو الذى صوره عبد العزيز جاويش : أن الخلفيات التى كشفنا عنه فى هذا البحث تعطى صورة أكثر دقة للمخططات البعيدة المدى التى لم يكن فيهـــا أمثال يوسف أشقورة وأحمد أغاييف ورضا الب إلا مجـرد أدوات ، بل كان فيها مصطفى كمال نفسه بإرادته كواحد من الدونمة والماسون ، وعما أريد له ورسم من مخططـات إقامها النفـوذ الاستعمارى واليهودية العالمية ، كان فيها مصطفى كمال نفسه مجرد أداة ضخمة استنفرت فى شخصيته المليئة بالغرور والكبرياء والتطلع إلى الزعامة كل خواص الانتقام والهدم والتدمير لتحقيق هدف كبير ، أبعد كثيرا من مطامع كتاب التتار أو مصطفى كمال نفسه . ولقد كان من أطماع مصطفى كمال أن يكون خليفة ولكن النفوذ الأجنبي كان يرمى إلى قطع هذه الشجرة من جذورها ، وقد حقق ذلك وبلغ فيه إلى أقصى المدى . وذلك فإن المحادثات التى دارت بين عبدالعزيزجاويش ومصطفى كمال فى أمر الخلافة لم تكن من أجل الوصول إلى رأى فيها بقـدر ما كانت لكسب جاويش إذا أمكن إلى وصفه ، وهـو علم من أعلام الإسلام يكون لرأيه وزن ، ولذلك فإن مصطفى كمال ما كاد يرى اصرار عبد العزيز جاويش على موقفه الصحيح من الخلافة حتى أدار له ظهره ، وسحب كل وعوده فى الانتفاع به فى الأعمال الكبرى فى الدولة . ولقد حاول مصطفى كمال أن يرجع أمر الهزيمة التى منيت بها تركيا إلى الخليفة وهذه مغالطة ضخمة فإن الاتحاديين كانوا هم الحكام وهم الذين أصدروا قرارهم بالدخول فى الحرب ولم يستطع الخليفة عن رأيهم مخالفة . ويبدو ذلك واضحا فى الحديث الذى دار بين مصطفى كمال وعبـد العزيز جاويش والذى سجله هذا الأخير :

مصطفى كمال — ما رأيك يافلان فى أمر الخلافة وفصلها عن سياسة الدولة ؟

عبد العزيز جاويش — ليس فى الإسلام خلافة بلا قوة كما أنه ليس فى الإسلام خلافة مستبدة .

مصطفى كمال — أوليس أولئك الخلفاء هم الذين كانوا مصدر شقائنا وبلائنا أو ليسوا هم الذين ساقونا إلى تلك الحروب الطاحنة .

عبد العزيز جاويش — إن الخلفاء الذين أقاموا فى السنوات الدستورية لم تطلق أيديهم فى تدبير البلاد ولا كانوا مستبدين بأمرهم بل كانت تجرى الأمور فى المملـكة لا يحيطون بها علمـا ، وإذا كان لهؤلاء الخلفاء فى زمن الدستور شيء من الامتيازات القانونية فما ذلك إلا لكون الدستور جعلهم خلفاء على الأصول الرومانية لا خلفاء وفق الشريعة الإسلامية .

مصطفى كمال — كيف ذلك ؟

عبد العزيز جاويش — إن الإسلام أنكر الفروق الطائفية وامتيازات الطبقات والأفراد بعضها عن بعض فى الأحكام والتكاليف الشرعية ، بل أقام سائر العوالم البشرية فى مستوى من تكاليفه تتحاذى فيه الأقدام والرؤوس فلا يمتاز فى أحكام دين الإسلام رجل عن امرأة ، ولا أمير عن سوقه ولا فقية عن غيره ، بل كلهم خاضعون للقانون السماوى :

« ليس بأمانيكم ولا بأمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولن تجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا » . وبذلك سوى الإسلام بين الرعاة والرعايا فى سائر الأحكام والتكاليف فقضى بمجازاة من يعدون حدود الله بلا تفرقه ولا تفاوت ، فإذا أصاب أمير أو سلطان أو خليفة أى فرد بأذى كان عليه من الجزاء مثل ما على غيره من عامة الناس سواء كان ذلك الأذى عدوانا على نفس أو حاجة أو عرض أو مال . فليس فى دين الإسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا خليفة ولا سلطان ولكن تركيا التى قلدت أوربا اقتبست من القوانين الرومانية قاعدة أن الخلفاء فوق القانون والشرائع فأصبح الخلفاء بهذا خلفاء رومانيين لا خلفاء مسلمين ولو عقل رجال النهضة الدستورية إذ ذاك أدركوا ذلك الفارق البعيد بين دين يقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . ويقول « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . وبين شرائع قامت فى أقوام كانت تعبد الملوك والأباطرة وتعدهم مصدر الاشتراع والحكم فرفعتهم إلى مقام الإله الذى هو وحده يحكم ولا معقب لحكمه . أوجب دين الإسلام طاعة أولى الأمر ولكن على شريطة ألا يأتمروا بما يخالف أوامر الخلق ، ثم أبان لنا أنه إذا وقع تنازع بين الراعى والرعية وجب أن يتحاكموا إلى كتاب الله وسنة رسوله فلم يبح لأحد منهما مهما بلغ سلطانه وصولته إن يحكم الناس بما تهواه نفسه وتستطيعه شهوته حتى لقد أجاز للناس الخروج على غير العدول الذين لا يقفون عند حدود الله من السلاطين والأمراء مبيحاً لولى الأمر مقاتلتهم وقتلهم . يقول جاويش : بأن مصطفى كمال لم يصبر بعد وهم ، فهم بالوقوف إيذانا بالانصراف فانصرفت » ثم أوعز إلى فرقة فى المجلس أن تدعونى للاستقبال رسمياً وجاءنى خطاب من جلال نورى أن أكون بمركزها يوم ٢ يناير ١٩٢٣ وهناك تحدث جاويش فقال : إن سبب شقاء الترك وتأخرهم لم يكن دين الإسلام ولا قيام الخلافة فى بلادهم كما يزين لهم التتار الواغلون ويتوهمه الرهط المارقون ولكن الأمراض الاجتماعية والجهالة الفاشية الفاعلة فيهم ما تعجز عنه الأوبئة القتالة . أراكم تتكلمون عن الرئاسة الروحانية والرئاسة السياسية كأنى فى طائفة من الكاثوليك يشكون سلطان البابا وخلفائه من القساوسة ويألمون لما أصابهم من تصرف هذه الطائفة فى عقولهم ووجدانهم . لقد كنت أنتظر من قوم نبتوا فى الإسلام ودانوا به أن يدركوا مابين الدينين من الفروق الواسعة

والصفات التي لا يجتمعان على شيء منها ، ليس في الخلافة ولا في الإسلام ما توهمتهم من العيب ولكن « كيفما تكونوا يول عليكم » . لقد كانت تقام الأحكام باسم الله الحكم العدل حتى دب في مقلدة الغرب من المسلمين دبيب الوثنية الرومانية فصاروا فيما يسمونه بمصر للمدنية التي اتبعوا فيها أوربا شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، فقبلوا وهم أهل دين التوحيد الكامل ما جاءهم من الرومان الذين كانوا يعبدون الأوثان ويشركون ملوكهم بتلك الآلهة بل الذين كانوا يعتبرون في أساطيرهم صورة العلي الكبير الذي لا يسأل عما يفعل . لقد محا الإسلام ما كان بين طبقات الحكام وشعوبهم من الفروق والأحكام والشرائع كما حارب الطوائف الروحانية بما أنجى الإنسان من شرورهم ومفاسدهم . أبطل الإسلام عقيدة إرث الخطيئة وأزال الحجب والحواجز التي أقيمت بين الله وبين خلقه فمحا مصراعي باب القدس لكل مستفتح ومانحا رضوانه وجنته لكل طالب . بهذه الأحكام الرشيدة أنقذ الإسلام أتباعه من شرور رجال الدين الذين كانوا يحاولون الحيلولة بين الله وبين خلائقه ليلجئوهم إلى أن يتخذوا منهم شفعاء ووسطاء، حتى إذا ملكوا معاقل قلوبهم ساموهم العذاب. ويقص علينا تاريخ القرون الوسطى من هول سلطان الكنيسة ما تقشعر له الأبدان فمن حرمان من الإيمان إلى قادح من المغارم إلى إحراق بالنار إلى استئثار بالغفران إلى استباحة الأعراض إلى إفراط في الشهوات . ولم يكن المسيحيون في ذلك السلطان الديني القاهر بدعا من الأمم والملل فقد فعل اليهود من قبلهم شيئاً من ذلك ، كما أن البراهمة في الهند لا سيما في القرنين الخامس والسادس قبل المسيح بلغوا من الاستبداد بالأمر في العامة ما أمكنهم من رقابهم وأموالهم إلى أن ضجت الإنسانية وبرز المصلحون . من ذلك السلطان الروحاني (كما تدعونه) جاء الإسلام ليخلص القبائل والشعوب ويحرر النفوس البشرية وما كان لدين جاء لهذه الغاية أن يغسل الدم بالدم ويمحو الاستبداد بالاستبداد وينسخ الجور بالجور . هل اختص دين الإسلام الخليفة بعصمة من خطأ أو إثم ؟ هل منحه حق الاستئثار بتفسير كتاب أو سنة؟ هل خوله النيابة عن الله في غفران ذنب أو طرد من رحمة أو تحكم في عقيدة أو سيطرة على وجدان ؟ لم يحدث شيء من ذلك بل أوجب الإسلام على الخليفة إقامة العدل طبقاً لما نصت عليه الشريعة ثم جعله مسئولا أمام عامة المسلمين سؤاله أمام رب العالمين فجعل لهؤلاء إذ لم يعدل الخليفة عن الحق أن يخلعوه وأن يقتلوه .

نعم إن أحكام الإسلام أحكام دينية ولكنها ليست من النوع المعروف في تاريخ الأديان (بالثيوقراسي) فان هذا النوع معناه أن يكون الحاكم نائباً عن الله في الحكم والاشتراع على الناس طاعته وليس لأحد أن يخطئه أو يخالفه بل ولا أن يناقشه ، ذلك لأن الرئيس عندهم معصوم لا ينطق

عن الهوى فكل ما يأتيهم به من شرع ودين من عند الله لا يمارى فيه ولا يجادل فيه ، ذلك ما كانت تفهمه الأمم الغير مسلمة . كلما ذكرت عبارات : السلطنة الدينية ، السلطة الروحانية ، سلطة الكنيسة. ولقد التبس الأمر على غير الواقفين على أسرار الإسلام وأصوله فأخذوا بها كون الأمم الأخرى التى لم تسعد إلا بخلعها أطواق سلطة الكنيسة المذكورة آنفا عن رقابها . وإننى على ثقة أنه لو كان فى الدين النصرانى من الأحكام الهادفة للفروق الطائفية مثل الذى جاء به الإسلام لما اسودت صفحات الكنيسة بما فعلت فى القرون الوسطى ولما أريقت قطرة دم فى معالجة أطوافها والتخلص من سلاسلها وأغلالها » .

(٢)

لاريب أن خطة فصل الإسلام عن العروبة وفصل الدين عن الدولة كانت من مخططات الاستشراق والاستعمار كمقدمة لإسقاط الخلافة الذى تم عام ١٩٢٤ بعد فصل السلطة الدينية والسلطة السياسية عام ١٩٢٣ وإن ذلك كان مدبراً منذ وقت بعيد ولقد جرى الاعداد الفكرى لذلك منذ وقت بعيد ، فقد حملت جريدة المقطم لواء هذه الدعوة منذ عام ١٨٩٩ حين أوردت رأى المستشرق جبرائيل شارم الذى دعا إلى فصل الخلافة عن السلطة فيكون الخليفة غير السلطان ، وقوله : إن فصل السلطة الدينية عن السلطة الدستورية فى الإسلام يكف أوربا عن مناوأة الخلافه إذ لا يبقى محل لاصطدام مصالحها السياسية بالمصالح الإسلامية فيزدهر الإسلام وينتشر لزوال كل حائل سياسى من طرائقه ومما استشهد به المستشرق المذكور هو انفصال الكنيسة عن الحكومة فى كثير من الممالك الأوربية انفصالا كان نتيجة تقدم القوتين الدينية والدستورية تقدماً لم يسبق له نظير » .

وقد أحدث هذا الرأى مناقشة وجدلا طويلين . وقال أحد الذين تصدوا لمعارضة هذا الرأى الذى طرحته المقطم . « إنه إذا انفصلت الخلافة عن السلطنة العثمانية سقطت منزلة العثمانيين أمام الدول الأوربية فلا تعود قادرة على التسلح بسلاح الاسلام فتزول من نفسها وهذا ما لا يرضاه لها إلا أعداؤها . وأن الخلافة لم تنفصل عن السلطنة إلا لما كان الاسلام ضعيفاً مشتتاً وكانت غزوات التتار يتلو بعضها بعضا وكان الانشقاق قد تعاظم بين الامارات الاسلامية ، ولكن لما ظهرت الدولة العثمانية بمظهر القوة واعتزت بفتوحاتها المجيدة إخضاعها للأمم استحقت لكونها أحمى دول الاسلام هيبة وأعظمها صولة حينئذ أن تكون الخلافة والسلطة فى قبضة يدها ، فاذا ما انفصلت الخلافة عن السلطة فيكون ذلك ابتداء موت الدولة العثمانية لأن حياتها تتوقف على تقربها بين الأمم الاسلامية

لتعزيز شوكتها وشد أزرها . وقال : إن الفصل يقضي على الدولة . والجامعة الاسلامية لا تتم إلا بتقوية دعائم الممالك الاسلامية » . وإيماءة أخرى خطيرة حول فصل الاسلام عن العروبة والدين عن الدولة والمجتمع تـكشف عنه كتابات المقطم فى هذه الفترة وإلحاحه على تعميق هذا المفهوم والدعوة إليه ومن نماذج ذلك قوله : يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين ودين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمـكان اللذين نحن فيهما فاذا لم تدركه عامتنا كان الخطر محيطاً أبداً بخاصتنا .

لو سألت عامتنا اليوم عنه لوجـــدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة والدولة لا تقوم إلا بالدين وكلاهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهذا خطأ مبين لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التى تسعى إليها فى زماننا هذا هى غاية دنيوية محضة وأعنى بها تأمين الناس على أرزاقهم . أما الدين فالغاية المقصودة منه واحدة على اختلاف الزمان والمـكان وهى صلاح الناس فى هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم فى الآخرة ، فهو الصلة بين الأفراد الذين يدينون به وبين خالقهم ولـكل إنسان دينة » ولقد واجه المفـكرون المسلمون هـــذه المغالطة الواضحة فى تصوير الإسلام فى العالم الإسلامى وفق مفهوم الغرب المسيحية الغربية ، على أساس القول المضلل بأن الإسلام دين لاهوتى خاص بالعـــلاقة بين الله والإنسان ودحض هذه الشبهة بالقول بأن الإسلام دين ودولة ، ونظام مجتمع ومنهج حياة وأن محاولة تفريغه من مفهومه الأصيل حرب عليه يراد بها تمسيحه أو ضربه فى أقوى مقدراته وأعظمها : والذى يعنينا اليوم بعد هذا الوقت الطويل المار منذ ١٨٩٩ حتى ١٩٢٤ عندما ألغيت الخلافة الاسلامية أن مصطفى كمال أتاتورك لم يسقط الخلافة مرة واحدة ولـكنه فصل أولا بين السلطة السياسية والسلطة الدينية وأقام خليفة روحانى على نمط البابوية . وكان ذلك تطبيقاً لهذه الارهاصات التى سبقته بأكثر من ربع قرن وكـذلك قام عالم من الأزهـــر مثل الشيخ على عبد الرازق فردد ما ذكرته المقطم ورجالها خريجى معاهـــد الارساليات التبشرية فى لبنان ودعاة الاستشراق والماسونية وفق مخططات اليهودية العالمية . جاء الشيخ على عبد الرازق فى كتابه (الاسلام وأصول الحـكم) فردد هذه الفرية الـكاذبة وادعى أن الاسلام نظام روحى لاصلة له بالملك ولا بالحـكم ولا بتنظيم المجتمع أو السياسة . ومن ثم وضع جرثومة خطرة عاد المستشرقون بعدها ودعاة التغريب والغافلون من المسلمين يرددونها على أنها مذهب إسلامى ما دام قد أعلنه رجل من الأزهر ومن سن سنة خبيثة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ولقد تصدى الشيخ مصطفى

صبرى شيخ الاسلام السابق للدولة العثمانية إلى خطة مصطفى كمال بإلغاء الخلافة الزمنية وإقامة الخلافة الروحية بكتاب ضخم هام عنوانه (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافه والأمه) تصدى فيه لهذا الانحراف فى الفصل بين الدين والدولة ، وتصوير الاسلام على هيئة الكنيسه والبابويه من عزل السلطه المدنيه عن السلطه الروحيه ، كما ظهرت كتب كثيرة بعد إلغاء الخلافه فى الرد على ما أثاره كتاب تركيا الكماليه وعلى عبد الرازق من تفسير خاطىء الإسلام الجامع بين الدين والدنيا وبين اللاهوت ونظام المجتمع .

(٣)

ولا شك أن إلغاء الخلافه كان من أعظم المنجزات التى حققتها اليهوديه العالميه والاستعمار من أجل القضاء على وحدة المسلمين ، وكان مصطفى كمال أتاتورك المنفذ لها بعد أن عاشت فكرة تتردد على الألسنه والصحف تمهيداً لتحقيقها سنوات طويلة وقد ذاعت هذه الأقوال عن الفصل بين الخلافه والسلطنة فى أيام السلطان عبد الحميد ثم ترددت فى أيام الاتحاديين حتى جاء مصطفى كمال فحققها .
وقد أشارت جريدة الأهرام عام ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافه إلى هذا المعنى حين قالت : إن ما نراه اليوم من إلغاء الخلافه والاتحاد وطرد آل عثمان ليس ابن ساعته بل نتيجه لمقدمه سياستهم منذ عام ١٩١٠ وقد ردد ذلك مصطفى كمال قبل أن يقدم بخطواته تلك فى تصريحات متعددة منها قوله : إننا عازمون على أن ندوس بأقدامنا وننسف كل مواقع وحوائل فى طريقنا التى تذهب بنا من الشرق الذى ودعناه إلى الغرب الذى يممناه حتى إن « التغريب » لا يقتصر على شئوننا الرسميه وقوانيننا بل ستكون أدمغتنا وعقليتنا أيضاً غربيه بحته ولا حاجه لنا بعد الآن إلى قيام الخلافه والوزارة الشرعيه والمدارس الدينيه .

وقد كشف مصطفى صبرى العلاقة الوثيقة بين الاتحاديين والكماليين ، فقال : ان عدم الغيرية بين الكماليين والاتحاديين هو الحق الذى لا شبهة فيه لنا ولا لأحد يعرفهما من قريب ، وقد تسموا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقى ، وبعد الهدنة جمعوا شملهم فى حاشية مصطفى كمال فتسموا بالقوى الملية والكماليين وجمعية مدافعة الحقوق وتناسوا اسم الاتحاد وتناكروه وهم هم بأعينهم ثم قال : ولا فرق بينهما أيضاً من حيث المبدأ : فكلاهما متفق فى نزع السلطة عن الخلفاء والسلاطين ومنحها لصناديده تحت شارة منحها للأمة ، وكلاهما لا دينى يتراأى للناس نراه بوجهة طورانى متعصب

الجنسية وتارة بتقحمات البلشفة، وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق الهرج والمرج وكلاهما خائض فى غمرات الظلمة والبغى وإن تميزت حقوقهما بسياسة الشدة التدمير.

ويعلم الله وكل واحد فى تركيا أن غيرهما (يقصد السلطان عبد الحميد) لم يأت بعشر عشر من معشار ما أتيا به من الشدة والتعسف. وصفوة القول أن الكماليين ليسوا بأخيار الاتحاديين وأن النهضة الكماليه مرتبة ومدبرة لإحياء مبادىء الاتحاديين بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أقاموا الدولة العثمانية الكبرى فى الحرب العالمية (الأولى) وأن الاتحاديين الذين هدموا الأمبراطورية العثمانية على ما اعترف به لدى الكماليين لو لم يكن الكماليون منهم ومعهم فى أفعال الهدم على مابينا ثم لم يزيدوا عليهم بهدم الخلافة الإسلامية أيضاً. وأشار الشيخ مصطفى صبرى إلى الاتحاديين هم الذين أوقدوا نار الحرب فى داخل المملكة وبين عناصرها من ألبانها وأكرادها وشرا كستها وعربها بل وتركها. وبدلوا فى عشر سنيين أكثر من عشرة أصدقاء وأعداء لهم من الدول حتى دخلوا الحرب الكبرى من غير ضرورة وغلبوا فيها إلى أن سلموا الآستانة وهى عاصمة الامبراطورية بأيديهم إلى عساكر الأعداء، ويكفى فى هذا الصدد أن نشير إلى ما أورده حسين لبيب فى كتابه تاريخ المسألة الشرقية حين قال: يكفى أن الدولة العثمانية فى عهد الاتحاديين بدخولها الحرب العالمية قد فقدت مليون رجل بين قتيل وجريح وأسير وأنها خسرت خمسة آلاف مليون جنيه، ويردد مصطفى صبرى الحقيقة القائلة بأن خلع السلطان عبد الحميد كان جزءاً من مؤامرة اغتصاب فلسطين وأن ذلك لم يكن ممكنا إلا بانحلال الأمبراطورية العثمانية وأن اليهود شوهوا سيرة عبد الحميد وشنعوا به وجازت فريتهم على المسلمين مع أن الرجل كان يقاوم النظم النيابية لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من ملاحدة الفرنجة الواقعين فى أحابيل الصهيونية العالمية. وأشار إلى أن الكماليين والاتحاديين ليسوا سوى حزب واحد وأن ليس بينهم خلاف على المبادىء ولكنه خلاف شخصى مبعثه التنافس على الزعامة وهم المسئولون عن ضياع الأمبراطورية العثمانية منذ وضعوا أيديهم على الدولة بعد خلع عبد الحميد. ويرى الشيخ مصطفى صبرى أن الانجليز تشددوا فى معاملة السلطان وحيد الدين حتى أعجزوه ثم تساهلوا بعض ذلك مع مصطفى كمال ليجعلوا منه بطلا فتعظم فتنته فى أبصار المسلمين وبصائرهم، والرجل من لا تجد الانجليز مثله، فأوجدت فى طلبه من حيث أن يهدم من ماديات الإسلام ومن أدبياته فى يوم مالا يهدم الانجليز أنفسهم فى عام فلما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات استخلفته لنفسها وانسحبت من بلادنا». وآية ذلك أن مصطفى كمال عندما حضرته الوفاة اقترح أن يكون السفير البريطانى فى تركيا رئيساً للجمهورية بدلا منه. ولا شك أن

قبول مصطفى كمال لرغبات القوى الاستعمارية فى لوزان فى بروتوكول سرى لالغاء الخلافة وهـدم الاسلام هو الذى سهل له كل الأمور حتى أعلن مندوبهم (رضا نور) أن الغرض من فصل السلطنة عن الخلافة هو إلغاء الخلافة وإبطالها على التدريج . وأشار مصطفى صبرى إلى أنه من طبيعة الاتحاديين والـكماليين أن لا « يجدوا من الدين » (الاسلام) ما يحول بينهم وبين ما يرون تحقيقه فالدين يمنعهم من طغيانهم وعدوانهم ، فهو مانع يمنعهم من حريتهم واستعبادهم ، وان موقف الدين فى عاصمة تركيا لسنوات كان غريباً فى وطنه عند أبنائه الذين تربوا بلبان للمعارف الأوروباتية ولا سيما بعد تشـكلهم إلى شـكل سياسى يرمى إلى هدف معين ظاهرهم الاتحاديون وباطنهم البناءون الأحرار » .

(٤)

أن إلغاء الخلافة الاسلامية كان أمراً مقرراً منذ اليوم الأول للانقلاب العثمانى الذى قام بإسقاطه السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ولـكنه نفذ على مراحل واتخذت إجراءاته واحدة بعد أخرى حتى تم تنفيذه على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ بعد أن أسقط الخلافة الزمنية وأقام بدلا منها خلافة منفصلة عن السلطنة توطئة للاجهاز عليها جملة .

وفى خلال هذه الفترة أنفذ الـكماليون الـكثير من التعليلات والتبريرات وفى مقدمتها كتاب (خلافت وحاكميت ملية) الذى نشرته الحـكومة التركية بدون توقيع شأنها فى ذلك شأن إصدارها من كـتاب (قوم جديد) . ولقد اعتمد على هذا الـكتاب الشيخ على عبد الرازق اعتماداً كلياً عندما وضع كتابه (الإسلام وأصول الحـكم) الذى قصد فى للمغزى السياسى محاربة المحاولة التى قام بهـا الملك فؤاد للمناداة به خليفة للمسلمين تحقيقاً لهدف بريطانيا التى كانت من وراء معارضة حزب الأحرار الدستوريين ، هذه المعارضة التى أرادت أن تتخذ لها أسلوباً أقرب إلى الطابع العلمى الفقهى فاصطنعت أحد رجالها فى هذا الصدد . غير أن هـذا الـكتاب أثار بادرة خطيرة وفتق فتقا جديدا فى تحريف مفاهيم الإسلام والتعرض بالخلط والخطأ لقاعدة ضخمة أساسية من قواعد الإسلام وعمده الأصيلة وهى قاعدة فصل الدين عن الدولة أولى ركائز الإسلام المخالفة به والمتميزة عن الأديان الأخرى التى أقرت هـذا المعنى واعتمدته نتيجة لطابع دينها . فليست الأهمية هنا فى القول بالخلافة كنظام ولـكن الأهمية فى القول بالقاعدة الإسلامية الـكبرى التى تعد معارضتها أو محاولة النيل منها أو إلغائها تحريفا خطيراً متعمداً لأصل من أصول الإسلام . ولقد كان من آثار هذا الـكتاب أن وجـد

المستشرقون والمبشرون ودعاة التغريب تكأة خطيرة اعتمدوا عليها بعد ذلك فى مباحثهم ، مزقت الجبهة الإسلامية الفقهية الموحدة بالقول بأن هناك رأيين : أحدهما يرى أن الإسلام دين ودولة والأخرى يرى أن الإسلام دينا روحانيا خالصا وهو الرأى الزائف المنحرف عن الأصول الأصيلة والذى قال به على عبد الرازق وحمل تبعته وتبعة من سار وراءه أو حاول الاعتماد عليه . وهذا هو السر فى ذلك الاهتمام البالغ والتقدير العجيب الذى يحيط به خصوم الفكر الاسلامى هذا الكتاب الذى ليس من المنهج العلمى أو الحقيقة المنزلة من لدن الله فى شىء وقد أكد العلماء والباحثون خطأ ما ذهب إليه على عبد الرازق ووصف هذا العمل السيد محمد رشيد رضا بأنه هدم لحكم الاسلام وشرعه من أساسه وتفريق لجماعته وإباحة مطلقة لعصيان الله ورسوله فى جميع الأحكام الشرعية الدنيوية من شخصية وسياسية ومدنية وجنائية وتجهيل للمسلمين كافة من الصحابة والتابعين وأنه مخالف لما لا يحصى من النصوص القطعية المجمع عليها المعلومة من الدين بالضرورة .

وأن جل مادته من بعض كتب الافرنج التى كتبوها عن الخلافة وأن مادته مجموعة من كتب لا تمت إلى الفقه الاسلامى بصلة مثل كتاب الأغانى وكتاب العقد الفريد ولم يكن منها صحيح البخارى ولا صحيح مسلم ولا موطأ مالك ولا مسند أحمد ولا شىء من كتب السنن وقد أجمع علماء المسلمين على أن كتاب على عبد الرازق قد جانب الواقع والحق والشرع فى سبعة مواضع : (الأول) جعل الشريعة الاسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا . (الثانى) وأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ولا لابلاغ الدعوة إلى العالمين . (الثالث) وأن نظام الملك فى عهد النبي كان موضوع غموض وإبهام واضطراب وموجبا للحيرة .

(الرابع) أن مهمة النبى كانت بلاغا للشريعة مجردا من الحكم والتنفيذ (الخامس) إنكار إجماع الصحابة على وجوب تنصيب الامام وعلى أنه لا بد للأمه ممن يقوم بأمرها فى الدين والدنيا . (السادس) إنكار أن القضاء وظيفة شرعية . (السابع) أن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضى الله عنهم كانت لادينية .

(٢٨)

الدعوة الإقليمية المصرية

كانت مصر معدة بعد الحرب العالمية الأولى لأن تسير فى التيار المصرى الوطنى للانفصال عن العروبة والجامعة الاسلامية من الناحية السياسية وعن الاسلام فكراً وعقيدة من الناحية الأخرى . فقد سقط الحزب الوطنى قبل الحرب وكان يحمل لواء الوطنية المصرية ذات الاتجاه العربى والارتباط بالجامعة الاسلامية والخلافة العثمانية وقد واجه هذا الاتجاه حملة ضخمة فى السنوات السابقة للحرب ومن أجل ذلك كان إنشاء حزب الأمة وصدور الجريدة وتصدر لطفى السيد الدعوة للمصرية التى وصلت إلى أعلى صور الاقليمية بالدعوة إلى تمصير اللغة والتعليم والتى هاجمت الانتماء العربى والفكر الاسلامى هجوماً شديداً حتى وصف لطفى السيد بأنه العدو الأكبر للجامعة الاسلامية والعروبة. كان التخطيط الاستعمارى يهدف إلى عزل مصر عن الدعوة العربية التى كانت قد تحركت فى سنوات الحرب لاقامة دولة عربية من الحجاز وسوريا وقد اعتبرت هذه الدعوة « مصر » خارج لنطاق العروبة . وكانت الدعوة الوطنية قد أخذت تعلى من شأن الفرعونية كرد فعل على إتهام الاستعمار لمصر بأنها ليست أمة ، وأنها كانت محتلة بالرومان وغير الرومان على تاريخها الطويل كما اتخذت مصر منذ إحتلالها مركزاً للطورانيين والاتحاديين خصوم السلطان عبد الحميد وكانت صحافة مصر التى يصدرها خريجو معاهد الارساليات التبشيرية فى لبنان قد قادت حركة فكرية تحمل طابع العزلة الكاملة لمصر عن الدولة العثمانية وعن العروبة ، ثم جاءت كشوف الحفريات الفرعونية مادة جديدة لاعلاء شأن الاقليمية المصرية ذات الماضى الفرعونى .

تولى الحكم فى مصر خلفاء حزب الأمة وكان سعد زغلول ولطفى السيد هما أبرز قادة الفكر والسياسة فى هذا المجتمع الجديد وهما المؤهلين منذ عام ١٩٠٧ لهذه القيادة حينما اختير لطفى السيد لقيادة أكبر حملة صحفية نحو مصر للمصريين وفصل مصر عن العروبة والاسلام جميعاً وكان سعد زغلول هو ناظر المعارف الذى حمل لواء الدفاع عن اللغة الانجليزية ، وكان كلاهما من أولياء النظرية التى رسمها كرومر فى تقاريره وجعلها عقيدة للحكم المصرى المقبل ، لتبنى قادة لمصر على أساسها وهى تقوم أساساً على . (أولا) خلق طبقة من المصريين المتفرنجين والمستغربين من الوجهة الأوربية والمدنية الحديثة ، هؤلاء وصفهم كرومر بأنهم « جديرون بكل تنشيط ومعونة وهم فى تقدير الخلفاء

الأوربى المصلح ، وهم حزب يبنى وطنه ويبنى دينه ولكن ليس على صيغة الدعوة الاسلامية وهم يساعدون الأجانب على إدخال التمدن الغربى إلى البلاد .

(ثانياً) إنهم يعملون على كسب التقدم الدستورى بطرق معتدلة ويدعـون إلى تحقيق الأمانى الوطنية باتفاق يحدث بين الاحتلال وأعيان المصريين وحدهم لأنهم أصحاب المصـالح الحقيقية .
(ثالثاً) إنهم يؤمنون بما يؤمن به كرومر من أن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا فى سلم الحضارة والتجديد إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامر ظهرياً لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويبث فيهم روح البغض لمن يخالفهم وأن القرآن هو العقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة وإن الإسلام يناهض مدينة العصر (رابعاً) تنمية الوطنية المصرية بعيداً عن دائرة الجامعة الاسلامية والعروبة وفى نطاق الفـكر الأوربى الليبرالى فى مجال السياسية والتربية وانشاء حـكومة تنفصل فيها السياسة عن الدين تماماً .
وإذا كان النظام السياسى فى مصر خلال ما بين الحربين قد تشـكل من خلال « الوفد المصرى » بقيادة سعد زغلول وانقسم إلى عدد من الأحزاب أو الزعماء المستقلين فان هذه الأحزاب على ما بلغت من خلاف وصراع كانت تتبنى هذه الأفـكار وتفصل فصلا واضحاً بين مصر والعروبة وبين مصر والاسلام وبين العروبة والاسلام وتقيم منهجها السياسى على أساس الفـكر الليبرالى الغربى العلمانى مع الاحتفاظ ببعض المظاهر الاسلامية التى كانت تستمد وجودها من مفهوم غربى أيضاً — وليس مفهوماً إسلامياً — وهو أن الاسلام دين وعبادة ومساجد وهو مادة فى الدستور تعطى مظهراً إسلاميا فى الاعياد والمناسبات فحسب . أما فهم الاسلام على حقيقته : نظام مجتمع ومنهج حياة فقد كان ذلك ممـــا اتفقت الأحزاب جميعاً على إبعاده ، فضلا عن الانتماء العربى أو الوحدة الاسلامية .
غير أن حركة اليقظة الاسلامية التى كانت مصر قاعدة هامة من أبرز قواعدها وهى التى كانت تمثل الكيان الاجتماعى للأمة فقد كانت تحمل لواء هذه المفاهيم وتدعو إليها وتؤكد ترابـــط العروبة والإسلام . وفى خلال هذه المرحلة اتسعت حركة التبشير وأحدثت إرتطاماً كبيراً فى أفق المجتمع الإسلامى المصرى كان له ضجيج ضخم ، وكان من العوامل القوية فى إعادة تشكيل الفكر الإسلامى ودفع حركة اليقظة العربية الإسلامية إلى الأمام خطوات .

وقد ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى على أساس إن مصر هى مركز الثقل فى العالم العربى كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملا هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء .
وكان لمعاهدة لتران التى عقدت عام ١٩٢٩ بين الـكرسى البابوى والحـكومة الإيطالية والتى حصلت

الفاتيكان بموجبها على تعويض ضخم (مئات الألوف من الجنيهات) أعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه إلى دعم الحركة التبشيرية ، كان لهذه المعاهدة أثرها الواضح فإنه لم تـكد تمض على ذلك شهور معدودة حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة عن طريق بعض المعاهد الـكبرى للارساليات وبعض مستشفياتها ، ولم تلبث أن كشفت الحركة عن أحداث خطيرة وكان الهدف هو إضعاف معنويات الشعب باضعاف عقيدته . وقد تبين من إنعقاد مؤتمرات التبشير بعد الحرب الأولى أن خطوات جديدة قد اتخذت وأن تحولا أخطر قد أخذ طريقه إلى مجال العمل التبشيرى ، فقد كشفت التقارير على أن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين فى دين آخر ، وإنما هو إخراج المسلمين من دينهم فيصبحوا لادينيين ومادى الفـكر وبذلك يسرى فيهم الإنحلال وتتحطم مقومات الفـكر الإسلامى وقيمه من ناحية التطبيق على الناس ، وتغليب طابع التفرنج الذى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية .

وكان تركيز الاستعمار عن طريق التبشير إلى دعم « الاقليمية » والدفاع عن « الفرعونية » التاريخية وإعلاء شأنها وإذاعة تاريخها والدفاع عن « العامية » وضرب اللغة العربية الفصحى بهـا والدفاع عن النظام الليبرالى الغربى والحضارة الغربية وإثارة الشبهات حول الإسلام وتاريخه وأبطاله والتهوين من شأنه فى مجال الحضارة أو الفـكر أو الاجتماع وذلك كله لدعم الاقليمية والقضاء على الترابط الجذرى بين العروبة والإسلام وحتى تظل مصر معزولة عن كل حركات العروبة أو الجامعة الإسلامية وتبقى تحت شكلها الفرعونى الموهوم وارتفع فى هذه الفترة صوت الصحف الـكبرى (كالأهرام والمقطم) والمجلات البارزة كالهلال والسياسة الأسبوعية إلى الفرعونية والمصرية والاقليمية واجتاحت البلاد حركة ضخمة من حركات التبشير بالتاريخ الوثنى القديم ، والفرعونية . ولقد واجه دعاة اليقظة العربية الإسلامية هذه الحركة مواجهة حاسمة : وعملوا فى ميدانين متكاملين : (أولا) الـكشف عن فساد دعوة الفرعونية والاقليمية والتركيز على عروبة مصر . (ثانياً) دعم الترابط الجذرى بين العروبة والإسلام وتأكيد الرابطة الإسلامية بين العرب والمسلمين . غير أن الدعوة الفرعونية لم تلبث أن اصطدمت بالواقع وانـكشف أنها لا تستطيع أن تفرض وجوداً فـكرياً لأنها لا تحمل تراثاً تاريخياً ولا ترتبط بالمصريين فى العصر الحديث بأى رابط من اللغة أو الفـكر أو العقائد . وكان لأصالة الفـكر الإسلامى فى مصر وعمق الانتماء العربى الاسلامى أثره فى القضاء على هذه الموجة التى انهارت عندما طلعت أضواء الحقائق . وقد وازت هذه الدعوة فى مصر دعوات أخرى فى سوريا ولبنان والعراق والمغرب غير أن أكثر هذه الدعوات تمـكنا من البقاء هى الفينيقيه فى لبنان ولذلك أسباب واضحة

هى وجود ركائز من المسيحيين المارونيين الحريصين على أن يجعلوا من هذه الدعوة سناداً فلسفياً للعزلة عن الأمة العربية وعن الرابطة الإسلامية الجامعة ولقد كانت لبنان قد ركزت على هذا الاتجاه منذ وقت طويل وهدفته ، فلم تكن موجة الفينيقية إلا غلافاً عقائدياً لحقيقة واقعة .

(٢٩)

الفينيقية اللبنانية

إن مخطط تمزيق العالم الإسلامى عامة والدولة العثمانية خاصة قد رسمت له خطة سياسية وخطة فكرية عقائدية ، اعتمدت الأولى على إثارة الخلافات والمؤامرات وتحريك الأحداث على النحو الذى يحقق الفصل والتجزئة على النحو الذى حدث فى إثارة فرنسا وانجلترا للعنصرين المتماشين فى لبنان منذ مئات السنين وذلك تمهيداً لعزل هـــذا الجزء من الدولة العثمانية وإعلان نظام خاص به وتأهيله لأداء دوره الخطير فى حركة تمزيق الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية وما أطلق عليه من تعبير الوحدة العربية . ولكى يتحقق هذا المخطط ويصل إلى غايته فإن لبنان هى التى تقود حركة الإرساليات التبشيرية ومعاهدها الفرنسية والأمريكية الضخمة على اختلاف ما بينهما من اتجاهات ولكنها تتجمع فى بؤرة إعداد العالم العربى بعد انفصاله عن الدولة العثمانية ليكون واقعاً تحت تأثير الفكر الغربى ويكون خريجى هذه المعاهد بمثابة الطلائع والقيادات السياسية والفكرية للبلاد العربية . وقد تحقق ذلك فى سرعة غريبة بتخريج جماعة المقطم والأهرام والهلال فى مصر وكان لهم دورهم الخطير فى عملية التغريب وفى تمزيق وحدة العروبة والإسلام .

وبعد سقوط الدولة العثمانية ١٩١٨ وانتهاء المرحلة الأولى من عمل هذا المركز الحيوى الخطير ، كانت هناك مرحلة أكبر أهمية وخطراً ، استتبعت تحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير بضم أربع ولايات من سوريا إليه وتشكيله على نحو جديد متوازن ، القوة العليا فيه للطائفة المارونية وبقية مراكز النفوذ موزعة بين السنة والشيعة من المسلمين على نحو يجعل دائماً ميزان القيادة السياسى والفكرى بأيدى القوى الكاثوليكية المسيحية وأكبرها المارون ، هذه القوى ذات الروابط العميقة البعيدة منذ مئات السنين مع كنيسة روما ومع فرنسا ومع الساحل الأوربى تجارة وثقافة . وكان لابد أن يصاغ هذا الكيان اللبنانى صياغة فلسفية قوية تجعله قادراً على الدفاع عن نفسه فى مواجهة الأحداث والدعوات وخاصة فى مواجهه اليقظة العربية الإسلامية والعروبة بالذات بحيث يغالى

منغلقا على نفسه ازاء هذه الدعوات والحركات قادراً على القيام بدوره المؤهل له والذى بات يوصف بأنه السائر فى طليعة البلدان العربية فى حمل لواء النهضة العربية الحديثة من أوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . وهو دور لا يقره الكثيرون على هذا النحو ولا يعترفون به قائدا أو رائدا وربما وصف بأنه أقوى مراكز التوجيه الغربى أو قيادة الغزو الثقافى والتغريب وحمل جميع جراثيم الشبهات والتحديات التى حاولت اشاعة البلبلة والخطأ فى وجه الفكر الإسلامى ، والتاريخ واللغة العربية والتراث والفقه والقرآن . ولا ريب أن حركة اليقظة العربية الإسلامية ذات الجذور العميقة فى نمو الفكر والثقافة الإسلاميين وتحريرها من الجمود القديم والتبعية الغربية هى صاحبة الدور الأصيل فى العمل فى العالم الإسلامى كله وهى امتداد طبيعى للفكر الاسلامى الذى يستمد مناهجه من المنابع الأصيلة ويرتبط أساساً بالقرآن والتوحيد الخالص .

ومن هنا فإن الكثيرين لا يقرون هذه الدعوى لقيادة لبنان للفكر العربى أو زعامته أو ما يمكن أن يوصف بأنه دور لها فى الطليعة أو النهضة ، الا اذا وصف دور الارساليات التبشيرية ومعاهدها وصحفها ودعاتها بأنه هو وحده العمل الذى يقود النهضة العربية الاسلامية المعاصرة . ولا نذهب فى ذلك الى القول بما يقول به بعض المتحمسين — وربما يكون بعيداً عن الحقيقة — من أن لبنان قد أراد له الاستعمار والنفوذ الغربى واليهودية العالمية أن يكون رأس جسر خطير للغزو ومركز حصين للقضاء على اليقظة العربية الاسلامية الحقيقية ومقوماتها وضربها دوماً بالصحف والكتب والدعوات والمذاهب التى تظهر فى ورق براق لامع وضجيج كثير .

ذلك أن الدعوة التى تحملها إرساليات التبشير فى لبنان وتنثرها على العالم الإسلامى كله وتحاول أن تجعلها عقيدة يعتنقها العرب والمسلمون من خلال احتضانهم للدعوات القومية والليبرالية والديمقراطية وغيرها ترمى إلى هدف واحد هو عزل العروبة عن الإسلام وتعميق الهوة بين المجتمع العربى الإسلامى وأقوى عناصر وجوده قوة وأعمقها جذوراً وهو الإسلام وذلك عن طريق كثير مما يروجون له من الدعوة إلى القومية العلمانية أو اعتناق الحضارة الغربية أو الدعوة إلى وحدة الثقافة العالمية أو فصل الدين عن الدولة أو إثارة الخلافات بين العناصر والأديان والمذاهب المختلفة التى كانت مؤتلفة موحدة فى إخاء وصدق قبل أن تصل إلى العالم الإسلامى طلائع الغزاة ومعهم المستشرقون والإرساليات . لقد رسمت مخططات الغزو والتمزيق ما سمى بالكيان اللبنانى على هذا النحو السياسى الذى تم بفصل لبنان منذ ١٨٦٠ وجعله مركزاً للارساليات ثم بخلق لبنان الكبير بعد الحرب العالمية الأولى وارتفاع الصيحة الفلسفية القائلة بأن لبنان كيان خاص قائم على أساس أمة ليست من جنس

العرب ولا يشتركون معهم فى شىء إلا فى اللغة. ولقد استطارت هذه الدعوة بعد الحرب باسم الفينيقية ووضع لها المستشرقون الفرنسيون أيدلوجيتها كما وضع غيرهم من قبل فلسفة الطورانية وذلك من خلال شبكة الماسونية العالمية التى أعدت مع الإستعمار النموذج « البديل » الذى يقدم للشعوب والأمم فى نفس الوقت الذى ينتزع منها « الواقع الأصيل » ولقد كانت الخطة أن يكون البديل هو مبدأ القوميات ذات الطابع الغربى القائم على العلمانية والصراع والاستعلاء بالعنصر والدم والقوم بديلا عن الوحدة العربية الإسلامية السائده الجامعة التى كانت تنتظم المسلمين والعرب، ولقد دفعت هذه القوى الاتحاديين فى الدولة العثمانية لرفع لواء الطورانية التى كانت تتفق مع طبيعة المثقفين الأتراك الذين كانوا قد جردوا من ثقافتهم الإسلامية وغمسوا فى ثقافات الثورة الفرنسية وخاصة أوجست كونت ودينه الذى تعبد له غير واحد من كبارهم مثل أحمد رضا وكذلك صنعت الإرساليات فى لبنان عقلية جديدة منكرة للفكر الإسلامى، قد شحنت بالتعصب والكراهية والحقد على العرب والمسلمين ودعيت إلى الاتجاه إلى الفينيقية، مع الارتباط الغربى القديم: ارتباط الكنيسة والثقافة والتجارة، وقامت الدعوة إلى ثقافة البحر المتوسط الجامعة بين لبنان وفرنسا.

ولم يتوقف لبنان عند اعتناق هذه النظرية لنفسه، بل أصبح داعياً للعرب جميعاً ولكل من يرد موارد الإرساليات إلى حمل لواء أمرين: (الأول) إحياء العنصرية البائدة القديمة من فينيقية وكلدانية وكنعانية وحيثية وأشورية وآرامية وفرعونية وذلك للقضاء على الواقع الفكرى العربى الإسلامى المسيطر والمشكل للعرب والمسلمين خلال أربعة عشر قرناً رغبة فى إزاحته وتمزيقه — والثانى: الولاء للفكر الغربى ثقافته وبطولاته وتاريخه ولغته والإشادة بعظمته. وقد وصل هذا الأمر إلى حد نستطيع معه أن نروى هذه الواقعة: يقول السيد محب الدين الخطيب: لما كنت تلميذاً فى السنة الأخيرة من مدرسة بيروت الثانوية الأميرية التحق بمدرستنا فتى من أمراء آل شهاب اللبنانيين تعلم على يد الكاثوليك الفرنسيين فى مدرسة قرية (عين طورا) فكان يسمى بيت الخلاء (بسمارك) وكان إذا ارتفعت الراية الفرنسية على القنصلية الفرنسية يوم الأحد يأخذ بيدى فيضعها على قلبه ويقول لى: — ألا تحس بقلبي كيف يخفق مع خفقاتها فى الهواء. وكان له شعر بالفرنسية يتمنى أمثاله من أبناء سنه الفرنسيين لو يكون لهم مثله وكان أشد تعلقاً بفرنسا وأدبها ودينها واستعمارها من أى قسيس فرنسى. وهكذا صنع الفرنسيون بلبنان منذ الاحتلال الفرنسى بعد الحرب العالمية الأولى من أجل إعداده ليكون مركزاً للنفوذ الفكرى الغربى وقائداً لحركة الغزو التغريبي فى الوطن العربى كله.

(٢)

والدعوة إلى الكيان اللبنانى الخاص تحمل طابع الأقلية اللبنانية، ذات الماضى الفينيقى، والحاضر الغربى الخالص، وهى قومية تقوم على الطائفية، وتعتمد على وجود طائفة نصرانية مارونية كبرى فى لبنان بالإضافة إلى طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد يشكلان معاً مظهراً طائفياً ضخماً، مسيطراً على كل أوجه النشاط السياسى والاجتماعى والثقافى . وتقول الأيدلوجية اللبنانية أن اللبنانيين ليسوا من حيث الجنس عرباً بل فينيقيين أما حضارتهم فهى حضارة البحر المتوسط، وهم لا يمتون للعرب بصلة ولا قربى إلا باللغة، وقد كانت الدعوة موجودة منذ ١٨٦٠ وربتها الارساليات ونمتها بالحديث عن الروابط بين الصليبيين واللبنانين ثم هيئت لأن تصرح على أفق واسع بعد الحرب وفى قدر مشترك مع الفرعونية فى مصر والطورانية الجديدة فى تركيا . فقد أقامت فرنسا الكبير وضمت أربعة سناجق من سورية إلى لبنان وجعلت من المتوسطية دعامة للفينيقية. وقد كتب منهج هذه الفكر من بعد : أسد رستم وفؤاد افرام البستانى . ويقوم طابع لبنان الماضى على أساس الدعوة إلى انفصاله عن البلاد العربية والاشادة بعظمة الفينيقيين والتغنى بأمجادهم، وقد جرى ذلك الاتجاه وعمق فى كتابات سعيد عقل وأهمها (قدموس) والدعوة إلى بعث العامية اللبنانية واتخاذها أداة للكتابة ولقد لقيت الفكرة نجاحا فى أوساط معينة كلها من المثقفين الفرنسيين وخريجى المدارس اليسوعية وكانت الدعوة تركز على أن اللبنانيين لهم قبلة هى «المتوسط والغرب» بينما لغيرهم قبلة هى الصحراء والشرق .

وقد جرت هذه الدعوة فى إطار الدعوة إلى الأقليميات والقوميات القائمة على العنصرية والجنس ولكنها ركزت فى لبنان على تاريخ قديم أعيد تشكيله من جديد بحيث يرضى غرور النفس اللبنانيـة ويشكل منها فكرا كاملا يمتد من الفينيقيين إلى الغرب على أساس الربط بين الحضارات القديمـة التى قامت على شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى شواطئه الجنوبية والشمالية، وقد رسمت مؤلفات كثيرة من المستشرقين صورة زائفة ترمى إلى القول بأن لبنان واليونان قد ترابطا فى حضـارة قديمـة قبل المسيحية ثم جاءت المسيحية فربطت بين لبنان وروما، وبين الكنيسة الكاثوليكية ولبنان . والواقع أن هذه المحاولة الفينيقية الاقليمية إنما كانت مخططاً مرسوماً لعزل لبنان عن الترابط العربى الإسلامى وقد أشار إلى ذلك عدد من الباحثين، فمنذ سيطرت فرنسا على لبنان بدأت تعمـل على تكريس الطائفية بحجة المحافظة على التوازن الطائفى ووضعت القواعد والأسس التى لا زالت قائمة حتى اليوم

وأهمها أن تكون الرئاسات الكبرى موزعة على الطوائف حسب أهميتها واعتبار « العروبة » حركة معادية للغرب عموماً وأنها تهدف إلى أحياء التقاليد والحضارة الآسيوية لتقف في وجه الإشعاع والتقدم الغربي الذي تحمل لواءه فرنسا وتبشر به بعثاتها الدينية والتعليمية المنتشرة في هذه المناطق والنظر إلى العروبة على أنها حركة اسلامية متعصبة لذلك يجب أن يقف المسيحيون في وجهها صفاً واحداً ، وشجعهم على ذلك البعثات التبشيرية في سوريا ولبنان » كذلك جرى العمل في مجال الثقافة والتاريخ والكتابة على إعلاء شأن لبنان الوثني والمسيحي والحديث عن هياكل قدموس والزهراء والترابط بين عشتروت وجوبيتر والحديث عن الكنعانيين ومدينة راميتا وترددت أسماء آرام وفينيقيا وبابل وكلداني وسريان ويقصد بها شيء واحد هو الإنسان الذي هاجر من الجزيرة العربية قبل التاريخ وبعده . وذلك كله من أجل إعلاء شأن الماضي اللبناني الممتد إلى الفينيقية والذي كان بعيد الأثر في أوربا وكيف أنه عاد إلى الترابط مرة أخرى بالغرب والحضارة الغربية والكنيسة الكاثوليكية . ويؤكد أكثر من باحث أن الكيان اللبناني لم يكن بعيداً عن التصميمات الاستعمارية وأنه باستقراء التاريخ اللبناني نجد أن الطائفية لم تدخل لبنان إلا عقب الاستعمار الغربي الذي فرض في منتصف القرن التاسع عشر على لبنان وكانت سياسة فرنسا هي العمل على تشجيع الطائفية في لبنان .

ويقول زكي النقاش : أن اللبنانيين لم يعرفوا الطائفية في عهد المعنيين بالرغم من أنه امتداد قرابة قرنين من الزمان في ظل الحكم العثماني مما يدل صراحة على أن الطائفية إنما جاءت من الخارج على أيدي الإرساليات والقنصليات والسفارات المختلفة . ويرى الدكتور حمدي بدوي أن سياسة لبنان تقوم على جعل لبنان دولة تقوم على التوازن الطائفي على أن يظل الموارنة مسيطرين عليها دون أن يكون لبنان مارونيا خالصاً وأن دستور لبنان ١٩٢٦ الذي منحته فرنسا جعل الطائفية نصاً في الدستور فيما يتعلق بتوزيع المناصب على أساس طائفي . وهذا كله مما يؤكد القول بأن الاقليمية اللبنانية على هذا النحو والتي صنعها الاستعمار الفرنسي قد خططت بحيث تجعل لبنان بعيداً عن أي ترابط عربي بل أن هذا التخطيط لم يخلق قومية لبنانية بالمعنى المعروف . وفي هذا يقول كمال جنبلاط إن القومية اللبنانية غير موجودة حتى الساعة إلا هذا المفهوم الامتدادي للرباط السياسي والشعور الجماعي للطوائف المسيحية وهم لا ينشدون من وراء تعميم هذه التفكير إلا تركيز لون معين من وجهة الإدارة والسياسة والاقتصاد ، والخطأ الكبير هو المزج والخلط بين المسيحية ولبنان فالواقع اللبناني وجد قبل أن توجد النصرانية ووجد بعدها وانكفأ أمام تيار الفتوحات الإسلامية ويرى محمد عزه دروزة أن صلة لبنان الوثني بالعروبة قائمة منذ أقدم الأزمنة حتى الآن وانها أصيلة فيه، إذ أن الفنيقيين

والكنعانيين والآراميين الذين يمتد إليهم سكان لبنان القدماء هم من الجنس العربى يقينا . غير أن الأمر ليس هو فى الحقيقة التاريخية ولكنه فى الزيف الذى فرضته الإرساليات فأصبح هــو الحقيقة الواقعة ، ذلك أن هذه الإرساليات قد أشربت المتعلمين تاريخ فرنسا ولغتها ومحبتها وتلقوا فيها «أنهم ليس من العروبة فى شىء وأن العروبة بميع إسلامى وعداوة متوحشة وأن العرب ليسوا إلا غـزاة طارئين كسائر الغزاة وأن الفينيقية هى الأصل الذى يجب أن ينتسب إليه اللبنانيون ويتمسكوا بهـا وأن الفكرة العربية القومية ليست إلا ستاراً يختفى ورائه السيطرة الإسلامية وأن الديانة الإسـلامية ليست ديانة وطنية ، وإنما هى دخيلة ، وأن الديانة الوطنية هى المسيحية لأنها نشأت فى الشام » . ومن هنا فقد سيطر على الأذهان من هذه المغالطات والتلفيقات أن « الفينيقية هى الأصل الذى يجب أن ينتسب إليه اللبنانيون ويتمسكوا به . يقول الدكتور حمدى بدوى الظاهرى أنه كان لهذه التلفيقات المستمرة على ما بها من زيف ومناقضة للحقائق التاريخية والعلمية والواقعية آثار إيجـابية فى بعض الفئات المسيحية التى نشأت أجيال عديدة منهم فى المعاهد والمدارس الفرنسية وجعل هـؤلاء يعلنون الحرب على الفكرة العربية حيث أعلنوا رغباتهم فى أن يكون لبنان منعزلاً تماماً عن البلاد العربية » وقد أورد الكثيرون لهذه النظرية أخطاء تاريخية ومغالطات جغرافية وأهمهـا ما أورده نبية أمين فارس حيث أضفى على بيروت أهمية لم تكن لها فى العصور التاريخية وقـد يستغرب ذلك من كاتب مثله ولكن الصراع بين الفكر الفرنسى والفكر الأمريكى فى بيروت كان يدفع كل طائفة إلى محـاربة دعاوى الطائفة الأخرى .

ولا شك أن التعليم فى لبنان تتنازعه الثقافتان الفرنسية والانجلو أمريكية ، وتعـــد الثقافـة الفرنسية من أقوى الثقافات الأجنبية ، حتى أنها تنازع اللغة العربية بينما يبدو نشاط الثقافة الأنجلو أمريكية فى الدراسات المتصلة بالقومية العربية والحضارة الفرنسية . وقد استتبعت هذه السيطرة الواسعة وجود ولاء غربى كامل واعجاب بالفـكر الغربى والحضارة الغربية وانتماء عقائدى قوامه الحضارة والـكنيسه معاً . ويشير الدكتور حمدى الظاهرى الى أثر هذه الإرساليات فيقول أن بعض الجامعات فى بيروت تتخذ العلم ستاراً لـكى تؤثر على واقع لبنان من الناحيه السياسيه فهى بضمانها ولاء خريجها لها تقنعهم بأنها تؤدى دورا حضارياً يرتبط بدورها التاريخى فى تلك البلاد » .

وقد أدى ذلك إلى نتائج بعيدة المدى هى التأثير فى الحياة الاجتماعية والقانون والتشريع والعادات والأخلاق مما مـكن للنفوذ الغربى بعد زوال الاحتلال العسكرى والسيطرة السياسية للاحتلال . ومما تذيعه الإرساليات وتحاول أن تقنع به خريجى معاهدها هو التحقير الشديد للعرب من خلال

دراسة تاريخهم والتهوين من شأن اللغة العربية ، ومن هنا تواصل الطائفية تحدياتها على العروبة والاسلام وتدعو إلى تمزيق هذه الرابطة وتقف فى وجه العروبة . وقد حرص الاستعمار على تركيز المتناقضات بين لبنان الطائفى والوحدة العربية بهدف تحييد لبنان من طريق حركة اليقظة العربية الاسلامية أو والوحدة العربية وما تزال فكرة لبنان الخالدة ولبنان الأزلى ولبنان السرمدى ، تغذى بكتابات جديدة حتى لا تتوقف ولا تنهار أمام قوة اليقظة العربية . وقد فشلت إلى حد كبير فكرة الفينيقية والمتوسطية وأن بقيت فكرة الطائفية الاقليمية . ويصور نبيه أمين فارس نتائج هذا الفشل فيقول : « وإذ فشل أصحاب هذه المحاولة (الفينيقية المتوسطية) فى جر السكافة إلى حركتهم عادوا إلى العمل يدفعهم حقد الهزيمة وخبرة الميدان إلى جهود جديدة جبارة فى سبيل الوصول الى غايتهم ، وانصرفوا بعد أن أدركوا عقم الهجوم المباشر الى أساليب غير مباشرة ، فقالوا : بالطابع الخاص وأخذوا يلفعون هذه الفكرة الانعزالية بجلباب العلم والأدب » . ومن أخطر ما تردده الدعوات التبشيرية هو انتقاص دور العرب والمسلمين فى الحضارة العالمية ومحاولة تصويرهم على أنهم جزء من حضارة البحر المتوسط الفينيقية اليونانية القديمة وكأنهم امتداداً لها ولم يزد دورهم على أنهم حملوا الى الغرب ثقافات الفرس والبيزنطيين والأقباط والنصارى واليهود وصابئة حران الوثنيين ؛ وفى هذا يقول أمين فارس : استولى العرب على ملاحة البحر الأبيض المتوسط غير أن حضارته استولت عليهم فدخلوا فى مجراها وصبوا اقداحاً كانوا قد استقوها من مياه الثقافات الأخرى ولا شك أن هذا ظلم وخطأ مبين ، ذلك أن العرب الذين حملوا رسالة الاسلام لاشك قد قدموا للانسانية فكرا جديدا وثقافة ذات طابع توحيدى خالص يختلف أشد الاختلاف عن الثقافات التى كان تعيشها ولا ريب أن الإسلام قد قدم للانسانيه جرعه من أصدق مقومات البشرية فى مجال السياسه والاقتصاد والاجتماع والتربيه وهى جرعه تغذت بها الحضارة الغربيه والفكر الأوربى الحديث على نحو واضح لامرية فيه وأبرز معالمه المنهج العلمى التجريبى ومنهج المعرفه الاسلاميه القائم على الروح والمادة وهو مايختلف اختلافاً واضحاً مع منهج الاغريق الوثنى ومنهج الغنوصيه الشرقيه القائم على الوجدان وحده أما القول بأن الاسلام حمل ثقافات الأمم الى الغرب فمحض افتراء ، ذلك أن الاسلام قد صب خيرمافى هذه الثقافات فى كيانه وصهرها وأحالها شيئا جديداً دون أن يخرج هذه العناصر عن دائرة كيانه الصحيح القائم على التوحيد والحق والعدل . وهو حين ترجم الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية لم يقبل بها تسليما ولكنه ناقشها ورد منها وأخذ ولكنه لم ينصهر فيها ولكنه صهرها فى داخله وظل محتفظا بجوهره ثم أقام منهجه ومنطقه وذاتيته الخاصة دون أن ينحرف كما انحرفت أديان وثقافات أخرى سبقته استطاعت الفلسفة اليونانية أن تحتويها .

(٣٠)

الصهيونية واليهودية العالمية

بعد الحرب العالمية الأولى دخل عنصر غريب فى نطاق الدولة العثمانية والعالم الإسلامى تركز فى منطقة فلسطين التاريخيه وقريباً من (بيت المقدس) وكان هذا العنصر اليهودى قد بدأ يتسلل منذ وقت بعيد ولكنه استطاع أن يكشف وجوده بعد سقوط السلطان عبد الحميد حيث استطاع من خلال الاتحاديين الذين كانوا على الاطلاق ماسونيين عاشوا فى احضان الدعوة إلى إعادة بناء هيكل سليمان من خلال مخططات وطقوس واصطلاحات كلهـا تعمل من أجل تجميع أكبر قدر ممكن من المسلمين والمسيحيين لخدمة أهداف اليهودية العالمية ممثلا فى ذلك النظام السرى الرهيب الذى كان له دوره الخطير فى ثلاثة من أكبر الأحداث فى العالم كله فى مقدمتها : الثورة الفرنسية وتحديد سلطان الكنيسة وإطلاق اليهود من الجيتو كمواطنين لم يلبثوا أن سيطروا على دفة السياسة فى أوربا كلها من خـلال المحافل الماسونية ، ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن قادوا حركة الفكر الأوربى ووجهوها لخدمة أهدافهم بادئين بإحتواء الفلسفات الغربية المسيحية وإخراجها من جوهرها وفرض القيم الوثنية الاغريقية عليها من أجل تدمير مقوماتها وتحقيق الأهداف التى رسمتها بروتوكولات صهيون .

ثم كان العمل الثانى فى هذا المخطط هو إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها وقد تم ذلك على خطوتين أولاهما إسقاط السلطان عبد الحميد ومعه دعوة الجامعة الإسلامية وإحلال الاتحاديين فى تركيا رافعين لواء الجامعة الطورانية ثم خلق رأس جسر تغريبي خطير فى لبنان يتركز فى الإرسـاليات التبشرية ذات المحتوى اليهودى الصهيونى من خلال الفكر المالى والغربى ، هذا الذى إنتهى بإقامة نظام خاص مستقل فى لبنان يفسح المجال لتركيز أعمال المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية فى العالم الإسلامى والبلاد العربية وكانت مصر التى سقطت تحت الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ نتيجـــة القروض اليهودية الأوربية ، قد أعدت لتكون مسرحا للحركة الفكرية اليهودية الاستعمارية من خلال الصحافة التى قادها خريجو الإرساليات ووجهت مخططها منذ اليوم الأول لتمزيق وحدة العروبة والإسلام وتعميق الخلاف بين العرب والترك وإثارة نعرة القوميات والإقليميات الضيقة وفى مقدمتها القومية المصرية أو الفرعونية ، بالاضافة إلى القومية اللبنانية أو الفينيقية ، وبذلك تحقق فى نهـاية الحرب العالمية الأولى سقوط الدولة العثمانية وإنفصال البلاد العربية عنها لتقع فريسة للاحتلال الفرنسى البريطانى مع قيـام وطن قومى لليهود فى فلسطين بنـاء على تصريح بلفور عام ١٩١٨ . وبذلك تم تحقيق الخطوة

الأولى من مخطط الصهيونية العالمية الذى تقرر فى مؤتمر بال ١٨٩٧ والذى نشرت من بعد وثائقه المسماه « بروتوكولات حكماء صهيون » والذى استهدف سيطرة اليهودية العالمية على العالم كله فى خلال مائة سنة . ولقد كان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ هو أقوى خطوات التمزق الذى أصاب البلاد العربية التى ظلت تتخبط خلال هذه الفترة بين الاقليميات والقوميات وبين دعوات الفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والأشورية والبابلية فى العراق وسوريا . وقد حلت هذه الدعوات محل الجامعة الإسلامية التى انتهت بسقوط الدولة العثمانية وتحولها بعد الحرب العالمية إلى دولة تركية علمانية وفق ما أطلق عليه « الطورانية الجديدة » ومنذ ذلك الوقت إختفت كلمة « الجامعة الأسلامية » تدريجيا وتقلصت من الاصطلاحات السياسية والفكريه ، وخاصة بعد أن أسقط مصطفى كمال الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ نهائيا ولم يستطع المسلمون إعادتها أو إقامتها مرة أخرى ، وأن يحقق كثير من أهدافها من خلال خطوات التصحيح التى تمت فى ظل حركة اليقظة العربيه الإسلامية الممتدة بالرغم من مخطط التغريب المسيطر ثقافيا بالصحافة وتعليميا بالتبشير من خلال معاهد الإرساليات فكان قيام الوهابية الجديدة فى الحجاز ، وبروز دور الأزهر ومكة وحركات الاصلاح والتجديد الأسلامى التى قادتها جمعيتى الشبان والإخوان المسلمين فى مصر والشرق العربى . وهذا بالإضافة إلى المؤتمرات الإسلامية العديدة قد أوجد مرتكزاً جديداً مؤملا لتقنين الأخوة الإسلامية ودعمها . ولقد كشف قيام إسرائيل عن حقائق كثيرة صححت وقائع التاريخ المعاصر وربطت بين مخططات اليهودية العالمية والمحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية فى العالم الإسلامى كله كما كشفت مخططات النفوذ الاستعمارى التى أقرها منذ عام ١٩٠٧ بإيجاد حاجز بشرى بين آسيا وافريقيا ليكون حائلا دون الوحدة والتجميع ، وقد كانت فلسطين هى نقطة الحشد التى ركزت عليها الصهيونية العالمية محققة بذلك هدف الاستعمار فى تمزيق الرقعة العربية فى أدق أجزائها والحيلوله دون خطوة التوحيد الأولى على طريق الرابطة الإسلاميه وهى التجميع العربى على أساس أن الوجود الموحد هو أساس اليقظة وأكبر عناصر التجمع الإسلامى الواسع .

وكان من بين ما كشفه قيام إسرائيل حقيقة موقف السلطان عبد الحميد من اليهودية العالمية ورده الحاسم فى مواجهة مخططات الصهيونية العالمية للاستيلاء على فلسطين ، والدور الخطير الذى لعبته « الدونمة » فى الدولة العثمانية لتحطيمها وإعداد قيادة سياسية تتحرك من خلال مخططات الماسونية فى محافلها ، تلك هى قيادة الاتحاديين التى عمقت الخلاف بين العرب والترك وقطعت آخر الخيوط بينهما ثم ما كان من دور طليعتهم الجديدة مصطفى أتاتورك كما كشفت الحقائق دور لورانس فى

هذا الخطط الصهيونى الزاحف ، ودور سعد زغلول ولطفى السيد وجماعة المقطم ، وفق المنهج الذى رسمه كرومر ، وكرزن ، وما كانت تخفيه دعوات الفرعونية والفينيقية وغيرها من أهداف لخدمة إقامة إسرائيل وتركيز الصهيونية العالمية قواعدها فى فلسطين تمهيداً للسيطرة على القدس ، التى احتلتها الانجليز عام ١٩١٨ وأعلنوا فيها أن الحروب الصليبية قد انتهت ، وجاء اليهود ليقولوا أنهم قد تسلموا القدس فعلا منذ ذلك اليوم ، وأن نجاح اللورد اللنبي إنما كان خطوة على طريق تحقيق الهدف الكبير ، والذى وصل بالفعل إلى أيدى الصهيونية العالمية عام ١٩٦٧ باستيلاء اليهود عليها نهائياً وتأهبهم منذ اللحظة لبناء هيكل سليمان فى مكان المسجد الأقصى . ومما كشفته الوثائق فى هذا الصدد ذلك الخطاب الذى أرسله الأمريكى الماسونى (جريدى س . تردى) إلى ما أسماه (مجلس مسجد عمر) والذى ينص على أن الماسونية تعتبر أن مسجد عمر فى القدس هو مقر هيكل سليمان وهو فى حساب الماسونية المحفل رقم واحد فى العالم كله ،وهذه حقيقة كشفت عن هدف الماسونية الأساسى وعن سر تسميها باسم البنائين الأحرار وإصرارها على بناء هيكل فى كل محفل ماسونى على هيئة هيكل سليمان .

وهى حقيقة قد عرفها الماسون الذين بلغوا الدرجة الثالثة والثلاثين قبل أن تقوم إسرائيل فى فلسطين ، قبل أن تسيطر إسرائيل على القدس . ولا شك أن كتابات كثيرة فى الصحف والمجلات المصريه وغيرها منذ إنشاء المقتطف ١٨٧٥ والهلال ١٨٩٧ تكشف عن إيماءات واضحه لمخططات الماسونية وفلسفتها الماديه الواضحة أما البروتوكولات فقد ظهرت فى العالم كله ماعدا العالم الإسلامى منذ عام ١٩٠٢ . أما فى مصر والبلاد العربية فإنها لم تعرف قبل عام ١٩٥٠ أى بعد قيام إسرائيل بالفعل فى فلسطين وهى حين تحلل بدقة تكشف عن نصوص صريحة وردت فى كتابات كثير من كتاب البلاد العربية وخاصة خريجى معاهد الإرساليات التبشيرية أو المبعوثين العائدين من فرنسا وبريطانيا وأمريكا منذ أوائل هذا القرن وفى كتابات جورجى زيدان وسلامه موسى وطه حسين . كما تكشف ذلك فى الرابطة التى ظهرت جلية بين هرتزل وفرويد ، وبين الصهيونية العالمية ومنهج علم النفس التحليلى وما تبع ذلك من آراء دور كايم وسارتر وليفى بريل وغيرهم . وهذه الخطوط كلها تستدعى فى الحق إعادة النظر فى الأدب العربى المعاصر كله وفى نظريات الفكر الغربى الوافد سواء فى مجال التاريخ أو الأدب أو الاجتماع أو السياسة وخاصة فى تلك التحريفات الواضحة التى حفلت بها دوائر المعارف والموسوعات التاريخية فى محاولة تزييف حقيقة وضع المسلمين والعرب فى فلسطين وإضافة أكاذيب تجمل لليهودية بعض الحقوق التاريخيه الزائفة وما تزال هذه الكتب فى

أيدى الباحثين لم تصحح بعد ولعلها من المراجع التى يعتمد عليها وفى مقدمتها بروكلمان والمنجد ودائرة المعارف الاسلاميه والموسوعه العربيه الميسرة .

لقد كشفت هذه الوثائق عن ذلك الترابط بين الدعوات الإقليمية والقوميات الضيقة ، كما كشفت عن ذلك التلاقى بين المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية على أهداف واضحة ، ذلك أن هذا الجسم الغريب لم يكن ليحيى أو يستمر إذا ما صححت المفاهيم وعادت الرابطة الأصيلة بين العروبة والإسلام وبين الإسلام والمجتمع الإسلامى ومن هنا سر الحمله المستمرة على الشريعة الإسلامية واللغة العربية والتاريخ الإسلامى ومحاوله الفصل الواضحة بين حضارة عربية وحضارة إسلامية وتاريخ عربى وتاريخ إسلامى وأمة عربيـــة وأمم إسلامية ومحاولة التركيز على النظارية الغربية فى القومية لإحلالها محل مفهوم العروبة الذى تتصل جذوره بالإسلام والقرآن ، وهى نظرية وافدة لها ظروفها فى الشـكل التاريخى والاجتماعى الغربى ، وإذا كانت القوميات أو الوحدة العربية سلاحا شهره العرب فى وجه الاستعمار ولواء نشروه للتجمع لمقاومة الاحتلال بديلا عن شعار الجامعة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية فان الغزو الفـكرى الغربى يحاول بـكل الطرق أن يحول بيننا وبين اعتناق مفهومنا الأصيل المستمد من مزاجنا النفسى وذاتيتنا التى كونتها أربعة عشر قرناً من الحضارة والفـكر الاسلامى المتصل الحى المتفاعل .

وقد تـكشف لنا أن إحياء القوميات المحلية والاقليميات الضيقة إنما هو هدف مقصود وغرض واضح يهدف إلى الحيلولة دون تجمع العرب والمسلمين فـكرياً وسياسياً ، والمعروف أن وحدة الفـكر هى أساس الوحدة السياسية وفى هذا يقول لورانس براون بـكل وضوح : « إن الخطر الحقيقى كان فى نظام الاسلام وفى قدرته على التوسع والاخضاع وفى حيويته ، إنه الجـــدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى وإذا ما اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون بلا قوة ولا تأثير » . ويكشف الـكتاب الغربيون أهداف المخطط الصهيونى الذى لايتحقق له إقامة وجود يمـكن أن يستمر عشرين عاماً فى قلب البلاد العربية باجراء خطير هو إطلاق صيحات القوميات الضيقة والاقليميات فيقول إمرى ريفز فى كتابه قضية السلام « إن الوحدة التى احتفظ بها القران قرونا بين الشعوب الاسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب الاسلامى قوميات شتى » .

(٢)

إن إطلاق مبدأ القوميات فى أوربا كان من ورائه مخطط واضح هو : أولا : إثارة دول البلقان باسم القوميات على الدولة العثمانية وقد بلغ ذلك مدى لا حد له وآزرت الدول الأوربية والبابوية الرومانية فى سبيل تحقيق كل ما تملك من قوة فى سبيل هدم القسم الأوربى من الدولة العثمانية . ثانياً : إثارة العرب على الدولة العثمانية وإثارة الأتراك على العرب ، وخلق ذلك الصراع باسم القوميات ، تحت لواء الطورانية فى تركيا والفرعونية فى مصر والعربية فى سوريا والعراق . ثالثاً : كان إعـــلان صيحة القوميات هو أول الخطوات لابراز القومية اليهودية التى نص عليها وعد بلفور صراحة بعبارة « وطن قومى لليهود » .

وقد أعلن ذلك قبل أن يكون لليهود قومية حقيقية لها دعائمها من اللغة والأرض والأمة . ولم يقم بناء الجامعة العبرية على جبل الزيتون من أجل إحياء اللغة العبرية إلا بعد ذلك ، وكانت جماعات المهاجرين اليهود إلى فلسطين حتى ذلك التاريخ لا تشـكل قومية ولا أمة . وفى عام ١٩٠٩ عندما عزلت الماسونية اليهودية الصهيونية من داخـــل الاتحاديين السلطان عبد الحميد لم يكن لليهود فى فلسطين وجود يمـكن أن يحقق هدف إقامة وطن أو تشـكيل أمة . غير أن الاتحاديين لم يلبثوا أن فتحوا الباب واسعاً للصهيونية العالمية فبلغت مبلغاً لا حد له فى خلال هذه السنوات العشرة لحكمهم إلى قيام الحرب العالمية حيث كانت الطورانية والاتحاديين وانقلاب ١٩٠٨ فى تركيا هى الحلقة الأخيرة فى سبيل الوصول إلى فلسطين ومبدأ الاتجاه الحاسم فى شراء الأراضى فقد سمح الاتحاديون لليهود بشراء أراضى الدولة وفى مقدمتها الأراضى الفسيحة المعروفة باسم (الحفتلك) واستطاع اليهود أن يحملوا حـكومة الاتحاديين على سن القوانين والأنظمة التى تمـكنهم من الشراء تحت أسماء شركات تحمل أسماء غربية لمدة ثانية .

والمعروف أن الصهيونيون كان لهم فى الحكومة الاتحادية ثلاث وزارات هى الأشغال العامة والتجارة والزراعة والبوستة والتلغراف . وكان جاويد ناظر المالية من الدونمة هو صاحب الحـول والطول فى الاقتصاد العثمانى . وقد تعالت صيحات العرب عن خطر الصهيونية فى البرلمـان العثمانى بعد الانقلاب الذى حـكم بة الاتحاديون ومن أبرز من تحدثوا عن هذا الخطر روحى الخالدى وشـكرى العسلى ونجيب نصار . ولنجيب نصار كتاب عن الصهيونية أصدره سنة ١٩١١ وكانت فصوله قد نشرت فى جريدة الـكرمل منذ عام ١٩٠٨ . ويقول عجاج نويهض فى كتابه عن بروتوكولات صهيون فى هذا

الصدد : كان زعماء الصهيونية قد استطاعوا أن يقطعوا مسافة طويلة فى الوصول إلى فلسطين عن طريق استانبول العثمانية فى مدة الست سنين التى انقضت من يوم إعلان الدستور العثمانى ١٩٠٨ إلى صيف ١٩١٤ وهى السنة التى وقعت فيها الحرب وسبب نجاح السياسة الصهيونية فى المملكة العثمانية هو تمكنهم من استمالة عدد من كبار السياسة الأتراك المسلمين الذين يرجعون بأصولهم الدموية إلى اليهود الذين أخرجوا من أسبانيا آخـــر القرن الخامس عشر وعرفوا باسم الدونمة فخيوط الدعاة الصهيونيين جعلت تمتد إلى عصب الدولة لا منذ سنة الانقلاب فصاعداً بل من وقت قام هرتزل فى العقد الأخير وقبل ذلك ولولا تنبه النواب العرب فى البرلمان العثمانى واشتداد صيحاتهم لقفز الصهيونيون قفزات أطول مما استطاعوا نيله .ويكفى أن نقول أن الغلو فى الحركة الطورانية أو العصبية الجنسية الطورانية كان بالتالى حافزا للترك الطورانيين للوقوع فى النهاية بين مخلبين ، مخالب ألمانيا الناهضة لاستعمار معظم المملكة العثمانية عن طريق مشروع سكة حديد (برلين بغداد) والوصول إلى اليمن عن طريق مشروع سكة حديد الحجاز الذى تم إنشاؤها عام ١٩٠٨ ومخلب الصهيونية الطامعة فى فلسطين .

وقد فشلت ألمانيا فى الوصول إلى الشرق عن طريق استانبول . وفشل الأتراك الطورانيين فى إنشاء امبراطورية طورانية ينضوى تحتها الأصل التركى من بلغاريا إلى جنوب أوربا إلى أقصى التركستان شرقاً فى آسيا الوسطى . وربح الصهيونيون . ولا ريب فى أن اليهودية العالمية كانت قد رسمت خطة ذات مراحل للوصول إلى فلسطين وإلى بيت المقدس ، وأنها استخدمت فى ذلك مؤسستين هما الصهيونية والماسونية . وإسرائيل هى قفاز اليهودية الخارجى أو مخططها الأول . ولقد كان سر القوة اليهودية هو قدرتها على إخفاء أجهزتها عن العالم ، غير أنه أسقط فى يدها عام ١٨٩٧ فى مدينة بازل بسويسرا عندما دهمها نفر من الشرطة القيصرية الروسية القادمين من موسكو فأشعلت النار فى البناء بغرض إخفاء البروتوكولات ، التى أمكن الحصول على قدر كبير منها والتى تكشف عن هدف اليهودية العالمية فى التسلط على العالم بحكومة يهوديه بعد تخريب روسيا المسيحيه الأرثوذكسيه وأوربا الكاثوليكيه والبابويه ثم الاسلام . كشف الغطاء عن ذلك المخطط اليهودى السرى المرتبط بعقائد يهوديه صهيونيه مستمدة من التوراة المحرفة ومستقاة من التلمود . يقول عجاج نويهض « أن البروتوكولات هى المخطط الذى وضعه رجال المال والاقتصاد اليهودى لتخريب المسيحيه والبابويه ثم الاسلام » ويقول إنها عصابه كبراء اليهود السريه التى تجدد كيانها الخفى فى أثناء الثورة الفرنسية وواصلت سيرها فى منتصف القرن الماضى فى أيام كارل ماركس ونشطت نشاطاً

خاصا فى روسيا القيصريه فى الرابع الأخير من القرن الماضى ، ثم عقدت مؤتمرها الصهيونى العالمى بزعامة (هرتزل) ١٨٩٧ . ويعتقد أن واضع هذه البروتوكولات هو (اشرجنز برج) من يهود أودسا المشهور فى عالم الكتابة اليهودية باسم (احدها عام) . ومنذ بدأت الحركة الصهيونية وقد تضافرت جهود العلماء اليهود على محاولة إيجاد سند للوطن القومى فى فلسطين ، يبدو ذلك فى كتاب الدكتور إسرائيل ولفنسن (أبو ذئيب) فى بحثه عن اليهود فى جزيرة العرب قبل الإسلام الذى أعده تحت إشراف الدكتور طه حسين فى الجامعة المصرية ونوقش علنا فى حرم الجامعة عام ١٩٢٧ وقوامه أن للمستعمرات اليهودية فى الجزيرة العربية قد أثرت تأثيراً قويا فى الحياة العقلية والأدبية الجاهلية من أهل الحجاز . وقد عنيت دوائر الأدب العربى فى مصر وعلى رأسها أدباء كثيرون وصحف كثيرة بالدفاع عن حق اليهود فى فلسطين وترديد دعاوى الاضطهاد وفى مقدمة ذلك مجلتى المقتطف والهلال . وكان للدكتور طه حسين دوراً هاماً فى هذا المخطط فقد ألقى عدداً من المحاضرات حاول أن يثبت لليهود حقاً فى بلاد العرب ، ودوراً فى الأدب العربى كما عنى بالاعتماد فى أبحاثه على كتب فى إسرائيل من أجل اقرار أكاذيب ، أو تزييف حقائق وفى مقدمتها كتابى طبقات ابن سعد ، وأنساب الأشراف وهما مما طبعته المطابع الإسرائيلية واستهدفت به إخفاء شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى ودوره فى الفتنة التى لحقت بالمسلمين أيام عثمان وقد جرى طه حسين على هذا النحو وأنكر وجود شخصية عبد الله بن سبأ فى كتابه الفتنة الكبرى وسخر من المؤرخين الذين أشاروا إلى دوره الخطير .

وكذلك لقى ماكس نوردو اهتمام العقاد والمازنى واسماعيل مظهر وترددت آراؤه على صفحات المجلات المصرية واحتوتها مؤلفاتهم والمعروف أن ماكس نوردو هو خليفة هرتزل على الحركة الصهيونية بعد وفاة الآخر عام ١٩٠٤ . وقد هاجم نوردو الحضارة الغربية باعتبارها حضارة مسيحية فى كتابه (الأكاذيب المقررة) الذى وزع على أوسع نطاق . وهاجم امبراطورية هالسبورج (النمسا) التى كانت تضم بولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وإيطاليا ، وقد ركزت دعوة القوميات على تحطيم هذه الدولة وذلك لغرض خاص باليهودية العالمية التى كانت تشكل قوة كبرى فى بولونيا ثم انفصلت بعد تمزق هذه الامبراطورية . كما قام عدد آخر من مفكرى اليهود الذين أتيحت لهم السيطرة الكاملة على الفكر الغربى بوضع نظريات معينة من شأنها أن تفرض نفوذ اليهودية العالمية وتحطم كل النظريات والقيم الاجتماعية المتعارف عليها والتى أقرتها الأديان السماوية وفى مقدمة هؤلاء ماركس وبرجسون وفرويد . .

جواد

نني تصوير

(٣)

اعتمدت فلسفة الصهيونية على نصوص من التوراة الحالية وهى غير التوراة المنزلة على موسى ، وفسرتها على نحو معين ، متجاهلة التطور التاريخى الذى جاء بعد ذلك وذلك لعدم اعترافها بالمسيحية والإسلام . وقوام هذه النظرية أن اليهود هم شعب الله المختار وأنهم هم وحدهم أبناء إبراهيم الذين وعدوا بالأرض الواقعة بين النيل والفرات وهذا سر الحملة العنيفة الجائرة على السيد المسيح واحتضان كل الكتابات المتعسفة التى تعرضت له أو المسيحية من أمثال ما كتب رينان ونيتشة بالإضافة إلى عمليات التخريب من الداخل التى قامت بها اليهودية فى الفكر المسيحى وتدمير قيمه ومقوماته وهو عمل امتد من وقت بعيد وكان له أثره الكبير على الفكر الغربى كله ولما كانت اليهودية لا تعترف بالمسيحية ديناً سماوياً منزلا جاء لتعديل ما وصل إليه اليهود من انحراف ، وتصحيح مسار اليهودية المنزلة حسبما جاء على لسان السيد المسيح: ما جئت لأنقض الناموس وإنما جئت لأكمل.. أقول لما كانت اليهودية لا تعترف بالمسيحية فهى تدعى أن لها مسيحها الذى سيجىء آخر الزمان من نسل يهودا وهو ليس مسيح النصارى ، وكذلك أنكر اليهود ما فى التوراة عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم وقد تناولوا هذا المعنى فى الانسكلوبيديا اليهودية مؤكدين أن خطوتهم التالية هى إظهار مسيح اليهود فى الدنيا. ويقول جورج بوست : أنه ظهر بين اليهودية أربعة وعشرون مسيحاً كذابا وأشهرهم (بركوكبه) الذى عاش فى القرن الثانى للميلاد وادعى أنه ملك اليهود وثار بهم على الدولة الرومانية فقتل منهم فى هذه الثورة أكثر من نصف مليون يهودى . وآخر المسحاء الكذبة : يهودى ألمانى اسمه (مردخاى) ظهر عام ١٦٨٢ م واشتد اضطهاد النصارى لليهود بسببه فتوارى . ويقوم مفهوم الفلسفة اليهودية التى تعتبر الصهيونية واجهتها السياسية والماسونية أداتها الكبرى فى التغرير بأهل الأديان الأخرى ليكونوا خدماً لها ، تقوم على أساس الاستعلاء العنصرى والجنسى فهم يهود وكل العالم جوييم أو أميون ويحل لهم الربا يأخذونه من الجوييم ، كما يحل لهم كل ما يملكه الأميون ، « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادامت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » وإله اليهود كما تصوره التوراة الزائفة والتلمود والمشنا ، هو إله الحرب وهو رب الجنود الإله يهوه : الشرير المتوحش المشغوف بإراقة الدماء . وأخطر مفاهيمهم إنكار البعث واعتبار الحياة الدنيا هى كل شىء وإن على كل إنسان أن يسارع إلى التقاط كل لذة ممكنة . وهم يقررون مبدأ الغاية التى تبرر الواسطة بعيداً عن القيم والأخلاقيات فلا بأس بالغدر والوقيعة والكذب فى تحقيق أى نجاح وقد دعا دزرائيلى اليهود رئيس وزراء بريطانيا الدولة الإنجليزية أن

تتخذها قاعدة ذهبية لسياستها مع الشعوب ولا سيما فى المستعمرات. وقد وضع اليهود الاقتصاد العالمى على أساس الذهب يحتكرونه لا على أساس قوة العمل والثروات الأخرى. ووفق هذه الفلسفة الطامحة إلى السيطرة على العالم كله وإقامة مملكة يهوذا فى القدس وبناء هيكل سليمان يبدو مخطط الفكر الغربى العالمى واضحا اليوم فى كل تياراته ومخططاته. وذلك فى تفسيرها مبادىء الحرية والمساواة وإفساد الحكام وزعماء الشعوب والاستعانة فى هدم كل قوة جديدة بالنساء والمال والكيد أو إجهاضها قبل أن تكتمل والعمل على إفساد الشباب والقضاء على الضمائر والأديان ونظام الأسرة.

وأبرز دعاواهم فصل الدين عن الدولة، وفصل المجتمعات عن الدين، وإعلان حرية التدين التى تكمن فى إنكار الأديان السماوية وإنكار الرسل والأنبياء والوحى والكتب المنزلة وإغراء الناس بالشهوات وإفساد المرأة وإشاعة الرذيلة والانحلال حتى يسقط الأميون خاضعين لنفوذ اليهودية العالمية وهم من أجل ذلك عززوا نظرية دارون وحولوها إلى الإتجاه الذى فتح عصراً من المادية التلمودية ثم دعموها بنظريات ماركس وفرويد فى الاقتصاد وعلم النفس ودفعوا نظرية فرويد الانحلالية دفعاً بإعلائها على كل نظرية أخرى معتدلة أو معقولة من أجل تدمير مقومات الأمم، ثم فرضوها على الآداب والقصة كما فرضوا التفسير المادى للتاريخ على كتابات التاريخ والاقتصاد والاجتماع. وهم الذين عززوا مذاهب القوميات فى أوربا والعالم الإسلامى من أجل تحطيم الدول الكبرى وتمزيق الأمم عن طريق العقائد والفكر، وهم أيضاً دعاة الاقليمية وفى نفس الوقت دعاة العالمية وهم المشاركون فى الأنظمة الرأسمالية والأنظمة الشيوعية وقد كشف أحد زعمائهم عن هدفهم الواضح من ضرب القوى العالمية بعضها ببعض وهو إيقاع الغرب والشرق فى حرب عالمية ثالثة لتحطيم القوتين معاً وإزالة جميع العوائق نحو سيادة اليهود للعالم . وقد كشف الخطاب الذى ألقاه الحاخام عمانويل رابينوفيتش عام ١٩٥٤ من نوايا اليهود العالمية التى تتلخص فى : (أولا) إشعال نيران حرب عالمية ثالثة. (ثانيا) تحريض الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى. (ثالثاً) اعتبار زعماء الدولتين مجرمى حرب. (رابعاً) القضاء على الأجناس غير الاسرائيلية. وقد رتبت اليهودية العالمية ذلك منذ وقت بعيد بالاشراف على الصحافة فى دور النشر ووكالات الأنباء، والسيطرة على مذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسينما والجامعات ونظم التعليم والاستيلاء على البنوك والشركات والبورصات واحتكار الذهب والتسلط على اقتصاديات الدول الكبرى كأمريكا وروسيا وفى بروتوكولات صهيون إشارة واضحة إلى أن الأدب والصحافة قوتان فى طليعة القوى التوجيهية الهامة وإلى أنه « يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بعيدة عن الحق، وأن تعمل لتحريض وإثارة المشاعر التى هى فى حاجة إليها من أجل أهدافهم.

ولا شك أن سيطرة اليهودية العالمية على صناعة السينما فى هيولود والعالم كله تقريباً وإدارة للمسابقات العالمية لأحسن الأفلام كلها تحت إشرافهم أمر واضح . وقد برزت مقومات الفكر الصهيونى كله فى الكتابات الماسونية التى تعطى للمنتمين إليها فلسفة كاملة متحررة فى الأديان السماوية وقائمة على أساس دمج وصياغة كل أساطير الأولين فى قالب براق قوامه وحدة الوجود وما تزال واجهات الثيوصوفية والروحية الحديثة والبهائية من أبرز مؤسسات اليهودية العالمية حتى ينخدع الناس فى مجال الدعوة المادية الروحية جميعاً . وقد سيطرت اليهودية العالمية على حركة الاستشراق التى تقوم على بعث الكتب القديمة ، والتى كان من آثارها إعادة نشر الكتب ذات الصفة المعينة بإثارة الخلاف بين الطوائف والمذاهب والاديان ، وإعادة التبشير بالدعوات الهدامة التى مضت وانقضت كالباطنية والمزدكية والزرادشية وكذلك بعث الكتب ذات المحتويات التافهة والمفككة ونشر كتب السحر والأساطير والخرافات والبخت والطالع التى تصاغ الآن فى أساليب فنية تخدع القارىء البسيط الساذج الذى لا يعرف أبعاد الدعوة المسمومة .

ولا شك أن من أهم الأهداف إذاعة التفاهات ودفعها إلى السيطرة على برامج الإذاعة والتليفزيون والصحف ، مع ما تحمله بين توجيهات مقصودة لهدم مقومات الدين فى الأسرة والمجتمع والفرد ، ونشر الاباحية والإلحاد والتحرر من الأخلاق . وليس من الحق أن يقال أن اليهودية العالمية قد قامت وحدها باعداد ذلك كله ولكنها شاركت فيه ووجهته وانتفعت به فى سبيل تحقيق غايتها البعيدة وهى تدمير مقومات الأمم حتى تقع فريسة فى مصيدة الامبراطورية اليهودية المرتجاه . ويباهى اليهود بعد إقامة إسرائيل بكثير من أعمالهم التى كانت خفية فى الماضى ويكشفون عنها فهم يؤكدون انهم دمروا العبقرية الروسية ، وأسقطوا الخلافة الإسلامية العثمانية ، وكذلك الملكيات فى ألمانيا والنمسا ورومانيا وأسبانيا وإيطاليا وانهم كانوا مدبرى الحرب العالمية الأولى والثانية التى فقدت فيها أوربا الملايين من أبنائها والملايين من الجنيهات وخسرها الغالب والمغلوب ولم يظفر بغنائمها غير اليهود .

(٣١)

العروبة ومفهوم القوميات الوافد

(١)

القوميــــات

فى الفترة ما بين الحربين العالميتين انفصلت البلاد العربية انفصالا تاماً عن الدولة العثمانية حاملة لواء الخلافة والجامعة الإسلامية . ثم سقطت هذه الدولة بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وبروز الكيان العربى السياسى الذى كان قد انفصل خلال الحرب عن تركيا فى ظل التحدى الذى حمل لواءه الاتحاديون بالدعوة إلى الطورانية ومحاولة تتريك العناصر العربية واتجاه العرب إلى رفع لواء العروبة كدعوة للتجمع والمقاومة ومواجهة حركة التتريك . ثم اتسع نطاق دعوة العروبة بعد الحرب مباشرة أثر الفشل الذريع الذى منى به العرب بعد أن آزروا بريطانيا وفرنسا خلال الحرب بناء على وعد بقيام الدولة العربية ثم تبين لهم زيف هذا التعاقد وقيام الدولتين باحتلال البلاد العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية وهى (الشام بأجزائه الأربعة) والعراق ، وانكشاف مخطط الاستعمار الذى تضمنته معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور . ومن ثم أصبحت أغلب البلاد العربية تحت سيطرة الاحتلال البريطانى والفرنسى والإيطالى . ومن خلال هذا الاحتلال بدأت الدعوة الإقليمية الضخمة على النحو الذى عرف فى إعلاء الإقليميات المحلية : كالمصرية والسورية واللبنانية والعراقية وغيرها ومحاولة إعطاء هذه الإقليميات طابع القوميات . ثم برز طابع العروبة الذى كان هو منطلق سوريا والعراق والحجاز فى مواجهة الطورانية أولا ثم فى وجه الاحتلال الفرنسى لسوريا ولبنان والبريطانى للعراق وبدأ صوت الدعوة إلى العروبة يعلو ويؤكد ذاته فى ظل التحديات التى فرضتها قضية فلسطين والدور الذى قامت بها بريطانيا فى سبيل تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . غير أن « العروبة » فى ذلك الوقت كانت تعبيراً تلقائياً لمواجهة النفوذ الأجنبي وكلم للتجمع بين الأقطار العربية المحتلة ولم يكن يحمل أى معنى معانى القوميات التى عرفتها أوربا ويمكن أن يقال بحق أنه تجمع هذه المنطقة فى دائرة أقل من الدائرة الإسلامية التى سقطت بسقوط الدولة العثمانية والتى كانت تجمعاً أكبر فى وجه النفوذ الاستعمارى أساساً . لقد كانت البلاد العربية فى هـــذه المرحلة تتحرك فى دائرة الوحدة السياسية الإسلامية الجامعة فلما سقطت تحولت هذه الدائرة إلى رابطة فكرية

ثقافية ونشأ من داخلها تشكيل عربى سياسى جامع ثم عزز الاستعمار المعنى الإقليمى الذى كان ظهوره واستعلائه يمثل رد فعل للحملة الضخمة التى كانت تستهدف القضاء على الوجود المعنوى للاوطان والأرض والأمة جميعاً . ومن هنا فقد تحرك العرب بين الحربين فى ثلاث دوائر متداخلة غير منفصلة وغير متعارضة وهى دائرة الوطن ودائرة العروبه ودائرة الفكر الإسلامى . واستطاعت الدائرة الوطنية أن تقاوم الإقليميات والقوميات الضيقة ، واستطاع المفهوم الإسلامى العربى المترابط الموحد أن يعطى الدائرة الوطنية قوة وفعالية دون أن يسقط فى فخاخ الإقليمية المنصوبة لها لإخراجها عن طبيعتها وإغراقها فى الطريق الوثنى القديم السابق للإسلام وقد سقطت فعلا دعوى الفرعونية فى مصر والأشورية فى العراق والفينيقية فى سوريا أما فى لبنان فقد كان لها منطلقها الخاص الذى اتخذ من الفينيقية جداراً لتعزيز كيانه المنفصل عن العروبة والإسلام جميعاً . ولقد كانت حركة اليقظة العربية الإسلامية ممثلة فى جمعيات الشبان المسلمين فى مصر وشباب محمد فى سوريا وما تفرع منهما من جمعيات الهداية والتمدن والأخوة وغيرها قد استطاعت أن تفرغ مفهوم التحرك الفكرى السياسى العربى فى قالب جامع بين الوطنية المحليه لكل قطر وبين العروبة والإسلام على أساس أن الدوائر الثلاثه تتحرك من داخل بعضها دون أن تتعارض وأنها تلتقى جميعها على واجهه واحده هى مقاومه النفوذ الغربى الزاحف والصهيونى الجديد والتماس منابع الفكر الإسلامى فى ثقافة المجتمع وأنظمته ومقدراته : ولقد عملت الهيئات الاجتماعية والإسلامية المختلفة خلال هذه المرحلة فى الدوائر الثلاث دون تعارض أو تضارب بحسبان أنها قوى ثلاثه تسلم كل واحدة منها إلى الأخرى وأن الوطنيه تتعلق بالأرض والعروبه تتعلق بالأمه والإسلام يرتبط بالفكر ومناهج الحياة والمجتمع . وهذا نموذج من الأيديولوجية التى عرفتها مرحلة ما بين الحربين فى ترابط الوطنيه والعروبه والإسلام لأحد قادة اليقظه فى هذه المرحلة .

« هذا الوطن العربى الممتد من الخليج الفارسى إلى طنجه على سعه أقطاره وانفساح مداه وحدة جغرافيه لا تفصل بينهما حواجز طبيعيه ، ولا تمزقها تضاريس أرضيه حتى إن الراكب ليستطيع أن يقطعه من أقصاه إلى أقصاه من غير تعب ولا عناء ، وهو مع ذلك أعدل بقاع الدنيا هواء ، وألطفها مناخا وأعذبها أنهارا وإنه ليكاد يستغنى بخيراته وثرواته الطبيعية عن كل ما سواه .

« وهو كذلك وحدة روحيه بسريان الإسلام فى عنق أبنائه جميعاً ، فالمسلمون منهم يقدسون الإسلام كعقيدة ودين وغير المسلمين يعتزون به كشريعة قومية عادلة ونظام اجتماعى فاضل نبت فى أرضهم ، وعاش فى بلادهم وترعرع فى أوطانهم واشتركوا جميعاً فى حياطته وحمايته والذود عنه والانتصار له الإسلام نفسه مع عظيم سلطانه على المؤمنين به وعمق تغلغله فى قلوبهم أوسع العقائد

صدراً وألينها قلبا وأرفقها بالمخالفين ما لا يؤذيهم ، ولا يهيجهم ولا يعتدى عليهم حتى فى حال الكراهية والغضب ، وإنما هو العدل الشامل والرحمة الكاملة لكل ذى كبد رطبة .

« وهذا الوطن وحـــدة لغوية بسريان لغة العرب فى أبنائه وفشوها بينهم تقدسها المحاريب فى الصلوات ويخلدها كتاب الله فى آيات بينات ، وتحوطها قلوب غير المسلمين بأرق المشاعر وأجل الذكريات . [ففى قلوب يقوم الدين يحرسهـا وفى قلوب يقوم الحب والولع] وهو وحدة فكرية ثقافية بمـا أنه منبع الفيض الروحى فى العالم كله ومصدر الفلسفات ومهبط الوحى والنبوات ومهد الشرائع والديانات : « وهو وحدة اجتماعية بتشابه العادات والتقاليد فيه تشابهاً يكاد يكون تاماً فى شعوبه وسكانه ويؤلف بين أبناء هذا الوطن بعد هذا كله المصالح العملية المشتركة ولا شك فى أن كل شعب من شعوبه يدرك مدى الفوائد العظيمة الجليلة التى تعود عليه بعودته إلى هذه الوحدة وعودتها إليه وبخاصة فى الزمن الذى لا تعيش فيه إلا الأمم المتجمعة والشعوب الموحدة المتكتلة .

وإذا كانت مرحلة ما بين الحربين هى مرحلة الوطنية فإن حركة العروبة فيها لم تكن واضحة ولذلك فإن معركة أيدولوجيتها لم تظهر إلا فى السنوات الأخيرة السابقة للحرب العالمية الثانية . غير أن هذه الفترة حققت نتائج هامة فى مواجهة الإقليميات وتصنيفها واحتواء الفكر العربى الإسلامى لها على أنها جزء منه وليست معارضة له .

غير أن قضية فلسطين فرضت وضوح مضمون العروبة بين مضامين الوطنية والإسلام كجزء منها وحلقة وسطى تجمع بينهما وكان من أبرز المظاهر فى هذا الشأن أن السياسيين المصريين اتجهوا نحو العروبة بحكم التقارب الذى بدأ بين مصر والشام أساساً . وكان ذلك علامـــة على انتشار الطابع الاقليمى الذى ظل مسيطراً فترة طويلة ومغلقاً للأبواب بين مصر : وبين العروبة والعالم الإسلامى جريا على الخطة التى رسمها لطفى السيد عام ١٩١١ والتى امتدت بعد الحرب الأولى ثم علت وبلغت درجة فى الغلو والانحراف عن المفهوم الطبيعى للوطنية . وقد جرى ذلك مع الاتجاه الطبيعى الذى حملت لواءه حركة اليقظة العربية الإسلاميه التى اعتمدت أساساً فى حركة التجديد الإسلامى على الأمة العربية باعتبارها القوة المرتجاه لقيادة اليقظة والتى حملت لواء الإسلام ونزل القران بلغتها وبعث رسول الإسلام من ذروة أعراقها . وكان مفهوم « العروبة » واضح تماما فى أنه تجمع من أجل مواجهة الاستعمار ومن أجل نهضة العالم الإسلامى كله ودخوله فى مرحلة جديدة من مراحل اليقظة والبعث . غير أن هذا المفهوم لم يكن قائما على تعظيم أو تقديس للعروبة أو استعلاء جنسى أو عرقى أو عنصرى ، ولم يكن هادفا إلى إقامة حواجز بين العرب وبين الأمم الإسلامية التى تجمعها بها وحدة

العقيدة أو الفكر . وإنما برز هذا المعنى فى المرحلة التالية لذلك وكان مصدره انحراف مفهوم العروبة عن مكانه الأصيل ، ودخول المفهوم الغربى الوافد للقوميات واستعلائه ومن ورائه قوى النفوذ الاستعمارى التى كانت حريصة على أن تخلق أجواء الخصومة والتضارب والصراع بين العرب والترك والفرس على النحو الذى قامت به مما وقع بين العرب والترك . وخلاصة القول أن الاتجاه إلى العروبة كان موقفا طبيعيا غير مفروض ولا دخيل إزاء الواقع السياسى الذى وجد العرب أنفسهم فيه بعد صراع الاتحاديين لهم لتتريكهم من ناحية ثم بعد سقوطهم فى أسر الاحتلال الغربى وسقوط فلسطين تحت النفوذ الصهيونى . كان لا بد للعرب من تجمع جديد من خلال حلقة أكبر من الوطنية والإقليمية التى فرضها النفوذ الاستعمارى ونماها وخلق لها فلسفتها ، ومن ثم فقد كان التنادى بالوحدة العربية والتجمع العربى وكان الفكر الإسلامى هو مصدر الضوء فى تشكيل هذا التجمع تحت لواء « العروبة » .

ولم يكن هذا فى الواقع هو الامتداد أو المثيل لما كانت تنادى به الصيحات فى القرن التاسع عشر فى لبنان ومن أمثال إبراهيم البازجى أو البستانى أو نجيب عازورى فان ذلك كانت دعوة باسم العروبة الفينيقية والغسانية القديمة التى تحاول أن تملى المفاهيم السابقة الإسلام كصيحة تنادى بين الموارنة والعرب المسيحيين فى ظل ما حاول النفوذ الأجنبى أن يلقى إليهم أو يدعوهم إليه للتشكل بعيداً عن العروبة والاسلام جميعا فى كيان خاص حاول الاستعلاء بأنه مقدس وخالد وأزلى ليحافظ على وجوده الخاص . ولكن الدعوة إلى العروبة كانت صيحة الجماعة العامة وكانت تستمد وجودها ككل حركات العالم الاسلامى السياسية من جوهر القيم الأساسية التى كانت تفسح المسلمين والعرب التشكل فى مواجهة الأحداث على النحو الذى يمكنهم من مدافعة الأخطار ومن إعادة بناء الأساس لقد كانت الجامعة الإسلامية التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد هى « أداة المواجهة للنفوذ الاستعمارى على مستوى الدولة العثمانية فلما أسقط الاستعمار هذه الدولة ، كانت التحديات الخطيرة التى تلت ذلك تحكم على العرب أن يتنادوا تحت لواء الواقع القريب وضمن الحلقه الوسطى : « حلقة العروبة » وكان هذا التنادى تلقائيا ولم يطلق عليه أى اسم آخر ، وكلمة القوميات وغيرها كانت غريبة ومستحدثة ولا تمثل أبداً ذلك التشكيل الفكرى والاجتماعى والسياسى الذى يجمع العرب باسم الجامعة التى تجمعهم وهى الفكر العربى الاسلامى بما صاغ من ذاتيتهم ومزاجهم ومجتمعهم . ولم تكن اللغة العربية فى الحقيقة هى الرابطة ذلك لأن اللغة العربية ليست رابطة قومية على نمط اللغات الأوربية وإنما هو القرآن فى الحقيقة الرابطة القومية والإنسانية والوطنية الجامعة على المستويات الثلاث ومن

خلال كل تشكل وطنى أو على مستوى الأمة أو على مستوى الفكر . وقد كانت العروبة على السنة الدعاة والمفكرين والسياسيين فى ذلك الوقت رابطة تجمع ولا تفرق ، وهى رابطة لا تعطى معنى التعصب أو التفرقة العنصرية ، ولا تقيم الحواجز بين العرب والفرس والترك والأفغان والهنود والجاويين على أساس أن رابطة وحدة الفكر الجامعة للعرب هم انفسها للمنتدة الواسعة وإنما كان يدعم هذه العروبة عاملان كبيران :

(العامل الأول) هو أن اليقظة العربية الاسلامية تجددت صيحتها من قلب الجزيرة العربية علامة على أن العرب سيقودون نهضة العالم الإسلامى . (العامل الثانى) هو ذلك الميثاق المعان والمجدد والتى تجدد فعلا فى هذه الفترة وهو إيمان المسلمين فى مختلف أنحاء العالم بأنه وإن تكن سقطت الخلافة فان العرب وهم أصحاب اللغة والفكر والكعبة والأزهر والقرآن هم المرجوون لليقظة الاسلامية ولحركة جديدة من حركات التشكل للعالم الإسلامى كله : وهذا هو الخطر الخطير الذى واجه الاستعمار الغربى بعد أن سقطت الخلافة والدولة العثمانية حينما أحس بأن العروبة ستشكل قوة فكرية واحدة تدفع إلى الأمام حركة اليقظة . ومن هنا بدأت عملية المقاومة العنيدة الظالمة التى حشدت لها الأقلام والأذهان الاستعمارية والتغريبية والصهيونية والماسونية لإلقاء مفهوم ملحدفى يمزق جوهر العروبة الأصيل ويذيب مضمونها ويفرقها بين أكثر من مذهب ودعوة ومن هنا كان طرح مفهوم القومية العلمانية الغربية الوافدة .

(٣٢)

طرح النظرية الغربية فى القوميات

لم تلبث حركة التغريب إذ رأت كيف أخذت فكرة «العروبة» طريقها الأصيل كحلقة وصل بين رابطة الأرض (الوطنية) وبين رابطة الفكر (الإسلام) أن تدخل إليها تحريفا يتشعب بها ويفسدها ويصيبها بالاضطراب والعجز عن طريقها الحق ، البسيط ، الذاتى ، التلقائى ، الفطرى ، ولما كانت « دعوة الإقليميات » قد فشلت فى تحقيق التمزق الفكرى والاجتماعى والسياسى للعروبة والاسلام فقد جاءت النظرية الغربية الوافدة فى القوميات عاملا هاماً فى زعزعة المقومات الاصيلة والقيم الاساسية وتعرية العروبة ، من كل ما يتصل بها سواء على صعيد الفكر كالثقافة والتاريخ واللغة ، أو على صعيد السياسة كالترابط والانفتاح بين الامم الاسلامية ذات التاريخ والثقافة والعقيدة

الواحدة والتى تجمعها منذ خمسة عشر قرنا أرضية ثابتة ورصيد ضخم . فكانت النظرية الغربية فى القومية تريد أن تحمل معها ثلاث محاذير خطيرة :

١ — طابع الاستعلاء الجنسى المغلق فى مواجهة الامم الاسلامية . ٢ — طابع الانعزال الكامل عن التاريخ والتراث والمقومات الاسلامية . ٣ — خلق وجود معاصر منفصل تماما عن الاسلام وعن العالم الاسلامى متصل بالغرب ، مندمغ فى تفسيراته وقيمه وطوابعه . وقد غاب عن الذين طرحوا النظرية الغربية فى القومية أن هناك عاملا ضخما لا سبيل إلى تجاهله أو إغفاله فى أى نظرة علمية ذلك هو الطابع الفكرى العميق الذى صاغه الإسلام للتشكل العربى فى أولى مراحل وجود العرب كأمة بعد أن كانوا مجموعة من القبائل المتفرقة المتصارعة وأن هذا الطابع قد أقام حداً فاصلا عميقاً (فكرياً وسياسياً واجتماعياً) بين ماضى العرب والمصريين والشاميين والعراقيين والمغاربة جميعاً وكل من عاش فى هذا العالم الممتد الذى سيطر عليه الإسلام وشكله الفكر الإسلامى وخاصة تلك المنطقة التى تعربت وأصبحت تسمى الأمة العربية أو مجال العروبة . وأنه لا سبيل إلى إعادة هذه الأمم إلى ماضيها القديم بعد أن نقلها الإسلام تلك النقلة الواسعة من الأساطير والوثنيات والعصبيات والصراع الفكرى والفراغ الاجتماعى إلى ذلك الطابع المتكامل من التوحيد والعدل والحق والمقومات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية الواضحة فى ذلك النظام الذى نزل به القرآن ورفع لواءه الإسلام . وأن أية معاودة لإحياء تلك الصفحات القديمة سواء فى الجاهلية العربية أو الوثنية الفرعونية أو الفينيقية أوحتى خارج محيط الأمة العربية فى الوثنيات الفارسية والهندية فان ذلك أمر مستحيل غاية الاستحالة مهما أطلق عليه اسم القوميات أو الإقليميات . وربما كان ذلك ميسوراً فى أوربا التى لم تغير المسيحية تشكيلها الفكرى أو العقلى والذى كان قائما فى إطار الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى أساسا . أما فى العالم الإسلامى وفى الأمة العربية بالذات التى حملت لواء الإسلام وأذاعت به فى العالمين شرقا إلى الصين وغربا إلى أسوار فينا وإلى نهر اللوار فان هناك استحالة ذلك التحول واستحالة نقل التجربة الغربية أو تطبيق ظاهرة تاريخية فى مجتمع غير المجتمع الذى جرت فيه مع اختلاف عميق وجذرى فى كل الظروف والملابسات والأماكن والعقائد والعصور والأمم . فى عام ١٩٤٠ تقريبا بدأت عملية طرح النظرية الغربية فى القوميات على الفكر العربى وظهرت أقلام تتحدث عن فلسفة القوميات وتشكلت هـــذه الفلسفة فى هيئة مؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية وبدأت نقطة انطلاقها من لبنان ومن خلال خريجى معاهد الإرساليات والعائدين من بعثات تعليمية فى فرنسا واتخذ بعضهم الأسلوب المجنح الحالم الصوفى الذى يحاول أن يعطى كلمة

القومية العربية مفهوم العقائد الدينية ، ويروج لها فى إطار من المزامير والموسيقى والأناشيد والتراتيل على نحو يؤثر فى نفوس الشباب الطامح المتوقد حماسة إلى مثل أعلى وفكرة ومنهج فكر وحياة . وقد شاء أصحاب الدعوة أن يرجعوا التاريخ المكتوب الذى عاشته العروبة والاسلام ، أن يرجعوه القهقرى من جديد ليدخلوا فيه كلمة القومية التى لم يكن يعرفها والتى لم تجر على الألسنة والأقلام إلا فى أوائل هذا القرن والتى يندر أن يوجد نص مكتوب لأديب أو مفكر أو شاعر يتخذ من كلمة (ق و م) شعاراً له أو منطلقا فى قصيدة أو مقال أو كتاب . وحيث لم يكن فى التاريخ العربى الاسلامى الممتد ما يشير إلى نفس هذا المعنى بوصفه دعوة إلى تجمع الأمة أو العنصر أو الجنس مما لم يكن موجوداً بطبيعة هذه العصور ولم تكن الحاجة إليه بطبيعة التحديات التى فرضت وجوده فى السنوات الأخيرة . ذلك أن أصحاب الدعوة لم يكفهم أن يقولوا كلمتهم اليوم ولكنهم حاولوا أن يقيموا لها تاريخا طويلا بعيد المدى يسبق ظهور الإسلام ويمتد من خلاله ويقيم تاريخين وفكرتين وكتابين : أحدهما اسمه الأمة العربية والآخر اسمه الأمة الإسلامية . ولا شك أن ذلك تاريخيا وعلميا أمر زائف أشد الزيف ولا صحة له ، ولا يمكن تقبله أو إقراره ، ذلك أنه بالحق لم تكن هناك أمتين أو عنصرين أو دعويين عربية وإسلامية ، بل لم يكن من الممكن إيجاد ما يمكن أن يفرق ما بين العرب والمسلمين ، خلال هذا التاريخ الطويل الذى كان العرب والمسلمون فيه كلا متكاملا ، وكانت العروبة الإسلامية جماع مصمت ، وتشكل مترابط جذرى ، ولو قد حاول هؤلاء الدعاة أن يوجدوا للعرب تاريخاً منفصلا لما وجدوا ، فلقد بدأ تاريخ العرب حقيقة فى نفس الوقت الذى شكلهم فيه الإسلام وبناهم كأمة وأهلهم ليحملوا رسالته .

وتاريخ العرب قبل الاسلام لا يمكن أن يعطى أية حجة أو أى دليل على مفهوم القومية ولكنه يمكن أن يعطى ألف دليل على مفهوم التعصب والقبلية والصراع الدموى بين العروق والقبائل . ولقد كانت فكرة دعاة القومية المجنحة واضحا ، فقد كانوا يريدون بمزاميرهم وتراتيلهم أن يواجهوا دعوة اليقظة الفكرية العربية التى كانت قد استحصدت وقويت وقطعت مراحل طويلة ودخلت فى دور من أهم أدوارها من خلال الجماعات والهيئات وأن يصارعوها . كما كان هدفهم الأكبر من رفع لواء القومية العربية إحياء الجاهلية ، والعودة بالعرب إلى كنعان وغسان وآرام وإحياء هذا التراث القديم بعد أن سيطر الفكر الاسلامى أربعة عشر قرنا كاملة على هذا العالم الواسع واستوعب فى أعماقه كل فكرة صالحة وكل نظرة صائبة من الفلسفات والمذاهب القديمة التى عرفتها العرب أو الفرس أو الهنود أو اليونان ثم صاغها من داخل بنائه الجديد فلم يعد هناك غير صورة واحدة جامعة هى الفكر

الإسلامى الذى يختلف عن الاسلام نفسه ، فى أنه كان عصارة الفكر البشرى مصاغا فى إطار الاسلام والتوحيد ومبقيا فى ضوء القرآن ثم اتسع نطاق طرح النظرية الغربية الوافدة فى القوميات على ألسنة عديد من الكتاب وتعددت المذاهب المطروحة وحاولت أن تستمد مفاهيمها ومقوماتها من الولاء لإحدى النظريات الغربية أو إلى الأخرى ، وفى الغرب كانت قد ظهرت بضع عشرة نظريةفمن هؤلاء الدعاة من أخذ نظرية (اللغة) ومنهم من أخذ نظرية (رسالة الأمة) ومنهم من أخذنظرية (المشيئة). وتضاربت وجهة الرأى بين أصحاب هذه النظريات وما زالت حتى اليوم دون أن تحقق اتفاقا على نظرية معينة أو تشكل كامل وقد اختلفت عند الدعاة باختلاف ولائهم والمدارس الفكرية التى نشأوا فيها أو الأهداف التى يحملون لواءها والتبعية التى يعملون لها . ولكن النظرة العامة تعطى إشارة إلى أن النظرية وافدة وغربية وليست منبعثة من وجودنا ، وليست تتمثل فكرنا أو كياننا أو جوهر قيمنا ولعل سر ذلك راجع إلى أن الذين حملوا لواء هذه النظريات إما إنهم لم يعرفوا الاسلام معرفة عميقة وإن كان بعضهم يحمل أسماء إسلامية ، أو أنه متابعا لمفهوم الغرب عن الاسلام ، أو أنه كان من غير الغالبية العربية دينا أو فكراً أو متابعة للفهم الغربى للاسلام . أما أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعا أنهم صدروا فى قيادة الأمة العربية وفى التقنين لها فى مفهوم القومية ، وفى رسم مناهج مجتمعها وفكرها من داخل النظرية الغربية الواضحة ومن إطار المسيحية الغربية أو الفهم الغربى لها وهو أن الاسلام دين روحى محض ، مثله كمثل المسيحية ، وأنه لاهوت خالص وعلاقة بين الله والفرد ولا صلة له مطلقا بأنظمة المجتمع ولا الأخلاق ولا منهج الحياة .

ومن الأمور التى تحتاج إلى نظرة عميقة أن كل الداعين إلى مبدأ القوميات كانوا غربى النظرة أو على ولاء غربى أو كانوا لا يفهمون حقيقة الاسلام الجامعة بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياةوأن دعاة القومية لم يكونوا أكثر ايمانابهذه الأمةمن دعاةالاقليميات حتى ليمكن أن يقال أن دعوتهم الى القوميه انما تمثل طابعا اقليميا فى النظرة ، وأبلغ أخطائهم ذلك الالتباس الذى يثيرونه ويذكونه بين العروبه والاسلام ، وذلك الفصل بين الاسلام والمجتمع . وبالجملة فان دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الواقعيه والفهم العميق للاسلام والعروبه . وان محاولتهم فرض مفهوم غريب دخيل وافد ، انما كان سببا فى ذلك العجز وذلك الفشل وذلك الاضطراب الذى لازم الدعوة العربيه خلال هذه السنوات الطويلة حتى بدأ فى نظر الكثيرين فشلا ذريعا لهم لا للفكرة التى تستطيع أن تشق طريقها اذا ما التمست جوهرها وذاتيتها وفطرتها فى ضوء الواقع الذى يقرره الفكر الاسلامى البالغ القاهر والذى لا يمكن تجاوزه أو التحرك منه إلى خارجه .

وخلاصة ما تقرره النظرية القومية الوافدة : ١ — إنكار أثر الاسلام المعنوى . ٢ — إنكار الترابط بين العروبة والاسلام . ٣ — إنكار الترابط بين الاسلام والمجتمع . ٤ — اعتبار الاسلام مرحلة من تاريخ العرب ٥ — إنكار بعث الماضى أو ما ليس له . ٦ — القومية هى الأساس ووعاؤها يضم الاسلام . ٧ — الاسلام يؤلف إحدى الخصائص الموضوعية للأمة العربية . ٨ — الاسلام نبع من قلب العروبة . ٩ — للأمـــة العربية رسالة مقدسة . ١٠ — تسميته مرحلة من التاريخ العربى بالعهد الاسلامى . ١١ — تجاهل النظم السياسية الاسلامية . ١٢ — الاسلام هو الايمان بالقضاء والقدر والله واليوم الآخر .

١٣ — اللغة هى مقوم القومية والتاريخ مقوم آخر . إن الذين حمـــلوا لواء النظرية الغربية فى القوميات كانوا فى الأغلب من خريجى معاهد الإرساليات أو من أساتذتها ، أو من الذين عملوا مع الاتحاديين دعاة الطورانية ، أو من الذين عملوا فى الأحزاب الشيوعية والاقليمية وقد تمثل أغلبهم بطابع واضح من التعصب للعروبة الأصيلة والإسلام ومنهم من كان على ولاء واضح للدولة الأجنبية ومنهم من كان من زعماء المحافل الماسونية والواقع أن دعاة القومية بمفهوم الغرب الوافد ينقصهم إكتمال النظرة وربما يعوزهم الانصاف والبعد عن التعصب . وقد حملوا مفهوماً غربياً طرح فى بعض أقطار أوربا فى ظل تحديات تختلف اختلافاً جوهرياً عن التحديات التى تواجهها الأمة العربية وقد التبست النظرية أساسا بطابع الأهداف التى حملتها الإرساليات وأبرز معالمها هى : ١ — السخرية بالإسلام وقيمه وأنظمته واعتباره دينا لاهوتيا صرفا . ٢ — اعتبار اللغة العربية لغة أمة تخضع لما تخضع له اللغات الغربية . ٣ — القول بأن أوربا هى التى أيقظت العرب والمسلمين . ٤ — الإعجاب البالغ والتقدير للتاريخ الغربى والحضارة الغربية . ٥ — الدعوة إلى أسلوب الفكر الغربى أسلوبا للفكر العربى .

٦ — انتقاص الدولات الإسلامية والعربية . ٧ — القول بأن الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية . ٨ — القول بأن الإسلام مرحلة فى تاريخ العرب وأنه ثقافة العصور الوسطى . ٩ — القول بأنه ليست هناك إلا حضارة واحدة قام بها اليونان ثم الأوربيون فى العصر الحديث . ١٠ — النظر إلى رسول الإسلام على أنه بطل عربى أو أنه زعيم اجتماعى . ١١ — مهاجمة التاريخ والنظر إليه على أنه عامل معوق . ١٢ — الحملة على القديم كله وازدرائه والنهى عنه . وتستطيع أن تجد ذلك واضحا من خلال كتابات دعاة النظرية الغربية فى القوميه وتشم من هذه الكتابات روح

الكراهية والشماتة والحقد والتعصب . ولقد كشف الباحثون الغربيون مدى التلفيق الواضح فى نظرية القومية التى حمل لواءها دعاة يكتبون بالعربية وردوها إلى أصول أجنبيه محضة. وأبرز هذه الدلائل: (أولا) إن القول بأن لكل أمة رسالة خاصة بها عليها أن تقوم بها هو مضمون نظرية هردز . (ثانيا) التأكيد على التاريخ وعلى الوجود القومى هو مضمون نظرية هيجل . (ثالثا) القول بالارادة العامة هى نظرية جان جاك روسو (رابعا) الأساس الاقتصادى للسياسة مأخوذ من نظرية ماركس . (خامسا) واضح فى النظرية أثر المذهب الحيوى الذى نادى به برجسون .

(٣٣)

مبدأ القوميات فى أوربا

ظهر مبدأ القوميات فى أوربا على أثر الصراع الذى نشأ بعد ظهور البروتستانتية وانقسام المجتمع الأوربى بعد أن كانت تجمعه وحدة الكنيسة الكاثوليكية . ولقد كانت الثورة الفرنسية بعد البروتستانية عاملا هاما فى ظهور القوميات وسقوط الامبراطورية الكبرى وإعادة تشكيل الدولة فى أوربا على أساس رابطة اللغات والقوميات والأجناس ، وكانت صيحة القوميات فى البلقان تحت أسماء اللغات من العوامل الهامة فى محاولة انفصال هذه الأجزاء عن الدولة العثمانية . وكانت الحملة الضخمة التى شنتها الماسونية على المسيحية عاملا هاما فى هذا التشكل الأوربى ، خاصة بعد عصر التنوير وظهور الفلسفات المادية التى هاجمت الدين بصفة عامة وأعلت من شأن العناصر والدماء والأعراق . ولقد كان لليهودية العالمية مأرب ضخم من وراء هذا التحول الذى بدأ بالثورة الفرنسية واجتاز طريقه على صراع القوميات وإعادة تشكيل الدول وإسقاط الامبراطورية البولونية التى كان لليهود يحتلون جزءاً منها . ولا شك أن إسقاط النفوذ الموحد الذى كان تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية من أهم العوامل فى تأكيد سيطرة اليهودية العالمية على الاقتصاد والسياسة والفكر بعد أن انكسر قيد العزلة اليهودية باعلان مبادىء الماسونية العالمية فى أول ضربة قوية هى الثورة الفرنسيه التى حملت المبادىء (حرية ، إخاء ، مساواة) والتى أنهت بها عزلة اليهودى وانكسار القيد الذى كان مفروضا عليه فى المجتمع ومن ثم انفسح المجال أمام اليهود للسيطرة على القيادات السياسيه فى فرنسا ثم فى أوربا جميعها بعد الثورات المشابهه والمكملة للثورة الفرنسيه . وكان على اليهوديه العالميه أن تحطم قوة ضخمه أخرى تقف فى طريقها للوصول إلى القدس وبناء هيكل سليمان هى الدولة

العثمانيه والخلافه الإسلامية ، ونقل مبدأ القوميات من أوربا إلى الترك والعرب والفرس والأفغان والهنود جميعاً لاحلاله مكان رابطة الجامعة الاسلامية . ويقول هانس كهن فى كتابه « عصر القومية » . إن الثورة الفرنسية التى أعلنت فى البداية رسالة السلام العام ألقت بأوربا فى أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أى حرب مضت منذ عهد الحرب الدينية فقد ظهرت الزعامات القومية لأول مرة فى إيرلندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنرويج .

وأشار إلى أثر ظهور البروتستانتية ومطالبتها بتلاوة الكتاب المقدس مما أعلن على ترجمته إلى اللغات الوطنية ، فكانت هذه الترجمة نقطة البداية التى انطلقت منها اللغات والآداب القومية فى طريق التطور والترقى » . ومعنى هذا أن البروتستانتية كانت مقدمة للقوميات التى قامت فى أوربا على أساس اللغات منفصلة عن الكنيسة وعن الفكر المسيحى العام . ومن الواضح أن الدعوة إلى القوميات ، على هذا النحو الخطير الذى اجتاح أوربا كان مقدمة لبروز القومية اليهودية التى لم يكن لها أى مقوم من مقومات القومية : وهما الوطن أو اللغة . ولقد غزت اليهودية العالمية الدعوة القومية فى أوربا حتى أصبحت هذه الدعوة كما يقول هانس كهن : « أصبحت القومية هى القوة السياسية والثقافية الحاسمة بين جميع الشعوب والحضارات على وجه الأرض وأن القرن العشرين هو أول فترة فى التاريخ اتخذ منها جميع الجنس البشرى خطة سياسية واحدة هى القومية » . غير أن هانس يعقب على ذلك بأمرين يقرر فيهما النتائج التى وصلت إليها الدعوة إلى القومية التى بدأت فى أوربا وانبثت فى العالم كله : أولا : إن انتشار القومية لم يمهد السبيل لإيجاد مجتمع إنسانى يسوده التعاون والاتحاد . ثانياً : إن القومية على الرغم من كونها عنصراً عالمياً وروحاً حراً هى عامل قوى من عوامل الانقسام بين الشعوب ما لم تمازجها روح حرة من التسامح والوفاق أو نزعة عالمية إنسانية ذات عقيدة سياسية ، وأن تأكيدها للسيادة القومية وللميزات الثقافية لا يساعد على تعزيز التعاون بين الشعوب » . ويقول نقولا زيادة : « إن عصر النهضة الأوربية هى نقطة الابتداء فى عودة القومية » . « تحررت أوربا من سلطان الكنيسة القوى المسيطر على الفكر وتحررت من سيطرة اللغة اللاتينية التى كانت تستبد بسبيل التعبير عن الأفكار فتركت اللغة اللاتينية جانباً واستعملت اللغة المحلية » . وهو يرى أن فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة الجامعة واللغة اللاتينية قد زالت ليحل محلها الانتقال إلى الفكرة الجديدة : أصبحت الجماعة التى تسكن بلداً واحداً تشعر أنها تتكون من أفراد متشابهين فيما بينهم مختلفين عن غيرهم ، أى أنهم أمة . هذا هو المناخ الذى نشأت فيه القوميات فى أوربا والعوامل التى

أثرت فيه فهل هو نفس المناخ الذى نشأت فيه فكرة « العروبة » فى المشرق . وهل كان العرب فى حاجة إلى الانفصال عن الدين الجامع أو اللغة الجامعة ـ الواقع أن التحديات يختلف وأن أبرز التحديات فى قيام العروبة هو التجمع على أساس الأمة بعد أن سقط العامل الجامع الأكبر على أساس الفكر وهو الدولة العثمانية بمعنى التجمع فى وجه النفوذ الأجنبي الزاحف . ولقد كان العرب قد تجمعوا تلقائياً ومن خلال ذاتيتهم ووفق مفاهيمهم وقيمهم على « العروبة » المرتبطة بالإسلام : فكراً وأمماً أما ما ألقى إليهم وطرح عليهم من نظرية وافدة باسم القوميات مستمدة من واقع الغرب ومن تجربة قائمة فى مضامينها على تشكل لا يطابق الفكر ولا العقلية ولا الذاتية ولا المزاج العربى الذى شكله الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ولم ينفك يؤثر فيـــه ويرتبط به ترابطاً عضوياً ، أما هذا الذى ألقى إليهم فهو شىء مختلف .

(٣٤)

من التبعية الغربية إلى الأصالة الإسلامية

(١)

وحدة الفكر العربى الإسلامى

طرحت على الفكر الإسلامى ووليدته الثقافة العربية فى الأربعينات وما بعدها نظرية القوميات الوافدة كما طرحت من قبل نظريات عديدة فى السياسة والاجتماع والقانون والأدب . وقد واجه الفكر الإسلامى هذه النظرية على النحو الذى واجه به مختلف النظريات الوافدة التى جاءت مع النفوذ الغربى ، حيث بدأت المواجهة بالتفحص والنظر ، تفحصاً لا يخلو من الإعجاب بالبريق ، والتأثر بالمصدر ، ومحاولة تحليل الأصول ، وظل دعاة نظرية القوميات يطرحون من أفكارهم : المتشاكل والمتعارض · من عديد من المذاهب التى عرفها الغرب فى تحليل هذه القضية حيث توجد عشرات المفاهيم الألمانية والفرنسية والإيطالية مما جرى البحث عنها بأقلام العديد من فلاسفة الأجناس والقوميات والعناصر والدماء والأعراق ، منذ هبت هذه الموجة العاصفة فى أوربا بعد الثورة الفرنسية وانتشرت تحت تأثير تحديات مختلفة وبتوجيه قوى متعددة ، تحاول أن تشكل المجتمع الغربى تشكيلا جديداً من جميع نواحيه السياسية والفكرية .

وقد كان طبيعيا أن تضل نظرية القوميات الغربية الوافدة مطروحة فى العالم الإسلامى الذى كان قد واجه بعد الزحف الاستعمارى وسقوط الدولة العثمانية والخلافة موقفاً بالغــا فى الدقة والخطر ، أفرز اتجاهين أساسيين لتغطية الفراغ وإعادة تشكيل القوى المتجمعة : أما أحد هذه المواقف فهو التجمع الوطنى المرتبط بالأرض ثم بالأمة كعامل من أبرز عوامل المواجهة ، وقد بدأ هذا فى ظهور العروبة كعامل تجمع للبلاد العربية بعد أن انتهى تجمعها بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .

وقد كان هذا الاتجاه طبيعياً وتلقائياً وفق القاعدة التى دار فيها التاريخ الإسلامى العربى منذ ظهور الإسلام إلى اليوم بين حلقات ووحدات متداخلة هى وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفــكر . فهو يتجه من الأولى إلى الأخيرة ويكر من الأخيرة إلى الأولى على مراحل ووفق التحديات التى تواجهه والأخطار التى يتعرض لها أو مصادر القوة التى تدفعه إلى الا كتمال .

ولكنه لا يخرج عن هذه الحلقات الثلاثة ولا يتوقف عند مرحلة منها باعتبارها الغاية أو النهاية إلا إذا بلغ الوحدة الكبرى : والوحدة فى مفهوم الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى هى وحدة فكر وقيم وعقائد بالدرجة الأولى ، وليست وحدة أرض أو جنس قائمة بذاتها أو وحدة لغه أو تاريخ منفصلة عن وحدة الفكر نفسه . ذلك أن الفكر الإسلامى كان منذ نشأته متكاملا وشمولياً وقائماً على اجتماع العناصر المختلفة لا على تفرقها ، وعلى أساس ارتباط العقل والقلب والروح والمادة أساساً . ومن هنا فإن العروبة بوصفها حلقه من وحدات ثلاث متداخلة كانت فى ظهورها استجابه طبيعيه وتشكلا تلقائياً للمقاومة ضد الاستعمار كأسلوب لإقامة «تجمع» فى دائرة الأمة بعد أن سقط التجمع الأكبر الذى كان قائماً بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .

هذه العروبه — وليست القومية — لم تكن استجابه لمبدأ القوميات الغربيه الوافد ، وإنمـا كانت تطوراً طبيعياً لحركة اليقظة العربية الإسلامية فى مرحلة من أدق مراحلها اضطرت فيها تجـاه ظروف الغزو الاستعمارى إلى التحرك مرتين : الأولى إلى دائرة الوطن وهى مرحلة استمرت خلال فترة الحربين العالميتين ، ثم انتقلت إلى دائرة الأمة بمجرد أن اتضحت حـركة الاستقلال الذاتى وأسرع بها إلى هذه الحلقة الوسطى ، تحدى الاحتلال اليهودى لفلسطين العربيــة الإسلاميه ، ممـا سارع بالتحرك الوطنى الإقليمى الذى فرضه الاستعمار إلى تشكل جماعى فى دائرة العروبة . غـير أن النفوذ الاستعمارى لم يدع حركة اليقظة العربية الإسلامية تجرى فى طريقهـا الطبيعى أو تنطلق إلى غايتها دون أن يضع لها القيود والعراقيل ويفرض عليها البلبلة والاضطراب وذلك يطرح عشرات

من نظريات القوميات والاقليميات الغربية التى اعتنقها عدد من رجاله الذين تعلموا فى الغرب أو تخرجوا من معاهد الإرساليات التبشيرية فأصبح كل منهم علم على نظرية سواء أكانت إقليمية الوطن أو إقليمية القومية ، أو قوميه اللغة ، أو قومية الأرض أو قومية الرسالة الخالدة . وكانت هذه النظريات المطروحه إنما تريد أن تفسد التحرك الطبيعى لحركة اليقظة من دائرة الوطنية الإقليمية التى ركز عليها الاستعمار طويلا بنظريات الفرعونية والفينيقية والبربريه والأشوريه ، وغيرها ثم سقطت هذه النظريات بعد قليل فى ضوء كاشف هو أن العروبة الحنيفية كانت منذ وقت بعيد تتدافع موجاتها من الجزيرة العربية إلى العراق والشام ومصر والمغرب لتتشكل فى أسماء مختلفة يجمعها فى النهايه جامع واحد منذ ترابطت هذه المنطقة العريقة تحت اسم واحد ، وروح واحدة ، كان للاديان السماوية المنزلة بها أبعد الأثر فى صياغتها وتوحيدها . لقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلا لكلمة العروبة ، عملا على خلق الصراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكمل وجودها أو تحقق ارتباطها الطبيعى ولقد كانت هذه المناهج الغربية الوافدة إنما تحاول أساساً أن تجهض هذه الحلقة الوسطى وهذا التشكيل العربى الحنيفى (الجامع للفكر والعقيدة والعرق والأرض واللغة) أو تقضى عليها . فقد رأى الاستعمار أن الدعوة إلى العروبة قد بدأت تتشكل بأصالة فى مكانها الطبيعى من حركة اليقظة ، فلم يلبث أن طرح هذه المذاهب فى هذه المرحلة كما طرحها فى المرحلة السابقة وفشلت وتحطمت ، وأدخل إليها مفاهيم غريبة عنها حاول بها إبعادها عن دائرة الفكر العربى الإسلامى الجامع عقلياً وروحياً من ناحية ، وعن العالم الاسلامى الذى يتكامل مع الأمة العربية جغرافياً واقتصادياً وفكرياً أيضاً ويستحيل أن ينفصل عنها . ولم يكن للعروبة إزاء ذلك لتحقق وجودها إلا أن تلتمسه من داخل مفاهيمها هذه المرتبطة بالقيم التى أعطاها إياها ذلك الفكر الجامع الموحد . نعم ، لم يدع لنا النفوذ الغربى قدرة على النظر والاختيار ، ومراجعة هذه الدعوات بل نفذ بها إلينا من طرق فرضها فرضاً على مناهج التعلم وعلى أساليب الثقافة ، وعلى كتابات الصحافة ، وذلك عن طريق تلك الأجيال التى رباها أساساً فى معاهد الارساليات ولقنها هذه النظريات ثم أتاح فرصة القيادة الفكرية فى دائرة التغريب الزاهية ، وهذا يبدو واضحاً فى طرح مفاهيم القوميسة الغربية فى الدولة العثمانية أولا تحت إسم الطورانية ثم فى البلاد العربية من بعد أن تشكلت حلقة العروبة طبيعياً وتلقائياً ، مستمدة وجودها من القيم الأساسية الجامعة للفكر الاسلامى غير منفصلة عنه .

وربما تكون نظريات القوميات الغربيـة الوافدة التى فرضت نفسها قد أغرت بعض الذين

لا يتعمقون الفكر الاسلامى الأصيل ولا يعرفون قيمة أبعاده ، غير أن السنوات الطويلة التى انقضت فى المراجعة والمواجهة ، كشفت عن حقيقة واقعة : هى أن هذه النظريات متعارضة مع طبيعة النفس العربية والعقل العربى ، وأنها باديه الزيف ، وباديه الاختلاف مع المزاج النفسى ومع الذاتية الأصيلة ومع العقائد المؤصلة التى تشكلت عليها هذه الأمة منذ أربعة عشر قرناً ، ولقد كان هذا شأن الفكر الاسلامى دائماً فى مواجهة النظريات الوافدة ، يصارعها على مهل ، ويأخـــذ منها ما يتفق مع كيانه الأصيل ثم يدفعها برفق لتتدحرج بعيداً . لقد كشفت الحقيقة الواقعه أن هذه النظريات الوافدة لا تتفق مع طبائع الأمة وأصولها وإن الزيف لايستطيع أن يحل محل الأصالة ، مهما بدأ له من بريق ساطع ، أو أصوات تعلو وتردد ، وتتعدد ، لقد كشف جوهر الفكر الإسلامى العربى عن أن هذه النظريات الوافدة تتعارض معارضة أصيلة مع الذاتية العربية الإسلامية والمزاج النفسى للامم التى شكلهـا الفكر الإسلامى ، وإن هذه الأمم لابد أن تعود لجوهرها الأصيل بالرغم من كل القيود والقوى التى تحـاول أن تقمعها فى أوضاع محددة . ويبدو ذلك واضحاً فى كل البلاد الإسلاميه التى اعتنقت نظرية القوميات الغربيه الوافدة ، ويبدو جليا واضحاً فى المنطقة العربية ، والتى تعد منطلق اليقظة العربية الإسلاميه فى العصر الحديث إنطلاقاً إلى نهضة شاملة والتى كانت نظريات الإقليميات والقوميات الإقليمية الوافدة عاملا على تعويقها وتحطيم طريقها ومن هنا فقد آن للفكر العربى الإسلامى أن يكشف عن جـــوهره ويصدر عن نظرة أصيلة تقوم على « وحدة الفكر » أساساً للعروبة ، إيمانا بذلك الترابط العضوى بين العروبة والإسلام الذى شكلته علاقة امتدت خمسة عشر قرنا وقام على أصول نفسية واجتماعية تمثـل الذاتية والمزاج والروح العربى الإسلامى الذى يختلف اختلافاً جذرياً عن الذاتيـة والمزاج والروح الأوربى الغربى .

قوام هذه النظرة : أن وحدة الفكر والقيم هى أساس العروبة الحنيفية ذات الجذور العميقـة التى تشكلت فى هذه المنطقة منذ تأهلت لرسالات السماء والتى مضت تصحح نفسها مرحـلة وفق ذلك التكامل الأصيل بين الروح والمادة والقلب والعقل والدين والدنيا فجاء مفهومها الفكرى ، قائمـاً على أن أساس أن الفكر الإسلامى هو فكر جامع للمجتمع والأخلاق والعقائد ، وبحسبانه فكر العـروبة الحقيقية الجامع بين الأديان السماوية جميعا التى هى من مصدر واحد فهى عروبة ذات أرضية من الفكر الاسلامى والاسلام من غير المسلمين فكر ، وللمسلمين دين وفكر ، وهى عروبة مفتوحـة ثقافيا على التاريخ والتراث والقديم ، ومفتوحة جغرافيا على العالم الاسلامى والأمم الاسلامية . وهـذه العروبه

حلقة من وحدات ثلاث متداخلة متكاملة هى وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر كل منها تسلم إلى الأخرى بترتيبها الطبيعى . وإذا كان مفهوم التكامل على مستوى الأمة فى هذه النظريات يقوم على أسس متعددة تعدد النظريات وتعدد الأمم التى ظهرت فيها هذه النضريات أنطلاقا من الفكر الغربى الأوربى المتجزأ القائم على الانفصال بين القيم ، فإن الأمر يختلف تماما فى الفكر العربى الاسلامى . فحيث تكون وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة المفاهيم الاجتماعية أو وحدة العادات أو وحدة التقاليد ، كل منها وحدة قائمة بذاتها ؛ نجد أن هذه العناصر المختلفة يجمعها فى الفكر الاسلامى ما يسمى « وحدة الفكر والقيم » ولذلك فنحن لا نأخذ النظريه الغربيه التى تركز على اللغة وحدها كما شاع أخيراً وذاع ، ذلك لأن اللغة فى مفهوم الفكر الاسلامى هى أداة الفكر فليست هى بنفسها التى تصنع الأمم إنما يصنعه ذلك الفكر الذى تحمله اللغة. هذا فضلا عن أن مفهوم اللغة يختلف لدينا عن مفهومه فى الغرب ، حيث يقولون إن الأمة تسقط إذ سقطت اللغة ، ولكن التاريخ الاسلامى العربى المعاصر يشهدبأن أمة بالذات هى الجزائر لم تسقط بعدأن سقطت اللغة ، لأنها استندت أساسا على الفكر فحماها ، فلم تكن اللغة العربيه هى التى حفظت للجزائر كيانها الضائع فى وجه النفوذ الاستعمارى وإنما كان الفكر الاسلامى أساسا الذى كان سنادها وعمادها ومصدر قوتها ومنطلق انبعاثها

(٢)

وحدة الفكر لا وحدة اللغة

فمن وجهة النظر العربيه الاسلاميه . تقوم وحدة الفكر والقيم أساسا لوحدة الأمه ، وليست اللغه وحدها هى التى تمثل جزءاً من هذا الشكل المتكامل الجامع ولكنها أحد عناصر الفكر : إن اللغة هى وعاء الفكر لا الفكر نفسه فكل عناصر الفكر إنما تتشكل فى اللغة ، ولذلك فإن الفكر هو الذى يصنع اللغة وليست اللغة هى التى تصنع الفكر . ولقد كانت اللغة العربية قبل الاسلام على ما بها من قدرة استيعاب لا تحمل إلا مشاعر قبليه فلما جاء الاسلام ونزل بها القرآن خلقها خلقا جديداً حتى يبدو الفارق بعيداً جداً بين مضامينها وما ألقى إليها من قيم ومفاهيم . ومن هنا جاءت استحالة ترجمة القرآن لأن الحصيلة التى أعطاها القرآن للغه جعلتها لغه قرآنيه خالصه . ومن هنا أصبحت لغة فكر ولغة أمة ، وأصبح من المستحيل الفصل بين وجوديهما وكان القرآن هو السر فى بقائها وامتدادها وحياتها إلى هذا الوقت على النحو الذى نستطيع به أن نفهم ما ألقى إليها منذ خمسة عشر قرناً . فالفكر أساساً هو الذى

صنع اللغة العربية ، والفكر هو قوامها ومضمونها . هذا المعنى لا يرد على خاطر الداعين إلى أن الأمة العربية تجمعها اللغة ، إنما يرد بدلا منه القول بأن اللغة أداة تعبير . ان الفكر الاسلامى العربى وليس اللغة هو الذى صاغ فكر العرب ووجه أذواقهم وغرس نماذج القيم الكبرى فى نفوسهم . فالفكر الاسلامى وليست اللغة هو الذى صنعت وتصنع وحدة النظرة إلى الحياة والآثار المكتوبة ومضامينها من شعر وقصص وأمثال وحكم وهى التى تمثل وحدة الاستجابة وليست اللغة .

والتشابه العقلى والمزاجى والتكوين النفسى ليس إلا نتيجة الفكر لا اللغة ، وإذا قيل إن اللغة هى أداة وحدة الأمة ، فإن اللغة العربيه لم تكن كذلك بدون القرآن الذى حفظ اللغة من التفككات إلى عاميات وكذلك حفظها من الانقراض . وهو الذى حد من تطور اللهجات الإقليمية العامة وبذلك حفظ الإسلام عاملا هاماً من عوامل العروبة . والقرآن وهو مصدر الفكر العربى الإسلامى — هو الذى حال دون تطور اللهجات العربية إلى لغات مستقلة قائمة بنفسها ، ذلك إن وحدة الأمة الروحية والفكرية والمعنوية القائمة على القرآن بقيت سليمة بعد أن تجزأت سياسياً » . وليست اللغة ولكنه الفكر العربى الإسلامى الذى حقق وحدة العرب (مسلمين وغير مسلمين) فجعلهم متشابهون فى نظرتهم إلى قيمة الشخصية الإنسانية وإلى العمل الإنسانى وإلى الوقت وإلى المرأة وإلى فهمهم للشرف والشهامة وقصة العرض والوفاء والكرم والضيافه وحماية الجار . وبالرغم من تأكيد بعض دعاة نظرية القومية الواحدة على اللغة كأساس لوحدة الأمة فان أحدهم يقول : إن القرابة بين الأمم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسمانية ومادية ، وإن أقرب العوامل التى تؤدى إلى تكوين القرابة المعنوية هى اللغة والتاريخ ، فان الاعتقاد بوحدة الأصل إنما تكون فى الدرجة الأولى من الوحدة فى اللغة والاشتراك فى التاريخ » .

ولو كان هذا الباحث منصفاً لوصل إلى أن الجوهر فى القرابة المعنوية والنفسانية بين الأمم هو وحدة الفكر الكبرى ، الذى يدخل إليها عناصر لا تحصى ولكن الانتماء للنظرية الغربية وحدها والدوران فى فلكها قد حال دون اكتشاف العوامل العديدة التى تشكل العروبة والتى تضمها جميعاً وحدة الفكر . وإذا كانت اللغة كما يقول ساطع الحصرى هى واسطة التفاهم وهى آلة التفكير لأن التفكير ما هو إلا تكلم باطنى والتكلم إنما هو نوع من التفكير الجهرى . فما لنا نترك الأصل ونتمسك بالفرع . نترك الفكر نفسه وهو الأصل الذى جاءت اللغة واسطة له وآلة ، ونتمسك بالآلة الواسطة ، ونركز عليها . ولكن أمر ذلك معروف فان ساطع الحصرى ، ربيب الطورانية والاتحاديين ، والمحافل

الماسونية ، والفكر الغربي لا يستطيع أن يفتح باباً خطيراً ، هو باب الفكر العربي الإسلامي لأن ذلك من شأنه أن يحطم كل ما يذهب إليه من خلاف وما يدعيه من تعارض بين العروبة والإسلام .

وليس صحيحاً ما يقوله ساطع الحصري من أن الأمم تتميز بلغاتها في الدرجة الأولى ، وإنما الحقيقة إن الأمم تتميز بفكرها ، هذا الفكر الذي تصنعه مقومات مختلفة ، كما أنه ليس صحيحاً ما ردده من أنه إذا ضاعت لغة أمة فقد فقدت الحياة ، ذلك أن فكر الأمة هو في الحقيقة مصدر ضياعها أو بقائها . ولقد ضاعت اللغة العربية في الجزائر ولكن الفكر الإسلامي استطاع أن يبتعثها من جديد واستطاعت عن طريق فكرها أن تسترد وجودها ولغتها . ولماذا يتحدثون عن اللغة وعن التاريخ كأنهما قيمتان مستقلتان والفكر يجمعهما . وماهي اللغـــة العربية بغير الإسلام والقرآن إلا سجع الكهان ، وما هو تاريخ العرب إن كان لهم تاريخ إلا تاريخهم الإسلامي ، إن الاستعمار لا يحارب اللغة وحدها ولا التاريخ وحده ولكنه يحارب الفكر كله ويركزون على « التشابه العقلي والمزاج والتكوين النفسي ووحدة النظرة في شؤون الحياة ووحدة الاستجابة للمؤثرات الخارجية » ويردونها جميعا للغة ، فهل من الحق ، إنها ترتبط باللغة أم أنها ترتبط بالفكر أساسا . وإن النظرة العربية إلى مختلف القيم الأساسية في الحياة والمجتمع إنما مردها إلى تلك الأصول والقيم التي شادها الفكر الإسلامي العربي ، والتي ترتبط بنزول الأديان السماوية في هذه المنطقة ، ونفسية العرب وخصائصهم التي كونت عقليتهم . إن وحدة الفكر الإسلامي العربي في الحقيقة قد صنعتها الأديان والثقافات التي عرفتها هذه المنطقة والتي تشكلت في وحدة واحدة ، وهي التي صاغت وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة التقاليد ووحدة العادات ووحدة النظم الاجتماعية .

ومن هنا كان مفهوم نظرية القوميات الواحدة ، هذا المفهوم المغلق المحدود باللغة والتاريخ منفصلين عن الفكر الإسلامي وهما شطر منه ، لا يستطيع أن تتجاوب مع النفس العربية الأصيلة ، فهي محدودة وناقصة من ناحية لأنها لا تستوعب الفكر الإسلامي في شموله وتكامله ، وهي مغلقة لأنها تريد أن تنفصل عن ذلك الاثر الضخم الحي المتفاعل الذي تركه الإسلام في الامة العربية وماتزال مرتبطة به في مختلف نواحي التاريخ والثقافة والتراث والسياسة والحضارة . وهي في نفس الوقت نظرية حاقدة لانها تعارض وتخاصم امتدادات الامه العربيه المرتبطه بوحـــدة الفكر الاسلامي إلى الفرس والترك والهنود مبعثرة أوجه الخلاف مؤججه نار الخصومه على نحو (يوم بعاث) . ثم هي بعد ذلك دخيلة مستوردة وافدة تحاول أن تتحايل بأجزاء ومزق من عشرات النظريات في القوميات تتجمع وتتشكل ثم لا تستطيع أن تواجه وهج الحقيقه ولا ضوء الفكر العربي الاسلامي الساطع .

إن العرب من حيث تربطهم وحدة فكر منفتحون على البربر والفرس والترك والزنوج والاكراد وعلى الفينيقيه والفرعونيه والآشوريه ، بحكم أنها موجات أو حلقات فى هذه الرابطه العربيه الحنيفيه. ان الفكر الاسلامى لا الاجناس والعرق والدماء هى أساس وحدة العروبة فإن الفكر الاسلامى المستمد من القرآن لم يصنعه جنس معين ، وليس هو للعرب وحدهم ، ولم يكن من صناعه عروق وانما هو وليد مناخ اسلامى أصيل ، وفكر مستوعب للعقول والقلوب جميعا ، فلا عبرة بما يقال بتقدم جنس على جنس فى العالم أو الحضاره الاسلاميه العربية ، ذلك أن القرآن أساسا هو صانع العقل العربى الإسلامى والفكر كله . إذن فالفكر لا الأمة ولا اللغة ولا الأرض — ارتفاعا فوق نظرية العنصرية العرقية — هو أساس الوحدة ، وفى بوتقته صيغت اللغة والتاريخ وتشكلت النفسية والعقلية، والمشيئة ، وتكاملت وحدة الماضى والحاضر . وخطأ التعارض بين الفلسفة والفكر هو ما يسمى « بالدين » والدين كلمة لم تفهم فى الفكر الإسلامى فهما صحيحا فهى ماتزال تحمل مفهومها الفكر الغربى المسيحى اللاهوتى الذى لا يمثله الإسلام الذى جاء جامعا للدين والاجتماع والحضارة . فالإسلام هو الصورة النهائية لأديان السماء التى نزلت إلى هذه المنطقة منذ جاء إبراهيم بالحنيفية السمحاء فهو قد تشكل فى صوره المتعددة حتى استوفى صورته الكاملة فى الإسلام بفعل عامل التكوين النفسى المشترك ووحدة التاريخ بين العرب والمسلمين ، وبين المسلمين والعرب غير المسلمين فنحن إذن أمام وحدة الفكر الجامعة : التى تضم كل عناصر الوحدة المفرقة التى تحاول النظريات الغربية الوافدة أن تقدمها منفصلة .

إنها جماع العقلية ، واللغة ،والتاريخ ، والتراث ،والمشاعر والعواطف والتقاليد والقيم والتحديات. والفكر هو كل هذه القيم جميعا مجتمعة مترابطة . ولقد صيغ مفهوم العربية والعروبة مرتبطا بالإسلام منذ أول الإسلام على نحو واضح صريح . فالعربى ليس من يتكلم عربيا بل من يفكر عربيا ، وإنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى ومن هنا كانت الدعوة إلى تعريب المسلمين أى أن يصبح كل مسلم عربى الفكر باللغة والقرآن ، والفكر الإسلامى كان دائما مصدر الوحدة وليس العنصر أو الجنس . واختفاء اللغة لا يحول دون بقاء الأمة ، وصلاح الدين الكردى والظاهر بيبرس المملوكى وعبد الكريم الخطابى البربرى كلهم من داخل نطاق وحدة الفكر الإسلامى الجامعة ، للكرد والفرس والبربر والمسلمين والمسيحيين واليهود ، والسنة والشيعة ولكل الفرق والأجناس والأديان التى تحتويها منطقة (العروبة الحنيفية) ليست هناك ثقافة للمسلمين وحدهم ، وليس هناك فكر المسلمين وحدهم ولكنها ثقافة جامعة وفكر جامع .

ولقد وجدت نظرية اللغة ردوداً ومعارضات تاريخية وعلمية أسقطتها ولم تجد أمامها دفاعا ، فإذا قالوا إن اللغة أس الأساس لوحدة الأمة فقد كانت اللغة مشتركة بين بريطانيا وأمريكا وأيرلندا وفى سويسرا ، ثلاث لغات وفى بلجيكا لغتان وكانت هناك قوميات لها أكثر من لغة ، فالاتحاد فى اللغة لا يقضى حتما نشوء وحدة أو نشوء قومية ، وسقوط اللغة لا يقضى على الأمة ، فالفكر وليس اللغة أساس الوحدة ولذلك فإن الاستعمار يحاول أن يحطم وحدة الفكر الإسلامى بإدخال فكره ومترجماته.

لقد ركز ساطع الحصرى على اللغة استمداداً من ماكس نوردو اليهودى الذى خلف هرتزل فى قيادة الحركة الصهيونية والذى دعاه بالعالم الفيلسوف ، والمعروف أن هرتزل إنما كان يستهدف هو وقومه بالدعوة إلى القوميات إذاعة القومية اليهودية ولذلك فقد صنعوا النظرية فى مواجهة أمرين : معارضة العروبة وتمزيقها وإقامة صهيونية وبناءها ولم يكن لليهود لغة قائمة فى ذلك الوقت ولكن دعاة القوميات جميعا أكدوا أن اليهودية دين وقومية ولو لم يكن لها لغة أو أرض أو وطن . فلا عبرة بما قاله ماكس نوردو ، ولا هيردر ولا رينان فقد كان هؤلاء يصدرون عن مشاكل أممهم الخاصة ويضعون النظريات فى ضوء تحديات مجتمعهم وعصرهم ونكون نحن أبعد الناس عن الحق حين ننقل عن أمم صاغت فكرها فى ضوء ظروفها وأوضاعها وفى مواجهة تحدياتها ولنا من ظروفنا وأوضاعنا ومفاهيم فكرنا ما يأذن لنا بأن نحدد مكان العروبة ، فى بناء الفكر العربى الإسلامى وفى مجال اليقظة العربية الإسلامية .

(٢)

ما هو الفكر العربى الإسلامى

من حقنا وقد تقرر أن وحدة الفكر هى أس الأساس فى العروبة التى هى حلقة وسطى من حلقات ثلاث : تتحرك بينها الأمم فى ظل التاريخ العربى الإسلامى قوة وضعفا ، وتتجمع فى أحدها فى مواجهة الأحداث والغزو ، ومن حقنا أن نتساءل : ما هو الفكر العربى الإسلامى الجامع وما علاقته بالأديان والثقافات . إن الإسلام بطبيعته دين ومنهج حياة ، وقد أقام منذ اليوم الأول لظهوره حضارة استوعبت ثقافات الأمم التى دخلت فى نطاقه ، وفلسفاتها بعد أن استصفى جوهرها وأذابها فى بوتقته وشكلها من جديد فى إطار التوحيد الذى هو القيمة الأساسية العليا للأديان السماوية التى نزلت فى هذه المنطقة .

ولقد كانت هذه المنطقة العربية الحنيفيه بؤرة رسالات السماء منذ أنزلت وكان أهلها دعاتها وحملتها ، وكان الإسلام خاتمها وخلاصتها المصفاة . ولقد أقر الإسلام تلك القاعدة الواضحة ، القائلة: « لا إكراه فى الدين » ومن ثم فقد ترك جانب العقيدة أو اللاهوت فى الإسلام للمسلمين وحدهم كما ترك العقائد فى الأديان المختلفة فى صورتها الواقعة ، ونشأت هناك حضارة عقليه واجتماعية استصفت كل ما حصله العقل البشرى والفكر الإنسانى من علوم وثقافات وأفكار وفلسفات وكان قوامها ما عرف بالفكر الإسلامى العربى الذى لم يعد ملكا للمسلمين وحدهم ولكنه أصبح فكر هذا العالم الحنيفى الذى نزلت فيه الأديان وانفتحت آفاقه على الفرس والترك والهنود وغيرهم . ومن هنا فقد أصبح الإسلام بحكم طبيعته ومن واقعه الفكرى والثقافى دينا ومنهج حياة ، فهو لايحاكم مطلقا على نحو ماتحاكم الأديان اللاهوتية التعبدية التى اقتصرت على توثيق العلاقة بين الله والإنسان . وهذه هى نقطة الخطأ المتعمد أحياناً فى محاولة محاكمة الاسلام والفكر الاسلامى إلى مواقف مشابهة للفكر الغربى من المسيحية أو غيرها من الأديان . ومن هذه النقطة الدقيقة تجىء جميع الخلافات الخاصة بالقوميات الإقليميات والخاصة بالديمقراطية والاشتراكية ، والخاصة بالأدب والقانون والسياسة والاجتماع . فالإسلام دين ، ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع وحضارة وفكر مستوعب كامل لأبعاد الحياة المختلفة .وهو دين المسلم ولكنه أيضاً فكر وثقافة وحضارة وعرف وتقاليد وقيم لغير المسلمين، الذين انصهرت ثقافاتهم وفلسفاتهم فى الفكر الاسلامى منذ وقت طويل وتشكلت حياتهم الاجتماعية على هذا النحو فلم يكن لهم فكر مستقل منذ بزوغ الاسلام ولا تاريخ مستقل بل مشاركة كاملة أخذاً وعطاء فى اللغة والقانون والاجتماع والتربية :

ولقد كان المسلمون والمسيحيون وكل الطوائف والعناصر ، دينية وعرقية قد صاغت نظرية كيانها الاجتماعى والعقلى والروحى فى شكل واحد وصورة واحدة ، لا تختلف إلا فى أمر واحد هو أن يذهب المسلم إلى المسجد والمسيحى إلى الكنيسة ، وكل أمر بعد ذلك تواجهه نفوس قريبة التلاقى والاحساس والمشاعر ، بحيث يمكن أن يقال هناك مزاج نفسى واحد عربى إسلامى ، شكلته الأديان منذ إبراهيم ، ووضع فى صيغته النهائية منذ جاء الاسلام الذى لم يفرق بين مسلم وغير مسلم ، ولا بين عربى وعجمى ، فى تنظيم واسع مفتوح مرن (ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء) : لقد انصبت كل القيم الفكرية والثقافة والاجتماعية الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والاغريقية فى بوتقة الفكر الواحد الذى صاغ منها وتشكلا متكاملا . والمسيحيون فى هذه الجماعة مشاركون فى هذا الفكر واللغة والتراث ، وتتكون ثقافتهم من تعاليم دينهم المسيحى مع ثقافة الاسلام الجامعة ،

هذه القيم الفكرية التي هي قيم كل مسلم ومسيحي ويهودي فضلا عن تشابه القيم الروحية بين أهل الأديان في أنها جميعا رسالة السماء ومصدرها واحد هو الحق تبارك وتعالى وهدفها هو الحق والخير والعدل . « ومن هذه القيم والمعاني التي تبلورت في بوتقة الفكر العربي الاسلامي تبدو (وحدة الفكر) مقدمة على وحدة الجنس ، وهي تصوغ (روح الأمة) ولقد أفصح كثير من الكتاب المنصفين عن هذا المعنى .

ومن هنا يبدو الخطر البالغ الذي تثيره نظرية القوميات الغربية الوافدة في الفصل والتجزئة بين المفاهيم ، فانه وحدة فكرنا تتمثل في امتزاج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كلها متكاملة وليست منفصلة وليس فكرنا العربي الاسلامي روحيا خالصا وليس ماديا خالصا ، فهو فطرة متكاملة إنسانية شاملة تمتزج فيها ، العروبة والاسلام ولا ينفصلان . ومن هنا يبدو الخلاف الواضح بين النظرة الغربية الاسلامية إلى « القوميات » ، وخاصة في القول الذي يركزون عليه : « إن الدين ليس من مقومات وحدة الأمة » . ويصدق هذا القول إذا أريد بالدين ، أي دين لاهوتي تعبدي ، أما الاسلام فان الموقف بالنسبة له يختلف ، لأنه يجمع بين هذا الجانب الذي لا يرتبط به إلا أهله ولا يفرض على غيرهم وبين شقه الآخر المتكامل معه ، وهو أنه نظام مجتمع ومنهج حياة وحضارة وفكر إنساني جامع لفكر الأمم والأدياز والأعراق والعلاقات التي شاركت فيه ، هذه الثروة التي صبت جميعها في بوتقة الاسلام فصاغها في إطار التوحيد. وقد كشف كثير من الكتاب المسيحيين هذه الحقيقة وأفاضوا في التعبير عنها ومما قالوه : إن الاسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة ، سوف يعرف المسيحيون العرب أن الاسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم» .
هذه هي وحدة الفكر العربي الاسلامي التي ربطت العربي غير المسلم بالمسلم العربي في قيم أساسية ومقومات أصيلة ، فالفكر الاسلامي يشمل العروبة والاسلام جميعا ، وإن نصرانية الدين لا تحول دون إسلامية الفكر ، وإن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تقف في الوجه المضاد وإن التجربة الغربية للدين والقومية قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق فإن مفاهيم فكرنا العربي الإسلامي تختلف في جذورها عن مفاهيم الفكر الغربي أساسا . وإن وحدة الفكر العربي الإسلامي هو ذلك الانفعال الوجداني والعقلي إزاء الأحداث والأخطار والتصرفات اليومية .

(٤)

خاصية الفكر العربى الإسلامى

إن أبرز خاصية للفكر العربى الإسلامى تلك التى تفصله عن الفكر الشرقى الروحى نتاج فلسفات (زرادشت وبوزا وكنفوشيوس) وعن الفكر الغربى المادى نتاج فلسفات (داروين وماركس وفرويد) يبدو بينهما الفكر الإسلامى جامعاً للروح والمادة ، والعقل والقلب ، فى شكل ممتزج متكامل . والفكر الإسلامى وحدة كاملة عناصرها : الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون واللغة والتاريخ هذه الوحدة لا سبيل إلى فصمها ، بإعلاء عنصر منها على مختلف العناصر أو إقراره بالحركة والواقع أنه لا يوجد قطاع من الفكر الإسلامى يمكن فهمه أو التعامل معه لو أخذ بمفرده ، وعزل عن القطاعات الأخرى . ولذلك فإن أخطر محاولات التغريب كانت تنصب على تمزيق وحدة الفكر الإسلامى إلى مقومات مستقلة وإعلاء بعضها . ومزية الفكر العربى الإسلامى هو شموله واتساع آفاقه ورحابته فى تقبل الجديد دون الخروج عن جذوره وأصوله ، والتكيف مع واقع البيئات وأوضاع المجتمعات . وأبرز عوامل التكامل فى الفكر الإسلامى ارتباطه بالتراث والجذور والماضى والتاريخ فهو لم ينفصل عن الماضى ، بل استمر متصلا ، ولم يتحول ، إلى تراث متحفى ثم أعيد إحيائه بل ظل متفاعلا حياً خلال هذه القرون المتصلة وكانت حلقات التاريخ العربى الإسلامى مؤججات متوالية تسلم إحداها إلى الأخرى وهو فكر قادر وفق قانون الأساسى أن يتجدد من الداخل وتلتمس منابعه الأساسية فى كل أزمة تلم به ، فيعيد تشكيل نفسه من جديد ومن أبرز مميزاته أنه أقام «وحدة فكر» اجتمعت عليها الأجناس والأمم والثقافات ثم انصهرت فيها . واللغة والأدب والتاريخ كلها قطاعات من هذا الفكر المتكامل ، ولا تستطيع هذه العناصر أن تتحرك إلا من داخل الإطار الموحد .

وقد فرق الفكر العربى الإسلامى بين المعرفة والعقيدة فالأولى عامة للبشرية ، والثانية خاصة لكل أمة ، كما فرق بين العلم والفلسفة ، فالعلم عام للأمم وهو ثمرة التجربة ، والفلسفة نظرية عقلية خاصة بأمة أو عصر .

ويجمع الفكر العربى الإسلامى بين الفردية والجماعية فى تفاعل صادق ، كما يجمع بين الثبات والتطور فالقيم الأساسية فيه ثابتة الجذور ، متطورة الفروع ، ثابتة الاطار متحركة الأجزاء ، ولقد رسم الفكر العربى الاسلامى إطاراً مرناً واسعاً وترك حرية الحركة تجرى من داخله .

وفى الفكر العربى الإسلامى لا ينفصل الدين عن المجتمع ، ولا الجديد عن القديم فالجديد صورة أخيرة لتطور القديم والقديم خلاصة خبرة السابقين ، وأبرز مظاهر الفكر العربى الإسلامى الأخلاق ، ذلك القاسم المشترك على جميع عناصر السياسه والاجتماع والتربية والقانون . وكان الإيمان العميق بالله أساس الفكر العربى الاسلامى هو العامل الأكبر الذى جنبه الانقسام إلى جانب ديـنى وجانب عقلى . وقـد رجح الفكر العربى الاسلامى وحدة الفكر أساسا على عصبية الجنس أو العنصرية . وقد كانت عقيدة التوحيد هى التى ألهمت العرب والمسلمين فكره الحـــرية الشخصية والدينية ، حررت عقولهم من الوثنيات الموروثة وجمعتهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لـكائن من كان إلا الواحد الأحد . فالفـكر العربى الاسلامى كيان عضوى متكامل ، وكائن حى ذو وحدة متعددة الجوانب تحقق الانسجام والتوازن والتعاون ، وفى داخله تترابط القيم الدينية والاجتماعية والسياسية والمقومات كاللغة والتاريخ والتراث .

* * *

(٥)

الفـكر الإسلامى والثقافة العربية

إن الفـكر الاسلامى هو الأصل الذى عنه خرجت الثقافات: العربية والفارسية والتركية والهندية وغيرها : والثقافة منذ نشأت ارتبطت باللغة والأمة ، فالثقافة العربية وليدة الفـكر الاسلامى ومنبثقة من مقومات واسعة غير منفصلة عنه إلا بحسبانها ثقافة أمة، قوامها اللغة العربية . ويضم الفـكر بحسبانه فكر العالم الاسلامى ، كما تضم الثقافة على أساس أنها ثقافة الأمة العربية : وحدات أساسيه أبرزها : الاجتماع والاقتصاد والسياسه والتربيه والعلم والدين والأخلاق والقانون .

وأهم قوانين الفكر الاسلامى والثقافة العربيه إن هذه الروافد متكاملة وإنما جميعها تتصل بالمجتمع والانسان تنمو جميعها فى بناء كامل لا ينفصل ولا يتجزىء بل تتواصل وتتكامل ، تقوم أساساً على التوازن والشمول فلا ينمو منها رافد على حساب رافد آخر ، ولا يستعلى قطاع على حساب قطاع آخر .

ويمثل الفكر الإسلامى (كما تمثل الثقافة العربية وليدته والمستمدة منه) نظرة شاملة متكاملة إلى الحياة والمجتمع والحضارة يمكن أن يطلق عليها أيدلوجية مرنة .

الحلقات الثلاث فى روابط الأمم والشعوب

يدور الفكر الإسلامى فى ثلاث حلقات متكاملة متداخلة طوال تاريخه كله : الرابطة الصغرى : الوحدة الوطنية . الرابطة الوسطى : العروبة . الرابطة الكبرى : وحدة الفكر . وقد مرت الحضارة الإسلامية بالروابط الثلاث على التدرج فى تاريخها الطويل وفى حالات الأزمات والتحديات وعندما يقع الانفصال بين التجمعات الكبرى تلتمس الرابطة الصغرى ثم تنتقل منها إلى الرابطة الوسطى . وهى فى مختلف هذه الحلقات تلتمس مفاهيم الفكر الإسلامى الجامع الموحد ، المفتوح على التاريخ والتراث ، والمفتوح على الأمم والشعوب التى تربطها وحدة هذا الفكر . ولقد كانت رابطة الانتماء إلى فكر موحد أو ثقافة موحدة هى أوسع هذه الروابط وأعمقها وآخرها ظهوراً بعد أن استحصدت العائلة البشرية وارتفعت فوق القبليات والإقليميات وتعصبها . فقد شكلت وحدة الفكر رابطة كبرى بين الأمم التى تلاقت على ثقافات تربطها أصول واحدة من العقائد والقيم والمقومات ، وكانت الرابطة العربية الإسلامية أقوى هذه الروابط وأوسعها نطاقاً ومازال كذلك لأنها تقوم على عقد اجتماعى مكتوب هو « القرآن » الذى لا يزال هو اللغة الجامعة الموحدة (دون اللغة العربية واللغات الإقليمية) فالقرآن لغة وتاريخ وفكر جامع . ووحدة الفكر هذه ليست ملكا للمسلمين وحدهم ولكنها ملك لأهل هذا العالم الواسع الجامع بمن فيه من أمم وأديان وأعراق وعقائد ولغات لأنها كلها قد صهرت فكرها وثقافتها فى هذه الوحدة الجامعة : وحدة الفكر العربى الإسلامى .

(٣٥)

ترابط العروبة والإسلام

إن التكامل بين العروبة والإسلام أمر طبيعى يصل فى قوته وعمقه إلى درجة الترابط العضوى الذى إذا فصم انتهى به أمر العروبة والاسلام معاً وهو ما يصعب تصوره أو القول به . وليس من اليسير فهم أبعاد هذا التكامل أو الترابط إلا بدراسة واسعة عميقة مستوعبة لمفهوم العروبة ومفهوم الإسلام فالعروبة هى الوعاء الذى ظهر فيه الإسلام أول مرة ومنه أمتد واتسع فى الأفاق ، ومن هنا فقد بقى هذا الوعاء قائماً منذ شكله الإسلام ، ولا يزال على مدى التاريخ له مكانه القيادى الواضح

من حيث أنه هو « الأم » التي أصدرت وأوردت وحملت اللواء وانداحت به في العالمين ، عائدة بالمسلمين جميعاً إلى قبلة واحدة ، ومركز ثقل واحد لاسبيل إلى التجمع حول غيره أو انفراطه باعتباره مركز الدائرة . ولقد كانت هذه المنطقة منذ قرون بعيدة سابقة على الأديان الثلاث الكبرى قد تأهلت لرسالة السماء ولبعوث الأنبياء ولدعوة التوحيد وكان أبرز هذه المعالم « الحنيفية السمحاء » التي حملها إبراهيم ومنها امتدت إلى أبنائه (إسحق) جد اليهود والمسيحيين و (إسماعيل) جد العرب وظلت هذه المنطقة الممتدة من العراق إلى آسيا الصغرى إلى فلسطين إلى مصر على أيدى هذا الجنس أو هذه الأمة أو هذا الأعراق وكان الإسلام هو صورتها النهائية والعالمية في « الإسلام) المنزل على محمد بن عبد الله دينا و نظام مجتمع قوامه كتاب عربي مبين هو القرآن . هذا هو الترابط الجذرى العميق تحت اسم العروبة الحنيفية :هذه الأمة التي انطلقت من الجزيرة العربية موجات بعد موجات منذ خمسة آلاف عام ، إلى مصر وإلى الشام وإلى العراق وإلى المغرب ومنها كانت هجرات الأكاديين والأشوريين والكنعانيين والآراميين والأنباط والمناذرة والغساسنة والهجرة الإسلامية الكبرى وهجرة الأكراد والآراميين الحديثة والشركس والتركمان والأتراك . وذلك لا عجب أن تكون هناك أمم وحضارات ومذاهب تشكلت داخل هذا المعترك الضخم مما ظهر أخيراً تحت أسماء الفينيقية والبابلية والفرعونية والآشوريه والبربريه وكلها ذات مصدر واحد ، وكلها انصهر في الإسلام ، هذه الأجناس وهذه الدماء والأعراق في [وحدة الفكر] كاملة انتهى معها ذلك التشكيل العنصرى الذى ابتدعته من جديد قوى الغزو الاستعمارى والتغريب الفكرى من أجل تمزيق وحدة هذه الأمم التي انصهرت في الفكر الإسلامى بفلسفاتها ومذاهبها وقيمها ومفاهيمها ولم يعد لها منذ أربعة عشر قرنا تاريخ منفصل ولا مجتمع منفصل ولا ثقافة منفصلة ، ولا استجابة للأحداث إلا ذلك الطابع الموحد المشترك الذى صنعه الفكر الاسلامى الذى أصبح فكراً عاماً شاملا للأديان والعقائد والأعراق والأجناس والمذاهب والفرق عنصرية كانت أم دينية .

ولا ريب أن عملية الانصهار الكبرى هذه التي شهدتها « العروبة الحنيفية » قد تشكلت عقائدياً وجنسياً على نحو متكامل متداخل بحيث لم يعد من اليسير الفصل بين وحدة الأديان ووحدة الأجناس فالمنطقة كلها لها أم واحدة هي الجزيرة العربية ، ولها دين واحد هو دين إبراهيم الذى تفرعت منه اليهودية والمسيحية والاسلام . وهذا هو سر العسر الشديد لتطبيق نظريه القوميه الغربية الوافدة أو تلاقيها مع طبيعة هذا التشكل الذى يطلق عليه « العروبة الحنيفية » . إن الخطوط العامة لطبيعة هذه الأمة وهذا الفكر وهذه القلة قد شكلها ميراث ضخم صنعته الأديان وأعراق الأمم والأخلاق

والشيم والمروءات أبرز مظاهرة التوحيد (وقوامه الايمان بالله وهامته الأخلاق) . هذا هو طابع هذه المنطقة التى نزلت فيها الأديان قبل المسيحية وقبل الاسلام بأكثر من ألفى عام وليس هو الذى صاغها ولكنه هو الذى وضعها فى الصورة الأخيرة بعد أن حرفتها عوامل كثيرة . هـذه المنطقة نزلت فيها الأنبياء والتقت على حدودها الحضارات والثقافات التى جاءت من الهند وفارس ومن اليونان والرومان وانصهرت فشكلت «وحدة فكر» ثم تشكلت الثقافات التى استمدت مقوماتها من الفكر الاسلامى فقامت على أسسه وقيمه لا تنفصل وإن اختلفت . هذا هو الكيان العملاق الضخم الذى لا يوصف بأنه قومية ، ولا أمة ، إنه تشكل ضخم قوامه العروبه والاسلام ، إنها قوة إنسانية ضخمه على قاعدة عريقة ، لها امتدادها الطبيعى اللغوى والفكرى الذى يمثله الجناح الأيسر من المغرب العربى ، ولها امتدادها الفكرى الذى تمثله فارس وأفغان والهند والملايو وتركيا . إنه تشكل ارتبط بالعقول والقلوب والنفوس فكون «وحدة فكر» لها طابعها المختلف عن فكر الغرب كله ، من حيث قيامه على التوحيد إنه تشكل يتمثل فى حلقات وحـدة الوطن ووحدة الأمة ووحد الفكر الجامعة ؛ لا يعرف مفهـوم الاقليميات ولا القوميات الوافدة ، ولا يتشكل فيه ، هذا الكيان الفكرى القائم ، عميق الجذور فهو الممتد الراسخ ، يواجه التحديات ويتشكل إزاءها بما يحفظ له كيانه وذاتيته وبما يدفعه إلى الخروج من الأزمة . وقد تنبه إلى هـذا المعنى كاتب غربى واسع الأفق هو الأستاذ اليان فانير فقال : إن كانت الوطنية فى البلاد العربية أو الاسلامية قابله للمفاهمة مع الأجنبي صابرة تحت الحجـر متخذة لبعض الوسائل العصرية فهى لاتفعل ذلك نزولا عن شخصيتها وإنما تفعل ذلك لتنهض وتقوى وتجتاز هذه الفترة الصعبة وحينئذ تستعمل سلاحها ضد مستعبديها وتظهر مميزاتها الجنسيـة وتؤسس مرة ثانيـة تلك الامبراطورية بمجدها السالف .

فالمسلمون سواء كانوا فى الشرق الأدنى أو فى شمال إفريقية أو فى الجـزيرة أو فى فارس أو فى الافغان أو فى الهند أو فى أواسط إفريقية يولون وجوههم شطر قبلة واحدة هى مكة ، وما مـكة إلا رمز الاسلام واللغة العربية فهم مرتبطون بهذه العروبة التى لا تنفصم ، فرقتهم السياسية بحدودهـا المصطنعة وما دار فى قفار الصحارى حاد للعيس ينطق بالضاد وتؤذن فيه مئذنة تسبح باسم الله . وهذه الرابطة العربية الاسلاميه الخافيه عن الاعين موجودة ، فليقل الغرب ما شاء وليحاول تكسير هذه الكتلة المثبته المستندة إلى إعتقاد عميق فيها فعل فان الاجزاء تعود لوحدتها عن طريق سيبقى العرب جاهلها » . هذا هو البعد يغيب دائماً عمن طرحوا مذاهب القوميات والاقليميات الغربيه الوافـدة وحاولوا أن يصبوا الفكر العربى الاسلامى والعروبه فى قوالبها ظانين أن هذا الفكر بعمقه وجسارته

وأبعاده يمكن أن يتشكل على النحو الذى يريدونه ، ينتزع منه شيئا ويضيف شيئا ، وما يطلب إليه أن ينتزعه هو أرسخ أعمدته التى قام عليها .

إن هذا التشكيل العربى الاسلامى قد برز فى التاريخ منذ تسعة قرون فى وجه تحد خطير هو الغزوين الصليبى والمغولى ، واستطاع أن يؤكد وجوده وأن يحطم الغزو ويسحقه ، عندما عاد إلى مقوماته الأصيلة واستلهم ذاته ومزاجه الأصيل وعاد إلى مفهومه الأساسى فى وحدة الفكر والقيم الجامعة . هذا الكيان هو الذى تشكل فى وجه الاستعمار ، فى الاقليميات تارة وفى الوطنيات تارة وبالتجمع حول الأمة والعنصر والدم والعرق ، فإنه لا يلبث أن يستمد طوابعه ومقوماته ، وهو هكذا دائماً يتنقل بين حلقات الوطنية والأمة والفكر راجعاً فى حالة الضعف ، أو ظافراً فى حالة القوة . وكل ما أريد أن أقول أن هذه أمة لها ذاتية خاصة لا تخضع لمقاييس الفكر الغربى الوافد أو مذاهب العنصرية الأوربية التى أقامتها اليهودية العالمية ، لتوضع داخلها ، وخير المنصفين أن يواجهوا واقع هذه الأمة وجوهر فكرها ثم ينظروا كيف يتشكل كيانها . إن الفكر العربى الاسلامى قد وقف من نظريات الاقليميات والقوميات الغربية الوافدة موقفه من مختلف المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية المطروحة ، أخذ منها ما يتفق مع طبيعته ثم تخلص من الفضلات . وفى العصر الحديث عندما زحف الغزو الاستعمارى كانت مختلف حركات المقاومة عربية إسلامية سواء كانت باسم الوطنية أو باسم العروبة . ويشهد بذلك (الفرد كانتول سميث) حين يقول : هذه الحركات القومية التى تهدف إلى التخلص من التدخل الأجنبى ، لم تكن هذه الحركات مطابقة للإسلام فحسب ، بل هى جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام ، فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين وكفاح السوريين ومسلمى المغرب للتخلص من الفرنسيين ونضال مسلمى الهند ضد البريطانيين كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامى فى العصر الحاضر ، ومن هذا القبيل قيام الأتراك بطرد اليونانيين عام ١٩٢١ والايرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسية الانجليزية كانت جميعها خطوات نحو إحياء الاسلام فكل المسلمين مسلمون اجتماعياً وسياسيا ، وإذا كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح » .

وتداخل العروبة والاسلام، وتكاملهما وترابطهما ليس موضع خلاف حتى بين أصحاب نظريات القوميات الوافدة بل هو حقيقة مؤكدة وفى نظر كثير من الكتاب الغربيين ، يبدو هذا الترابط

واضحاً جلياً : يقول موردبيرجر : لم يميز العرب المسلمون بين ديانتهم وقوميتهم ، وظل هذا القرآن بين الدين والقومية قائماً حتى يومنا هذا . وهكـذا أن الاسلام لم يتقدم إلى العرب وحسب ، بل إنه البناء الذى صيغ فى داخله العرب ولقد نهاهم القرآن فى آيات كثيرة عن التميز العنصرى والقومى والقبلى والاختلافات الأخرى بين أنفسهم لأنهم جميعا مشتركون فى وحدة تحتضن كل هذه المشارب التى تميزها الآن .

(٣٦)

الإسلام صانع العروبة

الإسلام هو صانع العروبة ومنشئها ، وهو المقوم الأساسى لوجودها الذى تشكلت به بعد الإسلام فى وحدة لسان ووحدة أمة . والإسلام إلى ذلك منهج حياة ونظام مجتمع ومنطلق حضارة إنسانية وثقافة عالمية ، بما يقدمه من عطاء ضخم فى مختلف مجالات السياسة والاجتماع والقانون والتربية واللغة والاقتصاد ، فـكيف يمـكن القول بأن الاسلام عربى أو إنه عنصر من عناصر العروبة . وكيف يمـكن أن يتحول المشكل والمضمون إلى درجة يصبح فيها جزء من الكيان الذى صنعه . إن وضع الاسلام فى مثل هذه الصورة التى يرددها بعض دعاة المذاهب القومية الغربية الوافدة إنما يكشف عن عجز كبير فى مجال فهم الاسلام ومكانته وموضعه من الأمة العربية ومن العالم الاسلامى ومن الانسانية عامة . وإذا كان الاسلام قد ظهر فى الأمة العربية وبلسان العرب فان ذلك من شأنه أن يرفع شأن العرب والعربية ، أما الاسلام فإنه لم يكن ديناً « عربياً » بمفهوم الأديان الأخرى ، أو أنه دين قومى ، أو أنه دين محلى ، أو أنه دين لاهوتى ، ذلك كله حين يردده التغريبيون فانما هم ينتقصون أنفسهم وأقـــدارهم وفهمهم ويكشفون عن عجزهم الكبير فى التصدى لقضية لا يعرفون أبعادها ، أو أنهم يتناولونها تناول غير العلماء من أصحاب الاهواء والاحقاد والمطامع السياسية والاستعمارية وإنهم بذلك إنمـا ينتقضون أنفسهم ومكانهم فى نظر أقرب الناس إليهم فانه من المستحيل أن يصدق أحد من العرب أو المسلمين أن الاسلام دين قومى للعرب ، عنصر من عناصر قوميتهم ، أو أنه دين لاهوتى قاصر على العبادات .

ذلك أن الاسلام أمر خطير فى تاريخ العالم كله لا فى تاريخ العرب والمسلمين وحدهم فهو باعتراف

عشرات من أعلام التاريخ والسياسة والفكر فى الشرق والغرب : هو الحد الفاصل بين تاريخ العالم القديم والحديث . وأنه منذ بزوغ فجره لم يقض أمر من أمور هذا الكوا كب من دونه . وهو فى منهجه الجامع المتكامل حامل رسالة الحق والعدل إلى الانسانية ، متفاعل مع التاريخ البشرى أخذاً وعطاء لم يتوقف أثره ، ولم يجمد منهجه ، قادر على العطاء الدائم ، فيه الحلول الجذرية لأزمات البشرية ومعضلاتها ، وهو المفتوح على الثقافات والحضارات ، القادر على الاخذ والعطاء والحركة ، على نحو خالد ، على نحو لا يعرفه دين ولا فلسفة ولا نظرية ولا مذهب من مذاهب الدنيا كلها وهو فى مفهومه الصحيح دين ودنيا ، ونظام متكامل يربط الإنسان بالله وبالإنسان وبالمجتمع وبالكون ، مندفع فى قوة لا تحطمه القوى ، ولا يشيخ ولا يهرم ، متجدد دائماً لأنه يقوم على أساس التوحيد الذى لا يعرف الفناء ، تبلورت فى فكره فلسفات الأمم وعقائدها ، وانصهرت فى بوتقته ثقافات البشرية ، من فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية فصاغها من جديد وشكلها خلقاً آخر ، ولم تستطع أى فلسفة من هذه الفلسفات أن تصوغه أى تحتويه فهو القائم بالحق ، عملاقاً حاكما ، لا تنسب الفلسفات إليه ولا يقتطع منه ولكنه نظام متكامل ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وما زال كتابه «القرآن» النص الوحيد الموثق الباقى على وجه الأرض من رسالات السماء ، وهو المنهج الجامع الذى يحمل بين دفتيه كل علوم الدنيا والدين والآخرة ، وفيه من كل ما فى الكون من نظرات ومناهج ، أصل أصيل « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . هذا الإسلام ، ليس من الحق ولا من العلم بأقل دقائقه أن يقال عنه أنه « دين عربى » ولقد حاول أحد الكتاب المسلمين أن يصور عطاء الإسلام للعرب فقال :

* كانوا قبائل متفرقة فاذا الإسلام يجمعهم برابطة متينة فى دولة واحدة . * وكانوا يتنافسون ويتصارعون ويقتل بعضهم بعضاً فاذا الإسلام يحرم دماءهم . * وكان يقتتلون إلى الموت لأتفه الأسباب فاذا الإسلام يوفر دمهم إلى المقصد الأسمى . * وكانوا يتحدثون لهجات متعددة محدودة الانتشار فاذا الإسلام يكرس إحداها لغة للجميع تصبح بعد وقت لغة العالم المعروف لهم ، سياسة وحضارة .
* كان شعارهم الثأر فأصبح الجهاد . * كانوا فى عزلة عن العالم فاذا الإسلام يجعلهم محور العالم .
* كانوا بحكم العزلة فقراء ضعفاء فاذا الاسلام يحكمهم على قسم واسع ممن كانوا يحكمونهم من قبل . * تحقق ذلك فى ربع قرن وأبعدهم عن حياة الجاهلية ، ما كان يتم لولا الاسلام ألا يقرون .

* أبطل الدم بعنصر التوحيد بين أفراد الجماعة الواحدة وأحل محله الإيمان بالله . * ألغى ابتعاد الجماعة الواحدة تحت سائر الجماعات وجعل ذلك الإيمان نفسه عروة وثقى بين مختلف الجماعات مثلما هى عروة وثقى بين الأفراد . * منع حديث المعارك الدموية ورواية أشعارها ووضع مكانها آيات قرآنية فى الوحده والجماعة . * نقل العلاقات ضمن الأمة من صعيد نفسى عقدى روحى هذا ما أورده كاتب عربى غير مسلم عن أثر الإسلام فى العرب فكيف بأثر الإسلام فى العالم كله والعرب اليوم على أكثر تقدير عشرة ملايين من بين ألف مليون من المسلمين . هذا هو ما نعنيه من غفلة الكتاب التغريبيين حين يتكلمون عن (إسلام عربى) . ٢ — وخطأ آخر أشد خطراً وظلماً من الخطأ هو القول بأن الإسلام قد أدى دوره التاريخى وقاد الأمة العربية إلى المجد ولم يعد يصلح أساسا للحياة العربية فى الوقت الحاضر والمستقبل . وتبدو فى هذه الكلمات مرارة الحقد ، والبغض ، والبعد عن الحق والانصاف ، فاذا كان الإسلام قد فعل ذلك بالعرب فى الماضى ، أفليس هو أقدر اليوم والانسانية تمر فى أزمة مادية عنيفة ، إن يردها إلى الحق وأن يقدم لها بلسم جراحها . إن البشرية اليوم تتطلع إلى أفق مضىء ، ولن تجد أفقاً بعد هذه التجارب التى أجرتها والنظريات التى صاغتها وأثبتت جميعها فشلها فى تحقيق المجتمع الناجح ، لن تجد غير هذا الأفق : الاسلام . أما الأمة العربية « فانها تعلم أن لا حياة إلا بالاسلام ، فهو الذى بوأها مكانها فى التاريخ وهو الذى أعاد إليها وحدتها القومية واللغوية فكان هذا الوطن العربى ، وبالاسلام أوجد العرب أعظم نهضة وأرحم إدارة وأعدل تشريع وبالاسلام صد العرب طغيان الصليبية وردوها إلى وطنها » . إن طماح كتاب التغريب ودعاة مذاهب القوميات الغربية الوافدة لن يتحقق وسوف يرتد على أعناقه صاغراً ، ولن ينصهر الاسلام فى نظرية القوميات ، كما إنصهرت أديان أخرى ، وسيبقى الاسلام أساسا من أسس الكيان العربى ، لا تقوم العروبة إلا به ، ولن تقوم منفصلة عنه ، وإذا حاولت ذلك فلن تجد شيئا تقوم به غيره ومهما ذهبت وراء اللغة أو التاريخ أو الروابط الروحية أو النفسية فإنها كلها تعود إلى الفكر العربى الاسلامى الجامع الذى هو مصدر الوحدة الحقيقية .

ليس الاسلام ظاهرة تاريخية عابرة ، وليس الاسلام رسالة موقوتة مضت ، أبداً ، بل هو قوة أساسية فى أعماق العرب والمسلمين . ولن تجد هذه المفاهيم الغربية الوافدة إلا صدى قليلا عند أولئك الذين شكلتهم معاهد ارساليات التبشيرية ، أما هذا الجمع الضخم الهائل من العرب ومن ورائهم المسلمين الذين يستمدون فى مصادر ثقافتهم وأصول فكرهم على منهج القرآن ومفهومه فإنهم لن يرو محمداً بطلا عربيا ولا نبيا للعروبة ولكنهم يرونه رسول الله المؤيد بالوحى ، ولن يرو الاسلام

مرحليا ولا عربيا ولا مرحلة من التاريخ ولا مجرد حركة وطنية عربية على النحو الذى يراه هؤلاء ولكنهم يرونه : ذلك العملاق العجيب المعجز الذى قلب موازين القوى وصنع من العرب أمة ضخمة والذى تقدم إلى العالم فصاغه من جديد فى أقل من مائة عام ومايزال يصوغه فى فكره وذاتيته ومزاجه النفسى وعقليته . وسيظل ما دام القرآن قائما يتلى وينظر فيه . وأن أثر الاسلام فى البشرية لهو واحد من الموضوعات الخطيرة التى تناولها الكتاب الغربيون فى ضوء حضاراتهم وأديانهم ، ومن أبرز هذه الدراسات كتاب (محمد وشارلمان) الذى ألفه (هنرى بيرين) والذى قصد به تبيان أن الاسلام كان القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوربى حتى ليمكن أن يقال بحق أن العصر الوسيط والنهضة الحديثة هما ثمرتان من ثمار ظهور الاسلام . ويرى المؤرخون أن نقطة التحول فى التاريخ الأوربى هى سقوط الامبراطورية الرومانية وأن أغلب المؤرخين قد أجمعوا على أن الشعوب الجرمانية التى كانت تعيش على تخوم الامبراطورية الشمالية هى التى اجتاحت حدود الرومان وقضت على دولتهم ، أما (هنرى بيرين) فيرى أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى الدرجة التى تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر ببالها بل ما كانت ترغب أبداً أن تناوىء روما وتقضى عليها . أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان فى جميع أسباب الحيـــاة ولا سيما فى الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم وهذا هو الفارق بين الشعوب الجرمانية والشعوب الإسلامية حينذاك . فأولئك كانوا يعدون أنفسهم عيالا على الدولة الرومانية وهؤلاء كانوا يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين ضعفوا وشاخوا وكان أمراء الجرمان يفخرون بما يمنحه إياهم أباطـــرة الرومان من الأوسمة والألقاب أما رجال الإسلام فكانوا يأنفون من مثل هذه الرشى لأنها تقدم ممن هم أدنى منها ديناً وخلقاً وأصلا . أما الشعوب الإسلامية فكانت ترى نفسها جديرة بأن تمنح الرومانيين ديناً حديثاً وترشدهم إلى مدنية أخرى ، ولم تكد تهب ثورة المسلمين وتسير كتائبهم إلى أراضى الرومان حتى تلاشى ما كان لهؤلاء من المعالم والآثار وكأنما كانت رماداً . وهكذا يصل هنرى بيرين — وهو قول يردده كثيرون غيره من المنصفين إلى أن الإسلام : هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوربى حتى يمكن القول بأن العصر الوسيط والعصر الحديث هما ثمرتان من ثمار ظهور الإسلام .

ويقول على الطنطاوى فى الترابط بين العروبة والإسلام : من قال بالعروبة قال بالإسلام لأن العربية لم تكن شيئاً مذكوراً لولا الإسلام ومن قال بالإسلام قال بالعربية ، لأن الإسلام دين نبيه عربى وقرآنه

عربي وليس من المستطاع تجريد العربية من الإسلام . والإسلام هو الذى أسقط الجنسية وحاربها ومنع كل دعوة إلى عصبية جنسية أو قبلية وأسقط حواجز القوميات . ولم يطمس الاسلام الوقائع التى تجعل مكاناً ظاهراً لنبي عربي والعرب قومه والقرآن كتاب عربي والحج عربي ولولا الاسلام ما انتشرت لغة العرب . وتاريخ العرب هو تاريخ الاسلام ، ولو يؤخذ منه الاسلام وماانشأ عنه لم يبق للعرب شيء ، واللغة العربية قطبها القرآن ودعاة الاسلام يلغاء العرب والعربية والاسلام دائرتين: صغيرة وكبيرة إحـداها وسط الأخرى فالعرب ولد مجدهم وتاريخهم يوم مولد محمد » . ويصور الدكتور اسحق الحسيني العروبة بأنها عروبة العقل وعروبة اللسان وعروبة القلب وإن إسقاط أى ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة ويفسدها .

ولذلك فهو يرى كل من استظل بالفكر العربي الاسلامى عربي : شوقى الكردى الأصل المصرى الجنسية ، وصلاح الدين وهكذا . ويطابق هذا ماقاله ارسول : إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعروبية فهو عربي : ويقارن حسن الكرمى بين موقف الديانة المسيحية فى قول اليوت وبين موقف الاسلام ، يقول اليوت ، أن الديانة المسيحية هى أكبر جامع موحد للثقافة الغربيه ويتساءل هل يصح أن يقال أن « الاسلام » هو أكبر جامع وموحد للثقافة العربية ويقول : إذا لم يفعل الاسلام ذلك فما هو الذى يجمع بين العرب . ويؤكد الدكتور المهدى المنجره استحالة فهم أمور العروبة بعيداً عن الاسلام فيقول « من الصعب إن لم يكن من المستحيل فهم الشئون العربيه بدون اعتبار أثر الاسلام كدين وفلسفة وكحضارة وكأسلوب فى الحياة ، ذلك لأن الحركة العربية ظاهرة إسلامية والعرب فى غالبيتهم مسلمون « وإذا قارنا الاسلام بالديانات الرئيسية الأخرى فإننا نجد أن الاسلام يهتم أكثر من أى شيء بالايمان ، وبينما ينظر المسيحيون إلى دينهم كميراث ، ينظر المسلمون إلى دينهم كحقيقة حية وكغذاء روحى حقيقى ، لا يفرق المسلمون بين المسائل الروحية والزمنية كما يفعل المسيحيون لأن الاسلام نظام تـام ، هيكل عضوى يتجلى فى مظاهر التشريع الاسلامى والحكم ومفهوم الدولة عن المسلمين ، وهنا تبدو أهمية التشريع الاسلامى كقوة موحدة تتجلى فى أنه عامل أساسى يصهر المجتمع الاسلامى فى جماعة ملتحمة » .

(٣٧)

موقف الاسلام من العروبة

أن منهج الفكر الإسلامى فى سمته ويسره واتساع آفاقه كاطار مرن قادر على تقبل مختلف الأنظمة والمذاهب والنظريات لم يتوقف به أمام أى نظرية غربية تطرح عليه فى العصر الحديث ، سواء أكانت فى مجال السياسة أو الاجتماع ، ولكن التحفظ الوحيد الذى كان دائماً موضع النظر ، هو التماس جوهره ، والحيلولة دون الانصهار فى أى بوتقة ، والمحافظة على مقوماته وذاتيته مع انفتاح كامل وتقبل سمح لكل ما يطرح عليه .

ومن هنالك كان موقف الإسلام من العروبة ، فالإسلام لم يحارب التشكل العربى ولكنه حفظ له أصالته وقبله فى دائرة وحدة الفكر العربى الإسلامى ، وقد شهد بذلك [هاملتون جب] حين قال : « الإسلام لم يحارب المبدأ القومى ولا نظر العلماء إلى فكرة الأمة العربية على أنها شىء غريب دخيل منافس للدين ومخالف له . لم تكن الأمة العربية قد تحولت إلى تجربة (القومية العربية) حتى يشعر الفكر الإسلامى بوحشة واستغراب ، ولم تقف فكرة الأمة العربية ضد الإسلام . وإنما وقفت الفكرة العربية أمام الفكرة العثمانية تناظرها وتجادلها وتتصدى لها وتطالب بحقها ثم تعتبرها مقصرة فى حق الاسلام . ويخرج الاسلام من المعركة ، وكأنه فوق الصراع بين الولاء العربى والولاء العثمانى توضح للعربى المسلم أمرا هاما هو أنه يمكن أن يكون مسلما فى الدين عربيا فى السياسة ، يلتقى مع التركى والهندى فى العبادة ويلتقى مع المسيحى العربى فى الوطن والدولة .

ومهما يكن فى عبارة (جب) من قصور فى فهم ترابط الاسلام دينا ودولة وترابط العروبة والاسلام ولكنه يوحى بما نريد أن نقوله من صلة الاسلام بالعروبة وشبيه به ما قاله جاك بيرك : من أن الروح العربية لا تزال تحتفظ حتى اليوم بمرجع ذاتى لها أو تنشىء من جديد استقلالا ذاتيا فى الاحساس والتعبير لا يصح معه لأى نظام خارجى أيا كانت قدرته على الاغناء أن ينازعها فيه ، والذى لم يقله جاك بيرك أن هذا المرجع الذاتى : هو الاسلام . ومن الحق أن أثر الاسلام فى العرب بعيد المدى وعميق . حتى ليمكن القول بأن العرب لم يكن لهم وجود أمة قبل الاسلام ، فقد أعطاهم الاسلام صفة الأمة ووحدهم ثم أعطاهم الرسالة التى حملوها إلى العالم كله ، والتى أعطتهم الزعامة السياسية ،

ثم حفظ الاسلام اللغة العربية وأمدها بقدر ضخم من المضمون والأداء معا ممثلا فى القرآن الكريم .
ومن ثم فان الاسلام هو الذى أعطى للعرب مفهوم الحضارة والعلم ، فليست هناك حضارة عربية أو علم عربى أو فكر عربى أو لغة عربية وإنما هناك حضارة عربية إسلامية وفكر عربى إسلامى وعلم عربى اسلامى ولغة عربية إسلامية والذين يقولون بحضارة عربية أو فكر عربى ، يقصر فهمهم أو يقصر إنصافهم ، وكذلك من يقولون بأن الحضارة العربية الاسلامية حضارة دينية أو أن فكرهم دينى أو أن لغتهم دينية ، أولئك لا يفهمون مضمون الفكر العربى الاسلامى ولا مقوماته الأساسية، ذلك أنه فكر متكامل شامل يضم الدين واللغة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد . وليس الدين فيه إلا عنصر من العناصر ، التى يشكلها الاسلام ، ذلك أنه لاسبيل إلى تصور حضارة أو ثقافة أو فكر عربى منفصل عن الترابط العربى الاسلامى أو وحدة الفكر الاسلامى العربى الجامعة ، لقد حقق الاسلام وحدة العرب كما حقق القرآن وحدة اللغة وتركيب العروبة والاسلام : أمة وفكر يجامع ما بينهما (العروبة الاسلامية) وهو جامع تاريخى تطور فأصبح كيانا ، وهو كيان مفتوح على القيم وعلى الأمم فالكيان العربى مفتوح الأبعاد بالعالم الاسلامى ، انفتاح فكر أساسى فكل مسلم عربى باللغة والفكر والتراث والقيم .

ولابن تيميه فى ذلك دراسة واسعة ، فالعجم هم الذين حرروا العرب من التتار والصليبيين والمماليك هم الذين سحقوا التتار فى عين جالوت وصلاح الدين ، وقطز والظاهر بيبرس ، والسلاجقة لهم دورهم الواضح فى الحروب الصليبية والبربر لهم أثرهم الكبير فى فتح الأندلس واستمدادته د وكذلك للأكراد دورهم .

(٢)

العروبة ومكانها من الاسلام

أن مكان العروبة من الاسلام لا يحتاج إلى تفصيل كثير ، فالعرب هم مادة الاسلام ومكانهم فى المجتمع البشرى هو علامة على مكان الاسلام فاذا ذلوا ذل الاسلام وقد كانوا حملة الرسالة والدعوة ، قاموا بنشرها إلى أبعد نقطة فى الملايو وعبروا البحر إلى حدود نهر اللوار وإلى الصين وإلى أسوار فينا . ويرى شفيق غربال أن العروبة صورة خاصة من الجامعة الاسلامية والثقافة الاسلامية ومن هنا فلا تعارض بينهما . يقول : الاسلام دين وهو جامعة جمعت وتجمع الشعوب الاسلامية وهى جامعة

لم تقتض ولا تقتضى وجود الادارة أو السلطة المركزية كما نفهمها ، بل أن أقاليم العالم الاسلامى حتى فى العصور الأولى للخلافة تمتعت فى الواقع بمقدار من الحركة مكنها من التمتع بحياة إقليمية خصبة متميزة . والاسلام أيضاً ثقافة بمعنى أنه (طريقة حياة) أو كما يقول السلف (آداب) وقد شرح ذلك ابن خلدون فى قوله : الحياة الاسلامية ثقافة بهذا المعنى الشامل لأمور الدين والدنيا ، وبينما تتنوع الثقافة الاسلامية تنوعا عظيما إذ هى من وراء ذلك التنوع تمثل الطابع الاسلامى المشترك . وقد كان بناء الثقافة الاسلامية على هذا النحو من أعجب فصول التاريخ الانسانى وأعظمها فهى ثقافة واسعة سمحة مكنت الشعوب التى عملت فيها من أن تجارى مزاجها الخاصة أو عنصريتها القومية ، وقبلت شعوبا على درجات متفاوته من الحضارة أو كانت تنتسب لسلالات بشرية مختلفة ولأصول تاريخية متباعدة والثقافة الاسلامية بقيت سمحة وبقيت إسلامية » .

كما أشار شفيق غربال إلى محاولة تجريد العروبة من الاسلام فقال : يظن أن اختلاف العرب دينا يقتضى تجريد حركتهم من عنصر الدين حرصا على جمع الكلمة وهذا وهم أولا لانه يناقض ما أثبته التاريخ عن مشاركة غير المسلمين فى بناء الثقافة التاريخية . وثانيا : لانه يناقض ما أثبته التاريخ الحديث من مشاركة غير المسلمين فى نناء الحركة العربية التحريرية الاستقلالية . وثالثا : لانه يعطل المصلحة الكبرى وهى جمع الكلمة على إصلاح دينى إسلامى مسيحى يصد الالحاد والمادية . ويحاول اسماعيل مظهر أن يصل إلى هذا المعنى : معنى ترابط العروبة والاسلام فيقول : إذا قال أحدنا (الجامعة الاسلامية) فانما يعنى جامعة عربية روحها الاسلام ، وإذا قال أحدنا (الجامعة العربية) فانما يعنى جامعة اسلامية روحها العروبة وكل قول يباين هذا القول خطأ وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعوبية خسيسه » .

ثم يفصل هذه المعادلة فيقول : « اقترن الكلام فى العروبة بالاسلام لأن الثابت الذى لا جدال فيه ولا ريب بداخله إن الإسلام لم ينزل بلغة العرب فقط وإنما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا فالعربى النصرانى مسلم بصفاته العربية والمسلم عربى بما فى الإسلام من روح العرب . « أقول مملوءاً ثقة بصحة ما أقول أن الإسلام فكرة جامعة ومعنى أنه فكرة جامعة أنه (دين ودولة) ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ومهما حاول البعض أن يخرج عن الإسلام هذه الصفة ومهما قيدت نظامات الحكم فيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة فى فكرة واحدة وهى فكرة الدفاع عن المجموع الذى يستظل بالإسلام .

« مهما تفرقت فيه النحل واختلفت المذاهب وتباينت النزعات فان حكومات المسلمين فى هذا العصر قد اضطرت مغلوبه إلى مجاراة روح النظام الحديث فى المدينة الأوربية ففصلت بين الدين والدولة فإن هذا الفصل ينبغى إلا يتعدى أنه فصل فى الأوضاع لا فى الروح ، فكل حكومة من حكومات الإسلام فى هذا العصر ، وإن كانت قد قبلت على ذلك نظاماتها الحديثة فإنها قد نصت فى دساتيرها على أن دين الدولة : الإسلام . « ولست أعرف حقيقة الباعث الذى حد بالذين وضعوا هذه الدساتير على إثبات هذا النص ، فالدولة شخص معنوى والنص على أن ذلك الشخص المعنوى له دين اسم الإسلام أمر لا يخلو من التناقض ولكنى أعتقد أن هذا النص لم يثبت فى دساتير الدول الإسلام إلا استجابة لوعى خفى مستمد من روح الإسلام وأنه دين ودولة معا ، أملته على أولئك المشرعين روح إسلامية لم تخب فى أنفسهم يوم شملتها وإن كانت قد استخفت فإنما كان استخفاؤها تحت ظروف لا حاجة لنا إلا الافاضة فيها . كل هذا لأقول أن روح الإسلام : تلك الروح التى نشأت بنشوة الإسلام وستظل باقية ما بقى الاسلام والتى أنشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدمجتهما معا هى روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد بل أنها روح تقدس الحرية أولا وتحمى رعاياها حماية بلغت منتهى التسامح فى تاريخ الدنيا . ويرى بعض الكتاب الغربيين أن الابتعاد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وهذا ما يردده موروبيرجو الذى يقول « قد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام ونفس الشىء يمكن أن يتكرر حيث يحرز الاسلام انصارات واسعة فى أفريقيا . ويؤكد (نبيه أمين فارس) على اثر الاسلام فى قيام العروبة ووجودها نفسه ويصور موقف العرب غير المسلمين من عبقرية الاسلام يقول : فالعرب إنما دخلوا التاريخ العام وأصبح لهم وجود تاريخى كأمة وشاركو فى الحضارة الانسانية مشاركة نيرة بظهور النبى محمد بن عبد الله مبشرا برسالة الاسلام ، وإذا كان المسلمون يعتبرون محمداً رسول الله الأعظم وخاتم النبيين فإن العرب يعتبرونه بطلهم القومى وأعظم إنسان أخرجته الأمة العربية ، وإذا كان المسلمون يقدسون القرآن الكريم لأنه كلام الله الموحى به إلى رسول محمد فإن العرب يعتبرونه مثال البلاغة العربية الأعلى وأنموذج الكلام المبين والحارس الأمين الذى حفظ عليهم لغتهم سليمة من العجمة والركاكة والاندثار والذوبان فى اللهجات العامية الاقليمية على الرغم من الانحلال الذى أصاب العرب ومن الأمم الاجنبية التى أخضعت العرب لسلطانها فإن إعتز المسلمون بالحضارة الاسلامية ومجدوا أبطال المسلمين الخالدين وخلفائهم الهادين العادلين فإن العرب (يقصد من هم غير المسلمين) يعتزون بهذه الحضارة لأن عبقرية أمتهم العربية كان النصيب الاكبر فى خلقها ولأن لغتهم العربية كانت القالب الذى ظهرت

فيه ويمجدون هؤلاء الابطال لأنهم ابطالهم القوميون . ولما كانت العربية هى قوام الاسلام ومادته ولغة قرآنه ونبيه ، فقد امتد أعجاب المسلمين إلى كل ما هو عربى وإلى كل عربى خدم اللغة العربية وأغناها وشارك فى الحضارة مسلما كان أو غير مسلم . ثم يقول : وهكذا تتشابك العروبة والاسلام فى التاريخ القديم تشابكا عضوياً متفاعلا لا مجال إلى فصل الوحدة إلى الاخرى » . ونحن نقول للكاتب : ومايزال هذا التشابك قائماً ومستمراً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم فإن من الاستحالة التى تخالف نواميس الكون ، وقوانين الامم فى بنائها وتطورها أن تنفصم العروبة عن الاسلام ، ومهما طرحت الاستعمارية الغربية عشرات النظريات فى الاقليميات والقوميات الوافدة التى لا يقبلها المزاج العربى الاسلامى ولا النفس العربية الاسلامية والتى ثبت فشلها وسقوطها بعد هذه السنوات الطويلة والمحاولات الضخمة من بثها ومحاولة إقناع المسلمين والعرب بها بينما هى لا تتفق مع طبيعتهم وذاتيتهم وأصول ثقافتهم .

ثم يقول : نبيه أمين فارس « وكذلك يتشابك الاسلام والعروبة فى التاريخ الحديث تشابكا عضوياً متفاعلا لا مجال إلى فصل الواحدة عن الاخرى فى نفوس كثير من القادة والقوميين بل جمهور المسلمين وهل كانت النهضة العربية الحديثة إلا تياراً من النهضة الاسلامية فى القرن التاسع عشر » . وهذه كلمة منصفة من كاتب تغريبي يعترف بها بالرغم مما له من آراء أخرى مسمومة مغرضة وبعد فمقطع القول أن الاسلام صانع للامة العربية (أولا) كقيادة له ثم هو الإنسانية كلها من بعد ، رسالة حملتها أيدى العرب وأقلامهم ولغتهم وشقت بها الآفاق إلى كل مكان وقد مضت رسالة العرب ولكنها لا تزال تتجدد فالعرب أعرق نهما للاسلام حيث فيهم اللغة العربية : لغة القرآن وفيهم للمفهوم الوسط القائم على مفهوم السنة الصحيح الجامع بعيداً عن الفلسفات والتصوف والشعر وبعيداً عن مذاهب الاعتزال والحلول والباطنية وغيرها . نهم أصدق تمثيلا للاسلام وأقدر الناس على حمل دعوته إلى الآفاق .

(غير المسلمين من العرب وموقفهم من الإسلام) أن موقف كثير من المفكرين المنصفين غير المسلمين من العرب من مفهوم (وحدة الفكر والقيم) وترابط العروبة والإسلام يبدو واضحاً جلياً لا تشوبه شائبة التحدى التى تفرضها تلك الأقلام التابعة وذات الولاء الغربى . وتكشف هذه الأقلام المنصفة عن حقيقة أساسية هو أنه ليس هناك لمجتمع مسلم ومسيحى فى (العربية الحنيفية) على هذا النحو الذى يصوره عيسى البندك : « العربى كان أم مسيحيا تربطه بالإسلام والعربية ، واللغة التى

يتشكلم بها والأخلاق التى يتخلق بها ، والتى يزاولها ، وما يعتز به من إباء وشهامة ومروءة ، أراد أم كره ، إذا ما أراد عربى أن يزعم أنه غير ذلك فقد نبذ بطوعه واختياره جميع هذه السجايا الطبيعية الممتازة ، بل يكون قد فرق بيديه الهالة السماوية التى ضربت على خبره قوما مشعا بأنوار الكرامة والمجد . أننا نؤمن إيمانا قاطعا بأن كيان النصارى جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب وإن مصلحتهم مصلحتنا » .

ويتجلى على أقلام كتاب العرب غير المسلمين فهمهم للعلاقة بين العروبة والإسلام ، والعلاقة بين القومية الغربية والمسيحية ، فهم يرون أن الفكرة القومية المجردة فى الغرب إنما فصلت بين القومية والدين « لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق ، لم ينزل بلغتهم القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ولا امتزج بتاريخهم . فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية ولا هو أخلاق مجردة . بل هو ثقافة قومية .

(٣٨)

مبدأ القوميات بين أوربا والعالم الإسلامى

كانت صيحة القوميات فى أوربا من مخططات اليهودية العالمية للقضاء على نفوذ الكنيسة الموحد والقضاء على حقوق الملوك وامتيازات رجال الدين . وإذا كان أى رد فعل إنما هو نتيجة فعل مساو له فى القيمة فإن ظهور القوميات (كظهور الاشتراكية) إنما جاء نتيجة تحدى خطير ، هو تمتع الملوك بسلطة مطلقة فى التصرف وتأييد الكنيسة لهذا التصرف تأييداً مطلقا ، وكان فى ذاته عاملا لإقرار طابع المسيحية الأصيل وهو انفصال نفوذ الكنيسة عن الدولة تخلصا من طغيان الملوك . ذلك أن المسيحية لم تكن فى الأصل ذات نفوذ سياسى تجاه الدولة ، إلا حين حاولت الكنيسة أن تقيم فلسفتها على هذا الأساس ولا شك أن هذه الصورة بكاملها لا توجد فى المجتمع الإسلامى الذى يراد له أن يتطبع بنظرية الغرب الوافدة فى القومية . ذلك أن الإسلام كان بطبيعته دينا ودولة ، وكان نظام مجتمع شامل وكان داعية العدل والحق ، وكان قائما كالسيف المصلت فى وجه الملوك والأمراء ، فضلا على أنه لم تكن له كنيسة ولا حكومة ثيوقراطية ولا طبقة كهان أو رجال دين لهم نفوذ خاص ولا وصاية على الحكومات أو المجتمعات. لم يعرف العالم الإسلامى الذى طرحت عليه

نظرية القومية الغربية الوافدة مثل هذه العوامل ، ولذلك فإنه لم يتقبل نظرية مفروضة لا تتفق مع ذاتيته ومزاجه النفسى ولا تتشكل من خلال فكره العربى الإسلامى الذى له طابعه وقيمه ومفاهيمه فى مختلف العلاقات وأبرزها علاقة العروبة بالاسلام . وتوالى روابط الأرض والأمة والفكر دون تضارب فيما بينهما . فى ظل هذه الأوضاع الاجتماعية ، ومن خلال الطابع الفكرى والثقافى الذى يجمع بين فلسفة الاغريق وشريعة الرومان وإطار المسيحيه فى كل متضارب ، وفى مجتمع تنهار فيه الرابطة بين المجتمع والكنيسة مع انفصال الكنيسة إلى كنيستين ، مع ضربات مطارق اليهودية العالمية التى تتمثل فى تأجيج نيران القوميات ، وخلق تعصبات الجنس والدم والعرق والأرض واللغة تبدو القوميات الأوربية مغلقة عدوانية . ولعل هذا أوضح طوابع التفاوت بين العروبة والايرانية والتركية والهندية التى يجمعها رباط أكيد وجذور عميقة من القرآن والفكر الاسلامى ووحدة النظرة والتوحيد . هذا التفاوت يصوره أحد الباحثين فيقول :

القومية فى نظر الشعوب الغربية ضيقة شرسة متعصبة مفرطة بالتعصب مغلقة نحو الانسانية : (تتسم) بشيوع روح الاحتقار الشديد بين مختلف القوميات الغربية بعضها تجاه البعض الآخر على ما بها من الروابط العديدة وليست النظرية الألمانية وحدها ذات الطابع الذاتى العميق ، بل كل القوميات على درجة متفاوتة فى العمق والشراسة والتاريخ السياسى الغربى أكبر شاهد على ذلك لأنه غارق فى الدم . ويرى الباحث أنه نتيجة لقوة تغلغل روح العنصرية فى القوميات الغربية لم تستطع روح الدين المسيحى أن تؤثر فى هذه القوميات أو تلطف منها . « والمسيحية ليست متعصبة ولكن التعصب فى الرسومات الوثنية التى عمقها التراث اليونانى القديم خلال عصر النهضة الأوربية . إن « حقيقة الروح التى تسير القوميات فى الغرب ناشئة عن العنصرية المتغلغلة فى أعماق النفوس وليست منعكسة عن العنصرية المتغلغلة فى أعماق النفوس وليست منعكسة عن المسيحية الصحيحة . « ويقول أحرار الفكر من الغربيين : إن المسيحية ديانة لم تلائم الشعوب الغربية لأنها ديانة شرقية سامية والتفسير العلمى لهذا التقرير هو أن المسيحية ديانة إنسانية – وطابع الروح الغربية مغلق غير متفتح وغير متسامح لم تستطع روح المسيحية أن تؤثر فيه . « إن اليونانيين القدماء كان يحسبون أنفسهم الشعب المختار وكل ما عداهم برابرة حتى كان فيلسوفهم أرسطو يقول باطمئنان : الحمد لله الذى خلقنى يونانياً لا بربرياً ورجلا لا إمرأة » . هؤلاء اليونان كانوا يقدسون المدنية وأخذ الرومان بهذه النظرية وعنهم اقتبس الغربيون تمجيد الوطن الأم وحقوقه ، فقست

أحاسيس الوطنية الاقليمية الضيقة والعصبية المفرطة،حتى طبعت القوميات بطابعهاحيث لا تسامح مع القوميات الأخرى ». « وهذا لا تجد له مثيلا فى النفسية العربية . « المسيحية لم تستطع التلاقى مع روح القومية المتعصب ، وقد اضطر صلابة القوميات الغربية وشراستها أن تسير فى ركابها أينما سارت ، بل زادت على ذلك فأضفى رجالها على مذابح القوميات المتطاحنة القداسة المسيحية .. » ا. ه. (مجلة الأزهر م ٣٠ / ٢) . وعندنا أن اليهودية العالمية التى تشكلت فلسفتها الهادمة للمسيحية فى محافل الماسونية وفكرها وكتاباتها ، قد استطاعت بعد الثورة الفرنسية التى قادتها لحساب هدم الطابع المسيحى الغربى أن تجعل من مبدأ القوميات التى ابتكرته أكبر هادم للوحدة الغربية المسيحية . وإنها أرادت بعد ذلك نقل المعركة إلى العالم الاسلامى والدليل على ذلك أن الدولة العثمانية التى كانت تضم قوميات متعددة كالعرب والترك واليونان والبلغار والألبان والأرمن والشركس والأكراد هى التى تدعو إلى الطورانية وإن العنصر الحاكم هو الذى يثير صراع القوميات ويمزق الدولة ، وكان العنصر الحاكم الذى أعدته المحافل الماسونية لهذا الغرض فى تركيا هم الاتحاديين والكاليين .

أما العرب فإنهم لم يحاولوا الانفصال عن الدولة العثمانية ، إلا بعد أن اغتالهم الاتحاديون باسم الطورانية ، ويرحم الله عبد الحميد الزهراوى الذى داخله الماسون حين قال بلسانهم إن الرابطة الدينية عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية ! . وهل كان حقاً ما بين العرب والترك رابطة دينية وهل الرابطة الاسلامية يمكن أن توصف بأنها دينية إلا على ألسنة خصومها ودعاة التغريب . قبل الاجابة على هذا السؤال علينا أن نعرف كيف واجهت أوربا مبدأ القوميات .

نظرية الدم

إن مبدأ القوميات فى أوربا لم يأخذ شكلا واحدا ولكن أخذ عدداً من الصور والأشكال منها العنصرية والعرقية . أو نظرية الدم . وقد انتشر مذهب العرقية فى أثناء المائة سنة الأخيرة فى معظم أنحاء العالم وبلغ أوجه فى ألمانيا وفلسفة التاريخ فى ألمانيا قبل الحرب الأخيرة كانت تقوم على المذهب العرقى دون غيره ، فهم يقررون أن الحضارة لا تنشأ ولا تزدهر إلا على يد الشعوب الآرية ولا سيما الفرع النورديكى الشمالى منها ، لذلك ينسبون نشوء جميع الحضارات بما فيها الهندية الفارسية إلى فتوحات آرية . والعرق فكرة بيولوجية لا ثقافية ، لذلك فإن تصنيف العروق وتبويبها يقوم على أساس الملامح الجسمانية كالقامة ولون البشرة ولون العيون وشكل الرأس وحجمه ولا يصح تصنيف

العروق على أساس اللغة أو نوع الحضارة . ونشوء الفكرة العنصرية فى ألمانيا قديم بدأه أرثر دى جوبنيو (١٩١٦ — ١٨٨٢) وشارك فيه فاشيه دى لابوج وهوستون تشمبراين . ويقول جوبنيو : أول من وضع أصول القومية الإحيائية الجديدة فى بحث له تحت عنوان (مقال فى بيان التفاوت بين الأجناس البشرية) إن الدم ذو أهمية عظمى وإن الناس يتفاوتون فى العنصرية ، وإن الحضارة لا يمكن أن ينتقل من شعب إلى شعب ، ولذلك فإن الأجناس المتأخرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى أرفع وأن الشعب الألمانى هو الشعب المختار إذ العبقرية عنصرية مرهونة ببقاء الدم ، وقد شجع جوبنيو مذهب عبادة الأسلاف باعتباره وسيلة المحافظة على بقاء الأجناس الراقية وتمكنها من الاطلاع برسالتها فى زعامة العالم . وقد أجمع فلاسفة نظرية الدم على أن الجنس الآرى النورديكى هو أرقى جنس وهو الذى خلق المدنيات .

الحلقات الثـــلاث

وهكذا علت صيحة الدم ، صيحة العناصر ، صيحة الأجناس ، وعمت العالم كله . وقد واجهت أوربا مضطرب هذه الصيحة ، وفتحت أبوابها لدراسات وكتابات اتجهت كل وجهة ، فقد أراد بها البعض إحياء العصبيات القديمه كالألمـــان والإيطاليين وأراد بها اليهود خلق عصبية جنسية ليست موجودة جغرافيا ، ولـكنها وجدت بالهجرة المفتعلة إلى فلسطين .

أما العرب والمسلمين فقد كان موقفهم واضحاً من كل دعوة إلى العنصرية والأجناس ، فقد أعطاهم الاسلام مفهوما واضحا صريحا لذلك ، غير أن سيطرة الغرب على العالم الاسلامى وفرض مفاهيمه ونظرياته عليه ، قد أقام هذه الدعوات إلى القومية ولـكنه عجز أن يفرض مفهومه عليها فقد استمدت القوميات الاسلاميه مفاهيمها من داخل فكرها واتخذت من القوميات وسائل للقوة والنمو والتحرر من النفوذ الأجنبي ولـكنها رفضت مفهوم القومية العدوانية التى تصارع جـيرانها من القوميات الأخرى ، ونما فى ظل ذلك مفهوم « العروبة » الذى أعاد تجميع الأجزاء العربية التى فتتها الاستعمار باسم الاقليميات ، ولم ير العرب بأسا من إحياء الوطنيات فى الداخل مع الترابط العربى ، وفق مفهوم مم الواضح الذى يربط الحلقات بعضها ببعض . ذلك إن الفـكر العربى الاسلامى يؤمن أساسا بالترابط والالتقاء بين الوطنية المرتبطة بالأرض والعروبة والمرتبطة بالأمة والاسلام الجامع لوحدة الفـكر . ونظراً لمرونة الفكر الاسلامى وسماحته وبالارتباط مع مقوماته الأساسية القائمة على التـكامل ، فإنه لم يكن هناك شىء من التضاد أو الصراع أو التعارض ، بين أن تسير الحلقات الثلاث فى طريقها دون

أن تتعارض ، فإنها ستلتقى على الطريق الصحيح ، ففى فترات الضغط الاستعمارى الشديد لجأت الأجزاء الاسلامية والعربية إلى مرحلة الوطنية والارتباط بالأرض ولكنها لم تنفصل عن العروبة ووحدة الفكر ، ثم استطاعت أن تتحرر من الاستعمار ثمة وتدخل فى الحلقة الثانية (أى فى مرحلة العروبة وترابط الأمة) وهى الآن على أبواب المرحلة الثالثة الجامعة : مرحلة وحدة الفكر .

محوران فى العقائد والدماء

والتجمع البشرى عادة يدور حول محورين : محور الفكر والعقائد ومحور الدماء والعروق . فالاسلام هو : «وحدة فكر» لأهله و«وحدة عقيدة» لمعتنقيه . وهو وحدة فكر لأنه ليس ديناً فحسب ، ولكنه فى الجانب الآخر (غير الدين اللاهوتى) حضارة ومنهج حياة ونظام مجتمع . وهو فى هذا يخالف المسيحية التى هى دين لاهوتى خالص ومجموعة من الوصايا . ولقد كان الاسلام كوحدة فكر يرتبط باللغة العربية ، غير أن النفوذ الاستعمارى قد حال بين جريان اللغة العربية مع الاسلام حينما ذهب إلى الناس عقيدة وفكراً وما يزال يؤثر فى هذه الأمم والشعوب بتغليب لغاته الأجنبية أو اللغات الاقليمية حتى يحول دون ذلك التكامل .

مع ذلك فإن العالم الاسلامى لا يؤمن بوحدة اللغة ولكنه يؤمن بوحدة الفكر الجامعة ويرى اللغة طريقاً إلى ذلك تمهد لها السبل وترفع العقبات . لقد جاء الاسلام عقيدة إنسانية عامة انصهر فى داخله فكر الأقوام واجناس التى اعتنقته وتلك التى عاشت داخل إطاره . فتشكل فكر واحد جامع ، غير أن الإستعمار هو الذى عمل على تمزيق هذه الوحدة وابتعث دعوات التاريخ القديم السابق للإسلام ونماها وغذاها بالحفريات الأثرية وإحياء اللغات والفلكور والتاريخ والقصص والأساطير حتى يحول دون ذلك التشكل الجامع الذى أقره الاسلام أربعة عشر قرناً. وجملة القول أن القوميات فى أوربا قد ارتبطت بأمرين خطيرين يتعارضان مع العالم الاسلامى : (أولا) العودة إلى الجذور القديمة مع تقدير الآثار القومية التى غيرت كل شىء . (ثانيا) ارتباط القومية اللادينية أو نفى أثر الدين مع أن الدين جزء من الثقافة وله ارتباط باللغة والتاريخ .

(٣٩)

الخصومة فى وجه وحدة العروبة والإسلام

إن هناك محاولة دائمة لخلق جو من الاضطراب والتناقض بين العروبة والإسلام فى سبيل غاية محددة هى : الحيلولة دون وحدتهما أو تلاقيهما ومن هنا فإن هناك دائما عمل بالخصومة لا ينقطع حتى لا يتم هذا اللقاء ولا يتكامل ولا يحقق نتائجه . ولا ريب أن اليهودية العالمية بل على سبيل القطع إنها هى التى أثارت فى العصر الحديث محاولة إيجاد صراع وتناقض بين العروبة والإسلام وبين الدين والقومية ، وان الاستعمار الغربى الحـــديث هو الذى طرح هذه القضية فى العالم الإسلامى رغبة فى التجزئة والاقليمية التى تحقق له هدفا ضخما هو : « الحيلولة دون وحدة العرب والمسلمين » ومايتوقع من حظ لهذه الوحدة . ولما كانت وحدة العرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة المدى فى الفكر الإسلامى وفى القرآن نفسه ، فقد طرحت عشرات المذاهب والقضايا والدعوات والأنظمة والنمـاذج التى حدثت فى أوربا لتغطية هذه المنطقة ودوام تحريك هـــذه القضية وإثارتها فترة بعد أخرى ، وإذاعتها وتحويلها إلى عقائد عن طريق معاهد الإرساليات أو الجماعات والهيئات التى قام عليها بعض خريجى هذه المعاهد ، واتخذت من الشباب الغض الذى كان مع الأسف قد أفرغ فكره تماما من مفاهيم الفكر الإسلامى وأصوله ، ومن ثم فقد أمكن تشكيله — وهو فى مرحلة التشكل والتطلع إلى المثل الأعلى وفق عبارات رمزية براقة إنشائية ذات أسلوب رومانتيكى ، مجنح ، قائم على الظلال والأضواء ، مما يكتبه بعض المتصدرين باسم « القومية » على هيئة أناشيد التوراة وذلك فى محاولة لإعطاء هذه المفاهيم طابع القداسة ومضاهات الرسالات المنزلة من السماء .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعاً وباءت بالسقوط الذريع لأنها لم تحسب أصول الطبائع والأمزجة التى شكلها الإسلام والعروبة وقد امتدت مثل هذه المحاولات وتنوعت واستهدفت أساساً الحيـلولة دون ترابط العرب والمسلمين وعزل العرب عن المسلمين وعن الإسلام جميعاً ، ودون قيام «وحدة فكر» تكون مقدمة لوحدة سياسية ، وهى دعوة دائبة عن طريق الأساليب الزائفة المنسوجة فى قوالب ذات مظهر علمى إلى تأريث الخلاف الدائم بين العروبة والإسلام وبين العرب أنفسهم ، وبين القوميـات والإقليميات ، وبين الأمم والشعوب وبين وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحـدة الفكر حتى لا يكون هناك لقاء . إن الهدف من تأجيج نيران القوميات والإقليميات إنما يستهدف تأخير الوحـدة القادرة

على مقاومة العدو، ومواجهة الغزو وإغراق العرب والمسلمين فى دعوات متعددة . ولكن النتيجه الواضحة أنه قد فشلت كل محاولة ترمى إلى إدخال واقعنا العربى الإسلامى فى القالب الغربى عن طريق استيراد النظريات وخاصة نظريات القومية الأوربية التى تنظر إلى الإسلام كدين، والدين مستبعد من خصائص القومية ، ذلك أن منطلق فكرنا وتاريخنا يقوم على العروبة وليس على القومية الوافدة . والعروبة بمفهومها العميق التاريخى الواسع المفتوح على الإنسانية والعالم الإسلامى . هذه العروبة ليست استجابة لمبدأ القوميات الذى يجتاح العالم ولكنه لقاء مع حقيقة ليس إلى تجاوزها من سبيل فى بناء النهضة ، وهى إذا كانت صيحة التجمع فى وجه النفوذ الاستعمارى وتحدياً له فمن المستحيل أن تتشكل على النحو الذى يحاول أن يفرضه ليفسد هدفها ، أو يخلق الصراع فى داخلها ، وحتى لا تستطيع أن تستكمل وجودها أو تحقق هدفها .

إن التماس المناهج العربيه للوحدة على النحو الذى تحاول أن تصوره المذاهب الغربية هو غريب عنا ولا يلتقى معنا لأنه فى الصورة التى عرفتها أوربا ، إنما استمد تشكله من واقع وظروف وتاريخ مخالف كل المخالفة للواقع الذى تواجه به هذه الأمة تحدياتها ، فإن التمسنا لواقعنا هذه المذاهب الوافدة فإننا نكون قد مهدنا لإجهاض حركة الوحدة والقضاء عليها ، ذلك أن الاستعمار حين رأى أن الدعوة إلى الوحدة على أساس العروبة الحنيفية عمد إلى طرح هذه النظريات لبعثرة القوى وإذابة المزاج النفسى الموحد الذى منه تستمد الأمة إنجاهها الأصيل ، وذلك بمحاولة إبعادها عن الاسلام فكراً وخلق حدود ضيقة وعدوانية بين الأجزاء العربية والأجزاء الاسلامية . وهل تستطيع العروبة أن تحقق وجودها إلا من داخل مضامينها ، هذه المضامين المرتبطة بقيمها الاصلية وتاريخها الممتد وما يفرضان من واقع وأسلوب عمل — أن محاولة عزل العرب عن الماضى (التاريخ والتراث والفكر) هى محاولة عزله كل رصيده النفسى والاجتماعى وامتداده الحى وهى أخطر ما تحاوله حركات الغزو الاستعمارى ، من أجل التبعية سواء استهدفت هذا الفصل بين الدين والمجتمع أو بين الدين والدولة أو أعلاء وحدة اللغة والتاريخ أو وحدة الجنس والعرق . وإذا كان لنا أن نتساءل لما اضطربت الدعوة إلى الوحدة طويلا قبل أن تحقق شيئاً ذى بال ، كان لنا أن نقول أن ذلك وقع لأنها التمست المفهوم الغربى الوافد فجانبت الفطرة ، ومن ثم فقد أصابها التعقد حين استسلمت لمحاذير الفكر الغربى عن طريق التغريب ، وهذا هو ما كان يريده لها الاستعمار حتى لا تحقق غايتها وتظل غارقة فى تية الصراع لا تخرج منه ولو بعد أربعين عاماً . إن هدف الوحدة عن طريق مفهوم العروبة الاصيل واضح وتلقائى ومستمد من أصالة وحدة الفكر العربى الاسلامى ومن أعماق الذاتية وفى ضوء المزاج النفسى الاجتماعى

أما نظريات القوميات الوافدة (ما يركز منها على اللغة والتاريخ وحدهما أو يركز على الارض وحدها) فهو نبت غريب ، لقد كانت العروبة هي صيحة التجمع فى نطاق الامة بعد سقوط حصن التجمع الرابط بين العروبة والاسلام ، وكان هدفها « التماس » قوة جديده تواجه الاستعمار وتكتل القوى وفق قيم الامة العربية الاسلامية الفكر لا وفق مفاهيم العلمانية والمادية الغربية . وإنما لجأ العرب إلى « العروبة » كأسلوب من أساليب التجمع فى وجه الغزو بعد أن سقطت « وحدة الفكر » الجامعة بين العرب والمسلمين ، وكان ذلك إتجاهاً طبيعياً فى حلقة أكثر استحكاما وأقل تعرضاً للمخاطر وأكثر تقارباً فى الأرض والعرق ، وهى فى نفس الوقت « بؤرة » التاريخ الإسلامى الأولى التى انطلق منها هذا الضياء إلى العالم كله ، ويمكن أن ينطلق منها مرة أخرى . يقول باينلر : « استعار الشرق العربى الفكرة القومية من الغرب (والحق أنها فرضت عليه وما استعارها) كوسيلة يدخل بها العالم العصرى كما حدده الغرب المسيطر ، لكن عقول المثقفين العرب ولا سيما أولئك الذين عرفوا بعض الشىء عن المعرفة التقليدية لم تكن من النوع الذى يتقبل كل شىء .

ويرى باينلر أن « المحتوى » فى العالم الإسلامى ، كان يختلف إختلافاً ملحوظاً ، وعنده أن فهم الطريقة الخاصة بالتطور القومى فى مصر والبلاد العربية تعتمد أساساً على « معرفة الأثر الإسلامى فى فهم الأفكار الغربية » ويقول : لم تكن القومية العربية عند المسلمين هى الرد الفورى على الضغوط الغربية فعلى النقيض من ذلك جرت المحاولة أولا ببعث إصلاحى سياسى ثم تلتها محاوله أخرى لإصلاح النظرية القانونية فى الإسلام » ومن الحق أن يقال أن الخصومة التى أثارتها الصهيونية والاستعمار عن طريق حركتى التغريب والشعوبية فى وجه المفهوم الأصيل للعروبة كانت حادة وعنيفة ، وكانت هادفة أساساً إلى إفساد الأصيل بطرح البديل وترويجه فى السوق على النحو الذى يجعله السلعة الوحيدة المعروضة فى محاولة لتغطية التيار الأصيل وردمه نهائياً . ولكن إصالة الفكر الإسلامى كانت قادرة دائماً على مواجهه كل وافد ، وقد كشفت عن مقدرتها فى مواقع كثيرة ، منها حملة الترجمة اليونانية فى القرن الرابع ، وفى مواجهة ما طرح من نظريات فى السياسة والاجتماع والتربية والقانون منذ سيطر النفوذ الاستعمارى على العالم الإسلامى ، ومن هنا كان موقفها من النظريات الوافدة فى مجال القوميــة والاقليميات بالرغم مما صيغت به هذه النظريات على نحو براق يرضى النفوس البسيطة والعقول المحددة ذلك أن هذه النظريات كانت بطبيعتها متعارضة مع الفطرة ومع المزاج النفسى العربى الإسلامى الأصيل الذى يؤمن بالآفاق الواسعة المفتوحة ولا يؤمن بالصراع أو التناقض أو التجزئة .

(٤٠)

تحديات التكامل بين العروبة والاسلام

أولا : محازير مبدأ القوميات الوافدة

ماهى المفاهيم الاساسيه التى يتميز بها مبدأ القوميات الغربيه الوافدة وماهى محازيره :

(أولا) الابواب المغلقة على الامم بالعداء والاستعلاء والمنافسة فى أوربا أى أنها قومية الصراع والتنافس والاستعلاء . وهذا المفهوم من العسير قيامه بالنسبة للعرب كأمة كانت هى قاعدة للعالم الإسلامى سياسياً وفكرياً ، ثم عقدت مع هذه الامم الاسلامية روابط فكر ومجتمع أمتدت أربعة عشر قرناً ، لقد ارتضت أوربا القومية بعد أن حررت نفسها نهائياً من الدين كعقيدة جامعه وكانت قد ترجمت الانجيل وانقسمت إلى كاثوليك وبروتستانت ثم سيطرت اليهودية العالمية على البروتستانت كمحاولة لتدمير المسيحية الغربية من الداخل . وكذلك بعد أن انتهت من وحدة اللغة لم تعد فى أوربا لغة جامعة ، فقد سقطت اللغة اللاتينية نهائياً . ومن هنا نذكر محاولات الاستعمار فى إثارة الخلاف بين العرب والفرس ، وبين العرب والترك لإغلاق باب الالتقاء ولتدمير مفهوم العروبة الأصيل وتحويله إلى مفهوم القومية العدوانية الوافد الذى طبقته أوربا ، إن أكبر ما هدفت إليه نظريه القومية الوافدة هى عزل الأجناس فى العالم الاسلامى عن بعضها البعض وإقامة حواجز سياسية وفكرية وثقافية بينها ثم خلق أسباب الفرقة والتنازع والصراع حتى لا تلتقى على وحدة فكر أو وحدة سياسية أواجتماعية ، وخاصة عزل العرب عن الأتراك بعد ترابط دام أكثر من ثلاثمائة عام

ثانيا : العرف أنفسهم لم يكن لهم وجود حقيقى كأمة أو كوحدة قبل الاسلام وليس فى تراثهم شاعر واحد تحدث عن العروبة بل كانت القبيلة هى الاساس ، ومن هنا فإنه من العسير على الباحث أن يجد تاريخا للعرب بعيداً عن تاريخ الإسلام أو يجد قيما وكيانا للعرب بعيداً عن الاسلام ، أو يجد حافزاً للعرب غير مرتبط بالاسلام .

ثالثا : خطأ محاوله التفضل على الاسلام بأثر العرب فيه ، والعكس هو الصحيح فالاسلام هو الذى جعل العرب عربا وليس العرب هم الذين جعلوا الاسلام إسلاما ، وإنما كان لهم دورهم الواضح المعترف به لاشك فى نشر الاسلام .

ولقد كانت المفاهيم واضحة وقائمة منذ وقت بعيد من أن العرب مادة الإسلام وإنه إذا ذل العرب ذل الإسلام . ومن هنا يسقط قول الغلاة القائلون بتقديس الأمة العربية ، والذين يصفونها (تجربة رحمانية) أو أنها (عقيدة) أو يعطون المعنى القومى الوافد طابعاً فلسفياً لاهوتياً أو صوفياً أو مثالياً على هيئة المزامير التى يراد بها إغراء الشباب ونقلهم من الدين إلى القومية باعتبارها دين جديد . هؤلاء الذين يقولون بأن ظهور الأمة على مسرح التاريخ كظهور الإلهام على مسرح الوجدان مع الاهتمام بالجاهلية والتركيز عليها ووصف اللغة العربية بالعبقرية أو وصف محمد بالبطولة . هذه الدعوة التى تهاجم بعنف الفارسية والتركية وتضرب الامتداد الإسلامى للعروبة وتثير حوله الخصومات والأحقاد ، هى دعوة زائفة ، لأنها لا تستمد مقوماتها من إصالة المنابع ولا من صفاء المزاج النفسى الأصيل ، أما العروبة فإنها تحرر الأمة من التعصب والعنصرية والقداسة والاستعلاء وتلتمس مفاهيم العرب والمسلمين على النحو الذى فهمه الإمام الشافعى والإمام ابن تيمية .

رابعاً : ليس الإسلام عنصراً مرحلياً فى تاريخ العرب أو فى تاريخ الإنسانية ، فالإسلام فى حقيقته مبدأ التاريخ الحقيقى للعرب والانسانية جميعاً وأنه حين جاء تحددت الحدود والفواصل بين عصر وعصر ، بين عصر الاضطراب الوثنى المادى الذى تصارعت فيه الفلسفات اليونانية مع الأديان المنزلة ، وانحرفت مفاهيم الأديان وتغيرت ، واضطرب أمر الكتب السماوية ومفاهيمها وشاقت البشرية لحظة العبور إلى مفهوم السماء المتجدد فكانت رسالة الاسلام أتم الله بها الدين وكان القرآن خاتم الكتب السماوية ومحمد خاتم الأنبياء والرسل ، وما زال القرآن منذ نزل من السماء إلى اليوم (وسيظل) النص الموثق الذى لا يأتيه التحريف ، والذى يرسم للإنسانية طريقها إلى الحق . فلن يكون الاسلام عنصراً مرحلياً ، بل ستكون المذاهب والفلسفات هى النظريات المرحلية المتغيرة ، وتبقى للإنسانية القيم الثابتة ، والقوانين الأساسية ممثلة فى القرآن والاسلام .

خامساً : لم يتفق أصحاب مذاهب القوميات الوافدة على مفهوم واحد ، هناك عشرات وكلها وافدة ودخيلة : منها القومية العلمانية ونظرية المشرق والمغرب ونظرية الاقليم اللبنانية مطروحة للعقل العربى ولتطبيقها على العرب جميعاً . ومن العسير تحرير طبيعة الفكر العربى الاسلامى الأصيلة لتقبل مفهوم أو مذهب يحاول إرضاء طائفة من الطوائف ، لأنه الفكر الغالب السمح هو الذى يجمع ولا يفرق ، أن الطوائف قد عرفت منذ التاريخ الطويل كيف امتدت الحماية والحضانة فأخذت حريتها فى مجال العمل والعبادة ، ولم تتحرك عوامل القلق إلا حين حركها النفوذ الأجنبى الاستعمارى

الذى يريد أن يفرق ويمزق ، ويحول دون قيام النهضة على أصولها ، ودون أن يبدو دوره واضحاً ظاهراً ، بل يبقى خفياً ، من وراء من يدفعهم ويثير فى نفوسهم المخاوف التى لم تصح أبداً . وهذه الطوائف تعرف أنها جزء من هذا التشكل العربى الاسلامى وأنه ليس لها فكر ولا تاريخ ولا تراث ولا قيم مستقلة خارجة عن هذا الفكر والتاريخ . يقول عزيز ميرهم : إنما تقدم الغرب على الشرق فى فكرة بناء الوحدة القومية على أساس وحدة الدم والتاريخ والوطن لتعصب الغربيين لأديانهم فتقاتلوا من أجلها دهوراً أما فى الشرق فلتساهل الدين الاسلامى وتسامحه لم يمنع الاسلام الطوائف غير الاسلامية من المعيشة والانتشار إلى جواره وقد وضع الاسلام منذ نشأته قاعدة حرية الدين وأجاز للطوائف غير الاسلامية حق مباشرة شؤونها الداخلية بنفسها وفقاً لأحكام أديانها (الأهرام ١٩٢٢/٣/٨) . ولاشك أن أصحاب المذاهب القومية الواحدة ليسوا على استعداد لقبول أى شىء ذلك أنهم لا يريدون البحث الحر النزيه ، بل هم يدعون إلى الشكل الذى رسمته القوى الأجنبية وتشكل فكرهم هم أساساً على الاعتقاد به وقد اتخذوا أماكنهم القيادية فى العالم العربى بفضل هذه الدعوات وفى ظل ألويتها .

سادساً : خطأ المحاولة التى تطرح العروبة كبديل للاسلام من حيث هو فكر ونظام ومجتمع . ولا ريب أن عروبة الفكر تعنى إسلاميته فليس هناك فلسفة عربية فى الفكر غير مستمدة من القرآن . وأن محاولة خلق فلسفة عربية معاصرة معزولة عن الاسلام هى محاولة لن تحقق كثيراً من النجاح ولا الاستمرار إلا فى الظروف التى تساندها فيها الدعايات ومن يفرضونها أو يحمون وجودها الزائف . إن محاولة خلق وجود عربى ، أو عروبة ، أو فكر عربى على النحو العلمانى المنفصل عن الاسلام أمر بالغ الاستحالة ، وبالغ الابتعاد عن الذاتية العربية والمزاج النفسى الذى عرفته هذه الأمة . وإن هذا الفصل المتعمد بين الفكر وبين الاسلام هو فصل غير طبيعى وأبلغ خطأه أن يراد به الفصل بين العروبة والدين ، فليس الاسلام ديناً فحسب ولكن دين وحضارة ونظام مجتمع .

إن عزل العروبة عن الاسلام أو خلق عروبة غير إسلامية هى إحدى وسائل الدفاع عن وجود إسرائيل فى العالم الاسلامى والبلاد العربية ، ذلك أن العودة إلى ترابط العروبة والاسلام ذلك الترابط العضوى الجذرى هو أول معول فى وجود إسرائيل والنفوذ الأجنبي الاستعمارى والصهيونى معاً .

سابعا : أهم أخطاء النظرية القول بأن الإسلام دين وأن العروبة قومية وأن ماتطبقه أوربا يصلح للتطبيق فى العالم الإسلامى . وهى بعبارة أخرى : محاولة وضع القومية فى مواجهة الدين ، وحتى إن صح هذا فإنه من المستحيل أن توضع العروبة فى مواجهة الاسلام فالعربية لغة لا يمكن أن تذهب إلى المتحف كاللاتينية لأن لها جذورها وارتباطاتها القائمة المتصلة بفكر وثقافة وعبادة ألف مليون مسلم ، والاسلام كدين لا يمكن أن ينضوى فى المسجد لأنه دين متكامل هو دين ونظام مجتمع والقرآن لا يمكن أن يترجم بوصفه القرآن بل باعتبار ما يترجم من معانى القــــرآن ، وهناك الفارق بينه وبين ترجمة الكتاب المقدس فى أوربا أن أكبر الأخطاء فى فهم القوميات وفى فهم العروبة ، هو تجاهل ذلك الفارق الدقيق بين كلمة دين وكلمة عروبة ، فإذا فهمت هذه النقطة بوضوح بدا أن كل ما كتب أو أغلبه كان محمولا على خطأ هذا الفهم غير المقصود أو المتعمد ، ليست هناك فى العالم الاسلامى حركة قومية خالصة وحركة دينية خالصة ولكنها كلها حركات عربية إسلامية ، ليست هناك حضارة عربية أو حضارة إسلامية ولكنها حضارة عربية إسلامية .

ثامنا : من الاستحالة نجاح الدعوة إلى العودة لما قبل الاسلام : الفينيقية والفرعونية وقد انتهت التجربة المصرية إلى الفشل الذريع ، فإن الفرعونية لم تجد الجذور الأصيلة التى اجتثها الاسلام وأقام بدلا منها عالما آخر مختلفا كل الاختلاف . وكذلك فإن ما تحاوله الفينيقية إنما يعيش بقوة دفع خارجية وليست له إصالة حقيقية إلا على اعتبار أن الفينيقية فرع من العروبة قديم وكذلك الفرعونية . ذلك أن الاسلام كان عاملا حاسما فى الفصل العميق بين عالمين : عالم ما قبل الاسلام فى هذه المنطقة وعالم ما بعده . والواقع أن إعادة العرب والمسلمين إلى ما قبل الاسلام معناه فكريا العودة إلى الوثنية الفكرية التى يتعارض معها التوحيد ، تلك الوثنية التى تؤمن بالقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح ، وكذلك إلى الفنون القائمة على أساس التهاويل والأساطير والخرافات التى أفسدت العقل الانسانى وحرر الاسلام منها البشرية تحريراً تاما ، ولا شك أن هذا فكر قد اندثر وباد ولا يمكن أن يعود العقل الاسلامى كرة أخرى إليه . ولا شك أن الأشورية والبابلية والكلدانية والآرامية والفينيقية والفرعونية ، كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية ونزحت عن موطنها الأولى وانداحت فى هذه المنطقة العربية الحنيفة ، وأبناء هذه العروق جميعا هم العرب الذين نزلت فيهم الأديان قبل أن تغلب العنصرية على الحنيفة . تاسعا : خطأ نقل المعادلة بين القومية والدين إلى العروبة والاسلام ، فالاسلام دين ونظام ومجتمع ، والعروبة دعوة تجمع أمة ذات تاريخ ولغة ووجود شكله الاسلام فكريا وقوميا .

والقومية لا تملك منهج حياة ولا نظام مجتمع ، وإنما هي حلقة من حلقات ثلاث هي (الوطنية — الأمة — الفكر) ، الوطن رابطه الأرض والأمة رابطة اللغة والجنس والفكر رابطة البناء الاجتماعي والعقائدي . عاشراً . الشخصية العربية هي شخصية إسلامية لها لون عربي ، ليس هناك شخصية عربية مستقلة أو منفصلة ولن تكون ، لأنها بطبيعتها وتركيبها ووجودها نشأت من وجود الاسلام نفسه الذي أعطى للغة العربية القرآن مصدراً خالداً للتشريع والبيان جميعاً ، وأعطاها وحدة اللسان ووحدة الفكر ، ونقلها من شتات القبلية إلى وحدة الأمة ومن صراع الجاهلية ووثنيتها إلى الوحدانية والإخاء والعدل . حادي عشر : يختلف المجتمع الاسلامي عن المجتمع الغربي : بأنه جامع بين عقيدتين أو دينين : دين أغلبية ودين أقلية ، ولكن الاسلام — الحضاري — غير العقدي واللاهوتي هو للمسلمين معاً ، فالمسيحيين على حد تعبير أحد دعاتهم يرون في الاسلام ثقافة قومية لهم « يجب أن يتشبثوا بها لأنه تتصل بطبيعتهم وتاريخهم ، وكان أحد زعماء السياسة القدامى يقول : أنه مسلم وطناً نصراني ديناً .

ثاني عشر : زيف القول الذي تطرحه الصهيونية العالمية الماسونية من أن عصر الأديان قد انتهى وقد جاء عصر القوميات ، أو عصر اللادينية ، والقوميات في أوربا تركت تاريخاً سيئاً وانطباعاً رديئاً وانتهت منها أوربا ثم صدرتها للعالم الاسلامي ، وإذا كان مرددوا هذا يصدقون على أديان بعينها فإنهم واهمون إذا كانوا يقصدون الاسلام . ذلك أن الاسلام ليس ديناً أرضياً ، وليس ديناً لاهوتياً ، ولكنه حركة اجتماعية شاملة تضم ثقافات وعقائد وقيم المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقد امتص الاسلام الثقافات والفلسفات التي عرضتها المنطقة كلها من قبله وهي ما تسمى بالثقافة الحنيفية . ولا شك أن هذه المحاولة التي تسمى بالقومية العلمانية التي تهدف إلى إقصاء القيم الفكرية والروحية التي جاءت بها الأديان من الحياة الاجتماعية وتحرير الفرد والأمة من رابطة العقائد والأخلاق ، هذه العلمانية هي أساس في النظرية القومية الوافدة ودعوات الأجناس والعروق ، ومن هنا فإنها تتعارض معارضة أساسية مع مفهوم الإسلام الجامع بين العروبة والإسلام تحت لواء « وحدة فكر » . ثالث عشر : إن أمر الجنسيات والقوميات يختلف في العالم الإسلامي عنه في العالم الغربي في أشياء كثيرة أهمها : إن الإسلام حين جاء قطع تلك الأصول القديمة كلها من فرعونية وفينيقية وأشورية وبابلية وصهرها من جديد في « وحدة فكر » . ومن العجب أن أغلب هذه الفروع قد جاءت من الجزيرة العربية أصلا فهي لا تختلف من حيث مبدأها . إن قوة الإسلام في القضاء على هذه الأجناس وإذابتها لا تغلب ، وان إحياءها من جديد لا يعني شيئا أكثر من تشكلها من جديد في دائرة الإسلام نفسه ، فالاسلام رابطة

عميقة الجذور صهرت الفكر الإنسانى كله فى أعماقها واستصفته وشكلته من جديد فى دائرة التوحيد ، ونفت ما سوى ذلك .

وما تزال رابطة وحدة الفكر أكبر من رابطة الأجناس والدماء ، بل إن رابطة الأجناس فى ظل الدعوات الجديدة قد أخذت تنصهر ، فهى فى الفكر الإسلامى منصهرة وما تبقى منها محتفظاً بذاتيته فإنه لا يستطيع أن ينفصل عن المفهوم الواسع لمفاهيم اللغة والتاريخ والثقافة وكلها ذات جـــذور إسلامية عربية . والواقع الملموس أن هناك اتصال وترابط بين العروبة والإسلام لا سبيل إلى تمزيقه ، أنه ترابط جذرى ضخم قد تشكل منذ قرون بعيد على ما يمثل الإسلام من حيث هو عقيدة وما تمثل العروبة من حيث هى أمه والسر فى ذلك أن الإسلام ليس ديناً بمعنى الدين الذى عرفته أوربا حـين وضعت نظرية القوميات ، فهو دين ونظام مجتمع ومنهج حياة ، وهو عقيدة وشريعة وفكر وحضارة . ولقد تأكد فساد نظرية الدم فى البلاد العربية وفساد القومية المستندة على أساس العنصرية حيث تقوم النظرة الإسلامية على حرمان التفاضل بالأجناس والأنساب والطبقات حيث لا فضل لأبيض على أسود ولا عربى على عجمى ، فالإسلام ينكر فوارق الجنس، وفوارق اللون ، وفوارق العقيدة . رابع عشر: إن العلمانية فى محيط العرب والإسلام دعوة لا ضرورة لها ولا نتيجة ترجى منها ، فليس فى هـذا المحيط هيئة تقـــوم مقام الكنيسة وليس علماء المسلمين هم رجال دين ، وليس فى الإسلام حـكومة ثيوقراطية قامت أو تقوم ، والمجتمعات الإسلامية قد مزجت الإسلام بالمجتمع مزجا كامـــلا عقدياً وعضوياً لا سبيل إلى نزعة فقد شكلت الأمة على هذا النحو ولن تستطيع التحرر من ذلك إلا بإعادة خلقها من جديد .

والمسيحيون مسلمون فكراً أو مسيحيون عقيدة ، فالفكر والثقافة والتاريخ العربى إنما كان يمضى كله من خلال قناة واحدة ، لم تنفصل ولم تقع فى خلاف أو صراع أو تعارض أو تضاد إلا حين فرض الاستعمار نفوذه وطرح شبهاته . وكل المخاوف التى تثار لا تنقض الروابط العميقـة بين أبناء الأمـة الواحدة، وهى ليست إلا محاولات النفوذ الغربى لفصم عروة الوحدة بالتخويف : ومن حيث أن الإسلام دين ونظام ومجتمع . فإنه يستحيل على العلمانية أن تنجح ، ذلك أن الإسلام تقدم للانسانية نمطاً عالياً من التشريع والنظم فى مختلف مجالات القانون والتربية والسياسة والاقتصاد .

ثانيا : تحديات التكامل بين العروبة والإسلام

واجه الالتقاء بين العروبة والاسلام تحديات عدة أهمها :

(١) تحدى الطورانية (٢) تحدى الاستعمار (٣) تحـــدى تزييف الفكر الاسلامى بطرح الشبهات والنظريات الوافدة ، ولقد كان الهدف من طرح هذه الشبهات والنظريات إغراق المسلمين والعرب فى دعوات متعددة متضاربة حتى لا تتشكل لهم وحدة فكر جامعة ، ومن ثم كانت دعوات الاقليمية والقومية اللادينية والعالمية تستهدف جميعاً محاصرة اليقظة العربية الإسلامية لتحول دون تشكلها فى حركة كاملة وتعطيلها بدعوات متعددة متضاربة حتى يضيع خطها الأصيل ، ويبدو تافهاً ضئيلا وباهتاً بين هذه الخطوط المتعددة . غير أن الفكر الإسلامى استطاع فى ظل هذه التحديات أن يستكشف جوهره وأن يؤكد وجوده وأن يصحح مفاهيمه ، ويحرر مقوماته من التقليد والجمود ، والوافد والدخيل ملتمساً أصوله الأصيلة وقيمه الأساسية ومنابعه الأولى من القرآن والسنة الصحيحة قبل أن تختلط بالفلسفة أو الاعتزال أو تفاريع الفقه أو التصوف ليتخذ منها قاعدة لانطلاقه مؤمناً بأن وحدة هذا الفكر الجامع لأهل العروبة الحنيفية التى تمتد على الأرض العربية مفتوحة على العالم الإسلامى كله جغرافيا وعلى الفكر الإسلامى تاريخيا . ومن ثم فقد انخفضت حرارة ذلك التيار الذى كان غاليا فى الإيمان بالحضارة الغربية أو الاعجاب بالفكر الغربى ، وحل محله إيمان بالذات والكيان وقد جاء ذلك على أثر ضربات المعاول وانكشاف الزيف التى حملته نظريات وشبهات التغريب التى كانت تعمد إلى تركيز النفوذ الاستعمارى بسلب الذاتية العربية الإسلامية جوهرها الأصيل وتشويه القيم الأساسية .

وعندنا : إن العرب والمسلمون قد خرجوا فعلا من مرحلة التبعية الفكرية ودخلوا ساحة الرشد والذاتية الأصيلة . ولا ريب أن وضع (العروبة) فى مواجهة (الإسلام) هى محاولة استعمارية ، وأن وضع القومية فى مواجهة الدين (فى نطاق الفكر العربى الإسلامى) هو خطأ بالغ فى فهم الإســـلام والعروبة معا . قد لا يتفق الدين والقومية فى الغرب ولكن الإسلام والعروبة لا يختلفان ولا يتعارضان. ومن هنا يمكن القول : إن النظرية المطروحة للقومية هى نظرية عنصرية أصلا ، أما نظرية العروبة الحنيفية ، فإنها تستمد وجودها من إصالة الفهم لواقع العربى وامتداده على أرض الشرق الإسلامى ، متصلا بذلك الكيان الفكرى العميق الجذور الذى شكل مختلف الوحدات والتجمعات التى عرفها

العرب والمسلمون خلال أربعة عشر قرنا . إن الفكر الإسلامي لا يجد تعارضا بين دائرة الوطن ودائرة الأمة ، ولكنه يعارض التحرك من خارج دائرة القيم الأساسية ، على هذا النحو من « التشكل » الزائف وفق نظرية وافدة مما يطرحه تلامذة الثقافات الأجنبية والارساليات التبشيرية . إن بيننا وبين نظريات الغرب محاذير عدة أهمها : أولا : إن الغرب له وجهة نظر فى أمور بما تتفق مع نفوذه فهو لا ينظر إلى القضايا العربية الإسلامية نظرة تجريدية أو علمية خالصة . ثانيا : إن فكر الغرب يقوم على إنشطار فى المعرفة بين العلم والدين والقلب والعقل . ثالثا : إن الغرب يبنى كل منطلقاته الفكرية على أساسين (١) العلمانية التى ترفض الأديان (٢) العنصرية التى لا تعترف بالوجود إلا للجنس الأبيض ولا ترى لغير أوربا دوراً فى الحضارة . رابعا : إن أى حركة فكرية عربية (سياسية أو إجتماعية أو فكرية) لا بد أن تبدأ من المنابع ، هذا فضلا عن أن هناك من النصوص التاريخية الموثوق بها ما يؤكد أن دعوة القوميات الغربية إنما صدرت عن جائحة الأجناس والدماء والأعراق التى شنتها اليهودية على العالم كله من أجل القضاء على وحدة الكنيسة فى أوربا ووحدة الجامعة الإسلامية المرتبطة بالدولة العثمانية فى العالم الإسلامى لاثارة الصراع بين الأمم جميعا ، وتركيز وجود زائف للجنس اليهودى فى فلسطين . ولقد أكد كثير من علماء الغرب هذا المعنى حتى قال واحد من أساطين الفكرة القومية هو (جاك فينو) « إن نظرية الاجناس ستشغل مكانا هاما فى تاريخ أضاليل الفكر البشرى » .

ولا شك أن تأريث دعوة العنصرية الغربية الجائحة والاستعلاء باللون والحضارة والتفوق المادى كان مقدمة لما وقع فى أوربا وترك أثره بارزا فى العالم الاسلامى . ولا شك أن طرح مفاهيم العنصرية الغربية فى مجال العالم الاسلامى هو الذى فتح باب التنازع بين العناصر التى جمعتها وحدة فكر (عربية إسلامية) الأكراد والعرب والسنة والشيعة والمسلمين والمسيحيين والبربر والمغاربة . ومن هنا فقد كان على المثقفين العرب والمسلمين أن يتيقظوا إزاء ما تطرحه الدوائر الاستعمارية ومعاهد الارساليات فهو ليس صحيحا فى جملته ، وهو مصبوغ بصبغة معينة يراد بها الفصل بين الوحدة الفكرية للعرب والمسلمين ، فعلى الذين خدعتهم هذه الفلسفات والآراء طويلا أن يتحرروا منها وأن يعرفوا أن العدو لا يقول الحق ولا يريد الخير ، وأن أهل المنطقة كانوا من قبله يشكلون وحدة أخوة ومحبة وسيكونون كذلك رغم كل دسائسه ومكره وخداعه لبعض من يستمعون له أو يصدقونه ، ولقد كان الفكر الاسلامى العربى على مدى العصور سمحا كريما داعيا الى حرية الرأى والعقيدة وسلامة الصدر واليد .

ولكن واهمين فى النظرة حين نرى أن بنية الفكر العربى الاسلامى وطبيعة المجتمع العربى الاسلامى ترفض كل فكرة وافدة زائفة ، إن كثيراً من الثقافات تستطيع أن تتقبل الفكر الوافد وتتشكل فيه ولكن الفكر العربى الاسلامى بمراقته وإصالته وذاتيته الواضحة يستحيل عليه التشكل أو الاحتواء أو الذوبان . وقد يبدو — وقتا ما — فى ظل ظروف قاهرة أو سلطة قاسرة ، أنه قبل النظرية الغربية المطروحة أو كاد ، سواء فى مجال الاقليمية أو القومية أو الديمقراطية أو غيرها ، ولكنه لا يلبث أن يستجيش من أعماقه ويستكشف ذاتيته ويطرح عنها المفروض والوافد ويستنه فى ما يتفق مع طابعه فيمتصه ويحيله إلى كيانه دون أن يفقد طابعه الأساسى . وفى ضوء هذا يبدو عسيراً ما يدعو إليه بعض الكتاب من تحرير مفهوم « العروبة » من أى التباس مع المفهوم الاسلامى وهم يعرفون استحالة ذلك وعجز أقدر الأساتذة القومية عنه وفشل أى نظرية مهما بلغت براعة صاحبها ، عن تحقيق هذا الفصل ، وأن ذلك فى ذاته مخالف أساسا لناموس الكون وسنن الاجتماع والتاريخ ، ذلك أن الارتباط العميق الجذرى القائم بالقرآن وقيمه ومفاهيمه ، هذا الارتباط لا سبيل إلى فصمه أو إزالته .

خاتـــمة

لقد آن للفكر الإسلامى أن يصدر عن نظرة أصيلة فى ترابط العروبة الإسلامية يستمدها من فهم عميق وأصيل للجذور الحقيقية والقيم الأساسية لمفاهيم العقيدة والتاريخ واللغة وفهم أصيل لعلاقات الوطن والأمة والفكر . وأن يجرى هذا الأمر بعد أن هدأت تلك الضجة الشديدة التى أثارها دعاة الإقليمية ودعاة القومية الغربية الوافدة وأصحاب المفاهيم التى تستهدف تدمير ما بين الأمم الإسلامية وبين العرب العرب من ناحية وبين الإسلام والمسلمين والعرب من روابط فكرية ونفسية وإجتماعية لها تراثها العميق الممتد عبر إربعة عشر قرناً والذى شكلها أساساً منـــذ ظهرت دعوة الإسلام فى قلب الجزيرة العربية وامتدت منها إلى الآفاق — شكلها على مفهوم جامع ، وقد كان لابد من القيام بمراجعة كاملة للنظرية الغربية الوافدة فى القوميات والاقليميات ومعرفة مدى نفاقها واختلافها مع واقعنا . وكيف يمكن أن تلتقى مع كياننا هذه الذى شكله القرآن منذ نزل بالحق ، وقامت على أساسه أصول نفسية واجتماعية تمثل الذاتية والمزاج والروح العربية الإسلامية التى تختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً وجذرياً عن مثيلها فى الفكر الغربى .

قوام هذه النظرة إن (وحدة الفكر والقيم والعقائد) هى أساس الحنيفية ذات الجذور العميقة التى

تشكلت منذ تأهلت هـذه الأرض لرسالات السماء ومضت تصحح نفسها مرحلة بعد مرحلة ، وقد انطلقت من قلب الجزيرة العربية تلك الموجات التى انداحت من العراق حتى إفريقيا فكانت بمثابة التوسيد العميق لرسالة الإسلام حين جاءت لتلتقى مع أمة عربية تحمل لواءها إلى العالمين فهى عروبة حنيفيه منذ انطلاقها تحمل جذور التوحيد والعدل والرحمة ، فلما جاء الإسلام صقلها ونقاها وبرأها مما ألم بها على مدى العصور من وثنية أو شرك أو انحراف ، وأعادها حنيفية إسـلامية وهى عروبة مفتوحة ثقافياً على التاريخ والتراث ومفتوحة جغرافياً على العالم الإسلامى والأمة الإسلامية ، وهى فى أعماقها ثلاث حلقات متداخلة لاتنفصم هى: الوطن والأمه والفكر كل منها يسلم إلى الوحدة والتكامل وهذا هو الفارق العميق بين مفهوم العروبة ومفهوم القومية الوافدة ، فضلا عن الخلاف بين الدين بمفهوم الغرب لاهوتاً خالصاً بين الدين بمفهوم الاسلام نظاماً جامعا بين منهج حياة وعقيدة . ولاريب أن التغريب كان خفيا بأن يفصل بين العروبة والاسلام ، وأن يطرح البديل الغربى ، وقد بدأت هذه النظريات فى معاهد الارساليات ومحافل الماسونية وركزت الأضواء على الذين حملوا هذه الدعوات ليصبحوا أعلاما ومنارات تغرى الشباب الغض الذى لم يكن قادراً على أن يفهم حقيقة فكره الإسلامى وصلته بالعروبة ، وكان الهدف هو الحيلوله دون وضع (حركة اليقظة الإسلامية) على طريقها الصحيح والعمل دون وصول العرب حمله الرسالة الإسلامية إلى مكانهم الحق .

وقد تبين أن فكرة العروبة جاءت فى مواجهة التحدى بفكرة الطورانية ، ولكنها كانت عروبة ذات مضمون اسلامى ، وكانت استجابه المقاومة ضد الإستعمار بعد سقوط الدولة العثمانية فى محاولة لاقامة تجمع أصغر فى دائرة الأمة بديلا عن الوحدة السياسية التى سقطت : هـذه العروبة لم تسكن فى صدور الداعين لها أولا استجابة لمفهوم القوميات الغربية الوافد وإنما كانت منطلقاً إلى الوحدة الاسلامية مرة أخرى عندما تزول غمة الاحتلال والسيطرة الأجنبية ، وكانت تطوراً طبيعيا فرضته الأحداث حين إضطرت حركة اليقظة إلى التحرك تحت ظروف الاسلام فى دائرة الوطن أو الأمة كمقدمة لبلوغها مرحلة الوحدة الكبرى ، غير أن النفوذ الاستعمارى لم يدع الطريق خالصا ، وإنما دفع إليه دعوات ومفاهيم ونظريات معوقة فى محاولة إخراجه عن واقعه وأساسه أو بلبلته وإفساده فقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلا لكلمة العروبة عملا على خلق الصراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكمل وجودها أو تحقق إرتباطها الطبيعى ، ولقد كانت هذه المناهج الغربية التى طرحت نظرية القومية العربية الوافدة إنما تحاول أن تجهض هذه الدعوة أو تقضى عليها ، فقد رأى أن الدعوة إلى العروبة قد بدأت تتشكل فى أصالة لتأخذ مكان الفكرة الاسلامية فسرعان ماعزاها

بمفاهيم غربية عنها حاول بها إبعادها عن الإسلام فكراً وفصلها عن العالم الاسلامي جغرافيا . غير أن السنوات الطويلة التي انقضت في المراجعة والمواجهة كشفت عن حقيقة واقعة : هي أن طبائع الأشياء وأصولها الإصيلة لابد أن تحل محل الزيف الذي يبدو حين يطرح وله بريق ساطع . ثم يتكشف جوهره عن غثاء كغثاء السيل فإذا به معارض للذاتيه الأصيلة والمزاج النفسي الأمم فلا تلبث الأمة الاسلامية أن تلفظ ذلك كله وترفضه وتعود إلى جوهرها الأصيل بالرغم من القيود التي تحاول أن تحجزها في أوضاع محددة .

(٢)

كانت النظريات الاقليمية والقومية الغربية قد صاغتها أحقاد الصهيونية والاستعمار وهي تحس بقوه الترابط بين العروبة والاسلام ، وأن غفلت بطابع زائف من العلم أو بريق من الصناعة . وكان أكذب المقايسات مقايسة الاسلام على الأديان الأخرى دون النظر إلى طبيعة الاسلام المختلفة عن طبيعة الدين بمعنى العبادة ودون التفرقة بين كلمة دين وكلمة إسلام وبين كلمة قومية وكلمة عروبة : ودون بيان الفارق بين صلة القومية بالدين في الغرب وبين صلة الاسلام بالعروبة في عالم الاسلام ، وكان الخطأ الكبير هو افتراض أن النظريات الأوربية في القومية أو في غيرها صالحة للتطبيق أو صالحة لمقايسة واقع العرب والمسلمين . ومن السذاجة أن يظن البعض أن يتخذ العرب من مبدأ القوميات دينا يضمون له قداسة الاسلام ، والذين قالوا بذلك أو دعوا إليه كانوا جد غافلين من مفهوم لاسلام وجوهر فكره ولكنهم اعتمدوا على أن الارساليات والمدارس الوطنية قد علمت الدين للعرب على أنه عبادة وليس على مفهومه الحقيقي منهج حياة كامل . والواقع أنه لن تصبح القوميه ديانة للعرب والمسلمين أبداً ولن يكون لها قداسه العقيدة ، فإن العرب والمسلمين انما يشكلون أنفسهم في ضوء التحديات وظروف الأزمات من خلال فكر واسع عميق قادر على العطاء في كل الأحوال ، مفتوح على التلقي ، قادر على الأخذ والرد ، لاينصهر ولا يذوب ولا يحتوى . ولذلك فقد سقطت محاولات بث القومية على أنها عقيدة روحية تستطيع أن تخلف الاسلام أو تحل محله . وتكشف بعد قليل أن القومية بمفومها الغربي محاولة لصدام العروبة بمحتواها الأصيل ذلك أن فكرة العروبه بمفهوم الحق إنما تقوم في نطاق أخلاق معترفة بمكانها من الاسلام مفتوحة على الفرس والترك والأمم الاسلامية جميعاً متكاملة بها . وماتزال الثقافات العربية والفارسية والتركية تصدر إطار الاسلام ولا تستطيع الاقليات أو القوميات الوافدة أن تبلغ منها مبلغ التعصب الذي عرفته القوميات الغربية

ولن تستطيع العروبة أن تخرج عن مفهوم الإسلام مهما أوقد لها التغريب النار — فى الإستعلاء بالماضى الوثنى أو الإنغلاق عن الأمة الإسلامية .

أن أقوى أهداف النفوذ الأجنبى (كانت ومازال) وضع للمسلمين والعرب فى قوالب الفكر الغربى وإخراجهم من مناهج فكرهم ومفاهيمهم الأصيلة ، وقد إستطاع التغريب ذلك عن طريق فرض سيطرته على التعليم والثقافة والصحافة بواسطة معاهد الإرساليات وغيرها التى خرجت مجاميع من القادة والكبراء ولكن هذه المحاولة قد انكشفت اليوم تماماً وتبين مدى أثارها على الأخطار والتحديات التى واجهت المسلمين والعرب فى ربع قرن الأخير . كذلك فقد فشلت (العلمانية) ولم تستطع أن تحقق شيئاً كما فشلت الديمقراطية الليبرالية ومن بعدها الماركسية ، ذلك لأنها فرضت دون تقبل حقيقى فى ظل ظروف وتحديات ولم تكن منبثقة أصلا من داخل الكيان العربى الإسلامى ، ووقفت العلمانية والمادية والليبرالية والماركسية فى وجه المفهوم العقائدى الإسلامى الكامل الجامع وثبت أن يقظة العرب والمسلمين لا تتم أبداً من خلال الثقافات الوافدة أو النظريات الأجنبيه . كما تبين مدى ترابط الفكر الاسلامى فى قيمه ومفاهيمه إلى الحد الذى لا يمكن الفصل فيه بين اللغة والتاريخ والعقيدة والتراث . إن الذين طرحوا نظرية القومية الاقليمية والعلمانية (ساطع الحصرى ، ميشيل عفلق ، أنطون سعادة ، فيليب حتى) لم يكونوا من نتاج هذا الفكر الاسلامى الأصيل ولذلك جاءت نظرياتهم معارضة لمفهوم التلقائى الذاتى الأصيل المنبعث من الفطرة الصافية وكانت دعواتهم تستهدف تمزيق وحدة هذه الأمة الاسلاميه تحت نظريات اللغة والأرض والمشيئة والعلمانية . وتبين بوضوح أن الهدف هو إبقاء المسلمين والعرب فى انفصال وصراع فى داخلهم ، فضلا عن ذلك الجسم الغريب المغروس فى قلب الوطن العربى وليكون ذلك كله حائلا عن الانتقال من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة والتجمع والتشكل الحقيقى المستمد من القيم الأساسية .

وقد جاءت الحقيقة واضحة بعد تلك المعركة الواسعة الضخمة مع مفهوم القوميات والاقليميات الوافدة لتقول أن الفكر الاسلامى لايقر صراع الأديان أو الأجناس وأنه من الخطأ وضع الاسلام فى مواجهة القومية أو القومية فى مواجهة الاسلام ، وأن حركة العروبة هى موجة من موجات اليقظة العربية الاسلامية فهى وليدتها ومتصلة بها وممتدة لتحقيق هدف الوحدة الكبرى . وتبين أن العروبة هى بالاسلام وأن الاسلام هو الذى أعطى العرب وجودهم وكيانهم وأن مذاهب العلمانية أو القومية لن تستطيع إخراج الفكر الاسلامى عن ترابط العروبة والاسلام ، أو الروحى والمادى ، أو التكامل الجامع وستسقط النظريات الوافدة فى القومية والاقليمية والعلمانية والمادية والماركسية .

وأن نظرية القومية الغربية هى دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات بين جامعة المسلمين وقد عجز مبدأ القوميات فى أوربا أن يحقق لها شيئاً إلا التمزق والتضارب والصراع . لقد كان هدف الاستعمار والتغريب والغزو الأجنبي تفريق الأمة الاسلامية إلى كيانات ، ولذلك فقد أبعد التربية الاسلامية عن برامج الدراسة والتعليم لهدم الأجيال الناشئة وأبعد القيم الاسلامية عن الحياة الاجتماعية وأهمها الايمان والأخلاق وأبعد الشريعة الاسلامية وفرض قانوناً أجنبياً وافداً وأبعد فكرة وحدة الفكر الجامعة وأبدلها بالاقليميات والقوميات المتصارعة . وحاول التشكيك فى مقدرة اللغة العربية على ترجمـــة العلوم وسيطرة العاميات واللغات الأجنبية عليها ، كما عزلها عن التاريخ الاسلامى ببطولاته ومواقفه وحصرها فى التاريخ الاقليمى ، كما حاول عزل الأدب العربى الحديث عن الأدب الاسلامى وفرض مناهج التفكير الغربى وهذه كلها محاولة واحدة للقضاء على وحدة الاسلام : وتمزيق جبهته ، ولكن المسلمين والعرب قد تنبهوا إلى هذه المحاذير وهذه التحديات وواجها كتابهم ومفكروهم وكشفوا عن أخطارها وأخطائها والتمسوا طريق الأصالة والمنابع الأولى وكانت قضية التفرقة بين العروبة والاسلام من أخر هذه القضايا والتحديات وكان لابد أن تقال فيها كلمة واضحة صريحة . تكشف الزيوف المتراكة والأخطار القائمة .

الوثائق

عندما بدأت حركة الاستعمار الحديث عملت الدول الكبرى على رسم مخطط كامل للاستعمار ظلت تنميه وتطوره حتى تكامل فى صورة خطة عامة ، وقد ظلت وثائق هذا المخطط سرية ممنوعة من التداول حتى لا تقع فى أيدى المفكرين ودعاة حركة اليقظة العربية الاسلامية مما يؤدى إلى كشف الخطة أو إفسادها قبل إكمالها ، وتنفيذها . غير أن صراع الدول الكبرى وتعارض مطامعها ، وظهور حركة الغزو الصهيونية الماسونية كمخطط مستقل مختلف عن مخططات الاستعمار قد كشف كثيراً من الدوافع والأغراض والخلفيات المستورة ، وألقى هذه الوثائق بين أيدى الساسة والمفكرين فى العالم الاسلامى ، ومنها وثائق ظلت محجوبة عن العالم الاسلامى أكثر من خمسين عاماً ، ووثائق أخرى كشفتها مطامع الصهيونية المتضاربة مع مطامع الاستعمار نفسه ، وقد تكشف أغلب الوثائق بعد قيام إسرائيل فى قلب الوطن العربى عام ١٩٤٨ . وقد تبدو هذه الوثائق وهى مفرقة غير ذات قيمة كبيرة ولكنها حين تتجمع وتترابط تستطيع أن تشكل صورة واضحة لمخطط كامل خطير لغزو العالم الاسلامى وتمزيقه وتغريب الفكر الاسلامى وتدميره كمقدمة لفرض النفوذ الأجنبي الاستعمارى عليه .

ولا شك أن منطلق هذه المخططات وأبرز معالم هذه الوثائق يبدأ بتفكيك الروابط بين العروبة والإسلام وبين الدولة العثمانية والعرب ويعمل أساسا على فصم الوحدة الجذرية والترابط العضوى بين العرب والمسلمين وهو ما تم تنفيذه فعلا ، بتدمير الدولة العثمانية من الداخل وفرض الدونمة الاتحاديين عليها ثم تمزيق الدولة وإسقاط الخلافة ثم مضت حلقات العمل خطوة بعد خطوة .

وثيقة رقم ١ بروتوكولات صهيون

نشرها سرجيوس نيلوس بالروسية ١٩٠٢ وأعيد نشرها عام ١٩٠٥ وترجمت إلى الألمانية ١٩١٩ ونشرتها جريدة التيمس باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠ ثم نشرتها جريدة للورننج بوست ، وكانت قد أودعت المتحف البريطانى منذ عام ١٩٠٦ .

أما فى العالم الإسلامى والبلاد العربية فإن أول ما أشير إليها هو ما نشرته مجلة الرسالة عام ١٩٤٩ وما كانت تترجمه روز اليوسف ١٩٥١ ثم جاءت كتابات نقولا حداد فى الرسالة ١٩٥١ وكان « محمد خليفة التونسى » أول من ترجمها فى مجلة الرسالة سنة ١٩٥١ ، وقد ظلت هذه البروتوكولات سرية منذ أن عرضت فى مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ حتى افتضح أمرها فى أواخر القرن التاسع عشر وقال سرجيوس بيلوس عندما طبعها عام ١٩٠٥ أنه تسلمها عام ١٩٠١ مترجمة إلى الروسية من أصل فرنسى . ثم وردت نسخة من طبعة سرجيوس نيلوس إلى المتحف البريطانى عام ١٩٠٦ ثم عثر عليها (فكتور مادسون) مراسل للورننج بوست فى موسكو أثناء الإنقلاب الروسى وطبعتها جمعية الطباعة البريطانية ، ونشرت جريدة نيويورك ورلد سنة ١٩٢١ تعليقاً على هذه الطبعة ، وقال هنرى فورد معلقاً عليها : إنها تصدق على ما هو حادث الآن فى العالم ، لقد مر على نشرها نحو ستة عشر عاماً وهى تصدق على حالة العالم فى هذه الفترة ، وفى ١٤ يوليو ١٩٢٢ نشرت جريدة جويش كرونيكل اليهودية بعض مذكرات تيودور هرتزل وفيها خلاصة حديث مع الكولونيل جولد سميث ، وقد لمح هذا اليهودى المتنصر لهرتزل بما يستفاد منه أن ثلاثمائة شيخ من شيوخ إسرائيل معروف بعضهم لبعض يقررون مصير القارة الأوربية وهم ينتخبون خلفاءهم . وقد أشار محمد خليفة التونسى فى أول ترجمة له للبروتوكولات إلى اللغة العربية إلى أن هذه البروتوكولات هى من أسرار اليهود التى يحرصون على إخفائها أشد الحرص ثم افتضح أمرها منذ نصف قرن تقريباً إذ وصل خبرها إلى أحد وجوه الروس فى عهد القيصرية وهو سرجى نيلوس وهى مكتوبة بالروسية فقام بطبعها عام ١٩٠٥ وكتب لها مقدمة وتعقيباً كانت قد وصلت إليه عام ١٩٠١ وأنها ترجمة صحيحة لأوراق مخطوطة

سرقتها سيدة من أحد رؤوس الماسونية الأحرار فى نهاية اجتماع ماسونى عقد فى باريس وتحوى بروتوكولات صهيون مخططاً كاملا للخطة التى تدبرها الصهيونية العالمية للسيطرة على العالم فى خلال مائة سنة وتكشف على الوسائل التى تتخذها عن طريق الصحافة والمسرح والنظريات الفلسفية لتدمير العالم قبل السيطرة عليه.

وثيقة رقم ٢ تقرير كامبل بنرمان (١٩٠٧)

وجه كامبل بنرمان رئيس وزراء بريطانيا إلى لجنة من علماء التاريخ والقانون والسياسة خطابا قال فيه : « إن الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تخل رويداً رويداً وتزول . والتاريخ ملىء بمثل هذه الأمثلة وهى لا تتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وأشور والفراعنة وغيرها . فهل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربى وانهياره أو تأخره أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن الذروة . وبعد أن أصبحت أوربا قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت معالمها بينما العالم الآخر لا يزال فى شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية » .

(تقرير الخبراء)

وقد كتب العلماء المتخصصون تقريراً خاصا إلى وزارة الخارجية البريطانية جاء فيه : والخطر ضد الاستعمار فى آسيا وأفريقيا ضئيل ولكن الخطر الضخم يكمن فى البحر المتوسط وهذا البحر همزة الوصل بين الغرب والشرق وحوضه مهد الأديان والحضارات ، ويعيش فى شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان ، وكل مقومات التجمع والترابط . هذا فضلا عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية . فاذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوربية وانتشر التعليم بها وارتفعت الثقافة . اذا حدث ما سلف فتحل الضربة القاضية حتما بالاستعمار الغربى ، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالى : (أولا) على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة وتأخرها وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجهل . (ثانيا) ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقى فى هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى ، وتقترح اللجنة لذلك اقامة حاجز بشرى قوى وغريب يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا وأفريقيا . وبحيث يشكل فى هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة .

وثيقة رقم ٣ : خطاب ليبنتز إلى لويس الرابع فى ١٥ مارس ١٦٧٢

أريد أن أتحدث إليكم يا مولاى فى مشروع غزو مصر ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة منه على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، وهى تستطيع أن تلعب هذا الدور لسهولة استيعابها لعدد كبير من السكان وبسبب أرضها المنعدمة المثال . ولقد كانت فى ماضى الأيام مهداً للعلوم ومحرابا لنعمة الله ولكنها اليوم معقل للديانة المحمدية التى تغدر بنا ولأى داع تخسر المسيحية تلك الأرض المقدسة التى تصل آسيا بأفريقيا والتى جعلت فيها الطبيعة حاجزاً بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومدخلا لبلاد الشرق بأجمعها ومستودعا لكنوز أوربا والهند . وإذ كانت القسطنطينية قلعة لجيوش الامبراطورية العثمانية إلا أن الهجوم المباغت لن يترك لها فرصة النجدة لبعد الشقة بينها وبين أوربا ، ومصر تكتنفها صحراوات فسيحة فلا يمكن إغاثتها بالجيوش ولذلك فإنكم حينما تغزون مصر ستقضون على الامبراطورية التركية القضاء المبرم .

وثيقة رقم ٤ : بروتوكول معاهدة لوزان المعقود بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣
(المعروفة بشروط كرزن الأربعة)

أولا : قطع كل صلة بالإسلام. ثانياً : إلغاء الخلافة . ثالثاً : إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد . رابعاً : اتخاذ دستور مدنى بدلا من تركيا القديم المؤسس على الإسلام .

وثيقة رقم ٥ : خطاب السلطان عبد الحميد فى الرد على هرتزل

« بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة فى هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فإنى لست مستعداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير ، فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبي ، روى ترابها بدمائه أما ديون الدولة فليست عاراً لأن غيرها من الدول هى الأخرى مدينة مثل فرنسا فليحتفظ اليهود بأموالهم ، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمى وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام » .

وثيقة رقم ٦ : خطاب من باخ ليفى الصهيونى إلى كارل ماركس
(مجلة باريس : أول يوليه ١٨٢٨)

« يقتضى التنظيم الجديد للانسانية أن ينتشر أبناء إسرائيل على سطح الأرض ويتسلموا فى كل مكان زمام الأمور خصوصا إذا نجحوا فى فرض إشراف شديد على الطبقة العاملة وتأتى الحكومات

الإسرائيلية حينئذ للملكية الفردية وتفرض رقابتها فى كل مكان على الأموال العامة » .

وثيقة رقم ٧ : رأى كرومر فى الإسلام والجامعة الإسلامية
من تقاويره أعوام : ١٩٠٣ — ١٩٠٥ — ١٩٠٦

فى مصر اليوم جيل جديد يختلف عن أجداده فى أمور كثيرة فيمكن أن تحـدثه نفسه يوما بأن يمد إلى تلك الأركان القديمة يدا لا تعرف حرمة القديم فيكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبقا لأرشاد قوم لا شأن لهم فى الأمر (يعنى الأنجليز) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامى فإذ كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجدر بأبناء اليوم أن يشرعوا فى الاصلاح ويلافوا الأمر قبـل حلوله . إن الساعين لأرجاع مجد الإسلام يحاولون أن يحيوا فى القرن العشرين المبـادىء التى تكونت قبل أكثر من ألف سنة لقيادة أمه بدوية فى حالة الفطرة ، أن من تلك المبادىء ما يخالف الفكر العصرى ويناقضه مثل اباحة الاسترقاق وما جاء عن العلاقات بين الجنسين . إنى لا أصدق أن المسلمين يتحدون معا ويتعاونون متى خرجت مسألة الجامعة الإسلامية من القول إلى الفعل ، وثانياً لأنى أثق بقوة أوربا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافى هذه الحركة من الجهة المادية .

وثيقة رقم ٨ : النشرة اليهودية عام ١٨٦١

« « إن روح الماسونية الأوربية هى روح اليهودية فى معتقداتها الاساسية لها نفس المثل التى تنـير طريق إسرائيل وتدعمه ومكان تتويجها هو سبب العبـادة البديعة ، حيث تـكون القـدس رمزا وقلباً ومنتصرا » .

وثيقة رقم ٩ : (كتاب تاريخ الترك والمغول فى آسيا منذ بدأ نشأتها إلى عام ١٤٠٥)
Inrodaction a L,histaire de L,Asia 'Turcset Mongals de Origines ei 1405

الكتاب ظهر عام ١٨٩٦ من تأليف لتونى كاهون (اليهودى) .

وفى عام ١٩١٦ أعلن المجلس العلمى الفرنسى اهتمامه بهذا الكتاب ونوه به ولفت النظر إليـه فى تركيز بالغ ، وكان ذلك الحدث مقترناً بالحركة الطورانية فى الدولة العثمانية .

وكانت الفكرة الطورانية قد أنشأها لأول مرة : المستشرق المجـرى اليهودى (فامـبرى) بين (١٨٦٨ — ١٨٧٤) وقد تبناها الانجليز فعملوا على تكوين كتلة عنصـرية من الأتراك العثمانيين

وأتراك الشرق ليحطموا النفوذ الروسى المتزايد فى آسيا الوسطى ثم غير الانجليز سياستهم وأيدوا سيطرة الروس على الترك آسيا .

وهكذا كانت فكرة الجامعة الطورانية وافدة من الخارج وهى نفس الفكرة التى حمل لواءها أناس ليسوا من الترك وعلى رأسهم (ضيا كوك الب) فالفكرة أجنبية المنشأ والذين حملوا لواءها ليسوا أتراكا ، وكانت تهدف أساساً إلى تعميق الخط العنصرى الإقليمى مستقلا عن الاسلام ،وهى القاعدة القديمة التى وضعها (فمبرى) المستشرق المجرى اليهودى بدعوى أنه لا وطن فى الاسلام .

وثيقة رقم ١٠ : (الماسونية والاتحاد والترقى)

فى احتفال عقد فى القاهرة خلال شهر يناير ١٩١٠ نقلته (مجلة المقتطف) فى عدد فبراير ١٩١٠ تحدث برتو بك بالتركية : وهو أحد أعمدة جمعية الأتحاد والترقى بعد اسقاط السلطان عبد الحميد :

قال برتو بك : نحن العثمانيون مدينون للماسونية بأكبر دين ، لأنها هى التى بثت فى نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقى روح الحرية ، وبها اقتدوا فى إنشاء جمعيتهم التى فكت قيود استبدادهم . كما أثنى على الحكومة الانجليز. والأمة الانجليزية لأنهما ساعدتا العثمانيين فى هذا الانقلاب المبارك الذى قوض أساس الاستبداد ووحد أركان الحرية فى الممالك العثمانية . وقال : أن الماسونية هى المحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقى .

وثيقة رقم ١١ : (التبشير فى العالم الإسلامى)

ألقى الدكتور صموئيل زويمر كبير المبشرين فى العالم الإسلامى خطاباً فى مؤتمر لكنو التبشيرى عام ١٩١١ فأشار إلى الانقلابات السياسية التى حدثت أخيراً فى العالم الإسلامى فشكر الله على حدوث هذه الانقلابات فى غرب آسيا وقال أنها كانت : « موجبة للاعجاب والاستغراب وقد بددت معالم التجسس (يقصد سقوط السلطان عبد الحميد) وإنها أقامت الحرية على أنقاض الاستبداد ، وصار التجول فى البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجيناً فى سلانيك وقال إن عدد المسلمين الذين تحت سلطنة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب انقلابات قريبة الحصول وبذلك تزداد مسئولية الملوك النصارى فى مهمة تنصير العالم الإسلامى .

النص فى كتاب الغارة على العالم الإسلامى اسمه بالفرنسية :

Lo Conquete dn'Monde Mosalman .

وثيقة رقم ١٢ : مدارس الإرساليات

قرار مؤتمر ونبرج للتبشير سنة ١٩١٠

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة تركيا على أن معاهد التعليم الثانوى التى أسسها الأوربيون فى البلاد الإسلامية كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها .

(شاتليه) : الغارة على العالم الإسلامى

وثيقة رقم ١٣ : الحروب الصليبية

من كتاب الأحوال الشخصية فى الجمهورية اللبنانية (بطرس حبيقة) . ترجع صلات الموارنة بالفرنسيين إلى الحروب الصليبية وكان لهم فيها الهداة والقادة المخلصون فى إجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التى كانوا يتنقلون لفتحها من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم .

وثيقة رقم ١٤ : خطاب من لويس ملك فرنسا إلى أمير موارنة لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة

« إن قلبنا امتلأ فرحاً حينما أقبل علينا ولدكم سمعان فهو الشهادة الحسية على عواطفكم الطيبه . نحونا موقنون أن هذه الملة التى تنتسب إلى القديس مارون هى جزء من الأمة الفرنسية » .

وثيقة رقم ١٥ : قرار المؤتمر الاستعمارى فى برلين ١٩١٠

إن ارتقاء الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم لذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة . والمؤتمر الاستعمارى يشير على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير .

وثيقة رقم ١٦ : جريدة ألمانيا ــ ٢٥ ديسمبر ١٩٠٩

كتب المليونير اليهودى : والتر راتنو يقول :

هناك ثلاثمائة رجل كل منهم يعرف زملائه الآخرين يتحكمون فى مصير أوربا ، إنهم ينتخبون خلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم . وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التى تمكنهم من القضاء على أية حكومة لا يرضون عنها .

وثيقة رقم ١٧ : الماسونية

قال جرجى زيدان فى كتابه : تاريخ الماسونية العام : كانت الماسونية مصدراً لكثير من التعاليم التى أصبحت من أقوى دعائم التمدن الغربى القديم والحديث .

وثيقة رقم ١٨ : فولتير والماسونية

يقول جرجى زيدان فى كتابه تاريخ الماسونية العام : فى ١٧٧٨ انضم الفيلسوف الشهير فولتير إلى الماسونية وكانت امتحاناته مقصورة على بعض مسائل أدبية مع أغفال الامتحانات الأخرى ثم نقل إلى الشرق الأعظم وكان من أهم أعضائه .

وثيقة رقم ١٩ : مائة مشروع لتقسيم تركيا

Cent piroJets departege de La Turqul,e تأليف الوزير الرومانى : دجوفارا

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٠ وضم وصفاً لمائة مشروع حاولت أوربا إنفاذهـا من أجل تمزيق الدولة العثمانية فى الفترة التى تلت ظهور هذه الدولة وتوسعها فى أوربا عام ١٣٥٦ بعبورها مضيق الدردنيل والاستيلاء على أدرنة ١٣٦٠ وهذه المشروعات تدعو إلى مقاتلة المسلمين والأتراك بالسيف والتجارة وتدعو إلى التجمع والتخطيط للغزو من البحر الأبيض أو من الحبشة أو من غيرها وتركز كلها على استعادة بيت المقدس .

وثيقة رقم ٢٠ : خطاب بلفور رئيس البعثة البريطانية فى ١٨ أيار ١٩١٧ إلى وزير الدولة الأمريكى

لا شك أن القضاء على الأمبراطورية العثمانية قضاءاً تاماً هو من أهدافنا التى نريد تحقيقها ، وقد يظل الشعب التركى ـ ونأمل أن يظل ـ مستقلا أو شبه مستقل فى آسيا الصغرى ، فإذا نجحنا فلا شك أن تركيا ستفقد كل الأجزاء التى يطلق عليها عادة اسم البلاد العربية وستفقد كذلك أهم المناطق فى وادى الفرات ودجلة كما أنها ستفقد استانبول » .

وثيقة رقم ٢١ : مذكرة وزارة الخارجية الفرنسية (أول سبتمبر ١٩١٦)

« إن إعلان الثورة العربية فى الحجاز هو فى مصلحة الحلفاء من عدة وجوه ، فأما من الوجهة السياسية فإن اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمينية الصغرى وتحرير هذه الشعوب من النير التركى يهيء لفرنسا أسباب التدخل فى شؤون هذه المقاطعات كما تشغل من الوجهة العسكرية الجيش التركى ، أما من الوجهة الأدبية فإنها تعود للجانب الأكبر من رعاياها المسلمين إلى اعتبار الترك كمعتدين على الأماكن المقدسة فيزداد تعلقهم بفرنسا لأنها تكافح الترك وحلفاؤهم وتزيدهم إخلاصاً لها . بناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة وصبغها بصبغة إسلامية » .

وثيقة رقم ٢٢ : لورنس (أعمدة الحكم السبعة)

إننى أكثر ما أكون فخراً إن الدم الانجليزى لم يسفك فى المعارك الثلاثين التى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوى فى نظرى موت انجليزى واحد . لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الثمن فى الشرق ولاعتقادى أننا كسبنا الحرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار . وليست الجيوش البريطانية الزاحفة على فلسطين وسوريا والعراق إلا طليعة الغزو الأوربى لطريق البترول .

وثيقة رقم ٢٣ : انتهت الحروب الصليبية (عن كتاب ديدل المطبوع سنة ١٩٣٧)

وصف لويد جورج فتوح فلسطين بأنها الحرب الصليبية الأخيرة ، وقال اللورد اللبنى فى خطبة سياسية فى لولاپارك بمصر الجديدة عام ١٩٢٢ : أن فتوح بيت المقدس تعد حرباً صليبية أخرى . ووصف ديدل لورنس بأنه محارب صليبي Grusader

وثيقة رقم ٢٤ : قال القاضى أومسترونج فى كتابه الخونة الصادر سنة ١٩٤٧

إن فكرة قيام عصبة الأمم والأمم المتحدة وتتبعها امبراطورية صهيونية عالمية قد طرحت بهذا الترتيب الزمنى على بساط البحث فى المؤتمر الصهيونى فى باذل عام ١٨٩٧ . لقد أعلن الصهيونيون المجتمعون فى هذا المؤتمر ، أن هدفهم يرمى إلى إخضاع الشعوب المسيحية فى العالم وتأسيس امبراطورية صهيونية يرأسها ملك يكون إمبراطوراً على العالم كله .

وثيقة رقم ٢٥: معاهدة لتران

عقـــدت بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية يوم ١٠ فبراير ١٩٢٩ معاهدة لتران التى تقرر بمقتضاها أن تدفع الحكومة الإيطالية ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوق الفاتيكان المالية التى توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة فى المائة لقرض إسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية . وصرح الكردينال جسبارى كبير البطارقة أن الفاتيكان تعتزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال فى تقوية نفوذ الكنيسة المعنوى وبث الدعوة الكاثوليكية وتقوية البعثات التبشيرية فى المشرق وأفريقيا .

وثيقة رقم ٢٦ : تقرير الدكتور زويمر لمؤتمر التبشيرى عام ١٩٢٧

« إن هدم الإسلام فى نفوس المسلمين له أهمية كبرى فى شىء واحد هو قبول الفكر الغربى كصديق دولى وأن أول مايجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات ، وأن الغرض من التبشير هو قتل الإسلام واستعباد المسلمين وإن الغاية التى نرمى إليها هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون أما ملحداً أو مضطرباً فى دينه وعندها لا يكون مسلماً أى لا تكون له عقيدة يدين بها ويجب أن يكون التبشير بواسطة رسول من صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.

وثيقة رقم ٢٧ : الدونمة والاتحاديين

يقول كارل بروكلمان فى كتابة الإسلام فى القرن التاسع عشر :

تلقى المتآمرون الذين دعوا أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقى) مساعدة مالية من (الدونمة) وهم يهود سالونيك الداخلون فى الإسلام والذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية فى تلك المدينة .

وثيقة رقم ٢٨ : مؤامرة الحلفاء بالعرب

يقول الأمير شكيب أرسلان :

لو كنت أعلم أن هذا الحلم سيتحقق لما سبقنى فى هذه الحلقة سابق وكنت أول من يدعو إلى الإنفصال عن الترك ، لأن الأمة العربية يجب أن تكون متبوعة لاتابعة وكنت أعتقد أن الحلفاء سيغدرون بالعرب ويتقاسمون بلادهم بعد انفصالهم عن الترك وبعض العرب سن الندم على أنهم

بانكلترا ، فأنا أختار أهون الشرين وارى خطر الترك على العرب أخف بما لا يقدر من خطر الأفرنج . كنت أعرف أن هناك مؤامرة فصل العرب عن الترك والانقضاض على بلادهم ثانياً لتقسيمها مستعمرات للحلفاء ووطناً قومياً لليهود .

وثيقة رقم ٢٩ : أخطاء التاريخ

يقول هاملتون جب وهارون بودن : فى مقدمة كتاب المجتمع الاسلامى والغرب : أن كثيراً من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر فى القرن الثامن عشر آراء خاطئة ، آراء كنا نحن أيضاً نأخذ بها عندما أقدمنا على كتابة هذا البحث ، لذا نرى أن واجبنا الأول هو عرض الوثائق والمعطيات التى جعلتنا نبدل رأينا فى هذا الأمر تبديلا تاماً .

وثيقة رقم ٣٠ : الدولة العثمانيه

يقول برنارد لويس فى بحثه : الإسلام فى تركيا : كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تكرس قواها فى سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أى اعتداء خارجى ، وكانت الامبراطورية العثمانية فى نظر الرجل العثمانى التركى بمثابة الإسلام ذاته ، وكانت الشعوب التى تتألف منها الامبراطورية العثمانية تعتبر ذاتها أولا وأخيراً شعوبا اسلامية ، وكانت لفظة « عثمانية » تعنى اسم السلالة المالكة ولم تصطبغ لفظة « عثمانية » بصبغة ذات مدلول قومى إلا فى القرن التاسع عشر . وذلك تحت تأثير الفكرة الليبرالية الأوربية .

وثيقة رقم ٣١ : تقرير هنرى مورجنيو السفير الأمريكى

إن أعضاء تركيا الفتاة لم يكونوا دولة بالمعنى الصحيح بل كانوا حزباً غير مسئول أو نوعا من الجمعيات السرية التى تسلمت الوظائف الحكومية العامة عن طريق الدسائس والترويع والاغتيال .

وثيقة رقم٣٢: تركيا الفتاة

يقول برنارد لويس : إن سجل السنوات العشر من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ يبدوا لأول وهلة سجلا قاتما ، إنهم بالرغم من التجارب الذين قاموا بها ، قد انتهت بهم إلى الدكتاتورية وإنهم يلامون على أمور عديدة قاموا بها .

وثيقة رقم ٣٣ : يقول أنتونى ناتنج (مجلة الغرب) لندن ١٩٦٤

منذ أن جمع محمد أنصاره الأولين فى مطلع القرن السابع وبدأ أول خطوات الانتشار العربى أصبح على العالم الغربى أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض. إن قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربى على مدى ألف وثلاثمائة سنة فى نهضته وانهياره .

وثيقة رقم ٣٤ : مصطفى كمال أتاتورك

يقول اليهودى إيلى ليفى أبو عسل فى كتابه يقظة العالم اليهودى (١٩٣٤) : أظهر مصطفى كمال سعة الصدر نحو البعض من اليهود الذين نبذتهم ألمانيا وفتح لهم باب تركيا على مصاريعها واستعان بهم فى تنظيم الجامعة التركية على أحدث الأساليب العلمية العصرية ، هذا القدر من المكارم التى أبداها نحو اليهود كان غريزيا فى نفس مصطفى كمال .

وثيقة رقم ٣٥ : العرب وتجربة الترك

يقول المستشرق : هاملتون جب : إن العرب إذا اتبعوا الأتراك فى منهجهم اللادينى حطموا أنفسهم بأيديهم ، لأن ذلك ما ينطوى عليه من إضعاف رابطة الإسلام بينهم أو وضعه فى وضع ثانوى سيؤدى بالطبع وبالضرورة إلى إحياء العصبيات الجاهلية بهم ويفتح الباب للعنصرية الوطنية المحلية ويحلها محل القومية العربية الشاملة التى وضع أساسها بتوحيد شعوبها فى ظل إخائه وشريعته ولغة قرآنه.

وثيقة رقم ٣٦ : التبشير والعراق

« من الشروط التى اشترطت على العراق لكى تلتحق بعصبة الأمم عام ١٩٣٠ أن تكفل حماية البعثات التبشيرية فى الشرق .

وثيقة رقم ٣٧ : لبنان والصليبيين

يقول الدكتور نبيه أمين فارس فى كتابه « العرب الأحياء » : « .. حتى إذا أطلت طلائع الصليبيين على لبنان أمكن أن يمدوهم بثلاثين ألف نبال أجمع الفرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم فالمارونية بلت لبنان ولبنان فى الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونيين » .

وثيقة رقم ٣٨ : البعثات التبشيرية

من كتاب المستر ما كاب أصدرته شركة هالدمان ويوليوس للنشر فى ولاية تكساس الأمريكية سنة ١٩٣٢ . « إن جمعيات التبشير البروتستانتية فى الولايات المتحدة وبريطانيا تجمع من التبرعات خمسون مليون ريال فى العام للدعوة المباشرة أو غير المباشرة إلى التبشير ، فإذا أضيف إلى ذلك ما يجمع من ألمانيا وهولندا وغيرها فإن البعثات التبشيرية تحصل مائة مليون ريال . يقول : إن هذا ما ينفق سنويا منـــذ عشرين سنة على التبشير فـكأن هذا العمل قد كلف الدول الغربية فى هذه الفترة الأخيرة ألفى مليون ريال أو أربعة مليون جنيه . هذا فى عشرين سنة وبغير نظر إلى ما أنفق منذ القرن السابع عشر . وإذا كانت الهيئات الدينية المنظمة قد كسبت عدداً من الوثنيين فى القرن الماضى فإن الانتشار العظيم الذى فاز به الإسلام لم يكن إلا بالإقناع لا بالهدايا والمنح فالإسلام يفشو فى أفريقيا ويغلب كل تبشير .

ثم قال : إن الحماسة فى سبيل التبشير ليس لهـا سند للنطاق لأنها صناعة متـكلفة وقد قال السير لوجارد فى كتابه (إفريقيا الاستوائية الإنجليزية) إن الإفريقى الذى يعلمه المبشرون لا يعدل عليه وقال مستر ما كاب إن إن التبشير كان فى كل حال يريد الاستعمار ودعوته ورسوله وإن المبشرين بذروا التباغض بين الشعوب » .

وثيقة رقم ٣٩ : خطاب المحفل الماسونى الأمريكى (١٩٦٨)

إلى مجلس عمر الأمناء : مدينة القدس : إنى ورفيق أودى مورنى عضوان فى المحفل الماسونى الذى يحمل شعار (الماسونيون القدماء) الأحرار ، المرضيون ، وأنتم تدركون أن هيـكل سليمان كان المحفل الماسونى الأصلى وأن الملك سليمان كان رئيس المحفل ، وقد دمر ذلك الهيكل سنة ٧٠م . إننى أعلم أن مسجدكم هو المائل الحقيقى الشرعى لذلك الهيـكل وإن مسجدكم هذا واقع على هذا الملك هو والصخرة التى قدم عليها أبونا إبراهيم ولده إسحق قرباناً لله . وإننى أعلم أنـكم معشر العرب أبناء إسماعيل قد قمتم بحماية تلك الصخرة عبر القرون فلنتقدم بشكرنا لله على هذا . إننى كمسيحى وعضو فى النظام الماسونى أترأس جماعة فى أمريكا تطمح أن ترى هيكل سليمان وقد أعيد بناؤه وإذا سمح مسجد عمر لمنظمتى بالقيام بذلك المشروع فإننا سنقوم بجمع مائة مليون دولار لذلك الغرض أو أى مبلغ من المال لإعادة بناء الهيكل . إن مسجدكم لن يفقد الإشراف على الهيكل . وعندما يكتمل الهيكل سينذر لله وللملك سليمان وللنظام الماسونى ويعطى لـكم مجاناً . وبالإضافة إلى ذلك

وبسماح من هيأتكم سيمنح كل أخ ماسونى يساهم فى إعادة بناء هيكل سليمان عضوية فى محفل الملك سليمان الماسونى رقم (١) فى مدينة القدس وكل ماسونى العالم يحبون أن يكونوا أعضاء فى محفل الملك سليمان الماسونى ... الخ . (جريدى ترى)

وثيقة رقم ٤٠ : خطاب السلطان عبد الحميد إلى أبى الشامات

كشفت الوثيقة التى أعلنت عام ١٩٧٢ عن حلقة مفقودة فى حياة السلطان عبد الحميد ، وذلك عن موقفه من محاولة الصهيونية العالمية فى نزعه عن ملكه وما جاء بعد ذلك من أحداث . كتب هذه الرسالة السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٩ ﻫ وأرسلها إلى الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية بدمشق . قال : إنى لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم — اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة . إن هؤلاء الاتحاديون قد أصروا وأصروا على بأن أن أصادق على تأسيس وطـــن قومى لليهود فى الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهبا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القطعى الآتى :

« إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا — فضلا عن (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم على وجه قطعى ، ولقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعى أيضا » . وبعد جوابى القطعى إتفقوا على خلعى ، وأبلغونى أنهم سيبعدوننى إلى (سلانيك) فقبلت بهذا التكليف الأخير . هذا وحمدت المولى وأحمده إنى لم أقبل أن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامى بهذا العار الأبدى الناشىء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية فى الأراضى المقدسة : فلسطين وقد كان بعد ما كان ، ولهذا فإنى أكرر الحمـــد والثناء على الله المتعال واعتقد أن ما عرضته كاف فى هذا الموضوع الهام وبه أختم رسالتى هذه . يا أستاذى المعظم : لقد أطلت عليكم التحية ، ولقد دفعنى لهذه الإطالة أن تحيط سماحتك علما وتحيط جماعتكم بذلك علما أيضا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

فى ٢٢ أيلول ١٣٢٩ خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

نشرت هـذه الرسالة عام ١٩٧٢ ولكن الأحاديث التي كشفت عن حقيقة موقف السلطان عبد الحميد كانت قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل . وقد ارتبط موقفه بدراسات قضية فلسطين وموقف الصهيونية العالمية وجاءت مذكرات هرتزل لتكشف عن محاولات اللقاء والتفاهم التي قام بها هرتزل منذ عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٢ والتي تحقق فشل جدواها وأرسل إليه السلطان الرسالة المشهورة التي نشرها هرتزل في مذكراته فكانت شهادة العدو ، ثم تبين بعد ذلك مما حصل عليه الأساتذة : طه الولي وسعيد الأفغاني من وثائق ومذكرات وذكريات سلامة هذا الاتجاه ، وكأنما آن الأوان لتصحيح موقف هذا الرجل الكريم وفي الملتقى الإسلامي في الجزائر وعلى مدى ثلاث سنوات متوالية لم يتوقف البحث في هذا الأمر وكانت أغلب الدراسات تحمل لواء الإنصاف لهذا الرجل (سنوات ١٩٧٣/١٩٧٤/١٩٧٥) كما وقع ذلك على منبر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٩٧٤ . يقول الأستاذ سعيد الأفغاني : (وشهادته هامة لموقف الشام من الدولة العثمانية خلال حكم الاتحاديين :

درس معلمونا في حداثتهم السوء الكثير عن ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني ولقنونا له تاريخاً أسود حافلا بالإرهاب ونحن صغار كما لقنوهم أيام الاتحاديين آخر العهد التركي ونشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن : هذا التاريخ عند جمهرة جيلنا من المسلمات التي لا يعتريها ارتياب ، ثم انجلت الأيام لذوي البصائر عن خلافه ، فتبين للناس أن حزب الاتحاد التركي الذي قام ضباطه بالقوات المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقه ، وتبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقيين كانوا من يهود سلانيك وأنهم افتروا تاريخا يوافق نزعاتهم وما يشتهون فرضوه فرضا على الناشئة في المدارس . تاريخا كله من صنع أيديهم توصلا إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والعدالة والإخاء والمساواة ، وتلك كانت شعاراتهم يومئذ فتبعهم المتحمسون من الشبيبة أفراداً وجماعات ، ولكن الغرض الحقيقي لم يكن يعرفه إلا قليل جداً من هذا الحزب اتضح بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل في انكشافه للنكبة الكبرى : نكبة فلسطين .

وأشار الأستاذ سعيد الأفغاني : إلى قدرة اليهود على افتراء التاريخ بذكائهم وحديدهم ونارهم يوم كانوا يسيرون الحزب الحاكم في تركيا وإنهم كانوا من الدهاء والكيد والمقدرة على تسميم الأفكار كما يشاؤون .

ويذكر الأستاذ سعيد الأفغانى : إنه لما خلع السلطان ووضع فى قصر فى سلانيك كان من الحراس الذين أقيموا عليه أحد تلاميذ الشيخ أبى الشامات وعن طريقة تم المواصلة السرية الكتابية بين الشيخ والسلطان المخلوع ، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التى أرسلها السلطان إلى الشيخ وفيها البيان الصريح عن سر خلعه كشفه لشيخه . احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سراً مكتوماطوال حكم الأتحاديين حتى إذا زال الحكم التركى عن سورية اطلع عليها بعض خلصائه ، ثم حافظ عليها بعدوفاته أبناؤهم من بعده إذ كانت من أنفس التحف التى يحرص عليها الحريصون لا يطلعون عليها إلا الثقات من أهل ودهم ، حتى إذا قدم العهد وظهر عليها آثار الأيام ضنوا بها على الجميع وقد سعى بعض وجهاء دمشق من أبناء الشيخ حتى أقنعهم باطلاعى عليها إذ لا يجوز كتمان أمرها الآن حتى لا يضيع الحق وحتى يصحح كثير من الباحثين والعلماء خطأ ورطتهم فيه الدعايات الباطـــلة فلبي الورثة الطلب مشكورين وإعارونيها فى مطلع هذا العام ٧٢ ريثما صورتها ورددتها لهم .أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها صديق لهم من أهل العلم بنص اللغتين العربية والفارسية هو الشيخ أحمد القاسمى .

وما أظن الوثيقة بحاجة إلى تعليق فليس بعد بيان السلطان بنفسه عما جرى له بيان ولا بعد هذه الصراحة بوقاحة اليهود وعملائهم الاتحاديين صراحة ونحن الذين نعيش عام ١٩٧٢ بعد أن رأينا تتابع الأحداث منذ وعد بلفور سنة ١٩١٧ وما لحقه صححنا كثيراً من نظراتنا السابقة إلى الحلفاء ومواعيدهم وألممنا بأثر اليهود فى الحوادث العالميه إلماما نظريا وصرنا نرتاب بل نخاف أشد الخوف كلما رفع حزب شعارات نعشقها بعد أن علمنا علم اليقين ما كان وراء شعارات (الحرية والعدالة والمساواة) التى رفعها حزب الاتحـــاد والترقى من استعباد واضطهاد وتفريق إراقة دماء وشنق ضحايا . لقد كان (الاتحاد) الذى سمى به الحزب نفسه تشتيتا للأمة الواحدة وتمييزاً بين عناصرها وإضاعة لبعض بلادها ، وكان (الترقى) انحداراً الى الهاوية حيث لفظت المملكة عندها نفسها الأخير .

(نشرت الوثيقة فى مجلة العربى « ديسمبر ١٩٧٢ »)

ا . هـ

المصادر العامة

سيرة الرسول : محمد بن اسحق
كتاب الطبقات الكبير :
سيرة رسول الله : ابن هشام
تاريخ الأمم والملوك : الطبري
تجارب الأمم : ابن مسكريه
الكامل في التاريخ : ابن الأثير
البداية والنهاية : ابن كثير
مروج الذهب : المسعودي
فتوح البلدان : البلاذري
تاريخ دول الإسلام : الذهبي
المقدمة ـ العبر والمبتدأ والخبر : ابن خلدون
السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي
نفح الطيب : المقري
العواصم بن القواصم : ابن العربي
مختصر تاريخ البشر : أبو الفداء
بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن اياس
النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي
المعجب في تلخيص المغرب : المراكشي
الاكليل : الهمداني
الأخبار الطوال : الدينوري
مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي

مراجع البحث

حاضر العالم الإسلامي : شكيب ارسلان
ماذا خسر العالم : أبو الحسن الندوي
تاريخ الجزائر : أحمد توفيق المدني
حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وأسبانيا : المدني
النكير على منكري النعمة والخلافة : مصطفى صبري
لورنس العرب على خطى هرتزل : زهدي الفاتح
بحث عن الحروب الصليبية : حسين مؤنس
مواقف حاسمة : محمد عبدالله عنان
نبه وأصالة : مولود قاسم
الاستعمار : الأمير مصطفى الشرقاوي
التوجيه السياسي للفكرة العربية : محمد رفعت
العرب والترك : توفيق برو
الخطر المحدق بالاسلام : جواد رفعت
خاطرات جمال الدين : محمد المخزومي
الماسونية في العراء : الدكتور الزغبي
مؤامرة اليهود على المسيحية : إميل الخوري حرب
نشوء القومية العربية : زين الدين نور الدين
فلسفة التاريخ العثماني (ج ٢) : محمد جميل زينهم
لبنان في التاريخ : فيليب حتي
الإدارة العثمانية في ولاية سوريا : عبدالعزيز محمد عوض
يقظة العرب : جورج أنطونيوس
خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية : عبدالله التل
البروتوكولات : عجاج نويهض
بروتوكولات صهيون : محمد خليفة التونسي
تاريخ الماسونية العام : جورجي زيدان
الفكرة العربية : أنيس صايغ

مذكرات محمد كرد على ج ١

لحضارة العربية : ناجى معروف

عصور الوسطى الأوربية : دكتور عبد القادر أحمد اليوسف

نظم السياسية الحديثة : أحمد سويلم العمرى

هذا العالم العربى : أمين فارس

الصحف والمجلات

مجلة البيان ١٩٦٩

مجلة المقتطف : م ١٤

مجلة المنار : م ١٠ ، م ١٤ ، م ١٧

مجلة الهلال : م ١٧

مجلة دعوة الحق : ١٩٥٩ / ١٩٦٣

مجلة الرابطة العربية : أبريل ١٩٣٨

مجلة المشرق م ١٣ ، م ١٤ ، م ١٥

مجلة الفتح م ١٧

مجلة الأبحاث م ١٩٥٨

جريدة الأخبار (٦ مارس ١٩٢٤)

عبد العزيز جاويش

المراجع الأجنبية

الصهيونية والشيوعية : فرنك لى بريتون

لويس السادس وماري انطوانيت : فستاو بستر

تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ : ارنست ر . افردر

العالم والغرب : أرنولد توينبي

الإسلام قوة الغد العالمية : بول شمتز

تاريخ الإسلام الكبير : الكونت كاتيانى

دراسة فى التاريخ : ارنولد توينبى

سقوط الامبراطورية الرومانية : جيبون

قصة الحضارة : ول ديورانت

تراث العصور الوسطى : كويب ـ جاكوب

محمد وشارلمان : هنرى بيرين

موجز تاريخ الشرق الأوسط : كيرك

الاسلا فى الغرب : جان بول ريو

مائة مشروع ليقسم تركيا : دجوفارا

المجتمع الاسلامى والعرب : هاملتون جب

مقدمات العلوم والمناهج

« موسوعة إسلامية جامعة » تهدف إلى إرساء منهج إسلامى جامع للفكر الإسلامى تضم عشرة مجلدات فى عشر موضوعات كبرى يستقل كل منها بمجلد خاص وتتكامل فى مجموعها العام بحيث تستوعب مختلف القضايا الإسلامية استيعابا كاملا .

المجلد الأول : الفكر الإسلامى (صدر)

تناول بالبحث الجذور الأساسية للفكر الإسلامى التى بناها القرآن الكريم والسنة المطهرة ما واجه الفكر الاسلامى من محاولات الغزو الثقافى والتغريب وكيف انبعثت حركة اليقظة الإسلامية فى العصر الحديث فى مقاومة ضخمة للتبشير والاستشراق .

المجلد الثانى : تاريخ الإسلام منذ فجره إلى اليوم (هذا المجلد)

المجلد الثالث : العالم الإسلامى المعاصر

المجلد الرابع : اللغة والأدب والثقافة

المجلد الخامس : التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة

المجلد السادس : المجتمع الاسلامى

المجلد السابع : الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعيه

المجلد الثامن : الاسلام فى مواجهة الفلسفات والأديان

المجلد التاسع : الشبهات والأخطاء الشائعة

المجلد العاشر : حركة اليقظة الاسلامية

من المنتظر ان تصدر ملاحق للموسوعة بعد انتهائها

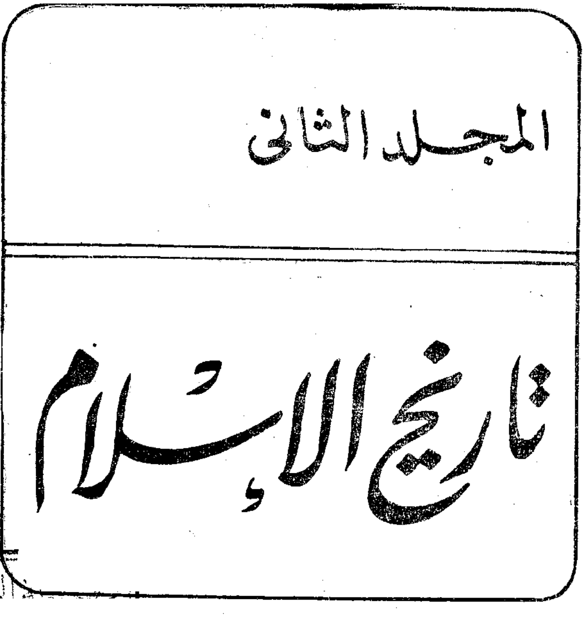
تصدر المجلدات تباعا عن دار الانصار للطبع والنشر

مطبعة التقدم

٤٤ شارع الموازدى بالمنيرة - القاهرة

تليفون ٦٦٠٢١٢

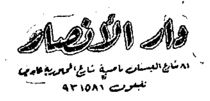
رقم الايداع ٣٩١٤ — ٧٩



* من فجر الإسلام إلى العصر الحديث .
* عالم الإسلام وعالم الغرب .
* من الوحدة الإسلامية العثمانية : إلى الترك والعرب

يقدم هذا المجلد دراسة مستوعبة كاملة لتاريخ الإسلام : منذ طلوع فجره وبزوغ نجمه إلى اليوم مروراً بمراحله المختلفة وأحداثه الكبرى وتوسعاته فى قارات آسيا وأوربا وأفريقيا ، كاشف عن أكبر أحداثه فى مواجهة الحملات الصليبية والمغولية والغزو الفرنجى على جبهات الأندلس والمغرب والشام وبيت المقدس ومصر وعلاقة الإسلام بعالم الغرب من خلال الاستعمار الغربى والصهيونية والشيوعية كاشفاً عن علاقات الترك والعرب من خلال دولة الخلافة العثمانية والعروبة والإسلام ومحاولات القوميات الضيقة والاقليميات والوحدة الاسلامية والتضامن وبزوغ عصر اليقظة انطلاقا إلى عصر النهضة على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى .

أنور الجندى



آفاق للبحث

الرسالة الثالثة